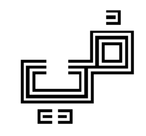
تهذيب النجوم الزاهرة



ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي

(813 - 874 هـ)

اختصار

دكتور / رجب محمود إبراهيم بخيت

بطاقة الفهرسة

اسم الكتاب:	تهذيب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
تأليف	جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي
قام بالتهذيب:	دكتور/ رجب محمود إبراهيم بخيت
الطبعة:	ط أول / 1430هـ - 2009 م
الناشر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	

حقوق النشر محفوظة - مكتبة الإيمان

مكتبة الإيمان - المنصورة

أمام جامعة الأزهر ت : 050/2257882

حقوق النشر محفوظة - مكتبة جزيرة الورد

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر

ت : 0122108493 / 025114371

حقوق النشر محفوظة - مكتبة جزيرة الورد

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع 26 يوليو من ميدان الأوبرا

0129961635 / 0100104115 /02/27877574

0100004046

المقدمة

الحمد لله، و سلام على عباده الذين اصطفى، حمدا إذا قابل النعم وفى، وسلاما إذا بلغ المصطفين شفى، و خص الله بخاصة ذلك نبينا المصطفى، و من احتذى حذوه من أصحابه وأتباعه واقتفى، وفقنا لسلوك طريقهم..

قد ظهر لي من خلال عملي حاجة الناس إلى اختصار مبسط لكتب التاريخ الإسلامي ذات الحجم والقطع الكبير، والتي تمتد فتراتها التاريخية إلي حقب زمنية طويلة، يجمع بين الحقيقة التاريخية البسيطة في ثوب مختصر وبين أصالة الحدث التاريخي، يكون في متناول الكل، يتميز بخلوه من التكرار أو الإسهاب، مع الحفاظ على طبيعة الحقيقة التاريخية، وذلك لأن الوقت في هذا العصر أصبح قليلاً جدًّا بسبب تزاحم المعلومات في كل العلوم، كما أن إيقاع الحياة السريع يجعل من الصعب علي غير المتخصص أن يستمتع بقراءة كتب حولية متعددة الأجزاء، تحتاج قراءتها إلى فترات زمنية ووقتية لا يمكن لعاقل غير متخصص أن يفرط فيها بسهولة، فرأيت من المناسب عمل مختصر يلبي حاجة من أراد الاطلاع على كتاب أصيل عن تاريخ مصر. يغطي جزءًا كبيرًا من فتراتها التاريخية يتميز بالأصالة التاريخية و معاصرة الحدث التاريخي.

ولما كان كتاب " **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** " لأبي المحاسن بن تغري بردي يجمع بين الأصالة التاريخية ومعاصرة الحدث التاريخي مع وضوح العبارة، وجمعه لكثير من المعلومات التاريخية التي أوردها المؤرخون السابقون له أو المعاصرون له، بأسلوب سهل مقتضب بعيدًا عن الألغاز والتعمية مع ما يتميز به من الالتزام بتوثيق الحقيقة التاريخية أو نقلها من مصدر موثوق منه ومتعارف عليه لدى المؤرخين المعاصرين، وما خص به من ثناء العلماء والأئمة، وما حظي به من القبول لدى الأمة.

ما يجده القارئ في هذا المختصر هو كله من كلام أبي المحاسن بن تغري بردي فقد التزمت بنصه التزامًا تامًّا ولم أتصرف فيه بالزيادة إلا ما استدعى السياق إضافته لربط كلام أبي المحاسن ابن تغري بردي بعضه ببعض كواو العطف ونحوها، ليبقى الكتاب الأم " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " بأسلوبه السهل الميسر وجماله الناصع مع تمام الترابط والانسجام.

وما عملته في الاختصار لا يخرج في الغالب عن أحد الأمور التالية:

1- استبعاد ما لا ضرورة له مما أورده أبو المحاسن من وفيات أو أحداث قد لا يحتاج لها القارئ غير المتخصص أو تلك التي يشكل علي القارئ العادي فهمها وتركت

لمن أراد الاستزادة الرجوع إلى الأصل المختصر.

2- إذا تعددت الروايات التاريخية التي يوردها المؤلف لحادثة تاريخية واحدة، اقتصرت على ذكر واحدة فقط منها، لا سيما وإن كانت تؤدي الهدف منها دون الحاجة إلى غيرها.

3- جرى تخريج الأحاديث الشريفة والتعريف ببعض المصطلحات والكلمات المبهمة والغير واضحة التي وردت في المختصر في بداية العمل في هذا المختصر ولكن وجدت أن هذه الإضافة سوف تخرج المختصر من حجمه المستهدف وهو مجلد واحد ولهذا اضطررت ـ آسفا ـ عدم سلوك هذا الدرب.

4- الإبقاء ما أمكن على الآراء التي استشهد بها المؤلف ودلل في ترجمته لملوك أو سلاطين أو ولاة مصر.

5- تجريد المختصر مما ورد به من أمر زيادة النيل أو انخفاضه على أساس أنه لا يهتم بهذا الأمر كثيرا سوى المتخصصين فقط.

6- جرى الاكتفاء بالأحداث التاريخية الهامة التي وقعت في مصر أو كان لمصر علاقة بها من قريب أو بعيد أو كان لمتوليها دور في صياغتها، لا سيما العلاقة مع الصليبيين سواء في المشرق أو الغرب الأوروبي، والعلاقة مع التتار انتصارا واندحارا ومعاهدة ومراسلة، مع الإعراض عن بقية الأحداث التي صاغها المؤلف، حيث أن أصل الكتاب كان بمثابة حولية تم فيها تدوين جميع الأحداث التاريخية في العالم، وليس مصر فقط.

7- جرى حذف بعض التراجم والوفيات التي تخص بعض الشخصيات السياسية أو العسكرية أو العلمية، مع الالتزام بذكر جميع تراجم ولاة وسلاطين وملوك مصر.

أسأل الله التواب الغفور أن يغفر لنا ويرحمنا ونشهده أنا نحبه ونحب نبيه والأنبياء والمؤمنين ونبغض الكافرين..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

رجب محمود إبراهيم بخيت

* * *

نبذة عن المؤلف وأهم مؤلفاته

يوسف بن تغري بردي [1] بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين البشقاوى القاهرى: مؤرخ بحاثة. من أهل القاهرة، مولدا ووفاة. كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين، نائب الشام يعرف بابن تغرى بردى الأديب المؤرخ ولد سنة 813 هـ، وتوفى سنة 874 هـ أربع وسبعين وثمانمائة، ولد بالقاهرة ورباه زوج أخته قاضي القضاة ناصر الدين ابن العديم الحنفي. تفقه بشمس الدين محمد الرومي وبالعيني وغيرهما.

وأخذ النحو عن الشمنى ولازمه كثيرا. وأخذ البديع والأدبيات عن الشهاب بن عربشاه وحضر إلى ابن حجر العسقلاني وانتفع به. ثم حبب إليه علم التاريخ.

فلازم مؤرخي عصره مثل العيني والمقريزي واجتهد في ذلك إلى الغاية وساعدته جودة ذهنه وحسن تصوره وصحة فهمه. ومهر وكتب وصنف وانتهت إليه رئاسة هذا الشأن في عصره، وتأدب وتفقه وقرأ الحديث وأولع بالتاريخ وبرع في فنون الفروسية وامتاز في علم النغم والإيقاع [2].

من مؤلفاته:

1 - حلية الصفات في الأسماء والصناعات في الأدب. جمع فيه أشعارًا على ترتيب الحروف فكتب ما يتعلق بطول الليل في حرف الطاء مثلا.

2 - حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ذيلا على تاريخ المقريزى المسمى بالسلوك. ويعتبر ذيلاً على كتاب " السلوك للمقريزي " حيث يقول أبو المحاسن بن تغري بردي في أوله: (الحمد لله مدبر الدهور ومدول الأيام والشهور.. إلخ).

ثم قال: لما كان شيخنا المقريزي أتقن من حرر تاريخ الزمان وأجل تحفة اخترعها: (كتاب السلوك) قد انتهى فيه إلى: أواخر سنة 844، أربع وأربعين وثمانمائة وهي التي توفي فيها.

ولم يأت بعده من يعول عليه في هذا الفن إلا الشيخ بدر الدين محمود العيني فنظرت فيما علقه في تلك الأيام فإذا به كثير الغلطات والأوهام لكبر سنه واختلاط ذهنه بحيث أنه لا يمكن الاستفادة منه إلا بعد تعب لاختلاف الضبط وعدم التحرير فأحببت: أن

---

(1) تغري بردي: كلمة تترية، بمعنى " عطاء الله " أو " الله أعطى " كان يكتبها الأتراك " تكري ويردي " ويلفظون الكاف نونا، والواو أقرب إلى ال v بحركة بين الفتح والكسر.

(2) الزركلي، الأعلام، 8 / 222 - 223، هدية العارفين في أسماء المؤلفين ط إحياء التراث، 4 / 112، معجم المطبوعات، 1 / 52.

أكتب تاريخا يعقب موت الشيخ وجعلته: كالذيل على (السلوك) وسميته (حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور).

لكن لم أسلك فيه: طريق الشيخ في تطويل الحوادث في السنة وقصر التراجم في الوفيات بل أوسعت في التراجم لتكثير الفائدة فيه من الطرفين وما وجدته مختصرا من التراجم فراجع إلى: (المنهل الصافي) فإني هناك شفيت الغلة.

3 - الدليل الشافي على المنهل الصافى في تراجم الاعيان. في مجلد صغير، وهو اختصار لكتاب المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي وسماه: (الدليل الشافي على المنهل الصافي) و أوله: (الحمد لله الذي لا يستدل عليه إلا به.. الخ) قال: جعلته لتاريخنا المسمى: (بالمنهل الصافي) كالديباجة ورتبته على: ترتيبه من: أوله إلى آخره.. واختصرت فيه التراجم جدا ليكون الناظر في ذلك على بصيرة.

4 - السكر الفاضح والعطر الفائح.

5 - الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة.

6 - المنهل الصافى في تراجم الأعيان على الحروف.

7 - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى في التاريخ والتراجم.

8 - مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة في التاريخ. اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين من غير مزيد، واستفتح: بذكر مولد سيدنا محمد - عليه الصلاة والسلام - ووفاته، ثم ابتدأ من: الخلفاء الراشدين إلى خليفة وقته: القائم بأمر الله - تعالى - حمزة، ثم ذكر: العبيديين ثم ذكر ملوك مصر من أول الدولة الأيوبية إلى الدولة الجركسية.

9 - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. أوله: (الحمد لله الذي أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام.. الخ) استفتحه: بفتح مصر ومن حضرها من الصحابة ثم من وليها وما وقع في زمانه ومن توفي من الأعيان بدأ فيه بولاية عمرو بن العاص إلى الدولة الأشرفية الأينالية وهذا تاريخ كبير مرتب على السنين ابتدأ فيه من الفتح العمري إلى زمانه وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة ذكرا مبسوطا أصالة وذكر ملوك الأطراف والوقائع إجمالا ضمنا وذكر من توفي من الأعيان والعلماء والملوك وأشار إلى زيادة النيل ونقصانه بعبارة مبسوطة ولما فتح السلطان سليم الديار المصرية وجد ذلك التاريخ واستحسنه فأمر المولى شمس الدين حمد بن سليمان بن كمال باشا المتوفى سنة 940 أن يترجمه إلى التركية وهو يومئذ قاض بعسكر أناطولي فنقل في كل منزل جزءا وبيضه المولى حسن المعروف بأشجي زاده ثم عرضه على السلطان في الطريق فأعجبه وأمر بنقله هكذا فعل إلى تمامه ولخص

المصنف كتابه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) وهو مجلد أوله (الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة.. إلخ) ذكر أنه اختصره حذرا من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى في ذلك بجماعة من العلماء: كالذهبي والمقريزي فإن الذهبي:

اختصر (تاريخ الإسلام): (بسير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء): (بالعبر) ثم اختصر (العبر): (بالإشارة إلى وفيات الأعيان).

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات في بلدان مختلفة منها.

طبعة دار الكتب المصرية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

وطبعة دار الكتب العلمية ببيروت، 1413هـ.

وطبعة دار الكتب المصرية، 1935م

وطبعة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.

وغيرها الكثير من الطبعات.

10 - نزهة الرأى في التاريخ، هو تاريخ مفصل على السنين والشهور والأيام [1].

11 - سكب الأدب شرح لامية العرب [2].

أما كتاب " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " موضوع الاختصار فيعد أشهر تآليف ابن تغري بردي الجليلة الممتعة، ومن أكبر الموسوعات الأدبية والتاريخية. أرخ فيه لمصر، منذ الفتح الإسلامي سنة 20هـ إلى خلال سنة 872هـ. قال في مقدمته: (لما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين، أحببت أن أجعل تاريخاً لملوكها.. وأستطرد فيه إلى ذكر ما بني فيها من المباني الزاهرة، كالميادين والجوامع، ومقياس النيل، وعمارة القاهرة، أولاً بأول، أذكره في يوم مبناه وفي زمن سلطانه، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشانه).

وقد كان للمستشرقين عناية كبيرة بهذا الكتاب، فترجموه إلى معظم اللغات الأوروبية، ويذكر أن السلطان سليم لما فتح مصر حمل إليه هذا الكتاب، فنظر فيه وأمر بترجمته إلى التركية، ذلك لأنه تأليف ابن والي بلاد الشام (تغري بردي)، فقام بمهمة الترجمة كبير علماء عصره (ابن الكمال). وكان أول من نشر منه قسماً في أوروبا: المستشرق الهولندي (يونبل) في ليدن، بين سنتي (1851و 1855م) حيث نشر منه مجلدين، يشتملان على الأحداث، من سنة (20هـ حتى 365هـ) مع مقدمة

(1) هدية العارفين في أسماء المؤلفين ط إحياء التراث، 4 / 113.
(2) كشف الظنون، 2 / 1942.

وملاحظات باللغة اللاتينية. ثم قام المستشرق الأمريكي (وليم بوبر) بنشر عشرة مجلدات منه، تبدأ من حيث انتهى (يونبل) وتنتهي بآخر الكتاب، غير أنها تنقصها الأحداث: من سنة 565هـ حتى سنة 800هـ، وطبع عمله بجامعة كاليفورنيا، من سنة (1909 حتى 1929م). وطبع الكتاب كاملاً في القاهرة سنة 1963م في ثمانية مجلدات ضخمة. قال حاجي خليفة: (واختصره بنفسه وسماه (الكواكب الباهرة من النجوم الزاهرة) في مجلد واحد، واحتذى في ذلك بجماعة من العلماء كالمقريزي والذهبي، فإن الذهبي اختصر (تاريخ الإسلام) في (سير النبلاء) ثم اختصر (سير النبلاء) في (العبر) ثم اختصر العبر في (الإشارة إلى وفيات الأعيان)..). للكتاب نسخ نادرة في بعض مكتبات العالم، أهمها: نسخة مكتبة أياصوفيا بتركيا، في سبعة مجلدات، ينقصها المجلد الثاني.

وأترك القارئ مع المؤرخ أبي المحاسن بن تغري بردي، وكتابه الشائق " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ".

* * *

ذكر فتح مصر

في سنة عشرين كتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى عمرو بن العاصي أن يسير إلى مصر، فسار وبعث عمر الزبير بن العوام مردفاً له ومعه بسر بن أرطاة وعمير ابن وهب الجمحي وخارجة بن حذافة العدوي حتى أتى بابليون، فحصنوا، فافتتحها عنوة وصالحه أهل الحصن؛ وكان الزبير أول من ارتقى سور المدينة ثم تبعه الناس، فكلم الزبير عمرًا أن يقسمها بين من افتتحها، فكتب عمرو إلى عمر بذلك، ثم رقي إلى المنبر وقال: لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد: إن شئت قتلت، وإن شئت بعت، وإن شئت خمست.

وأما فتوح مصر لابن عبد الحكم فقد قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية قام إليه عمرو بن العاصي - رضي الله عنه - فخلا به وقال: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أن أسير إلى مصر؛ وحرضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهي أكثر الأرض أموالاً أعجزها عن القتال والحرب فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عنده ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها، حتى ركن إليه عمر وعقد له على أربعة آلاف رجل كلهم من عك، ويقال: بل ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقال له عمر: سر وأنا مستخير الله في مسيرك، وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله تعالى؛ فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره.

فسار عمرو بن العاصي من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس؛ فاستخار عمر وكاتبه - يتخوف على المسلمين - بالرجوع، فأدرك الكتاب عمراً وهو برفح؛ فتخوف عمرو إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر، فلم يأخذ الكتاب من الرسول، ودافعه، وسار كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش، فسأل عنها، فقيل: إنها من أرض مصر، فدعا بالكتاب وقرأه على المسلمين؛ فقال عمرو لمن معه: ألستم تعلمون أن هده القرية من أرض مصر؟ قالوا: بلى، قال: فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر، فسيروا وامضوا على بركة الله. وقيل غير ذلك: وهو أن عمر أمره بالرجوع وخشن عليه في القول.

فلما بلغ المقوقس قدوم عمرو بن العاصي إلى مصر، توجه إلى موضع الفسطاط، فكان يجهز على عمرو الجيوش؛ وكان على القصر يعني قصر الشمع الذي بمصر القديمة رجل من الروم يقال له الأعيرج والياً عليه، وكان

تحت يد المقوقس، واسمه: جريج بن مينا.

وأقبل عمرو حتى إذا كان بالعريش، فكان أول موضع قوتل فيه الفرما: قاتلته الروم قتالاً شديدًا نحواً من شهر، ثم فتح الله على يديه؛ وكان عبد الله بن سعد على ميمنة عمرو منذ خروجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه.

ثم مضى عمرو نحو مصر؛ وكان بالإسكندرية أسقف للقبط يقال له: أبو ميامين؛ فلما بلغه قدوم عمرو إلى مصر كتب إلى قبط مصر يعلمهم أنه لا يكون للروم دولة، وأن ملكهم قد انقطع؛ وأمرهم بتلقي عمرو.

ويقال: إن القبط الذين كانوا بالفرما كانوا يومئذ لعمرو أعواناً.

ثم تقدم عمرو أيضا لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى بلبيس، فقاتل نحواً من شهر حتى فتح الله عليه.

ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين، فقاتلوا من بها قتالاً شديداً. وأبطأ عليه الفتح، فكتب إلى عمر - رضي الله عنه - يستمده، فأمده بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف مع عمرو، فوصلوا إليه إرسالاً يتبع بعضهم بعضاً؛ ثم أحاط المسلمون بالحصن، وأميره يومئذ المندقور الذي يقال له الأعيرج من قبل المقوقس: وهو ابن قرقب اليونانيّ. وكان المقوس ينزل بالإسكندرية وهو في سطان هرقل، غير أنه كان حاضراً الحصن حين حاصره المسلمون، فقاتل عمرو بن العاصي من بالحصن، وجاء رجل إلى عمرو وقال: اندب معي خيلاً حتى آتي من ورائهم عند القتال، فأخرج معه عمرو خمسمائة فارس عليهم خارجة بن حذافة، في قول، فساروا من وراء الجبل حتى وصلوا مغار بني وائل قبل الصبح؛ وكانت الروم قد خندقوا خندقاً وجعلوا له أبواباً وبثوا في أفنيتها حسك الحديد، فالتقاهم القوم حين أصبحوا، وخرج خارجة من ورائهم، فانهزموا حتى دخلوا الحصن، وقاتلهم قتالا شديدا بصبحهم وعشيهم؛ فلما أبطأ الفتح على عمرو كتب إلى عمر - رضي الله عنه - يستمده ويعلمه بذلك، فأمده بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد - في قول - وقيل: خارجة ابن حذافة الرابع، لا يعدون مسلمة. وقال عمر له: اعلم أن معك اثنى عشر ألفًا ولن تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة.

فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير: إني أهب نفسي لله تعالى، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين؛ فوضع سلماً إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمام، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيبونه جميعا؛ فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبر ومعه السيف؛ وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفاً أن ينكسر

السلم؛ وكبر الزبير تكبيرة فأجابه المسلمون من خارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعاً الحصن، فهربوا وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه واقتحم المسلمون الحصن. فلما خاف المقوقس على نفسه ومن معه سأل عمرو بن العاص الصلح ودعاه إليه على أن يفرض للعرب على القبط دينارين على كل رجل منهم، فأجابه عمرو إلى ذلك.

وكان مكثهم على القتال حتى فتح الله عليهم سبعة أشهر.

وقال غيره في الفتح وجهاً آخر. قال: لما حصر المسلمون بابليون، وكان به جماعة من الروم وأكابر القبط ورؤسائهم وعليهم المقوقس، فقاتلوهم شهراً؛ فلما رأى القوم الجد من العرب على فتحه والحرص، ورأوا من صبرهم على القتال ورغبتهم فيه، خافوا أن يظهروا عليهم، فتنحى المقوقس وجماعة من أكابر الأقباط وخرجوا من باب القصر القبلي، وتركوا به جماعة يقاتلون العرب، فلحقوا بالجزيرة موضع الصناعة اليوم وأمروا بقطع الجسر وذلك في جري النيل. ويقال: إن الأعيرج تخلف بالحصن بعد المقوقس؛ وقيل خرج معهم؛ فلما خاف فتح الحصن ركب هو وأهل القوة والشرف وكانت سفنهم ملصقة بالحصن ثم لحموا بالمقوقس بالجزيرة فأرسل المقوقس إلى عمرو: إنكم قد ولجتم في بلادنا وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم في أرضنا؛ وإنما أنتم عصبة يسيرة، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل؟ وإنما أنتم أسارى في أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم، فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه. ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لمطلبكم ورجائكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شيء.

فلما أتت عمراً رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوس فقال لأصحابه: أترون أنهم يقتلون الرسل ويستحلون ذلك في دينهم وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين.

فرد عليهم عمرو مع رسلهم:إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا. وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون. وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين. فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال: كيف رأيتموهم؟ قالوا: رأينا قوما الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة؛ ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة؛ وإنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم

كواحد منهم؛ ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد؛ وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد؛ يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم.

فقال عند ذلك المقوقس: والذي يحلف به، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها؛ وما يقوى على قتال هؤلاء أحد! ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم، وهم محصورون بهذا النيل، لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض وقووا على الخروج من موضعهم.

فرد إليهم المقوقس رسله يقول لهم: ابعثوا إلينا رسلاً منكم نعاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ما عساه يكون فيه صلاح لنا ولكم.

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت، وكان طوله عشرة أشبار؛ وأمره عمرو أن يكون متكلم القوم، وألا يجيبهم إلى شيء دعوه إليه إلا إحدى هده الثلاث الخصال، فإن أمير المؤمنين قد تقدم إلي في ذلك وأمرني ألا أقبل شيئا إلا خصلة من هده الثلاث الخصال؛ وكان عبادة أسود، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه، تقدم عبادة، فهابه المقوقس لسواده وقال: نحوا عني هذا الأسود وقدموا غيره يكلمني؛ فقالوا جميعاً: إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلماً، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا، وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله.

فقال: وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم، وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم؟ قالوا: كلا، إنه وإن كان أسودًا كما ترى فإنه من أفضلنا موضعاً، وأفضلنا سابقة وعقلاً ورأياً؛ وليس ينكر السواد فينا؛ فقال المقوقس لعبادة: تقدم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك؛ وإن اشتد كلامك علي ازددت لك هيبة؛ فتقدم إليه عبادة فقال: قد سمعت مقالتك، وإن فيمن خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سواداً مني وأفظع منظراً؛ ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني؛ وأنا قد وليت وأدبر شبابي، وإني مع ذلك بحمد الله ما أهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعاً؛ وكذلك أصحابي؛ وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدواً ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ولا حاجة للاستكثار منها، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا، وجعل ما غنمنا من ذلك حلالاً، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لا يملك إلا درهماً، لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعته ليلته ونهاره، وشملة يلتحفها؛ وإن كان أحدنا لا يملك إلا ذلك كفاه، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى، واقتصر على هذه بيده، ويبلغه ما كان في الدنيا لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاءها ليس برخاء؛ إنما النعيم والرخاء في الآخرة؛ بذلك أمرنا الله وأمرنا به نبينا وعهد إلينا ألا نكون همة أحدنا في الدنيا إلا

ما يمسك جوعته ويستر عورته، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه.

فلما سمع المقوقس ذلك منه قال لمن حوله: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل قط! لقد هبت منظره، وإن قوله لأهيب عندي من منظره؛ إن هذا وأصحابه أخرجهم الله لخراب الأرض، وما أظن ملكهم إلا سيغلب على الأرض كلها. ثم أقبل المقوقس على عبادة بن الصامت فقال: أيها الرجل الصالح، قد سمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك؛ ولعمري ما بلغتم ما بلغتم إلا بما ذكرت، وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها؛ وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة ممن لا يبالي أحدهم من لقي ولا من قاتلي؛ وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم؛ وقد أقمتم بين أظهرنا أشهراً وأنتم في ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نرق عليكم لضعفكم وقلتكم وقلة ما بأيديكم، ونحن تطيب أنفسنا أن نصالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين دينارين، ولأميركم مائة دينار ولخليفتكم ألف دينار، فتقبضونها وتنصرفون إلى بلادكم قبل أن يغشاكم ما لا قوة لكم به.

فقال عبادة: يا هذا، لا تغرن نفسك ولا أصحابك. أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمري ما هذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه؛ إن كان ما قلتم حقا فذلك، والله، أرغب ما يكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند الله إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين: إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا؛ وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا في كتابه:{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ٢٤٩] وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساء أن يرزقه الشهادة، وألا يرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا أمامنا.

وأما قولك: إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا، فنحن في أوسع السعة: لو كانت الدنيا كفها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه؛ فانظر الذي

تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك في الباطل؛ بذلك أمرني الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبله إلينا: إما إجابتكم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لا يقبل الله غيره، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته - صلوات الله عليهم - أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه؛ فإن فعل كان له ما لنا وعليه ما علينا، وكان أخانا في دين الإسلام؛ فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم؛ وإن أبيتم إلا الجزية فأوفوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون: نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم، ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم، ونقوم بذلك عنكم إذ كنتم في ذمتنا وكان لكم به عهد علينا؛ وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن أخرنا أو نصيب ما نريد منكم. هذا ديننا الذي ندين الله تعالى به، ولا يجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره؛ فانظروا لأنفسكم.

فقال المقوقس: هذا لا يكون أبداً ما تريدون إلا أن تتخذونا عبيداً ما كانت الدنيا. فقال عبادة: هو ذلك فاختر ما شئت. فقال المقوقس: أفلا تجيبونا إلى خصلة غير هده الثلاث الخصال؟ فرفع عبادة يديه وقال: لا ورب هده السماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء، ما لكم عندنا خصلة غيرها، فاختاروا لأنفسكم.

فالتفت المقوقس عند ذلك لأصحابه وقال: قد فرغ القوم فما ترون؟ فقالوا: أو يرضى أحد بهذا الذل! أما ما أرادوا من دخولنا إلى دينهم فهذا ما لا يكون أبدا، نترك دين المسيح ابن مريم وندخل في دين لا نعرفه. وأما ما أرادوا من أن يسبونا ويجعلونا عبيداً فالموت أيسر من ذلك؛ لو رضوا منا أن نضعف لهم ما أعطيناهم مراراً كان أهون علينا.

قال المقوقس لعبادة: قد أبى القوم فما ترى؟ فراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرتكم هذه! ما تمنيتم وتنصرفون. فقام عبادة وأصحابه.

فقال المقوقس لأصحابه: أطيعوني وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث؛ فوا لله مالكم بهم طاقة؛ ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين. فقالوا: وأي خصلة نجيبهم إليها؟ قال: إذا أخبركم. أما دخولكم في غير دينكم فلا آمركم به؛ وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا

عليهم ولن تصبروا صبرهم؛ ولا بد من الثالثة؛ قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟ قال: نعم، تكونون عبيداً مسلطين في بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا من آخركم وتكونوا عبيداً تباعوا وتمزقوا في البلاد مستعبدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم. قالوا: فالموت أهون علينا. وأمروا بقطع الجسر من الفسطاط، وبالجزيرة وبالقصر من جمع القبط والروم جمع كثير.

فألح المسلمون عند ذلك بالقتال على من بالقصر حتى ظفروا بهم، وأمكن الله منهم، فقتل منهم خلق كثير وأسر من أسر منهم؛ وانحازت السفن كلها إلى الجزيرة، وصار المسلمون يراقبونهم و قد أحدق بهم الماء من كل وجه لا يقدرون على أن يتقدموا نحو الصعيد ولا إلى غير ذلك من المدائن والقرى، والمقوقس يقول لأصحابه: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم! ما تنتظرون؟ فو الله لتجيبنهم إلى ما أرادوا طوعاً أو لتجيبنهم إلى ما هو أعظم من ذلك كرهاً؛ فأطيعوني من قبل أن تندموا. فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ما قال، أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه.

وذهب قوم إلى أن بعضها فتح عنوة، وبعضها فتح صلحاً؛ منهم عبد الله بن لهيعة، وابن شهاب الزهري وغيرهما.

وكان فتح مصر يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة.

* * *

ما ورد في فضل مصر من الآيات الشريفة والأحاديث النبوية

قال الكندي وغيره من المؤرخين: فمن فضائل مصر أن الله عز وجل ذكرها في كتابه العزيز في أربعة وعشرين موضعاً؛ منها ما هو بصريح اللفظ، ومنها ما د لت عليه القرائن والتفاسير.

فأما صريح اللفظ فمنه قوله تعالى:{ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} [البقرة: ٦١]، وقوله تعالى يخبر عن فرعون:{ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ } [الزخرف: ٥١]، وقوله تعالى:{ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} [يونس: ٨٧]، ومنه قوله عز وجل مخبراً عن نبيه يوسف عليه السلام:{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } [يوسف: ٩٩]، وأما ما دلت عليه القرائن فمنه قوله عز وجل:{ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ } [يونس: ٩٣]، وقوله عز وجل: "{ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [المؤمنون: ٥٠]. قال ابن عباس وسعيد ابن المسيب ووهب بن منبه وغيرهم: هي مصر. وقوله تعالى:{ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} [الشعراء: ٥٧ - ٥٨]، وقوله تعالى:{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ } [الأعراف: ١٣٧]. يعني مصر، وقوله تعالى:{ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ } [الدخان: ٢٥ - ٢٨]. يعني قوم فرعون، وأن بني إسرائيل أورثوا مصر. وقوله تعالى:{ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ } [القصص: ٥ - ٦]. وقوله عز وجل مخبراً عن نبيه موسى عليه السلام:{ اقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [المائدة: ٢١]، وقوله عز وجل مخبرا عن فرعون:{ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر: ٢٩]. وقوله عز وجل:{ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [الأعراف: ١٣٧]. وقوله تعالى مخبراً عن

فرعون:{ وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف: ١٢٧]، يعني أرض مصر. قوله تعالى مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام:{ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } [يوسف: ٥٥]، وقوله تعالى:{ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [يوسف: ٥٦]، وقوله تعالى مخبرا عن بني إسرائيل:{ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ } [يونس: ٨٨]، وقوله تعالى مخبراً عن نبيه موسى عليه السلام:{ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ } [الأعراف: ١٢٩]، وقوله تعالى:{ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ} [غافر: ٢٦]. يعني أرض مصر. وقوله تعالى:{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [القصص: ٢٠]. وقوله عز وجل:{ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [القصص: ٤]. وقوله تعالى مخبرا عن ابن يعقوب عليه السلام:{ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} [يوسف: ٨٠]. يعني مصر. وقوله تعالى:{ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ} [القصص: ١٩].

وأما ورد في حقها من الأحاديث النبوية فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:{**ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً**} قال ابن كثير رحمه الله: والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليهما السلام، أمه هاجر القبطية، وهو الذبيح على الصحيح، وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي صلى الله عليه وسلم، وأخوال إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه مارية القبطية من سنى كورة أنصنا، وقد وضع عنهم معاوية الجزية إكراماً لإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال:{**إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض**} فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ولم ذلك، يا رسول الله؟ فقال:{**لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة**} وعنه صلى الله عليه وسلم، وذكر مصر:{**ما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤونته**}.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أهل مصر أكرم عاجم كلها،

وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة، وبقريش خاصة.

وقال أيضا: لما خلق الله آدم، مثل له الد نيا: شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك؛ فلما رأى مصر، رآها أرضاً سهلة ذات نهر جارٍ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً من جبالها مكسواً نوراً لا يخلو من نظر الرب عز وجل إليه بالرحمة، في سفحه أشجار مثمرة، فروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات؛ قال: يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة، وتربتك مسكة، تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطبقة رحيمة، لا خلتك يا مصر بركة، ولا زال بك حفظة، ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر، فيك الخبايا والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلاً كثر الله رزقك، ودر ضرعك، وزكا نباتك، وعظمت بركتك وخصبت، ولازال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري وتتكبري أو تخوني فإذا فعلت ذلك، عراك شر ثم يغور خيرك. فكان عليه السلام أول من دعا لها بالرحمة والخصب والرأفة والبركة.

وقال عبد الله بن عباس: دعا نوح عليه السلام لابنه بيصر بن حام - وهو أبو مصر الذي سميت مصر على اسمه - فقال: اللهم إنه قد أجاب دعوتي، فبارك فيه وفي ذريته، وأسكنه الأرض الطيبة المباركة التي هي أم البلاد وغوث العباد، ونهرها أفضل أنهار الدنيا، واجعل فيها أفضل البركات، وسخر له ولولده الأرض، وذللها لهم، وقوهم عليها، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: لما قسم نوح عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحامٍ مصر وسواحلها والغرب وشاطىء النيل، فلما قدم بيصر بن حام وبلغ العريش، قال: " اللهم إن كانت هذه الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح وجعلتها لنا منزلاً فاصرف عنا وباها، وطيب لنا ثراها، واجمع ماها، وأنبت كلاها، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك؛ إنك على كل شيء قدير، وإنك لا تخلف الميعاد " وجعلها بيصر لابنه مصر وسماها به. يأتي ذكر ذلك عند ذكر من ملك مصر قبل الإسلام في هذا المحل إن شاء الله تعالى. والقبط ولد مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام.

وقال كعب الأحبار: لولا رغبتي في بيت المقدس لما سكنت إلا مصر، فقيل له: ولم؟ قال: لأنها معافاة من الفتن، ومن أراد بها سوءاً كبه الله على وجهه، وهو بلد مبارك لأهله فيه.

وروى ابن يونس عنه قال: من أراد أن ينظر إلى شبه الجنة فلينظر إلى مصر إذا

زخرفت، وفي رواية: إذا أزهرت.

وروى ابن يونس بإسناده إلى أبي بصرة الغفاري قال: سلطان مصر سلطان الأرض كلها.

قلت: ولهذا الخبر الصحيح جعلنا في آخر تراجم ملوك مصر حوادث سائر الأقطار كلها.

وقال: في التوراة مكتوب: مصر خزائن الأرض كلها، فمن أراد بها سوءاً قصمه الله.

وقال بعض المؤرخين: إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه على ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن صف لي مصر؛ فكتب إليه: ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر: اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء، وشجرة خضراء؛ طولها شهر، وعرضها عشر؛ يكنفها جبل أغبر، ورمل أعفر؛ يخط وسطها نيل مبارك الغزوات، ميمون الروحات؛ تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر؛ له أوان يدر حلا به، ويكثر فيه ذبابه، تمده عيون الأرض وينابيعها حتى إذا ما اصلخم عجاجه، وتعظمت أمواجه، فاض على جانبيه فلم يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في المخايل ورق الأصائل؛ فإذا تكامل في زيادته، نكص على عقبيه كأول ما بدأ في جريته، وطما في درته؛ فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب، يرجون بذلك النماء من الرب؛ لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم؛ فإذا أحدق الزرع وأشرق، سقاه الندى وغذاه من تحته الثرى؛ فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي د يباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقر قاطنيها فيها، ألايقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها، في عمل جسورها وترعها؛ فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال؛ والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل.

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لله درك يا بن العاص! لقد وصفت لي خبراً كأني أشاهده.

وقيل: إنه لما ولي عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر أتاه أهلها حين دخل بؤونة من أشهر القبط المذكورة فقالوا له: أيها الأمير، إن لنيلنا عادة أو سنة لا يجري إلا بها؛ فقال لهم: وما ذاك؟ قالوا: إنه إذا كان في اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر يعني بؤونة عمدنا إلى جارية بكر من عند أبويها وأرضينا أبويها وأخذناها وجعلنا

عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها في هذا النيل فيجري؛ فقال لهم عمرو بن العاص: إن هذا لا يكون في الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجري النيل قليلاً ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء؛ فلما رأى ذلك عمرو كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فكتب إليه عمر بن الخطاب: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما قبله، وقد أرسلنا إليك ببطاقة ترميها في داخل النيل إذا أتاك كتابي.

فلما قدم الكتاب على عمرو بن العاص رضي الله عنه فتح البطاقة فإذا فيها: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر:

أما بعد، فإن كنت تجري من قبلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار الذي يجريك، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

فعرفهم عمرو بكتاب أمير المؤمنين وبالبطاقة، ثم ألقى عمرو البطاقة في النيل قبل يوم عيد الصليب بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها لأنه لا يقيم بمصالحهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة، وقطع تلك السنة القبيحة عن أهل مصر ببركة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

* * *

ما قيل في سبب تسمية مصر بمصر

قيل: إنه كان اسمها في الدهر الأول زجلة من المزاجلة، وقال قوم: سميت بمصريم ابن مركائيل بن دوابيل بن غرياب بن آدم، وهذا هو مصر الأول؛ وقيل: بل سميت بمصر الثاني، وهو مصرام بن نقراوش الجبار بن مصريم الأول المقدم ذكره؛ وقيل: سميت بعد الطوفان بمصر الثالث، وهو مصر بن بيصر بن حام بن نوح، وهو اسم أعجمي لا ينصرف؛ وقيل: هو اسم عربي مشتق، ولكل قائل دليل؛ وقيل غير ذلك أقوال كثيرة يأتي ذكر بعضها.

ودخل مصر من الصحابة ممن تقدم ذكرهم في فتح مصر وغيرهم جماعة: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وفضالة بن عبيد، وعمرو بن العاص، وعمرو بن علقمة، وشرحبيل بن حسنة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمرو، وخارجة بن حذافة، ومحمد بن مسلمة، وأبو رافع، ومسلمة بن مخلد، وأبو أيوب، ونافع بن مالك، ومعاوية بن حديج، وعمار بن ياسر، وخالد بن الوليد، وغيرهم - رضوان الله عليهم أجمعين.

ودخلها من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين: يعقوب وأولاده، وهم: يوسف، ويهوذا، وروبيل، ولاوي، وزبالون، وشمعون، ويشحر، ودنيا، ودانا، وديفتابيل، وجاد، وبنيامين. ودخلها موسى وهارون؛ وبها ولد عيسى ابن مريم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه سأل كعب الأحبار عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها، فقال: إن الله عز وجل لما خلق الأشياء جعل كل شيء لشيء؛ فقال العقل: أنا لاحق بالشأم، فقالت الفتنة: وأنا معك؛ فقال الخصب: أنا لاحق بمصر، فقال الذل: وأنا معك؛ وقال الشقاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة: وأنا معك؛ وقال البخل: أنا لاحق بالمغرب، فقال سوء الخلق: وأنا معك.

* * *

من ملك مصر قبل الإسلام

كان بيصر بن حام بن نوح قد كبرت سنه فأوصى إلى الأكبر من ولده وهو مصر وأجمع الناس على أنه ملك من حد رفح من أرض فلسطين إلى بلاد أسوان من بلاد الصعيد طولاً، ومن آيلة وهي تخوم الحجاز إلى برقة عرضاً. وكان لمصر أولاد أربعة وهم: قبط، وأشمون، وأتريب، وصا. وقسم مصر بين ولده الأربعة الأرض أرباعاً، وعهد إلى الأكبر من ولده وهو قبط - وأقباط مصر يضافون في النسب إلى أبيهم قبط بن مصر، وأضيفت المواضع إلى سكانها وعرفت بأسمائهم، واختلطت الأنساب وكثر ولد قبط وهم الأقباط، فغلبوا على سائر الأرض، ودخل غيرهم في أنسابهم. ولما هلك قبط ابن مصر ملك بعده أشمون بن مصر؛ ثم ملك بعده صابن مصر؛ ثم ملك بعده أتريب ابن مصر؛ ثم ملك بعده ماليق بن دارس؛ ثم ملك بعده حرايا بن ماليق؛ ثم ملك بعده كلكي بن حرايا، وأقام في الملك نحواً من مائة سنة؛ ثم ملك بعده أخ له يقال له: ماليا ابن حرايا؛ ثم ملك بعده لوطس بن ماليا نحواً من سبعين سنة؛ ثم ملكت بعده ابنة له يقال لها: حوريا بنت لوطس بن ماليا نحواً من ثلاثين سنة؛ ثم ملكت بعدها امرأة أخرى يقال لها: ماموم. ثم كثر ولد بيصر بن حام بن نوح بأرض مصر وتشعبوا وملكوا النساء، فطمعت فيهم ملوك الأرض، فسار إليهم من الشأم ملك من العماليق يقال له: الوليد بن دومع فكانت له بها حروب حتى غلب على الملك وانقادوا إليه واستقام له الأمر حتى هلك؛ ثم ملك بعده الريان بن الوليد العملاقي، وهو فرعون يوسف عليه السلام؛ ثم ملك بعده دارم بن الريان العملاقي؛ ثم ملك بعده كامس بن معدان العملاقي؛ ثم ملك بعده الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى عليه السلام، وقد اختلف فيه، فمن الناس من يقول: إنه من العماليق، ومنهم من رأى أنه من لخم من بلاد الشأم، ومنهم من رأى أنه من الأقباط من ولد مصر بن بيصر، وكان يعرف بظلما؛ وهلك فرعون غرقاً حين خرج في طلب بني إسرائيل، ولما غرق فرعون ومن كان معه من الجنود خشي من بقي بأرض مصر من الذراري والنساء والصبيان والعبيد أن يغزوهم ملوك الشأم والمغرب، فملكوا عليهم امرأة ذات رأي وحزم يقال لها: دلوكة، فبنت على ديار مصر حائطاً يحيط بجميع أرضها والبلاد، وجعلت عليه المحارس والأجراس والرجال متصلة أصواتهم بقرب بعضهم من بعض، وأثر هذا الحائط باق إلى هذا اليوم؛ وسنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وهو يعرف بحائط العجوزة وقيل: إنما بنته خوفاً على ولدها، فإنه

كان كثير الصيد فخافت عليه سباع البر والبحر واغتيال من جاوز أرضهم من الملوك، فحوطت الحائط من التماسيح وغيرها.

ولما ماتت دلوكة العجوز المذكورة ملك مصر بعدها دركوس بن بلطيوس؛ ثم ملك بعده بورس بن دركوس؛ ثم ملك بعده لعس بن نورس نحوًا من خمسين سنة؛ ثم ملك بعده دنيا بن نورس نحوا من عشرين سنة ثم ملك بعده نلوطس عشر سنين؛ ثم ملك بعده مماكيل بن بلوطس، ثم ملك بعده يلونة بن مماكيل وكانت له حروب ومسير في الأرض وهو فرعون الأعرج الذي غزا بني إسرائيل وخرب بيت المقدس؛ ثم ملك بعده مرينوس وكانت له أيضاً حروب بالمغرب، ثم ملك بعده نقاس بن مرينوس ثمانين سنة؛ ثم ملك بعده قويس بن نقاس عشر سنين؛ ثم ملك بعده كاميل، وكانت له أيضاً حروب مع ملوك المغرب وغزاه البخت نضر مرزبان المغرب من قبل ملك فارس، فخرب أرضه وقتل رجاله وسار البخت نصر إلى نحو المغرب. ولما زال أمر البخت نصر ومن كان معه من جنود فارس ملكت الروم مصر وغلبت عليها، فتنصر أهلها، فلم يزالوا على ذلك إلى أن ملك كسرى أنوشروان، فغلبت جيوشه على الشأم وسارت نحو مصر فملكوها، وغلبوا على أهلها نحواً من عشرين سنة، فكانت بين الروم وفارس حروب كثيرة، وكان أهل مصر يؤدون خراجين عن بلادهم: خراجاً لفارس، وخراجاً للروم؛ ثم انجلت فارس عن مصر والشأم لأمر حدث في دار مملكتهم فغلبت الروم على مصر والشأم، وأشهروا النصرانية فشمل ذلك من في الشأم ومصر إلى أن أتى الله بالإسلام، وكان من أمر المقوقس صاحب مصر مع النبي صلى الله عليه وسلم من الهدايا ما كان إلى أن افتتحها عمرو بن العاص بمن كان معه من الصحابة في خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه.

* * *

ولاية عمرو بن العاص الأولى على مصر

هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن حصيص ابن كعب بن لؤي بن غالب، أبو عبد الله، وقيل: أبو محمد القرشي السهمي الصحابية؛ أسلم يوم الهدنة وهاجر، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش غزوة ذات السلاسل، وفيه أبو بكر وعمر، لخبرته بمكيدة الحرب. ثم ولي الإمرة في غزوة الشأم لأبي بكر وعمر، ثم افتتح مصر حسبما تقدم ذكره ووليها لعمر أولاً، ثم وليها لمعاوية بن أبي سفيان ثانياً على ما يأتي ذكره.

و أسلم بعد الحد يبية هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة.

قال الذهبي بعد كلام ساقه: ثم إن عمراً قال لمعاوية - يعني في أيام وقعة صفين: يا معاوية، أحرقت كبدي بقصصك. أترى أنا خالفنا علياً لفضلٍ منا عليه! لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك، أو لأنابذنك. قال: فأعطاه مصر، يعطي أهلها عطاءهم وما بقي فله.

وكان عمرو من أفراد الدهر دهاء وجلادة وحزماً ورأياً وفصاحة. ذكر محمد بن سلام الجمحي أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه يقول: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد.

وقال مجالد عن الشعبي عن قبيصة عن جابر قال: صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلاً أبين، أو قال أنصع، ظرفاً منه، ولا أكرم جليساً، ولا أشبه سريرة بعلانيةٍ منه.

ولما ولي عمرو بن العاص مصر ودخلها سكن الفسطاط. ولسبب تسمية مصر بالفسطاط أن عمراً لما أراد التوجه لفتح الإسكندرية أمر بنزع فسطاطه أعني خيمته فإذا فيه يمامة قد فرخت، فقال عمرو: لقد تحرم منا بمتحرم، فأمر به فأقر كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا: أين ننزل؟ قالوا: الفسطاط - يعنون فسطاط عمرو الذي خلفه بمصر مضروباً لأجل اليمامة فغلب عليه ذلك - واستمر عمرو على عمله بمصر، وشرع في بناء جامعه بمصر إلى أن عزله عثمان عن ولاية مصر في سنة خمس وعشرين بعبد الله بن سعد بن أبي سرح بعد أن انتقض صلح أهل الإسكندرية وغزاه عمرو في السنة المذكورة. وسبب ذلك أن ملك الروم بعث إليهم منويل الخصي في مراكب من البحر، فطمعوا في النصرة ونقضوا دينهم، فغزاهم عمرو في ربيع الأول سنة خمس وعشرين فافتتح الأرض عنوة والمدينة صلحاً. ثم استأذن عمراً عبد الله بن سعد بن أبي سرح في غزوة إفريقية، فأذن له عمرو بن العاص؛ وبعد قليل

عزله عثمان في هذه السنة بعبد الله بن أبي سرح المذكور - وعبد الله بن أبي سرح أخو عثمان لأمه.

وسبب عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر أنه قدم على عثمان لما تخلف - وكان قدم على عمر مرتين استخلف في إحداهما زكريا بن جهم العبدري، وفي الثانية ابنه عبد الله - فلما قدم عمرو على عثمان سأله عزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عن صعيد مصر، وكان عمر قد ولاه صعيد مصر، فامتنع عثمان من ذلك، وعزله عن مصر وعقد لعبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر كلها مضافة للصعيد وغيره، فكانت ولاية عمرو بن العاص على مصر في المرة الأولى أربع سنين وأشهراً.

* * *

بناء جامع عمرو بن العاص بمصر

كان خاناً والذي حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التجيبي أبو عبد الله أحد بني سوم، فلما رجعوا من الإسكندرية سأل عمرو قيسبة المذكور في منزله هذا يجعله مسجداً؛ فقال له قيسبة: فإني أتصدق به على المسلمين، فسلمه إليهم؛ واختط مع قومه بني سوم في تجيب وبني الجامع في سنة إحدى وعشرين، وكان طوله خمسين ذراعاً في عرض ثلاثين؛ ويقال: إنه وقف على إقامة قبلته ثمانون رجلاً من الصحابة، منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو ذر الغفاري، وأبو بصرة الغفاري، ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه بن صواب وغيرهم. وكانت القبلة مشرقة جداً، وإن قرة بن شريك لما هدم المسجد المذكور وبناه في زمان الوليد بن عبد الملك بن مروان تيامن بها قليلاً.

وذكر أن الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة كانا يتيامنان إذا صليا في المسجد الجامع؛ ولم يكن للمسجد الذي بناه عمرو محراب مجوف بل عمد قائمة بصدر الجدار، وإنما قرة ابن شريك المذكور جعل المحراب المجوف. وأول من أحدث ذلك عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ عامل الوليد بن عبد الملك على المدينة ليلي أسس مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هدم وزاد فيه. وكان لمسجد عمرو بابان يقابلان دار عمرو بن العاص، وبابان في بحريه، وبابان في غربيه؛ وكان الخارج من زقاق القناديل يجد ركن الجامع الشرقي محاذياً لركن دار عمرو الغربي وذلك قبل أن يأخذ من دار عمرو بن العاص ما أخذ، وكان طوله من القبلة إلى البحري مثل طول دار عمرو،

وسقفه مطأطئاً جداً ولا صحن له؛ وكان الناس في الصيف يصطفون بفنائه؛ وكان بينه وبين دار عمرو سبعه أذرع؛ وكان الطريق محيطاً به من جميع جوانبه.

وأول من زاد في الجامع المذكور مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر في أيام معاوية سنة ثلاث وخمسين، فزاد فيه من بحريه وجعله رحبة في البحري وبيضه وزخرفه، ولم يغير البناء القديم ولا أحدث في قبليه ولا غربيه شيئاً.

ثم إن عبد العزيز بن مروان هدمه سنة تسع وسبعين، وهو أمير مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان، وزاد فيه من ناحية الغرب وأدخل فيه الرحبة التي كانت في بحريه ولم يجد في شرقيه موضعا يوسعه به.

وذكر أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان في ولايته على مصر من قبل أخيه الوليد أمر برفع سقف المسجد الجامع وكان مطأطئاً وذلك في سنه تسع وثمانين. ثم إن قرة بن شريك العبسي بن قيس عيلان هدمه في مستهل سنة اثنتين وتسعين بأمر الوليد بن عبد الملك بن مروان، وقرة أمير على مصر من قبله، وابتدأ في بنائه في شعبان من السنة المذكورة، وجعل على بنائه يحيى بن حنظلة مولى بني عامر بن لؤي، وكانوا يجمعون الجمعة في قيسارية العسل حتى فرغ من بنائه في رمضان سنة ثلاث وتسعين ونصب المنبر الجديد في سنة أربع وتسعين ونزع المنبر الذي كان في المسجد؛ وذكر أن عمرو بن العاص كان جعله فيه. قلت: ولعله كان وضعه بعد وفاة عمر بن الخطاب، فإنه كان منعه حسبما ذكرناه؛ وقيل: هو منبر عبد العزيز بن مروان.

* * *

ولاية بن أبي سرح على مصر

هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح، واسمه الحسام وسرح بالسين والحاء المهملتين والحسام بن الحارث بن حبيب بالحاء المهملة مصغراً بن جذيمة بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي، أبو يحيى العامري عامر قريش. ولي إمرة مصر بعد عزل عمرو ابن العاص في سنة خمس وعشرين، ومكث أميراً على مصر مدة ولاية عثمان بن عفان كلها وهو أخو عثمان لأمه؛ ولما ولي مصر أحسن السيرة في الرعية، وكان جواداً كريماً؛ ثم أمره عثمان أن يغزو إفريقية، فإذا افتتحها كان له خمس الخمس من الغنيمة نفلاً. فسار عبد الله بن أبي سرح المذكور إلى إفريقية في عشرة آلاف وغزاها حتى افتتح سهلها وجبلها وقتل خلقاً كثيراً من أهلها - ثم اجتمعوا على الطاعة والإسلام وحسن إسلامهم. وأخذ عبد الله بن أبي سرح المذكور خمس الخمس من الغنيمة وبعث بأربعة أخماسه إلى عثمان، وقسم أربعة أخماس الغنيمة في الجيش فأصاب الفارس ثلاثة آلاف دينار والراجل ألف دينار.

وعاد إلى مصر فبلغه في سنة خمس وثلاثين خبر من ثار على عثمان - رضي الله عنه - ودخل منهم طائفة إلى مصر بأمر عثمان؛ فإنه كان أخرج منهم جماعة إلى البصرة والشام ومصر، فلما قدم من قدم منهم إلى مصر وافقهم جماعة من المصريين على خلاف عثمان كرهاً في ابن أبي سرح هذا لكونه ولي بعد عمرو بن العاص، وأيضاً لاشتغاله عنهم بقتال أهل المغرب وفتح بلاد البربر وأندلس وإفريقية وغيرها؛ ونشأ بمصر طائفة من أبناء الصحابة يؤلبون الناس على حرب عثمان وحرب عبد الله بن أبي سرح المذكور، واجتمعوا واستنفروا من مصر في ستمائة راكب يذهبون إلى المدينة في صفة معتمرين في شهر رجب لينكروا على عثمان؛ وساروا إلى المدينة تحت أربع رايات، وأمر الجميع إلى عمرو بن بد يل بن ورقاء الخزاعي، وعبد الرحمن التجيبي، وأقبل معهم محمد ابن أبي بكر الصديق، وأقام بمصر محمد بن حذيفة يؤلب الناس ويدافع عن هؤلاء؛ فكتب ابن أبي سرح إلى عثمان يعلمه بقدوم هؤلاء القوم إلى المدينة منكرين عليه في صفة معتمرين، فوقع لهم مع عثمان - رضي الله عنه - أمور يطول شرحها إلى أن سألوا عثمان عزل عبد الله بن أبي سرح هذا عن ولاية مصر ويولي عليهم محمد بن أبي بكر الصديق، فأجابهم إلى ذلك فلما رجعوا وجدوا في الطريق بريدياً يسير فأخذوه وفتشوه، فإذا معه في إداوة كتاب كتبه مروان بن الحكم كاتب عثمان وابن عمه، والكتاب على لسان عثمان، فيه الأمر بقتل طائفة منهم وصلب آخرين وقطع أيدي آخرين منهم وأرجلهم؛ وكان على الكتاب طبع خاتم عثمان، والبريد أحد غلمان عثمان وعلى جمله، فلما رجعوا جاؤوا بالكتاب إلى المدينة وداروا به على الناس، فكلم الناس

عثمان في أمر الكتاب؛ فقال عثمان ما معناه: إنه دلس عليه الكتاب ثم قال: والله لا كتبته ولا أمليته ولا دريت بشيء من ذلك؛ والخاتم قد يزور على الخاتم؛ فصدقه الصادقون وكذبه الكاذبون في ذلك.

واستمر عبد الله بن أبي سرح على عمله على كرهٍ من المصريين إلى أن خرج من مصر متوجهاً إلى عثمان بعد أن استخلف عليها عقبة بن عامر الجهني. وقتل عثمان - رضي الله عنه - واستخلف علي - رضي الله عنه، فعزل عبد الله بن أبي سرح هذا عن مصر وولاها لقيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنهما. ثم استولى على مصر جماعة من قبل علي بن أبي طالب وقاتلوا عقبة بن عامر على ما سيأتي ذكره بعد أن نذكر من توفي في أيام ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح هذا على مصر كما هو عادة كتابنا هذا. وكان عزل عبد الله بن أبي سرح عن مصر في سنة ست وثلاثين بعد أن حكمها نحواً من عشر سنين. وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح صاحب الترجمة فلم أقف له على خبر بعد ذلك؛ غير أن بعض المؤرخين ذكروا أنه توفي بفلسطين في - سنة ست وثلاثين المذكورة.

* * *

استيلاء محمد بن أبي حذيفة على مصر

هو محمد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف؛ وثب على مصر وملكها من غير ولاية من خليفة، فلذلك لم يعده المؤرخون من أمراء مصر؛ وكان من خبره أنه جمع جمعاً وركب بهم على عقبة بن عامر الجهني خليفة عبد الله بن سعد بن أبي سرح وقاتله وهزمه وأخرجه من الفسطاط، ثم دعا الناس لخلع عثمان من الخلافة وصار يعدد أفعاله بكل شيء يقدر عليه، فاعتزله شيعة عثمان وقاتلوه وهم: معاوية بن حديج وخارجة بن حذافة السهمي وبسر بن أبي أرطاة ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وعمرو بن قحزم الخولاني، ومقسم بن بجرة، وحمزة بن سرح بن كلال، وأبو الكنود سعد بن مالك الأزدي، وخالد بن ثابت الفهمي في جمع كثير من الناس، وبعثوا إلى عثمان بذلك؛ وبينا أن يأتي الخبر من عثمان قويت شوكة محمد هذا؛ ثم حضر من عند عثمان سعد بن أبي وقاص ليصلح أمرهم ويتألف الناس، فخرج إليه جماعة من أعوان محمد بن أبي حذيفة المذكور وكلموه وخاشنوه، ثم قلبوا عليه فسطاطه وشجوه ونهبوه، فركب من وقته وعاد راجعاً ودعا عليهم لما فعلوه به؛ ثم عاد إلى مصر عبد الله بن أبي سرح راجعاً فمنعه أن يدخل إلى مصر وقاتلوه، فكر راجعاً إلى عسقلان ثم قتل في هذه الأيام بفلسطين، وقيل بالرملة حسبما ذكرناه في آخر ترجمته في هذا الكتاب.

ثم أراد محمد بن أبي حذيفة أن يبعث جيشا إلى عثمان فجهز إليه ستمائة رجل عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي.

وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم الخبر بقتل عثمان - رضي الله عنه - في ذي الحجة من السنة. فلما وصل الخبر بذلك ثار شيعة عثمان بمصر وعقدوا لمعاوية بن حديج وبايعوه على الطلب بدم عثمان وساروا إلى الصعيد. فبعث إليهم محمد بن أبي حذيفة جماعة كثيرة فتقاتلا فهزمت جيش محمد وافترقا. وتوجه معاوية بأصحابه إلى جهة برقة فأقام بها مدة ثم عاد إلى الإسكندرية، فبعث إليه محمد بن أبي حذيفة بجيش آخر فاقتتلوا بخربتا أول شهر رمضان من سنة ست وثلاثين فانهزم جيش محمد أيضاً.

وأقامت شيعة عثمان بخربتا إلى أن قدم معاوية بن أبي سفيان من الشأم إلى مصر. فخرج إليه محمد بن أبي حذيفة بأصحابه ومنعوه من الدخول إلى الفسطاط؛ ثم اتفقا على أن يجعلا رهناً ويتركا الحرب. فاستخلف محمد بن أبي حذيفة على مصر الحكم بن الصلت وخرج في الرهن هو وابن عديس وكنانة بن بشر، وأبو شمر بن أبرهة الصباح وعدة من قتلة عثمان. فلما وصلوا إلى معاوية قبض عليهم وحبسهم وسار إلى دمشق فهربوا من السجن إلا أبا شمر بن أبرهة فقال: لا أدخله أسيراً وأخرج منه آبقاً؛ فتتبعهم أمير فلسطين حتى ظفر بهم وقتلهم في ذي الحجة سنة ست وثلاثين؛ فلما بلغ الخبر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بمصاب محمد بن حذيفة ولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري - رضي الله عنه.

* * *

ولاية قيس بن سعد بن عبادة على مصر

هو قيس بن سعد بن عبادة بن دليم الأنصاري الخزرجي المدني.

قال الذهبي: كان من النبي صلى الله عليه وسلم بمنزلة، وله عدة أحاديث؛ روى عنه عبد الرحمن بن أبي ليلى وعروة بن الزبير والشعبي وميمون بن أبي شبيب وغريب بن حميد الهمداني وجماعة؛ وكان ضخماً جسيماً طويلاً جداً، سيداً مطاعاً، كثير المال جواداً كريماً، يعد من دهاة العرب.

قال عمرو بن دينار: كان ضخماً جسيماً صغير الرأس ليست له لحية، وإذا ركب الحمار خطت رجلاه الأرض؛ روى عنه أنه قال: لولا أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:{المكر والخديعة في النار} لكنت من أمكر هذه الأمة. وقال الزهري: أخبرنا ثعلبة ابن أبي مالك أن قيس بن سعد كان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال جويرية بن أسماء: كان قيس يستدين ويطعمهم، فقال أبو بكر وعمر: إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه؛ فمشيا في الناس فصلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فقام سعد بن عبادة خلفه، فقال: من يعذرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب يبخلان علي ابني.

ولما ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب على مصر لما ولي الخلافة بعد قتل عثمان وبعثه إلى مصر فوصل إليها في مستهل شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين، فدخلها قيس ومهد أمورها واستمال الخارجية بخربتا من شيعة عثمان ورد عليهم أرزاقهم، وقدموا عليه بمصر فأكرمهم وأنعم عليهم؛ وكان عنده رأي ومعرفة ودهاء، فعظم على معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ولايته لمصر فإنه كان من حزب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه، واجتهدا كثيراً ليخرجاه منها فلم يقدرا على ذلك حتى عمل معاوية على قيس من قبل علي بن أبي طالب، وأشاع أن قيساً من شيعته ومن حزبه، وأنه يبعث إليه بالكتب والنصيحة سراً؛ ولا زال يظهر ذلك حتى بلغ علياً؛ وساعده في ذلك محمد بن أبي بكر الصديق لحبه مصر أو لإمرتها وعبد الله بن جعفر، فما زالا بعلي حتى كتب لقيس بن سعد يأمره بالقدوم عليه، وعزله عن مصر؛ فكانت ولايته على مصر من يوم دخلها إلى أن صرف عنها أربعة أشهر وخمسة أيام وكان عزله في خامس رجب من سنة سبع وثلاثين، وولي عليها الأشتر النخعي.

وخرج أمير المؤمنين إلى وقعة الجمل ورجع إلى الكوفة وقيس مكانه؛ فكان قيس

أثقل خلق الله على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشأم مخافة أن يقفل عليه علي بن أبي طالب من العراق ويقبل إليه قيس بأهل مصر فيقع معاوية بينهما فأخذ يخدعه.

فكتب معاوية إلى قيس: من معاوية بن أبي سفيان إلى قيس بن سعد بن عبادة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد، فإنكم إن كنتم نقمتم على عثمان في أمور رأيتموها، أو ضربة سوط ضربها، أو شتمة شتمها، أو في سيرٍ سيره، أو في استعماله الفيء، فقد علمتم أن دمه لم يكن حلالاً لكم، فقد ركبتم عظيماً من الأمر وجئتم شيئاً إذاً. فتب إلى الله يا قيس بن سعد، فإنك ممن أعان على قتل عثمان، إن كانت التوبة من قتل المؤمن تغني شيئاً؛ وأما صاحبك فقد تيقن أنه الذي أغرى به الناس، وحملهم على قتله حتى قتلوه، وأنه لم يسلم من دمه عظم قومك. فإن استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان فافعل. فإن بايعتنا على هذا الأمر فلك سلطان العراقيين، ولمن شئت من أهلك سلطان الحجاز ما دام لي سلطان. وسلني غير هذا مما تحب، فإنك لا تسألني شيئاً إلا أوتيته. واكتب إلي برأيك فيما كتبت به إليك والسلام.

فلما جاءه كتاب معاوية أحب قيس أن يدافعه ولا يبدي له أمره ولا يتعجل حربه؛ فكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت فيه؛ فأما ما ذكرت من أمر عثمان فذلك أمر لم أقاربه ولم أتنطف به؛ وأما قولك: إن صاحبي أغرى الناس بعثمان فهذا أمر لم أطلع عليه؛ وذكرت أن معظم عشيرتي لم يسلموا من دم عثمان، فأول الناس فيه قياماً عشيرتي ولهم أسوة غيرهم؛ وأما ما ذكرت من مبايعتي إياك وما عرضت علي فلي فيه نظر وفكرة وليس هذا مما يسارع إليه. وأنا كاف عنك ولن يبدو لك من قبلي شيء مما تكره والسلام.

فلما قرأ كتابه معاوية لم يره إلا مباعداً مفارقاً، فلم يأمن مكره ومكيدته.

فكتب إليه ثانياً: أما بعد، فقد قرأت كتابك فلم أرك تدنو فأعدك سلماً، ولم أرك مباعداً فأعدك حرباً. وليس مثلي من يخدع وبيده أعنة الخيل ومعه أعداد الرجال والسلام.

فلما قرأ قيس كتابه ورأى أنه لا يقبل منه المدافعة والمماطلة أظهر له ما في نفسه، وكتب إليه: أما بعد، فالعجب من اغترارك بي يا معاوية وطمعك في؛ تسومني الخروج عن طاعة أولى الناس بالإمرة، وأقربهم بالخلافة، وأقولهم بالحق، وأهداهم سبيلاً، وأقربهم إلى رسوله وسيلة، وأوفرهم فضيلة، وتأمرني بالدخول في طاعتك، طاعة أبعد الناس من هذا الأمر، وأقولهم بالزور وأضلهم سبيلاً، وأبعدهم من الله ورسوله وسيلة، ولد ضالين مضلين

طاغوت من طواغيت إبليس؛ وأما قولك: معك أعنة الخيل وأعداد الرجال لتشتغلن بنفسك حتى العدم.

وقال هشام: ولما رأى معاوية أن قيس بن سعد لا يلين له كاده من قبل علي؛ وكذا روى عبد الله بن أحمد بن حنبل بإسناده.

وقال هشام بن محمد: عن أبي مخنف وجه آخر في حديث قيس بن سعد ومعاوية، قال: لما أيس معاوية من قيس بن سعد شق عليه ذلك، لما يعرف من حزمه وبأسه، فأظهر للناس أن قيساً قد بايعه. واختلق معاوية كتاباً فقرأه على أهل الشأم وفيه: أما بعد، لما نظرت أنه لا يسعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم محرماً مسلماً براً تقياً مستغفراً، وإني معكم على قتلته بما أحببتم من الأموال والرجال متى شئتم عجلت إليكم.

قال: فشاع في أهل الشأم أن قيساً قد بايع معاوية. وبلغ علياً ذلك فأكبره وأعظمه، فقال له عبد الله بن جعفر: دع ما يريبك إلى ما لا يريبك؛ اعزل قيساً عن مصر؛ فقال علي: والله ما أصدق هذا على قيس؛ ثم عزله وولى الأشتر، وقيل محمد بن أبي بكر الصديق في قول ابن سيرين؛ فلما عزله عرف قيس أن علياً قد خدع وتوجه إليه وصار معه.

قال عروة: وكان قيس بن سعد مع علي في مقدمته ومعه خمسة آلاف قد حلقوا رؤوسهم بعد موت علي. فلما دخل الجيش في بيعة معاوية أبى قيس أن يدخل، وقال لأصحابه: ما شئتم جالدت بكم أبداً حتى يموت الأعجل، وإن شئتم أخذت لكم أماناً. قالوا: خذ لنا، ففعل؛ فلما ارتحل نحو المدينة جعل ينحر كل يوم جزوراً. قال الواقدي وغيره: إنه توفي في آخر خلافة معاوية - رضي الله عنهم أجمعين.

* * *

ولاية الأشتر النخعي على مصر

وفي ولاية الأشتر هذا على مصر قبل محمد بن أبي بكر الصديق اختلاف كثير؛ حكى جماعة كثيرة من المؤرخين وذكروا ما يدل على أن ولاية محمد بن أبي بكر كانت هي السابقة بعد عزل قيس بن سعد بن عبادة، وجماعة قدموا ولاية الأشتر هذا، ولكل منهما استدلال قوي؛ والذين قدموا الأشتر هم الأكثر. وقد رأيت في عدة كتب ولاية الأشتر هي المقدمة فقدمته لذلك.

والأشتر اسمه مالك بن الحارث؛ قال أبو المظفر في مرآة الزمان: قال علماء السيرة كابن إسحاق وهشام والواقدي قالوا: لما اختل أمر مصر على محمد بن أبي بكر الصديق وبلغ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال: ما لمصر إلا أحد الرجلين، صاحبنا الذي عزلناه عنها - يعني قيس بن سعد بن عبادة - أو مالك بن الحارث - يعني الأشتر هذا.

قلت: وهذا مما يدل على أن ولاية محمد بن أبي بكر الصديق كانت هي السابقة؛ اللهم إلا إن كان لما اختل أمر مصر على محمد عزله علي - رضي الله عنه - بالأشتر، ثم استمر محمد ثانياً بعد موت الأشتر على عمله حتى وقع من أمره ما سنذكره؛ وهذا هو أقرب للجمع بين الأقوال لأن الأشتر توفي قبل دخوله إلى مصر، والله أعلم

وكان علي - رضى الله عنه - حين انصرف من صفين رد الأشتر إلى عمله على الجزيرة وكان عاملا عليها، فكتب إليه وهو يومئذ بنصيبين: سلام عليك يا مالك، فإنك ممن استظهرتك على إقامة الدين أو قمع به نخوة الأثيم، وأسد به الثغر المخوف؛ وكنت قد وليت محمد بن أبي بكر مصر فخرجت عليه بها خوارج، وهو غلام حدث السن غر ليس بذي تجربة للحرب ولا مجرب للأشياء. فأقدم علي لننظر في ذلك كما ينبغي، واستخلف على عملك أهل الثقة والنصفة من أصحابك والسلام. فأقبل مالك - أعني الأشتر - على علي - رضي الله عنه - فأخبره بحديث محمد وما جرى عليه، وقال: ليس لها غيرك؛ فاخرج رحمك الله فإني إن لم أوصك اكتفيت برأيك، فاستعن بالله على ما أهمك، واخلط الشدة باللين، وارفق ما كان الرفق أبلغ، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك إلا الشدة. فخرج الأشتر من عند علي وأتى رحله وتهيأ للخروج إلى مصر. وكتب عيون معاوية إليه بولاية الأشتر على مصر فشق عليه وعظم ذلك لديه، وكان قد طمع في مصر وعلم أن الأشتر متى قدمها كان أشد عليه، فكتب معاوية إلى الخانسيار رجل من أهل الخراج، وقيل كان دهقان القلزم يقول: إن الأشتر واصل إلى مصر قد وليها، فإن أنت

كفيتني إياه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت؛ فأقبل لهلاكه بكل ما تقدر عليه؛ فخرج الخانسيار حتى قدم القلزم فأقام به. وخرج الأشتر من العراق يريد مصر حتى قدم إلى القلزم فاستقبله الخانسيار فقال له: انزل فإني رجل من أهل الخراج وقد أحضرت ما عندي. فنزل الأشتر فأتاه بطعام وعلف وسقاه شربة من عسل جعل فيها سماً، فلما شربه مات؛ وبعث الخانسيار من أخبر بموته معاوية. فلما بلغ معاوية وعمرو ابن العاص موت الأشتر قال عمرو بن العاص: إن لله جنوداً من عسل.

وقال ابن الكلبي عن أبيه: لما سار الأشتر إلى مصر أخذ في طريق الحجاز فقدم المدينة، فجاءه مولى لعثمان بن عفان يقال له نافع، وأظهر له الود وقال له: أنا مولى عمر ابن الخطاب، فأدناه الأشتر وقربه ووثق به وولاه أمره. فلم يزل معه إلى عين شمس أعني المدينة الخراب خارج مصر بالقرب من المطرية وفيها ذلك العمود المذكور في أول أحوال مصر من هذا الكتاب. فلما وصل إلى عين شمس تلقاه أهل مصر بالهدايا وسقاه نافع المذكور العسل فمات منه.

* * *

ولاية محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه على مصر

هو محمد بن أبي بكر الصديق، واسم أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة عثمان؛ أسلم أبو قحافة يوم الفتح فأتى به ابنه أبو بكر الصديق إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقوده لكبر سنه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : **{لم لا تركت الشيخ حتى نأتيه}** إجلالاً لأبي بكر - رضي الله عنه.

وأبو قحافة المذكور ابن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤي القرشي التيمي؛ وكنية محمد هذا أعني صاحب الترجمة أبو القاسم؛ وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية؛ ومولده سنة حجة الوداع بذي الحليفة في عقب ذي القعدة، فأراد أبو بكر أن يرذ أسماء إلى المدينة، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال:**{مرها أن تغتسل وتهل}** وكان محمد هذا في حجر علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما تزوج أمه أسماء بعد وفاة أبي بكر الصديق فتولى تربيته؛ ولما سار علي إلى وقعة الجمل كان محمد هذا معه على الرجالة؛ ثم شهد معه وقعة صفين، ثم ولاه مصر فتوجه إليها ودخلها في النصف من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين، فتلقاه قيس بن سعد المعزول عن ولاية مصر، وقال له: يا أبا القاسم، إنك قد جئت من عند أمير لا رأي له، وليس عزله إياي بمانعي أن أنصح لك وله، وأنا من أمركم هذا على بصيرة، وإني أدلك على الذي - كنت أكيد به معاوية وعمراً وأهل خربتا فكايدهم به، فإنك إن أيدتهم بغيره تهلك؛ ووصف له المكايدة التي كان يكايدهم بها فاستغشه محمد بن أبي بكر وخالفه في كل شيء أمره به. ثم كتب إليه علي يشجعه ويقوي عزمه، ففتك محمد في المصريين وهدم دور شيعة عثمان بن عفان ونهب دورهم وأموالهم وهتك ذراريهم، فنصبوا له الحرب وحاربوه. ثم صالحهم على أن يسيرهم إلى معاوية، فلحقوا بمعاوية في الشام وكان أهل الشام لما انصرفوا من وقعة صفين ينتظرون ما يأتي به الحكمان؛ فلما اختلف الناس بالعراق على علي - رضي الله عنه - طمع معاوية في مصر، وكان أهل خربتا عثمانية، ومن كان من الشيعة كان أكثر منهم، فكان معاوية يهاب مصر لأجل الشيعة. وقصد معاوية أن يستعين بأخذ مصر على حرب علي - رضي الله عنه - قال: فاستشار معاوية أصحابه عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبسر بن أبي أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد وأبا الأعور عمرو بن سفيان السلمي وغيرهم وهؤلاء المذكورين كانوا خواصه فجمع المذكورين وقال: هل تدرون ما أدعوكم إليه؟ قالوا: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال له عمرو بن العاص: نعم، أهمك أمر مصر وخراجها الكثير وعدد أهلها فتدعونا لنشير عليك فيها، فاعزم وانهض؛ في افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك.

فقال له: يا ابن العاص، إنما أهمك الذي كان بيننا يعني أنه كان أعطاه مصر لما صالحه على قتال علي وقال معاوية للقوم: ما ترون؟ قالوا: ما نرى إلا رأي عمرو، قال: فكيف أصنع؟ فقال عمرو: ابعث جيشاً كثيفاً عليهم رجل حازم صارم تثق إليه فيأتي إلى مصر، فإنه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فنظاهره على من كان بها من أعدائنا. قال معاوية: أو غير ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: نكاتب من بها من شيعتنا نأمرهم على أمرهم ونمنيهم قدومنا عليهم فتقوى قلوبهم، ونعلم صديقنا من عدونا؛ وإنك يا بن العاص امرؤ بورك لك في العجلة، وأنا امرؤ بورك لي في التؤدة.

قال عمرو: فاعمل برأيك فوا لله ما أرى أمرك إلا صائراً للحرب، قال: فكتب إليهم معاوية كتاباً يثني عليهم ويقول: هنيئاً لكم بطلب دم الخليفة المظلوم وجهادكم أهل البغي. وقال في آخره: فاثبتوا فإن الجيش واصل إليكم والسلام. وبعث بالكتاب مع مولى له، يقال له سبيع فقدم مصر، وأميرها محمد ابن أبي بكر الصديق، فدفع الكتاب إلى مسلمة بن مخلد الأنصاري وإلى معاوية بن حديج، فكتبا جوابه: أما بعد، فعجل علينا بخيلك ورجلك، فإن عدونا قد أصبحوا لنا هائبين. فإن أتانا المدد من قبلك يفتح الله علينا؛ وذكرا كلاماً طويلاً.

وكان مسلمة ومعاوية بن حديج يقيمان بخربتا في عشرة آلاف، وقد باينوا محمد بن أبي بكر ولم يحسن محمد تدبيرهم كما كان يفعله معهم قيس بن سعد بن عبادة أيام ولايته على مصر، فلذلك انتقضت على محمد الأمور وزالت دولته.

ولما وقف معاوية على جوابهما، وكان يومئذ بفلسطين، جهز عمرو بن العاص في ستة آلاف وخرج معه معاوية يودعه وأوصاه بما يفعل، وقال له: عليك بتقوى الله والرفق فإنه يمن، وبالمهل والتؤدة فإن العجلة من الشيطان، وبأن تقبل ممن أقبل، وتعفو عمن أدبر، فإن قبل فهذه نعمة، وإن أبى فإن السطوة بعد المعذرة أقطع من الحجة، وادع الناس إلى الصلح والجماعة.

فسار عمرو حتى وصل إلى مصر واجتمعت العثمانية إليه، فكتب عمرو إلى محمد ابن أبي بكر صاحب مصر: أما بعد، فنح عني بدمك يا ابن أبي بكر فإني لا أحب أن يصيبك مني قلامة ظفر، والناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك، وندموا على اتباعك، فهم مسلموك لوقد التقت حلقتا البطان فاخرج منها إني لك من الناصحين؛ ومعه كتاب معاوية يقول: يا محمد، إن غب البغي والظلم عظيم الوبال، وسفك الدماء الحرام لا يسلم صاحبه من النقمة في الدنيا والآخرة؛ وإنا لا نعلم أحداً كان على عثمان أشد منك، فسعيت عليه مع الساعين وسفكت دمه مع السافكين؛ ثم أنت تظن أني نائم عنك وناس سيئاتك؛ وكلام طويل من هذا النمط حتى قال: ولن

يسلمك الله من القصاص أينما كنت والسلام. فطوى محمد الكتابين وبعث بهما إلى علي ابن أبي طالب وفي ضمنهما يستنجده ويطلب منه المدد والرجال، فرد عليه الجواب من عند علي بن أبي طالب بالوصية والشدة، ولم يمده بأحد.

ثم كتب محمد إلى معاوية وعمرو كتاباً خشن لهما فيه في القول. ثم قام محمد في الناس خطيباً فقال: أما بعد، فإن القوم الذين ينتهكون الحرمة وينعشون الضلالة ويشبون نار الفتنة ويتسلطون بالجبرية قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بجيوشهم؛ فمن أراد الجنة والمغفرة فليخرج إليهم فليجاهدهم في الله؛ انتدبوا مع كنانة بن بشر؛ فانتدب مع كنانة نحواً من ألفي رجل، ثم خرج محمد بن أبي بكر في ألفي رجل؛ واستقبل عمرو بن العاص كنانة وهو على مقدمة محمد، وكنانة يسرح لعمرو الكتائب. فلما رأى عمرو ذلك بعث إلى معاوية بن حديج السكوني. وفي رواية: لما رأى عمرو كنانة سرح إليه الكتائب من أهل الشام كتيبة بعد كتيبة وكنانة يهزمها فاستنجد عمرو بمعاوية بن حديج السكوني فسار في أصحابه وأهل الشام فأحاطوا بكنانة.

فلما رأى كنانة ذلك ترجل عن فرسه وترجل أصحابه، وقرأ:{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا} [آل عمران: ١٤٥] إلى قوله:{وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٥]، فقاتل حتى قتل بعد أن قتل من أهل الشام مقتلة عظيمة؛ فلما رأى أصحاب محمد ذلك تفرقوا عنه فنزل محمد عن فرسه ومشى حتى انتهى إلى خربة فأوى إليها، وجاء عمرو بن العاص ودخل الفسطاط؛ وخرج معاوية بن حديج في طلب محمد بن أبي بكر، فسأل قوماً من العلوج وكانوا على الطريق فقال: هل رأيتم رجلاً من صفته كذا وكذا؟ فقال واحد منهم: قد دخل تلك الخربة، فدخلوها فإذا برجل جالس، فقال معاوية بن حديج: هو ورب الكعبة؛ فدخلوها واستخرجوه وقد كاد يموت عطشاً، فأقبلوا به على الفسطاط؛ ووثب أخوه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق إلى عمرو بن العاص - وكان في جنده، فقال: أيقتل أخي صبراً؟ فأرسل عمرو إلى معاوية بن حديج يأمره أن يأتيه بمحمد بن أبي بكر كرامة لأخيه عبد الرحمن بن أبي بكر، فقال معاوية: أيقتل كنانة بن بشر وأخلي أنا محمداً! هيهات هيهات! فقال محمد: اسقوني ماء؛ فقال معاوية بن حديج: لا سقاني الله إن سقيتك قطرة؛ إنكم منعتم عثمان الماء، ثم قتلتموه صائماً فتلقاه الله بالرحيق المختوم؛ والله لأقتلنك يا ابن أبي بكر فليسقك الله من الجحيم؛ فقال محمد لمعاوية: يا ابن اليهودية النساجة، ليس ذلك إليك؛ وأما والله لو كان سيفي بيدي ما بلغتم بي هذا؛ فقال له معاوية: أتدري ما أصنع بك؟ أدخلك في جوف حمار، ثم أحرقه عليك بالنار؛ قال محمد: إن فعلتم ذلك لطالما فعلتموه بأولياء الله تعالى؛ ثم طال الكلام بينهما حتى أخذ معاوية محمداً ثم ألقاه في

جيفة حمار ميت ثم حرقه بالنار؛ وقيل: إنه قطع رأسه وأرسله إلى معاوية بن أبي سفيان بدمشق وطيف به، وهو أول رأس طيف به في الإسلام. ولما بلغ عائشة - رضي الله عنها - قتل أخيها محمد بن أبي بكر هذا وجدت عليه وجداً عظيماً وأخذت أولاده وعياله وتولت تربيتهم.

وقال أبو مخنف بإسناده: ولما بلغ علي بن أبي طالب مقتل محمد بن أبي بكر وما كان من الأمر بمصر وتملك عمرو لها واجتماع الناس عليه وعلى معاوية قام في الناس خطيباً فحثهم على الجهاد والصبر والسير إلى أعدائهم من الشاميين والمصريين، وواعدهم الجرعة بين الكوفة والحيرة.

فلما كان من الغد خرج يمشي إليها حتى نزلها فلم يخرج إليه أحد من الجيش؛ فلما كان العشي بعث إلى أشراف الناس فدخلوا عليه وهو حزين كئيب فقام فيهم خطيباً فقال: الحمد لله على ما قضى من أمر وقدر من فعل، وابتلاني بكم وبمن لا يطيع إذا أمرت، ولا يجيب إذا دعوت؛ أو ليس عجيباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ويجيبونه في السنة المرتين والثلاث إلى أي وجه شاء! وأنا أدعوكم - وأنتم أولو النهى وبقية الناس - على المعونة وطائفة من العطاء فتتفرقون عني وتعصونني وتختلفون علي! فقام مالك بن كعب الأرحبي فندب الناس إلى امتثال أمر علي والسمع والطاعة له. فانتدب ألفان فأمر عليهم مالك بن كعب هذا وقال له علي: سر فوا لله ما أظنك تدركهم حتى ينقضي أمرهم فسار بهم خمساً؛ ثم قدم على علي جماعة ممن كان مع محمد ابن أبي بكر الصديق بمصر، فأخبروه كيف وقع الأمر وكيف قتل محمد بن أبي بكر وكيف استقر أمر عمرو فيها، فبعث إلى مالك بن كعب فرده من الطريق، وذلك لأنه خشي عليهم من أهل الشام قبل وصولهم إلى مصر؛ واستقر أمر العراقيين على خلاف علي فيما يأمرهم به وينهاهم عنه والخروج عليه والتنقد على أحكامه وأقواله وأفعاله لجهلهم وقلة عقلهم وجفائهم وغلظتهم وفجور كثير منهم؛ فكتب علي عند ذلك إلى ابن عباس رضي الله عنه وهو نائبه على البصرة يشكو إليه مايلقاه من الناس من المخالفة والمعاندة، فرد عليه ابن عباس يسليه في ذلك ويعزيه في محمد بن أبي بكر ويحثه على تلافي الناس والصبر على مسيئهم، فإن ثواب الجنة خير من الدنيا؛ ثم ركب ابن عباس إلى الكوفة إلى علي واستخلف على البصرة زياداً؛ وقد خرجنا عن المقصود.

* * *

ولاية عمرو بن العاص ثانياً على مصر

قد تقدم الكلام في أول ولايته على نسبه وصحبته للنبي صلى الله عليه وسلم ثم أخذه مصر ثانياً في ترجمة محمد بن أبي بكر الصديق وكيفية قتاله وكيف ملك مصر منه. وولاية عمرو بن العاص هذا في هذه المرة من قبل معاوية بن أبى سفيان، وكان دخوله إلى مصر في شهر ربيع الأول من سنة ثمان وثلاثين، وجمع إليه معاوية الصلاة والخراج في ولايته هذه. وسبب انتماء عمرو إلى معاوية أن عمراً كان لما عزله عثمان بن عفان عن مصر بعبد الله ابن سعد بن أبي سرح المقدم ذكره توجه عمرو وأقام بمكة منكفاً عن الناس حتى كانت وقعة الجمل.

ودخل مصر ووليها بعد محمد بن أبي بكر الصديق ومهد أمورها. ثم خرج منها وافداً على معاوية بالشام واستخلف على مصر ولده عبد الله بن عمرو - وقيل خارجة ابن حذافة - وحضر أمر الحكمين؛ ثم رجع إلى مصر على ولايته، ودام بها إلى أن كانت قصة الخوارج الذين خرجوا لقتل علي ومعاوية وعمرو هذا. فخرج عبد الرحمن بن ملجم لقتل علي رضي الله عنه، وقيس إلى معاوية، ويزيد إلى عمرو بن العاص؛ وسار الثلاثة كل واحد إلى جهة من هو متوجه لقتله، وتواعد الجميع أن يثب كل واحد على صاحبه في سابع عشر شهر رمضان؛ فأما عبد الرحمن فإنه وثب على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقتله حسبما نذكره في ترجمته؛ وأما قيس فوثب على معاوية وضربه فلم تؤثر فيه الضربة غير أنه جرح؛ وأما يزيد فإنه توجه إلى عمرو هذا، فعرضت لعمرو علة تلك الليلة منعته من الصلاة فصلى خارجة بالناس، فوثب عليه يزيد يظنه عمراً فقتله؛ وأخذ يزيد وأدخل على عمرو فقال يزيد: أما والله ما أردت غيرك؛ فقال عمرو: ولكن الله أراد خارجة؛ فصار مثلاً: " أردت عمراً وأراد الله خارجة ". وأقام عمرو بعد ذلك مدة سنين.

وكان عمرو رضي الله عنه من أدهى العرب وأحسنهم رأياً وتدبيراً. قيل: إنه اجتمع مع معاوية بن أبي سفيان مرة فقال له معاوية: من الناس؟ فقال: أنا وأنت والمغيرة بن شعبة وزياد؛ قال معاوية: كيف ذلك؟ قال عمرو: أما أنت فللتأني؛ وأما أنا فللبديهة؛ وأما المغيرة فللمعضلات؛ وأما زياد فللصغير والكبير؛ قال معاوية: أما ذانك فقد غابا فهات بديهتك يا عمرو؛ قال: وتريد ذلك؟ قال: نعم؛ قال: فأخرج من عندك، فأخرجهم معاوية؛ فقال عمرو: يا أمير المؤمنين أسارك، فأدنى معاوية رأسه منه؛ فقال عمرو: هذا من ذاك، من معنا في البيت حتى أسارك! ولما مات عمرو ولي مصر عتبة بن أبي سفيان من قبل أخيه معاوية.

* * *

ولاية عتبة بن أبي سفيان على مصر

هو عتبة بن أبي سفيان - واسم أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس - أخو معاوية بن أبي سفيان لأبيه. ولاه أخوه معاوية إمارة مصر بعد وفاة عمرو بن العاص رضي الله عنه في شوال سنة ثلاث وأربعين. ودخل عتبة مصر في ذي القعدة منها. وكان عتبة هذا شهد مع عثمان بن عفان يوم الدار. قال الحافظ ابن عساكر في تاريخه: قدم على أخيه معاوية بدمشق، وكان له بها في درب الحمالين دار؛ وولي المدينة والطائف والموسم لأخيه معاوية غير مرة، وشهد وقعة الجمل مع عائشة رضي الله عنها ثم انهزم، فعيره عبد الرحمن بن الحكم: الوافر

لعمري والأمور لها دواعٍ ::: لقد أبعدت يا عتب الفرار

ولما قدم عتبة إلى مصر في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعين أقام بها أشهراً ثم خرج منها وافداً على أخيه معاوية بدمشق، واستخلف على مصر عبد الله بن قيس بن الحارث بن عياش التجيبي؛ وكانت في عبد الله المذكور شدة فكرهه الناس بمصر، فبلغ ذلك عتبة هذا فرجع إلى مصر وصعد المنبر وقال: يا أهل مصر، قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم لبعض الجور عليكم، وقد وليكم من إن قال فعل. فإن أبيتم درأكم بيده، فإن أبيتم درأكم بسيفه؛ ثم جاء في الآخر ما أدرك في الأول. إن البيعة شائعة، لنا عليكم السمع والطاعة، ولكم علينا العدل، فأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه. فناداه المصريون من جنبات المسجد: سمعاً سمعاً؛ فناداهم عتبة: عدلاً عدلاً. ثم نزل.

* * *

ولاية عقبة بن عامر على مصر

هو عقبة بن عامر بن عبس بن عمرو بن عدي بن رفاعة بن مودوعة بن عدي بن غنم بن الربعة بن رشدان بن قيس بن جهينة الجهني، أبو حماد الصحابي. شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص ثم وليها من قبل معاوية بن أبي سفيان بعد موت أخيه عتبة بن أبي سفيان في سنة أربع وأربعين، وكان يخضب بالسواد. قال صاحب البغية: ودام بمصر إلى أن قدم مسلمة بن مخلد على معاوية بدمشق، فولاه مصر وأمره أن يكتم ذلك عن عقبة ابن عامر، ثم سيره - إلى مصر. وأمر معاوية عقبة بغزو رودس ومعه مسلمة بن مخلد المذكور، وخرجا إلى الإسكندرية ثم توجها في البحر. فلما سار عقبة استولى مسلمة على سرير إمرته، فبلغ ذلك عقبة بن عامر، وكان ذلك لعشرٍ بقين من ربيع الأول سنة سبع وأربعين؛ وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر؛ وتولى مسلمة. وآخر من روى عن عقبة بمصر أبو قبيل انتهى.

ولاية مسلمة بن مخلد على مصر

هو مسلمة بن مخلد بن صامت بن نيار بن لوذان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج بن حارثة، أبو معن وقيل أبو سعيد، الصحابي الأنصاري ومسلمة بفتح الميم وسكون السين المهملة، ومخلد بضم الميم وتشديد اللام. ولاه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد عزل عقبة بن عامر الجهني في سنة سبع وأربعين حسبما تقدم ذكره في أخر ترجمة عقبة، وجمع له معاوية الصلاة والخراج وبلاد المغرب. فلما ولي مسلمة مصر انتظمت غزواته في البر والبحر: منها غزوة القسطنطينية الآتي ذكرها، ولم يحضرها غير أنه حسن لمعاوية غزوها. وفي أيام ولايته على مصر نزلت الروم البرلس في سنة ثلاث وخمسين فاستشهد في الوقعة وردان مولى عمرو بن العاص في جمع من المسلمين. وفي إمرته لمصر أيضاً هدم ما كان عمرو بن العاص بناه في سنة ثلاث وخمسين، من المسجد بمصر وبناه هو وأمر ببناء منار المسجد؛ وهو أول من أحدث المنار بالمساجد والجوامع. وخرج مسلمة إلى الإسكندرية في سنة ستين واستخلف على مصر عابس بن سعيد، فجاءه الخبر بموت معاوية بن أبي سفيان في شهر رجب منها واستخلاف يزيد بن معاوية بعد أبيه؛ وكتب إليه يزيد بن معاوية وأقره على عمل مصر، وكتب إليه أيضاً بأخذ البيعة له؛ فندب مسلمة عابساً وكتب إليه من الإسكندرية بذلك؛ فطلب عابس أهل مصر وبايع ليزيد فبايعه الجند والناس إلا عبد الله بن عمرو بن العاص، فدعا عابس بالنار ليحرق عليه بابه، فحينئذ بايع عبد الله بن عمرو ليزيد على كره منه.

ثم قدم مسلمة من الإسكندرية فجمع لعابس مع الشرطة القضاء في أول سنة إحدى وستين.

وقد ولي مسلمة بن مخلد مصر؛ وهو أول من جمع له مصر والمغرب، وتوفي سنة اثنتين وستين؛ وكان يكنى أبا سعيد. انتهى كلام ابن عبد الحكم. وكان - مسلمة كثير العبادة.

ولاية سعيد بن يزيد على مصر

هو سعيد بن يزيد بن علقمة بن يزيد بن عوف الأزدي، أمير مصر من أهل فلسطين. ولي إمرة مصر بعد موت مسلمة بن مخلد من قبل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ودخلها في مستهل شهر رمضان سنة اثنتين وستين من الهجرة. وتلقاه أهل مصر ووجوه الناس وفيهم عمرو بن قحزم، الخولاني، فلما رآه قال: يغفر الله لأمير المؤمنين، أما كان فينا مائة شاب كلهم مثلك يولي علينا أحدهم! ثم دخلوا معه. ولم يزل أهل مصر على الشنآن له والإعراض عنه والتكبر عليه حتى توفي يزيد بن معاوية ودعا عبد الله بن الزبير الناس لبيعته وقامت أهل مصر بدعوته وسار منهم جماعة كثيرة إليه، فبعث عبد الله بن الزبير عبد الرحمن بن جحدم أميراً على مصر، واعتزل سعيد المذكور، فكانت ولايته سنتين إلا شهراً واحداً. وقال صاحب كتاب البغية والاغتباط فيمن ملك الفسطاط: ولاه يزيد بن معاوية على صلاة مصر فقدمها في استهلال شهر رمضان سنة اثنتين وستين، فأقر عابساً على الشرطة؛ ثم ساق نحواً مما قلناه، إلى أن قال: وكانت مدته على مصر سنتين وأشهر.

* * *

ولاية عبد الرحمن بن جحدم على مصر

هو عبد الرحمن بن عقبة بن إياس بن الحارث بن عبد أسد بن جحدم بفتح الجيم وسكون الحاء المهملة وفتح الدال المهملة أيضاً وبعدها ميم ساكنة الفهري أمير مصر. وليها من قبل عبد الله بن الزبير بن العوام لما بويع بالخلافة في مكة وبايعه المصريون وتوجه إليه منهم جماعة كثيرة وبايعوه، فأرسل إليهم عبد الرحمن هذا فوصل إلى مصر في شعبان سنة أربع وستين التي ذكرنا حوادثها في إمرة سعيد بن يزيد المقدم ذكره؛ ودخل معه مصر جماعة كثيرة من الخوارج وأظهروا دعوة عبد الله بن الزبير بمصر ودعوا الناس لبيعته، فتابعهم الناس والجند على ما في قلوبهم من الحب في الباطن لبني أمية.

ولما دخل عبد الرحمن المذكور إلى مصر وتم أمره أقر عابساً على الشرطة والقضاء بمصرة فبينما هم في ذلك وصل الخبر من الشأم ببيعة مروان بن الحكم بالخلافة وأن أمره تم، فصارت مصر معه في الباطن، وفي الظاهر لابن الزبير، حتى جهز مروان بن الحكم جيشاً مع ابنه عبد العزيز إلى أيلة ليدخل مصر من هناك. ثم ركب مروان بن الحكم في جيوشه وجموعه وقصد مصر؛ فلما بلغ عبد الرحمن بن جحدم ذلك استعد لحربه وحفر خندقاً في شهر، أو قريب من شهر، وهو الذي بالقرافة. وسار مروان حتى نزل مدينة عين شمس أعني المطرية خارج القاهرة فخرج إليه عبد

الرحمن، فتحاربوا يوماً أو يومين، فكانت بين الفريقين مقتلة كبيرة. ثم آل الأمر بينهما إلى الصلح واصطلحا على أن مروان يقر عبد الرحمن ويدفع إليه مالاً وكسوة؛ ودخل مروان مصر في غرة جمادى الأولى سنة خمس وستين. وقال صاحب البغية في آخر جمادى الأولى من السنة. ومدة مقام ابن جحدم فيها إلى أن دخل مروان تسعة أشهر. وبايعه الناس إلا قليلاً فضرب أعناقهم، وجعل على الشرطة في مدة مقامه عمرو بن سعيد بن العاص، وخرج منها يعني مروان لهلال رجب سنة خمس وستين. انتهى كلام صاحب البغية.

وقال غيره: وعزل مروان عبد الرحمن بن جحدم عن إمرة مصر، وكانت مدة ولايته عليها تسعة أشهر وأياماً. وفتح مروان خزائنه ووضع العطاء، فبايعه الناس إلا نفراً من المعافر قالوا: لا نخلع بيعة عبد الله بن الزبير. فضرب مروان أعناقهم وكانوا ثمانين رجلاً، وذلك في نصف جمادى الآخرة. وكان في ذلك اليوم موت عبد الله بن عمرو بن العاص فلم يستطع أحد أن يخرج بجنازته إلى المقبرة، فدفنوه بداره لشغب الجند على مروان. ثم ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام اللخمي سيد لخم، وكان من قتلة عثمان رضي الله عنه؛ ثم ولى مروان ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر وجمع له الصلاة والخراج معاً. ثم خرج منها مروان يريد الشأم بعد أن أوصى ولده عبد العزيز بوصايا كثيرة مضمونها الرفق بأهل مصر. وكان خروج مروان من مصر في أول يوم من شهر رجب.

* * *

ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية القرشي الأموي أمير مصر؛ كنيته أبوا لأصبغ؛ مولده بالمدينة، ثم دخل الشام مع أبيه مروان وكانت داره بدمشق، وهي الدار التي للصوفية الآن المعروفة بالسميساطية ثم كانت لابنه عمر بن عبد العزيز بعده. وولي إمرة مصر لأبيه مروان في غرة شهر رجب سنة خمس وستين على الصلاة والخراج معاً بعد ما عهد له بالخلافة بعد أخيه عبد الملك.

وكان السبب في بيعتهما أن عمرو بن سعيد بن العاص لما هزم مصعب بن الزبير، حين وجهه أخوه عبد الله إلى فلسطين، رجع إلى مروان وهو بدمشق، فبلغ مروان أن عمراً يقول: إن الأمر لي بعد مروان، فدعا مروان حسان بن ثابت فأخبره بما بلغه عن عمرو؛ فقال: أنا أكفيك عمراً؛ فلما اجتمع الناس عند مروان عشياً قام حسان فقال: إنه بلغنا أن رجالاً يتمنون أماني، قوموا فبايعوا لعبد الملك ثم لعبد العزيز من بعده، فبايعوا إلى آخرهم. ومات أبوه بعد مدة يسيرة حسبما تقدم ذكره، واستقر أخوه عبد الملك بن مروان في الخلافة من بعده، فأقر عبد العزيز هذا على عمل مصر على عادته. وقد روى عبد العزيز هذا الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبي هريرة، وروى عنه ابنه عمرو بن عبد العزيز والزهري وعلي بن رباح وجماعة. قال ابن سعد: كان ثقة قليل الحديث. وقال غيره: كان يلحن في كلامه ثم تعلم العربية فأحسن تعلمها، وكان فصيحاً جواداً ذا مروءة وكرم؛ وكان أبوه مروان عقد له البيعة بعد عبد الملك ثم ولاه مصر؛ وهو معدود من الطبقة الثالثة من تابعي أهل الشام. وكان عبد العزيز هذا قد حده عمرو بن سعيد الأشدق في شراب شربه فوجد عليه ابنه عمر بن عبد العزيز؛ فلما ولي عمر المدينة وجد إسحاق بن علي بن عبد الله بن جعفر في بيت خليدة العرجاء، فحده عمر حد الخمرة؛ فقال إسحاق: يا عمر، كل الناس جلدوا في الخمر - يعرض بأبيه عبد العزيز. قلت: وكانت وفاة عبد العزيز في ثالث عشر جمادى الأولى سنة ست وثمانين من الهجرة، وقيل سنة خمس وثمانين؛ فكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً. وتولى مصر من بعده عبد الله بن عبد الملك بن مروان. وقال محمد بن الحارث المخزوي: دخل رجل على عبد العزيز في ولايته على مصر يشكو إليه صهراً له، فقال: إن ختني ظلمني؛ فقال له عبد العزيز: من ختنك؟ فقال: الرجل الختان الذي يختن الناس؛ فقال عبد العزيز لكاتبه: ما هذا الجواب؟ فقال: أيها الأمير، إنك لحنت والرجل يعرف اللحن، وكان ينبغي أن تقول: من ختنك بالضم؛ فقال عبد العزيز: أتراني أتكلم بكلام لا تعرفه العرب؟ والله لا شاهدت الناس حتى أعرف اللحن؛ فأقام في بيتٍ جمعة لا يظهر ومعه من يعلمه النحو؛ فصلى بالناس الجمعة الأخرى وهو أفصح الناس.

ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر

هو عبد الله ابن الخليفة عبد الملك بن مران بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس، القرشي الأموي الأمير أبو عمر. ولد في حدود سنة ستين ونشأ بدمشق تحت كنف والده عبد الملك؛ وندبه أبوه في خلافته إلى عدة غزوات، وافتتح المصيصة في سنة أربع وثمانين وقتل وسبى وغنم؛ ثم ولاه أبوه إمرة مصر بعد موت عمه عبد العزيز بن مران في سنة خمس وثمانين، فتوجه إليها ودخلها في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من سنة خمس وثمانين، وقيل من سنة ست وثمانين. ودخل مصر ابن سبع وعشرين سنة؛ كان أبوه عبد الملك أمره أن يعفي آثار عبد العزيز؛ فأول ما دخل عبد الله المذكور استبدل العمال بعمال غيرهم والأصحاب بأصحاب أخر، واستعمل على شرطة مصر عبد الأعلى، ومنع من لبس البرانس؛ وكان فيه شدة بأس. فلم يكن إلا أشهر وتوفي أبوه عبد الملك بن مران وولي الخلافة من بعده أخوه الوليد بن عبد الملك، فأقره الوليد على إمرة مصر على عادته؛ فأمر عبد الله المذكور أن تنسخ دواوين مصر بالعربية، وكانت تكتب بالقبطية، ففعل ذلك. ثم وقع في سنة سبع وثمانين الشراقي بمصر وغلت الأسعار بها إلى الغاية، حتى قيل: إن أهل مصر لم يروا في عمرهم مثل تلك الأيام. وقاست أهل مصر شدائد بسبب الغلاء، فاستشأمت الناس بكعبه. هذا مع ما كان عليه من الجور؛ فإنه كان يرتشي ويأخذ الأموال من الخراج وغيره. ولما شاع ذلك عنه طلبه أخوه الوليد من مصر، فخرج عبد الله من مصر إليه بدمشق في صفر سنة ثمان وثمانين، واستخلف على مصر عبد الرحمن بن عمرو بن مخزوم الخولاني. هذا وأهل مصر في شدة عظيمة من عظم الغلاء؛ فأقام عند الوليد مدة يسيرة ثم عاد إلى مصر حتى عزله أخوه الوليد بن عبد الملك عن إمرة مصر في سنة تسعين، وولى عوضه على مصر قرة بن شريك الآتي ذكره. فكانت ولاية عبد الله هذا على مصر ثلاث سنين وعشرة أشهر.

وبعد عزله توجه إلى دمشق عند أخيه الوليد. وخرج من مصر بجميع أمواله واستصحب معه الهدايا والتحف إلى أخيه الوليد. فلما وصل إلى الأردن أحيط به من قبل أخيه الوليد فأخذ جميع ما كان معه، وحمل عبد الله المذكور إلى أخيه الوليد. وعبد الله هذا أمه أم ولد لأن أكبر إخوته الوليد ثم سليمان ثم مران الأكبر - عرج - وعائشة؛ وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن خزيمة؛ ثم يزيد ومروان الأصغر ومعاوية وأم كلثوم، وأمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان؛ ثم هشام وأمه أم هشام بنت إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومية واسمها عائشة؛ ثم أبو بكر، وكان يعرف ببكار، وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله؛ ثم الحكم وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان؛ ثم فاطمة وأمها أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة؛ ثم عبد الله هذا صاحب الترجمة، ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعيد الخير والحجاج لأمهات الأولاد.

ولاية قرة بن شريك على مصر

هو قرة بن شريك بن مرثد بن حازم بن الحارث بن حبش بن سفيان بن عبد الله بن ناشب بن هدم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن أعصر بن سعد بن قيس بن عيلان العبسي، أمير مصر.

ولي مصر بعد عزل عبد الله بن عبد الملك بن مروان من قبل الوليد بن عبد الملك ابن مروان على صلاة مصر وخراجها، ودخلها يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الأول سنة تسعين.

قال العلامة شمس الدين يوسف بن قز أوغلي في تاريخه مرآة الزمان: كان قرة من أمراء بني أمية وولاه الوليد مصر. وكان سيىء التدبير خبيثاً ظالماً غشوماً فاسقاً منهمكاً، وهو من أهل قنسرين؛ قدم مصر سنة تسع وثمانين أوسنة تسعين؛ وكان الوليد عزل أخاه عبد الله بن عبد الملك بن مروان، وولى قرة وأمره ببناء جامع مصر والزيادة فيه سنة اثنتين وتسعين، فأقام في بنائه سنتين. قلت: وقد قدمنا في ترجمة عمرو بن العاص عند ذكر بنائه جامعه نبذة من ذلك.

قال: وكان الناس يصلون الجمعة في قيسارية العسل حتى فرغ قرة من بنائه.

وكان الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا بالخمور والزمور والطبول فيشرب الخمر في المسجد طول الليل، ويقول: لنا الليل ولهم النهار؛ وكان أشر خلق الله؛ وتحالفت الأزارقة على قتله فعلم فقتلهم؛ وكان عمر بن عبد العزيز يعتب على الوليد لتوليته مصر. ومات قرة في سنة خمس وتسعين بمصر.

* * *

ولاية عبد الملك بن رفاعة الأولى على مصر

هو عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي المصري، أمير مصر؛ ولي مصر بعد موت قرة بن شريك من قبل الوليد بن عبد الملك بن مران. وليها في شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين على الصلاة، فلم يكن بعد ولايته إلا أيام ومات الوليد بن عبد الملك وتخلف أخوه سليمان بن عبد الملك، فأقر عبد الملك هذا على عمل مصر، فدام على ذلك وحسنت سيرته، فإنه كان عفيفاً عن الأموال ديناً، وفيه عدل في الرعية؛ وكان ثقة أميناً فاضلاً؛ روى عنه الليث بن سعد وغيره.

قال الليث بن سعد: كان يقول عبد الملك بن رفاعة: إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق يعني بهذا الكلام في حق كل عامل على بلد. قلت: وهذا أيضاً في حق كل حاكم كائن من كان. وفي الجملة فقد كان بينه، وبين قرة بن شريك

زحام. وكان المتولي في أيام عبد الملك بن رفاعة على خراج مصر أسامة بن زيد التنوخي، وعلى الشرطة أخاه الوليد بن رفاعة.

قال الكندي: كتب سليمان بن عبد الملك بن مران إلى أسامة: احلب الدر حتى ينقطع، وأحلب الدم حتى ينصرم. قال: فذلك أول شدة دخلت على أهل مصر. وقال يومًا سليمان بن عبد الملك - وقد أعجبه فعل أسامة بن زيد المذكور: هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهماً؛ فقال له ابن عمه عمر بن عبد العزيز بن مروان: أنا أدلك على من هو شر من أسامة ولا يرتشي ديناراً ولا درهماً؛ قال سليمان: ومن هو؟ قال عمر: عدو الله إبليس؛ فغضب سليمان وقام من مجلسه.

ولما مات سليمان بن عبد الملك وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وجه في عزل أسامة بن زيد المذكور قبل دفن سليمان، وأقر عبد الملك بن رفاعة على عمله بمصر مدة، ثم عزله بأيوب بن شرحبيل في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين. وكانت ولاية عبد الملك بن رفاعة على مصر في هذه المرة ثلاث سنين تخميناً. وتأتي بقية ترجمته في ولايته الثانية إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية أيوب بن شرحبيل على مصر

هو أيوب بن شرحبيل بن أكشوم بن أبرهة بن الصباح أمير مصر.

وأيوب هذا أحد أمراء مصر وليها لعمر بن عبد العزيز. روى عنه أبو قبيل وعبد الرحمن بن مهران، وتوفي في رمضان سنة إحدى ومائة.

قلت: وكانت ولاية أيوب هذا على مصر بعد عبد الملك بن رفاعة من قبل عمر بن عبد العزيز في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين. فلما ولي أيوب هذا مصر جعل الفتيا بمصر إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر، وجعل على الشرطة الحسن بن يزيد الرعيني؛ وزيد في عطايا الناس عامة، وعطلت حانات الخمر وكسرت بإشارة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، ونزحت القبط عن الكور، واستعملت عليها، المسلمون، ونزعت أيديهم أيضاً عن المواريث واستعمل عليها المسلمون. وحسنت أحوال الديار المصرية في أيامه، وأخذ أيوب هذا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح الأمور.

وبينما هو في ذلك قدم عليه الخبر بموت الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في شهر رجب سنة إحدى ومائة وتولية يزيد بن عبد الملك بن مران الخلافة، وأن يزيد أقر أيوب بن شرحبيل المذكور على عمله بمصر على الصلاة على عادته؛ فلم تطل مدة أيوب بعد ذلك، ومات في يوم سابع عشر شهر رمضان من سنة إحدى ومائة المذكورة، وقيل: لإحدى عشرة خلت من شهر رمضان، فكانت ولايته على مصر سنتين ونصف سنة، وتولى مصر بعده بشر بن صفوان الآتي ذكره. وقال صاحب كتاب البغية والاغتباط فيمن ولي الفسطاط: إنه عزل يعني أيوب هذا في التاريخ المذكور من الشهر والسنة؛ غير أنه خالف ما ذكرناه من موته، وقال: عزل والله أعلم، ووافقه غيره على ذلك. والصحيح ما نقلناه أنه توفي.

غير أن يزيد لما ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز غير غالب ما كان قرره عمر. وسببه أن عمر لما احتضر قيل له: اكتب إلى يزيد ابن عمك وأوصه بالأمة، قال: بماذا أوصيه! إنه من بني عبد الملك؛ ثم كتب إليه: أما بعد، فاتق الله يا يزيد، واتق الصرعة بعد الغفلة حين لا تقال العثرة ولا تقدر على الرجعة، إنك تترك ما تترك لمن لا يحمدك، وتصير إلى من لا يعذرك، والسلام. فلما ولي يزيد نزع أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن المدينة، واستعمل عبد الرحمن ابن الضحاك بن قيس القهري عليها،

فاستقضى عبد الرحمن بن سلمة بن عبد الله بن عبد الأسد المخزوي - وأراد معارضة ابن حزم فلم يجد عليه سبيلاً حتى شكا عثمان بن حيان إلى يزيد من ابن حزم أنه ضربه حدين وطلب منه أن يقيده منه. ثم عمد يزيد إلى كل ما صنعه ابن عمه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده، ولم يخف شناعة عاجلة ولا إثماً آجلاً. فمن ذلك أن محمد بن يوسف أخا الحجاج بن يوسف كان عاملاً على اليمن، فجعل عليهم خراجاً محدداً، فلما ولي عمر ابن عبد العزيز كتب إلى عامله باليمن يأمره بالاقتصار على العشر ونصف العشر وترك ما حدده محمد، وقال: لأن يأتيني من اليمن حفنة ذرة أحب إلي من تقرير هذه الوظيفة. فلما ولي يزيد بعد عمر أمر بردها، وقال لعامله: خذها منهم ولو صاروا حرضاً، والسلام. ثم عزل جماعة من العمال. فمن قال بعزل أيوب عن مصر فهو يستدل بما ذكرناه، والأصح أنه مات في التاريخ المذكور المقدم ذكره.

* * *

ولاية بشر بن صفوان على مصر

هو بشر بن صفوان بن تويل بفتح التاء المثناة بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شرحبيل بن عرين بن أبي جابر بن زهير الكلبي، أمير مصر. وليها من قبل يزيد بن عبد الملك بعد موت أيوب بن شرحبيل في سابع عشر شهر رمضان سنة إحدى ومائة.

قال ابن يونس: وحدث عنه عبد الله بن لهيعة، ويروي عن أبي فراس انتهى كلام ابن يونس، ولم يذكر وفاته ولا عزله.

وقال غيره: وفي أيام بشر على مصر نزل الروم تنيس وأقام بعد ذلك مدة.

وولاه الخليفة يزيد بن عبد الملك على إفريقية بالغرب، فخرج إليها من مصر في شوال سنة اثنتين ومائة واستخلف أخاه حنظلة بن صفوان على مصر، فأقره يزيد بن عبد الملك على إمرة مصر عوضاً عن أخيه بشر المذكور.

* * *

ولاية حنظلة بن صفوان الأولى على مصر

ولي حنظلة إمرة مصر باستخلاف أخيه بشر بن صفوان له لما ولاه الخليفة يزيد بن عبد الملك إمرة إفريقية وكتب ليزيد بذلك، فأقره يزيد على إمرة مصر وذلك في شوال سنة اثنتين ومائة. وحنظلة هذا من بني كلب. ولما ولي مصرمهد أمورها ودام بها إلى سنة ثلاث ومائة ثم خرج إلى الإسكندرية واستخلف على مصر عقبة بن مسلم التجيبي؛ ثم ورد عليه كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان بكسر الأصنام والتماثيل، فكسرت كلها ومحيت التماثيل من ديار مصر وغيرها في أيامه.

قلت: واستمر حنظلة على عمله بمصر حتى توفي يزيد بن عبد الملك واستقر أخوه هشام بن عبد الملك في الخلافة، فصرف حنظلة هذا بأخيه محمد بن عبد الملك بن مروان، وذلك في شوال سنة خمس ومائة؛ فكانت مدته على مصر ثلاث سنين. وتأتي بقية ترجمته في ولايته الثانية على مصر إن شاء الله تعالى. وسبب عزل حنظلة عن مصر أمور، منها: أن هشاماً عزله وأراد أن يولي عقفان على مصر عوضه ثم ثنى عزمه عن ذلك وولى عقفان الصدقة وولى أخاه محمداً مصر. وعقفان المذكور حروري اسمه عقفان، خرج في أيام يزيد بن عبد الملك في ثلاثين رجلا، فأراد يزيد أن يرسل إليه جنداً يقاتلونه، فقيل له: إن قتل عقفان بهذه البلاد اتخذها الخوارج دار هجرة، والرأي أن تبعث لكل رجل من أصحابه رجلاً من قومه يكلمه فيرده؛ ففعل يزيد ذلك؛ فقال لهم أهلوهم: إنا نخاف أن نؤخذ بكم؛ وأومنوا فرجعوا وبقي عقفان وحده، فبعث إليه يزيد أخاه فاستعطفه

ورده. فلما ولي هشام الخلافة ولاه أمر العصاة بعد أن أراد أن يوليه إمرة مصر. ولما ولي عقفان أمر العصاة وعظم أمره قدم ابنه من خراسان عاصياً، فشده وثاقاً وبعث به إلى الخليفة هشام، فأطلقه هشام لأبيه، وقال: لو خاننا عقفان لكتم أمر ابنه عنا. فاستعمله على الصدقة، فبقي عقفان على الصدقة إلى أن مات هشام وولي الخلافة مروان الجعدي الحمار.

* * *

ولاية محمد بن عبد الملك على مصر

هو محمد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير مصر. وليها بعد عزل حنظلة بن صفوان من قبل أخيه الخليفة هشام بن عبد الملك على الصلاة، ودخل إليها يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال من سنة خمس ومائة المقدم ذكرها. ومحمد هذا هو أخو سعيد بن عبد الملك لأبويه، وهو من الطبقة الرابعة من تابعي أهل دمشق. وكان ناسكاً كثير العبادة حسن السيرة جواداً؛ كان يكره من أخيه هشام وغيره حتى يلي الأعمال؛ ولما ولي مصر جعل على شرطته حفص بن الوليد الحضرمي. وحدث عن رجل عن أبي هريرة وسمع من المغيرة بن شعبة.

وقال أبو حاتم: روى عمن سمع معاوية وعن المغيرة مرسلاً، وروى عنه الأوزاعي وغيره، وكان ثقة مأموناً. وحين وصوله إلى مصر وقع بها وباء ففر منها محمد إلى الصعيد، فلم تطل مدته بالصعيد وعاد بعد أيام إلى مصر. ثم خرج منها بسرعة إلى الأردن واستعفى فأعفي. وصرف عن إمرة مصر بالحر بن يوسف، فكانت ولايته شهراً واحداً؛ وسكن الأردن، ودام في دولة أخيه هشام على ذلك إلى أن حج بالناس في سنة ثلاثين ومائة. وعاد من الحج فوجد الفتن قائمة بالشأم من جهة بني العباس، فاستمر عند ابن عمه مروان بن محمد بن مروان المعروف بالحمار إلى أن هزم مروان المذكور في وقعة العراق من أبي مسلم الخراساني. وقبض على محمد هذا وعلى أخيه مع مروان الحمار، فقتلهما عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس؛ قتلهما بنهر أبي فطرس، وقيل: إنه صاحب الواقعة مع عبد الله بن علي العباسي يوم هزم مروان عند نهر الزاب. وهو أنه لما كانت الهزيمة على بني أمية رأى عبد الله بن علي فتى عليه أبهة الشرف يقاتل مستقتلاً، فناداه عبد الله: يا فتى، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد، فقال الفتى: إن لم أكنه فلست بدونه؛ قال: فلك الأمان ولو كنت من كنت، فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال المتقارب:

أذل الحياة وكره الممات ::: وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن لم يكن غير إحداهما ::: فسيراً إلى الموت سيراً جميلا

ثم قاتل حتى قتل، فإذا هو محمد بن عبد الملك، وقيل: ابن لمسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، عفا الله عنه.

* * *

ولاية الحر بن يوسف على مصر

هو الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس القرشي الأموي أمير مصر والحر بضم الحاء المهملة وتشديد الراء المهملة. وليها بعد عزل محمد بن عبد الملك من قبل هشام بن عبد الملك على الصلاة؛ وكان المتولي على خراج مصر في هذه السنين كلها عبيد الله بن الحبحاب. فدخل الحر بن يوسف هذا إلى مصر لثلاث خلون من ذي الحجة سنة خمس ومائة وباشر أمورها، وأقر حفص بن الوليد على شرطة مصر على عادته. وفي أيامه انتقضت القبط بمصر في سنة سبع ومائة ووقع له معهم أمور طويلة؛ ثم خرج من مصر مرابطاً إلى دمياط، فأقام بها ثلاثة أشهر مغازياً؛ ثم عاد إلى مصر وأقام بها أياماً؛ ثم خرج منها ووفد على الخليفة هشام بن عبد الملك بالشأم، واستخلف حفص بن الوليد على الصلاة بمصر. فأقام عند الخليفة مدة يسيرة وعاد إلى مصر في ذي القعدة من سنة سبع ومائة وقد انكشف أراضيها من النيل، فأخذ في إصلاح أحوالها وتدبير أمورها. ودام بها إلى ذي القعدة من سنة ثمان ومائة. وصرف عنها في ذي القعدة باستعفائه لمغاضبة وقعت بينه وبين عبيد الله بن الحبحاب متولي خراج مصر. فكانت ولاية الحر هذا على مصر ثلاث سنين سواء.

وتولى من بعده على مصر حفص بن الوليد الذي كان استخلفه الحر هذا على الصلاة لما وفد على الخليفة هشام.

* * *

ولاية حفص بن الوليد الأولى على مصر

هو حفص بن الوليد بن سيف بن عبد الله بن الحارث بن جبل بن كليب بن عوف بن معاهر بن عمرو بن زيد بن مالك بن زيد بن الحارث بن عمرو بن حجر بن قيس بن كعب بن سهل بن زيد بن حضرموت، الأمير أبو بكر الحضرمي القاري، أمير مصر. وليها بعد عزل الحر بن يوسف من قبل هشام بن عبد الملك على الصلاة مكرهاً على ذلك. وكان حفص وجيهاً عند بني أمية ومن أكابر أمرائهم، وكان فاضلاً ثقة. روى عن الزهري وغيره، وروى عنه الليث بن سعد وجماعة أخر. ولم تطل مدته على ولاية مصر في هذه المرة وعزل بعد جمعتين يوم عيد الأضحى وقيل آخر ذي الحجة سنة ثمان ومائة.

قلت: وعلى القولين لم تطل ولايته بل ولا وصلت إلى أربعين يوماً؛ وكان سبب عزله عن إمرة مصر بسرعة شكوى عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراج مصر عليه للخليفة هشام بن عبد الملك، وشكوى جماعة أخر من أوباش المصريين. فعزله هشام عن مصر بعبد الملك بن رفاعة. ثم ندم أهل مصر على عزله وطلبوا منه إعادته عليهم - يأتي ذكر ذلك كله في ولايته الثانية على مصر، فإنه وليها بعد ذلك ثانياً وثالثاً حتى قتله الحوثرة في سنة ثمان وعشرين ومائة.

وكان حفص شريفاً مطاعاً محبباً للناس ولديه معرفة وفضيلة. واستقدمه هشام بعد عزله عن مصر وأراد أن يوليه خراسان عوضاً عن أسد بن عبد الله القسري، فامتنع حفص من ذلك. وكان سبب عزل أسد عن خراسان أنه خطبهم يوماً فقال: قبح الله هذه الوجوه، وجوه أهل الشقاق والنفاق والشغب والفساد، اللهم فرق بيني وبينهم وأخرجني إلى مهاجري ووطني؛ فبلغ قوله هشاماً، فكتب إلى خالد بن عبد الله القسري: اعزل أخاك، فعزله. وأراد هشام أن يولي حفصاً فامتنع، فولى خراسان الحكم بن عوانة الكلبي، ثم عزله هشام واستعمل عليها أشرس بن عبد الله وأمره أن يكاتب خالداً؛ وكان الأشرس فاضلاً خيراً؛ كانوا يسمونه الكامل لفضله، فلما قدم خراسان فرحوا. وقد خرجنا عن المقصود استطراداً.

* * *

ولاية عبد الملك بن رفاعة الثانية على مصر

قلت: تقدم التعريف بعبد الملك هذا في أول ولايته على مصر بعد موت قرة بن شريك سنة ست وتسعين. وكانت ولاية عبد الملك أيضاً على الصلاة لا غير، والخراج عليه عبيد الله بن الحبحاب على عادته. فقدم عبد الملك المذكور من الشأم إلى مصر عليلاً في أول المحرم، وقيل: اثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة تسع ومائة والأول أصح - وكان أخوه الوليد بن رفاعة يخلفه على الصلاة بمصر من أول المحرم السنة المذكورة أعني من أول يوم ولايته. فلما دخل عبد الملك إلى مصر لم يطق الصلاة بالناس لشدة مرضه، فاستمر أخوه الوليد بن رفاعة يصلي بالناس وعبد الملك ملازم الفراش إلى أن توفي نصف المحرم من السنة المذكورة، فكانت ولايته هذه الثانية على مصر خمس عشرة ليلة على أنه دخل مصر في أول المحرم. وتولى مصر بعده أخوه الوليد بن رفاعة.

* * *

ولاية الوليد بن رفاعة على مصر

هو الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن ظاعن، الفهمي المصري، أمير مصر. وليها باستخلاف أخيه عبد الملك إليه فأقره الخليفة هشام بن عبد الملك على إمرة مصر وعلى الصلاة. وجعل الوليد هذا على شرطة مصر عبد الله بن أبي، سمير الفهمي ثم عزله وولى خالد بن عبد الرحمن الفهمي؛ واستمر على إمرة مصر وطالت أيامه ووقع له بها أمور وقعت في أيامه حوادث. وفي أيامه نقلت قيس إلى مصر ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك. وفي أيامه أيضاً خرج وهيب اليحصبي من مصر في سنة سبع عشرة ومائة من أجل أن الوليد هذا أذن للنصارى في عمارة كنيسة يوحنا بالحمراء. فلم يكن بعد أيام قليلة إلا ومرض الوليد ولزم الفراش حتى مات في يوم الثلاثاء في مستهل جمادى الآخرة سنة سبع عشرة ومائة، واستخلف عبد الرحمن بن خالد على الصلاة بمصر. وكانت إمرته على مصر تسع سنين وخمسة أشهر؛ وولي مصر بعده عبد الرحمن بن خالد المذكور. ولم تطل مدة الوليد هذا على مصر إلا لخروج عبيد الله بن الحبحاب المتولي على خراج مصر منها؛ وقد تقدم عزل جماعة كبيرة من العمال بمصر بسبب عبيد الله المذكور، فدبر عليه الوليد هذا حتى أخرجه هشام من مصر واستعمله على إفريقية، فسار إليها عبيد الله بن الحبحاب واشتغل بها عن خراج مصر. فإنه في أول خروجه سير جيشاً إلى صقلية، فلقيهم مراكب الروم فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم الروم، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين فيهم عبد الرحمن بن زياد فبقي أسيراً إلى سنة إحدى وعشرين ومائة.

* * *

ولاية عبد الرحمن بن خالد على مصر

هو عبد الرحمن بن خالد بن مسافر بن خالد بن ثابت بن ظاعن، الأمير أبو خالد، وقيل أبو الوليد، الفهمي المصري، أمير مصر لهشام بن عبد الملك بن مروان؛ وكان استخلفه الوليد بن رفاعة قبل موته على صلاة مصر؛ وكان قبل ذلك أيضاً ولي شرطتها مدة سنين، فلما مات الوليد بن رفاعة أقره الخليفة هشام على إمرة مصر عوضاً عن الوليد بن رفاعة على الصلاة، وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة سبع عشرة ومائة. ولما تم أمره جعل على شرطته عبد الله بن بشار الفهمي. وكان في عبد الرحمن هذا لين. وفي ولايته على مصر نزلت الروم بنواحي مصر وأسروا منها خلقاً كثيراً، فلما بلغ هشاماً ذلك عزله عن إمرة مصر وأعاد حنظلة بن صفوان ثانياً على مصر، وذلك في سنة ثمان عشرة ومائة، فكانت مدة ولايته على مصر سبعة أشهر وخمسة أيام. وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في كتابه تذهيب التهذيب بعد ما قال أمير مصر لهشام، والليث بن سعد أحد مواليه، قال: روى عن الزهري وروى

عنه الليث بن سعد ويحيى بن أيوب. قال ابن معين: كان عنده عن الزهري كتاب فيه مائتا حديث أو ثلاثمائة حديث كان الليث يحدث بها عنه. وقال النسائي: ليس به بأس. وقال ابن يونس: ولي مصر سنة ثمان عشرة ومائة وعزل سنة تسع عشرة ومائة. قلت: والذي ذكرناه في تاريخ ولايته وعزله هو الأشهر. قال: وكان ثبتاً في الحديث، وتوفي سنة سبع وعشرين ومائة.

* * *

ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر

قلت: تقدم التعريف به في ولايته الأولى على مصر في سنة اثنتين ومائة؛ وكان سبب ولايته هذه على مصر ثانياً أنه لما ضعف أمر عبد الرحمن بن خالد أمير مصر المقدم ذكره شكا منه أهل مصر إلى هشام بن عبد الملك، وكان شكواهم من لينه لا لسوء سيرته، فعزله الخليفة هشام لهذا المقتضى وغيره وولى حنظلة بن صفوان هذا ثانياً على إمرة مصر على صلاتها؛ فقدمها حنظلة في خامس المحرم سنة تسع عشرة ومائة، وتم أمره ورتب أمور الديار المصرية ودام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومائة؛ وفيها انتقض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم. ثم في سنة اثنتين وعشرين ومائة قدم عليه بمصر رأس زيد بن علي زين العابدين فأمر حنظلة بتعليقها وطيف بها؛ ثم استمر على إمرة مصر إلى أن عزله عنها الخليفة هشام بن عبد الملك وولاه إفريقية، فاستخلف حنظلة على صلاة مصر حفص بن الوليد الحضري المعزول عن إمرة مصر قبل تاريخه. وخرج حنظلة من مصر إلى إفريقية يوم الاثنين لسبع خلون من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة، فكانت ولايته على مصر في هذه المرة الثانية خمس سنين وثمانية أشهر.

وذكر صاحب كتاب البغية والاغتباط، فيمن ولي الفسطاط قال بعد ما سماه: ولي ثانياً من قبل هشام على الصلاة، فقدم يوم الجمعة لخمس خلون من المحرم سنة تسع عشرة ومائة، وجعل على شرطته عياض بن خترمة بن سعد الكلبي. ثم ذكر نحواً مما ذكرناه من عزله وخروجه إلى إفريقية.

* * *

ولاية حفص بن الوليد ثانياً على مصر

قلت: تقدم التعريف بحفص هذا في أول ترجمته لما ولي مصر في سنة ثمان ومائة. وكان سبب ولايته هذه الثانية على مصر: أن حنظلة بن صفوان ولما ولي إفريقية، أقر حفصاً هذا على صلاة مصر وتوخه إلى إفريقية، فأقره الخليفة هشام بن عبد الملك على إمرة مصر على الصلاة، وذلك في، ربع شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة. وقال صاحب البغية: فأقره هشام يعني على إمرة مصر، ثم جمع له بين الصلاة والخراج في ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة أربع وعشرين ومائة. فجعل على شرطته عقبة بن نعيم الرعيني، وجعل على الديوان يحيى بن عمرو العسقلاني، وعلى الزمام عيسى بن عمرو؛ ثم صرفه الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك عن الخراج وولاه عيسى بن أبي عطاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائة، وانفرد بالصلاة. ثم استعفى مروان بن محمد بن مروان فأعفاه، فكانت ولايته هذه ثلاث سنين إلا شهراً. وقال غيره: جمع له هشام بن عبد الملك الصلاة والخراج معاً. وكان لأمراء مصر مدة سنين أن يلي الأمير على الصلاة لا غير، فلما جمع لحفص بين الصلاة والخراج وقع في أيامه شراقي وقحط بالديار المصرية، فاستسقى حفص بالناس وخطب ودعا الله سبحانه وتعالى وصلى، ثم عاد إلى منزله. فلم يكن إلا القليل وورد عليه موت الخليفة هشام بن عبد الملك، واستخلف من بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، فأقر الوليد حفصاً هذا على ما كان عليه من إمرة مصر على الصلاة والخراج أياماً قليلة، ثم صرفه عن الخراج بعيسى بن أبي عطاء في ثالث عشرين شوال سنة خمس وعشرين ومائة وانفرد حفص بالصلاة. ثم خرج حفص من مصر إلى الشأم ووفد على الوليد بن يزيد بعد أن أستخلف على صلاة مصر عقبة بن نعيم الرعيني. وعند وصول حفص إلى دمشق اختلف الناس على الوليد وخلعوه من الخلافة ثم قتلوه، لسوء سيرته وقبيح أفعاله، كل ذلك وحفص بالشأم، وبويع بالخلافة ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان. ولما ولي يزيد المذكور الخلافة أقر حفصاً هذا على عمله وأمره بالعود إلى مصر وأن يفرض للجند ثلاثين ألفاً. فعاد حفص إلى مصر وفرض الفروض وبعث بيعة أهل مصر إلى يزيد بن الوليد. فلم تطل مدة أيام يزيد وتوفي وبويع بالخلافة من بعده إبراهيم بن الوليد، فلم يتم عليه أمره وتغلب عليه مروان بن محمد بن مروان الجعدي المعروف بالحمار، ودعا لنفسه وتم له ذلك؛ فلما بلغ حفصاً ذلك بعث يستعفيه من ولاية مصر فأعفاه مروان وولى مكانه حسان بن عتاهية. وكانت ولاية حفص هذه الثانية نحو ثلاث سنين.

وقال المسور الخولاني يحذر ابن عم له من مروان ويذكر قتل مروان حفص بن

الوليد ورجاء بن الأشيم ومن قتل معهما من أشراف أهل مصر: الطويل

وإن أمـــير المـــؤمنين مســـلط ::: على قتل أشـراف الـبلاد فـأعلم

فإياك لا تجني مـن الشـر غلطـةً ::: فتودي كحفصٍ أو رجاء بن أشـيم

فلا خير في الدنيا ولا العيش بعـدهم ::: وكيف وقد أضحوا بسفح المقطـم

* * *

ولاية حسان بن عتاهية على مصر

هو حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية بن خزز بن سعد بن معاوية التجيبي. وقال صاحب البغية: حسان بن عتاهية بن عبد الرحمن.

ولاه مروان بن محمد بن المعروف بالحمار على إمرة مصر وهو بالشأم، فأرسل حسان من الشأم بكتاب إلى ابن نعيم باستخلافه على صلاة مصر إلى أن يحضر من الشأم، فسلم حفص بن الوليد الأمر إلى أبن نعيم؛ ثم قدم حسان المذكور إلى مصر في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة على الصلاة لا غير. وزاد صاحب البغية وقال: قدم في يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة.

وكان عيسى بن أبي عطاء على الخراج، فلما استقر أمر حسان في إمرة مصر أسقط الفروض التي كان قررها حفص بن الوليد في ولايته وقطع فروض الجند كلها، فوثبوا عليه وقاتلوه وقالوا: لا نرضى إلا بحفص. وركبوا إلى المسجد ودعوا إلى خلع مروان الحمار من الخلافة وحصروا حسان في داره، وقالوا له: اخرج عنا، فإننا لا نقيم معك ببلد. ثم أخرجوا عيسى بن أبي عطاء صاحب الخراج من مصر، كل ذلك في آخر جمادى الآخرة، ثم أخرجوا حفصاً من سجنه وولوه أمرهم. وتوجه حسان هذا إلى الشأم ودام بها من جملة أمراء بني أمية إلى أن زالت دولة بني أمية وتولت العباسية. قتل حسان هذا مع من قتل بمصر من أعوان بني أمية في سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكانت ولاية حسان على مصر ستة عشر يوماً وقيل: إن حسان كان من أعوان بني العباس، والأول أشهر؛ وتولى بعده حفص بن الوليد ثالثاً.

* * *

ولاية حفص بن الوليد الثالثة على مصر

ولما ثار أهل مصر على حسان بن عتاهية وأخرجوه منها لحق بالخليفة مروان بن محمد بن مروان المعروف بالحمار في الشأم، وذكر له حسان ما وقع له مع أهل مصر؛ واستمر حفص بن الوليد على صلاة مصر شهر رجب وشعبان. وقدم الأمير حنظلة بن صفوان من إفريقية، وقد أخرجه أهلها فنزل بالجيزة غربي مدينة مصر، ودام هناك إلى أن قدم عليه كتاب الخليفة مروان الحمار بولايته على مصر، فامتنع المصريون من ولاية حنظلة بن صفوان عليهم، ومنعوه من الدخول إلى مصر وأظهروا الخلاف. ثم أخرجوا حنظلة من الجيزة إلى الوجه الشرقي، ومنعوه من المقام بالفسطاط، وحاربوه فحاربهم فهزم، وتم أمر حفص؛ وسكت مروان عن مصر بقية سنة سبع وعشرين ومائة. ثم عزل حفص في مستهل سنة ثمان وعشرين ومائة وولي عوضه على مصر الحوثرة بن سهيل أخو عجلان الباهلي. وواقع الحوثرة حفصاً وقتله، كما ذكره ابن يونس وغيره في ترجمته الثانية. وكان قتل حفص المذكور في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شوال سنة ثمان وعشرين ومائة؛ ورثاه صديقه أبو بحر مولى عبد الله بن إسحاق مولى آل الحضرمي من حلفاء عبد شمس بعدة قصائد، وكان أبو بحر إماما في النحو واللغة؛ تعلم ذلك من يحيى بن يعمر، ومات في سنة سبع وعشرين ومائة؛ وكان أبو بحر يعيب الفرزدق في شعره وينسبه إلى اللحن، فهجاه الفرزدق بقوله: الطويل

فلو كان عبد الله مولًى هجوته ::: ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له أبو بحر عبد الله المذكور: قد لحنت أيضاً يا فرزدق في قولك: مولى مواليا، بل كان ينبغي أن تقول: مولى موالٍ.

* * *

ولاية حوثرة بن سهيل على مصر

هو حوثرة بن سهيل أخو عجلان بن سهيل بن كعب بن عامر بن عمير بن رياح بن عبد الله بن عبد قراص، الباهلي أمير مصر؛ ولاه مروان الحمار على إمرة مصر بعد أن عزل عنها حفص بن الوليد المقدم ذكره، وجهز صحبته بالعساكر لقتال حفص بن الوليد. فخرج حوثرة من الشأم وسار منها بالعساكر حتى وصل إلى مصر في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة ثمان وعشرين ومائة. وزاد صاحب البغية فقال: ومعه سبعة آلاف فارس، وولاه مروان على الصلاة وعيسى بن أبي عطاء على الخراج. ولما وصل حوثرة إلى مصر أجمع جند مصر وأهلها على منعه من الدخول إلى مصر فأبى عليهم حفص بن الوليد ونهاهم عن ذلك، فخافوا حوثرة

وسألوه الأمان فأمنهم ونزل بظاهر الفسطاط، وقد اطمأنوا إليه. فخرج إليه حفص بن الوليد في وجوه الجند فقبض حوثرة عليهم وقيدهم وأوسع الجند سباً فانهزم الجند؛ فقام حوثرة من وقته ودخل إلى مصر ومعه عيسى بن أبي عطاء وهو على الخراج على عادته وحوثرة على الصلاة لا غير؛ وبعث حوثرة في طلب رؤساء مصر فجمعوا له فضرب أعناقهم وفيهم رجاء بن الأشيم الحميري من كبار المصريين، ثم أخذ حفص بن الوليد فقتله. وأخذ في تمهيد أمور مصر، وتم أمره إلى سنة إحدى وثلاثين ومائة ثم عزله مروان الحمار عن إمرة مصر وبعثه إلى العراق لقتال الخراسانية دعاة بني العباس فقتل هناك، وكان استخلف على مصر أبا الجراح بشر بن أوس. وكان خروجه من مصر لعشر خلون من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة، فكانت ولايته على مصر ثلاث سنين وستة أشهر. وولي مصر من بعده المغيرة بن عبيد الله الآتي ذكره.

* * *

ولاية المغيرة بن عبيد الله على مصر

هو المغيرة بن عبيد الله بن المغيرة بن عبيد الله بن سعد بن حكم بن مالك، بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جوية بن لوذان بن ثعلبة بن عدي، بن فزارة الفزاري.

وقال صاحب البغية: المغيرة بن عبيد الله بن مسعدة خالف في الج. ولاه الخليفة مروان الحمار على مصر بعد عزل حوثرة وتوجهه إلى العراق نجدةً لابن هبيرة، فقدم المغيرة إلى مصر في سادس عشر من شهر رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة على الصلاة. وقال صاحب البغية: ولاه مروان بن محمد على الصلاة فقدم يوم الأربعاء لست بقين من رجب سنة إحدى وثلاثين ومائة فجعل على شرطته ابنه عبد الله. وكان ليناً محبباً للناس.

وكان المغيرة ديناً فاضلاً عدلاً محبباً للرعية؛ وهو أجل أمراء بني أمية، وولي لهم الأعمال الجليلة، وحضر وقعة شهر زور، لما وجه قحطبة أبا عون عبد الملك بن يزيد الخراساني ومالك بن طريف الخراشي في أربعة آلاف إلى شهر زور وبها عثمان بن سفيان، والمغيرة هذا على مقدمة عبد الله بن مروان بن محمد فنزلوا على فرسخين من شهر زور وقاتلوا عثمان وانهزم عثمان وقتل؛ وقام أبو عون ببلاد الموصل؛ وقيل: إن عثمان لم يقتل وهرب هو والمغيرة هذا إلى عبد الله بن مروان وغنم أبو عون عسكره وقتل من أصحابه مقتلة عظيمة؛ ثم سير قحطبة العساكر إلى أبي عون فاجتمع معه ثلاثون ألفاً. ولما بلغ مروان الخليفة خبر أبي عون سار بنفسه بجميع عساكر ممالكه وأقبل نحو أبي عون فوقع له حروب وأمور يطول شرحها.

ولاية عبد الملك بن مروان على مصر

هو عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمي أمير مصر؛ ولاه الخليفة مروان ابن محمد بن مروان المعروف بالحمار على الصلاة والخراج معاً بعد موت المغيرة بن عبيد الله الفزاري؛ وكان عبد الملك هذا قد ولي خراج مصر قبل أن يلي الإمرة والصلاة. فلما مات المغيرة جمع له مروان الخراج والصلاة، وذلك في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

ولما تم أمره جعل أخاه معاوية على الشرطة، ثم ولى عكرمة بن عبد الله الخولاني. ثم إن عبد الملك المذكور أمر باتخاذ المنابر في الجوامع ولم يكن قبل ذلك منبر، وإنما كانت ولاة مصر يخطبون على العصي إلى جانب القبلة.

ثم خرج عليه قبط مصر بعد ذلك واجتمعوا على قتاله فحاربهم وقتل كثيراً منهم وانهزم من بقي منهم.

ثم خالف بعد ذلك في أيامه عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان الحمار ودعا لنفسه واجتمع عليه جمع من قيس في الحوف الشرقي من أعمال مصر، فبعث إليهم عبد الملك هذا بجيش فلم تقع بينهم حرب.

وبينما هم في ذلك إذ قدم عليهم الخليفة مروان الحمار من أرض الشام وقد انهزم من أبي مسلم الخراساني صاحب دعوة بني العباس في يوم الثلاثاء لثمانٍ بقين من شوال، وقيل لثلاث بقين من شوال سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ولما دخل مروان مصر وجد أهل الحوف الشرقي من بلاد مصر وأهل الإسكندرية والصعيد قد صاروا مسودة - أعني صاروا من أعوان بني العباس ولبسوا السواد - فعزم مروان الحمار على تعدية النيل فعدى إلى الجيزة وأحرق الجسرين والدار المذهبة وبعث بجيش إلى الإسكندرية فاقتتلوا مع من كان بها بالكريون؛ وبينما هو في ذلك خالفت القبط، فبعث إليهم مروان من قاتلهم أيضاً وهزمهم؛ ثم بعث جيشاً إلى الصعيد.

وبينما هو في ذلك قدم صالح بن علي بن عبد الله بن عباس في طلب مروان ومع صالح أبو عون عبد الملك بن يزيد، وكان قدوم عبد الملك إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء النصف من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة المذكورة، فلم يثبت مروان الحمار لصالح المذكور، وتوجه إلى بوصير بالجيزة ومعه عبد الملك صاحب مصر وغيره من حواشيه وأمرائه وأقاربه من بني أمية. فلحقه صالح بها فالتقاه مروان الحمار بمن معه وقاتله حتى انهزم وقتل في يوم الجمعة لتسع بقين من ذي الحجة. ثم عاد صالح بن علي المذكور ودخل الفسطاط في يوم الأحد لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة، وبعث برأس مروان إلى الشام والعراق وزالت

دولة بني أمية.

وأما عبد الملك بن مروان أمير مصر صاحب الترجمة فإنه كان لما ولي مصر أحسن السيرة ولم يفحش في حق بني العباس فأمنه صالح وأمن أخاه معاوية وعفا عنهما، ثم قتل حوثرة بن سهيل وحسان بن عتاهية اللذين كانا كل منهما ولي على مصر قبل عبد الملك؛ وعبد الملك هذا هوآخر أمير ولي مصر من قبل بني أمية.

وزالت في هذه السنة بقتل مروان الحمار دولة بني أمية، وبويع السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة، وهو أول خلفاء بني العباس.

* * *

دولة بني العباس في مصر

ولاية صالح بن علي العباسي الأولى على مصر

هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي، أول من ولي مصر من قبل خلفاء بني العباس. مولده بالسواد، وقيل بالشراة من أرض البلقاء سنة ست وتسعين من الهجرة. ولى مصر من قبل ابن أخيه أمير المؤمنين عبد الله السفاح بعد قتل مروان الحمار في أول محرم سنة ثلاث وثلاثين ومائة؛ وقد تقدم ذكر قتاله مع مروان في ترجمة عبد الملك بن مروان بن موسى أمير مصر.

ولما ولي صالح مصر ببيعة أهل مصر لأمير المؤمنين عبد الله السفاح؛ ثم أخذ صالح في إصلاح أمر مصر وقبض على جمع كثير من المصريين الأمويين، منهم عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير أمير مصر وأخوه معاوية، وقتل كثيراً من شيعة بني أمية، وحمل طائفة منهم إلى العراق، وقتلوا بقلنسوة من أرض فلسطين؛ وأمر للناس بأعطيتهم للمقاتلة والعيال، وقسم الصدقات على الأيتام والمساكين وأبناء السبيل، وزاد في المسجد زيادة هائلة، وجعل على شرطته ابن هانىء الكندي؛ ثم ورد عليه بعد مدة طويلة كتاب السفاح بإمارته على فلسطين والاستخلاف على مصر، فاستخلف على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد، وخرج منها في شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائة؛ وسار معه عبد الملك بن مروان بن موسى، الذي كان أمير مصر، مكرماً وعدة من أهل مصر - تأتي بقية ترجمة صالح بن علي هذا في ولايته الثانية على مصر إن شاء الله تعالى - فكانت ولاية صالح على مصر في هذه المرة سبعة أشهر وأياماً.

* * *

ولاية أبي عون الأولى على مصر

هو أبو عون، واسمه عبد الله، وقيل عبد الملك بن يزيد، الأمير أبو عون؛ أصله من أهل جرجان. ولي صلاة مصر وخراجها باستخلاف صالح بن علي بن عبد الله بن العباس له في مستهل شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائة. واستمر أبو عون بمصر إلى أن وقع الوباء بها فخرج منها إلى يشكر واستخلف على مصر صاحب شرطته عكرمة بن عبد الله بن عمرو بن قحزم وقحزم بفتح القاف وسكون الحاء المهملة وفتح الزاي وبعدها ميم. ثم عاد أبو عون إلى مصر بعد الوباء وأقام بها إلى أن خرج منها ثانياً إلى دمياط في سنة خمس وثلاثين ومائة، واستخلف على مصر عكرمة أيضاً، وجعل على الخراج عطاء بن شرحبيل.

وفي هذه السنة خرج القبط عليه بسمنود بالوجه البحري من أعمال مصر، فبعث إليهم أبو عون جيشاً فحاربوهم وقتلوهم. وفي أيام أبي عون هذا سكنت أمراء مصر العسكر.

وسببه أنه لما قدم صالح بن علي العباسي وأبو عون هذا بجموعهم إلى مصر في طلب مروان الحمار نزلت عساكرهما الصحراء جنب جبل يشكر، الذي هو الآن جامع أحمد ابن طولون وكان فضاءً. فلما رأى أبو عون ذلك أمر أصحابه بالبناء فيه فبنوا وبنى هو به أيضاً دار الإمارة ومسجد عوف بجامع العسكر. وعملت الشرطة أيضاً في العسكر وقيل لها الشرطة العليا؛ وإلى جانبها بنى الأمير أحمد بن طولون جامعه الموجود الآن. وسمي من يومئذ ذلك الفضاء العسكر وصار منزلاً لأمراء مصر من بعد أبي عون، وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة؛ وفيه أيضاً بنى الأمير أحمد بن طولون بيمارستانه، وكان البيمارستان المذكور بالقرب من بركة قارون التي صارت الآن كيماناً وبعضها بركة على يسار من مشى من حدرة ابن قميحة يريد قنطرة السد؛ وعلى هذه البركة بنى كافور الإخشيدي داراً صرف عليها مائة ألف دينار وسكنها. وزادت العمائر في العسكر إلى أن ولي أحمد بن طولون وقدم إلى مصر من العراق، فنزل على عادة الأمراء بدار الإمارة بالعسكر. فما زال بها أحمد بن طولون إلى أن بنى القصر والميدان بالقطائع وتحول إليها، ودام بها إلى أن مات وولي ابنه خمارويه بن أحمد بن طولون وجعل دار الإمارة بالعسكر ديوان الخراج، يأتي ذكر ذلك في ترجمتهما إن شاء الله تعالى.

فلما زالت دولة بني طولون وولي محمد بن سليمان الكاتب الأتي ذكره سكن بدار في العسكر عند المصلى القديمة حيث الكوم المطل الآن على قبر القاضي بكار بن قتيبة. وما زالت الأمراء بعد ذلك تنزل بالعسكر إلى أن قدم القائد جوهر المعزي من المغرب إلى مصر وبنى القاهرة المعزية في سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. انتهى أمر العسكر وسبب بنيانه باختصار، وهذا التعريف بالعسكر مقدمة لما يأتي بعد ذلك من سكن أمراء مصربه.

وأما أبو عون فإنه لما أرسل وحارب القبط وقتلهم بسمنود عاد إلى مصر.

وبينما هو كذلك في أموره ورد عليه كتاب الخليفة أبي العباس عبد الله السفاح بعزله وولاية صالح بن علي العباسي ثانياً على مصر على الصلاة والخراج، ومع ذلك ولاية فلسطين أيضاً والغرب؛ ثم وردت الجيوش من قبل السفاح مع صالح بن علي لغزو المغرب؛ وكانت ولاية أبي عون على مصر في هذه المرة الأولى ثلاث سنين إلا أربعة أشهر. ويأتي بقية ترجمة أبي عون هذا في ولايته الثانية على مصر إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية صالح بن علي العباسي ثانياً على مصر

وليها ثانياً من قبل السفاح، فقدم مصر بجيوش كثيرة من فلسطين لغزو بلاد المغرب؛ وكان قدومه إلى مصر في يوم خامس شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين ومائة.

ولما دخل مصر أقر عكرمة على شرطته بالفسطاط، وجعل على شرطته بالعسكر يزيد بن هانىء الكندي، وولى أبا عون المعزول عن إمرة مصر جيوش المغرب، وقدمه صالح المذكور أمامه إلى نحو إفريقية؛ وكان خروج أبي عون بجيوشه إلى نحو المغرب في جمادى الآخرة من سنة ست وثلاثين، وجهزت المراكب من إسكندرية إلى برقة.

وبينما هم في ذلك قدم الخبر بموت أمير المؤمنين عبد الله السفاح في ذي الحجة واستخلاف أبي جعفر المنصور. فأقر أبو جعفر المنصور عمه صالح بن علي هذا على عمل مصر على عادته، وكتب إلى أبي عون بالرجوع عن غزو إفريقية. فأرسل صالح إلى أبي عون بالخبر، فأقام أبو عون ببرقة أحد عشر شهراً ثم عاد إلى مصر بجيشه، فجهزه صالح هذا إلى فلسطين لحرب الخوارج بها. فسار أبو عون وحاربهم وهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، وسير إلى مصر منهم ثلاثة آلاف رأس.

ثم خرج صالح بن علي بعد ذلك من مصر إلى فلسطين واستخلف ابنه الفضل على صلاة مصر. فسافر حتى بلغ بلبيس ثم رجع إلى مصر وأقام بها إلى أن خرج منها ثانياً لأربع خلون من شهر رمضان سنة سبع وثلاثين ومائة، فلقي أبا عون بالفرما، فأمره على صلاة مصر وخراجها معاً ومضى إلى فلسطين. ودخل أبو عون الفسطاط لأربع بقين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين ومائة، وسكن العسكر ودام على إمرة مصر.

واستمر صالح بن علي بفلسطين إلى أن أمره المنصور بالتوجه لغزو الروم في سنة ثمان وثلاثين ومائة. فخرج صالح حتى نزل مرج دابق، وأقبلت جيوش الروم مع ملكهم قسطنطين في مائة ألف، فلقيه صالح هذا بالمسلمين ونصره الله تعالى على الروم فقتل منهم وسبى وغنم.

ثم حج بالناس في سنة إحدى وأربعين ومائة؛ ثم غزا الروم والصائفة غير مرة؛ وهو الذي بنى حصن دابق ومات وهو عامل حمص بقنسرين، وقيل مات بعين أباغ، وقد بلغ ثمانياً وخمسين سنة؛ واستخلف ابنه الفضل على حمص فأقره الخليفة أبو جعفر المنصور على ذلك؛ وكان صالح صالحاً فاضلاً، وله رواية؛ أسند عن أبيه، وروى عنه ابناه إسماعيل وعبد الملك، وهو عم السفاح والمنصور.

* * *

ولاية أبي عون الثانية على مصر

كانت ولايته هذه الثانية على مصر من قبل صالح بن علي العباسي لما توجه إلى فلسطين كما تقدم ذكره، ثم أقره الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر على صلاتها وخراجها معاً؛ وكان يوم دخول أبي عون المذكور إلى مصر يوم سادس وعشرين من شهر رمضان من سنة سبع وثلاثين ومائة. وجعل على شرطته عكرمة بن عبد الله، وعلى الدواوين عطاء بن شرحبيل.

ودام أبو عون على صلاة مصر وخراجها معاً إلى أن قدم الخليفة أبو جعفر المنصور إلى بيت المقدس، فكتب بطلب أبي عون المذكور إلى من عنده ببيت المقدس وأمره بأن يستخلف على مصر. فاستخلف أبو عون المذكور عكرمة على الصلاة وعطاء بن شرحبيل على الخراج، وخرج من مصر في النصف من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائة. فلما وصل أبو عون إلى المنصور ببيت المقدس عزله عن إمرة مصر وولى عليها موسى بن كعب، فكانت ولايته هذه الثانية على مصر ثلاث سنين وستة أشهر.

* * *

ولاية موسى بن كعب على مصر

هو موسى بن كعب، الأمير أبو عيينة التميمي، أحد نقباء بني العباس. ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر بعد عزل أبي عون، فدخل مصر لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين ومائة. وسماه صاحب البغية موسى بن كعب ابن عيينة.

قلت: وولي على صلاة مصر وخراجها معاً، ونزل العسكر المقدم ذكره وسكنه، وجعل على شرطته عكرمة بن عبد الله بن قحزم، وباشر أمر مصر بحرمة وافرة، ونهى الجند أن يتوجهوا إليه أو يتكلموا معه إلا في أمر مهم، ولا يفعلوا به كما كانوا يفعلون بالأمراء من قبله، فانتهوا عنه حتى إنه لم يمكن أحداً أن يجتاز ببابه إلا من له عنده حاجة أو أذن له في ذلك.

وموسى هذا هو أول من بايع أبا العباس السفاح بالخلافة في مبدأ أمره وأخرجه إلى الناس، وكان هو القائم بأمر بني العباس مع أبي مسلم الخراساني؛ وكان موسى هذا يسافر إلى البلاد ويدعو الناس للقيام مع بني العباس حتى قبض عليه أسد بن عبد الله القسري عامل خراسان يوم ذاك لبني أمية، فأمر به أسد فألجم بلجام وكسرت أسنانه وعوقب ثم أطلق بعد شدائد؛ فلما صار الأمر إلى بني العباس أمالوا الدنيا عليه، وكان قاسى الأهوال بسبب دعوتهم وعذب وحبس كما سيأتي ذكره؛ وكان يقول لما ولي

مصر: كانت لنا أسنان وليس عندنا خبز، فلما جاء الخبز ذهبت الأسنان؛ وكان أبو جعفر المنصور يعظمه ويجل مقداره؛ وكان جعله على شرطته ثم ولاه مصر مكرهاً وأضاف له السند فلم تطل مدته على إمرة مصر وعزله أبو جعفر المنصور في ذي القعدة كما سيأتي ذكره بمحمد بن الأشعث؛ وكتب إليه المنصور: إني عزلتك عن غير سخط، ولكن بلغني أن عاملاً يقتل بمصر يقال له موسى، فكرهت أن تكونه؛ فأخذ موسى كلام المنصور لغرض من الأغراض. فقتل بعد ذلك بسنين موسى بن مصعب، في خلافة محمد المهدي كما سيأتي ذكره إن شاء الله.

ولما صرف موسى بن كعب عن إمرة مصر استخلف على الجند خالد بن حبيب وعلى الخراج نوفل بن الفرات. وخرج موسى هذا من مصر لست بقين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ومائة، وكانت ولايته على مصر سبعة أشهر وأياماً؛ ولما خرج من مصر سار حتى قدم على الخليفة أبي جعفر المنصور فأكرم الخليفة نزله وولاه على الشرطة ثانياً، ومات بعد مدة يسيرة؛ وقيل: إنه توجه مريضاً فمات في أثناء قدومه، ولم يل الشرطة ولا غيرها؛ وعلى القولين فإنه مات في هذه السنة رحمه الله تعالى.

* * *

ولاية محمد بن الأشعث على مصر

هو محمد بن الأشعث بن عقبة بن أهبان الخزاعي، أمير مصر. وليها من قبل المنصور بعد عزل موسى بن كعب التميمي. ولاه أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور على الصلاة والخراج معاً.

وقدم مصر في يوم الاثنين من ذى الحجة من سنة إحدى وأربعين ومائة؛ وولى على شرطته المهاجر بن عثمان الخزاعي ثم عزله وجعل عوضه محمد بن معاوية بن بحير بن ريسان الكلاعي مكانه.

ولما استقر محمد بن الأشعث هذا في إمرة مصر، أرسل الخليفة أبو جعفر المنصور إلى نوفل بن الفرات: أن اعرض على محمد بن الأشعث ضمان خراج مصر، فإن ضمنه فأشهد عليه وأشخص إلي الشهادة، وإن أبى فكن أنت على الخراج عادتك؛ فعرض نوفل على ابن الأشعث هذا الكلام فأبى من الضمان، فانتقل نوفل إلى الدواوين ففقد محمد بن الأشعث من عنده فسأل عنهم، فقيل له: هم عند صاحب الدواوين، فندم ابن الأشعث على ما وقع منه من ترك الخراج.

ثم جهز ابن الأشعث جيشاً بعث به إلى المغرب فانهزم الجيش؛ وخرج ابن الأشعث يوم الأضحى سنة اثنتين وأربعين ومائة وتوجه إلى الإسكندرية، واستخلف محمد بن معاوية صاحب شرطته على الصلاة؛ ولم يكن إلا القليل وورد عليه البريد بعزله عن إمرة مصر؛ وولي مصر عوضه حميد بن قحطبة وذلك في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائة.

* * *

ولاية حميد بن قحطبة على مصر

هو حميد بن قحطبة بن شبيب بن خالد بن معدان الطائي أمير مصر. وليها من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور بعد عزل محمد بن الأشعث في أوائل سنة ثلاث وأربعين ومائة. جمع له أبو جعفر المنصور صلاة مصر وخراجها معاً، فدخل إلى مصر في عشرين ألفاً من الجند يوم الجمعة لخمسٍ خلون من شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين ومائة، فجعل على الشرطة محمد بن معاوية بن بحير؛ وقبل أن تطول مدته بمصر ورد عليه عسكر آخر من قبل الخليفة لغزو إفريقية؛ وكان قدوم العسكر المذكور إلى مصر في شوال من السنة، فجهز حميد العساكر وجعل عليهم أبا الأحوص العبدي، وكان العسكر ستة آلاف فارس. فتوجه أبو الأحوص بمن معه من العساكر

حتى التقى مع أبي الخطاب الأنماطي ببرقة فتقاتلا، فانهزم أبو الأحوص بمن معه إلى جهة الديار المصرية. فخرج حميد بن قحطبة بنفسه حتى وصل إلى برقة والتقى مع أبي الخطاب المذكور، فقاتله حتى هزمه وقتل أبا الخطاب المذكور وجماعة من أصحابه؛ ثم عاد إلى مصر منصوراً، فأقام بها إلى أن قدم إلى مصر علي بن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن داعيةً لأبيه فدس إليه حميد هذا فتغيب، فكتب ذلك لأبي جعفر المنصور فغضب وصرفه عن إمرة مصر في ذي القعدة بيزيد بن حاتم. فخرج حميد بن قحطبة من مصر لثمان بقين من ذى القعدة سنة أربع وأربعين ومائة؛ وكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهرين إلا أياماً.

* * *

ولاية يزيد بن حاتم على مصر

هو يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي الطائي المهلبي، أمير مصر.

ولاه الخليفة أبو جعفر المنصور على الصلاة والخراج معاً بعد عزل حميد بن قحطبة عن إمرة مصر سنة أربع وأربعين و مائة، فقدم إلى مصر في يوم الاثنين النصف من ذي القعدة من السنة المذكورة، فأقر على شرطته عبد الله بن عبد الرحمن و على الخراج معاوية بن مروان بن موسى بن نصير. و كان يزيد جواداً ممدحاً شجاعاً. قال يزيد:كنت يوماً واقفاً بباب المنصور، أنا ويزيد بن أسيد السلمي، إذ فتح باب القصر وخرج خادم لأبي جعفر المنصور، فنظر إلينا ثم انصرف، فدخل وأخرج رأسه من طاق وقال: الطويل

لشتان ما بين اليزيدين في الندى ::: يزيد سليم والأغر ابن حاتم

فلا يحسب التمتام أني هجوته ::: ولكنني فضلت أهل المكارم

قال له يزيد بن حاتم: نعم نعم على رغم أنفك وأنف من بعثك، فخرج الخادم وأبلغها الخليفة أبا جعفر، فضحك حتى استلقى. وهذا الشعر لربيعة بن ثابت الرقي يمدح يزيد هذا.

وفي أيام يزيد بن حاتم المذكور ظهرت بمصر دعوة بني الحسن بن علي، ابن أبي طالب، وتكلم بها الناس، وبايع كثير منهم لبني الحسن في الباطن، وماجت الناس بمصر وكاد أمر بني الحسن أن يتم، والبيعة كانت باسم علي بن محمد بن عبد الله، وبينما الناس في ذلك قدم البريد برأس إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في ذي الحجة سنة خمس وأربعين ومائة، فنصب في المسجد أياماً. وكان يزيد هذا قد منع أهل مصر من الحج بسبب خروج هؤلاء العلويين، فلما قتل إبراهيم أذن لهم في الحج.

وكان يزيد مقصداً للناس محباً للشعر وأهله، مدحه عدة من الشعراء. قيل: إن ربيعة المقدم ذكره، صاحب البيتين المقدم ذكرهما، قصده فاشتغل عنه يزيد، فخرج وهو يقول: الطويل

أراني ولا كفران لله راجعاً ::: بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ يزيد فرده وملأ خفيه ذهباً، فقال فيه قصيدته المشهورة لما عزل عن إمرة مصر، التي أولها: الطويل

بكى أهل مصر بالدموع السواجم ::: غداة غدا عنها الأغر ابن حاتم

ثم ورد عليه كتاب الخليفة المنصور يأمره بالتحول من العسكر إلى الفسطاط، كما كانت عادة أمراء مصر قبل بناء العسكر، وأن يجعل الدواوين في كنائس القصر - يعني قصر الشمع - وذلك في سنة ست وأربعين ومائة.

وقصد يزيد بن حاتم من الشعراء محمد بن عبد الله بن مسلم ومدحه بقصيدة طنانة أولها: الكامل

وإذا تباع كريمة أو تشترى ::: فسواك بائعها وأنت المشتري

وكان يزيد منع الناس من الحج في سنة خمس وأربعين ومائة، كما تقدم ذكره، فلم يحج في تلك السنة أحد من مصر ولا من الشام لما كان بالحجاز من الاضطراب من أمر بني الحسن، ثم حج يزيد هذا في سنة سبع وأربعين ومائة فاستخلف على مصر عبد الله ابن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج صاحب شرطته، ولما عاد من الحج بعث جيشاً لغزو الحبشة من أجل خارجي ظهر هناك، فتوجه إليه الجيش وقاتلوه وظفروا به وقدم رأس الخارجي المذكور إلى مصر في عدة رؤوس، فنصبت الرؤوس أياماً بمصر ثم حملوها إلى بغداد، فضم الخليفة أبو جعفر المنصور عند ذلك ليزيد هذا برقة زيادة على عمل مصر، وهو أول من ضم له برقة على مصر، وكان ذلك في سنة تسع وأربعين ومائة.

ثم خرج في أيام يزيد القبط بسخا بالوجه البحري، فجهز إليهم يزيد جيشاً كثيفاً فقاتله القبط وكسروه فرد الجيش منهزماً، فصرفه أبو جعفر المنصور عن إمرة مصر في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين ومائة، فكانت ولايته على مصر سبع سنين وأربعة أشهر.

* * *

ولاية عبد الله بن عبد الرحمن على مصر

هو عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، " وحديج بضم الحاء المهملة وفي الآخر جيم " التجيبي " بضم التاء المثناة من فوق " الأمير أبو عبد الرحمن أمير مصر. وليها من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور بعد عزل يزيد بن حاتم المهلبي عنها، على الصلاة في يوم السبت ثامن عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين ومائة، ولم يول على الشرطة أحداً، وباشر هو ذلك بنفسه؛ وكان عبد الله هذا قد ولي الشرطة لغير واحد من أمراء مصر. ولما استقر في إمرة مصر سكن المعسكر على عادة الأمراء؛ وهو أول من خطب بالسواد بمصر؛ فأقام بمصر مدة ثم خرج منها ووفد على الخليفة أبي جعفر المنصور ببغداد في سنة أربع وخمسين ومائة واستخلف أخاه محمد بن عبد الرحمن على الصلاة ثم رجع إلى مصر في آخر السنة المذكورة؛ ودام بها إلى أن توفي وهو على إمرة مصر في مستهل صفر سنة خمس وخمسين ومائة، واستخلف أخاه محمداً على صلاة مصر فأقره الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر بعده، فكانت ولاية عبد الله هذا على مصر ثلاث سنين تنقص أياماً. وعبد الله هذا وأبوه من أكابر المصريين من أعوان بني أمية، غير أنه استأمن سليمان بن علي العباسي لما استأمنه عمرو بن معاوية بن عمرو بن سفيان بن عتبة بن أبي سفيان. وسببه أنه لما قتل غالب بني أمية خاف عمرو المذكور فقال: اختفيت فكنت لا آتي مكاناً إلا عرفت به، فضاقت علي الدنيا فقصدت سليمان بن علي وهو لا يعرفني فقلت له: لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك؛ فإما قتلتني فاسترحت، وإما رددتني سالماً فسلمت؛ فقال: ومن أنت؟ فعرفته نفسي، فقال: مرحباً بك، " ما " حاجتك؛ فقلت له: إن الحرم اللواتي أنت أولى " الناس "، بهن وأقربهم إليهن قد خفن تخوفنا ومن خاف خيف عليه. قال: فبكى سليمان كثيراً ثم قال: بل يحقن الله دمك ويوفر مالك ويحفظ حرمك؛ ثم كتب إلى السفاح:

يا أمير المؤمنين، إنه قد دفت دافة من بني أمية علينا وإنا إنما قتلناهم على عقوقهم، لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا وإياهم عبد مناف؛ فالرحم تبل ولا تقتل وترفع ولا توضع؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يهبهم لي فليفعل، وإن فعل فليجعل كتاباً عاماً إلى البلدان - شكر الله تعالى على نعمه - فأجابه إلى ما سأل. وكان هذا أول أمان لبني أمية، ودخل فيه صاحب الترجمة وغيره.

* * *

ولاية محمد بن عبد الرحمن على مصر

هو محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي أمير مصر؛ وليها باستخلاف أخيه عبد الله بن عبد الرحمن له بعد موته، فأقره الخليفة أبو جعفر المنصور على ذلك وولاه مصر على الصلاة والخراج وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة، فجعل على شرطته العباس بن عبد الرحمن بن ميسرة؛ وسكن المعسكر وسار في الناس سيرة مشكورة غير أنه لم تطل أيامه، ومرض ولزم الفراش حتى مات في النصف من شوال من سنة خمس وخمسين ومائة. فكانت ولايته على إمرة مصر استقلالاً بعد موت أخيه عبد الله ثمانية أشهر ونصفاً. وتولى إمرة مصر من بعده موسى بن علي بن رباح باستخلاف محمد هذا له.

وفي أيام ولايته على مصر خرجت عساكر مصر إلى إفريقية صحبتها يزيد بن حاتم، فقام محمد هذا بأمرهم أتم قيام وجهزهم وحمل إلى يزيد الأموال والخيل والسلاح والرواتب حتى سار إلى جهة المغرب وقاتل من بها وقتل أبا عاد وأبا حاتم وملك القيروان وسائر الغرب، وبعث إلى محمد هذا ليعرف الخليفة بذلك فوجده الرسول قد مات قبل وصوله بأيام. وقد تقدم ذكر نسب محمد هذا في ترجمة أخيه عبد الله بن عبد الرحمن فلا حاجة للإعادة.

* * *

ولاية موسى بن علي على مصر

هو موسى بن علي بن رباح، الأمير أبو عبد الرحمن اللخمي المصري أمير مصر؛ ولي إمرة مصر باستخلاف محمد بن عبد الرحمن التجيبي إليه، فأقره الخليفة أبو جعفر المنصور على إمرة مصر على الصلاة، وذلك في شوال سنة خمس وخمسين ومائة، فجعل على شرطته أبا الصهباء محمد بن حسان الكلبي، وباشر إمرة مصر إلى سنة ست وخمسين ومائة؛ وفي ولايته لما خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوهم حتى هزموهم وقتل منهم جماعة وعفا عن جماعة، ومهد أمور مصر، وكان فيه رفق بالرعية وتواضع، وكان يتوجه إلى المسجد ماشياً وصاحب شرطته بين يديه يحمل الحربة، وكان إذا أقام صاحب الشرطة الحدود بين يديه يقول له موسى هذا: أرحم أهل البلاد؛ وكان يحدث فيكتب الناس عنه.

أقام على إمرة مصر إلى أن توفي الخليفة أبو جعفر المنصور في سادس ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة، وولي الخلافة من بعده ابنه محمد المهدي فأقر المهدي موسى هذا على إمرة مصرة فاستمر على ذلك إلى أن عزله المهدي بعد ذلك في سابع عشر ذي الحجة سنة إحدى وستين ومائة وولى بعده على مصر عيسى بن لقمان، فكانت ولايته على مصر ست سنين وشهرين.

وقال صاحب " البغية ": ثم صرفه المهدي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة إحدى وستين ومائة، ومدة ولايته ست سنين وشهران. قلت: وافقنا صاحب " البغية " في المدة والسنة وخالفنا في شهر عزله.

قلت: وفي أيامه كان خروج يوسف بن إبراهيم المعروف بالبرم. خرج ملتزماً بخراسان هو ومن معه منكراً على الخليفة محمد المهدي ونقم عليه في سيرته التي يسير بها، وكتب إلى موسى هذا ليوافقه فنهر قاصده وقبض عليه وكتب بذلك إلمهدي واجتمع مع البرم بشر كثير، فوجه إليه المهدي يزيد بن مزيد الشيباني، وهو ابن أخي معن بن زائدة الشيباني، فلقيه يزيد فاقتتلا حتى صارا إلى المعانقة، فأسره يزيد المذكور وبعث به وبأصحابه إلى المهدي؛ فلما بلغوا النهروان حمل يوسف البرم على بعير قد حول وجهه إلى ذنبه وكذلك أصحابه، فأدخلوهم إلى الرصافة على تلك الحالة، وقطعت يدا يوسف ورجلاه ثم قتل هو وأصحابه وصلبوا على الجسر. وقيل: إن يوسف المذكور كان حرورياً فتغلب على بوشنج وعليها مصعب ابن زريق؛ جد طاهر بن الحسين فهرب منه، وكان تغلب أيضاً على مرو الروذ والطالقان وجوزجان، وقد كان من جملة أصحابه أبو معاذ الفريابي فقبض عليه معه.

ولاية عيسى بن لقمان على مصر

هو عيسى بن لقمان بن محمد بن حاطب الجمحي " بضم الجيم وتقدمها نسبة إلى جمح أمير مصر؛ وليها بعد عزل موسى بن علي اللخمي من قبل أمير المؤمنين محمد الهادي على الصلاة والخراج معاً في سنة إحدى وستين ومائة؛ وكان دخوله إلى مصر في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقسين من ذي الحجة سنة إحدى وستين ومائة؛ فجعل على الشرطة الحارث بن الحارث الجمحي وهو من بني عمه؛ ثم سكن عيسى هذا المعسكر على عادة أمراء مصر ودام على إمرة مصر مدة يسيرة، ثم جاءه الخبر بعزله عن إمرة مصر في جمادى الآخرة لاثنتي عشرة بقيت منها من سنة اثنتين وستين ومائة، وولاية واضح مولى أبي جعفر المنصور. فكانت ولاية عيسى هذا على مصر نحو خمسة أشهر، وهي بسفارة يعقوب بن داود.

وكان سبب تقدم يعقوب بن داود عند المهدي لما أحضره المهدي عنده في أمر الحسن ابن إبراهيم العلوي فقال يعقوب: يا أمير المؤمنين، إنك قد بسطت عدلك لرعيتك وأنصفتهم وأحسنت إليهم فعظم رجاؤهم،، انفسحت آمالهم، وقد بقيت أشياء لو ذكرتها لك، لم تدع النظر فيها، وأشياء خلف بابك يعمل فيها ولا تعلم بها، فإن جعلت لي السبيل إليك رفعتها؛ فأمره بذلك. فكان يدخل عليه كلما أراد ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة من أمور الثغور والولايات وبناء الحصون وتقوية الغزاة وتزويج العزاب وفكاك الأسرى والمحبسين والقضاء عن الغارمين والصدقة على المتعففين، فحظي عنده بذلك وتقدمت منزلته حتى سقطت منزلة أبي عبيد الله وحبس. وكتب المهدي توقيعاً بأنه اتخذه أخاً في الله ووصله بمائة ألف درهم. ولما عزل عيسى هذا عن إمرة مصر قربه إلى المهدي فأكرمه غاية الإكرام.

* * *

ولاية واضح المنصوري على مصر

هو واضح بن عبد الله المنصوري الخصي أمير مصر؛ وليها من قبل المهدي بعد عزل عيسى بن لقمان عن مصر في جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ومائة. فدخلها واضح المذكور في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة اثنتين وستين ومائة المذكورة؛ وجمع له المهدي صلاة مصر وخراجها معاً. ولما دخل مصر سكن المعسكر على عادة أمراء مصر وجعل على شرطته موسى بن زريق مولى بني تميم. وواضح هذا أصله من موالي صالح ابن الخليفة أبى جعفر المنصور. وكان خصيصاً عند المنصور إلى الغاية، وكان يندبه إلى المهمات لشجاعة كانت فيه وشدة. ولما ولي إمرة مصر شد على أهلها فشكوا منه فعزله المهدي عنهم في شهر رمضان من سنة اثنتين وستين ومائة المذكورة بمنصور بن يزيد. فكانت ولاية واضح هذا على مصر نحو أربعة أشهر. وقال صاحب " البغية ": ثلاثة شهور. واستمر واضح هذا على بريد مصر إلى أن خرج إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وكان واضح المذكور فيه ميل للعلويين فحمله واضح على البريد إلى الغرب فنزل إدريس بمدينة يقال لها وليلة، وكان إدريس هذا قد خرج أولاً مع الحسين صاحب فخ، فلما قتل الحسين هرب إدريس هذا إلى مصر واختفى بها إلى أن وجهه واضح هذا إلى الغرب، فلما وصل إدريس هذا إلى الغرب دعا لنفسه فأجابه من كان بها وبنواحيها من البربر وعظم أمره وبلغ ذلك الخليفة الهادي موسى، فطلب واضحاً هذا وقتله وصلبه في سنة تسع وستين ومائة، وقيل: الذي قتله هارون الرشيد لما تخلف بعد موت أخيه موسى الهادي في أول خلافته.

* * *

ولاية منصور بن يزيد على مصر

هو منصور بن يزيد بن منصور بن عبد الله بن شهر بن يزيد الزنجاني الحميري الرعيني أمير مصر وهو ابن خال المهدي؛ ولاه المهدي إمرة مصر بعد عزل واضح عنها في سنة اثنتين وستين ومائة على الصلاة، فقدم مصر يوم الثلاثاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وستين ومائة المذكورة، وسكن المعسكر على عادة أمراء مصر، وجعل على شرطته هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج مدة يسيرة، ثم

عزله وولى عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني، ثم عزله أيضاً وولى عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني ثم عزله أيضاً و ولى عسامة بن عمرو " المعافري "؛ وكل ذلك في مدة يسيرة فإن ولاية منصور المذكور لم تطل على إمرة مصر وعزل عنها في النصف من ذي القعدة من سنة اثنتين وستين ومائة المذكورة بيحيى بن داود؛ فكانت مدة ولاية منصور بن يزيد هذا على مصر شهرين وثلاثة أيام، ولم أقف على وفاته بعد ذلك غير أنه ذكر في واقعة عبد السلام الخارجي أنه حضرها بقنسرين. وأمر عبد السلام بن هاشم اليشكري المذكور " أنه " كان قد خرج بالجزيرة واشتدت شوكته وكثر أتباعه فلقي عدة من قواد المهدي فيهم عيسى بن موسى القائد فقتله بعد أمور في عدة ممن معه وهزم جماعة من القواد فيهم شبيب بن واج المرورزدي، فندب المهدي إلى شبيب ألف فارس وأعطى كل رجل منهم ألف درهم معونة فوافوا شبيباً، فخرج بهم في طلب عبد السلام المذكور فهرب منه فأدركه بقنسرين وقتله.

* * *

ولاية يحيى بن داود على مصر

هو يحيى بن داود الشهير بابن ممدود الأمير أبو صالح الخرسي من أهل خراسان.
وقال صاحب " البغية ": من أهل نيسابور. ولي مصر من قبل المهدي على الصلاة والخراج بعد عزل منصور بن يزيد عنها في ذي الحجة سنة اثنتين وستين ومائة؛ ولما قدم مصر سكن المعسكر على العادة، وجعل على شرطته عسامة بن عمرو؛ وكان أبو صالح المذكور تركياً وفيه شدة بأس وقوة جنان مع معرفة وتدبير؛ وكان لما قدم مصر وجد السبل بها مخيفة لكثرة المفسدين وقطاع الطريق، فأخذ أبو صالح هذا في إقماع المفسدين وأبادهم وقتل منهم جماعة كثيرة، فعظمت حرمته وتزايدت هيبته في قلوب الناس حتى تجاوز ذلك الحدة فكان يمنع الناس من غلق الحروب والأبواب وغلق الحوانيت حتى جعلوا عليها " شرائح " القصب والشباك لمنع الكلاب من دخولها في الليل، وهو أول من صنع ذلك بمصر فكان ينادي بمصر ويقول: من ضاع له شيء فعلي أداؤه. ومنع حراس الحمامات أن يجلسوا فيها، وقال: من راح له شيء فأنا أقوم له به من مالي؛ فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه في المثلج ثم يقول: يا أبا صالح احرس ثيابي؛ ثم يدخل الحمام ولم يكن بها حارس ويقضي حاجته على مهل ويخرج فيلقى ثيابه كما هي لا يجسر أحد على أخذها من عظم حرمته؛ فإنه كان أشد الملوك حرمة وأعظمهم هيبة وأقحمهم على سفك الدماء وأنهكهم عقوبة؛ ثم إنه أمر أهل مصر من الأشراف والفقهاء والأعيان أن يلبسوا القلانس الطوال ويدخلوا بها عليه في يوم الاثنين والخميس بلا أردية، فقاسى أهل مصر منه شدائد، غير أن البلاد ومصر كانت في أيامه في غاية الأمن. قيل: إن أبا جعفر المنصور كان إذا ذكره يقول: هو رجل يخافني ولا يخاف الله. واستمر على إمرة مصر إلى أن عزله الخليفة محمد المهدي بسالم بن سواعة في محرم سنة أربع وستين ومائة، وفرح المصريون بعزله عنهم؛ فكانت ولايته على مصر سنة وشهراً إلا أياماً. وقال صاحب " البغية ": سنتين وشهراً، والأول أثبت. وهو أحد من مهد الديار المصرية وأباد أهل الحوف من قيس ويمن وغيرهم من قطاع الطريق وكان من أجل أمراء مصر لولا شدة كانت فيه.

* * *

ولاية سالم بن سوادة على مصر

هو سالم بن سوادة التميمي أمير مصر، وليها من قبل محمد المهدي بعد عزل يحيى ابن داود في أول المحرم سنة أربع وستين ومائة، فقدمها يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم، وجعل على شرطته الأخضر بن مروان؛ وقدم معه أيضاً أبو قطيفة إسماعيل ابن إبراهيم على الخراج؛ ولما دخل سالم إلى مصر سكن بالمعسكر على العادة؛ ودام على إمرة مصر إلى أن مضت سنة أربع وستين ومائة ودخلت سنة خمس وستين ومائة؛ وورد عليه الخبر من قبل الخليفة محمد المهدي بصرفه عن إمرة مصر بإبراهيم بن صالح العباسي، فكانت ولايته على مصر نحو السنة. وقال صاحب " البغية ": صرف في سلخ ذي الحجة فكان مقامه بمصر سنة إلا ثمانية عشر يوماً. وفي أيامه كانت حروب كثيرة بمصر وبلاد المغرب، وجهز عساكر مصر نجدة إلى من كان في برقة ثم عادوا من غير قتال لما بلغتهم الفتنة التي كانت بالمغرب بين بربر بلنسية وبربر شنت برية من الأندلس وجرت بينهم حروب كثيرة قتل فيها خلق من الطائفتين، وكانت بينهم وقائع مشهورة دامت أشهراً.

* * *

ذكر ولاية إبراهيم بن صالح الأولى على مصر

هو إبراهيم بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن العباس الهاشمي العباسي أمير مصر. وليها من قبل ابن عمه المهدي على الصلاة والخراج معاً؛ وقدم إلى مصر لإحدى عشرة ليلة خلت من المحرم سنة خمس وستين ومائة ونزل العسكر على عادة أمراء مصر في الدولة العباسية، ثم ابتنى داراً عظيمة بالموقف من العسكر، وجعل على شرطته عسامة ابن عمرو، ودام إبراهيم بمصر إلى أن خرج دحية بن المعصب بن الأصبغ بن عبد العزيز ابن مروان بالصعيد ودعا لنفسه بالخلافة، فتراخى عنه إبراهيم هذا ولم يحفل بأمره حتى استفحل أمر دحية وملك غالب بلاد الصعيد وكاد أمره أن يتم ويفسد بلاد مصر وأمرها؛ فسخط المهدي عليه بسبب ذلك وعزله عزلاً قبيحاً في سابع ذي الحجة سنة 167بموسى بن مصعب. فكانت ولاية إبراهيم بن صالح هذه على مصر ثلاث سنين إلا أياماً؛ وصادره المهدي بعد عزله وأخذ منه ومن عماله ثلاثمائة وخمسين ألف دينار، ثم رضي عنه بعد ذلك وولاه غير مصر، ثم أعاده الرشيد إلى عمل مصر ثانياً في سنة ست وسبعين ومائة. يأتي ذكر ذلك في ولايته الثانية إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية موسى بن مصعب على مصر

هو موسى بن مصعب بن الربيع الخثعمي، مولى خثعم. أصله من أهل الموصل، ولاه المهدي إمرة مصر - بعد عزل إبراهيم بن صالح عنها سنة سبع وستين ومائة - على الصلاة والخراج؛ وقدم مصر في يوم السبت سابع ذي الحجة من السنة المذكورة؛ وعند دخوله إلى مصر رد إبراهيم بن صالح معه إلى مصر بعد أن كان خرج منها، وقال: أمرني الخليفة بمصادرتك، فصادره وأخذ منه ومن عماله ثلاثمائة ألف دينار، ثم أمر إبراهيم بالمسير إلى بغداد فسار إليها ولما دخل موسى هذا إلى مصر سكن بالعسكر. وجعل على شرطته عسامة بن عمرو؛ وأخذ موسى في أيام إمرته على مصر يتشدد على الناس في استخراج الخراج، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولا؛ ولقي الناس منه شدائد وساءت سيرته وارتشى في الأحكام؛ ثم رتب دراهم على أهل الأسواق وعلى الدواب فكرهه الجند وتشغبوا عليه ونابذوه، وثارت قيس واليمانية وكاتبوا أهل مصر فاتفقوا عليه؛ ثم اشتغل موسى هذا بأمر دحية الأموي الخارج ببلاد الصعيد المقدم ذكره وجهز إليه جيوشا لقتاله، ثم خرج هو بنفسه في جميع جيوش مصر لقتال قيس واليمانية؛ فلما التقوا انهزم عنه أهل مصر بأجمعهم وأسلموه فقتل، ولم يتكلم أحد من أهل مصر لأجله كلمة واحدة؛ وكان قتله لسبع خلون من شوال سنة ثمان وستين ومائة؛ فكانت ولايته على مصر عشرة أشهر، وولي بعده عسامة بن عمرو، وكان موسى استخلفه بعد خروجه للقتال. وكان موسى هذا من شر ملوك مصر؛ كان ظالماً غاشماً؛ سمعه الليث بن سعد يقرأ في خطبته:{إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا} [الكهف: ٢٩] فقال الليث: اللهم لا تقه منها.

* * *

ذكر ولاية عسامة بن عمرو على مصر

هو عسامة بن عمرو بن علقمة بن معلوم بن جبريل بن أوس بن دحية المعافري، الأمير أبو داجن أمير مصر وعسامة بفتح العين المهملة والسين المهملة مشددة وبعد الألف ميم مفتوحة وهاء ساكنة. وليها باستخلاف موسى بن مصعب له، فلما قتل موسى أقره المهدي على إمرة مصر عوضه؛ وكان ذلك في شوال سنة ثمان وستين ومائة؛ وكان ولي الشرطة لمصر لعدة من أمراء مصر؛ ولما ولي إمرة مصر افتتح إمرته بحرب دحية الأموي الخارج ببلاد الصعيد في إمرة موسى، فبعث إليه جيوشا مع أخيه بكار بن عمرو فحارب بكار المذكور يوسف بن نصير مقدمة جيش دحية المذكور وتطاعنا فوضع يوسف الرمح في خاصرة بكار ووضع بكار الرمح في خاصرة يوسف فقتلا معاً ورجع الجيشان منهزمين؛ وكان ذلك في ذي الحجة سنة ثمان وستين ومائة. فلم يقم عسامة بعد ذلك إلا أياماً يسيرة وورد عليه الخبر من الفضل بن صالح العباسي أنه ولي مصر وقد استخلف عسامة المذكور على صلاتها حتى يحضر، فخلفه عسامة على الصلاة حتى حضر الفضل في سلخ المحرم سنة تسع وستين ومائة، فكانت ولاية عسامة على مصر ثلاثة أشهر إلا أياما. واستمر عسامة بمصر بعد ذلك سنين إلى أن استخلفه إبراهيم ابن صالح لما ولي مصر قبل أن يدخلها على الصلاة فخلفه عسامة المذكور أياما يسيرة بها حتى حضر إبراهيم، ثم أقام عسامة بعد ذلك بمصر إلى أن مات بها يوم الجمعة لست أو لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين ومائة.

* * *

ولاية الفضل بن صالح على مصر

هو الفضل بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، الأمير أبو العباس الهاشمي العباسي؛ ولاه المهدي إمرة مصر بعد عزل عسامة بن عمرو على الصلاة والخراج؛ وقبل خروجه مات محمد المهدي في أول المحرم سنة تسع وستين ومائة، وولي الخلافة ابنه موسى الهادي فأقر الهادي الفضل هذا على عمل مصر وسفره؛ فسار الفضل حتى دخل إلى مصر في يوم الخميس سلخ المحرم المذكور؛ وكان الفضل استعمل عسامة المعزول عن إمرة مصر على الصلاة إلى أن حضر، فلما قدم الفضل استعمل عسامة أيضاً على عادته الأولى قبل أن يلي الإمرة.

ولما دخل الفضل إلى مصر وجد أمر مصر مضطربا من عصيان أهل جزيرة الحوف، بالوجه البحري، وأيضاً من خروج دحية الأموي بالصعيد وقد طال أمره على أمراء مصر؛ وكان مع الفضل جيوش الشأم، فحال قدومه جهز العساكر لحرب

دحية المذكور. فقاتله العسكر وهزموه، وأسر دحية بعد أمور وحروب، وقدموا به إلى الفسطاط، فضرب الفضل عنقه وصلب جثته وبعث برأسه إلى الهادي. وكان قتل دحية المذكور في جمادى الآخرة سنة تسع وستين ومائة، فكان الفضل يقول: أنا أولى الناس بولاية مصر لقيامي في أمر دحية وهزيمته وقتله وقد عجز عنه غيري، وكاد أمره أن يتم لطول مدته ولاجتماع الناس عليه لولا قيامي في أمره؛ وكان الفضل لما قدم مصر سكن العسكر و " بنى " به الجامع، فلم يكن بعد قتله لدحية بمدة يسيرة إلا وقدم عليه البريد بعزله عن إمرة مصر بعلي بن سليمان؛ فلما سمع الفضل خبر عزله ندم على قتل دحية ندماً عظيماً فلم يفده ذلك. وكان عزل الفضل عن إمرة مصر في أواخر سنة تسع وستين ومائة المذكورة؛ فكانت ولايته على مصر دون السنة.

* * *

ولاية علي بن سليمان على مصر

هو علي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس، الأمير أبو الحسن الهاشمي العباسي؛ ولي إمرة مصر بعد عزل الفضل بن صالح عنها؛ ولاه موسى الهادي على إمرة مصر وجمع له الصلاة والخراج معاً ودخل علي بن سليمان هذا إلى مصر في شوال سنة تسع وستين ومائة وسكن العسكر، وجعل على شرطته عبد الرحمن بن موسى اللخمي ثم عزله وولى الحسن بن يزيد الكندي. ولما قدم علي المذكور إلى مصر أقام مدة يسيرة وورد عليه الخبر بموت موسى الهادي في نصف شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة، وولاية هارون الرشيد الخلافة من بعده وأن الرشيد أخاه أقر علياً على عمل مصر على عادته.

وكان علي بن سليمان المذكور عادلاً وفيه رفق بالرعية، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، ومنع في أيامه الملاهي والخمور، وهدم الكنائس بمصر وأعمالها، فتكلم القبط معه في تركها وأن يجعلوا له في مقابلة ذلك خمسين ألف دينار، فامتنع من ذلك وهدم الكنائس، وكان كثير الصدقة في الليل فمالت الناس إليه؛ فلما رأى ميل الناس إليه أظهر ما في نفسه من أنه يصلح للخلافة، وطمع في ذلك وحدثته نفسه بالوثوب، فكتب بعض أهل مصر إلى هارون الرشيد وعرفه بذلك، فسخط عليه هارون وعاجله بعزله؛ فعزله عن إمرة مصر في يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وسبعين ومائة، وولى مصر بعده موسى بن عيسى؛ فكانت ولاية علي بن سليمان هذا على مصر نحو سنة وثلاثة أشهر، وقيل أكثر من ذلك.

* * *

ولاية موسى بن عيسى الأولى على مصر

هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الأمير أبو عيسى العباسي الهاشمي. ولاه الخليفة هارون الرشيد إمرة مصر على الصلاة بعد عزل علي بن سليمان عنها؛ فقدم موسى إلى مصر في أحد الربيعين من سنة إحدى وسبعين ومائة وسكن بالعسكر، وجعل على شرطته أخاه إسماعيل ثم عزله وولى عسامة بن عمرو؛ ثم وقع من موسى هذا أمور غير مقبولة، منها: أنه أذن للنصارى في بنيان الكنائس التي كان هدمها علي بن سليمان، فبنيت بمشورة الليث بن سعد، وعبد الله بن لهيعة، وقالا: هي من عمارة البلاد، واحتجا بأن الكنائس التي بمصر لم تبن إلا في الإسلام في زمان الصحابة والتابعين. وهذا كلام يتأول.

وكان موسى المذكور عاقلاً جواداً ممدحاً. ولي الحرمين لأبي جعفر المنصور والمهدي مدة طويلة، ثم ولي اليمن للمهدي أيضا، ثم ولي مصر لهارون الرشيد؛ وكان فيه رفق بالرعية وتواضع. قيل: إنه دخل إليه ابن السفاك الواعظ وذكره ثم وعظه حتى بكى بكاء شديداً، فقال ابن السماك: لتواضعك في شرفك أحب إلينا من شرفك؛ وقيل: إنه جلس يوماً بميدان مصر فأطال النظر في النيل ونواحيه، فقيل له: ما يرى الأمير؟ فقال: أرى ميدان رهان، وجنان نخل، وبستان شجر، ومنازل سكنى، ودور خيل وجبان أموات، ونهراً عجاجاً، وأرض زرع، ومرعى ماشية، ومرتع خيل، ومصايد بحر، وقانص وحش، وملاح سفينة، وحادي إبل، ومفازة رملاً، وسهلاً وجبلاً في أقل من ميل في ميل.

قلت: لله دره فيما وصف من كلام كثرت معانيه وقل لفظه. واستمر موسى بعد ذلك على إمرة مصر إلى أن عزله الرشيد عنها بمسلمة بن يحيى لأربع عشرة خلت من شهر رمضان سنة اثنتين وسبعين ومائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وخمسة أشهر وخمسة عشر يوماً.

* * *

ولاية مسلمة بن يحيى على مصر

هو مسلمة بن يحيى بن قرة بن عبيد الله بن عتبة البجلي الخراساني، أمير مصر. أصله من أهل خراسان وقيل من جرجان وخدم بني العباس وكان من أكابر القواد؛ ولاه هارون الرشيد على إمرة مصر على الصلاة والخراج معاً بعد عزل موسى بن عيسى العباسي في سنة اثنتين وسبعين ومائة؛ وقدم إلى مصر في شهر رمضان من السنة المذكورة في عشرة آلاف من الجند؛ وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس؛ وجعل على الشرطة ابنه عبد الرحمن، فلم تطل مدته على مصر ووقع في ولايته على مصر أمور وفتن حتى عزله الخليفة هارون الرشيد في شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة بمحمد بن زهير الأزدي؛ فكانت ولايته على إمرة مصر أحد عشر شهراً؛ وكانت أيامه مع قصرها كثيرة الفتن؛ ووقع له أمور مع أهل الحوف ثم أخرج العساكر لحفظ البحيرة من الفتن التي كانت بالمغرب: منها خروج سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بالأندلس وتغلبه على أقاليم طرطوشة في شرق الأندلس، وكان قد التجأ إليها حين قتل أبوه الحسين ودعا إلى اليمانية وتعصب لهم، فاجتمع له خلق كثير وملك مدينة طرطوشة وأخرج عاملها يوسف القيسي فعارضه موسى بن فرتون وقام بدعوة هشام الأموي ووافقته جماعة؛ وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة وخرج معه جمع كبير، فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشقة وتغلب على تلك الناحية وقوي أمره. وكان هشام مشغولاً بمحاربة أخويه سليمان وعبد الله، ولم تزل الحرب قائمة بالغرب، وأمير مصر يتخوف من هجوم بعضهم إلى أن عزل مسلمة عن مصر.

* * *

ولاية محمد بن زهير على مصر

هو محمد بن زهير الأزدي، أمير مصر. ولاه هارون الرشيد على إمرة مصر وجمع له بين الصلاة والخراج معاً، وذلك بعد عزل مسلمة بن يحيى لخمس خلون من شعبان سنة ثلاث وسبعين ومائة، وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، واستعمل على خراج مصر عمر بن غيلان، وعلى الشرطة حنك بن العلاء ثم عزله وولى عمار بن مسلم بن عبد الله الطائي أياماً ثم صرفه وولى حبيب ابن أبان أبن الوليد، البجلي؛ ولما ولي عمر بن غيلان خراج مصر شدد على الناس وعلى أهل الخراج، فنفرت القلوب منه وثار عليه الجند وقاتلوه وحصروه في داره فلم يدافع عنه محمد بن زهير صاحب الترجمة، فانحط قمر عمر بن غيلان وتلاشى أمره مع الجند وغيرهم؛ وبلغ الخليفة هارون الرشيد ذلك فعظم عليه عدم قيام محمد بن زهير بنصرة عمر بن غيلان المذكور فعزله عن إمرة مصر بداود بن يزيد بن حاتم المهلبي في سلخ ذي الحخة من سنة ثلاث وسبعين ومائة؛ فكانت ولاية محمد بن زهير على إمرة مصر خمسة أشهر تنقص أياماً؛ وتوجه إلى الرشيد فزجره ثم جعله من جملة القواد وندبه للاستيلاء على مال محمد بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بالبصرة بعد موته. وكانت تركة محمد بن سليمان عظيمة من المال والمتاع والدواب، فحملوا منها ما يصلح للخلافة وتركوا ما لا يصلح؛ وكان من جملة ما أخذوا له ستون ألف ألف درهم؛ فلما قدموا بذلك على الرشيد أطلق منه للندماء والمغنين شيئاً كثيراً ورفع الباقي إلى خزانته.

وكان سبب أخذ الرشيد تركته أن أخاه جعفر بن سليمان كان يسعى به إلى الرشيد حسداً له ويقول: إنه لا مال له ولا ضيعة إلا وقد أخذ أكثر من ثمنها ليتقوى به على ما تحدثه به نفسه - يعني الخلافة - وأن أمواله حل طلق لأمير المؤمنين. وكان الرشيد يأمر بالاحتفاظ بكتبه، فلما توفي محمد بن سليمان أخرجت الكتب الواردة من جعفر أخيه واحتج الرشيد عليه بها في أخذ أمواله ولم يكن له أخ لأبيه وأمه غيره، فأقر جعفر بالكتب، فأخذ الرشيد جميع المال ولم يعط جعفراً منها الدرهم الواحد.

قلت: انظر إلى شؤم الحسد وسوء عاقبته، ولله در القائل: الحاسد ظالم في صفة مظلوم مبتلى غير مرحوم. ودام محمد بن زهير عند الرشيد إلى أن كان ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية داود بن يزيد على مصر

هو داود بن يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة المهلبي أمير مصر؛ ولاه الخليفة هارون الرشيد على إمرة مصر على الصلاة بعد عزل محمد بن زهير الأزدي، فقدم مصر لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة أربع وسبعين ومائة، وقدم معه إبراهيم بن صالح بن علي العباسي على الخراج؛ فدخلا مصر معاً " لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة 174 وسكن داود العسكر على العادة وجعل على شرطته عضار ابن مسلم الطائي؛ ثم أخذ داود في إصلاح أمر مصر وأخرج الجند الذين كانوا ثاروا على عمر بن غيلان صاحب خراج مصر في أيام محمد بن زهير المعزول عن إمرة مصر إلى بلاد المغرب، وأخرج بعضهم أيضاً إلى بلاد المشرق وكانوا عدة كبيرة. ثم ورد عليه الأمر من الرشيد أن يأخذ المصريين ببيعة ابنه الأمير محمد ابن زبيدة ففعل ذلك. وكان الرشيد عقد لابنه محمد المذكور بولاية العهد ولقبه بالأمين وأخذ له البيعة من الناس وعمره خمس سنين وكتب بذلك إلى الأقطار. وكان سبب البيعة للأمين أن خاله عيسى بن جعفر بن المنصور جاء إلى الفضل بن يحيى بن خالد بن برمك وسأله في ذلك وقال له: إنه ولدك وخلافته لك، وإن أختي زبيدة تسألك في ذلك، فوعده الفضل بذلك وسعى فيه عند الرشيد حتى بايع له الناس بولاية العهد وترك ولده المأمون وهو أسن من ولده محمد الأمين بشهر، ثم بعد ذلك عهد الرشيد للمأمون بولاية العهد بعد الأمين على ما سيأتي ذكره.

وأما جند مصر الذين أخرجوا من مصر فإنهم ساروا إلى المغرب في البحر فأسرهم الفرنج بعد حروب؛ وسكن الحال بديار مصر وأمن الناس، واستمر داود على إمرة مصر إلى أن صرفه الرشيد عنها بموسى بن عيسى العباسي المعزول عن إمرة مصر قديماً، وذلك لست خلون من المحرم سنة خمس وسبعين ومائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة ونصف شهر.

وأما أمر الجند الذين أسرهم الفرنج فإن داود بن يزيد المذكور جهزهم نجدة إلى هشام بن عبد الرحمن الأموي فيما قيل؛ وسببه أن هشام بن عبد الرحمن صاحب الأندلس لما فرغ من حرب أخويه سليمان وعبد الله وأجلاهما عن الأندلس وخلا سره منهما انتدب لمطروح بن سليمان بن يقظان الذي كان خرج عليه وسير إليه جيشاً كثيفاً وجعل عليهم أبا عثمان عبيد الله بن عثمان، فساروا إلى مطروح، وهو بسرقسطة، فحصروه بها فلم يظفروا به، فرجع أبوعثمان ونزل بحصن طرطوشة بالقرب من سرقسطة وبث سراياه على أهل سرقسطة؛ ثم إن مطروحاً خرج في بعض الأيام يتصيد وأرسل البازي على طائر فاقتنصه، فنزل مطروح ليذبحه ومعه صاحبان له قد انفرد بهما فقتلاه وأتيا برأسه إلى أبي عثمان فأرسله أبو عثمان إلى هشام.

ولاية موسى بن عيسى الثانية على مصر

هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي؛ ولي إمرة مصر ثانية من قبل الرشيد بعد عزل داود بن يزيد المهلبي، وجمع له صلاة مصر وخراجها، فكتب موسى المذكور من بغداد إلى الأمير عسامة بن عمرو يستخلفه على الصلاة، ثم قدم خليفته على الخراج نصربن كلثوم؛ ثم قدم موسى إلى مصر في سابع صفر سنة خمس وسبعين ومائة وسكن بالعسكر على العادة وحدثته نفسه بالخروج على الرشيد فبلغ الرشيد ذلك.

قال أبو المظفر بن قزأوغلي في تاريخه مرآة الزمان: وبلغ الرشيد أن موسى بن عيسى يريد الخروج عليه فقال: والله لا عزلته إلا بأخس من على بابي؛ فقال لجعفر بن يحيى: ول مصر أحقر من على بابي وأخسهم، فنظر فإذا عمر بن مهران كاتب الخيزران وكان مشوه الخلقة ويلبس ثياباً خشنة ويركب بغلاً ويردف غلامه خلفه، فخرج إليه جعفر وقال: أتتولى مصر؟ فقال: نعم، فسار إليها فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل، فقصد دار موسى بن عيسى فجلس في أخريات الناس، فلما انفض المجلس قال موسى: ألك حاجة؟ فرمى إليه بالكتاب، فلما قرأه قال: لعن الله فرعون حيث قال:{ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ} [الزخرف: ٥١] الآية، ثم سلم إليه ملك مصر فمهدها عمر المذكور ورجع إلى بغداد وهو على حاله. انتهى كلام أبي المظفر.

قلت: لم يذكر عمر بن مهران أحد من المؤرخين في أمراء مصر؛ والجمهور على أن موسى بن عيسى عزل بإبراهيم بن صالح العباسي؛ ولعل الرشيد لم يرسل عمر هذا إلا لنكاية موسى؛ ثم أقر الرشيد إبراهيم بعد خروج المذكور من بغداد، فكانت ولاية عمر على مصر شبه الاستخلاف من إبراهيم بن صالح ولهذا أبطأ إبراهيم بن صالح عن الحضور إلى الديار المصرية بعد ولايته مصر عن موسى المذكور؛ وكانت ولاية عمر بن مهران على خراج مصر وإبراهيم على الصلاة وهذا أوجه من الأول.

وقال الذهبي: ولى الرشيد مصر لجعفر بن يحيى البرمكي بعد عزل موسى، فعلى هذا يكون عمر نائباً عن جعفر ولم يصل جعفر إلى مصر في هذه السنة ولهذا لم يثبت ولايته أحد من المؤرخين انتهى. وكان عزل موسى بن عيسى عن إمرة مصر في ثامن وعشرين من صفر سنة 174، فكانت ولايته هذه الثانية على مصر سنة واحدة إلا أياماً قليلة.

* * *

السنة التي حكم فيها إبراهيم بن صالح على مصر

وهي سنة ست وسبعين ومائة.

فيها عقد الرشيد لابنه المأمون عبد الله العهد بعد أخيه محمد الأمين ولقبه المأمون، وولاه الشرق وكتب بينهما كتاباً وعلقه في الكعبة؛ وكان المأمون أسن من الأمين بشهر واحد غير أن الأمين أمه زبيدة بنت جعفر هاشمية، والمأمون أمه أم ولد اسمها مراجل، ماتت أيام نفاسها به؛ ومولدهما في سنة سبعين ومائة.

* * *

ولاية عبد الله بن المسيب على مصر

هو عبد الله بن المسيب بن زهير بن عمرو بن جميل الضبي أمير مصر.

ولاه الرشيد مصر على الصلاة بعد موت إبراهيم بن صالح العباسي، فقدم إلى مصر لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة ست وسبعين ومائة وسكن العسكر وجعل على شرطته أبا المكيس؛ ولم تطل ولاية عبد الله المذكور على إمرة مصر، وعزل بإسحاق بن سليمان في شهر رجب سنة سبع وسبعين ومائة، فكانت ولايته على إمرة مصر نحو عشرة أشهر؛ وأقام بمصر بطالاً من غير إمرة إلى أن وليها استخلافاً عن عبد الملك بن صالح العباسي في سنة ثمان وسبعين ومائة نحو الشهرين، وصرف عبد الملك بعبيد الله بن المهدي، فصرف عبد الله بن المسيب هذا عن استخلاف مصر بعزل عبد الملك بن صالح، فإنه كان خليفته على مصر ولزم عبد الله بن المسيب بيته إلى أن استخلفه ثانياً عبيد الله بن المهدي لما ولي مصر بعد عبد الملك بن صالح، فباشر عبد الله ابن المسيب صلاة مصر قليلاً باستخلاف عبيد الله بن المهدي المذكور، ثم صرف ولزم داره إلى أن مات.

وفي أيام ولايته على مصر مع قصرها وقع له حروب مع أهل الحوف. واستنجده هشام صاحب الأندلس فجهز له العساكر، وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر بعزله.

* * *

ولاية إسحاق بن سليمان على مصر

هو إسحاق بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي أمير مصر. ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبد الله بن المسيب في مستهل شهر رجب سنة سبع وسبعين ومائة، وجمع له الرشيد صلاة مصر وخراجها؛ ولما دخل مصر سكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، وجعل على شرطته بعض أصحابه، وهو مسلم بن بكار " بن مسلم " العقيلي؛ وأخذ إسحاق في إصلاح أمر مصر وكشف " أمر " خراجها، فلم يرض بما كان يأخذه قبله الأمراء، وزاد على المزارعين زيادة أفحشت بهم فسئمته الناس وكرهته وخرج عليه جماعة من أهل الحوف من قيس وقضاعة، فحاربهم إسحاق المذكور وقتل من حواشيه وأصحابه جماعة كبيرة؛ فكتب إسحاق يعلم الرشيد بذلك، فعظم على الرشيد ما ناله من أمر مصر وصرفه عن إمرتها وعقد الرشيد لهرثمة " بن أعين " على إمرة مصر وأرسله في جيش كبير إلى مصر؛ وكان عزل إسحاق هذا عن إمرة مصر في شهر رجب من سنة ثمان وسبعين ومائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وأياماً وتوجه إلى الرشيد. وقال ابن الأثير: " وفي هذه السنة " يعني سنة ثمان وسبعين ومائة " وثبت الحوفية بمصر على عاملهم إسحاق بن سليمان وقاتلوه وأمر الرشيد بهرثمة بن أعين، وكان عامل فلسطين، فقاتلوا الحوفية وهم من قيس وقضاعة، فأذعنوا بالطاعة وأدوا ما عليهم للسلطان. فعزل الرشيد إسحاق عن مصر واستعمل عليها هرثمة مقدار شهر، ثم عزله واستعمل عليها عبد الملك بن صالح ". انتهى كلام ابن الأثير برمته.

* * *

ولاية هرثمة بن أعين على مصر

هو هرثمة بن أعين أحد أمراء الرشيد وخواص قواده؛ ولاه على إمرة مصر لما بلغه ما وقع لإسحاق بن سليمان العباسي مع أهل مصر، وبعثه إليها في جيش كبير وحرضه على قتال المصريين؛ و ولاه على صلاة مصر وخراجها معاً؛ فخرج هرثمة من بغداد حتى قدم مصر ليومين خلوا من شعبان سنة ثمان وسبعين ومائة؛ فتلقاه أهل مصر بالطاعة وأذعنوا له، فقبل هرثمة منهم ذلك وأمنهم وأقر كل واحد على حاله. وأرسل يعلم الرشيد بذلك، ثم جعل هرثمة على شرطته ابنه حاتماً فلم تطل مئة هرثمة على إمرة مصر وورد عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر وخروجه بالعساكر إلى نحو إفريقية في يوم ثاني عشر شوال من السنة المذكورة؛ فكانت إقامته على إمرة مصر شهرين ونصف شهر. وولي مصر بعده عبد الملك بن صالح العباسي؛ وتوجه هرثمة إلى بلاد المغرب من مصر بجيوش عظيمة فلم يلق حرباً بل

أذعن إليه من كان ببلاد المغرب من العصاة لعظم هيبة هرثمة المذكور، فإنه كان شجاعاً مقداماً مهيباً ودام هرثمة بالمغرب سنين إلى أن استعفى فأعفاه الرشيد في سنة إحدى وثمانين ومائة وأذن له في القدوم عليه. وكان الرشيد يندب هرثمة للمهمات ووقع له بالمغرب أمور: منها أنه لما توجه إلى إفريقية سار صحبته يحيى بن موسى، فأمره هرثمة أن يتقدمه ويتلطف بابن الجارود ليعود إلى الطاعة قبل وصول هرثمة، فقدم يحيى القيروان فجرى بينه وبين ابن الجارود كلام كثير، حاصله أن ابن الجارود شق العصا ولم يظهر الطاعة.

فخلا يحيى " بمحمد بن يزيد "، الفارسي وعاتبه حتى استماله ووافقه على قتال ابن الجارود. وتقاتل يحيى وابن الفارسي مع ابن الجارود فقتل ابن الفارسي غدراً وعاد يحيى بن موسى إلى هرثمة بطرابلس الغرب؛ ثم سار هرثمة إلى ابن الجارود بجند طرابلس في محرم سنة تسع وسبعين ومائة فلما وصل قابس تلقاه عامة الجند، وخرج ابن الجارود من القيروان في مستهل صفر، وكان العلاء بن سعيد عمرو ابن الجارود ويحيى بن موسى يستبقان إلى القيروان كل منهما يريد أن " يكون " الذكر له؛ فسبقه العلاء ودخل القيروان وقتل جماعة من أصحاب ابن الجارود وصار إلى هرثمة، وسار ابن الجارود أيضاً إلى هرثمة فسيره هرثمة إلى الرشيد فاعتقله الرشيد ببغداد؛ وسار هرثمة إلى القيروان فأمن الناس وسكنهم وبنى القصر الكبير وبنى سور مدينة طرابلس الغرب مما يلي البحر. وكان إبراهيم بن الأغلب بولاية الزاب فأكثر من الهدية إلى هرثمة حتى أقرة هرثمة على الزاب فحسن أثره فيها. ثم إن عياض بن وهب الهواري وكليب بن جميع الكلبي جمعا جموعاً وأرادا قتال هرثمة فسار إليهما هرثمة يحيى بن موسى في جيش كبير ففرق جموعهما وقتل كثيراً من أصحابهما ثم عاد إلى القيروان، فلما رأى هرثمة ما بإفريقية من الاختلاف واصل كتبه إلى الرشيد يستعفي حتى أعفاه، وقدم العراق حسبما تقدم ذكره. فكانت ولاية هرثمة على إفريقية سنتين ونصفاً.

* * *

ولاية عبد الملك بن صالح على مصر

هو عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، الأمير أبو عبد الرحمن الهاشمي العباسي أمير مصر وليها بعد توجه هرثمة بن أعين إلى إفريقية؛ ولاه الرشيد إمرة مصر وجمع له الصلاة والخراج معاً، فوليها عبد الملك هذا ولم يدخلها واستعمل عليها عبد الله بن المسيب الضبى المعزول عن إمرة مصر قديماً، وقد ذكرنا نيابته عن عبد الملك هذا في ترجمته أيضاً من هذا الكتاب؛ فجعل عبد الله بن المسيب على شرطته عمار بن مسلم، فلم تطل مدة عبد الملك هذا على ولاية مصر وصرف عنها في سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة؛ وتولى مصر من بعده عبيد الله بن المهدي. وقد ولي في هذه السنة على مصر ثلاثة أمراء وهي سنة ثمان وسبعين ومائة؛ وكان عبد الملك هذا شريفا نبيلا، وأمه أم ولد كانت لمروان بن محمد الحمار فشراها صالح بن علي فولدت له عبد الملك هذا. ويقال: إن الجارية حملت بعبد الملك هذا من مروان، ولهذا قال له الرشيد لما قبض عليه وحبسه: ما أنت لصالح، قال: فلمن أنا؛ قال: لمروان، قال: ما أبالي أي الفحلين غلب علي. وكان أولاً معظماً عند الرشيد، ولما ولاه دمشق سنة سبع وسبعين ومائة، وخرج الرشيد وودعه قال له الرشيد: هل من حاجة؟ قال: نعم بيني وبينك بيت ابن الدمينة حيث يقول: " الطويل "

فكوني على الواشين لداء شغبة ::: كما أنا للواشي ألد شغوب

فسكت الرشيد عن أمره حتى نقل عنه أنه يريد الخلافة فعزله عن دمشق في سنة ثمان وسبعين ومائة، وكانت إقامته عليها أقل من سنة؛ وأظن أن في تلك الأيام أضيف إليه إمرة مصر، ثم أقدمه الرشيد إلى بغداد.

* * *

ولاية عبيد الله بن المهدي الأولى

على مصر هو عبيد الله ابن الخليفة محمد المهدي ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس العباسي الهاشمي أمير مصر، ولي مصر بعد عزل عبد الملك بن صالح عنها؛ ولاه الرشيد وجمع له صلاة مصر وخراجها؛ وهو أخو الرشيد لأبيه محمد المهدي ولما ولي عبيد الله مصر استخلف عليها داود بن حبيش وأرسله أمامه، فقدم داود مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة؛ ثم قدمها عبيد الله المذكور بعده في يوم الثلاثاء لأربع خلون من شعبان سنة تسع وسبعين ومائة.

وقال صاحب " البغية ".

وقال غيره: قدمها عبيد الله في يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من المحرم سنة تسع وسبعين ومائة. وجعل على شرطته معاوية بن صرد ثم عمار بن مسلم، فأقام عبيد الله على إمرة مصر مئة وخرج منها إلى جهة الإسكندرية لما بلغه أن الفرنج قدموا الإسكندرية بعد انهزامهم من الحكم بن هشام على ما نذكره في آخر هذه الترجمة؛ واستخلف على مصر عبد الله بن المسيب المقدم ذكره فغاب عبيد الله مدة ثم عاد إليها ودام على إمرة مصر إلى أن صرفه أخوه الرشيد عنها في شهر رمضان من " هذه " السنة. وخرج منها لليلتين خلتا من شوال، فكانت ولايته هذه المرة تسعة أشهر إلا أياماً قليلة، وولي عوضه الأمير موسى بن عيسى العباسي الهاشمي.

وقال صاحب " البغية " : صرف عنها لثلاث خلون من شهر رمضان سنة إحدى وثمانين ومائة فوافق في الشهر وخالف في السنة.

* * *

ولاية موسى بن عيسى الثالثة على مصر

قلت: هذه ولاية موسى بن عيسى الهاشمي العباسي الثالثة على مصر، ولاه الرشيد على مصر بعد عزل أخيه عبيد الله بن المهدي على الصلاة؛ فلما ولي موسى من بغداد قدم أمامه ابنه يحيى بن موسى إلى مصر واستخلفه على صلاتها، فقدم يحيى بن موسى إلى مصر لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومائة، ودام بمصر على صلاتها إلى أن قدمها والده موسى بن عيسى في آخر ذي القعدة من سنة تسع وسبعين ومائة المذكورة وسكن العسكر على العادة وأخذ في إصلاح أمور مصر وأصلح بين قيس ويمن من الحوف، واستمر على إمرة مصر إلى أن صرفه الرشيد عنها بعبيد الله بن المهدي ثانياً في جمادى الآخرة سنة ثمانين ومائة؛ فكانت ولاية موسى على مصر في هذه المرة الثالثة نحوا من عشرة أشهر. وخرج من مصر

وتوجه إلى بغداد وصار من أكابر أمراء الرشيد، وجيء بالناس من بغداد في السنة المذكورة. وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة مات بعد عوده من الحج وله خمس وخمسون سنة. وقيل: كانت وفاته في سنة تسع وثمانين ومائة. ولما حج في سنة اثنتين وثمانين ومائة ندبه الرشيد ليقرأ عهد أولاده بالخلافة في مكة والمدينة لأن الرشيد كان بايع في هذه السنة لابنه عبد الله المأمون بولاية العهد بعد أخيه محمد الأمين؛ وولاه خراسان وما يتصل بها إلى همذان ولقبه بالمأمون وسلمه إلى جعفر بن يحيى. وهذا من العجائب لأن الرشيد رأى ما صنع أبوه وجده المنصور بعيسى ابن موسى حتى خلع نفسه من ولاية العهد، ثم ماصنع به أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه؛ ثم هو بعد ذلك يبايع للمأمون بعد الأمين حتى وقع لهما بعد موته ما فيه عبرة لمن اعتبر.

قلت: وهذا البلاء والتدميغ إلى يومنا هذا، فإن كل ملك من الملوك إلى زماننا هذا يخلع ابن الملك الذي قبله ثم يعهد هو لابنه من غير أن يقعد له قاعدة يثبت ملكه بها، بل جل قصده العهد، ويدع الدنيا بعد ذلك تتقلب ظهراً لبطن. وكان أميراً جليلاً جواداً ممدحاً، تقدم التعريف بأحواله في ولايته الأولى والثانية على مصر من هذا الكتاب.

* * *

ولاية عبيد الله بن المهدي الثانية على مصر

تقدم التعريف به في أول ولايته على إمرة مصر. ولما عزل الرشيد موسى بن عيسى العباسي أعاد أخاه عبيد الله هذا على إمرة مصر عوضه ثانياً، فأرسل عبيد الله هذا داود ابن حبيش خليفة له على صلاة مصر، فسار داود حتى وصل إلى مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة من سنة ثمانين ومائة، فخلفه داود على صلاة مصر إلى أن حضر إليها عبيد الله بن المهدي في يوم رابع شعبان من السنة " فجعل على شرطه معاوية بن صرد، ثم عزله فولى عمار بن مسلم "، فلم تطل مدته على مصر ووقع له بها أمور حتى صرف عنها لثلاث خلون من شهر رمضان من سنة إحدى وثمانين ومائة؛ فكانت ولاية عبيد الله بن المهدي في هذه المرة الثانية على إمرة مصر سنة واحدة وشهرين تقريباً.

* * *

ولاية إسماعيل بن صالح على مصر

هو إسماعيل بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، الهاشمي العباسي أمير مصر؛ ولاه الرشيد إمرة مصر على الصلاة في يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائة بعد عزل عبيد الله بن المهدي عنها، فاستخلف إسماعيل على صلاة مصر عوف بن وهب الخزاعي فصفى المذكور بالناس إلى أن حضر إسماعيل بن صالح إلى مصر لخمس بقين من شهر رمضان المذكور؛ ولما قدم إلى مصر سكن العسكر وجعل على الشرطة سليمان بن الصمة المهلبي مدة ثم صرفه بزيد ابن عبد العزيز الغساني وأخذ في إصلاح أمر الديار المصرية؛ وكان شجاعاً فصيحاً عاقلاً أديباً. قال ابن عفير: ما رأيت على هذه الأعواد أخطب من إسماعيل بن صالح. واستمر إسماعيل بن صالح على إمرة مصر إلى أن صرف عنها لأمر اقتضى ذلك بإسماعيل بن عيسى في جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائة.

* * *

ولاية إسماعيل بن عيسى على مصر

هو إسماعيل بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن العباس، العباسي الهاشمي، أمير مصر. ولاه الرشيد على إمرة مصر بعد عزل إسماعيل ابن صالح العباسي عنها على الصلاة، فقدم مصر لأربع عشرة بقيت من جماد الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائة. ولما دخل مصر سكن العسكر على عادة أمراء مصر، ودام على إمرتها إلى أن صرفه الرشيد عنها بالليث بن الفضل في شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة، فكانت ولايته على مصر ثلاثة أشهر تنقص أياماً. وتوجه إلى الرشيد فأكرمه ودام عنده إلى أن حج معه في سنة ست وثمانين ومائة تلك الحجة التي لم يحجها خليفة قبله. وخبرها أن الرشيد سار إلى مكة بأولاده وأكابر أقاربه مثل إسماعيل هذا وغيره، وكان مسير الرشيد من الأنبار فبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية: أعطى هو عطاء، وابنه محمد الأمين عطاء، وابنه عبد الله عطاء؛ وسار إلى مكة فأعطى أهلها فبلغ عطاؤهم بمكة والمدينة ألف ألف دينار وخمسين ألف دينار. وكان الرشيد قد ولى الأمين العراق والشأم إلى آخر المغرب، وولى المأمون من همذان إلى آخر المشرق، ثم بايع الرشيد لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقبه المؤتمن، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان المؤتمن في حجر عبد الملك بن صالح، وجعل خلعه وإثباته للمأمون؛ ولما وصل الرشيد إلى مكة ومعه أولاده وأقاربه والقضاة والفقهاء والقواد، كتب كتاباً أشهد فيه على محمد الأمين من حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتاباً أشهد عليه فيه بالوفاء للأمين، وعلق الكتابين في الكعبة

وجدد عليهما العهود في الكعبة. ولما فعل الرشيد ذلك قال الناس: قد ألقى بينهم حرباً؛ وخافوا عاقبة ذلك، فكان ما خافوه.

***

ولاية الليث بن الفضل على مصر

هو الليث بن الفضل الأبيوردي أمير مصر، أصله من أبيورد؛ ولاه الرشيد على إمرة مصر على الصلاة والخراج معاً في شهر رمضان في سنة ثلاث وثمانين ومائة بعد عزل إسماعيل بن عيسى؛ وقدم إلى مصر لخمس خلون من شوال من السنة المذكورة، وسكن العسكر، وجعل أخاه علي بن الفضل على الشرطة، ومهد أمور مصر واستوفى الخراج، ودام على ذلك إلى أن خرج من مصر وتوجه إلى الخليفة هارون الرشيد في سابع شهر رمضان سنة أربع وثمانين ومائة بالهدايا والتحف، واستخلف أخاه علي بن الفضل على صلاة مصر، فوفد على الرشيد وأقام عنده مدة ثم عاد إلى مصر على عمله في آخر السنة، واستمر على إمرة مصر إلى أن خرج منها ثانياً إلى الرشيد في اليوم الحادي والعشرين من رمضان سنة خمس وثمانين ومائة.

***

ولاية أحمد بن إسماعيل على مصر

هو أحمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن العباس الأمير، أبو العباس الهاشمي العباسي أمير مصر. ولاه الرشيد على صلاة مصر بعد عزل الليث بن الفضل عنها في سنة سبع وثمانين ومائة، فقدمها يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، وجعل على شرطته معاوية بن صرد. وفي ولايته استنجده إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية فأمده بالعساكر وتوجهوا إليه ثم عادوا.

وكان سبب هذه التجريدة أن أهل طرابلس الغرب كان كثر شغبهم على ولاتهم، وكان إبراهيم بن الأغلب المذكور قد استعمل عدة ولاة، فكانوا يشكون من ولاتهم فيعزلهم ويولي غيرهم إلى أن استعمل عليهم سفيان بن المضاء وهي ولايته الرابعة، فاتفق أهل البلد على إخراجه عنهم وإعادته إلى القيروان فزحفوا إليه، فأخذ سلاحه وقاتلهم هو وجماعة ممن معه، فأخرجوه من داره فدخل الجامع وقاتلهم فيه فقتلوا من أصحابه جماعة ثم أمنوه فخرج عنهم في شعبان " من هذه السنة "، وكانت ولايته سبعاً وعشرين يوما، واستعمل جند طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي. ثم وقع أيضاً بين الأبناء بطرابلس وبين قوم يعرفون ببني أبي كنانة وبني يوسف حروب

كثيرة وقتال حتى فسدت طرابلس؛ فبلغ ذلك إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية فاستنجد أحمد بن إسماعيل أمير مصر وجمع جمعاً كبيراً وأمرهم أن يحضروا بني أبي كنانة والأبناء وبني يوسف فأحضروهم عنده بالقيروان، فلما قدموا عليه أراد قتلهم الجميع، فسألوه العفو عنهم في الذي فعلوه فعفا عنهم، وعادوا إلى بلادهم بعد أن أخذ عليهم العهود والمواثيق بالطاعة. واستمر أحمد هذا على إمرة مصر إلى أن صرف عنها بعبد الله بن محمد العباسي في يوم الاثنين لثمان عشرة خلت من شعبان سنة تسع وثمانين ومائة؛ فكانت ولايته على إمرة مصر سنتين وشهراً ونصف شهر.

* * *

ولاية عبد الله بن محمد على مصر

هو عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، الأمير أبو محمد الهاشمي العباسي المعروف بابن زينب؛ ولاه الرشيد إمرة مصر على الصلاة بعد عزل أحمد بن إسماعيل سنة تسع وثمانين ومائة. ولما ولي مصر أرسل يستخلف على صلاة مصر لهيعة بن موسى الحضرمي، فصلى لهيعة المذكور بالناس إلى أن قدم عبد الله بن محمد المذكور إلى مصر في يوم السبت للنصف من شوال سنة تسع وثمانين ومائة المذكورة؛ وسكن العسكر على عادة أمراء بني العباس، ثم جعل على شرطته أحمد بن موسى العذري مدة، ثم عزله وولى محمد بن عسامة " بن عمر ". ولم تطل مدة عبد الله المذكور على إمرة مصر وعزل بالحسين بن جميل لإحدى عشرة بقيت من شعبان سنة تسعين ومائة. وخرج عبد الله من مصر واستخلف على صلاتها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج؛ فكانت مدة ولاية عبد الله هذا على مصر ثمانية أشهر وتسعة عشر يوماً. وتوجه إلى الرشيد فأقره الرشيد من جملة قواده وأرسله على جماعة نجدة لعلي بن عيسى لقتال رافع بن الليث بن نصر بن سيار، وكان رافع ظهر بما وراء النهر مخالفاً للرشيد بسمرقند. وكان سبب خروج رافع أن يحيى بن الأشعث تزوج ابنة لعمه أبي النعمان وكانت ذات يسار ولسان، ثم تركها يحيى بن الأشعث بسمرقند وأقام ببغداد واتخذ السراري، فلما طال ذلك عليها أرادت التخلص منه، وبلغ رافعاً خبرها فطمع فيها وفي مالها، فدس إليها من قال لها: لا سبيل إلى الخلاص من زوجها إلا أن تشهد عليها قوماً أنها أشركت بالله، ثم تتوب، فينفسخ نكاحها وتحل للأزواج، ففعلت ذلك فتزوجها رافع. فبلغ الخبر يحيى بن الأشعث فشكا إلى الرشيد، فكتب الرشيد إلى علي بن عيسى يأمره أن يفرق بينهما وأن يعاقب رافعاً ويجلده الحد ويقيده ويطوف به في سمرقند على حمار " حتى يكون عظة لغيره " ففعل به ذلك ولم يحده؛ " وطلقها رافع "، وحبس رافع بسمرقند

مدة، ثم هرب من الحبس فلحق بعلي بن عيسى ببلخ، فأراد ضرب عنقه فشفع فيه عيسى بن علي بن عيسى، وأمره بالانصراف إلى سمرقند، فرجع إليها ووثب بعامل علي بن عيسى عليها وقتله واستولى على سمرقند واستفحل أمره حتى خرجت إليه العساكر وأخذته وقتل بعد أمور. ولما عاد عبد الله صاحب الترجمة إلى الرشيد سأله في إمرة مصر ثانياً فأبى واستمر عند الرشيد إلى أن مات.

* * *

ولاية الحسين بن جميل على مصر

هو الحسين بن جميل، مولى أبي جعفر المنصور، أمير مصر؛ ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل عبد الله بن محمد العباسي عنها في الصلاة في سنة تسعين ومائة، فقدم مصر يوم الخميس لعشر خلون من شهر رمضان من السنة المذكورة وسكن العسكر؛ وجعل على شرطته كاملاً الهنائي ثم معاوية بن صرد، ثم جمع له الرشيد بين الصلاة والخراج في يوم الأربعاء لسبع خلون من شهر رجب سنة إحدى وتسعين ومائة. ولما ولي الخراج تشدد فيه فخرج عليه أهل الحوف بالشرق من الوجه البحري وامتنعوا من أداء الخراج، وخرج عليهم أبو النداء بأيلة في نحو ألف رجل وقطع الطريق وأخاف السبل، وتوجه من أيلة إلى مدين وأغار على بعض نواحي قرى الشأم وانضم إليه من جذام وغيرها جماعة كبيرة وأفسدوا غاية الإفساد؛ وبلغ أبو النداء المذكور من النهب والقتل مبلغاً عظيماً، حتى بلغ الرشيد أمره، فجهز إليه جيشاً من بغداد لقتاله. ثم بعث الحسين بن جميل هذا من مصر عبد العزيز الجزري في عسكر آخر فالتقى عبد العزيز بأبي النداء المذكور بأيلة وقاتله بمن معه حتى هزمه وظفر به. وعندما ظفر عبد العزيز بأبي النداء المذكور وصل جيش الخليفة الرشيد إلى بلبيس في شوال سنة إحدى وتسعين ومائة، فلما رأى أهل الحوف مسك كبيرهم ومجيء عسكر الخليفة أذعنوا بالطاعة وأدوا الخراج وحملوا ما كان انكسر عليهم بتمامه وكماله. فلما وقع ذلك عاد عسكر الرشيد إلى بغداد. وأخذ الحسين هذا في إصلاح أمور مصر. فبينما هو في ذلك قدم عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر بمالك بن دلهم وذلك في يوم ثاني عشر شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وسبعة أشهر وأياماً.

* * *

ولاية مالك بن دلهم على مصر

هو مالك بن دلهم بن عيسى بن مالك الكلبي أمير مصر؛ ولاه الرشيد إمرة مصر بعد عزل الحسين بن جميل عنها، ولاه على الصلاة والخراج، فقدم مصر يوم الخميس لسبع بقين من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة. ولما دخل مالك هذا إلى مصر وافى خروج يحيى بن معاذ أمير جيش الرشيد الذي كان أرسله نجدة للحسين بن جميل على قتال أبي النداء الخارجي. وكان يحيى بن معاذ خرج من مصر ثم عاد إليها بعد عزل الحسين بن جميل. ولما دخل يحيى المذكور الفسطاط كتب إلى أهل الأحواف أن اقدموا علي حتى أوصي بكم مالك بن دلهم أمير مصر " وأدخل فيما بينكم وبينه في أمر خراجكم "، وكان مالك المذكور قد نزل بالعسكر وسكنه على عادة أمراء مصر، فدخل رؤساء اليمانية والقيسية من الحوف، فأغلق عليهم يحيى

الأبواب وقبض عليهم وقيدهم وسار بهم، وذلك في نصف شهر رجب من السنة. واستمر مالك بن دلهم على إمرة مصر بعد ذلك مدة، وجعل على شرطته محمد بن توبة بن آدم الأودي من أهل حمص، فاستمر على ذلك إلى أن صرفه الخليفة بالحسن بن البحباح في يوم الأحد لأربع خلون من صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وخمسة أشهر تنقص أياماً لدخوله مصر وتزيد أياماً لولايته ببغداد من الرشيد. وكان سبب عزله أن الأمين أرسل إليه في أول خلافته بالدعاء على منابر مصر لابنه موسى، واستشاره في خلع أخيه المأمون من ولاية العهد فلم يشر عليه.

* * *

ولاية الحسن بن البحباح على مصر

هو الحسن بن البحباح أمير مصر؛ وليها بعد عزل مالك بن دلهم عنها في صفر سنة ثلاث وتسعين ومائة. ولما ولاه الرشيد على إمرة مصر جمع له بين الصلاة والخراج، فأرسل الحسن هذا يستخلف على صلاة مصر العلاء بن عاصم الخولاني حتى قدم مصر يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر ربيع الأول من السنة، وسكن العسكر، وجعل على شرطته محمد بن خالد مدة، ثم عزله بصالح بن عبد الكريم ثم عزل صالح المذكور بسليمان بن غالب بن جبريل؛ واستمر الحسن هذا على إمرة مصر إلى أن توفي الخليفة هارون الرشيد في جمادى الآخرة من السنة وولي الخلافة ابنه الأمين محمد بن زبيدة، فثار جند مصر على الحسن هذا وقاتلوه، فقتل من الفريقين مقتلة عظيمة حتى سكن الأمر؛ وجمع مال الخراج بمصر وأرسله إلى الخليفة، فوثب أهل الرملة على أصحاب المال وأخذوا المال منهم.

و بينما الحسن في ذلك ورد عليه الخبر بعزله عن مصر بحاتم بن هرثمة، فخرج من مصر بعد أن استخلف عوف بن وهيب على الصلاة، ومحمد بن زياد " بن طبق القيسي " على الخراج، وسافر من طريق الحجاز لفساد طريق الشأم. وكان خروجه من مصر لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع و تسعين ومائة. فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وشهراً وثمانية وعشرين يوماً.

* * *

ولاية حاتم بن هرثمة على مصر

هو حاتم بن هرثمة بن أعين أمير مصر؛وليها بعد عزل الحسن بن البحباح عنها؛ ولاه الخليفة الأمين محمد على إمرة مصر وجمع له الصلاة والخراج؛ وسار من بغداد حتى قدم بلبيس في عساكره ونزل بها، وطلب أهل الأحواف فجاؤوه وصالحوه على خراجهم، ثم انتقض ذلك وثاروا عليه واجتمعوا على قتاله وعسكروا؛ فبعث إليهم حاتم المذكور جيشاً فقاتلوهم وكسروهم ثم سار حاتم من بلبيس حتى دخل مصر يوم الأربعاء لأربع خلون من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ومعه نحو مائة من الرهائن من أهل الحوف.

وسكن حاتم العسكر على عادة أمراء مصر وجعل على شرطه ابنه، ثم عزله بعلي ابن المثنى، ثم عزل علياً أيضاً بعبيد الله الطرسوسي. واستمر على إمرة مصر ومهد أمورها وابتنى بها القبة المعروفة بقبة الهراء. ودام على ذلك حتى ورد عليه الخبر من الخليفة الأمين محمد بعزله عن إمرة مصر في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة. وتولى مصر بعده جابر بن الأشعث. فكانت ولاية حاتم هذا على إمرة مصر سنة واحدة ونصف سنة تنقص أياماً.

* * *

ولاية جابر بن الأشعث على مصر

هو جابر بن الأشعث بن يحيى بن النقي الطائي أمير مصر؛ وليها بعد عزل حاتم بن هرثمة عنها في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين ومائة. ولاه الأمين على إمرة مصر وجمع له الصلاة والخراج. وقدم مصر يوم الاثنين لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وسكن العسكر على عادة الأمراء؛ واستخلف على صلاة مصر يحيى بن يزيد " بن حماد " المرادي. وكان ليناً. ولما دخل مصر وأقام بها وقعت الفتنة في العراق بين الأخوين الأمين والمأمون أولاد الرشيد، وكانت الوقعة بين جيش الأمين وعسكر المأمون، وكان على جيش الأمين علي بن عيسى بن ماهان في عسكر كثيف، وكان على عسكر المأمون طاهر بن الحسين، وهو في أقل من أربعة آلاف؛ فلما وصل ابن ماهان بعساكره إلى الري أشرف عليه طاهر بن الحسين المذكور وهم يلبسون السلاح وقد امتلأت بهم الصحراء وعليهم السلاح المذهب؛ فقال طاهر بن الحسين: هذا ما لا قبل لنا به، ولكن نجعلها خارجية ونقصد القلب؛ فهيأ سبعمائة من الخوارزمية. قال أحمد بن هشام الأمير: فقلنا لطاهر: نذكر علي بن عيسى البيعة التي أخذها هو علينا، وبيعة الرشيد للمأمون؛ قال: نعم، فعلقناهما على رمحين وقمت بين الصفين وقلت: الأمان " فقال علي بن عيسى: ذلك لك " ثم قلت: يا

علي بن عيسى، ألا تتقي الله، أليست هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة؛ اتق الله فقد بلغت باب قبرك! قال: من أنت؟ قلت: أحمد بن هشام، فصاح: علي يا أهل خراسان من جاء به فله ألف درهم، ثم وقع القتال وانهزم علي بن عيسى بن ماهان وأصحابه فتبعهم طاهر بمن معه فرسخين بعد أن تواقعوا اثنتي عشرة مرة، وعسكر المأمون ينتصر فيها حتى لحقهم طاهر بن التاجي ومعه رأس علي بن عيسى بن ماهان، وأخفوا جميع ما كان في عسكره؛ فأرسل طاهر بن الحسين الرأس إلى المأمون. فلما وصل إليه البريد بالرأس سلم عليه بالخلافة وطيف بالرأس في خراسان؛ ومن يومئذ استفحل أمر المأمون وقوي جأشه. وجاء الخبر بقتل علي بن عيسى بن ماهان إلى الأمين وهو يتصيد السمك، فقال للذي أخبره: ويحك! دعني فإن كوثراً قد صاد سمكتين وأنا ما صدت شيئاً بعد، فلامه الناس حتى قام من مجلسه.

ثم جهز لحرب طاهر بن الحسين عبد الرحمن بن جبلة الأنباري أمير الدينور بالعدة والقوة، فسار حتى نزل همذان. هذا وقد اضطرب ملك الأمين وأرجف ببغداد إرجافاً شديداً. وندم محمد الأمين على خلع أخيه المأمون؛ وطمع الأمراء فيه وشغبوا جندهم بطلب أرزاقهم وازدحموا بالجسر يطلبون الأرزاق والجوائز، فقاتلهم حواشي الأمين ثم عجز عنهم فزاد في عطاياهم.

ولما خرج عسكر الأمين ثانياً مع عبد الرحمن ووصل إلى همذان التقى مع طاهر وقاتلهقتالاً شديداً، ثم تقهقر ودخل مدينة همذان وتفرق عنه أكثر أصحابه، فحصره طاهر بهمذان حتى طلب منه عبد الرحمن الأمان؛ ثم غدر عبد الرحمن وقاتل طاهراً ثانياً حتى قتل؛ وملك طاهر بن الحسين البلاد ودعا للمأمون وخلع الأمين. كل ذلك والأمين ببغداد لم يخرج منها حتى وافاه طاهر المذكور وقتله على ما سيأتي في ترجمة الأمين إن شاء الله تعالى.

ولما ملك طاهر البلاد واستفحل أمره وبلغ المصريين ذلك وثب السري بن الحكم ومعه جماعة كبيرة من المصريين عصبة للمأمون، ودعا السري الناس لخلع الأمين فأجابوه وبايعوا المأمون؛ فقام جابر في أمر الأمين فقاتله السري بن الحكم المذكور حتى هزمه وأخرجه من مصر على أقبح وجه. فخرج جابر المذكور من مصر لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ومائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة تقريباً. وولي مصر بعده أبو نصر عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون.

* * *

ولاية عباد بن محمد على مصر

هو عباد بن محمد بن حيان البلخي، مولى كندة، الأمير أبو نصر. ولاه المأمون على إمرة مصر بعد عزل جابر بن الأشعث عنها في شهر رجب سنة ست وتسعين ومائة، بكتاب هرثمة بن أعين؛ وكان عباد هذا وكيلاً على ضياع هرثمة بمصر. فسكن عباد العسكر على عادة أمراء مصر، وجعل على شرطته هبيرة بن هاشم بن حديج؛ ولما بلغ الأمين ولاية عباد هذا على مصر كتب إلى ربيعة بن قيس " بن الزبير الجرشي " رئيس قيس الحوف بولاية مصر، وكتب أيضاً إلى جماعة من المصريين بإعانته؛ فلما بلغهم ذلك قاموا ببيعة الأمين وخلعوا المأمون وساروا لمحاربة عباد أمير مصر وأصحابه، فخندق عباد على الفسطاط؛ وكانت بينهم حروب ووقائع آخرها الوقعة التي مسك فيها عباد وحمل إلى الأمين فقتله الأمين في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وسبعة أشهر. وتولى مصر من بعده المطلب بن عبد الله. وكان عباد هذا من أعيان القواد، قدمه هرثمة بن أعين حتى ولاه المأمون مصر، وكان فيه رفق بالرعية وعنده سياسة ومعرفة بالحروب. دخل مصر وغالب من بها ميله إلى الأمين فلا زال بهم حتى وافقه كثير منهم، وكاد أمره يتم لولا انتقاض أهل الحوف عليه وكثر جمعهم ووثبوا عليه، فجمع عباد عساكره وقاتلهم " من " عدة وجوه وهو في قلة إلى أن ظفروا به فلم يبق عليه الأمين وقال: هذا ناب من أنياب عساكر المأمون. ومع هذا كله ملكها المأمون وولى المأمون بها المطلب، ولم يقدر الأمين على أن ولي بها أحداً، وقتل بعد مدة يسيرة وتولى المأمون الخلافة.

* * *

ولاية المطلب بن عبد الله الأولى على مصر

هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعي أمير مصر. ولاه المأمون على مصر بعد عزل عباد بن محمد عنها والقبض عليه في صفر سنة ثمان وتسعين ومائة، وجمع له صلاة مصر وخراجها معاً. وقدم إلى مصر من مكة في النصف من شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين ومائة وسكن العسكر، وأقر على شرطته هبيرة بن هاشم " بن حديج " مدة قليلة، ثم عزله بمحمد بن عسامة " بن عمرو المعافري "، ثم عزل محمداً بعبد العزيز ابن الوزير الجروي، ثم عزل عبد العزيز بإبراهيم بن عبد السلام الخزاعي، ثم عزله بهبيرة بن هاشم المذكور أولاً. كل ذلك لما كان في أيامه من كثرة الاضطراب بمصر، والفتن والحروب قائمة في كل قليل بديار مصر؛ فإن أهل مصر كانوا يوم ذاك فرقتين: فرقة من حزب الأمين محمد الخليفة، وفرقة

من حزب أخيه المأمون. فقاسى المطلب هذا بمصر شدائد مع أنه لم تطل مدته وعزل بالعباس بن موسى في شوال سنة ثمان وتسعين ومائة. فكانت ولايته على إمرة مصر نحواً من سبعة أشهر ونصف شهر، وقبض عليه وحبس مدة طويلة بإذن المأمون. وتأتي بقية ترجمته في ولايته الثانية على مصر بعد خروجه من السجن عند عزل الأمير العباس بن موسى عن مصر إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية العباس بن موسى على مصر

هو العباس بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس الهاشمي العباسي؛ ولي مصر بعد عزل المطلب عنها في شوال سنة ثمان وتسعين ومائة؛ ولاه المأمون على الصلاة والخراج؛ ولما ولي مصر قدم ابنه عبد الله أمامه إلى مصر خليفة له عليها؛ فقدم عبد الله إلى مصر ومعه الحسن بن عبيد بن لوط الأنصاري، ومحمد بن إدريس - أعني الإمام الشافعي - رحمه الله لليلتين بقيتا من شوال من السنة المذكورة. ولما دخل عبد الله المذكور والحسن بن عبيد سجنا المطلب المعزول عن إمرة مصر قبل تاريخه. وسكن عبد الله العسكر على العادة، وتشدد على أهل مصر فبغضوه وثاروا عليه، ووافقهم جند مصر؛ فقاتلهم عبد الله المذكور غير مرة، ومنعهم الحسن بن عبيد أعطياتهم وتهددهم لموافقتهم على حرب عبد الله. ثم تحامل الحسن المذكور على الرعية وعسفها وتهدد الجميع؛ فاجتمع الجميع وثاروا ووقفوا جملة واحدة؛ فخرج إليهم عبد الله وقاتلهم، فهزموه وأخرجوه من مصر؛ ثم عمدوا إلى المطلب بن عبد الله وأخرجوه من حبسه وأقاموه على إمرة مصر لأربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة تسع وتسعين ومائة. ولما بلغ العباس صاحب الترجمة ما وقع لابنه عبد الله بمصر قصد الديار المصرية حتى نزل بلبيس ودعا قيساً لنصرته ومضى إلى الحوف، ثم عاد مريضاً إلى بلبيس فمات به لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة من سنة تسع وتسعين ومائة. يقال: أن المطلب دس عليه سماً في طعامه فمات منه. وأما ابنه عبد الله فقال صاحب البغية: قتله الجند في يوم النحر، سنة ثمان وتسعين ومائة. فكانت مدة إقامته خليفة عن أبيه شهرين ونصف شهر.

قلت: وأما ولاية العباس على مصر أيام ناب عنه ابنه و زمان قتاله مع أهل مصر فكانت كلها حروباً وفتناً. ولعل العباس لم يدخل مصر ولا حكمها.

* * *

ولاية المطلب الثانية على مصر

قد تقدم ذكره في ولايته الأولى على مصر؛ وأما ولايته هذه فكانت بعد خروجه من السجن، لأنه لما قامت جند مصر والرعية على عبد الله بن العباس والحسن بن عبيد وأخرجوهما من مصر، وقيل بل قتلوا عبد الله بن العباس المذكور، ولوا عليهم المطلب هذا بعد أن أخرجوه من السجن، فاستولى على مصر ورفق بالرعية وأجزل لهم أعطياتهم وأحسن إليهم، فانضم عليه خلائق من الجند ومن أهل مصر وغيرهم؛ فاستفحل أمره بهم وقويت شوكته، وأخرج من كان بمصر من أصحاب العباس وابنه عبد الله، وتم أمره إلى أن قدم العباس بنفسه إلى مدينة بلبيس فلم يقدر على دخول مصر، ووقع له مع العباس أمور وحروب، إلى أن دس عليه المطلب هذا سماً فمات العباس منه، كما ذكرناه في ترجمته. ولما بلغ المأمون ذلك لم يجد بداً من أن يقره على إمرة مصر لشغله بقتال أخيه الأمين. فاستمر المطلب هذا على إمرة مصر إلى أن تم أمر المأمون في الخلافة وثبتت قدمه فعزله عنها بالسري ابن الحكم في مستهل شهر رمضان سنة مائتين. وكان المطلب قد ولى على شرطته أحمد بن حوي، ثم عزله بهبيرة بن هاشم. فلما قدم السري ابن الحكم إلى نحو مصر لم يطق المطلب هذا مدافعته عنها لكثرة جيوش السري وجموعه، فشاور أصحابه فأشاروا عليه بالثبات والقتال، فجمع هو أيضاً جمعاً هائلاً وقام بنصرته غالب جند مصر؛ والتقى مع السري وقاتله غير مرة، وقتل بين الطائفتين خلائق، حتى كانت الهزيمة على المطلب وأصحابه، وخرج هارباً من مصر إلي نحو مكة. ودافع الجند وأهل مصر عن نفوسهم حتى أمنهم السري، ودخل إلى مصر واستولى عليها. فكان حكم المطلب في هذه المرة الثانية على مصر سنة واحدة وسبعة أشهر. وقال صاحب البغية: وثمانية أشهر.

* * *

ولاية السري بن الحكم الأولى على مصر

هو السري بن الحكم بن يوسف بن المقوم، مولى من بني ضبة، وأصله من بلخ من قوم يقال لهم " الزط "، أمير مصر. وليها بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخراج معاً في مستهل شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب عنها. وسكن العسكر على عادة أمراء مصر، وجعل على شرطته محمد بن عسامة، وأخذ في إصلاح أمور مصر وقراها. وبينما هو في ذلك وثب عليه الجند في مستهل شهر ربيع الأول سنة إحدى ومائتين لأمر اقتضى ذلك، وحصل بينه وبينهم أمور ووقائع يطول شرحها، حتى ورد عليه الخبر من الخليفة المأمون عبد الله بعزله عن إمرة مصر بسليمان بن غالب في شهر ربيع الأول المذكور. وقيل: إنه هو الذي خرج من مصر واستعفى لأمور صدرت في حقه من الجند والرعية. وقيل: إن الجند قبضوا عليه بأمر الخليفة وحبسوه. وكانت ولايته على مصر نحواً من ستة أشهر تخميناً.

ولاية سليمان بن غالب على مصر

هو سليمان بن غالب بن جميل بن يحيى بن قزة البجلي الأمير أبو داود؛ ولي إمرة مصر على الصلاة والخراج معاً، بعد عزل السري بن الحكم وحبسه، بإجماع الجند وأهل مصر عليه في يوم الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الأول من سنة إحدى ومائتين. وسكن العسكر، وجعل على شرطته أبا ذكر بن جنادة بن عيسى المعافري، فشدد على المصريين، فعزله عن الشرطة بالعباس بن لهيعة " بن عيسى " الحضرمي. ثم وقع بين سليمان هذا وبين الجند أيضاً وحشة فوثبوا عليه وقاتلوه، ووقع له معهم وقائع وحروب كثيرة آلت إلى عزله عن إمرة مصر، فصرفه المأمون عنها، وأعاد على إمرة مصر السري ابن الحكم ثانية، فكانت ولاية سليمان هذا على إمرة مصر خمسة أشهر.

* * *

ولاية السري الثانية على مصر

تولى السري ثانياً على مصر من قبل الخليفة المأمون على الصلاة والخراج معاً. وقدم الخبر من المأمون بولايته في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة خلت من شعبان سنة إحدى ومائتين، ففي الحال أخرج من السجن ولبس خلعة المأمون بإمرة مصر توجه إلى العسكر وسكن به. وجعل على شرطته محمد بن عسامة أياماً، ثم عزله بالحارث بن زرعة أياماً؛ فشكا منه الجند فعزله بابنه ميمون، ثم عزل ميموناً أيضاً بأبي ذكر بن المخارق، ثم عزله بأخيه صالح بن الحكم، ثم عزل صالحاً بأخيه إسماعيل، ثم عزل إسماعيل بأخيه داود؛ كل ذلك لتغلب أهل مصر عليه وهو يصغي إلى قولهم إلى أن استفحل أمره. ولما ثبتت قدمه في إمرة مصر أخذ يتتبع من كان حاربه وعاداه في أول ولايته، فمسك منهم جماعة وأخرج جماعة، ومهد أمور مصر وأصلح أحوال أهل البلاد وأباد أهل الحوف. وأستمر على إمرة مصر إلى أن توفي بها في سلخ جمادى الأولى من سنة خمس ومائتين.

وقال صاحب البغية: مات بالفسطاط يوم السبت لانسلاخ ربيع الأول من سنة خمس ومائتين.

قلت: وعلى هدا القول كانت ولايته على مصر في هذه المرة الثانية ثلاث سنين وتسعة أشهر وثمانية عشر يوماً. وتولى إمرة مصر من بعده ابنه محمد بن السري. وكان السري أميراً جليلاً معظماً في القول وفي الأعمال وتنقل في البلاد، وكان ممن انضم على المأمون من القواد، ووقع له أمور بمصر ذكرنا بعضها إلى أن أعيد إليها ثانياً، واستمر بها إلى أن توفي، حسبما تقدم ذكره.

ولاية محمد بن السري على مصر

هو محمد بن السري بن الحكم بن يوسف، الأمير أبو نصر الضبي البلخي؛ ولي إمرة مصر بعد وفاة أبيه السري بن الحكم في يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة سنة خمس ومائتين؛ ولاه المأمون على الصلاة والخراج معاً كما كان والده. وسكن العسكر، وجعل على شرطته محمد بن قابس ثم عزله وولى أخاه عبيد الله " بن السري ". ولما ولي مصر كان الجروي قد غلب على أسفل أرض مصر وجمع جموعاً وخرج عن الطاعة فتهيأ محمد هذا لقتاله وجهز اليه العساكر المصرية، ثم خرج هو بنفسه لقتاله، ووقع له معه حروب ووقائع؛ وبينما هو في ذلك مرض ولزم الفراش حتى مات ليلة الاثنين لثمان خلون من شعبان سنة ست ومائتين. فكانت ولايته على مصر استقلالاً سنة واحدة وشهرين وثمانية أيام. وتولى مصر من بعده أخوه عبيد الله بن السري؛ وكان شاباً عاقلاً مدبراً حازماً سيوساً؛ مهد الديار المصرية في ولايته وأباد أهل الفساد وحارب الجروفي غير مرة وأحبته الرعية، غير أنه لم تطل أيامه وعاجلته المنية.

* * *

ولاية عبيد الله بن السري على مصر

هو عبيد الله بن السري بن الحكم بن يوسف؛ ولي إمرة مصر بعد موت أخيه محمد ابن السري بمبايعة الجند له في يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة ست ومائتين على الصلاة والخراج معاً. وسكن العسكر، وجعل على شرطته محمد بن عقبه المعافري؛ ولما ولي عبيد الله مصر وقع بينه وبين الجروي الخارجي المقدم ذكره حروب كثيرة، ثم حدثته نفسه الخروج عن طاعة المأمون وجمع وحشد؛ فبلغ المأمون ذلك وطلب عبد الله بن طاهر وقال له: إني استخرت الله تعالى منذ شهر، وقد رأيت أن الرجل يصف ابنه ليطريه وليرفعه، وقد رأيتك فوق ما وصفك أبوك، وقد مات السري وولى ابنه عبيد الله وليس بشيء، وقد رأيت توليتك مصر ومحاربة الخوارج بها؛ فقال عبد الله بن طاهر: السمع والطاعة، وأرجو أن يجعل الله الخير لأمير المؤمنين. فعقد له المأمون لواء مكتوباً عليه ألقاب عبد الله بن طاهر، وزاد فيه يا منصور؛ وركب الفضل بن الربيع الحاجب بين يديه إلى داره تكرمة له؛ ثم خرج عبد الله من العراق بجيوشه حتى قرب من مصر، فتهيأ عبيد الله بن السري المذكور لحربه وعبأ جيوشه وحفر خندقاً عليه، ثم تقدم بعساكره

إلى خارج مصر والتقى مع عبد الله بن طاهر وتقاتلا قتالاً شديداً وثبت كل من الفريقين ساعة كبيرة حتى كانت الهزيمة على عبيد الله بن السري أمير مصر، وانهزم إلى جهة مصر، وتبعه عبد الله بن طاهر بعساكره، فسقط غالب جند عبيد الله المذكور في الخندق الذي كان عبيد الله احتفره، ودخل هو بأناس قليلة إلى داخل مصر وتحصن به؛ فحاصره عبد الله بن طاهر وضيق عليه حتى أباده وأشرف على الهلاك، فطلب عبيد الله بن السري الأمان من عبد الله بن طاهر بشروطه، وبعث إليه بتقدمة من جملتها ألف وصيف ووصيفة مع كل وصيف ووصيفة ألف دينار في كيس حرير وبعث بهم ليلاً؛ فرد عبد الله ابن طاهر ذلك عليه، وكتب إليه: لو قبلت هديتك نهاراً قبلتها ليلاً{ﭙ ﭚ ﭛ} [النمل: ٣٦] الآية. فلما بلغه ذلك طلب الأمان من غير شرط؛ فأمنه عبد الله بن طاهر بعد أمور صدرت؛ فخرج إليه عبيد الله بن السري بالأمان وبذل إليه أموالاً كثيرة وأذعن له وسلم إليه الأمر، وذلك في آخر صفر سنة إحدى عشرة ومائتين. قال صاحب البغية: وعزله المأمون في ربيع الأول وذكر السنة. انتهى.

قلت: فكانت ولاية عبيد الله هذا على إمرة مصر أربع سنين وسبعة أشهر إلا ثمانية أيام. وتوجه عبيد الله إلى المأمون في السنة المذكورة فأكرمه وعفا عنه.

* * *

ولاية عبد الله بن طاهر على مصر

هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب، الأمير أبو العباس الخزاعي المصيصي أمير خراسان وأجل أعمال المشرق ثم أمير مصر؛ ولي مصر من قبل المأمون بعد عزل عبيد الله بن السري على الصلاة والخراج معاً، ودخل مصر في يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة ومائتين بعد أن قاتل عبيد الله بن السري أياماً وأخذه بالأمان حسبما تقدم ذكره في ترجمة عبيد الله بن السري.

ومولد عبد الله بن طاهر هذا سنة اثنتين وثمانين ومائة؛ وتأدب في صغره وقرأ العلم والفقه وسمع من وكيع وعبد الله المأمون؛ وروى عنه إسحاق بن راهويه وهو أكبر منه، ونصر بن زياد وخلق سواهم. وكان بارع الأدب حسن الشعر، وتقلد الأعمال الجليلة وأول ولايته مصر.

ولما ولي مصر ودخلها أمر عبيد الله بن السري بالخروج إلى المأمون ببغداد، وأقام عبد الله بن طاهر هذا بعسكره إلى أن خرج عبيد الله بن السري من مصر في نصف جمادى الأولى من السنة المذكورة، ثم سكن عبد الله بن طاهر العسكر وجعل على شرطته معاذ بن عزيز ثم عزله بعبدويه بن جبلة، ثم تهيأ للخروج إلى الإسكندرية فخرج إليها من مصر في مستهل صفر سنة اثنتي عشرة ومائتين واستخلف على صلاة مصر عيسى بن يزيد الجلودي.

وقيل: إن عبد الله هذا لما استولى على مصر وهب له المأمون خراجها، فلم يدخلها حتى صعد المنبر، فما نزل حتى فرق جميع ذلك، وكان ثلاثة آلاف ألف دينار. وقال سهل بن ميسرة: لما رجع عبد الله بن طاهر من الشام إلى بغداد صعد فوق سطح، فنظر إلى دخان يرتفع من جواره فقال: ما هذا الدخان؟ فقيل له: لعل قوماً يخبزون؛ فقال: أو يحتاج جيراننا إلى ذلك؟ ثم دعا حاجبه وقال: امض ومعك كاتب واحص جيراننا من لا يقطعهم عنا شارع، فمضى وأحصاهم فبلغ عددهم ألف نفس، فأمر لكل بيت بالخبز واللحم وما يحتاجون إليه، وبكسوة الشتاء والصيف والدراهم؛ فما زالوا كذلك حتى خرج من بغداد، فانقطع ذلك لكنه صار يبعث إليهم من خراسان بالكسوة مدة حياته.

وقيل: إن المأمون سأل عبد الله بن طاهر هذا: أيما أحسن، منزلي أم منزلك؟ قال: يا أمير المؤمنين، منزلي، قال: ولم؟ قال: لأني فيه مالك وأنا في منزلك مملوك. وكان عبد الله بن طاهر لا يدخل في منزله خصياً، ويقول: هم بين النساء رجال، وبين الرجال نساء.

ولما دخل عبد الله بن طاهر إلى مصر قمع المفسدين بها ومهد البلاد ورتب أحوالها

وأقام على إمرة مصر سنة واحدة وخمسة أشهر وعشرة أيام، وخرج منها لخمس بقين من شهر رجب سنة اثنتي عشرة ومائتين؛ واستخلف على مصر عيسى بن يزيد الجلودي على صلاتها وركب البحر وتوجه إلى العراق؛ فلما قارب بغداد تلقاه العباس ولد الخليفة المأمون، والمعتصم محمد أخو المأمون وأعيان الدولة؛ وقدم عبد الله بغداد وبين يديه المتغلبون على الشأم ومصر مثل ابن أبي الجمل وابن أبي أسقر وغيرهما، فأكرمه المأمون؛ ثم ولاه بعد ذلك الأعمال الجليلة مثل خراسان وغيرها. ويقال: إن عبد الله بن طاهر المذكور هو الذي زرع بمصر البطيخ العبدلي وإليه ينسب بالعبدلي، وأظنه ولده عن نوعين، فإنه لم يكن ببلد خلاف مصر. وعاش بعد عزله عن مصر سنين إلى أن مات بمرو في شهر ربيع الأول سنة ثلاثين ومائتين، بعد أن مرض ثلاثة أيام بحلقه يعني بعلة الخوانيق. ومات وله ثمان وأربعون سنة. وقبل أن يموت تاب وكسر الملاهي وعمر الرباطات بخراسان ووقف لها الوقوف وافتدى الأسرى من الترك بنحو ألفي ألف درهم. وكان عادلاً في الرعية محبباً لهم، وكان عظيم الهيبة حسن المذهب شجاعاً مقداماً. ولما مات خلف في بيت ماله أربعين ألف ألف درهم سوى ما في بيت مال العامة. وتولى مصر من بعده عيسى بن يزيد الجلودي الذي استخلفه عبد الله المذكور؛ أقره المأمون على إمرة مصر بسفارة عبد الله هذا.

* * *

ولاية عيسى بن يزيد الأولى على مصر

هو عيسى بن يزيد الجلودي، ولي إمرة مصر باستخلاف عبد الله بن طاهر عليها، فأقره المأمون على إمرة مصر وجمع له الصلاة والخراج، فتحول إلى العسكر وسكن به على عادة الأمراء؛ وجعل على شرطته ابنه محمداً وعلى المظالم إسحاق بن متوكل. وكانت ولايته على مصر نيابة عن عبد الله بن طاهر، فدام عيسى هذا على إمرة مصر إلى سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاث عشرة ومائتين. وصرف المأمون عبد الله بن طاهر عن إمرة مصر وولاها لأخيه المعتصم محمد بن هارون الرشيد. فلما ولي المعتصم مصر أقر عيسى هذا على الصلاة فقط، وجعل على خراج مصر صالح بن شيرزاد. فلما ولي صالح المذكور الخراج ظلم الناس وزاد الخراج وعسف فانتقض عليه أهل الحرف واجتمعوا وعسكروا وعزموا على قتاله، وكان عليهم عبد السلام وابن الجليس في القيسية واليمانية؛ فقام عيسى بن يزيد بنصرة صالح وبعث ابنه محمداً في جيش فحاربوه فانهزم وقتل أصحابه. وذلك في صفر سنة أربع عشرة ومائتين. وبلغ الخبر أبا إسحاق المعتصم فعظم عليه وعزل عيسى هذا عن إمرة

مصر وولى عوضه عمير بن الوليد التميمي. فكانت ولاية عيسى على مصر في هذه المرة الأولى سنة وسبعة أشهر وأياماً.

* * *

ولاية عمير بن الوليد على مصر

هو عمير بن الوليد الباذغيسي التميمي أمير مصر؛ ولي مصر باستخلاف أبي إسحاق محمد المعتصم له لأن الخليفة المأمون كان ولى مصر لأخيه المعتصم بعد عزل عبد الله بن طاهر، وولى المعتصم عميراً هذا على الصلاة لسبع عشرة خلت من صفر سنة أربع عشرة ومائتين، وسكن العسكر وجعل على شرطته ابنه محمداً؛ وعندما تم أمره خرج عليه القيسية واليمانية الذين كانوا خرجوا قبل تاريخه وعليهم عبد السلام وابن الجليس، فتهيأ عمير هذا وجمع العساكر والجند وخرج لقتالهم وخرج معه أيضاً فيمن خرج الأمير عيسى بن يزيد الجلودي المعزول به عن إمرة مصر، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة أربع عشرة ومائتين؛ واستخلف عمير ابنه محمداً على صلاة مصر، وسافر بجيوشه حتى التقى مع أهل الحوف القيسية واليمانية؛ فكانت بينهم وقعة هائلة وقتال ومعارك وثبت كل من الفريقين حتى قتل عمير هذا في المعركة لست عشرة خلت من شهر ربيع الأول المذكور. وقال صاحب البغية: قتل عمير في يوم الثلاثاء لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول، فوافق في الشهر والسنة، وخالف في اليوم.

قلت: وكانت ولاية عمير بن الوليد المذكور على مصر استقلالاً من قبل أبي إسحاق المعتصم شهرين سواء. وتولى من بعده مصر عيسى بن يزيد الجلودي ثانياً.

* * *

ولاية عيسى بن يزيد الجلودي ثانياً على مصر

ولي عيسى بن يزيد هذا مصر ثانياً من قبل أبي إسحاق محمد المعتصم بعد قتل عمير ابن الوليد على الصلاة؛ ولما ولي مصر، قصده قيس ويمن على العادة وقد كثر جمعهم من أهل الحوف وقطاع الطريق، فوقع لعيسى هذا أيضاً معهم حروب وفتن. وجمع عساكره وخرج إليهم حتى التقاهم بمنية مطر " عني المطرية بقرب مدينة عين شمس التي فيها العمود الذي تسميه العامة بمسلة فرعون " وقاتلهم؛ فكانت بينهم حروب هائلة انكسر فيها الأمير عيسى بمن معه وقتل من عسكره خلائق وانحاز إلى مصر، وذلك في شهر رجب من سنة أربع عشرة ومائتين المذكورة. وبلغ المأمون ذلك فعظم عليه وطلب أخاه أبا إسحاق محمداً المعتصم وندبه للخروج إلى مصر وقال له: امض إلى عملك وأصلح شأنه؛ وكان المعتصم شجاعاً مقداماً؛ فخرج

المعتصم من بغداد في أربعة آلاف من أتراكه وسافر حتى قدم مصر في أيام يسيرة، وعيسى كالمحصور مع أهل الحوف؛ وقبل دخوله إلى مصر بدأ بقتال أهل الحوف من القيسية واليمانية وقاتلهم وهزمهم وقتل أكابرهم ووضع السيف في القيسية واليمانية حتى أفناهم، وذلك في شعبان من السنة، ومهد البلاد وأباد أهل الفساد؛ ثم دخل الفسطاط " أعني مصر " وفي خدمته عيسى الجلودي وجميع أعيان المصريين لثمان بقين من شعبان، وسكن بالعسكر حتى أصلح أحوال مصر؛ ثم خرج منها إلى الشأم في غرة المحرم سنة خمس عشرة ومائتين في أتراكه ومعه جمع كثير من الأسرى في ضر وجهد شديد مشاة حفاة أمام الخيالة. قلت: وشجاعة المعتصم معروفة مشهورة تذكر في خلافته ووفاته؛ وهو الآن ولي عهد أخيه عبد الله المأمون، وقبل أن يخرج من مصر مهد أمورها وولى عليها عبدويه بن جبلة وعزل عيسى ابن يزيد الجلودي صاحب الترجمة. فكانت ولاية عيسى هذه الثانية على مصر نحواً من ثمانية أشهر تنقص أياماً.

* * *

ولاية عبدويه بن جبلة على مصر

هو عبدويه بن جبلة. أصله من الأبناء من قواد بني العباس؛ ولاه المعتصم نيابة عنه على صلاة مصر بعد عزل عيسى بن يزيد الجلودي عن إمرة مصر في مستهل المحرم سنة خمس عشرة ومائتين؛ ثم خرج المعتصم بعد ولايته إلى الشأم حسبما تقدم ذكره؛ وبعد سفر المعتصم تحول عبدويه هذا إلى العسكر وسكن به على عادة الأمراء، وجعل على الشرطة ابنه، وعلى المظالم إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد؛ ولما ولي مصر أخذ في إصلا ح أحوالها وإثبات ما قرره المعتصم بها من الأمور. وبينما هو في ذلك خرج عليه أناس من الحوفية أيضاً من القيسية واليمانية في شعبان من السنة، فتهيأ عبدويه لمحاربتهم وجهز إليهم جيشاً فسار إليهم الجيش وحاربوهم وظفروا بهم بعد أمور. ثم حضر إليه بعد ذلك الأفشين حيدر بن كاوس الصغدي إلى مصر في ثالث ذي الحجة من السنة ومعه علي بن عبد العزيز الجروي لأخذ المال فلم يدفع إليه عبدويه وقاتله، فخرج الأفشين إلى برقة، وصرف عبدويه بن جبلة عن إمرة مصر بعيسى بن منصور بن موسى؛ وبعد عزل عبدويه المذكور عاد الأفشين إلى مصر وأقام بها على ما سيأتي ذكره، فكانت ولاية عبدويه بن جبلة على مصر نيابة عن أبي إسحاق محمد المعتصم سنة واحدة.

* * *

ولاية عيسى بن منصور على مصر

هو عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقي، مولى بني نصر بن معاوية، أمير مصر؛ وليها من قبل أبي إسحاق محمد المعتصم بعد عزل عبدويه بن جبلة عنها في مستهل سنة ست عشرة ومائتين على الصلاة؛ وسكن عيسى بالعسكر على عادة الأمراء، وجعل على شرطته أبا المغيث يونس بن إبراهيم. وفي أيام ولايته انتقضت عليه أسفل الأرض بغربها أعني بالوجه البحري، وانضم الأقباط عليهم وذلك في جمادى الأولى، وحشدوا وجمعوا فكثر عددهم وساروا نحو الديار المصرية؛ فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند لقتالهم فضعف عن لقائهم وتقهقر بمن معه، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجه لسوء سيرته، وخرج معه أيضاً متولي خراج مصر وخلعوا الطاعة؛ فقدم الأفشين من برقة وتهيأ لقتال القوم في النصف من جمادى الآخرة، وانضم عليه عيسى بن منصور هذا ومن انضاف إليه، وتجمعوا وتجهزوا لقتال القوم وخرجوا في شوال وواقعوهم فظفروا بهم بعد أمور وحروب وأسروا وقتلوا وسبوا؛ ثم مضى الأفشين إلى الحوف وقاتلهم أيضاً لما بلغه عنهم وبدد جمعهم وأسر منهم جماعة كبيرة بعد أن بضع فيهم وأبدع؛ ودامت الحروب في السنة المستمرة بمصر في كل قليل إلى أن قدمها أمير المؤمنين عبد الله المأمون لخمس خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين، فسخط على عيسى بن منصور المذكور وحل لواءه وعزله ونسب له كل ما وقع بمصر ولعماله؛ ثم جهز العساكر لقتال أهل الفساد وأحضر بين يديه عبدوس الفهري فضربت عنقه لأنه كان أيضاً ممن تغلب على مصر. ثم سار عسكره لقتال أسفل الأرض أهل الغربية والحوف وأوقعوا بهم وسبوا القبط وقتلوا مقاتلتهم وأبادوهم وقمعوا أهل الفساد من سائر أراضي مصر بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة، ثم رحل الخليفة المأمون من مصر لثماني عشرة خلت من صفر بعد أن أقام بمصر وأعمالها " مثل سخا وحلوان وغيرهما " تسعة وأربعين يوماً؛ وولى على صلاة مصر كيدر وعلى الشرطة أحمد بن بسطام الأزدي من أهل بخارا. وعمر المقياس وجسراً آخر بالجزيرة تجاه المسطاط.

* * *

ولاية كيدر على مصر

هو كيدر، واسمه نصر بن عبد الله، وكيدر شهرة غلبت عليه، الأمير أبو مالك الصغدي؛ ولي إمرة مصر بعد عزل عيسى بن منصور في صفر سنة سبع عشرة ومائتين من قبل المأمون على الصلاة فسكن العسكر على عادة الأمراء بعد رحيل المأمون، وجعل على شرطته ابن إسبنديار. ثم بعث المأمون برجل من العجم يسمى بابن بسطام على الشرطة فولي مدة ثم عزله كيدر لسوء سيرته لرشوة ارتشاها وضربه بالسوط في صحن الجامع، ثم ولى ابنه المظفر عوضه. ودام كيدر على إمرة مصر إلى أن ورد عليه كتاب المأمون في جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ومائتين بأخذ الناس بالمحنة - أعني بالقول بخلق القرآن - وكان القاضي بمصر يومئذ هارون بن عبد الله الزهري، فأجاب القاضي والشهود، ومن توقف منهم عن القول بخلق القرآن سقطت شهادته. وأخذ كيدر يمتحن القضاة وأهل الحديث وغيرهم، وكان كتاب المأمون إلى كيدر يتضمن ذلك:

" وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه، أهل جهالة بالله وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه، وقصور أن يقدروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه؛ وذلك أنهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن، فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه؛ وقد قال تعالى:{ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الزخرف: ٣]، وكل ما جعله فقد خلقه؛ كما قال تعالى:{ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } [الأنعام: ١]؛ وقال تعالى: "{كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا } [طه: ٩٩] فأخبر أنه قصص لأمور أحدثه بعدها. وقال عز وجل:{ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ } [هود: ١]. والله تعالى محكم كتابه ثم مفصله، فهو خالقه ومبتدعه. ثم انتسبوا إلى السنة وأنهم أهل الحق والجماعة وأن من سواهم أهل الكفر والباطل؛ فاستطالوا بذلك وغروا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله إلى موافقتهم، فنزعوا الحق إلى باطلهم واتخذوا دين الله وليجة إلى ضلالهم. إلى أن قال: فرأى أمير المؤمنين أن أولئك شر الأمة المنقوصون من التوحيد حظاً، أوعية الجهالة، وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله، وأحق أن يتهم في صدقه وتطرح شهادته ولا يوثق به. ومن عمي عن رشده وحظه عن الإيمان بالتوحيد، كان عما سوى ذلك أعمى وأضل سبيلاً. ولعمر أمير المؤمنين، إ ن أكذب الناس من كذب على الله ووحيه وتخرص الباطل ولم يعرف الله حق معرفته. فاجمع من بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا هذا،

وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه، وأعلمهم أني غير مستعين في عمل ولا واثق بمن لا يوثق بدينه. فإذا أقروا بذلك ووافقوا " أمير المؤمنين فيه " فمرهم بنص من بحضرتهم من الشهود ومسألتهم عن علمهم عن القرآن، وترك شهادة من لم يقر أنه مخلوق؛ واكتب إلينا بما يأتيك عن قضاة أهل أعمالك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك.

ثم كتب إليه كتاباً آخر من جنس الأول وأمره بإحضار من امتنع فأحضر جماعة: منهم أحمد بن حنبل رضي اللة عنه، وبشر بن الوليد الكندي، وأبو حسان الزيادي، وعلي بن أبي مقاتل، والفضل بن غانم، وعبيد الله بن عمر القواريري، وعلي بن الجعد، وسجادة - واسمه الحسن بن حماد - والذيال بن الهيثم، وقتيبة بن سعيد، وكان حينئذ ببغداد، وسعدويه الواسطي، وإسحاق بن أبي إسرائيل وابن الهرش، وابن علية الأكبر، ومحمد بن نوح العجلي، ويحيى بن عبد الرحمن العمري، وأبو نصر التمار، وأبومعمر القطيعي، ومحمد بن حاتم بن ميمون وغيرهم؛ وعرض عليهم كتاب المأمون فعرضوا ووروا ولم يجيبوا ولم ينكروا، فقال لبشر بن الوليد: ما تقول؛ قال: قد عرفت أمير المؤمنين غير مرة؛ قال: فالآن قد تجدد من أمير المؤمنين كتاب؛ قال: أقول: كلام الله؛ قال: لم أسألك عن هذا، أمخلوق هو؛ قال: ما أحسن غير هذا الذي قلت لك، إني قد استعهدت أمير المؤمنين أني لا أتكلم فيه. ثم قال لعلي بن أبي مقاتل: ما تقول؛ قال: القرآن كلام الله، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا. ثم أجاب أبو حسان الزيادي بنحو من ذلك. ثم قال لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما تقول؛ قال: كلام الله، قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله لا أزيد على ذلك.

قلت: والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه هو أعظم من قام في إظهار السنة وثبته الله على ذلك، ولولاه لفسدت عقائد جماعة كثيرة؛ وقد تداولته الخلفاء بالعقوبة على القول بخلق القرآن وهو يمتنع من ذلك أشد امتناع، ويأتي بالأدلة القاطعة، إلى أن خلصه الله منهم وهو على كلمة الحق.

ثم قال لابن البكاء الأكبر: ما تقول؟ قال: أقول القرآن مجعول ومحدث لورود النص بذلك؛ فقال إسحاق بن إبراهيم: والمجعول مخلوق! قال: نعم، قال: فالقرآن مخلوق! قال: لا أقول مخلوق " ولكنه مجعول ".

ثم وجه إسحاق بن إبراهيم بجواباتهم إلى المأمون، فورد عليه كتاب المأمون: بلغنا ما أجاب به متصنعة أهل القبلة وملتمسو الرياسة فيما ليسوا له بأهل؛ فمن لم يجب بأنه مخلوق فامنعه من الفتوى والرواية. ثم قال في الكتاب: وأما ما قال بشر فقد كذب، و لم يكن جرى بينه وبين أمير المؤمنين في ذلك عهد أكثر من إخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الإخلاص والقول بأن القرآن مخلوق. فادع به إليك فإن تاب فأشهر أمره، وإن أصر على شركه ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً بكفره وإلحاده، فاضرب عنقه وابعث إلينا برأسه؛ وكذلك إبراهيم.

وأما علي بن أبي مقاتل فقل له: ألست القائل لأمير المؤمنين: إنك تحلل وتحرم.

وأما الذيال فأعلمه أنه كان في الطعام الذي سرقه من الأنبار ما يشغله.

وأما أحمد بن يزيد وقوله: إنه لا يحسن الجواب في القرآن، فأعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه، جاهل سيحسن الجواب إذا أدب، ثم إن لم يفعل كان السيف من جراء ذلك.

وأما أحمد بن حنبل فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى مقالته واستدل على جهله وآفته بها.

وأما الفضل بن غانم، فأعلمه أنه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه بمصر، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة " يعني في ولايته القضاء ".

وأما الزيادي فأعلمه واذكر له ما يشينه.

وأما أبو نصر التمار فإن أمير المؤمنين شبه خساسة عقله بخساسة متجره.

وأما ابن نوح وابن حاتم " والمعروف بأبي معمر "، فأعلمهم أنهم مشاغيل بأكل الربا عن الوقوف على التوحيد، وأن أمير المؤمنين لو لم يستحل محاربتهم في الله " ومجاهدتهم إلا لإربائهم " وما نزل به كتاب الله في أمثالهم لاستحل ذلك، فكيف بهم وقد جمعوا مع الإرباء شركاً وصاروا للنصارى شبهاً! ثم ذكر لكل واحد منهم شيئاً وبخه به. حتى قال: ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت بعد بشر وابن المهدي فاحملهم موثقين إلى عسكر أمير المؤمنين ليسألهم، فإن لم يرجعوا حملهم على السيف؛ قال: فأجابوا كلهم عند ذلك إلا أحمد بن حنبل وسجادة ومحمد بن نوح والقواريري، فأمر بهم فقيدوا، ثم سألهم من الغد وهم في القيود؛ فأجاب سجادة، ثم عاودهم بالثاني فأجاب القواريري. فوجه بأحمد بن حنبل ومحمد بن نوح. ثم بلغ المأمون أنهم إنما أجابوا مكرهين، فغضب وأمر بإحضارهم إليه؛ فلما صاروا إلى الرقة بلغهم وفاة المأمون، وكذا ورد الخبر على أحمد بن حنبل. وأما محمد بن نوح فكان عديلا لأحمد بن حنبل في المحمل فمات، فوليه أحمد وصلى عليه ودفنه. هذا ما كان بالعراق. وأما مصر، فبينما كيدر في امتحان علمائها وفقهائها ورد عليه الخبر

بموت المأمون في شهر رجب قبل أن يقبض على من طلبه المأمون، وأن المعتصم محمداً بويع بالخلافة من بعده. ثم عقيب ذلك ورد على كيدر كتاب المعتصم ببيعته ويأمره بإسقاط من في الديوان من العرب وقطع العطاء عنهم، ففعل كيدر ذلك؛ فخرج يحيى بن الوزير الجروف في جمع من لخم وجذام عن الطاعة، فتجهز كيدر لحربهم، فأدركته المنية ومات في شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين، واستخلف ابنه المظفر بن كيدر بعده على مصر، فأقره المعتصم على إمرة مصر؛ فكانت ولايته على مصر سنتين وشهرين تنقص أياماً.

* * *

ولاية المظفر بن كيدر على مصر

هو المظفر بن كيدر أمير مصر، ولي إمرة مصر بعد موت أبيه كيدر باستخلافه، وأقره المعتصم على عمل مصر وذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع عشرة ومائتين؛ وسكن العسكر على عادة الأمراء وتم أمره؛ فخرج عليه يحيى بن الوزير الذي كان خرج على أبيه أيضاً قبل موته بمدة يسيرة، فتهيأ المظفر هذا لقتاله وحشد وجمع الجند والعسكر وخرج من مصر حتى التقى مع يحيى بن الوزير المذكور وقاتله، فكانت بينهم وقعة هائلة انكسر فيها يحيى بن الوزير المذكور وظفر به المظفر هذا، وذلك في جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة ومائتين. ولما ولي المعتصم الخلافة أنعم بولاية مصر على أبي جعفر أشناس، ودعي لأشناس على منابر مصر؛ وبعد مدة يسيرة صرف أشناس المظفر هذا عن إمرة مصر في شعبان من السنة؛ وولي مصر بعده موسى بن أبي العباس. وكانت ولاية المظفر على مصر نحواً من أربعة أشهر تخميناً، على أنه لم يهنأ له بها عيش من كثرة ما وقع له من الحروب والوقائع في هذه المدة اليسيرة، مع أنه ورد عليه كتاب المعتصم يذكر له أن يمتحن العلماء بخلق القرآن بمصر فامتحن جماعة. وبالجملة فكانت أيامه على مصر قليلة ووقائعه وشروره كثيرة.

* * *

ولاية موسى بن أبي العباس على مصر

هو موسى بن أبي العباس ثابت؛ ولي إمرة مصر نيابة عن أشناس بعد عزل المظفر ابن كيدر عنها في مستهل شهر رمضان سنة تسع عشرة ومائتين، ولي على الصلاة وجمع له الخراج في بعض الأحيان. ولما ولي مصر سكن بالعسكر على عادة الأمراء، واستعمل على الشرطة بعض حواشيه؛ وحسنت أيامه وطالت وسكنت الشرور والفتن بآخر أيامه، فإنه في أول الأمر خالفه بعض أهل الحوف ووقع له معهم أمور حتى سكن الأمر وصلح، على أنه كان في أيام المحنة بخلق القرآن، وأباد فقهاء مصر وعلماءها إلى أن أجاب غالبهم بالقول بخلق القرآن. ودام على إمرة مصر نائباً لأبي جعفر أشناس إلى أن صرف عنها في شهر ربيع الأخر سنة أربع وعشرين ومائتين. وكانت ولايته على إمرة مصر أربع سنين وسبعة أشهر، وولى أشناس على إمرة مصر بعده مالك بن كيدر الصغدي.

* * *

ولاية مالك بن كيدر على مصر

هو مالك بن كيدر، واسم كيدر نصر، وقد تقدم ذكره في ولايته على مصر، وكيدر ابن عبد الله الصغدي. وولي مالك إمرة مصر بعد عزل الأمير موسى بن أبي العباس عنها من قبل الأمير أبي جعفر أشناس، ولاه على صلاة مصر؛ وكان الخراج للخليفة يولي عليه من شاء في هذه السنين؛ فقدم مالك بن كيدر إلى مصر لسبع بقين من شهر ربيع الآخر من سنة أربع وعشرين ومائتين، وسكن بالعسكر على عادة أمراء بني العباس، وولى على الشرطة بعض حواشيه، وساس الناس إلى أن صرف عن إمرة مصر في ثالث شهر ربيع الآخر من سنة ست وعشرين ومائتين؛ وتولى مصر من بعده الأمير علي بن يحيى؛ فكانت ولاية مالك هذا على مصر سنتين وأحد عشر يوماً، ودام بعد ذلك بطالاً سنين إلى أن توفي فجاءة في عاشر شعبان سنة ثلاث وثلاثين ومائتين؛ وكان أميراً ساكناً عاقلاً مدبراً سيوساً وقوراً في الدول؛ ولي الأعمال الجليلة، وتنقل في خدم الخلفاء، وكان من أكابر القواد والأمراء.

* * *

ولاية علي بن يحيى الأولى على مصر

هو علي بن يحيى، الأمير أبو الحسن الأرمني؛ ولي إمرة مصر من قبل الأمير أبي جعفر أشناس التركي على الصلاة، بعد عزل الأمير مالك بن كيدر عنها، سنة ست وعشرين ومائتين؛ و وصل إلى الديار المصرية في يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، وسكن بالعسكر على عادة الأمراء؛ وجعل على شرطته معاوية " بن معاوية " بن نعيم، وتم أمره، وأخذ في إصلاح أحوال الديار المصرية وإقناع المفسدين، إلى أن ورد عليه الخبر في شهر ربيع الأول من سنة سبع وعشرين ومائتين بموت الخليفة محمد المعتصم وبيعة ابنه هارون الواثق بالخلافة من بعده، وأن الخليفة هارون الواثق أقره على عمل مصر على عادته. فأقام على ذلك مدة، و ورد عليه الخبر بعزله عن إمرة مصر، من غير سخط، بعيسى بن منصور، وذلك في يوم الخميس لسبع خلون من ذي الحجة من سنة ثمان وعشرين ومائتين. فكانت ولاية علي بن يحيى هذا على مصر سنتين وثمانية أشهر، وقيل: وثلاثة أشهر، والأول أصح. وتوجه إلى العراق وقدم على الخليفة هارون الواثق فأكرمه الواثق؛ وولي الأعمال الجليلة في أيام الواثق وأيام أخيه المتوكل جعفر. ثم أعيد إلى إمرة مصر ثانياً حسبما يأتي ذكره، وأقام بها مدة، ثم عزل وعاد إلى العراق

وعظم عند الخلفاء، وغزا الصائفة غير مرة، إلى أن خرج في أول سنة تسع وأربعين ومائتين إلى غزو الروم وتوغل في بلاد الروم ثم عاد قافلاً من إرمينية إلى ميافارقين، فبلغه مقتل الأمير عمر بن عبد الله الأقطع؛ وكان الأقطع قد خرج مع جعفر بن دينار إلى الصائفة فافتتح حصناً يقال له مطامير؛ فاستأذن الأقطع جعفر بن دينار في الدخول إلى الروم فأذن له، فدخل الأقطع الروم ومعه عسكر كثيف. وكان الروم في خمسين ألفاً، فأحاطوا به وبمن معه، فقتلوه وقتل معه ألف رجل من أعيان المسلمين؛ وكان ذلك في يوم الجمعة منتصف شهر رجب من السنة. فلما بلغ الأمير علي بن يحيى المذكور خبر قتل الأقطع عاد من وقته يطلب الروم، فقاتل حتى قتل حسبما ذكرناه في ولايته الثانية على مصر.

وفي أيام علي بن يحيى هذا على مصر وقع بينه وبين هارون بن عبد الله الزهري الأصم قاضي قضاة ديار مصر، فعزله وولى عوضه محمد بن أبي الليث الحارث بن شداد الإيادي الجهمي الخوارزمي؛ فبقي محمد المذكور في القضاء نحواً من عشر سنين، ولم يكن محمود السيرة في أحكامه، وامتحن الفقهاء بمصر بخلق القرآن، وحكم على عبد الله بن عبد الحكم بودائع كانت للجروي عندهم بألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، فأقاموا شهوداً بأن الجروي كان قد أبرأهم وأخذ الذي له، فلم يلتفت لذلك وعسفهم وظلمهم وفعل أمثال ذلك كثيراً.

ولاية عيسى بن منصور الثانية على مصر

هو عيسى بن منصور بن موسى بن عيسى الرافقي؛ وليها ثانياً بعد عزل علي بن يحيى الأرمني، من قبل الأمير أشناس التركي المعتصمي على الصلاة، ودخل إلى مصر في يوم الجمعة لسبع خلون من محرم سنة تسع وعشرين ومائتين؛ وسكن العسكر على عادة أمراء مصر في الدولة العباسية؛ وجعل على الشرطة ابنه، ومفد أمور مصر، ودام بها إلى أن توفي الأمير أشناس التركي المعتصمي عامل مصر من قبل الخليفة - وهو الذي كان إليه أمور مصر يولي عليها من شاء من الأمراء - في سنة ثلاثين ومائتين. وولى الخليفة مكانه على مصر الأمير إيتاخ. وكانت ولاية أشناس على مصر اثنتي عشرة سنة أو نحوها.

ولما ولى إيتاخ التركي مصر أقر عيسى بن منصور هذا على عمله، فاستمر عيسى بمصر على إمرتها نيابة عن إيتاخ إلى أن مات الخليفة هارون الواثق في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وبويع بالخلافة من بعده أخوه المتوكل على الله جعفر، فأرسل إلى عيسى هذا " بأن " يأخذ البيعة له على المصريين. ثم صرفه بعد ذلك في النصف من شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وثلاثين ومائتين بالأمير هرثمة؛ وقدم مصر علي بن مهرويه خليفة هرثمة على الصلاة. فلم تطل أيام عيسى بن منصور هذا بعد عزله على إمرة مصر، ومرض ولزم الفراش حتى مات في قبة الهواء بمصر في حادي عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثلاثين المذكورة. رحمه الله. وكان أميراً جليلاً عارفاً عاقلاً مدبراً سيوساً؛ ولي الأعمال الجليلة، وطالت أيامه في السعادة. وهو ممن ولي إمرة مصر أولاً عن الخليفة، والثانية عن الأمير أشناس التركي، فكانت ولايته على مصر أربع سنين وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوماً.

* * *

ولاية هرثمة بن نصر على مصر

هو هرثمة بن نصر الجبلي: من أهل الجبل، ولي إمرة مصر بعد عزل عيسى بن منصور عنها في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين ومائتين؛ ولاه الأمير إيتاخ التركي على إمرة مصر نيابة عنه على الصلاة. ولما ولي هرثمة هذا أرسل إلى مصر علي بن مهرويه خليفة له على مصر وعلى صلاتها، فناب علي بن مهرويه عنه، حتى قدم هرثمة المذكور إلى مصر في يوم الأربعاء لست خلون من شهر رجب من سنة ثلاث وثلاثين ومائتين. وسكن بالعسكر على العادة؛ وجعل على شرطته أبا قتيبة. وفي أيام هرثمة هذا ورد كتاب الخليفة المتوكل إلى مصر بترك الجدال في القرآن واتباع السنة وعم القول بخلق القرآن. ولله الحمد.

وسببه أن الواثق كان قد تاب ورجع عن القول بخلق القرآن، فأدركته المنية قبل إشاعة ذلك وتولى المتوكل الخلافة. قال أبو بكر الخطيب: كان أحمد بن أبي دواد قد استولى على الواثق وحمله على التشدد في المحنة، ودعا الناس إلى القول بخلق القرآن. وقال عبيد الله بن يحيى: حدثنا إبراهيم بن أسباط بن السكن قال: حمل رجل فيمن حمل مكبل بالحديد من بلاده فأدخل؛ فقال ابن أبي داود: تقول أو أقول؛ قال: هذا أول جوركم، أخرجتم الناس من بلادهم، ودعوتموهم إلى شيء ما قاله أحد؛ لا بل أقول؛ قال: قل - والواثق جالس - فقال: أخبرني عن هذا الرأي الذي دعوتم الناس إليه، أعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدع الناس إليه، أم شيء لم يعلمه؟ قال: علمه؛ قال: فكان يسعه ألا يدعو الناس إليه وأنتم لا يسعكم! فبهتوا. قال: فاستضحك الواثق وقام قابضاً على كمه ودخل بيتاً ومد رجليه وهو يقول: شيء وسع النبي أن يسكت عنه ولا يسعنا؛ فأمر أن يعطى الرجل ثلاثمائة دينار وأن يرد إلى بلده.

قلت: ولما وقع ذلك كتب للأقطار برفع المحنة والسكوت عن هذه المقالة بالجملة، وهدد كل من قال بها بالقتل.

وكان هرثمة هذا يحب السنة، فأخذ في إظهار السنة والعمل بها، وفرح الناس بذلك وتباشروا بولايته؛ فلم تطل مدته على إمرة مصر بعد ذلك حتى مرض ومات بها في يوم الأربعاء لسبع بقين من شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين؛ واستخلف ابنه حاتم بن هرثمة على صلاة مصر. وكانت ولاية هرثمة المذكور على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وثمانية أيام. وهذا ثاني هرثمة ولي إمرة مصر في الدولة العباسية، فالأول هرثمة بن أعين، ولاه الرشيد هارون على مصر سنة ثمان وسبعين ومائة، والثاني هو هرثمة بن نصر هذا. وكان هرثمة أميراً جليلاً عاقلاً مدبراً

سيوساً. وتولى مصر من بعده ابنه حاتم بن هرثمة باستخلافه له، فأقره الخليفة.

* * *

ولاية حاتم بن هرثمة على مصر

هو حاتم بن هرثمة بن نصر الجبلي أمير مصر. وليها باستخلاف أبيه له بعد موته في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين على الصلاة؛ وأرسل كاتب الأمير إيتاخ التركي المعتصمي الذي إليه أمر مصر في ولايته عليها مكان أبيه. وسكن العسكر على عادة أمراء مصر. وجعل على شرطته محمد بن سويد. وأخذ في إصلاح أحوال الديار المصرية؛ وبينما هو في ذلك ورد عليه كتاب الأمير إيتاخ بصرفه عن إمرة مصر وتولية علي بن يحيى الأرمني ثانياً على مصر، وكان ذلك في يوم الجمعة لست خلون من شهر رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين المذكورة. فكانت ولاية حاتم هذا على مصر من يوم مات أبوه شهراً واحداً وثلاثة عشر يوماً. وكان حاتم هذا جليلاً نبيلاً، وعنده معرفة وحسن تدبير، إلا أنه لم يحسن أمره مع إيتاخ، لطمع كان في إيتاخ التركي الذي كان إليه أمر مصر بعد أشناس، وكلاهما كان تركياً. ولم أقف على وفاة حاتم بن هرثمة هذا.

* * *

ولاية علي بن يحيى الثانية على مصر

قد تقدم الكلام على ولاية علي بن يحيى هذا أولاً على مصر، ثم وليها ثانياً في هذه المرة بعد عزل حاتم بن هرثمة بن نصر عنها، من قبل الأمير إيتاخ المعتصمي على الصلاة في يوم سادس شهر رمضان سنة أربع وثلاثين ومائتين؛ فسكن علي بن يحيى بالعسكر على عادة الأمراء، وجعل على شرطته معاوية بن نعيم. واستمر علي هذا على مرة مصر إلى أن قبض الخليفة المتوكل على الله جعفر على ايتاخ المذكور في المحرم سنة خمس وثلاثين ومائتين؛ وقدم الخبر على الأمير علي هذا بالقبض على إيتاخ والحوطة على ماله بمصر، فاستصفيت أمواله وترك الدعاء له على منابرها بعد الخليفة، وأن المتوكل ولى ابنه وولي عهده محمداً المنتصر مصر وأعمالها كما كان لإيتاخ المذكور؛ فدعي عند ذلك للمنتصر على منابر مصر، فكان حكم إيتاخ على الديار المصرية أربع سنين.

ولما ولي المنتصر إمرة مصر أقر علي بن يحيى هذا على عمل مصر على عادته؛ فاستمر عليها إلى أن صرفه المنتصر عنها بإسحاق بن يحيى بن معاذ في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين. فكانت ولايته على مصر في هذه المرة الثانية سنة واحدة وثلاثة أشهر تنقص أياماً. وخرج من مصر وتوجه إلى العراق وقدم على الخليفة

المتوكل على الله جعفر وصار عنده من كبار قواده.

وكان علي بن يحيى هذا أميراً شجاعاً مقداماً جواداً ممدحاً عارفاً بالحروب والوقائع مدبراً سيوساً محمود السيرة في ولايته؛ وأصله من الأرمن؛ وقد حكينا طرفاً من هذه الغزوة في ولايته الأولى؛ والصواب أن ذلك كان في هذه المرة، وأن تلك الغزوة كانت غير هذه الغزوة التي قتل فيها. رحمه الله تعالى وتقبل منه.

***

ولاية إسحاق بن يحيى على مصر

هو إسحاق بن يحيى بن معاذ بن مسلم الختلي، أمير مصر؛ أصله من قرية ختلان بلدة عند سمرقند؛ ولي مصر بعد عزل علي بن يحيى الأرمني، في ذي الحجة سنة خمس وثلاثين ومائتين - ولاه المنتصر بن المتوكل على مصر وجمع له صلاتها وخراجها معاً، وقدم إلى مصر لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين ومائتين المذكورة. وقال صاحب " البغية والاغتباط " : إنه وصل إلى مصر لإحدى عشرة خلت من ذي القعدة وذكر السنة، فخالف في الشهر ووافق في السنة وغيرها.

ولما قدم مصر سكن العسكر، وجعل على الشرطة الهياجي، وعلى المظالم عيسى بن لهيعة الحضرمي.

وكان إسحاق بن يحيى هذا من أجل الأمراء؛ كان جواداً ممدحاً شجاعاً عاقلاً مدبراً سيوساً محباً للشعر وأهله، وقصده كثير من الشعراء ومدحوه بغرر من المدائح وأجازهم الجوائز السنية. وكان فيه رفق بالرعية وعدل وإنصاف؛ رفق بالناس في أيام ولايته بدمشق عندما ورد كتاب المعتصم بامتحان الرعية بالقول بخلق القرآن؛ وأيضاً لما ولي مصر ورد عليه بعد مدة من ولايته كتاب المنتصر وأبيه الخليفة المتوكل بإخراج الأشراف العلويين من مصر إلى العراق فأخرجوا؛ وذلك بعد أن أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما وقبور العلويين. وكان هذا وقع من المتوكل في سنة ست وثلاثين ومائتين وقيل قبلها. وكان سبب بغضه في علي بن أبي طالب وذريته أمر يطول شرحه وقفت عليه في تاريخ الإسعردي، محصوله: أن المتوكل كان له مغنية تسمى أم الفضل، وكان يسامرها قبل الخلافة وبعدها، وطلبها في بعض الأيام فلم يجدها، ودام طلبه لها أياماً وهو لا يجدها، ثم بعد أيام حضرت وفي وجهها أثر شمس؛ فقال لها: أين كنت؛ فقالت: في الحج؛ فقال: ويحك! هذا ليس من أيام الحج! فقالت: لم أرد الحج لبيت الله الحرام، وإنما أردت

الحج لمشهد علي؛ فقال المتوكل: وبلغ أمر الشيعة إلى أن جعلوا مشهد علي مقام الحج الذي فرضه الله تعالى! فنهى الناس عن التوجه إلى المشهد المذكور من غير أن يتعرض إلى ذكر علي رضي الله عنه؛ فثارت الرافضة عليه وكتبوا سبه على الحيطان، فحنق من ذلك وأمر بألا يتوجه أحد لزيارة قبر من قبور العلويين؛ فثاروا عليه أيضاً، فتزايد غضبه منهم فوقع منه ما وقع. وحكاياته في ذلك مشهورة لا يعجبني ذكرها، إجلالاً للإمام علي رضي الله عنه. ولما عظم الأمر أمر بهدم قبر الحسين رضي الله عنه وهدم ما حوله من الدور، وأن يعمل ذلك كله مزارع. فتألم المسلمون لذلك، وكتب أهل بغداد شتم المتوكل على الحيطان والمساجد، وهجاه الشعراء دعبل وغيره، فصار كلما يقع له ذلك يزيد ويفحش. وكان الأليق بالمتوكل عم هذه الفعلة، وبالناس أيضاً ترك المخاصمة، لما قيل: يد الخلافة لا تطاولها يد. وفي هذا المعنى، أعني في هدم قبور العلويين، يقول يعقوب بن السكيت، وقيل هرب لعلي بن أحمد - وقد بقي إلى بعد الثلاثمائة وطال عمره: الكامل

تالله إن كانت أمية قد أتت ::: قتل ابن بنت نبيها مظلوماً

* * *

ولاية عبد الواحد بن يحيى على مصر

هو عبد الواحد بن يحيى بن منصور بن طلحة بن زريق مولى خزاعة، وهو ابن عم طاهر بن الحسين ولي إمرة مصر على الصلاة والخراج معاً من قبل المنتصر، كما كان أشناس وإيتاخ وغيرهما، بعد عزل إسحاق بن يحيى عنها. فقدمها عبد الواحد هذا في الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ست وثلاثين ومائتين، وسكن بالعسكر على عادة أمراء مصر، وجعل على شرطته محمد بن سليمان أبن غالب بن جبريل، البجلي. واستمر على ذلك إلى أن ورد عليه كتاب المنتصر بعزله عن خراج مصر، فعزل في يوم الثلاثاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين ومائتين، ودام على الصلاة فقط. ثم ورد عليه في السنة المذكورة كتاب الخليفة المتوكل بحلق لحية قاضي قضاة مصر أبي بكر محمد بن أبي الليث وأن يضربه ويطوف به على حمار، ففعل به ما أمر به، وكان ذلك في شهر رمضان من السنة وسجن؛ وكان القاضي المذكور من رؤوس الجهمية. وولي القضاء بعده بمصر الحارث بن مسكين بعد تمنع، وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة والشافعي رضي الله عنهما من المسجد، ورفعت حضرهم، ومنع عامة المؤذنين من الأذان. وكان الحارث قد أقعد، فكان يحمل في محفة إلى الجامع، وكان يركب حماراً متربعاً، ثم ضرب الذين يقرؤون بالألحان، ثم حمله أصحابه على النظر في أمر القاضي المعزول - أعني ابن أبي الليث المقدم ذكره - وكانوا قد لعنوه بعد عزله

وغسلوا موضع جلوسه في المسجد، فصار الحارث بن مسكين يوقف القاضي محمد بن أبي الليث المذكور ويضربه كل يوم عشرين سوطاً لكي يؤذي ما وجب عليه من الأموال، وبقي على هذا أياماً. ودام الحارث بن مسكين هذا قاضياً ثمان سنين حتى عزل بالقاضي بكار بن قتيبة الحنفي.

واستمر الأمير عبد الواحد هذا على إمرة مصر إلى أن صرفه المنتصر عنها في سلخ صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين بالأمير عنبسة بن إسحاق؛ وقدم إلى مصر خليفة عنبسة على صلاة مصر والشركة على الخراج في مستهل شهر ربيع الأول، فكانت ولايته على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وسبعة أيام.

* * *

ولاية عنبسة بن إسحاق على مصر

هو عنبسة بن إسحاق بن شمر بن عيسى بن عنبسة الأمير أبو حاتم، وقيل: أبو جابر، وهو من أهل هراة؛ ولي إمرة مصر بعد عزل عبد الواحد بن يحيى عنها، ولاه المنتصر محمد بن الخليفة المتوكل على الله جعفر، في صفر سنة ثمان وثلاثين ومائتين على الصلاة؛ فأرسل عنبسة خليفته على صلاة مصر، فقدم مصر في مستهل شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، فخلفه المذكور على صلاة مصر حتى قدمها في يوم السبت لخمس خلون من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة متولياً على الصلاة وشريكاً لأحمد بن خالد الصريفيني صاحب خراج مصر. وسكن عنبسة العسكر على عادة الأمراء، وجعل على شرطته أبا أحمد محمد بن عبد الله القمي. وكان عنبسة خارجياً يتظاهر بذلك؛ فقال فيه يحيى بن الفضل من أبيات: الخفيف

خارجياً يدين بالسيف فينا ::: ويرى قتلنا جميعاً صواباً

ولما ولي عنبسة مصر أمر العمال برد المظالم، وخفص الحقوق، وأنصف الناس غاية الإنصاف، وأظهر من الرفق والعدل بالرعية والإحسان إليهم ما لم يسمع بمثله في زمانه؛ وكان يتوجه ماشياً إلى المسجد الجامع من مسكنه بالعسكر بدار الإمارة. وكان ينادي في شهر رمضان: السحور، لأنه كان يرمى بمذهب الخوارج، كما تقدم ذكره.

وفي أول ولايته نزل الروم على دمياط في يوم عرفة وملكوها وأخذوا ما فيها وقتلوا منها جمعاً كبيراً من المسلمين، وسبوا النساء والأطفال؛ فلما بلغه ذلك ركب من وقته بجيوش مصر ونفر إليهم يوم النحر سنة ثمان وثلاثين ومائتين - وقد تقدم ذلك - فلم يدرك الروم، فأصلح شأن دمياط ثم عاد إلى مصر. وكان سبب غفلة عنبسة عن دمياط أنه قدم عليه عيد الأضحى وأراد طهور ولديه يوم العيد حتى يجمع بين العيد

والفرح، واحتفل لذلك احتفالاً كبيراً، حتى بلغ به الأمر أن أرسل إلى ثغري دمياط وتنيس فأحضر سائر من كان بهما من الجند والخرجية والزراقين وغيرهما، وكذلك من كان بثغر الإسكندرية من المذكورين، فرحلوا إليه بأجمعهم؛ واتفق مع هذا أنه لما كان صبح يوم عرفة هجم على دمياط ثلاثمائة سفينة مشحونة بمقاتلة الروم، فوجدوا البلد خالياً من الرجال والمقاتلة ولم يمنعهم عنها مانع، فهجموا على البلد وأكثروا من القتل والسبي والنهب. وكان عنبسة غضب على مقدم من أهل دمياط يقال له أبو جعفر بن الأكشف، فقيده وحبسه في بعض الأبرجة؛ فمضى إليه بعض أعوانه وكسروا قيده أخرجوه، واجتمع إليه جماعه من أهل البلد، فحارب بهم الروم حتى هزمهم وأخرجهم من دمياط، ونزحوا عن دمياط مهزومين ومضوا إلى أشموم تنيس فلم يقدروا عليها فعادوا إلى بلادهم.

ودام بعد ذلك عنبسة على مصر إلى أن ورد عليه كتاب المنتصر أن ينفرد بالخراج والصلاة معاً، وصرف شريكه على الخراج أحمد بن خالد؛ فدام على ذلك مدة، ثم صرف عن الخراج في أول جمادى الآخرة من سنة إحدى وأربعين ومائتين بعد أن عاد من سفرة الصعيد الآتي ذكرها في آخر ترجمته، وانفرد بالصلاة.

ثم ورد عليه كتاب الخليفة المتوكل بالدعاء بمصر للفتح بن خاقان، أعني أن الفتح ولي إمرة مصر مكان المنتصر بن المتوكل، وصار أمر مصر إليه يولي بها من شاء، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وأربعين ومائتين، فدعي له بها على العادة بعد الخليفة.

ثم صرف عنبسة بيزيد بن عبد الله بن دينار في أول شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين. فكانت ولاية عنبسة المذكور على مصر أربع سنين وأربعة أشهر. قلت: وعنبسة هذا هو آخر من ولي مصر من العرب وآخر أمير صفى في المسجد الجامع، وخرج من مصر في شهر رمضان وتوجه إلى العراق سنة أربع وأربعين ومائتين

* * *

ولاية يزيد بن عبد الله على مصر

هو يزيد بن عبد الله بن دينار، الأمير أبو خالد؛ كان من الموالي، ولي مصر بعد عزل عنبسة عنها، في شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين؛ ولاه المنتصر على الصلاة. فلما ولي مصر أرسل أخاه العباس بن عبد الله بن دينار أمامه إلى مصر خليفة له؛ ثم قدم يزيد هذا بعمه إلى مصر لعشر بقين من شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائتين المذكورة؛ وسكن العسكر، وأقام الحرمة ومهد أمور الديار المصرية، وأخرج المؤنثين منها وضربهم وطاف بهم، ثم منع النداء على الجنائز،

وضرب جماعة بسبب ذلك؛ وفعل أشياء من هذه المقولة؛ ودام على ذلك إلى المحرم سنة خمس وأربعين ومائتين. خرج من مصر. إلى دمياط لما بلغه نزول الروم عليها فأقام بها مدة لم يلق حرباً ورجع في شهر ربيع الأول من السنة إلى مصر؛ وعند حضوره إلى مصر بلغه ثانياً نزول الروم إلى دمياط، فخرج أيضاً من مصر لوقته وتوجه إلى دمياط فلم يلقهم، فأقام بالثغر مدة ثم عاد إلى مصر. ثم بدا له تعطيل الرهان الذي كان لسباق الخيل بمصر وباع الخيل التي كانت تتخذ للسباق بمصر. ثم تتبع الروافض بمصر وأبادهم وعاقبهم وامتحنهم وقمع أكابرهم، وحمل منهم جماعة إلى العراق على أقبح وجه؛ ثم التفت إلى العلويين، فجرت عليهم منه شدائد من الضيق عليهم وأخرجهم من مصر. وفي أيامه في سنة سبع وأربعين ومائتين بني مقياس النيل بالجزيرة المنعوتة بالروضة.

* * *

ولاية مزاحم بن خاقان على مصر

هو مزاحم بن خاقان بن عرطوج، الأمير أبو الفوارس التركي ثم البغدادي، أخو الفتح بن خاقان وزير المتوكل قتل معه. ولي مزاحم هذا مصر بعد عزل يزيد بن عبد الله التركي عنها؛ ولاه الخليفة المعتز بالله الزبير على صلاة مصر لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وخمسين ومائتين؛ وسكن بالعسكر على عادة أمراء مصر، فجعل على شرطته أرخوز؛ وأخذ مزاحم في إظهار الناموس وإقماع أهل الفساد؛ فخرج عليه، جماعة كبيرة من المصريين، فتشمر لقتالهم وجهز عساكره وأنفق فيهم؛ فأول ما ابتدأ بقتال أهل الحوف من الوجه البحري، فتوجه إليهم بجنوده وقاتلهم وأوقع بهم وقتل منهم وأسر؛ ثم عاد إلى الديار المصرية فأقام بها مدة يسيرة، ثم خرج أيضاً من مصر ونزل بالجيزة؛ ثم سار إلى تروجة بالبحيرة وقاتلهم وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة كبيرة وأسر عدة من رؤوسهم وعاد بهم إلى ديار مصر؛ فلم تطل إقامته بها وخرج إلى الفيوم وقاتل أهلها، ووقع له بها حروث كثيرة وقتل منهم أيضاً مقتلة عظيمة وأمعن في ذلك. وكثر بعد هذه الواقعة إيقاعه بسكان النواحي. ثم التفت إلى أرخوز وحرضه على أمور أمره بها؛ فشدد أرخوز المذكور عند ذلك ومنع النساء من الخروج من بيوتهن والتوجه إلى الحمامات والمقابر، وسجن المؤنثين والنوائح، ثم منع الناس من الجهر بالبسملة في الصلاة بالجامع، وكان ذلك في شهر رجب سنة ثلاث وخمسين ومائتين. وأمر أهل الجامع بمساواة الصفوف في الصلاة ووكل بذلك رجلاً من العجم يكنى أبا داوة يقوم بالسوط من مؤخر المسجد؛ وأمر أهل الحلق بالتحول إلى جهة القبلة قبل إقامة الصلاة، ومنع المساند التي يسند إليها في الجوامع،

وأمر أن تصلى التراويح في شهر رمضان خمس تراويح، وكانوا قبل ذلك يصفونها ستاً؛ ومنع من التثويب في الصلاة، وأمر بالأذان في يوم الجمعة في مؤخر المسجد، ثم أمر بأن يغلس بصلاة الصبح؛ ونهى أيضاً أن يشق ثوب على ميت أو يسود وجه أو يحلق شعر أو تصيح امرأة؛ وعاقب بسبب ذلك خلقاً كثيراً وشدد على الناس حتى أبادهم. ولم يزل في التشدد على الناس حتى مرض ومات في ليلة الاثنين لخمس خلون من المحرم سنة أربع وخمسين ومائتين. واستخلف بعده ابنه أحمد بن مزاحم على مصر؛ فكانت ولاية مزاحم هذا على مصر سنة واحدة وعشرة أشهر ويومين.

* * *

ولاية أحمد بن مزاحم على مصر

هو أحمد بن مزاحم بن خاقان بن عرطوج، الأمير أبو العباس ابن الأمير أبي الفوارس التركي. ولي إمرة مصر بعد موت أبيه باستخلافه على مصر، فأقره الخليفة المعتز بالله على ذلك. وكانت ولايته في خامس المحرم سنة أربع وخمسين ومائتين؛ وسكن بالعسكر على عادة الأمراء، وجعل على شرطته أرخوز المقدم ذكره في أيام أبيه مزاحم. فلم تطل أيامه ومات بمصر لسبع خلون من شهر ربيع الآخر من سنة أربع وخمسين ومائتين المذكورة. فكانت ولايته على إمرة مصر شهرين ويوماً واحداً. وتولى إمرة مصر من بعده أرخوز بن أولوغ طرخان التركي باستخلافه. وكان أحمد هذا شاباً عارفاً مدبراً محباً للرعية، لم تطل أيامه لتشكر أو تذم.

* * *

ولاية أرخوز على مصر

هو أرخوز بن أولوغ طرخان التركي. وأولوغ طرخان كان تركياً وقدم بغداد فولد له أرخوز المذكور بها؛ ونشأ أرخوز حتى صار من كبار أمراء الدولة العباسية وتوجه إلى مصر وولي بها الشرطة لعدة أمراء كما تقدم ذكره، ثم ولي إمرة مصر بعد موت أحمد بن مزاحم، في العشر الأول من شهر ربيع الأخر من سنة أربع وخمسين ومائتين باستخلاف أحمد بن مزاحم له على صلاتها،، فأقره الخليفة المعتز بالله على ذلك، وجعل إليه إمرة مصر وأمرها جميعه، كما كان لمزاحم وابنه. وقال صاحب " البغية والاغتباط فيمن ملك الفسطاط ": وليها باستخلاف أحمد بن مزاحم على الصلاة فقط، وجعل على شرطة مصر بولغيا، ثم خرج إلى الحج في شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين وله خمسة أشهر ونصف شهر. وقال غيره: ودام أرخوز على إمرة مصر إلى أن صرف عنها بالأمير أحمد بن طولون في شهر رمضان من سنة أربع وخمسين ومائتين، فكانت ولايته على مصر خمسة أشهر ونصفاً؛ وخرج إلى بغداد

في أول ذي القعدة من السنة، ووفد على الخليفة فأكرم مقدمه وصار من جملة القواد.

السنة التي حكم فيها أربعة أمراء على مصر:

ففي أول محرمها مزاحم بن خاقان، ثم ابنه أحمد بن مزاحم ثم الأمير أرخوز بن أولوغ طرخان من شهر ربيع الأخر إلى شهر رمضان، ثم الأمير أبو العباس أحمد بن طولون. وهي سنة أربع وخمسين ومائتين.

* * *

ولاية أحمد بن طولون

هو أحمد بن طولون، الأمير أبو العباس التركي أمير مصر. ولي مصر بعد عزل أرخوز بن أولوغ طرخان في شهر رمضان سنة أربع وخمسين ومائتين، وقد مضى من عمره أربع وثلاثون سنة ويوم واحد.

وكان أبوه طولون مولى نوح ابن أسد الساماني عامل بخارى وخراسان.

أهداه نوح في جملة مماليك إلى المأمون بن الرشيد، فرقاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء. وولد له ابنه أحمد هذا في سنة عشرين ومائتين، وقيل في سنة أربع عشرة ومائتين، ببغداد، وقيل بسر من رأى، وهو الأشهر من جارية تسمى هاشم، وقيل قاسم. وقيل: إن أحمد هذا لم يكن ابن طولون وإنما طولون تبناه قال أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي: قال بعض المصريين: إن طولون تبناه لما رأى فيه من مخايل النجابة. ودخل عليه يوما وهو صغير، فقال: بالباب قوم ضعفاء فلو كتبت لهم بشيء فقال له، طولون: ادخل إلى المقصورة وأتني بدواة، فدخل أحمد فرأى بالدهليز جارية من حظايا طولون قد خلا بها خادم، فأخذ أحمد الدواة وخرج ولم يتكلم فحسبت الجارية أنه يسبقها إلى طولون بالقول، فجاءت إلى طولون وقالت: إن أحمد راودني الساعة في الدهليز، فصدقها طولون، وكتب كتابا لبعض خدمه يأمره بقتل حامل الكتاب من غير مشورة، وأعطاه لأحمد وقال: اذهب به إلى فلان فأخذ أحمد الكتاب ومر بالجارية؟ فقالت له: إلى أين؟ فقال: في حاجة مهمة للأمير في هذا الكتاب فقالت: أنا أرسله، ولي بك حاجة؟ فدفع إليها الكتاب فدفعته إلى الخادم المذكور، وقالت: اذهب به إلى فلان؟ وشاغلت أحمد بالحديث، أرادت بذلك أن يزداد عليه الأمير طولون غضبا. فلما وقف المأمور على الكتاب قطع رأس الخادم وبعث به إلى طولون تطولونا رآه عجب وآستدعى أحمد وقال له: اصدقني! ما الذي رأيت في طريقك إلى المقصورة؟ قال: لا شيء؟ قال: اصدقني وإلا قتلتك! فصدقه وعلمت الجارية بقتل الخادم، فخرجت ذليلة فقال لها طولون: اصدقيني فصدقته فقتلها؟ وحظي أحمد علي الحديث.

وقال أحمد بن يوسف: قلت لأبي العباس بن خاقان: الناس فرقتان في ابن طولون، فرقة تقول: إن أحمد بن طولون، وأخرى تقول: هو ابن يلبخ التركي، وأمه قاسم جارية طولون فقال: كذبوا، إنما هو ابن طولون. ودليله أن الموفق لما لعنه نسبه إلى طولون ولم ينسبه إلى يلبخ ويلبخ مضحاك يسخر منه وطولون معروف بالستر وقال أحمد بن يوسف المذكور: كان طولون رجلا من أهل طغزغز حمله نوح بن أسد عامل بخارى إلى المأمون فيما كان موظفا عليه من المال والرقيق والبراذين وغير ذلك في كل سنة، سنة ثلاثين ومائتين، والأول أصح. انتهى كلام ابن يوسف.

ونشأ أحمد بن طولون على مذهب جميل، وحفظ القران وأتقنه وكان من أطيب الناس صوتا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة. ولما ترعرع أحمد تزوج بابنة عمه خاتون فولدت له العباس سنة اثنتين وأربعين ومائتين. ولما مات أبوه طولون فوض إليه الخليفة المتوكل ما كان لأبيه، ثم تنقلت به الأحوال إلى أن ولي إمرة الثغور إمرة دمشق ثم ديار مصر. وكان يقول: ينبغي للرئيس أن يجعل اقتصاده على نفسه وسماحته على من يقصده ويشتمل عليه، فإنه يملكهم ملكا لا يزول به عن قلوبهم. ونشأ أحمد بن طولون في الفقه والصلاح والدين والجود حتى صار له في الدنيا الذكر الجميل وكان شديد الإزراء على الترك وأولادهم لما يرتكبونه في أمر الخلفاء، غير راض بذلك، ويستقل عقولهم ويقول: حرمة الذين عندهم مهتوكة.

وكان ابن طولون إذا أدخل على المستعين مع الأتراك في الخدمة أومأ إليه الخليفة بالسلام سرا، واستدام الإحسان إليه ووهب له جارية اسمها مياس، فولدت له ابنه خمارويه في المحرم من سنة خمسين ومائتين ما تنكر الأتراك للمستعين وخلعوه وأحدروه إلى واسط، قالوا له: من تختار أن يكون قي صحبتك؟ فقال: أحمد بن طولون، فبعثوه معه فأحسن صحبته. ثم كتب الأتراك إلى أحمد: اقتل المستعين ونوليك واسطاً؟ فكتب إليهم: " لارآني الله قتلت خليفة بايعت له أبدا!! فبعثوا سعيدا الحاجب فقتل المستعين، فوارى أحمد بن طولون جثته.

ولما رجع أحمد إلى سر من رأى بعدما قتل المستعين أقام بها، فزاد محله عند الأتراك فولوه مصر نيابة عن أميرها سنة أربع وخمسين ومائتين. فقال حين دخلها: غاية ماوعدت به في قتل المستعين واسط، فتركت ذلك لله تعالى، فعوضني ولاية مصر والشام. فلما قتل والي مصر من الأتراك في أيام الخليفة المهتدي صار أحمد بن طولون مستقلا بها في أيام المعتمد. وقيل: إنه ولي الشأم نيابة عن باكباك فلما قتل باكباك آستقل، وكان حكمه من

الفرات إلى المغرب. وأول مادخل مصر خرج بغا الأصغر، وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا، فيما بين برقة والإسكندرية في جمادى الأولى سنة خمس وخمسين ومائتين، وسار إلى الصعيد، فقتل هناك وحمل رأسه إلى مصر في شعبان.

ثم خرج ابن الصوفي العلوي، وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد ابن عمر بن علي بن أبي طالب،، وتوجه إلى أسنا في ذي القعدة فنهب وقتل أهلها، وقيل: إن أحمد بن طولون بعث إليه جيشا فكسر الجيش في ربيع الأول سنة ست وخمسين ومائتين، وأرسل إليه أبن طولون جيشا آخر فواقعوه بإخميم فهزموه إلى الواح.

ثم خرج ابن طولون بنفسه لمحاربة عيسى بن الشيخ، ثم عاد وأرسل جيشاً.

ثم ورد عليه كتاب الخليفة بأنه يتسلم الأعمال الخارجة عن أرض مصر فتسلم الإسكندرية من إسحاق بن دينار، وخرج إليها لثمان خلون من شهر رمضان سنه، واستخلف على مصر طغلج صاحب شرطته، ثم عاد إلى مصر لأربع عشرة من شوال، وسخط على أخيه موسى وأمره بلباس البياض ثم خرج إلى الإسكندرية ثانيا لثمان بقين من شعبان سنة تسع وخمسين ومائتين، ثم عاد في شوال. ثم ورد عليه كتاب المعتمد يستحثه في جمع الأموال فكتب إليه ابن طولون: لست أطيق ذلك والخراج في يد غيري، فأرسل المعتمد على الله إليه نفيسا الخادم بتقليد ه الخراج وبولايته الثغور الشامية. فأقر أحمد بن طولون عند ذلك أبا أيوب أحمد بن محمد بن شجاع على الخراج، وعقد لطخشي بن بلبرد على الثغور، فخرج إليها في سنة أربع وستين ومائتين، فصار الأمر كفه بيد أحمد بن طولون، وقويت شوكته بذلك وعظم أمره بديار مصر.

ثم بنى الجامع الذي بين مصر وقبة الهواء على جبل يشكر خارج القاهرة وغرم عليه أموالا عظيمة أحمد الكاتب: أنفق عليه مائة ألف دينار وعشرين ألف دينار. وقال له الصناع: على أي مثال نعمل المنارة؟ وما كان يعبث قط في مجلسه، فأخذ درجا من الكاغد وجعل يعبث به فخرج بعضه وبقي بعضه في يده، فعجب الحاضرون، فقال: اصنعوا المنارة على هذا المثال، فصنعوها.

ولما تم بناء الجامع رأى أحمد بن طولون في منامه كأن الله تعالى قد تجلى للقصور التي حول الجامع ولم يتجل للجامع، فسأل المعبرين فقالوا: يخرب ما حوله ويبقى قائما وحده، قال: من أين لكم هذا؟ قالوا: من قوله تعالى:{ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ

رَبُّهُ قالَ رَبِّ أرِنِي أنْظُرْ إليْكَ قالَ لنْ ترَانِي ولَكِن انْظرْ إلى الجَبَل فإن اسْتقرَّ مَكانهُ فسَوْفَ ترَانِي فلمَّا تجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فلمَّا أفاقَ قالَ سُبْحَانكَ تُبْتُ إليْكَ وَأنا أوَّلُ المُؤْمِنِينَ } [الأعراف: ١٤٣]، وقوله: إذا تجلى الله لشيء خضع له. وكان كما قالوا.

وقال بعضهم: إن الكنز الذي لقيه ابن طولون منه عمر الجامع المذكور وكان بناؤه في سنة تسع وخمسين ومائتين.

وكان جميع خصال ابن طولون محمودة، إلا أنه كان حاد الخلق والمزاج؟ فإنه لما ولي مصر والشام ظلم كثيراً وعسف وسفك كثيراً من الدماء. يقال: إنه مات في حبسه ثمانية عشر ألفا، فرأى في منامه كأن الحق سبحانه قد مات في داره، فاستعظم ذلك وانتبه فزعاً، وجمع المعبرين فلم يدروا؟ فقال له بعضهم: أقول ولي الأمان؟ قال: نعم؟ قال: أنت رجل ظالم، قد أمت الحق في دارك! فبكى.

وكان فيه ذكاء وفطنة وحدس ثاقب. قال محمد بن عبد الملك الهمذاني: إن ابن طولون جلس يأكل، فرأى سائلا فأمر له بدجاجة ورغيف وحلواء، فجاءه الغلام فقال: ناولته فماهش له؟ فقال ابن طولون: علي به فلما مثل بين يديه لم يضطرب من الهيبة؟ فقال له ابن طولون: أحضر لي الكتب التي معك واصدقني، فقد صح عندي أنك صاحب خبر، وأحضر السياط فاعترف؟ فقال له بعض من حضر: هذا والله السحر الحلال! قال ابن طولون: ما هو سحر ولكنه قياس صحيح؟ رأيت سوء حاله فسيرت له طعاما يشره له الشبعان فماهش له، فأحضرته فتلقاني بقوة جأش، فعلمت أنه صاحب خبر لا فقير، فكان كذلك.

قلت: ولما ولي أحمد بن طولون مصر سكن العسكر على عادة أمراء مصر من قبله، ثم أحب أن يبني له قصرا فبنى القطائع. والقطائع قد زالت آثارها الآن من مصر ولم يبق لها رسم يعرف، وكان موضعها من قبة الهواء، التي صار مكانها الآن قلعة الجبل، إلى جامع ابن طولون المذكور وهو طول القطائع، وأما عرضها فإنه كان من أول الزميلة من تحت القلعة إلى الموضع آلفي يعرف الآن بالأرض الصفراء عند مشهد الرأس الذي يقال له الآن زين العابدين، وكانت مساحة القطائع ميلا في ميل. وقبة الهواء كانت في السطح الذي عليه قلعة الجبل. وتحت قبة الهواء كان قصر ابن طولون. وموضع هذا القصر الميدان السلطاني الآن الذي تحت قلعة الجبل بالرميلة. وكان موضع سوق الخيل والحمير والبغال والجمال بستانا. ويجاورها الميدان الذي يعرف اليوم بالقبيبات، فيصير الميدان فيما بين القصر والجامع الذي أنشأه أحمد بن طولون المعروف به. وبجوار الجامع دار الإمارة في جهته القبلية، ولها باب

من جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب، وهناك دار الحرم. والقطائع عدة قطع يسكن فيها عبيد الأمير أحمد بن طولون وعساكره وغلمانه. قلت: والقطائع كانت بمعنى الأطباق التي للمماليك السلطانية الآن، وكانت كل قطيعة لطائفة تسمى بها، فكانت قطيعة تسمى قطيعة السودان، وقطيعة الروم، وقطيعة الفراشين وهم نوع من الجمدارية الآن ونحو ذلك. وكانت كل قطيعة لسكن جماعة ممن ذكرنا وهي بمنزلة الحارات اليوم.

وسبب بناء ابن طولون القصر والقطائع: كثرة مماليكه وعبيده، فضاقت دار الإمارة عليه، فركب إلى سفح الجبل وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى، واختط موضعهما وبنى القصر والميدان المقدم ذكرهما، ثم أمر لأصحابه وغلمانه أن يختطوا لأنفسهم حول قصره وميدانه بيوتا واختطوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط - أعني بمصر القديمة ثم بنيت القطائع وسميت كل قطيعة باسم من سكنها. قال القضاعي: وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم، وللفراشين قطيعة مفردة، تعرف بهم، ولكل صنف من الغلمان قطيعة مفردة تعرف بهم ة وبنى القواد مواضع متفرقة،، وعمرت القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة، وعمرت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران والحوانيت والشوارع.

وجعل ابن طولون قصراً كبيراً فيه ميدانه الذي يلعب فيه بالكرة، وسمي القصر كله الميدان، وعمل للقصر أبوابا لكل باب اسم، فباب الميدان الكبير كان منه الدخول والخروج لجيشه وخدمه، وباب الخاصة لا يدخل منه إلا خاصته، وباب الجبل الذي يلي جبل المقطم، وباب الخدم لايدخل منه إلاخادم خصي أو حرمة وباب الدرمون كان يجلس فيه حاجب أسود عظيم الخلقة يتفقد جنايات الغلمان السودان الرجالة فقط، واسمه الدرمون وبه سمي الباب المذكور، وباب دعناج لأنه كان يجلس فيه حاجب يقال له: دعناج، وباب الساج لأنه كان عمل من خشب الساج، وباب الصلاة لأنه كان يخرج منه إلى الصلاة وكان بالشارع الأعظم، وكان هذا الباب يعرف بباب السباع لأنه كانت عليه صورة سبعين من جبس، وكانت هذه الأبواب لا تفتح كلها إلا في يوم العيد أو يوم عرض الجيش أو يوم صدقة، وما كانت تفتح الأبواب إلا بترتيب في أوقات معروفة، وكان للقصر شبابيك تفتح من سائر نواحي الأبواب تشرف كل جهة على؟. ولما بنى هذا القصر والميدان وعظم أمره زادت صدقاته ورواتبه حتى بلغت صدقاته المرتبة في الشهر ألفي دينار،

سوى ما كان يعطي ويطرأ عليه، وكان يقول: هذه صدقات الشكر على تجديد النعم ثم جعل مطابخ للفقراء والمساكين في كل يوم، فكان يذبح فيها البقر والغنم ويفرق للناس في القدور الفخار والقصع، ولكل قصعة أو قدر أربعة أرغفة: في اثنين منها فالوذج، والاثنان الآخران على القحر أو القصعة وكان في الغالب يعمل سماط عظيم وينادي في مصر: من أحب أن يحضر سماط الأمير فليحضر ويجلس هو بأعلى القصر ينظر ذلك ويأمر بفتح جميع أبواب الميدان ينظرهم وهم يأكلون ويحملون فيسره ذلك ويحمد الله على نعمته. ثم جعل بالقرب من قصره حجرة فيها رجال سماهم بالمكبرين عدتهم اثنا عشر رجلا، يبيت في كل ليلة منهم أربعة يتعاقبون بالليل نوبا، يكبرون ويهللون ويسبحون ويقرؤون القرآن بطيب الألحان ويترسلون بقصائد زهدية ويؤذنون أوقات الأذان وكان هو أيضاً من، أطيب الناس صوتا. قلت: ولهذا كان في هذه الرتبة، لأن الجنسية علة الضم. ولازال على ذلك حتى خرج من مصر إلى طرسوس، ثم عاد إلى أنطاكية في جيوشه، بعد أن كان وقع له مع الموفق أمور ووقائع يأتي ذكرها في حوادث سنيه على مصر.

وخلف ابن طولون ثلاثة وثلاثين ولدا، منهم سبعة عشر ذكرا، وهم: العباس وخمارويه الذي ولي مصر بعد موته، وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر، وهؤلاء أعيانهم. فأما العباس فهو الذي كان عصى على والده ودخل الغرب وحمل إلى أبيه أحمد فحبسه ومات وهو في حبسه، ومات بعد أبيه بيسير؟ وكان شاعرا، وهو القائل:

لله دري إذ أعدو على فرسي ::: إلى الهياج ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفري الرؤوس به ::: في حدة الموت لا يبقي ولا يذر
إن كنت سائلة عني وعن خبري ::: فها أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أصلي إن سألت فما ::: فوقي لمفتخر في الجود مفتخر

وكان أبوه أحمد بن طولون لما خرج إلى الشام في السنة الماضية أخذه مقيداً معه وعاد به على ذلك. وخلف أحمد بن طولون في خزائنه من الذهب النقد عشرة آلاف ألف دينار، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، أومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام ومن الخيل الميدانية، سبعة آلاف رأس، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس، ومن الدواب لخاصته ثلاثمائة، ومن مراكبه الجياد مائة. وكان ما يدخل إلى خزائنه في كل سنة بعد مصاريفه ألف ألف دينار. رحمه الله تعالى.

ولاية خمارويه

هو خمارويه وقيل خمار بن أحمد بن طولون، التركي، السامري المولد، المصري الدار والوفاة تقدم التعريف بأصله في ترجمة أبيه أحمد بن طولون الأمير أبو الجيش خمارويه. ملك مصر والشأم والثغور بعد موت أبيه بمبايعة الجند له في يوم الأحد العاشر من ذي القعده سنة سبعين ومائتين. وعندما ولي إمرة مصر أمر بقتل أخيه العباس الذي كان في حبس أبيه أحمد بن طولون لامتناع العباس من مبايعة خمارويه هذا، فقتل. وأم خمارويه أم ولد يقال لها: مياس ولد بسرمن رأى في سنة خمس وخمسين ومائتين.

وأول ما ملك مصر عقد لأبي عبد الله أحمد بن محمد، الواسطي على جيش إلى الشام لست خلون من ذي الحجة سنة سبعين ومائتين المذكورة وعقد لسعد الأيسر على جيش آخر، وبعث بمراكب في البحر لتقيم بالسواحل الشامية، فنزل الواسطي فلسطين وهو خائف من خمارويه أن يوقع به، لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه العباس، فكتب الواسطي إلى أبي أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه عنده ويحرضه على المسير إلى قتاله، فأقبل ابن الموفق من بغداد، وقد انضم إليه إسحاق بن كنداج ومحمد بن ديوداد، أبي السياج، ونزل الرقة فتسلم قنسرين والعواصم وكان خمارويه جميع الشام والثغور داخلة في سلطانه ثم سار ابن الموفق حتى قاتل أصحاب خمارويه وهزمهم ودخل دمشق فخرج خمارويه في جيش عظيم لعشر خلون من صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين؛ فالتقى مع ابن الموفق بنهر أبي فطرس " المعروف بالطواحين من أرض فلسطين، فاقتتلا فانهزم أصحاب خمارويه، وكان خمارويه في سبعين ألفاً، وآبن الموفق في نحو أربعة آلاف، وآحتوى على عسكر خمارويه بما فيه. ومضى خمارويه عائداً إلى مصر مهزوما، فخرج كمين كان له مع سعد الأيسر ولم يعلم سعد أن خمارويه انهزم؛ فحارب سعد الأيسر ابن الموفق حتى هزمه وأزاله عن عسكره آثني عشر ميلا. ورجع أبو العباس إلى دمشق فلم تفتح له. ثم مضى سعد الأيسر مع الواسطي، إلى دمشق، وطمع في البلاد الشامية وآستخف بخمارويه وغيره، ثم استولى على دمشق.

ووصل خمارويه إلى مصر في ثالث شهر ربيع الأول من السنة، ولم يعلم ما وقع لسعد الأيسر؛ فلما بلغه خبره خرج ثانيا إلى دمشق لسبع بقين من شهر رمضان من السنة فوصل إلى فلسطين، ثم عاد بعساكره من غير حرب لأمور وقعت في ثامن عشر شوال واستمر بمصر إلى أن خرج ثالثا إلى الشام في ذي القعدة سنة آثنتين وسبعين ومائتين، وقد خرج سعد الأيسر عن طاعته من يوم الواقعة، فقاتل سعدا

الأيسر المذكور وهزمه وظفر به وقتله، ودخل دمشق وملكها في سابع المحرم من سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وأقام بها أياما؛ ثم سار لقتال ابن كنداج فتقاتلا، فكانت الهزيمة اولا على خمارويه وانهزم جميع أصحابه وثبت هو في طائفة من حماته، وقاتل ابن كنداج المذكور حتى هزمهم وتبعهم بأصحابه حتى وصلت أصحاب خمارويه إلى سر من رأى بالعراق؛ وعظم أمر خمارويه في هذه الواقعة وهابته الناس.

ثم كتب خمارويه إلى أبي أحمد الموفق طلحة في الصلح، فأجابه أخو الخليفة الموفق لذلك، وكتب لخمارويه بولايته على مصر والشام جميعه والثغور ثلاثين سنة؛ وقدم بالكتاب بعض خدام الموفق إلى الشام في شهر رجب، وعرفه الخادم أن الكتاب كتبه الخليفة المعتمد وأخوه الموفق وابنه بأيديهم تعظيما لخمارويه، فسر خمارويه بذلك، وعاد إلى مصر في أواخر رجب المذكور، وأمر بالدعاء لأبي أحمد الموفق المذكور بعد الخليفة وترك الدعاء عليه؛ فإنه كان يدعى عليه بمصر من مدة سنين من أيام إمارة أبيه أحمد بن طولون من يوم وقع بين الموفق وبين أحمد بن طولون، وخلع ابن طولون الموفق من ولاية عهد الخلافة، وأمر القاضي بكاربن قتيبة بخلعه فلم يوافقه بكار على ذلك، فحبسه أحمد ابن طولون بهذا المقتضى. وقد ذكرنا ذلك كله في آخر ترجمة أحمد بن طولون ولما اصطلح خمارويه مع الموفق عظم أمره وسكنت الفتنة، فإنه كان في كل قليل يخرج العساكر المصرية لقتال عسكر الموفق، فلما اصطلحا زال ذلك كله، وأخذ خمارويه في إصلاح ممالكه، وولى بمصر على المظالم محمد بن، عبدة بن حرب.

ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن أبي الساج إلى أعماله بمصر، فخرج بعساكره في ذي القعدة ولقيه بثنية العقاب في دمشق، وقاتله واشتد الحرب بين الفريقين وانكسر عساكر خمارويه، فثبت هومع خاصته على عادته وقاتل ابن أبي الساج حتى هزمه أقبح هزيمة، وقتل في أصحابه مقتلة عظيمة وأسر وغنم، وعاد إلى الديار المصرية فدخلها في رابع عشرين جمادى الآخرة سنة ست وسبعين ومائتين؛ فأقام بمصر مدة يسيرة وخرج إلى الإسكندرية في رابع شوال، ثم عاد إلى مصر بعد مدة يسيرة فأقام بها قليلاً.

ثم خرج إلى الشام في سنة سبع وسبعين ومائتين لأمر آقتضى ذلك، وعاد بعد أيام إلى الديار المصرية، فورد عليه الخبر بها بموت الموفق في سنة ثمان وسبعين ومائتين؛ ثم ورد عليه الخبر في سنة تسع وسبعين ومائتين بموت الخليفة المعتمد؛ وبويع بالخلافة المعتضد أبوالعباس أحمد بن الموفق طلحة بعد عمه المعتمد؛ فبعث خمارويه إلى المعتضد بهدايا وتحف، فسأله أن يزوج ابنته قطر الندى لولده المكتفي بالله؛ فقال

المعتضد: بل أنا أتزوجها، فتزوجها في سنة إحدى وثمانين ومائتين، ودخل بها ببغداد في آخر العام، وأصدقها ألف ألف درهم. يقال: إن المعتضد أراد بزواجها أن يفقر أباها خمارويه في جهازها؛ وكذا وقع، فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها فى جملة جهازها ألف هاون من الذهب. ولما تصاهر خمارويه مع المعتضد زالت الوحشة من بينهما، وصار بينهما مودة كبيرة. وولاه المعتضد من الفرات إلى برقة ثلاثين سنة؛ وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء، بمصر وجميع الأعمال، على أن خمارويه يحمل إلى المعتضد في العام مائتي ألف دينار عما مضى، وثلاثمائة ألف دينار عن المستقبل. ثم قدم بعد ذلك رسول المعتضد إلى خمارويه بالخلع وكانت اثنتي عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا.

وبلغ رزق الجيش المصري في أيام خمارويه في السنة تسعمائة ألف دينار؛ وكان مصروف مطبخ خمارويه في كل شهر ثلاثة وعشرين ألف دينار، وهذا سوى مصروف حرمه وجواريه وما يتعلق بهن. وكان خمارويه قد اتخذ لنفسه من مولدي الحوف وسائر الضياع قوماً معروفين بالشجاعة وشدة البأس؛ لهم خلق تام وعظم أجسام، وأجرى عليهم الأرزاق ووسع لهم في العطاء، وشغلهم عما كانوا فيه من قطع الطريق وأذية الناس بخدمته، وألبسهم الأقبية من الحرير والديباج وصاغ لهم المناطق وقلدهم بالسيوف المحلاة يضعونها على أكتافهم إذا مشوا بين يديه وسماهم " المختارة "؛ فكان هؤلاء يقاتلون أمام جند خمارويه أضعاف ما يقاتله الجند. وكان إذا ركب خمارويه ومضى الحجاب بين يديه ومشى موكبه على ترتيبه ومضت أصناف العسكر وطوائفه، تلاهم السودان وعدتهم ألف أسود لهم درق من حديد محكمة الصنعة وعليهم أقبية سود وعمائم سود، فيخالهم الناظر إليهم بحرا أسود يسير على وجه الأرض لسواد ألوانهم وسواد ثيابهم، ويصير لبريق درقهم وحلي سيوفهم والخوذ التي على رؤوسهم من تحت العمائم زي بهج إلى الغاية؛ فإذا مضى السودان قدم خمارويه وقد انفرد عن موكبه وصار بينه وبين الموكب نحو نصف غلوة سهم، وخواصه تحف به. وكان خمارويه طويل القامة ويركب فرسا تاما فيصير كالكوكب، إذا أقبل لا يخفى على أحد كأنه قطعة جبل. وكان خمارويه مهيبا ذا سطوة، قد وقع في قلوب الناس أنه متى أشار إليه أحد بيده أو تكلم أو قرب منه لحقه ما يكره؛ وكان إذا سار في موكبه لا يسمع من أحد كلمة ولا سعلة ولا عطس ولا نحنحة البتة كأنما على رؤوسهم الطير؛ وكان يتقلد في يوم العيد سيفا بخمائل، ولا يزال يتفرج ويتنزه ويخرج إلى المواضع التي لم يكن أبوه يخرج إليها

كالأهرام ومدينة العقاب ونحو ذلك لأجل الصيد، فإنه كان مشغوفا به، لا يكاد يسمع بسبع إلا قصده ومعه رجال عليهم بود فيدخلون إلى الأسد ويتناولونه بأيديهم من غابته عنوة وهو سليم، فيضعونه في أقفاص من خشب محكمة الصنعة تسع الواحد من السباع وهو قائم؛ فإذا قدم خمارويه من الصيد سار القفص وفيه السبع بين يديه. وكانت حلبة السباق في أيامه تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح التام والعدد الكاملة، ويجلس الناس لرؤية ذلك كما يجلسون في الأعياد. قلت: والتشبيه أيضاً بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا، فإن أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة. انتهى.

قال العلامة شمس الدين في تاريخه مرآة الزمان: كان خمارويه كثير الفساد بالخدم، دخل الحمام مع جماعة منهم فطلب من بعضهم الفاحشة فامتنع الخادم حياء من الخدم؛ فأمر خمارويه أن يضرب، فلم يزل يصيح حتى مات في الحمام، فأبغضه الخدم. وكان قد بنى قصرا بسفح قاسيون أسفل من دير مران يشرب فيه الخمر، فدخل تلك الليلة الحمام فذبحه خدمه. وقيل: ذبحوه على فراشه وهربوا، وقيل غير ذلك، إن بعض خدمه يولع بجارية له فتهددها خمارويه بالقتل، فاتفقت مع الخادم على قتله. وكان ذبحه في منتصف ذي الحجة، وقيل: لثلاث خلون منه من سنة أثنين وثمانين ومائتين. وكان الأمير طغج بن جف معه في القصر في تلك الليلة، فبلغه الخبر فركب في الحال وتتبع الخدم وكانوا نيفا وعشرين خادما، فأدركهم وقبض عليهم وذبحهم وصلبهم، وحمل أبا الجيش خمارويه في تابوت من دمشق إلى مصر وصلى عليه ابنه جيش ودفن. ويقال: إنه دفن بالقصر إلى جانب أبي عبيدة البراني فرآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بالقرب من أبي عبيدة ومجاورته. انتهى كلام صاحب المرآة.

* * *

ولاية أبي العساكر جيش

هو أبو العساكر جيش بن أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ولي مصر والشأم بعد قتل أبيه خمارويه بدمشق في يوم سابع عشر ذي القعدة سنة اثنتين وثمانين ومائتين فأقام بدمشق أياما ثم عاد إلى ديار مصر ودام بها إلى أن وقع منه أمور أنكرت عليه فاستوحش الناس منه وكان لما مات أبوه تقاعد عن مبايعته جماعة من كبار القواد لقلة المال وعجزه عن أن ينعم عليهم لأن أبا الجيش خمارويه كان أنفق في جهاز ابنته قطر الندى لما زوجها للخليفة المعتضد جميع ما كان في خزائنه ومات بعد ذلك بمدة يسيرة قال بعضهم فمات حقا حين حاجته إلى الموت لأنه لو عاش أكثر من هذا حتى يلتمس ما كانت جرت عادته به لاستصعب ذلك عليه ولو نزلت به ملمة لافتضح انتهى.

ولما تقاعد كبار القواد عن بيعة جيش تلطف بعض القواد في أمره حتى تمت البيعة وبايعوه وهو صبي لم يؤدبه الزمان ولا محنه التجارب والعرفان وقد قيل بعيد نجيب ابن نجيب من نجيب فلما تم أمر جيش المذكور أقبل على الشرب واللهو مع عامة أوباش منهم غلام رومي لا وزن له ولا قيمة يعرف ببندقوش ورجلان من عامة العيارين الذين يحملون الحجارة الثقال والعمد الحديد ويعانون الصراع أحدهما يعرف بخضر والثاني يعرف بابن البواش وغير هؤلاء من غلمان لم يكن لهم حال جعلهم بطانته فأول شيء حسنوه له أن وثبوه على عمه أبي العشائر فقالوا له: هذا يرى نفسه أنه هو الذي رد الدولة يوم الطواحين لما انهزم أبوك وكان يقرع أباك بهزيمته يومئذ ويذيع ذلك عند خاصته ويقولون أيضاً: إنه هو الذي هم بالوثوب حتى صنع أهل برقة فيه ماصنعوا ويتلفت إلى أهل برقة ويرى أنهم أعداؤه ويتربص بهم أن تدول له دولة فيأخذ بثأره منهم فهويتلمظ إلى الدولة وإلى ما في نفسه مما ذكرناه والمنايا تتلمظ إليه كما قال الشاعر:

تلمظ السيف من شوق إلى أنس ::: والموت يلحظ والأقدار تنتظر

فعند ذلك قبض عليه جيش هذا ودس إليه من قتله ثم قال عنه: إنه مات حتف أنفه وتحقق الناس قتله فنفرت القلوب عنه أيضاً لكونه قتله بغيا عليه وتعديا ثم اشتغل بعد ذلك جيش بهذه الطائفة المذكورة عن حقوق قواد أبيه وعن أحوال الرعية وكانت القواد أمراء شدادا يرون أنفسهم بعينها في التقديم والرياسة والشجاعة، وإنما كان قبضهم أبوه خمارويه بجميل أفعاله وكريم مقدماته إليهم ولسعة الإفضال عليهم وهم مثل خاقان المفلحي ومحمد بن

إسحاق بن كنداج ووصيف بن سوارتكين وبندقة بن لمجور وأخيه محمد بن لمجور وابن قراطغان ومن أشبههم ثم آنتقل من هذا إلى أن صار إذا أخذ منه النبيذ يقول لطائفته التي ذكرناها واحدا بعد واحد: غدا أقلدك موضع فلان وأهب لك داره وأسوغك نعمته فأنت أحق من هؤلاء الكلاب كل ذلك ومجالسه تنقل إليهم فعند ذلك بسط القواد ألسنتهم فيه وشكا القواد بعضهم إلى بعض مايلقونه منه فقالوا: نفتك به ولانصبر له على مثل هذا وبلغه الخبر فلم يكتمه ولم يتلاف القضية ولا شاور من يدله على مداواة أمره بل أعلن بما بلغه عنهم وتوعدهم وقال: لأطلقن الرجالة عليهم ولأفعلن بهم فاتصلت بهم مقالته فاعتزل من عسكره كبار القواد من الذين سميناهم مثل ابن كنداج وطبقته وخرجوا في خاصة غلمانهم وهي زهاء ثلاثمائة غلام وساروا على طريق أيلة وركبوا جبل الشراة حتى وصلوا إلى الكوفة بعد أن نالهم في طريقهم كد شديد ومشقة وكادوا أن يهلكوا عطشا واتصلت أخبارهم بالخليفة المعتضد ببغداد فوجه إليهم بالزاد والميرة والدواب وبعث إليهم من يتلقاهم وقبلهم أحسن قبول وأجزل جوائزهم وضاعف أرزاقهم وخلع عليهم وصنع في أمرهم كل جميل.

والمعتضد هذا هو صهر جيش صاحب الترجمة وزوج أخته قطر الندى المقدم ذكرها في ترجمة أبيها خمارويه وآستمر جيش هذا مع أوباشه بمصر وبينما هوفي ذلك ورد عليه الخبر بخروج طغج بن جص أمير دمشق عن طاعته وخروج ابن طغان أمير الثغور أيضاً وأنهما خلعاه جميعا وأسقطا اسمه من الدعوة والخطبة على منابر أعمالهم فلم يكربه ذلك ولا أستشنعه ولارئي له على وجهه أثر فلما رأى ذلك من بقي من غلمان أبيه بمصر مشى بعضهم إلى بعض وتشاوروا في أمره فاجتمعوا على خلعه وركب بعضهم وهجم عليه غلام لأبيه خزري يقال له برمش فقبض عليه وهم بقتله ثم كف عنه فلما كان من الغد آجتمع القواد في مجلس من مجالس دار أبيه وتذاكروا أفعاله وأحضروا معهم عمول البلد وأعادوا لهم أخباره وقالوا لهم: ما مثل هذا يقلد شيئا من أمور المسلمين وأحضروه لأن جماعة من غلمان أبيه يعني مماليكه قالوا: لانقفد غيره حتى يحضر ونسمع قوله فإن وعد برجوع وتاب من فعله أمهلناه وجربناه وإن أقر بعجزه عن حمل ما حمل وجعلنا في حل من بيعته بايعنا غيره على يقين وعلى غير إثم فأحضروه فاعترف أنه يعجز عن القيام بتدبير الدولة وأنه قد جعل من له في عنقه بيعة في حل وعمل بذلك محضر شهد فيه عدول البلد ووجوهه ومن حضر من

القواد والغلمان أعني المماليك وصرفوه وكان قبل القبض عليه ركبوا إلى أبي جعفر بن أبى وقالوا له: أنت خليفة أبيه وكان ينبغي لك أن تؤدبه وتسدده فقال لهم: قد تكلمت جهدي ولكن لم يسمع مني وبعد فتقدموني إليه فتسمعون ما أخاطبه به فتقدموه وركب من داره فلما جاوز داره قليلا لقيه برمش فضرب بيده على شكيمة فرسه، وقال له: أنت خليفة أبيه وخليفته ونصف ذنبه لك وجره جراً وبينما هو في ذلك إذ أقبل علي بن أحمد فقبض على الآخر وقال له: أنت وزيره وكاتبه وعليك ذنبه لأنه كان يجب عليك تقويمه وتعريفه ما يجب عليه فصعد بالاثنين جميعا إلى المنظر وقعد معهما كالملازم وبينما هوعلى ذلك إذ خطر على قلبه شيء فقام إلى دابته وتركهما ومضى نحو باب المدينة فوثب من فوره ابن أبى إلى دابته وركبها وقال لعلي بن أحمد: اركب والحقني، وحرك دابته فإنه كان أحس الموت، ثم جاءه الخلاص من الله وركب بعده علي بن أحمد فلم يتجاوز المنظر حتى لحقه طائفة من الرجالة فقتلوه ومر ابن أبى إلى نحو المعافر فتكفن هناك واختفى وعاد برمش فلم يجد ابن أبى فمضى من فوره وهجم على جيش وقبض عليه حسبما ذكرناه من خلعه وحبسه ووری جثة علي بن أحمدة وسلم ابن أبى.
فقال بعضهم في علي ابن أحمد: المجتث

أحسن إلى الناس طرا ::: فأنت فيهم معان
وآعلم بأنك يوماً ::: كما تدين تدان

قلت: وكان خلع جيش لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين وكانت ولايته ستة أشهر واثني عشر يوماً وقتل في السجن بعد خلعه بأيام يسيرة.

* * *

ولاية هارون بن خمارويه

هو الأمير أبو موسى هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون التركي الأصل المصري المولد. ولي مصر بعد قتل أخيه جيش بن خمارويه في اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وتم أمره وكانت بيعته من غير عطاء للجند، وهو من الغرائب؛ وبايعوه طوعا أرسالا ولم يمتنع عليه أحد، وجعلوا أبا جعفر بن أبى خليفته والمؤيد لأمره ولتدبيره؛ وسكنت ثائرة الحرب وقر قرار الناس وقتل غالب أصحاب جيش ولم يسلم منهم إلا عبد الله بن الفتح، واستتر أبو عبد الله القاضي خوفا من مثل مصرع علي بن أحمد لأنه يعلم ما كان له في نفوس الناس، وماظهر إلافي اليوم الذي دخل فيه محمد بن سليمان البلد، وقلد القضاء بعده أبوزرعة محمد بن عثمان من أهل دمشق.

وأخرج جيش بعد أيام ميتا، ثم بعد أيام أمر أبو جعفر بن أبى ربيعة بن أحمد بن طولون أن يخرج إلى الإسكندرية فيسكنها هو وولده وحريمه ويبعد عن الحضرة، فتوجه إلى الإسكندرية وأقام بها على أجمل وجه إلى أن حركه أجله، وكاتبه قوم ووثبوه وقالوا له: أنت رجل كامل مكمل التدبير، وقد تقلدت البلدان وأحسنت سياستها، ولوكشفت وجهك لتبعك أكثر الجيش؛ فأطاعهم وأقبل ركضا فسبق من كان معه، فلم يشعر الناس به إلا وهو بالجبل المقطم وحلى ومعه غلام له نوبي، وبيده مطرد ينشد الناس لنفسه ويدعوهم إلى ما كاتبوه؛ واتصل خبره بابن أبى فبعث النقباء إلى الناس وأمرهم بالركوب، فركب الناس وأقبلوا يهرعون من كل جانب. ونزل ربيعة مدلا بنفسه، وكان من الفرسان، طمعا فيمن بقي له ممن كاتبه، فلم يأته أحد وسار وحده وفر عنه من كان معه أيضاً، وبقي كالليث يحمل على قطعة قطعة فينقضها وتنهزم منه، حتى برز له غلام أسود خصي يعرف بصندل المزاحمي مولى مزاحم بن خاقان الذي كان أميرا على مصر، وقد تقدم ذكره فحمل عليه ربيعة فرمى صندل بنفسه إلى الأرض وقال له: بتربة الماضي، فكف عنه وقال له: امض إلى لعنة الله. ثم برز إليه غلام آخر يعرف بأحمد غلام الكفتي والكفتي أيضاً كان من جملة قوادهم فحمل عليه ربيعة فقتله. وأقبل ربيعة يحمل على الناس ميمنة وميسرة ويحملون عليه بأجمعهم فيكمونه ويرثونه إلى الصحراء ثم يرجع عليهم فيردهم إلى موضعهم؛ فلم يزل هذا دأبه إلى الزوال، فتقطر عن فرسه فأكبوا عليه ورموا بأنفسهم عليه حتى أخذوه مقانصة فاعتقل يومه ذلك؛ فلما كان من الغد أمر أن يضرب مائة سوط ووكل به الكفتي القائد ليأخذه بثأرغلامه، فكان الكفتي يحض الجلادين ويصيح عليهم ويأمرهم بأن يوجعوا ضربه حتى استرخى، وقيل: إنه مات، فقال الكفتي: هيهات! لحم البقر لا ينضج سريعا! فضرب أسواطاً بعد موته ثم أمر به فدفن في

حجرة بقرب من بئر الجلودي ومنع أن يدفن مع أهله. فلما كان من غد يوم دفنه بلغ سودان أبيه أن الكفتي قال: لحم البقر لا ينضج سريعا، وأنه ضربه بعد أن مات أسواطا، فغاظهم ذلك وحركهم عليه وزحفوا إلى داره، وبلغه الخبر فتنحى عنها، فجاؤوا داره فلم يجدوه فنهبوا داره ولم يكن له علم بذلك، فأخفوا منها شيئا كثيرا حتى تركت حرمته عريانة في البيت لا يواريها شيء. ورجع الكفتي إلى داره فرأى نعمته قد سلبت وحرمته قد هتكت، فدخل قلبه من ذلك حسرة فمات كمدا بعد أيام.

وثبت ملك هارون هذا وهو صبي يدبر ولا يحسن أن يدبر، والأمر كله مردود إلى أبى جعفر بن أبى يدبر كما يرى. فلما رأى غلمان أبيه الكبار الأمر كله لأبي جعفر، وهم بحر وفائق وصافي، قبض كل منهم على قطعة من الجيش وحازها لنفسه وجعلها مضافة له يطالب عنهم ما يستحقونه من رزق وجراية وغيرها، وسأل أن يكون ما لهم محمولا إلى داره يتولى هو عطاءهم، فصار عطاء كل طائفة من الجند إلى دار الذي صارت في جملته وصاروا له كالغلمان. ثم خرج بدر القائد والحسن بن أحمد الماذرائي إلى الشأم فأصلحوا أمرها، واستخلفوا على دمشق من قبل هارون المذكور الأمير طغج بن جف، وقرروا جميع أعمال الشامات ثم عادوا إلى مصر. ثم حج بدر المذكور في السنة وأظهر زيا حسنا وأنفق نفقة كثيرة وأصلح من عقبة أيلة جرفا كبيراً. ولما كان في السنة المقبلة حج فائق فزاد في زيه ونفقاته على كل ما فعله بدر؛ وكان دأبهم المنافسة في حسن الزي وبسط اليد بالإنفاق في وجوه البر. وبنى بد الميضأة المعروفة به على باب الجامع العتيق، ووقف عليها القيسارية الملاصقة لها، وجعل مع الميضأة ماء عذبا في كيزان توضع في حلقة من حلق المسجد؛ وكان صاحب صدقات بدر رجل يعرف بالليث بن داود، فكان الشخص يرى المساكين زمرا زمرا يتلو بعضهم بعضا ينادون في الطريق: دار الليث، دار الليث، فيعطيهم الليث الدراهم واللحم المطبوخ ويكسوهم في الشتاء الجباب الصوف ويفرق فيهم الأكسية؛ وتم ذلك أيام حياة بدر كلها؛ وكان لصافي وفائق أيضاً عمال مثل ذلك وأكثر. قال محمد بن عاصم العمري وكان من علماء الناس قال: صرت إلى مصر فلم يحتف بي أحد غير أبي موسى هارون بن محمد العباسي، فصار يحضر لي مائدة ويباسطني في محادثته، وحملني ذلك على أن استحييته، فقال لي: أنا أعرف بصدقك فيما ذكرت وليس يرضيني لك ما ترى، لأن هذه أشياء تقصر عن مرادي، ولكني سأقع لك على موضع يرضيك ويرضيني فيك؛ ودام على ذلك مدة لا يقطع عني عادته، إلى أن توفي لهارون صاحب مصر ولد صغير، فبادر هارون بإخراجه والصلاة عليه وصرنا به إلى الصحراء. فما وضع عن أعناق حامليه حتى أقبل موكب عظيم فيه بحر وفائق وصافي موالي أبي الجيش خمارويه، ومحمد بن أبى

وجماعة، فقالوا: نصلي عليه؟ فقال هارون: قد صليت عليه؛ فقالوا: لا بد أن نصلي عليه؛ فقال هارون بن محمد العباسي: ادعوا إلي محمد بن عاصم العمري، وكنت في أخريات الناس، فلم يزالوا قياما ينتظرونني حتى أتيت؛ فقال لي: صل بهم، فصليت بهم؛ وانصرفنا؛ فلما كان بعد يومين قال لي: قد عرفت بك هؤلاء القوم فامض إليهم فإنك تنال أجرا كبيرا؛ قال: فصرت إلى أبوابهم وسلمت عليهم، فلم يمض أقل من شهر حتى نالني منهم مال كثير وحسنت حالي إلى الغاية، ثم ذكر عن هؤلاء القوم من هذه الأشياء نبذا كثيرة.

وأما أمر هارون صاحب الترجمة فإنه لما تم أمره صار أبو جعفر بن أبى هو مدبر مملكته. وكان أبوجعفر عنده دهاء ومكر فبقي في قلبه أثر مما فعله برمش من يوم خلع جيش وقتل علي بن أحمد؛ وكان من القواد رجل يعرف بسمجور قد قلد حجابة هارون، فبسط لسانه في ابن أبى المذكور وحرك عليه القواد؛ وبلغ ذلك ابن أبى فقال لهارون: احفر سمجور هذا، وهارون صبي فلم يتحمل ذلك؛ ودخل القواد في شهر رمضان يفطرون عنده وكان سمجور فيهم؛ فلما نجز أمرهم وخرجوا استقعد سمجور وقال له: يا سمجور، أنت مدسوس إلي وأنا مدسوس إليك، وتريد كيت وكيت، وغمز غلمانه عليه فقبضوا عليه واعتقله في خزانة من خزائنه فكان ذلك آخر العهد به. وأما برمش فإن أبا جعفربن أبى خلا به وقال له: ويحك؛ ألاترى ما نحن فيه مع هؤلاء القوم؛ انقلبت الدولة رومية ما لنا معهم أمر ولانهي. وكان برمش خزريا أحمق، فبسط لسانه في بدر وغيره من الأروام، فنقل إليهم. وكان بدر أخلاقه كريمة، وكان من أحسن خلقه أن الرجل إذا قبل فخده يقبل هورأس الرجل؛ فدس له برمش غلاما فوقف له على الباب، فلما خرج بدر أقبل عليه الغلام وقبل فخده فانكب بدر على رأسه فضربه الغلام في رأسه فشجه، وقبض على الغلام الأسود، فقال: دسني برمش؛ فغضب له الناس وركبوا قاصدين دار برمش، فعرف برمش الأمر فركب لحماقته وأمر غلمانه وحواشيه فركبوا وخرجوا إلى الموضع المعروف ببئر برمش، وكان هو الذي احتفرها وبناها وصف هناك مماليكه؛ فركب في الحال ابن أبى لما في نفسه من برمش قديما وقد تم له ما دبره عليه، وقال لهارون: هذا غلامك برمش قد خرج عليك فأرسل بالقبض عليه، ثم قال: الصواب أن تخرج بنفسك إليه في مماليكك وتبادر الأمر قبل أن يتسع ويعسر أمره؛ فركب هارون في دسته فلم يبق أحد إلاركب بركوبه؛ فلما رأى برمش ذلك تأهب لقتالهم وأخذ قوسه وبادرأن يرمي به؛ فقالوا له: مولاك، ويلك مولاك الأمير

فقال: أروني إن كان هو مولاي لم أقاتله وإن كان هؤلاء الأروام أقاتلهم كلهم ونموت جميعا فلما رأى الأمير هارون رمى بنفسه عن دابته إلى الأرض فغمز ابن ابى الرجالة عليه فتعاوروه بأسيافهم حتى قتل ونهبت داره ورجع هارون إلى دار الإمارة ثم بعد مدة قدم هارون القائد لحجا، وكان من أصاغر القواد لأبي الجيش خمارويه، وبلغه مراتب غلمان أبيه الكبار، فغاظ ذلك بحراً وصافياً وفائقا لأنهم كانوا يرون نفوسهم أحق بذلك منه. ثم بعد ذلك نفى هارون صافيا إلى الرملة فتأكدت الوحشة بينهم وبين هارون وبينما هم في ذلك أتاهم الخبر أن رجلا يزعم أنه علوي قد ظهر بالشأم في طائفة من الناس، فعاث أولا بنواحي الرقة ثم قدم الشأم فاتصل خبره بطغج ابن جف وهو يومئذ أمير دمشق فتهاون به وركب إليه وهويظن أنه من بعض الأعراب بغير أهبة ولا عدة ومعه البزاة والصقورة كأنه خارج إلى الصيد فلما صافه لقيه رجلا متلهفاً على الشر لما تقدم له من الظفر بجماعة من أعيان الملوك، فقاتله طغج فانهزم منه أقبح هزيمة ونهبت عساكره وعاد طغج إلى دمشق مكسورا فدخل قلوب الشاميين منه فزع شديد فكتب طغج إلى هارون هذا يستمده على قتاله فأخرج إليه هارون بدرا الحمامي وجماعة من القواد في جيش كثيف فساروا إلى الشأم والتقوا مع الخارجي المذكور وقد لقب بالقرمطي.

وكان من أصحاب بدر رجل يقال له زهير فحلف زهير المذكور بالطلاق إنه متى وقع بصره على القرمطي ليرمين بنفسه عليه وليقصدنه حيث كان فلما تصاف العسكران سأل زهير المذكورعن القرمطي فقيل له: هوالراكب على الجمل، وله كمان طويلان يشير بهما فحيث أومأ بكمه حملت عساكره فقال زهير: أرى على الجمل اثنين أهو المقدم أم الرديف؟ قالوا: بل هو الرديف فجعل زهير يشق الصفوف حتى وصل إليه فطعنه طعنة وقطره عن جمله صريعا فلما رآه أصحابه مصروعاً حملوا على المصريين والشاميين حملة واحدة شديدة هزموهم فيها وقتلوا منهم خلقا كثيرا ثم أقاموا عليهم أخا القرمطي ورأسوه عليهم وأقبل زهير المذكور إلى بدر الحمامي فقال له: قد قتلت الرجل فقال له بدر: فأين رأسه؟ فرجع ليأخذ رأسه فقتل زهير قبل ذلك ثم كانت لهم بعد ذلك وقائع كثيرة والقرمطي فيها هوالظافر، فقتل من قواد المصريين وفرسانهم خلق كثير وطالت مقاومته معهم حتى سمع بذلك المكتفي الخليفة العباسي وكان متيقظا في هذا الحال يرى الإنفاق فيه سهلا ويقول المبادرة في هذا أولى فبادر بإرسال جيش كثيف نحوه وجعل على الجيش محمد بن سليمان الذي كان كاتبا للؤلؤ غلام أحمد بن طولون الآتي ذكره في عدة أماكن وسار الجيش نحو

البلاد الشامية فلما أحس القرمطي بحركة محمد بن سليمان المذكور من العراق عدل عن دمشق إلى نواحي حمص فقتل منهم مقتلة عظيمة وسبى النساء وعاث في تلك النواحي وعظم شأنه وكثر أعوانه ودعا لنفسه وخطب على المنابر باسمه وتسمى بالمهدي وكان له شامة زعم أصحابه أنها آيته وزعم أنه عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. ومن شعره في هذا المعنى قوله:

سبقت يداي يديه ::: قصرته هاشمي المجيد
وأنا ابن أحمد لم أقل ::: كذبا ولم به أستزيد

ثم بث القرمطي عماله في البلاد والنواحي وكاتبهم وكاتبوه فمن رسائله إلى بعض عماله: " من عبد الله المهدي المنصور بالله الناصر لدين الله القائم بدين الله الحاكم بحكم الله الداعي لكتاب الله الذاب عن حرم الله المختار من ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين وإمام المسلمين ومذل المنافقين وخليفة الله على العالمين وحاصد الظالمين وقاصم المعتدين ومهلك المفسدين وسراج المستبصرين وضياء المبصرين ومشتت المخالفين والقيم بسنة المرسلين وولد خير الوصيين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين إلى جعفربن حميد الكردي سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وسأله أن يصلي على محمد جدي. أما بعد ماهو كيت وكيت فهذه صورة مكاتبته إلى الأقطار. انتهى.

وأما محمد بن سليمان الكاتب، فإن القاسم بن عبيد الله وزير المكتفي كتب إليه بطلب القرمطي المذكور والجد في أمره فسار محمد بن سليمان بعساكره نحوه فالتقوا بموضع دون حماة وكان القرمطي قد قدم أصحابه أمامه وتخلف هو في نفر ومعه المال الذي جمعه فوقع بين محمد بن سليمان وبين أصحاب القرمطي وقعة آنهزم فيها أصحاب القرمطي أقبح هزيمة وكان ذلك في المحرم سنة إحدى وتسعين ومائتين فلما علم القرمطي بهزيمة أصحابه أعطى أخاه أمواله وأمره بالنفوذ إلى بعض النواحي التي يأمن على نفسه فيها إلى أن يتهيأ له مايجب ثم مضى هو وابن عمه المدثر وغلام له يسمى المطوق وغلام آخر يسمى دليلا وطلب القرمطي بهم طريق الكوفة وسار حتى انتهى إلى قرية تعرف بالدالية وعجزوا عن زادهم فدخل أحدهم إلى القرية ليشتري لهم زادا فأنكروا زيه وسئل عن أمره فمجمج فأعلم المتولي مسلحة هذه الناحية بخبره وهورجل يعرف بأبي خبزة خليفة أحمدبن محمد بن كشمرد فأقبل عليه أبو خبزة المذكور مع أحداث ضيعته فقاتله وكسره وقبض عليه وعلى من معه فانظر إلى هذا الأمر الذي عجز عنه الملوك حتى كانت منيته على يد هذا الضعيف

ولله در القائل: الطويل،

وقد يسلم الإنسان مما يخافه ::: ويؤتى الفتى من أمنه وهو غافل.

فقبض عليه المذكور وكان أمير هذه النواحي القاسم بن سيما فكتب بالخبر إلى الخليفة المكتفي وهو بالرقة وقد كان رحل في أثر محمد بن سليمان وآتفق مع هذا موافاة كتاب محمد بن سليمان إلى القاسم بن عبيد الله بالفتح والنصرة على القرمطي ثم أحضر القرمطي إلى بين يدي الخليفة المكتفي فأخذه الخليفة وعاد هو ووزيره القاسم بن عبيد الله من الرقة إلى بغداد وهوعلى جمل يشهر به في كل بلد يمرون به ومعه أيضاً من أصحاب القرمطي المدثر والمطوق وجماعة من أسارى الواقعة ودخل بهم بغداد وقد زينت بغداد بأفخر الزينة وكان لدخولهم يوم عظيم إلى الغاية فلما كان يوم الاثنين الثالث والعشرون من شهر ربيع الأول جلس الخليفة مجلسا عاما وأحضر القرمطي وأصحابه فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم رمي بهم من أعلى الدكة إلى أسفل ولم يبق منهم إلا ذوالشامة أعني القرمطي ثم قدم القرمطي فضرب بالسوط حتى استرخى ثم قطعت يداه ورجلاه ونخس في جنبه بخشب فلما خافوا عليه الموت ضربوا عنقه ثم حضر محمد بن سليمان وخلع عليه الخليفة المكتفي ثم خلع على القواد الذين كانوا معه وهم محمد بن إسحاق بن كنداج وحسين بن حمدان وأحمد بن إبراهيم بن كيغلغ وأبو الأغر ووصيف وأمر الجميع بالسمع والطاعة لمحمد بن سليمان.

ثم أمر الخليفة محمد بن سليمان بالتوجه إلى مصر لقتال هارون بن خمارويه صاحب الترجمة فسار محمد بن سليمان بمن معه في شهر رجب وكتب إلى دميانة غلام يا زمان وهو يومئذ أمير البحرأن يقفل بمراكبه إلى مصر وسار الجيش قاصدا دمشق فلما قربوا منها تلقاهم بدر وفائق في جميع جيشهما لما في نفوسهما من هارون حسبما قدمناه من تقديم من تقدم ذكره عليهما وصاروا مع محمد بن سليمان جيشا واحدا وساروا نحو مصر فاتصلت أخبارهم بهارون بن خمارويه هذا فتهيأ لقتالهم وجمع العساكر وأمر بمضربه فضرب بباب المدينة بعد ان نعق في جنده وأمرهم بالتأهب للرحيل فاستعدوا ثم رحلوا إلى العباسة يريدون الشأم.

وتربص هارون بالعباسة أياما وكتب لبدر وفائق يستعطفهما ويذكر لهما الحرمة وما يجب عليهما من حفظ ذمام الماضين من أبيه وجده وصارت كتبه صادرة إليهم وإلى القواد بذلك فبينما هو ذات ليلة بالعباسة وقد شرب وثمل ونام امنا في مضربه إذ وثب عليه بعض غلمانه فذبحه وقيل إن ذلك كان بمساعدة بعض عمومته في ذلك وأصبح الناس وأميرهم مذبوح وقد تفرقت الظنون في قاتله فنهض عمه شيبان بن أحمد بن طولون ودعا لنفسه وضمن للناس حسن القيام بأمر الدولة والإحسان لمن ساعده

فبايعه الناس على ذلك انتهى.

* * *

ولاية شيبان بن أحمد بن طولون

هو شيبان بن أحمد بن طولون الأمير أبو المقانب التركي المصري ولي إمرة مصر بعد قتل ابن أخيه هارون بن خمارويه لإحدىعشرة بقيت من صفر سنة اثنتين وتسعين مائتين قال صاحب البغية: ولما تم أمره أقر شيبان المذكور موسى بن طونيق على شرطة مصروخرج من الفسطاط ليلة الخميس لليلة خلت من أشهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين فكانت ولايته آثني عشر يوماً انتهى قلت ونذكر أمر شيبان هذا بأوسع مما ذكره صاحب البغية فنقول ولما قتل هارون بن خمارويه ورجع الناس إلى مصر وهم بغير أمير نهض شيبان هذا ودعا لنفسه وضمن لهم حسن القيام بأمر الدولة والإحسان إليهم فبايعه الناس وهو لا يدري بأن الدولة الطولونية قد انتهى أمرها وما أحسن قول من قال في هذا المعنى:

أصبحت تطلب أمراً عز مطلبه ::: هيهات صاع زجاج ليس ينجبر

وقام شيبان بالأمر ودخل المدينة وطاف بها حتى وصل إلى الموضع المعروف بمسجد الرمح فصدم الرمح الذي فيه لواؤه سقف المرب فانكسر فتطير الناس من ذلك وقالوا أمر لا يتم وقيل: إن شيبان المذكور كان أسر في نفسه قتل ابن أخيه هارون المقدم ذكره فتهيأ لذلك في واطأ عليه بعض خاصة هارون فكان شيبان ينتظر الفرصة وبينما شيبان على ذلك إذ صار إليه بعض الخدم الذين واطأهم على أمر هارون وبايعوه على قتله وأعلموه أن هارون قد غط في نومه من شدة السكر وأنه لم ير في مثل حالته تلك قط من شدة السكرالذي به وقالوا له إن أردت شيئا فقد أمكنك ما تريد فقام شيبان ودخل من وقته على ابن أخيه هارون بن خمارويه فوافاه في مرقده غاطاً متقلاً من سكره فذبحه بسكين كان معه في مرقمه بالعباسة وكان ذلك في ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من صفر سنة اثنتين وتسعين ومائتين وعرف الناس بقتله في غد ليلته واستولى شيبان على الملك كما ذكرناه وبويع في يوم الاثنين لعشر ليال بقين من صفر من السنة المذكورة وعلم أبو جعفر بن أبى ونجيح الرومي القائد ما كان من أمر هارون وقتله فرحلا من موضعهما من العباسة مع نفر من خاصة أصحابهما وتركا بقية عسكرهما ولحقا بعسكر طغج بن جص الني كان نائب دمشق وقد وصل محمد بن سليمان الكاتب وفائق ويمن وغيرهم من موالي خمارويه وأخبروهم بذلك ثم جاءهم الخبر بأن الحسين بن حمدان قد دخل الفرما يريد جرجير وكانوا بها فرحلوا بعساكرهم حتى نزلوا العباسة وذلك بعد رحيل شيبان ابن أحمد بن

طولون المذكور عنها إلى مدينة مصر.

وأما شيبان فإنه لما دخل مصر مع جميع إخوته وبني عمه والعسكر الذي كان بقي من عسكر ابن أخيه هارون تهيأ لقتال القوم وكان شيبان أهوج جسوراً جسيما جلدا شديد البدن في عنفوان شبابه فصار يسرع في أموره وذلك بعد أن تم أمره وخطب له يوم الجمعة على سائرمنابرمصر ثم أخذ في العطاء للجند فلم يجد من المال سعة فقلق فسعى إليه ساع بأن أم هارون المقتول أودعت ودائع لها في بعض الدورالتي للتجار بمدينة الفسطاط أعني مصر فوجه شيبان بأبي جيشون أحد إخوته إلى هذه الدورحتى آستخرج منها خبايا كانت لأم هارون وحمل ذلك إلى أخيه شيبان في أعدال محزومة لايدرى مافيها وآنتهى الخبر إلى الحسين بن حمدان بأن هارون صاحب مصر قد قتل وكان على مقدمة عسكر محمد بن سليمان الكاتب وهوبجرجيرفرحل عنها يريد العباسة فلقيه في طريقه محمد بن أبى مع جميع الرؤساء الذين كانوا معه فصار الحسين في عسكر كبير وبلغ ذلك أيضاً محمد بن سليمان الكاتب فحث في مسيره حتى لحق بمقدمة الحسين بن حمدان المذكور وقد انضاف إليه غالب عسكر مصر الذي وصل مع أبي جعفر بن أبى وغيره وعندما اجتمع الجميع وصل إليهم أيضاً دميانة البحري في ثمانية عشر مركباً حربياً مشحونة بالرجال والسلاح وذلك في يوم الثلاثاء ثامن عشرين صفر فضرب جسر مصر الشرقي بالنار وأحرقه عن آخره وأحرق بعض الجسر الغربي ثم وافى محمد بن سليمان الكاتب بعسكره حتى نزل بباب مصر فضرب خيامه بها في يوم الأربعاء تاسع وعشرين من صفر كل ذلك في سنة آثنتين وتسعين ومائتين ولما بلغ ذلك شيبان خرج بعساكره من مدينة مصر وقد اجتمع معه من الفرسان والرجالة عدة كثيرة ووقف بهم لممانعة محمد بن سليمان من دخول المدينة وعبأ أيضاً محمد بن سليمان عسكره للمصاف لمحاربة شيبان والتقى الجمعان وكانت بينهم مناوشة ساعة ثم كتب محمد بن سليمان إلى شيبان والحرب قائمة يؤمنه على نفسه وجميع أهله وماله وولده وإخوته وبني عمه جميعا ونظر شيبان عند وصول الكتاب إليه قلة من معه من الرجال وكثرة جيوش محمد بن سليمان مع ماظن من وفاء محمد بن سليمان له فاستأمن إلى محمد بن سليمان وجمع إخوته وبني عمه في الليل وتوجهوا إلى محمد بن سليمان وصاروا في قبضته ومصاف شيبان على حاله لكن الفرسان علموا بما فعل شيبان فكفوا عن القتال وبقيت الرجالة على مصافها ولم تعلم بما أحدثه شيبان وأصبحت

الرجالة غداة يوم الخميس وليس معهم حام ولارئيس فالتقوا مع عسكر محمد بن سليمان فآنكسروا وانكبت خيل محمد بن سليمان على الرجالة فأزالتهم عن مواقفهم ثم انحرفت الفرسان إلى قطائع السودان الطولونية وصاروا يأخذون من قدرواعليه منهم فيصيرون بهم إلى محمد بن سليمان وهوراكب على فرسه في مصافه فيأمر بذبحهم فيذبحون بين يديه كما تذبح الشاة.

ثم دخل محمد بن سليمان بعساكره إلى مدينة مصر من غير أن يمنعه عنها مانع، وكان ذلك في يوم الخميس سلخ صفرالمذكور فطاف محمد بن سليمان وهوراكب بمدينة مصر ومعه محمد بن أبى وجماعة من جند المصريين من الفرسان والرجالة الإامن هرب منهم وصار كل من أخذ من المصريين ممن هرب أوقاتل ضربت عنقه وأحرقت القطائع التي كانت حول الميدان من مساكن السودان بعد أن قتل فيها منهم خلق كثير حتى صارت خرابا يبابا وزالت دولة بني طولون كأنها لم تكن وكانت مدة تغلب شيبان هذا على مصر تسعة أيام منها أربعةأيام كان فيهاأمره ونهيه ثم دخلت الأعراب الخراسانية من عساكر محمد بن سليمان الكاتب إلى مدينة مصر فكسروا جيوشها وأخرجوا من كان بها ثم هجمواعلى دور الناس فنهبوها وأخذوا أموالهم وآستباحوا حريمهم وفتكوا في الرعية وآفتضوا الأبكار وأسروا المماليك والأحرار من النساء والرجال وفعلوا في مصر ما لا يحله الله من ارتكاب المآثم ثم تعدوا إلى أرباب الدولة وأخرجوهم من دورهم وسكنوها كرها وهرب غالب أهل مصر منها وفعلوا في المصريين ما لا يفعلونه في الكفرة وأقاموا على ذلك أياما كثيرة مصرين على هذه الأفعال القبيحة ثم ضربت خيام محمد بن سليمان على حافة النيل بالموضع المعروف بالمقس، ونزلت عساكره معه ومن آنضم إليه من عساكر المصريين بالعباسة ثم أمر محمد بن سليمان أن تحمل الأسارى من المصريين من الذين كان دميانة أسرهم في قدومه من دمياط على الجمال فحملوا عليها وعليهم القلانس الطوال وشهرهم وطيف بهم في عسكره من أوله إلى آخرة ثم قلد محمد بن سليمان أصحابه الأعمال بمصر، فكان الذي قلده شرطة العسكر رجلا يقال له غليوس وقلد شرطة المدينة رجلا يقاد له وصيف البكتمري وقلد أباعبد الله محمد بن عبدة قضاء مصر كل ذلك في يوم الخميس لسبع خلون من شهر ربيع الأول ثم قبض أيضاً على جماعة من أهل مصر من الكتاب وغيرهم فصادرهم وغرمهم الأموال الجليلة بعد العذاب والتهديد والوعيد ثم أمسك محمد بن أبى خليفة هارون بن خمارويه على مصر أعني الذي كان توجه

إليه من العباسة وصادره وأخذ منه خمسمائة ألف دينار من غير تجشيم ومحمد ابن أبى هذا هوالذي قدمنا ذكره في ترجمة جيش بن خمارويه وماوقع له مع برمش وكان محمد بن سليمان هذا لايسمى باسمه ولابكنيته وماكان يدعى إلا " بالأستاذ " وكان حكمه في أهل مصر بضرب أعناقهم وبقطع أيديهم وأرجلهم جورا وتمزيق ظهورهم بالسياط وصلبهم على جذوع النخل ونحو ذلك من أصناف النكال ولا زال على ذلك حتى رحل عن مدينة مصر في يوم الخميس مستهل شهر رجب من سنة آثنتين وتسعين ومائتين وآستصحب معه الأمير شيبان بن أحمد بن طولون صاحب الترجمة وبني عمه وأولادهم وأعوانهم حتى إنه لم يدع من آل طولون أحدا والجميع في الحديد إلى العراق وهم عشرون إنسانا ثم أخرج قوادهم إلى بغداد على أقبح وجه فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اللذ ثم سيق جماعة من أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان ممن كان أمنهم فذبحوا بين يديه وزالت الدولة الطولونية وكانت من غرر المول وأيامهم من محاسن الأيام وخرب الميدان والقصور التي كانت به التي مدحتها الشعراء قال القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في كتاب حسن السيرة في آتخاذ الحصن بالجزيرة " رأيت كتابا قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونه فهرست شعراء الميدان الذي كان لأحمدبن طولون قال فإذا كانت أسماء الشعراء في اثنتي عشرة كراسة فكم يكون شعرهم انتهى وقال ابن دحية في كتابه وخربت القطائع التي لأحمد بن طولون في الشدة العظمى زمن الخليفة المستنصر العبيدي أيام القحط والغلاء المفرط الذي كان بالديار المصرية قال وهلك من كان فيها من السكان وكانت نيفا على مائة ألف دار قلت هذا الذي ذكره ابن دحية هوالذي بقي بعد إتلاف محمد بن سليمان.

* * *

أول من ولي مصر بعد بني طولون

وخراب القطائع إلى الدولة الفاطمية العبيدية وبناء القاهرة على الترتيب المقدم ذكره فأول من حكمها محمد بن سليمان الكاتب المقدم ذكره أرسله الخليفة المكتفي بالله علي العباسي حسبما ذكرناه في غير موضع وملك محمد بن سليمان الديار المصرية بعد قتل شيبان بن أحمد بن طولون في يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائتين ودعا على منابر مصر للخليفة المكتفي بالله وحده وولى محمد بن سليمان أبا علي الحسين بن أحمد المادرائي على الخراج عوضا عن أحمدبن علي المادرائي فلم تطل مدة محمد بن سليمان بمصر حتى قدم عليه كتاب الخليفة المكتفي بالله بولاية عيسى بن محمد النوشري ودخل خليفة عيسى المذكور إلى مصر لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى فتسلم من محمد بن سليمان المذكور الشرطتين وسائر الأعمال فكان مقام محمد بن سليمان المذكور الكاتب بمصر أربعة أشهر.

* * *

ولاية عيسى النوشري

هو عيسى بن محمد الأمير أبو موسى النوشري ولاه الخليفة المكتفي من بغداد على مصر فأرسل عيسى خليفته على مصر فآستولى عليها إلى حين قدمها لسبع خلون من جمادى الاخرة من سنة آثنتين وتسعين ومائتين. وكان محمد بن سليمان لما وصل إلى مصر بالعساكر كان الأمير عيسى النوشري المذكور من جملة القواد الذين قدموا معه فلما افتتح محمد بن سليمان مصر أرسل عيسى هذا إلى الخليفة رسولا يخبره بفتح مصر لأنه كان من كبار القواد الشاخصين معه إلى مصر وتوجه عيسى إلى نحو العراق فلما وصل إلى دمشق وافاه كتاب الخليفة المكتفي بها بولايته على إمرة مصر فعاد من وقته إلى أن دخل مصر في التاريخ المقدم ذكره ث فخلع عليه محمد بن سليمان الكاتب وطاف به مدينة مصر وعليه الخلعة وآستمر على عمل معونة مصر وجندهاة ثم ورد عليه أيضاً كتاب الخليفة إلى جماعة من القواد ممن كان في عسكر محمد بن سليمان: منهم علي بن حسان بتقليده أعمال الإسكندرية وإلى مهاجربن طليق بتقليده ثغر تنيس ودمياط وإلى رجل يعرف بالكندي بتقليده الأحواف وإلى رجل يقال له موسى بن أحمد بتقليده برقة وما والاها وإلى رجل يعرف بمحمد بن ربيعة بتقليده الصعيد وأسوان وإلى رجل يعرف بأبى زنبور الحسين بن أحمد المادرائي بتقليده أعمال الخراج بمصر وجلس في ديوان الخراج لخمس بقين من جمادى الآخرة ثم إلى دميانة البحري بالانصراف عن مصر، فأنصرف عميانة عنها لثمان بقين من جمادى الاخرة.

ونزل عيسى النوشري المذكور في الدار التي كانت سكنى بحر الحمامي بمصر

وكانت بالموقف بسوق الطير وهي الدار التي كان نزل بها محمد بن سليمان الكاتب لما آفتتح مصر وكان خروج محمد بن سليمان من مصر في مستهل شهر رجب من السنة وأخرج معه كل من بقي من الطولونية بمصر كما ذكرناه في ترجمة شيبان بن أحمد بن طولون واستصحب معه أيضاً جماعة بعد رحيله عنها فخرج الجميع إلى الشام، وهم: أبو جعفر محمد بن أبى وآبنه الحسن وطغج بن جف الذي كان نائب دمشق وولده وأخوه وبدر وفائق الرومي الخازن وصافي الرومي وغيرهم من موالي أحمد وخمارويه وخرج الجميع موكلا بهم وأخرج معهم أيضاً جماعة كثيرة ممن هم أقل رتبة ممن ذكر غيرأنهم أيضاً من أعيان الدولة وأكابر القواد وهم: محمد بن علي بن أحمد الماذرائي وزير هارون بن خمارويه وأبو زرعة القاضي وأبو عبد الله محمد بن زرعة القاضي وخلق كثير من آل طولون وغيرهم من الجند وضمهم إلى عسكره وقت خروجه من مصر فتخلف عنه جماعة بدمشق وغيرها وسار معه بعضهم إلى حلب في الحديد وهم: موسى بن طرنيق وأحمد بن أعجر وكانا على شرطتي مصر كما تقدم ذكره وابن بايخشي الفرغاني وكان عاملا على سيادة أسفل الأرض ووصي لقاطرميز وخصيف البربري مولى أحمد بن طولون.

فلما استقر قرار محمد بن سليمان بحلب وافاه رسول الخليفة بأن يسلم ما كان معه من الأموال والخيل والطرز والذهب وغير ذلك مما كان حمله من مصر إلى من أمر بتسليمه إليه فقدر المقدرون فيه ما حمله من الأموال مع الذي أخذه من الناس ألفي ألف دينار.

وتفرق من كان معه من الجند من المصريين فمنهم من سار إلى العراق، ومنهم من رجع يريد مصر إلى من خلفه من أهله بها فممن رجع إلى مصرشفيع اللؤلئي الخادم ورجل شاب يقال له محمد بن علي الخلنجي من الجند من المصريين ومحمد هذا ممن كان في قيادة صافي الرومي أعني أنه كان مضافه فرجع محمد هذا يريد أهله وولده فخطر له خاطر ففكر فيما حل بآل طولون وإزالة ملكهم وإخراجهم عن أوطانهم فأظهر النصرة لهم والقيام بدولتهم وأعلن ذلك وأبداه وذكر الذي عزم عليه لجماعة من المصريين فبايعوه على ذلك وعضدوه على عصيانه وآنضم عليه شرذمة من المصريين فسار على حمية حتى وافى الرملة في شعبان من سنة اثنتين وتسعين ومائتين فنزل محمد المذكور بمن معه بناحية باب الزيتون وكان بالرملة وصيف بن صوارتكين الأصغر فاستعد لقتاله فقدم وصيف جماعة مع محمد بن يزداد ثم خرج وصيف ببقية جماعته فرأى محمد بن علي الخلنجي المذكور في نفريسير من الفرسان فزحف محمد بن علي الخلنجي بمن معه على وصيف بن صوارتكين فهزمه وقتل رجاله وهرب من بقى بين يديه.

وملك محمد الرملة ودعا على منابرها في يوم الجمعة للخليفة وبعده لإبراهيم بن خمارويه ثم بعدهما لنفسه وتسامع الناس به فوافوه من كل فج لما في نفوسهم من تشتتهم عن بلادهم وأولادهم وأوطانهم وصار الجميع من حزب محمد المذكور من غير بذل دينار ولا درهم وبلغ عيسى النوشري صاحب الترجمة وهوبمصر ما كان من أمر محمد بن علي الخلنجي فجهز عسكرا إلى العريش في أسرع وقت من البحر وساروا حتى وافوا غزة فتقدم إليهم محمد بن علي الخلنجي بمن معه فلما سمعوا به رجعوا إلى العريش فسار محمد الخلنجي بمن معه خلفهم إلى العريش فآنهزموا أمامه إلى الفرما ثم ساروا من الفرما إلى العباسة ونزل محمد الخلنجي الفرما مكانهم فلما سمع عيسى النوشري ذلك خرج من مصر بعسكر ضخم حتى نزل العباسة ومعه أبومنصور الحسين بن أحمد الماذرائي عامل خراج مصر وشفيع اللؤلئي صاحب البريد، ورحل محمد الخلنجي حتى نزل جرجير فلما سمع عيسى النوشري قدومه إلى جرجير كر راجعا إلى مصر ونزل على باب مدينة مصر فأتاه الخبر بقدوم محمد بن علي الخلنجي المذكور فدخل إلى المدينة ثم خرج منها ومعه أبوزنبور وعدا جسر مصر في يوم الثلاثاء رابع عشر في القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ثم أحرق عيسى النوشري جسري المدينة الشرقي والغربي جميعا حتى لم يبق من مراكبهما مركبا واحدا يعني أن الجسر كان معقودا على المراكب وهذه كانت عادة مصر تلك الأيام ونزل عيسى النوشري وأقام ببر الجيزة وبقيت مدينة مصر بلا وال عليها ولاحاكم فيها وصارت مصر مأكلة للغوغاء يهجمون على البيوت ويأخذون الأموال من غير أن يردهم أحد عن ذلك فإن عيسى النوشري ترك مصر وأقام ببر الجيزة خوفا من محمد المذكور فقوي لذلك شوكة محمد الخلنجي واستفحل أمره وسار من جرحير حتى دخل مدينة مصر في يوم سادس عشرين ذي القعدة من السنة من غير ممانع.

وكان محمد المذكور شابا شجاعا مقداماً مكباً على شرب الخمر واللهو عاصياً ظالما ومولده بمدينة مصر ونشأ بها فلما دخلها طاف بها ودخل الجامع وصلى فيه يوم الجمعة ودعا له الإمام على المنبر بعد الخليفة وإبراهيم بن خمارويه ففرح به أهل مصر إلى الغايه وقاموا معه فمهد أمورها وقمع المفسدين وتخلق أهل مصر بالزعفران وخلقوا وجه دابته ووجوه دواب أصحابه فرحا به ولم يشتغل محمد الخلنجي المذكور بشاغل عن بعثه في أثر عيسى النوشري وجهز عسكرا عليه رجل من أصحابه يقال له خفيف النوبي وخفيف من الخفة وأمره باقتفاء أثر عيسى النوشري حيث سلك فخرج خفيف المذكور وتتابع مجيء العساكر إليه في البر والبحر وبلغ عيسى النوشري مسير خفيف إليه فرحل من مكانه حتى وافى

الإسكندرية وخفيف من ورائه يتبعه وأما محمد الخلنجي فإنه قلد وزارته ابن موسى النصراني وقلد أخاه إبراهيم بن موسى على خراج مصر وقلد شرطة المدينة لإبراهيم بن فيروز وقلد شرطة العسكر لعبد الجبارين أحمد بن أعجرة وأقبل الناس إليه من جميع البلدان حتى بلغت عساكره زيادة على خمسين ألفاً وفرض لهم الأرزاق السنية فاحتاج إلى الأموال لإعطاء الرجال وكان في البلد نحو تسعمائة ألف دينار وكانت معبأة في الصناديق للحمل الخليفة وهي عند أبي زنبور وعيسى النوشري صاحب الترجمة فلما خرجا من البلد وزعاها فلم يوجد لها أثر عند أحد بمصر وعمد الحسين بن أحمد إلى جميع علوم دواوين الخراج فأخرجها عن الدواوين قبل خروجه من مصر لئلا يوقف على معرفة أصول الأموال في الضياع فيطالب بها أهل الضياع بما عليهم من الخراج وحمل معه أيضاً جماعة من المتقبلين أعني المدركين والكتاب لئلا يطالبوا بما عليهم من الأموال منهم وهب بن عياش المعروف بابن هانئ، وابن بشر المعروف بابن الماشطة وإسحاق بن نصير النصراني وأبو الحسن المعروف بالكاتب وترك مصر بلا كتاب فلم يلتفت محمد الخلنجي إلى ذلك وطلب المتقبلين وأغلظ عليهم ثم وجد من الكتاب من أوقفه على أمور الخراج وأمر الدواوين ثم قلد لأحمد بن القوصي ديوان الإعطاء وتحول من خيمته من ساحل النيل وسكن داخل المدينة في دار بدر الحمامي التي كان سكنها عيسى النوشري بعد خروج محمد بن سليمان الكاتب من مصر وهي بالحمراء على شاطئ النيل. وأجرى محمد الخلنجي أعماله على الظلم والجور وصادر أعيان البلد فلقي الناس منه شدائد إلا أنه كان إذا أخذ من أحد شيئا أعطاه خطه ويعده أن يرد له ما أخذ منه.

أيام الخراج وأما عيسى النوشري صاحب الترجمة وأبو زنبور الحسين بن أحمد فإنهماأيام الخراج وأما عيسى النوشري صاحب الترجمة وأبوزنبور الحسين بن أحمد فإنهما وصلا بعسكرهما قريب الإسكندرية وخفيف النوبي في أثرهما لا قريبا منهما وكان أبوزنبور قد أرسل المتقلبين والكتاب إلى الإسكندرية ليتحصنوا بها وتابع محمد الخلنجي العساكر إلى نحو خفيف النوبي نجدة له في البر والبحر فكان ممن ندبه محمد الخلنجي محمد ابن المجور في ست مراكب بالسلاح والرجال فسار حتى وافى الإسكندرية في يوم الخميس نصف ذي الحجة وكان بينه وبين أهل الإسكندرية مناوشة حتى دخلها وخلص بعض أولئك المتقبلين والكتاب وحملهم إلى مصر وأخذ أيضاً لعيسى النوشري ولأبي زنبور ما وجلى لهما بالإسكندرية وفرقه على عساكره وأقام بعسكره مواقفا عيسى النوشري خارجا عن الإسكندرية أياما ثم آنصرف إلى مصر وانصرف عيسى النوشري إلى ناحية تروجة فوافاه هناك خفيف النوبي وواقعه فكانت بينهماوقعة هائله انهزم فيها خفيف النوبي وقتل جماعة من أصحابه ولم يزل خفيف في هزيمته إلى

أن وصل إلى مصر بمن بقي معه من أصحابه فلم يكترث محمد الخلنجي بذلك وأخذ في إصلاح أموره وبينما هو في ذلك ورد عليه الخبر بمجيء العساكر إليه من العراق صحبة فاتك المعتضدي وبدر الحمامي وغيرهما فجهز محمد الخلنجي عسكرا لقتال النوشري وقد توجه النوشري نحو الصعيد ثم خرج هو في عساكره إلى أن وصل إلى العريش ثم وقع له مع عساكر العراق وجيوش النوشري وقائع يطول شرحها حتى أجدبت مصر وحصل بها الغلاء العظيم وعدمت الأقوات من كثرة الفتن وطال الأمر حتى ألجأ ذلك إلى عود محمد بن علي الخلنجي إلى مصر عجزا عن مقاومة عساكر العراق وعساكر أبي الأغر بمنية الأصبغ بعد أن واقعهم غير مرة وطال الأمر عليه فلما رأى أمره في إدبار وعلم أن أمره يطول ثم يؤول إلى انهزامه دبر في أمره ما دام فيه قوة فأطلع عليه محمد بن لمجور المقدم ذكره وهوأحد أصحابه وعرفه سرا بأشياء يعملها وأمره أن يركب بعض المراكب الحربية وحمل معه ولده وما أمكنه من أمواله وواطأه على الركوب معه وأمره بأنتظاره ليتوجه صحبته في البحر إلى أي وجه شاء هاربا فشحن محمد بن لمجور مركبه بالسلاح والمال وصار ينتظر محمدا الخلنجي صاحب الواقعة ومحمد الخلنجي يدافع عسكر عيسى النوشري تارة وعسكر الخليفة مرة إلى أن عجز وخرج من مصر إلى نحو محمد بن لمجور حتى وصل إليه فلما رآه محمد بن لمجور قد قرب منه رفع مراسيه وأوهمه أنه يريده فلما دنا منه ناداه محمد ابن علي الخلنجي ليصير إليه ويحمله معه في المركب فلما رآه محمد بن لمجوروسمع نداءه سبه وقال له: مت بغيظك قد أمكن الله منك وتأخر وضرب بمقاذيفه وانحدر في النيل وذلك لما كان في نفس محمد بن لمجور من محمد بن علي الخلنجي مما أسمعه قديما من المكروه والكلام الغليظ فلما رأى محمد الخلنجي خذلان محمد بن لمجور له ولم يتم له الهرب كر راجعاً حتى دخل مدينة مصر وقد انفل عنه عساكره فصار إلى منزل رجل كان يعنى بإخفائه ويأمنه على نفسه ليختفي عنده فخافه المذكور وتركه هارباً وتوجه إلى السلطان فتنصح إليه وأعلمه أنه عنده فركب السلطان وأكابر الدولة والعساكر حتى قبضوا عليه وكان ذلك في صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر رجب من سنة ثلاث وتسعين ومائتين فكانت مدة عصيانه منذ دخل إلى مصر إلى أن قبض عليه سبعة أشهر واثنين وعشريين يوما ودخل فاتك وبحر الحمامي بعساكرهما وعساكر العراق حتى نزلا بشاطىء النيل ثم وافاهم الأمير عيسى النوشري من الفيوم حسبما يأتي ذكره في ترجمته في ولايته الثانية على مصر أعني عوده إلى ملكه بعد الظفر بمحمد بن علي الخلنجي ونزل عيسى بدار فائق، فإن بدرا كان قدم إلى مصر ونزل في داره التي كان النوشري نزل فيها أولا ودعا للخليفة على منابر مصر ثم من بعده لعيسى النوشري هذا وأمور مصر مضطربة إلى غاية ما يكون وقلد عيسى شرطة العسكر لمحمد بن طاهر المغربي

وشرطة المدينة ليوسف بن إسرائيل وتقلد أبو زنبور الخراج على عادته وأخذ النوشري في إصلاح أمور مصر والضياع وتتبع أصحاب محمد الخلنجي من الكتاب والجند وغيرهم وقبض على جماعة كثيرة منهم مثل السري بن الحسين الكاتب وأبي العباس أحمد بن يوسف كاتب ابن الجصاص وكان على نفقات محمد الخلنجي وجماعة أخر يطول الشرح في ذكرهم وأما محمد بن لمجور وكيغلغ وبدر الكريمي وجماعة أخر من أصحاب محمد الخلنجي فإنهم تشتتوا فى البلاد ثم دخل محمد بن لمجور مصر متنكرا فقبض عليه وطيف به ومعه غلام آخر لمحمد الخلنجي ثم عوقب محمد بن لمجورحتى آستخلص منه الأموال ثم جهز الأمير عيسى النوشري محمدا الخلنجي في البحر إلى أنطاكية فخرجوا منها ودخلوا العراق إلى عند الخليفة ثم بعد ذلك ورد كتاب الخليفة على عيسى النوشري في شهررمضان باستقراره في أعمال مصر جميعا قبليها وبحريها حتى الإسكندرية وإلى النوبة والحجاز.

* * *

ولاية محمد بن علي الخلنجي

هو محمد بن علي الخلنجي الأمير أبو عبد الله المصري الطولوني ملك الديار المصرية بالسيف واستولى عليها عنوة من الأمير عيسى بن محمد النوشري وقد مر من ذكره في ترجمة عيسى النوشري ما فيه كفاية عن ذكره هنا ثانيا، غيرأننا نذكره على حدته لكونه ملك مصر وذكره بعض أهل التاريخ في أمراء مصر فلهذا جعلنا له ترجمة مستقلة خوفاً من الاعتراض والاستدراك علينا بعدم ذكره ولما ملك محمد بن علي الخلنجي الديار المصرية مهد البلاد ووطن الناس ووضع العطاء وفرض الفروض فجهز الخليفة المكتفي بالله جيشا لقتاله وعليهم أبوالأغر وفي الجيش الأمير أحمدبن كيغلغ وغيره فخرج إليهم محمد بن علي الخلنجي هذا وقاتلهم في ثالث المحرم من سنة ثلاث وتسعين ومائتين فهزمهم أقبح هزيمة وأسر من جماعة أبي الأغر خلقا كثيرا وعاد أبو الأغر لثمان بقين من المحرم حتى وصل إلى العراق فعظم ذلك على الخليفة المكتفي وجهز إليه العساكر ثانيا صحبة فاتك المعتضدي في البر، وجهز دميانة في البحر فقدم فاتك بجيوشه حتى نزل بالنويرة وقد عظم أمر الخلنجي هذا وأخرج عيسى النوشري عن مصر وأعمالها بأمور وقعت له معه ذكرناها في ترجمة عيسى النوشري ليس لذكرها هنا ثانيا محل ولمابلغ الخلنجي مجيء عسكر العراق ثاني مرة صحبة فاتك، جمع عسكره وخرج إلى باب المدينة وعسكر به وقام بالليل بأربعة آلاف من أصحابه ليبيت فاتكا وأصحابه فضلوا عن الطريق وأصبحوا قبل أن يصلوا إلى النويرة فعلم بهم فاتك فحض أصحابه والتقى مع

الخلنجي قبل أن يصلوا إلى النويرة فتقاتلا قتالا شديداً انهزم فيه الخلنجي بعد أن ثبت ساعة بعد فرار أصحابه عنه ودخل إلى مصر واستتر بها لثلاث خلون من شهر رجب ثم قبض عليه وحبس حسبما ذكرناه في ترجمة النوشري ثم دخل دميانة بالمراكب إلى مصر وأقبل عيسى النوشري من الصعيد ومعه الحسين المادرائي ومن كان معهما من أصحابهما لخمس خلون من رجب المذكورة وعاد النوشري إلى ما كان عليه من ولاية مصر والحسين المادرائي على الخراج وزالت دولة محمد بن علي الخلنجي عن مصر بعد أن حكمها سبعة أشهر واثنين وعشرين يوما كل ذلك ذكرناه في ترجمة النوشري ولم نذكره هنا إلا لزيادة الفائده وأيضاً لما قدمناه في أول ترجمته ثم إن عيسى النوشري قيد محمد بن علي الخلنجي هذا وجماعة من أصحابه وحملهم في البحر إلى أنطاكية ثم منها في البر إلى العراق إلى حضرة الخليفة فأوقف بين يديه فوبخه ثم نكل به وطيف به وبأصحابه على الجمال، ثم قتل شر قتلة وزالت دولته وروحه بعد أن أفسد أحوال الديار المصرية وتركها خرابا يبابا من كثرة الفتن والمصادرات قلت: وأمر محمد هذا من العجائب فإنه أراد أخذ ثأر بني طولون والانتصار لهم غيرة على ما وقع من محمد بن سليمان الكاتب من إفساده الديار المصرية، فوقع منه أيضاً أضعاف ما فعله محمد بن سليمان الكاتب وكان حاله كقول القائل: الخفيف،

رام نفعاً وضر من غير قصد ::: ومن البر ما يكون عقوقا

* * *

عود عيسى النوشري إلى مصر

دخلها بعد آختفاء محمد بن علي الخلنجي بيومين وذلك في خامس شهر رجب سنة ثلاث وتسعين ومائتين ثم دخل فاتك بعساكره إلى مصر في يوم عاشر رجب وتسلم الخلنجي وأرسله في البحر لست خلون من شعبان ووقع ماحكيناه في ترجمته من قتله وإشهاره.

وأما عيسى النوشري فإنه آبتدأ في أول شهر رمضان بهدم ميدان أحمد بن طولون وبيعت أنقاضه بأبخس ثمن وكان هذا الميدان وقصوره من محاسن الدنيا. وقد تقدم ذكر ذلك في عدة أماكن في ترجمة ابن طولون وابنه خمارويه وغير ذلك ودام فاتك بالديار المصرية إلى النصف من جمادى الأولى سنة أربع وتسعين ومائتين و خرج منها إلى العراق.

ثم أمر الأمير عيسى النوشري بنفي المؤنثين من مصر ومنع النوح والنداء على الجنائز وأمر بإغلاق المسجد الجامع فيما بين الصلاتين ثم أمر بفتحه بعد أيام ثم ورد عليه الخبر بموت الخليفة المكتفي بالله علي في ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين فلما سمع

الجند بموت الخليفة شغبوا على عيسى النوشري وطلبوا منه مال البيعة بالخلافة للمقتدر جعفر وظفر النوشري بجماعة منهم ولما استقر المقتدر في الخلافة أقر عيسى هذا على عمله بمصر.

ثم قدم على عيسى زيادة الله أبن أبي العباس عبد الله، بن إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية مهزوما من أبي عبد الله الشيعي في شهر رمضان سنة ست وتسعين ومائتين ونزل بالجيزة وأراد الدخول إلى مصر فمنعه من الدخول إليها فوقع بين أصحابه وبين جند مصر مناوشة وبعض قتال إلى أن وقع الصلح بينهم على أن يعبرها وحده من غير جند فدخلها وأقام بها.

ولم تطل أيام الأمير عيسى بعد ذلك ومرض ولزم الفراش إلى أن مات في يوم السادس والعشرين من شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين وهوعلى إمرة مصر وكانت ولايته على مصر خمس سنين وشهرين ونصف شهر منها ولاية الخلنجي على مصر سبعة أشهر وآثنان وعشرون يوما وقام من بعده على مصر ابنه أبو الفتح محمد بن عيسى إلى أن ولي تكين الحربي وحمل عيسى النوشري إلى القدس ودفن به وكان عيسى هذا أميرا جليلا شجاعا مقداما عارفا بالأمور طالت أيامه في السعادة، وولي الأعمال مثل إمرة دمشق من قبل المنتصر والمستعين وولي شرطة بغداد أيام المكتفي ثم ولي أصبهان والجبال إلى أن ولاه المكتفي إمرة مصر.

* * *

ولاية تكين الأولى على مصر

هو تكين بن عبد الله الحربي الأمير أبومنصور المعتضدي الخزري ولاه الخليفة المقتدر بالله على صلاة مصر بعد موت عيسى النوشري فدعي له بها في يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة سبع وتسعين ومائتين ثم قدم خليفته إلى مصريوم الأربعاء في ثالث عشرين شوال ودام خليفته بها إلى أن قدمها تكين المذكور في يوم ثاني في الحجة من سنة سبع وتسعين ومائتين.

قال صاحب " البغية والاغتباط فيمن ولي الفسطاط: قدم تكين يوم السبت لليلتين خلتا من ذي الحجة موافقا لنا لكنه زاد: في يوم السبت.

وتكين هذا مولى المعتضد بالله نشأ في دولته حتى صارمن جملة القواد ثم ولاه المقتدر دمشق ومصر وأقره عليهما القاهر وكان تكين جبارا مهيبا ولكنه كانت لديه فضيلة وحدث عن القاضي يوسف وغيره ودام تكين على إمرة مصر مدة إلى أن بعث للخليفة في سنة تسع وتسعين ومائتين هدايا

وتحفا وفي جملة الهدايا ضلع إنسان طوله أربعة عشر شبرا في عرض شبر زعموا أنه من قوم عاد وفي جملة الهدايا أيضاً تيس له ضرع يحلب لبنا وخمسمائة ألف دينار ذكر تكين أنه وجدها في كنز بمصر وآستمر تكين بعد ذلك على إمرة مصر حتى خرج عليها جماعة من الأعراب والأحواش فجهز تكين لحربهم جيشا إلى برقة وجعل على الجيش المذكور أبا اليمني وخرج الجيش إلى برقة وكان هؤلاء الأعراب من جملة عساكر المهلي عبيد الله الفاطمي الذي استولى على بلاد المغرب فلما قارب الجيش برقة خرج إليهم حباسة بن يوسف بعساكر المهلي عبيد الله الفاطمي المقدم ذكره وقاتل أبا اليمني المذكور حتى هزمه وآستولى على برقة ثم سار إلى الإسكندرية في زيادة على مائة ألف مقاتل ولما عاد جيش تكين منهزما إلى مصر أرسل تكين إلى الخليفة يطلب منه المدد فأمده الخليفة بالعساكر وفي العسكر حسين بن أحمد الماذرائي وأحمد بن كيغلغ في جمع من القواد وسار الجميع نحو مصر وكان دخول عسكر المهدي إلى الإسكندرية في أول المحرم سنة آثنتين وثلاثمائة. ووصلت عساكر الخليفة من العراق إلى مصر في صفر ونزلت بها فتلقاهم تكين وأكرم نزلهم ثم تهيا تكين بعساكره إلى القتال وخرج هو بعساكر مصر ومعه عساكر العراق وسار الجميع نحو الإسكندرية ونزلوا بالجيزة في جمادى الأولى ثم سار الجميع حتى وافوا حباسة بعساكره وقاتلوه فكانت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها آلاف من الناس من الطائفتين وثبت كل من العسكرين حتى استظهر عسكر الخليفة على جيش حباسة العبيدي الفاطمي وكسره وأجلاه عن الإسكندرية وبرقة وعاد حباسة بمن بقي معه من عساكره إلى المغرب في أسوإ حال وهذا أول عسكر ورد إلى الإسكندرية من جهة عبيد الله المهدي الفاطمي.

ثم عاد تكين إلى مصر بعساكره بعد أن مهد البلاد وعندما قدم تكين إلى مصر وصل إليها بعده مؤنس الخادم مع جمع من القواد أعني الذين قدموا معه من العراق ونزلوا بالحمراء في النصف من شهر رمضان ولقي الناس منهم شدائد إلى أن خرج الأمير أحمد ابن كيغلغ إلى الشأم في شهر رمضان المذكور فلم تطل مدة تكين بعد ذلك على مصر وصرف عن إمرتها في يوم الخميس لأربع عشرة ليلة خلت من ذي القعدة صرفه مؤنس الخادم المقدم ذكره وأرسل إلى الخليفة بذلك فدام تكين بمصر إلى أن خرج منها في سابع من ذي الحجة سنة آثنتين وثلاثمائة وأقام مؤنس الخادم بمصر يدعى له بها ويخاطب بالأستاذ إلى أن ولى الخليفة المقتدر ذكا الرومي إمرة مصر عوضا

عن تكين المذكور فكانت ولايته على مصر خمس سنين وأياماً.

* * *

ولاية ذكا الرومي على مصر

الأمير أبو الحسن ذكا الرومي الأعور ولي إمرة مصر بعد عزل تكين الحربي عن مصر ولاه الخليفة المقتدر على الصلاة فخرج من بغداد وسافر إلى أن قدم مصر في يوم السبت لاثنتي عشرة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة فجعل على الشرطة محمد بن طاهر مدة ثم عزله بيوسف الكاتب وقدم بعده الحسين بن أحمد الماذرائي على الخراج ثم رد محمد بن طاهر على الشرطة ثم بعد قدوم ذكا إلى مصر خرج منها مؤنس الخادم بجميع جيوشه لثمان خلون من شهرربيع الآخر من سنة ثلاث وثلاثمائة وكان ورد على مؤنس كتاب الخليفة المقتدر يعرفه بخروج الحسين بن حمدان عن الطاعة وأن يعود إلى بغداد ويأخذ معه من مصر أعيان القواد مثل أحمد بن كيغلغ وعلي بن أحمد بن بسطام والعباس بن عمرو وغيرهم ممن يخاف منهم ففعل مؤنس ذلك وآستمر ذكا بمصر على إمرتها من غير منازع إلى أن خرج إلى الإسكندرية في أول المحرم سنة أربع وثلاثمائة فلم تطل غيبته عنها وعاد إليها في ثامن شهر ربيع الأول فبلغه أن جماعة من المصريين يكاتبون المهدي فتتبع كل من اتهم بذلك فقبض على جماعة منهم وسجنهم وقطع أيدي أناس وأرجلهم فعظمت هيبته في قلوب الناس ثم أجلى أهل لوبية ومراقية من مصر إلى الإسكندرية خوفا من ابن المهدي صاحب برقة ثم فسد بعد ذلك ما بينه وبين جند مصر والرعية بسبب ذكر الصحابة رضي الله عنهم بما لا يليق نسب القرآن الكريم إلى مقالة المعتزلة وغيرهم وبينما الناس في ذلك قدمت عساكر المهدي عبيد الله الفاطمي من إفريقية إلى لوبية ومراقية وعلى العساكر أبو القاسم فدخل الإسكندرية في ثامن صفر سنة سبع وثلاثمائة وفر الناس من مصر إلى الشأم في البر والبحر فهلك أكثرهم فلما رأى ذكا ذلك تجهز لقتالهم وجمع العساكر وخرج بهم وهم مخالفون عليه فعسكر بالجيزة وكان الحسين بن أحمد الماذرائي على خراج مصر فجدد العطاء للجند وأرضاهم وتهيأ ذكا للحرب وجد في ذلك وحفر خندقاً على عسكره بالجيزة وبينما هوفي ذلك مرض ولزم الفراش حتى مات بالجيزة في عشية الأربعاء لإحدى عشرة خلت من شهرربيع الأول سنة سبع وثلاثمائة فغسل وصفي عليه وحمل حتى دفن بالقرافة وكانت ولايته على مصر أربع سنين وشهرا واحد وتولى تكين الحربي عوضه مصر إمرة ثانية وكان ذكا أميرا شجاعا مقداما وفيه ظلم وجور مع آعتقاد سيىء على معرفة كانت فيه وعقل وتدبير.

السنة الأولى من ولاية ذكاء الرومي

* * *

ولاية تكين الثانية على مصر

وليها من قبل المقتدر بعد موت ذكا الرومي في شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثمائة وسار من بغداد إلى مصر وكان المقتدر قد جهز جيشاً إلى مصر نجدة لذكا وعلى الجيش الأمير إبراهيم بن كيغلغ والأمير محمود بن جمل فدخلوا مصر قبل تكين في شهر ربيع الأول المذكور ثم دخل تكين بعدهم بمدة في حادي عشرين من شعبان من السنة فلما وصل تكين إلى مصر أقر على شرطته ابن طاهر ثم تجهز بسرعة وخرج من الديار المصرية بجيوش مصر والعراق ونزل بالجيزة وحفر بها خندقا ثانيا غير الذي حفره ذكا قبل موته وأما عسكر المغاربة فإن مقدمة القائم ابن المهدي عبيد الله الفاطمي دخلت الإسكندرية في صفر هذه السنة فآضطرب أهل مصر ولحق كثير منهم بالقلزم والحجاز لا سيما لما مات ذكا فلما قدم تكين هذا تراجع الناس ثم إن تكين بلغه أن القائم محمدا قد آعتل بالإسكندرية علة صعبة وكثر المرض في جنده فمات داود بن حباسة ووجوه من القواد، ثم تحاملوا ومشوا إلى جهة مصر فاستمر تكين بمنزلته من الجيزة إلى أن أقبلت عساكر المهدي فاستقبله المذكور فتقاتلا قتالا شديدا آنتصر فيه تكين وظفر بالمراكب في شوال من السنة وتوجهت عساكر المهدي إلى نحو الصعيد وعاد تكين إلى مصر مؤيدا منصورا ودام بها إلى أن حضر إليها مؤنس الخادم في نحو ثلاثة الاف من عساكر العراق في المحرم سنة ثمان وثلاثمائة وخرج تكين إلى الجيزة ثانيا وبعث ابن كيغلغ إلى الأشمونين لقتال عساكر المهدي أعني المغاربة فتوجه إليه ابن كيغلغ المذكور فمات بالبهنسا في أول ذي القعدة. ثم بلغ تكين أن ابن المديني القاضي وجماعة بمصر يدعون إلى المهدي فأخذهم وضرب أعناقهم وحبس أصحابه. وملك أصحاب المهدي الفيوم وجزيرة الأشمونين وعدة بلاد وضعف أمر تكين عنهم فقدم عليه نجدة ثانية من العراق عليها جني الخادم المعروف بالصفواني في ذي الحجة من السنة ثم خرج جني أيضاً بمن معه إلى الجزيرة وتوجه الجميع لقتال عساكر المهدي فكانت بينهم حروب وخطوب بالفيوم الإسكندرية وطال ذلك بينهم أياما كثيرة إلى أن رجع أبو القاسم القائم محمد بن المهدي عبيد الله بعساكره إلى برقة وأقام تكين بعد ذلك مدة وصرفه مؤنس الخا دم عن إمرة مصر في يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شهرربيع الأول من سنة تسع وثلاثمائة وولى مكانه على مصر أبا قابوس محمود بن جمل وكانت ولاية تكين هذه الثانية على مصر نحو السنة وسبعة أشهر تخمينا.

ولاية أبي قابوس محمود على مصر

هو محمود بن جمل أبوقابوس ولاه مؤنس الخادم إمرة مصر بعد عزل تكين عنها لأمر آقتضى ذلك في يوم الأحد ثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة فلم ينجح أمره وخالفت عليه جند مصر استصغارا له فعزله مؤنس بعد ثلاثة أيام في يوم الثلاثاء لست عشرة خلت من شهر ربيع الأول المذكور وعاد الأمير تكين على إمرة مصر لثالث مرة وكانت ولاية محمود هذا على مصر ثلاثة أيام على أنه لم يبت فيها أمرا قلت: ومتى تفرغ للنظر في الأمور؟ فإنه يوم لبس الخلعة جلس فيه للتهاني ويوم عزل للتآسي فإمرته على هذا يوم واحد وهويوم الاثنين فما عسى أن يصنع فيه وكان مؤنس الخادم حضر إلى مصر في عسكر من قبل الخليفة المقتدر سنة ثمان وثلاثمائة فصار يدبر أمرها ويراجع الخليفة.

* * *

ولاية تكين الثالثة على مصر

ولما عزل مؤنس الخادم تكين هذا بأبي قابوس في ثالث عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثمائة بغير جنحة عظم ذلك على المصريين فلم يلتفت مؤنس لذلك وولى أبا قابوس على إمرة مصر عوضه فكثر الكلام في عزل تكين المذكور وولاية أبي قابوس حتى أشيع بوقوع فتنة وتكلم الناس وأعيان مصر مع مؤنس الخادم في أمر تكين وخوفوه عاقبة ذلك وألحوا عليه في عوده فأذعن لهم بذلك وأعاده في يوم الثلاثاء سادس وعشرين من شهر ربيع الأول على رغمه حتى أصلح من أمره ما دبره من أمر المصريين وقرر مع القواد ما أراده من عزل تكين المذكور عن إمرة مصر ولا زال بهم حتى وافقه الجميع فلما رأى مؤنس أن الذي رامه تم له عزله بعد أربعة أيام من ولايته وذلك في يوم تاسع وعشرين من شهر ربيع الأول وهويوم سلخه من سنة تسع وثلاثمائة ثم بدا لمؤنس إخراج تكين هذا من الديار المصرية خوف الفتنة فأخرجه منها إلى الشأم في أربعة آلاف من أهل الديوان وبعث مؤنس إلى الخليفة يعرفه بمافعل فلما بلغ الخليفة ذلك ولى على مصر الأمير هلال بن بدر الآتي ذكره وأرسله إلى الديار المصرية.

* * *

ولاية هلال بن بدر على مصر

هو هلال بن بدر الأمير أبو الحسن ولي إمرة مصر بعد عزل تكين عنها في شهر ربيع الآخر أعني من دخوله إلى مصر فإنه قدمها في يوم الاثنين لست خلون من شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثلاثمائة والاه الخليفة المقتدر على الصلاة ولما دخل إلى مصر أقر أبن طاهر على الشرطة ثم صرفه بعد مدة بعلي بن فارس وكان هلال هذا لما قدم إلى مصر جاء معه كتاب الخليفة المقتدر لمؤنس بخروجه من مصر وعوده إلى بغداد فلما وقف مؤنس على كتاب الخليفة تجهز وخرج من الديار المصرية بعساكر العراق ومعه محمود بن جمل الذي كان ولي مصر. وكان خروج مؤنس من مصر في يوم ثامن عشر من شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثلاثمائة المذكورة وأقام هلال بن بدر المذكور على إمرة مصر وأحوالها مضطربة إلى أن خرج عليه جماعة من المصريين وأجمعوا على قتاله وتشغبت الجند أيضاً ووافقوهم على حربه وانضم الجميع بمن معهم وخرجوا من الديار المصرية إلى منية الأصبغ ومعهم الأمير محمد بن طاهر صاحب الشرطة ولما بلغ هلالا هذا أمرهم تهيأ وتجهز لقتالهم وجمع من بقي من جند مصر وطلب المقاتلة وأنفق فيهم وضمهم إليه وجهزهم ثم خرج بهم وحواشيه إلى أن وافاهم وقاتلهم أياما عديدة وطال الأمر فيما بينه وبينهم ووقع له معهم حروب وكثر القتل والنهب بينهم وفشا الفساد وقطع الطريق بالديار المصرية فعظم ذلك على أهل مصر لا سيما الرعية وضعف ابن هلال هذا عن إصلاح أحوال مصر فصار كلما سد أمرا انخرق عليه آخر فكانت أيامه على مصر شر أيام ولما تفاقم الأمر عزله الخليفة المقتدر ربا لله جعفر عن امرة مصر بالأمير أحمد بن كيغلغ فكانت ولاية هلال المذكور على مصر سنتين وأياما قاسى فيها خطوبا وحروبا ووقائع وفتنا إلى أن خلص كفافا لا له عليه.

* * *

ولاية أحمد بن كيغلغ الأولى على مصر

هو أحمد بن كيغلغ الأمير أبوالعباس ولاه المقتدر إمرة مصر بعد عزل هلال بن بدر عنها في شهر ربيع الآخر سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فلما وليها قدم ابنه العباس خليفته على مصر فدخلها العباس المذكور في مستهل جمادى الأولى من سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فأقر ابن منجور على الشرطة ثم قدم أحمد بن كيغلغ إلى مصر ومعه محمد بن الحسين بن عبد الوهاب المادرائي على الخراج ولما دخلا إلى مصر أحضرا الجند ووضعا العطاء لهم وأسقطا كثيراً من الرجالة وكان ذلك بمنية الأصبغ فثار الرجالة ففر أحمد بن كيغلغ منهم إلى فاقوس وهرب المادرائي ودخل المدينة لثمان خلون من شوال وأما الأمير أحمد بن كيغلغ هذا فإنه أقام بفاقوس إلى أن صرف عن إمرة مصر بتكين في ثالث ذي القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة فكانت ولايته على مصر نحوا من سبعة أشهر وتولى تكين مصر عوضه وهي ولايته الرابعة على مصر وشق ذلك على الخليفة غير أنه أطاع الجند وأرضاهم واستمالهم مخافة من عساكر المهدي الفاطمي فإن عساكره تداول تحكمهم إلى نحو الديار المصرية في كل قليل وصار أمير مصر في حصر من أجل ذلك وهو محتاج إلى الجند وغيرهم لأجل القتال والدفع عن الديار المصرية. قلت ويأتي بقتة ترجمة أحمد بن كيغلغ هذا في ولايته الثانية على مصر إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية تكين الرابعة على مصر

قد تقدم ذكره في ولايته على مصر وأنه صرف عن إمرة مصر في النوبة الثالثة بهلال ابن بدر ثم ولي بعد هلال بن بدر الأمير ابن كيغلغ فلما وقع لابن كيغلغ ما وقع من خروج جند مصر عليه واضطربت أحوال الديار المصرية وبلغ الخليفة المقتدر ذلك صرف أبن كيغلغ وأعاد تكين هذا على إمرة مصر رابع مرة ووصل رسول تكين هذا إلى مصر بإمرته يوم الخميس لثلاث خلون من ذي القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة وخلفه ابن منجور على الصلاة إلى أن قدم مصر في يوم عاشوراء من سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة فأقر ابن منجور على الشرطة ثم عزله وولى قراتكين ثم عزل قراتكين وولى وصيفا الكاتب ثم عزله أيضاً وولى بجكم الأعور كل ذلك من اضطراب المصريين حتى مهد أمور الديار المصرية ولكن أسقط كثيرا من الجند وكانوا أهل شر ونهب ويفاق ثم نادى ببراءة الذمة ممن أقام منهم بالديار المصرية بعد ذلك فخرج الجميع على حمية وأجمعوا على قتله فتهيأ

تكين أيضاً لقتالهم وجمع العساكر وصلى الجمعة بدار الإمارة بالعسكر وترك حضور الجماعة خوفاً من وقوع فتنة ولم يصل قبله أحد من الأمراء بدار الإمارة الجمعة وأنكر عليه أبو الحسن علي بن محمد الدينوري ذلك وأشياء أخر وبلغ تكين ذلك فأمر بإخراج الدينوري من مصر إلى القدس فخرج منها ولم يقع له مع الجند ماراموا من القتال وأخذ في تمهيد مصر إلى أن حسن حالها وتمكنت قدمه فيها ورسخت حتى ورد عليه الخبر بموت الخليفة المقتدر في شوال سنة عشرين وثلاثمائة وبويع بالخلافة من بعده أخوه القاهر بالله محمد فأقر القاهر تكين هذا على عمله بمصر وأرسل إليه بالخلع ودام تكين على ذلك حتى مرض ومات بها في يوم السبت لست عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة وحمل في تابوت إلى بيت المقدس فدفن به وتولى مصر بعده محمد بن طغج وكانت ولاية تكين هذه المرة على مصر تسع سنين وشهرين وخمسة أيام وكان تكين المذكور يعرف بتكين الخاصة وبالخزري وكان أميرا عاقلا شجاعا عارفا مدبرا ولي الأعمال الجليلة وطالت أيامه في السعادة وكان عنده سياسة ودربة بالأمور ومعرفة بالحروب رضي الله عنه.

* * *

ولاية محمد بن طغج الأولى

هو محمد بن طغج بن جف بن يلتكين بن فوران بن فورى الأمير أبو بكر الفرغاني التركي مولده في يوم الاثنين منتصف شهر رجب سنة ثمان وستين ومائتين ببغداد بشارع باب الكوفة ولي إمرة مصر بعد موت تكين ولاه أمير المؤمنين القاهر بالله على الصلاة بعد أن آضطربت أحوال الديار المصرية وخرج ابن تكين منها في سادس عشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة فأرسل محمد بن طغج هذا كتابه بولايته على مصر في سابع شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة المذكورة ولم يدخل مصر في هذه الولاية وما دخلها أميرا عليها إلا في ولايته الثانية من قبل الخليفة الراضي بالله.

وقال ابن خلكان بعدما سماه وأباه إلى أن قال الفرغاني الأصل صاحب سرير الذهب المنعوت بالإخشيد صاحب مصر والشام والحجاز أصله من أولاد ملوك فرغانة وكان المعتصم بالله بن هارون الرشيد قد جلبوا إليه من فرغانة جماعة كثيرة فوصفوا له جف وغيره بالشجاعة والتقدم في الحروب

فوجه إليهم المعتصم من أحضرهم فلما وصلوا إليه بالغ في إكرامهم وأقطعهم قطائع بسر من رأى وقطائع جف إلى الآن معروفة هناك فلم يزل جف بها إلى أن مات ليلة قتل المتوكل انتهى كلام ابن خلكان قلت ودير له على منابر مصر وهو مقيم بدمشق نحوا من ثلاثين يوماً وقال صاحب البغية: اثنين وثلاثين يوماً إلى أن قدم رسول الأمير أحمد بن كيغلغ بولايته على مصر ثاني مرة من قبل الخليفة القاهر بالله في تاسع شوال من السنة وأما الأيام التي قبل ولاية محمد بن طغج على مصر فكان يحكم فيها ابن تكين باستخلاف والده تكين له ويشاركه في ذلك أيضاً الماذرائي صاحب خراج مصر المقدم ذكره.

وفي ولاية محمد بن طغج هذا على مصر ثانيا على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى لقب بالإخشيذ والإخشيذ بلسان الفرغانة ملك الملوك وطغج عبد الرحمن والإخشيذ لقب ملوك فرغانة كما أن أصبهبذ لقب ملوك طبرستان وصول لقب ملوك جرجان وخاقان لقب ملوك الترك والأفشين لقب ملوك أشروسنة وسامان لقب ملوك سمرقند وقيصر لقب ملوك الروم وكسرى لقب ملوك العجم والنجاشي والحطي لقب ملوك الحبشة وفرعون قديمالقب ملوك مصروحديثاً السلطان.

ولما مات جده جف في سنة سبع وأربعين ومائتين اتصل ابنه طغج أبو محمد هذا بالأمير أحمد بن طولون صاحب مصر وكان من أكابر قواده ودام على ذلك حتى قتل خمارويه بن أحمد بن طولون فسارطغج إلى الخليفة المكتفي بالله علي فأكرم الخليفة مورده ثم بدا من طغج المذكور تكبرعلى الوزيرفحبس هووابنه محمد إلى أن مات طغج المذكورفي الحبس وبعد مدة أخرج محمد هذا من الحبس وجرت له أمور يطول شرحها إلى أن قدم مصر في دولة تكين وولي الأحواف بأعمال مصر وأقام على ذلك مدة إلى أن وقع بينه وبين تكين وخرج من مصر مختفيا إلى الشام ثم ولي إمرة الشام ثم أضيف إليه إمرة مصر فلم يدخلهاعلى ما تقدم ذكره وعزل بالأمير أحمد بن كيغلغ. وتأتي بقية ترجمته في ولايته الثانية على مصر إن شاء الله تعالى.

* * *

ولاية أحمد بن كيغلغ الثانية

ولي أحمد بن كيغلغ المذكور مصر ثانيا من قبل القاهرمحمد لما اضطربت أحوال الديار المصرية بعد عزل الأمير محمد بن طغج بن جف في آخر شهر رمضان وقدم رسوله إلى الديار المصرية بولايته لتسع خلون من شوال سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة واستخلف ابن كيغلغ المذكور أبا الفتح محمد بن عيسى النوشري على مصر فتشغب عليه الجند في طلب أرزاقهم وطلبوا ذلك من الماذرائي صاحب خراج مصر فاستتر الماذرائي منهم فأحرقوا داره ودورأهله ووقعت فتنة عظيمة وحروب قتل فيها جماعة كثيرة من المصريين ودامت الفتنة إلى أن قدم محمد بن تكين إلى مصر من فلسطين لثلاث عشرة خلت من شهر جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فظهر الماذرائي صاحب الخراج وأنكر ولاية ابن تكين على مصر فتعصب لمحمد المذكور جماعة من المصريين ودعي له بالإمارة على المنابر ووقع بين الناس بسبب ذلك وصاروا فرقتين فرقة تنكر ولاية محمد بن تكين وتثبت ولاية أحمد بن كيغلغ وفرقة تتعصب لمحمد بن تكين وتنكرولاية ابن كيغلغ ووقع بسبب ذلك فتن وخرج منهم قوم إلى الصعيد فيهم ابن النوشري خليفة ابن كيغلغ وغيره وأمر ابن النوشري عليهم وهم مستمرون في الدعاء لابن كيغلغ فكانت حروب كثيرة بديار مصر بسبب هذا الاختلاف إلى أن أقبل الأمير أحمد بن كيغلغ ونزل بمنية الأصبغ في يوم ثالث شهر رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة فلما وصل ابن كيغلغ لحق به كثير من أصحاب محمد بن تكين فقوي أمره بهم فلما رأى محمد بن تكين أمره في إدبار فر ليلا من مصر ودخلها من الغد الأميرأحمد بن كيغلغ وذلك لست خلون من شهر رجب فكان مقام ابن تكين على مصرفي هذه الأيام مائة يوم واثني عشر يوما وهو غير وال بل متغلب عليها وكان المتولي من الخليفة في هذه المرة ابن كيغلغ المذكورغير أنه كان قد تأخرعن الحضور إلى الديار المصرية لأمر ما ولما دخل ابن كيغلغ إلى مصر وأقام بها أقر بجكم الأعور على شرطة مصر ثم عزله بعد أيام بالحسين بن علي بن معقل مدة ثم أعيد بجكم وأخذ ابن كيغلغ في إصلاح أمر مصر والنظر في أحوالها وفي أرزاق الجند ومع هذه الفتن التي مرت كان بمصر في هذه السنة والماضية زلازل عظيمة خربت فيها عدة بلاد ودور كثيرة وتساقطت عدة كواكب وبينما أحمد بن كيغلغ في إصلاح أمر مصر ورد عليه الخبر بخلع الخليفة القاهر بالله وتولية الراضي بالله محمد بن المقتدر جعفر فلما بلغ محمد بن تكين تولية

الراضـي بـالله عـاد إلـى مصـر بجموعـه وأظهـر أن الراضـي ولاه مصـر فخـرج إليـه عسـكر مصـر وأعـوان أحمـد بـن كيغلـغ وحـاربوه فيمـا بـين بلبـيس وفـاقوس شـرقي مصـر فكانـت بيـنهم مقتلـة انكسـر فيهـا محمـد بـن تكـين وأسـر وجـيء بـه إلـى الأميـر أحمـد بـن كيغلـغ المـذكور فحملـه ابـن كيغلـغ إلـى الصـعيد وآسـتقامت الأمـور بمصـر لأحمد بـن كيغلـغ وبعـد ذلـك بمـدة يسـيرة ورد كتـاب الخليفـة بخبـر ولايـة الأميـر محمـد بـن طغـج علـى مصـر وعـزل أحمـد بـن كيغلـغ هـذا عنهـا وأن محمـد بـن طغـج واصـل إليهـا عـن قريـب فـأنكر ابـن كيغلـغ ذلـك وتهيـأ لحربـه وجهـز إليـه عسـاكر مصـر ليمنعـوه مـن الـدخول إلـى الفرمـا فأقبلـت مراكـب محمـد بـن طغـج مـن البحر إلـى تنـيس وسـارت مقدمتـه فـي البـر والتقـوا مـع عسـاكر أحمـد بـن كيغلـغ فكانـت بيـنهم وقعـة هائلـة وقتـال شـديد فـي سـابع عشـر شـعبان سـنة ثـلاث وعشـرين وثلاثمائـة فانكسـر أصـحاب ابـن كيغلـغ وأقبلـت مراكـب محمـد بـن طغـج إلـى ديـار مصـر فـي سلخ شـعبان فسلم أحمـد بـن كيغلـغ الأمـر إلـى محمـد بـن طغـج مـن غيـر قتـال واعتـذر أنـه مـا قاتلـه إلا جنـد مصـر بغيـر إرادتـه وملـك محمـد بـن طغـج ديـار مصـر وهـي ولايتـه الثانيـة عليهـا وكانـت ولايـة ابـن كيغلـغ علـى مصـر فـي هـذه المـرة الثانيـة سـنة واحـدة وأحـد عشر شهرا تنقص أياما قليلة

* * *

ولاية محمد بن طغج الإخشيد الثانية

الإخشيذ محمد بن طغج بن جف الفرغاني وليها ثانيا من قبل الخليفة الراضي بالله محمد على الصلاة والخراج بعد عزل الأمير أحمد بن كيغلغ عنها بعد أمور وقعت تقدم ذكر بعضها في ترجمة ابن كيغلغ ودخل الإخشيذ هذا إلى مصر أميرا عليها بعد أن سلم الأمير أحمد بن كيغلغ في يوم الخميس لست بقين من شهر رمضان وقال صاحب البغية لخمس بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة وأقر على شرطته سعيد بن عثمان ثم ورد عليه بالديار المصرية أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بالخلع من الخليفة الراضي بالله بولايته على مصر فلبسها وقبل الأرض ورسم الخليفة الراضي بالله بأن يزاد في ألقاب الأمير محمد هذا الإخشيذ في شهر رمضان سنة سبع وعشرين وثلاثمائة وقد تقدم ذكر ذلك في ولايته الأولى على مصر وما معنى الإخشيذ فزيد في ألقابه ودعي له بذلك على منابر مصر وأعمالها.

ثم وقع بين الإخشيذ هذا وبين أصحاب أحمد بن كيغلغ فتنة وكلام أدى ذلك للقتال والحرب ووقع بينهما قتال فانكسر في آخره أصحاب ابن كيغلغ وخرجوا من مصر

على أقبح وجه وتوجهوا إلى برقة ثم خرجوا من برقة وصاروا إلى القائم بأمر الله بن المهدي عبيد الله العبيدي بالمغرب حرضوه على أخذ مصر وهونوا عليه أمرها وكان في نفسه من ذلك شيء فجهز إليها الجيوش لأخذها وبلغ محمد بن طغج الإخشيذ ذلك فتهيأ لقتالهم وجمع العساكر وجهز الجيوش إلى الإسكندرية والصعيد.

وبينما هو في ذلك إذ ورد عليه كتاب الخليفة يعرفه بخروج محمد بن رائق ولما بلغه حركة محمد بن رائق ومجيئه إلى الشامات عرض الإخشيذ عساكره وجهز جيشا في المراكب لقتال ابن رائق ثم خرج هوبعد ذلك بنفسه في المحرم سنة ثماني وعشرين وثلاثمائة وسار من مصر بعد أن آستخلف أخاه الحسن بن طغج على مصر حتى نزل الإخشيذ بجيوشه إلى الفرما وكان محمد بن رائق بالقرب منه فسعى بينهما الحسن بن طاهربن يحيى العلوي في الصلح حتى تم له ذلك وأصطلحا وعاد الإخشيذ إلى مصرفي مستهل جمادى الأولى من سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

وبعد قدوم الإخشيد إلى مصرآنتفض الصلح وسار محمد بن رائق من دمشق في شعبان من السنة إلى نحو الديار المصرية وبلغ ذلك الإخشيذ فتجهز وعرض عساكره وأنفق فيهم وخرج بجيوشه من مصر لقتال محمد بن رائق في يوم السادس عشر من شعبان وساركل منهما بعساكره حتى التقيا بالعريش وقال أبو المظفر في مرآة الزمان باللجون فكانت بينهما وقعة عظيمة انكسرت فيها ميمنة الإخشيذ وثبت هو في القلب ثم حمل هو بنفسه على أصحاب محمد بن رائق حملة شديدة فأسر كثيراً منهم وأمعن في قتلهم وأسرهم وقتل أخوه الحسين بن طغج في الحرب وافترق العسكران وعاد كل واحد إلى محل إقامته فمضى ابن رائق نحو الشام وعاد الإخشيذ إلى الرملة بخمسمائة أسير ثم تداعيا إلى الصلح وكان لما قتل الحسين بن طغج أخو الإخشيذ في المعركة عز ذلك على محمد بن رائق وأخذه وكفنه وحنطه وأنفذ معه ابنه مزاحما إلى الإخشيذ وكتب معه كتاباً يعزيه فيه ويعتذر إليه ويحلف له أنه ما أراد قتله وأنه أرسل ابنه مزاحما إليه ليفتديه بالحسين بن طغج إن أحب الإخشيذ ذلك فاستعاذ الإخشيذ بالله من ذلك واستقبل مزاحما بالرحب والقبول وخلع عليه وعامله بكل جميل ورده إلى أبيه واصطلحا على أن يفرج محمد بن رائق للإخشيذ عن الرملة ويحمل إليه الإخشيذ في كل سنة مائة وأربعين ألف دينار ويكون باقي الشام في يد ابن رائق وأن كلا منهما يفرج عن أسارى الآخر فتم ذلك.

وعاد الإخشيذ إلى مصر فدخلها لثلاث خلون من المحرم سنة تسع وعشرين وثلاثمائة وعاد محمد بن رائق إلى دمشق فلم تطل مدة الإخشيذ بمصر إلا

وورد عليه الخبر من بغداد بموت الخليفة الراضي بالله في شهر ربيع الآخر من السنة وأنه بويع أخوه المتقي بالله إبراهيم بن المقتدر جعفر بالخلافة وكان ورود هذا الخبر على الإخشيذ بمصر في شعبان من السنة وأن المتقى أقر الإخشيذ هذا على عمله بمصر فاستمر الإخشيذ على عمله بمصر بعد ذلك مدة طويلة إلى أن قتل محمد بن رائق في قتال كان بينه وبين بني حمدان بالموصل في سنة ثلاثين وثلاثمائة فعند ذلك جهز الإخشيذ جيوشه إلى الشام لما بلغه قتل محمد بن رائق ثم سار هو بنفسه لست خلون من شوال سنة ثلاثين وثلاثمائة المذكورة واستخلف أخاه أبا المظفر الحسن بن طغج على مصر وسار الإخشيذ حتى دخل دمشق وأصلح أمورها وأقام بها مدة ثم خرج منها عائدا إلى الديار المصرية حتى وصلها في ثالث عشر من جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ونزل البستان الذي يعرف الآن بالكافوري داخل القاهرة ثم آنتقل بعد أيام إلى داره وأخذ البيعة على المصريين لابنه أبي القاسم أنوجوروعلى جميع القواد والجند وذلك في آخر ذي القعدة.

ثم وقع وحشة بين الإخشيذ وبين سيف الدولة ثانيا وجهز الإخشيذ الجيوش لحربه وعلى الجيوش خادمه كافور الإخشيذي وفاتك الإخشيذي ثم خرج الإخشيذ بعدهما من مصر في خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وآستخلف أخاه أبا المظفر الحسن ابن طغج على مصر وسار الإخشيذ بعساكره حتى لقي سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان بقنسرين وحاربه فكسره وأخذ منه حلب ثم بلغه خلع المستكفي من الخلافة وبيعة المطيع لله الفضل في شوال سنةأربع وثلاثين وثلاثمائة وأرسل المطيع إلى الإخشيذ باستقراره على عمله بمصر والشام فعاد الإخشيذ إلى دمشق فمرض بها ومات في يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة وولي بعده آبنه أبو القاسم أنوجور بآستخلاف أبيه له فكانت مدة ولاية الإخشيذ على مصر في هذه المرة الثانية إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ويومين.

والإخشيذ بكسر الهمزة وسكون الخاء المعجمة وكسر الشين المعجمة وبعدها ياء ساكنة مثناة من تحتها ثم ذال معجمة وتفسيره بالعربي: ملك الملوك وطغج بضم الطاء المهملة وسكون الغين المعجمة وبعدها جيم وجف بضم الجيم وفتحها وبعدها فاء مشددة.

وكان الإخشيذ ملكا شجاعاً مقداماً حازما متيقظا حسن التدبير عارفا

بالحروب مكرما للجند شديد البطش ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجرقوسه وله هيبةعظيمة في قلوب الرعية وكان متجملا في مركبه وملبسه وكان موكبه يضاهي موكب الخلافة وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك وكان عدة جيوشه أربعمائة ألف وكان قوي التحرزعلى نفسه وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك ويوكل الخدم بجوانب خيمته ثم لايثق بأحد حتى يمضي إلى خيمة الفراشين فينام فيها وعاش ستين سنة وخلف أولادا ملوكا وهوأستاذ كافور الإخشيذي الآتي ذكره قال الذهبي وتوفي بدمشق في ذي الحجة عن ست وستين سنة ونقل فدفن ببيت المقدس الشريف ومولده ببغداد وقال ابن خلكان: ولم يزل في مملكته وسعادته إلى أن توفي في الساعة الرابعة يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة انتهى.

* * *

ولاية أنوجور بن الإخشيذ

هو أنوجور بن الإخشيذ محمد بن جف الأمير أبو القاسم الفرغاني التركي وأنوجور اسم أعجمي غير كنية معناه باللغة العربية محمود ولي مصر بعد وفاة أبيه الإخشيد في يوم الجمعة لثمان بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ولاه الخليفة المطيع لله على مصر والشام وعلى كل ماكان لأبيه من الولاية فإنه كان أبوه استخلفه وجعله ولي عهده فأقرة الخليفة على ماعهده له أبوه ولما ثبت أمر أنوجور المذكور صار الخادم كافور الإخشيذي مدبر مملكته فكان كافور يطلق في كل سنة لابن أستاذه أنوجور هذا أربعمائة ألف دينار ويتصرف كافور فيما يبقى ثم قبض كافور على أبي بكر محمد بن علي بن مقاتل صاحب خراج مصر في يوم ثالث المحرم سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة وولى مكانه على الخراج محمد بن علي الماذرائي ولما تم أمر أنوجور بدمشق خرج منها وصحبته الأستاذ كافور الإخشيذي إلى مصر فدخله بعساكره في أول صفر فأقام بها مدة ثم خرج منها بعساكره إلى الشام أيضاً لقتال سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان فإن سيف الدولة كان بعد خروج أنوجور من دمشق ملكها ولما خرج أنوجور من مصر إلى الشام في هذه المرة خرج معه عمه الحسن بن طغج أخو الإخشيذ ومدبر دولته الخادم كافور الإخشيذي فخرج سيف الدولة من دمشق وتوجه نحو الديار المصرية حتى وصل إلى الرملة فالتقى مع المصريين فكان بينهم وقعة هائلة انكسر

فيها سيف الدولة وانهزم إلى الشام فسار المصريون وراءه فآنهزم إلى حلب فساروا خلفه فانهزم إلى الرقة وقال المسبحي: كان بين سيف الدولة وبين أبي المظفر الحسن بن طغج وهوأخو الإخشيذ قلت ذكر المسعودي الحسن هذا لصغر سن أنوجور وقعة باللجون فانكسر سيف الدولة ووصل إلى دمشق بعد شده وتشتت وكانت أمه بدمشق فنزل بالمرج خائفا وأخرج حواصله وسار نحو حمص على طريق قارة وسار أخو الإخشيذ وكافور الإخشيذي إلى دمشق واستقر أمرهم على الصلح على أن يعود سيف الدولة إلى ماكان بيده من حلب وغيرها وأقر أنوجور يأنس المؤنسي على عادته في إمرة دمشق فإنه كان أولا انهزم من سيف الدولة وسلمه دمشق بالأمان وعاد أنوجور وعمه الحسن بن طغج وكافور الإخشيذي إلى الديار المصرية سالمين. ولما كان أنوجور بالشام خرج بمصر غلبون متولي الريف في جموع ونهب مصر وتغلب عليها فقدم أنوجور فهرب غلبون من مصر فتبعه أبوالمظفر الحسن بن طغج أخو الإخشيذ حتى ظفر به وقتله.

ثم آستوزر أنوجور أبا القاسم جعفر بن الفضل بن الفرات ودام أنوجور على إمرة مصر سنين إلى أن وقع بينه وبين كافور وحشة في سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة وسببها أن قوما كلموا أنوجور وقالوا له: قد احتوى كافور على الأموال وانفرد بتدبير الجيوش وأخذ أملاك أبيك وأنت معه مقهور وحملوه على التنكر فلزم أنوجور الصيد والتباعد فيه إلى المحلة وغيرها وانهمك في اللهو ثم أجمع على المسير إلى الرملة فأعلمت أمه كافورا بما عزم عليه ولدها خوفا عليه من كافور فلما علم كافور بذلك راسله ثم بعثت أمه إليه تخوفه الفتنة فآصطلحا ودام الأمر على حاله ولم يزل أنوجور على إمرة مصر إلى أن مات بها في يوم السبت سابع أو ثامن من ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وحمل إلى القدس فدفن عند أبيه الإخشيذ وكانت مدة ولايته على مصر أربع عشرة سنة وعشرة أيام ولما مات أنوجور أقام كافور الإخشيذي أخاه عليا أبا الحسين بن الإخشيذ مكانه وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج وأضاف إليه الشام كما كان لأبيه الإخشيذ ولأخيه أنوجور وقويت شوكة كافور في ولاية علي هذا أكثر مما كانت في ولاية أخيه لوجوه عديدة.

* * *

ولاية علي بن الإخشيد

هوعلي بن الإخشيذ محمد بن طغج بن جف الأميرأبو الحسن الفرغاني التركي ولي سلطنة مصر بعد موت أخيه أنوجور بن الإخشيذ محمد في يوم السبت عشرين ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة أقامه خادمه كافور الإخشيذي الخصي في مملكة مصر باتفاق حواشي والده والجند وأقره الخليفة المطيع لله على ذلك وصار كافورالإخشيذي هو القائم بتدبير مملكته والمتصرف فيها كما كان أيام أخيه أنوجور وجمع له الخليفة جميع ما كان لأبيه وأخيه من أعمال الديار المصرية والممالك الشامية والثغور والحرمين الشريفين وأطلق كافور لعلي هذا في السنة ما كان يطلقه لأخيه أنوجور وهوفي كل سنة أربعمائة ألف دينار وقويت شوكة كافوربعد موت أنوجور وتولية علي هذا أعظم مما كانت أيام أنوجور ومولد علي. المذكورأعني صاحب الترجمة لأربع بقين من صفر سنة ست وثلاثمائة وفى دام علي هذا في الملك وله الاسم فقط والمعنى لكافور إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة ووقع بمصر الغلاء واضطربت أمور الديار المصرية والإسكندرية بسبب المغاربة أعوان الخلفاء الفاطميين الواردين إليها من المغرب وتزايد الغلاء وعز وجود القمح، ثم قدم القرمطي إلى الشام في سنة آثنتين وثلاثمائة ووقع لها بأمور وعجز المصريين عن دفعه عنها لشغلهم بالغلاء والمغاربة الفاطميين ومع هذا قل ماء النيل في هذه السنين فارتفعت الأسعار أكثر مما كانت عليه ووهنت ضياع مصر وقراها من عدم زيادة النيل وعظم الغلاء وكثرت الفتن وسار ملك النوبة إلى أسوان ووصل إلى إخميم وقتل ونهب وسبى وأحرق وعظم آضطراب أعمال الديارالمصرية قبليها وبحريها ثم فسد ما بين علي بن الإخشيذ صاحب مصر وبين مدبرمملكته، كافور الإخشيذي ومنع كافورالناس من الاجتماع به حتى اعتل علي المذكور بعلة أخيه أنوجورومات لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة وحمل إلى بيت المقدس ودفن عند أبيه الإخشيذ وأخيه أنوجور وبقيت مصر من بعده أياماً بغير أمير وكافور يدبر أمرها على عادته في أيام أولاد الإخشيذ ومعه أبو الفضل جعفر بن الفرات. ثم ولي كافور إمرة مصر بآتفاق أعيان الديارالمصرية وجندها وكانت مدة سلطنة علي بن الإخشيذ المذكور على مصر خمس سنين وشهرين ويومين.

* * *

ولاية كافور الإخشيذي

الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيذي، الخادم الأسود الخصي، صاحب مصر والشام والثغور، اشتراه سيده أبو بكر محمد الإخشيذ بثمانية عشر ديناراً من الزياتين، وقيل: من بعض رؤساء مصر، ورباه وأعتقه، ثم رقاه حتى جعله من كبار القواد لما رأى منه الحزم والعقل وحسن التدبير. ولما مات الإخشيذ في سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة، أقام كافور هذا أبناءه واحداً بعد واحد. وكان الذي ولي أولاً أبا القاسم أنوجور بن الإخشيذ ومعنى أنوجور بالعربية محمود وقد تقدم ذلك كله. فدام أنوجور في الملك إلى أن مات في يوم السبت لثمان خلون من ذي القعدة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة. ثم بعد موت أنوجور أقام أخاه أبا الحسن علي بن الإخشيذ كما تقدم ذكر ذلك كله في ترجمتهما. وكان كافور هذا هو مدبر ملكهما. ودخل كافور في أيام ولايتهما في ضمان البلاد مع الخليفة، ووفى بما ضمنه.

ولما مات الإخشيذ اضطربت أحوال الديار المصرية، فخرج كافور منها بابني الإخشيذ وتوجه بهما إلى الخليفة المطيع لله، وأصلح أمرهما معه، والتزم كافور للخليفة بأمر الديار المصرية، ثم عاد كافور بهما إلى الديار المصرية. وكان غلبون قد تغلب على مصر بعد موت الإخشيذ في غيبة كافور لما توجه إلى العراق، فقدم كافور إلى مصر وتهيأ لحرب غلبون المذكور وحاربه وظفر به وقتله، وأصلح أحوال الديار المصرية، واستمر مدبرها إلى أن مات أنوجور وتولى أخوه علي ثم مات علي أيضاً في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، واستقل كافور بالأمر وخطب له على المنابر وتم أمره.

وقال أبو جعفر مسلم بن عبيد الله بن طاهر العلوي النسابة: ما رأيت أكرم من كافور! كنت أسايره يوماً وهو في موكب خفيف يريد التنزه وبين يديه عدة جنائب بمراكب ذهب وفضة وخلفه بغال المراكب، فسقطت مقرعته من يده ولم يرها ركابيته، فنزلت عن دابتي وأخذتها من الأرض ودفعتها إليه، فقال: أيها الشريف، أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت هذا وكاد يبكي، فقلت: أنا صنيعة الأستاذ ووليه. فلما بلغ باب داره ودعني، فلما سرت التفت فإذا بالجنائب والبغال كلها خلفي، فقلت: ما هذا؟ قالوا: أمر الأستاذ أن يحمل مركبه كله إليك، فأدخلته داري، وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار. وراوي هذه الحكاية مسلم بن عبيد الله المذكور من صالحي الأشراف.

وأما كافور فإنه لما صار قبل سلطنته مدبر الممالك المصرية، وعظم أمره، أنف من ذلك خشداشه الأمير أبو شجاع فاتك الرومي الإخشيذي المقدم ذكره في سنة نيف

وخمسين وثلاثمائة. وكان فاتك يعرف بالمجنون، وكان الإخشيذ قد اشترى فاتكاً هذا من أستاذه بالرملة كرهاً وأعتقه، وحظي عند الإخشيذ، وكان رفيقاً لكافور هذا، وهو الأعظم مع طيش وخفة وجبورة، وكان كافور عاقلاً سيوساً، فكان كلما تزايد أمر كافور وعظم، يزيد جنون فاتك وحسده، فلا يلتفت كافور إليه بل يدر عليه الإحسان ويراعيه إلى الغاية. وكان الفيوم إقطاع فاتك المجنون، فاستأذن فاتك كافوراً أن يتوجه إلى إقطاعه بالفيوم ويسكن هناك حتى لا يرى عظمة كافور، فأذن له كافور في ذلك وودعه، فخرج فاتك إلى الفيوم، فلم يصح مزاجه بها لوخامتها، فعاد بعد مدة مريضاً إلى مصر ليتداوى بها.

وكان المتنبي الشاعر بمصر قد مدح كافوراً بغرر القصائد، فسمع المتنبي بكرم المجنون فأحب أن يمدحه، ولم يجسر خوفاً من كافور. وكان كافور يكره فاتكاً في الباطن ويخافه، وصار فاتك يراسل المتنبي ويسأل عنه إلى أن اتفق اجتماعهما يوماً بالصحراء وجرت بينهما مفاوضات. فلما رجع فاتك إلى داره بعث إلى المتنبي بهدية قيمتها ألف دينار، ثم أتبعها بهدايا أخر. فاستأذن المتنبي كافوراً في مدح فاتك، فأذن له خوفاً من فاتك، وفي النفس شيء من ذلك، فمدحه المتنبي بقصيدته التي أولها:

لا خيل عندك تهديها ولا مال ::: فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

إلى أن قال:

كفاتك ودخول الكاف منقصة ::: كالشمس قلت وما للشمس أمثال

فحقد كافور على المتنبي لذلك، وفطن المتنبي بعدوانه، فخرج من مصر هارباً وكان هذا سبباً لهجو المتنبي كافوراً بعد أن كان مدحه بعدة مدائح، على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

قلت: ونذكر حينئذ أحوال المتنبي معه وما مدحه به من القصائد.

لما فارق المتنبي سيف الدولة بن حمدان مغاضباً له، قصد كافوراً الإخشيذي ودخل مصر ومدحه بقصيدته التي منها:

قواصد كافور توارك غيره ::: ومن ورد البحر استقل السواقيا

فجاءت بنا إنسان عين زمانه ::: وخفت بياضاً خلفها وماقيا

وهو أول مديح قاله فيه، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ست وأربعين وثلاثمائة. وقال ابن خلكان: وأنشده أيضاً في شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة قصيدته البائية التي يقول فيها:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه ::: وإن لم أشأ تملي علي فأكتب

إذا تــرك الإنســان أهــلاً وراءه ::: ويمــم كــافوراً فمــا يتغــرب

ومنها أيضاً:

فإن لم يكن إلا أبو المسـك أوهـم ::: فإنك أحلـى في فـؤادي وأعـذب

وكل امرىء يولي الجميـل محبـب ::: وكل مكـان ينبـت العـز طيـب

وآخر شيء أنشده في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ولم يلقه بعدها قصيدته البائية:

أرى لي بقربي منـك عينـاً قريـرةً ::: وإن كـان قربـاً بالبعـاد يشـاب

وهل نافعي أن ترفع الحجـب بيننـا ::: ودون الذي أملت منـك حجـاب

أقل سلامي حب ما خـف عـنكم ::: وأسكت كيما لا يكـون جـواب

ومنها:

وما أنا بالباغي على الحـب رشـوة ::: ضعيف هوىً يبغـى عليـه ثـواب

ومـا شـئت ألا أن أدل عـواذلي ::: على أن رأيـي في هـواك صـواب

وأعلـم قومـاً خـالفوني فشـرقوا ::: وغربت أني قـد ظفـرت وخـابوا

ومنها:

وإن مديح النـاس حـق وباطـل ::: ومدحك حق لـيس فيـه كـذاب

إذا نلت منك الـود فالمـال هـين ::: وكل الذي فـوق التـراب تـراب

وما كنت لولا أنـت إلا مهـاجراً ::: لـه كـل يـوم بلـدة وصـحاب

ولكنـك الـدنيا إلي حبيبـة ::: فمـا عنـك لي إلا إليـك ذهـاب

وأقام المتنبي بعد إنشاد هذه القصيدة سنة لا يلقى كافوراً غضباً عليه، لكنه يركب في خدمته خوفاً منه ولا يجتمع به، واستعد للرحيل في الباطن وجهز جميع ما يحتاج إليه. وقال في يوم عرفة سنة خمسين وثلاثمائة قبل مفارقته مصر بيوم واحد قصيدته الدالية التي هجا كافوراً فيها. وفي آخر هذه القصيدة المذكورة يقول:

من علم الأسود المخصـي مكرمـة ::: أقومه البـيض أم آبـاؤه الصـيد

أم أذنـه في يـد النخـاس داميـة ::: أم قدره وهـو بالفلسـين مـردود

ومنها:

وذاك أن الفحول البـيض عـاجزة ::: عن الجميل فكيف الخصية السـود

وله فيه أهاج كثيرة تضمنها ديوان شعره. ورحل المتنبي من مصر إلى عضد الدولة ابن بويه بشيراز.

وأما وفاة كافور المذكور فإنه توفي بمصر في جمادى الأولى سنة ست وخمسين وثلاثمائة، وقيل: سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، وقيل: سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، والأصح سنة سبع وخمسين وثلاثمائة، قبل دخول القائد جوهر المعزي إلى مصر. وقيل: إنه لما دخل جوهر القائد إلى مصر خرج منها كافور هذا، وليس بشيء، والأول أصح. وملك بعده أحمد بن علي بن الإخشيذ الآتي ذكره. وعاش كافور بضعاً وستين سنة، وكانت إمارته على مصر اثنتين وعشرين سنة، منها استقلالاً بالملك سنتان وأربعة أشهر، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به، وكتب على قبره:

ما بال قبرك يا كافور منفرداً ::: بالصحصح الموت بعد العسكر اللجب

يدوس قبرك آحاد الرجال وقد ::: كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

وقال الوليد بن بكر العمري: وجدت على قبر كافور مكتوباً:

انظر إلى عبر الأيام ما صنعت ::: أفنت أناساً بها كانوا وما فنيت

دنياهم ضحكت أيام دولتهم ::: حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت

* * *

ولاية أحمد بن علي بن الإخشيذ

هو أحمد بن علي بن الإخشيذ محمد بن طغج بن جف، الأمير أبو الحسن التركي الفرغاني المصري. ولي سلطنة مصر بعد موت مولى جده كافور الإخشيذي في العشرين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وهو يوم مات كافور، وسنه يوم ولي إحدى عشرة سنة، وصار الحسن بن عبيد الله بن طغج أعني ابن عم أبيه خليفته، وأبو الفضل جعفر بن الفرات وزيره، ومعهما أيضاً سمول الإخشيذي مدبر العساكر. فأساء أبو الفضل جعفر بن الفرات السيرة وقبض على جماعة وصادرهم، منهم يعقوب بن كلس الآتي ذكره، فهرب يعقوب بن كلس المذكور إلى المغرب، وهو من أكبر أسباب حركة المعز، وإرسال جوهر القائد إلى الديار المصرية. ولما زاد أمر ابن الفرات اختلف عليه الجند واضطربت أمور الديار المصرية على ما سنذكره بعد أن نذكر مقالة ابن خلكان إن شاء الله تعالى.

قال ابن خلكان: وكان عمر أبي الفوارس أحمد بن علي بن الإخشيذ يوم ولي إحدى عشرة سنة، وجعل الجند خليفته في تدبير أموره أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بن جف، وهو ابن عم أبيه، وكان صاحب الرملة من بلاد الشام، وهو الذي مدحه المتنبي بقصيدته التي أولها:

أنا لائمي إن كنت وقت اللوائم ::: علمت بما بي بين تلك المعالم

وقال في مخلصها:

إذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك ::: وإن قلت لم أترك مقالاً لعالم

وإلا فخانتني القوافي وعاقني ::: عن ابن عبيد الله ضعف العزائم

ومنها:

أرى دون ما بين الفرات وبرقة ::: ضراباً يمشي الخيل فوق الجماجم

وطعن غطاريف كأن أكفهم ::: عرفن الردينيات قبل المعاصم

حمته على الأعداء من كل جانب ::: سيوف بني طغج بن جف القماقم

هم المحسنون الكر في حومة الوغى ::: وأحسن منه كرهم في المكارم

وهم يحسنون العفو عن كل مذنب ::: ويحتملون الغرم عن كل غارم

قال: ولما تقرر الأمر على هذه القاعدة تزوج الحسن بن عبيد الله فاطمة ابنة عمه الإخشيذ، ودعوا له على المنابر بعد أبي الفوارس أحمد بن علي صاحب الترجمة. قال: والحسن بالشام. واستمر الحال على ذلك إلى ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من شعبان من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، ودخل إلى مصر رايات المغاربة الواصلين صحبة القائد جوهر المعزي، وانقرضت الدولة الإخشيذية من مصر. وكانت مدتها أربعاً وثلاثين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً. وكان قد قدم الحسن بن عبيد الله من الشام منهزماً من القرامطة لما استولوا على الشام.

ودخل الحسن على ابنة عمه التي تزوجها وحكم بمصر وتصرف وقبض على الوزير جعفر بن الفرات وصادره وعذبه، ثم سار إلى الشام في مستهل شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة. ولما سير القائد جوهر جعفر بن فلاح إلى الشام وملك البلاد أسر ابن فلاح المذكور أبا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج وسيره إلى مصر مع جماعة من الأمراء إلى جوهر القائد، ودخلوا إلى مصر في جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة. وكان الحسن بن عبيد الله قد أساء إلى أهل مصر في مدة ولايته عليهم، فلما وصلوا إلى مصر تركوهم وقوفاً مشهورين مقدار خمس ساعات، والناس ينظرون إليهم، وشمت بهم من في نفسه منهم شيء، ثم أنزلوا إلى مضرب القائد جوهر وجعلوا مع المعتقلين من آل الإخشيذ. ثم في السابع عشر من جمادى الأولى أرسل القائد جوهر ولده جعفراً إلى مولاه المعز ومعه هدايا عظيمة تجل عن الوصف، وأرسل معه المأسورين الواصلين من الشام، وفيهم الحسن بن عبيد الله، وحملوا في مركب بالنيل وجوهر ينظرهم، وانقلب المركب، فصاح الحسن بن عبيد الله على القائد جوهر: يا أبا الحسن، أتريد أن تغرقنا فاعتذر إليه وأظهر له التوجع،

ثم نقلوا إلى مركب آخر. انتهى كلام ابن خلكان باختصار. ولم يذكر ابن خلكان أمر أحمد بن علي بن الإخشيذ أعني صاحب الترجمة وأظن ذلك لصغر سنه.

وكانت مدة دولة الإخشيذ وبنيه بمصر أربعاً وثلاثين سنة وأربعة وعشرين يوماً، منها دولة أحمد بن علي هذا أعني أيام سلطته بمصر سنة واحدة وثلاثة أشهر إلا ثلاثة أيام. وكانت مدة الدعاء لبني العباس بمصر منذ ابتدأت لدولة بني العباس إلى أن قدم القائد جوهر المعزي وخطب باسم مولاه المعز معد العبيدي الفاطمي مائتي سنة وخمساً وعشرين سنة. ومنذ افتتحت مصر إلى أن انتقل كرسي الإمارة منها إلى القائد جوهر ثلاثمائة سنة وتسعاً وثلاثين سنة. انتهت ترجمة أحمد بن علي ابن الإخشيذ.

* * *

ولاية جوهر القائد الرومي المعزي

هو أبو الحسن جوهر بن عبد الله القائد المعزي المعروف بالكاتب، مولى المعز لدين الله أبي تميم معد العبيدي الفاطمي. كان خصيصاً عند أستاذه المعز، وكان من كبار قواده، ثم جهزه أستاذه المعز إلى أخذ مصر بعد موت الأستاذ كافور الإخشيدي، وأرسل معه العساكر وهو المقدم على الجميع، وكان رحيله من إفريقية في يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة، وتسلم مصر في يوم الثلاثاء ثامن عشر شعبان من السنة. على ما سنحكيه.

ولما دخل مصر صعد المنبر يوم الجمعة خطيباً وخطب ودعا لمولاه المعز بإفريقية، وذلك في نصف شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة المذكورة. وكان المعز لما ندب جوهراً هذا إلى التوجه إلى الديار المصرية أصحبه من الأموال والخزائن ما لا يحصى، وأطلق يده في جميع ذلك، وأفرغ الذهب في صور الأرحاء، وحملها على الجمال لعظم ذلك في قلوب الناس.

قال غير واحد: كان قد انخرم نظام مصر بعد موت كافور الإخشيدي لما قام على مصر أحمد بن علي بن الإخشيذ وهو صغير، فصار ينوب عنه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد الله بن طغج، والوزير يومئذ جعفر بن الفرات، فقلت الأموال على الجند، فكتب جماعة منهم إلى المعز لدين الله معد وهو بالمغرب يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه مصر، فجهز المعز جوهراً هذا بالجيوش والسلاح في نحو ألف فارس أو أكثر، فسار جوهر حتى نزل بجيوشه إلى تروجة بقرب الإسكندرية، وأرسل إلى أهل مصر فأجابوه بطلب الأمان وتقرير أملاكهم لهم، فأجابهم جوهر إلى ذلك وكتب لهم العهد. فعلم الإخشيذية بذلك، فتأهبوا لقتال جوهر المذكور، فجاءتهم من عند جوهر الكتب

والعهود بالأمان، فاختلفت كلمتهم، ثم اجتمعوا على قتاله وأمروا عليهم ابن الشويزاني، وتوجهوا لقتاله نحو الجيزة وحفظوا الجسور، فوصل جوهر إلى الجيزة، ووقع بينهم القتال في حادي عشر شعبان ودام القتال بينهم مدة، ثم سار جوهر إلى منية الصيادين وأخذ مخاضة منية شلقان، ووصل إلى جوهر طائفة من العسكر في مراكب، فقال جوهر للأمير جعفر بن فلاح: لهذا اليوم أرادك المعز لدين الله! فعبر عرياناً في سراويل وهو في مركب ومعه الرجال خوضاً، والتقى مع المصريين ووقع القتال بينهم وثبت كل من الفريقين، فقتل كثير من الإخشيذية وانهزم الباقون بعد قتال شديد. ثم أرسلوا يطلبون الأمان من جوهر فأمنهم، وحضر رسوله ومعه بند وطاف بالأمان ومنع من النهب، فسكن الناس وفتحت الأسواق ودخل جوهر من الغد إلى مصر في طبوله وبنوده وعليه ثوب ديباج مذهب، ونزل بالمناخ، وهو موضع القاهرة اليوم، واختطها وحفر أساس القصر في الليلة، وبات المصريون في أمن، فلما أصبحوا حضروا لهنائه فوجدوه قد حفر أساس القصر في الليل، وكان فيه زورات غير معتدلة، فلما شاهد ذلك جوهر لم يعجبه، ثم قال: قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فلا أغيره، ثم تركه.

ثم كتب جوهر إلى مولاه المعز يبشره بالفتح، وبعث إليه برؤوس القتلى، وقطع خطبة بني العباس ولبس السواد، ولبس الخطباء البياض، وأمر أن يقال في الخطبة: اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين، المعز لدين الله. ففعل ذلك، وانقطعت دعوة بني العباس في هذه السنة من مصر والحجاز واليمن والشام. ولم تزل الدعوة لبني عبيد في هذه الأقطار من هذه السنة إلى سنة خمس وستين وخمسمائة، مائتي سنة وثماني سنين، على ما يأتي ذكره في خلافة المستضيء العباسي.

وكان الخليفة في هذه الأيام عند انقطاع خطبة بني العباس من مصر المطيع لله الفضل. ومات المطيع ومن بعده سبعة خلفاء من بني العباس ببغداد حتى انقرضت دولة بني عبيد من مصر على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والخليفة يوم ذاك المستضيء العباسي، على ما يأتي ذلك في محله إن شاء الله تعالى.

ثم في شهر ربيع الآخر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة أذنوا بمصر بحي على خير العمل. واستمر ذلك.

ثم شرع جوهر في بناء جامعه بالقاهرة المعروف بجامع الأزهر، وهو أول جامع

بنته الرافضة بمصر، وفرغ من بنائه في شهر رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة بعد أن كان ابتنى القاهرة، كما سيأتي ذكر بنائها في هذه الترجمة أيضاً.

واستمر جوهر حاكم الديار المصرية إلى أن قدم إليها مولاه المعز لدين الله معد في يوم الجمعة الثامن من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فصرف جوهر عن الديار المصرية بأستاذه المعز، وصار من عظماء القواد في دولة المعز وغيره. ولا زال جوهر على ذلك إلى أن مات في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، ورثاه الشعراء. وكان جوهر حسن السيرة في الرعية عادلاً عاقلاً شجاعاً مدبراً.

* * *

بناء جوهر القائد القاهرة وحاراتها

قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في كتابه الروضة البهية الزاهرة، في الخطط المعزية القاهرة قال: اختط جوهر القصر وحفر أساسه في أول ليلة نزوله القاهرة، وأدخل فيه دير العظام، وهو المكان المعروف الآن بالركن المخلق قبالة حوض جامع الأقمر، قريب من بئر العظام، والمصريون يسمونها بئر العظمة، ويزعمون أن طاسة وقعت من شخص في بئر زمزم وعليها اسمه، فطلعت من هذه البئر. ونقل جوهر القائد العظام التي كانت في الدير المذكور والرمم إلى دير في الخندق فدفنها، لأنه يقال: إنها عظام جماعة من الحواريين، وبنى مكانها مسجداً من داخل السور، وأدخل أيضاً قصر الشوك في القصر المذكور، وكان منزلاً تنزله بنو عذرة، وجعل للقصر أبواباً: أحدها باب العيد وإليه تنسب رحبة باب العيد، وإلى جانبه باب يعرف بباب الزمرد، وباب آخر قبالة دار الحديث يعني المدرسة الكاملية وباب آخر قبالة القطبية وهي البيمارستان الآن، يعرف الباب المذكور بباب الذهب، وباب الزهومة، وباب آخر من ناحية قصر الشوك، وباب آخر من عند مشهد الحسين، ويعرف بباب التربة، وباب آخر يعرف بباب الديلم، وهو باب مشهد الحسين الآن قبالة دار الفطرة. قال: وأما أبواب القاهرة التي استقر عليها الحال الآن فيأتي ذكرها.

قال أي ابن عبد الظاهر: وإن حد القاهرة من مصر من السبع سقايات إلى تلك الناحية عرضاً. قال: ولما نزل جوهر القائد اخطت كل قبيلة خطة عرفت بها، فزويلة بنت البابين المعروفين ببابي زويلة، وهما البابان اللذان عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين، وهما بابا القاهرة. ومسجد ابن البناء المذكور بناه الحاكم. وذكر ابن القفطي أن المعز لما وصل مصر دخل إلى القاهرة من الباب الأيمن، فالناس إلى اليوم يزدحمون فيه، وقليل من يدخل من الباب الأيسر، لأنه أشيع في الناس أن من

دخله لم تقض له حاجة، وهو الذي عند دكاكين الحجارين والذي يتوصل منه إلى المحمودية. قلت: وقد دثر رسوم هذا الباب الثاني المذكور، وهو كان يمر منه الآن من باب سر الجامع المؤيدي إلى الأنماطيين.

قال: والباب الآخر من أبواب القاهرة القوس الذي هو قريب من باب النصر، الذي يخرج منه إلى الرحبة، وهو عند باب سعيد السعداء، ودكاكين العطارين الآن. وباب آخر يعرف بالقوس أيضاً وهو الذي يخرج منه إلى السوق الذي هو قريب من حارة بهاء الدين قراقوش، على يسرة باب الجامع الحاكمي من ناحية الحوض، وتعرف قديماً بالريحانية. وكل هذه الأبواب والسور كانت باللبن.

وأما باب زويلة الآن وباب النصر وباب الفتوح فبناها الوزير الأفضل بن أمير الجويش، وكتب على باب زويلة تاريخه واسمه، وذلك في سنة ثمانين وأربعمائة. وقالت المهندسون: إن في باب زويلة عيباً لكونه ليست له باشورة قدامه ولا خلفه على عادة الأبواب. وأما باب القنطرة فبناه القائد جوهر المذكور.

وأما السور الحجر الذي على القاهرة ومصر والأبواب التي به فبناها الطواشي بهاء الدين قراقوش الرومي في أيام أستاذه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة سبعين وخمسمائة، فبنى فيه قلعة المقس، وهو البرج الكبير الذي كان على النيل. قلت: وقد نسف هذا البرج من تلك الأماكن في سنة سبعين وستمائة. يأتي ذكر ذلك في ترجمة الملك المنصور قلاوون إن شاء الله تعالى من هذا الكتاب. قال: وبنى باب الجامع والقلعة التي بالجبل والبرج الذي بمصر قريباً من باب القنطرة المسمى بقلعة يازكوج، وجعل السور طائفاً بمصر والقاهرة، ولم يتم بناؤه إلى الآن، وأعانه على عمله وحفر البئر التي بقلعة الجبل أسارى الفرنج، وكانوا ألوفاً. وهذه البئر من عجائب الأبنية، تدور البقر من أعلاها وتنقل الماء من نقالة في وسطها، وتدور أبقار في وسطها تنقل الماء من أسفلها، ولها طريق إلى الماء تنزل البقر إلى معينها في مجازة وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء، وقيل: إن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل، وماؤها عذب.

سمعت من يحكي عن المشايخ أنها لما حفرت جاء ماؤها حلواً، فأراد قراقوش الزيادة في مائها فوسعها، فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها.

وطول هذا السور الذي بناه قراقوش على القاهرة ومصر والقلعة بما فيه من ساحل البحر تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع وذراعان بذراع العمل، وهو الذراع الهاشمي، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطئ النيل والبرج بالكوم الأحمر بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع. ومن قلعة المقسم إلى حائط القلعة بالجبل

بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاثمائة واثنتان وتسعون ذراعاً. ومن جانب حائط القلعة من جانب مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع. ودائر القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشر أذرع وذلك طول قوسه في ابتدائه، وأبراجه من النيل إلى النيل على التحقيق والتعديل. انتهى كلام ابن عبد الظاهر. على أنه لم يسلم من الاعتراض عليه في كثير مما نقله، وأيضاً مما سكت عنه.

* * *

ولاية المعز العبيدي

هو أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي الملقب بالمعز لدين الله، والذي تنسب إليه القاهرة المعزية. مولده بالمهدية في يوم الاثنين حادي عشر شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلاثمائة، وبويع بالخلافة في الغرب يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة بعد موت أبيه. يأتي ذكر نسبه وأقوال الناس فيه بعد أن نذكر قدومه إلى القاهرة وما وقع له مع أهلها ثم مع القرمطي.

وقال ابن خلكان: وكان المعز قد بويع بولاية العهد في حياة أبيه المنصور إسماعيل، ثم جددت له البيعة بعد وفاته في يوم الأحد سابع ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة. قلت: هو أول خليفة كان بمصر من بني عبيد.

ولما أرسل المعز القائد جوهراً إلى مصر وفتحها وبلغه ذلك سار بنفسه إلى المهدية في الشتاء فأخرج من قصور آبائه من الأموال خمسمائة حمل، ثم سار نحو الديار المصرية بعد أن مهد له جوهر القائد وبنى له القاهرة. وكان صادف مجيء جوهر إلى مصر الغلاء والوباء، فلم يلتفت إلى ذلك وافتتحها، ثم افتتح الحجاز والشام، وأرسل يعرف المعز. وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في ترجمة جوهر القائد.

وخرج المعز من المغرب في سنة إحدى وستين وثلاثمائة بعد أن استخلف على إفريقية بلكين بن زيري الصنهاجي، وجد المعز في السير في خزائنه وجيوشه حتى دخل الإسكندرية في شعبان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، فتلقاه قاضي مصر أبو طاهر الذهلي والأعيان، وطال حديثهم معه، وأعلمهم بأن قصده القصد المبارك من إقامة الجهاد والحق وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة، وأن يعمل بما أمره به جده رسول الله صلى الله عليه وسلم،

ووعظهم وطول حتى أبكى بعضهم وخلع على جماعة. ثم نزل بالجيزة وأخذ جيشه في التعدية إلى مصر ثم ركب هو ودخل القاهرة، وقد بنيت له بها دور الإمارة، ولم يدخل مدينة مصر، وكانوا قد احتفلوا وزينوا مصر بأحسن زينة. فلما دخل القصر خر ساجداً وصلى ركعتين.

ولما دخل المعز إلى القاهرة احتجب في القصر فبعث عيونه ينقلون إليه أخبار الناس وهو متوفر في النعم والأغذية المسمنة والأطلية التي تنقي البشرة وتحسن اللون. ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت والجواهر تلمع كالكواكب. وزعم أنه كان غائباً في السماء وأن الله رفعه إليه، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً، وقطع ما كان على ابن الإخشيذ في كل سنة من الأتاوة للقرامطة، وهي ثلاثمائة ألف دينار. ولما بلغ القرمطي ذلك عظم عليه، لأن المعز كان يصافيه لما كان بالمغرب ويهاديه، فلما وصل إلى مصر قطع ذلك عنه. وسار القرمطي، واسمه الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الحسن بن بهرام القرمطي، إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع بالله العباسي على لسان عز الدولة بختيار أن يمده بمال ورجال ويوليه الشام ومصر ليخرج المعز منها، فامتنع الخليفة المطيع بالله من ذلك، وقال: كلهم قرامطة وعلى دين واحد، فأما المصريون يعني بني عبيد فأماتوا السنن وقتلوا العلماء وأما هؤلاء يعني القرامطة فقتلوا الحاج، وقلعوا الحجر الأسود، وفعلوا ما فعلوا. فقال عز الدولة بختيار للقرمطي: اذهب فافعل ما بدا لك. وقيل: إن بختيار أعطاه مالاً وسلاحاً. فسار القرمطي إلى الشام ومعه أعلام سود، وأظهر أن الخليفة المطيع ولاه وكتب على الأعلام اسم المطيع عبد الكريم، وتحته مكتوب السادة الراجعون إلى الحق وملك القرمطي الشام ولعن المعز هذا على منبر دمشق وأباه، وقال: هؤلاء من ولد القداح كذابون ممخرقون أعداء الإسلام، ونحن أعلم بهم، ومن عندنا خرج جدهم القداح. ثم أقام القرمطي الدعوة لبني العباس وسار إلى مصر بعساكره. ولما بلغ المعز مجيئه تهيأ لقتالهم، فنزل القرمطي بمشتول الطواحين، وحصل بينه وبين المعز مناوشات، ثم تقهقر المعز ودخل القاهرة وانحصر بها إلى أن أرضى القرمطي بمال وخدعه، وانخدع القرمطي وعاد إلى نحو الشام، فمات بالرملة في شهر رجب، وأراح الله المسلمين منه. وصفا الوقت للمعز فإن القرمطي كان أشد عليه من جميع الناس للرعب الذي سكن في قلوب الناس منه، فكانت القرامطة إذا كانوا في ألف حطموا مائة ألف وانتصفوا. خذلان من الله تعالى لأمر يريده.

ما قيل في نسب المعز وآبائه

قال القاضي عبد الجبار البصري: اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويلقب بالمهدي، وكان أبوه يهودياً حداداً بسلمية، ثم زعم سعيد هذا أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح. وأهل الدعوة أبو القاسم الأبيض العلوي وغيره يزعمون أن سعيداً إنما هو من امرأة الحسين المذكور، وأن الحسين رباه وعلمه أسرار الدعوة، وزوجته بنت أبي الشلغلغ، فجاءه ابن فسماه عبد الرحمن. فلما دخل الغرب وأخذ سجلماسة تسمى بعبيد الله ثم تكنى بأبي محمد، وسمى ابنه الحسن، وزعمت المغاربة أنه يتيم ربه وليس بابنه ولا بابن زوجته، وكناه أبا القاسم وجعله ولي عهده. انتهى.

وقال القاضي أبو بكر بن الباقلاني: القداح جد عبيد الله كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب وادعى أنه علوي ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنياً خبيثاً حريصاً على إزالة ملة الإسلام، أعدم الفقه والعلم ليتمكن من إغراء الخلق، وجاء أولاده أسلوبه وأباحوا الخمر والفروج وأشاعوا الرفض، وبثوا دعاة فأفسدوا عقائد جبال الشام، كالنصيرية والدروزية. وكان القداح كاذباً مخرقاً، وهو أصل دعاة القرامطة. انتهى.

وقال ابن خلكان: اختلف في نسبهم، فقال صاحب تاريخ القيروان: هو عبيد الله بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. انتهى.

وقال غيره: هو عبيد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر المذكور في قول صاحب تاريخ القيروان. وقيل: هو علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسن بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم. وقيل: هو عبيد الله بن التقي بن الوفي بن الرضي، وهؤلاء الثلاثة يقال لهم المستورون في ذات الله. والرضي المذكور هو ابن محمد بن إسماعيل بن جعفر. واسم التقي الحسين. واسم الوفي أحمد. واسم الرضي عبد الله. وإنما استتروا خوفاً على أنفسهم لأنهم كانوا مطلوبين من جهة الخلفاء من بني العباس، لأنهم علموا أن فيهم من يروم الخلافة، أسوة غيرهم من العلويين، وقضاياهم ووقائعهم في ذلك مشهورة. وإنما تسمى المهدي عبيد الله استتاراً. هذا عند من يصحح نسبه ففيه اختلاف كثير. وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب. وقيل: هو عبيد الله بن الحسين بن علي بن محمد بن علي الرضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق. وقيل: هو

علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن الحسين بن محمد بن زين العابدين بن محمد بن الحسين، وإنما سمى نفسه عبيد الله استتاراً. وهذا أيضاً على قول من يصحح نسبهم. والذي ينكر نسبه يقول: اسمه سعيد، ولقبه عبيد الله، وزوج أمه الحسين بن أحمد القداح، كان كحالاً يقدح العين إذا نزل فيها ماء.

وقال ابن خلكان: وجاء المعز من إفريقية وكان يطعن في نسبه. فلما قرب من البلد يعني مصر وخرج الناس للقائه، اجتمع به جماعة من الأشراف، فقال له من بينهم الشريف عبد الله بن طباطبا: إلى من ينتسب مولانا؟ فقال له المعز: سنعقد مجلساً ونسرد عليكم نسبنا. فلما استقر المعز بالقصر جمع الناس في مجلس عام وجلس لهم وقال: هل بقي من رؤسائكم أحد؟ فقالوا: لم يبق معتبر، فسل عند ذلك نصف سيفه وقال: هذا نسبي! ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبي! فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا. قلت: وفي نسب المعز أقوال كثيرة أخر أضربت عن ذكرها خوف الإطالة. والظاهر أنه ليس بشريف، وأنه مدع. والله أعلم.

واستمر بالقاهرة إلى أن مرض بها وتوفي يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وثلاثمائة، وله ست وأربعون سنة، وقام ولده العزيز نزار بعده بالأمر. وأقام المعز والياً ثلاثاً وعشرين سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً، منها بمصر ثلاث سنين، وباقي ولايته كانت بالمغرب، وخلف عشرة أولاد: نزاراً الذي ولي مصر بعده وعبد الله وعقيلاً وسبع بنات. وأقام بتدبير مملكة ولده العزيز جوهراً القائد باني القاهرة وصاحب جامع الأزهر المقدم ذكره.

* * *

ولاية العزيز نزار

هو نزار أبو منصور العزيز بالله بن المعز لدين الله أبي تميم معد بن المنصور بالله أبي طاهر إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي أبي محمد عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي ثم المصري، ثاني خلفاء مصر من بني عبيد، والخامس من المهدي إليه ممن ولي من آبائه الخلافة بالمغرب. مولده بالمهدية من القيروان ببلاد المغرب في يوم عاشوراء سنة أربع وأربعين، وقيل: سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة. وخرج مع أبيه المعز من المغرب إلى القاهرة ودام بها إلى أن مات أبوه المعز معد بعد أن عهد إليه بالخلافة. فولي بعده في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلاثمائة وله اثنتان وعشرون سنة، وملك مصر وخطب له بها وبالشام وبالمغرب والحجاز، وحسنت أيامه. وكان القائم بتدبير مملكته مولى أبيه جوهراً القائد. وكان العزيز كريماً شجاعاً سيوساً، وفيه رفق بالرعية.

ولما تم أمر العزيز بمصر واستفحل أمره وأخذ في تمهيد أمور بلاده، خرج عليه قسام الحارثي وغلب على دمشق. وكان قسام المذكور من الشجعان، وكان أصله من قرية تلفيتا من قرى جبل سنير. كان ينقل التراب على الحمير، وتنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة وأتباع وغلب بهم على دمشق حتى لم يبق لنوابها معه أمر ولا نهي، ودام على ذلك سنين. فلما ملك العزيز وعظم أمره أراد زواله، فندب إليه جيشاً مع تكين، فسار تكين إليه وحاربه أياماً، وصار العزيز يمده بالعساكر إلى أن ضعف أمر قسام واختفى أياماً، ثم استأمن، فقيدوه وحملوه إلى العزيز إلى مصر.

وقيل: إنه مات في شهر رمضان قبل خروجه من القاهرة في الحمام، وعمره اثنتان وأربعون سنة وثمانية أشهر. وكانت مدة ولايته على مصر إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياماً. وتولى مصر بعده ابنه أبو علي منصور الملقب بالحاكم الآتي ذكره إن شاء الله. وكان العزيز ملكاً شجاعاً مقداماً حسن الأخلاق كثير الصفح حليماً لا يؤثر سفك الدماء، وكانت لديه فضيلة، وله شعر جيد، وكان فيه عدل وإحسان للرعية. قلت: وهو أحسن الخلفاء الفاطميين حالاً بالنسبة لأبيه المعز ولابنه الحاكم، على ما يأتي ذكره إن شاء الله.

قلت: والعزيز هذا هو الذي رتب الفطرة في عيد شوال، وكانت تعمل على غير هذه الهيئة. وكانت الفطرة تعمل وتفرق بالإيوان، ثم نقلت في عدة

أماكن، وكان مصروفها في كل سنة عشرة آلاف دينار. وتفصيل الأنواع: دقيق ألف حملة، سكر سبعمائة قنطار، قلب فستق ستة قناطير، لوز ثمانية قناطير، بندق أربعة قناطير، تمر أربعمائة إردب، زبيب ثلاثمائة إردب، خل ثلاثة قناطير، عسل نحل خمسة قناطير، شيرج مائتا قنطار، حطب ألف ومائتا حملة، سمسم إردبان، آنيسون إردبان، زيت طيب للوقود ثلاثون قنطاراً، ماء ورد خمسون رطلاً، مسك خمس نوافج، كافور عشرة مثاقيل، زعفران مائة وخمسون درهماً. ثمن مواعين وأجرة صناع وغيرها خمسمائة دينار.

قال الوزير يعقوب بن كلس: سمعت العزيز بالله يقول لعمه حيدرة: يا عم، أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي. قال المسبحي: وهذا لم يسمع بمثله قط من ملك. انتهت ترجمة العزيز.

* * *

ولاية الحاكم بأمر الله

هو أبو علي منصور، الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله نزار بن المعز بالله معد بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله، العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والدار والمنشأ، الثالث من خلفاء مصر من بني عبيد والسادس منهم ممن ولي من أجداد بالمغرب، وهم: المهدي والقائم والمنصور المقدم ذكرهم.

مولده يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلاثمائة بالقاهرة، وقيل: في الثالث والعشرين منه. وولاه أبوه العزيز عهد الخلافة في شعبان سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وبويع بالخلافة يوم مات أبوه يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلاثمائة، فولي الخلافة وله إحدى عشرة سنة ونصف، وقيل: عشر سنين ونصف وستة أيام، وقيل غير ذلك.

قال العلامة أبو المظفر بن قزأوغلي في تاريخه: وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبةٍ للعلم وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء. وكان الغالب عليه السخاء، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط. وأقام يلبس الصوف سبع سنين، وامتنع من دخول الحمام، وأقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً، ثم عن له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة. وقتل من العلماء والكتاب

والأماثل ما لا يحصى، وكتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص رضي الله عنهم في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، ثم محاه في سنة سبع وتسعين، وأمر بقتل الكلاب وحرم بيع الفقاع وعمله ثم نهى عنه، ورفع المكوس عن البلاد وعما يباع فيها، ونهى عن النجوم، وكان ينظر فيها، ونفى المنجمين وكان يرصدها، ويخدم زحل، وطالعه المريخ، ولهذا كان يسفك الدماء. وبنى جامع القاهرة، وجامع راشدة على النيل بمصر، ومساجد كثيرة، ونقل إليها المصاحف المفضضة والستور الحرير وقناديل الذهب والفضة، ومنع من صلاة التراويح عشر سنين، ثم أباحها، وقطع الكروم ومنع من بيع العنب، ولم يبق في ولايته كرماً، وأراق خمسة آلاف جرة من عسل في البحر خوفاً من أن تعمل نبيذاً، ومنع النساء من الخروج من بيوتهن ليلاً ونهاراً، وجعل لأهل الذمة علامات يعرفون بها، وألبس اليهود العمائم السود، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين في سفينة، وألا يستخدموا غلاماً مسلماً، ولا يركبوا حمار مسلم، ولا يدخلوا مع المسلمين حماماً، وجعل لهم حمامات على حدة، ولم يبق في ولايته ديراً ولا كنيسة إلا هدمها، ونهى عن تقبيل الأرض بين يديه والصلاة عليه في الخطب والمكاتبات، وجعل مكان الصلاة عليه: السلام على أمير المؤمنين، ثم رجع عن ذلك، وأسلم خلق من أهل الذمة خوفاً منه ثم ارتدوا، وأعاد الكنائس إلى حالها. انتهى كلام أبي المظفر.

قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي في تاريخه: كان جواداً سمحاً، خبيثاً ماكراً، رديء الاعتقاد، سفاكاً للدماء، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها، فأمر بكتب سب الصحابة على أبواب المساجد والشوارع، وأمر العمال بالسب في الأقطار في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وأمر بقتل الكلاب في مملكته وبطل الفقاع والملوخيا، ونهى عن السمك، وظفر بمن باع ذلك فقتلهم، ونهى في سنة اثنتين وأربعمائة عن بيع الرطب ثم جمع منه شيئاً عظيماً فأحرق الكل، ومنع من بيع العنب وأباد كثيراً من الكروم، وأمر النصارى بأن تعمل في أعناقهم الصلبان، وأن يكون طول الصليب ذراعاً وزنته خمسة أرطال بالمصري، وأمر اليهود أن يحملوا في أعناقهم قرامي الخشب في زنة الصلبان أيضاً، وأن يلبسوا العمائم السود، ولا يكتروا من مسلم بهيمة، وأن يدخلوا الحمام بالصلبان، ثم أفرد لهم حمامات. وفي العام أمر بهدم الكنيسة المعروفة بالقمامة. ولما أرسل إليه ابن باديس ينكر عليه أفعاله، أراد استمالته فأظهر التفقه وحمل في كمه الدفاتر وطلب إليه فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك في الجامع، ثم بدا له فقتلهما صبراً، وأذن للنصارى الذين أكرههم إلى الإسلام في

الرجوع إلى الشرك. وفي سنة أربع وأربعمائة منع النساء من الخروج في الطريق، ومنع من عمل الخفاف لهن، فلم يزلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتى مات. ثم إنه بعد مدة أمر ببناء ما كان أمر بهدمه من الكنائس. وكان أبوه العزيز قد ابتدأ ببناء جامعه الكبير بالقاهرة يعني الذي هو داخل باب النصر فتممه هو. وكان على بنائه ونظره الحافظ عبد الغني بن سعيد. وكان الحاكم يفعل الشيء ثم ينقضه. وخرج عليه أبو ركوة الوليد بن هشام العثماني الأموي الأندلسي بنواحي برقة فمال إليه خلق عظيم، فجهز الحاكم لحربه جيشاً فانتصر عليهم أبو ركوة وملك، ثم تكاثروا عليه وأسروه، ويقال: إنه قتل من أصحابه مقدار سبعين ألفاً. وحمل أبو ركوة إلى الحاكم فذبحه في سنة سبع وتسعين. انتهى كلام الذهبي باختصار.

وقال ابن الصابيء: كان الحاكم يواصل الركوب ليلاً ونهاراً، ويتصدى له الناس على طبقاتهم، فيقف عليهم ويسمع منهم، فمن أراد قضاء حاجته قضاها في وقته، ومن منعة سقطت المراجعة في أمره. وكان المصريون موتورين منه، فكانوا يدسون إليه الرقاع المختومة بالدعاء عليه والسب له ولأسلافه، والوقوع فيه وفي حرمه، حتى انتهى فعلهم إلى أن عملوا تمثال امرأة من قراطيس بخف وإزار، ونصبوها في بعض الطرق وتركوا في يدها رقعة كأنها ظلامة، فتقدم الحاكم وأخذها من يدها. فلما فتحها رأى في أولها ما استعظمه، فقال: انظروا هذه المرأة من هي؟ فقيل له: إنها معمولة من قراطيس، فعلم أنهم قد سخروا منه، وكان في الرقعة كل قبيح. فعاد من وقته إلى القاهرة، ونزل في قصره واستدعى القواد والعرفاء، وأمرهم بالمسير إلى مصر وضربها بالنار ونهبها، وقتل من ظفروا به من أهلها، فتوجه إليها العبيد والروم والمغاربة وجميع العساكر. وعلم أهل مصر بذلك فاجتمعوا وقاتلوا عن نفوسهم، وأوقعوا النار في أطراف البلد، فاستمرت الحرب بين العبيد والعامة والرعية ثلاثة أيام، والحاكم يركب في كل يوم إلى القرافة، ويطلع إلى الجبل ويشاهد النار ويسمع الصياح ويسأل عن ذلك، فيقال له: العبيد يحرقون مصر وينهبونها، فيظهر التوجع، ويقول: لعنهم الله! من أمرهم بهذا؟.

فلما كان اليوم الرابع اجتمع الأشراف والشيوخ إلى الجوامع ورفعوا المصاحف وضجوا بالبكاء وابتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء، فرحمهم الأتراك والمغاربة ورقوا لهم وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم، وكان أكثرهم مخالطاً لهم ومداخلاً ومصاهراً، وانفرد العبيد وصار القتال معهم، وعظمت القصة وزادت الفتنة، واستظهرت كتامة والأتراك عليهم، وراسلوا الحاكم، وقالوا: نحن عبيد ومماليك، وهذا البلد بلدك وفيه حرمنا وأموالنا وأولادنا وعقارنا، وما علمنا أن أهله جنوا جناية تقتضي سوء المقابلة، وتدعو إلى مثل هذه المعاملة. فإن كان هناك باطن لا نعرفه فأخبرنا به،

وانتظرنا حتى نخرج بعيالنا وأموالنا منه. وإن كان ما عليه هؤلاء العبيد مخالفاً لرأيك فأطلقنا في معاملتهم بما يعامل به المفسدون والمخالفون. فأجابهم بأنه ما أراد ذلك، ولعن الفاعل له والآمر به، وقال: أنتم على الصواب في الذب عن المصريين، وقد أذنت لكم في نصرتهم، والإيقاع بمن تعرض لهم. وأرسل إلى العبيد سراً يقول: كونوا على أمركم، وحمل إليهم سلاحاً قواهم به. وكان غرضه في هذا أن يطرح بعضهم على بعض، وينتقم من فريق بفريق.

وعلم القوم بما يفعل، فراسلته كتامة والأتراك: قد عرفنا غرضك، وهذا هلاك هذه البلدة وأهلها وهلاكنا معهم، وما يجوز أن نسلم نفوسنا والمسلمين لقتل الحريم وذهاب المهج. ولئن لم تكفهم لنحرقن القاهرة، ونستنفرن العرب وغيرهم؟ فلما سمع الرسالة وكانوا قد استظهروا على العبيد ركب حماره ووقف بين الصفين وأومأ للعبيد بالانصراف فانصرفوا، واستدعى كتامة والأتراك ووجوه المصريين واعتذر إليهم، وحلف أنه بريء مما فعله العبيد، وكذب في يمينه، فقبلوا الأرض بين يديه وشكروه، وسألوه الأمان لأهل مصر، فكتب لهم، وقرىء الأمان على المنابر، وسكنت الفتنة وفتح الناس أسواقهم وراجعوا معايشهم. واحترق. من مصر مقدار ثلثها، ونهب نصفها. وتتبع المصريون من أخذ أزواجهم وبناتهم وأخواتهم، وابتاعوهن من العبيد بعد أن فضحوهن، وقتل بعضهن نفوسهن خوفاً من العار. واستغاث قوم من العلوي الأشراف إلى الحاكم، وذكروا أن بعض بناتهم في أيدي العبيد على أسوأ حال، وسألوه أن يستخلصهن، فقال الحاكم: انظروا، ما يطالبونكم به عنهن لأطلقه لكم، فقال له بعضهم: أراك الله في أهلك وولدك مثل ما رأينا في أهلنا وأولادنا، فقد اطرحت الديانة والمروءة بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة. فحلم عنه الحاكم وقال له: أنت أيها الشريف محرج ونحن حقيقون باحتمالك، وإلا غضبنا عليك وزاد الأمر على الناس فيما يفجؤهم به حالاً بعد حال من كل ما تنخرق به العادات وتفسد الطاعات.

ثم عن له أن يدعي الربوبية، وقرب رجلاً يعرف بالأخرم ساعده على ذلك، وضم إليه طائفة بسطهم للأفعال الخارجة عن الديانة. فلما كان في بعض الأيام خرج الأخرم من القاهرة راكباً في خمسين رجلاً من أصحابه، وقصد مصر ودخل الجامع راكباً دابته، ومعه أصحابه على دوابهم، وقاضي القضاة ابن أبي العوام جالس فيه ينظر في الحكم، فنهبوا الناس وسلبوهم ثيابهم وسلموا للقاضي رقعة فيها فتوى، وقد صدرت باسم الحاكم الرحمن الرحيم. فلما قرأها القاضي رفع صوته منكراً، واسترجع، وثار الناس بالأخرم وقتلوا أصحابه وهرب هو. وشاع الحديث في دعواه الربوبية، وتقرب إليه جماعة من الجهال، فكانوا إذا لقوه قالوا: السلام عليك يا واحد

يا أحد يا محيي يا مميت، وصارت له دعاة يدعون أوباش الناس، ومن سخف عقله إلى اعتقاد ذلك، فمال إليه خلق كثير، طمعاً في الدنيا والتقرب إليه. وكان اليهودي والنصراني إذا لقيه يقول: إلهي قد رغبت في شريعتي الأولى، فيقول الحاكم: افعل ما بدا لك، فيرتد عن الإسلام. وزاد هذا الأمر بالناس.

ونذكر أمر موته بأطول من هذا من طرق عديدة.

قال ابن الصابيء وغيره: إن الحاكم لما بدت عنه هذه الأمور الشنيعة استوحش الناس منه. وكان له أخت يقال لها ست الملك، من أعقل النساء وأحزمهن، فكانت تنهاه وتقول: يا أخي، احذر أن يكون خراب هذا البيت على يديك. فكان يسمعها غليظ الكلام ويتهددها بالقتل. وبعث إليها يقول: رفع إلي أصحاب الأخبار أنك تدخلين الرجال إليك وتمكنينهم من نفسك، وعمل على إنفاذ القوابل لاستبرائها، فعلمت أنها هالكة معه. وكان بمصر سيف الدولة بن دواس من شيوخ كتامة، وكان شديد الحذر من الحاكم، وممتنعاً من دخول قصره ولقائه إلا في المواكب على ظهر فرسه، واستدعاه الحاكم مرة إلى قصره فامتنع. فلما كان يوم الموكب عاتبه الحاكم على تأخره، فقال له سيف الدولة المذكور: قد خدمت أباك، ولي عليكم حقوق كثيرة يجب لمثلها المراعاة، وقد قام في نفسي أنك قاتلي، فأنا مجتهد في دفعك بغاية جهدي، وليس لك حاجة إلى حضوري في قصرك. فإن كان باطن رأيك في مثل ظاهره فدعني على حالي، فإنه لا ضرر عليك في تأخري عن حضور قصرك. وإن كنت تريد بي سوءاً، فلئن تقتلني في داري بين أهلي وولدي يكفنونني ويتولونني أحب إلي من أن تقتلني في قصرك وتطرحني تأكل الكلاب لحمي، فضحك الحاكم وأمسك عنه.

وراسلت ست الملك أخت الحاكم ابن دواس هذا مع بعض خدمها وخواصها، وهي تقول له: لي إليك أمر لا بد لي فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً، أو فعلت أنا ذلك. فقال: أنا عبدك والأمر لك. فتوجهت إليه ليلاً في داره متنكرة، ولم تصحب معها أحداً. فلما دخلت عليه قام وقبل الأرض بين يديها دفعات ووقف في الخدمة، فأمرته بالجلوس، وأخلي المكان. فقالت: يا سيف الدولة، قد جئت في أمر أحرس به نفسي ونفسك والمسلمين، ولك فيه الحظ الأوفر، وأريد مساعدتك فيه، فقال: أنا عبدك. فاستحلفته واستوثقت منه، وقالت له: أنت تعلم ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك، وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم. وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الإلهية وهتكه ناموس الشريعة وناموس آبائه، وقد زاد جنونه. وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء. فقال سيف الدولة: صدقت يا مولاتنا، فما الرأي؟. قالت: قتله، ونستريح منه، فإذا تم لنا ذلك أقمنا ولده موضعه وبذلنا الأموال، وكنت أنت صاحب جيشه ومدبره،

وشيخ الدولة والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السلامة منه، وأني أعيش بينكم آمنة من الفضيحة. ثم أقطعته إقطاعات كثيرة، ووعدته بالأموال والخلع والمراكب. فقال لها عند ذلك: مري بأمرك، قالت: أريد عبدين من عبيدك تثق بهما في سرك، وتعتمد عليهما في مهماتك، فأحضر عبدين ووصفهما بالشهامة، فاستحلفتهما ووهبتهما ألف دينار، ووقعت لهما بثياب وإقطاعات وخيل وغير ذلك، وقالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل، فإنها نوبة الحاكم في الركوب، وهو ينفرد ولا يبقى معه غير القرافي الركابي، وربما رده، ويدخل الشعب وينفرد بنفسه، فاخرجا عليه فاقتلاه واقتلا القرافي والصبي إن كانا معه، وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة تسمى الواحدة منهما: يافورت ولهما رأس كرأس المبضع الذي يفصد به الحجام، ورجعت إلى القصر وقد أحكمت الأمر وأتقنته.

وكان الحاكم ينظر في النجوم فنظر مولده وكان قد حكم عليه بالقطع في هذا الوقت، فإن تجاوزه عاش نيفاً وثمانين سنة. وكان الحاكم لا يترك الركوب بالليل وطوف القاهرة. فلما كان تلك الليلة قال لوالدته: علي في هذه الليلة وفي غد قطع عظيم، والدليل عليه علامة تظهر في السماء طلوع نجم سماه، وكأني بك وقد انتهكت وهلكت مع أختي، فإني ما أخاف عليك أضر منها. فتسلمي هذا المفتاح فهو لهذه الخزانة، وفيها صناديق تشتمل على ثلاثمائة ألف دينار، خذيها وحوليها إلى قصرك تكون ذخيرة لك. فقبلت الأرض وقالت: إذا كنت تتصور هذا فارحمني واقض حقي ودع ركوبك الليلة، وكان يحبها، فقال: أفعل، ولم يزل يتشاغل حتى مضى صدر من الليل، وكان له قوم ينتظرونه كل ليلة على باب القصر، فإذا ركب ركبوا معه ويتبعه أبو عروس صاحب العسس. ومن رسمه أن يطوف كل ليلة حول القصر في ألف رجل بالطبول الخفاف والبوقات البحرية. فإذا خرج الحاكم من باب القاهرة قال له: ارجع وأغلق الأبواب، فلا يفتحها حتى يعود. وضجر الحاكم من تأخره عن الركوب في تلك الليلة، ونازعته نفسه إليه، فسألته أمه وقالت: نم ساعة، فنام ثم انتبه وقد بقي من الليل ثلثه، وهو ينفخ ويقول: إن لم أركب الليلة وأتفرج، وإلا خرجت روحي. ثم قام فركب حماره، وأخته تراعي ما يكون من أمره، وكان قصرها مقابل قصره، فإذا ركب علمت.

ولما ركب سار في درب يقال له درب السباع، ورد صاحب العسس ونسيماً الخادم صاحب الستر والسيف، وخرج إلى القرافة ومعه القرافي الركابي والصبي. فحكى أبو عروس صاحب العسس أنه لما صعد الجبل وقف على تل كبير ونظر إلى النجوم وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وضرب بيد على يد، وقال: ظهرت يا مشؤوم، ثم سار في الجبل، فعارضه عشرة فوارس من

بني قرة، وقالوا: قد طال مقامنا على الباب، وبنا من الفاقة والحاجة ما نسأل معه حسن النظر والإحسان، فأمر الحاكم القرافي أن يحملهم إلى صاحب بيت المال ويأمره أن يعطيهم عشرة آلاف درهم، فقالوا له: لعل مولانا ينكر تعرضنا له في هذا المكان فيأمر بنا بمكروه، ونحن نريد الأمان قبل الإحسان، فما وقفنا إلا من الحاجة، فأعطاهم الأمان ورد القرافي معهم، وبقي هو والصبي، فسار إلى الشعب الذي جرت عادته بدخوله، وقد كمن العبدان الأسودان له، وقد قرب الصباح، فوثبا عليه وطرحاه إلى الأرض، فصاح: ويلكما! ما تريدان؟ فقطعا يديه من رأس كتفيه، وشقا جوفه وأخرجا ما فيه، ولفاه في كساء، وقتلا الصبي، وحملا الحاكم إلى ابن دواس بعد أن عرقبا الحمار، فحمله ابن دواس مع العبدين إلى أخته ست الملك، فدفنته في مجلسها وكتمت أمره، وأطلقت لابن دواس والعبدين مالاً كثيراً وثياباً. وأحضرت خطير الملك الوزير وعرفته الحال، واستكتمته واستحلفته على الطاعة والوفاء، ورسمت له بمكاتبة ولي العهد عبد الرحيم بن إلياس، وكان مقيماً بدمشق نيابة عن الحاكم، بأن يحضر إلى الباب، فكتب إليه بذلك. وأنفذت علي بن داود أحد القواد إلى الفرما وهي مدينة على ساحل البحر فقالت له: إذا دخل ولي العهد فاقبض عليه، واحمله إلى تنيس، وقيل غير ذلك، كما سيأتي ذكره. ثم كتبت إلى عامل تنيس عن الحاكم بإنفاذ ما عنده من المال، فأنفذه وهو ألف ألف دينار وألف ألف درهم، خراج ثلاث سنين. وجاء ولي العهد إلى الفرما، فقبض عليه وحمل إلى تنيس.

وفقد الناس الحاكم في اليوم الثاني، ومنع أبو عروس من فتح أبواب القاهرة انتظاراً للحاكم، على حسب ما أمره به. ثم خرج الناس في اليوم الثالث إلى الصحراء وقصدوا الجبل فلم يقفوا له على أثر. وأرسل القواد إلى أخته وسألوها عنه، فقالت: ذكر لي أنه يغيب سبعة أيام، وما هنا إلا الخير، فانصرفوا على سكون وطمأنينة. ولم تزل أخته في هذه الأيام ترتب الأمور وتفرق الأموال وتستحلف الجند، ثم بعثت إلى ابن دواس المذكور وأمرته أن يستحلف الناس لابن الحاكم، كتامة وغيرها، ففعل ذلك.

فلما كان في اليوم السابع ألبست أبا الحسن علي بن الحاكم أفخر الملابس واستدعت ابن دواس وقالت له: المعول في قيام هذه الدولة عليك، وتدبيرها موكل إليك، وهذا الصبي ولدك، فابذل في خدمته وسعك، فقبل الأرض ووعدها بالطاعة. ووضعت التاج على رأس الصبي، وهو تاج عظيم فيه من الجواهر ما لا يوجد في خزانة خليفة، وهو تاج المعز جد أبيه، وأركبته مركباً من مراكب الخليفة، وخرج بين يديه

الوزير وأرباب الدولة. فلما صار إلى باب القصر صاح خطير الملك الوزير: يا عبيد الدولة، مولاتنا السيدة تقول لكم هذا مولاكم فسلموا عليه، فقبلوا الأرض بأجمعهم، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل، ولقبوه الظاهر لإعزاز دين الله، وأقبل الناس أفواجاً فبايعوه، وأطلق المال وفرح الناس وأقيم العزاء على الحاكم ثلاثة أيام.

قال القضاعي بعد ما ساق سبب قتله بنحو ما ذكرناه إلى أن قال: ثم أمرت ست الملك بخلع عظيمة ومال كثير ومراكب ذهب وفضة للأعيان، وأمرت ابن دواس أن يشاهدها في الخزانة، وقالت له: غداً نخلع عليك، فقبل ابن دواس الأرض وفرح. وأصبح من الغد، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى، وكان للحاكم مائة عبد يختصون بركابه، ويحملون السيوف بين يديه، ويقتلون من يأمرهم بقتله، فبعثت بهم ست الملك إلى ابن دواس ليكونوا في خدمته، فجاؤوا في هذا اليوم ووقفوا بين يديه، فقالت ست الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج قف بين يدي ابن دواس، وقل للعبيد: يا عبيد، مولاتنا تقول لكم هذا قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه، فخرج نسيم فقال لهم ذلك فمالوا على ابن دواس بالسيوف فقطعوه، وقتلوا العبدين اللذين قتلا الحاكم، وكل من اطلع على سرها قتلته، فقامت لها الهيبة في قلوب الناس. انتهى كلام القضاعي.

وقال ابن الصابىء: لما قتلت ست الملك ابن دواس قتلت الوزير الخطير ومن كانت تخاف منه ممن عرف بأمرها.

وأما ولي العهد الذي كان بدمشق وكتبت ست الملك بحضوره فاسمه إلياس، وقيل: عبد الرحيم، وقيل: عبد الرحمن بن أحمد، وكنيته أبو القاسم ويلقب بالمهدي، ولاه الحاكم العهد سنة أربع وأربعمائة. وقد قدمنا من ذكره أنه كان وصل إلى تنيس، وقبض عليه صاحب تنيس، وبعث به إلى ست الملك، فحبسته في دار وأقامت له الإقامات، ووكلت بخدمته خواص خدمها، وواصلته بالملاطفات والافتقادات فلما مرضت ويئست من نفسها أحضرت الظاهر لإعزاز دين الله أعني ابن أخيها الحاكم وقالت له: قد علمت ما عاملتك به، وأقله حراسة نفسك من أبيك، فإنه لو تمكن منك لقتلك، وما تركت لك أحداً تخافه إلا ولي العهد، فبكى بين يديها هو ووالدته، وسلمت إليهما مفاتيح الخزائن، وأوصتهما بما أرادت. وقالت لمعضاد الخادم: امض إلى ولي العهد وتفقد خدمته، فإذا دخلت عليه فانكب كأنك تسائله بعد أن توافق الخدم على ضربه بالسكاكين، فمضى إليه معضاد فقتله ودفنه وعاد فأخبرها، فأقامت بعد ذلك ثلاثة أيام وماتت. وتولى أمر الدولة معضاد الخادم المذكور ورجل آخر علوي من أهل قزوين وآخرون.

ونظرت ست الملك في أمور الدولة بعد قتل الحاكم أربع سنين، أعادت الملك فيها إلى

غضارته، وعمرت الخزائن بالأموال، واصطنعت الرجال. ثم اعتلت علة لحقها فيها ذرب فماتت منه. وكانت عارفة مدبرة غزيرة العقل. وقد خرجنا عن المقصود على سبيل الاستطراد.

وكانت وفاة الحاكم ليلة الثلاثاء لليلتين بقيتا من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان فيه كسوف الشمس. وكانت مدة عمره ستاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وقيل: سبعاً وثلاثين سنة. وكانت ولايته على مصر خمساً وعشرين سنة وشهراً واحداً، قاله القضاعي. وتولى الملك من بعده ابنه الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم، وقام بتدبير مملكته عمته ست الملك المقدم ذكرها إلى أن ماتت، حسب ما ذكرناه.

انتهت ترجمة الحاكم.

* * *

ولاية الظاهر لإعزاز دين الله

هو الظاهر لإعزاز دين الله أبو هاشم، وقيل: أبو الحسن، علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والمنشأ والوفاة، الرابع من خلفاء مصر من بني عبيد والسابع من المهدي. مولده بالقاهرة في ليلة الأربعاء عاشر شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وولي الخلافة بعد قتل أبيه الحاكم في شوال من سنة إحدى عشرة وأربعمائة، حسب ما ذكرناه مفصلاً في أواخر ترجمة أبيه الحاكم، وقيام عمته ست الملك في أمره.

وقال صاحب مرآة الزمان: وولي الخلافة في يوم عيد النحر سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وله ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام وتم أمره.

ووافقه على ذلك القاضي شمس الدين بن خلكان، لكنه قال: وكانت ولايته بعد أبيه بمدة، لأن أباه فقد في السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة، وكان الناس يرجون ظهوره، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه، فأقاموا ولده المذكور في يوم النحر. انتهى كلام ابن خلكان.

وقال أبو المظفر في المرآة: وملك الظاهر لإعزاز دين الله سائر ممالك والده، مثل الشام والثغور وإفريقية، وقامت عمته ست الملك بتدبير مملكته أحسن قيام، وبذلت العطاء في الجند وساست الناس أحسن سياسة. وكان الظاهر لإعزاز دين الله عاقلاً سمحاً جواداً يميل إلى دين وعفة وحلم مع تواضع. أزال الرسوم التي جددها أبوه الحاكم إلى خير، وعدل في الرعية

وأحسن السيرة، وأعطى الجند والقواد الأموال، واستقام له الأمر مدة، وولى نوابه بالبلاد الشامية، إلى أن خرج عليه صالح بن مرداس الكلابي وقصد حلب وبها مرتضى الدولة أبو نصر بن لؤلؤ الحمداني نيابة عن الظاهر هذا، فحاصرها صالح المذكور إلى أن أخذها. ثم تغلب حسان بن المفرج بن دغفل البدوي صاحب الرملة على أكثر الشأم، وتضعضعت دولة الظاهر. واستوزر الوزير نجيب الدولة علي بن أحمد الجرجرائي. وكان الوزير هذا من بيت حشمة ورياسة، وكان أقطع اليدين من المرفقين، قطعهما الحاكم بأمر الله في سنة أربع وأربعمائة، وكان يكتب عنه العلامة القاضي أبو عبد الله القضاعي، وكانت العلامة الحمد لله شكراً لنعمته. ولم يظهر أمر هذا الوزير إلا بعد موت عمة الظاهر ست الملك بعد سنة خمس عشرة وأربعمائة. وكان الظاهر لإعزاز دين الله كثير الصدقات منصفاً من نفسه، لا يدعي دعاوى والده وجده في معرفة النجوم وغيرها من الأشياء المنكرة، لا سيما لما وقع من بعض حجاج المصريين كسر الحجر الأسود بالبيت الحرام في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. وكان أمر الحجر أنه لما وصل الحاج المصري إلى مكة المشرفة، وثب شخص من الحجاج إلى الحجر الأسود وهو مكانه من البيت الحرام، وضربه بدبوس كان في يده حتى شعثه وكسر قطعاً منه، وعاجله الناس فقتلوه، وثار المكيون بالمصريين فقتلوا منهم جماعة ونهبوهم، حتى ركب أبو الفتوح الحسن بن جعفر فأطفأ الفتنة ودفع عن المصريين. وقيل: إن الرجل الذي فعل ذلك كان من الجهال الذين استغواهم الحاكم وأفسد عقائدهم. فلما بلغ الظاهر ذلك شق عليه وكتب كتاباً في هذا المعنى.

قال هلال بن الصابىء: وجدت كتاباً كتب من مصر في سنة أربع عشرة وأربعمائة على لسان المصريين، وهو كتاب طويل، فمنه: وذهبت طائفة من النصيرية إلى الغلو في أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى في المسيح. ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ضالة بجهلها عن سواء السبيل، فغلوا فينا غلواً كبيراً، وقالوا في آبائنا وأجدادنا منكراً من القول وزوراً، ونسبونا بغلوهم الأشنع، وجهلهم المستفظع، إلى ما لا يليق بنا ذكره. وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال. ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه وتوطيد قواعده وتمكينه، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى، وأبونا علي المرتضى، وأسلافنا البررة أعلام الهدى. وقد علمتم يا معشر أوليائنا

ودعاتنا ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق، والفجرة المراق، وتفريقنا لهم في البلاد كل مفرق، فظعنوا في الآفاق هاربين، وشردوا مطرودين خائفين. وكان من جملة من دعاه الخوف منهم إلى الانتزاح رجل من أهل البصرة أهوج أثول، ضال مضل، سار مع الحجيج إلى مكة حرسها الله فرقاً من وقع الحسام، وتستر بالحج إلى بيت الله الحرام. فلما حصل في البيت المفضل المعظم، والمحل المقدس المكرم، أعلن بالكفر، وما كان يخفيه من المكر، وحمله لمم في عقله على قصد الحجر الأسود حتى قصده وضربه بدبوس ضربات متواليات، أطارت منه شظايا وصلت بعد ذلك. ثم إن هذا الكافر عوجل بالقتل على أسوإ حاله وأضل أعماله، وألحق بأمثاله من الكفرة الواردين موارد ضلاله، ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم. ولعمري إن هذه لمصيبة في الإسلام قادحة، ونكاية فادحة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. لقد ارتقى هذا الملعون مرتقى عظيماً، ومقاماً جسيماً، أذكر به ما كان أقدم عليه غلام ثقيف المعروف بالحجاج لعنه الله من إحراق البيت وهدمه، وإزالة بنيانه وردمه. ثم ذكر كلاماً طويلاً في هذا المعنى يطول الشرح في ذكره. انتهى كلام ابن الصابىء.

وروى ابن ناصر بإسناد إلى أبي عبد الله محمد بن علي العلوي، قال: وفي سنة ثلاث عشرة وأربعمائة كسر الحجر الأسود لما صليت الجمعة يوم النفر الأول بمنى، ولم يكن رجع الناس بعد من منى، قام رجل ممن ورد من ناحية مصر بيده سيف مسلول وبالأخرى دبوس، بعدما قضى الإمام الصلاة، فقصد الحجر الأسود ليستلمه على الرسم، فضرب وجه الحجر ثلاث ضربات متواليات بالدبوس، وقال: إلى متى يعبد الحجر! ولا محمد ولا علي يقدران على منعي عما أفعله، إني أريد أن أهدم هذا البيت وأرفعه. فاتقاه الحاضرون وتراجعوا عنه، وكاد يفلت. وكان رجلاً تام القامة أحمر اللون أشقر الشعر سميناً، وكان على باب المسجد عشرة فرسان على أن ينصروه، فاحتسب رجل من أهل اليمن أو من أهل مكة أو غيرها نفسه، فوجأه بخنجر واحتوشه الناس فقتلوه، وقطعوه وأحرقوه بالنار، وثارت الفتنة، وكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين غير ما أخفي منهم. وتقشر بعض وجه الحجر في وسطه من تلك الضربات وتخشن. وزعم بعض الحجاج أنه سقط منه ثلاث قطع، وكأنه ثقب ثلاثة ثقوب، وتساقطت منه شظايا مثل الأظفار، وموضع الكسر أسمر يضرب إلى صفرة، محبب مثل الخشخاش. فجمع بنو شيبة ما تفرق منه وعجنوه بالمسك، وحشوا تلك المواضع وطلوها بطلاء من

اللك، فهو بين لمن تأمله، وهو على حاله إلى اليوم. انتهى.

ثم بعد هذه الواقعة بلغ الظاهر هذا أن السلطان يمين الدولة محمود بن سبكتكين عظم أمره، فأحدث أن يكتب إليه كتاباً يدعوه إلى طاعته، فكتب إليه وأرسل إليه بالخلع، وأن يخطب باسمه بتلك البلاد. وكان أبوه الحاكم بأمر الله أرسل إليه قبل ذلك، فخرق محمود بن سبكتكين كتاب الحاكم وبصق فيه، ومات الحاكم وفي قلبه من ذلك أمور، وقد ذكرنا ذلك في ترجمته. فلما علم الظاهر هذا بما كان والده الحاكم عزم عليه من أمر محمود المذكور أخذ هو أيضاً في ذلك، وكاتب السلطان محموداً، فلم يلتفت محمود لكتابه، وبعث به وبالخلع إلى الخليفة القادر العباسي، وتبرأ من الظاهر هذا. فجمع القادر القضاة والأشراف والجند وغيرهم ببغداد، وأخرج الخلع إلى باب النوبي، وكانت سبع جبب وفرجية ومركب ذهب، وأضرمت النار وألقيت الثياب فيها، وسبك المركب الذهب، فظهر منه أربعون ألف دينار وخمسمائة، وقيل: أخرج منه دراهم هذا العدد، فتصدق بها الخليفة القادر على ضعفاء بني هاشم. وبلغ الظاهر فقامت قيامته، وانكص عن مكاتبة محمود بعدها.

وكان المتغلبون على البلاد في أيام الظاهر كثيرين جداً، وذلك لصغر سنه وضعف بدنه. ووقع له في أيامه خطوب قاساها إلى أن توفي بالقاهرة في يوم الأحد النصف من شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وعمره إحدى وثلاثون سنة. وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة أشهر. تولى الملك بعده ابنه أبو تميم معد، ولقب بالمستنصر وسنه ثماني سنين، وقام علي بن أحمد الجرجرائي الوزير بالأمر، وأخذ له البيعة، وقرر للجند أرزاقهم، واستقامت الأحوال. وكانت وفاة الظاهر بعلة الاستسقاء، طالت به نيفاً وعشرين سنة من عمره.

قلت: ولهذا أشرنا أنه كان كثرة من تغلب عليه لضعف بدنه وصغر سنه.

* * *

خلافة المستنصر بالله على مصر

هو أبو تميم معد الملقب بالمستنصر بالله بن الظاهر لإعزاز دين الله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله معد أول خلفاء الفاطميين بمصر ابن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي المغربي الأصل، المصري المولد والمنشأ والدار والوفاة؛ وهو الخامس من خلفاء مصر من بني عبيد، والثامن من المهدي عبيد الله. ولي الخلافة بعد موت أبيه الظاهر لإعزاز دين الله في يوم الأحد منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة. وكان عمره يوم ولي الخلافة سبع سنين وسبعة وعشرين يوماً؛ وختن وهو ابن ست سنين.

ونشرع الآن في ذكر المستنصر وأمر الغلاء بأوسع مما ذكره الذهبي من أقوال جماعة من المؤرخين وغيرهم.

قال العلامة أبو المظفر في تاريخه: ولم يل أحد من الخلفاء الأمويين ولا العباسيين ولا المصريين مثل هذه المدة يعني مدة إقامة المستنصر في الخلافة ستين سنة قال: وعاش المستنصر سبعاً وستين سنة وخمسة أشهر في الهزاهز والشدائد والوباء والغلاء والجلاء والفتن. وكان القحط في أيامه سبع سنين مثل سني يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه، من سنة سبع وخمسين إلى سنة أربع وستين وأربعمائة. أقامت البلاد سبع سنين يطلع النيل فيها وينزل، ولا يوجد من يزرع لموت الناس واختلاف الولاة والرعية، فاستولى الخراب على كل البلاد، ومات أهلها، وانقطعت السبل براً وبحراً. وكان معظم الغلاء سنة اثنتين وستين.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في أيامه يعني المستنصر ثارت الفتن في بني حمدان وأكابر القواد، وغلت الأسعار، واضطربت الأحوال، واختلت الأعمال، وحصر في قصره وطمع فيه. ولم يزل على ذلك حتى استدعى أمير الجيوش بدراً الجمالي من عكا إلى مصر فاستولى على التدبير، وقتل جماعة ممن يطلب الفساد، فتمهدت الأمور؛ ولم يبق للمستنصر أمر ولا نهي إلا الركوب في العيدين. ولم يزل كذلك حتى مات بدر الجمالي وقام بعده ولده الأفضل. ولما مات المستنصر وقام المستعلي مقامه وتقررت الأمور، خرج عبد الله ونزار ابنا المستنصر خفية، وقصد نزار الإسكندرية إلى ناصر الدولة واليها، وجرت بينه وبين الأفضل حروب بسبب ذلك إلى أن ثبت أمر المستعلي. انتهى كلام أبي يعلى باختصار.

وفي الجملة أن الذي حصل للمستنصر في هذه الواقعة من الخطبة باسمه في العراق وبغداد لم يحصل ذلك لأحد من آبائه وأجداده. ولولا تخوف المستنصر من البساسيري أو تحريضه على ما هو بصدده لكانت دعوته تتم بالعراق زماناً طويلاً،

فإنه كان أولا أمد البساسيري بجمل مستكثرة. فلو دام المستنصر على ذلك لكان البساسيري يفتتح له عدة بلاد. قال الحسن بن محمد العلوي: " إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من مال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة فرس، وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب شيء كثير. يعني قبل هذه الواقعة؛ ولهذا قلنا: لو دام المستنصر على عطائه للبساسيري لكان افتتح له عدة بلاد. قلت: ولله الحمد على ما فعله المستنصر من التقصير في حق البساسيري، وإلا لكانت السنة تذهب بالعراق، وتملكها الرافضة بأجمعها كما كان وقع بمصر في أيام دولة الفاطميين أعني صاحب الترجمة وآباءه.

ولما خطب البساسيري في بغداد باسم المستنصر معد هذا غنته مغنية بقولها: الرمل - مجزوء

يا بني العباس صدوا ::: ملك الأمر معد

ملككم كان معاراً ::: والعواري تسترد

فطرب المستنصر لذلك ووهبها أرضاً بمصر رزقة لها جائزة لإنشادها هذا الشعر، وتلك الأرض الآن تعرف بأرض الطبالة بالقرب من بركة الرطلي لكونها غنته بهذه الأبيات، وهي تطبل بدف كان في يدها، فعرفت بأرض الطبالة، وحكرت الأرض المذكورة وبنيت. وكان ما وقع للمستنصر هذا تمام سعده. ومن حينئذ أخذ أمره في إدبار من وقوع الغلاء والوباء بالديار المصرية.

وقاسى الناس شدائد، واختل أمر مصر - على ما سنذكره إن شاء الله تعالى في وقته من هذه الترجمة - من استيلاء ناصر الدولة بن حمدان على ممالك الديار المصرية؛ وزاد ابن حمدان في عطاء الجند حتى نفدت الخزائن، وقلت الارتفاعات. واتفق ابن حمدان مع الشريف أبي طاهر حيدرة بن الحسن الحسيني، وكان قد نفاه بدر الجمالي من دمشق، وكان محبباً للناس، وتلقبه العامة بأمير المؤمنين، وكان لما نفاه بدر الجمالي من دمشق دخل إلى مصر شاكياً إلى ابن حمدان من بدر الجمالي - فاتفق ابن حمدان والشريف وحازم وحميد ابنا جراح وهما من أمراء عرب الشام، وكان لهما في حبس المستنصر نيف وعشرون سنة، فأخرجهما ابن حمدان واتفقوا على الفتك ببدر الجمالي، فأعطاهم ابن حمدان أربعين ألف دينار ينفقونها في هذا الوجه. وتحدث ابن حمدان بأن يرتب الشريف إذا عاد مكان المستنصر في الخلافة لنسبه الصحيح. وانقسم عسكر مصر قسمين: قسماً مع ابن حمدان، وقسماً عليه، وزادت مطالبة ابن حمدان بالأموال حتى استوعبها وأخرج جميع ما في القصر من ثياب وأثاث وباعها بالثمن البخس وحالف الأتراك سراً على المستنصر. وعلم المستنصر بما فعله مضافا

لما سمع عنه من أمر الشريف، فقلق وأرسل لابن حمدان ويقول بأنك قدمت علينا زائراً وجئتنا ضيفاً، فقابلناك بالإحسان وأكرمناك، فقابلتنا بما لا نستحقه منك؟ ونحن عليك صابرون، وعنك مغضون. وقد انتهت بك الحال إلى محالفة العسكر علينا والسعي في إتلافنا، وما ذاك مما يهمك؛ ونحب أن تنصرف عنا موفوراً في نفسك ومالك، وإلا قابلناك على قبيح أفعالك. فأغلظ ابن حمدان في الجواب واستهزأ بالرسول. فبعث المستنصر إلى إلدكز الملقب بأسد الدولة، وكان شيخ الأتراك والمقدم عليهم، وكان من المخالفين على ابن حمدان، فاستحضره واستحلفه وتوثق منه ومن جماعة ممن جرى مجراه، وجمع الأتراك الذين معه والمغاربة وكتامة إلى باب القصر. وعرف ابن حمدان بذلك فبرز بخيمة إلى بركة الحبش، وأخرج المستنصر خيمته الحمراء، وتسمى خيمة الدم، فضربها بين القصرين من القاهرة. واجتمع الناس على المستنصر، وركب وسار إلى حرب ابن حمدان. والتقوا بمكان يعرف بالباب الجديد، فورد أكثر من كان مع ابن حمدان بالأمان إلى المستنصر. وكان في جملة من ورد الأمير أبو علي ابن الملك أبي طاهر بن بويه، ثم قتل المذكور بعد ذلك بمدة. ووقع القتال فانكسر ابن حمدان وهرب بنفسه إلى الإسكندرية، ونهبت دوره وأمواله ودور أصحابه. ومضى ابن حمدان إلى حي من العرب وتزوج منهم وقوي بهم، فصار يشن الغارات على أعمال مصر، ويبعث إليه المستنصر في كل وقت جيشاً فيهزمه ابن حمدان. ولا زال على ذلك حتى جمع ابن حمدان جمعاً كبيراً ونزل الصالحية؛ فخرج إليه من كان يهواه من المشارقة، وامتدت عسكره نحو عشرة فراسخ وحاصر مصر؛ فضعف المستنصر عن مقاومته وانحصر بالقاهرة. وطال الحصار وغلت الأسعار حتى بلغت الراوية الماء ثلاثة عشر قيراطاً، وكل ثلاثة عشر رطلا من الخبز ديناراً، وعدمت الأقوات، فضج العوام، فخاف المستنصر أن يسلموه إليه، فراسله وصالحه. واقترح عليه ابن حمدان إبعاد إلدكز ومن يعاديه من المشارقة، وأن ينفرد ابن حمدان بالبلاد وتدبير الأمور والعساكر، فرضي المستنصر بذلك كله؛ ورفع الحصار عن مصر، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه. فهرب غالب من كان مع المستنصر إلى الشام، ووفدوا على صاحبها بدر الجمالي. وكان بدر الجمالي يكره ابن حمدان والشريف المذكور. ثم ظفر الجمالي بالشريف المذكور وقتله خنقاً. على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وصار المستنصر في قصره كالمحجور عليه ولا حكم له.

هذا والغلاء بمصر يتزايد، حتى إنه جلا من مصر خلق كثير لما حصل بها من الغلاء الزائد عن الحد، والجوع الذي لم يعهد مثله في الدنيا، فإنه مات أكثر أهل مصر، وأكل بعضهم بعضاً. وظهروا على بعض الطباخين أنه ذبح عدة من الصبيان

والنساء وأكل لحومهم وباعها بعد أن طبخها. وأكلت الدواب بأسرها، فلم يبق لصاحب مصر - أعني المستنصر - سوى ثلاثة أفراس بعد أن كانت عشرة آلاف ما بين فرس وجمل ودابة. وبيع الكلب بخمسة دنانير، والسنور بثلاثة دنانير. ونزل الوزير أبو المكارم وزير المستنصر على باب القصر عن بغلته وليس معه إلا غلام واحد، فجاء ثلاثة وأخذوا البغلة منه، ولم يقدر الغلام على منعهم لضعفه من الجوع فذبحوها وأكلوها، فأخذوا وصلبوا، فأصبح الناس فلم يروا إلا عظامهم، أكل الناس في تلك الليلة لحومهم. ودخل رجل الحمام فقال له الحمامي: من تريد أن يخدمك سعد الدولة أو عز الدولة أو فخر الدولة. فقال له الرجل: أتهزأ بي! فقال: لا والله، انظر إليهم، فنظر فإذا أعيان الدولة ورؤساؤها صاروا يخدمون الناس في الحمام لكونهم باعوا جميع موجودهم في الغلاء واحتاجوا إلى الخدمة. وأعظم من هذا أن المستنصر الخليفة صاحب الترجمة باع جميع موجوده وجميع ما كان في قصره حتى أخرج ثياباً كانت في القصر من زمن الطائع الخليفة العباسي، لما نهب بهاء الدولة دار الخليفة في إحدى وثمانين وثلاثمائة، وأشياء أخر أخذت في نوبة البساسيري، وكانت هذه الثياب التي لخلفاء بني العباس عند خلفاء مصر يحتفظون بها لبغضهم لبني العباس، فكانت هذه الثياب عندهم بمصر بسبب المعيرة لبني العباس. فلما ضاق الأمر على المستنصر أخرجها وباعها بأبخس ثمن لشدق الحاجة. وأخرج المستنصر أيضاً طستاً وإبريقاً بلوراً يسع الإبريق رطلين ماء، والطست أربعة أرطال، وأظنه بالبغدادي، فبيعا باثني عشر درهما فلوساً، ثم باع المستنصر من هذا البلور ثمانين ألف قطعة. وأما ما باع من الجواهر واليواقيت والخسرواني فشيء لا يحصى. وأحصي من الثياب التي أبيعت في هذا الغلاء من قصر الخليفة ثمانون ألف ثوب، وعشرون ألف درع، وعشرون ألف سيف محلى؛ وباع المستنصر حتى ثياب جواريه وتخوت المهود، وكان الجند يأخذون ذلك بأقل ثمن. وباع رجل داراً بالقاهرة كان اشتراها قبل ذلك بتسعمائة دينار بعشرين رطل دقيق. وبيعت البيضة بدينار والإردب القمح بمائة دينار في الأول، ثم عدم وجود القمح أصلا. وكان السودان يقفون في الأزقة يخطفون النساء بالكلاليب ويشرحون لحومهن ويأكلونها. واجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة، فعفقها السودان بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة، وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها، فخرجت من الدار واستغاثت، فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوفاً من القتلى، وقتل السودان. واحتاج المستنصر في هذا الغلاء حتى إنه أرسل فأخذ قناديل الفضة والستور من مشهد إبراهيم الخليل عليه السلام. وخرجت امرأة من القاهرة في هذا الغلاء ومعها مد جوهر، فقالت: من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقاً أو قمحاً؟ فلم يلتفت إليها أحد؛ فألقته في الطريق وقالت:

هذا ما ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم؛ فلم يلتفت إليه أحد وهو مبدد في الطريق فهذا أعجب من الأول.

وقيل: إن سبب ما حصل لمصر من الخلل في أول الأمر الفتنة التي كانت بمصر في أيام المستنصر هذا بين الأتراك والعبيد، وهو أن المستنصر كان من عادته في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة، وهو موضع نزهة، فيخرج إليه بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل الهزء والمجانة، ومعه الخمر في الروايا عوضاً عن الماء ويسقيه الناس، كما يفعل بالماء في طريق مكة. فلما كان في جمادى الآخرة خرج على عادته المذكورة، فاتفق أن بعض الأتراك جرد سيفاً في سكرته على بعض عبيد الشراء، فاجتمع عليه طائفة من العبيد فقتلوه، فاجتمع الأتراك بالمستنصر هذا وقالوا له: إن كان هذا عن رضاك فالسمع والطاعة، وإن كان عن غير رضاك فلا ترضى بذلك، فأنكر المستنصر ذلك؛ فاجتمع جماعة من الأتراك وقتلوا جماعة من العبيد بعد أن حصل بينهم وبين العبيد قتال شديد على كوم شريك وانهزم العبيد من الأتراك. وكانت أم المستنصر تعين العبيد بالأموال والسلاح؛ فظفر بعض الأيام أحد الأتراك بذلك، فجمع طائفة الأتراك ودخلوا على المستنصر وقاموا عليه وأغلظوا له في القول، فحلف لهم أنه لم يكن عنده خبر. وصار السيف قائماً بينهم. ثم دخل المستنصر على والدته وأنكر عليها. ودامت الفتنة بين الأتراك والعبيد إلى أن سعى وزير الجماعة أبو الفرج بن المغربي - وأبو الفرج هذا هو أول من ولي كتابة الإنشاء بمصر - ولا زال الوزير أبو الفرج هذا يسعى بينهم حتى اصطلحوا صلحاً يسيراً، فاجتمع العبيد وخرجوا إلى شبرى دمنهور. فكانت هذه الواقعة أول الاختلاف بديار مصر؛ فإنه قتل من الأتراك والعبيد خلائق كثيرة، وفسدت الأمور فطمع كل أحد. وكان سبب كثرة السودان ميل أم المستنصر إليهم؛ فإنها كانت جارية سوداء لأبي سعد التستري اليهودي. فلما ولي المستنصر الخلافة ومات الوزير صفي الدين الجرجرائي في سنة ست وثلاثين حكمت والدة المستنصر على الدولة، واستوزرت سيدها أبا سعد المذكور، ووزر لابنها المستنصر الفلاحي، فلم يمش له مع أبي سعد حال فاستمال الأتراك وزاد في واجباتهم حتى قتلوا أبا سعد المذكورة فغضبت لذلك أم المستنصر وقتلت أبا منصور الفلاحي، وشرعت في شراء العبيد السود، وجعلتهم طائفة واستكثرت منهم. فلما وقع بينهم وبين الأتراك قامت في نصرهم.

وقال الشيخ شمس الدين بن قزأوغلي في المرآة: وكل هذه الأشياء كان ابن حمدان

سببها، ووافق ذلك انقطاع النيل؛ وضاقت يد أبي هاشم محمد أمير مكة بانقطاع ما كان يأتيه من مصر، فأخذ قناديل الكعبة وستورها وصفائح الباب والميزاب، وصادر أهل مكة فهربوا. وكذا فعل أمير المدينة مهنأ، وقطعا الخطبة للمستنصر، وخطبا لبني العباس الخليفة القائم بأمر الله، وبعثا إلى السلطان ألب أرسلان السلجوقي حاكم بغداد بذلك، وأنهما أذنا بمكة والمدينة الأذان المعتاد، وتركا الأذان ب حي على خير العمل؛ فأرسل ألب أرسلان إلى صاحب مكة أبي هاشم المذكور بثلاثين ألف دينار، وإلى صاحب المدينة بعشرين ألف دينار. وبلغ الخبر بذلك المستنصر، فلم يلتفت إليه لشغله بنفسه ورعيته من عظم الغلاء. وقد كاد الخراب أن يستولي على سائر الإقليم. ودخل ابن الفضل على القائم بأمر الله العباسي ببغداد، وأنشده في معنى الغلاء الذي شمل مصر قصيدة، منها: الطويل.

وقد علم المصري أن جنوده ::: سنو يوسف منها وطاعون عمواس

أحاطت به حتى استراب بنفسه ::: وأوجس منها خيفة أي إيجاس

قلت: وهذا شأن أرباب المناصب، إذا عزل أحدهم بآخر أراد هلاكه ولو هلك العالم معه. وهذا البلاء من تلك الأيام إلى يومنا هذا.

ثم في سنة ست وستين سار بدر الجمالي أمير الجيوش من عكا إلى مصر، ومعه عبد الله بن المستنصر باستدعاء المستنصر بعد قتل ابن حمدان بمدة. واسم ابن حمدان الحسن بن الحسين بن حمدان أبو محمد التغلبي الأمير ناصر الدولة ذو المجدين.

ودام المستنصر في الخلافة وهو كالمحجوز عليه مع بدر الجمالي؛ ثم من بعده مع ولده الأفضل شاهنشاه إلى أن توفي بالقاهرة في يوم عيد الفطر، وهو يوم الخميس سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وبايع الناس ابنه أحمد من بعده، ولقب بالمستعلي بالله. وقام الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي بتدبير ملكه. وقد تقدم مدة إقامة المستنصر في الخلافة، وكم عاش من السنين في أول ترجمته فيطلب هناك.

* * *

خلافة المستعلي بالله على مصر

المستعلي بالله خليفة مصر اسمه أحمد وكنيته أبو القاسم ابن المستنصر بالله معد ابن الظاهر بالله علي ابن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ابن المنصور إسماعيل ابن القائم محمد بن المهدي عبيد الله، السادس من خلفاء مصر الفاطميين بني عبيد، والتاسع ممن ولي من أجداده الخلافة بالمغرب.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر معد في يوم عيد الغدير، يوم ثامن عشر ذي الحجة سنة سبع وثمانين، ومولده بالقاهرة في المحرم سنة سبع وستين وأربعمائة. ولما ولي الخلافة كانت سنه يوم ذاك نيفت على عشرين سنة. وقال ابن خلكان: مولده لعشر ليال بقين من المحرم، وذكر السنة. وكان القائم بأمره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي؛ فإن المستنصر كان قد أجلس بعده ابنه أبا منصور نزاراً أكبر أولاده، وجعل إليه ولاية العهد بالخلافة. فلما مرض المستنصر أراد أخذ البيعة له فتقاعد الأفضل شاهنشاه ودافع المستنصر من يوم إلى يوم حتى مات المستنصر، وكان ذلك كراهة من الأفضل في نزار ولد المستنصر. وسببه أن نزاراً خرج ذات يوم في حياة أبيه المستنصر فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر، فصاح به نزار المذكور: انزل يا أرمني يا نجس!. فحقدها عليه الأفضل وصار كل منهما يكره الآخر. فاجتمع الأفضل بعد موت المستنصر بالأمراء والخواص وخوفهم من نزار وأشار عليهم بولاية أخيه الصغير أبي القاسم أحمد، فرضوا بذلك ما خلا محمود بن مصال اللكي فإن نزاراً كان وعده بالوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل. فلما علم ابن مصال الحال أعلم نزاراً بذلك، وبادر الأفضل بإخراج أبي القاسم أحمد هذا وبايعه ونعته بالمستعلي بالله، وذلك بكرة يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة، وأجلسه على سرير الخلافة، وجلس الأفضل شاهنشاه على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الأنام علي بن نافع بن الكحال والشهود معه، وأخذوا البيعة على مقدمي الدولة ورؤسائها وأعيانها. ثم مضى الأفضل إلى إسماعيل وعبد الله ابني المستنصر وهما بالمسجد بالقصر، والموكلون عليهما، فقال لهما: إن البيعة تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعان أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة؛ إن الله اختاره علينا؛ وقاما وبايعاه. فكتب الأفضل بذلك سجلا قرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء على الأمراء.

وأما أمر نزار فإنه بادر وخرج من وقته وأخذ معه أخاه عبد الله الذي بايع وابن مصال اللكي وتوجهوا إلى الإسكندرية، وكان الوالي بها ناصر الدولة

أفتكين التركي أحد مماليك أمير الجيوش بدر الجمالي أعني والد الأفضل هذا، فعرفوه الحال ووعده نزار بالوزارة، فطمع أفتكين في ذلك، وبايع نزاراً المذكور، وبايع أيضاً جميع أهل الإسكندرية، ولقب المصطفى لدين الله.

وقدم الأفضل بأفتكين ونزار إلى القاهرة، وكان أفتكين يلعن المستعلي والأفضل ابن أمير الجيوش على المنابر؛ فقتله المستعلي بيده وبنى على أخيه نزار حائطاً فهو تحته إلى الآن. وكان للمستعلي أخ أسمه عبد الله فظفر به الأفضل.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في جمادى الأولى ورد الخبر بأن قوماً من أهل إنطاكية عملوا عليها وواطؤوا الفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدمت من حاكم البلد في حقهم ومصادرته لهم، ووجدوا الفرصة في برج من الأبراج التي للبلد مما يلي الجبل، فبادرهم إياه، وأصعدوا منه في السحر وصاحوا، فانهزم ياغي سيان وخرج في خلق عظيم فلم يسلم منهم شخص؛ فسقط الأمير عن فرسه عند معرة مصرين، فحمله بعض أصحابه وأركبه فلم يثبت على ظهر الفرس وسقط ثانياً فمات. وأما إنطاكية فقتل منها وسبي من الرجال والنساء والأطفال مالا يدركه حصر، وهرب إلى القلعة قدر ثلاثة آلاف تحصنوا بها.

وكان أخذ المعرة في ذي الحجة بعد أخذ إنطاكية. ولما وقع ذلك اجتمع ملوك الإسلام بالشام، وهم رضوان صاحب حلب وأخوه دقماق وطغتكين وصاحب الموصل وسكمان بن أرتق صاحب ماردين وأرسلان شاه صاحب سنجار - ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر. وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال - فاجتمع الجميع ونازلوا إنطاكية وضيقوا على الفرنج حتى أكلوا ورق الشجر. وكان صنجيل مقدم الفرنج عنده دهاء ومكر، فرتب مع راهب حيلة وقال: اذهب فادفن هذه الحربة في مكان كذا، ثم قل للفرنج بعد ذلك: رأيت المسيح في منامي وهو يقول: في المكان الفلاني حربة مدفونة فاطلبوها، فإن وجدتموها فالظفر لكم، وهي حربتي، فصوموا ثلاثة أيام وصلوا وتصدقوا ثم قام وهم معه إلى المكان ففتشوه فظهرت الحربة؛ فصاحوا وصاموا وتصدقوا وخرجوا إلى المسلمين، وقاتلوهم حتى دفعوهم عن البلد؛ فثبت جماعة من المسلمين فقتلوا عن آخرهم، رحمهم الله تعالى. والعجب أن الفرنج لما خرجوا إلى المسلمين كانوا في غاية الضعف من الجوع وعدم القوت حتى إنهم أكلوا الميتة وكانت عساكر الإسلام في غاية القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم،

وانكسر أصحاب الجرد السوابق، ووقع السيف في المجاهدين والمطوعين. فكتب دقماق ورضوان والأمراء إلى الخليفة أعني المستظهر العباسي يستنصرونه؛ فأخرج الخليفة أبا نصر بن الموصلايا إلى السلطان بركياروق ابن السلطان ملكشاه السلجوقي يستنجده. كل ذلك وعساكر مصر لم تهيأ للخروج.

وأما أخذ بيت المقدس فكان في يوم الجمعة ثالث وعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة، وهو أن الفرنج ساروا من إنطاكية ومقدم الفرنج كندهري في ألف ألف، منهم خمسمائة ألف مقاتل فارس، والباقون رخالة وفعلة وأرباب آلات من مجانيق وغيرها، وجعلوا طريقهم على الساحل. وكان بالقدس افتخار الدولة من قبل المستعلي خليفة مصر صاحب الترجمة، فأقاموا يقاتلون أربعين يوماً، وعملوا برجين مطفين على السور؛ أحدهما بباب صهيون، والآخر بباب العمود وباب الأسباط، وهو برج الزاوية - ومنه فتحها السلطان صلاح الدين بن أيوب، على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى - فأحرق المسلمون البرج الذي كان بباب صهيون وقتلوا من فيه. وأما الآخر فزحفوا به حتى ألصقوه بالسور، وحكموا به على البلد، وكشفوا من كان عليه من المسلمين، ثم رموا بالمجانيق والسهام رمية رجل واحد، فانهزم المسلمون فنزلوا إلى البلد، وهرب الناس إلى الصخرة والأقصى واجتمعوا بها، فهجموا عليهم وقتلوا في الحرم مائة ألف وسبوا مثلهم، وقتلوا الشيوخ والعجائز وسبوا النساء، وأخذوا من الصخرة والأقصى سبعين قنديلا، منها عشرون ذهباً في كل قنديل ألف مثقال، ومنها خمسون فضة في كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم بالشامي، وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلا بالشامي، وأخذوا من الأموال ما لا يحصى. وكان بيت المقدس منه افتتحه عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في سنة ست عشرة من الهجرة، لم يزل بأيدي المسلمين إلى هذه السنة. هذا كله وعسكر مصر لم يحضر، غير أن الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر وجد في السير، فوصل إلى القدس يوم ثاني فتحه ولم يعلم بذلك. فقصده الفرنج وقاتلوه، فلم يثبت لهم ودخل عسقلان بعد أن قتل من أصحابه عدد كثير؛ فأحرق الفرنج ما حول عسقلان وقطعوا أشجارها، ثم عادوا إلى القدس. ثم عاد الأفضل إلى مصر بعد أمور وقعت له مع الفرنج. واستمر بيت المقدس مع الفرنج، فلا قوة إلا بالله.

ولما تمت هذه الحادثة خرج المستنفرون من دمشق مع قاضيها زين الدين أبي سعد الهروي، فوصلوا بغداد وحضروا في الديوان وقطعوا شعورهم واستغاثوا وبكوا، وقام القاضي في الديوان وأورد كلاماً أبكى الحاضرين؛ وندب من الديوان من يمضي إلى العسكر السلطاني ويعرفهم بهذه المصيبة؛ فوقع التقاعد لأمر يريده الله.

والمقصود أن القاضي ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة. ولا قوة إلا بالله. ثم إن الأفضل ابن أمير الجيوش جهز من مصر جيشاً كثيفاً وعليه سعد الدولة القواسي في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، فخرج سعد الدولة المذكور من مصر بعسكره فالتقى مع الفرنج بعسقلان؛ ووقف سعد الدولة في القلب، فقاتل قتالا شديداً، فكبا به فرسه فقتل. وثبت المسلمون بعد قتله وحملوا على الفرنج فهزموهم إلى قيسارية. فيقال: إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثمائة ألف، ولم تقتل من المسلمين سوى مقدم عسكرهم سعد الدولة القواسي المذكور ونفر يسير.

ومات المستعلي صاحب الترجمة في يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وقيل: في ثالث عشر صفر، والأول أشهر. ومات وله سبع وعشرون سنة.

* * *

خلافة الآمر بأحكام الله على مصر

الآمر اسمه: منصور، وكنيته أبو علي، ولقبه الآمر بأحكام الله بن المستعلي بالله أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر بالله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبيد الله العبيدي الفاطمي، السابع من خلفاء مصر من بني عبيد والعاشر منهم ممن ملك بالمغرب.

قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخ الإسلام: كان رافضياً كآبائه فاسقاً ظالماً جباراً متظاهراً بالمنكر واللهو، ذا كبر وجبروت.

وكان الآمر يتناهى في العظمة ويتقاعد عن الجهاد. فإنه مع تلك المساوي التي ذكرت عنه كان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه.

* * *

خلافة الحافظ لدين الله على مصر

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد ابن الأمير أبي القاسم محمد ابن الخليفة المستنصر بالله معد ابن الظاهر بالله علي ابن الحاكم بأمر الله منصور ابن العزيز بالله نزار ابن المعز لدين الله معد ابن المنصور إسماعيل ابن القائم محمد ابن المهدي عبيد الله، العبيدي الفاطمي المصري، الثامن من خلفاء مصر من بني عبيد، والحادي عشر منهم ممن ولي من آبائه بالمغرب، وهم ثلاثة: المهدي والقائم والمنصور. وأول من ولي من آبائه بالقاهرة المعز لدين الله؛ فلهذا قلنا: هو الثامن من خلفاء مصر، والحادي عشر منهم ممن ولي بالمغرب.

وكانت ولاية الحافظ على مصر تسع عشرة سنة وسبعة أشهر؛ وتولى الخلافة بعده أصغر أولاده، حسب ما ذكرناه عن كلام صاحب المقلتين.

* * *

خلافة الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد ابن الأمير محمد ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر علي بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد، التاسع من خلفاء مصر من بني عبيد، والثاني عشر منهم ممن ولي من أجداده خلفاء المغرب.

بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ في جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر.

* * *

خلافة الفائز بنصر الله على مصر

هو أبو القاسم عيسى ابن الخليفة الظافر بأمر الله أبي منصور إسماعيل ابن الخليفة الحافظ أبي الميمون عبد المجيد بن محمد - ومحمد هذا ليس بخليفة - ابن الخليفة المستنصر بالله معد ابن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله علي ابن الخليفة الحاكم بأمر الله منصور ابن الخليفة العزيز بالله نزار ابن الخليفة المعز لدين الله معد أول خلفاء مصر ابن الخليفة المنصور إسماعيل ابن الخليفة القائم بأمر الله محمد ابن الخليفة المهدي عبيد الله، العبيدي الفاطمي المغربي الأصل المصري، العاشر من خلفاء مصر من بني عبيد والثالث عشر من أصلهم المهدي أحد خلفاء بني عبيد بالمغرب. وأم الفائز هذا أم ولد يقال لها زين الكمال.

* * *

السنة التي حكم في أولها الظافر وفي آخرها الفائز وكلاهما ليس له في الخلافة إلا مجرد الاسم فقط وهي سنة تسع وأربعين وخمسمائة

فيها حنقت الترك على سنجر شاه السلجوقي وتركوه في قيد من حديد في خيمة، ووكل به جماعة وأجروا عليه ما لا يجرى على الكفرة، وكاد يموت خوفاً، وصار يبكي ليلا ونهاراً على نفسه، ويتمنى الموت.

وفيها ملك نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر المعروف بالشهيد دمشق من الأمير مجير الدين. وساعده في ذلك بعض أهل دمشق على مجير الدين المذكور لزيادة ظلمه ومصادراته الناس؛ فلما تحرك نور الدين لطلب دمشق وافقه أهلها لما في نفوسهم من مجير الدين.

وفيها توفي المظفر بن علي بن محمد بن محمد بن جهير، الوزير أبو نصر ابن الوزير فخر الدولة، وجده كان أيضاً وزيراً.

وفيها توفي محمد بن أحمد بن إبراهيم العلامة أبو بكر البغدادي الحنفي.

خلافة العاضد بالله على مصر

الخليفة أبو محمد عبد الله العاضد بالله ابن الأمير يوسف ابن الخليفة الحافظ بالله عبد المجيد ابن الأمير محمد ابن الخليفة المستنصر بالله معد ابن الظاهر بالله علي بن الحاكم بأمر الله منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل ابن القائم بالله محمد بن المهدي عبيد الله، الفاطمي العبيدي، المغربي الأصل المصري، الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر، والرابع عشر بالثلاثة الذين ولوا بالمغرب: المهدي والقائم والمنصور. ولد سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وقيل سنة أربعين.

* * *

ولاية أسد الدين شيركوه على مصر

وقد اختلف المؤرخون في أمر ولايته على مصر، فمنهم من عده من الأمراء، ومنهم من ذكره من الوزراء. ولهذا أخرنا ترجمته إلى هذه السنة، ولم نسلك فيها طريق أمراء مصر. وكان شاور قد توجه إلى الشام يستنجد نور الدين في سنة تسع وخمسين وخمسمائة؛ فنجده بأسد الدين شيركوه هذا بالعساكر، ووصلوا إلى مصر في الثاني من جمادى الآخرة من سنة تسع وخمسين، وغدر بهم شاور ولم يف بما وعدهم به؛ فعادوا إلى دمشق وعرفوا نور الدين بذلك. ثم إن شاور ألجأته الضرورة لطلبهم ثانياً خوفاً من الفرنج؛ فعاد أسد الدين ثانياً إلى مصر في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وستين؛ وسلك طريق وادي الغزلان وخرج عند وادي إطفيح، فكالت بينه وبينهم وقعة هائلة. وتوجه صلاح الدين إلى الإسكندرية واحتمى بها وحاصره شاور؛ لأنه كان قد وقع بينهم وبينه أيضاً، واصطلح عليهم مع الفرنج. ثم رجع أسد الدين من الصعيد نجمة لابن أخيه صلاح الدين، وأخذه وسار إلى بلبيس حتى وقع الصلح بينه وبين المصريين؛ وعاد إلى الشام. فحنق نور الدين لذلك ولم يمكنه الكلام لاشتغاله بفتح السواحل، ودام ذلك إلى أن وصل الفرنج إلى مصر وملكوها في سنة أربع وستين وقتلوا أهلها. أرسل العاضد يطلب النجدة من نور الدين فنجدهم بأسد الدين شيركوه، وهي ثالث مرة، فمضى إليهم أسد الدين وطرد الفرنج عنهم، وملك مصر في شهر ربيع الأول من سنة أربع وستين وخمسمائة. وعزم شاور على قتل أسد الدين وقتل أصحابه أكابر أمراء نور الدين معه؛ ففطن أسد الدين لذلك فاحترز على نفسه. وعلم ذلك صلاح الدين يوسف بن أيوب أيضاً، فاتفق

صلاح الدين يوسف مع الأمير جرديك النوري على مسك شاور وقتله؛ واتفق ركوب أسد الدين إلى زيارة قبر الإمام الشافعي - رضي الله عنه - وكان شاور يركب في كل يوم إلى أسد الدين؛ فلما توجه إليه في هذا اليوم المذكور قيل له: إنه توجه إلى الزيارة. فطلب العود؛ فلم يمكنه صلاح الدين وقال: انزل، الساعة يحضر عمي. فامتنع فجذبه هو وجرديك فأنزلوه عن فرسه وقبضوا عليه وقتلوه بعد حضور أسد الدين. وقد تقدم ذكر ذلك كله مفصلا في ترجمة العاضد.

وخلع العاضد على الأمير أسد الدين شيركوه المذكور بالوزارة، ولقبه بالملك المنصور. فلم تطل مدته ومات بعد شهرين فجأة في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة - وقيل: يوم الأحد ثالث عشرينه - سنة أربع وستين وخمسمائة، ودفن بالقاهرة ثم نقل إلى المدينة. وقال ابن شداد: كان أسد الدين شيركوه كثير الأكل، كثير المواظبة على أكل اللحوم الغليظة، فتواتر عليه التخم والخوانيق وهو ينجو منها بعد مقاساة شدة عظيمة، ثم اعترضه بعد ذلك مرض شديد واعتراه خانوق فقتله في التاريخ المقدم ذكره.

قلت: ولما مات تولى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة من بعده. وكان أسد الدين أميراً عاقلا شجاعاً مدبراً عارفاً فطناً وقوراً. كان هو وأخوه أيوب من أكابر أمراء نور الدين محمود الشهيد، وهو الذي أنشأهم حتى صار منهم ما صار. رحمهم الله تعالى.

* * *

سلطنة صلاح الدين على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو المظفر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، ويقال: إن مروان من أولاد خلفاء بني أمية. وقال ابن القادسي: كان شادي مملوك بهروز الخادم.

قلت: كان بداية أمر بني أيوب أن نجم الدين أيوب والد صلاح الدين هذا، وأخاه أسد الدين شيركوه - ونجم الدين هو الأكبر - كان أصلهم من دوين: بلدةٍ صغيرة في العجم، وقيل: هو من الأكراد الروادية، وهو الأصح. فقدم نجم الدين أيوب وأخوه أسد الدين - شيركوه إلى العراق وخدما مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد، فرأى بهروز من نجم الدين رأياً وعقلاً، فولاه دزداراً بتكريت، وكانت تكريت لبهروز، أعطاها له السلطان مسعود بن غياث الدين محمد ابن ملكشاه - المقدم ذكره - السلجوقي. وبهروز كان يلقب مجاهد الدين. وكان خادماً رومياً أبيض، ولاه السلطان مسعود شحنة العراق. وبهروز " بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء وضم الراء وسكون الواو وبعدها زاي "، وهو لفظ عجمي معناه: يوم جيد. فأقام نجم الدين بتكريت ومعه أخوه أسد الدين إلى أن انهزم الأتابك زنكي بن آق سنقر من الخليفة المسترشد في سنة ست وعشرين وخمسمائة، ووصل إلى تكريت وبه نجم الدين أيوب، فأقام له المعابر فعبر زنكي بن آق سنقر " دجلة " من هناك، وبالغ نجم الدين في إكرامه، فرأى له زنكي ذلك. وأقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. وسببه أن نجم الدين كان يرمي يوماً بالنشاب فوقعت نشابة في مملوك بهروز فقتلته من غير قصد، فاستحى نجم الدين من بهروز فخرج هو وأخوه إلى الموصل. وقيل غير ذلك: إن بهروز أخرجهما لمعنى من المعاني، وقيل في خروجهما غير ذلك أيضاً.

ولما خرجا من تكريت قصداً الأتابك بن آق سنقر - المقدم ذكره - وهو والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي المعروف بالشهيد، فأحسن إليهما زنكي وأقطعهما إقطاعات كثيرة، وصارا من جملة أجناده إلى أن فتح زنكي مدينة بعلبك، وولى نجم الدين أيوب دزداراً بقلعتها، والدزدار بضم الدال المهملة وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعدها ألف وراء مهملة ومعناها بالعجمي: ماسك القلعة. ودام نجم الدين ببعلبك إلى أن قتل زنكي على قلعة جمبر. وتوجه صاحب دمشق " يومئذ مجير الدين " وحصر نجم الدين المذكور في بعلبك وضايقه، فكتب نجم الدين إلى نور الدين الشهيد بن زنكي وسيف الدين غازي يطلب. منهما نجدة، فاشتغلا عنه بملك جديد؛ واشتد الحصار على بعلبك، فخاف نجم الدين من فتحها عنوة وتسليم أهلها، فصالح مجير الدين صاحب دمشق على مال؛ وانتقل هو وأخوه أسد الدين شيركوه إلى دمشق

وصارا من كبار أمرائها. ولا زال بها أسد الدين شيركوه حتى اتصل بخدمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وصار من أكابر دولته. فرأى منه محمود نجابة وشجاعة فأعطاه حمص والرحبة، وجعله مقدم عساكره. فلما صرف نور الدين همته لأخذ دمشق أمر أسد الدين أن يكاتب أخاه نجم الدين أيوب على المساعدة على فتحها، فكتب أسد الدين إلى أخيه، وقال له: هذا يجب عليك؛ فإن مجير الدين قد أعطى الفرنج بانياس وربما سلم إليهم دمشق بعد ذلك؛ فأجابه نجم الدين. وطلبا من نور الدين إقطاعاً وأملاكاً فأعطاهما، وحلف لهما ووفى بيمينه. وأما مجير الدين المذكور صاحب دمشق، فكان اسمه آبق بن محمد بن بوري بن الأتابك ظهير الدين طغتكين. وطغتكين مولى تتش بن ألب أرسلان أخي ملكشاه السلجوقي.

ولما ملك نور الدين محمود دمشق وفى لهما بما وعدهما، وصارا من أكابر أمرائه خصوصاً نجم الدين؛ فإن جميع الأمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدين لا يقعد أحد حتى يأمره نور الدين بالقعود إلا نجم الدين هذا، فإنه كان إذا دخل قعد من غير إذن. وداما عند نور الدين في أعلى المنازل إلى أن وقع من أمر شاور وزير مصر ما وقع - وقد حكيناه في ترجمة العاضد العبيدي - ودخول أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية ثلاث مرات، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف هذا، حتى ملك أسد الدين الديار المصرية في الثالثة، وقتل شاور؛ وولي أسد الدين وزارة مصر، ولقب بالمنصور، ومات بعد شهرين؛ فولى العاضد الخليفة صلاح الدين هذا الوزارة، ولقبه الملك الناصر، وذلك في العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. واستولى على الديار المصرية ومهد أمورها. وصار يدعى للعاضد، ثم من بعده للملك العادل نور الدين محمود، ثم من بعدهما لصلاح الدين هذا. ونذكر ولايته إن شاء الله بأوسع من هذا من كلام ابن خلكان، بعد أن نذكر نبذة من أموره.

واستمر صلاح الدين بمصر وأرسل يطلب أباه نجم الدين أيوب من الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، فأرسله إليه معظماً مبجلاً؛ وكان وصوله أعني نجم الدين إلى القاهرة في شهر رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، فلما قرب نجم الدين إلى الديار المصرية خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته، وترجل صلاح الدين وجميع الأمراء ومشوا في ركابه؛ ثم قال له ابنه صلاح الدين: هذا الأمر لك يعني الوزارة وهي السلطنة الآن، وتدبير ملك مصر، ونحن بين يديك؛ فقال له نجم الدين: يا بني، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت أهل له. وأبى نجم الدين عن قبول السلطنة، غير أنه حكمه ابنه صلاح الدين في الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين.

ثم أخذ السلطان صلاح الدين في إصلاح أحوال مصر وعمارة البلاد وبينا هو في

ذلك ورد عليه كتاب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي من دمشق، فأمره فيه بقطع خطبة العاضد وإقامتها لبني العباس خلفاء بغداد، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألا يجيبوه إلى ذلك، وربما وقعت فتنة؛ فعاد الجواب لنور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع له نور الدين؛ وأرسل إليه وخشن له في القول، وألزمه بذلك إلزاماً كلياً إلى أن وقع ذلك؛ وقطعت خطبة العاضد في أول المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان العاضد مريضاً فأخفى عنه أهله ذلك حتى مات يوم عاشوراء، فندم صلاح الدين على قطع خطبته، وقال: ليتني صبرت حتى مات. وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً في ترجمة العاضد السابقة لهذه الترجمة. ومن هنا نذكر - إن شاء الله تعالى - أقوال المؤرخين في أحوال السلطان صلاح الدين هذا وغزواته وأموره، كل مؤرخ على حدته.

ومن يوم مات العاضد عظم أمر صلاح الدين واستولى على خزائن مصر واستبد بأمورها من غير منازع. غير أنه كان من تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي المعروف بالشهيد صاحب دمشق على ما سنبينه في هذا المحل. وكان يدعو له الخطيب بمصر وأعمالها بعد نور الدين المذكور ويدعو لنور الدين بعد الخليفة.

وكان مولد صلاح الدين بتكريت في سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة، ونشأ في حجر أبيه نجم الدين أيوب في الدولة النورية، وترقى فيها؛ وكان ولاه نور الدين قبل خروجه مع عمه أسد الدين شيركوه الثالثة إلى ديار مصر، شحنجية دمشق، فرجع عنها غضباً على ما سنذكره إن شاء الله.

وذكره القاضي ابن شداد في السيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر لله تعالى؛ وإذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلى، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط فإنه فيها. وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابوري، وعلمها أولاده الصغار لترسخ في أذهانهم، وكان يأخذها عليهم. وأما الزكاة فإنه مات ولم تجب عليه قط. وأما صدقة النوافل فاستنفدت أمواله كفها فيها. وكان يحب سماع القرآن؛ واجتاز يوماً على صبي صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة. وكان شديد الحياء خاشع الطرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة في سماع الحديث. وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية وكان ممن يحضر عنده، استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه، ويأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالاً له، وإن لم يكن ممن يحضر عنده، ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه. وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يعاند الشريعة. ولما بلغه عن السهرودي ما بلغه أمر ولده الملك الظاهر بقتله. وكان محباً للعدل يجلس في كل يوم

اثنين وخميس في، مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء، ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته؛ واستغاث إليه ابن زهير الدمشقي على تقي الدين عمر " ابن أخيه " وقال: ما يحضر معي مجلس الشرع، فأمر تقي الدين بالحضور معه. وادعى رجل على السلطان صلاح الدين المذكور بأن سنقر الخلاطي مملوكه ومات على ملكه. قال ابن شداد: فأخبرته فأحضر الرجل، وقد خرج عن طراحته وساواه في الجلوس، فادعى الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الأمراء والشيوخ الأخيار، وهم وقوف على رأسه، فقال: أتعرفون سنقر الخلاطي قالوا: نشهد أنه ملوكك، وأنه مات على ملكك. ولم يكن للرجل المدعي بينة، فأسقط في يده. فقلت: يا مولانا، رجل غريب، وقد جاء من خلاط في طمع، ونفدت نفقته، وما يحسن أن يرجع خائباً فقال: يا قاضي، هذا إنما يكون على غير هذا الوجه، ووهب له نفقة وخلعة وبغلة وأحسن إليه.

قال: ولقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح، فما قال له كلمة، واستدعاه فأيقن بالهلاك؛ وارتقب الناس أن يضرب رقبته فأطعمه فاكهة قدمت من دمشق وسقاه ماء وثلجاً.

قال: وكان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل وشرقونهم، فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً فباتت أمه تبكي طول الليل، فقال لها الفرنج: إن سلطانهم رحيم القلب فاذهبي إليه، فجاءته وهو على تل الخروبة راكب، فعفرت وجهها وبكت، فسأل عنها فأخبر بقصتها، فرق لها ودمعت عيناه، وتقدم إلى مقدم اللصوص بإحضار الطفل، ولم يزل واقفاً حتى أحضروه؛ فلما رأته بكت وشهقت وأخذته وأرضعته ساعة وضمته إليها، وأشارت إلى ناحية الفرنج؛ فأمر أن تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا.

قال ابن شداد: وكان حسن العشرة طيب الخلق حافظاً لأنساب العرب، عارفاً بخيولهم، طاهر اللسان والقلم، فما شتم أحداً قط ولا كتب بيده ما فيه أذى مسلم. وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على من خلفه، وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه؛ فإن كان له كافل " سلمه إليه "، وإلا كفله. وسرق يوماً من خزائنه ألفاً دينار وجعل في الكيس فلوس فما قال شيئاً. انتهى كلام ابن شداد باختصار.

قال أبو المظفر: وحكى لي المبارز سنقر الحلبي - رحمه الله تعالى - قال: كان الحجاب يزدحمون على طراحته فجاء سنقر الخلاطي ومعه قصص فقدم إليه قصة، وكان السلطان مد يده اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سنقر الخلاطي ولم يعلم؛ وقال له: علم عليها، فلم يجبه، فكرر عليه القول؛ فقال له: يا طواشي، أعلم بيدي أم

برجلي فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل؛ وتعجب الحاضرون من هذا الحلم؛ ثم قال السلطان: هات القصة فعلم عليها ".

وأقول: " ذكر المؤرخون أن أسد الدين شيركوه لما مات استقرت الأمور بعده لصلاح الدين يوسف بن أيوب وتمهدت القواعد، ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وشكر نعمة الله تعالى عليه، فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمص بقميص الجد والاجتهاد، ولا زال على قدم الخير وما يقر به إلى الله تعالى إلى أن مات ". قال: " وقال شيخنا ابن شداد - رحمه الله -: قال صلاح الدين - رحمه الله -: لما يسر الله تعالى بملك الديار المصرية علمت أن الله أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك في نفسي ". قال: ومن حين استقام له الأمر ما زال صلاح الدين يشن الغارات على الفرنج إلى أن ملك الكرك والشوبك وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والإنعام أما لم يؤرخ عن غير تلك الأيام. وهذا كله وهو وزير متابع للقوم، ولكنه يقول بمذهب أهل السنة، " غارس في البلاد أهل الفقه والعلم والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب ويفدون عليه من كل جانب وهو لا يخيب قاصداً، ولا يعدم وافداً " إلى سنة خمس وستين وخمسمائة. فلما عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نواب أسد الدين شيركوه، وذلك في رجب سنة أربع وستين. ولما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تم للسلطان من استقامة الأمر له بالبلاد المصرية علموا أنه يملك بلادهم، ويخرب ديارهم، ويقطع آثارهم، فاجتمع الفرنج والروم جميعاً وقصدوا الديار المصرية، ونزلوا دمياط ومعهم آلات الحصار وما يحتاج إليه ".

قلت: وهذه الواقعة التي ذكرناها في أول هذه الترجمة، غير أننا نذكرها أيضاً من قول ابن خلكان لزيادات تأتي فيها.

قال: " ولما سمع فرنج الشام ذلك اشتد أمرهم، فسرقوا حصن عكا من المسلمين وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين محمود، يقال له: " خطلخ العلم دار "، وذلك في شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين. ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك فحاصرها في شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها، وقصد لقاءهم فلم يقووا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الداية، وكانت وفاته بحلب في أشهر، رمضان سنة خمس وستين، فاشتغل قلبه، فإنه صاحب أمره. وعاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التي أخربت البلاد، وكانت في ثاني عشر من شوال فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين مولود بالموصل، وبلغه خبر موته وهو بتل باشر، فسار من ليلته طالباً لبلاد الموصل. ودام صلاح الدين في قتال الفرنج بدمياط إلى أن رحلوا عنها خائبين

".

قال ابن خلكان: والذي ذكره شيخنا عز الدين بن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة " يعني بعد موت أسد الدين شيركوه ": منهم الأمير عين الدولة الياروقي، وقطب الدين خسرو بن تليل وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهدباني الذي كان صاحب إربل. قلت: وهو صاحب المدرسة القطبية بالقاهرة؛ ومنهم سيف الدين علي بن أحمد الهكاري، وجده كان صاحب القلاع الهكارية. قلت: هو المعروف بالمشطوب - ولوالده أحمد ترجمة في تاريخنا " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي " قال: ومنهم شهاب الدين محمود الحارمي، وهو خال صلاح الدين؛ وكل واحد من هؤلاء قد لحظها لنفسه أو قد جمع ليغالب عليها فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خلعة الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه. وكان الذي حمل العاضد على تولية صلاح الدين ضعف صلاح الدين، فإنه ظن أنه إذا ولى صلاح الدين، وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته مستضعفاً، يحكم عليه ولا يقدر على المخالفة، وأنه يضع على العساكر الشافي من يستميلهم " إليه " فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. والقصة مشهورة " أردت عمراً وأراد الله خارجة ". فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام، فألزمه العاضد وأخذ كارهاً؛ إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل. فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبة والعمامة وغيرهما، ولقب بالملك الناصر، وعاد إلى دار عمه أسد الدين شيركوه وأقام بها، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه. وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه أولاً يصل إليك، ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنه وحلفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ولم يبق غيرك وغير الياروقي، وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين. ثم عدل إلى عين الدولة الياروقي، وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً، فاجتمع به فلم ينفع فيه رقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: " أنا لا أخدم يوسف أبداً " وعاد إلى نور الدين محمود ومعه غيره. فأنكر عليهم نور الدين فراقه، وقد فات الأمر، ليقضي

الله أمراً كان مفعولاً. وثبتت قدم صلاح الدين ورسخ ملكه، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها، ولا يتصرفون إلا عن أمره. وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسالار، ويكتب علامته في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، وكان لا يفرده بمكاتبة، بل يكتب: " الأمير الأسفهسالار صلاح الدين، وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا ". واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه، فمال الناس إليه وأحبوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه؛ وضعف أمر العاضد، وكان العاضد كالباحث عن حتفه بظلفه ".

قال ابن شداد: ولم يزل صلاح الدين في نشر الإحسان وإفاضة النعم على الناس إلى سنة ثمان وستين وخمسمائة، فعند ذلك خرج بالعسكر يريد بلاد الكرك والشوبك، وإنما بدأ بها لأنها كانت أقرب إليه، وكانت على الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية، وكان لا يمكن أن تعبر قافلة حتى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق وتسهيلها، فحاصرها في هذه السنة، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد إلى مصر ولم يظفر منها بشيء. ولما عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين قبل وصوله إليه. قال: ولما كانت سنة تسع وستين رأى قوة عسكره وكثرة دمعه، وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وكان يسمى عبد النبي بن مهدي؛ فأرسل أخاه توران شاه فقتله وأخذ البلاد منه. ثم مات الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق في سنة تسع وستين وخمسمائة، على ما سيأتي ذكره في الوفيات. ثم بلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز " جمع بأسوان خلقاً كثيراً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة العبيدية المصرية. وكان أهل مصر يؤثرون عودهم وانضافوا إليه، فسير صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدمه أخاه الملك العادل، فساروا والتقوا به، وكسروه في السابع من صفر سنة سبعين وخمسمائة. ثم بعد ذلك استقرت له قواعد الملك. وكان نور الدين محمود قد خلف ولده الملك الصالح إسماعيل، وكان بدمشق عند وفاة أبيه. وكان بحلب شمس الدين علي بن الداية، وكان ابن الداية حدث نفسه بأمور، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها في المحرم سنة سبعين ومعه سابق الدين، فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين. ولما دخل الملك الصالح قلعة حلب قبض على شمس الدين علي بن الداية، وعلى أخيه بدر الدين حسن المذكور، وأودع الثلاثة السجن. وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل بن الخشاب لفتنة جرت بحلب وقيل: بل قتل قبل القبض على أولاد الداية بيوم، لأنهم تولوا تدبير ذلك.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أن ولده الملك الصالح صبي لا يستقل

بالأمر، ولا ينهض بأعباء الملك، واختلفت الأحوال بالشام. وكاتب شمس الدين محمد ابن عبد الملك بن المقدم صلاح الدين، فتجهز صلاح الدين من مصر في جيش كثيف، وترك بالقاهرة من يحفظها، وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح؛ فدخلها بالتسليم في يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين وخمسمائة، وتسلم قلعتها واجتمع الناس إليه وفرحوا به، وانفق في ذلك اليوم مالاً جزيلاً، وأظهر السرور بالدمشقيين وصعد القلعة؛ ثم سار إلى حلب ونازل حمص وأخذ مدينتها في أول جمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها وتوجه إلى حلب، ونازلها في يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، وهي الوقعة الأولى.

ثم إن سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل لما أحس بما جرى علم أن الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه، فخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد واستقرت قدمه في الملك وتعدى الأمر إليه، فأرسل عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدم عليه أخاه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، وساروا يريدون لقاء صلاح الدين نجمة لابن عمه الملك الصالح ابن نور الدين، ليردوا صلاح الدين عن البلاد. فلما علم صلاح الدين ذلك رحل من حلب في مستهل رجب من السنة عائداً إلى حماة، ثم رجع إلى حمص وأخذ قلعتها. ووصل عز الدين مسعود إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، وهو صاحب حلب يومئذ، وخرجوا في جمع عظيم؛ وما علم صلاح الدين بخروجهم حتى وافاهم على قرون حماة، فراسلهم وراسلوه، واجتهد صلاح الدين على أن يصالحوه فلم يصالحوه؛ فرأى أن ضرب المصاف معهم ربما نالوا به غرضهم، والقضاء يجري إلى أموره وهم لا يشعرون، فتلاقوا فقضى الله تعالى أنهم انكسروا بين يديه، وأسر جماعة منهم فمن عليهم وأطلقهم، وذلك في تاسع عشر شهر رمضان من السنة عند قرون حماة. ثم سار صلاح الدين عقيب كسرتهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثانية، فصالحوه على المعرة وكفر طاب وبارين. ولما جرت هذه الواقعة كان سيف الدين غازي محاصراً أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار، وعزم على أخذها منه، لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين، وكان قد قارب أخذها. فلما بلغه خبر هذه الواقعة، وأن عسكره انكسر من صلاح الدين على قرون حماة خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتد أمره ويقوى جأشه، فراسله وصالحه. ثم سار غازي من وقته إلى نصيبين واهتم بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار إلى الفرات وعبر البيرة وخيم على الجانب الشامي، وراسل ابن عمه الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين صاحب حلب حتى تستقر له قاعدة يصل إليها. ثم إنه وصل إلى حلب وخرج ابن عمه الملك الصالح صاحب حلب إلى لقائه، وأقام غازي على حلب مدة، وصعد

قلعتها جريدة؛ ثم نزل وسار إلى تل السلطان، وهي منزلة بين حلب وحماة، ومعه جمع كبير. وأرسل صلاح الدين إلى مصر وطلب عسكرها، فوصل إليه منها جمع كبير، فسار بهم صلاح الدين حتى نزل قرون حماة ثانياً. وتصافوا بكرة يوم الخميس العاشر من شوال سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وجرى قتال عظيم، وانكسرت ميسرة صلاح الدين من مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فإنه كان على ميمنة سيف الدين غازي، فحمل صلاح الدين بنفسه على عسكر سيف الدين غازي حملة شديدة فانكسر القوم، وأسر منهم جماعة من كبار الأمراء، فمن عليهم صلاح الدين وأطلقهم. وعاد سيف الذين غازي إلى حلب فأخذ منها خزائنه وسار حتى عبر الفرات، وترك ابن عمه الملك الصالح صاحب حلب بها وعاد إلى بلاده. ومنع صلاح الدين من تتبع القوم، ونزل في بقية اليوم في خيامهم، فإنهم تركوا أثقالهم وانهزموا؛ وفرق صلاح الدين الأطلاب ووهب الخزائن وأعطى خيمة سيف الدين غازي لابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أخي تقي الدين عمر صاحب حماة، وكان فرخشاه صاحب بعلبك. ثم سار صلاح الدين إلى منبج فتسلمها، ثم سار إلى قلعة عزاز وحاصرها في رابع في القعدة سنة إحدى وسبعين وخمسمائة. وبينما صلاح الدين بها وثب عليه جماعة من الإسماعيلية " أعني الفداوية " فنجاه الله منهم وظفر بهم. وأقام عليها حتى أخذها في رابع عشر من ذي الحجة من السنة. ثم سار فنزل على حلب في سادس عشر ذي الحجة وأقام عليها مدة. ثم رحل عنها بعد أن أخرجوا له ابنة صغيرةً لنور الدين محمود فسألته عزاز فوهبها لها. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقد أحوالها، وكان مسيره إليها في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة؛ وكان أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيوب قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق. ثم بعد ذلك تأهب صلاح الدين للغزاة وخرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وكانت الكسرة على المسلمين في ذلك الوقت ولما انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلوا في الطريق وتبددوا، وأسر منهم جماعة: منهم الفقيه عيسى الهكاري. وكان ذلك وهناً عظيماً، جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة.

ووصل صلاح الدين إلى مصر ولم شعثه وشعث أصحابه من أثر كسرة الرملة؛ ثم بلغه تخبط الشام فعاد إليه واهتم بالغزاة، فوصله رسول صاحب الروم يلتمس الصلح ويتضرر من الأرمن، فعزم على قصد بلاد ابن لاون يعني بلاد سيس الفاصلة بين حلب والروم من جهة الساحل لينصر قليج أرسلان عليه؛ فتوجه صلاح الدين إليه، واستدعى عسكر حلب، لأنه كان في الصلح متى استدعاه حضر إليه؛ يعني صلح

صلاح الدين مع الملك الصالح صاحب حلب. ثم دخل صلاح الدين بلاد ابن لاون وأخذ في طريقه حصناً وأخربه، ورغبوا إليه في الصلح فصالحهم ورجع عنهم. ثم سأله قليج أرسلان في صلح الشرقيين بأسرهم يعني سيف الدين غازي وإخوته فأجاب إلى ذلك صلاح الدين وحلف في عاشر جمادى الأولى سنة ست وسبعين وخمسمائة، ودخل في الصلح قليج أرسلان والمواصلة. ثم عاد صلاح الدين بعد تمام الصلح إلى دمشق؛ ثم منها إلى مصر. فورد عليه الخبر بموت الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بعد أن استحلف أمراء حلب وأجنادها قبل موته لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، وهو ابن عم قطب الدين مودود. ولما بلغ عز الدين مسعوداً خبر موت ابن عمه الملك الصالح المذكور، وأنه أوصى له بحلب بالحر إلى التوجه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين إليها فأخذها. وكان أول قادم إليها مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل، وكان إذ ذاك صاحب حران، وهو مضاف إلى الموصل، ووصلها مظفر الدين المذكور في ثالث شعبان من سنة سبع وسبعين. وفي العشرين منه وصلها عز الدين مسعود وطلع إلى القلعة واستولى على ما فيها من الحواصل، وتزوج بأم الملك الصالح في الخامس من شوال من السنة. قال: وحاصل الأمر أن عز الدين مسعوداً قايض أخاه عماد الدين زنكي صاحب سنجار عن حلب بسنجار، وخرج عز الدين من حلب ودخلها عماد الدين زنكي، فلما بلغ صلاح الدين ذلك توجه إليه وحاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، وكان نزول صلاح الدين على حلب في السادس والعشرين من المحرم سنة سبع وسبعين وخمسمائة. فتحدث عماد الدين زنكي مع الأمير حسام الدين طمان بن غازي في السر بما يفعله، فأشار عليه أن يطلب من صلاح الدين بلاداً وينزل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما في القلعة من الأموال؛ فقال له عماد الدين: وهذا كان في نفسي. ثم اجتمع حسام الدين طمان بن غازي مع صلاح الدين في السر على تقرير القاعدة لذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب ووقع له بسنجار وخابور ونصيبين وسروج، ووقع لطمان المذكور بالرقة لسفارته بينهما، وحلف صلاح الدين على ذلك في سابع عشر صفر من السنة؛ وكان صلاح الدين قد نزل قبل تاريخه على سنجار وأخذها في ثامن شهر رمضان من سنة ثمان وسبعين وأعطاها لابن أخيه تقي الدين عمر؛ فلما جرى الصلح على هذا أخذها من عمر وأعطاها لعماد الدين المذكور. وتسلم صلاح الدين قلعة حلب وصعد إليها في يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وأقام بها حتى رتب أمورها ثم رحل عنها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأخر من السنة، وجعل فيها ولده الملك الظاهر وكان صبياً، وولى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسدي وجعله يرتب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق وتوجه من دمشق لقصد محاصرة الكرك في الثالث من رجب من السنة، وسير إلى أخيه الملك العادل وهو بمصر، يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه الملك العادل أبو بكر بجمع عظيم وجيش كبير، واجتمع به على الكرك في رابع شعبان فلما بلغ الفرنج نزوله على الكرك حشدوا خلقاً عظيماً وجاؤوا إلى الكرك ليكونوا من خارج قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسير إليها ابن أخيه تقي الدين عمر، ثم رحل صلاح الدين عن الكرك في سادس عشر شعبان من السنة واستصحب أخاه الملك العادل معه ودخل دمشق في الرابع والعشرين من شعبان من السنة، وأعطى أخاه العادل حلب، فتوجه إليها العادل ودخلها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شهر رمضان من السنة. وخرج الملك الظاهر ويازكوج من حلب ودخلا دمشق يوم الاثنين الثامن والعشرين من شوال من السنة. وكان الملك الظاهر أحب أولاد أبيه إليه لما فيه من الخلال الحميدة، ولم يأخذ منه حلب إلا لمصلحة رآها أبوه صلاح الدين في ذلك الوقت. وقيل: إن الملك العادل أعطاه على أخذ حلب ثلاثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد. ثم إن صلاح الدين رأى أن عود الملك العادل إلى مصر، وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح. قيل: إن علم الدين سليمان بن جندر كان هو السبب لذلك، فإنه قال لصلاح الدين وكانت بينهما مؤانسة قبل أن يتملك البلاد، وقد سايره يوماً، وكان من أمراء حلب، والملك العادل لا ينصفه، وقدم عليه غيره؛ وكان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل! وحمل إلى حران وأشفى على الهلاك، ولما عوفي ورجع إلى الشام واجتمعا في المسير، قال له - وكان صلاح الدين قد أوصى لكل واحد من أولاده بشيء من البلاد -: بأي رأي كنت تظن أن وصيتك تنفذ! كأنك كنت خارجاً إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك! أما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة؟ قال صلاح الدين: وكيف ذلك؛ وهو يضحك؛ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشاً لفراخه قصد أعالي الشجر ليحمي فراخه، وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض؛ هذه حلب - وهي أم البلاد - بيد أخيك، وحماة بيد ابن أخيك تقي الدين عمر، وحمص بيد ابن عمك أسد الدين؛ وابنك الأفضل مع تقي الدين بمصر يخرجه متى شاء، وابنك الآخر مع أخيك في خيمة يفعل به ما أراد؛ فقال له صلاح الدين: صدقت، فاكتم هذا الأمر؛ ثم أخذ حلب من أخيه العادل وأعادها إلى ابنه الملك الظاهر، وأعطى العادل بعد ذلك حران والرها وميافارقين ليخرجه من الشام. وفرق الشام على أولاده، فكان ما كان. وزوج السلطان صلاح الدين ولده الملك الظاهر بغازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور.

ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين، وكانت في يوم السبت رابع عشر شهر

ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة في وسط نهار الجمعة. وكان صلاح الدين كثيراً ما يقصد لقاء العدو في يوم الجمعة عند الصلاة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، فسار في ذلك الوقت واجتمع له من العساكر الإسلامية عدد يفوت الحصر، وكان قد بلغه أن العدو اجتمع في عدة كثيرة بمرج صفورية بأرض عكا عندما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين ونزل على طبرية على سطح الجبل ينتظر قصد الفرنج، فلما بلغهم نزوله في الموضع المذكور لم يتحركوا ولا خرجوا من منزلتهم، وكان نزولهم في الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر؛ فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية، وترك الأطلاب على حالها قبالة العدو، ونزل طبرية وهاجمها وأخذها في ساعة واحدة، وانتهب الناس ما فيها، وأخذوا في القتل والسبي والحريق؛ وبقيت القلعة ممتنعة بمن فيها. ولما بلغ العدو ما جرى في طبرية قلقوا لذلك ورحلوا نحوها، فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبرية من يحاصرها ولحق بالعسكر، والتقى بالعدو على سطح جبل طبرية الغربي منها، وذلك في يوم الخميس الثاني والعشرين من شهر ربيع الآخر، فحال الليل بين العسكرين، فناما على المصاف إلى بكرة يوم الجمعة الثالث والعشرين منه، فركب العسكران وتصادما والتحم القتال واشتد الأمر ودام القتال حتى لم يبق إلا الظفر، فحال الليل بينهم، وناما على المصاف؛ وتحقق المسلمون أن من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدو، وأنهم لا ينجيهم إلا القتال والجهاد. وأصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة رجل واحد: الله أكبر، وألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقاً عليه نصر المؤمنين.

ولما أحس الملك القومص بالخذلان هرب في أوائل الأمر و قصد جهة صور، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجا منهم؛ وأحاط المسلمون بالكافرين من كل جانب، وأطلقوا عليهم السهام، وحملوا عليهم بالسيوف، وسقوهم كأس الحمام، وانهزمت طائفة منهم فتبعهم المسلمون يقتلونهم واعتصمت طائفة منهم بتل يقال له: تل حطين، وهي قرية عندها قبر النبي شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون وأشعلوا حولهم النيران، واشتد بهم العطش فاستسلموا للأسر خوفاً من القتل، فأسر مقدموهم وقتل الباقون؛ وكان ممن أسر من مقدميهم الملك جفري وأخوه الملك، والبرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك، وابن الهنفري وابن صاحب طبرية، أو مقدم الديوية، وصاحب جبيل، ومقدم الاسبتار.

قال ابن شداد: لقد حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً ومعه نيف وثلاثون أسيراً ربطهم بطنب خيمة، لما وقع عليهم من الخذلان.

ثم إن الملك القومص الذي هرب في أول الوقعة وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب فهلك. وأما مقدم الأسبتار والذيوية فإنه قتلهما السلطان صلاح الدين، وقتل من بقي من أصحابهما حياً؛ وأما البرنس أرناط فإن السلطان كان نذر أنه إن ظفر به قتله، وذلك أنه كان عبر إليه بالشوبك قوم من الديار المصرية في حال الصلح فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الصلح الذي بينه وبين السلطان، فقال ما يتضمن الاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ وبلغ ذلك السلطان، فحملته حمية دينه على أن أهدر دمه.

ولما فتح الله عليه بالنصر جلس بالدهليز يعني الخيمة فإنها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالجهاد، وعرضت عليه الأسارى، وصار الناس يتقربون إليه بما في أيديهم منهم، وهو فرح بما فتح الله عليه، وأشخص الملك جفري وأخاه، والبرنس أرناط، وناول السلطان الملك جفري شربة من جلاب وثلج فشرب منها، وكان على أشد حال من العطش ثم ناولها للبرنس، ثم قال السلطان للترجمان: قل للملك أنت الذي سقيته وإلا أنا فما سقيته، فإنه كان من جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان لترجمان: أنت الذي سقيته. ثم أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عينه لهم فأكلوا شيئاً، ثم عادوا بهم ولم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم؛ فاستحضرهم وأقعد الملك في دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط وأوقفه بين يديه، وقال له: ها أنا أنتصر لمحمد منك. ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسل النيمجاة فضربه بها فحل كتفه، وتمم قتله من حضر، وأخرجت جثته فرميت على باب الخيمة؛ فلما رآها الملك جفري لم يشك أنه يلحقه به، فاستحضره السلطان وطيب قلبه، وقال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك، إلا أن هذا تجاوز الحد وتجرأ على الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم أمره بالانصراف. وبات الناس تلك الليلة على أتم سرور. وفي هذه الواقعة يقول العماد الكاتب قصيدة طنانة منها:

حططت على حطين قدر ملـــوكهم ::: ولم تبق من أجناس كفـــرهم جنســـا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم ::: ولم ترض أرض أن تكون لهم رمســـا

وقد طـــاب ربانـــا علـــى طبريـــة ::: فيا طيبها ريا ويا حســـنها مرســـى

وقال ابن الساعاتي قصيدة أخرى عظيمة في هذا الفتح، أولها:

جلـــت عزماتـــك الفـــتح المبينـــا ::: فقـــد قـــرت عيـــون المؤمنينـــا

ثم رحل السلطان بعد أن تسلم طبرية ونزل على عكا في يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، وقاتلها بكرة يوم الخميس مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة؛ وأخذها واستنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، وكانوا أكثر من

أربعة آلاف أسير، واستولى على ما كان فيها من الأموال والذخائر والبضائع، لأنها كانت مظنة التجار؛ وتفرقت العساكر في بلاد الساحل يأخذون الحصون والقلاع.

ثم سار السلطان من عكا ونزل على تبنين يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى، وهي قلعة منيعة، فحاصرها حتى أخذها في يوم الأحد الثامن عشر من جمادى الأولى المذكور عنوة. ثم رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها وتسلمها في غد يوم نزوله عليها.

ثم رحل عنها وأتى بيروت فنازلها يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، حتى أخذها في يوم الخميس تاسع وعشرين من جمادى الأولى.

ولما فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها؛ ثم رأى أن العسكر تفرق في الساحل وكانوا قد ضرسوا من القتال؛ وكان قد اجتمع بصور من بقي من الفرنج فرأى أن فصلى عسقلان أولى، لأنها أيسر من صور؛ فأتى عسقلان ونزل عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة. وأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه مدينة غزة وبيت جبريل والنطرون من غير قتال، وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها ثانياً من المسلمين خمس وثلاثون سنة؛ فإن أخذها كان في سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

ولما تسلم السلطان عسقلان والبلاد المحيطة بالقدس شمر عن ساق الجد والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمع عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمداً على الله تعالى مفوضاً أمره إليه منتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حث على انتهازه بقوله صلى الله عليه وسلم :{**من فتح له باب خير فلينتهزه فإنه لا يعلم متى يغلق دونه**}. وكان نزول السلطان على القدس في يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث وثمانين المذكورة، ونزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيالة والرجالة حتى إنه حزر أهل الخبرة، فمن كان مع السلطان، من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان؛ ثم انتقل السلطان لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب ونصب عليها المجانيق وضايق البلد بالزحف والقتال حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهم، ولما رأى العدو ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع لهم عنه، وظهرت لهم أمارات فتح المدينة وظهور المسلمين عليهم، وكان قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم ما جرى، فاستكانوا إلى طلب الأمان، وسلموا المدينة في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن الكريم. فانظر إلى هذا الاتفاق العظيم، كيف يسر الله تعالى عوده إلى المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم صلى الله عليه وسلم.

قال: وكان فتحاً عظيماً شهده من العلماء خلق، ومن أرباب الحرب والزهد عالم كثير، وارتفعت الأصوات بالضجيج بالدعاء والتهليل والتكبير، وصفيت فيه الجمعة يوم فتحه، ونكس الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان الصليب شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام.

وكان الفرنج قد استولوا على القدس - بعد فتحه الأول في زمن عمر - في يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة؛ وقيل: في ثاني شعبان وقيل يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان من السنة أعني سنة اثنتين وتسعين، وذلك كان في خلافة المستعلي أبي القاسم أحد خلفاء مصر من بني عبيد، وكان من وزارة بدر الجمالي بديار مصر. وقد حكينا طرفا من فلك في ترجمة المستعلي في هذا الكتاب. قلت: وعلى هذا الحساب يكون القدس أقام بيد الفرنج نيفاً وتسعين سنة من يوم أخفوه في خلافة المستعلي إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين في هذه المرة ثانياً. ولله الحمد.

قال ابن شداد: وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كل رجل عشرين ديناراً، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وأفرج عمن كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقاً عظيماً. وأقام السلطان بالقدس يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والرجال، ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه، وهي مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس ومعه من المال الذي جبي شيء، وكان يقارب مائتي ألف دينار أو عشرين ألفاً.

ولما فتح القدس حسن عنده فتح صور، وعلم أنه متى أخره عسر عليه فتحه، فسار نحوها حتى أتى عكا فنزل عليها ونظر في أمورها؛ ثم رحل عنها متوجهاً إلى صور في يوم الجمعة الخامس من شهر رمضان من سنة ثلاث وثمانين المذكورة، فنزل قريباً منها، وأرسل لإحضار آلات القتال حتى تكاملت عنده؛ نزل عليها في ثاني عشر الشهر المذكور، وقاتل أهلها قتالاً شديداً وضايقها، واستدعى أسطول مصر، وكان السلطان يضايقها في البر والبحر ثم سير من حاصر هونين فسلمت في الثالث والعشرين من شوال من السنة؛ وخرج أسطول صور في الليل فكبس أسطول المسلمين في البحر، وأخذوا المقدم والرئيس وخمس قطع للمسلمين، وقتلوا خلقاً كثيراً من الرجال، وذلك في السابع والعشرين من الشهر المذكور؛ وعظم ذلك على السلطان وضاق صدره؛ وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار وامتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل لتستريح الرجال، فرحل عنها في يوم الأحد الثاني من ذي القعدة وتفرقت

العساكر، وأعطى كل طائفة منها دستوراً؛ فسار كل قوم إلى بلادهم، وأقام هو في جماعة من خواصه بمدينة عكا إلى أن دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة. فرحل ونزل على كوكب في أول المحرم، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل؛ وكان كوكب حصناً حصيناً فيه الرجال و الأقوات، فعلم السلطان أنه لا يؤخذ إلا بقتال شديد. فرحل إلى دمشق فدخلها في سادس عشرين شهر ربيع الأول من السنة؛ وأقام بدمشق خمسة أيام. وبلغه أن الفرنج قصدوا جبلة واغتالوها، فخرج مسرعاً وقد سير يستدعي العساكر من جميع البلاد، وسار يطلب جبلة؛ فلما علم الفرنج بخروجه كفوا عن ذلك. وكان السلطان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار ومظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل وعسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته والغزاة معه؛ فسار السلطان نحو حصن الأكراد حتى اجتمع بالمذكورين وتقوى بهم للغاية لما. انتهى كلام ابن شداد.

وقال القاضي شمس الدين بن خلكان: " وفي يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان يعني صلاح الدين بلاد العدو على تعبئة حسنة ورتب الأطلاب، وسارت الميمنة أولاً ومقدمها عماد الدين زنكي، والقلب في الوسط، والميسرة في الأخير ومقدم الميسرة مظفر الدين بن زين الدين صاحب أربل، فوصل إلى أنطرسوس يوم الأحد سادس جمادى الأولى، فوقف قبالتها ينظر إليها فإن قصده كان جبلة، فاستهان أمرها وعزم على قتالها فسير من رد الميمنة، وأمرها بالنزول إلى جانب البحر، والميسرة على الجانب الآخر، ونزل هو موضعه والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحرة وهي مدينة راكبة على البحر ولها برجان، فركبوا وقاربوا البلد وزحفوا عليها، واشتد القتال فما استتم نصب الخيام حتى صعد المسلمون سورها وأخفوها بالسيف، وغنم المسلمون جميع ما فيها؛ وأحرق البلد وأقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، وسلم أحد البرجين إلى مظفر الدين، فما زال يحاربه حتى أخربه. وحضر إلى السلطان ولده الملك الظاهر بعساكر حلب، لأنه كان طلبه فجاء بعساكر عظيمة. ثم سار السلطان يريد جبلة فوصلها في ثاني عشر جمادى الأولى، وما استتم نزول العسكر عليها حتى أخذت البلد؛ وكان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، وقوتلت القلعة قتالاً شديداً ثم سلمت بالأمان في يوم السبت تاسع عشر جمادى الأولى من السنة.

ثم سار السلطان عنها إلى اللاذقية فنزل عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى، ولها قلعتان يعني اللاذقية متصلتان على تل مشرف على البلد، واشتد القتال إلى آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتين، وغنم المسلمون منه غنيمة عظيمة لأنه كان بلد التجار؛ ثم جدوا في أمر القلعتين بالنقوب حتى بلغ طول النقب ستين

ذراعاً وعرضه أربع أذرع. فلما رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، وذلك في عشية يوم الجمعة الخامس والعشرين من الشهر، والتمسوا الصلح على سلامة أنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم ما خلا الغلال والذخائر والسلاح وآلات الحرب، فأجاب السلطان إلى ذلك، ورفع العلم الإسلامي عليها في يوم السبت وأقام عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من الشهر.

ثم رحل عنها ونزل صهيون وقاتلهم أشد قتال حتى أخذ البلد يوم ثاني عشر جمادى الآخرة؛ ثم، قدموا إلى القلعة وصدقوا القتال، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، ومن المرأة خمسة دنانير، ومن كل صغير ديناران، الذكر والأنثى سواء.

وأقام السلطان صلاح الدين بهذه الجهات حتى أخذ عمة قلاع منها بلاطنس وغيرها من الحصون المتعلقة بصهيون.

ثم رحل عنها وأتى بكاس، وهي قلعة حصينة على العاصي ولها نهر يخرج من تحتها، وكان النزول عليها في يوم الثلاثاء سادس عشر جمادى الآخرة، وقاتلوها قتالاً شديداً إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ففتحها عنوة، فقتل أكثر من بها وأسر الباقون، وغنم المسلمون جميع ما كان فيها؛ ولها قلعة تسمى الشغر، وهي في غاية المنعة يعبر إليها بجسر وليس عليها طريق، فسلطت المجانيق عليها من جميع الجوانب، فرأوا أن لا ناصر لهم فطلبوا الأمان في يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر.

ثم سار السلطان إلى برزيه، وهي أيضاً من الحصون المنيعة في غاية القوة يضرب بها المثل، ويحيط بها أودية من جميع جوانبها، وعلوها خمسمائة ونيف وسبعون ذراعاً؛ وكان نزوله عليها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر، فقاتلوها حتى أخذوها عنوة في يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه.

ثم سار السلطان إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، وهي قلعة منيعة فقاتلها قتالاً شديداً حتى أخذها وترقى العلم الإسلامي عليها يوم الجمعة الثاني والعشرين من رجب، وأعطاها للأمير علم الدين سليمان بن جندر.

وسار عنها بكرة يوم السبت الثالث والعشرين من رجب ونزل على بغراس، وهي قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، وقاتلها قتالاً شديداً حتى صعد العلم الإسلامي عليها في ثاني شعبان؛ فراسله أهل أنطاكية في طلب الصلح فصالحهم لشدة ضجر العسكرة فكان الصلح بينهم على أن يطلقوا كل أسير عندهم لا غير، والصلح إلى سبعة أشهر؛ فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلموا البلد.

ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابه إلى ذلك،

فوصل إلى حلب في حادي عشر شعبان، وأقام بالقلعة ثلاثة أيام، وولده يقوم بالضيافة حق القيام.

ثم سار من حلب فاعترضه تقي الدين عمر ابن أخيه، وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً وأحضر له سماعاً من جنس ما يعمل الصوفية، وبات فيها ليلة واحدة، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية.

ثم سار السلطان على طريق بعلبك، ودخل دمشق قبل شهر رمضان بأيام يسيرة.

ثم سار في أوائل شهر رمضان يريد صفد، فنزل عليها ولم يزل القتال عمالاً في كل يوم حتى تسلمها بالأمان في رابع عشر شوال.

وفي شهر رمضان المذكور سلمت الكرك، سلمها نواب صاحبها وخلصوا صاحبها بذلك، فإنه كان في الأسر من نوبة حطين.

ثم نزل السلطان بالغور، وأقام بقية الشهر، فأعطى الجماعة دستوراً.

وسار السلطان مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه العادل المذكور، لأن العادل المذكور كان متوجهاً إلى مصر، فدخل السلطان القدس في ثامن ذي الحجة وصلى به العيد.

وتوجه في حادي عشر ذي الحجة إلى عسقلان لينظر في أمورها، فتوجه إليها وأخذها من أخيه، وعوضه عنها الكرك. ثم مر على بلاد الساحل يتفقد أحوالها. ثم سار فدخل عكا وأقام بها معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة يصلح أحوالها، ورتب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش، وأمره بعمارتها وعمارة سورها.

ودخل السلطان دمشق في مستهل صفر من السنة، وأقام بها إلى شهر ربيع الأول من السنة.

ثم خرج إلى شقيف أرنون، وهو موضع حصين، فخيم في مرج عيون بالقرب من الشقيف في سابع وعشرين من شهر ربيع الأول فأقام أياماً على قتاله، والعسكر تتواصل إليه؛ فلما تحقق صاحب الشقيف أنه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلا وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في الدخول وأكرمه السلطان واحترمه، وكان من أكبر الفرنج قدراً، وكان يعرف بالعربية، وعنده اطلاع على بعض التواريخ والأحاديث، وكان حسن التأتي لما حضر بين يدي السلطان وأكل معه الطعام، ثم خلا به وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلم إليه المكان من غير تعب، واشترط عليه أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، فإنه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وشروطاً غير ذلك، فأجابه إلى ذلك.

وفي أثناء شهر ربيع الأول وصل إلى السلطان الخبر بتسليم الشوبك، وكان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدة كاملة إلى أن نفد زاد من كان فيه فسلموه بالأمان.

ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أن جميع ما قاله صاحب شقيف كان خديعة، فرسم عليه.

ثم بلغه أن الفرنج قصدوا عكا ونزلوا عليها في ثالث عشر شهر رجب من سنة خمس وثمانين المذكورة. وفي ذلك اليوم سير السلطان صاحب الشقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة. ثم سار السلطان وأتى عكا ودخلها بغتة ليقوي قلوب من بها، واستدعى العساكر من كل ناحية؛ وكان العدو مقدار ألفي فارس وثلاثين ألف راجل. وتكاثر الفرنج واستفحل أمرهم، وأحاطوا بعكا ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، وذلك في يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد في فتح الطريق إليها لتستمر السابلة بالميرة والنجدة، وشاور الأمراء فاتفقوا على مضايقة العدو لفتح الطريق، ففعلوا ذلك وانفتح الطريق وسلكه المسلمون؛ ودخل السلطان عكا فأشرف على أمورها؛ ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدة أيام، وتأخر الناس إلى تل العياضية وهو مشرف على عكا. وفي هذه المنزلة توفي الأمير حسام الدين طمان المقدم ذكره، وذلك في نصف شعبان من سنة خمس وثمانين وخمسمائة، وكان من الشجعان ".

قال ابن خلكان: قال شيخنا ابن شداد: وسمعت السلطان ينشد - وقد قيل له: إن الوخم قد عظم بعكا، وأن الموت قد فشا بين الطائفتين -:

اقتلاني ومالكاً ::: واقتلا مالكاً معي

- قلت: وهذا الشعر له سبب ذكرناه في ترجمة الأشتر النخعي، اسمه مالك، في أوائل هذا الكتاب فإنه ملك مصر، وكان الأشتر من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والحكاية مطولة تنظر في ترجمة مالك أعني الأشتر النخعي من هذا الكتاب.

قال ابن شداد: ثم إن الفرنج جاءهم الإمداد من البحر، واستظهروا على الجماعة الإسلامية بعكا، وكان فيهم الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب، والأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصلاحي، وضايقوهم أشد مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد. فلما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة، خرج من عكا رجل عوام في البحر، ومعه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم وما هم فيه، وأنهم تيقنوا الهلاك، ومتى أخذوا البلد عنوة ضربت رقابهم، وأنهم صالحوا على أن يسلموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والأسلحة والمراكب، ومائتي ألف دينار وخمسمائة أسير مجاهيل ومائة أسير

معينين من جماعتهم، وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وفراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس - لأنه كان الواسطة في هذا الأمر - أربعة آلاف دينار. فلما وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر، وجمع أهل الرأي من أكابر دولته، وشاورهم فيما يصنع، واضطربت آراؤه، وتقسم فكره وتشوش حاله، وعزم أن تكتب في تلك الليلة كتب مع الرجل العوام التي قدم عليه بهذا الخبر ينكر المصالحة على هذا الوجه؛ وبينما هو يتردد في هذا فلم يشعر إلا وقد ارتفعت أعلام العدو وصلبانه وناره على سور البلد؛ وذلك في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة؛ وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزنهم، ووقع من الصياح والعويل والبكاء ما لا يذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكا قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضاً من المسلمين، وساروا على الساحل والسلطان وعساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، ونال المسلمين وهن شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تتمة عشر منازل من سيرهم من عكا، فأتى السلطان الرملة، فأتاه من أخبر بأن القوم على عزم عمارة يافا وتقويتها بالرجال والعدد والآلات، فأحضر السلطان أرباب مشورته، وشاورهم في أمر عسقلان، وهل الصواب خرابها أو بقاؤها؟ فاتفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل في قبالة العدو، ويتوجه السلطان بنفسه ويخربها خوفاً من أن يصل العدو إليها ويستولي عليها وهي عامرة ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر، وامتنع العسكر من الدخول وخافوا مما جرى على المسلمين بعكا. فلا قوة إلا بالله. ورأوا أن حفظ القدس أولى، فتعين خرابها من عدة جهات؛ وكان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة سبع وثمانين وخمسمائة، فسار إليها السلطان في سحر يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور.

قال ابن شداد: وتحدث معي في معنى خرابها يعني عسقلان بعد أن تحدث مع ولده الملك الأفضل أيضاً في أمرها، ثم قال السلطان: لأن أفقد ولدي جميعهم أحب إلي من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله تعالى ذلك، وكان فيه مصلحة للمسلمين، فما الحيلة في ذلك؟ فلما اتفق الرأي على خرابها أوقع الله ذلك في نفسه، وأن المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها. وشرع في إخرابها في سحر يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، وقدم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوماً يخربه؛ ودخل الناس البلد ووقع فيهم الضجيج والبكاء لفرقة بلدهم وأوطانهم؛ وكان بلداً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوباً في سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم. وشرع

أهل البلد في بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم واحد، حتى باعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم، واختبط أهل البلد وخرجوا بأولادهم وأهليهم إلى الخيم وتشتتوا، فذهب منهم قوم إلى مصر وقوم إلى الشام، وجرت عليهم أمور عظيمة. واجتهد السلطان وأولاده في خراب البلد كي لا يسمع العدو فيسرع إليه فلا يمكن إخرابه؛ وكانت الناس على أصعب حال، واشتد تعب الناس مما قاسوه في خرابها.

وفي تلك الليلة وصل من جانب الملك العادل من حلب من أخبر أن الفرنج تحدثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس والعساكر من الضجر من القتال وكثرة ما عليه من الديون؛ فكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل يأذن له في ذلك، وفوض الأمر إلى رأيه؛ وأصبح السلطان يوم الجمعة وهو مصر على الخراب، ويستعجل الناس عليه ويحثهم على العجلة فيه؛ وأباحهم ما في الهري الذي كان مدخراً للميرة خوفاً من أن يهجم العدو والعجز عن نقله. ثم أمر السلطان بإحراق البلد فأضرمت النيران في بيوته، ولم يزل الخراب يعمل في البلد إلى سلخ شعبان المذكور؛ ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل شهر رمضان، أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر خراب البلد بنفسه وخواصه.

قال ابن شداد، ولقد رأيته يحمل الخشب بنفسه يعني الملك الأفضل. وفي يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى السلطان الرملة وأشرف عليها، وأمر أيضاً بإحراقها وإخراب قلعتها يعني الرملة فأحرقت قلعتها خوفاً أيضاً من الفرنج. وفي يوم السبت ثالث عشر رمضان تأخر السلطان والعسكر إلى جهة الجبل ليتمكن الناس من تسيير دوابهم لإحضار ما يحتاجون إليه. ثم شرع السلطان أيضاً في خراب قلعة النطرون، وكانت قلعة منيعة فشرع الناس في ذلك.

ثم ذكر ابن شداد فصلاً طويلاً يتضمن الصلح بين الأنكلتير ملك الفرنج وبين السلطان صلاح الدين المذكور إلى أن قال: وحاصل الأمر أنه تم الصلح بينهم، وكانت الأيمان يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة؛ ونادى المنادي بانتظام الصلح، وأن البلاد الإسلامية والنصرانية واحدة في الأمن والمسالمة، فمن شاء من كل طائفة أن يتردد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف ولا محذور فليفعل. وكان يوماً مشهوداً نال الطائفتين فيه من السرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى؛ وقد علم الله تعالى أن الصلح لم يكن عن مرضاة السلطان، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر من القتال، ومظاهرتهم للمخالفة. وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتفق ذلك في أثناء وقعاته كان الإسلام على خطر.

ثم إن السلطان أعطى العساكر الوافدة عليه من البلاد البعيدة برسم الغزاة والنجمة دستوراً، فساروا عنه. وعزم السلطان على الحج لما فرغ باله من هذه الجهة، وأمن الناس وتردد المسلمون إلى بلاد الفرنج، وجاؤوا هم أيضاً إلى بلاد المسلمين، وحملت البضائع والمتاجر إلى البلادة وتوجه السلطان إلى القدس ليتفقد أحواله، وتوجه أخوه الملك العادل إلى الكرك، وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الملك الأفضل إلى دمشق. ثم تأهب السلطان إلى المسير إلى الديار المصرية، ولم يزل كذلك إلى أن صح عنده سير مركب الإنكلتير ملك الفرنج إلى بلاده في مستهل شوال، فعند ذلك قوي عزمه على أن يدخل الساحل جريدة يتفقد أحواله وأحوال القلاح البحرية إلى بانياس. ثم يدخل دمشق فيقيم بها قليلاً، ثم يعود إلى القدس ومنه إلى الديار المصرية.

قال ابن شداد: وأمرني بالمقام بالقدس إلى حين عوده إليه لعمارة بيمارستان أنشأه به، وتكميل المدرسة التي أنشأها به، وسار ضاحي نهار الخميس السادس من شوال سنة ثمان وثمانين وخمسمائة. فلما فرغ السلطان من افتقاد أحوال القلاع وإزاحة خللها دخل دمشق بكرة يوم الأربعاء سادس عشر شوال، وفيها أولاده: الملك الأفضل، والملك الظاهر، والملك الظافر مظفر الدين الخضر المعروف بالمشمر وأولاده الصغار؛ وكان السلطان يحب البلد يعني دمشق ويؤثر الإقامة به على سائر البلاد؛ وجلس للناس في بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه، وحضروا عنده وبلوا أشواقهم منه، وأنشده الشعراء، ولم يتخفف عنه أحد من الخاص والعام؛ وأقام ينشر جناح عدله بدمشق إلى أن كان يوم الاثنين مستهل ذي القعدة، عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر أخيه لأنه لما وصل إلى دمشق وبلغه حركة السلطان أقام بها ليتملى بالنظر إليه ثانياً. ولما عمل الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمته، وكان أراد بذلك مجازاته لما خدمه به حين وصوله إلى بلده، وحضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا والآخرة، وسأل الأفضل والده السلطان في الحضور فحضر جبراً لقلبه، وكان يوماً مشهوداً على ما بلغني.

قال: ولما أصلح الملك العادل الكرك سار قاصداً الديار الفراتية، وأحب أن يدخل دمشق، فوصل إليها وخرج السلطان إلى لقائه. وأقام يتصيد حول غباغب إلى الكسوة حتى لقي أخاه الملك العادل وسارا جميعاً يتصيدان، ثم عادا إلى دمشق؛ فكان دخولهما دمشق آخر نهار يوم الأحد حادي وعشرين من ذي القعدة سنة ثمانٍ وثمانين وخمسمائة. وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه الملك العادل وأولاده ويتفرجون في أراضي دمشق، وكأنه وجد راحة مما كان فيه من ملازمة التعب والنصب وسهر الليل، فكان ذلك كالوداع لأولاده، ونسي عزمه إلى مصر، وعرضت له أمور أخر وعزمات غير ما تقدم.

قال ابن شداد: ووصلني كتابه إلى القدس يستدعيني لخدمته، فخرجت من القدس في يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرم سنة تسع وثمانين وخمسمائة، وكان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثاني عشر صفر من السنة. وركب السلطان ليتلقى الحاج في يوم الجمعة خامس عشر صفر، وكان ذلك آخر ركوبه.

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، وما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية، وكانت في باطنه أكثر مما في ظاهره. وأصبح يوم السبت متكسلاً، عليه أثر الحمى. ولم يظهر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا والقاضي الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى وقت الظهر، ثم انصرفنا وقلوبنا عنده، فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة ولده الأفضل، ولم يكن للقاضي الفاضل في ذلك عادة فانصرف - ودخلت إلى الإيوان القبلي وقد مد السماط، وابنه الملك الأفضل قد جلس موضعه، فانصرفت وما كانت لي قوة للجلوس استيحاشاً له. وبكى في ذلك اليوم جماعة تفاؤلاً بجلوس ولده الأفضل موضعه. ثم أخذ المرض يتزايد به من حينئذ، ونحن نلازم التردد له طرفي النهار، وكان مرضه في رأسه. وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سفراً وحضراً، ورأى الأطباء فصده فقصدوه في الرابع، فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه، وكان يغلب على مزاجه اليبس، فلم يزل المرض يتزايد به حتى انتهى إلى غاية الضعف. واشتد مرضه في السادس والسابع والثامن، ولم يزل يتزايد ويغيب فإنه ولما كان التاسع حدثت له غشية وامتنع من تناول المشروب، واشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا أقمشتهم من الأسواق، وعلا الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته. ولما كان اليوم العاشر من مرضه أيس منه الأطباء. ثم شرع ولده الملك الأفضل في تحليف الناس له.

ثم إنه توفي - إلى رحمة الله تعالى - بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة. وكان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة لا يعلمها إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وكنت أتوهم أن هذا على ضرب من التجوز والترخص إلى ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالأنفس. ثم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء وغسله أبو القاسم ضياء الدين عبد الملك بن زيد الدولعي خطيب دمشق، وأخرج تابوت السلطان - رحمه الله تعالى - بعد صلاة الظهر مسبحي بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى داره التي في

البستان، وهي التي كان متمرضاً بها، ودفن في الضفة الغربية منها. وكان نزوله في حفرته قريباً من صلاة العصر. ثم أطال ابن شداد القول في هذا المعنى إلى أن أنشد في آخر السيرة بيت أبي تمام الطائي، وهو قوله:

ثم انقضت تلك السنون ::: وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

ولقد كان - رحمه الله تعالى - من محاسن الدنيا وغرائبها.

ثم ذكر ابن شداد أنه مات ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة. وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } [الأحزاب: ٢١].{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج: ١].

كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن الله عزاءه وجبر مصابه، وجعل فيه الخلف في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً؛ وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الحناجر؛ وقد وذعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده؛ وقد قبلت وجهه عني وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوة، راضياً عن الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله؛ وبالباب من الجنود المجندة، والأسلحة المغمدة، ما لا يدفع البلاء، ولا ملك يرد القضاء؛ وتدمع العين ويخشع القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها؛ وأما لائح الأمر فإنه إن وقع اتفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته، وهو الهول العظيم، والسلام. انتهى كلام القاضي الفاضل بما كتبه للملك الظاهر.

قال ابن خلكان: واستمر السلطان صلاح الدين مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة شمالي الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، ولها بابان، أحدهما إلى الكلاسة والآخر في زقاق غير نافذ، وهو مجاور المدرسة العزيزية. ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبة في يوم عاشوراء في يوم الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. ثم إن ولده الملك العزيز عثمان لما ملك دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبة المدرسة العزيزية.

قلت: في أيامه بنى الخصي بهاء الدين قراقوش قلعة الجبل ثم قلعة المقدس ثم سور القاهرة، وذرع السور المذكور سبعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراع.

قال ابن خلكان: " وكان السلطان صلاح الدين لما ملك الديار المصرية لم يكن بها

شيء من المدارس، فإن الدولة المصرية كان مذهبها مذهب الإمامية، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمر السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة المجاورة للإمام الشافعي - رضي الله عنه - وبنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين بن علي - رضي الله عنهما - بالقاهرة. وجعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريين خانقاه، ووقف عليها وقفا هائلاً؛ وكذلك وقف على كل مدرسة عمرها وقفاً جيداً، وجعل دار عباس الوزير العبيدي مدرسة للحنفية، وأوقف عليها وقفاً جيداً أيضاً وهي بالقاهرة، وبنى المدرسة التي بمصر المعروفة بابن زين التجار للشافعية، ووقف عليها وقفاً جيداً، وبنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستاناً، وأوقف له وقفاً جيداً؛ وله بالقدس مدرسة وخانقاه.

قال ابن خلكان: ولقد فكرت في نفسي في أمور هذا الرجل، وقلت: إنه سعيد في الدنيا والآخرة، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها، ورتب هذه الأوقاف العظيمة، وليس شيء منسوباً إليه في الظاهر، فإن المدرسة التي بالقرافة ما يسمونها الناس إلا بالشافعي، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا المشهد، والخانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء، والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية، والتي بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية؛ وهذه صدقة السر على الحقيقة. والعجب أن له بدمشق في جانب البيمارستان النوري مدرسة أيضاً، ويقال لها الصلاحية، وهي منسوبة إليه وليس لها وقف. قال: وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس، رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة؛ وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم؛ وكان يميل إلى الفضائل، ويستحسن الأشعار الجيدة ويرفدها في مجالسه، حتى قيل: إنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي المنصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميري؛ وهو قوله:

وزارني طيف من أهوى على حذر ::: من الوشاة وداعي الصبح قد هتفا
فكدت أوقظ من حولي به فرحاً ::: وكاد يهتك ستر الحب بي شغفا
ثم انتبهت وآمالي تخيل لي ::: نيل المنى فاستحالت غبطتي أسفا

وقيل: إنه كان يعجبه قول نشو الملك أبي الحسن علي بن مفرج المعروف بابن المنجم المغربي الأصل المصري الدار والوفاة، وهو في خضاب الشيب وأجاد:

وما خضب الناس البياض لقبحه ::: وأقبح منه حين يظهر ناصله
ولكنه مات الشباب فسودت ::: على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان إذا قال: مات الشباب يمسك كريمته وينظر إليها ويقول: إي والله مات

الشباب.

وذكر العماد الكاتب الأصبهاني في كتابه الخريدة أن السلطان صلاح الدين في أول ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق:

أيها الغائبون عنا وإن كن ::: تم لقلبي بذكركم جيرانا
إنني مذ فقدتكم لأراكم ::: بعيون الضمير عندي عيانا

قال ابن خلكان: وأما القصيدتان اللتان ذكرت أن سبط بن التعاويذي أنفذهما إليه من بغداد، وأن إحداهما وازن بها قصيدة صردر الشاعر، وقد ذكرت منها أبياتاً في ترجمة الكندري وأولها:

أكذا يجازى ود كل قرين ::: أم هذه شيم الظباء العين

ثم ذكر قصيدة سبط بن التعاويذي. وهي على هذا الوزن أضربت عن ذكرها لطولها. ثم قال ابن خلكان: وأما القصيدة الثانية يعني التي كتبها إليه الخليفة في أوائل أمر صلاح الدين قال: فمنها قوله:

حتام أرضى في هواك وتغضب ::: وإلى متى تجني علي وتعتب
ما كان لي لولا ملالك زلة ::: لما مللت زعمت أني مذنب
خذ في أفانين الصدود فإن لي ::: قلباً على العلات لا يتقلب
أتظنني أضمرت بعدك سلوة ::: هيهات عطفك من سلوي أقرب
لي فيك نار جوانح ما تنطفي ::: حزناً وماء مدامع ما ينضب
أنسيت أياماً لنا ولياليا ::: للهو فيها والبطالة ملعب
أيام لا الواشي يعد ضلالة ::: ولهي عليك ولا العذول يؤنب
قد كنت تنصفني المودة راكباً ::: في الحب من أخطاره ما أركب
واليوم أقنع أن يمر بمضجعي ::: في النوم طيف خيالك المتأوب
ما خلت أن جديد أيام الصبا ::: يبلي ولا ثوب الشبيبة يسلب
حتى انجلى ليل الغواية واهتدى ::: ساري الدجى وانجاب ذاك الغيهب
وتنافر البيض الحسان فأعرضت ::: عني سعاد وأنكرتني زينب
قالت وريعت من بياض مفارقي ::: ونحول جسمي بان منك الأطيب
إن تنكري سقمي فخصرك ناحل ::: أو تنكري شيبي فثغرك أشنب
يا طالباً بعد المشيب غضارة ::: من عيشه ذهب الزمان المذهب
أتروم بعد الأربعين تعدها ::: وصل الدمى هيهات عز المطلب

والقصيدة طويلة ذكرها ابن خلكان، وقد نقلتها من خط عسر.

ثم قال ابن خلكان: وقد مدحه جميع شعراء عصره، فمنهم العلم الشاتاني واسمه - رحمه الله - مدحه بقصيدة أولها:

أرى النضر مقروناً برايتك الصفرا ::: فسر واملك فأنت بها أحرى

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر المعروف بابن الشحنة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أولها:

سلام مشوق قد براه التشوق ::: على جيرة الحي الذين تفرقوا

وعدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران، أحدهما:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارمٍ ::: سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وقد أخذ هذا المعنى من قول بشار بن برد، وهو:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ::: والأذن تعشق قبل العين أحيانا

والبيت الثاني من قول ابن الشحنة المذكور:

وقالت لي الآمال إن كنت لاحقاً ::: بأبناء أيوب فأنت الموفق

قال: ومدحه ابن قلاقس وابن الذروي وابن المنجم وابن سناء الملك وابن الساعاتي والإربلي ومحمد بن إسماعيل بن حمدان الحيزاني. انتهى ما أوردته من كلام ابن خلكان ومن كلام ابن شداد وابن الأثير وابن الجوزي وغيرهم باختصار.

وقال العلامة أبو المظفر في تاريخه مرآة الزمان: ولما كان في سادس عشر صفر وجد السلطان كسلاً وحم حمى صفراوية؛ ثم ذكر نحواً مما ذكره ابن شداد إلى أن قال: وأحضر الأفضل يعني ولده الأمراء: سعد الدين مسعوداً أخا بدر الدين مودود شحنة دمشق، وناصر الدين صاحب صهيون، وسابق الدين عثمان صاحب شيزر ابن الداية، وميموناً القصري، والبكي الفارسي، وأيبك فطيس، وحسام الدين بشارة، وأسامة الحلبي وغيرهم، فاستحلفهم لنفسه. وكان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلاسة يقرأ القرآن، فلما انتهى إلى قوله تعالى:{ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} [الحشر: ٢٢]، وكان قد غاب فإنه فتح عينيه، وقال: صحيح. ثم قال أبو المظفر: وغسله ابن الدولعي، وصفى عليه القاضي محيي الدين بن الزكي. وبعث القاضي الفاضل له الأكفان والحنوط من أجل الجهات. ثم قال: وقال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، ومرضه في زيادة؛ وفي كل يوم تضعف القلوب، وتتضاعف الكروب؛ ثم انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، سحر يوم الأربعاء؛ ومات بموته رجاء الرجال، وأظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. ورثاه الشعراء؛

فمن ذلك قول بعضهم:

شمل الهدى والملك عم شتاته	:::	والدهر ساء وأقلعت حسناته
بالله أين الناصر الملك الذي	:::	لله خالصة صفت نياته
أين الذي مذ لم يزل مخشية	:::	مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا	:::	مبذولة ولربه طاعاته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا	:::	يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله	:::	وسمت على الفضلاء تشريفاته
لا تحسبوه مات شخصاً واحداً	:::	قد عم كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً	:::	أبداً لماذا أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره	:::	لما خلت من بدره داراته
دفن السماح فليس تنشر بعدما	:::	أقوت قواه وأقفرت ساحاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف	:::	محفوفة بوروده حافاته
بحر خلا من وارديه ولم تزل	:::	متعطف مفضوضة صدقاته
من لليتامى والأرامل راحم	:::	في ذكره من ذكره آياته
لو كان في عصر النبي لأنزلت	:::	من سلها وركوبها عزماته
بكت الصوارم والصواهل إذ خلت	:::	من كل قلب مؤمن روعاته
يا وحشة الإسلام حين تمكنت	:::	منه الذئاب وأسلمته رعاته
يا راعياً للدين حين تمكنت	:::	منه الذئاب وأسلمته رعاته
ما كان ضرك لو أقمت مراعياً	:::	ديناً تولى مذ رحلت ولاته
فارقت ملكاً غير باق متعباً	:::	ووصلت ملكاً باقياً راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً	:::	رضوان رب العرش بل صلواته

أولاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله -.

كانوا ستة عشر ذكراً وابنة واحدة؛ أكبرهم الأفضل علي، ولد بمصر سنة خمس وستين يوم عيد الفطر. وأخوه لأبيه وأمه الملك الظافر خضر، ولد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوهما أيضاً لأبيهما وأمهما قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين. فهؤلاء الثلاثة أشقاء. ثم الملك العزيز عثمان الذي ملك مصر بعد أبيه، ولد بها سنة سبع وستين. وأخوه لأبيه وأمه الأعز يعقوب، ولد بمصر سنة اثنتين وسبعين. والملك الظاهر غازي صاحب حلب، ولد بمصر سنة ثمان وستين. وأخوه لأبيه وأمه الملك الزاهر داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين. والملك المعز إسحاق،

ولد سنة سبعين. والملك المؤيد مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين. والملك الأشرف محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمه الملك المحسن أحمد، ولد بمصر سنة سبع وسبعين. وأخوه أيضاً لأبيه وأمه الملك الغالب ملكشاه، ولد بالشام سنة ثمان وسبعين. وأخوهم أيضاً لأبيهم وأمهم أبو بكر النصر، ولد بحران بعد وفاة أبيه سنة تسع وثمانين. والبنت مؤنسة خاتون تزوجها ابن عمها الملك الكامل - الآتي ذكره - ابن الملك العادل وماتت عنده.

وملك بعد السلطان صلاح الدين مصر ابنه الملك العزيز عثمان الآتي ذكره، إن شاء الله تعالى، وملك دمشق بعده ابنه الملك الأفضل علي، وملك حلب ابنه الظاهر غازي كما كانوا أيام أبيهم. ثم وقع بين الملك العزيز والأفضل أمور نذكرها فيما يأتي إن شاء الله تعالى. انتهت ترجمة السلطان صلاح الدين - رحمه الله -. ونذكر الآن ما وقع في أيامه من الحوادث، ومن توفي من الأعيان في زمانه على سبيل الاختصار على عادة هذا الكتاب. وبالله المستعان.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وستين وخمسمائة.

أعني سلطنته بعد موت العاضد العبيدي آخر خلفاء الفاطميين بمصر.

وأما وزارته فكانت قبل ذلك بمدة من يوم مات عمه الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن أيوب في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة. وقد ذكرنا حوادث وزارته فيما مضى، ونذكر الآن من يوم سلطنته بعد الخليفة العاضد عني حوادث سنة سبع وستين وخمسمائة.

فيها خطب لبني العباس بمصر وأبطل الخطبة لبني عبيد.

وفيها بعث الملك العادل نور الدين محمود المذكور بالبشارة للخليفة.

وفيها توفي حسان بن نمير الكلبي، أبو الندى الشاعر المشهور المعروف بعرقلة الدمشقي.

وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلامة أبو محمد المعروف بابن الخشاب النحوي اللغوي حجة العرب

وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق، أبو محمد الحميري ويعرف بابن النقار الكاتب.

وفيها توفي العاضد خليفة مصر، حسب ما ذكرناه في ترجمته.

السنة الثانية من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها سار الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق إلى الموصل، وصلى بالجامع الذي بناه وسط الموصل وتصدق بمال عظيم. ولما علم صلاح الدين صاحب الترجمة بتوجهه إلى الموصل خرج بعساكره من مصر إلى الشام، وحصر الكرك والشوبك ونهب أعمالهما؛ ثم عاد لما بلغه عود نور الدين إلى الشام.

وفيها توفي الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان، والد صلاح الدين.

وفيها توفي الحسن بن أبي الحسن صافي، ملك النحاة.

وفيها توفي سعد الدين بن علي بن القاسم بن علي، أبو المعالي الكتبي الحظيري الحنفي؛ كان شاعراً فاضلاً.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة تسع وستين وخمسمائة

فيها كتب صلاح الدين صاحب الترجمة لنور الدين يستأذنه في إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيوب، فسار إليها، وكان فيها عبد النبي بن مهدي من أصحاب المصريين، وكان ظالماً فاتكاً، فحصره شمس الدولة توران شاه في قصره بزبيد مدة، حتى طلب الأمان فأذنه؛ فلما نزل إليه قيده ووكل به، وفتح صنعاء وحصون اليمن والمدائن.

وفيها قبض صلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيدية: مثل داعي الدعاة، وعمارة اليمني وغيرهما، بلغه أنهم يجتمعون على إثارة الفتن، واتفقوا مع السودان وكاتبوا الفرنج، فقتل داعي الدعاة، وصلب عمارة اليمني.

وفيها توفي السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب الشام ومصر المعروف بنور الدين الشهيد. وتسلطن بعده ولده الملك الصالح إسماعيل ولم يبلغ الحلم.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة سبعين وخمسمائة

فيها ملك السلطان صلاح الدين دمشق من الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين محمود.

وفيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب الأصبهاني.

وفيها توفي السلطان أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق السلجوقي. وقام بعده في الملك ابنه طغرل شاه، وكان صغير السن، فتولى تدبير ملكه محمد بن إيلدكز الأتابك وكان يلقب بالبهلوان.

وفيها توفي يحيى بن جعفر أبو الفضل زعيم الدين، صاحب مخزن الخلفاء.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

فيها عزل الخليفة المستضيء بالله الحسن صندل الخادم عن الأستادارية، وضيق على ولده الأمير أبي العباس أحمد، لأمر بلغه عنهما، وولى ابن الصاحب الأستادارية عوضاً عن صندل المذكور.

وفيها وثبت الإسماعيلية على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو على أعزاز؛ جاءه ثلاثة في زي الأجناد، فضربه واحد بسكين في رأسه فلم يجرحه وخدشت السكين خده وقتل الثلاثة، فرحل صلاح الدين إلى حلب، فلما نزل عليها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود أخته خاتون بنت نور الدين في الليل، فدخلت عليه فقام قائماً وقبل الأرض لها وبكى على نور الدين؛ فسألته أن يرد عليهم أعزاز، فأعطاها إياها، وقدم لها من الجواهر والتحف شيئاً كثيراً؛ واتفق مع الملك الصالح أن من حماة وما فتحه إلى مصر له، وباقي البلاد الحلبية للصالح.

وفيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق.

وفيها فوض سيف الدولة غازي أمر الموصل إلى مجاهد الدين قيماز الخادم.

وفيها توفي علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين، الحافظ أبو القاسم الدمشقي المعروف بابن عساكر.

* * *

السنة السادسة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة

فيها تزوج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أنر زوجة الملك العادل نور الدين محمود، وكانت بقلعة دمشق.

وفيها كانت فتنة مقدم السودان من صعيد مصرة سار من الصعيد إلى مصر في مائة ألف أسود، ليعيد الدولة المصرية الفاطمية، فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر، وأبو الهيجاء الهكاري، وعز الدين موصك بمن معهم من عساكر مصر؛ والتقوا مع السودان، فكانت بينهم وقعة هائلة، قتل كبير السودان المذكور ومن معه.

وفيها خرج السلطان صلاح من دمشق إلى مصر، وأستناب أخاه شمس الدولة توران شاه على الشام. وجاءت الفرنج إلى داريا، فأحرقوا ونهبوا وعادوا.

وفيها أمر السلطان صلاح الدين قراقوش الخادم بعمارة سور القاهرة ومصر، وضيع فيه أموالاً كثيرة ولم ينتفع به أحد.

وفيها أبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحاج بجدة.

وفيها عمر صلاح الدين مدرسة الشافعي بالقرافة.

وفيها توفي علي بن منصور، أبو الحسن السروجي الأديب، مؤدب أولاد الأتابك زنكي بن آق سنقرة.

وفيها توفي محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهرزوري قاضي دمشق.

* * *

السنة السابعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها توفي صدقة بن الحسين بن الحسن أبو الفرج الناسخ الحنبلي؛ كان يعرف بابن الحدد.

وفيها توفي كمشتكين خادم السلطان نور الدين الشهيد.

وفيها توفي محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر، الوزير أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، ولقبه عضد الدولة.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة أربع وسبعين وخمسمائة

وفيها توفي سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس شهاب الدين بن الصيفي التميمي، المعروف بالحيص بيص

* * *

السنة التاسعة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وسبعين وخمسمائة

فيها ختن السلطان صلاح الدين ولده الملك العزيز عثمان.

وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي محمد العباسي الهاشمي البغدادي.

وفيها توفيت الزاهدة العابدة علم بنت عبد الله بن المبارك. كانت تضاهي رابعة العدوية في زمانها.

وفيها توفي منصور بن نصر بن الحسين الرئيس ظهير الدين صاحب المخزن للخلفاء.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ست وسبعين وخمسمائة

وفيها حج من العراق الأمير طاشتكين، ومن الشام الأمير سيف الدين علي بن المشطوب.

وفيها توفي أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ أبو طاهر السلفي الأصبهاني.

وفيها توفي الملك المعظم فخر الدين شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة لأبيه.

وفيها توفي الملك غازي بن مودود بن زنكي بن آق سنقر التركي سيف الدين صاحب الموصل وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وسبعين وخمسمائة

فيها عاد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب الترجمة من دمشق إلى القاهرة، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه.

وفيها أمر السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين بالمسير إلى اليمن.

وفيها بعث السلطان صلاح الدين الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن.

وفيها بنيت قلعة الجبل بالقاهرة.

وفيها توفي الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر صاحب حلب بمرض القولنج.

وفيها توفي عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد أبو البركات الأنباري النحوي، مصنف كتاب " الأسرار في علم العربية " وكتاب " هداية الذاهب في معرفة المذاهب".

وفيها توفي عمر بن حمويه عماد الدين والد شيخ الشيوخ صدر الدين وتاج الدين.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

فيها سار سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين من مصر إلى اليمن.

وفيها في خامس المحرم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البركة قاصداً الشام، وخرج أعيان الدولة لوداعه.

وفيها توفي أحمد بن علي بن أحمد الشيخ أبو العباس المعروف بابن الرفاعي.

وفيها توفي الأمير فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب أبو سعد عز الدين.

وفيها توفي الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علي أبو يعقوب صاحب المغرب، أمير الموحدين.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة تسع وسبعين وخمسمائة

فيها في يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان صلاح الدين آمد من ديار بكر، ودخل إليها وجلس في دار الإمارة، ثم سلمها وأعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته. ثم عاد إلى حلب وحاصرها حتى أخذها من عماد الدين زنكي ابن أخي نور الدين الشهيد، وبذل له عوضها سنجار، وعمل الناس في ذلك أشعاراً كثيرة، منها:

وفيها توفي محمد بن بختيار الأديب، أبو عبد الله المولد المعروف بالأبله البغدادي الشاعر المشهور.

وفيها توفي الملك تاج الملوك بوري بن أيوب بن شادي أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين من سهم أصابه في حصار حلب.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثمانين وخمسمائة

فيها حج بالناس من العراق طاشتكين. وفيها توفي إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق قطب الدين صاحب ماردين؛ كانت وفاته في جمادى الآخرة.

وفيها توفي عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سعد شيخ الشيوخ صدر الدين وابن شيخ الشيوخ النيسابوري.

وفيها توفي محمد بن قرا أرسلان نور الدين صاحب حصن كيفا، الذي كان أعطاه السلطان صلاح الدين آمد.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

فيها قطع السلطان صلاح الدين الفرات ونزل على الموصل وافتتح عدة بلاد.

وفيها توفي عبد السلام بن يوسف بن محمد الأديب أبو الفتوح الجماهري.

وفيها توفيت عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر زوجة السلطان صلاح الدين.

وفيها توفي محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادي الأمير ناصر الدين ابن عم السلطان صلاح الدين.

وفيها توفي محمد بن أحمد بن فتح الدين البغدادي الحنفي؛ كان فقيهاً شاعراً أديباً.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة

وفيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الشام وتلقاه شيركوه بن محمد بن شيركوه وأخته سفري خاتون أولاد ابن عمه محمد بن أسد الدين شيركوه وزوجته ست الشام، وهي أخت السلطان صلاح الدين؛ فقال السلطان لأخيه العادل أبي بكر بن أيوب: اقسم التركة بينهم على فرائض الله تعالى. وكان محمد قد خلف أموالاً عظيمة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار.

وفيها دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكة، ومنع من الأذان في الحرم ب " حي على خير العمل ".

وفيها قسم السلطان صلاح الدين يوسف البلاد بين أهله وولده برأي القاضي الفاضل، فأعطى مصر لولده العزيز عثمان؛ والشام لولده الأفضل؛ وحلب لولده الظاهر؛ وأعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر، وجعله أتابك العزيز؛ وأعطى لابن أخيه تقي الدين حماة والمعرة ومنبج وأضاف إليه ميافارقين.

وفيها توفي الحسن بن علي بن بركة أبو محمد المقرئ النحوي.

وفيها توفي عبد الله بن بري بن عبد الجبار المعروف بابن بري النحوي بمصر.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

فيها فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس وعكا وحصوناً كثيرة بالساحل.

وفيها توفي علي بن أحمد بن علي بن محمد قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني الحنفي قاضي قضاة بغداد.

وفيها توفي محمد بن عبد الله بن المقدم الأمير شمس الدين.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة أربع وثمانين وخمسمائة

فيها توفي الأمير أسامة بن مرشد بن علي بن المقلد بن نصر بن منقذ الأمير أبو الحارث مؤيد الدولة مجد الدين الكناني.

وفيها توفي مجاهد الدين خالص بن عبد الله الناصري خادم الخليفة الناصر لدين الله؛ كان قريباً من الخليفة.

وفيها توفي محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن المظفر بن علي؛ أبو حامد محيي الدين الشهرزوري الإمام الفقيه.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وثمانين وخمسمائة

فيها وفي السلطان صلاح الدين على عكة حسام الدين بشارة، وولى على عمارة سررها الخادم بهاء الدين قراقوش.

وفيها توفي الأمير طمان بن عبد الله النوري صاحب الرقة.

وفيها توفي عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي أبو سعد بن أبي السري التميمي الموصلي القاضي شرف الدين بن أبي عصرون.

وفيها توفي الفقيه عيسى الهكاري ضياء الدين.

وفيها توفي الأمير موسك بن جكو ابن خال صلاح الدين. كان حافظاً للقرآن سامعاً للحديث، وكان محسنا إلى الناس ملازما للسلطان في غزواته، وكان دينا صالحا جوادا؛ مرض بمرج عكا فأمره السلطان أن يمضي إلى دمشق ليتطبب بها، فتوجه إلى دمشق ومات بها - رحمة الله.

السنة العشرون من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ست وثمانين وخمسمائة

فيها ملك سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين صنعاء من بلاد اليمن.

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين المذكور في السنة الماضية.

وفيها توفي مسعود بن علي بن عبيد الله أبو الفضل بن النادر الصفار.

وفيها توفي يوسف بن علي بن بكتكين الأمير زين الدين صاحب إربل.

* * *

السنة الحادية والعشرون من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وثمانين وخمسمائة

فيها كان استيلاء الفرنج على عكا.

وفيها توفي الموفق أسعد بن إلياس بن جرجس المعروف بابن المطران الطيب.

وفيها توفي سليمان بن جنحرة كان من أكابر أمراء حلب.

وفيها توفي عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المظفر تقي الدين.

وفيها توفي يحيى السهروردي المقتول بحلب.

وفيها توفي الشيخ نجم الدين الخبوشاني. قال صاحب المرآة.

* * *

السنة الثانية والعشرون من سلطنة صلاح الدين يوسف بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

فيها توفي سنان بن سليمان، صاحب الدعوة بقلاع اللثام.

وفيها توفي علي بن أحمد الأمير سيف الدين بن المشطوب ملك الهكارية..

وفيها توفي السلطان قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، الملك عز الدين السلجوقي صاحب بلاد الروم.

وفيها توفي نصر بن منصور أبو المرهف النميري الشاعر المشهور.

* * *

سلطنة الملك العزيز عثمان على مصر

هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان سلطان الديار المصرية وابن سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي الكردي الأصل المصري.

ولي سلطنة مصر في حياة والده صورة؛ ثم تسلطن بعد وفاته استقلالاً باتفاق الأمراء وأعيان الدولة بديار مصر، لأنه كان نائباً عن أبيه صلاح الدين بها لما كان أبوه مشتغلاً بفتح السواحل بالبلاد الشامية وتم أمره. وكان مولده بالقاهرة في ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة. وكان الملك العزيز هذا أصغر من أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، وأصغر من أخيه الأفضل صاحب دمشق. وكان الأفضل هو أكبر الإخوة، وهو المشار إليه في أيام أبيه صلاح الدين ومن بعده، وهو الذي جلس للعزاء بعد موت صلاح الدين، وصار هو السلطان الأكبر إلى أن ظهر منه أمور، منها: أنه كان استوزر ضياء الدين الجزري، فأساء ضياء الدين السيرة؛ وشغف قلوب الجند إلى مصر، وساروا إليها فالتقاهم الملك العزيز وأكرمهم، وكانوا معظم الصلاحية. واشتغل الأفضل بلهوه. وكان القدس في يده فعجز عنه وسلمه إلى نواب الملك العزيز هذا، فبان للناس عجز الأفضل. ثم وقعت الوحشة بين العزيز هذا وبين أخيه الأفضل المذكور. وبلغ الفرنج ذلك، فطمعوا في البلاد وحاصروا جبلة وكان بها جماعة من الأكراد فباعوها للفرنج. وبرز الملك العزيز من مصر يريد قتال الفرنج في الظاهر، وفي الباطن أخذ دمشق من أخيه الأفضل؛ وعلم الأفضل بذلك فكتب إلى عمه العادل أبي بكر بن أيوب، وللمشارقة بالنجدة، فأجابوه إلى ما يريد؛ وكان مع العادل عدة بلاد بالشرق، وكان لما توفي أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالكرك قدم دمشق معزياً للأفضل وأقام عنده أياماً ثم رحل إلى محل ولايته بالجزيرة والرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وديار بكر وميافارقين؛ وهي البلاد التي كان أعطاها له أخوه صلاح الدين في حياته، وكان له أيضاً مع ذلك بالبلاد الشامية الكرك والشوبك.

والمقصود أن الملك العزيز هذا لما رحل من مصر إلى نحو دمشق، سار حتى نزل بظاهر دمشق، وقيل بعقبة الشحورة؛ وجاء العادل بعساكر الشرق ونزل بمرج عدواء. فأرسل إليه العزيز يقول: أريد الاجتماع بالعادل؛ فاجتمعا على ظهور خيلهما وتفاوضا؛ فقال له العادل: لا تخرب البيت وتدخل عليه الآفة! والعدو وراءنا من كل جانب، وقد أخذوا جبلة؛ فارجع إلى مصر واحفظ عهد أبيك. وأيضاً فلا تكسر حرمة دمشق، وتطمع فيها كل أحد! وعاد الملك العادل عنه إلى دمشق، وأقام العزيز في

منزلته. وقدمت العساكر على الأفضل وبعث العادل إلى العزيز يقول له: ارحل إلى مرج الصفر؛ فرحل وهو مريض. وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد. فوصل الملك الظاهر غازي من حلب، والملك المنصور من حماة، وشيركوه بن محمد بن شيركوه من حمص، والأمجد من بعلبك، والجميع نجمة للأفضل. فقال لهم العادل: قد تقرر أنه يرحل إلى مصر. واشتد مرض العزيز فاحتاج إلى المصالحة، ولولا المرض ما صالح؛ فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين اياز جهاركس؛ وغيره يحلف الملوك، وطلب مصاهرة عمه العادل فزوجه ابنته الخاتون. ورجع كل واحد إلى بلده، وذلك في شعبان سنة تسع وثمانين وخمسمائة.

وقال العماد الكاتب الأصفهاني: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصفر واحداً بعد واحد. وأول من خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فبات عنده ليلة وعاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه واعتنقا وبكيا، وأقام عنده أيضاً يوماً، وكان قد فارقه منذ تسع سنين، فلما عاد كتب إلى العزيز من إنشائه من عدة أبيات:

نظرتك نظرة من بعد تسع ::: تقضت بالتفرق من سنين

ولما انفصل العساكر عن دمشق شرع الأفضل على عادته في اللهو واللعب، فاحتجب عن الرعية فسمي " الملك النوام " وفوض الأمر إلى وزيره ضياء الدين الجزري، وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي، فأفسدا عليه الأحوال، وكانا سبباً لزوال دولته. واستمر الملك العزيز هذا بمصر وأمره ينمو ويزداد إلى سنة تسعين. وفيها عاد الاختلاف ثانياً بين العزيز والأفضل؛ وسببه إغراء الجند والوسائط.

وكان أكبر المحرضين للعزيز على أخيه الأفضل أسامة، حتى قال له: إن الله يسألك عن الرعية، هذا الرجل قد غرق في اللهو وشربه، واستولى عليه الجزري وابن العجمي. ثم قال له القاضي ابن أبي عصرون: لا تسلم يوم القيامة. وبلغ الأفضل قول أسامة وابن أبي عصرون فأقلع عما كان عليه، وتاب وندم على تفريطه، وعاشر العلماء والصلحاء، وشرع يكتب مصحفاً بخطه، وكان خطه في النهاية، فلم يغن عنه ذلك.

وتحرك العزيز يقصده، فسار الأفضل إلى عمه العادل يستنجد به، فالتقاه العادل على صفين، فسار معه بعساكر الشرق إلى دمشق؛ وكان الأفضل لما اجتاز بحلب اتفق مع أخيه الظاهر غازي وتحالفا، وجاء إلى حماة ففعل كذلك مع ابن عمه المنصور. وصار العادل يشير عليه بعزل الجزري عن الوزارة، ويقود له: هذا يخرب بيتك. فصار لا يلتفت إليه فحنق منه. ثم إن العادل سأل الملك الظاهر غازي في شيء فلم

يجبه، فغضب لذلك العادل وانفرد عنهم، وكتب إلى العزيز يخبره أنه معه، ويستحثه على القدوم إلى دمشق؛ فخرج العزيز من مصر مسرعاً، ثم علم العادل أنه لا طاقة له بالعزيز ولا بالظاهر؛ فراسل الأسدية الذين كانوا بمصر، وأوعدهم بالأموال والإقطاعات. وكان الملك العزيز قد قدم عليهم الصلاحية مماليك أبيه. والأسدية هم مماليك عمه أسد الدين شيركوه وحواشيه الأكراد؛ ثم دس العادل للأسدية الأموال، وكان مقدم الأكراد الأسدية أبو الهيجاء السمين؛ وكان العزيز قد عزله عن ولاية القدس، وتقدمت الأسدية بسيف الدين جرديك؛ فركب أبو الهيجاء بجموعه، ومعه أزكش في الليل، وقصدوا دمشق، فأصبح العزيز فلم ير في الخيام من الأسدية أحداً، فرجع إلى مصر. وشرع أزكش وأبو الهيجاء والأسدية يحرضون العادل على أخذ مصر؛ وكانت الأسدية والأكراد يكرهون العادل، وإنما دعتهم الضرورة إليه. واتفق العادل مع ابن أخيه الأفضل وسارا إلى جهة العزيز نحو مصر. فلما وصلوا إلى القدس ولوا أبا الهيجاء كما كان، وعزلوا جرديك عنها؛ ثم ساروا حتى نزلوا بلبيس وبها جماعة من الصلاحية. فتوقف العادل عن القتال ولم ير انتزاع مصر من يد العزيز، وظهرت منه قرائن تدل على أنه لا يؤثر السلطنة للأفضل، ولا يرى بتقدميته على العزيز. فأرسل العادل إلى العزيز يطلب منه القاضي الفاضل، وكان الفاضل قد اعتزلهم وانقطع إلى داره، فأرسل إليه العزيز يسأله فامتنع، فتضرع إليه وأقسم عليه، فخرج إلى العادل، فاحترمه العادل وأكرمه وتحدث معه بما قرره، وعاد الفاضل إلى العزيز وتحدث معه، فأرسل العزيز ولديه الصغيرين مع خادم له برسالة ظاهرة، مضمونها: " لا تقاتلوا المسلمين ولا تسفكوا دماءهم، وقد أنفذت ولدي يكونان تحت كفالة عمي العادل، وأنا أنزل لكم عن البلاد وأمضي إلى الغرب ". وكان ذلك بمشهد من الأمراء، فرق العادل وبكى من حضر. فقال العادل: معاذ الله ما وصل الأمر إلى هذا الحد.

وكان العادل قد قرر مع القاضي الفاضل رد خبز الأسدية وإقطاعاتهم وأملاكهم، وأن يبقى أبو الهيجاء على ولاية القدس. ثم قال العادل للأفضل: المصلحة أن تمضي إلى أخيك وتصالحه، ما عذرنا عند الله وعند الناس إذا فعلنا بابن أخينا ما لا يليق!. وكان العزيز أرسل يقول للعادل مع الخادم المقدم ذكره: " البلاد بلادك وأنت السلطان ونحن رعيتك ". ففهم الأفضل أن العادل رجع عن يمينه، وأنه اتفق مع العزيز على أخذ البلاد منه، لكنه لم يمكنه الكلام، ومضى إلى أخيه الملك العزيز واصطلحا، وعاد إلى دمشق. ودخل العزيز والعادل والأسدية إلى القاهرة يوم الخميس رابع ذي الحجة. وسلطن العادل العزيز ومشى بين يديه بالغاشية. ولو أراد العادل مصر في هذه المرة لأخذها؛ وإنما كان قصده الإصلاح بين الإخوة.

ثم وقع بين العزيز هذا والأفضل ثالثاً؛ وهو أنه لما عاد الأفضل إلى دمشق ازداد وزيره الجزري من الأفعال القبيحة، والأفضل يسمع منه ولا يخالفه، فكتب قيماز النجمي وأعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل: ارفع يد هذا الأحمق السيئ التدبير القليل التوفيق "، فلم يلتفت. فاتفق العادل مع ابن أخيه العزيز هذا على التوجه إلى الشام فسارا. واستشار الأفضل أصحابه، فكل أشار عليه بأن يلتقي عمه العادل وأخاه العزيز ولا يخالفهما إلا الجزري، فإنه أشار بالعصيان، فاستعد الأفضل للقتال والحصار وحلف الأمراء والمقدمين، وفرقهم في الأبراج والأسوار، فراسلوا العزيز والعادل وأصلحوا أمرهم في الباطن؛ واتفق العادل مع عز الدين الحمصي على فتح الباب الشرقي؛ وكان مسلماً إليه، فلما كان يوم الأربعاء سادس وعشرين شهر من رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقي ففتحه ابن الحمصي فدخلا إلى البلد من غير قتال؛ فنزل العزيز دار عمته ست الشام، ونزل العادل دار العقيقي، ونزل الأفضل إليهما وهما بدار العقيقي؛ فدخل عليهما وبكى بكاء شديداً، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد، فأخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل، فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلاده.

وكان العزيز قد قرر مع عمه العادل أن يكون نائبه بمصر، ويقيم العزيز بدمشق. ثم ندم فأرسل إلى أخيه الأفضل رسالة فيها صلاح حاله. ثم وقعت أمور إلى أن سلم العزيز بصرى إلى العادل، وكان بها الظافر. وأقام العزيز بعد ذلك بدمشق مدة، وصلى الجمعة عند قبر والده بالكلاسة وأمر ببناء القبة والمدرسة إلى جانبها، ثم أمر محيي الدين بن الزكي بعمارة المدرسة العزيزية، ونقل السلطان صلاح الدين إلى الكلاسة في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة. وكان الأفضل قد شرع في بناء تربة عند مشهد القدم بوصية من السلطان صلاح الدين. وكان الملك العزيز إذا جلس في مجالس لهوه يجلس العادل على بابه، كأنه برداره. فلما كان آخر ليلة من مقام العزيز بدمشق، وكانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى: ادخل إلى العزيز فقبل يده واطلب منه دمشق، وكان المعظم قد راهق الحلم، فدخل إلى ابن عمه العزيز وقبل يده وطلب منه دمشق، فدفعها إليه وأعطاه مستحقه، وقيل: بل استناب العادل فيها، ثم أعطاها للمعظم في سنة أربع وتسعين. وكان خروج الملك العزيز من دمشق في يوم تاسع شعبان المذكور. وسار إلى مصر ومضى الأفضل إلى صرخد، واجتاز العزيز بالقدس فعزل أبا الهيجاء السمين عن نيابتها، وولاها لسنقر الكبير، ومضى أبو الهيجاء إلى بغداد.

واستمر الملك العزيز بمصر، واستقامت الأمور في أيامه، وعمل في الرعية، وعف

عن أموالها حتى قيل: إن ابن البيساني أخا القاضي الفاضل بذل على قضاء المحلة أربعين ألف دينار، فعجل منها عشرين ألفاً، وكان رسوله في ذلك الملك العادل عم العزيز المقدم ذكره، وبذل له عن ترسله خمسة آلاف دينار، وللحاجب أبي بكر ألف دينار، ولجهاركس ألف دينار. فاجتمعوا على العزيز جميعاً وخاطبوه في ذلك، وألح عليه الملك العادل. فقال له العزيز: والله يا عم، هذا الرجل بذل لنا هذا البذل " لا " عن محبة لنا، والله إنه ليأخذ من أموال الرعية أضعاف ذلك، لا وليته أبداً! فرجع العادل عن مساعدته، فلما آل الأمر إلى العادل صادر ابن البيساني المذكور، وأخذ منه أموالاً كثيرة انتهى.

وقال القاضي شمس الدين بن خلكان في ترجمة الملك العزيز هذا بعد أن ذكر اسمه ولقبه قال: أو كان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً في أرباب الخير والصلاح؛ وسمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السلفي، والفقية أبي طاهر بن عوف الزهري، وسمع بمصر من العلامة أبي محمد بن بري النحوي وغيرهم. ويقال: إن والده لما كان بالشام والقاضي الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد، فكتب القاضي الفاضل يهنئ والده السلطان صلاح الدين بولد ولده، فقال: المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك الناصر، دام رشده وإرشاده، وزاد سعده وإسعاده، وكثر أولياؤه وعبيده وأحفاده، واشتد بأعضاده فيهم اعتضاده، وأنمى الله عدده حتى يقال هذا آدم الملوك وهذه أولاده؛ وينهي أن الله تعالى - وله الحمد - رزق الملك العزيز - عز نصره - ولداً مباركاً علياً، ذكراً سرياً، " براً " زكياً نقياً تقياً؛ من ورثةٍ كريمة بعضها من بعض، وبيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة في السماء، ومماليكه ملوكاً في الأرض. انتهى ما كتبه القاضي الفاضل في التهنئة.

* * *

السنة الأولى من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة تسع وثمانين وخمسمائة

على أن والده السلطان صلاح الدين يوسف حكم منها المحرم وصفراً.

فيها كانت وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وفيها توفي الأمير بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن. وعز الدين صاحب الموصل.

وفيها بنى الخليفة الناصر لدين الله العباسي دار الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد

وفيها توفي أسعد بن نصر بن أسعد النحوي؛ كان إماماً فاضلاً أديباً شاعراً.

وفيها توفي الأمير بكتمر بن عبد الله مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط؛ مات شاه أرمن ولم يخلف ولداً.

وفيها توفي السلطان مسعود بن مودود بن زنكي بن آق سنقر عز الدين صاحب الموصل وابن أخي السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد.

* * *

السنة الثانية من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة تسعين وخمسمائة

فيها توفي أحمد بن إسماعيل بن يوسف الشيخ الإمام أبو الخير القزويني الشافعي.

وفيها توفي السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان شاه بن طغرل شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي آخر ملوك السلجوقية بالعراق سوى صاحب الروم.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها أقطع الملك العزيز فارس الدين ميمون القصري نابلس في سبعمائة فارس.

وفيها كانت وقعة الزلاقة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين ألفنش الفرنجي ملك طليطلة.

وفيها حج بالناس من بغداد سنجر الناصري، ومن الشام سرا سنقر وأيبك فطيس الصلاحيان، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفري الطالبي.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة

فيها بعد خروج الحاج من مكة هبت ريح سوداء عمت الدنيا، ووقع على الناس رمل أحمر، ووقع من الركن اليماني قطعة، وتحرك البيت الحرام مراراً. وهذا شيء لم يعهد منذ بناه عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما.

وفيها أيضاً كانت الوقعة الثانية بين السلطان يعقوب وبين ألفنش ملك الفرنج بعد أن حشد ألفنش جمعاً كبيراً والتقوا، فكان بينهم قتلة عظيمة؛ ونصر الله المسلمين.

وفيها توفي محمد بن علي بن أحمد، الوزير أبو الفضل مؤيد الدين بن القصاب.

وفيها توفي محمد بن علي بن شعيب، الشيخ أبو شجاع الفرضي الحاسب البغدادي المعروف بابن الذهان.

وفيها توفي محمد بن علي بن فارس الشيخ أبو الغنائم " المعروف ب " ابن المعلم الهرثي الشاعر المشهور.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

فيها قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد وخرج الموكب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زي عظيم ورتب الأطلاب على ترتيب أهل الشام، وكان في خدمته عدة من الأمراء؛ وأول ما تقدم من الأمراء طلب ابن أخيه المعروف بكور الغرس ثم أمير أمير؛ وجاء هو بعد الكل في العدة الكاملة والسلاح التام، وخرج أيضاً أهل بغداد للقائه.

وفيها توفي الأمير طغتكين بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين بن أيوب، ولقبه سيف الإسلام.

وفيها توفي عبد الله بن منصور بن عمران الشيخ أبو بكر الباقلاني.

وفيها توفي عبيد الله بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفر الحنبلي.

* * *

السنة السادسة من سلطنة العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر وهي سنة أربع وتسعين وخمسمائة

فيها توفي الأمير جرديك بن عبد الله النوري.

وفيها توفي قيماز بن عبد الله مجاهد الدين الخادم الرومي الحاكم على الموصل.

وفيها توفي يحيى بن سعيد بن هبة الله العلامة أبو طالب قوام الدين الشيباني المنشئ الكاتب الواسطي الأصل، البغدادي المولد والدار والوفاة.

وفيها توفي أبو الهيجاء السمين الأمير حسام الدين الكردي.

* * *

سلطنة الملك المنصور محمد على مصر

اختلف المؤرخون فيمن ولي ملك مصر بعد موت الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. فمن الناس من قال: أخوه الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب؛ ومنهم من قال: ولده الملك المنصور محمد هذا. والصواب المقالة الثانية، فإنه كان ولاه والده العزيز من بعده، وإليه أوصى العزيز بالملك؛ وأيضاً مما يقوي المقالة الثانية أن المنصور كان تحت كنف والده العزيز بمصر، وكان الأفضل بصرخد، ولم يحضر إلى مصر، حتى تم أمر المنصور وتسلطن بعد موت أبيه. وبيان ذلك أيضاً يأتي فيما نذكره الآن في سياق ترجمة الملك المنصور، فيعرف بهذا السياق من كان في هذه المدة السلطان بمصر إلى حين ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب؛ فنقول: لما مات الملك العزيز عثمان بديار مصر في العشرين من المحرم أوصى بالملك لأكبر أولاده وهو ناصر الدين محمد المذكور، ونص عليه في الوصية؛ وكان للعزيز عشرة أولاد، ولم يذكر في الوصية عمه العادل؛ وجعل وصيه الأمير أزكش مقدم الأسدية.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في تاريخه: " كان لابنه محمد عشر سنين وكان مقدم الصلاحية فخر الدين جهاركس، وأسد الدين سرا سنقر، وزين الدين قراجا؛ فاتفقوا على ناصر الدين محمد وحلفوا له الأمراء؛ وكان سيف الدين أزكش مقدم الأسدية غائباً بأسوان، فقدم وصوب رأيهم وما فعلوه، إلا أنه قال: هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك، ولا بد من تدبير كبير يحسم المواد ويقيم الأمور، والعادل مشغول في الشرق بماردين، وما ثم أقرب من الأفضل نجعله أتابك العساكر، فلم يمكن الصلاحية مخالفة الأسدية وقالوا: افعلوا ففعلوا. فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصرخد. وكتبت الصلاحية إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتفقت الأسدية على الأفضل، وإن ملك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا، فامنعوا الأفضل من المجيء، فركب عسكر دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ وكان الأفضل قد التقى النجاب المتوجه إلى دمشق ثانياً من قبل الصلاحية، وعلى يده الكتب التي تتضمن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجيء إلى الديار المصرية، فأخذ الأفضل النجاب وعاد به إلى مصر، ولما وصل الأفضل إلى مصر التقاه الأسدية والصلاحية، ورأى جهاركس النخاب الذي أرسله، فقال له: ما أسرع ما عدت! فأخبره الخبر، فساق هو وقراجا بمن معهما من وقتهما إلى القدس وتحصنا به. فلما وقع ذلك أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق، وأن العادل مشغول بماردين. فكتب الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب يستنجده، فأجابه وقال: اقدم حتى أساعدك. فسار الأفضل بالعساكر المصرية إلى الشام واستناب بمصر سيف الدين أزكش، ووصل

الأفضل إلى دمشق في شعبان من السنة فأحدق بها.

وبلغ هذا الخير الملك العادل وهو على ماردين، وقد أقام عليها عشرة أشهر، ولم يبق إلا تسليمها وصعدت أعلامه على القلعة؛ فلما سمعوا بوفاة العزيز توقفوا عن تسليمها؛ فرحل الملك العادل أبو بكر عنها، وترك على حصارها ولده الكامل محمداً الآتي ذكره في سلاطين مصر - إن شاء الله تعالى - وسار العادل إلى نحو الشام فوصلها ومعه جماعة من الأمراء؛ وكان الأفضل نازلاً في الميدان الأخضر فأشار عليه جماعة من الأمراء أن يتأخر إلى مشهد القدم حتى يصل الظاهر وصاحب حمص والأمراء.

ودخل العادل ومن معه إلى دمشق، وجاء الظاهر بعسكر حلب، وجاء عسكر حماة وحمص، وبشارة من بانياس، وعسكر الحصون، وسعد الدين مسعود صاحب صفد، وضايقوا دمشق وبها العادل، وكسروا باب السلامة؛ وجاء آخرون إلى باب الفراديس، وكان العادل في القلعة وقد استأمن إليه جماعة من المصريين مثل ابن كهدان ومثقال الخادم وغيرهما. فلما بلغه أن ابن الحنبلي وأخاه شهاب الدين وأصحابهما قد كسروا باب الفراديس ركب من وقته وخرج إليهم وجاء إلى جيرون والمجد أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفقاع، ثم صاح العادل: يا فعلة يا صنعة إلى ها هنا! فلما سمعوا كلامه انهزموا وخرجوا؛ فأغلق العادل باب السلامة، وجاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرزبات؛ فقال: من فعل هذا. قالوا: الحنابلة؛ فسكت ولم يقل شيئاً. وقال أبو المظفر: وحكى لي المعظم عيسى - رحمه الله - قال: لما رجعنا من باب الفراديس ووصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رمي على رأس أبي يعني العادل حب الزيت فأخطأه فوقع في رقبة الفرس فوقع ميتاً، فنزل أبي وركب غيره ولم ينطق بكلمة، وجاء جهاركس وقراجا في الفيل من جبل سنير فدخلا دمشق. وأما المواصلة فساقوا على الكامل محمد فرحلوه عن ماردين، فجاء أيضاً يقصد دمشق، وجمع التركمان وغيرهم.

وأما أمر دمشق فإنه لما اشتد الحصار عليها، وقطعوا أشجارها ومياهها الداخلة إليها، انقطعت عن أهلها الميرة وضجوا، فبعث العادل إلى ابن أخيه الظاهر غازي صاحب حلب يقول له: أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان، وتكون دمشق لك لا للأفضل. فطمع الظاهر وأرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فآثرني بدمشق، فقال الأفضل: دمشق لي من أبي، وإنما أخذت مني غصباً، فلا أعطيها لأحد؛ فوقع الخلف بينهما ووقع التباعد، وخرجت السنة على هذا. ثم دخلت السنة السادسة والتسعون، والحصار على دمشق. وكان أتابك أرسلان شاه صاحب الموصل قد دخل الكامل من ماردين كما تقدم ذكره. فقدم الكامل دمشق ومعه خلق كثير من التركمان

وعسكر حران والرها، فتأخر الأفضل بالعساكر إلى عقبة الشحورة في سابع عشر صفر. ووصل الكامل في تاسع عشره فنزل بجوسق أبيه على الشرف، ثم رحل الأفضل إلى مرج الصفر، ورحل الظاهر إلى حلب، وأحرقوا ما عجزوا عن حمله.

وسار الأفضل إلى مصر. وأحضر العادل بني الحنبلي: الناصح وأخاه شهاب الدين وغيرهما، وكان الأفضل قد وعد الناصح بقضاء دمشق، والشهاب بالحسبة، فقال لهم العادل: ما الذي دعاكم إلى كسر باب الفراديس، ومظاهرة أعدائي علي، وسفك دمي؟ فقال له الناصح: أخطأنا ثم إلا عفو السلطان. - ثم ساق أبو المظفر كلاماً طويلاً محصوله العفو عن الحنابلة، إلى أن قال: وأما الأفضل فإنه سار إلى مصر، فأرسل العادل وراءه أبا محمد نجيب الدين إليه بالزبداني يقول له: ترفق، فأنا لك مثل الوالد، وعندي كل ما تريد. فقال الأفضل: قل له: إن صحت مقاتلك فأبعد عنك أعدائي الصلاحية. وبلغ ذلك الصلاحية، فقالوا للعادل: إيش قعودنا هنا؟. قم بنا، وساروا خلف الأفضل مرحلة مرحلة؛ فنزل الأفضل بلبيس ونزل العادل السائح؛ فرجع الأفضل وضرب معهم المصاف، وتقاتلوا فانكسر الأفضل وتفرق عنه أصحابه؛ ورحل إلى القاهرة وأغلق أبوابها. وجاء العادل فنزل البركة، ودخل سيف الدين أزكش بين العادل والأفضل، واتفقوا أن يعطيه العادل ميافارقين وجبل جور وديار بكر، ويأخذ منه مصر؛ فاتفق الأمر على ذلك.

ورحل الأفضل من مصر في شهر ربيع الآخر، ودخل العادل إلى القاهرة، وأحسن إلى أزكش، وقال للأفضل: جميع من كان معك كاتبني إلا سيف الدين أركش. ثم قدم العادل أزكش المذكور وحكمه في البلاد، ورد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي، وولى شيخ الشيوخ ابن حمويه التدريس بالشافعي ومشهد الحسين والنظر في خانقاه الصوفية، وجلس الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر في دار السلطنة في حجرة القاضي الفاضل، ونظر في الدواوين. وسار الأفضل إلى ميافارقين. واستدعى العادل ولده الكامل إلى مصر فخرج من دمشق في ثالث عشرين شعبان وودعه أخوه الملك المعظم عيسى إلى رأس الماء.

ووصل الكامل إلى مصر في عاشر شهر رمضان، والتقاه أبوه العادل من العباسة، وأنزله في دار الوزارة. وكان قد زوجه بنت أخيه صلاح الدين فدخل بها. ولم يقطع العادل الخطبة لولد العزيز.

قلت: وهذا مما يدل أيضاً على أن الأفضل كان عند الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بمنزلة الأتابك. والظاهر أنه كان ظن الأفضل إذا تم أمره مع عمه العادل هذا استقل بالملك، فلم يقع له ذلك؛ ولهذا لم نذكره في ملوك مصر، وما ذكرناه هنا إلا في ضمن ترجمة المنصور صاحب الترجمة.

قال: ثم إنه جمع الفقهاء يعني الملك العادل وقال لهم: هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا: الصغير مولى عليه. قال: فهل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ قالوا: لا، لأن الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة! فعند ذلك قطع خطبة ابن العزيز يعني عن المنصور صاحب الترجمة وخطب لنفسه ولولده الكامل من بعده. ونقص النيل في هذه السنة ولم يبلغ ثلاث عشرة ذراعاً. ووقع الغلاء بديار مصر ".

قلت: وعلى هذا يكون أول سلطنة العادل على مصر في يوم خطب له بمصر؛ وهو يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة.

قال ابن المستوفي في تاريخ إربل: فتكون أول سلطنة الملك العادل من هذا اليوم، ولا عبرة باستيلائه على مصر قبل ذلك. وعلى هذا أيضاً تكون مدة الملك المنصور محمد صاحب الترجمة على سلطنة مصر سنة واحدة وتسعة أشهر سواء، فإن والده العزيز عثمان مات في عشرين المحرم من سنة خمس وتسعين وخمسمائة فتسلطن من يوم موت أبيه، وخلع في العشرين من شوال سنة ست وتسعين وخمسمائة. انتهى. ولم أقف على وفاته الآن.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر يوسف على مصر وهي سنة خمس وتسعين وخمسمائة على أن الملك العزيز والده حكم منها نحو العشرين يوماً من المحرم كما تقدم ذكره

فيها حج بالناس من بغداد مظفر الدين وجه السبع.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز عثمان حسب ما تقدم ذكره في ترجمته.

وفيها توفي يحيى بن علي بن الفضل أبو القاسم بن فضلان مدرس النظامية.

وفيها توفي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملك المنصور أبو يوسف صاحب المغرب.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان على مصر على أنه حكم في آخرها من شهر رمضان إلى آخر السنة عم أبيه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وهي سنة ست وتسعين وخمسمائة

فيها توفي تكش بن أرسلان شاه بن اتسز الملك علاء الدين خوارزم شاه؛ هو من ولد طاهر بن الحسين.

وفيها توفي إمام عصره ووحيد دهره، القاضي الفاضل عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف أبي المجد علي ابن القاضي السعيد أبي محمد محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد ابن المفرج بن أحمد اللخمي العسقلاني المولد، المصري الدار، المعروف بالقاضي الفاضل الملقب محيي الدين؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

سلطنة الملك العادل على مصر

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد ابن الأمير أبي الشكر نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الدويني التكريتي ثم الدمشقي.

قال: " وملك مع ذلك البلاد الشامية والمشرقية، وصفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن في سنة اثنتي عشرة وستمائة " و " سير إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف ابن الملك الكامل محمد الآتي ذكره. وكان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيوب ينوب عنه في ميافارقين وتلك النواحي، فاستولى على مدينة خلاط وبلاد أرمينية، واتسعت مملكته، وذلك في سنة أربع وستمائة.

ولما تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل محمداً الديار المصرية، وأعطى الملك المعظم عيسى البلاد الشامية، وأعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية، والأوحد في المواضع التي ذكرناها.

وكان ملكاً عظيماً ذا رأي ومعرفة تامة قد حنكته التجارب، حسن السيرة جميل الطوية وافر العقل، حازماً في الأمور، صالحاً محافظاً على الصلوات في أوقاتها، متبعاً لأرباب السنة مائلاً إلى العلماء. صنف له فخر الدين الرازي " كتاب تأسيس التقديس "، وذكر اسمه في خطبته، وسيره إليه من بلاد خراسان. وبالجملة فإنه كان رجلاً مسعوداً، ومن سعادته أنه كان خلف أولاداً لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم، في نجابتهم وبسالتهم، ومعرفتهم وعلو همتهم، ودان لهم العباد وملكوا أخيار البلاد.

قال: ولما قسم البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم، ويتنقل من مملكة إلى أخرى؛ وكان يصيف بالشام لأجل الفواكه والمياه الباردة، ويشتي بالديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرودة؛ وعاش في أرغد عيش. وكان يأكل كثيراً خارجاً عن المعتاد، حتى يقال إنه كان يأكل وحده خروفاً لطيفاً مشوياً؛ وكان له في النكاح نصيب وافر. وحاصل الأمر أنه كان ممتعاً في دنياه. وكانت ولادته بدمشق في المحرم سنة أربعين؛ وقيل: ثمان وثلاثين وخمسمائة.

وكان العادل قد أوقع الله تعالى بغضته في قلوب رعاياه، والمخامرة عليه في قلوب جنده؛ وعملوا في قتله أصناماً من الحيل الدقيقة مرات كثيرة؛ وعندما يقال إن الحيلة تفت تنفسح وتنكشف وتحسم موادها، ولولا أولاده يتولون بلاده لما ثبت فلكه، بخلاف أخيه صلاح الدين فإنه إنما حفظ ملكه بالمحبة له وحسن الطاعة؛ ولم يكن - رحمه الله - بالمنزلة المكروهة؛ وإنما كان الناس قد ألفوا دولة صلاح الدين وأولاده، فتغيرت عليهم العادة دفعة واحدة. ثم إن وزيره ابن شكر بالغ في الظلم.

قال: وكان العارز يواظب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أول داخل وآخر

خارج، وبهذا جلبه، وكان يشاوره في أمور الدولة، لما جرب من نفوذ رأيه. ولما تسلطن الأفضل بدمشق والعزيز بمصر قصد العزيز دمشق، ووقع له ما حكيناه إلى أن ملكها.

قال: ثم أخذ العادل يدبر الحيلة حتى يستتبيه العزيز على مصر، ويقيم العزيز بدمشق، ففطن بعض أصحاب العزيز فرمى قلنسوته بين يديه، وقال: ألم يكفك أنك أعطيته دمشق حتى تعطيه مصرة فنهض العزيز لوقته على غرة ولحق بمصر.

قال الموفق: ومات الملك الظاهر غازي قبله بسنتين فلم يتهن العادل بالملك من بعده؛ وكاد كل واحد منهما ينتظر موت الآخر، فلم يصف للعادل العيش بعد موته، لأمراض لزمته بعد طول الصحة، والخوف من الفرنج بعد طول الأمن.

وخرجوا يعني الفرنج إلى عكا وتجمعوا على الغور، فنزل العادل قبالتهم على بيسان، وخفي عليه أن ينزل على عقبة أفيق، وكانوا قد هدموا قلعة كوكب، وكانت ظهرهم، ولم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة، فاغتر بما عودته المقادير من طول السلامة، فغشيت الفرنج عسكره على غرة، وكان قد آوى إليه خلق من البلاد يعتصمون به، فركب مجداً؛ وماج الفرنج في أثره حتى وصل دمشق على شفاً وهم؛ فدخل إليها فمنعه المعتمد وشجعه، وقال له: المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق. وأما الفرنج فاعتقدوا أن هزيمته مكيدة فرجعوا من قرب دمشق بعد ما عادوا في البلاد قتلاً وأسرا وعادوا إلى بلادهم؛ وقصدوا دمياط في البحر فنازلوها.

وكان قد عرض له قبل ذلك ضعف وصار يعتريه ورم الأنثيين. فلما هزته الحيل على خلاف العادة ودخله الرعب، لم يبق إلا مدة يسيرة ومات بظاهر دمشق. وكان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الإهانة ببذله. وشرع في بناء قلعة دمشق فقسم أرضها على أمرائه وأولاده، وكان الحفارون يحفرون الخندق ويقطعون الحجارة، فخرج من تحته خرزة بئر فيها ماء معين.

قال: ودعا مرة فقال: اللهم حاسبني حساباً يسيراً؛ فقال له رجل ماجن من خواصه: يا مولانا، إن الله قد يسر حسابك؛ قال: ويلك! وكيف ذلك؟ قال: إذا حاسبك قل له: المال كله في قلعة جعبر لم أفرط فيه في قليل ولا كثير. وكانت خزائنه بالكرك ثم نقلها إلى قلعة جعبر وبها ولده الملك الحافظ، فسول له بعض أصحابه الطمع فيها، فأتاها الملك العادل ونقل ما فيها إلى قلعة دمشق، فحصلت في قبضة ولده الملك المعظم عيسى، فلم ينازعه فيها إخوته؛ وقيل: إن الذي سول للحافظ الطمع والعصيان هو المعظم ففعل ذلك الحافظ، وكانت مكيدة من المعظم حتى رجع إليه المال ". انتهى كلام الموفق باختصار.

ولما مات العادل استقر كل واحد من أولاده في مملكته، فإنه كان قسم ممالكه في أولاده حسب ما تقدم ذكر ذلك كله في صدر هذه الترجمة؛ فالذي كان بمصر الملك الكامل محمد، وبالشام المعظم عيسى، وبالشرق الأشرف شاه أرمن، وباقي أولاده كل واحد في مملكة، أو في خدمة أخ من إخوته. انتهى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وتسعين وخمسمائة

فيها كان هبوط النيل، ولم يعهد ذلك في الإسلام إلا مرة واحدة في دولة الفاطميين، ولم يبق منه إلا شيء يسير؛ واشتد الغلاء والوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام وتفرقوا وتمزقوا كل ممزق.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

فيها برز العادل المذكور من ديار مصر طالباً حلب، وكان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، فجاء إلى العادل فأكرمه العادل وعوضه عن ميافارقين سميساط وسروج، ثم سار العادل ونزل على حماة، وصالحه الملك الظاهر صاحب حلب، وعاد الملك العادل إلى حمص.

وفيها توفي عبد الملك بن زيد بن يس التغلبي الدولعي خطيب دمشق.

وفيها توفي هبة الله بن الحسن بن المظفر الهمذاني؛ محدث ابن محدث ابن محدث.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيّوب على مصر وهي سنة تسع وتسعين وخمسمائة

وفيها تُوفي إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الموفق الفقيه بن الصقال الحنبلي.

وفيها تُوُفِيت زمرّد خاتون أمّ الخليفة الناصر لدين الله العباسِي ببغداد.

وفيها تُوفي علي بن الحسن بن إسماعيل أبو الحسن العَبْدي من عبد القيْس

وفيها تُوفي القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشَهْرُزوريّ. وفيها توفي يحيى بن طاهر بن محمد أبو زكرياء الواعظ، ويعرف بابن النجار البغدادي.

السنة الرابعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ستمائة

فيها وصل إلى بغداد أبو الفتح بن أبي نصر الغزنوي رسولاً من صاحب غزنة وجلس بباب بدر، وقال: هنيئاً لكم يا أهل بغداد، أنتم تحظون بأمير المؤمنين، ونحن محرومون! وأنشد - رحمه الله -:

ألا قل لسكان وادي العقيق ::: هنيئاً لكم في الجنان الخلود
أفيضوا علينا من الماء فيضاً ::: فنحن عطاش وأنتم ورود

وفيها توفي الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور أبو محمد المقدسي.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى وستمائة

فيها جاءت الفرنج حماة بغتة وأخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصي، وخرج إليهم الملك المنصور بن تقي الدين وقاتلهم وثبت وأبلى بلاء حسناً، وكسر الفرنج عسكره، فوقف على الساقة، ولولا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحداً.

وفيها توفي عبد المنعم بن علي بن نصر بن الصيقلي أبو محمد نجم الدين الحراني.

وفيها توفي محمد بن سعد الله بن نصر أبو نصر بن الدجاجي الواعظ الحنبلي.

وفيها توفي ملك خلاط سيف الدين بكتمر. كان من أحسن الشباب.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وستمائة

فيها توجه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط بمكاتبة أهلها وملكها، فجاء الملك الأشرف موسى شاه أرمن ابن الملك العادل هذا فنزل على دنيسر، وأقطع بلاد ماردين؛ فلما بلغ ذلك ناصر الدين عاد إلى ماردين بعد أن غرم مائة ألف دينار، ولم تسلم له خلاط.

وفيها أغار ابن لاون على حلب وأخذ الجشار من نواحي حارم، فبعث إليه الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - وهو يوم ذاك صاحب حلب - فارس الدين ميمونا القصري، وأيبك فطيس، والأمير حسام الدين بن أمير تركمان؛ فتقاتلا قتالاً شديداً، وكان ميمون تقدم ولولاهما لأخذ ميمون؛ فلما بلغ ذلك

الملك الظاهر خرج من حلب ونزل مرج دابق، ثم جاء إلى حارم، فهرب ابن لاون إلى بلاده. وكان ابن لاون قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخذها الظاهر وأخربها، ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب.

وفيها توفي الأمير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي مجير الدين أمير الحاج.

وفيها توفي مسعود بن سعد الدين صاحب صفد.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وستمائة

فيها فارق وجه السبع الحاج، وقصد الشام مغضباً؛ وكان في الحج جماعة من الأعيان، فبكوا وسألوه العود معهم على العادة، فقال: مولاي أمير المؤمنين محسن إلي، وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدي، وما عن التوجه بد؛ ففارقهم وسار إلى الشام، فتلقاه الملك العادل صاحب الترجمة وأولاده، وأحسن العادل إليه وأكرم نزله. وحزن الخليفة على فراقه.

وفيها ولى الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبد الله بن الدامغاني الحنفي قاضي قضاة بغداد.

وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلي، واستأصله حتى احتاج إلى الطلب من الناس.

وفيها نزلت الفرنج على حمص، وكان الملك الظاهر غازي صاحب حلب قد بعث المبارز يوسف بن خطلخ الحلبي إليها نجدة لأسد الدين صاحبها، وحصل القتال بينهم وبين الفرنج وأسر الصمصام بن العلائي، وخادم صاحب حمص. ورجع الفرنج إلى بلادهم.

وفيها توفي عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي المعروف بالكيلاني.

وفيها توفي أبو القاسم أحمد ابن المقرئ صاحب ديوان الخليفة ببغداد.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة أربع وستمائة

فيها ملك الأوحد ابن الملك العادل صاحب الترجمة خلاط بمكاتبة أهلها بعد قتل ابن بكتمر والهزار ديناري المقدم ذكرهما.

وفيها حج بالناس من العراق ياقوت.

وفيها توفي محمود بن هبة الله بن أبي القاسم الحلبي أبو الثناء البزاز.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وستمائة

فيها زلزلت نيسابور زلزلة عظيمة دامت عشرة أيام، فمات تحت الردم خلق كثير.

وفيها اتفق الفرنج من طرابلس وحصن الأكراد على الإغارة على أعمال حمص، فتوجهوا إليها وحاصروها، فعجز صاحب حمص أسد الدين شيركوه عنهم، ونجده ابن عمه الملك الظاهر غازي صاحب حلب، فعاد الفرنج إلى طرابلس. وبلغ السلطان الملك العادل صاحب الترجمة، فخرج إليهم من مصر بالجيوش وقصد وعكا، فصالحه صاحبها، فسار حتى نزل على بحيرة حمص وأغار على بلاد طرابلس وأخذ من أعمالها حصناً صغيراً.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ست وستمائة

فيها توفي الحسن بن أحمد بن محمد، بن حكينا من أهل الحرم الطاهري.

وفيها توفي محمد بن عمر بن الحسين العلامة أبو المعالي فخر الدين الرازي المتكلم صاحب التصانيف في علم الكلام والمنطق والتفسير.

وفيها توفي المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات مجد الدين بن الأثير الموصلي الجزري الكاتب.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وستمائة

فيها حج بالناس من الشام سيف الدين علي بن علم الدين سليمان بن جندر.

وفيها توفي أرسلان شاه بن عز الدين مسعود الأمير نور الدين الأتابك صاحب الموصل؛ كان متكبراً جباراً بخيلاً فاتكاً سفاكاً للدماء.

وفيها توفي عبد الوهاب بن علي الشيخ أبو محمد الصوفي ضياء الدين المعروف بابن سكينة سبط شيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النيسابوري.

* * *

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثمان وستمائة

فيها قدم بغداد رسول جلال الدين حسن صاحب الموت، يخبر الخليفة بأنهم تبرؤوا من الباطنية، وبنوا الجوامع والمساجد، وأقيمت الجمعة والجماعات عندهم، وصلوا التراويح في شهر رمضان؛ فسر الخليفة والناس بذلك.

وفيها بعث الخليفة الناصر لدين الله خاتمه للأمير وجه السبع بالشام.

وفيها توفي عبد الواحد بن عبد الوهاب بن علي بن سكينة ويلقب بالمعين.

وفيها توفي مظفر الماسكي البغدادي؛ كان ظريفاً أديباً، وكان يقول من الشعر.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة تسع وستمائة

فيها اجتمع الملك العادل المذكور وأولاده: الكامل والفائز والمعظم على دمياط لقتال الفرنج، وكان الأمير أسامة بالقاهرة، فاتهم بمكاتبة الملك الظاهر غازي صاحب حلب، ووجدوا كتباً إليه وأجوبة؛ فخرج أسامة المذكور من القاهرة كأنه يتصيد وساق إلى الشام في مماليكه يطلب قلعة كوكب وعجلون. وكان ذلك في يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة. فأرسل والي بلبيس الحمام إلى دمياط بالخبر؛ فقال العادل: من ساق خلفه فله أمواله وقلاعه؛ فقال ولده الملك المعظم عيسى: أنا، وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب. قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكنت معه، فقال لي: أنا أريد أن أسوق فابق أنت مع قماشي ودفع لي بغلة، وساق ومعه نفر يسير وعلى يده حصان، فكان صباح يوم الجمعة بغزة، ساق مسيرة ثمانية أيام في ثلاثة أيام فسبق

أسامة. وأما أسامة فتقطع عنه مماليكه وبقي وحده؛ وكان به مرض النقرس يعني بأسامة، فجاء إلى بلد الداروم؛ وكان المعظم أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء، فرآه بعض الصيادين في برية الداروم فعرفه، فقال له: انزل، فقال: هذه ألف دينار وأوصلني إلى الشام، فأخذها الصياد وجاء إلى رفاقه، فأخذوه على طريق الخليل ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به إلى القدس في يوم الأحد في سادس رجب بعد وصول المعظم بثلاثة أيام، فتسلمه المعظم وأنزله بصهيون، وبعث إليه بثياب وطعام ولاطفه وقال له: أنت شيخ كبير وبك نقرس وما تصلح لك قلعة، سلم إلي كوكب وعجلون، وأنا أحلف لك على مالك وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع وشتم المعظم، فبعث به المعظم إلى الكرك فاعتقله بها، واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره، فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار.

وفيها توفي الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك العادل أبي بكر صاحب الترجمة.

وفيها توفي محمود بن عثمان بن مكارم أبو الثناء الحنبلي.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة عشر وستمائة

فيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس نيابة عن ابن ياقوت. وحج بالناس من الشام الغرز صديق بن تمرداش التركماني من على عقبة أيلة بحجاج الكرك والقدس. وحج في هذه السنة الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب من على تيماء، ومعه حج الشام بإذن عمه السلطان الملك العادل - فيما قيل -، فلما بلغ الملك الكامل محمد بن العادل أنه توجه إلى الحجاز خاف على بلاد اليمن منه، فوجه إليه عسكراً من مصر فلحقوه، وقالوا له: ارجع؛ فقال: قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة، والله ما قصدي اليمن، وإنما قصدي الحج، فقيدوني واحتاطوا بي حتى أقضي المناسك وأعود إلى الشام؛ فلم يلتفتوا لكلامه؛ فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة، فرجع إلى الشام ولم يحج.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى عشرة وستمائة

قلت: وفي مدة هذه السنين كلها كان صاحب مصر ولده الكامل محمد بن العادل، والملك العادل يتنقل في البلاد، غير أنه هو الأصل في السلطنة وعليه المعول؛ ولا تحسب سلطنة الكامل على مصر إلا بعد موت أبيه العادل هذا.

فيها ملك اليمن أضسيس بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر صاحب. ولقب أضسيس المذكور بالملك المسعود، والعامة يسمونه " أقسيس " وغلب عليه مقالة العامة.

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس بن وزام نائباً عن محمد بن ياقوت.

وفيها توفي عبد العزيز بن محمود بن المبارك الشيخ أبو محمد البزاز

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتي عشرة وستمائة

فيها خرج وجه السبع من بغداد بالعساكر إلى همذان للقاء منكلي مملوك السلطان أزبك خان، وكان قد عصى على مولاه وعلى الخليفة وقطع الطريق.

وفيها أخذ خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة من يلدزتاج الدين مملوك شهاب الدين الغوري بغير قتال.

وفيها أخذ ابن لاون الإفرنجي أنطاكية في يوم الأحد رابع وعشرين من شوال.

وفيها حج بالناس ابن أبي فراس من العراق نيابة عن محمد بن ياقوت.

وفيها توفي علي ابن الخليفة الناصر لدين الله العباسي وكنيته أبو الحسن.

وفيها توفي المبارك بن المبارك أبو بكر الواسطي النحوي.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث عشرة وستمائة

فيها جهز الخليفة الناصر لدين الله ولدي ولده المقدم ذكرهما إلى تستر فأقاما بتستر شهرين فلم تطب لهما، فعادا إلى بغداد عند جدهما الخليفة في شهر ربيع الآخر.

وفيها توفي الملك الظاهر غازي.

وفيها قصد الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الاجتماع بأخيه الملك الأشرف موسى، فاجتمعا بنواحي الرقة، وفاوض المعظم الأشرف في أمر حلب.

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام الشيخ علم الدين الجعبري.

وفيها توفي زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة ابن حمير العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندي البغدادي المقرئ النحوي اللغوي.

وفيها توفي سعيد بن حمزة بن أحمد أبو الغنائم بن شاروخ الكاتب العراقي.

وفيها توفي السلطان الملك الظاهر أبو منصور غازي صاحب حلب ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب.

وفيها توفي الشيخ عز الدين محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي.

وفيها توفي يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد أبو جعفر الشريف الحسيني.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة أربع عشرة وستمائة

فيها قدم الملك خوارزم شاه واسمه محمد بن تكش إلى همذان بقصد بغداد في أربعمائة ألف مقاتل، وقيل في ستمائة ألف، فاستعد له الخليفة الناصر لدين الله، وفرق المال والسلاح، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي في رسالة فأهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته، ولم يأذن له بالقعود.

فنزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم وركب خوارزم شاه يوماً فعثر به فرسه فتطير، ووقع الفساد في عسكره وقفت الميرة. وكان معه سبعون ألفاً من الخطا فرده الله ونكب تلك النكبة العظيمة ".

وفيها توفي إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور الشيخ العماد المقدسي.

وفيها توفي عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد أبو القاسم القاضي جمال الدين الحرستاني الأنصاري شيخ القضاة.

وفيها توفي محمد بن أبي القاسم بن محمد أبو عبد الله الهكاري الأمير بدر الدين.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي التي مات فيها العادل وهي سنة خمس عشرة وستمائة

وفيها نزلت الفرنج على دمياط في شهر ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصفر، فبعث بالعساكر التي كانت معه إلى مصر إلى ولده الكامل، وأقام المعظم بالساحل بعسكر الشام في مقابلة الفرنج ليشغلهم عن دمياط.

وفيها استدعى الملك العادل صاحب الترجمة ابنه الملك المعظم المقدم ذكره وقال له: قد بنيت هذا الطور، وهو يكون سبباً لخراب الشام، وقد سلم الله من كان فيه من أبطال المسلمين، وسلاح الدنيا والذخائر، وأرى من المصلحة خرابه ليتوفر من فيه من المسلمين والعمد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك عنه؛ فتوقف المعظم وبقي أياماً لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانياً وأرضاه بالمال، ووعده في مصر ببلاد، فأجاب المعظم وبعث ونقل ما كان فيه.

وفيها في يوم الجمعة ثاني عشر شهر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف موسى، صاحب خلاط وديار بكر وحلب ابن الملك العادل هذا، ملك الروم

كيكاوس.

وفيها أيضا بعث الأشرف المذكور بالأمير سيف الدين بن كهدان والمبارز ابن خطلج بجماعة من العساكر نجمة إلى أخيه الملك الكامل بدمياط، كل ذلك والقتال عمال بين الملك الكامل والفرنج على ثغر دمياط.

وفيها في آخر جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السلسلة من الكامل، فأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى أبيه العادل وأخبره، فدق العادل بيده على صدره، ومرض من قهره مرض الموت.

وفيها في جمادى الآخرة التقى الملك المعظم الفرنج بساحل الشام وقاتلهم فنصره الله عليهم، وقتل منهم مقتلة، وأسر من الداوية مائة فارس، وأدخلهم القدس منكسي الأعلام.

وفيها توفي الملك القاهر عز الدين مسعود ابن أرسلان بن مسعود بن مودود بن زنكي أبو الفتح صاحب الموصل.

* * *

سلطنة الملك الكامل على مصر

أعني بذلك استقلالاً بعد وفاة أبيه العادل، لأن الكامل هذا كان متولي سلطنة مصر في حياة والده العادل؛ لما قسم العادل الممالك في أولاده من سنين عديدة؛ أعطى المعظم عيسى دمشق، وأعطى الأشرف موسى الشرق، وأعطى الملك الكامل محمداً هذا مصر، وصار هو يتنقل في ممالك أولاده؛ والعمدة في كل الممالك عليه إلى أن مات الملك العادل تفرد الملك الكامل محمد بالخطبة في ديار مصر وأعمالها، واستقل بأمورها وتدبير أحوالها، وذلك من يوم وفاة والده الملك إلى المذكور، وهو من يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة وستمائة. قلت: وقد تقدم نسب الملك الكامل هذا في ترجمة عمه السلطان صلاح الدين، واستوعبنا ذلك من عدة أقوال وحررناه، فلينظر هناك.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ست عشرة وستمائة

فيها أعني سنة ست عشرة وستمائة أخرب الملك المعظم عيسى صاحب دمشق القدس، لأنه كان توجه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة في نوبة دمياط في المرة الأولى، فبلغه أن الفرنج على عزم أخذ القدس، فاتفق الأمراء على خرابه.

وفيها حج بالناس من العراق أقباش الناصري، ومن الشام مملوك الملك المعظم عيسى.

وفيها توفيت ست الشام بنت الأمير نجم الذين أيوب أخت السلطان صلاح الدين.

وفيها توفي محمد بن زنكي الملك المنصور صاحب سنجار.

وفيها توفي علي بن القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ابن صاحب تاريخ دمشق.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة سبع عشرة وستمائة

فيها قتل صاحب سنجار أخاه، فسار الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل هذا إليها، فأخذها وعوض صاحبها الرقة.

وفيها نزل الملك الأشرف المذكور على الموصل نجدة لبدر الدين علي بن زين الدين، وعزم على قصد إربل، فبعث الخليفة من رده عن إربل وأصلح بينهما.

وفيها في شهر رجب كانت واقعة البرلس بين الكامل صاحب الترجمة وبين الفرنج، ونصر الله الكامل وقتل منهم عشرة آلاف وغنم خيولهم وسلاحهم ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثماني عشرة وستمائة

فيها توفي إسماعيل بن عبد الله أبو طاهر الأنماطي المحدث.

وفيها توفي محمد بن خلف بن راجح المقدسي ويلقب بالشهاب.

وفيها توفي محمد بن محمد الشيخ الإمام النحوي التكريني.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة تسع عشرة وستمائة

فيها ظهر جراد بالشام أكل الشجر والزروع والثمر ولم ير مثله.

وفيها نقلت رمة الملك العادل أبي بكر من قلعة دمشق إلى مدرسته التي عند دار العقيقي، فدفن بها.

وفيها توفي مسمار بن عمر بن محمد الشيخ أبو بكر بن العويس البغدادي.

وفيها توفي نصر بن أبي الفرج الفقيه الحنبلي.

وفيها توفي الأمير قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخو الملك الكامل محمد هذا.

السنة الخامسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة عشرين وستمائة

قال أبو شامة: ففيها عاد الملك الأشرف موسى من مصر إلى الشام قاصداً بلاده بالشرق، فالتقاه أخوه المعظم عيسى وعرض عليه النزول بالقلعة، فامتنع، ونزل بجوسق والده العادل، وبدت الوحشة بين الإخوة الثلاثة يعني الكامل محمداً صاحب الترجمة، والمعظم عيسى صاحب دمشق، والأشرف موسى صاحب خلاط وغيرها، قال: ثم رحل الأشرف سحراً على ضمير ثم سار إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازياً صاحب ميافارقين على خلاط، لما سافر إلى مصر وجعله ولي عهده، ومكنه من بلاده؛ فسولت له نفسه العصيان، وحسن له ذلك الملك المعظم وكاتبه وأعانه، وكذا كاتبه صاحب إربل والمشارقة، فأرسل الأشرف إلى غازي المذكور يطلبه فامتنع؛ فأرسل إليه: يا أخي لا تفعل، أنت ولي عهدي والبلاد في حكمك فأبى؛ فجمع الأشرف عساكره وقصده، ووقع له معه أمور حتى هزمه، ثم رضي عنه الأشرف حسب ما نذكره في السنة الآتية.

وفيها كانت بين التتار الذين جاؤوا إلى الدربند وبين القبجاق والروس وقعة هائلة، وصبر الفريقان أياماً، ثم انهزم القبجاق والروس، ولم يسلم منهم إلا اليسير.

وفيها توفي عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر شيخ الإسلام موفق الدين أبو محمد المقدسي الجماعيلي الدمشقي الصالحي الحنبلي صاحب التصانيف.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها استرد الملك الأشرف موسى مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازي.

وفيها ظهر السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد ما انفصل عن بلاد الهند وكرمان، واستولى على أذربيجان وحكم عليها. وراسله الملك المعظم عيسى ليعينه على قتال أخيه الملك الأشرف موسى؛ ثم كتب المعظم أيضاً لصاحب إربل في هذا المعنى، وبعث ولده الملك الناصر داود إليه رهينة.

وفيها استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل وأظهر أن الملك محمود بن القاهر قد توفي، وكان قد أمر بخنقه.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وعشرين وستمائة

فيها في شهر ربيع الأولى وصل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى دقوقا؛ فافتتحها بالسيف، وأحرق البلد ونهب أهلها، وفعل فيها ما لا تفعله الكفار لكونهم شتموه ولعنوه على الأسوار؛ ثم عزم على قصد بغداد، فانزعج الخليفة الناصر لدين الله واستعد لقتاله وأنفق ألف ألف دينار في هذا المعنى.

وفيها توفي الخليفة الناصر لدين الله أمير المؤمنين.

وفيها توفي السلطان الملك الأفضل على بن ابن السلطان صلاح الدين يوسف.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وعشرين وستمائة

وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه في السنة الماضية فلم تطل مدته فيها، ووقع له شدائد إلى أن مات في شهر رجب؛ وأمه أم ولد. وكانت خلافته تسعة أشهر وأياماً، وكان مولده في المحرم سنة سبعين وخمسمائة، وكان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة حلو الشمائل شديد القوى. أفضت الخلافة إليه، وله اثنتان وخمسون سنة إلا أشهراً، فقيل له: ألا تتفسح؟ فقال: قد فات الزرع! فقيل له: يبارك الله في عمرك، فقال: من فتح دكاناً بعد العصر إيش يكسب!. وكان خيراً عادلاً قطع الظلامات والمكوس، حتى قيل: إن جملة ما قطع من الظلامات والمكوس ثمانية آلاف دينار في كل سنة، وتصدق في ليلة العيد بمائة ألف دينار. وسببه أنه لما ولي الخلافة ولى الشيخ عماد الدين ابن الشيخ عبد القادر الجيلي القضاء، فما قبل عماد الدين إلا بشرط أن يورث ذوي الأرحام، فقال له الخليفة: أعط كل ذي حق حقه واتق الله ولا تتق بسواه؛ فكلمه القاضي أيضاً في الأوراق التي ترفع إلى الخليفة؛ وهو أن حراس الحروب كانت ترفع إلى الخليفة في صبيحة كل يوم ما يكون عندهم من أحوال الناس الصالحة والطالحة، فأمر الظاهر بتبطيل ذلك، وقال: أي فائدة في كشف أحوال الناس! فقيل له: إن تركت ذلك فسدت أحوال الرعية، فقال: نحن ندعو لهم بالإصلاح. ثم أعطى القاضي المذكور عشرة آلاف دينار يفي بها ديون من في السجون من الفقراء، ثم فرق بقية المائة الألف الدينار في العلماء والفقراء. ولما مات الظاهر تولى الخلافة بعده ولده المستنصر بالله أبو جعفر.

السنة التاسعة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة أربع وعشرين وستمائة

فيها عاد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل إلى بلاده بعد أن صالح أخاه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل، وكلاهما أخو الملك الكامل هذا.

وفيها حج بالناس من الشام الشجاع علي بن السلار، ومن ميافارقين الشهاب غازي ابن الملك العادل.

وفيها توفي السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بن شادي الأيوبي صاحب الشام..

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وعشرين وستمائة

فيها نزل جلال الدين بن خوارزم شاه على خلاط مرة ثانية، وهجم عليه الشتاء فرحل عنها إلى أذربيجان، وخرج الحاجب علي من خلاط بالعسكر، فاستولى على خوي وسلماس وتلك النواحي، وأخذ خزائن جلال الدين المذكور وعاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلت! وهذا يكون سبباً لهلاك العباد والبلاد، فلم يلتفت.

وفيها توفي عبد الرحيم بن علي بن إسحاق سبط القاضي جمال الدين القرشي.

* * *

السنة الحادية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ست وعشرين وستمائة

فيها أعطى الملك الكامل صاحب الترجمة بيت المقدس لملك الفرنج الأنبرور.

وفيها خرج الملك الكامل في صفر من مصر، ونزل تل العجول، وكان الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق كاتب عمه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها ونزل بالنيرب؛ وكان عز الدين أيبك قد أشار على الملك الناصر داود بمداراة عمه الملك الكامل محمد صاحب مصر فخالفه؛ وقال الناصر لعمه الأشرف في قتال عمه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه؛ واجتمع الأشرف مع أخيه الملك الكامل واتفقا على حصار دمشق. ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك ووقع أمور، وتسلم الأنبرور القدس؛ والكامل والأشرف على حصار دمشق، فلم يقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس، ولم يغير من شعائر الإسلام شيئاً.

السنة الثانية عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة سبع وعشرين وستمائة

فيها أخذ السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة خلاط بعد حصار طويل أقام عليها عشرة أشهر، ولما بلغ صاحبها الملك الأشرف ذلك استنجد بملك الروم وغيره من الملوك، وواقع جلال الدين الخوارزمي المذكور وكسره بعد أمور، وقتل معظم عسكره، وامتلأت الجبال والأودية منهم، وشبعت الوحوش والطيور من رممهم، وعظم الملك الأشرف في النفوس.

وفيها توفي الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله الشيخ أبو البركات زين الأمناء المعروف بابن عساكر.

* * *

السنة الثالثة عشرة من سلطنة الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر؛ وهي سنة ثمان وعشرين وستمائة

فيها ساق التتار خلف السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أن واقعهم عدة وقائع من بلاد تبريز، فانهزم بين أيديهم إلى ديار بكر، فقتل في قرية من أعمال ميافارقين.

وفيها توفي بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، الملك الأمجد صاحب بعلبك.

وفيها قتل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، واسمه تكش، وقيل محمود ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه؛ واسمه محمد بن تكش، وهو من نسل عبد الله بن طاهر بن الحسين، وجده تكش هو الذي أزال ملك السلجوقية.

وفيها توفي المهذب عبد الرحيم بن علي بن الدخوار الطبيب.

* * *

السنة الرابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة تسع وعشرين وستمائة

فيها عاد التتار إلى الجزيرة وحران وقتلوا وأسروا وسبوا، وخرج الكامل صاحب الترجمة من مصر إلى أن وصل إلى ديار بكر واجتمع مع أخيه الأشرف موسى، واجتمعوا على دفع التتار؛ وكان أهل حران قد خرجوا لقتال التتار، فما رجع منهم إلا القليل. وعاد التتار إلى بلادهم بعد أمور صدرت منهم في حق المسلمين. فلما بلغ الكامل عود التتار نزل على مدينة آمد ومعه أخوه الأشرف، وحاصرها حتى استولى عليها وعلى عدة قلاع.وفيها توفي إسماعيل بن إبراهيم الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفي.

* * *

السنة الخامسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاثين وستمائة

فيها فتح الملك الكامل محمد صاحب الترجمة آمد، وأخرج منها صاحبها الملك المسعود بن مودود بعد حصار طويل؛ وتسلم منه جميع القلاع التي كانت بيده، وبقي حصن كيفا عاصياً؛ فبعث الكامل أخاه الأشرف، وأخاه شهاب الدين غازياً، ومعهما صاحب آمد تحت الحوطة؛ فسألهم صاحب آمد في تسليم الحصن فلم يسلموا البلد، فعذبه الأشرف عذاباً عظيماً، وكان يبغضه؛ ولا زال الأشرف يحاصر حصن كيفا حتى تسلمها بعد أمور في صفر من السنة، ووجد عند مسعود المذكور خمسمائة بنت من بنات الناس للفراش.

وفيها فتحت دار الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق التي بناها الملك الأشرف موسى، وأمده بها ابن الصلاح الحديث، وذلك في ليلة النصف من شعبان، ووقف عليها الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي صلى الله عليه وسلم.

وفيها توفي الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر، وزير الملك العادل.

وفيها توفي الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب أخو الملك الكامل هذا؛ وكان شقيق المعظم عيسى، وهو صاحب بانياس وتبنين.

* * *

السنة السادسة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة إحدى وثلاثين وستمائة

فيها اجتمع الملك الكامل صاحب الترجمة وإخوته وأسد الدين شيركوه صاحب حمص، وساروا ليدخلوا بلاد الروم من عند النهر الأزرق، فوجدوا الروم قد حفظوا الدربند، ووقفوا على رؤوس الجبال وسموا الطرق، فامتنعت العساكر من الدخول.

* * *

السنة السابعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وثلاثين وستمائة

فيها خرجت عساكر الروم نحو آمد وحاصروها وأقاموا عليها أياماً، ثم نازلوا السويداء فأخذوها.

وفيها كان الوباء العظيم بمصر حيث إنه مات في شهر نيفٍ وثلاثون ألف إنسان.
وفيها توفي عبد السلام بن المظفر بن عبد الله بن محمد بن أبي عصرون.

وفيها توفي صواب العادلي مقدم عسكر الملك الكامل الذي كانت الروم أسرته.

وفيها توفي الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن أبي الحسن علي بن المرشد بن علي المعروف بابن الفارض الحموي الأصل، المصري " المولد و " الدار والوفاة.

وفيها توفي عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن حماد الشيخ الإمام الأديب البارع حسام الدين أبو يحيى - وقيل: أبو الفضل - الإربلي المعروف بالحاجري الشاعر المشهور.

* * *

السنة الثامنة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وثلاثين وستمائة

فيها استعاد الكامل من الروم حران والرها وغيرهما، وأخرب قلعة الرها ونزل على دنيسر فأخربها ومعه أخوه الأشرف، وبينما هم في ذلك جاء كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يقول: قد قطع التتار دجلة في مائة طلب كل طلب خمسمائة فارس، ووصلوا إلى سنجار، فخرج إليهم معين الدين بن كمال الدين بن مهاجر فقتلوه على باب سنجار، ثم رجع التتار ثم عادت. فأمنهم الأشرف للتوجه إلى جهة الشرق.

وفي هذه السنة كان الطاعون العظيم بمصر وقراها، مات فيه خلق كثير من أهلها.

وفيها جاءت الخوارزمية إلى صاحب ماردين فنزل إليهم وقاتلهم، ثم نزلوا نصيبين

وأحرقوها، وفعلوا فيها أعظم ما فعل الكامل بدنيسر.

وفيها توفي الحسن بن محمد القاضي القيلوي، وقيلوية: قرية من قرى بغداد.

وفيها توفي أبو المحاسن محمد بن نصر الدين بن نصر بن الحسين بن عنين الزرعي.

وفيها توفي أبو الخطاب بن دحية المغربي.

* * *

السنة التاسعة عشرة من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة أربع وثلاثين وستمائة

فيها نزلت التتار على إربل وحاصرتها مدة حتى أخذوها عنوة، وقتلوا كل من فيها وسبوا وفضحوا البنات، وصارت الآبار والدور قبورا للناس.

وفيها استخدم الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل الخوارزمية أصحاب جلال الدين، فانضموا عليه وانفصلوا من الروم؛ وسر والده الملك الكامل بذلك.

وفيها بدت الوحشة بين الأخوين، وسببها أن الأشرف طلب من الكامل الرقة وقال: الشرق كله صار له، وأنا أركب كل يوم في خدمته، فتكون الرقة برسم عليق دوابي، فأبى الكامل وأغلظ في الجواب، فوقعت الوحشة بينهم بسبب ذلك.

* * *

السنة العشرون من سلطنة الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب على مصر وهي سنة خمس وثلاثين وستمائة

وهي السنة التي مات الكامل المذكور في رجبها، وحكم ابنه العادل في باقيها حسب ما تقدم في وفاة الكامل في ترجمته.

وفيها أيضاً توفي الملك الأشرف موسى، ثم بعده أخوه الملك الكامل. وملك دمشق بعد موت الأشرف الملك الجواد بن الأشرف.

وفيها اختلفت الخوارزمية على الملك الصالح أيوب بن الكامل، وأرادوا القبض عليه فهرب إلى سنجار، وترك خزائنه وأثقاله، فنهبوا الجميع.

وفيها توفي الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى شاه أرمن ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب، أخو الملك الكامل محمد.

وفيها توفي يحيى بن هبة الله بن الحسن القاضي شمس الدين أبو البركات بن سناء الدولة.

سلطنة الملك العادل الصغير على مصر

هو السلطان الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب الأيوبي المصري. وسبب تسلطنه وتقدمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيوب أنه لما مات أبوه الملك الكامل محمد بقلعة دمشق في رجب كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب - وهو الأكبر - نائب أبيه الملك الكامل على الشرق وإقليم ديار بكر، وكان ابنه الملك العادل أبو بكر هذا - وهو الأصغر - نائب أبيه بديار مصر؛ فلما مات الكامل قعد الأمراء يشتورون فيمن يولون من أولاده فوقع الاتفاق بعد اختلاف كبير على إقامة العادل هذا في سلطنة مصر والشام، وأن يكون نائبه بدمشق ابن عمه الملك الجواد يونس، وأن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب على ممالك الشرق على حاله، فتم ذلك وتسلطن الملك العادل هذا في أواخر سنة خمس وثلاثين وستمائة، وتم أمره ونعت بالعادل سيف الدين على لقب جده.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل الصغير أبي بكر ابن الملك الكامل محمد على مصر وهي سنة ست وثلاثين وستمائة

فيها توفي محمود بن أحمد الشيخ الإمام العلامة جمال الدين الحصيري الحنفي.

وفيها توفى عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ محمد المنعوت بالصاحب.

وفيها توفي الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف البرزالي الإشبيلي.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل الصغير ابن الملك الكامل على مصر وهي سنة سبع وثلاثين وستمائة

فيها خلع الملك العادل المذكور من ملك مصر بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها هجم الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك على دمشق، ومعه أسد الدين شيركوه صاحب حمص وملكها في يوم الثلاثاء سابع وعشرين من صفر.

وفيها توفي الملك ناصر الدين أرتق صاحب ماردين الأرتقي.

وفيها توفي الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادي الأيوبي صاحب حمص.

* * *

سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر

هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادي الأيوبي سلطان الديار المصرية.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد على مصر وهي سنة ثمان وثلاثين وستمائة

فيها سلم الملك الصالح إسماعيل الشقيف لصاحب صيداء الفرنجي؛ وعزل عز الدين بن عبد السلام عن الخطابة وحبسه، وحبس أيضاً أبا عمرو بن الحاجب لأنهما أنكرا عليه فعله، فحبسهما مدة ثم أطلقهما، وولى العماد ابن خطيب بيت الأبار الخطابة عوضاً عن ابن عبد السلام.

وفيها وصل الملك الناصر داود من مصر إلى غزة، وكان بينه وبين الفرنج وقعة، وكسرهم فيها وغنم منهم أشياء كثيرة.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن علي بن محمد الشيخ الإمام محيي الدين العالم المشهور بابن عربي الطائي الحاتمي.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة تسع وثلاثين وستمائة

فيها شرع الملك الصالح المذكور في عمارة المدارس بين القصرين من القاهرة، وشرع أيضاً في بناء قلعة الجزيرة، وأخذ أملاك الناس، وأخرب نيفاً وثلاثين مسجداً، وقطع ألف نخلة، وغرم عليها خراج مصر سنين كثيرة؛ فلم تقم بعد وفاته، وأخربها مماليكه الأتراك سنة إحدى وخمسين وستمائة.

وفيها توفي أحمد بن الحسين بن أحمد الشيخ الإمام العالم شمس الدين النحوي الإربلي ثم الموصلي الضرير المعروف بابن الخباز، صاحب التصانيف.

وفيها توفي موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العلامة كمال الدين أبو الفتح الموصلي الشافعي.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة أربعين وستمائة

فيها كان الوباء ببغداد وتزايدت الأمراض. وتوفي الخليفة المستنصر وبويع ابنه المستعصم.

وفيها عزم الملك الصالح المذكور على التوجه إلى الشام، فقيل له: البلاد مختلة والعساكر مختلفة فجهز إليها العساكر وأقام هو بمصر.

وفيها توفي كمال الدين أحمد بن صدر الدين شيخ الشيوخ بمدينة غزة.

وفيها توفي الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة إحدى وأربعين وستمائة

فيها ترددت الرسل بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب المذكور وبين عمه الملك الصالح إسماعيل صاحب الشام في الصلح.

وفيها صالح صاحب الروم التتار على أن يدفع إليهم في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً وجارية وكلب صيد؛ وكان صاحب الروم يومئذ ابن علاء الدين كيقباذ.

وفيها توفي الشيخ نجم الدين خليل بن علي بن الحسين الحموي الحنفي الفقيه.

وفيها توفي مظفر الدين الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب..

وفيها توفي الشيخ الصالح الزاهد أبو بكر الشعيبي.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة اثنتين وأربعين وستمائة

فيها توفي شهاب الدين أحمد بن محمد بن الناقد وزير الخليفة.

وفيها توفي شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه.

وفيها قتل القاضي الرفيع عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أبو حامد الملقب بالرفيع.

وفيها توفي الملك المغيث عمر بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها توفي شمس الأئمة محمد بن عبد الستار بن محمد الإمام العلامة فريد دهره ووحيد عصره المعروف بشمس الأئمة الكردري البراتقيني الحنفي.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة ثلاث وأربعين وستمائة

فيها كان الحصار على دمشق من الخوارزمية.

وفيها كان الغلاء العظيم بدمشق.

وفيها أيضاً كان الغلاء بمصر، وقاسى أهلها شدائد.

وفيها توفي الوزير معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ أبو علي وزير الملك الصالح أيوب.

وفيها توفي عبد المحسن بن حمود بن عبد المحسن أبو الفضل أمين الدين الحلبي.

وفيها توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وأخت الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وفيها توفي أحمد بن عيسى ابن العلامة موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الإمام الحافظ الزاهد سيف الدين بن المجد الحنبلي.

وفيها توفي عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبي نصر.

وفيها توفي علي بن محمد بن عبد الصمد العلامة شيخ القراء بدمشق علم الدين أبو الحسن الهمذاني السخاوي المصري.

وفيها توفي الملك المغيث عمر بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وفيها توفي شمس الأئمة محمد بن عبد الستار بن محمد الإمام العلامة فريد دهره

ووحيد عصره المعروف بشمس الأئمة الكردري البراتقيني الحنفي

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة أربع وأربعين وستمائة

فيها توفي الملك المنصور صاحب حمص.

وفيها تسلم السلطان الملك الصالح أيوب قلعة الصبيبة من ابن عمه الملك السعيد ابن الملك العزيز، ثم أخذ السلطان أيضاً حصن الصلت من الملك الناصر داود صاحب الكرك.

وفيها قدم رسولان من التتار إلى بغداد، أحدهما من بركة خان، والآخر من باجو، فاجتمعا بالوزير مؤيد الدين ابن العلقمي، فتغمت على الناس بواطن الأمور.

وفيها أخذت الفرنج مدينة شاطبة من بلاد المغرب صلحاً، ثم أجلوا أهلها عنها.

وفيها توفي بركة خان الخوارزمي أحد الخانات الأربعة، كان أصلحهم في الميل إلى الخير، وكان الملك الصالح نجم الدين قد صاهره وأحسن إليه.

* * *

السنة الثامنة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة خمس وأربعين وستمائة

فيها نزل الوزير فخر الدين ابن الشيخ بعسكر الصالح نجم الدين المذكور على طبرية ففتحها عنوة، وحاصر عسقلان وقاتل عليها قتالاً عظيماً وأخذها المسلمون.

وفيها وجه الملك الصالح نجم الدين تاج الدين بن مهاجر من مصر إلى دمشق ومعه المبارز نسيبه ومعهما تذكرة فيها أسماء جماعة من أعيان الدماشقة بأن يحملوا إلى مصر فحملوا.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة ست وأربعين وستمائة

فيها قايض الملك الأشرف موسى صاحب حمص تل باشر بحمص مع الملك الناصر يوسف ابن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين، صاحب حلب.

وفيها أخذ الملك الصالح نجم الدين المذكور من الأمير علاء الدين ايدكين البندقداري الذي تسلطن فيما بعد. اشتراه منه ورقاه إلى أن صار من أمره ما صار.

وفيها زار الملك الصالح في عوده إلى مصر القدس الشريف، وأمر أن يذرع سوره، فجاء ستة آلاف ذراع، فأمر بأن يصرف مغل القدس في عمارته.

وفيها توفي علي بن أبي الجن بن منصور الشيخ أبو الجن.

وفيها توفى عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الشيخ الإمام العالم العلامة جمال الدين أبو عمرو المعروف بابن الحاجب الكردي المالكي النحوي الأصولي صاحب التصانيف في النحو وغيره.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر وهي سنة سبع وأربعين وستمائة

وفيها كانت وفاته في شعبان.

فيها في أولها كان عود السلطان الملك الصالح المذكور من دمشق.

وفيها توجه الملك الناصر داود صاحب الكرك إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، وبلغ السلطان الملك الصالح نجم الدين ذلك، فأرسل إلى نائبه ابن يغمور بدمشق بخراب دار أسامة وقطع شجر بستان القصر الذي للناصر داود بالقابون وخراب القصر، ففعل ذلك.

وفيها سار الملك الظاهر شادي، والملك الأمجد ابنا الملك الناصر داود المقدم ذكره من الكرك إلى مصر، وسلما الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين بغير رضا أبيهما الناصر، فأعطى الملك الصالح للظاهر بن الناصر داود عوضاً عن الكرك خبز مائتي فارس بمصر، وخمسين ألف دينار، وثلاثمائة قطعة قماش، والذخائر التي بالكرك؛ وأعطى لأخيه الأمجد إخميم، وخبز مائة وخمسين فارساً بمصر؛ فلم تطل مدتهم بمصر ومات الملك الصالح وزال ذلك كله من أيديهم حسب ما تقدم ذكره، وحسب ما يأتي ذكره أيضاً.

وفيها هاجمت الفرنج دمياط وأحاطت بها في شهر ربيع الأول.

وفيها توفي الصاحب فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه الجويني.

* * *

سلطنة الملك المعظم توران شاه على مصر

هو السلطان الملك المعظم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد أبي بكر ابن نجم الدين أيوب بن شادي، سلطان الديار المصرية الأيوبي الكردي، آخر ملوك بني أيوب بمصر؛ ولا عبرة بولاية الأشرف في سلطنة الملك المعز أيبك.

تسلطن الملك المعظم هذا بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو شهرين ونصف، وقيل: أربعة أشهر ونصف وهو الأصح؛ لأن الملك الصالح أيوب كانت وفاته في ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة، والفرنج محدقة بعساكر الإسلام، فأخذت زوجته أم ولده خليل شجرة الدر موته مخافة على المسلمين، وبايعوا لابنه المعظم هذا بالسلطنة في غيبته، وصارت شجرة الدر تدبر الأمور وتخفي موت السلطان الملك الصالح إلى أن حضر المعظم توران شاه هذا من حصن كيفا إلى المنصورة في أول المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة. وكان المعظم هذا نائباً لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا وغيرها من ديار بكر.

ولما وصل المعظم إلى المنصورة فتح الله على يديه، ونصر الله الإسلام في يوم دخوله فتيمن الناس بطلعته. وسبب النصر أنه لما استهلت سنة ثمان وأربعين والفرنج على المنصورة والجيوش الإسلامية بإزائهم، وقد طال القتال بين الفريقين أشهراً ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، ووقع في خيلهم وباء وموت، وعزم ملكهم الفرنسيس على أن يركب في أول الليل ويسير إلى دمياط، فعلم المسلمون بذلك. وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر منه المسلمون في الليل إلى برهم، وخيامهم على حالها وثقلهم، وأحدق المسلمون بهم يتخطفونهم طول الليل قتلاً وأسراً، فالتجؤوا إلى قرية تسمى منية أبي عبد الله وتحصنوا بها، ودار المسلمون حولها، وظفر أسطول المسلمين بأسطولهم، فغنموا جميع المراكب بمن فيها. واجتمع إلى الفرنسيس خمسمائة فارس من أبطال الفرنج، وقعد في حوش منية أبي عبد الله؛ وطلب الطواشي رشيد الدين، والأمير سيف الدين القيمري فحضرا إليه؛ فطلب منهما الأمان على نفسه ومن معه؛ فأجاباه وأفناه وهرب باقي الفرنج على حمية؛ وأحدق المسلمون بهم؛ وبقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة، حتى أبيدت الفرنج، ولم يبق منهم سوى فارسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا، وغنم المسلمون منهم ما لا يوصف واستغنى خلق؛ وأنزل الفرنسيس في حراقة، وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول. وفي البر الشرقي العسكر سائر منصور مؤيد، والبر الغربي فيه العربان والعامة في لهو وتهان

وسرور بهذا الفتح العظيم، والأسرى تقاد في الحبال؛ فكان يوماً من الأيام العظيمة المشهودة.

قال سعد الدين في تاريخه: اتفقوا على أن يسلم الفرنسيس دمياط، وأن يعطي هو والكنود ثمانمائة ألف دينار عوضاً عما كان بدمياط من الحواصل، ويطلقوا أسرى المسلمين؛ فحلفوا على هذا؛ وركبت العساكر ثاني صفر إلى دمياط قرب الظهر، وساروا حتى دخلوها، ونهبوا وقتلوا من بقي من الفرنج حتى ضربتهم الأمراء وأخرجوهم، وقوموا الحواصل التي بقيت في دمياط بأربعمائة ألف دينار؛ وأخذوا من الملك الفرنسيس أربعمائة ألف دينار، وأطلقوه العصر هو وجماعته؛ فانحدروا في شيني إلى البطس، وأنفذ رسولاً إلى الأمراء الصالحية يقول: ما رأيت أقل عقلاً ولا ديناً منكم! أما قلة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنبٍ يعني لما قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظم توران شاه بعد أخذ دمياط بأيام على ما سنذكره هنا إن شاء الله تعالى. قال: وأما قلة العقل فكذا، مثلي ملك البحر وقع في أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، ولو طلبتم مملكتي دفعتها لكم حتى أخلص. ثم لما سار إلى بلاده أخذ في الاستعداد والعود إلى دمياط فأهلكه الله تعالى. وندمت الأمراء على إطلاقه.

ولما أراد الفرنسيس العود إلى دمياط قال في ذلك الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، وكتب بها إليه يعني إلى الفرنسيس، وهي:

قل للفرنسيس إذا جئته ::: مقال صدقٍ من قول فصيح
آجرك الله على ما جرى ::: من قتل عبّاد يسوع المسيح
أتيت مصر تبتغي ملكها ::: تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ::: ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم ::: بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا ترى منهم ::: إلا قتيلاً أو أسيراً جريح
وفقك الله لأمثالها ::: لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً ::: فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم إن أضمروا عوده ::: لأخذ ثارٍ أو لعقدٍ صحيح
دار ابن لقمان على حالها ::: والقيد باقٍ والطواشي صبيح

قلت: لله دره! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف والبلاغة وحسن التركيب، رحمه الله.

وأما أمر الملك المعظم توران شاه صاحب الترجمة، قال العلامة شمس الدين يوسف

ابن قزأوغلي في تاريخه في سبب قتله، قال: ذكرنا مجيئه إلى الشام وذهابه إلى مصر، واتفق كسرة الفرنج عند قدومه فتيمن الناس بطلعته، غير أنه بدت منه أسباب نفرت القلوب عنه فاتفقوا على قتله. وكان فيه نوع خفة، فكان يجلس على السماط، فإذا سمع فقيهاً يذكر مسألة وهو بعيد عنه، يصيح: لا نسلم!. ثم احتجب عن الناس أكثر من أبيه؛ وكان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رؤوسها بالسيف فيقطعها ويقول: كذا أفعل بالبحرية! يعني مماليك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الروضة، ثم يسمي مماليك أبيه بأسمائهم؛ وأهانهم وقدم الأراذل وأبعد الأماثل. ووعد الفارس أقطاي أن يؤمره ولم يف له، فاستوحش منه. وكانت أم خليل يعني شجرة الدر زوجة والده الملك الصالح لما وصل إلى القاهرة مضت هي إلى القدس، فبعث يهددها ويطلب المال والجواهر منها فخافت منه، فكاتبت فيه، فاتفق الجميع عند ذلك على قتله. فلما كان يوم الاثنين سابع وعشرين من المحرم جلس المعظم على السماط فضربه بعض مماليك أبيه البحرية بالسيف فتلقاه بيده فقطع بعض أصابعه؛ وقام من وقته ودخل البرج الخشب الذي نصب له بفارسكور وصاح: من جرحني؟. قالوا: الحشيشية. فقال: لا والله إلا البحرية، والله لا أبقيت منهم بقية.

واستدعى المزين فخيط يده وهو يتوعدهم، فقال بعضهم لبعض: تمموه وإلا أبادكم! فدخلوا عليه فانهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا النيران حول البرج ورموه بالنشاب، فرمى بنفسه وهرب نحو البرج، وهو يقول: ما أريد ملكاً! دعوني أرجع إلى الحصن يا مسلمون! ما فيكم من يصطنعني ويجيرني! والعساكر واقفة فما أجابه أحد، والنشاب تأخذه، فتعلق بذيل الفارس أقطاي فما أجاره، فقطعوه قطعاً وبقي على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخاً لا يجسر أحد أن يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به. ولما قتلوه دخلوا على الفرنسيس الخيمة بالسيوف، فقالوا؛ نريد المال، فقال: نعم، فأطلقوه وسار إلى عكا على ما اتفقوا عليه معه. قال: وكان الذي باشر قتله أربعة؛ وكان أبوه الملك الصالح أيوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخي العادل إلى الحبس، وخذ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلا هؤلاء الأربعة فإنهم مضوا معه وخنقوه، فسلطهم الله على ولده فقتلوه أقبح قتلة، ومثلوا به أعظم مثلة لما فعل بأخيه! قال الأمير حسام الدين بن أبي علي: كان توران شاه لا يصلح للملك؛ كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب: ما تنفذ تحضره إلى هاهنا! فيقول: دعوني من هذا، فألححنا عليه يوماً، فقال: أجيبه إلى هاهنا أقتله! وقال عماد الدين بن درباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيوب في المنام وهو يقول:

قتلوه شر قتله ::: صار للعالم مثله

لم يراعوا فيه إلا ::: لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قليلٍ ::: لأقل الناس أكله

وكانوا قد جمعوا في قتله ثلاثة أشياء: السيف والنار والماء! وتسلطن بعده زوجة والده أم خليل شجرة الدر باتفاق الأمراء وخشداشينها المماليك الصالحية، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة. وكانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، وقتل في يوم الاثنين سابع عشرين المحرم من سنة ثمان وأربعين وستمائة؛ وكان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة في ليلة مستهل المحرم من السنة المذكورة حسب ما تقدم ذكره.

* * *

سلطنة الملكة شجرة الدر على مصر

هي الملكة شجرة الدر بنت عبد الله جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجته وأم ولده خليل؛ وكانت حظية عنده إلى الغاية، وكانت في صحبته وهو ببلاد المشرق في حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لما حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك، ومعها ولدها خليل أيضاً، وقاست مع الصالح تلك الأهوال والمحن، ثم قدمت معه مضر لما تسلطن؛ وعاش ابنها خليل بعد ذلك وتوفي صغيراً. ولا زالت في عظمتها من الحشم، إليها غالب تدبير الديار المصرية في حياة سيدها الملك الصالح وفي مرضه وبعد موته، والأمور تدبرها على أكمل وجه، إلى أن قدم ولد زوجها الملك المعظم توران شاه، فلم يشكر لها توران شاه ما فعلته من الإخفاء لموت والده وقيامها بالتدبير أتم قيام، حتى حضر إلى المنصورة وجلس في دست السلطنة. ولم تدع أحداً يطمع في الملك لعظمتها في النفوس، فترك توران شاه ذلك كله وأخذ في تهديدها، وطلب الأموال منها بسرعة، سلم يحسن ذلك ببال أحد. واتفقوا على ولايتها لحسن سيرتها وغزير عقلها وجودة تدبيرها، وجعلوا المعز أيبك التركماني أتابكا لها، وخطب لها على المنابر بمصر والقاهرة لكنها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفتي على العادة، غير أنهم بايعوها السلطنة في أيام أرسالاً وتم أمرها.

قال الشيخ قطب الدين: " وطلبت صفي الدين إبراهيم بن مرزوق، وكان بمصر، فاستشارته ووعدته بالوزارة، فأنكر عليها ونهاها عن ذلك فلم تصغ إلى قوله، وطلبت مملوكاً للطواشي محسن الجوجري الصالحي وعرضت عليه أمرها ووعدته ومنته إن قتل المعز! ثم استدعت جماعة من الخدام واتفقت معهم. فلما كان يوم الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر ربيع الأول سنة لعب المعز بالكرة ومن معه، وصعد إلى القلعة آخر النهار، وأتى الحمام ليغتسل، فلما قلع ثيابه وثب عليه سنجر الجوجري والخدم فرموه وخنقوه؛ وطلبت شجرة الدر ابن مرزوق على لسان الملك المعز، فركب حماره وبادر وطلع القلعة من باب السر، فرآها جالسة والمعز بين يديها ميت، فأخبرته الأمر فعظم عليه جداً، واستشارته فقال: ما أعرف ما أقول، وقد وقعت في أمر عظيم مالك منه مخلص! ثم طلبت الأمير جمال الدين بن أيدغدي العزيزي وعز الدين أيبك الحلبي وعرضت عليهما السلطنة فامتنعا؛ فلما ارتفع النهار شاع الخبر واضطربت الناس ". انتهى كلام قطب الدين.

وأما شجرة الدر صاحبة الترجمة فإنها امتنعت بدار السلطنة، هي والذين قتلوا الملك المعز أيبك؛ وطلب المماليك المعزية هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحية بينهم وبينها، حمية لشجرة الدر لأنها خشداشتهم؛ فلما غلبوا مماليك المعز منهم ومنها

أمنوها وحلفوا لها أنهم لا يتعرضون لها بسوء. فلما كان يوم الاثنين التاسع والعشرون منه أخرجت من دار السلطنة إلى البرج الأحمر فحبست به وعندها بعض جواريها وقبض على الخدام واقتسمت الأمراء جواريها؛ وكان نصر العزيزي الصالحي، وهو أحد الخدام القتلة، قد تسرب إلى الشام يوم ظهور الواقعة، وأحاطت المماليك المعزية بالدار السلطانية وجميع ما فيها؛ ويوم ظهور الواقعة أحضر الصفي بن مرزوق من الدار وسئل عن حضوره عند شجرة الدر لما طلبته بعد قتل المعز واستشارته، فعرفهم صورة الحال فصدقوه وأطلقوه. وحضر الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، وكان الناس قد قطعوا بموت المعز، فعند حضور أيدغدي العزيزي المذكور أمر باعتقاله بالقلعة، ثم نقل إلى الإسكندرية، فاعتقل بها؛ ثم صلب الخدام الذين اتفقوا على قتل المعز؛ وهرب سنجر غلام الجوهري ثم ظفر به وصلب إلى جانب أستاذه محسن، فمات سنجر من يوم الاثنين المذكور وقت العصر على الخشبة، وتأخر موت الباقين إلى تمام يومين. واستمرت شجرة الدر بالبرج الأحمر بقلعة الجبل، والملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك ووالدته يحرضان المعزية على قتلها، والمماليك الصالحية تمنعهم عنها، لكونها جارية أستاذهم، ولا زالوا على ذلك إلى يوم السبت حادي عشر شهر ربيع الآخر حيث وجدت مقتولة مسلوبة خارج القلعة، فحملت إلى التربة التي كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة - رحمها الله تعالى - فدفنت. وشجرة الدر أوقاف على التربة المذكورة وغيرها. وكان الصاحب بهاء الدين. علي بن محمد بن سليم المعروف بابن حنا وزيرها، ووزارته لها أول عرجة ترقاها من المناصب الجليلة. ولما تيقنت شجرة الدر أنها مقتولة أودعت جملة من المال والجواهر، وأعدت أيضاً جملة من الجواهر النفيسة فسحقتها في الهاون لئلا يأخذها الملك المنصور ابن المعز أيبك وأمه، فإنها كانت تكره المنصور ووالدته؛ وكانت غير متجملة في أمرها لما تزوجها أيبك حتى منعته الدخول إليهما بالكلية، فلهذا كان المنصور وأمه يحرضان المماليك المعزية على قتلها. وكانت خيرة دينة رئيسة عظيمة في النفوس، ولها مآثر وأوقاف على وجوه البر معروفة بها. والذي وقع لها من تملكها الديار المصرية لم يقع ذلك لامرأة قبلها ولا بعدها في الإسلام.

* * *

سلطنة المعز أيبك التركماني

هو السلطان الملك المعز عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي المعروف بالتركماني، أول ملوك الترك بالديار المصرية. وقد ذكرهم بعض الناس في أبيات مواليا إلى يومنا هذا، وهم الملوك الذين مسهم الرق، غير أولادهم، فقال:

أيبك قطز يعقبو بيبرس ياذا الدين ::: بعدو قلاوون بعدو كتبغا لاجين

بيبرس برقوق بعدو شيخ ذو التبيين ::: ططر برسباي جقمق صاحب التمكين

قلت: هذا قبل أن يتسلطن الملك الأشرف إينال العلائي، فلما ملك إينال قلت أنا:

أيبك قطز يعقبو بيبرس ذو الإكمال ::: بعدو قلاوون بعدو كتبغا المفضال

لاجين بيبرس برقوق شيخ ذو الإفضال ::: ططر برسباي جقمق ذو العلا إينال

وقد خرجنا عن المقصود. ولنعد إلى ذكر الملك المعز أيبك المذكور، فنقول: أصله من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، اشتراه في حياة والده الملك الكامل محمد، وتنقلت به الأحوال عنده، ولازم أستاذه الملك الصالح في الشرق حتى جعله جاشنكيره، ولهذا لما أمره كان عمل رنكه صورة خوانجا. واستمر على ذلك إلى أن قتل المعظم توران شاه وملكت شجرة الدر بعده.

اتفق الأمراء على سلطنة الملك المعز أيبك هذا وسلطنوه بعد أن بقيت الديار المصرية بلا سلطان مدة، وتشوف إلى السلطنة عدة أمراء، فخيف من شرهم، ومال الناس إلى أيبك المذكور، وهو من أوسط الأمراء، ولم يكن من أعيانهم، غير أنه كان معروفا بالسداد وملازمة الصلاة، ولا يشرب الخمر، وعنده كرم وسعة صدر ولين جانب. وقالوا أيضا: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته، وكونه من أوسط الأمراء. فبايعوه وسلطنوه وأجلسوه في دست الملك في أواخر شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة. وحملت الغاشية بين يديه، وركب بشعائر السلطنة. وأول من حمل الغاشية بين يديه الأمير حسام الدين بن أبي علي، ثم تداولها أكابر الأمراء واحدا بعد واحد.

وتم أمره في السلطنة وخطب له على المنابر، ونودي في القاهرة ومصر بسلطنته، إلى أن كان الخامس من جمادى الأولى بعد سلطنته بخمسة أيام ثارت المماليك البحرية الصالحية وقالوا: لا بد لنا من سلطان يكون من بني أيوب يجتمع الكل على طاعته، وكان الذي قام بهذا الأمر الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار، والأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدي، والأمير شمس الدين سنقر الرومي، واتفقوا على أن يكون الملك المعز أيبك هذا أتابكاً عليهم، واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بني أيوب يكون له اسم السلطنة، وهم يدبرونه كيفما شاؤوا

ويأكلون الدنيا به.

كل ذلك والملك المعز سامع مطيع. فوقع الاتفاق على الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف ابن الملك المسعود أقسيس ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن الأمير ووصلتْ طائفةٌ منهم من البَحْريّة على وجوههم إلى الصعيد، وكانوا قد أساؤوا إلى المصريين ونهبوهم وارتكبوا معهم كلّ قبيح، فخافوا منهم فتوجهوا إلى الصعيد. وخُطِب في ذلك النهار بالقاهرة ومصر والقلعة للملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور وفي جميع البلاد. وأيقن كل أحد بزوال دولة الملك المُعِز أيْبَك. وبات في تلك الليلة جمالُ الدين بن يَغمور بالعباسة، وأحْمَى الحَمام للملك الناصر صلاح الدين يوسف، وهيّأ له الاقامة. كل ذلك والملك الناصر ما عنده خبرٌ بماوقع من القتال والكَسْرة، وهو واقف بسَنَاجقه وأصحابه ينتظِر ما يرد عليه من أمر جيشه.

وأما أمر المصريين فإنَه لما وقعت الهزيمةُ عليهم ساق الملكُ المعز أيبك وأقطاي الجَمَدَار المعروف ب أقطيا في ثلاثمائة فارس طالبين الشامَ هاربين، فعثروا في طريقهم بشمس الدين لؤلؤ المقدّم ذكرُه والضياءِ القَيْمُري، فساق شمس الدين لؤلؤ عليهم فحملوا عليه فكسروه وأسَروه وقتلوا ضياءَالدين القَيْمُري، وجيء بشمس الدين لؤلؤ إلى بين يدي الملك المُعِزّ أيْبَك، فقال الأمير حُسَام الدين بن أبي عليّ: لا تقتلوه لنأخذ به الشام، فقال أقْطاي الجَمَدَار: هذا الذي يأخذ مصر منا بمائتي قِناع! وجعَلنا مَخَانيثَ، كيف نتركه! وضربوا عنقه، وساقوا على حَمِيَّة إلى جهة، فاعترضوا طُلْب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف فوقع المصَافّ بينهم، فخامَر على الملك الناصر جماعةٌ من المماليك العَزيزية من مماليك أبيه، وجاؤوا إلى الملك المُعز أيْبَك التُرْكُماني، وقالوا له: إلى أين تتوجه؟ هذا السلطان واقفٌ في طُلْبه ليس له عِلْمٌ بكسرتهم، فعطفوا على الطُلْب، وتقدمتهم العزيزية فكَسروا سَناجِقَ السلطان وصناديقه ونَهبوا ماله، ورمَوه بالنُشّاب، فأخذ نَوْفل البدوي وجماعة من مماليكه وأصحابه وعادوا به إلى الشام، وأسر المصريون الملك المعظم توران شاه، ابن السلطان صلاح الدين بعد أن جرحوه وجرحوا ولده تاج الملوك، وأخذوا الملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر عمه، والملك الصالح إسماعيل صاحب الوقائع مع الملك الصالح نجم الدين أيوب، وجماعة كثيرة من أعيان الحلبيين، ومات تاج الملوك من جراحة كانت به، فحمل إلى بيت المقدس ودفن به. وضرب الشريف المرتضى في وجهه بالسيف ضربة هائلة عرضا وأرادوا قتله، فقال: أنا رجل شريف و ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتركوه، وتمزق عساكر دمشق كل ممزق، ومشوا في الرمل أياما.

وأما المصريون فإنهم لما وقعت لهم هذه النصرة عادوا إلى القاهرة بالأسارى، وسناجق الناصر مقلوبة وطبوله مشققة، ومعهم الخيول والأموال والعدد وشقوا القاهرة، فلما وصلت المماليك الصالحية النجمية إلى تربة أستاذهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بين القصرين أخذوا الملك الصالح إسماعيل الذي أسروه في الوقعة، وكان عدو أستاذهم الملك الصالح المذكور، ووقفوا به عند التربة، وقالوا: يا خوند، أين عينك ترى عدوك أسيرا بأيدينا! ثم سحبوه ومضوا به إلى الحبس، فحبسوه هو وأولاده أياما ثم غيبوه إلى يومنا هذا، ولم يسمع عنه خبر إلا ما تحدث به العوام بإتلافه.

وأما عساكر الناصر الذين كانوا بالعباسة - أعني الذين كسروا الملك المعز أيبك أولا - فإن المعز لما تم له النصر وهزم الناصر رد إلى المذكورين في عوده إلى القاهرة، ومال عليهم بمن معه قتلا وأسرا حتى بدد شملهم، ورحل إلى القاهرة بمن معه من الأسارى وغيرهم. ولما دخل الملك المعز أيبك هذا إلى القاهرة ومعه المماليك الصالحية مالوا على المصريين قتلا ونهبا ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم وفعلوا بهم ما لم يفعله الفرنج بالمسلمين.

وأما الملك الناصر يوسف فإنه سار حتى وصل إلى غزة وأقام ينتظر أصحابه، فوصل إليه منهم من سلم من عسكر الشام وعسكر الموصل ومضوا إلى الشام.

وأما العساكر المصرية فإن الملك المعز أيبك المذكور لما دخل إلى مصر بعد هذه الوقعة عظم أمره وثبتت قواعد ملكه ورسخت قدمه. ثم وقع له فصول مع الملك الناصر يوسف المذكور يطول شرحها. محصول ذلك: أنه لما كانت سنة إحدى وخمسين وستمائة وقع الاتفاق بينه وبين الملك الناصر المذكور على أن يكون للمعز وخشداشيته المماليك الصالحية البحرية الديار المصرية وغزة والقدس، وما بقي بعد ذلك من البلاد الشامية تكون للملك الناصر صلاح الدين يوسف. وأفرج الملك المعز عن الملك المعظم توران شاه ابن الملك الناصر صلاح الدين يوسف المذكور وعن أخيه نصرة الدين وعن الملك الأشرف صاحب حمص وغيرهم من الاعتقال، وتوجهوا إلى الشام.

ولما فرغ الملك المعز من ذلك أخذ ينظر في أمره مع فارس الدين أقطاي الجمدار، فإنه كان أمره قد زاد في العظمة والتفت عليه المماليك البحرية، وصار أقطاي المذكور يركب بالشاويش وغيره من شعار الملك، وحدثته نفسه بالملك، وكان أصحابه يسمونه الملك الجواد فيما بينهم. كل ذلك والمعز سامع مطيع، حتى خطب أقطاي بنت الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وكان أخوها الملك

المنصور هو يومئذ صاحب حماة بعد موت أبيه. وتحدث أقطاي مع الملك المعز أيبك أنه يريد يسكنها في قلعة الجبل لكونها من بنات الملوك، ولا يليق سكناها بالبلد، فاستشعر الملك المعز منه بما عزم عليه، وأخذ يدبر أمره وعمل على قتله فلم يقدر على ذلك. فكاتب الملك المعز السلطان صلاح الدين يوسف واستشاره في الفتك به، فلم يجبه في ذلك بشيء، مع أنه كان يؤثر ذلك، لكنه علم أنه مقتول على كل حال، فترك الجواب. ثم سير فارس الدين أقطاي الجمدار المذكور جماعة لإحضار بنت صاحب حماة إليه، فخرجت من حماة ووصلت إلى دمشق بتجمل عظيم في عدة محفات مغشاة بالأطلس وغيره من فاخر الثياب وعليها الحلي والجواهر، ثم خرجت بمن معها من دمشق متوجهة إلى الديار المصرية.

وأما الملك المعز فإنه لما أبطأ عليه جواب الملك الناصر صلاح الدين في أمر أقطاي وتحقق أن بنت صاحب حماة في الطريق بقي متحيرا، إن منعه من سكنى القلعة حصلت المباينة الكلية، وإن سكنه قويت أسبابه بها ولا يعود يتمكن من إخراجه، ويترتب على ذلك استقلال الأمير فارس الدين أقطاي بالملك، فعمل على معاجلته، فدخل أقطاي عليه على عادته، وقد رتب له الملك المعز جماعة للفتك به، منهم الأمير سيف الدين قطز المعزي - أعني الذي تسلطن بعد ذلك -، وبهادر وسنجر الغتمي فلما دخل أقطاي وثبوا عليه وقتلوه في دار السلطنة بقلعة الجبل في سنة اثنتين وخمسين وستمائة، فتحرك لقتله جماعة من خشداشيته البحرية، ثم سكن الحال ولم ينتطح في ذلك شاتان!.

ولما وقع ذلك التفت الملك المعز إلى خلع الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي فخلعه وأنزله من قلعة الجبل إلى حيث كان أولا عند عماته القطبيات. وركب الملك المعز بالسناجق السلطانية وحملت الأمراء الغاشية بين يديه واستقل على الملك بمفرده استقلالاً تاماً إلى أن قصدت المماليك العزيزية القبض عليه في سنة ثلاث وخمسين، فشعر بذلك قبل وقوعه فقبض على بعضهم وهرب بعضهم.

ثم وقعت الوحشة ثانيا بين الملك المعز هذا وبين الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فمشى الشيخ نجم الدين البادرائي بينهما حتى قرر الصلح بين المعز وبين الناصر، على أن تكون الشام جملة للملك الناصر، وديار مصر للملك المعز، وحد ما بينهما بئر القاضي، وهو فيما بين الورادة والعريش واستمر الحال على ذلك. ثم إن الملك المعز تزوج بالملكة شجرة الدر أم خليل في هذه السنة ودخل بها، وكان زواجه بها سببا لقتله على ما تقدم في ترجمتها، وعلى ما يأتي في هذه الترجمة أيضا.

ولما تزوجها وأقام معها مدة أراد أن يتزوج ببنت الملك الرحيم صاحب الموصل،

وكانت شجرة الدر شديدة الغيرة، فعملت عليه وقتلته في الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدام. وقد ذكرنا ذلك كله مفصلا في ترجمة شجرة الدر فيما مضى. وكان قتل الملك المعز في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة. وكان ملكاً شجاعاً كريماً عاقلاً سيوساً كثير البذل للأموال، أطلق في مدة سلطنته من الأموال والخيول وغير ذلك ما لا يحصى كثرة حتى رضي الناس بسلطان مسه الرق. وأما أهل مصر فلم يرضوا بذلك إلى أن مات، وهم يسمعونه ما يكره، حتى في وجهه إذا ركب ومر بالطرقات، ويقولون: لا نريد إلا سلطاناً رئيساً مولوداً على الفطرة. على أن الملك المعز كان عفيفا طاهر الذيل بعيدا عن الظلم والعسف كثير المداراة لخشداشيته والاحتمال لتجنيهم عليه وشر أخلاقهم، وكذلك مع الناس. وخلف عدة أولاد منهم الملك المنصور علي الذي تسلطن بعده، وناصر الدين قان.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني في الذيل على مرآة الزمان: ورأيت له ولداً آخر بالديار المصرية في سنة تسع وثمانين وستمائة، وهو في زي الفقراء الحريرية. انتهى.

وكان للمعز بر ومعروف وعمائر، من ذلك: المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافاً. ودهليز المدرسة متسع طويل مفرط، قيل: إن بعض الأكابر دخل إلى هذه المدرسة المذكورة فراها صغيرة بالنسبة إلى دهليزها، فقال: هذه المدرسة مجاز بلا حقيقة! انتهى. وكان مدرسها القاضي برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري إلى أن مات. وكانت مدة سلطنة الملك المعز على مصر سبع سنين. ومات وقد ناهز الستين سنة - رحمه الله تعالى -.

وأيبك صوابه كما هو مكتوب، وهو لفظ تركي مركب من كلمتين. فأي: هو القمر، وبك أمير، فمعنى الاسم باللغة العربية أمير قمر، ولا عبرة بالتقديم والتأخير في اللفظ، وأيبك بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة من تحت وتفخيمهما معا وبك معروف لا حاجة إلى التعريف به. انتهى.

* * *

سلطنة المنصور علي بن أيبك التركماني

السلطان الملك المنصور نور الدين علي ابن السلطان الملك المعز عز الدين أيبك التركماني الصالحي النجمي ملك الديار المصرية بعد قتل أبيه المعز أيبك في يوم الخميس خامس عشرين شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة، وتم أمره وخطب له من الغد في يوم الجمعة سادس وعشرينه على منابر مصر وأعمالها. والمنصور هذا هو الثاني من ملوك مصر من الترك بالديار المصرية.

وتسلطن المنصور هذا وعمره خمس عشرة سنة

* * *

سقوط بغداد بأيدي المغول

قلت: نذكر سبب أخذ هولاكو لبغداد ثم نعود إلى أمر المصريين والشاميين والبحرية.

فأما أمر هولاكو فإنه هولاكو، وقيل: هولاو بن تولي خان بن جنكزخان المغلي. ولي الملك بعد موت أبيه تولي قان، واتسعت ممالكه وعظم أمره وكثرت جيوشه من المغل والتتار، ولا زال أمره في زيادة حتى ملك مدينة ألموت وقتل متوليها شمس الشموس وأخذ بلاده، ثم أخذ الروم وأبقى بها ركن الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو صورة بلا معنى والحكم والتصرف لغيره.

وكان وزير الخليفة المستعصم بالله مؤيد الدين بن العلقمي ببغداد، وكان رافضياً خبيثاً حريصاً على زوال الدولة العباسية ونقل الخلافة إلى العلويين، يدبر ذلك في الباطن ويظهر للخليفة المستعصم خلاف ذلك، ولا زال يثير الفتن بين أهل السنة والرافضة حتى تجالدوا بالسيوف، وقتل جماعة من الرافضة ونهبوا، فاشتكى أهل باب البصرة إلى الأمير مجاهد الدين الدوادار وللأمير أبي بكر ابن الخليفة فتقدما إلى الجند بنهب الكرخ فركبوا من وقتهم وهجموا على الرافضة بالكرخ وقتلوا منهم جماعة وارتكبوا معهم العظائم فحنق الوزير ابن العلقمي ونوى الشر في الباطن وأمر أهل الكرخ الرافضة بالصبر والكف عن القتال، وقال لهم: أنا أكفيكم فيهم. وكان الخليفة المستنصر بالله قد استكثر من الجند قبل موته حتى بلغ عدد عسكره مائة ألف. وكان الوزير ابن العلقمي مع ذلك يصانع التتار في الباطن ويكاتبهم ويهاديهم، فلما استخلف المستعصم بعد موت أبيه المستنصر، وكان المستعصم خلياً من الرأي والتدبير، فأشار عليه ابن العلقمي المذكور بقطع أرزاق أكثر الجند، وأنه بمصانعة التتار وإكرامهم يحصل بذلك المقصود، ولا حاجة لكثرة الجند ففعل الخليفة ذلك! قلت: وكلمة الشيخ مطاعة! ثم إن الوزير بعد ذلك كاتب التتار وأطمعهم في البلاد سراً، وأرسل إليهم غلامه وأخاه وسهل عليهم فتح العراق وأخذ بغداد، وطلب منهم أن

يكون نائبهم بالبلاد فوعدوه بذلك، وتأهبوا لقصد بغداد وكاتبوا لؤلؤا صاحب الموصل في تهيئة الإقامات والسلاح، فكاتب لؤلؤ الخليفة سراً وحذره، ثم هيأ لهم الآلات والإقامات. وكان الوزير ابن العلقمي المذكور ليس لأحد معه كلام في تدبير أمر الخليفة، فصار لا يوصل مكاتبات لؤلؤ ولا غيره للخليفة، وعمى عنه الأخبار والنصائح، فكان يقرؤها هو ويجيب عنها بما يختار، فنتج أمر التتار بذلك غاية النتاج وأخذ أمر الخليفة والمسلمين في إدبار! وكان تاج الدين بن صلايا نائب الخليفة بإربل حذر الخليفة وحرك عزمه، والخليفة لا يتحرك ولا يستيقظ فلما تحقق الخليفة حركة التتار نحوه سير إليهم شرف الدين بن محيي الدين بن الجوزي رسولاً يعدهم بأموال عظيمة، ثم سير مائة رجل إلى الدربند يكونون فيه يطالعون الخليفة بالأخبار، فمضوا فلم يطلع لهم خبر، لأن الأكراد الذين كانوا هناك دلوا التتار عليهم، فهجموا عليهم وقتلوهم أجمعين.

ثم ركب هولاكو بن تولي خان بن جنكزخان في جيوشه من المغل والتتار وقصدوا العراق، وكان على مقدمته الأمير بايجونوين، وفي جيشه خلق من أهل الكرخ الرافضة ومن عسكر بركة خان ابن عم هولاكو، ومدد من صاحب الموصل مع ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل، فوصلوا قرب بغداد واقتتلوا من جهة البر الغربي عن دجلة، فخرج عسكر بغداد وعليهم ركن الدين الدوادار، فالتقوا على نحو مرحلتين من بغداد، فانكسر البغداديون وأخذتهم السيوف، وغرق بعضهم في الماء وهرب الباقون. ثم ساق بايجونوين مقدمة هولاكو فنزل القرية مقابل دار الخلافة وبينه وبينها دجلة لا غير. وقصد هولاكو بغداد من البر الشرقي، وضرب سورا وخندقا على عسكره وأحاط ببغداد، فأشار الوزير ابن العلقمي على الخليفة المستعصم بالله بمصانعتهم. وقال له: أخرج إليهم أنا في تقرير الصلح فخرج إليهم، واجتمع بهولاكو وتوثق لنفسه ورد إلى الخليفة، وقال: إن الملك قد رغب في أن يزوج بنته بابنك الأمير أبي بكر، ويبقيك على منصب الخلافة كما أبقى صاحب الروم في سلطنته، ولا يطلب إلا أن تكون الطاعة له كما كان أجدادك مع السلاطين السلجوقية، وينصرف هو عنك بجيوشه فتجيبه يا مولانا أمير المؤمنين لهذا، فإن فيه حقن دماء المسلمين، ويمكن أن تفعل بعد ذلك ما تريد والرأي أن تخرج إليه، فسمع له الخليفة وخرج إليه في جمع من الأعيان من أقاربه وحواشيه وغيرهم. فلما توجه إلى هولاكو لم يجتمع به هولاكو وأنزل في خيمة، ثم ركب الوزير وعاد إلى بغداد بإذن هولاكو، واستدعى الفقهاء والأعيان والأماثل ليحضروا عقد بنت هولاكو على ابن الخليفة، فخرجوا من بغداد إلى هولاكو، فأمر هولاكو بضرب أعناقهم ثم مد الجسر ودخل بايجونوين بمن معه إلى بغداد وبذلوا السيف فيها واستمر القتل والنهب والسبي في

بغداد بضعة وثلاثين يوما، فلم ينج منهم إلا من اختفى. ثم أمر هولاكو بعد القتلى فبلغوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسراً.

وأما الوزير ابن العلقمي فلم يتم له ما أراد، وما اعتقد أن التتار يبذلون السيف مطلقا في أهل السنة والرافضة معاً، وراح مع الطائفتين أيضا أمم لا يحصون كثرة، وذاق ابن العلقمي الهوان والذل من التتار ولم تطل أيامه بعد ذلك كما سيأتي ذكره. ثم ضرب هولاكو عنق مقدم جيشه بايجونوين لأنه بلغه عنه من الوزير ابن العلقمي أنه كاتب الخليفة المستعصم لما كان بالجانب الغربي.

وأما الخليفة فيأتي ذكره في الحوادث على عادة هذا الكتاب في محله غير أننا نذكره هنا على سبيل الاستطراد. ولما تم أمر هولاكو طلب الخليفة وقتله خنقا. وقيل غم في بساط، وقيل جعله هو وولده في عدلين وأمر برفسهما حتى ماتا. ثم قتل الأمير مجاهد الدين الدوادار، والخادم إقبال الشرابي صاحب الرباط بحرم مكة، والأستادار محيي الدين بن الجوزي وولداه وسائر الأمراء الأكابر والحجاب والأعيان. وانقضت الخلافة من بغداد وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربت بغداد الخراب العظيم، وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا، قيل: إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر، وقيل غير ذلك. وكانت كسرة الخليفة يوم عاشوراء من سنة ست وخمسين وستمائة المذكورة، ونزل هولاكو بظاهر بغداد في عاشر المحرم، وبقي السيف يعمل فيها أربعة وثلاثين يوماً وآخر جمعة خطب الخطيب ببغداد، كانت الخطبة: الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار، إلى أن قال: اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلها، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم عمل الشعراء والعلماء قصائد في مراثي بغداد وأهلها، وعمل الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي، قصيدته المشهورة، وهي: البسيط،

لسائل الدمع عن بغداد أخبار ::: فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يا زائرين إلى الزوراء لا تفدوا ::: فما بذاك الحمى والدار ديار
تاج الخلافة والربع الذي شرفت به ::: المعالم قد عفاه إقفار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر ::: وللدموع على الآثار آثار
يا نار قلبي من نار لحرب وغى ::: شبت عليه ووافي الربع إعصار
علا الصليب على أعلى منابرها ::: وقام بالأمر من يحويه زنار

وهي أطول من ذلك. وجملة القصيدة ستة وستون بيتا. وقال غيره في فقد الخلافة من بغداد بيتاً مفرداً وأجاد: الكامل،

خلــت المنـــابر والأســـرة منــــهم ::: فعلـــيهم حـــتى الممـــات ســـلام

انتهى ذكر بغداد هنا، ولا بد من ذكر شيء منها أيضا في الحوادث.

وأما أمر البحرية فإنه لما دخلت سنة سبع وخمسين وستمائة رحل الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعساكر في أثر البحرية، فاندفعوا البحرية أمامه إلى الكرك، فسار الناصر حتى نزل بركة زيزاء ليحاصر الكرك، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، فأرسل الملك المغيث عمر بن العادل بن الكامل صاحب الكرك رسله إلى الملك الناصر يطلب الصلح، وكان مع رسله الدار القطبية ابنة الملك المفضل قطب الدين ابن العادل، وهي من عمات الناصر والمغيث يتضرعون إلى الناصر ويطلبون الصلح ورضاه على ابن المغيث، فشرط عليه الناصر أن يقبض على من عنده من البحرية، فأجاب إلى ذلك وقبض وجهزهم إلى الملك الناصر على الجمال، وهو نازل ببركة زيزاء. فحملهم الملك الناصر إلى حلب واعتقلهم بقلعتها ما خلا الأمير بيبرس البندقداري، فإنه لما أحس بما وقع عليه الصلح هرب من الكرك في جماعة من البحرية وأتى إلى الملك الناصر صلاح الدين المذكور داخلاً تحت طاعته، فأكرمه الملك الناصر وأكرم رفقته إكراماً زائداً، وعاد الناصر إلى دمشق وفي خدمته الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وغيره من البحرية.

وأما المصريون فإنه لما بلغ الملك المنصور علياً والأمير قطز المعزي ما وقع للبحرية فرحاً فرحاً زائداً، وزينت مصر أياما لذلك، وصفا الوقت للأمير قطز. وبينما هو في ذلك ورد الخبر عليه بنزول هولاكو على مدينة آمد من ديار بكر، وأنه في قصد البلاد الشامية، وأن هولاكو بعث رسله إلى الملك السعيد نجم الدين إيلغاري صاحب ماردين يستدعيه إلى طاعته وحضرته، فسير إليه الملك السعيد ولده الملك المظفر قرا أرسلان وقاضي القضاة مهذب الدين محمد بن مجلي، والأمير سابق الدين بلبان وعلى أيديهم هدية، وحملهم رسالة تتضمن الاعتذار عن الحضور بمرض منعه الحركة. ووافق وصولهم إلى هولاكو أخذه لقلعة اليمانية وإنزاله من بها من حريم صاحب ميافارقين وأولاده وأقاربه، وهم: ولده الملك الناصر صلاح الدين يوسف جفتاي، وولده الملك السعيد عمر وابن أخيه الملك الأشرف أحمد وولده الملك المشهر ابن تاج الملوك علي ابن الملك العادل، وكان ينعت بالملك الصالح نجم الدين أيوب، فأدوا الرسالة، فقال هولاكو: ليس مرضه بصحيح، وإنما هو يتمارض مخافة الملك الناصر صاحب الشام، فإن انتصرت عليه اعتذر لي بزيادة المرض، وإن انتصر علي كانت له اليد البيضاء عنده، ثم قال: ولو كان للملك الناصر قوة يدفعني لم يمكني من دخول هذه البلاد، وقد بلغني أنه بعث حريمه إلى مصر، ثم أمر برد القاضي وحده فرد القاضي وأخبر الملك السعيد بالجواب.

وأما هولاكو فإنه لازال يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشام، واضمحل أمر الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام بعد أمور ووقائع وقعت له، وانفل عنه أصحابه. فلما وقع ذلك فارقه الأمير بيبرس البندقداري وقدم إلى مصر ومعه جماعة من البحرية طائعاً للملك المنصور هذا فأكرمه قطز وأكرم رفقته وصاروا الجميع من عساكر مصر على العادة أولاً. يأتي تفصيل ذلك في ترجمة الملك المظفر قطز. إن شاء الله تعالى.

ولما استفحل أمر قطز بديار مصر وصار هو المشار إليه فيها لصغر السلطان الملك المنصور علي، ولكثرة حواشي قطز المذكور، ثم تحقق قطز مجيء التتار إلى البلاد الشامية، وعلم أنه لا بد من خروجه من الديار المصرية بالعساكر للذب عن المسلمين، فرأى أنه لا يقع له ذلك، فإن الآراء مغلولة لصغر السلطان ولاختلاف الكلمة، فجمع قطز كمال الدين بن العديم الحنفي وغيره من الأعيان والأمراء بالديار المصرية، وعرفهم أن الملك المنصور هذا صبي لا يحسن التدبير في مثل هذا الوقت الصعب، ولا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد، وينتصب للجهاد في التتار، فأجابه الجميع: ليس لها غيرك! وكان قطز قبل ذلك قد قبض على الملك المنصور علي هذا وعوقه بالدور السلطانية، فخلع الملك المنصور في الحال من الملك وبويع الأمير قطز ولقب بالملك المظفر سيف الدين قطز، واعتقل الملك المنصور ووالدته بالدور السلطانية من قلعة الجبل، وحلف قطز الناس لنفسه وتم أمره، وذلك في يوم السبت سابع عشر من ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة. وكانت مدة الملك المنصور في السلطنة بالديار المصرية سنتين وسبعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وبقي معتقلاً سنين كثيرة إلى أن تولى الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، فنفاه هو ووالدته وأخاه ناصر الدين قاقان إلى بلاد الأشكري في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة.

قلت: والملك المظفر قطز هذا هو أول مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك. وتمت هذه السنة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة. وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر.

* * *

سلطنة المظفر قطز

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز بن عبد الله المعزي، الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية. وقطز بضم القاف والطاء المهملة وسكون الزاي، وهو لفظ مغلي. تسلطن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور علي ابن الملك المعز أيبك في يوم السبت سابع عشر من ذي القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة، وذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحرك التتار نحو البلاد الشامية وقطعهم الفرات وهجمهم بالغارات على البلاد الحلبية، وكان وصل إليه بسبب ذلك الصاحب كمال الدين عمر بن العديم رسولاً من الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب والشام يطلب منه النجدة على قتال التتار، فأنزله قطز بالكبش وجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه في أمر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم، فحضروا في دار السلطنة بقلعة الجبل، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية وغيرهما من العلماء. وجلس الملك المنصور علي في دست السلطنة، وأفاضوا في الحديث، فكان الاعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام، وخلاصة ما قال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ولتساووا هم والعامة. وأما أخذ الأموال من العامة مع بقايا في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا. وانفض المجلس على ذلك، ولم يتكلم السلطان بكلمة في المجلس لعدم معرفته بالأمور ولصغر سنه، فلهج الناس بخلع المنصور وسلطنة قطز حتى يقوم بهذا الأمر المهم. واتفق ذلك بعد أيام، وقبض قطز هذا على الملك المنصور علي، واحتج لكمال الدين ابن العديم وغيره بأنه صبي لا يحسن تدبير الملك، وفي مثل هذا الوقت الصعب لابد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه الناس وينتصب للجهاد. وكان الأميران: علم الدين سنجر الغتمي المعظمي، وسيف الدين بهادر حين جرى هذا الأمر غائبين في الصيد، فاغتنم قطز لغيبتهما الفرصة، فلما حضرا قبض عليهما واعتقلهما، وتسلطن. وركب بشعار الملك، وجلس على كرسي السلطنة وتم أمره. ولما وقع ذلك تقدم قطز إلى برهان الدين الخضر أن يتوجه في جواب رسالة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب الشام صحبة الصاحب كمال الدين ابن العديم، ويعد الملك الناصر بالنجمة وإنفاذ العساكر إليه، فتوجها ووصلا إلى دمشق وأديا الرسالة. ولم يزل البرهان بدمشق إلى أن رحل الملك الناصر من دمشق إلى جهة الديار المصرية جافلاً من التتار.

وكان الناصر لما تحقق بحركة التتار رحل إلى برزة شمالي دمشق، ونزل بها

بعساكره واجتمع إليه أمم عظيمة من العرب والعجم والتركمان والأتراك والمطوعة، فلم يعجب الناصر حاله لما رأى من تخاذل عسكره، وعلم أنه إذا لاقى التتار لم يثبت عسكره لهم لكثرتهم ولقوتهم، فإن هولاكو في خلق لا يحصيهم إلا الله تعالى عن المغل والكرج والعجم وغيرهم، ولم يكن من حين قدومهم على بلاد المسلمين من سنة ست عشرة وستمائة إلى هذه السنة يلقاهم عسكر إلا فلوه سوى وقائع كانت بينهم وبين جلال الدين ابن خوارزم شاه، انتصف جلال الدين في بعضها، ثم كبسوه على باب آمد وبددوا جمعه، وأعقب ذلك موت جلال الدين بالقرب من ميافارقين.

وأما أمر هولاكو فإنه في جمادى الأولى من هذه السنة نزل حران واستولى عليها وملك بلاد الجزيرة، ثم سير ولده أشموط بن هولاكو إلى الشام وأمره بقطع الفرات وأخذ البلاد الشامية، وسيره في جمع كثيف من التتار فوصل أشموط إلى نهر الجوز وتل باشر، ووصل الخبر إلى حلب من البيرة بذلك. وكان نائب السلطان صلاح الدين يوسف بحلب ابنه الملك المعظم توران شاه، فجفل الناس بين يدي التتار إلى جهة دمشق وعظم الخطب، واجتمع الناس من كل فج عند الملك الناصر بدمشق، واحترز الملك المعظم توران شاه ابن الملك الناصر بحلب غاية الاحتراز، وكذلك جميع نواب البلاد الحلبية، وصارت حلب في غاية الحصانة بأسوارها المحكمة البناء وكثرة الآلات. فلما كان العشر الأخير من ذي الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة قصد التتار حلب ونزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا إلى حيلان والحادي، وسيروا جماعة من عسكرهم أشرفوا على المدينة.

فخرج عسكر حلب ومعهم خلق عظيم من العوام والسوقة، وأشرفوا على التتار وهم نازلون على هذه الأماكن، وقد ركبوا جميعهم لانتظار المسلمين، فلما تحقق المسلمون كثرتهم كروا راجعين إلى المدينة، فرسم الملك المعظم بعد ذلك ألا يخرج أحد من المدينة.

ولما كان غد هذا اليوم رحلت التتار من منازلهم طالبين مدينة حلب، واجتمع عسكر المسلمين بالنواشير وميدان الحصا وأخذوا في المشورة فيما يعتمدونه، فأشار عليهم الملك المعظم أنهم لا يخرجون أصلا لكثرة التتار ولقوتهم وضعف المسلمين على لقائهم، فلم يوافقه جماعة من العسكر وأبوا إلا الخروج إلى ظاهر البلد لئلا يطمع العدو فيهم، فخرج العسكر إلى ظاهر حلب وخرج معهم العوام والسوقة واجتمعوا الجميع بجبل بانقوسا، ووصل جمع التتار إلى أسفل الجبل فنزل إليهم جماعة من العسكر ليقاتلوهم، فلما رآهم التتار اندفعوا بين أيديهم مكرا منهم وخديعة، فتبعهم عسكر حلب ساعة من النهار، ثم كر التتار عليهم فولوا منهزمين إلى جهة البلد والتتار في أثرهم. فلما حاذوا جبل بانقوسا وعليه بقية عسكر المسلمين والعوام

اندفعوا كلهم نحو البلد والتتار في أعقابهم، فقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجند والعوام. وممن استشهد في ذلك اليوم الأمير علم الدين زريق العزيزي - رحمه الله - وكان من أعيان الأمراء. ونازل التتار المدينة في ذلك اليوم إلى آخره، ثم رحلوا طالبين أعزاز فتسلموها بالأمان.

ثم عادوا إلى حلب في ثاني صفر من سنة ثمان وخمسين وستمائة وحاصروها حتى استولوا عليها في تاسع صفر بالأمان. فلما ملكوها غدروا بأهل حلب وقتلوا ونهبوا وسبوا وفعلوا تلك الأفعال القبيحة على عادة فعلهم. وبلغ الملك الناصر يوسف أخذ حلب في منتصف صفر، فخرج الناصر من الشام بأمرائه نحو القبلة. وكان رسل التتار بقرية حرستا فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر. وقرئ بعد صلاة الظهر فرمان - أعني مرسوماً - جاء من عند ملك التتار يتضمن الأمان لأهل دمشق وما حولها، وشرع الأكابر في تدبير أمرهم. ثم وصلت التتار إلى دمشق في سابع عشر ربيع الأول، فلقيهم أعيان البلد أحسن ملتقى وقرئ ما معهم من الفرمان المتضمن الأمان، ووصلت عساكرهم من جهة الغوطة مارين من وراء الضياع إلى جهة الكسوة وأهلكوا في ممرهم جماعة كانوا قد تجمعوا وتحزبوا. وفي السادس والعشرين منه جاء منشور من هولاكو للقاضي كمال الدين عمر بن بندار التفليسي بتفويض قضاء القضاة إليه بمدائن الشام إلى الموصل وميافارقين وغير ذلك، وكان القاضي قبله صدر الدين أحمد بن سني الدولة. وتوجه الملك الناصر نحو الديار المصرية ونزل العريش ثم قطيا بعد أن تفرق عسكره عنه وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال. فلما وصل الناصر إلى قطيا عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوادي موسى ثم نزل بركة زيزاء، فكبسه التتار بها وهو في خواصه وقليل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم. فلما وصل إليهم احتفظوا به وبقي معهم في ذل وهوان إلى أن قتل على ما يأتي ذكره في محله إن شاء الله تعالى.

وأما التتار فإنه بلغت غارتهم إلى غزة وبلد الخليل - عليه السلام - فقتلوا الرجال وسبوا النساء والصبيان واستاقوا من الأسرى والأبقار والأغنام والمواشي شيئاً كثيراً. كل ذلك والسلطان الملك المظفر قطز سلطان مصر يتهيأ للقاء التتار. فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألقى الله تعالى في قلب الملك المظفر قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكراً إلا هزموه، ولم يبق خارج عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا

بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة من الناس إلى اليمن والحجاز، والباقون بقوا في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد، وصمم الملك المظفر - رحمه الله - على لقاء التتار، وخرج من مصر في الجحافل الشامية والمصرية في شهر رمضان، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة، وكان الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب، الأمور كلها مفوضة إليه، وسير الملك المظفر قطز إلى صاحب حماة، وهو بالصالحية، يقول له: لا تحتفل في مد سماط، بل كل واحد من أصحابك يفطر على قطعة لحم في صولقه. وسافر الملك المظفر بالعساكر من الصالحية ووصل غزة والقلوب وجلة.

وأما كتبغانوين مقدم التتار على عسكر هولاكو لما بلغه خروج الملك المظفر قطز كان بالبقاع، فاستدعى الملك الأشرف موسى ابن المنصور صاحب حمص وقاضي القضاة محيي الدين واستشارهم في ذلك، فمنهم من أشار بعدم الملتقى والاندفاع بين يدي الملك المظفر إلى حيث يجيئه مدد من هولاكو ليقوى على ملتقى العسكر المصري، ومنهم من أشار بغير ذلك وتفرقت الآراء، فاقتضى رأي كتبغانوين الملتقى، وتوجه من فوره لما أراد الله تعالى من إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وحزبه، بعد أن جمع كتبغانوين من في الشام من التتار وغيرهم، وقصد محاربة المسلمين، وصحبته الملك السعيد حسن ابن الملك العزيز عثمان.

ثم رحل الملك المظفر قطز بعساكره من غزة ونزل الغور بعين جالوت، وفيه جموع التتار في يوم الجمعة خامس عشرين شهر رمضان، ووقع المصاف بينهم في اليوم المذكور، وتقاتلا قتالاً شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة وانكسرت ميسرة المسلمين كسرة شنيعة، فحمل الملك المظفر - رحمه الله - بنفسه في طائفة من عسكره وأردف الميسرة حتى تحايوا وتراجعوا، واقتحم الملك المظفر القتال وباشر ذلك بنفسه وأبلي في ذلك اليوم بلاء حسناً، وعظم الحرب وثبت كل من الفريقين مع كثرة التتار. والمظفر مع ذلك يشجع أصحابه ويحسن إليهم الموت، وهو يكر بهم كرة بعد كرة حتى نصر الله الإسلام وأعزه، وانكسرت التتار وولوا الأدبار على أقبح وجه بعد أن قتل معظم أعيانهم وأصيب مقدم العساكر التتارية كتبغانوين، فإنه أيضا لما عظم الخطب باشر القتال بنفسه فأخزاه الله تعالى وقتل شر قتلة. وكان الذي حمل عليه وقتله الأمير جمال الدين آقوش الشمسي - رحمه الله تعالى -.

وولوا التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الوقعة، فأحدقت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلاً، ونجا من نجا. وتبعهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في جماعة من الشجعان إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياع من التتار آثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة

حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً.

وفي حال الفراغ من المصاف حضر الملك السعيد حسن ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك العادل بين يدي السلطان الملك المظفر قطز، وكان التتار لما ملكوا قلعة البيرة وجدوه فيها معتقلاً فأطلقوه وأعطوه بانياس وقلعة الصبيبة فانضم على التتار وبقي منهم، وقاتل يوم المصاف المسلمين قتالاً شديداً، فلما أيد الله المسلمين بنصره وحضر الملوك عند الملك المظفر فحضر الملك السعيد هذا من جملتهم على رغم أنفه، فلم يقبل المظفر عذره، وأمر بضرب عنقه فضربت في الحال.

ثم كتب الملك المظفر كتاباً إلى أهل دمشق يخبرهم فيه بالفتح وكسر العدو المخذول ويعدهم بوصوله إليهم ونشر العدل فيهم، فسر عوام دمشق وأهلها بذلك سروراً زائداً، وقتلوا فخر الدين محمد بن يوسف بن محمد الكنجي في جامع دمشق. وكان المذكور من أهل العلم، لكنه كان فيه شر، وكان رافضيا خبيثا وانضم على التتار. وقتلوا أيضاً بدمشق من أعوان التتار ابن الماسكيني، وابن النفيل وغيرهما. وكان النصارى بدمشق قد شمخوا وتجرؤوا على المسلمين واستطالوا بتردد التتار إلى كنائسهم. وذهب بعضهم إلى هولاكو وجاؤوا من عنده بفرمان يتضمن الوصية بهم والاعتناء بأمرهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما وصلبانهم مرتفعة، وهم ينادون بارتفاع دينهم واتضاع دين المسلمين، ويرشون الخمر على الناس وفي أبواب المساجد، فحصل عند المسلمين من ذلك هم عظيم. فلما هرب نواب التتار حين بلغتهم الكسرة أصبح الناس وتوجهوا إلى دور النصارى ينهبونها ويأخذون ما استطاعوا منها، وأخربوا كنيسة اليعاقبة وأحرقوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً، وقتلوا منهم جماعة واختفى الباقون. وكانت النصارى في تلك الأيام ألزموا المسلمين بالقيام في دكاكينهم للصليب، ومن لم يقم أخرقوا به وأهانوه، وشقوا السوق على هذا الوجه إلى عند القنطرة آخر سويقة كنيسة مريم، فقام بعضهم على الدكان الوسطى من الصف الغربي بين القناطر وخطب وفضل دين النصارى ووضع من دين الإسلام، وكان ذلك في ثاني وعشرين من شهر رمضان. ثم من الغد طلع المسلمون مع قضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق وبها التتار فأهانوهم التتار، ورفعوا قسيس النصارى عليهم، ثم أخرجوهم بالضرب، فصار ذلك كله في قلوب المسلمين. انتهى.

ثم إن أهل دمشق هموا أيضاً بنهب اليهود فنهبوا منهم يسيراً، ثم كفوا عنهم. ثم وصل الملك المظفر قطز إلى دمشق مؤيداً منصوراً فانجبرت بذلك قلوب الرعايا وتضاعف شكرهم لله تعالى. والتقاه أهل دمشق بعد أن عفوا آثار النصارى وخربوا كنائسهم جزاء لما كانوا سلفوه من ضرب النواقيس على رؤوس المسلمين، ودخولهم بالخمر إلى الجامع.

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطلب من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس سيبوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين، ورموا أولادهم فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه.

وكان الملك المظفر قطز قد وعد الأمير بيبرس بحلب وأعمالها، فلما انتصر على التتار انثنى عزمه عن إعطائه حلب، وولاها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس وبين الملك المظفر قطز.

ولما قدم الملك المظفر إلى دمشق أحسن إلى الناس وأجراهم على عوائدهم وقواعدهم إلى آخر أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف. وسير الملك الأشرف صاحب حمص يطلب منه أماناً على نفسه وبلاده، وكان الأشرف أيضا ممن انضاف إلى التتار فأمنه وأعطاه بلاده وأقره عليها، فحضر الأشرف إلى خدمة الملك المظفر ثم عاد إلى بلده. ثم توجه الملك المظفر صاحب حماة إلى حماة على ما كان عليه، وكان حضر مع الملك المظفر قطز من مصر.

قلت: والملك المظفر قطز هو أول من ملك البلاد الشامية واستناب بها من ملوك الترك.

ثم إن الملك المظفر قطز رتب أمور الشام واستناب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير. ثم خرج المظفر من دمشق عائدا إلى مصر إلى أن وصل إلى القصير، وبقي بينه وبين الصالحية مرحلة واحدة، ورحلت العساكر إلى جهة الصالحية وضرب الدهليز السلطاني بها وبقي المظفر مع بعض خواصه وأمرائه، وكان جماعة قد اتفقوا مع الأمير بيبرس البندقداري على قتل الملك المظفر: منهم الأمير سيف الدين أنص من مماليك نجم الدين الرومي الصالحي، وعلم الدين صنغلي، وسيف الدين بلبان، الهاروني وغيرهم، كل ذلك لكمين كان في نفس بيبرس، لأجل نيابة حلب. واتفق عند القصير بعد توجه العساكر إلى الصالحية أن ثارت أرنب فساق الملك المظفر قطز عليها، وساق هؤلاء المتفقون على قتله معه، فلما أبعدوا ولم يبق معه غيرهم، تقدم إليه الأمير بيبرس البندقداري وشفع عنده شفاعة في إنسان فأجابه، فأهوى بيبرس ليقبل يده فقبض عليها، وحمل أنص عليه، وقد أشغل بيبرس يده، وضربه بالسيف، ثم حمل الباقون عليه ورموه عن فرسه، ورشقوه بالنشاب فقتلوه، ثم حملوا على العسكر وهم شاهرون سيوفهم حتى وصلوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، فنزلوا ودخلوا والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا،

فقال: من قتله منكم، فقال بيبرس: أنا، فقال: يا خوند، اجلس على مرتبة السلطان، يأتي بقية ذلك في أول ترجمة الملك الظاهر بيبرس البندقداري المذكور. إن شاء الله تعالى.

ولما وقع ذلك وبلغ الأمير علم الدين سنجر الحلبي الكبير نائب دمشق عز عليه قتل الملك المظفر، ثم دعا الناس لنفسه واستحلفهم وتلقب بالملك المجاهد. على ما يأتي ذكره أيضا. أما الملك المظفر قطز فإنه دفن موضع قتله - رحمه الله تعالى - وكثر أسف الناس وحزنهم عليه. قال الحافظ أبو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي في تاريخه - رحمه الله تعالى - بعد ما سماه ونعته قال: وكان المظفر أكبر مماليك الملك المعز أيبك التركماني، وكان بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً حسن التدبير، يرجع إلى دين وإسلام وخير، وله اليد البيضاء في جهاد التتار، فعوض الله شبابه بالجنة ورضي عنه. وحكى الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه عن أبيه، قال: كان قطز في رق ابن الزعيم بدمشق في القصاعين، فضربه أستاذه فبكى ولم يأكل شيئاً يومه، ثم ركب أستاذه للخدمة وأمر الفراش أن يترضاه ويطعمه، قال: فحدثني الحاج علي الفراش قال: فجئته وقلت: ما هذا البكاء من لطشة؟ فقال: إنما بكائي من لعنة أبي وجدي وهم خير منه، فقلت: من أبوك؟ واحد كافر، فقال: والله ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود ابن أخت خوارزم شاه من أولاد الملوك، فسكته وترضيته. وتنقلت به الأحوال إلى أن تملك مصر. ولما تملك أحسن إلى الحاج علي الفراش المذكور، وأعطاه خمسمائة دينار وعمل له راتبا. قال الذهبي أيضاً: ولما تسلطن لم يبلع ريقه ولا تهنى بالسلطنة حتى امتلأت الشامات المباركة بالتتار، ثم ساق الذهبي أمره مع التتار بنحو ما حكيناه.

قلت: فعلى هذا تكون مدة سلطنة الملك المظفر قطز سنة إلا يوماً واحداً، فإنه تسلطن في يوم السبت سابع عشر ذي القعدة من سنة سبع وخمسين وستمائة، وقتل فيما نقله الشيخ قطب الدين في يوم السبت سادس عشر من ذي القعدة من سنة ثمان وخمسين وستمائة.

* * *

سلطنة الملك الظاهر بيبرس

السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية وهو الرابع من ملوك الترك. مولده في حدود العشرين وستمائة بصحراء القبجاق تخميناً، والقبجاق قبيلة عظيمة في الترك، وهو بكسر القاف وسكون الباء ثانية الحروف وسكون الياء المثناة من تحتها ثم فتح الباء الموحدة وسكون الراء والسين المهملتين ومعناه باللغة التركية: أمير فهد. انتهى.

قلت: أخذ بيبرس المذكور من بلاده وأبيع بدمشق للعماد الصائغ. ثم اشتراه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي البندقداري وبه سمي البندقداري.

كان الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي لما قبض عليه وأحضر إلى حماة واعتقل بجامع قلعتها اتفق حضور ركن الدين بيبرس مع تاجر، وكان الملك المنصور - يعني صاحب حماة - إذ ذاك صبياً وكان إذا أراد شراء رقيق تبصره الصاحبة والدته، فأحضر بيبرس هذا مع آخر قرأتهما من وراء الستر فأمرت بشراء خشداشه، وقالت: هذا الأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة فإن في عينيه شراً لائحاً فردتهما جميعاً، فطلب البندقداري الغلامين يعني بيبرس ورفيقه فاشتراهما وهو معتقل ثم أفرج عنه فسار إلى مصرة وآل أمر ركن الدين إلى ما آل.

وقال الذهبي: اشتراه الأمير علاء الدين البندقداري الصالحي فطلع بطلاً شجاعاً نجيباً لا ينبغي أن يكون إلا عند ملك، فأخذه الملك الصالح منه. وقيل: بقي بيبرس المذكور في ملك البندقداري حتى صادره أستاذه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخذ بيبرس هذا فيما أخذه منه في المصادرة في شهر شوال سنة أربع وأربعين وستمائة.

ولما اشتراه الملك الصالح أعتقه وجعله من جملة مماليكه، وقدمه على طائفة الجمدارية لما رأى من فطنته وذكائه، وحضر مع أستاذه الملك الصالح واقعة دمياط..

ولما جلس الظاهر بالإيوان رسم أن يكتب إلى الأقطار بسلطنته، فأول من بدأ به الملك الأشرف صاحب حمص، ثم الملك المنصور صاحب حماة، ثم الأمير مظفر الدين صاحب صهيون ثم إلى الإسماعيلية، ثم إلى الملك السعيد المظفر علاء الدين علي بن لؤلؤ صاحب الموصل الذي صار نائب السلطنة بحلب، ثم إلى من في بلاد الشام يعرفهم بما جرى. ثم أفرج عمن بالحبوس من أصحاب الجرائم، وأقر الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير على الوزارة، وتقدم بالإفراج عن الأجناد المحبوسين والإنعام عليهم، وزيادة من رأى استحقاقه من الأمراء وخلع عليهم، وسير الأمير جمال الدين آقوش المحمدي بتواقيع للأمير سنجر الحلبي نائب دمشق، فتوجه إليه

فوجده قد تسلطن بدمشق ودعا لنفسه، وحلف الأمراء، وتلقب بالملك المجاهد، فعظم ذلك على الملك الظاهر بيبرس وأخذ في إصلاح أمره معه والإحسان إلى خشداشيته البحرية الصالحية، وأمر أعيانهم. ثم إنه أخرج الملك المنصور نور الدين علياً ابن الملك المعز أيبك التركماني وأمه وأخاه ناصر الدين قاقان من مصر إلى بلاد الأشكري، وكانوا معتقلين بقلعة الجبل.

وكان بيبرس لما تسلطن لقب نفسه الملك القاهر، فقال الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وكان فاضلاً في الأدب والترسل وعلم التاريخ، فأشار بتغيير هذا اللقب، وقال: ما لقب به أحد فأفلح: لقب به القاهر ابن المعتضد، فلم تطل مدته وخلع من الخلافة وسمل، ولقب به القاهر ابن صاحب الموصل فسم، فأبطل بيبرس اللقب الأول، وتلقب بالملك الظاهر.

وأما أمر دمشق ففي العشر الأخير من ذي القعدة أمر الأمير عليم الدين سنجر الحلبي الذي تسلطن بدمشق بتجديد عمارة قلعة دمشق، وزفت بالمغاني والطبول والبوقات، وفرحت أهل دمشق بذلك، وحضر كبراء الدولة وخلع على الصناع والنقباء، وعمل الناس في البناء حتى النساء، وكان يوم الشروع في تجديدها يوما مشهوداً. ثم في اليوم الأول من العشر الأول من ذي الحجة دعا الأمير علم الدين سنجر الحلبي الناس بدمشق إلى الحلف له بالسلطنة فأجابوه، وحضر الجند والأكابر وحلفوا له ولقب بالملك المجاهد، وخطب له على المنابر، وضربت السكة باسمه، وكاتب الملك المنصور صاحب حماة ليحلف له فامتنع، وقال: أنا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان.

ولما صح عند التتار قتل الملك المظفر قطز - رحمه الله تعالى - وكان النائب ابن صاحب الموصل أساء السيرة في الجند والرعية، فاجتمع رأي الأمراء والجند بحلب على قبضه وإخراجه من حلب، وتحالفوا على ذلك، وعينوا للقيام بالأمر الأمير حسام الدين الجوكنداري العزيزي، فبينما هم على ذلك وردت عليهم بطاقة نائب البيرة يحبر أن التتار قاربوا البيرة لمحاصرتها، واستصرخ بهم لينجدوه بعسكر. وكان التتار قد هدموا أبراج البيرة وأسوارها، وهي مكشوفة من جميع جهاتها، فجرد الملك السعيد ابن صاحب الموصل الذي هو نائب حلب عسكره إليها، وقدم عليهم الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصري، فحضر الأمراء عنده، وقالوا له: هذا العسكر الذي جردته لا يمكنه رد العدو، ونخاف أن يحصل النشوب بيننا وبين العدو، وعسكرنا قليل فيصل العدو إلى حلب، ويكون ذلك سببا لخروجنا منها فلم يقبل منهم، فخرجوا من عنده وهم غضبانون، وسار العسكر المذكور إلى البيرة في قلة. فلما وصلوا إلى عمق البيرة صادفوا التتار بجموعهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وقصد سابق الدين البيرة،

فتبعه التتار وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة، وما سلم منهم إلا القليل، وورد هذا الخبر لحلب فجفل أهل حلب إلى جهة القبلة ولم يبق بها إلا القليل. وندم الملك السعيد نائب حلب على مخالفة الأمراء، وقوي بذلك غضبهم عليه وقاطعوه. ووقعت بطاقة نائب البيرة، فيها أن التتار توجهوا إلى ناحية منبج، فخرج نائب حلب وضرب دهليزه بباب إله شرقي حلب. وبعد يومين وصل الأمير عز الدين أزدمر الدوادار الغزيزي، وكان قطز قد جعله نائبا باللاذقية وجبلة، فقصده خشداشيته بحلب، فلما قرب ركبت العزيزية والناصرية والتقوا به، فأخبرهم بأن الملك المظفر قطز قتل، وأن ركن الدين بيبرس ملك الديار المصرية، وأن سنجر الحلبي خطب لنفسه بدمشق، ونحن أيضا نعمل بعمل أولئك، ونقيم واحدا من الجماعة ونقبض على هذا - يعني على نائب حلب - ونقتصر على حلب وبلادها مملكة أستاذنا وابن أستاذنا فأجابوه إلى ذلك وتقرر بينهم أنه حال دخولهم إلى المخيم يمضي إليه الأمراء: حسام الدين الجوكنداري، وبكتمرالساقي وأزدمر الدوادار، وكان الملك السعيد نائب حلب نازلاً بباب لا في بيت القاضي، وهو فوق سطحه والعساكر حوله، فعندما طلعوا إليه وحضروا عنده على السطح شرعت أعوانهم في نهب وطاقه فسمع الضجة فاعتقد أن التتار قد كبست العسكر، ثم شاهد لهب العزيرية والناصرية لوطاقه، ووثب الأمراء الذين عنده ليقبضوا عليه، فطلب منهم الأمان على نفسه فأمنوه وشرطوا عليه أن يسلم إليهم جميع ما حصله من الأموال. ثم نزلوا به إلى الدار وقصدوا الخزانة، فما وجدوا فيها طائلا فهددوه، وقالوا له: أين الأموال التي حصلتها، وطلبوا قتله، فقام إلى ساحة بستان في الدار المذكورة وحفر وأخرج الأموال، وهي تزيد على أربعين ألف دينار، ففرقت على الأمراء على قدر منازلهم. ثم رسموا عليه جماعة من الجند وسيروه إلى قلعة حبسوه بها. ثم بعد أيام قلائل دهم العدو حلب، فاندفع الأمير حسام الدين الخوكنداري المقدم على عسكر حلب بمن معه إلى جهة دمشق، ودخلت التتار حلب وأخرجوا من كان فيها إلى ظاهر حلب، ووضعوا السيف فيهم، فقتل بعضهم وفر بعضهم. ونزل العسكر الحلبي بظاهر حماة، فقام الملك المنصور بضيافتهم، ثم تقدم التتار إلى حماة، فلما قاربوا منها رحل صاحبها الملك المنصور ومعه الجوكنداري بعساكر حلب إلى حمص، ونزل التتار على حماة فامتنعت عليهم، فاندفعوا من حماة طالبين العسكر، وجفل الناس بين أيديهم، وخاف أهل دمشق خوفاً شديداً، وأقاموا الجميع على حمص حتى قدم إليهم التتار في أوائل المحرم من سنة تسع وخمسين وستمائة، وكانوا في ستة آلاف فارس، فخرج إليهم الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص والجوكنداري العزيزي بعساكر حلب، وحملوا عليهم حملة رجل واحد فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وهرب الأمير

بيدرا مقدم التتار في نفر يسير، وكانت الوقعة عند قبر خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ثم عاد التتار إلى حلب وفعلوا بأهلها تلك الأفعال القبيحة على عادتهم.

وأما الملك الظاهر بيبرس صاحب الترجمة فإنه كاتب أمراء دمشق يستميلهم إليه ويحضهم على منابذة الأمير علم الدين سنجر الحلبي والقبض عليه، فأجابوه إلى ذلك وخرجوا من دمشق منابذين لسنجر، وفيهم: الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري - أعني أستاذ الملك الظاهر بيبرس المذكور - الذي قدمنا من ذكره أن الملك الصالح نجم الدين أيوب اشتراه منه. انتهى. والأمير بهاء الدين بغدي فتبعهم الحلبي بمن بقي معه من أصحابه، فحاربوه فهزموه وألجؤوه إلى قلعة دمشق فأغلقها دونهم، وذلك في يوم السبت حادي عشر صفر من السنة. ثم خرج الأمير علم الدين سنجر الحلبي تلك الليلة من القلعة وقصد بعلبك، فدخل قلعتها ومعه قريب عشرين نفراً من مماليكه، فدخل الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري دمشق، واستولى عليها وحكم فيها نيابة عن الملك الظاهر بيبرس، ثم جهز عسكراً إلى بعلبك لحصار الحلبي وعليهم الأمير بدر الدين محمد بن رحال وكان من الشجعان، وأمير آخر، فحال وصولهما إلى بعلبك دخلا المدينة ونزلا بالمدرسة النورية. وكان الحلبي لما وصلها جعل عنده طائفة كبيرة من أهل محله مقدمهم علي بن عبور، فسير إليهم الأمير بدر الدين بن رحال وأفسدهم، فتدلوا من القلعة ليلاً ونزلوا إليه، فعند ذلك ترددت المراسلات بين الحلبي وعلاء الدين البندقداري حتى استقر الحال على نزول الحلبي وتوجهه إلى الملك الظاهر بيبرس بمصر، فخرج الحلبي من قلعة بعلبك راكبا في وسطه عدته وفي قرابه قوسان وهو كالأسد، فجاء حتى بعد عن القلعة، قدم له بغلة فتحول إليها وقلع العدة وركبها، وسار حتى وصل إلى دمشق وسار منها إلى مصر، فأدخل على الملك ليلاً بقلعة الجبل، فقام إليه واعتنقه وأدنى مجلسه منه وعاتبه عتاباً لطيفاً، ثم خلع عليه ورسم له بخيل وبغال وجمال وقماش وغير ذلك.

ثم التفت الملك الظاهر إلى إصلاح مملكته خلع على الصاحب بهاء الدين علي بن حنا وزير شجرة الدر بالوزارة، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة تسع وخمسين، وهي أول ولايته للوزارة. ثم حضر عند الظاهر شخص وأنهى إليه أن الأمير عز الدين الصقلي يريد الوثوب على السلطان، واتفق معه الأمير علم الدين سنجر الغتمي وبهادر المعزي، والشجاع بكتوت فقبض الملك الظاهر عليهم. ثم تسلم الملك الظاهر الكرك من نواب الملك المغيث في هذه السنة. ثم قبض على الأمير بهاء الدين بغدي الأشرفي وحمل إلى القاهرة وحبس بقلعة الجبل إلى أن مات.

ثم جهز الملك الظاهر عسكرا لخروج التتار من حلب فساروا إليها وأخرجوهم منها على أقبح وجه، كل ذلك والدنيا بلا خليفة من سنة ست وخمسين وستمائة. ففي هذه

السنة كان وصول المستنصر بالله الخليفة إلى مصر وبايعه الملك الظاهر بيبرس، وهو أبو القاسم أحمد، كان محبوسا ببغداد مع جماعة من بني العباس في حبس الخليفة المستعصم، فلما ملكت التتار بغداد أطلقوهم، فخرج المستنصر هذا إلى عرب العراق، واختلط بهم إلى أن سمع بسلطنة الملك الظاهر بيبرس، وفد عليه مع جماعة من بني مهارش، وهم عشرة أمراء مقدمهم ابن قسا وشرف اللين ابن مهنا، وكان وصول المستنصر إلى القاهرة في ثامن شهر رجب من سنة تسع وخمسين وستمائة، فركب السلطان للقائه ومعه الوزير بهاء الدين بن حنا وقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز والشهود والرؤساء والقراء والمؤذنون واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل في يوم الخميس، فدخل من باب النصر وشق القاهرة، وكان لدخوله يوم مشهود.

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر جلس السلطان الملك الظاهر والخليفة بالإيوان وأعيان الدولة بأجمعهم وقرئ نسب الخليفة، وشهد عند القاضي بصحته فأسجل عليه بذلك وحكم به وبويع بالخلافة. وركب من يومه وشق القاهرة في وجوه الدولة وأعيانها. وكان أول من بايعه قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز عندما ثبت نسبه عنده، ثم السلطان، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء والوزراء على مراتبهم. والمستنصر هذا هو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس - رضي الله عنهم - وهو المستنصر بالله أبو القاسم أحمد الأسمر بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء الحسن ابن الخليفة المستنجد بالله يوسف ابن الخليفة المقتفي لأمر الله محمد ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدي بأمر الله عبد الله ابن الأمير محمد الذخيرة ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الأمير إسحاق ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أحمد ابن الأمير طلحة الموفق ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد هارون ابن الخليفة المهدي محمد ابن الخليفة أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي العباسي البغدادي. وقد تقدم أن الناس كانوا بغير خليفة منذ قتل التتار ابن أخيه الخليفة المستعصم بالله في أوائل سنة ست وخمسين وستمائة إلى يومنا هذا، فكانت مدة شغور الخلافة ثلاث سنين ونصفا والناس بلا خليفة. وكان المستنصر هذا جسيماً وسيماً شديد السمرة عالي الهمة شديد القوة وعنده شجاعة وإقدام، وهو أخو الخليفة المستنصر ولقب بلقبه، وهذا لم تجر به العادة من أن خليفة يلقب بلقب خليفة تقدمه من أهل بيته.

وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خرج الخليفة المستنصر بالله وعليه ثياب سود إلى

الجامع بالقلعة وخطب خطبة بليغة ذكر فيها شرف بني العباس، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم. ثم في مستهل شعبان من سنة تسع وخمسين المذكورة تقدم الخليفة بتفصيل خلعة سوداء وبعمل طوق ذهب وقيد ذهب وبكتابة تقليد بالسلطنة للملك الظاهر بيبرس ونصب خيمة ظاهر القاهرة. فلما كان يوم الاثنين رابعه ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء ووجوه الدولة إلى الخيمة ظاهر القاهرة بقبة النصر، فألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة بيده وطوقه وقيده، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان رئيس الكتاب منبراً نصب له فقرأ التقليد وهو من إنشائه وبخطه. ثم ركب السلطان بالخلعة والطوق والقيد ودخل من باب النصر وقد زينت القاهرة له، وحمل الصاحب بهاء الدين بن حنا التقليد على رأسه راكبا والأمراء يمشون بين يديه، فكان يوماً يقصر اللسان عن وصفه. ونسخة التقليد: الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيد ما وهي من علائه حتى أنسى ذكر من سلف، وقيض لنصره ملوكا اتفق عليهم من اختلف.

أحمده على نعمته التي رتعت الأعين منها في الروض الأنف، وألطافه التي وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمناً، وتسهل من الأمور ما كان حزناً، وأشهد أن محمداً عبده الذي جبر من الدين وهنا، ورسوله الذي أظهر من المكارم فنوناً لا فنا، صلى الله عليه وسلم وعلى آله الذين أصبحت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة بالحسنى.

وبعد: فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعاً وساجداً في تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى سعيد الجد متقدما، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومتهماً، وما بدت يد في المكرمات إلا كان لها زنداً ومعصماً، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرم منه ناراً وأجراه دماً.

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالي المولوي السلطاني الملكي الظاهري الركني - شرفه الله وأعلاه - ذكرها الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري - أعز الله سلطانه - تنويهاً بشريف قدره، واعترافاً بصنعه الذي تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره، وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وعتب دهرها المسيء لها فأعتب وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صوله مغضب فأعاده لها سلماً بعد أن كان عليها حربا، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعاً رحباً، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنواً وعطفاً، وأظهر من الولاء رغبة

في ثواب الله ما لا يخفى، وأبدى من الاهتمام بأمر البيعة أمراً لو رامه غيره لامتنع عليه، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به قبل الوصول إليه، ولكن الله ادخر هذه الحسنة ليثقل بها في الميزان ثوابه، ويخفف بها يوم القيامة حسابه، والسعيد من خفف حسابه! فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها في صحيفة صنعه، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه، بعد أن حصل الإياس من جمعه. وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع، ويعترف أنه لولا اهتمامك لاتسع الخرق على الراقع، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية، والديار البكرية، والحجازية واليمنية والفراتية، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فرداً. ثم أخذ في آخر التقليد يذكر فضل الجهاد والرفق بالرعية وطول في الكلام إلى الغاية. وهذا الذي ذكرناه من نسخة التقليد هو المراد.

ثم جهز السلطان الخليفة، وأولاد صاحب الموصل صحبته، بتجمل زائد وبرك يضاهي برك السلطان من الأطلاب والخيول والجمال وأرباب الوظائف من الكبير إلى الصغير، قيل: إن الذي غرمه السلطان الملك الظاهر على تجهيز الخليفة وأولاد صاحب الموصل فوق الألف ألف دينار عيناً..

وأما الخليفة فإنه لما توجه نحو العراق ومعه أولاد صاحب الموصل، وهم: الملك الصالح وولده علاء الدين والملك المجاهد سيف الدين صاحب الجزيرة، والملك المظفر علاء الدين صاحب سنجار، والملك الكامل ناصر الدين محمد، فلما وصلوا صحبة الخليفة إلى الرحبة وافوا عليها الأمير يزيد بن علي بن حديثة أمير آل فضل وأخاه الأخرس في أربعمائة فارس من العرب. وفارق الخليفة أولاد صاحب الموصل من الرحبة، وكان الخليفة طلب منهم المسير معه فأبوا، وقالوا: ما معنا مرسوم بذلك، وأرسلوا معه من مماليك والدهم نحو ستين نفرا فانضافوا إليه، ولحقهم الأمير عز الدين أيدكين من حماة ومعه ثلاثون فارساً. ورحل الخليفة بمن معه من الرحبة بعدما أقام بها ثلاثة أيام، ونزل مشهد علي - رضي الله عنه - ثم رحل إلى قائم عنقة، ثم إلى عانة فوافوا الإمام الحاكم بأمر الله العباسي على عانة من ناحية الشرق ومعه نحو سبعمائة فارس من التركمان. وكان البرنلي قد جهزه من حلب، فبعث الخليفة المستنصر بالله إليهم واستمالهم، فلما جاوزوا الفرات فارقوا الحاكم فبعث إليه المستنصر بالله يطلبه إليه ويؤمنه على نفسه ويرغب إليه في اجتماع الكلمة، فأجاب ورحل إليه، فوفى إليه المستنصر وأنزله معه في الدهليز. وكان الحاكم لما نزل على عانة امتنع أهلها منه، وقالوا: قد بايع الملك الظاهر خليفة وهو واصل فما نسلمها إلا إليه، فلما وصل المستنصر بالله إليها نزل إليه نائبها وكريم الدين ناظرها وسلماها إليه وحملا له إقامة، فأقطعها الخليفة للأمير ناصر الدين أغلمش أخي الأمير علم

الدين سنجر الحلبي. ثم رحل الخليفة عنها إلى الحديثة ففتحها أهلها له، فجعلها خاصاً له، ثم رحل عنها ونزل على شط قرية الناووسة، ثم رحل عنها قاصدا هيت. ولما اتصل مجيء الخليفة المستنصر بالله بقرابغا مقدم عسكر التتار بالعراق، وبهادر علي الخوارزمي شحنة بغداد وخرج قرابغا بخمسة آلاف فارس من التتار على الشط العراقي وقصد الأنبار، فدخلها إغارة، وقتل جميع من فيها، ثم ردفه الأمير بهادر علي الخوارزمي بمن بقي ببغداد من عساكر التتار، وكان قد بعث ولده إلى هيت متشوقاً لما يرد من أخبار المستنصر، وقرر معه أنه إذا اتصل به خبره بعث بالمراكب إلى الشط الآخر وأحرقها، فلما وصل الخليفة هيت أغلق أهلها الباب دونه، فنزل عليها وحاصرها حتى فتحها، ودخلها في التاسع والعشرين من ذي الحجة، ونهب من فيها من اليهود والنصارى، ثم رحل عنها ونزل الحور وبعث طليعة من عسكره مقدمها الأمير أسد الدين محمود ابن الملك المفضل موسى، فبات تجاه الأنبار تلك الليلة، وهي ليلة الأحد ثالث المحرم من سنة ستين وستمائة، فلما رأى قرابغا الطليعة أمر من معه من العساكر بالعبور إليها في المخائض والمراكب ليلاً، فلما أسفر الصبح أفرد قرابغا من معه من عسكر بغداد ناحية.

وأما الخليفة فإنه رتب اثني عشر طلبا، وجعل التركمان والعربان ميمنة وميسرة وباقي العساكر قلباً، ثم حمل بنفسه مبادراً وحمل من كان معه في القلب فانكسر بهادر، ووقع معظم عسكره في الفرات، ثم خرج كمين من التتار، فلما رآه التركمان والعرب هربوا، وأحاط الكمين بعسكر الخليفة فصدق المسلمون الحملة، فأفرج لهم التتار، فنجا الحاكم وشرف الدين ابن مهنا وناصر الدين ابن صيرم وبوزنا وسيف الدين بلبان الشمسي وأسد الدين محمود وجماعة من الجند نحو الخمسين نفرا، وقتل الشريف نجم الدين جعفر أستادار الخليفة، وفتح الدين ابن الشهاب أحمد، وفارس الدين أحمد بن أزدمر اليغموري، ولم يوقع للخليفة المستنصر على خبر، فقيل إنه قتل في الوقعة وعفي أثره، وقيل إنه نجا مجروحاً في طائفة من العرب فمات عندهم، وقيل سلم وأضمرته البلاد.

وأما السلطان الملك الظاهر بيبرس فإنه لما عاد إلى مصر عاد بعده بلبان الرشيدي في أثره وعاد البرنلي إلى حلب ودخلها وملكها، فجرد إليه الملك الظاهر عسكراً ثانياً، عليهم الأمير شمس الدين سنقر الرومي، وأمره بالمسير إلى حلب ثم إلى الموصل، وكتب إلى الأمير علاء الدين طيبرس نائب السلطنة بدمشق وإلى الأمير علاء الدين أيدكين البندقداري يأمرهما أن يكونا معه بعسكرهما حيث توجه يتوجه الجميع، فسار الجميع إلى جهة حلب، فخرج البرنلي من حلب وتسلم نواب أيدكين البندقداري حلب. ثم جاء مرسوم السلطان بتوجه البندقداري إلى حلب، ويعود

طيبرس إلى دمشق ويعود سنقر الرومي إلى مصر، فعاد الرومي إلى القاهرة. فلما اجتمع بالسلطان أوغر خاطره على طيبرس، فكان ذلك سببا للقبض على طيبرس المذكور وحبسه بالقاهرة مدة سنين.

ثم وصل إلى الديار المصرية في السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر الإمام الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي علي الحسن ابن الأمير أبي بكر بن الحسن بن علي القبي ابن الخليفة المسترشد بالله أبي منصور الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد العباسي.

ثم سافر الملك الظاهر من مصر إلى البلاد الشامية في هذه السنة - أعني سنة أربع وستين - فخرج منها في يوم السبت مستهل شعبان، وجعل نائبه بديار مصر ولده الملك السعيد، وجعل الجيش في خدمته والوزير بهاء الدين بن حنا، وسار الملك الظاهر حتى نزل عين جالوت وبعث عسكرا مقدمه الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، ثم عسكراً آخر مقدمه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي للإغارة على بلاد الساحل، فأغاروا على عكا وصور وطرابلس وحصن الأكراد وسبوا وغنموا ما لا يحصى.

ثم نزل الملك الظاهر بنفسه على صفد في ثامن شهر رمضان، ونصب عليها المجانيق، ودام الاهتمام بعمل الآلات الحربية إلى مستهل شوال إذ شرع في الزحف والحصار وأخذ النقوب من جميع الجهات إلى أن ملكها بكرة يوم الثلاثاء خامس عشر شوال، واستمر الزحف والقتال ونصب السلالم على القلعة وتسلطت عليها النقوب، والسلطان يباشر ذلك بنفسه، حتى طلب أهل القلعة الأمان على أنفسهم وطلبوا اليمين على ذلك، فأجلس السلطان الملك الظاهر الأمير كرمون أغا التتاري في دست السلطنة، وحضرت رسلهم فاستحلفوه فحلف لهم كرمون التتاري وهم يظنونه الملك الظاهر، فإنه كان يشبه الملك الظاهر. وكان في قلب الملك الظاهر منهم حزازة، ثم شرط عليهم ألا يأخذوا معهم من أموالهم شيئا. فلما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال طلعت السناجق على قلعة صفد، ووقف الملك الظاهر بنفسه على بابها وأخرج من كان فيها من الخيالة والرجالة والفلاحين، ودخل الأمير بدر الدين بيليك الخازندار وتسلمها، واطلع على أنهم أخذوا شيئاً كثيراً من التحف له قيمة، فأمر الملك الظاهر بضرب رقابهم فضربت على ذل هناك. وكتبت البشائر بهذا النصر إلى مصر والأقطار، وزينت الديار المصرية لذلك ثم أمر الملك الظاهر بعمارة قلعة صفد وتحصينها ونقل الذخائر إليها والأسلحة، وأزال دولة الكفر، منها، ولله الحمد، وأقطع بلدها لمن رتبه لحفظها من الأجناد، وجعل مقدمهم الأمير علاء الدين البكي، وجعل في نيابة السلطنة بالمدينة الأمير عز الدين العلائي، وولاية القلعة للأمير مجد الدين

الطوري.

ثم رحل الملك الظاهر إلى دمشق في تاسع عشر شوال.

ولما كان الملك الظاهر نازلاً بصفد وصل إليه رسول صاحب صهيون بهدية جليلة ورسالة مضمونها الاعتذار من تأخيره عن الحضور، فقبل الملك الظاهر الهدية والعذر. ثم وصلت رسل صاحب سيس أيضا بهدية فلم يقبلها ولا سمع رسالتهم.

ثم وصلت البريدية من متولي قوص ببلاد الصعيد بخبر أنه استولى على جزيرة سواكن وأن صاحبها هرب، وأرسل يطلب من الملك الظاهر الدخول في الطاعة وإبقاء سواكن عليه، فرسم له الملك الظاهر بذلك.

ثم رحل الملك الظاهر من دمشق يوم السبت الثالث من ذي القعدة وأمر العساكر بالتقدم إلى بلاد سيس للإغارة عليها، وقدم عليهم الملك المنصور صاحب حماة وتدبير الأمور راجع إلى الأمير آق سنقر الفارقاني، فساروا حتى وصلوا إلى الدرب الذي يدخلون منه إليها، وكان صاحبها قد بنى عليها أبرجة فيها المقاتلة، فلما رأوا العسكر تركوها ومضوا فأخذها المسلمون وهدموها، ودخلوا بلاد سيس فنهبوا وأسروا وقتلوا، وكان فيمن أسر ابن صاحب سيس وابن أخته وجماعة من أكابرهم. ودخلوا المدينة يوم السبت ثاني عشر ذي القعدة وأخذوا منها ما لا يحصى كثرة، وعادوا نحو دمشق. فلما قاربوها خرج الملك الظاهر لتلقيهم في ثاني ذي الحجة، واجتاز بقارة في سادسه، فأمر بنهبها وقتل من فيها من الفرنج، فإنهم كانوا يخيفون السبيل ويستأسرون المسلمين، فأراح الله منهم وجعلت كنيستها جامعاً، ورتب بقارة خطيباً وقاضياً، ونقل إليها الرعية من المسلمين، ثم التقى العساكر وخلع عليهم وعاد معهم، فدخل دمشق، والغنائم والأسرى بين يديه، في يوم الاثنين خامس عشر شهر ذي الحجة فأقام بها مدة.

ثم خرج منها طالبا الكرك في مستهل المحرم سنة خمس وستين وستمائة، وأمر الملك الظاهر بعد خروجه من دمشق بعمارة جسر بالغور على نهر الشريعة، وكان المتولي لعمارته جمال الدين محمد بن نهار وبدر الدين محمد بن رحال وهما من أعيان الأمراء، ولما تكامل عمارته اضطرب بعض أركانه، فقلق الملك الظاهر لذلك وأعاد الناس لإصلاحه فتعذر ذلك لزيادة الماء، فاتفق وقوف الماء عن جريانه حتى أمكن إصلاحه، فلما تم إصلاحه عاد الماء إلى حاله، قيل إنه كان وقع في النهر قطعة كبيرة مما يجاوره من الأماكن العالية فسدته من غير قصد. وهذا من عجيب الاتفاق.

ثم عاد الملك الظاهر إلى ديار مصر، وعند عوده إليها وصل إليه رسل صاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر ومعهم فيل وحمار وحش أبيض وأسود

وخيول وصيني وتحف، وطلب معاضدة الملك الظاهر له وشرط له أن يخطب له ببلاده.

ثم خرج السلطان في يوم السبت في ثاني جمادى الآخرة إلى بركة الجب عازماً على قصد الشام على حين غفلة، وجعل نائب السلطنة على مصر الأمير بيليك الخازندار ورحل في سابع الشهر، فوردت عليه رسل صاحب يافا في الطريق فاعتقلهم، وأمر العسكر بلبس آلة الحرب ليلا وسار فأصبح يافا، وأحاط بها من كل جانب، فهرب من كان فيها من الفرنج إلى قلعتها، فملك السلطان المدينة وطلب أهل القلعة الأمان، فأمنهم وعوضهم عما نهب لهم أربعين ألف درهم، فركبوا في المراكب إلى عكا، وكان أخذ قلعة يافا في الثاني والعشرين من الشهر المذكور وأمر بهدمها.

فلما فرغ السلطان من هدمها رحل عنها يوم الأربعاء ثاني عشر شهر رجب طالبا للشقيف، فنزل عليه يوم الثلاثاء وحاصرها حتى تسلمها يوم الأحد تاسع وعشرين من رجب، وكان الملك الظاهر أيضا ملك الباشورة بالسيف في السادس والعشرين منه.

ثم رحل الملك الظاهر عنها بعد أن رتب بها عسكراً في عاشر شعبان، وبعث أكثر أثقاله إلى دمشق وسار إلى طرابلس فشن عليها الغارة وأخرب قراها وقطع أشجارها وغور أنهارها.

ثم رحل إلى حصن الأكراد ونزل بالمرج الذي تحته، فحضر إليه رسول من فيه بإقامة وضيافة، فردها عليه وطلب منهم دية رجل من أجناده، كانوا قتلوه، مائة ألف دينار فأرضوه.

فرحل إلى حمص ثم إلى حماة ثم إلى أفامية ثم سار ونزل منزلة أخرى.

ثم رحل ليلا وأمر العسكر بلبس آلة الحرب، ونزل أنطاكية في غرة شهر رمضان، فخرج إليه جماعة من أهلها يطلبون الأمان وشرطوا شروطا لم يجب إليها وزحف عليها فملكها يوم السبت رابع الشهر، ورتب على أبوابها جماعة من الأمراء لئلا يخرج أحد من الحرافشة بشيء من النهب، ومن يوجد معه شيء يؤخذ منه، فجمع من ذلك ما أمكن جمعه وفرقه على الأمراء والأجناد بحسب مراتبهم. وحصر من قتل بأنطاكية فكانوا فوق الأربعين ألفاً، وأطلق جماعة من المسلمين. كانوا فيها أسراء من الحلبيين، وكتب البشائر بذلك إلى مصر وإلى سائر الأقطار. وأنطاكية: مدينة عظيمة مشهورة، مسافة سورها اثنا عشر ميلاً، وعدد أبراجها مائة وستة وثلاثون برجا، وعدد شرفاتها أربع وعشرون ألفاً. ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب - رحمه الله - فيما فتح.

قلت: كم ترك الأول للآخر.

ولما ملك الملك الظاهر أنطاكية وصل إليه قصاد من أهل القصير يطلبون تسليمها إليه، فسير السلطان الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني بالعساكر إليها فوصلها ووجد أكثر أهلها قد برح منها، فتسلمها في ثالث عشر شهر رمضان، وكان قد تسلم دركوش بواسطة فخر الدين الجناحي في تاسع شهر رمضان وعاد إلى دمشق، فدخلها في سابع وعشرين من شهر رمضان، وعيد السلطان بقلعة دمشق.

ثم عاد إلى القاهرة فدخلها آخر نهار الأربعاء حادي عشر من ذى الحجة. وبعد وصوله بمدة جلس في الإيوان بقلعة الجبل يوم الخميس تاسع صفر، وأحضر القضاة والشهود والأعيان وأمر بتحليف الأمراء ومقدمي الحلقة لولده الملك السعيد بركة خان فحلفوا ثم ركب الملك السعيد يوم الاثنين العشرين من الشهر بأبهة السلطنة في القلعة ومشى والده أمامه، وكتب تقليد له وقرئ على الناس بحضور الملك الظاهر وسائر أرباب الدولة.

ثم في يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة خرج الملك الظاهر من القاهرة متوجهاً إلى الشام ومعه الأمراء بأسرهم جرائد، واستناب بالديار المصرية في خدمة ولده الأمير بدر الدين بيليك الخازندار. ومن هذا التاريخ علم الملك السعيد على التواقيع وغيرها.

ولما صار الملك الظاهر بدمشق وصلت إليه كتب التتار ورسلهم، والرسل: محب الدين دولة خان، وسيف الدين سعيد ترجمان وآخر، ومعهم جماعة من أصحاب سيس، فأنزلهم السلطان بالقلعة وأحضرهم من الغد وأدوا الرسالة ومضمونها: أن الملك أبغا بن هولاكو لما خرج من الشرق ملك جميع البلاد ومن خالفه قتل وأنت - يعني للملك الظاهر لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلص منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحاً، وأنت مملوك أبعت في سيواس فكيف تشاقق ملوك الأرض وأولاد ملوكها، فأجابه في وقته بأنه في طلب جميع ما استولوا عليه من العراق والجزيرة والروم والشام وسفرهم إليه بسرعة.

ثم في آخر شهر رجب خرج الملك الظاهر من دمشق ونزل خربة اللصوص فأقام بها أياماً، ثم ركب ليلة الاثنين ثامن عشر شعبان ولم يشعر به أحد وتوجه إلى القاهرة على البريد بعد أن عرف الفارقاني أنه يغيب أياماً معلومة، وقرر معه أنه يحضر الأطباء كل يوم ويستوصف منهم ما يعالج به متوعك يشكو تغيير مزاجه، ليوهم الناس أن الملك الظاهر هو المتوعك، فكان يدخل ما يصفونه إلى الخيمة ليوهم العسكر صحة ذلك، وسار الملك الظاهر حتى وصل قلعة الجبل ليلة الخميس حادي وعشرين شعبان، فأقام بالقاهرة أربعة أيام، ثم توجه ليلة الاثنين خامس عشرين

الشهر على البريد، فوصل إلى المعسكر يوم تاسع وعشرين من الشهر. وكان غرضه بهذا السفر كشف أحوال ولده الملك السعيد وغير ذلك.

ثم في يوم الأحد سادس عشر شهر رمضان تسلم نواب الملك الظاهر قلعة بلاطنس وقلعة كرابيل، من عز الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكورس صاحب صهيون، وعوضه غيرهما قرية تعرف بالخميلة من أعمال شيزر.

ثم في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان توجه الملك الظاهر إلى صفد فأقام بها يومين ثم شن الغارة على بلد صور، وأخذ منها شيئاً كثيراً.

ثم عاد الملك الظاهر إلى دمشق وعيد بها. ثم خرج منها في خامس وعشرين شوال يريد الكرك فوصله في أوائل ذي القعدة.

ثم توجه في سادسه إلى الحجاز، وصحبته بيليك الخازندار والقاضي صدر الدين سليمان الحنفي وفخر الدين إبراهيم بن لقمان وتاج الدين ابن الأثير ونحو ثلاثمائة مملوك وجماعة من أعيان الحلقة، فوصل المدينة الشريفة في العشر الأخير من الشهر فأقام بها ثلاثة أيام. وكان جماز قد طرق المدينة وملكها، فلما قدم الظاهر هرب، فقال الملك الظاهر: لو كان جماز يستحق القتل ما قتلته. لأنه في حرم النبي صلى الله عليه وسلم، ثم تصدق في المدينة بصدقات كثيرة، وخرج منها متوجهاً إلى مكة فوصلها في ثامن ذي الحجة، فخرج إليه أبو نمي وعمه إدريس صاحبا مكة، وبذلا له الطاعة فخلع عليهما وسارا بين يديه إلى عرفات، فوقف بها يوم الجمعة ثم عاد إلى منى، ثم إلى مكة وطاف بها طواف الإفاضة، وصعد الكعبة وغسلها بماء الورد وطيبها بيده، وأقام يوم الاثنين ثم ركب وتوجه إلى المدينة الشريفة، فزار بها قبر النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا.

ثم توجه إلى الكرك فوصله في يوم الخميس تاسع وعشرين من ذي الحجة فصلى به الجمعة.

ثم توجه إلى دمشق فوصل يوم الأحد ثاني المحرم سنة ثمان وستين وستمائة في السحر، فخرج الأمير جمال الدين آقوش فصادفه في سوق الخيل واجتمع به. ثم سار إلى حلب فوصلها في سادس المحرم.

ثم خرج منها في عاشره وسار إلى حماة ثم إلى دمشق ثم إلى مصر، وصحبته الأمير عز الدين الأفرم فدخلها يوم الأربعاء رابع صفر، واتفق ذلك اليوم دخول ركب الحاج، وكانت العادة يوم ذاك بدخول الحاج إلى القاهرة بعد عاشر صفر، فأقام الملك الظاهر بالقاهرة أياماً، وخرج منها في صفر المذكور إلى الإسكندرية ومعه ولده الملك السعيد وسائر الأمراء فتصيد أياماً وعاد إلى نحو القاهرة في يوم الثلاثاء ثامن

شهر ربيع الأول، وخلع في هذه السفرة على الأمراء وفرق فيهم الخيل والحوائص الذهب والسيوف المحلاة والذهب والدراهم والقماش وغير ذلك. فلم يقم بالقاهرة إلا مدة يسيرة، وخرج منها متوجهاً إلى الشام في يوم الاثنين حادي عشرين شهر ربيع الأول في طائفة يسيرة من أمرائه وخواصه، فوصل إلى دمشق في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الآخر، ولقي أصحابه في الطريق مشقة شديدة من البرد.

ثم خرج عقيب ذلك إلى الساحل وأسر ملك عكا، وقتل وأسر وسبى.

ثم قصد الغارة على المرقب فوجد من الأمطار والثلوج ما منعه، فرجع إلى حمص فأقام بها نحو عشرين يوماً.

ثم في السنة المذكورة أيضاً خرج الملك الظاهر من الديار المصرية متوجهاً إلى نحو حصن الأكراد في ثاني عشر جمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الخميس ثامن شهر رجب، وكان معه في هذه السفرة ولده الملك السعيد والصاحب بهاء الدين بن حنا، واستخلف بمصر الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني، وفي الوزارة الصاحب تاج الدين بن حنا. ثم خرج الملك الظاهر من دمشق في يوم السبت عاشره وتوجه بطائفة من العسكر إلى جهة، وولده وبيليك الخازندار بطائفة أخرى إلى جهة، وتواعدوا الاجتماع في يوم واحد بمكان معين ليشنوا الغارة على جبلة واللاذقية والمرقب وعرقة ومرقية والقليعات وصافيثا والمجدل وأنطرطوس، فلما اجتمعوا على أن يشنوا الغارة فتحوا صافيثا والمجدل، ثم ساروا ونزلوا حصن الأكراد يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب من سنة تسع وستين وستمائة، وأخذوا في نصب المجانيق وعمل الستائر، ولذا الحصن ثلاثة أسوار، فاشتد عليه الزحف والقتال وفتحت الباشورة الأولى يوم الخميس حادي وعشرين من الشهر، وفتحت الثانية يوم السبت سابع شعبان، وفتحت الثالثة الملاصقة للقلعة في يوم الأحد خامس عشره، وكان المحاصر لها الملك السعيد ابن الملك الظاهر ومعه بيليك الخازندار وبيسري، ودخلت العساكر البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والفلاحين ثم أطلقوهم. فلما رأى أهل القلعة ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان، فأمنهم الملك الظاهر وتسلم القلعة يوم الاثنين ثالث وعشرين شعبان، وكتبت البشائر بهذا الفتح إلى الأقطار، وأطلق الملك الظاهر من كان فيها من الفرنج فتوجهوا إلى طرابلس. ثم رحل الملك الظاهر بعد أن رتب الأمير عز الدين أيبك الأفرم لعمارته، وأقيمت فيه الجمعة، ورتب نائباً وقاضياً.

ولما وقع ذلك بعث صاحب أنطرطوس إلى الملك الظاهر يطلب المهادنة، وبعث إليه بمفاتيح أنطرطوس فصالحه على نصف ما يتحصل من غلال بلده، وجعل عندهم نائبا من قبله. ثم صالح صاحب المرقب على المناصفة أيضا، وذلك في يوم الاثنين

مستهل شهر رمضان من سنة تسع وستين، وقررت الهدنة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

وفي يوم الاثنين سادس وعشرين الشهر نزل الملك الظاهر على كردانة - قرية قريبة من عكّا - ولبس العسكر وسار إلى عَكا وأشرف عليها، ثم عاد إلى منزله. ثم رحل منها يوم الثلاثاء قاصداً مصر، فدخلها يومَ الخميس ثالث عشر ذي الحجة، وكان جملة ما صرَفه الملك الظاهر في هذه السفْرة من حين خروجه من مصر إلى حين عَوْده إليها ما ينيف على مائة ألف دينار وثمانين ألف دينار عَيْناً.

وفي اليوم الثاني من وصوله إلى قلعة الجبل قَبَض على جماعة من الأمراء منهم: الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبي الكبير، الذي كان تسلطن بدِمَشْق في أول سلطنة الملك الظاهر بيبَرْس، والأمير جمال الدين آقوش المحمَّدي، والأمير جمال الدين أيدُغْدي الحاجبي الناصري، والأمير شمس الدين سُنْقر المسّاح والأمير سيف الدين بيدغان الركني والأمير علم الدين سَنْجَر طرطح وغيرهم، وحُبِسوا الجميع بقلعة الجبل وسبب ذلك أنه بلغه أنهم تآمروا على قبضه لمّا كان بالشَقِيف، فأسرَّها في نفسه إلى وقتها.

وكان بلغ الملكَ الظاهرَ وهوعلى حِصْن الأكراد أنّ صاحب قُبْرُص خرج منها في مراكبه إلى عكا، فأراد السلطان اغتنام خلوّها، فجهّز سبعة عشر شِينياً، فيها الرئيس ناصر الدين عمربن منصور رئيس مصر وشهاب الدين محمد بن إبراهيم بن عبد السلام رئيس الإسكندرية، وشرف الدين، علوي بن أبي المجد بن علوي العَسْقلاني رئيس دِمْياط، وجمال الدين مَكّي بن حسون مقدّماً على الجميع فوصلوا الجزيرة ليلاً، فهاجت عليهم ريحٌ طردتْهم عن المَرْسَى، وألقتْ بعض الشَوَاني على بعض، فتحطم منها أكثر من أحد عشر شِينياً وأخِذ مَنْ فيها من الرجال والصنّاع أسَراء، وكانوا زُهَاءَ ألف وثمانمائة نفس، وسلِم الرئيس ناصرالدين وابن حَسّون في الشَّوَاني السالمة، وعادت إلى مراكزها فعظُم ذلك على الملك الظاهر بيبَرْس إلى الغاية.

وفيها أمر ملك التتار أبغا بن هولاكو عساكره بقصد البلاد الشامية، فخرج عسكره في عدة عشرة آلاف فارس وعليهم الأمير صمغرا والبرواناه، فلما بلغهم أن الملك الظاهر بالشام أرسلوا ألفا وخمسمائة من المغل ليتجسسوا الأخبار ويغيروا على أطراف بلاد حلب، وكان مقدمهم أمال بن بيجونوين ووصلت غارتهم إلى عينتاب ثم إلى قسطون ووقعوا على تركمان نازلين بين حارم وأنطاكية فاستأصلوهم، فتقدم الملك الظاهر بتجفيل البلاد ليحمل التتار الطمع فيدخلوا فيتمكن منهم. وبعث إلى مصر بخروج العساكر فخرجت ومقدمها الأمير بيسري، فوصلوا إلى السلطان في

خامس شهر ربيع الآخر، وخرج بهم في السابع منه، فسبق إلى التتار خبره، فولوا على أعقابهم. وكان الظاهر لما مر بحماة استصحب معه الملك المنصور صاحب حماة، ونزل الظاهر حلب يوم الاثنين ثاني عشر شهر ربع الآخر من سنة سبعين وستمائة وخيم بالميدان الأخضر، ثم جهز الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقاني في عسكر وأمره أن يمضي إلى بلاده حلب الشمالية ولا يتعرض لبلاد صاحب سيس، وجهز الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري في عسكر وأمره بالتوجه إلى حران. فاما الفارقاني فإنه سار خلف التتار إلى مرعش فلم يجد منهم أحداً، ثم عاد إلى حلب فوجد الملك الظاهر مقيما بها، وقد أمر بإنشاء دار شمالي القلعة كانت تعرف بدار الأمير بكتوت، أستادار الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب وأضاف إليها داراً أخرى، ووكل بعمارتها الأمير عز الدين آقوش الأفرم.

ولفا عاد الفارقاني إلى حلب رحل الملك الظاهر منها نحو الديار المصرية في ثامن وعشرين شهر ربيع الآخر، ودخل مصر في الثالث والعشرين من جمادى الأولى.

ولما وصل الظاهر إلى مصر قبض على الأمراء الذين كانوا مجردين على قاقون بسبب الفرنج لما أغاروا على الساحل ما عدا آقوش الشمسي ثم شفع فيهم فأطلقهم.

وفي يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة عدى الملك الظاهر إلى بر الجيزة فأخبر أن ببوصير السدر مغارة فيها مطلب، فجمع لها خلقاً فحفروا مدى بعيداً، فوجدوا قطاطاً ميتة وكلاب صيد وطيوراً وغير ذلك من الحيوانات ملفوفاً في عصائب وخرق، فإذا حلت اللفائف ولاقى الهواء ما كان فيها صار هباء منثوراً، وأقام الناس ينقلون من ذلك مدة ولم ينفد ما فيها، فأمر الملك الظاهر بتركها وعاد من الجيزة.

وفي يوم السبت سابع وعشرين جمادى الآخرة ركب السلطان الملك الظاهر إلى الصناعة ليرى الشواني التي عملت وهي أربعون شينيا فسر بها. وعند عوده إلى القلعة ولدت زرافة بقلعة الجبل وأرضع ولدها لبن بقرة.

ثم سافر الملك الظاهر إلى الشام في شعبان وسار حتى وصل الساحل وخيم بين قيسارية وأرسوف، وكان مركزاً بها الفارقاني فرحل الفارقاني عنها إلى مصر. ثم إن الملك الظاهر شن الغارة على عكا، فطلب منه أهلها الصلح وترددوا في ذلك حتى تقررت الهدنة بينهم مدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات، أولها ثاني وعشرين شهر رمضان سنة سبعين وستمائة.

ثم رحل الملك الظاهر إلى خربة اللصوص، ثم سار منها إلى دمشق فدخلها في الثامن من شوال، وبينما هو في دمشق ترددت الرسل بينه وبين التتار وانفصل الأمر من غير اتفاق. وفي ذي الحجة توجه الملك الظاهر من دمشق إلى حصن الأكراد لينقل

حجارة المجانيق إليها ورؤية ما عمر فيها ففعل ذلك. ثم سار إلى حصن عكار فأشرف عليها. ثم عاد إلى دمشق في خامس المحرم من سنة إحدى وسبعين وستمائة. وفي ثاني عشر المحرم المذكور أفرج الملك الظاهر عن الأمير أيبك النجيبي الصغير، وأيدمر الحلي العزيزي وكانا محبوسين بالقاهرة.

ثم توجه الملك الظاهر إلى نحو الديار المصرية، فخرج ولده الملك السعيد لتلقيه في يوم الثلاثاء تاسع عشر جمادى الآخرة، فاجتمع به بين القصير والصالحية في يوم الجمعة ثاني وعشرينه، فترجلا واعتنقا طويلاً، ثم ركبا وسارا جميعاً إلى القلعة وبين يديهم أسارى التتار ركاباً على الخيل.

وفيها قبض على ملك الكرج، وهو أنه كان قد خرج من بلاده قاصداً زيارة القدس الشريف متنكراً في زي الرهبان ومعه جماعة يسيرة من خواصه، فسلك بلاد الروم إلى سيس فركب البحر إلى عكا، ثم خرج منها إلى بيت المقدس فاطلع الأمير بدر الدين الخازندار على أمره وهو على يافا، فبعث إليه من قبض عليه، فلما حضر بين يديه بعثه مع الأمير ركن الدين منكورس إلى السلطان، وكان السلطان قد توجه إلى دمشق فوصل إلى دمشق في رابع عشر جمادى الأولى، فأقبل عليه السلطان وسأله حتى اعترف، فحبسه في برج من أبراج قلعة دمشق، وأمره أن يبحث من جهته إلى بلاده من يعرفهم بأسره، فبعث نفرين.

وخرج الملك الظاهر من دمشق ثالث عشرين جمادى الآخرة، وقدم القاهرة يوم الخميس سابع شهر رجب من سنة اثنتين وسبعين المذكورة. ثم في يوم الخميس خامس وعشرين شهر رمضان أمر السلطان العسكر أن يركب بالزينة الفاخرة ويلعب في الميدان تحت القلعة، فاستمر ذلك كل يوم إلى يوم عيد الفطر ختن السلطان الملك الظاهر ولده خضراً ومعه جماعة من أولاد الأمراء وغيرهم، وكان الملك السعيد ابن الملك الظاهر في يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان خرج من القاهرة وتوجه إلى دمشق ومعه شمس الدين آقسنقر الفارقاني وأربعون نفراً من خواصه على خيل البريد، وعاد إلى القاهرة في يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال.

وفي يوم الأحد سابع صفر من سنة ثلاث وسبعين وستمائة ركب الملك، الظاهر الهجن وتوجه إلى الكرك ومعه بيسري وأتامش السعدي، وسبب توجهه أن وقع بالكرك برج فأحب أن يكون إصلاحه بحضوره. ثم عاد إلى مصر فدخلها في يوم الثلاثاء ثاني وعشرين شهر ربيع الأول، فأقام بها مدة يسيرة.

ثم خرج الملك الظاهر بعد ذلك من القاهرة في يوم الخميس العشرين من شهر رمضان بعد أن استناب الأمير آق سنقر الفارقاني الأستادار نائبا عنه في خدمة ولده

الملك السعيد، وترك معه من العسكر بالديار المصرية لحفظ البلاد خمسة آلاف فارس، ورحل من المنزلة يوم السبت ثاني عشر شوال قاصداً بلاد الروم فدخل دمشق ثم خرج منها ودخل حلب يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة، وخرج منها يوم الخميس إلى حيلان، فترك بها بعض الثقل، وأمر الأمير نور الدين علي بن مجلي نائب حلب أن يتوجه إلى الساجور ويقيم على الفرات بمن معه من عسكر حلب ويحفظ معابر الفرات لئلا يعبر منها أحد من التتار قاصداً الشام، ووصل إلى الأمير نور الدين الأمير شرف الدين عيسى ابن مهنا وأقام عنده، فبلغ نواب التتار ذلك فجهزوا إليهم جماعة من عرب خفاجة لكبسهم فحشدوا وتوجهوا نحوهم. فاتصل بالأمير عليّ نائب حلب الخبرُ وكان يقِظاً، فركِب إليهم وآلتقاهم وكسرهم أقبح كسْرة، وأخذ منهم ألفاً ومائتي جمل. وأمّا الملك الظاهر فإنه ركِب من حَيْلانَ يوم الجمعة ثالث الشهر، وسار إلى عيْنتَاب، ثم إلى دُلوك، ثم إلى منزلة أخرى ثم إلى كَيْنُوك، ثم إلى كُكْ صُو ومعناه الماء الأزرق باللغة التركيسة ثم رَحَل عنه إلى أقجَادَرْبَنْد فقطعه في نصف نهار، فلما خرجت عساكره وملكت المَفَاوز، قدم الأميرُ شمس الدين سنْقُرَ الأشقر على جماعةٍ من العسكر وأمَره بالمَسِير بين يديه، فوقع على كَتِيبة التَّتار و عِدَّتُهم ثلاثة آلاف فارس، ومقدمُهم كراي فهزمهم سُنْقُر الأشقر وَأَسَرَ منهم طائفة،. ذ لك في يوم الخميس تاسع ذي القعدة.

ثم ورد الخبرُ على الملك الظاهر بأن عسكر الروم والتتَار مع البَرْوَانَاه اجتمعوا على نهر جَيحان، فلمّا صَعد العسكرُ الجبلَ أشرف على صحراءابلسْتَيْن فشاهد التَّتارَ قد رتَبوا عساكرَهم أحدَ عَشرطُلْباً في كل طُلْب ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم عنهم خوفاً من باطن يكون لهم مع المسلمين، وجعلوا عسكر الكرْج طُلْباً واحداً؛ فلمّا تَرَاءَى الجَمْعَانَ حَمَلَت مَيْسرة التتار حَمْلَةً واحدة وصدمواسجَق الملك الظاهر، ودخلت طائفة منهم بينهم، وشقُّوا المَيْسَرة وساقوا إلى المَيْمَنة، فلما رأى الملك الظاهر ذلك أرْدفهم بنفسه، ثم لاحت منه التفاتة فرأى المَيْسرة قد أتت عليها ميمنةُ التتار، فأمر الملك الظاهر جماعة من أصحابه الشُجْعان بإردافها، ثم حَمَل هو بنفسه - رحمه الله - فلفا رأته العساكر حَمَلَت نحوَه برُمتها حملة رجل واحد، فترخل التَّتَار عن خيولهم وقاتلوا قتالَ الموت فلم يُغن عنهم ذلك شيئاً، وصَبَر لهم الملك الظاهر وعسكره وهو يَكُر في القوم كالأسد الضاري ويقتحم الآهوال بنفسه ويُشجع أصحابَه ويُطيب لهم الموت في الجهاد إلى أن أنزل الله تعالى نصره عليه، وآنكسر التتارُ أقبح كَسْرة وقُتِلوا وأسِروا وفَرّ مَنْ نجا منهم، فآعتصموا بالجبال، فقصدتهم العساكرُ الإسلامية وأحاطوا بهم، فترجلوا عن خيولهم وقاتلوا فقُتِل منهم جماعة كثيرة، وقُتِل ممن قاتلهم من عساكر المسلمين الأميرُ ضياء الدين ابن الخَطِير، وكان من الشُجْعان

الفُرْسان، والأميرُ شرف الدين قيران العَلائي، والأميرُ عز الدين أخو المحمديّ، وسيفُ الدين ققجاق الجَاشْنَكِير، والأميرُ أيْبَك الشَّقِيفِيّ - رحمهم الله تعالى وأسكنهم الجنة -. وأسِر من كبار الروميين مُهَذّب الدين ابن مُعِين الدين البَرْوَانَاه، وآبن بنت معين الدين المذكور، والأميرُ نورالدين جبريل بن جاجا،، والأميرُ قُطْب الدين محمود أخو مجد الدين الأتَابَك، والأمير سِراج الدين إسماعيل أبن جاجا،، والأميرُ سيف الدين سُنْقُرجاه الزُوبَاشِيّ، والأمير نصرة الدين بَهْمَن أخو تاج الدين كيوي يعني الصهر صاحبُ سِيواس، والأمير كمال الدين إسماعيل عارض الجيش، والأمير حُسام الدين كاوك، والأميرُ سيف الدين بن الجاويش، والأميرُ شهاب الدين غازي بن علي شِير التُرْكُماني، فوبّخهم السلطان الملك الظاهر من كونهم قاتلوه في مساعدة التتار الكَفَرة، ثم سلمهم لمن آحتفظ بهم. وأسِر من مقد مي التتار على الألوف والمئين بركة " صهر أبْغا بن هولاكو ملك التتار، وسَرْطَق، وخيز كدوس وسركده وتماديه.

ولما أسر من أسر وقتل من قتل نجا البرواناه وساق حتى دخل قيصرية يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة واجتمع بالسلطان غياث الدين، والصاحب فخر الدين، والأتابك مجد الدين، والأمير جلال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب فأخبرهم بالكسرة، وقال لهم: إن التتار المنهزمين متى دخلوا قيصرية فتكوا بمن فيها حنقا على المسلمين، وأشار عليهم بالخروج منها فخرج السلطان غياث الدين بأهله وماله إلى توقات وبينها وبين قيصرية أربعة أيام.

فلما كان يوم الجمعة سابع عشر الشهر ركب السلطان للجمعة، فدخل قيصرية ونزل دار السلطنة وجلس على التخت وحضر بين يديه القضاة والفقهاء والصوفية والقراء وجلسوا في مراتبهم على عادة ملوك السلجوقية، فأقبل عليهم السلطان ومد لهم سماطاً فأكلوا وانصرفوا، ثم حضر الجمعة بالجامع وخطب له، وحضر بين يديه الدراهم التي ضربت له باسمه. وكتب إليه البرواناه يهنئه بالجلوس على تخت الملك بقيصرية، فكتب الملك الظاهر إليه بعوده ليوليه مكانه، فكتب إليه يسأله أن ينتظره خمسة عشر يوماً، وكان مراد البرواناه أن يصل أبغا ويحثه على المسير ليدرك الملك الظاهر بالبلاد، فاجتمع تتاوون بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر وعرفه مكر البرواناه في ذلك، فكان ذلك سببا لرحيل الملك الظاهر عن قيصرية مع ما انضاف إلى ذلك من قلق العساكر، فرحل يوم الاثنين، وكان على اليزك عز الدين أيبك الشيخي، وكان الملك الظاهر ضربه بسبب سبقه الناس فغضب وهرب إلى التتار. وكان أولاد قرمان قد رهنوا أخاهم الصغير علي بك بقيصرية، فأخرجه الملك الظاهر وأنعم عليه، وسأل السلطان في تواقيع وسناجق له ولإخوته فأعطاه، وتوجه نحو إخوته بجبل لارندة.

وعاد السلطان وأخذ في عوده أيضا عدة بلاد إلى أن وصل مكان المعركة يوم السبت، فرأى القتلى، فسأل عن عدتهم فأخبر أن المغل خاصة ستة آلاف وسبعمائة وسبعون نفساً، ثم رحل حتى وصلى أقجادربند، بعث الخزائن والدهليز والسناجق صحبة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ليعبر بها الدربند، وأقام السلطان في ساقة العسكر بقية اليوم ويوم الأحد، ورحل يوم الاثنين فدخل الدربند.

ثم سار إلى أن وصل دمشق في سابع المحرم سنة ست وسبعين وستمائة، ونزل بالجوسق المعروف بالقصر الأبلق جوار الميدان الأخضر وتواترت عليه الأخبار بوصول أبغا ملك التتار إلى مكان الوقعة، فجمع السلطان الأمراء وضرب مشورة، فوقع الاتفاق على الخروج من دمشق بالعساكر وتلقيه حيث كان، فأمر الملك الظاهر بضرب الدهليز على القصير، وفي أثناء ذلك وصل رجل من التركمان وأخبر أن أبغا عاد إلى بلاده هارباً خائفاً، ثم وصل الأمير سابق الدين بيسري أمير مجلس الملك الناصر صلاح الدين، وهو غير بيسري الكبير، وأخبر بمثل ما أخبر التركماني، فعند ذلك أمر الملك الظاهر برد الدهليز إلى الشام. وكان عود أبغا من ألطاف الله تعالى بالمسلمين، فإن الملك الظاهر في يوم الجمعة نصف المحرم من سنة ست وسبعين ابتدأ به مرض الموت.

* * *

مرض الملك الظاهر ووفاته

لما كان يوم الخميس رابع عشر المحرم سنة ست وسبعين وستمائة جلس الملك الظاهر بالجوسق الأبلق بميدان دمشق يشرب القمز وبات على هذه الحالة، فلما كان يوم الجمعة خامس عشره وجد في نفسه فتورا وتوعكا فشكا ذلك إلى الأمير شمس الدين سنقر الألفي السلحدار فأشار عليه بالقيء، فاستدعاه فاستعصى عليه القيء، فلما كان بعد صلاة الجمعة ركب من الجوسق إلى الميدان على عادته، والألم مع ذلك يقوى عليه، وعند الغروب عاد إلى الجوسق. فلما أصبح اشتكى حرارة في باطنه فصنع له بعض خواصه دواء، ولم يكن عن رأي طبيب، فلم ينجع وتضاعف ألمه، فأحضر الأطباء فأنكروا استعماله الدواء، وأجمعوا على استعمال دواء مسهل فسقوه فلم ينجع، فحركوه بدواء آخر كان سبب الإفراط في الإسهال ودفع دماً، فتضاعفت حماه وضعفت قواه، فتخيل خواصه أن كبده يتقطع وأن ذلك عن سم سقيه فعولج بالجوهر، وأخذ أمره في انحطاط، وجهده المرض وتزايد به إلى أن قضى نحبه يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع والعشرين من المحرم، فاتفق رأي الأمراء على

إخفائه وحمله إلى القلعة لئلا تشعر العامة بوفاته، ومنعوا من هو داخل من المماليك من الخروج ومن هو خارج منهم من الدخول. فلما كان آخر الليل حمله من كبار الأمراء سيف الدين قلاوون الألفي وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسري، وبدر الدين بيليك الخازندار، وعز الدين آقوش الأفرم، وعز الدين أيبك الحموي، وشمس اللين سنقر الألفي الظاهري، وعلم الدين سنجر الحموي أبو خرص، وجماعة من أكابر خواصه. وتولى غسله وتحنيطه وتصبيره وتكفينه مهتاره الشجاع عنبر، والفقيه كمال الدين الإسكندري المعروف بابن المنبجي، والأمير عز الدين الأفرم، ثم جعل في تابوت وعلق في بيت من بيوت البحرية بقلعة دمشق إلى أن حصل الاتفاق على موضع دفنه. ثم كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى ولده الملك السعيد مطالعة بيده وسيرها إلى مصر على يد بدر الدين بكتوت الجوكنداري الحموي، وعلاء الدين أيدغمش الحكيمي الجاشنكير، فلما وصلا وأوصلاه المطالعة خلع عليهما وأعطى كل واحد منهما خمسين ألف درهم، على أن ذلك بشارة بعود السلطان إلى الديار المصرية. ولما كان يوم السبت ركب الأمراء إلى سوق الخيل بدمشق على عادتهم ولم يظهروا شيئا من زي الحزن. وكان أوصى أن يدفن على الطريق السالكة قريباً من داريا وأن يبنى عليه هناك، فرأى ولده الملك السعيد أن يدفنه داخل السور، فابتاع دار العقيقي بثمانية وأربعين ألف درهم نقرة، وأمر أن تغير معالمها وتبنى مدرسة. انتهى.

وأما الملك السعيد فإنه جهز الأمير علم الدين سنجر الحموي المعروف بأبي خرص، والطواشي صفي الدين جوهر الهندي إلى دمشق لدفن والده الملك الظاهر، فلما وصلاها اجتمعا بالأمير عز الدين أيدمر نائب السلطنة بدمشق، وعرفاه المرسوم فبادر إليه، وحمل الملك الظاهر من القلعة إلى التربة ليلا على أعناق الرجال، ودفن بها ليلة الجمعة خامس شهر رجب الفرد، وكان قد ظهر موته بدمشق في يوم السبت رابع عشر صفر، وشرع العمل في أعزيته بالبلاد الشامية والديار المصرية.

وقال الشيخ قطب الدين اليونيني في الذيل على مرآة الزمان في موت الملك الظاهر هذا نوعاً مما قاله الأمير بيبرس الدوادار لكنه زاد أموراً نحكيها، قال: حكى لي ابن شيخ السلامية عن الأمير أزدمر العلائي نائب السلطنة بقلعة صفد قال: كان الملك الظاهر مولعاً بالنجوم وما يقوله أرباب التقاويم، كثير البحث عن ذلك، فأخبر أنه يموت في سنة ست وسبعين ملك بالسم، فحصل عنده من ذلك أثر كبير، وكان عنده حسد شديد لمن يوصف بالشجاعة. واتفق أن الملك القاهر عبد الملك بن المعظم عيسى الآتي ذكره لما دخل مع الملك الظاهر إلى الروم، وكان يوم المصاف، فدام الملك القاهر في القتال فتأثر الظاهر منه، ثم انضاف إلى ذلك أن الملك الظاهر حصل

منه في ذلك اليوم فتور على خلاف العادة، وظهر عليه الخوف والندم على تورطه في بلاد الروم، فحدثه الملك القاهر عبد الملك المذكور بما فيه نوع من الإنكار عليه والتقبيح لأفعاله، فأثر ذلك عنده أثراً آخر. فلما عاد الظاهر من غزوته سمع الناس يلهجون بما فعله الملك القاهر، فزاد على ما في نفسه وحقد عليه، فخيل في ذهنه أنه إذا سمه كان هو الذي ذكره أرباب النجوم، فأحضره عنده ليشرب القمز معه، وجعل الذي أعده له من السم في ورقة في جيبه من غير أن يطلع على ذلك أحد، وكان للسلطان هنابات ثلاثة مختصة به مع ثلاثة سقاة لا يشرب فيها إلا من يكرمه السلطان، فأخذ الملك الظاهر الكأس بيده وجعل فيه ما في الورقة خفية، وأسقاه للملك القاهر، وقام الملك الظاهر إلى الخلاء وعاد، فنسي الساقي وأسقى الملك الظاهر فيه وفيه بقايا السم. انتهى كلام قطب الدين. وخفف الملك الظاهر من الأولاد: الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان. ومولده في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة بضواحي مصر، وأمه بنت الأمير حسام الدين بركة خان بن دولة خان الخوارزمي. والملك المسعود نجم الدين خضراً، أمه أم ولد. والملك العادل بدر الدين سلامش. وولد له من البنات سبع.

وأما زوجاته فأم الملك السعيد بنت بركة خان، وبنت الأمير سيف الدين نوكاي التتاري، وبنت الأمير سيف الدين كراي التتاري، وبنت الأمير سيف نوغاي التتاري، وشهرزورية تزوجها لما قدم غزة وحالف الشهرزورية قبل سلطنته، فلما تسلطن طلقها.

وأما وزراؤه لما تولى السلطنة استمر زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير، ثم صرفه واستوزر الصاحب بهاء الذين علي بن محمد بن سليم بن حنا. وكان للملك الظاهر أربعة آلاف مملوك مشتريات أمراء وخاصكية وأصحاب وظائف.

فتوحاته:

وأما ما افتتحه من البلاد وصار إليه من أيدي المسلمين فعدة بلاد وقلاع. والذي افتتحه من أيدي الفرنج - خذلهم الله -: قيسارية، وأرسوف، وصفد، وطبرية، ويافا، والشقيف، وأنطاكية، وبغراس، والقصير، وحصن الأكراد وعكار، والقرين، وصافيثا، ومرقية. وناصفهم على المرقب وبانياس وبلاد أنطرطوس وعلى سائر ما بقي في أيديهم من البلاد والحصون وغيرها. واستعاد من صاحب سيس دربساك، ردركوش، ورعبان، والمرزبان وبلاداً أخر. والذي صار إليه من أيدي المسلمين: دمشق وبعلبك وعجلون وبصرى وصرخد والصلت، وكانت هذه البلاد التي تغلب عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبي بعد موت الملك المظفر قطز، لما تسلطن

بدمشق وتلقب بالملك المجاهد. انتهى. وحمص، وتدمر، والرحبة، ودلويا، وتل باشر، وهذه البلاد انتقلت إليه عن الملك الأشرف صاحب حمص في سنة اثنتين وستين وستمائة. وصهيون وبلاطنس، وبرزيه، وهذه منتقلة إليه عن الأمير سابق الدين سليمان بن سيف الدين أحمد وعمه عز الدين. وحصون الإسماعيلية وهي: الكهف، والقدموس، والمينقة، والعليقة، والخوابي، والرصافة، ومصياف، والقليعة. وأما ما انتقل إليه عن الملك المغيث ابن الملك العادل أبي بكر ابن الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب: الشوبك، والكرك. وما انتقل إليه عن التتار: بلاد حلب الشمالية بأسرها، وشيزر، والبيرة. وفتح الله على يديه بلاد النوبة، وفيها من البلاد مما يلي أسوان جزيرة بلاق، ويلي هذه البلاد بلاد العلى وجزيرة ميكائيل، وفيها بلاد وجزائر الجنادل وهي أيضاً بلاد، ولما فتحها أنعم بها على ابن عم المأخوذة منه، ثم ناصفه عليها، ووضع عليه عبيداً وجواري وهجناً وبقراً، وعن كل بالغ من رعيته ديناراً في كل سنة. وكانت حدود مملكة الملك الظاهر من أقصى بلاد النوبة إلى قاطع الفرات. ووفد عليه من التتار زهاء عن ثلاثة آلاف فارس، فمنهم من أمره طبلخاناه، ومنهم من جعله أمير عشرة إلى عشرين، ومنهم من جعله من السقاة، ثم جعل منهم سلحدارية وجمدارية ومنهم من أضافه إلى الأمراء.

انتهت ترجمة الملك الظاهر بيبرس، رحمه الله تعالى.

ونذكر بعض أحواله، إن شاء الله تعالى، في حوادث سنينه كما هو عادة هذا الكتاب على سبيل الاختصار. وقد أطلت في ترجمته وهو مستحق لذلك، لأنه فرع فاق أصله، كونه كان من جملة مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب فزادت محاسنه عليه.

وأما من يأتي بعده فلا سبيل إليه. ويعجبني في هذا المعنى المقالة الثانية عشرة من قول الشيخ الإمام العالم العارف الرباني شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني المعروف بشوروة رحمه الله في كتابه الذي في اللغة وسماه: أطباق الذهب يشتمل على مائة مقالة أحسن فيها غاية الإحسان، وهي:

ليس الشريف من تطاول وتكاثر، إنما الشريف من تطول وآثر، وليس المحسن من روى القرآن، إنما المحسن من أروى الظمآن، وليس البر إبانة الحروف بالإمالة والاشباع، لكن البر إغاثة الملهوف بالإنالة والإشباع، ولا خير في زكاة لا يسدي معروفاً، ولا بركة في لبنة لا تروي خروفاً، فوا ها لك، لمن تذخر أموالك! انفق ألفك، قبل أن يقسم خلفك، إن منازل الخلق سواسية، إلا من له يد مواسية، فأرفعهم أنفعهم، وأسودهم أجودهم، وأفضلهم أبذلهم، وخير الناس من سقى ملواحاً، ونصب للجنة ملواحاً، والكرم نوعان، أحسنهما إطعام الجوعان، والحازم من قدم الزاد لعقبة العقبى، وآتى المال على حبه ذوي القربى. انتهت المقالة. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

* * *

سلطنة الملك السعيد محمد ابن الملك الظاهر بيبرس على مصر

هو السلطان الملك السعيد ناصر الدين أبو المعالي محمد المدعو بركة خان ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، الخامس من ملوك الترك بمصر. سمي بركة خان على اسم جده لأمه بركة خان بن دولة خان الخوارزمي. تسلطن الملك السعيد هذا في حياة والده حسب ما ذكرناه في ترجمة والده في يوم الخميس تاسع صفر سنة سبع وستين وستمائة. وأقام على ذلك سنين، وليس له من السلطنة إلا مجرد الاسم، إلى أن توفي أبوه الملك الظاهر بيبرس في يوم الخميس بعد صلاة الظهر التاسع والعشرين من المحرم من سنة ست وسبعين وستمائة بدمشق. اتفق رأي الأمراء على إخفاء موت الظاهر، وكتب الأمير بيليك الخازندار عرف الملك السعيد هذا بذلك على يد الأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار الحموي، وعلى يد الأمير علاء الدين أيدغمش الحكيمي الجاشنكير.

فلما بلغ الملك السعيد موت والده الملك الظاهر أخفاه أيضا، وخلع عليهما وأعطى كل واحد منهما خمسين ألف درهم، على أن ذلك بشارة بعود السلطان إلى الديار المصرية. وسافرت العساكر من دمشق إلى جهة الديار المصرية فدخلوها يوم الخميس سادس عشرين صفر من سنة ست وسبعين وستمائة، ومقدمهم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، ودخلوا مصر وهم يخفون موت الملك الظاهر في الصورة الظاهرة، وفي صدر الموكب مكان تسيير السلطان تحت العصائب، محفة وراءها السلحدارية والجمدارية وغيرهم من أرباب الوظائف توهم أن السلطان في المحفة مريض، هذا مع عمل جد في إظهار ناموس السلطنة والحرمة للمحفة والتأدب مع من فيها حتى تم لهم ذلك.

قلت: لله درهم من أمراء وحاشية ولو كان ذلك في عصرنا هذا ما قدر الأمراء على إخفاء ذلك من الظهر إلى العصر.

ولما وصلوا إلى قلعة الجبل، ترجل الأمراء والعساكر بين يدي المحفة، كما كانت العادة في الطريق في كل منزلة من حين خروجهم من دمشق إلى أن وصلوا إلى قلعة الجبل من باب السر، وعند دخولها إلى القلعة اجتمع الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بالملك السعيد هذا، وكان الملك السعيد لم يركب لتلقيهم، وقبل الأرض ورمى بعمامته ثم صرخ، وقام العزاء في جميع القلعة، ولوقتهم جمعوا الأمراء والمقدمين والجند وحلفوهم بالإيوان المجاور لجامع القلعة للملك السعيد، واستثبت له الأمر على هذه الصورة، وخطب له يوم الجمعة سابع وعشرين صفر، بجوامع القاهرة ومصر، وصلي على والده صلاة الغائب.

ومولد الملك السعيد هذا في صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة، وقيل: سنة سبع وخمسين بالعش من ضواحي مصر، ونشأ بديار مصر تحت كنف والده إلى أن سلطنه في حياته، كما تقدم ذكره.

ثم وقع الاهتمام إلى السفر للبلاد الشامية وتجهز السلطان والعساكر. فلما كان يوم السبت سابع ذي القعدة برز الملك السعيد بالعساكر من قلعة الجبل إلى مسجد التبن خارج القاهرة فأقام به إلى يوم السبت حادى عشرينه، انتقل بخواصه إلى الميدان الذي أنشأه بين مصر والقاهرة، ودخلت العساكر إلى منازلهم، وبطلت حركة السفر بعد أن أعاد قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان إلى قضاء دمشق وأعمالها من العريش إلى سلمية، وتوجه ابن خلكان إلى الشام، وطلع الملك السعيد إلى قلعة الجبل وأبطل حركة السفر بالكلية إلى وقت يريده حسب ما وقع الاتفاق عليه، واستمر بالقلعة إلى أن أمر العساكر بالتأهب إلى السفر وتجهز هو أيضاً لأمر اقتضى ذلك.

وخرج من الديار المصرية في العشر الأوسط من ذي القعدة من سنة سبع وسبعين وستمائة، وخرج من القاهرة بعساكره وأمرائه، وسار حتى وصل إلى الشام في خامس ذي الحجة، فخرج أهل دمشق إلى ملتقاه وزينوا له البلد وسروا بقدومه سروراً زائداً. وعمل عيد النحر بقلعة دمشق وصلى العيد بالميدان الأخضر.

وورد عليه الخبر بموت الصاحب بهاء الدين علي بن محمد بن سليم بن حنا بالقاهرة، فقبض السلطان على حفيده الصاحب تاج الدين محمد، وضرب الحوطة على موجوده بسبب موت جده الصاحب بهاء الدين المذكور.

ثم أرسل السلطان الملك السعيد إلى برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري باستقراره وزيراً بالديار المصرية ثم خلع السلطان على الصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني بوزارة دمشق، وبسط يده في بلاد الشام وأمر القضاة وغيرهم بالركوب معه.

ثم جهز السلطان العساكر إلى بلاد سيس للنهب والإغارة، ومقدمهم الأمير سيف الدين قلاوون الألفي. وأقام الملك السعيد بدمشق في نفر يسير من الأمراء والخواص، فصار في غيبة العسكر يكثر التردد إلى الربعية من قرى المرج يقيم فيها أياماً ثم يعود. ثم أسقط السلطان ما كان قرره والده الملك الظاهر على بساتين دمشق في كل سنة، فسر الناس بذلك وتضاعفت أدعيتهم له واستمر السلطان بدمشق إلى أن وقع الخلف في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول من سنة ثمان وسبعين بين المماليك الخاصكية الملازمين لخدمته وبين الأمراء لأمور يطول شرحها. وعجز الملك السعيد عن تلافي ذلك، وخرج عن طاعته الأمير سيف الدين كويدك الظاهري نائب السلطنة

ومقدم العساكر مغاضباً للسلطان الملك السعيد، وخرج معه نحو أربعمائة مملوك من الظاهرية: منهم جماعة كثيرة مشهورة بالشجاعة ونزلوا بمنزلة القطيفة في انتظار العساكر التي ببلاد سيس، ففي العشر الأخير من شهر ربيع الأول عادت العساكر من بلاد سيس إلى جهة دمشق فنزلوا بمرج عذراء إلى القصير، وكان قد اتصل بهم سيف الدين كوندك ومن معه واستمالوهم فلم يدخل العسكر دمشق، وأرسلوا إلى الملك السعيد في معنى الخلف الذي حصل بين الطائفتين، وكان كوندك مائلاً إلى الأمير بيسري. ولما اجتمع بالأمير سيف الدين قلاوون الألفي والأمير بدر الدين بيسري والأمراء الكبار أوحى إليهم عن السلطان ما غلت صدورهم، وخوفهم من الخاصكية وعرفهم أن نيتهم لهم غير جميلة، وأن الملك السعيد موافق على ذلك وأكثر من القول المختلق، فوقع الكلام بين الأمراء الكبار وبين السلطان الملك السعيد، وترددت الرسل بينهم، فكان من جملة ما اقترح الأمراء على الملك السعيد إبعاد الخاصكية عنه، وألا يكون لهم في الدولة تدبير ولا حديث، بل يكونوا على أخبارهم ووظائفهم مقيمين، فلم يجب الملك السعيد إلى ذلك، نرحل العسكر من مرج عذراء إلى ذيل عقبة الشحورة بأسرهم ولم يعبروا المدينة بل جعلوا طريقهم من المرج، وأقاموا بهذه المنزلة ثلاثة أيام، والرسل تتردد بينهم وبين الملك السعيد، ثم رحلوا ونزلوا بمرج الصفر، وعند رحيلهم رجع الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام وأكثر عسكر دمشق، وقدموا مدينة دمشق ودخلوا في طاعة السلطان. وفي يوم رحيلهم من مرج الصفر سير الملك السعيد والدته بنت بركة خان في محفة وفي خدمتها الأمير شمس الدين قراسنقر، وكان من الذين لم يتوجهوا إلى بلاد سيس ولحقوا العسكر، فلما سمعوا بوصولها خرج الأمراء الأكابر المقدمون لملتقاها، وترجلوا بأجمعهم وقبلوا الأرض أمام المحفة، وبسطوا الحرير العتابي، وغيره تحت حوافر بغال المحفة ومشوا أمام المحفة حتى نزلت في المنزلة، فلما استقرت بها تحدثت معهم في الصلح والانقياد واجتماع الكلمة، فذكروا ما بلغهم من تغير السلطان عليهم، وموافقته الخاصكية على ما يرومونه من إمساكهم وإبعادهم، فحلفت لهم على بطلان ما نقل إليهم، فاشترطوا شروطاً كثيرة التزمت لهم بها، وعادت إلى ولدها وعرفته الصورة، فمنعه من حوله من الخاصكية من الدخول تحت تلك الشروط، وقالوا: ما القصد إلا إبعادنا عنك حتى يتمكنوا منك وينزعوك من الملك، فمال إلى كلامهم وأبى قبول تلك الشروط.

فلما بلغ العسكر ذلك رحل من مرج الصفر قاصداً الديار المصرية، فخرج السلطان الملك السعيد بنفسه فيمن معه من الخاصكية جريدة، وساق في طلبهم ليتلافى الأمر إلى أن بلغ رأس الماء، فوجدهم قد عموه وأبعدوا، فعاد من يومه ودخل قلعة دمشق

في الليل وهي ليلة الخميس سلخ شهر ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة. وأصبح في يوم الجمعة مستهل شهر ربيع الآخر خرج السلطان الملك السعيد بجميع من تخلف معه من العساكر المصرية والشامية إلى جهة الديار المصرية بعد أن صلى الجمعة بها، وسار بمن معه في طلب العساكر المقدم ذكرهم، وجهز والدته وخزائنه إلى الكرك، وسار حتى وصل إلى بلبيس يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر المذكور، فوجد العسكر قد سبقه إلى القاهرة فأمر بالرحيل من بلبيس فلما أخذت العساكر في الرحيل من بلبيس بعد العصر فارق الأمير عز الدين أيدمر الظاهري نائب الشام وصحبته أكثر أمراء دمشق السلطان الملك السعيد، وانضاف إلى المصريين، وبلغ الملك السعيد ذلك فلم يكترث، وركب بمن بقي معه من خواصه وعساكره وسار بهم حتى وصل ظاهر القاهرة، وكان نائبه بالديار المصرية الأمير عز الدين أيبك الأفرم، وهو بقلعة الجبل والعساكر محدقة بها، فتقدم الملك السعيد بمن معه لقتال العساكر، وكان الذي بقي مع السلطان الملك السعيد جماعة قليلة بالنسبة إلى من يقاتلونه، ووقع المصاف بينهم وتقاتلوا فحمل الأمير سنجر الحلبي من جهة الملك السعيد وشق الأطلاب ودخل إلى قلعة الجبل بعد أن قتل من الفريقين نفر يسير، وملك القلعة وشال علم السلطان، ثم نزل وفتح للملك السعيد طريقاً وطلع به إلى القلعة.

وأما سنقر الأشقر فإنه بقي في المطرية وحده وصار لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. ولما طلع السلطان إليها أحاطت العساكر بها وحاصروها وقاتلوا من بها قتالاً شديداً وضايقوها وقطعوا الماء الذي يطلع إليها وزحفوا عليها فجدوا في القتال، ورأى الملك السعيد تخلي من كان معه وتخاذل من بقي من الخاصكية، وعلم أنه لا طاقة له بهم، وكان المشار إليه في العسكر المخامر الأمير سيف الدين قلاوون الألفي، وهو حمو الملك السعيد، فإن الملك السعيد كان تزوج ابنته قبل ذلك بمدة، فجرت المراسلات بينهم وكثر الكلام وترددت الرسل غير مرة، حتى استقر الحال على أن الملك السعيد يخلع من السلطنة وينضبون في السلطنة أخاه بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس، ويقطعون الملك السعيد هذا وأخاه نجم الدين خضرا الكرك والشوبك وأعمالهما، فسير الملك السعيد الأمير علم الدين سنجر الحلبي والقاضي تاج الدين محمد بن الأثير إلى الأمير سيف الدين قلاوون وأعيان الأمراء ليستوثق لنفسه منهم، فحلفوا على الوفاء بما التزموه من إعطاء الكرك والشوبك له ولأخيه. وخرج من قلعة الجبل يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور ونزل إلى دار العدل التي على باب القلعة، وكانت مركز الأمير قلاوون في حال المصاف والقتال، وكان الحصار ثلاثة أيام بيوم القدوم لا غير.

ولما حضر الملك السعيد إلى عند قلاوون أحضر أعيان القضاة والأمراء والمفتين وخلعوا الملك السعيد هذا من السلطنة وسلطنوا مكانه أخاه بدر الدين سلامش ولقبوه بالملك العادل سلامش، وعمره يومئذ سبع سنين، وجعلوا أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي. واستمرت بنت قلاوون عند زوجها الملك السعيد المذكور إلى ما سيأتي ذكره.

ثم أخذ قلاوون في تحليف الأمراء للملك العادل فحلفوا بأجمعهم على العادة، وضربت السكة في أحد الوجهين: اسم الملك العادل والآخر اسم قلاوون، وخطب لهما أيضا معاً على المنابر، واستمر الأمر على ذلك، وتصرف قلاوون في المملكة والخزائن، وعامله الأمراء والجيوش بما يعاملون به السلطان. ثم عمل قلاوون بخلع الملك السعيد محضراً شرعياً ووضع الأمراء خطوطهم عليه وشهادتهم فيه، وكتب فيه المفتون والقضاة وأعطوا الملك السعيد الكرك وعملها، وأخاه نجم الدين خضراً الشوبك وعملها. وخرج الملك السعيد من قلعة الجبل إلى بركة الحجاج متوجهاً إلى الكرك في يوم الاثنين ثامن عشر شهر ربيع الآخر المذكور من سنة ثماني وسبعين - أعني ثاني يوم من خلعه - ومعه جماعة من العسكر صورة ترسيم، ومقدمهم الأمير سيف الدين بيدغان الركني، ثم بدا لهم أن يرجعوا به إلى القلعة فعادوا إليها في نهار الاثنين لأمر أرادوه وقرروه معه ثم أمروه بالتوجه، فخرج وسافر ليلة الثلاثاء إلى الكرك بمن معه فوصلها يوم الاثنين خامس وعشرين شهر ربيع الآخر المذكور، وتسلم أخوه نجم الدين خضر الشوبك، وكان الأمير بيدغان ومن معه قد فارقوا الملك السعيد من غزة ورجعوا إلى الديار المصرية، وأقام الملك السعيد بالكرك وزال ملكه، فكانت مدة حكمه وسلطنته بعد موت أبيه الملك الظاهر بيبرس إلى يوم خلعه سنتين وشهرين وخمسة عشر يوماً، واستمر بالكرك مع مماليكه وعياله، وقصده الناس والأجناد، فصار ينعم على من يقصده، واستكثر من استخدام المماليك.

ثم رسم الأمير سيف الدين قلاوون بانتقال الملك خضر من الشوبك إلى عند أخيه الملك السعيد بالكرك، وتسلم نواب قلاوون الشوبك، ودام الملك السعيد على ذلك حتى خلع سلامش من السلطنة وتسلطن قلاوون حسب ما يأتي ذكر ذلك كله في ترجمتهما.

فلما تسلطن قلاوون بلغه عن الملك السعيد أنه استكثر من استخدام المماليك وأنه ينعم على من يقصده فاستوحش منه، وتأثر من ذلك. فمرض الملك السعيد بعد ذلك بمدة يسيرة وتوفي، رحمه الله تعالى، في يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة سنة ثمان وسبعين وستمائة بالكرك، ودفن من يومه بأرض مؤتة عند جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، ثم نقل بعد ذلك إلى دمشق في سنة ثمانين وستمائة فدفن إلى جنب والده الملك الظاهر بيبرس بالتربة التي أنشأها قبالة المدرسة العادلية السيفية، وألحده

قاضي القضاة عز الدين محمد بن الصائغ. وكانت مدة إقامته بالكرك بعد أن خلع من السلطنة ستة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

ووجد الناس عليه كثيراً وعمل عزاؤه بسائر البلاد، وخرجت الخوندات حاسرات بجواريهن يلطمن بالملاهي والدفوف أياماً عديدة، ويسمعن الملك المنصور قلاوون الكلام الخشن وأنواع السب وهو لا يتكلم، فإنه نسب إليه أنه اغتاله بالسم لما سمع كثرة استخدامه للمماليك وغيرهم.

وصلي على الملك السعيد بدمشق صلاة الغائب يوم الجمعة رابع وعشرين ذي الحجة. ثم أنعم الملك المنصور بالكرك بعد موته على أخيه خضر ولقب بالملك المسعود خضر.

وكان الملك السعيد، رحمه الله، سلطاناً جليلاً كريماً سخي الكف، كثير العدل في الرعية، محسناً للخاص والعام، لا يرد سائلاً ولا يخيب آملاً، وكان متواضعاً بشوشاً، حسن الأخلاق ليس في طبعه عسف ولا ظلم، كثير الشفقة والرحمة على الناس، لين الكلمة محباً لفعل الخير، قليل الحجاب على الناس، يتصدى للأحكام بنفسه، وكان لا يميل لسفك الدماء مع قدرته على ذلك، وكان يوم دخوله إلى قلعة الجبل ولد له مولود ذكر من بعض حظاياه في شهر ربيع الآخر من هذه السنة. وكان يحب التجمل ويكثر من الإنعام على الناس ويخلع حتى في الأعزية. ولما مات خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركة خان بن دولة خان، وكان من أعيان الأمراء بالديار المصرية في الدولة الظاهرية، وكان حصل له عند إفضاء الملك لابن أخته الملك السعيد تقدم كبير ومكانة عالية، وتوجه معه إلى دمشق فمرض بها إلى أن توفي ليلة الخميس تاسع شهر ربيع الأول، ودفن بسفح قاسيون بالتربة المجاورة لرباط الملك الناصر صلاح الدين يوسف، ومقدار عمره خمسون سنة، عمل له عدة أعزية وقرئ بالتربة عدة ختمات، حضر إحداها ابن أخته الملك السعيد، ومد خوان فيه من عظيم فاخر الأطعمة والحلاوات، فأكل من حضر، وخلع الملك السعيد على الدولة ومماليكه وخواصه وهو في العزاء فلبسوا الخلع وقبلوا الأرض، وكانت الخلع خارجة عن الحد. فهذا أيضاً مما يدل على كرمه ووسع نفسه وكثرة إنعامه حتى في الأعزية، رحمه الله تعالى. انتهت ترجمة الملك السعيد.

* * *

سلطنة الملك العادل سلامش

هو السلطان الملك العادل بدر الدين سلامش ابن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري الصالحي النجمي السادس من ملوك الترك بمصر. تسلطن بعد خلع أخيه الملك السعيد أبي المعالي ناصر الدين محمد بركة خان باتفاق الأمراء على سلطنته، وجلس على سرير الملك في يوم الأحد سابع عشر شهر ربيع الأخر سنة ثمان وسبعين وستمائة وعمره يوم تسلطن سبع سنين. وجعلوا أتابكه ومدبر مملكته الأمير سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي. وضربت السكة على أحد الوجهين باسم الملك العادل سلامش هذا، وعلى الوجه الآخر اسم الأمير قلاوون، وخطب لهما أيضاً على المنابر. واستمر الأمر على ذلك وصار الأمير قلاوون هو المتصرف في الممالك والعساكر والخزائن، ولم يكن لسلامش في السلطنة مع قلاوون إلا مجرد الاسم فقط. وأخذ قلاوون في الأمر لنفسه. فلما استقام له الأمر دخل إليه الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ووافقه على السلطنة وأخفى ذلك لكونه كأن خشداشه، وكان الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام عاد إلى الشام بمن معه بعد خلع الملك السعيد، فوصل إلى دمشق يوم الأحد مستهل جمادى الأولى، فخرج لتلقيه من كان تخلف بدمشق من الأمراء والجند، والمقدم عليهم الأمير جمال الدين آقوش الشمسي. وكان قلاوون قد كاتب آقوش في أمر أيدمر هذا والقبض عليه، فلما وصلوا إلى مصلى العيد بقصر حجاج احتاط الأمير جمال الدين آقوش الشمسي والأمراء الذين معه على الأمير أيدمر نائب الشام وأخذوه بينهم، وفرقوا بينه وبين عسكره الذين حضروا معه من الديار المصرية، ودخلوا إلى دمشق من باب الجابية، ورسموا عليه بدار في دمشق، ثم نقلوه إلى قلعة دمشق واعتقلوه بها. وكان الملك السعيد قبل أن يخرج من الشام سلم قلعة دمشق للأمير علم الدين سنجر الدويداري وجعله النائب عنه أيضاً في البلد. ثم أرسل قلاوون جمال الدين آقوش الباخلي وشمس الدين سنقر جاه الكنجي إلى البلاد الشامية وعلى يدهم نسخة الأيمان بالصورة التي استقر الحال عليها بمصر، وأحضروا الأمراء والجند والقضاة والعلماء وأكابر البلد للحلف، وكان معهم نسخة بالمكتوب المتضمن خلع الملك السعيد وتولية الملك العادل سلامش، فقرئ ذلك على الناس وحلفوا واستمر الحلف أياماً. ثم إن الأمير قلاوون ولى خشداشه الذي اتفق معه على السلطنة، وهو الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، نيابة الشام وأعمالها فتوجه سنقر الأشقر إليها، ودخلها يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعين المذكورة بتحمل زائد، فكان موكبه يضاهي موكب السلطان، وعند وصوله إلى دمشق أمر الأمير علم الدين سنجر الدويداري بالنزول من قلعة دمشق فنزل في الحال. وصفا الوقت للأمير قلاوون بمسك أيدمر نائب الشام، وبخروج سنقر الأشقر

من الديار المصرية وانبرم أمره مع الأمراء والخاصكية، واتفقوا معه على خلع الملك العادل سلامش من السلطنة وتوليته إياها. فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشرين شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة اجتمع الأمراء والقضاة والأعيان بقلعة الجبل وخلعوا الملك العادل بدر الدين سلامش من السلطنة لصغر سنه، وتسلطن عوضه أتابكه الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي، ونعت بالملك المنصور، على أنه كان هو المتصرف في المملكة منذ خلع الملك السعيد وتسلطن الملك العادل سلامش، ولم يكن لسلامش في أيام سلطنته غير الاسم، وقلاوون هو الكل، وكان عم سلطنة قلاوون قبل سلامش أنه خاف ثورة المماليك الظاهرية عليه، فإنهم كانوا يوم ذاك هم معظم عسكر الديار المصرية، وأيضاً كانت بعض القلاع في يد نواب الملك السعيد فلما مهد أمره تسلطن. ولما بلغ سنقر الأشقر سلطنة قلاوون داخله الطمع في الملك وأظهر العصيان، على ما سيأتي ذكره في ترجمة الملك المنصور قلاوون إن شاء الله تعالى.

وكانت مدة سلطنة الملك العادل بدر الدين سلامش على مصر ثلاثة أشهر تنقص ستة أيام. ولزم الملك العادل سلامش داره عند أمه إلى أن أرسله الملك المنصور قلاوون إلى الكرك، فأقام به عند أخيه الملك خضر مدة، ثم رسم الملك المنصور بإحضاره إلى القاهرة فحضر إليها، وبقي خاملا إلى أن مات الملك المنصور قلاوون وتسلطن من بعده ولده الملك الأشرف خليل بن قلاوون، جهزه وأخاه الملك خضراً وأهله إلى مدينة اسطنبول بلاد الأشكري، فأقام هناك إلى أن توفي بها في سنة تسعين وستمائة. وكان شاباً مليحاً جميلاً تام الشكل رشيق القد طويل الشعر ذا حياء ووقار وعقل تام. مات وله من العمر قريب من عشرين سنة، قيل: إنه كان أحسن أهل زمانه، وبه افتتن جماعة من الناس، وشبب به الشعراء وصار يضرب به المثل في الحسن حتى يقول القائل: ثغر سلامشي. انتهت ترجمة الملك العادل سلامش، رحمه الله.

* * *

سلطنة الملك المنصور سيف الدين قلاوون على مصر

السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو المعالي وأبو الفتح قلاوون بن عبد الله الألفي التركي الصالحي النجمي، السابع من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع ممن مسه الرق.

ملك الديار المصرية بعد خلع الملك السعيد وصار مدبر مملكة الملك العادل بدر الدين سلامش إلى أن خلع سلامش وتسلطن الملك المنصور قلاوون هذا من بعده في حادي عشرين، وقيل عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وجلس على سرير الملك بأبهة السلطنة وشعار الملك وتم أمره.

* * *

سلطنة الملك الأشرف خليل

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه في يوم الأحد سابع ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. وكان والده قلاوون قد سلطنه في حياته بعد موت أخيه الملك الصالح علي بن قلاوون في سنة سبع وثمانين وستمائة، والمعتد به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه. وجدد له الأمراء والجند الحلف في يوم الاثنين ثامن من ذى القعدة المذكور. وطلب من القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر تقليده، فأخرجه إليه مكتوباً بغير علامة الملك المنصور، وكان ابن عبد الظاهر قد قدمه إليه ليعلم عليه فلم يرض، وتقدم طلب الأشرف وتكرر، وابن عبد الظاهر يقدمه إلى الملك المنصور، والمنصور يمتنع إلى أن قال له: " يا فتح الدين، أنا ما أولي خليلاً على المسلمين! " ومعنى ذلك أن الملك المنصور قلاوون كان قد ندم على توليته السلطنة من بعده. فلما رأى الأشرف التقليد بلا علامة، قال: " لا فتح الدين، السلطان امتنع أن يعطيني، وقد أعطاني الله! " ورمى التقليد من يده وتم أمره ورتب أمور الديار المصرية، وكتب بسلطنته إلى الأقطار، وأرسل الخلع إلى النواب بالبلاد الشامية.

وهو السلطان الثامن من ملوك الترك وأولاهم.

ثم خلع على أرباب وظائفه بمصر والذين خلع عليهم من الأعيان: الأمير بدر الدين بيدرا المنصوري نائب السلطنة بالديار المصرية ووزيره ومدبر مملكته شمس الدين محمد ابن السلعوس الدمشقي، وهو في الحجاز الشريف؛ وعلى بقية أرباب وظائفه على العادة والنواب بالبلاد الشامية يوم ذاك فكان نائبه بدمشق وما أضيف إليها من الشام الأمير حسام الدين لاجين المنصوري؛ ونائب السلطنة بالممالك الحلبية وما أضيف إليها الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري؛ ونائب الفتوحات الساحلية والأعمال الطرابلسية والقلاع الإسماعيلية الأمير سيف الدين بلبان السلحدار المعروف بالطباخي ونائبه بالكرك والشوبك وما أضيف إلى ذلك الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المنصوري، صاحب التاريخ المعروف " بتاريخ بيبرس الدوادار "؛ وصاحب حماة والمعرة الملك المظفر تقي الدين محمود ابن الملك المنصور محمد الأيوبي. والذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكة المشرفة الشريف نجم الدين أبو نمي محمد بن إدريس بن علي بن قتادة الحسني، وصاحب اليمن الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخلع والتقليد. انتهى.

ولما رسخت قدم الملك الأشرف هذا في الملك أخذ وأعطى وأمر ونهى، وفرق

الأموال وقبض على جماعة من حواشي والده، وصادرهم على ما يأتي ذكره. ولما استهلت سنة تسعين وستمائة أخذ الملك الأشرف في التجهز للسفر للبلاد الشامية، وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى البلاد الشامية وجمع العساكر وعمل آلات الحصار، وجمع الصناع إلى أن تم أمره خرج بعساكره من الديار المصرية في ثالث شهر ربيع الأول من سنة تسعين المذكورة، وسار حتى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ويوافقه خامس نيسان، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة. وكان المطوعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجية خمسة عشر منجنيقاً، منها ما يرمي بقنطار دمشقي وأكبر، ومنها دونه. وأما المجانيق الشيطانية وغيرها فكثيرة، ونقب عدة نقوب وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيراناً عظيمة لم ير مثلها فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم وعظم ما دهمهم ولم يزل الحصار عليها والجد في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمال في كل يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

فلما كان سحر يوم الجمعة سابع جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحس عظيم مزعج، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هرب الفرنج وملكت المدينة بالسيف، ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلا القليل، ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها، وعصى الديوية والإسبتار واستتر الأرمن في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد فحصروا فيها.

فلما كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الديوية فطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وسير لهم صنجقاً، فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب، فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلما صاروا عندهم تعرض بعض الجند والعوام للنهب، ومدوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، ورموا الصنجق وتمسكوا بالعصيان وعاد الحصار عليهم. وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوري، وتم القتال على برج الديوية ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى

طلب الديوية ومن بقي في الأبراج الأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على أن يتوجهوا حيث شاؤوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق الألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدهليز النساء والصبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقبغا المنصوري أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم أذهابه، فتزايد الحنق عليهم وأخذ الجند وغيرهم من السبي والمكاسب ما لا يحصى.

ولما علم من بقي منهم ما جرى على إخوانهم تمسكوا بالعصيان، وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشد قتال، واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة. ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخر بعكا، وأنزل من فيه بالأمان، وكان قد غلق من سائر جهاته. فلما نزلوا منه وحولوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرجين ومضن قصد النهب فهلكوا عن آخرهم. ثم بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية وضرب رقاب الرجال أجمعين وكانوا خلائق كثيرة. والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها؛ فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة في الساعة الثالثة من النهار، وأمنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدراً، وقدر الله تعالى أن المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جمادى الأولى، وأمنهم السلطان ثم قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم.

وكان السلطان عند منازلته عكا قد جهز جماعة من الجند مقدمهم الأمير علم الدين سنجر الصوابي الجاشنكير إلى صور لحفظ الطرق وتعرف الأخبار، وأمره بمضايقة صور. فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلمها. وصور من أجل الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكاناً وأمنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرعب حتى سلموها من غير قتال ولا منازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتة. وعندما تسلمها جهز إليها من أخربها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من رخامها وأنقاضها شيء كثير. ولما تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوي عزم الملك الأشرف على

أخذ غيرها.

ولما كان الملك الأشرف محاصراً لعكا استدعى الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائب الشام، وهو الذي تسلطن بعد ذلك حسب ما يأتي ذكره، والأمير ركن الدين بيبرس المعروف بطقصو في ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأولى إلى المخيم وأمسكهما وقيدهما، وجهزهما في بكره نهار الاثنين إلى قلعة صفد، ومنها إلى قلعة الجبل. وكان تقدم قبل ذلك بستة أيام مسك الأمير سنجر المعروف بأبي خرص وجهزه إلى الديار المصرية محتاطاً عليه. ثم استقر الملك الأشرف بالأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري في نيابة الشام عوضاً عن الأمير لاجين المذكور. وعندما أمسك الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قلق شديد وخشوا من حدوث أمر يكون سبباً لتنفيس الخناق عن أهل عكا، فكفى الله تعالى ذلك.

ثم أمسك الأشرف الأمير علم الدين أيدغدي الإلدكزي نائب صفد وما معها لأمر نقمه عليه وصادره، وجعل مكانه الأمير علاء الدين أيدكين الصالحي العمادي، وأضاف إليه مع ولاية صفد عكا وما استجد من الفتوحات الأشرفية. ثم لما فرغ الأشرف من مصادرة أيدكين المذكور ولاه بر صفد عوضاً عن علم الدين سنجر الصوابي ثم استدعى الملك الأشرف الأمير بيبرس الدوادار المنصوري الخطائي المؤرخ نائب الكرك وعزله، وولى عوضه الأمير آقوش الأشرفي.

ثم رحل الملك الأشرف عن عكا في بكرة نهار الاثنين خامس جمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الاثنين ثاني عشره بعد أن زينت له دمشق غاية الزينة، وعملت القباب بالشوارع من قريب المصلى إلى الباب الجديد، وحصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف، ودخل وبين يديه الأسرى من الفرنج تحتهم الخيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنج المنكسة، وفيهم من حمل رمحاً علمه من رؤوس قتلى الفرنج، فكان لقدومه يوم عظيم. وأقام الأشرف بدمشق إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وعاد إلى الديار المصرية فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضاً أهل مصر لملاقاته احتفالاً عظيماً أضعاف احتفال أهل دمشق وعند دخوله إلى مصر أطلق رسل صاحب عكا الذين كانوا معوقين بالقاهرة.

ثم إن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي نائب الشام فتح صيدا بعد حصار كبير بالأمان في يوم السبت خامس عشر شهر رجب. ولما أخذت هذه البلاد في هذه السنة أمر السلطان أن تخرب قلعة جبيل وأسوارها بحيث يلحقها بالأرض فخربت أصلاً ثم أخذت عثليث بعد شهر.

وأما أهل أنطرطوس لما بلغهم أخذ هذه القلاع عزموا على الهرب، فجرد الأمير

سيف الدين بلبان الطباخي عسكراً، فلما أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهربوا إلى جزيرة أرواد، وهي بالقرب منها، فندب إليها السعدي بما كان أحضره من المراكب والشواني فأخلوها. وكان فتح هذه المدن الست في ستة شهور.

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سنجر الدوادار، فقبض عليه في شهر رمضان، وجهز إلى الديار المصرية بعد أن أحيط على جميع موجوده؛ ثم أفرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممن كان قبض عليهم وحبسهم، وهم: الأمير لاجين المنصوري الذي تسلطن بعد ذلك، وبيبرس طقصو الناصري، وسنقر الأشقر الصالحي، وبدر الدين بيسري الشمسي، وسنقر الطويل المنصوري، وبدر الدين خضر بن جودي القيمري وفي شهر رمضان سنة تسعين وستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سنجر المنصوري المعروف بأرجواش خبزاً وخلع عليه وأعيد إلى ولاية قلعة دمشق ثم طلب الملك الأشرف قاضي القدس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة إلى الديار المصرية وولاه قضاءها بعد عزل قاضي القضاة تقي الدين ابن بنت الأعز.

واستمر الملك الأشرف بالديار المصرية إلى أن تجهز وخرج منها قاصداً البلاد الشامية في يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من مدة إحدى وتسعين وستمائة، وسار حتى دخل دمشق في يوم السبت سادس جمادى الأولى.

وفي ثامن جمادى الأولى أحضر السلطان الأموال وأنفق في جميع العساكر المصرية والشامية.

ووصل الملك المظفر تقي الدين صاحب حماة لتلقي الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان في إكرامه، واستعرض الجيوش عليه وأمر بتسفيرهم قدام الملك المظفر المذكور.

ثم توجه الملك الأشرف من دمشق بجميع العساكر قاصداً حلب، فوصلها في ثامن وعشرين جمادى الأولى ثم خرج منها ونزل على قلعة الروم بعساكره وحاصرها إلى أن افتتحها بالسيف عنوة في يوم السبت حادي عشر شهر رجب، وكتب البشائر إلى الأقطار بأخذها ثم عاد السلطان إلى دمشق وترك بقلعة الروم الشجاعي وعساكر الشام ليعمروا ما انهدم منها في الحصار. وكان دخول السلطان إلى دمشق في يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزل الأمير قرا سنقر المنصوري عن نيابة حلب بالأمير بلبان الطاخي، وولى عوضاً عن الطباخي في الفتوحات طغريل الإيغاني.

ولما كان السلطان بدمشق عمل عسكره النوروز كعادتهم بالديار المصرية، وعظم ذلك على أهل دمشق لعدم عادتهم بذلك.

وأقام السلطان بدمشق إلى مستهل شهر رجب توجه منها، وصحبته عسكر الشام والأمراء وبعض عساكر مصر. وأما الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستوراً بعودتهم إلى الديار المصرية. وسار السلطان حتى وصل إلى حمص، ثم توجه منها إلى سلمية مظهراً أنه متوجه إلى ضيافة الأمير حسام الدين مهنا بن عيسى بن مهنا أمير آل فضل، وكان خروج السلطان من دمشق في ثاني شهر رجب؛ فلما كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاجين وصحبته مهنا إلى دمشق وهو مقبوض عليه، أمسكه السلطان لما انقضت الضيافة وولى عوضه شخصاً من أولاد عمه، وهو الأمير محمد بن علي بن حذيفة. وفي بقية النهار وصل السلطان إلى دمشق، ورسم للأمير بيدرا أن يأخذ بقية العساكر ويتوجه إلى مصر، وأن يركب تحت الصناجق عوض السلطان وبقي السلطان مع خواصه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام ثم خرج من دمشق في يوم السبت ثالث عشر رجب، وعاد إلى جهة الديار المصرية في العشر الأخير من شهر رجب من سنة اثنتين وتسعين وستمائة.

ثم إن السلطان أمر الأمير عز الدين أيبك الحموي الأفرم أمير جاندار نائب الشام أن يسافر إلى الشوبك ويخرب قلعتها، فكلمه الأفرم في بقائها فانتهره، وسافر من يومه، وتوجه الأفرم إلى الشوبك وأخربها غير القلعة. وكان ذلك غاية ما يكون من الخطأ وسوء التدبير؛ وكان أخرب قبل ذلك أيضاً عدة أماكن بقلعة الجبل، وبقلعة دمشق أيضاً أخرب عدة قاعات ومباني هائلة. وأما قلاع السواحل فأخرب غالبها، وكان يقصد ذلك لمعنى يخطر بباله.

ثم في العشرين من ذي الحجة نصب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القبق، وصفة ذلك أن ينصب صار طويل ويعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضة ويجعل في القرعة طير حمام، ثم يأتي الرامي بالنشاب وهو سائق فرسه ويرمي عليه، فمن أصاب القرعة وطير الحمام خلع عليه خلعة تليق به، ثم يأخذ القرعة وكان ذلك بسبب طهور أخي الملك الأشرف، وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون، وطهور ابن أخيه الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح علاء الدين علي بن قلاوون، فاحتفل السلطان لطهورهما وعمل مهماً عظيماً. وكان الطهور في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجة. وعندما طهروهم رموا الأمراء الذهب لأجل النقوط؛ فإن كان الأمير أمير مائة فارس رمى مائة دينار، وإن كان أمير خمسين فارساً رمى خمسين ديناراً، وقس على ذلك سائر الأمراء؛ ورمى حتى مقدمو الحلقة والأجناد، فجمع من ذلك شيء كثيرة وهو آخر فرح عمله الأشرف هذا.

ثم بعد فراغ المهم بمدة يسيرة، نزل السلطان الملك الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجهاً إلى الصيد في ثاني المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة وصحبته وزيره

الصاحب شمس الدين بن السلعوس، ونائب سلطنته الأمير بدر الدين بيدرا وجميع الأمراء، فلما وصل إلى الطرانة فارقه وزيره ابن السلعوس المذكور وتوجه إلى الإسكندرية.

وأما السلطان فإنه نزل بالحمامات لأجل الصيد، وأقام إلى يوم السبت ثاني عشر المحرم، فلما كان قرب العصر وهو بأرض تروجة حضر إليه الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة ومعه جماعة كثيرة من الأمراء وكان السلطان بكرة النهار قد أمره أن يأخذ العسكر والدهليز ويمشي عوضه تحت الصاجق وأن يتقدمه، ويبقى السلطان يتصيد وحده بقية يومه ويعود العشية إلى الدهليز، فتوجه بيدرا على ذلك وأخذ السلطان الملك الأشرف يتصيد ومعه شخص واحد يقال له شهاب الدين الأشل أمير شكار، وبينما السلطان في ذلك أتاه هؤلاء: بيدرا ورفقته، فأنكر السلطان مجيئهم، وكان في وسط السلطان بند حرير وليس معه نمجة لأجل الصيد، وكان أول من ابتدره الأمير بيدرا فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده مع كتفه، فجاء الأمير حسام الدين لاجين، وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة، وقال لبيدرا: يا نحس من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته ثم ضربه على كتفه فحلها، ووقع السلطان على الأرض، جاء بعدهما الأمير بهادر رأس نوبة، وأخذ السيف ودسه في دبره وأطلعه من حلقه، وبقي يجيء واحد من الأمراء بعد واحد ويظهرون ما في أنفسهم منه؛ ثم تركوه في مكانه وانضموا على الأمير بيدرا وحلفوا له، وأخذوه تحت الصناجق وركبوا سائرين بين يديه طالبين القاهرة. وقيل في قتله وجه آخر.

وأما أمر بيدرا فإنه لما قتل السلطان بايع الأمراء بيدرا بالسلطنة ولقبوه بالملك الأوحد وبات تلك الليلة، فإن قتل الأشرف كان بين الظهر والعصر وأصبح ثاني يومه سار بيدرا بالعساكر إلى نحو الديار المصرية؛ وبينما بيدرا سائر بعساكره وإذا بغبار عظيم قد علا وملأ الجو وقرب منه، وإذا بالطلب عظيم فيه نحو ألف وخمسمائة فارس من الخاصكية الأشرفية، ومعهم الأمير زين الدين كتبغا - وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدة على ما يأتي ذكره - والأمير حسام الدين الأستادار طالبين بيدراً بدم أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور وأخذ الثأر منه ومن أصحابه، وكان ذلك بالطرانة في يوم الأحد أول النهار؛ فما كان غير ساعة إلا والتقوا، وكان بيدرا لما رآهم صف من معه من أصحابه للقتال، فصدموه الأشرفية صدمة صادقة وحملوا عليه حملة واحدة فرقوا شمله، وهرب أكثر من كان معه؛ فحينئذ أحاطوا ببيدرا وقبضوا عليه وحزوا رأسه، وقيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يحزوا رأسه، كما قطعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف؛ ولما حزوا رأسه حملوه على رمح وسيروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى وصلوا بر الجيزة، فلم

يمكنهم الأمير علم الدين سنجر الشجاعي من التعدية إلى بر مصر، لأن السلطان الملك الأشرف كان قد تركه في القلعة عند سفره نائب السلطنة بها، فلم يلتفتوا إليه وأرادوا التعدية؛ فأمر الشجاعي المراكب والشواني فعدت إلى بر القاهرة، وبقي العسكر والأمراء على جانب البحر مقيمين حتى مشت بينهم الرسل على أن يمكنهم الشجاعي من العبور حتى يقيموا عوض السلطان أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو صغير، تسكيناً لما وقع وإخماداً للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل في رابع عشر المحرم من سنة ثلاث وتسعين وستمائة المذكورة، وأن يكون نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا، والوزير الأمير علم الدين سنجر الشجاعي وحسام الدين أستاذ الدار أتابك العساكر.

قلت: وقريب مما وقع لبيدرا هذا وأصحابه أوائل ألفاظ المقالة الخامسة عشرة من " كتاب أطباق الذهب " للشيخ الإمام الرباني شرف الدين عبد المؤمن الأصفهاني المعروف بشوروة، وهي قوله:

" من الناس من يستطيب ركوب الأخطار، وورود التيار، ولحوق العار والشنار، ويستحب وقد النار، وعقد الزنار لأجل الدينار؛ ويستلذ سف الرماد، ونقل السماد، وطي البلاد، لأجل الأولاد؛ ويصبر على نسف الجبال، ونتف السبال لشهوة المال؛ ويبدل الإيمان بالكفر، ويحفر الجبال بالظفر، للدنانير الصفر؛ ويلج ماضغي الأسود، للمراهم السود؛ لا يكره صداعاً، إذا نال كراعاً ويلقى النوائب بقلب صابر، في هوى الشيخ أبي جابر ويأبى العز طبيعة، ويرى الذل شريعة؛ وإن رزق لعيعة، يراها صنيعة، يؤم راسه وترض أضراسه؛ وإن أعطي درهماً، يراه مرهماً.

ومن الناس من يختار العفاف، ويعلف الإسفاف يدع الطعام طاوياً، ويذر الشراب صادياً، ويرى المال رائحاً غادياً؛ يترك الدنيا لطلابها، ويطرح الجيفة لكلابها؛ لا يسترزق لئام الناس، ويقنع بالخبز الناس؛ يكره المن والأذى، ويعاف الماء على القذى؛ إن أثرى جعل موجوده معدوماً، وإن أقوى حسب قفاره مأدوماً جوف خال، وثوب بال، ومجد عال ووجه مصفر، عليه قرة وثوب أسمال، وراءه عز وجمال؛ وعقب مشقوق، وذيل مفتوق، يجره فتى مغبوق شعر:

لله تحت قباب العز طائفة ::: أخفاهم في رداء الفقر إجلالا
هم السلاطين في أطمار مسكنة ::: استعبدوا من ملوك الأرض أقيالا
غبر ملابسهم شم معاطسهم ::: جروا على فلك الخضراء أذيالا
هذي المناقب لا ثوبان من عدن ::: خيطاً قميصاً فصارا بعد أسمالا
هذي المكارم لا قعبان من لبن ::: شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

هم الذين جبلوا برآء من التكلف، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف انتهى ما ذكرناه من المقالة الخامسة عشرة وإن كنا خرجنا عن المقصود من كون غالبها من غير ما نحن فيه، غير أنني لم أذكرها بتمامها هنا إلا لغرابتها. انتهى.

ولما مات الملك الأشرف خليل هذا، وتم أمر أخيه الملك الناصر محمد في السلطنة، استقر الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة، وسنجر الشجاعي مدبر المملكة وأتابك العساكر؛ وبقية الأمور تأتي في أول سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون بأوضح من هذا.

ولما قتل الملك الأشرف خليل المذكور بقي ملقى إلى أن خرج والي تروجة من بعد قتله بيومين، ومعه أهل تروجة، وأخذوه وغسلوه وكفنوه وجعلوه في تابوت في دار الوالي إلى أن سيروا من القاهرة الأمير سعد الدين كوجبا الناصري إلى مصرعه، فأخذه في تابوت ووصل به إلى القاهرة سحر يوم الخميس ثاني عشرين صفر، فدفن في تربة والدته بجوار أخيه الملك الصالح علي بن قلاوون - رحمهما الله تعالى - ورثاه ابن حبيب بقصيدة، أولها: الكامل،

تباً لأقوام بمالك رقهم ::: فتكوا وما رقوا لحالة مترف
وافوه غدراً ثم صالوا جملة ::: بالمشرفي على المليك الأشرف
وافى شهيداً نحو روضات الرضا ::: يختال بين مزهر ومزخرف
ومضى يقول لقاتليه تربصوا ::: بيني وبينكم عراض الموقف

وقال النويري في تاريخه: كان ملكاً مهيباً شجاعاً مقداماً جسوراً جواداً كريماً بالمال، أنفق على الجيش في هذه الثلاث سنين ثلاث نفقات: الأولى في أول جلوسه في السلطنة في مال طرنطاي والثانية عند توجهه إلى عكا، والثالثة عند توجهه إلى قلعة الروم انتهى كلام النويري باختصار.

وكانت مدة مملكة الأشرف هذا على مصر ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام، لأن وفاة والده كانت في يوم السبت سادس ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. وجلس الأشرف المذكور على تخت الملك في صبيحة دفن والده في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة. وقتل في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. انتهى.

وقال الشيخ قطب الدين اليونيني: ومات يعني الملك الأشرف شهيداً مظلوماً، فإن جميع من وافق على قتله كان قد أحسن إليه ومناه وأعطاه وخوله، وأعطاهم ضياعاً بالشام؛ ولم تتجدد في زمانه مظلمة، ولا استجد ضمان مكس، وكان يحب الشأم وأهله، وكذلك أهل الشأم كانوا يحبونه - رحمه الله تعالى وعفا عنه -.

انتهت ترجمة الملك الأشرف خليل.

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي النجمي الألفي سلطان الديار المصرية وابن سلطانها؛ مولده بالقاهرة في سنة أربع وثمانين وستمائة بقلعة الجبل ووالده الملك المنصور قلاوون يحاصر حصن المرقب؛ وجلس على تخت الملك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون في يوم الاثنين رابع عشر المحرم، وقيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرم، من سنة ثلاث وتسعين وستمائة، لأن الملك الأشرف قتل بتروجة في يوم السبت ثاني عشر المحرم وقتل قاتله الأمير بدر الدين بيدرا في يوم الأحد ثالث عشر المحرم، ثم اتفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عوضاً عن أخيه، فتم له ذلك. فتكون سلطنته في أحد اليومين المذكورين تخميناً لما وقع في ذلك من الاختلاف بين المؤرخين. انتهى.

والملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك الترك بالديار المصرية؛ ولما استقر في السلطنة رتبوا الأمير زين الدين كتبغا المنصوري نائب السلطنة بالديار المصرية عوضاً عن بيدرا، والأمير علم الدين سنجر الشجاعي وزيراً ومدبراً للمملكة وأتابك العساكر؛ ثم قبضوا على جماعة من قتلة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدم ذكره، وتم ذلك ودام إلى العشرين من صفر. فبلغ الأمير زين الدين كتبغا أن الأمير علم الدين سنجر الشجاعي يريد الوثوب عليه وقبضه وقتله. وكان الذي أخبره بذلك سيف الدين قنق التتاري، وأعلمه بما في باطن الشجاعي؛ والسبب في اطلاعه على ما في باطن الشجاعي أن هذا قنق هاجر من بلاد التتار في زمن الملك الظاهر بيبرس، وأقام بمصر وأقطع في الحلقة فرزقه الله تعالى اثني عشر ولداً كلهم ذكور، منهم: ستة أولاد في خدمة الملك الأشرف، وخمسة في خدمة الشجاعي، وواحد منهم صغير وجميع أولاده شباب ملاح من أجمل الناس صورة. وكان لقنق هذا منزلة عظيمة عند الشجاي وكلمته مسموعة، وشفاعته مقبولة، وله طلاع على أمور الدولة بسبب أولاده؛ فعلم بما دبره الشجاعي، فحملته الجنسية حتى أعلم الأمير كتبغا على ما في باطن الشجاعي؛ فاحترز كتبغا على نفسه وأعلم الأمراء بالخبر، وكان الأمراء كارهين الشجاعي.

فلما كان يوم الخميس ثاني وعشرين صفر ركب الأمير كتبغا إلى سوق الخيل فنزل إليه من القلعة أمير يقال له علم الدين سنجر، البندقداري وقال له من قبل الشجاعي: أين حسام الدين لاجين المنصوري؟ أحضره الساعة؛ فقال له كتبغا: ما هو عندي؛ وكان لاجين من يوم قتل الأشرف قد اختفى، والمماليك الأشرفية قد أعياهم أمره من

كثرة التفتيش عليه، فقال له البندقداري: بلى، لاجين عندك، ثم مد يده إلى سيفه ليضربه به، فجذب سيف الدين بلبان الأزرق مملوك كتبغا سيفه وعلا به البندقداري من ورائه وضربه ضربة حل بها كتفه ويده، ثم إنهم تكاثروا عليه وأنزلوه عن فرسه وذبحوه، وهم مماليك كتبغا، وذلك في وسط سوق الخيل؛ ومال غالب العسكر من الأمراء والمقدمين وأجناد الحلقة والتتار والأكراد إلى كتبغا وانضموا عليه، ومالت البرجية وبعض الخاصكية إلى سنجر الشجاعي، لأن الشجاعي كان أنفق فيهم في الباطن في يوم واحد ثمانين ألف دينار، واتفق معهم أيضاً أن كل من جاء برأس أمير كان له إقطاعه؛ وكان الاتفاق معهم أنه في يوم الخميس وقت الموكب لما يطلع الأمير كتبغا إلى القلعة ويمدوا السماط يمسك هو ومن اتفق معه من الأمراء يقبضون عليهم. فآستعجل البندقداري ونزل إلى سوق الخيل وفعل ما ذكرناه.

ولما وقع ذلك تحقق الأمراء صحة ما نقل إليهم الأمير زين الدين كتبغا عن الشجاعي، فاجتمع في الحال الأمراء عند كتبغا بسوق الخيل وركبت التتار جميعهم وجماعة من الشهر زورية والأكراد وجماعة من الحلقة كراهية منهم في الشجاعي، وخرج الشجاعي بمن معه إلى باب القلعة، فإن إقامته كانت بالقلعة، وأمر بضرب الكوسات فضربت، وبقي يطلب أن يطلع إليه أحد من الأمراء والمقدمين فلم يجبه أحد؛ وكان قد أخرج صحبته الذهب في الصرر وبقي كل من جاء إليه يعطيه صرة؛ فلم يجئ إليه إلا أناس قليلون ما لهم مرتبة. وشرع كتبغا ومن معه في حصار القلعة وقطعوا عنها الماء وبقوا ذلك اليوم محاصرين. فلما كان ثاني يوم نزلت البرجية من القلعة على حمية وتلاقوا مع كتبغا وعساكره وصدموه صدمة كسروه فيها كسرة شنيعة وهزموه إلى بئر البيضاء، وتوجه كتبغا إلى جهة بلبيس؛ فلما سمعوا باقي الأمراء بذلك ركب الأمير بدر الدين بيسري المنصوري والأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح بقية العساكر المصرية، وتوجهت الجميع إلى نصرة الأمير كتبغا وأصحابه، وقاتلوا المماليك البرجية حتى كسروهم وردوهم إلى أن أدخلوهم إلى قلعة الجبل؛ ثم جدوا في حصار القلعة ومن فيها، وعاد الأمير كتبغا وقد قوي عضده بخشداشيته والأمراء؛ ودام الحصار على القلعة إلى أن طلعت الست خوند والدة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أعلى السور وكلمتهم بأن قالت لهم: أيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا: ما لنا غرض إلا مسك الشجاعي وإخماد الفتنة، ونحن لو بقيت بنت عمياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاوون كنا مماليكها لا سيما وولده الناصر محمد حاضر وفيه كفاية فلما علمت ذلك رجعت واتفقت مع الأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، وغلقوا باب القلة من القلعة وهي التي عليها المعتمد، وبقي الشجاعي بداره بالقلعة محصوراً.

فلما رآه أصحابه أنه في أنحس حال شرعوا في النزول إلى عند الأمير كتبغا، فبقي جمع الشجاعي يقل وجمع كتبغا يكثر إلى يوم السبت رابع وعشرين صفر ضجر الشجاعي وطلب الأمان فلم يوافقوه الأمراء؛ وطلع وقت صلاة الظهر بعض الأمراء وجماعة من الخاصكية وفيهم آقوش المنصوري إلى عند الشجاعي يطلبونه إلى عند السلطان وإلى والدته في صورة أنهم يريدون يستشيرونه فيما يعملون، فمشى معهم قليلاً وتكاثروا عليه المماليك وجاء أقوش من ورائه وضربه بالسيف ضربة قطع بها يده، ثم بادره بضربة ثانية أبرى بها رأسه عن جسده، وأخذوا رأسه في الحال ورفعوه على سور القلعة ثم عادوا ونزلوا به إلى كتبغا ودقوا البشائر وفتحوا باب القلة، وأخذوا رأس الشجاعي وجعلوه على رمح وأعطوه للمشاعلية فجبوا عليه مصر والقاهرة، فحصل المشاعلية مالاً كثيراً لبغض الناس قاطبة في الشجاعي؛ فقيل: إنهم كانوا يأخذون الرأس من المشاعلية ويدخلونه بيتهم فتضربه النسوة بالمداسات لما في نفوسهم منه وسبب ذلك ما كان اشتمل عليه من الظلم ومصادراته للعالم وتنوعه في الظلم والعسف حسب ما يأتي ذكره في الوفيات بأوسع من هذا وأغلقت القاهرة خمسة أيام إلى أن طلع كتبغا إلى القلعة في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر ودقت البشائر وفتحت الأبواب وجددت الأيمان والعهود للملك الناصر محمد بن قلاوون وأن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة.

ثم استهلت سنة أربع وتسعين وستمائة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد وسلطان مصر والشام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومدبر مملكته الأمير كتبغا المنصوري.

ولما كان عاشر المحرم ثار جماعة من المماليك الأشرفية خليل في الليل بمصر والقاهرة وعملوا عملاً قبيحاً وفتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حريق باب السعادة، وأخذوا خيل السلطان وخرقوا ناموس الملك، وذلك كله بسبب ظهور الأمير حسام الدين لاجين وعدم قتله فإنه كان ممن باشر قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل، فحماه الأمير كتبغا ورعاه؛ وأيضاً قد بلغهم خلع أخي أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة وسلطنة كتبغا فتزايدت وحشتهم وترادفت عليهم الأمور، فاتفقوا ووثبوا فلم ينتج أمرهم. فلما أصبح الصباح قبض عليهم الأمير كتبغا وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم وكحل البعض وقطع ألسنة آخرين وصلب جماعة منهم على باب زويلة؛ ثم فرق بقية المماليك على الأمراء والمقدمين، وكانوا فوق الثلاثمائة نفر وهرب الباقون؛ فطلب الأمير زين الدين كتبغا الخليفة والقضاة والأمراء وتكلم معهم في عدم أهلية الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه، وأن الأمور لابد لها من رجل كامل تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه. كل ذلك كان بتدبير لاجين،

فإنه لما خرج من إخفائه علم أن المماليك الأشرفية لا بد لهم من أخذ ثار أستاذهم منه، وأيضاً أنه علم أن الملك الناصر محمد متى ترعرع وكبر لا يبقيه لكونه كان ممن قتل أخاه الملك الأشرف خليلا؛ فلما تحقق ذلك أخذ يحسن للأمير كتبغا السلطنة وخلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون وسلطنته، وكتبغا يمتنع من ذلك فلا زال به لاجين حتى حذره وأخافه عاقبة ذلك، وقال له: متى كبر الملك الناصر لا يبقيك البتة، ولا يبقي أحداً ممن تعامل على قتل أخيه الملك الأشرف، وأن هؤلاء الأشرفية ما دام الملك الناصر محمد في الملك شوكتهم قائمة، والمصلحة خلعه وسلطنتك. فمال كتبغا إلى كلامه، غير أنه أهمل الأمر وأخذ في تدبير ذلك على مهل. فلما وقع من الأشرفية ما وقع وثب وطلب الخليفة والقضاة حسب ما ذكرناه ولما حضر الخليفة والقضاة اتفق رأي الأمراء والجند على خلع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من الملك وسلطنة كتبغا هذا عوضه؛ فوقع ذلك وخلع الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا وجلس على تخت الملك في يوم خلع الملك الناصر، وهو يوم الخميس ثاني عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة بعد واقعة المماليك الأشرفية بيومين، وأدخل الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور بالقلعة، وأمره كتبغا بألا يركب ولا يظهر وكان عمره يوم خلع نحو العشر سنين. وكانت مدة سلطنته في هذه المرة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقل ويأتي بقية ترجمته في سلطنته الثانية والثالثة إن شاء الله تعالى.

على أنه لم يكن له من السلطنة فيها إلا مجرد الاسم فقط، وإنما كان الأمر أولاً للأمير علم الدين سنجر الشجاعي ثم للأمير كتبغا المنصوري.

* * *

سلطنة الملك العادل زين الدين كتبغا

هو السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا بن عبد الله المنصوري التركي المغلي سلطان الديار المصرية؛ جلس على تخت الملك بعد أن خلع ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون في يوم الخميس ثاني عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة باتفاق الأمراء على سلطنته وهو السلطان العاشر من ملوك الترك بالديار المصرية، وأصله من التتار من سبي وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فأخذ الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم أعتقه، وجعله من جملة مماليكه، ورقاه حتى صار من أكابر أمرائه؛ واستمر على ذلك في الدولة الأشرفية خليل بن قلاوون إلى أن قتل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ثلاث وتسعين وأقام الناصر في الملك إلى سنة أربع وتسعين ووقع الاتفاق على خلعه وسلطنة كتبغا هذا، فتسلطن وتلقب بالملك العادل، وسنه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، وقيل خمسين سنة. وقد تقدم سبب خلع الملك الناصر محمد وسلطنة كتبغا هذا في آخر ترجمه الملك الناصر محمد فلا حاجة في الإعادة وقال الشيخ شمس الدين بن الجزري قال: حكى لي الشيخ أبو الكرم النصراني الكاتب، قال: لما فتح هولاكو حلب بالسيف ودمشق بالأمان طلب هولاكو نصير الدين الطوسي وكان في صحبته، وقال له: اكتب أسماء مقدمي عسكري، وأبصر أيهم يملك مصر، ويقعد على تخت الملك بها حتى أقدمه؛ قال: فحسب نصير الدين أسماء، المقدمين فما ظهر له من الأسماء اسم من يملك الديار المصرية غير اسم كتبغا. وكان كتبغا صهر هولاكو، فقدمه على العساكر فتوجه بهم كتبغا فانكسر على عين جالوت، فتعجب هولاكو من هذه الواقعة وظن أن نصير الدين قد غلط في حسابه. وكان كتبغا هذا من جملة من كان في عسكر هولاكو من التتار ممن لا يؤبه إليه من الأصاغر، وكسبه قلاوون في الواقعة؛ فكان بين المدة نحو من خمس وثلاثين سنة، حتى قدر الله تعالى بما قدر من سلطنة كتبغا هذا. انتهى.

ولما كان يوم الأربعاء مستهل شهر ربيع الأول ركب السلطان الملك العادل كتبغا بأبهة السلطنة وشعار الملك من قلعة الجبل ونزل وسار إلى ظاهر القاهرة نحو قبة النصر، وعاد من باب النصر وشق القاهرة حتى خرج من باب زويلة عائداً إلى قلعة الجبل، كما جرت العادة بركوب الملوك.

ولم تطل مدة سلطنته حتى وقع الغلاء والفناء بالديار المصرية وأعمالها؛ ثم انتشر ذلك بالبلاد الشامية جميعها في شوال من هذه السنة، وارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً الإردب، وهذا في

هذه السنة؛ وأما في السنة الآتية التي هي سنة خمس وتسعين وستمائة فوصل سعر القمح إلى مائة وستين درهماً الإردب وأما الموت فإنه فشا بالقاهرة وكثر، فأحصي من مات بها وثبت اسمه في ديوان المواريث، في ذي الحجة فبلغوا سبعة عشر ألفاً وخمسمائة وهذا سوى من لم يرد اسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء ومن لم يطلق من الديوان ورحل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عظم الغلاء وتخلخل أمر الديار المصرية.

وأما أمر الديار المصرية فإنه عظم أمر الغلاء بها حتى أكل بعضهم الميتات والكلاب، ومات خلق كثير بالجوع. والحكايات في ذلك كثيرة، وانتشر الغلاء شرقاً وغرباً.

وبينما السلطان الملك العادل كتبغا فيما هو فيه من أمر الغلاء ورد عليه الخبر في صفر بأنه قد وصل إلى الرحبة عسكر كثير نحو عشرة آلاف بيت من عسكر بيدو ملك التتار طالبين الدخول في الإسلام خوفاً من السلطان غازان، ومقدمهم أمير اسمه طرغاي، وهو زوج بنت هولاكو؛ فرسم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سنجر الدواداري، بأن يسافر من دمشق إلى الرحبة حتى يتلقاهم، فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سنقر الأعسر شاد دواوين دمشق، ثم ندب الملك العادل أيضاً الأمير قراسنقر المنصوري بالخروج من القاهرة، فخرج حتى وصل إلى دمشق لتلقي المذكورين، ورسم له أن يحضر معه في عوده إلى مصر جماعة من أعيانهم، فوصل قراسنقر إلى دمشق وخرج لتلقيهم، ثم عاد إلى دمشق في يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر ربيع الأول، ومعه من أعيانهم مائة فارس وثلاثة عشر فارساً؛ وفرح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق من الميدان.

وأما الأمير علم الدين سنجر الدواداري فبقي مع الباقين، وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وامرأة ومعهم ماشية كثيرة ورخت عظيم، وأقام قراسنقر بهم أياماً؛ ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، وقدموا القاهرة في آخر شهر ربيع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كتبغا ورتب لهم الرواتب ثم بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشامية لأمر مقدر اقتضاه رأيه، وأخذ في تجهيز عساكره وتهيأ للسفر وخرج بجميع عساكره وأمرائه وخاصكيته في يوم السبت سابع عشر شوال وسار حتى دخل دمشق، في يوم السبت خامس عشر ذي القعدة وخامس ساعة من النهار المذكور ودخل دمشق والأمير بدر الدين بيسري حامل الجتر على رأسه، ونائب سلطنته الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ماشياً بين يديه، ووزيره الصاحب فخر الدين بن الخليلي؛ واحتفل أهل دمشق لقدومه وزينت المدينة وفرح الناس به.

ولما دخل الملك العادل إلى دمشق وأقام بها أياماً عزل عنها نائبها الأمير عز الدين أيبك الحموي، وولى عوضه في نيابة دمشق مملوكه الأمير سيف الدين أغزلو العادلي وعمره نحو من اثنتين وثلاثين سنة، وأنعم على الأمير عز الدين أيبك الحموي بخبز أغزلو بمصر، وخرجا من عند السلطان وعليهما الخلع، هذا متول وهذا منفصل.

ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق في ثاني عشر ذي الحجة بأكثر العسكر المصري وبقية جيش الشام إلى جهة قرية جوسية، وهي ضيعة اشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفي فتوجه إليها، ثم سافر منها في تاسع عشر ذي الحجة إلى حمص ونزل عند البحرة بالمرج بعدما أقام في البرية أياماً لأجل الصيد، وحضر إليه نواب البلاد الحلبية جميعها ثم عاد إلى دمشق ودخلها بمن معه من العساكر ضحى نهار الأربعاء ثاني المحرم من سنة ست وتسعين وستمائة. وأقام بدمشق إلى يوم الجمعة رابع المحرم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصه وأمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فحضر وصلى بالمقصورة؛ وأخذ من الناس قصصهم حتى إنه رأى شخصاً بيده قصة فتقدم إليه بنفسه خطوات وأخذها منه ولما جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلس عن يمينه الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماة، وتحته بدر الدين أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلي وعن يسار السلطان الشيخ حسن بن الحريري وأخواه، ثم نائب السلطنة لاجين المنصوري، ثم تحته نائب دمشق الأمير عز الدين أيبك الحموي أعني الذي عزل عن نيابة دمشق، ثم من تحته الأمير بدر الدين بيسري، ثم قراسنقر المنصوري، ثم الحاج بهادر حاجب الحجاب ثم الأمراء على مراتبهم ميمنة وميسرة.

فلما انقضت الصلاة خرج من الجامع والأمراء بين يديه والناس يبتهلون بالدعاء له، وأحبه أهل دمشق وشكرت سيرته، وحمدت طريقته. ثم في يوم الخميس سابع عشر المحرم أمسك السلطان الأمير أسندمر وقيده وحبسه بالقلعة وفي يوم الاثنين حادي وعشرين المحرم عزل السلطان الأمير شمس الدين سنقر الأعسر عن شد دواوين دمشق ورسم له بالسفر صحبة السلطان إلى مصر، وولى عوضه فتح الدين عمر بن محمد، بن صبرة.

ولما كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره وجيوشه نحو الديار المصرية، وسار حتى نزل باللجون بالقرب من وادي فحمة في بكرة يوم الاثنين ثامن وعشرين المحرم من سنة ست وتسعين، وكان الأمير حسام الدين لاجين المنصوري نائب السلطنة قد اتفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كتبغا هذا والفتك به، فلم

يقدر عليه لعظم شوكته؛ فدبر أمراً آخر وهو أنه ابتدأ أولاً بالقبض على الأميرين: بتخاص وبكتوت الأزرق العادليين، وكانا شهمين شجاعين عزيزين عند أستاذهما الملك العادل المذكور، فركب لاجين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة وقبض على الأميرين المذكورين وقتلهما في الحال، وقصد مخيم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلاً وعوقوه عن الوصول إلى الملك العادل وكان العادل لما بلغه هذا الأمر علم أنه لا قبل له على قتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه، وركب من خيل النوبة فرساً تسمى حمامة وساق لقلة سعده ولزوال ملكه راجعاً إلى الشام، ولو أقام بمخيمه لم يقدر لاجين على قتاله وأخذه، فما شاء الله كان وساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرم قرب العصر، ومعه أربعة أو خمسة من خواصه. وكان وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرم أول النهار أمير شكار السلطان، وأخبر نائب الشام بصورة الحال وهو مجروح، فتهيأ نائب الشام الأمير أغزلو العادلي واستعد وأحضر أمراء الشام عند السلطان ورسم بالاحتياط على نواب الأمير حسام الدين لاجين وعلى حواصله بدمشق، وندم الملك العادل على ما فعله مع لاجين هذا من الخير والمدافعة عنه، من كونه كان أحد من أعانه على قتل الأشرف، وعلى أنه ولاه نيابة السلطنة، وفي الجملة أنه ندم حيث لا ينفعه الندم! وعلى رأي من قال: " أشبعتهم سباً وفازوا بالإبل " ومثله أيضاً قول القائل: مخلع البسيط،

من راقب الناس مات غماً ::: وفاز باللذة الجسور

ثم إن الملك العادل طلب قاضي قضاة دمشق بدر الدين بن جماعة فحضر بين يدي السلطان هو وقاضي القضاة حسام الدين الحنفي، وحضرا عند الملك العادل تحليف الأمراء والمقدمين وتجديد المواثيق منهم، ووعدهم وطيب قلوبهم.

وأما الأمير حسام الدين لاجين فإنه استولى على دهليز السلطان والخزائن والحراس والعساكر من غير ممانع، وتسلطن في الطريق ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين، وتوجه إلى نحو الديار المصرية وملكها وتم أمره، وخطب له مصر وأعمالها والقدس والساحل جميعه، وأما الملك العادل فإنه أقام بقلعة دمشق هذه الأيام كلها لا يخرج منها، وأمر جماعة بدمشق، وأطلق بعض المكوس بها، وقرئ بذلك توقيع يوم الجمعة سادس عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع. وبينما هو في ذلك ورد الخبر على أهل دمشق بأن مدينة صفد زينت لسلطنة لاجين ودق بها البشائر، وكذلك نابلس

والكرك. فلما بلغ الملك العادل ذلك جهز جماعة من عسكر دمشق مقدمهم الأمير طقصبا الناصري بكشف هذا الأمر وتحقيق الخبر، فتوجهوا يوم الخميس ثاني وعشرين صفر فعلموا بعد خروجهم في النهار المذكور بدخول الملك المنصور لاجين إلى مصر وسلطنته، فرجعوا وعلموا عدم الفائدة في توجههم. ثم في الغد من يوم الجمعة ثالث وعشرين صفر ظهر الأمر بدمشق وانكشف الحال وجوهر الملك العادل كتبغا بذلك، وبلغه أنه لما وصل العسكر إلى غزة ركب الأمير حسام الدين لاجين في دست السلطنة، وحمل البيسري على رأسه الجتر وحلفوا له، ونعت بالملك المنصور.

ثم في يوم السبت رابع وعشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير كجكن ومعه جماعة من الأمراء كانوا مجردين إلى الرحبة، فلم يدخلوا دمشق بل توجهوا إلى جهة ميدان الحصا قريباً من مسجد القدم، وأعلن الأمير كجكن أمر الملك المنصور لاجين، وعلم جيش دمشق بذلك، فخرج إليه طائفة بعد طائفة، وكان قبل ذلك قد توجه أميران من أكابر أمراء دمشق إلى جهة الديار المصرية. فلما تحقق الملك العادل كتبغا بذلك وعلم انحلال أمره وزوال دولته بالكلية أذعن بالطاعة لأمراء دمشق، وقال لهم: الملك المنصور لاجين خشداشي وأنا في خدمته وطاعته؛ وحضر الأمير سيف الدين جاغان الحسامي إلى قلعة دمشق إلى عند الملك العادل كتبغا، فقال له كتبغا: أنا أجلس في مكان بالقلعة حتى نكاتب السلطان ونعتمد على ما يرسم به. فلما رأى الأمراء منه ذلك تفرقوا وتوجهوا إلى باب الميدان وحلفوا للملك المنصور لاجين وأرسلوا البريد إلى القاهرة بذلك، ثم احتفظوا بالقلعة وبالملك العادل كتبغا؛ ولبس عسكر دمشق آلة الحرب وسيروا عامة نهار السبت بظاهر دمشق وحول القلعة، والناس في هرج واختباط وأقوال مختلفة، وأبواب دمشق مغلقة سوى باب النصر، وباب القلعة مغلق فتح منه خوخته، واجتمع العامة والناس من باب القلعة إلى باب النصر وظاهر البلد حتى سقط منهم جماعة كثيرة في الخندق فسلم جماعة وهلك دون العشرة، وأمسى الناس يوم السبت وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين لا يخفي أحد ذلك، وشرع دق البشائر بالقلعة ثم في سحر يوم الأحد ذكره المؤذنون بجامع دمشق، وتلوا قوله تعالى:{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: ٢٦] إلى آخرها وأظهروا اسم المنصور والدعاء له، ثم ذكره قارىء المصحف بعد صلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق، ودقت البشائر على

أبـواب جميـع أمـراء دمشـق دقـاً مزعجـاً، وأظهـروا الفـرح والسـرور وأمـر بتـزيين أسـواق البلـد جميعهـا فزينـت مدينـة دمشـق، وفتحـت دكـاكين دمشـق وأسـواقها واشـتغلوا بمعايشـهم، وتعجـب النـاس مـن تسـليم الملـك العـادل كتبغـا الأمـر إلـى الملـك المنصـور لاجـين علـى هـذا الوجـه الهـين مـن غيـر قتـال ولا حـرب مـع مـا كـان معـه مـن الأمـراء والجند، ولـو لـم يكـن معـه إلا مملوكـه الأمير أغزلـو العـادلي نائـب الشـام لكفـاه ذلـك. علـى أن الملـك المنصـور لاجـين كـان أرسـل فـي البـاطن عـدة مطالعـات لأمـراء دمشـق وأهلهـا واسـتمال غالـب أهـل دمشـق، فمـا أحوجـه الملـك العـادل كتبغـا لشـيء مـن ذلـك بـل سـلم لـه الأمـر علـى هذا الوجه الذي ذكرناه خذلان من الله تعالى.

وأمـا الأميـر سـيف الـدين أغزلـو العـادلي مملـوك الملـك العـادل كتبغـا نائـب الشـام لمـا رأى مـا وقـع مـن أسـتاذه لـم يسـعه إلا الإذعـان للملـك المنصـور وأظهـر الفـرح بـه وحلـف لـه. قـال: الملـك المنصـور لاجـين - نصـره الله - هـو الـذي كـان عينني لنيابـة دمشـق، وأسـتاذي الملـك العـادل كتبغـا استصـغرني فأنـا نائبـه ثـم سافر هو والأمير جاغان إلى نحو الديار المصرية.

وأمـا لاجـين فإنـه تسـلطن يـوم الجمعـة عاشـر صـفر وركـب يـوم الخمـيس سـادس عشـر صـفر وشـق القـاهرة وتـم أمـره وأمـا الملـك العـادل كتبغـا هـذا فإنـه اسـتمر بقلعـة دمشـق إلـى أن عـاد الأميـر جاغـان المنصـوري الحسـامي إلـى دمشـق فـي يـوم الاثنـين حـادي عشـر شـهر ربيـع الأول، وطلـع مـن الغـد إلـى قلعـة دمشـق ومعـه الأميـر الكبيـر حسـام الـدين الظـاهري أسـتاذ الـدار فـي الدولـة المنصـورية والأشـرفية، والأميـر سـيف الـدين كجكـن، وحضـر قاضـي القضـاة بـدر الـدين بـن جماعـة قاضـي دمشـق ودخلـوا الجميـع إلـى الملـك العـادل كتبغـا، فـتكلم معهـم كلامـاً كثيـراً بحيـث إنـه طـال المجلـس كالعاتـب علـيهم، ثـم إنـه حلـف يمينـاً طويلـة يقـول فـي أولهـا: أقـول وأنـا كتبغـا المنصـوري، ويكـرر اسـم الله تعـالى فـي الحلـف مـرة بعـد مـرة، أنـه يرضـى بالمكـان الـذي عينـه لـه السـلطان الملـك المنصـور حسـام الـدين لاجـين ولا يكاتـب ولا يسـارر، وأنـه تحـت الطاعـة، وأنـه خلـع نفسـه مـن الملـك وأشـياء كثيـرة مـن هـذا النمـوذج؛ ثـم خرجـوا مـن عنـده. وكـان المكـان الـذي عينـه لـه الملـك المنصـور لاجـين قلعـة صـرخد، ولـم يعـين المكـان المـذكور في اليمين.

ثـم ولـى الملـك المنصـور نيابـة الشـام للأميـر قبجـق المنصـوري وعـزل أغزلـو العـادلي، فـدخل قبجـق إلـى دمشـق فـي يـوم السـبت سـادس عشـر شـهر ربيـع الأول؛ وتجهـز الملـك العـادل كتبغـا وخـرج مـن قلعـة دمشـق بـأولاده وعيالـه

ومماليكه وتوجه إلى صرخد في ليلة الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأول المذكور، وجردوا معه جماعة من الجيش نحو مائتي فارس إلى أن أوصلوه إلى صرخد. فكانت مدة سلطنة الملك العادل كتبغا هذا على مصر سنتين وثمانية وعشرين يوماً، وقيل سبعة عشر يوماً؛ وتسلطن من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين حسب ما تقدم ذكره.

ثم كتب له الملك المنصور حسام الدين لاجين تقليداً بنيابة صرخد، فقبل الملك العادل ذلك، وباشر نيابة صرخد سنين إلى أن نقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية من نيابة صرخد إلى نيابة حماة؛ وصار من جملة نواب السلطنة، وكتب له عن السلطان كما يكتب لأمثاله من النواب؛ وسافر في التجاريد في خدمة نواب دمشق وحضر الجهاد ولم يزل على نيابة حماة حتى مات بها في ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى وهو في سن الكهولية، ودفن بحماة؛ ثم نقل منها ودفن بتربته التي أنشأها بسفح جبل قاسيون دمشق غربي الرباط الناصري، وله عليها أوقاف.

وكان ملكاً خيراً ديناً عاقلا عادلاً سليم الباطن شجاعاً متواضعاً؛ وكان يحب الفقهاء والعلماء والصلحاء ويكرمهم إكراماً زائداً؛ وكان أسمر اللون قصيراً دقيق الصدر قصير العنق؛ وكان له لحية صغيرة في حنكه. أسر صغيراً من عسكر هولاكو.

وكان لما ولي سلطنة مصر والشام تشاءم الناس به، وهو أن النيل قد بلغ في تلك السنة ست عشرة ذراعاً ثم هبط من ليلته فشرقت البلاد وأعقبه غلاء عظيم حتى أكل الناس الميتة. وقد تقدم ذكر ذلك في أول ترجمته ومات الملك العادل كتبغا المذكور بعد أن طال مرضه واسترخى حتى لم يبق له حركة؛ وترك عدة أولاد وتولى نيابة حماة بعده الأمير بتخاص المنصوري نقل إليها من نيابة الشوبك. وقد تقدم التعريف بأحوال كتبغا هذا في أوائل ترجمته وفي غيرها فيما مر ذكره.

وأمر كتبغا هذا هو خرق العادة من كونه كان ولي سلطنة مصر أكثر من سنتين وصار له شوكة ومماليك وحاشية، ثم يخلع ويصير من جملة نواب السلطان بالبلاد الشامية؛ فهذا شيء لم يقع لغيره من الملوك. وأعجب من هذا أنه لما قتل الملك المنصور لاجين وتحير أمراء مصر فيمن يولونه السلطنة من بعده لم يتعرض أحد لذكره ولا رشح للعود البتة حتى احتاجوا الأمراء وبعثوا خلف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، وأتوا به وسلطنوه.

قلت: وما أظن أن القلوب نفرت منه إلا لما رأوه من دنيء همته عندما خلع من

السلطنة وتسليمه للأمر من غير قتال ولا ممانعة وكان يمكنه أن يدافع بكل ما تصل القدرة إليه ولو ذهبت روحه عزيزة غير ذليلة، وما أحسن قول عبد المطلب جد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم واسمه شيبة الحمد: البسيط،

لنا نفوس لنيل المجد عاشقة ::: وإن تسلت أسلناها على الأسل

لا يترل المجد إلا في منازلنا ::: كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

وقول عنترة أيضاً: الوافر

أروم من المعالي منتهاها ::: ولا أرضى بمترلة دنيه

فإما أن أشال على العوالي ::: وإما أن توسدني المنيه

ويعجبني المقالة الثامنة عشرة من تأليف العلامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني المعروف بشوروة فإن أوائلها تقارب ما نحن فيه وهي: رتبة الشرف، لا تنال بالترف؛ والسعادة أمر لا يدرك، إلا بعيش يفرك، وطيب يترك؛ ونوم يطرد، وصوم يسرد؛ وسرور عازب، وهم لازب، ومن عشق المعالي ألف الغم، ومن طلب اللآلىء ركب اليم ومن قنص الحيتان ورد النهر، ومن خطب الحصان نقد المهر؛ كلا أين أنت من المعالي! إن السحوق جبار وأنت قاعد، والفيلق جرار وأنت واحد العقل يناديك وأنت أصلخ، ويدنيك ويحول بينكما البرزخ؛ لقد أزف الرحيل قاستنفد جهدك، وأكثب الصيد فضمر فهدك؛ فالحذر يترصد الانتهاز، والحازم يهيىء أسباب الجهاز؛ تجرع مرارة النوائب في أيام معدودة، لحلاوة معهودة غير محدودة؛ وإنما هي محنة بائدة، تتلوها فائدة؛ وكربة نافذة، بعدها نعمة خالدة، وغنيمة باردة؛ فلا تكرهن صبراً أو صابا، يغسل عنك أو صابا ولا تشربن ورداً يعقبك سقاما، ولا تشمن ورداً يورثك زكاما؛ ما ألين الريحان لو لا وخز البهمى، وما أطيب الماذي لولا حمة الحمى! فلا تهولنك مرارات ذاقها عصبة، إنما يريد الله ليهديهم بها؛ ولا تروقنك حلاوات نالها فرقة، إنما يريد الله ليعذبهم بها. انتهى.

* * *

سلطنة الملك المنصور لاجين

هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوري سلطان الديار المصرية؛ تسلطن بعد خلع الملك العادل كتبغا المنصوري كما تقدم ذكره في يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست وتسعين وستمائة. وأصل لاجين هذا مملوك للملك المنصور قلاوون اشتراه ورباه وأعتقه ورقاه إلى أن جعله من جملة مماليكه؛ فلما تسلطن أمره وجعله نائباً بقلعة دمشق. فلما خرج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون وتسلطن بدمشق وتلقب بالملك الكامل وملك قلعة دمشق قبض على لاجين هذا وحبسه مدة إلى أن انكسر سنقر الأشقر وملك الأمير علم الدين سنجر الحلبي دمشق أخرجه من محبسه ودام لاجين بدمشق إلى أن ورد مرسوم الملك المنصور قلاوون باستقرار لاجين هذا في نيابة دمشق دفعة واحدة؛ فوليها ودام بها إحدى عشرة سنة إلى أن عزله الملك الأشرف خليل بن قلاوون بالشجاعي؛ ثم قبض عليه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قبض عليه ثانياً مع جماعة أمراء، وهم: الأمير سنقر الأشقر المقدم ذكره الذي كان تسلطن بدمشق وتلقب بالملك الكامل، والأمير ركن الدين طقصو الناصري حمو لاجين هذا، والأمير سيف الدين جرمك الناصري، والأمير بلبان الهاروني وغيرهم، فخنقوا الجميع وما بقي غير لاجين هذا، فقدموه ووضعوا الوتر في حلقه وجذب الوتر فانقطع؛ وكان الملك الأشرف حاضراً؛ فقال لاجين: يا خوند، أيش لي ذنب؟ ما لي ذنب إلا أن صهري طقصو ها هو قد هلك، وأنا أطلق ابنته؛ فرق له خشداشيته وقبلوا الأرض وسألوا السلطان فيه، وضمنوه فأطلقه وخلع عليه وأعطاه إمرة مائة فارس بالديار المصرية وجعله سلاح دار.

ثم بعد أيام ركب السلطان الملك المنصور لاجين ولعب الكرة بالميدان فتقنطر به الفرس فوقع من عليه وتهشم جميع بدنه وانكسرت يده وبعض أضلاعه ووهن عظمه وضعفت حركته، وبقي يعلم عنه مملوكه ونائبه سيف الدين منكوتمر وأيس من نفسه. كل ذلك والأمراء راضون بما يفعله منكوتمر لأجل خاطره إلى أن من الله تعالى عليه بالعافية وركب؛ ولما ركب زينت له القاهرة ومصر والبلاد الشامية لعافيته، وفرح الناس بعافيته فرحاً شديداً، خصوصا الحرافيش فإنه لما ركب بعد عافيته قال له واحد من الحرافشة: يا قضيب الذهب، بالله أرني يدك، فرفع إليه يده وهو ماسك المقرعة وضرب بها رقبة الحصان الذي تحته. وكان ركوبه في حادي عشرين صفر من سنة سبع وتسعين وستمائة.

فلما قتل الملك المنصور لاجين تقسمها الأمراء زيادة على ماكان بيدهم انتهى.

ثم إن السلطان الملك المنصور لاجين جهز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير والأمير سيف الدين حمدان بن صلغاي إلى البلاد الشامية، وعلى أيديهم مراسيم شريفة بخروج العساكر الشامية، وخروج نائب الشام الأمير قبجق المنصوري بجميع أمراء دمشق حتى حواشي الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق، فوصلوا إلى دمشق وألحوا في خروج العسكر ونوهوا بأن التتار قاصدون البلاد، فخرج نائب الشام بعساكر دمشق في ليلة الخميس رابع عشر المحرم من سنة ثمان وتسعين وستمائة. ووقع لقبجق نائب الشام المذكور في هذه السفرة أمور أوجبت عصيانه وخروجه من البلاد الحلبية بمن معه من الأمراء ومماليكه إلى غازان ملك التتار. وكان الذي توجه معه من أكابر الأمراء: بكتمر السلاح دار وألبكي وبيغار وغيرهم في جمع كثير، وكان خروجهم في ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. وسبب خروج قبجق عن الطاعة وتوجهه أنه كان ورد عليه مرسوم السلطان بالقبض على هؤلاء الأمراء المذكورين وغيرهم، ففطن الأمراء بذلك فهرب منهم من هرب وبقي هؤلاء، فجاؤوا إلى قبجق وهو نازل على حمص، فطلبوا منه أماناً فأمنهم وحلف لهم، وبعث قبجق إلى السلطان يطلب منه أماناً لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشن عليه بعض كبار أمراء دمشق في القول بسببهم فعلم قبجق أن ذلك الكلام من قبل السلطان فغضب، وخرج على حمية وتبعه الأمير عز الدين بن صبرا، والملك الأوحد وجماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع؛ وركب هو ومن معه من حواشيه ومن الأمراء المذكورين وسار حتى وصل ماردين، والتقى مع مقدم التتار فخدمهم مقدم التتار، وأخذهم وتوجه بأطلاب التتار وعساكره إلى أن وصلوا إلى غازان ملك التتار وهو نازل بأرض السيب من أعمال واسط. فلما قدم قبجق ومن معه على غازان سر بهم وأكرمهم ووعدهم ومناهم وأعطى لكل أمير عشرة آلاف دينار، ولكل مملوك مائة دينار، وللمماليك الصغار مع الركبدارية خمسين ديناراً، وكل دينار من هذه الدنانير صرفه باثني عشر درهماً؛ ثم أقطع الأمير قبجق المذكور مدينة همذان وأعمالها، فلم يقبل قبجق واعتذر أن ليس له قصد إلا أن يكون في صحبة السلطان الملك غازان ليرى وجهه في كل وقت! فأجابه غازان إلى ما سأله وأعجبه ذلك منه.

وكان لما خرج قبجق من حمص إلى جهة التتار، وبلغ أمراء دمشق ذلك خرج في طلبه الأمير كجكن والأمير أيدغدي شقير بمماليكهم ومعهم أيضاً جماعة من عسكر

الشام، فوجدوه قد قطع الفرات ولحقوا بعض ثقله. وعند وصول قبجق ومن معه إلى غازان بلغه قتل السلطان الملك المنصور لاجين بالديار المصرية وكان خبر قتل السلطان أيضاً بلغ الأمير كجكن والأمير أيدغدي لما خرجوا في أثر قبجق فانحلت عزائمهم عن اللحوق بقبجق ورجعوا عنه وإلا كانوا لحقوه وقاتلوه.

وأما أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين صاحب الترجمة فإنه لما أخذ في قبض من استوحش منهم من الأمراء وغيرهم، وزاد في ذلك بإشارة مملوكه منكوتمر، استوحش الناس منه ونفرت قلوبهم وأجمعوا على عمل فتنة. ثم فوض لمملوكه منكوتمر جميع أمور المملكة فاستبد منكوتمر بوظائف الملك ومهماته. وانتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاجين مرسوماً أو كتب لأحد توقيعاً وليس هو بإشارة منكوتمر يأخذه منكوتمر من يد المعطى له ويمزقه في الملأ، ويرده ويمنع أستاذه منه؛ فعند ذلك استثقل الأمراء وطأة منكوتمر وعلموا أن أستاذه الملك المنصور لا يسمع فيه كلام متكلم، فعملوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاجين.

قلت: الولد الخبيث يكون سبباً لاستجلاب اللعنة لوالده! انتهى.

وقال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه: وكان سبب قتل لاجين أمور، منها: أنه لما أراد أن يتسلطن جاءه جماعة من الأمراء واشترطوا عليه شروطاً فالتزمها لاجين، منها أنه يكون كأحدهم ولا ينفرد برأي عنهم، ولا يسلط يد أحد من مماليكه فيهم وكان الأعيان الحاضرون في هذه المشورة، والمتفقون على هذه الصورة: الأمير بدر الدين بيسري الشمسي، والأمير قرا سنقر المنصوري، والأمير سيف الدين قبجق، والأمير الحاج بهادر أمير حاجب الحجاب والأمير كرت، والأمير حسام الدين لاجين السلاح دار الرومي الأستادار، والأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، والأمير عز الدين أيبك الخازندار، والأمير جمال الدين آقوش الموصلي، والأمير مبارز الدين أمير شكار، والأمير بكتمر السلاح دار، والأمير سيف الدين سلار، والأمير طغجي، والأمير كرجي، والأمير طقطاي، والأمير برلطاي وغيرهم ولما حلف لهم الملك المنصور لاجين على ما شرطوا قال الأمير سيف الدين قبجق: نخشى أنك إذا جلست في المنصب تنسى هذا التقرير وتقدم الصغير من مماليكك على الكبير، وتفوض لمملوكك منكوتمر في التحكم والتدبير، فتنصل لاجين من ذلك، وكرر لاجين الحلف أنه لا يفعل، فعند ذلك حلفوا له. ورحلوا نحو الديار المصرية يعني أن ذلك كان بعد هروب الملك العادل

كتبغا وعند دخول لاجين إلى غزة فوقع هذه الشروط كلها بمدينة غزة انتهى.

قال بيبرس: فلما تسلطن رتب الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري نائباً، والأمير الحاج بهادر حاجباً على عادته، والأمير سلار أستاداراً، والأمير بكتمر السلاح دار أمير اخور، واستقر بالصاحب فخر الدين بن الخليلي في الوزارة، ورتب الأمير قبجق نائب الشام؛ ثم بعد مدة أفرج عن الأمير برلغي فأعطاه إقطاعاً بدمشق؛ ثم أفرج عن الأمير بيبرس الجاشنكير وجماعة من الأمراء، وأعطى بيبرس الجاشنكير إمرة بالقاهرة.

قلت: وبيبرس هذا هو الذي تسلطن فيما بعد حسب ما يأتي ذكره.

ثم برز مرسومه باستقرار الملك العادل كتبغا في نيابة صرخد، وكتب له بها منشوراً. انتهى كلام بيبرس باختصار، لأنه خرج في سياق الكلام إلى غير ما نحن بصدده.

وقال القاضي حسام الدين الحنفي: كنت عند السلطان فما شعرت إلا وستة أو سبعة أسياف نازلة على السلطان، وهو مكب على لعب الشطرنج، فقتلوه ثم تركوه وأنا عنده، وغلقوا علينا الباب؛ وكان سيف الدين طغجي قد قصد بقية البرجية المتفقين معه ومع كرجي في الدركاه، فقال لهم: قضيتم الشغل؛ فقالوا: نعم. ثم إنهم توجهوا جميعاً إلى دار سيف الدين منكوتمر وهو بدار النيابة من قلعة الجبل، فدقوا عليه الباب وقالوا له: السلطان يطلبك، فأنكر حالهم وقال لهم: قتلتم السلطان؛ فقال له كرجي: نعم يا مأبون، وقد جئناك نقتلك، فقال: أنا ما أسلم نفسي إليكم، إنما أنا في جيرة الأمير سيف الدين طغجي، فأجاره طغجي، وحلف له أنه لا يؤذيه ولا يمكن أحداً من أذيته؛ ففتح داره فتسلموه وراحوا به إلى الجب فأنزلوه إلى عند الأمراء المحبوسين فلما دخل إلى الجب قام إليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وتلقاه متهكماً عليه، ثم قام إليه الأمير عز الدين أيبك الحموي وشتمه، وأراد قتله، لأن منكوتمر هذا كان هو السبب في مسك هؤلاء الأمراء، وإقلاب الدولة من حرصه على أن الأمر يفضي إليه ويتسلطن بعد أستاذه فأقام منكوتمر نحو ساعة في الجب، وراح الأمير طغجي إلى داره حتى يقضي شغلاً له، فاغتنم كرجي غيبته وأخذ معه جماعة وتوجه إلى باب الحبس وأطلع منكوتمر صورة أنهم يريدون تقييمه كما جرت العادة في أمر المحتبسين، فامتنع من الطلوع فألحوا عليه وأطلعوه وذبحوه على باب الجب، ونهبوا داره وأمواله.

ثم اتفقوا كما هم في الليل على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وعوده

إلى ملكه كونه ابن أستاذهم، وأن يكون سيف الدين طغجي نائب السلطنة، ومهما عملوه يكون باتفاق الأمراء، وحلفوا على هذا الأمر كل ذلك في تلك الليلة قبل أن يطلع الفجر.

وأصبح نهار الجمعة حلفوا الأمراء والمقدمين والعسكر جميعه للملك الناصر محمد ابن قلاوون ونائب السلطنة طغجي. وسيروا في الحال خلف الملك الناصر محمد يطلبونه من الكرك؛ وركب الأمير طغجي يوم السبت في الموكب والتف عليه العسكر وطلع إلى قلعة الجبل، وحضر الأمراء الموكب ومد السماط كما جرت العادة به من غير هرج ولا غوغاء وكأنه لم يجر شيء، وسكنت الفتنة، وفرح غالب الناس بزوال الدولة لأجل منكوتمر.

ودام ذلك إلى أن كان يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وتسعين المذكورة، وصل الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح عائداً من الشام من فتوح سيس، وصحبته العساكر المتوجهة معه، وكان قد راح إليه جماعة من أمراء مصر لتلقيه إلى بلبيس وأعلموه بصورة الحال، وقالوا له بأن، الذي وقع من قتل الملك المنصور ليس هو عن رضاهم ولا علموا به، وأغروه على قتل طغجي واتفقوا معه على ذلك؛ وكانوا الأمراء المذكورون قد أشاروا قبل خروجهم على طغجي أن يخرج يلتقي الأمير بكتاش أمير سلاح، فركب طغجي بكرة يوم الاثنين وتوجه نحوه حتى التقاه وتعانقا وتكارشا. ثم قال أمير سلاح لطغجي: كان لنا عادة من السلطان إذا قدمنا من السفر يتلقانا، وما أعلم ذنبي الآن ما هو، كونه ما يلقاني اليوم! فقال له طغجي: وما علمت بما جرى على السلطان؛ السلطان قتل! فقال أمير سلاح: ومن قتله؛ قال له بعض الأمراء وهو الأمير سيف الدين كرت أمير حاجب: قتله، سيف الدين طغجي وكرجي، فأنكر عليه وقال: كلما قام للمسلمين ملك تقتلونه! تقدم عني لا تلتصق بي، وساق عنه أمير سلاح؛ فتيقن طغجي أنه مقتول، فحرك فرسه وساق فانقض عليه بعض الأمراء وقبض عليه بشعر دبوقته، ثم علاه بالسيف، وساعده على قتله جماعة من الأمراء، فقتل وقتل معه ثلاثة نفر، ومروا سائقين إلى تحت القلعة. وكان كرجي قد قعد في القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتل رفيقة طغجي، فألبس البرجية السلاح وركب في مقدار الذي فارس حتى يدفع عن نفسه، فركبت جميع أجناد الحلقة والأمراء والمقدمين في خدمة أمير سلاح إلى الرابعة من النهار، ثم حملوا العساكر على جماعة كرجي فهزموهم، وساق كرجي وحده، واعتقد أن أصحابه يتوجهون حيث توجه، فلم يتبعه غير تبعه ونوغيه الكرموني أمير سلاح دار

الذي كان أعانه على قتل الملك المنصور لاجين. فلما أبعدوا والقوم في أثرهم لحقه بعض خشداشيته وضربه بالسيف حل كتفه، ثم ساعده بعض الأمراء حتى قتل، وقتل معه نوغيه الكرموني السلاح دار الذي كان أعانه على قتل لاجين المقدم ذكره، واثنا عشر نفراً من مماليكهما وأصحابهما؛ وبطلت الغوغاء وسكنت الفتنة في الحال.

واستقر الأمر أيضاً على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دبره طغجي وكرجي وسيروا بطلبه وحثوا الطلب في قدومه من الكرك إلى الديار المصرية؛ وبقي يدبر الأمور ويعلم على الكتب المسيرة إلى البلاد ثمانية أمراء إلى أن حضر السلطان، وهم: الأمير سيف الدين سلار، والأمير سيف الدين كرت، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، والأمير عز الدين أيبك الخازندار، والأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير، والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، والأمير جمال الدين عبد الله السلاح دار، وجميعهم منصورية قلاوونية، وغالبهم قد أخرج من السجن بعد قتل لاجين. يأتي ذلك كله في ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء الله تعالى.

وأما السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين فإنه أخذ بعد قتله وغسل وكفن بتربته بالقرافة الصغرى بالقرب من سفح المقطم؛ ودفن مملوكه منكوتمر تحت رجليه. قتل الملك المنصور لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها بقليل وقد تقدم التعريف به في عدة تراجم مما تقدم ونذكر هنا أيضاً من أحواله ما يتضح التعريف به ثانياً. كان لاجين ملكاً شجاعاً مقداماً عارفاً عاقلاً حشيماً وقوراً معظماً في الدول. طالت أيامه في نيابة دمشق أيام أستاذه في السعادة؛ وهو الذي أبطل الثلج الذي كان ينقل في البحر من الشام إلى مصر؛ وقال: أنا كنت نائب الشام وأعلم ما يقاسي الناس في وسقه من المشقة وكان - رحمه الله - تام القامة أشقر في لحيته طول يسير وخفة، ووجه رقيق معرق، وعليه هيبة ووقار، وفي قده رشاقة وكان ذكياً نبيهاً شجاعاً حذوراً ولما قتل الملك الأشرف خليل بن قلاوون هرب هو وقراسنقر، فإنهما كانا أعانا الأمير بيدرا على قتله حسب ما ذكرناه ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاجين هذا هو الذي تمم قتله؛ ولما هرب جاء هو وقراسنقر إلى جامع أحمد بن طولون وطلعا إلى المئذنة واستترا فيها وقال لاجين: لئن نجانا الله من هذه الشدة وصرت شيئاً عمرت هذا الجامع.

قلت: وكذا فعل رحمه الله تعالى، فإنه لما تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد بن

طولون المذكور ورتب في شد عمارته وعمارة أوقافه الأمير علم الدين أبا موسى سنجر بن عبد الله الصالحي النجمي الدواداري المعروف بالبرنلي، وكان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصرية، وفوض السلطان الملك المنصور لاجين أمر الجامع المذكور وأوقافه إليه فعمره وعمر وقفه وأوقف عليه عدة قرى، وقرر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والطب وغير ذلك، وجعل من جملة ذلك وقفاً يختص بالديكة التي تكون في سطح الجامع المذكور في مكان مخصوص بها، وزعم أن الديكة تعين الموقتين وتوقظ المؤذنين في السحر، وضمن ذلك كتاب الوقف؛ فلما قرئ كتاب الوقف على السلطان وما شرطه أعجبه جميعه، فلما انتهى إلى ذكر الديكة أنكر السلطان ذلك، وقال: أبطلوا هذا لئلا يضحك الناس علينا، وأمضى ما عدا ذلك من الشروط والجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا، ولولاه لكان دثر وخرب، فإن غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خرب وذهب أثره، فجدده لاجين هذا وأوقف عليه هذه الأوقاف الجمة، فعمر وبقي إلى الآن. انتهى.

وكانت مدة سلطنة المنصور لاجين على الديار المصرية سنتين وثلاثة شهور.

قال الأديب صلاح الدين الصفدي: وكان ديناً متقشفاً كثير الصوم قليل الأذى. قطع أكثر المكوس، وقال: إن عشت ما تركت مكساً واحداً.

قلت: كان فيه كل الخصال الحسنة، لولا توليته مملوكه منكوتمر الأمور ومحبته له، وهو السبب في هلاكه حسب ما تقدم. وتسلطن من بعده ابن أستاذه الملك الناصر محمد ابن قلاوون: طلب من الكرك وأعيد إلى السلطنة انتهت ترجمة الملك المنصور لاجين. رحمه الله تعالى.

* * *

سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون؛ تقدم ذكر مولده في ترجمته الأولى من هذا الكتاب أعيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاجين فإنه كان لما خلع من الملك بالملك العادل كتبغا المنصوري أقام عند والدته بالدور من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاجين لما تسلطن إلى الكرك، فأقام الملك الناصر بالكرك إلى أن قتل الملك المنصور لاجين حسب ماذكرناه أجمع رأي الأمراء على سلطنته ثانياً، وخرج إليه الطلب من الديار المصرية صبيحة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة، وهو ثاني يوم قتل لاجين، وسار الطلب إليه؛ فلما قتل طغجي وكرجي في يوم الاثنين رابع عشره استحثوا الأمراء في طلبه، وتكرر سفر القصاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية في ليلة السبت رابع جمادى الأولى من السنة، وبات تلك الليلة بالإسطبل السلطاني، ودام به إلى أن طلع إلى القلعة في بكرة يوم الاثنين سادس جمادى الأولى المذكور. وحضر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد والقضاة، وأعيد إلى السلطنة وجلس على تخت الملك وكان الذي توجه من القاهرة بطلبه الأمير الحاج آل ملك، والأمير سنجر الجاولي. فلما قدما إلى الكرك كان الملك الناصر بالغور يتصيد فتوجها إليه، ودخل آقوش نائب الكرك إلى أم السلطان وبشرها، فخافت أن تكون مكيدة من لاجين فتوقفت في المسير، فما زال بها حتى أجابت.

ووصل الأميران إلى الملك الناصر بالغور وقبلا الأرض بين يديه وأعلماه بالخبر، فرحب بهما وعاد إلى البلد وتهيأ، وأخذ في تجهيز أمره، والبريد يترادف باستحثاثه إلى أن قدم القاهرة، فخرج الأمراء وجميع الناس قاطبة للقائه، وكادت القاهرة ومصر ألا يتأخر بهما أحد فرحاً بقدومه وكان خروجهم في يوم السبت، وأظهر الناس لعوده إلى الملك من السرور ما لا يوصف ولا يحد، وزينت القاهرة ومصر بأفخر زينة، وأبطل الناس معايشهم وضجوا له بالدعاء والشكر لله على عوده إلى الملك، وأسمعوا حواشي الملك العادل كتبغا والملك المنصور لاجين من المكروه والاستهزاء ما لا مزيد عليه؛ واستمروا في الفرح والسرور إلى يوم الاثنين، وهو يوم جلوسه على تخت الملك.

وبعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عزم على قصد البلاد الشامية لما قدم عليه الأمير قبجق المنصوري نائب الشام ورفقته ثم رأى غازان أن يجهز سلامش بن أباجو من خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ

بلاد الروم، ويتوجه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سيس ويجيء غازان من ديار بكر، وينزلون على الفرات ويغيرون على البيرة والرحبة وقلعة الروم، ويكون اجتماعهم على مدينة حلب، فإن التقاهم أحد من العساكر المصرية والشامية التقوه وإلا دخلوا بلاد الشام؛ فاتفق أن سلامش لما توجه من عند قازان ودخل إلى الروم أطمعته نفسه بالملك، وملك الروم وخلع طاعة غازان واستخدم الجند، وأنفق عليهم وخلع على أكابر الأمراء ببلاد الروم؛ وكانوا أولاد قرمان قد أطاعوه، ونزلوا إلى خدمته، وهم فوق عشرة آلاف فارس. وهذا الخبر أرسله سلامش المذكور إلى مصر، وأرسل في ضمن ذلك يطلب من المصريين النجدة والمساعدة على غازان.

قلت: غازان وقازان كلاهما اسم لملك التتار. انتهى. وكان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر في شعبان من السنة.

وأما قازان فإنه وصل إلى بغداد؛ وكانوا متولين بغداد من قبله شكوا إليه من أهل السيب والعربان أنهم ينهبون التجار القادمين من البحر، وأنهم قد قطعوا السابلة فسار قازان بنفسه إليهم ونهبهم، وأقام بأرض دقوقا مشتياً. ولما بلغه خبر سلامش انثنى عزمه عن قصد الشام وشرع في تجهيز العساكر مع ثلاثة مقدمين، ومعهم خمسة وثلاثون ألف فارس: منها خمسة عشر مع الأمير سوتاي وعشرة مع هندوجاغان وعشرة مع بولاي وهو المشار إليه من المقدمين مع العساكر وسفرهم إلى الروم لقتال سلامش. ثم رحل قازان إلى جهة تبريز ومعه الأمير قبجق المنصوري نائب الشام وبكتمر السلاح دار والألبكي وبزلار، هؤلاء هم الذين خرجوا من دمشق مغاضبين للملك المنصور لاجين. وسار التتار الذين أرسلهم غازان حتى وصلوا إلى الروم في أواخر شهر رجب والتقوا مع سلامش، وكان سلامش قد عصى عليه أهل سيواس وهو يحاصرهم، فتركهم سلامش وتجهز، وجهز عساكره لملتقى التتار؛ وكان قد جمع فوق ستين ألف فارس. فلما قارب التتار فر من عسكر سلامش التتار والروم ولحقوا بولاي مقدم عساكر غازان.

وأما التركمان فإنهم تركوه وصعدوا إلى الجبال على عادتهم، وبقي سلامش في جمع قليل دون خمسمائة فارس، فتوجه بهم من سيواس إلى جهة سيس، وسار منها فوصل إلى بهسنا في أواخر شهر رجب. وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد برز مرسومه إلى نائب الشام بأن يجرد خمسة أمراء من حمص وخمسة من حماة وخمسة من حلب لتكملة خمسة عشر أميراً ويبعثهم نجدة إلى سلامش فلما وصل الخبر بقدوم سلامش إلى بهسنا منهزماً توقف العسكر عن المسير؛ ثم وصل سلامش إلى دمشق. وسلامش هذا هو من أولاد عم غازان؛ وهو سلامش بن أباجو بن

هولاكو. وكان وصوله إلى دمشق في يوم الخميس ثاني عشر شعبان، فتلقاه نائب الشام واحتفل لملاقاته احتفالاً عظيماً وأكرمه، وقدم في خدمته نائب بهسنا الأمير بدر الدين بكتاش الزردكاش؛ ثم سار سلامش من دمشق إلى جهة الديار المصرية إلى أن وصلها، فأكرمه السلطان غاية الإكرام، وأقام بمصر أياماً قليلة ثم عاد إلى حلب، بعد أن اتفق معه أكابر دولة الملك الناصر محمد على أمر يفعلونه إذا قدم غازان إلى البلاد الشامية؛ ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسكر المصري نجدة له لقتال التتار، وأيضاً كالمقدمة للسلطان، وعلى كل ألف فارس أمير مائة ومقدم ألف فارس، وهم: الأمير جمال الدين آقوش قتال السبع، والمبارز أمير شكار، والأمير جمال الدين عبد الله، والأمير سيف الدين بلبان، الحبشي، وهو المقدم على الجميع؛ وساروا الجميع إلى بلاد حلب، وتهيأ السلطان للسفر، وتجهزت أمراؤه وعساكره. وخرج من الديار المصرية بأمرائه وعساكره في يوم الخميس سادس عشرين ذي الحجة الموافق لسادس وعشرين توت أحد شهور القبط.

هذا والعساكر الشامية في التهيؤ لقتال التتار، وقد دخلهم من الرعب والخوف أمر لا مزيد عليه؛ وسار السلطان بعساكره إلى البلاد الشامية بعد أن تقدمه أيضاً جماعة من أكابر أمراء الديار المصرية غير أولئك، كالجاليش على العادة، وهم: الأمير قطلوبك والأمير سيف الدين كزناي وهو من كبار الأمراء: كان حما الملكين الصالح والأشرف أولاد قلاوون، وجماعة أمراء أخر ودخلوا هؤلاء الأمراء قبل السلطان إلى الشام بأيام، فاطمأن خواطر أهل دمشق بهم.

وسافر السلطان بالعساكر على مهل، وأقام بغزة وعسقلان أياماً كثيرة؛ ثم دخل إلى دمشق يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين وستمائة؛ واحتفل أهل دمشق لدخوله احتفالاً عظيماً، ودخل السلطان بتجمل عظيم زائد عن الوصف حتى لعله زاد على الملوك الذين كانوا قبله؛ ونزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزة وغيرها نحو الشهرين في الطريق إلى أن ترادفت عليه الأخبار بقرب التتار إلى البلاد الشامية، فقدم دمشق؛ وتعين حضوره إليها ليجتمع بعساكره السابقة له وأقام السلطان بدمشق وجهز عساكرها إلى جهة البلاد الحلبية أمامه، ثم خرج هو بأمرائه وعساكره بعدهم في يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الأول من سنة تسع وتسعين المذكورة في وسط النهار، وسار من دمشق إلى حمص؛ وابتهل الناس له بالدعاء، وعظم خوف الناس وصياحهم وبكاؤهم على الإسلام وأهله. ووصل السلطان إلى حمص وأقام لابس السلاح ثلاثة أيام بلياليها إلى أن حصل الملل والضجر، وغلت الأسعار بالعسكر وقلت العلوفات.

وبلغ السلطان أن التتار قد نزلوا بالقرب من سلمية وأنهم يريدون الرجوع إلى بلادهم

لما بلغهم من كثرة الجيوش واجتماعهم على قتالهم - وكان هذا الخبر مكيدة من التتار - فركب السلطان بعساكره من حمص بكرة يوم الأربعاء وقت الصبح السابع والعشرين من شهر ربيع الأول، وساقوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم، وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار؛ فركب التتار للقائهم وكانوا تهيؤوا لذلك؛ وكان الملتقى في ذلك المكان في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما، وقد كلت خيول السلطان وعساكره من السوق؛ والتحم القتال بين الفريقين، وحملت ميسرة المسلمين عليهم فكسرتهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم جماعة كثيرة نحو خمسة آلاف أو أكثر ولم يقتل من المسلمين إلا اليسير. ثم حملت القلب أيضاً حملة هائلة وصدمت العدو أعظم صدمة، وثبت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً ثم حصل تخاذل في عسكر الإسلام بعضهم في بعض - بلاء من الله تعالى - فانهزمت ميمنة السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر فلا قوة إلا بالله. ولما انهزمت الميمنة انهزم أيضاً من كان وراء السناجق السلطانية من غير قتال، وألقى الله تعالى الهزيمة عليهم فانهزم جميع عساكر الإسلام بعد النصر؛ وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومدبري مملكته إلى نحو بعلبك وتركوا جميع الأثقال ملقاة؛ فبقيت العدد والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بقيت الرماح في الطرق كأنها القصب لا ينظر إليها أحد، ورمى الجند خوذهم عن رؤوسهم وجواشنهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتنجيهم بأنفسهم، وقصدوا الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك. ولما بلغ أهل دمشق وغيرها كسرة السلطان عظم الضجيج والبكاء، وخرجت المخدرات حاسرات لا يعرفن أين يذهبن والأطفال بأيديهن، وصار كل واحد في شغل عن صاحبه إلى أن ورد عليهم الخبر أن ملك التتار قازان مسلم وأن غالب جيشه على ملة الإسلام، وأنهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد انفصال الوقعة لم يقتلوا أحداً ممن وجدوه، وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويطلقونه، فسكن بذلك روع أهل دمشق قليلاً.

ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهله وحواصله بحيث الإمكان وتوجه إلى جهة مصر، وبقي من بقي بدمشق في خمدة وحيرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم؛ فطائفة تغلب عليهم الخوف، وطائفة يترجون حقن الدماء، وطائفة يترجون أكثر من ذلك من عدل وحسن سيرة؛ واجتمعوا في يوم الأحد بمشهد علي من الجامع الأموي، واشتوروا في أمر الخروج إلى ملك التتار غازان وأخذهم أماناً لأهل البلد، فحضر من الفقهاء قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، وهو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق، والشيخ زين الدين الفارقي، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين ابن صصرى، والصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والقاضي عز الدين بن

الزكي، والشيخ وجيه الدين بن المنجا، والشيخ عز الدين بن القلانسي، وابن عمه شرف الدين، وأمين الدين بن شقير الحراني، والشريف زين الدين بن عدنان، والصاحب شهاب الدين الحنفي، والقاضي شمس الدين بن الحريري، والشيخ محمد بن قوام النابلسي، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القزويني - وقد خرج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلاً إلى مصر - وجلال الدين ابن القاضي حسام الدين الحنفي، وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء. وأما السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصه بعد الوقعة إلى جهة الكسوة. وأما العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يعبر عن حالهم: فإنه كان أكبر الأمراء يرى، وهو وحده وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته، وهو مسرع في السير خائف متوجه إلى جهة الكسوة لا يلوي على أحد، قد دخل قلوبهم الرعب والخوف، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار، وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم، وقد صار أحدهم الآن أضعف من الهزيل؛ وأمعنوا العامة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم، ولا ينتقمون من أحد منهم.

قال ابن المنجا: إن الذي حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف سوى ما محق عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك، بحيث إن الصفي السنجاري استخرج لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، وللأمير إسماعيل مائتي ألف درهم، وللوزير نحو أربعمائة ألف، وقس على هذا. واستمر بدمشق ورسم أن ينادى في دمشق بأن أهل القرى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم: رسم بذلك سلطان الشام حاج الحرمين سيف الدين قبجق. وصار قبجق يركب بالعصابة، والشاويشية بين يديه، وأجتمع الناس عليه. كل ذلك والقتال والمباينة واقعة بين الأمير أرجواش نائب قلعة دمشق وبين قبجق المذكور ونواب قازان، والرسل تمشي بينهم في الصلح، وأرجواش يأبى تسليم القلعة له، فلله در هذا الرجل! ما كان أثبت جنانه مع تغفل كان فيه حسب ما يأتي ذكره.

هذا وقبجق غير مستبد بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنواب قازان مثل بولاي وغيره. ثم سافر بولاي من دمشق بمن كان بقي معه من التتار في عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب، ومعه قبجق، وقد أشيع أن قبجق يريد الانفصال عن التتار. وبعد خروجهما استبد أرجواش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد. وفي يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، وللخليفة الحاكم بأمر الله على العادة، ففرح الناس بذلك. وكان أسقط اسم الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر، فالمدة مائة يوم. ثم نادى أرجواش بكرة يوم السبت بالزينة في البلد فزينت.

وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإن عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثاني عشر شهر ربيع الأخر وتبعته العساكر المصرية والشامية متفرقين، وأكثرهم عراة مشاة ضعفاء، وذاك الذي أوجب تأخرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر، وأقاموا بعد ذلك أشهراً حتى آستقام أمرهم؛ ولولا حصول البركة بالديار المصرية وعظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق والجيوش التي دخلوها في جفلة التتار وبعدها؛ فمن الله تعالى بالخيل والعدد والرزق، إلا أن جميع الأسعار غلت لا سيما السلاح وآلات الجندية من القماش والبرك وحوائج الخيل وغير ذلك حتى زادت عن الحد. ومما زاد سعر العمائم، فإن الجند كان على رؤوسهم في المصاف الخوذ، فلما آنكسروا رموا الخوذ تخفيفاً ووضعوا على رؤوسهم المناديل، فآحتاجوا لما حضروا إلى مصر إلى شراء العمائم، مع أن الملك الناصر أنفق في الجيش بعد عوده، واستخدم جمعاً كثيراً من الجند خوفاً من قدوم غازان إلى الديار المصرية. وتهيأ السلطان إلى لقاء غازان ثانياً، وجهز العساكر وقام بكلفهم أتم قيام على صغر سنه. فلما ورد عليه الخبر بعدم مجيء قازان إلى الديار المصرية تجهز وخرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية إلى ملتقى غازان ثانياً، بعد أن خلع على الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة الشام على عادته، وعلى الأمير قرا سنقر المنصوري بنيابة حماة وحلب، وكان خروج السلطان من مصر بعساكره في تاسع شهر رجب من سنة تسع وتسعين وستمائة. وسار حتى نزل بمنزلة الصالحية فبلغه عود قازان بعساكره إلى بلاده، فكلم الأمراء السلطان في عدم سفره ورجوعه إلى مصر فأبى عن رجوع العسكر، وسمع لهم في عدم سفره، وأقام بمنزلة الصالحية.

وسافر الأمير سلار المنصوري نائب السلطنة بالديار المصرية، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بالعساكر إلى الشام. ولما سار سلار وبيبرس الجاشنكير إلى جهة الشام تلاقوا في الطريق مع الأمير سيف الدين قبجق والأمير يكتمر السلاح دار والألبكي وهم قاصدون السلطان، فعتب الأمراء قبجق ورفقته عتباً هيناً على عبور قازان إلى البلاد الشامية، فاعتذروا أن ذلك كان خوفاً من الملك المنصور لاجين وحنقاً من مملوكه منكوتمر، وأنهم لما بلغهم قتل الملك المنصور لاجين كانوا قد تكلموا مع قازان في دخول الشام، ولا بقي يمكنهم الرجوع عما قالوه، ولا سبيل إلى الهروب من عنده، فقبلوا عذرهم وبعثوهم إلى الملك الناصر. فقدموا عليه بالصالحية وقبلوا الأرض بين يديه، فعتبهم أيضاً على ما وقع منهم، فذكروا له العذر السابق ذكره، فقبله منهم وخلع عليهم؛ وعاد السلطان إلى القاهرة وصحبته خواصه والأمير قبجق ورفقته، فطلع القلعة في يوم الخميس رابع عشر شعبان.

ودخل الأمراء إلى دمشق ومعهم الأمير آقوش الأفرم الصغير نائب الشام وغالب أمراء دمشق، وفي العسكر أيضاً الأمير قرا سنقر المنصوري متولي نيابة حماة وحلب؛ ودخل الجميع دمشق بتجمل زائد، ودخلوها على دفعات كل أمير بطلبه على حده؛ وسر الناس بهم غاية السرور، وعلموا أن في عسكر الإسلام القوة والمنعة ولله الحمد. وكان آخر من دخل إلى الشام الأمير سلار نائب السلطنة، وغالب الأمراء في خدمته، حتى الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري نائب صرخد؛ ونزل جميع الجيش بالمرج. وخلع على الأمير أرجواش المنصوري نائب قلعة دمشق باستمراره على عادته، وشكروا له الأمراء ما فعله من حفظ القلعة، ودخلوا الأمراء إلى دمشق وقلعة دمشق مغلقة وعليها الستائر والطوارف، فكلموه الأمراء في ترك ذلك.

فلما كان يوم السبت مستهل شهر رمضان أزال أرجواش الطوارف والستائر من على القلعة؛ فأقام العسكر بدمشق أياماً حتى أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمير سلار إلى نحو الديار المصرية بجميع أمراء مصر وعساكره في يوم السبت ثامن شهر رمضان، وتفرق باقي الجيش كل واحد إلى محل ولايته؛ ودخل سلار إلى مصر بمن معه في ثالث شوال بعد أن آحتفل الناس لملاقاتهم؛ وخرج أمراء مصر إلى بلبيس، وخلع السلطان على جميع من قدم من الأمراء رفقة سلار، وكانت خلعة سلار أعظم من الجميع. ودام السلطان بقية سنته بالديار المصرية.

فلما آستهلت سنة سبعمائة كثرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان؛ وكان قازان قد تسمى محموداً، وصار يقال له السلطان محمود غازان. ثم وصلت في أول المحرم من سنة سبعمائة الأخبار والقصاد من الشرق وأخبروا أن قازان قد جمع جموعاً كثيرة وقد ناس في جميع بلاده الغزاة إلى مصر، وأنه قاصد الشام؛ فجفل أهل الشام من دمشق وتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتت غالب أهل الشام إلى البلاد من الفرات إلى غزة، فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهز عساكره وتهيأ وخرج بجميع عساكره وأمرائه من القاهرة إلى مسجد التبن في يوم السبت ثالث عشر صفر، وسافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته إلى سلخ شهر ربيع الآخر، وتوجه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية، بعد أن لاقوا شدة ومشقة عظيمة من كثرة الأمطار والثلوج والأوحال وعدم المأكول، بحيث إنه انقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جلب المأكول لهم ولدوابهم، حتى إنهم لم يقدروا على الوصول إلى دمشق؛ وكان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعه الجبل يوم الاثنين حادي عشر جمادى الأولى.

وقبل عود السلطان إلى مصر كان جهز السلطان الأمير بكتمر السلاح دار والأمير بهاء الدين يعقوبا إلى دمشق أمامه، فدخلوا دمشق. ثم أشيع بدمشق عود السلطان إلى

القاهرة، فجفل غالب أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعهم بل يحسن لهم ذلك. وقيل إن والي دمشق بقي يجفل الناس بنفسه، وصار يمر بالأسواق، ويقول: في أي شيء أنتم قعود؟ ولما كان يوم السبت تاسع جمادى الأولى نادت المناداة بدمشق: من قعد فدمه في رقبته، ومن لم يقدر على السفر فليطلع إلى القلعة، فسافر في ذلك اليوم معظم الناس.

وأما قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قرون حماة وإلى بلاد سرمين، وسير معظم جيشه إلى بلاد أنطاكية وغيرها، فنهبوا من الدواب والأغنام والأبقار ما جاوز حد الكثرة، وسبوا عالماً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان. ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحداً وأربعين يوماً، وقت مطر ووقت ثلج، فهلك منهم عالم كثير؛ ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبح من المكسورين، وقد تلفت خيولهم وهلك أكثرها، وعجزهم الله تعالى وخذلهم، وردهم خائبين عما كانوا عزموا عليه.{وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ } [الأحزاب: ٢٥]. ووصل الخبر برجوعهم في جمادى الآخرة، وقد خلت دمشق وجميع بلاد الشام من سكانها.

في تاسع ذي القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أنس يخبر بحركة التتار، وأن التتار قد أرسلوا أمامهم رسلاً، وأن رسلهم قد قاربت الفرات؛ ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية في ليلة الاثنين خامس عشر ذي الحجة، وأعيان القصاد ثلاثة نفر: قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعي، وآخر عجمي وآخر تركي. ولما كان عصر يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء والمقدمين إلى القلعة وعملت الخدمة ولبسوا المماليك أفخر الثياب والملابس؛ وبعد العشاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحواً من ألف شمعة، ثم أظهروا زينة عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، وحضر القاضي بجملتهم وعلى رأسه طرحة، فقام وخطب خطبة بليغة وجيزة وذكر آيات كثيرة في معنى الصلح واتفاق الكلمة ورغب فيه؛ ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومن بعده للسلطان محمود غازان، ودعا للمسلمين والأمراء وأدى الرسالة. ومضمونها: إنما قصدهم الصلح؛ ودفعوا إليهم كتاباً مختوماً من السلطان غازان، فأخذ منهم الكتاب ولم يقرؤوه تلك الليلة، وأعيد الرسل إلى مكانهم. فلما كان ليلة الخميس فتح الكتاب وقرىء على السلطان وهو مكتوب بالمغلي وكتم الأمر. فلما كان يوم الخميس ثامن عشر ذي الحجة حضر جميع الأمراء والمقدمين وأكثر العسكر وأخرج إليهم الكتاب وقرئ عليهم، وهو مكتوب بخط غليظ في نصف قطع البغدادي، ومضمونه:

" بسم الله الرحمن الرحيم، وننهي بعد السلام إليه أن الله عز وجل جعلنا وإياكم أهل ملة واحدة، وشرفنا بدين الإسلام وأيدنا، وندبنا لإقامة مناره وسددنا؛ وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدره، وما كان ذلك إلا بما كسبت أيديكم، وما الله بظلام للعبيد. وسبب ذلك أن بعض عساكركم أغاروا على ماردين وبلادها في شهر رمضان المعظم قدره، الذي لم تزل الأمم يعظمونه في سائر الأقطار، وفيه تغل الشياطين وتغلق أبواب النيران، فطرقوا البلاد على حين غفلة من أهلها، وقتلوا وسبوا وفسقوا وهتكوا محارم الله بسرعة من غير مهلة؛ وأكلوا الحرام وارتكبوا الآثام، وفعلوا ما لم تفعله عباد الأصنام؛ فأتونا أهل ماردين صارخين مسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم، وقد آستولى عليهم الشقاء بعد النعيم؛ فلاذوا بجنابنا وتعلقوا بأسبابنا، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا؛ فهزتنا نخوة الكرام، وحركتنا حمية الإسلام، فركبنا على الفور بمن كان معنا ولم يسعنا بعد هذا المقام؛ ودخلنا البلاد وقدمنا النية، وعاهدنا الله تعالى على ما يرضيه عند بلوغ الأمنية؛ وعلمنا أن الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر بأن يسعوا في الأرض فساداً والله لا يحب الفساد، وأنه يغضب لهتك الحريم وسبي الأولاد، فما كان إلا أن لقيناكم بنية صادقة، وقلوب على الحمية للدين موافقة، فمزقناكم كل ممزق، والذي ساقنا إليكم، هو الذي نصرنا عليكم، وما كان مثلكم إلا كمثل قرية كانت آمنة مطمئنة - الآية - فوليتم الأدبار، واعتصمتم من سيوفنا بالفرار، فعفونا عنكم بعد آقتدار، ورفعنا عنكم حكم السيف البتار؛ وتقدمنا إلى جيوشنا ألا يسعوا في الأرض كما سعيتم، وأن ينشروا من العفو والعفاف ما طويتم ولو قدرتم ما عفوتم ولا عففتم؛ ولم نقلدكم منة بذلك، بل حكم الإسلام في قتال البغاة كذلك؛ وكان جميع ما جرى في سالف القدم، ومن قبل كونه جرى به في اللوح القلم؛ ثم لما رأينا الرعية تضرروا بمقامنا في الشام، لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام؛ وما حصل في قلوب الرعية من الرعب، عند معاينة جيوشنا التي هي كمطبقات السحب؛ فأردنا أن نسكن تخوفهم بعودتنا من أرضهم بالنصر والتأييد، والعلو والمزيد؛ فتركنا عندهم بعض جيوشنا بحيث تتونس بهم، وتعود في أمرها إليهم؛ ويحرسونهم من تعدي بعضهم على بعض، بحيث إنكم ضاقت بكم الأرض؛ إلى أن يستقر جأشكم، وتبصروا رشدكم؛ وتسيروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، وأكرادكم المتمردين؛ وتقدمنا إلى مقدمي طوامين جيوشنا أنهم متى سمعوا بقدوم أحد منكم إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

والآن فإنا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يفرق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل ماردين؛ وقد أخذنا منكم القصاص، وهو جزاء كل عاص؛

فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحن وإياكم على العدل في سائر القضايا؛ فقد آنضرت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعها الخوف من القرار في أوطانها؛ وتعذر سفر التجار، وتوقف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار؛ ونحن نعلم أننا نسأل عن ذلك ونحاسب عليه، وأن الله عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن جميع ما كان وما يكون في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. وأنت تعلم أيها الملك الجليل، أنني وأنت مطالبون بالحقير والجليل؛ وأننا مسؤولون عما جناه، أقل من وليناه، وأن مصيرنا إلى الله؛ وإنا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً ونية، عاملون بفروضه في كل وصية. وقد حملنا قاضي القضاة علامة الوقت حجة الإسلام بقية السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبد الله، أعزه الله تعالى، مشافهة يعيدها على سمع الملك والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسير لنا هدية الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أن قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النية؛ ونهدي إليكم من بلادنا ما يليق أن نهديه إليكم، والسلام الطيب منا عليكم. إن شاء الله تعالى.

فلما سمع الملك الناصر الكتاب استشار الأمراء في ذلك؛ وبعد أيام طلبوا قاضي الموصل أعني الرسول المقدم ذكره من عند قازان، وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخيار المسلمين، وتعلم ما يجب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حيلة ودهاء فنحن نحلف لك أن ما يطلع على هذا القول أحد من خلق الله تعالى، ورغبوه غاية الرغبة؛ فحلف لهم بما يعتقده أنه ما يعلم من قازان وخواصه غير الصلح وحقن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية. ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تتفقون وتبقون على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإن كان هذا الأمر خديعة فيظهر لكم فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتحقن الدماء فيما بينكم. فلما سمعوا كلامه رأوه ما فيه غرض وهو مصلحة، فشرعوا ليعينوا من يروح في الرسالة، فعينوا جماعة، منهم الأمير شمس الدين محمد بن التيتي، والخطيب شمس الدين الجوزي خطيب جامع ابن طولون، فتشفع ابن الجوزي حتى تركوه، وعينوا القاضي عماد الدين بن السكري خطيب جامع الحاكم، وهو ناظر دار العدل بالديار المصرية، وشخصاً أمير آخور من البرجية. ثم إن السلطان أخذ في تجهيز أمرهم إلى ما يأتي ذكره.

وفي يوم الأحد تاسع عشر المحرم من سنة إحدى وسبعمائة، رسم السلطان لجميع الأمراء والمقدمين بمصر والقاهرة أن يخرجوا صحبة السلطان إلى الصيد نحو

العباسة، وأن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام؛ وسافر السلطان بأكثر العسكر والجميع بعدتهم في بكرة يوم الاثنين في العشرين من المحرم. ونزل إلى بركة الحجاج وتبعه جميع الأمراء والمقدمين والعساكر، وبعد سفره سيروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجهوا إليه، وآجتمعوا بالسلطان في بركة الحجاج وعادوا إلى القاهرة، ثم شرعوا في تجهيز رسل قازان؛ وتقدم دهليز السلطان إلى الصالحية، ودخل السلطان والأمراء إلى البرية بسبب الصيد. فلما كان يوم الاثنين عشية النهار وصل السلطان والأمراء إلى الصالحية، فخلع على جميع الأمراء والمقدمين، وكان عدة ما خلع أربعمائة وعشرين خلعة، وكان الرسل قد سفروهم من القاهرة وأنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعون بالسلطان عند حضوره من الصيد. فلما حضر الأمراء قدام السلطان بالخلع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة أذهل عقول الرسل مما رأوا من حسن زي عسكر الديار المصرية بخلاف زي التتار، وأحضروا الرسل في الليل إلى الدهليز إلى بين يدي السلطان، وقد أوقدوا شموعاً كثيرة ومشاعل عديدة وفوانيس وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد بحيث إن البرية بقيت حمراء تتلهب نوراً وناراً، فتحدثوا معهم ساعة، ثم أعطوهم جواب الكتاب، وخلعوا عليهم خلع السفر وأعطوا لكل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك. ونسخة الكتاب المسير إليهم صورته:

" بسم الله الرحمن الرحيم: علمنا ما أشار الملك إليه، وعول في قوله وفعله عليه؛ فأما قول الملك: قد جمعتنا وإياكم كلمة الإسلام! وإنه لم يطرق بلادنا ولا قصدها إلا لما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول بل هو عندنا معلوم؛ وأن السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على ماردين، وأنهم قتلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعلوا فعل من لا دين له؛ فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم، مستمرة من عهد آبائكم وأجدادكم؛ وأن من فعل ما فعل من الفساد، لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد، بل من الأطراف الطامعة ممن لا يؤبه إليه، ولا يعول في فعل ولا قول عليه؛ وأن معظم جيشنا كان في تلك الغارة إذا لم يجدوا ما يشترونه للقوت صاموا لئلا يأكلوا ما فيه شبهة أو حرام، وأنهم أكثر ليلهم سجد ونهارهم صيام.

وأما قول الملك ابن الملك الذي هو من أعظم القان فيقول قولاً يقع عليه الرد من قريب، ويزعم أن جميع ما هو عليه من علمنا ساعة واحدة يغيب؛ ولو يعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب، أو خرج من منزله راجلاً أو راكباً، كان عندنا علم من ذلك في الوقت القريب؛ أو يتحقق أن أقرب بطائنه إليه، هو العين لنا عليه، وإن كثر ذلك لديه. ونحن تحققنا أن الملك بقي عامين يجمع الجموع، وينتصر بالتابع والمتبوع؛ وحشد وجمع من كل بلد وآعتضد بالنصارى والكرج والأرمن،

واستنجد بكل من ركب فرساً من فصيح وألكن؛ وطلب من المسومات خيولاً وركاب، وكثر سواداً وعدد أطلاب؛ ثم إنه لما رأى أنه ليس له بجيشنا قبل في المجال، عاد إلى قول الزور والمحال، والخديعة والاحتيال؛ وتظاهر بدين الإسلام، وآشتهر به في الخاص والعام؛ والباطن بخلاف ذلك، حتى ظن جيوشنا وأبطالنا أن الأمر كذلك؛ فلما التقينا معه، كان معظم جيشنا يمتنع من قتاله، ويبعد عن نزاله؛ ويقول: لا يجوز لنا قتال المسلمين، ولا يحل قتل من يتظاهر بهذا الدين!؛ فلهذا حصل منهم الفشل، وبتأخرهم عن قتالكم حصل ما حصل؛ وأنت تعلم أن الدائرة كانت عليك. وليس يرى من أصحابك إلا من هو نادم أو باكي، أو فاقد عزيز عنده أو شاكي؛ والحرب سجال يوم لك، ويوم عليك؛ وليس ذلك مما تعاب به الجيوش ولا تقهر، وهذا بقضاء الله وقدره المقدر. وأما قول الملك إنه لما آلتقى بجيشنا مزقهم كل ممزق، فمثل هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلم به، وهو يعلم وإن كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائع جيوشنا ومراتع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم؛ وإن كنت نصرت مرة فقد كسرت آباؤك مراراً، وإن كان جيشك قد داس أرضنا مرة فبلادكم لغارتنا مقام ولجيوشنا قرار؛ وكما تدين تدان.

وأما قول الملك: إنه ومن معه آعتقدوا الإسلام قولاً وفعلاً وعملاً ونية، فهذا الذي فعلته ما فعله من هو متوجه إلى هذه البنية، أعني الكعبة المضية، فإن الذي جرى بظاهر دمشق وجبل الصالحية ليس بخفي عنك ولا مكتوم، وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا من هو متمسك بهذا الدين؛ فأين وكيف وما الحجة! وحرم البيت المقدس تشرب فيه الخمور، وتهتك الستور، وتفتض البكور؛ ويقتل فيه المجاورون، ويستأسر خطباؤه أو المؤذنون؛ ثم على رأس خليل الرحمن، تعلق الصلبان، وتهتك النسوان، ويدخل فيه الكافر سكران، فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتك في دنياك وأخراك؛ ويا ويلك في مبدئك ومعادك، وعن قليل يؤذن بخراب عمرك وبلادك، وهلاك جيشك وأجنادك؛ وإن كنت لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرك ما فات فليس مطلوباً به سواك؛ وإن كنت كما زعمت أنك على دين الإسلام، وأنت في قولك صادق في الكلام، وفي عقدك صحيح النظام؛ فآقتل الطوامين الذين فعلوا هذه الفعال، وأوقع بهم أعظم النكال؛ لنعلم أنك على بيضاء المحجة، وكان فعلك وقولك أبلغ حجة؛ ولما وصلت جيوشنا إلى القاهرة المحروسة وتحققوا أنكم تظاهرتم بكلمة الإخلاص وخدعتم باليمين والإيمان، وانتصرتم على قتالهم بعبدة الصلبان؛ آجتمعوا وتأهبوا وخرجوا بعزمات محمدية، وقلوب بدرية، وهمم علية، عند الله مرضية؛ وجدوا السير في البلاد، ليتشفوا منكم غليل الصدور والأكباد؛ فما وسع جيشكم إلا

الفرار، وما كان لهم على اللقاء صبر ولا قرار؛ فآندفعت عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفروا بنيل المرام؛ فخشينا على رعيتكم تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مسلك؛ فأمرناهم بالمقام، ولزوم الأهبة والاهتمام؛ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وأما ما تحمله قاضي القضاة من المشافهة، فإنا سمعناه ووعيناه وتحققنا تضمنته مشافهة؛ ونحن نعلم علمه ونسكه ودينه وفضله المشهور، وزهده في دار الغرور؛ ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم، لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خفي مستوركم؛ فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح؛ وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مين ولا يشوبه تنميق؛ نقلدك سيف البغي، ومن سل سيف البغي قتل به، ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله؛ فيرسل إلينا من خواص دولتك رجل يكون منكم ممن إذا قطع بأمر وقفتم عنده، أو فصل حكماً انتهيتم إليه، أو جزم أمراً عولتم عليه؛ يكون له في أول دولتكم حكم وتمكين، وهو فيما يعول عليه ثقة أمين؛ لنتكلم معه فيما فيه الصلاح لذات البين، وإن لم يكن كذلك عاد بخفي حنين.

وأما ما طلبه الملك من الهدية من الديار المصرية فليس نبخل عليه، ومقداره عندنا أجل مقدار وجميع ما يهدى إليه دون قدره، وإنما الواجب أن يهدي أولاً من آستهدى؛ لتقابل هديته بأضعافها، ونتحقق صدق نيته، وإخلاص سريرته؛ ونفعل ما يكون فيه رضا الله عز وجل ورضا رسوله في الدنيا والآخرة، لعل صفقتنا رابحة في معادنا غير خاسرة. والله تعالى الموفق للصواب ". انتهى.

ثم ورد الخبر على السلطان من طرابلس بأن الفرنج أنشؤوا جزيرة تجاه طرابلس تعرف بجزيرة أرواد، وعمروها بالعدد والآلات، وكثر فيها جمعهم، وصاروا يركبون البحر ويأخذون المراكب. فرسم السلطان للوزير بعمارة أربعة شوان حربية في محرم سنة اثنتين وسبعمائة ففعل ذلك، ونجزت عمارة الشواني وجهزت بالمقاتلة وآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارئ العلائي وإلى البهنسا؛ واجتمع الناس لمشاهدة لعب الشواني في يوم السبت ثاني عشر المحرم، ونزل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، وآجتمع من العالم ما لا يحصيه إلا الله تعالى حتى بلغ كراء المركب التي تحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم؛ وآمتلأ البر من بولاق إلى الصناعة حتى لم يوجد موضع قدم؛ ووقف العسكر على بر بستان الخشاب وركب الأمراء الحراريق إلى الروضة وبرزت الشواني تجاه المقياس تلعب كأنها في الحرب، فلعب الشيني الأول والثاني والثالث، وأعجب الناس إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، وتقدم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلا أنه خرج

من الصناعة بمصر وتوسط في النيل إذا بالريح حركته فمال به ميلة واحدة آنقلب وصار أعلاه أسفله، فصرخ الناس صرخة واحدة كادت تسقط منها الحبالى، وتكدر ما كانوا فيه من الصفو فتلاحق الناس بالشيني وأخرجوا ما سقط منه في الماء، فلم يعدم منه سوى الأمير آقوش وسلم الجميع، فتكدر السلطان والأمراء بسببه، وعاد السلطان بأمرائه إلى القلعة وآنفض الجمع. وبعد ثلاثة أيام أخرج الشيني فإذا امرأة الريس وابنها وهي ترضعه في قيد الحياة، فاشتد عجب الناس من سلامتها طول هذه الأيام! قاله المقريزي وغيره، والعهدة عليهم في هذا النقل. ثم شرع العمل في إعادة الشيني الذي غرق حتى نجز، وندب السلطان الأمير سيف الدين كهرداش الزراق المنصوري إلى السفر فيه عوضاً عن آقوش الذي غرق، رحمه الله تعالى، وتوجه الجميع إلى طرابلس ثم إلى جزيرة أرواد المذكورة، وهي بالقرب من أنطرطوس، فأخربوها وسبوا وغنموا، وكان الأسرى منها مائتين وثمانين نفراً؛ وقدم الخبر بذلك إلى السلطان فسر وسر الناس قاطبة ودقت البشائر لذلك أياماً؛ وآتفق في ذلك اليوم أيضاً حضور الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح من غزو سيس.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب بأن قازان على عزم الحركة إلى الشام، فوقع الاتفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعين من الأمراء الأمير بيبرس الجاشنكير، وطغريل الإيغاني، وكراي المنصوري، وحسام الدين لاجين أستادار بمضافيهم وثلاثة آلاف من الأجناد، وساروا من مصر في ثامن عشر شهر رجب؛ وتواترت الأخبار بنزول قازان على الفرات، ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمامه قطلوشاه من أصحابه على عساكر عظيمة إلى الشام تبلغ ثمانين ألفاً، وكتب إلى الأمير عز الدين أيبك الأفرم نائب الشام يرغبه في طاعته.

ودخل الأمير بيبرس الجاشنكير بمن معه إلى دمشق في نصف شعبان، ولبث يستحث السلطان على الخروج. وأقبل الناس من حلب وحماة إلى دمشق جافلين من التتار، فاستعد أهل دمشق للفرار ولم يبق إلا خروجهم، فنودي بدمشق: من خرج منها حل ماله وعمه. وخرج الأمير بهادر آص والأمير قطلوبك المنصوري، وأنس الجمدار في عسكر إلى حماة، ولحق بهم عساكر طرابلس وحمص، فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كتبغا المنصوري؛ وبلغ التتار ذلك فبعثوا طائفة كثيرة إلى القريتين فأوقعوا بالتركمان، فتوجه إليهم أسندمر كرجي نائب طرابلس وبهادر آص وكجكن وغرلوا العادلي وتمر الساقي وأنص الجمدار ومحمد بن قرا سنقر في ألف وخمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عرض في حادي عشر شعبان. على غفلة، فافترقوا عليهما أربع فرق، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى

العصر حتى كسروهم وأفنوهم - وكانوا التتار، فيما يقال، أربعة آلاف - وآستنقذوا التركمان وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أنص الجمدار المنصوري ومحمد بن باشقرد الناصري وستة وخمسون من الأجناد؛ وعاد من آنهزم من التتار إلى قطلوشاه، وأسر العسكر المصري مائة وثمانين من التتار، وكتب إلى السلطان بذلك ودقت البشائر بدمشق. وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية في ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المستكفي بالله، واستناب السلطان بديار مصر الأمير عز الدين أيبك البغدادي. وجد قطلوشاه مقدم التتار بالعساكر في المسير حتى نزل قرون حماة في ثالث عشر شعبان، فآندفعت العساكر المصرية التي كانت بحماة بين يديه إلى دمشق، وركب نائب حماة الأمير كتبغا الذي كان تسلطن وتلقب بالملك العادل في محفة لضعفه؛ واجتمع الجميع بدمشق وآختلف رأيهم في الخروج إلى لقاء العدو أو آنتظار قدوم السلطان؛ ثم خشوا من مفاجأة العدو فنادوا بالرحيل؛ وركبوا في أول شهر رمضان من دمشق، فاضطربت دمشق بأهلها، وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم، واشتروا الحمار بستمائة درهم والجمل بألف درهم، وترك كثير منهم حريمه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة؛ فلم يأت الليل إلا وبوادر التتار في سائر نواحي المدينة. وسار العسكر مخفاً، وبات الناس بدمشق في الجامع يضجون بالدعاء إلى الله تعالى؛ فلما أصبحوا رحل التتار عن دمشق بعد أن نزلوا بالغوطة.

وبلغ الأمراء قدوم السلطان فتوجهوا إليه من مرج راهط فلقوه على عقبة الشحورا في يوم السبت ثاني عشر رمضان وقبلوا له الأرض. ثم ورد عند لقائهم به الخبر بوصول التتار في خمسين ألفاً مع قطلوشاه نائب غازان، فلبس العسكر بأجمعه السلاح، واتفقوا على قتال التتار بشقحب تحت جبل غباغب؛ وكان قطلوشاه قد وقف على أعلى النهر، فصفت العساكر الإسلامية: فوقف السلطان في القلب وبجانبه الخليفة، والأمير سلار النائب، والأمير بيبرس الجاشنكير، وعز الدين أيبك الخازندار، وبكتمر الجوكندار، وآقوش الأفرم نائب الشام، والأمير برلغي، والأمير أيبك الحموي، وبكتمر الأبو بكري، وقطلوبك، ونوغاي السلاح دار، ومبارز الدين أمير شكار، ويعقوبا الشهرزوري، ومبارز الدين أوليا بن قرمان؛ ووقف في الجناح الأيمن الأمير قبجق بعساكر حماة والعربان وجماعة كثيرة من الأمراء؛ ووقف في الميسرة الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح، والأمير قرا سنقر نائب حلب

بعساكرها، والأمير بتخاص نائب صفد بعساكرها؛ والأمير طغريل الإيغاني، وبكتمر السلاح دار وبيبرس الدوادار بمضافيهم.

ومشى السلطان على التتار والخليفة بجانبه ومعهما القراء يتلون القرآن ويحثون على الجهاد ويشوقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: " يا مجاهدون؛ لا تنظروا لسلطانكم. قاتلوا عن دين نبيكم صلى الله عليه وسلم وعن حريمكم! " والناس في بكاء شديد، ومنهم من سقط عن فرسه إلى الأرض! وتواصى بيبرس وسلار على الثبات في الجهاد. وكل ذلك والسلطان والخليفة يكر في العساكر يميناً وشمالاً. ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغلمان والأحمال والعساكر صفاً واحداً، وقال لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سلبه.

فلما تم الترتيب زحفت كراديس التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر من يوم السبت ثاني رمضان المذكور. وأقبل قطلوشاه بمن معه من الطوامين، وحملوا على الميمنة فثبتت لهم الميمنة وقاتلوهم أشد قتال حتى قتل من أعيان الميمنة الأمير حسام الدين لاجين الأستادار، وأوليا بن قرمان، والأمير سنقر الكافوري، والأمير أيدمر الشمسي القشاش، والأمير آقوش الشمسي الحاجب، وحسام الدين علي بن باخل ونحو الألف فارس، كل ذلك وهم في مقابلة العدو والقتال عمال بينهم. فلما وقع ذلك أدركتهم الأمراء من القلب ومن الميسرة، وصاح سلار: " هلك والله أهل الإسلام! " وصرخ في بيبرس الجاشنكير وفي البرجية فأتوه دفعة واحدة، فأخذهم وصدم بهم العدو وقصد مقدم التتار قطلوشاه، وتقدم عن الميمنة حتى أخذت الميمنة راحة، وأبلى سلار في ذلك اليوم هو وبيبرس الجاشنكير بلاء حسناً، وسلموا نفوسهم إلى الموت. فلما رأى باقي الأمراء منهم ذلك ألقوا نفوسهم إلى الموت، واقتحموا القتال؛ وكانت لسلار والجاشنكير في ذلك اليوم اليد البيضاء على المسلمين - رحمهما الله تعالى - واستمروا في القتال إلى أن كشفوا التتار عن المسلمين. وكان جوبان وقرمجي وهما من طوامين التتار قد ساقا تقوية لبولاي وهو خلف المسلمين؛ فلما عاينوا الكسرة على قطلو شاه أتوه نجدة ووقفوا في وجه سلار وبيبرس، فخرج من عسكر السلطان أسندمر، والأمير قطلوبك والأمير قبجق والمماليك السلطانية وأردفوا سلار وبيبرس، وقاتلوا أشد قتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتار على الأمير برلغي في موقفه، فتوجهوا الجماعة المذكورون إلى برلغي، واستمر القتال بينهم.

وأما سلار فإنه قصد قطلوشاه مقدم التتار وصدمه بمن معه، وتقاتلا وثبت كل منهما.

وكانت الميمنة لما قتل الأمراء منها آنهزم من كان معهم، ومرت التتار خلفهم فجفل الناس وظنوا أنها كسرة؛ وأقبل السواد الأعظم على الخزائن السلطانية فكسروها

ونهبوا ما فيها من الأموال؛ وجفل النساء والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، وكشف النساء عن وجوههن وأسبلن الشعور. وضج ذلك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول أن تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة! وآستمر القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كل من الطائفتين عن القتال.

ومال قطلوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصعد عليه وفي نفسه أنه انتصر، وأن بولاي في أثر المنهزمين من المسلمين؛ فلما صعد الجبل رأى السهل والوعر كله عساكر، والميسرة السلطانية ثابتة وأعلامها تخفق، فبهت قطلوشاه وتحير وآستمر بموضعه حتى كمل معه جمعه وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ومعهم عدة من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأمير عز الدين أيدمر نقيب المماليك السلطانية، فأحضره قطلوشاه وسأله: " من أين أنت؟ " فقال: " من أمراء مصر "، وأخبره بقدوم السلطان؛ وكان قطلوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت؛ فعند ذلك جمع قطلوشاه أصحابه وشاورهم فيما يفعل، وإذا بكوسات السلطان والبوقات قد زحفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بحسها، فلم يثبت بولاي وخرج من تجاه قطلوشاه في نحو العشرين ألفاً من التتار، ونزل من الجبل بعد المغرب ومر هارباً.

وبات السلطان وسائر عساكره على ظهور الخيل والطبول تضرب، وتلاحق بهم من كان آنهزم شيئاً بعد شيء، وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية والكوسات؛ وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار بيبرس وسلار وقبجق والأمراء والأكابر في طول الليل دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم ويرتبونهم ويؤكدون عليهم في التيقظ، ووقف كل أمير في مصافه مع أصحابه، والحمل والأثقال قد وقف على بعد، وثبتوا على ذلك حتى آرتفعت الشمس.

وشرع قطلوشاه في ترتيب من معه، ونزلوا مشاة وفرساناً وقاتلوا العساكر. فبرزت المماليك السلطانية بمقدميها إلى قطلوشاه وجوبان، وعملوا في قتالهم عملاً عظيماً، فصاروا تارة يرمونهم بالسهام وتارة يواجهونهم بالرماح، واشتغل الأمراء أيضاً بقتال من في جهتهم، وصاروا يتناوبون في القتال أميراً بعد أمير. وألحت المماليك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف حتى إن بعضهم قتل تحته الثلاثة من الخيل. وما زال الأمراء على ذلك حتى انتصف نهار الأحد، صعد قطلوشاه الجبل وقد قتل من عسكره نحو ثمانين رجلاً، وجرح الكثير واشتد عطشهم.

واتفق أن بعض من كان أسره التتار هرب ونزل إلى السلطان، وعرفه أن التتار قد

أجمعوا على النزول في السحر لمصادمة العساكر السلطانية، وأنهم في شدة من العطش، فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويركب الجيش أقفيتهم.

فلما باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الاثنين، ركب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرض لهم أحد وساروا إلى النهر فاقتحموه؛ فعند ذلك ركبهم بلاء الله من المسلمين وأيدهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوس التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومروا في أثرهم قتلاً وأسراً إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان وعرفوه بهذا النصر العظيم، فكتبت البشائر في البطائق، وسرحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غزة. وكتب إلى غزة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتتبع من نهب الخزائن السلطانية والاحتفاظ بمن يمسك منهم، وعين السلطان الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح للمسير بالبشارة إلى مصر ثم كتب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

ثم ركب السلطان في يوم الاثنين من مكان الواقعة، وبات ليلته بالكسوة وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها ومعه الخليفة في عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامة والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجون بالدعاء والهناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنة! وتساقطت عبرات الناس فرحاً، ودقت البشائر بسائر الممالك؛ وكان هذا اليوم يوماً لم يشاهد مثله. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق، وقد زينت المدينة.

واستمرت الأمراء وبقيت العساكر في طلب التتار إلى القريتين، وقد كلت خيول التتار وضعفت نفوسهم وألقوا أسلحتهم واستسلموا للقتل، والعساكر تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا من الغنائم، وقتل الواحد من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أدركت عربان البلاد التتار وأخذوا في كيدهم: فيجيء منهم الاثنان والثلاثة إلى العدة الكثير من التتار، كأنهم يهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصلونهم إلى البرية ويتركونهم بها فيموتوا عطشاً؛ ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غوطة دمشق، فخرجت إليهم عامة دمشق فقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

ثم تتبعت الحكام النهبة وعاقبوا منهم جماعة كثيرة حتى تحصل أكثر ما نهب من الخزائن ولم يفقد منه إلا القليل.

ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم؛ ثم حضر الأمير برلغي، وقد كان آنهزم، فلم يأذن له السلطان في الدخول عليه، وقال: بأي وجه تدخل علي أو تنظر في وجهي! فما زال به الأمراء حتى رضي عنه. ثم قبض على رجل من أمراء حلب كان قد

انتمى إلى التتار وصار يدلهم على الطرقات، فسمر على جمل وشهر بدمشق وضواحيها. وآستمر الناس في شهر رمضان كله في مسرات تتجدد، ثم صلى السلطان صلاة عيد الفطر، وخرج في ثالث شوال من دمشق يريد الديار المصرية.

وأما التتار فإنه لما قتل أكثرهم ودخل قطلوشاه الفرات في قليل من أصحابه. ووصل خبر كسرته إلى همذان، ووقعت الصرخات في بلادهم، وخرج أهل تبريز وغيرها إلى لقائهم واستعلام خبر من فقد منهم حتى علموا ذلك، فقامت النياحة في مدينة تبريز شهرين على القتلى.

ثم بلغ الخبر غازان فاغتم غماً عظيماً وخرج من منخريه دم كثير حتى أشفى على الموت وآحتجب عن حواشيه، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كل عشرة واحد ممن كان آنتخبهم من خيار جيشه. ثم بعد ذلك بمدة جلس غازان وأوقف قطلوشاه مقدم عساكره وجوبان وسوتاي ومن كان معهم من الأمراء، وأنكر على قطلوشاه وأمر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه وأبعده من قدامه حتى صار على مسافة بعيدة بحيث يراه، وقام إليه، وقد مسكه الحجاب، سائر من حضر - وهم خلق كثير جداً - وصار كل منهم يبصق في وجهه حتى بصق الجميع! ثم أبعده عنه إلى كيلان ثم ضرب بولاي عدة عصي وأهانه. وفي الجملة فإنه حصل على غازان بهذه الكسرة من القهر والهم ما لا مزيد عليه، ولله الحمد.

وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى وصل إلى القاهرة، ودخلها في يوم ثالث عشرين شوال حسب ما يأتي ذكره. وكان نائب الغيبة رسم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة، وكتب بإحضار سائر مغاني العرب بأعمال الديار المصرية كلها. وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا القلاع، واقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزينوا ما يخص كل واحد منهم وعملوا به قلعة بحيث نودي: من آستعمل صانعاً في غير صنعة القلاع كانت عليه جناية للسلطان. وتحسن سعر الخشب والقصب وآلات النجارة، وتفاخروا في تزيين القلاع المذكورة، وأقبل أهل الريف إلى القاهرة للفرجة على قدوم السلطان وعلى الزينة، فإن الناس كانوا أخرجوا الحلي والجواهر واللآلىء وأنواع الحرير فزينوا بها. ولم ينسلخ شهر رمضان حتى تهيأ أمر القلاع؛ وعمل ناصر الدين محمد بن الشيخي والي القاهرة قلعة بباب النصر فيها سائر أنواع الخد والهزل ونصب عدة أحواض ملأها بالسكر والليمون وأوقف مماليكه بشربات حتى يسقوا العسكر.

قلت: لو فعل هذا في زماننا والي القاهرة لكان حصل عليه الإنكار بسبب إضاعة المال، وقيل له: لم لا حملت إلينا ما صرفته؟ فإنه كان أنفع وخيراً من هذا الفشار،

وإنما كانت نفوس أولئك غنية وهممهم علية؛ وما كان جل قصدهم إلا إظهار النعمة والتفاخر في الحشم والأسمطة والإنعامات حتى يشاع عنهم ذلك ويذكر إلى الأبد، فرحم الله تلك الأيام وأهلها!.

وقدم السلطان إلى القاهرة في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شوال، وقد خرج الناس إلى لقائه وللفرجة عليه، وبلغ كراء البيت الذي يمر عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مائة درهم. فلما وصل السلطان إلى باب النصر ترجل الأمراء كلهم، وأول من ترجل منهم الأمير بدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح وأخذ يحمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكبر سنه ويحمل السلاح خلفه فامتنع ومشى. وحمل الأمير مبارز الدين سوار الرومي أمير شكار القبة والطير على رأس السلطان، وحمل الأمير بكتمر أمير جاندار العصا، والأمير سنجر الجمقدار الدبوس؛ ومشى كل أمير في منزلته، وفرش كل منهم الشقق من قلعته إلى قلعة غيره التي أنشأوها بالشوارع. وكان السلطان إذا تجاوز قلعة فرشت القلعة المجاورة لها الشقق، حتى يمشي عليها بفرسه مشياً هيناً من غير هرج بسكون ووقار لأجل مشي الأمراء بين يديه. وكان السلطان كلما رأى قلعة أمير أمسك عن المشي ووقف حتى يعاينها ويعرف ما آشتملت عليه هو والأمراء حتى يجبر خاطر فاعلها بذلك.

هذا والأمراء من التتار بين يديه مقيدون، ورؤوس من قتل منهم معلقة في رقابهم، وألف رأس على ألف رمح، وعدة الأسرى ألف وستمائة، وفي أعناقهم أيضاً ألف وستمائة رأس، وطبولهم قدامهم مخرقة.

ثم إن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبع وسبعمائة ضجر من الحجر عليه من تحكم الأميرين سلار وبيبرش الجاشنكير ومنعه من التصرف وضيق يده، وشكا ذلك لخاصته، وآستدعى الأمير بكتمر الجوكندار وهو أمير جاندار يوم ذاك في خفية وأعلمه بما عزم عليه من القيام على الأميرين سلار وبيبرس، فقرر معه بكتمر أن القلعة إذا أغلقت في الليل وحملت مفاتيحها إلى السلطان على العادة لبست مماليك السلطان السلاح وركبت الخيول من الإسطبل وسارت إلى إسطبلات الأمراء، ودقت كوسات السلطان بالقلعة دقاً حربياً ليجتمع المماليك تحت القلعة ممن هو في طاعة السلطان، قال بكتمر: وأنا أهجم على بيتي سلار وبيبرس بالقلعة أيضاً.

قلت: أعني أن بكتمر كان سكنه بالقلعة، فيهجم هو أيضاً على بيتي سلار وبيبرس بالقلعة أيضاً، ويأخذهما قبضاً باليد.

وكان لكل من بيبرس وسلار أعين عند السلطان، فبلغوهما ذلك، فاحترزا على أنفسهما، وأمر الأمير سيف الدين بلبان الدمشقي والي القلعة، وكان

خصيصاً بهما، أن يوهم أنه أغلق باب القلعة ويطرف أقفالها ويعبر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك. وظن السلطان ومماليكه أنهم قد حصلوا على غرضهم، وآنتظروا بكتمر الجوكندار أن يحضر إليهم فلم يحضر، فبعثوا إليه فإذا هو مع بيبرس وسلار وقد حلف لهما على القيام معهما. فلما طلع النهار ظن السلطان أن بكتمر قد غدر به وترقب المكروه من الأمراء، وليس الأمر كذلك، وما هو إلا أن سلار وبيبرس لما بلغهما الخبر خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، وعزم بيبرس أن يهجم على بكتمر ويقتله فمنعه سلار لما كان عنده من التثبت والتؤدة، وأشار بالإرسال إليه ويحضره حتى تبطل حركة السلطان؛ فلما أتى بكتمر الرسول تحير في أمره وقصد الامتناع، وألبس مماليكه السلاح ومنعهم وخرج إليهم، فعنفه سلار ولامه على ما قصد فأنكر وحلف لهم على أنه معهم، وأقام عندهم إلى الصباح، ودخل مع الأمراء إلى الخدمة عند الأمير سلار النائب ووقف ألزام سلار وبيبرس على خيولهم بباب الإسطبل مترقبين خروج المماليك السلطانية، ولم يدخل أحد من الأمراء إلى خدمة السلطان وتشاوروا. وقد أشيع في القاهرة أن الأمراء يريدون قتل السلطان الملك وخرج العامة والأجناد إلى تحت القلعة، وبقي الأمراء نهارهم مجتمعين، وبعثوا بالاحتراس على السلطان خوفاً من نزوله من باب السر، وألبسوا عدة مماليك وأوقفوهم مع الأمير سيف الدين سمك أخي سلار على باب الإسطبل.

فلما كان نصف الليل وقع بداخل الإسطبل حس وحركة من قيام المماليك السلطانية ولبسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حمية من الإسطبل، وتوقعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك؛ وأراد الأمير سمك إقامة الحرمة فرمى بالنشاب ودق الطبل فوقع سهم من النشاب بالرفرف السلطاني وآستمر الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: " ما سبب هذا الركوب على باب إسطبلي؟ إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلع إليه، فخذوه وابعثوني أي موضع أردتم! " فردوا إليه الجواب مع الأمير بيبرس الدوادار والأمير عز الدين أيبك الخازندار والأمير برلغي الأشرفي بأن السبب هو من عند السلطان من المماليك الذين يحرضونه على الأمراء؛ فأنكر أن يكون أحد من مماليكه ذكر له شيئاً عن الأمراء، وفي عود الجواب من عند السلطان وقعت صيحة بالقلعة سببها أن العامة كان جمعهم قد كثر، وكان عادتهم أنهم لا يريدون أن يلي الملك أحد من المماليك، بل إن كان ولا بد يكون الذي يلي الملك من بني قلاوون. وكانوا مع ذلك شديدي

المحبة للملك الناصر محمد بن قلاوون. فلما رأوا العامة أن الملك الناصر قد وقف بالرفرف من القلعة، وحواشي بيبرس وسلار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرينه، حنقوا من ذلك وصرخوا، ثم حملوا يداً واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، وهم يقولون: " يا ناصر! يا منصور! " فأراد سمك قتالهم، فمنعه من كان معه من الأمراء وخوفه الكسرة من العوام، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطاني وسطا عليهم العامة وأفحشوا في حقهم. وبلغ ذلك بيبرس وسلار فأركبا الأمير بتخاص المنصوري في عدة مماليك فنزلوا إلى العامة ينحونهم ويضربونهم بالدبابيس ليتفرقوا فآشتد صياحهم: يا ناصر! يا منصور! وتكاثر جمعهم وصاروا يدعون للسلطان، ويقولون: الله يخون الخائن، الله يخون من يخون ابن قلاوون! ثم حملت طائفة منهم على بتخاص ورجمته طائفة أخرى، فجرد السيف ليضعه فيهم فخشي تكاثرهم عليه، فأخذ يلاطفهم، وقال لهم: طيبوا خاطركم، فإن السلطان قد طاب خاطره على أمرائه؛ وما زال يحلف لهم حتى تفرقوا.

وعاد بتخاص إلى سلار وبيبرس وعرفهم شدة تعصب العامة للسلطان؛ فبعث الأمراء عند ذلك ثانياً إلى السلطان بأنهم مماليكه وفي طاعته، ولا بد من إخراج الشباب الذين يرمون الفتنة بين السلطان والأمراء، فامتنع السلطان من ذلك وآشتد، فما زال به بيبرس الدوادار وبرلغي حتى أخرج منهم جماعة وهم: يلبغا التركماني، وأيدمر المرقبي، وخاص ترك؛ فهددهم بيبرس وسلار ووبخاهم وقصد سلار أن يقيدهم، فلم توافق الأمراء على ذلك رعاية لخاطر السلطان؛ فأخرجوا إلى القدس من وقتهم على البريد. ودخل جميع الأمراء على السلطان وقبلوا الأرض ثم قبلوا يده فخلع على الأمير بيبرس وسلار.

ثم سأل الأمراء السلطان أن يركب في أمرائه إلى الجبل الأحمر حتى تطمئن قلوب العامة عليه ويعلموا أن الفتنة قد خمدت، فأجاب لذلك. وبات ليلته في قلق زائد وكرب عظيم لإخراج مماليكه المذكورين إلى القدس. ثم ركب بالأمراء من الغد إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر، وعاد بعد ما قال لبيبرس وسلار: إن سبب الفتنة إنما كان من بكتمر الجوكندار؛ وذلك أنه رآه قد ركب بجانب الأمير بيبرس الجاشنكير وحادثه، فتذكر غدره به، فشق عليه ذلك. فتلطفوا به في أمره، فقال: " والله ما بقيت لي عين تنظر إليه؛ ومتى أقام في مصر لا جلست على كرسي الملك أبداً "؛ فأخرج من وقته إلى قلعة الصبيبة، واستقر عوضه أمير جاندار الأمير بدر الدين بكتوب الفتاح. فلما مات سنقرشاه بعد ذلك آستقر بكتمر الجوكندار في نيابة صفد عوضه

فنقل إليها من الصبيبة. وآجتاز السلطان بخانقاه الأمير بيبرس الجاشنكير داخل باب النصر فرآها في ممره، وكان قد نجز العمل منها في هذه الأيام، وطلع السلطان إلى القلعة وسكن الحال، والأمراء في حصر من جهة العامة من تعصبهم للسلطان، والسلطان، في حصر بسبب حجر الأمراء عليه وإخراج مماليكه من عنده. وآستمر ذلك إلى أن كان العاشر من جمادى الآخرة من سنة ثمان وسبعمائة عدى السلطان الجيزة وأقام حول الأهرام يتصيد عشرين يوماً، وعاد وقد ضاق صدره وصار في غاية الحصر من تحكم بيبرس الجاشنكير وسلار عليه، وعدم تصرفه في الدولة من كل ما يريد، حتى إنه لا يصل إلى ما تشتهي نفسه من المأكل لقلة المرتب له! فلولا ما كان يتحصل له من أملاكه وأوقاف أبيه لما وجد سبيلاً لبلوغ بعض أغراضه؛ وطال الأمر عليه سنين، فأخذ في عمل مصلحة نفسه وأظهر أنه يريد الحج بعياله، وحدث بيبرس وسلار في ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه، وأعجب البرجية خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم، وشرعوا في تجهيزه؛ وكتب إلى دمشق والكرك وغزة برمي الإقامات، وألزم عرب الشرقية بحمل الشعير، فتهيأ ذلك. وأحضر الأمراء تقادمهم له من الخيل والجمال في العشرين من شهر رمضان فقبلها منهم وشكرهم على ذلك. وركب في خامس وعشرين شهر رمضان من القلعة يريد السفر إلى الحج، ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء؛ وخرج العامة حوله وحاذوا بينه وبين الأمراء، وهم يتباكون حوله ويتأسفون على فراقه ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج. وتعين للسفر مع السلطان من الأمراء: عز الدين أيدمر الخطيري الأستادار، وسيف الدين آل ملك الجوكندار، وحسام الدين قرا لاجين أمير مجلس، وسيف الدين بلبان أمير جاندار، وعز الدين أيبك الرومي السلاح دار، وركن الدين بيبرس الأحمدي، وعلم الدين سنجر الجمقدار، وسيف الدين تقطاي الساقي، وشمس الدين سنقر السعدي النقيب، ومن المماليك خمسة وسبعون نفراً. وودعه سلار وبيبرس بمن معهم من الأمراء وهم على خيولهم من غير أن يترجلوا له، وعاد الأمراء.

ورحل السلطان من ليلته وخرج إلى جهة الصالحية وتصيد بها، ثم سار إلى الكرك ومعه من الخيل مائة وخمسون فرساً، فوصل إلى الكرك في يوم الأحد عاشر شوال بمن معه من الأمراء ومماليكه. واحتفل الأمير جمال الدين آقوش الأشرفي نائب الكرك بقدومه وقام له بما يليق به، وزين له القلعة والمدينة، وفتح له باب السر من

قلعة الكرك ومد الجسر على الخندق، وكان له مدة سنين لم يمد وقد ساس خشبه لطول مكثه. فلما عبرت الدواب عليه وأتى السلطان في آخرهم آنكسر الجسر تحت رجلي فرس السلطان بعدما تعدى يدا الفرس الجسر، فكاد فرس السلطان أن يسقط لولا أنهم جبدوا عنان الفرس حتى خرج من الجسر وهو سالم؛ وسقط الأمير بلبان طرنا أمير جاندار وجماعة كثيرة، ولم يمت منهم سوى رجل واحد، وسقط أكثر خاصكية السلطان في الخندق وسلموا كلهم إلا اثنين، وهم: الحاج عز الدين أزدمر رأس نوبة الجمدارية آنقطع نخاعه وبطل وعاش كذلك لسنة ست عشرة وسبعمائة، والآخر مات لوقته.

وقال ابن كثير: لما جرى على السلطان ما جرى واستقر في قلعة الكرك خلع على النائب، وأذن له في التوجه إلى مصر فسافر.

فلما سمعت الأمراء ذلك اجتمعت على سلطنة الأمير سلار، فخاف سلار من ذلك وخشي العاقبة فامتنع، فآختار الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير وأكثرهم البرجية فإنهم خشداشيته. وبويع له بعد أن أثبت كتاب الملك الناصر محمد بن قلاوون على القضاة بالديار المصرية بأنه خلع نفسه؛ وكانت البيعة لبيبرس في الثالث والعشرين من شوال من سنة ثمان وسبعمائة في يوم السبت بعد العصر في دار سلار. يأتي ذكر ذلك كله في أول ترجمة بيبرس، إن شاء الله تعالى. وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد ابن قلاوون في هذه المرة الثانية عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً. وتأتي بقية ترجمته في سلطنته الثالثة بعد أن نذكر سلطنة بيبرس وأيامه كما نذكر أيام الملك الناصر هذا قبل ترجمة بيبرس المذكور على عادة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. والحمد لله وحده.

* * *

سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير

السلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصوري الجاشنكير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البرجية، وكان جركسي الجنس، ولم نعلم أحداً ملك مصر من الجراكسة قبله إن صح أنه كان جركسياً. وتأمر في أيام أستاذه المنصور قلاوون، وبقي على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء في دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. ولما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بيبرس هذا أستاداراً إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كتبغا عزله عن الأستادارية بالأمير بتخاص، وقيل: إنه قبض على بيبرس هذا وحبسه مدة، ثم أفرج عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمه ألف بالديار المصرية. واستمر على ذلك حتى قتل الملك المنصور حسام الدين لاجين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك. فلما عاد الناصر إلى ملكه تقرر بيبرس هذا أستاداراً على عادته وسلار نائباً، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو وسلار كفيلي الممالك الشريفة الناصرية، والملك الناصر محمد معهما آلة في السلطنة، إلى أن ضجر الملك الناصر منهما وخرج إلى الحج فسار إلى الكرك وخلع نفسه من الملك. وقد ذكرنا ذلك كله في ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقع الاتفاق على سلطنة بيبرس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطن وجلس على تخت الملك في يوم السبت الثالث والعشرين من شوال من سنة ثمان وسبعمائة.

وهو السلطان الحادي عشر من ملوك الترك، والسابع ممن مسهم الرق، والأول من الجراكسة إن صح أنه جركسي الجنس؛ ودقت البشائر وحضر الخليفة أبو الربيع سليمان وفوض إليه تقليد السلطنة، وكتب له عهداً وشمله بخطه، وكان من جملة عنوان التقليد: " إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ". ثم جلس الأمير بتخاص والأمير قلي والأمير لاجين الجاشنكير لاستحلاف الأمراء والعساكر، فحلفوا الجميع وكتب بذلك إلى الأقطار.

والآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار وآقوش قتال السبع وهما أكبر منه وأقدم وأرفع منزلة، فنقول: لما خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية إلى الحج، ثم ثنى عزمه عن الحج وتوجه إلى الكرك، خلع نفسه؛ فلما حضر كتابه الثاني بتركه السلطنة - وقد تقدم ذكر ذلك في أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا - أثبت الكتاب على القضاة. فلما أصبح نهار السبت الثالث والعشرين من شوال جلس الأمير سلار النائب بشباك دار النيابة بالقلعة وحضر إلى عنده الأمير بيبرس الجاشنكير هذا وسائر الأمراء وآشتوروا فيمن يلي

السلطنة، فقال الأمير آقوش قتال السبع، والأمير بيبرس الدوادار، والأمير أيبك الخازندار وهم أكابر الأمراء المنصورية: ينبغي آستدعاء الخليفة والقضاة وإعلامهم بما وقع، فخرج الطلب لهم وحضروا، وقرئ عليهم كتاب السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وشهد عند قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف الأميران: عز الدين أيدمر الخطيري والأمير الحاج آل ملك، ومن كان توجه معهم إلى الكرك في الرسلية، بنزول الملك الناصر عن الملك وتركه " مملكة مصر والشام فأثبت ذلك.

وأعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سلار، فقال سلار: نعم على شرط: كل ما أشير به لا تخالفوه. وأحضر المصحف وحلفهم على موافقته وألا يخالفوه في شيء؛ فقلق البرجية من ذلك، ولم يبق إلا إقامتهم الفتنة، فكفهم الله عن ذلك وآنقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سلار: والله يا أمراء، أنا ما أصلح للملك، ولا يصلح له إلا أخي هذا، وأشار إلى بيبرس الجاشنكير ونهض قائماً إليه، فتسارع البرجية بأجمعهم: صدق الأمير سلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس، وأقاموه كرهاً، وصاحوا بالجاويشية فصرخوا بآسمه؛ وكان فرس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتي، وهي فرجية أطلس سوداء وطرحة سوداء وتقلد بسيفين، ومشى سلار والأمراء بين يديه من عند سلار من دار النيابة بالقلعة وهو راكب، وعبر من باب القلعة إلى الإيوان بالقلعة، وجلس على تخت الملك وهو يبكي بحيث يراه الناس، وذلك في يوم السبت المذكور؛ ولقب بالملك المظفر، وقبل الأمراء الأرض بين يديه طوعاً وكرهاً؛ ثم قام إلى القصر وتفرق الناس بعد ما ظنوا كل الظن من وقوع الفتنة بين السلارية والبيبرسية.

ثم عينت الأمراء للتوجه إلى النواب بالبلاد الشامية وغيرها؛ فتوجه إلى نائب دمشق - وهو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصوري - الأمير أيبك البغدادي ومعه آخر يسمى شادي ومعهما كتاب، وأمرهما أن يذهبا إلى دمشق ويحلفا نائبه المذكور وسائر الأمراء بدمشق؛ وتوجه إلى حلب الأمير ركن الدين بيبرس الأحمدي وطيبرس الجمدار وعلى يديهما كتاب مثل ذلك؛ وتوجه إلى حماة الأمير سيف الدين بلاط الخوكندار وطيدمر الجمدار؛ وتوجه إلى صفد عز الدين أزدمر الإسماعيلي وبيبرس بن عبد الله؛ وتوجه إلى طرابلس عز الدين أيدمر اليونسي وأقطاي الجمدار. وخطب له بالقاهرة ومصر في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوال المذكور، وتوجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية.

فلما قرب من سار إلى دمشق خرج النائب آقوش الأفرم ولاقاهما خارج دمشق وعاد بهما؛ فلما قرأ الكتاب بسلطنة بيبرس كاد أن يطير فرحاً لأنه كان خشداش بيبرس، وكان أيضاً جاركسي الجنس، وكانا يوم ذاك بين الأقراك كالغرباء. بنت دمشق زينة

هائلة كما زينت القاهرة لسلطنته. ثم أخرج كتاب السلطان بالحلف؛ وفيه أن يحلفوا ويبعثوا لنا نسخة الأيمان، فأجاب جميع الأمراء بالسمع والطاعة، وسكت منهم أربعة أنفس ولم يتحدثوا بشيء، وهم: بيبرس العلائي وبهادر آص وآقجبا الظاهري وبكتمر الحاجب بدمشق، فقال لهم الأفرم: يا أمراء، كل الناس ينتظرون كلامكم فتكلموا، فقال بهادر آص: نريد الخط الذي كتبه الملك الناصر بيده وفيه عزل نفسه، فأخرج النائب خط الملك الناصر فرآه بهادر ثم قال: يا مولانا ملك الأمراء، لا تستعجل فممالك الشام فيها أمراء غيرنا، مثل الأمير قرا سنقر نائب حلب، وقبجق نائب حماة، وأسندمر نائب طرابلس وغيرهم، فنرسل إليهم ونتفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تطيب خواطرهم، وربما يرون من المصلحة ما لا نرى نحن؛ ثم قام بهادر المذكور وخرج فخرجت الأمراء كلهم في أثره، فقال الأمير أيبك البغدادي القادم من مصر للأفرم: لو مسكت بهادر آص لا نصلح الأمر على ما نريد! فقال له الأفرم: والله العظيم لو قبضت عليه لقامت فتنة عظيمة تروح فيها روحك، وتغيير الدول يا أيبك ما هو هين! وأنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلا من قبجق المنصوري فإنه ربما يقيم فتنة من خوفه على روحه. قلت: وقبجق هذا هو الذي كان نائب دمشق في أيام المنصور لاجين، وتوجه إلى غازان وأقدمه إلى الشام. وقد تقدم ذكر ذلك كله.

ولما كان اليوم الثاني طلب الأفرم هؤلاء الأمراء الأربعة وآختلى بهم، وقال لهم: اعلموا أن هذا أمر انقضى، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال؛ وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسي مصر كان هو السلطان ولو كان عبداً حبشياً؛ فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، وربما يبلغ هذا إليه فيتغير قلبه عليكم؛ ولم يزل يتلاطف بهم حتى حلفوا له، فلما حلفوا حلف باقي الأمراء، وخلع الأفرم على جميع الأمراء والقضاة خلعاً سنية، وكذلك خلع على الأمير أيبك البغدادي وعلى رفيقه شادي وأعطاهما ألفي دينار وزودهما وردهما في أسرع وقت. وكتب معهما كتاباً يهنىء بيبرس بالملك، ويقول: عن قريب تأتيك نسخة الأيمان. وقدما القاهرة وأخبرا الملك المظفر بيبرس بذلك، فسر وآنشرح صدره بذلك.

ثم إن الأفرم نائب الشام أرسل إلى قرا سنقر وإلى قبجق شخصاً من مماليكه بصورة الحال؛ فأما قراسنقر نائب حلب فإنه لما سمع الواقعة وقرأ كتاب الأفرم، قال: أيش الحاجة إلى مشاورتنا؟ أستاذك بعثك بعد أن حلف، وكان ينبغي أن يتأنى في ذلك؛ وأما قبجق نائب حماة فإنه لما قرأ كتاب الأفرم، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أيش جرى على ابن أستاذنا حتى عزل نفسه! والله لقد دبرتم أنحس تدبير؛ هذه والله نوبة لاجين. ثم قال لمملوك الأفرم: اذهب إلى أستاذك وقل له: الآن بلغت مرادك، وسوف تبصر من يصبح ندمان، وفي أمره حيران! وكذلك لما بعث الأفرم

لأسندمر نائب طرابلس، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض، ثم قال: أذهب لأستاذك وقل له: يا بعيد الذهن وقليل العلم، بعد أن دبرت أمراً، فما الحاجة إلى مشاورتنا! فوالله ليكونن عليك أشأم التدبير وسيعود وباله عليك؛ ولم يكتب له جواباً.

وأما قرا سنقر نائب حلب فإنه أرسل إلى قبجق وإلى أسندمر يعلمهما أن الأفرم حلف عساكر دمشق على طاعة بيبرس، ولا نأمن أن يعمل الأفرم علينا، فهلموا نجتمع في موضع واحد فنتشاور ونرى أمراً يكون فيه المصلحة؛ فاتفقوا الجميع على أن يجتمعوا في حلب عند قرا سنقر، وعينوا ليلة يكون اجتماعهم فيها. فأما قبجق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصة، وتصيد إلى الليل فسار إلي حلب. وأما أسندمر أظهر أنه ضعيف وأمر ألا يخلي أحداً يدخل عليه؛ وفي الليل ركب بمماليكه الذين يعتمد عليهم، وقد غيروا ملابسهم، وسار يطلب حلب. واجتمع الجميع عند قرا سنقر، فقال لهم قرا سنقر: ما تقولون في هذه القضية التي جرت؟. فقال قبجق: والله لقد جرى أمر عظيم، وإن لم نحسن التدبير نقع في أمور! يعزل ابن أستاذنا ويأخذها بيبرس! ويكون الأفرم هو مدبر الدولة! وهو على كل حال عدونا ولا نأمن شره، فقالوا: فما نفعل؛ قال: الرأي أن نكتب إلى ابن أستاذنا في الكرك ونطلبه إلى حلب ونركب معه؛ فإما نأخذ له الملك، وإما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام؛ فحلف كل من الثلاثة على هذا الاتفاق، ولا يقطع واحد منهم أمراً إلا بمشورة أصحابه، وأنهم يموت بعضهم على بعض؛ ثم إنهم تفرقوا في الليل كل واحد إلى بلده.

وأما الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النواب بالبلاد الشامية بالخلع وبسلطنة بيبرس، فإنهم لما وصلوا إلى دمشق قال لهم الأفرم: أنا أرسلت إليهم مملوكي، فردوا علي جواباً لا يرضى به مولانا السلطان. وكان الأفرم أرسل إلى الملك المظفر بيبرس نسخة اليمين التي حلف بها أمراء دمشق مع مملوكه مغلطاي، فأعطاه الملك المظفر إمرة طبلخاناه وخلع عليه، وأرسل معه خلعة لأستاذه الأفرم بألف دينار، وأطلق له شيئاً كثيراً كان لبيبرس في الشام قبل سلطنته من الحواصل والغلال؛ فسر الأفرم بذلك غاية السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دمشق للأفرم: ما تشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر ولا تذهبا إلى هؤلاء؛ فإن رؤوسهم قوية، وربما يثيرون فتنة، فقالا: لا غنى لنا عن أن نسمع كلامهم؛ ثم إنهما ركبا من دمشق وسارا إلى حماة، ودخلا على قبجق ودفعا له كتاب الملك المظفر، فقرأه ثم قال: وأين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلما وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إن هذا خط الملك الناصر؛ والله واحد يكون وكيلاً في قرية ما يعزل نفسه منها بطيبة من خاطره! ولا بد لهذا الأمر من سبب؛ اذهبا إلى الأمير قرا سنقر فهو أكبر الأمراء وأخبرهم بالأحوال؛ فركبا وسارا إلى حلب واجتمعا بقراسنقر؛ فلما قرأ كتاب المظفر

قال: يا إخوتي إنا على أيمان ابن أستاذنا لا نخونه ولا نحلف لغيره ولا نواطىء عليه ولا نفسد ملكه، فكيف نحلف لغيره! والله لا يكون هذا أبداً ودعوا يجري ما يجري، وكل شيء ينزل من السماء تحمله الأرض، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم! فخرجا من عنده وسارا إلى طرابلس ودخلا على أسندمر فقال لهما مثل مقالة قبجق وقراسنقر؛ فخرجا وركبا وسارا نحو الديار المصرية، ودخلا على الملك المظفر بيبرس وأعلماه بما كان، فضاق صدر المظفر وأرسل خلف الأمير سلار النائب وقص عليه القصة، فقال له سلار: هذا أمر هين ونقدر أن نصلح هؤلاء، فقال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال: تكتب إلى قرا سنقر كتاباً وترقق له في الكلام، وأرسل إليه تقليداً بنيابة حلب وبلادها، وأنه لا يحمل منه الدرهم الفرد، وكذا لقبجق بحماة، ولأسندمر بطرابلس والسواحل، فقال بيبرس: إذا فرقت البلاد عليهم ما يساوي ملكي شيئاً! فقال له سلار: وكم أمن، يد تقبل عن ضرورة وهي تستحق القطع! فأسمع مني وأرضهم في هذا الوقت؛ فإذا قدرت عليهم بعد ذلك افعل بهم ما شئت؛ فمال المظفر إلى كلامه وأمر أن يكتب بما قاله سلار لكل واحد على حدته، فكتب ذلك وأرسله مع بعض خواصه.

وأما أمر الملك الناصر محمد بن قلاوون فإن الملك المظفر لما تسلطن وتم أمره كتب له تقليداً بالكرك، وسيره له على يد الأمير آل ملك، ومنشوراً بما عين له من الإقطاعات. وأما أمر قرا سنقر فإنه جهز ولده محمداً إلى الملك الناصر محمد بالكرك، وعلى يده كتابه وكتاب قبجق نائب حماه وكتاب أسندمر نائب طرابلس. ومضمون كتاب قرا سنقر: أنه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن الملك، وكيف وقع له ذلك ولم يشاوره في أول الأمر، ثم وعده برجوع ملكه إليه عن قريب، وأنه هو وقبجق وأسندمر ما حلفوا للمظفر، وأنهم مقيمون على أيمانهم له. وكذلك كتاب قبجق وكتاب أسندمر؛ فأخذ الأمير ناصر الدين محمد بن قرا سنقر كتب الثلاثة وسار مسرعاً ومعه نجاب خبير بتلك الأرض، فلم يزالا سائرين في البرية والمفاوز إلى أن وصلا إلى الكرك، وابن قرا سنقر عليه زي العرب، فلما وقفا على باب الكرك سألوهما من أين أنتما؟ فقالا: من مصر، فدخلوا وأعلموا الملك الناصر محمداً بهما واستأذنوه في إحضارهما، فأذن لهما بالدخول؛ فلما مثلا بين يديه كشف ابن قرا سنقر لثامه عن وجهه فعرفه السلطان، وقال له: محمد؟ فقال: لبيك يا مولانا السلطان، وقبل الأرض وقال: لا بد من خلوة، فأمر السلطان لمن حوله بالانصراف؛ فعند ذلك حدث ابن قرا سنقر السلطان بما جرى من أبيه وقبجق وأسندمر، وأنهم آجتمعوا في حلب وتحالفوا بأنهم مقيمون على الأيمان التي حلفوها للملك الناصر، ثم دفع له الكتب الثلاثة فقرأها، ثم قال: يا محمد، ما لهم قدرة على ما آتفقوا عليه، فإن كل من في

مصر والشام قد آتفقوا على سلطنة بيبرس؛ فلما سمع ابن قراسنقر ذلك حلف بأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة كفء لأهل مصر والشام، ومولانا السلطان أخبر بذلك مني، فتبسم السلطان وقال صدقت يا محمد، ولكن القائل يقول:

كن جرياً إذا رأيت جباناً ::: وجباناً إذا رأيت جريا

لا تقاتل بواحد أهل بيت ::: فضعيفان يغلبان قويا

وهذه البلاد كلها دارت مع بيبرس ولا يتم لنا الحال إلا بحسن التدبير والمداراة والصبر على الأمور. ثم إنه أنزله في موضع وأحسن إليه، وقال له: استرح اليوم وغداً ثم سافر؛ فأقام يومين ثم طلبه الملك الناصر في صبيحة اليوم الثالث وأعطاه جواب الكتب، وقال له: سلم على أبي يعني على قرا سنقر وقل له: اصبر؛ ثم خلع عليه خلعة سنية وأعطاه ألف دينار مصرية، وخلع على معن النجاب الذي أتى به أيضاً وأعطاه ألف درهم؛ فخرج ابن قرا سنقر والنجاب معه، وأسرعا في السير إلى أن وصلا إلى حلب، فدخل ابن قراسنقر إلى أبيه ودفع له كتاب الملك الناصر ففتحه فإذا فيه: " بسم الله الرحمن الرحيم: حرس الله تعالى نعمة المقر العالي الأبوي الشمسي ومتعنا بطول حياته؛ فقد علمنا ما أشار به وما عول عليه، وقد علمنا قديماً وحديثاً أنه لم يزل على هذه الصورة؛ وأريد منك أنك تطول روحك علي، فهذا الأمر ما ينال بالعجلة، لأنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام في سلك واحد ولا سيما الأفرم ومن معه من اللئام، فهذه عقدة لا تنحل إلا بالصبر؛ وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر وطلب منك اليمين له، فقدم النية أنك مجبور ومغصوب واحلف. ولا تقطع كتبك عني في كل وقت، وعرفني بجميع ما يجري من الأمور قليلها وكثيرها ". وكذلك كتب في كتاب قبجق وأسندمر، فعرف قرا سنقر مضمون كتابه وسكت.

ثم فشا في الناس في السنة المذكورة أمراض حادة، وعم الوباء الخلائق وعز سائر ما يحتاج إليه المرضى. ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسري، وآرتفع سعر القمح وسائر الغلال، ومنع الأمراء البيع من شونهم إلا الأمير عز الدين أيدمر الخطيري الاستادار، فإنه تقدم إلى مباشريه ألا يتركوا عنده سوى مؤونة سنة واحدة، وباع ما عداه قليلاً قليلاً. والخطيري هذا هو صاحب الجامع الذي بخط بولاق. انتهى.

وخاف الناس أن يقع نظير غلاء كتبغا، وتشاءموا بسلطنة الملك المظفر بيبرس المذكور. ثم إن الخطيب نور الدين علي بن محمد بن الحسن بن علي القسطلاني خرج بالناس وآستسقى، وكان يوماً مشهوداً، فنودي من الغد بثلاث أصابع؛ ثم توقفت الزيادة مدة، ثم زاد وانتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً في سابع عشرين توت، ثم نقص في أيام النسيء، وجاء النوروز ولم يوف

النيل ست عشرة ذراعاً، ففتح سد الخليج في يوم الجمعة ثامن توت وهو ثامن عشرين شهر ربيع الأول. وذكر بعضهم أنه لم يوف إلى تاسع عشر بابه، وهو يوم الخميس حادي عشر جمادى الأولى، وذلك بعد اليأس منه، وهذا القول هو الأشهر. قال: وآنحط مع ذلك بعد الوفاء السعر وتشاءم الناس بطلعة الملك المظفر بيبرس. وغنت العامة في المعنى:

سلطاننا ركين ونائبنا دقين يجينا الماء منين

جيبوا لنا الأعرج ::: يجيء الماء ويدحرج

ومن يومئذ وقعت الوحشة بين المظفر وبين عامة مصر، وأخذت دولة الملك المظفر بيبرس في آضطراب، وذلك أنه كثر توهمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقصد في أيامه كل واحد من خشداشيته أن يترقى إلى أعلى منزلة، واتهموا الأمير سلار بمباطنة الملك الناصر محمد وحذروا الملك المظفر منه، وحسنوا له القبض على سلار المذكور، فجبن بيبرس عن ذلك.

ثم ما زالوا حتى بعث الأمير مغلطاي إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكرك ليأخذ منه الخيل والمماليك التي عنده، وتغلظ في القول، فغضب الملك الناصر من ذلك غضباً شديداً وقال له: أنا خليت ملك مصر والشام لبيبرس، ما يكفيه حتى ضاقت عينه على فرس عندي ومملوك لي، ويكرر الطلب! ارجع إليه وقل له: والله لئن لم يتركني، وإلا دخلت بلاد التتار وأعلمهم أني تركت ملك أبي وأخي وملكي لمملوكي، وهو يتابعني ويطلب مني ما أخذته. فجافاه مغلطاي وخشن له في القول بحيث اشتد غضب الملك الناصر، وصاح به: ويلك وصلت إلى هنا! وأمر أن يجر ويرمى من سور القلعة؛ فثار به المماليك، يسبونه ويلعنونه وأخرجوه إلى السورة فلم يزل به أرغون الدوادار والأمير طغاي إلى أن عفا عنه وحبسه ثم أخرجه ماشياً. وعظم ذلك على الملك الناصر وكتب ملطفات إلى نواب البلاد الشامية بحلب وحماة وطرابلس وصفد، ثم إلى مصر ممن يثق به، وذكر ما كان به من ضيق اليد وقلة الحرمة، وأنه لأجل هذا ترك ملك مصر وقنع بالإقامة بالكرك، وأن السلطان الملك المظفر في كل وقت يرسل يطالبه بالمماليك والخيل التي عنده. ثم ذكر لهم في ضمن الكتاب: " أنتم مماليك أبي وربيتموني؛ فإما أن تردوه عني وإلا سرت إلى بلاد التتار "، وتلطف في مخاطبتهم غاية التلطف؛ وسير لهم بالكتب على يد العربان فأوصلوها إلى أربابها. وكان قد أرسل الملك المظفر قبل ذلك يطلب منه المال الذي كان بالكرك والخيل والمماليك التي عنده، حسب ما يأتي ذكره في ترجمة الملك الناصر محمد، فبعث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذي أخذه من الكرك فلم يقنع المظفر بذلك وأرسل ثانياً؛ وكان

الملك الناصر لما أقام بالكرك صار يخطب بها للملك المظفر بيبرس بحضرة الملك الناصر، والملك الناصر يتأدب معه، ويسكت بحضرة مماليكه وحواشيه. وصار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفر يكتب إليه: " الملكي المظفري " وقصد بذلك سكون الأحوال وإخماد الفتن، والمظفر يلح عليه لأمر يريده الله تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وأما النواب بالبلاد الشامية فإن قرا سنقر نائب حلب كتب إلى الملك الناصر الجواب: " بأني مملوك السلطان في كل ما يرسم به " وسأل أن يبعث إليه بعض المماليك السلطانية، وكذلك نائب حماة ونائب طرابلس وغيرهما ما خلا بكتمر الجوكندار نائب صفد، فإنه طرد قاصد الملك الناصر ولم يجتمع به. ثم أرسل الملك الناصر مملوكه أيتمش المحمدي إلى الشام وكتب معه ملطفات إلى الأمير قطلوبك المنصوري وبكتمر الحسامي الحاجب بدمشق ولغيرهما؛ ووصل أيتمش إلى دمشق خفية ونزل عند بعض مماليك قطلوبك المذكور، ودفع إليه الملطف؛ فلما أوصله إلى قطلوبك أنكر عليه وأمره بالاحتفاظ على أيتمش المذكور ليوصله إلى الأفرم نائب الشام ويتقرب إليه بذلك؛ فبلغ أيتمش الخبر فترك راحلته التي قدم عليها ومضى إلى دار الأمير بهادر آص في الليل، فآستأذن عليه فأذن له؛ فدخل إليه أيتمش وعرفه ما كان من قطلوبك في حقه، فطيب بهادر آص خاطره وأنزله عنده، وأركبه من الغد معه إلى الموكب؛ وقد سبق قطلوبك إلى الأفرم نائب الشام وعرفه قدوم مملوك الملك الناصر إليه وهروبه من عنده ليلاً، فقلق الأفرم من ذلك وألزم والي المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بهادر آص: " هذا المملوك عندي " وأشار إليه، فنزل عن فرسه وسلم على الأفرم وسار معه في الموكب إلى دار السعادة، وقال له بحضرة الأمراء: السلطان الملك الناصر يسلم عليك ويقول: ما منكم أحد إلا وأكل خبز الملك الشهيد قلاوون، وما منكم إلا من إنعامه عليه، وأنتم تربية الشهيد والده، وأنه قاصد الدخول إلى دمشق والإقامة بها، فإن كان فيكم من يقاتله ويمنعه العبور فعرفوه. فلم يتم هذا القول حتى صاح الكوكندي الزراق أحد أكابر أمراء دمشق: " وا ابن أستاذاه! " وبكى؛ فغضب الأفرم نائب الشام عليه وأخرجه، ثم قال الأفرم لأيتمش: قل له يعني الملك الناصر: كيف يجيء إلى الشام أو إلى غير الشام! كأن الشام ومصر الآن تحت حكمك؟ أنا لما أرسل إلي السلطان الملك المظفر أن أحلف له ما حلفت حتى سيرت أقول له: كيف يكون ذلك وآبن أستاذنا باق! فأرسل يقول: أنا ما تقدمت عليه حتى خلع ابن أستاذنا نفسه؛ وكتب خطه وأشهد عليه بنزوله عن الملك، فعند ذلك حلفت له. ثم في هذا الوقت تقول: من يردني عن الشام! ثم أمر به الأفرم فسلم إلى استاداره الطنقش. فلما كان الليل آستدعاه ودفع له خمسين ديناراً وقال: قل له: " لا تذكر

الخروج من الكرك "، وأنا أكتب إلى المظفر وأرجعه عن الطلب؛ ثم أطلقه فعاد أيتمش إلى الكرك وأعلم الملك الناصر بما وقع. فأعاده الملك الناصر على البريد ومعه أركتمر وعثمان الهجان ليجتمع بالأمير قرا سنقر نائب حلب ويواعده على المسير إلى دمشق؛ ثم خرج الملك الناصر من الكرك وسار إلى بركة زيزاء فنزل بها.

وأما الملك المظفر بيبرس صاحب الترجمة فإنه لما بلغه أن الملك الناصر حبس قاصده مغلطاي المقدم ذكره قلق من ذلك واستدعى الأمير سلار وعرفه ذلك، وكانت البرجية قد أغروا المظفر بيبرس بسلار واتهموه أنه باطن الملك الناصر وحسنوا له القبض عليه، حسب ما ذكرناه، فجبن الملك المظفر من القبض عليه. وبلغ ذلك سلار فخاف من البرجية لكثرتهم وقوتهم وأخذ في مداراتهم؛ وكان أشدهم عليه الأمير بيكور وقد شرق إقطاعه، فبعث إليه سلار بستة آلاف إردب غلة وألف دينار، فكف عنه. ثم هادى خواص المظفر وأنعم عليهم. فلما حضر سلار عند المظفر وتكلما فيما هم فيه فآقتضى الرأي إرسال قاصد إلى الملك الناصر بتهديده ليفرج عن مغلطاي. وبينما هم في ذلك قدم البريد من دمشق بأن الملك الناصر سار من الكرك إلى البرج الأبيض ولم يعرف أحد مقصده؛ فكتب الجواب في الحال بحفظ الطرقات عليه.

وآشتهر بالديار المصرية حركة الملك الناصر محمد وخروجه من الكرك، فماجت الناس، وتحرك الأمير نوغاي القبجاقي، وكان شجاعاً مقداماً حاد المزاج قوي النفس، وكان من ألزام الأمير سلار النائب، وتواعد مع جماعة من المماليك السلطانية أن يهجم بهم على السلطان الملك المظفر إذا ركب ويقتله. فلما ركب المظفر ونزل إلى بركة الجب آستجمع نوغاي بمن وافقه يريدون الفتك بالمظفر في عوده من البركة؛ وتقرب نوغاي من السلطان قليلاً قليلاً، وقد تغير وجهه وظهر فيه أمارات الشر، ففطن به خواص المظفر وتحلقوا حول المظفر، فلم يجد نوغاي سبيلاً إلى ما عزم عليه. وعاد الملك المظفر إلى القلعة فعرفه ألزامه ما فهموه من نوغاي، وحسنوا له القبض عليه وتقريره على من معه. فاستدعى السلطان الأمير سلار وعرفه الخبر، وكان نوغاي قد باطن سلار بذلك، فحذر سلار الملك المظفر وخوفه عاقبة القبض على نوغاي وأن فيه فساد قلوب جميع الأمراء، وليس الرأي إلا الإغضاء فقط. وقام سلار عنه، فأخذ البرجية بالإغراء بسلار وأنه باطن نوغاي، ومتى لم يقبض عليه فسد الحال. وبلغ نوغاي الحديث، فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، وخرج هو والأمير مغلطاي القازاني الساقي ونحو ستين مملوكاً وقت المغرب عند غلق باب القلعة في ليلة الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعمائة المذكورة. وقيل في أمر نوغاي وهروبه وجه آخر: قال الأمير بيبرس الدوادار في تاريخه:

تسحب من الديار المصرية إلى الكرك المحروس سيف الدين نوغاي القفجاقي أحد المماليك السلطانية وسيف الدين تقطاي الساقي وعلاء الدين مغلطاي القازاني، وتوجه معهم من المماليك السلطانية بالقلعة مائة وستة وثلاثون نفراً، وخرجوا طلباً واحداً بخيلهم وهجنهم وغلمانهم وتركوا بيوتهم وأولادهم. انتهى.

وقال ابن كثير في تاريخه: وصل المتوجهون إلى الكرك إلى الملك الناصر في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقبلهم الناصر أحسن قبول؛ وكان حين وصلوا إلى قطيا أخذوا ما بها من المال، ووجدوا أيضاً في طريقهم تقدمة لسيف الدين طوغان نائب البيرة فأخذوها بكمالها وأحضروا الجميع بين يدي الملك الناصر محمد؛ ولما وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك الناصر بالخطبة لنفسه؛ ثم كاتب النواب فأجتمعوا وأجابوه بالسمع والطاعة.

وأما السلطان الملك المظفر بيبرس هذا فإنه أخذ في تجهيز العساكر إلى قتال الملك الناصر محمد حتى تم أمرهم وخرجوا من الديار المصرية في يوم السبت تاسع شهر رجب وعليهم خمسة أمراء من مقدمي الألوف، وهم: الأمير برلغي الأشرفي، والأمير جمال الدين آقوش الأشرفي نائب الكرك كان، والأمير عز الدين أيبك البغدادي، والأمير سيف الدين طغريل الإيغاني، والأمير سيف الدين ألدكز السلاح دار، ومعهم نحو ثلاثين أميراً من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فيهم الملك المظفر: فأعطى برلغي عشرة آلاف دينار، وأعطى لكل مقدم الذي دينار، ولكل من الطبلخاناه ألف دينار، ولكل واحد من مقدمي الحلقة ألف درهم، ولكل واحد من أجناد الحلقة خمسمائة درهم. ونزلوا بمسجد التبن خارج القاهرة ولم يتقدموا؛ ثم عادوا بعد أربعة أيام إلى القاهرة. وكان الباعث على عودهم أن كتب آقوش الأفرم نائب الشام وردت على الملك المظفر تتضمن وصول الملك الناصر إلى البرج الأبيض ثم عاد إلى الكرك، فآطمأن الملك المظفر وأرسل إلى برلغي ومن معه من المجردين بالعود، فعادوا بعد أربعة أيام.

وأما الملك الناصر فإنه سار من الكرك بمن معه في أول شعبان يريد دمشق بعد أمور وقعت له، نذكرها في أوائل ترجمته الثالثة. فلما سار دخل في طاعته الأمير قطلوبك المنصوري والحاج بهادر وبكتمر الحسامي حاجب حجاب دمشق وعلم الدين سنجر الجاولي. وصار الملك الناصر يتأنى في مسيره من غير سرعة حتى يتبين ما عند أمراء دمشق الذين أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبل ذلك؛ فكتبوا أمراء دمشق المذكورون إلى الأفرم أنه لا سبيل لهم إلى محاربة الملك الناصر؛ وأرادوا بذلك إما أن يخرج بنفسه فيقبضوه أو يسير عن دمشق إلى جهة أخرى فيأتيهم بقية الجيش وكان كذلك. فإنه لما قدم كتابهم عليه بدمشق شاع بين الناس مجيء الملك الناصر من

الكرك فثارت العوام وصاحوا: " نصر الله الملك الناصر! " وتسلل عسكره من دمشق طائفة بعد طائفة إلى الملك الناصر، وانفرط الأمر من الأفرم. وآتفق الأمير بيبرس العلائي والأمير بيبرس المجنون بمن معهما على الوثوب على الأفرم والقبض عليه، فلم يثبت عندما بلغه ذلك؛ واستدعى علاء الدين علي بن صبيح، وكان من خواصه، وخرج ليلاً وتوجه إلى جهة الشقيف؛ فركب قطلوبك والحاج بهادر عندما سمعا خبر الأفرم، وتوجها إلى الملك الناصر، وكانا كاتباه بالدخول في طاعته قبل ذلك، فسر بهما وأنعم على كل واحد منهما بعشرة آلاف درهم؛ وقدم على الناصر أيضاً الجاولي وجوبان وسائر من كان معهم، فسار بهم الملك الناصر حتى نزل الكسوة، وخرج إليه بقية الأمراء والأجناد. وقد عمل له سائر شعار السلطنة من السناجق الخليفتية والسلطانية والعصائب والجتر والغاشية، وحلف العساكر.

وسار يوم الثلاثاء ثاني عشر شعبان يريد مدينة دمشق، فدخلها من غير مدافع بعدما زينت له زينة عظيمة؛ وخرج جميع الناس إلى لقائه على اختلاف طبقاتهم حتى صغار الكتاب؛ وبلغ كراء البيت من البيوت التي بميدان الحصى إلى قلعة دمشق للتفرج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم؛ وفرشت الأرض بشقاق الحرير الملونة، وحمل الأمير قطلوبك المنصوري الغاشية، وحمل الأمير الحاج بهادر الجتر، وترجل الأمراء والعساكر بأجمعهم ومشوا بين يديه حتى نزل بالقصر الأبلق.

وأما الملك المظفر فإنه قدم عليه الخبر في خامس عشرين شعبان باستيلاء الملك الناصر على دمشق بغير قتال، فعظم ذلك على الملك المظفر وأظهر الذلة؛ وخرجت عساكر مصر شيئاً بعد شيء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنده بالديار المصرية سوى خواصه من الأمراء والأجناد.

ثم قبض الملك المظفر ليلة الجمعة على جماعة من العوام، وضربوا وشهروا لإعلانهم بسب الملك المظفر بيبرس؛ فما زادهم ذلك إلا طغياناً وفي كل ذلك تنسب البرجية فساد الأمور لسلار. فلما أكثر البرجية الإغراء بسلار قال لهم الملك المظفر: " إن كان في خاطركم شيء فدونكم وإياه إذا جاء سلار للخدمة؛ وأما أنا فلا أتعرض له بسوء قط ". فاجتمعت البرجية على قبض سلار إذا حضر الخدمة في يوم الأثنين خامس عشره؛ فبلغ سلار ذلك، فتأخر عن حضور الخدمة واحترس على نفسه، وأظهر أنه قد توعك؛ فبعث الملك المظفر يسلم عليه ويستدعيه ليأخذ رأيه، فاعتذر بأنه لا يطيق الحركة لعجزه عنها.

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان آستدعى الملك المظفر الأمراء كلهم

وآستشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير بيبرس الدوادار المؤرخ والأمير بهادر آص بنزوله عن الملك والإشهاد عليه بذلك كما فعله الملك الناصر، " وتسير إلى الملك الناصر بذلك وتستعطفه، وتخرج إلى إطفيح بمن تثق به، وتقيم هناك حتى يرد جواب الملك الناصر عليك " فأعجبه ذلك، وقام ليجهز أمره، وبعث بالأمير ركن الدين بيبرس الدوادار المذكور إلى الملك الناصر محمد يعرفه بما وقع. وقيل: إنه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير بيبرس الدوادار: " والذي أعرفك به أني قد رجعت أقلدك بغيك؛ فإن حبستني علات ذلك خلوة، وإن نفيتني عددت ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة " فلما سمع الملك الناصر ذلك، عين له صهيون على ما نذكره.

وأما ما كتبه المظفر على يد بيبرس الدوادار يسأله في إحدى ثلاث: إما الكرك وأعمالها، أو حماة وبلادها، أو صهيون ومضافاتها.

ثم آضطربت أحوال المظفر وتحير، وقام ودخل الخزائن، وأخذ من المال والخيل ما أحب، وخرج من يومه من باب الإسطبل في مماليكه وعدتهم سبعمائة مملوك، ومعه من الأمراء: الأمير عز الدين أيدمر الخطيري الأستادار، والأمير بكتوت الفتاح، والأمير سيف الدين قجماس، والأمير سيف الدين تاكز في بقية ألزامه من البرجية، فكأنما نودي في الناس بأنه خرج هارباً، فآجتمع العوام، وعندما برز من باب الإسطبل صاحوا به وتبعوه وهم يصيحون عليه بأنواع الكلام، وزادوا في الصياح حتى خرجوا عن الحد، ورماه بعضهم بالحجارة. فشق ذلك على مماليكه وهموا بالرجوع إليهم ووضع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفر من ذلك، وأمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه؛ فأخرج كل من المماليك حفنة من الذهب ونثرها، فلم يلتفت العامة لذلك وتركوه وأخذوا في العدو خلفه وهم يسبون ويصيحون، فشهر المماليك حينئذ سيوفهم ورجعوا إلى العوام فآنهزموا منهم. وأصبح الحراس بقلعة الجبل في يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، وأسقط آسم الملك المظفر بإشارة الأمير سلار بذلك؛ فإنه أقام بالقلعة ومهد أمورها بعد خروج المظفر إلى إطفيح. وفي يوم الجمعة تاسع عشره خطب على منابر القاهرة ومصر بآسم الملك الناصر، والمسقط آسم الملك المظفر بيبرس هذا وزال ملكه.

وأما الملك المظفر فإنه لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين؛ ثم آتفق رأيه ورأي أيدمر الخطيري وبكتوت الفتاح إلى المسير إلى برقة، وقيل بل إلى أسوان، فأصبح حاله كقول القائل:

موكـــل بيقـــاع الأرض يـــذرعها ::: من خفة الروع لا من خفة الطــرب

ولما بلغ مماليك الملك المظفر هذا الرأي عزموا على مفارقته. فلما رحل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئاً بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفر إلى إخميم حتى فارقه أكثر من كان معه؛ فعند ذلك آنثنى عزمه عن التوجه إلى برقة، وتركه الخطيري والفتاح وعادا نحو القاهرة. وبينما هو سائر قدم عليه الأميران: بيبرس الدوادار وبهادر آص من عند الملك الناصر ليتوجه إلى بيبرس الدوادار، فأخذ بيبرس المال وسار به في النيل إلى الملك الناصر وهو بقلعة الجبل؛ وقدم بهادر آص في البر بالملك المظفر ومعه كاتبه كريم الدين أكرم؛ وسأل المظفر في يمين السلطان مع من يثق به، فحلف له الملك الناصر بحضرة الأمراء وبعث إليه بذلك مع أيتمش المحمدي؛ فلما قدم عليه أيتمش بالغ المظفر في إكرامه وكتب الجواب بالطاعة وأنه يتوجه إلى ناحية السويس، وأن كريم الدين يحضر بالخزانة والحواصل التي أخذها؛ فلم يعجب السلطان ذلك، وعزم على إخراج تجريدة إلى غزة ليردوه، وأطلع على ذلك بكتمر الجوكندار النائب وقرا سنقر نائب دمشق والحاج بهادر وأسندمر نائب طرابلس.

فلما كان يوم الخميس الذي قبض فيه الملك الناصر على الأمراء - على ما سيأتي ذكره مفصلاً في أول ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء الله تعالى - جلس بعض المماليك الأشرفية خارج القلعة، فلما خرج الأمراء من الخدمة قال: " وأي ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم! وهذا الذي قتل أستاذنا الملك الأشرف، ودمه الآن على سيفه، قد صار اليوم حاكم المملكة " يعني عن قرا سنقر فقيل هذا لقرا سنقر، فخاف على نفسه وأخذ في عمل الخلاص من مصر؛ فآلتزم للسلطان أنه بتوجه ويحصل الملك المظفر بيبرس هو والحاج بهادر نائب طرابلس من غير إخراج تجريدة، فإن في بعث الأمراء لذلك شناعة؛ فمشى ذلك على السلطان ورسم بسفرهما؛ فخرج قراسنقر ومعه سائر النواب إلى ممالكهم، وعوق السلطان عنده أسندمر كرجي، وقد استقر به في نيابة حماة، وسار البقية. ثم جهز السلطان أسندمر كرجي لإحضار المظفر مقيداً. وآتفق دخول قرا سنقر والأمراء إلى غزة قبل وصول المظفر إليها؛ فلما بلغهم قربه ركب قرا سنقر وسائر النواب والأمراء ولقوه شرقي غزة وقد بقي معه عدة من مماليكه وقد تأهبوا للحرب، فلبس الأمراء السلاح ليقاتلوهم، فأنكر المظفر على مماليكه للقتال وقال: " أنا كنت ملكاً، وحولي أضعافك، ولي عصبة كبيرة من الأمراء، وما اخترت سفك الدماء! " وما زال بهم حتى كفوا عن القتال؛ وساق هو بنفسه حتى بقي مع الأمراء وسلم نفسه إليهم؛ فسلموا عليه وساروا به إلى معسكرهم وأنزلوه بخيمة، وأخذوا سلاح مماليكه ووكلوا بهم من يحفظهم؛ وأصبحوا من الغد عائدين بهم معهم إلى مصر؛ فأدركهم أسندمر كرجي بالخطارة فأنزل في

الحال المظفر عن فرسه وقيده بقيد أحضره معه، فبكى وتحدرت دموعه على شيبته، فشق ذلك على قراسنقر وألقى الكلفتاة عن رأسه إلى الأرض وقال: " لعن الله الدنيا، فيا ليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم! فترجلت الأمراء وأخذوا كلفتاته ووضعوها على رأسه. هذا مع أن قرا سنقر كان أكبر الأسباب في زوال دولة المظفر المذكور! وهو الذي جسر الملك الناصر حتى كان من أمره ما كان.

وقدم أسندمر بالمظفر إلى القلعة في ليلة الأربعاء الرابع عشر من ذي القعدة؛ فلما مثل المظفر بين يدي السلطان قبل الأرض، فأجلسه وعنفه بما فعل به، وذكره بما كان منه إليه، وعدد ذنوبه، وقال له: " تذكر وقد صحت علي يوم كذا بسبب فلان! ورددت شفاعتي في حق فلان! وآستدعيت بنفقة في يوم كذا من الخزانة فمنعتها! وطلبت في وقت حلوى بلوز وسكر فمنعتني؛ ويلك! وزدت في أمري حتى منعتني شهوة نفسي " والمظفر ساكت. فلما فرغ كلام السلطان قال له المظفر: " يا مولانا السلطان! كل ما قلت فعلته، ولم يبق إلا مراحم السلطان؛ وإيش يقول المملوك لأستاذه " فقال له: " يا ركن! أنا اليوم أستاذك! وأمس تقول لما طلبت إوزاً مشوياً: إيش يعمل بالإوز! الأكل هو عشرون مرة في النهار! " ثم أمر به إلى مكان، وكان ليلة الخميس، فاستدعى المظفر بوضوء وقد صلى العشاء. ثم جاء السلطان الملك الناصر، فخنق المظفر بين يديه بوتر حتى كاد يتلف، ثم سيبه حتى أفاق، وعنفه وزاد في شتمه، ثم خنقه ثانياً حتى مات؛ وأنزل على جنوية إلى الإسطبل السلطاني فغسل ودفن خلف قلعة الجبل، وذلك في ليلة الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة. وكانت أيام المظفر هذا في سلطنة مصر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً لم يتهن فيها من الفتن والحركة.

وقال النويري في تاريخه: ولما وصلوا بالمظفر بيبرس إلى السلطان الناصر أوقفه بين يديه وأمر بدخوله الحمام، وخنق في بقية من يومه، ودفن بالقرافة، وعفى أثر قبره مدة؛ ثم أمر بآنتقاله إلى تربته بالخانقاه التي أنشأها فنقل إليها. وكان بيبرس هذا آبتدأ بعمارة الخانقاه والتربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة في سنة ست وسبعمائة، وأوقف عليها أوقافاً جليلة، ولكنه مات قبل تمامها، فأغلقها الملك الناصر مدة ثم فتحها. انتهى كلام النويري.

وكان الملك المظفر ملكاً ثابتاً كثير السكون والوقار، جميل الصفات؛ ندب إلى المهمات مراراً عديدة، وتكلم في أمر الدولة مدة سنين، وحسنت سيرته، وكان يرجع إلى دين وخير ومعروف. تولى السلطنة على كره منه، وله أوقاف على وجوه البر والصدقة؛ وعمر ما هدم من الجامع الحاكمي داخل باب النصر، بعد ما شعثته الزلازل. وكان من أعيان الأمراء في الدولة المنصورية قلاوون أستاذه، ثم في الدولة الأشرفية خليل، والدولة الناصرية محمد بن قلاوون. وكان أبيض اللون أشقر مستدير اللحية؛ وهو جاركسي الجنس على ما قيل، ولم يتسلطن أحد من الجراكسة قبله ولا بعده إلى الملك الظاهر برقوق؛ وقيل إنه كان تركياً، والأقوى عندي أنه كان جاركسياً، لأنه كان بينه وبين آقوش الأفرم نائب الشام مودة ومحبة زائدة، وقيل قرابة، وكان الأفرم جاركسي الجنس. انتهى.

* * *

عود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى ملك مصر ثالث مرة

لما كانت الثانية من نهار الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، وهي الساعة التي خلع الملك المظفر بيبرس نفسه فيها من ملك مصر بديار مصر، خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من دمشق يريد الديار المصرية، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب، وإقبال سعد الناصر وإدبار سعد المظفر وسارا الملك الناصر يريد الديار المصرية وصحبته نواب البلاد الشامية بتمامهم وكمالهم والعساكر الشامية وخواصه ومماليكه.

وأما أمر الديار المصرية فإن الملك المظفر بيبرس لما خلع نفسه وخرج من مصر إلى الإطفيحية جلس الأمير سلار بقاعة النيابة من قلعة الجبل وجمع من بقي من الأمراء واهتم بحفظ القلعة، وأخرج المحابيس الذين كانوا فيها من حواشي الملك الناصر محمد وغيرهم، وركب ونادى في الناس: " ادعوا لسلطانكم الملك الناصر "، وكتب إلى الملك الناصر بنزول المظفر عن الملك وفراره إلى إطفيح، وسير بذلك أصلم الدوادار ومعه النمجاه، وكان قد توجه قبل ذلك من القاهرة الأمير بيبرس المنصورفي الدوادار، والأمير بهادر آص في رسالة المظفر بيبرس أنه قد ترك السلطنة وأنه سأل: إما الكرك وإما حماة وإما صهيون. واتفق يوم وصولهما إلى غزة قدوم الملك الناصر أيضاً إليها، وقدوم الأمير سيف الدين شاطي السلاح دار في طائفة من الأمراء المصريين إليها أيضاً. ثم قدمت العربان وقدم الأمير مهنا بن عيسى، بجماعة كثيرة من آل فضل، فركب السلطان إلى لقائه. ثم قدم الأمير برلغي الأشرفي مقدم عساكر المظفر بيبرس وزوج ابنته، والأمير آقوش الأشرفي نائب الكرك، فسر الملك الناصر بقدومهما، فإنهما كانا عضدي المظفر.

وأصبحوا من الغد وقد جلس السلطان الملك الناصر على كرسي الملك وهو يوم الخميس ثاني شوال. وحضر الخليفة أبو الربيع سليمان والقضاة والأمراء وسائر أهل الدولة للهناء، فقرأ الشيخ شمس الدين محمد بن علي بن موسى الداعي:{ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [آل عمران: ٢٦].

ولما تقدم الخليفة ليسلم على السلطان نظر إليه وقال له: كيف تحضر وتسلم على خارجي، هل كنت أنا خارجيا؟ وبيبرس من سلالة بني العباس، فتغير وجه الخليفة ولا ينطق.

قلت: والخليفة هذا، كان الملك الناصر هو الذي ولاه الخلافة بعد موت أبيه الحاكم بأمر الله.

ثم التفت السلطان إلى القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر الموقع، وكان هو الذي كتب عهد المظفر بيبرس عن الخليفة، وقال له: يا أسود الوجه، فقال ابن عبد الظاهر من غير توقف: يا خوند، أبلق خير من أسود. فقال السلطان: ويلك حتى لا تترك رنكه أيضاً، يعني أن ابن عبد الظاهر كان ممن ينتمي إلى سلار، وكان رنك سلار أبيض وأسود. ثم التفت السلطان إلى قاضي القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وقال له: يا قاضي، كنت تفتي المسلمين بقتالي؟ فقال: معاذ الله أن تكون الفتوى كذلك، وإنما الفتوى على مقتضى كلام المستفتي. ثم حضر الشيخ صدر الدين محمد بن عمر بن المرحل وقبل يد السلطان، فقال له السلطان: كنت تقول في قصيدتك:

ما للصبي وما للملك يكفله.

فحلف ابن المرحل بالله ما قال هذا، وإنما الأعداء أرادوا إتلافي فزادوا في قصيدتي هذا البيت، والعفو من شيم الملوك، فعفا عنه.

ثم في خامس شوال قدم رسول المظفر بيبرس يطلب الأمان فأمنه السلطان.

وفيها حضر ملك العرب حسام الدين مهنا أمير آل فضل فأكرمه السلطان وخلع عليه، وسأل مهنا السلطان في أشياء وأجابه، منها: ولاية حماة للملك المؤيد إسماعيل ابن الملك الأفضل علي الأيوبي، فأجابه إلى ذلك ووعده بها بعد أسندمر كرجي، ومنها الشفاعة في أيدمر الشيخي فعفا عنه وأخرجه إلى قوص، ومنها الشفاعة في الأمير برلغي الأشرفي، وكان في الأصل مملوكه قد كسبه مهنا هذا من التتار ثم أهداه إلى الملك المنصور قلاوون، فورثه منه ابنه الملك الأشرف خليل بن قلاوون، فعدد السلطان الملك الناصر ذنوبه، فما زال به مهنا حتى خفف عنه، وأذن للناس في الدخول عليه، ووعده بالإفراج عنه بعد شهر، فرضي بذلك وعاد إلى بلاده وهو كثير الشكر والثناء على الملك الناصر.

ولما فرغ السلطان الملك الناصر كل من أمر المظفر بيبرس وأصحابه ولم يبق عنده ممن يخشاه إلا سلار، ندب إليه السلطان الأمير ناصر الدين محمد ابن أمير سلاح بكتاش الفخري وكتب على يده كتاباً بحضوره إلى مصر فاعتذر سلار عن الحضور إلى الديار المصرية بوجع في فؤاده، وأنه يحضر إذا زال عنه. فتخيل السلطان من تأخره وخاف أن يتوخه إلى التتارة فكتب إلى قراسنقر نائب الشام وإلى أسندمر نائب حماة بأخذ الطرق على سلار لئلا يتوجه إلى التتار. ثم بعث الملك الناصر بالأميرين: بيبرس الدوادار وسنجر الجاولي إلى الأمير سلار، وأكد عليهما في إحضاره، وأن يضمنا له عن السلطان أنه يريد إقامته عنده يستشيره في أمور المملكة، فقدما على سلار وبلغاه عن السلطان ما قال، فوعدهما أنه يحضر، وكتب الجواب بذلك، فلما

رجعا اشتد قلق السلطان وكثر خياله منه.

وأما سلار فإنه تحير في أمره واستشار أصحابه فاختلفوا عليه، فمنهم من أشار بتوجهه إلى السلطان، ومنهم من أشار بتوجهه إلى قطر من الأقطار، إما إلى التتار أو إلى اليمن أو إلى برقة. فعول على المسير إلى اليمن، ثم رجع عن ذلك وأجمع على الحضور إلى السلطان، وخرج من الشوبك و عنده ممن سافر معه من مصر، أربعمائة وستون فارساً، فسار إلى القاهرة، فعندما قدم على الملك الناصر قبض عليه وحبسه بالبرج من قلعة الجبل، وذلك في سلخ شهر ربيع الأول سنة عشر وسبعمائة. ثم ضيق السلطان على الأمير برلغي بعد رواح الأمير مهنا، وأخرج حريمه من عنده، ومنع ألا يدخل إليه أحد بأكل ولا شرب حتى أشفى على الموت ويبست أعضاؤه وخرس لسانه من شدة الجوع، ومات ليلة الأربعاء ثاني شهر رجب.

وأما أمر سلار فإنه لما حضر بين يدي الملك الناصر عاتبه عتاباً كثيراً وطلب منه الأموال، وأمر الأمير سنجر الجاولي أن ينزل معه ويتسلم منه مايعطيه من الأموال، فنزل معه إلى داره، ففتح سلار سرباً تحت الأرض، فأخرج منه سبائك ذهب وفضة وجرب من الأديم، الطائفي، في كل جراب عشرة آلاف دينار، فحملوا من ذلك السرب أكثر من حمل، خمسين بغلاً من الذهب والفضة، ثم طلع سلار إلى الطارمة التي كان يحكم عليها فحفروا تحتها، فأخرجوا سبعاً وعشرين خابية مملوءة ذهباً، ثم أخرج من الجواهر شيئاً كثيراً، منها: حجر بهرمان زنته أربعون مثقالاً، وأخرج ألفي حياصة ذهب مجوهرة بالفصوص، وألفي قلادة من الذهب، كل قلادة تساوي مائة دينار، وألفي كلفتاة زركش، وشيئاً كثيراً يأتي ذكره أيضاً بعد أن نذكر وفاته، ومنها: أنهم وجدوا له لجماً مفضضة فنكتوا الفضة عن السيور ووزنوها، فجاء وزنها عشرة قناطير بالشامي. ثم إن السلطان طلبه وأمر أن يبنى عليه أربع حيطان في مجلسه، وأمر ألا يطعم ولايسقى، وقيل: إنه لما قبض عليه وحبسه بقلعة الجبل أحضر إليه طعاماً فأبى سلار أن يأكل وأظهر الغضب، فطولع السلطان بذلك، فأمر بألا يرسل إليه طعام بعد هذا، فبقي سبعة أيام لا يطعم ولايسقى وهو يستغيث من الجوع، فأرسل إليه السلطان ثلاثة أطباق مغطاة بسفر الطعام، فلما أحضروها بين يديه فرح فرحاً عظيماً وظن أن فيها أطعمة يأكل منها، فكشفوها فإذا في طبق ذهب، وفي الآخر فضة، وفي الآخر لؤلؤ وجواهر، فعلم سلار أنه ما أرسل إليه هذه الأطباق إلا ليقابله على ما كان فعله معه، فقال سلار: الحمد لله الذي جعلني من أهل المقابلة في الدنيا وبقي على هذه الحالة اثني عشر يوماً ومات، فأعلموا الملك الناصر بموته فجاؤوا إليه، فوجدوه قد أكل ساق خفه، وقد أخذ السرموجة وحطها في فيه وقد عض عليها بأسنانه وهو ميت، وقيل: إنهم دخلوا عليه قبل موته وقالوا: السلطان قد عفا عنك،

فقام من الفرح ومشى خطوات ثم خر ميتاً، وذلك في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر سنة عشر وسبعمائة، وقيل: في العشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة.

فأخذ الأمير علم الدين سنجر الجاولي بإذن السلطان وتولى غسله وتجهيزه، ودفنه بتربته التي أنشأها بجانب مدرسته على الكبش خارج القاهرة بالقرب من جامع ابن طولون، لصداقة كانت بين الجاولي و سلار قديماً وحديثاً. وكان سلار أسمر اللون أسيل الخد لطيف القد صغير اللحية تركي الجنس، وكان أصله من مماليك الملك الصالح علي بن قلاوون الذي مات في حياة والده قلاوون، وكان سلار أميراً جليلاً شجاعاً مقداماً عاقلاً سيوساً، وفيه كرم وحشمة ورياسة، وكانت داره ببين القصرين بالقاهرة. وقيل: إن سلار لما حج المرة الثانية فرق في أهل الحرمين أموالاً كثيرة وغلالاً وثياباً تخرج عن حد الوصف، حتى إنه لم يدع بالحرمين فقيراً، وبعد هذا مات، وأكبر شهواته رغيف خبز، وكان في شونته يوم مات من الغلال ما يزيد على أربعمائة ألف إردب. وكان سلار ظريفاً لبيساً كبير الأمراء في عصره، اقترح أشياء من الملابس كثيرة مثل السلاري وغيره، ولم يعرف لبس السلاري قبله، وكان شهد وقعة شقحب مع الملك الناصر وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً وثخنت جراحاته، وله اليد البيضاء في قتال التتار. وتولى نيابة السلطنة بديار مصر، فاستقل فيها بتدبير الدولة الناصرية نحو عشر سنين. ومن جملة صدقاته أنه بعث إلى مكة في سنة اثنتين وسبعمائة في البحر المالح عشرة آلاف إردب قمح ففرقت في أهل مكة، وكذا فعل بالمدينة. وكان فارساً كان إذا لعب بالكرة لا يرى في ثيابه عرق، وكذا في لعب الرمح مع الإتقان فيهما.

وأما ماخلفه من الأموال فقد ذكرنا منه شيئاً ونذكر منه أيضاً ما نقله بعض المؤرخين. قال الجزري: وجد ل " سلار " بعد موته ثمانمائة ألف ألف دينار، وذلك غير الجوهر والحلي والخيل والسلاح. قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: هذا كالمستحيل، وحسب زنة الدينار وجمله بالقنطار فقال: يكون ذلك حمل خمسة آلاف بغل، وما سمعناه عن أحد من كبار السلاطين أنه ملك هذا القدر، ولا سيما ذلك خارج عن الجوهر وغيره. انتهى كلام الذهبي.

قلت: ومما زاد سلار من العظمة أنه لما ولي النيابة في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، وصار إليه وإلى بيبرس الجاشنكير تدبير المملكة، حضر إلى الديار المصرية الملك العادل زين الدين كتبغا الذي كان سلطان الديار المصرية وعزل بحسام الدين لاجين، ثم استقر نائب حماة، فقدم كتبغا إلى القاهرة وقبل الأرض بين يدي الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم خرج من عنده وأتى سلار هذا ليسلم عليه،

فوجد سلار راكباً وهو يسير في حوش داره، فنزل كتبغا عن فرسه وسلم على سلار، و سلار على فرسه لم ينزل عنه، وتحادثا حتى انتهى كلام كتبغا، وعاد إلى حيث نزل بالقاهرة، فهذا شيء لم يسمع بمثله انتهى. وبعد موت سلار قدم على السلطان البريد بموت الأمير قبجق المنصوري نائب حلب، وكان الملك الناصر عزل أسندمر كرجي عن نيابة حماة وولى نيابة حماة للملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، فسار إليه المؤيد من دمشق فمنعه أسندمر، فأقام المؤيد بين حماة ومصر ينتظر مرسوم السلطان، فاتفق موت قبجق نائب حلب، فسار أسندمر من حماة إلى حلب وكتب يسأل السلطان في نيابة حلب، فأعطاها له، وأسر ذلك في نفسه، لكونه أخذ نيابتها باليد.

ثم التفت السلطان بعد موت قبجق والحاج بهادر المذكور إلى أسندمر كرجي، وأخرج تجريدة من الديار المصرية، وفيها من الأمراء كراي المنصوري وهو مقدم العسكر، وسنقر الكمالي حاجب الحجاب، وأيبك الرومي وبينجار وكجكن وبهادر آص في عدة من مضافيهم من أمراء الطبلخاناه والعشرات ومقدمي الحلقة، وأظهر أنهم توجهوا لغزو سيس، وكتب لأسندمر كرجي بتجهيز آلات الحصار على العادة، والاهتمام في هذا الأمر حتى يصل إليه العسكر من مصر. وكتب الملك الناصر إلى المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة بالمسير مع العسكر المصري. ثم خرج الأمير كراي من القاهرة بالعساكر في مستهل ذي القعدة سنة عشر وسبعمائة وأسر إليه السلطان ما يعتمده في أمر كرجي.

وبعد خروج هذا العسكر من مصر توحش خاطر الأمير بكتمر الخوكندار نائب السلطنة من الملك الناصر وخاف على نفسه، واتفق مع الأمير بتخاص المنصوري على إقامة الأمير مظفر الدين موسى ابن الملك الصالح علي بن قلاوون في السلطنة، والاستعانة بالمماليك المظفرية، وبعث إليهم في ذلك فوافقوه. ثم شرع النائب بكتمر الجوكندار في استمالة الأمراء ومواعدة المماليك المظفرية الذين بخدمة الأمراء، على أن كل طائفة تقبض على الأمير الذي هي في خدمته في يوم عينه لهم، ثم يسوق الجميع إلى قبة النصر خارج القاهرة، ويكون الأمير موسى المذكور قد سبقهم هناك. فدبروا ذلك حتى انتظم الأمر ولم يبق إلا وقوعه، فنم عليهم إلى الملك الناصر بيبرس الجمدار أحد المماليك المظفرية. وهو ممن اتفق معهم بكتمر الجوكندار، أراد بذلك أن يتخذ يداً عند السلطان الملك الناصر بهذا الخبر، فعرف خشداشه قراتمر الخاصكي بما عزم عليه فوافقه. وكان بكتمر الجوكندار قد سير يعرف الأمير كراي المنصوري بذلك، لأنه كان خشداشه، وأرسل كذلك إلى قطلوبك المنصوري نائب صفد ثم إلى قطلقتمر نائب غزه، فأما قطلوبك وقطلقتمر فوافقاه، وأما كراي فأرسل نهاه وحذره من ذلك، فلم يلتفت بكتمر، وتم على ما هو عليه. فلما بلغ السلطان هذا الخبر وكان

في الليل لم يتمهل، وطلب الأمير موسى إلى عنده وكان يسكن بالقاهرة، فلما نزل إليه الطلب هرب. ثم استدعى السلطان، الأمير بكتمر الجوكندار النائب، وبعث أيضاً في طلب بتخاص، وكانوا إذ ذاك يسكنون بالقلعة، فلما دخل إليه بكتمر أجلسه وأخذ يحادثه حتى أتاه المماليك بالأمير بتخاص، فلما رآه بكتمر علم أنه قد هلك، فقيد بتخاص وسجن، وأقام السلطان ينتظر الأمير موسى، فعاد إليه الجاولي ونائب الكرك وأخبراه بفراره، فاشتد غضبه عليهما. وماطلع النهار حتى أحضر السلطان الأمراء وعرفهم بما قد وقع، ولم يذكر اسم بكتمر النائب. وألزم السلطان الأمير كشدغدي البهادري والي القاهرة بالنداء على الأمير موسى، ومن أحضره من الجند فله إمرته، وإن كان من العامة فله ألف دينار. فنزل كشدغدي، ومعه الأمير فخر الدين إياز شاد الدواوين وأيدغل شقير وسودي وعدة من المماليك، وألزم السلطان سائر الأمراء بالإقامة بالقاعة الأشرفية من القلعة حتى يظهر خبر الأمير موسى. ثم قبض السلطان على حواشي الأمير موسى وجماعته وعاقب كثيراً منهم. فلم يزل الأمر على ذاك من ليلة الأربعاء إلى يوم الجمعة، ثم قبض على الأمير موسى المذكور من بيت أستادار الفارقاني من حارة الوزيرية بالقاهرة، وحمل إلى القلعة فسجن بها. ونزل الأمراء إلى دورهم، وخلي عن الأمير بكتمر النائب أيضاً ونزل إلى داره، ورسم السلطان بتسمير أستادار الفارقاني، ثم عفا عنه وسار إلى داره.

وتتبع السلطان المماليك المظفرية، وفيهم بيبرس الجمدار، الذي نم عليهم وعملوا في الحديد، وأنزلوا ليسمروا تحت القلعة، وقد حضر نساؤهم وأولادهم، وجاء الناس من كل موضع وكثر البكاء والصراخ عليهم، رحمة لهم، والسلطان ينظر، فأخذته الرحمة عليهم فعفا عنهم، فتركوا ولم يقتل أحد منهم، فكثر الدعاء للسلطان والثناء عليه.

وأما أمر أسندمر كرجي فإن الأمير كراي لما وصل بالعساكر المصرية إلى حمص وأقام بها على ما قرره السلطان معه وصل إليه الأمير منكوتمر الطباخي، وكان السلطان كتب معه ملطفات إلى أمراء حلب بقبض نائبها أسندمر كرجي في الباطن، وكتب في الظاهر لكراي وأسندمر كرجي بما أراده من عمل المصالح، فقضى كراي شغله من حمص وركب وتهيأ من حمص، وجد في السير جريمة حتى وصل إلى حلب في يوم ونصف، فوقف بمن معه تحت قلعة حلب عند ثلث الليل الآخر، وصاح: يا لعلي، وهي الإشارة التي رتبها السلطان، بينه وبين نائب قلعة حلب. فنزل نائب القلعة عند ذلك بجميع رجالها وقد استعدوا للحرب، وزحف الأمير كراي على دار النيابة، ولحق به أمراء حلب وعسكرها، فسلم الأمير أسندمر كرجي نفسه بغير قتال، فأخذ وقيد وسجن بقلعتها وأحيط على موجوده. وسار منكوتمر الطباخي على البريد

بذلك إلى السلطان. ثم حمل أسندمر كرجي إلى السلطان صحبة الأمير بينجار وأيبك الرومي، فخاف عند ذلك الأمير قرا سنقر نائب الشام على نفسه، وسأل أن ينتقل من نيابة دمشق إلى نيابة حلب ليبعد عن الشر، فأجيب إلى ذلك، وكتب بتقليده وجهز إليه في آخر ذي الحجة من سنة عشر وسبعمائة على يد الأمير أرغون الدوادار الناصري، وأسر له السلطان بالقبض عليه إن أمكنه ذلك. وقدم أسندمر كرجي إلى القاهرة واعتقل بالقلعة، وبعث يسأل السلطان عن ذنبه فأعاد جوابه: ما لك ذنب، إلا أنك قلت لي لما ودعتك عند سفرك: أوصيك ياخوند: لاتبق في دولتك كبشاً كبيراً، وأنشيء مماليكك ولم يبق عندي كبش كبير غيرك ". ثم قبض السلطان على طوغان نائب البيرة، وحمل إلى السلطان فحبس أياماً ثم أطلقه وولاه شد الدواوين بدمشق.

وفي مستهل سنة إحدى عشرة وسبعمائة وصل الأمير أرغون الدوادار إلى الشام لتسفير قراسنقر المنصوري منها إلى نيابة حلب فاحترس منه الأمير قراسنقر على نفسه، وبعث إليه عدة من مماليكه يتلقونه ويمنعون أحداً ممن جاء معه أن ينفرد مخافة أن يكون معه ملطفات إلى أمراء دمشق. ثم ركب قراسنقر إليه ولقيه بميدان الحصى خارج دمشق، وأنزله عنده بدار السعادة ووكل بخدمته من ثقاته جماعة.

فلما كان من الغد، أخرج له أرغون تقليده فقبله وقبل الأرض على العادة، وأخذ في التجهيز، ولم يدع قراسنقر أرغون أن ينفرد عنه، بحيث إنه أراد زيارة أماكن بدمشق فركب معه قراسنقر بنفسه، حتى قضى أرغون أربه وعاد، وتم كذلك إلى أن سافر. فلما أراد قراسنقر السفر بعث إلى الأمراء ألا يركب أحد منهم لوداعه، وألا يخرج من بيته، واستعد وقدم أثقاله أولاً في الليل فلما أصبح ركب يوم الرابع من المحرم بمماليكه، وعدتهم ستمائة فارس، أرغون الموادار بجانبه وبهادر آص في جماعة قليلة، وسار معه أرغون حتى أوصله إلى حلب. ثم عاد أرغون إلى دمشق، وقلد الأمير كراي المنصوري نيابة الشام عوضاً عن قراسنقر، وأنعم كراي على أرغون الدوادار بألف دينار سوى الخيل والخلع وغير ذلك.

ثم إن الملك الناصر عزل الأمير بكتمر الحسامي عن الوزارة وولاه حجوبية الحجاب بالديار المصرية عوضاً عن سنقر الكمالي.

ولا زال السلطان يتربص في أمر بكتمر الجوكندار النائب حتى قبض عليه بحيلة دبرها عليه في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى من سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وقبض معه على عدة من الأمراء، منهم: صهر الجوكندار الكتمر الجمدار، وأيدغدي العثماني، ومنكوتمر الطباخي، وبدر الدين بكمش الساقي وأيدمر الشمسي وأيدمر الشيخي، وسجنوا الجميع إلا الطباخي فإنه قتل من وقته.

والحيلة التي دبرها السلطان على قبض بكتمر الجوكندار أنه نزل السلطان إلى المطعم وبكتمر بإزائه، فخرج السلطان من البرج ومال إلى بكتمر وقال: ياعمي، ما بقي في قلبي من أحد إلا فلان وفلان وذكر له أميرين، فقال له بكتمر: يا خوند، ما تطلع من المطعم إلا وتجدني قد أمسكتهما، وكان ذلك يوم الثلاثاء، فقال له السلطان: لا، يا عمي إلا دعهما إلى يوم الجمعة، تمسكهما في الصلاة فقال له: السمع والطاعة. ثم إن السلطان جهز لبكتمر تشريفاً هائلاً ومركوباً معظماً، فلما كان يوم الجمعة قال له في الصلاة: والله يا عمي ما لي وجه أراهما وأستحي منهما، ولكن أمسكهما إذا دخلت أنا إلى الدار، وتوجه بهما إلى المكان الفلاني تجد هناك منكلي بغا وقجماس فسلمهما إليهما، ورح أنت، فأمسكهما بكتمر الجوكندار وتوجه بهما إلى المكان المذكور له، فوجد الأميرين: قجماس ومنكلي بغا هناك، فقاما إليه وقالا له: عليك السمع والطاعة لمولانا السلطان، وأخذا سيفه، فقال لهما: يا خشداشيتي ما هو هكذا الساعة كما فارقت السلطان، وقال لي: أمسك هؤلاء فقالا: ما القصد إلا أنت، فأمسكاه وأطلقا الأميرين، وكان ذلك آخر العهد ببكتمر الجوكندار كما يأتي ذكره. انتهى.

ثم أرسل السلطان استدعى الأمير بيبرس الدوادار المنصوري المؤرخ وولاه نيابة السلطنة بديار مصر عوضاً عن بكتمر الجوكندار. ثم أرسل السلطان قبض أيضاً على الأمير كراي المنصوري نائب الشام بدار السعادة في يوم الخميس ثاني وعشرين جمادى الأولى، وحمل مقيداً إلى الكرك فحبس بها، وسبب القبض عليه كونه كان خشداش بكتمر الجوكندار ورفيقه. ثم قبض السلطان على الأمير قطلوبك نائب صفد بها، وكان أيضاً ممن وافق بكتمر على الوثوب مع الأمير موسى حسب ما تقدم ذكره. ثم خلع السلطان على الأمير آقوش الأشرفي نائب الكرك باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن كراي المنصوري، واستقر بالأمير بهادر آص في نيابة صفد عوضاً عن قطلوبك. ثم نقل السلطان بكتمر الجوكندار النائب وأسندمر كرجي من سجن الإسكندرية إلى سجن الكرك فبقي بسجن الكرك جماعة من أكابر الأمراء مثل: بكتمر الجوكندار وكراي المنصوري وأسندمر كرجي وقطلوبك المنصوري نائب صفد وبيبرس العلائي في آخرين. ثم عزل السلطان مملوكه أيتمش المحمدي عن نيابة الكرك، واستقر في نيابتها تيبغا الأشرفي، وكان السلطان قد استتاب أيتمش هذا على الكرك لما خرج منها إلى دمشق.

وأما قراسنقر فإنه أخذ في التدبير لنفسه خوفاً من القبض عليه كما قبض على غيره، واصطنع العربان وهاداهم، وصحب سليمان بن مهنا وآخاه، وأنعم عليه وعلى أخيه موسى حتى صار الجميع من أنصاره. وقدم عليه الأمير مهنا إلى وأقام عنده أياماً وأفضى إليه قراسنقر بسره، وأوقفه على كتاب السلطان بالقبض على مهنا، وأنه لم

يوافق على ذلك. ثم بعث قراسنقر يسأل السلطان في الإذن له في الحج، فجهز قراسنقر حاله، وخرج من حلب في نصف شوال ومعه أربعمائة مملوك، واستناب بحلب الأمير قرطاي وترك عنده عدة من مماليكه لحفظ حواصله، فكتب السلطان لقرطاي بالاحتراس، وألا يمكن قراسنقر من حلب إذا عاد، ويحتج عليه بإحضار مرسوم السلطان بتمكينه من ذلك. ثم كتب إلى نائب غزة ونائب الشام ونائب الكرك وإلى بني عقبة بأخذ الطريق على قراسنقر، فقدم البريد أنه سلك البرية إلى صرخد وإلى زيزاء، ثم كثر خوفه من السلطان فعاد من غير الطريق التي سلكها، ففات أهل الكرك القبض عليه فكتبوا بالخبر إلى السلطان فشق عليهم وصل قراسنقر إلى ظاهر حلب فبلغه ماكتب السلطان إلى قرطاي، فعظم خوفه، وكتب إلى مهنا فكتب مهنا إلى قرطاي أن يخرج حواصل قراسنقر وإلا هجم مدينة حلب وأخذ ماله قهراً، فخاف قرطاي من ذلك، وجهز كتابه إلى السلطان في طي كتابه، وبعث بشيء من حواصل قراسنقر إلى السلطان مع ابن قراسنقر الأمير عز الدين فرج، فأنعم عليه الملك الناصر بإمرة عشرة، وأقام بالقاهرة مع أخيه أمير علي بن قراسنقر. ثم إن سليمان بن مهنا قدم على قراسنقر، فأخذه ومضى وأنزله في بيت أمه فاستجار قراسنقر بها فأجارته، ثم أتاه مهنا وقام له بما يليق به. ثم بعث مهنا يعرف السلطان بما وقع لقراسنقر وأنه استجار بأم سليمان فأجارته، وطلب من السلطان العفو عنه، فأجاب السلطان سؤاله، وبعث إليه أن يخير قراسنقر في بلد من البلاد حتى يوليه إياها فلما سافر قاصد مهنا، وهو ابن مهنا لكنه غير سليمان، جهز السلطان تجريدة هائلة فيها عدة كثيرة من الأمراء وغيرهم إلى جهة مهنا، فاستعد مهنا. وكتب قراسنقر إلى الآفرم نائب طرابلس يستدعيه إليه، فأجابه ووعده بالحضور إليه. ثم بعث قراسنقر ومهنا إلى السلطان وخدعاه، وطلب قراسنقر صرخد، فانخدع السلطان وكتب له تقليداً بصرخد، وتوجه إليه بالتقليد أيتمش المحمدي، فقبل قراسنقر الأرض، واحتج حتى يصل إليه ماله بحلب ثم يتوجه إلى صرخد فقدمت أموال قراسنقر من حلب، فما هو إلا أن وصل إليه ماله، وإذا بالأفرم قد قدم عليه من الغد ومعه خمسة أمراء من أمراء طبلخاناه وست عشراوات في جماعة من التركمان فسر قراسنقر بهم، ثم استدعوا أيتمش وعددوا عليه من قتله السلطان من الأمراء، وأنهم خافوا على أنفسهم وعزموا على الدخول في بلاد التتار، وركبوا بأجمعهم، وعاد أيتمش إلى الأمراء المجردين بحمص وعرفهم الخبر، فرجعوا عائدين إلى مصر بغير طائل. وقدم الخبر على السلطان بخروج قراسنقر والأفرم إلى بلاد التتار في أول سنة اثنتي عشرة وسبعمائة وقيل: إن الأفرم لما خرج هو وقراسنقر إلى بلاد التتار بكى الأفرم، وأنشد: الطويل

سيذكرني قــومي إذا جــد جــدهم ::: وفي الليلة الظلمــاء يفتقــد البــدر

فقال له قراسنقر: امش بلا فشار تبكي عليهم ولا يبكون عليك فقال الأفرم: والله ما بي إلا فراق ابني موسى فقال قراسنقر: أي بغاية بصقت في رحمها جاء منه موسى وإبراهيم، وعدد أسماء كثيرة، وتوجها. انتهى.

ثم إن السلطان أفرج عن الأمير أيدمر الخطيري وأنعم عليه بخبز الأمير علم الدين سنجر الجاولي.

وفي أول سنة اثنتي عشرة وسبعمائة كملت عمارة الجامع الجديد الناصري بمصر القديمة على النيل ووقف عليه عدة أوقاف كثيرة.

وأما قراسنقر والأفرم فإنهما سارا بمن معهما إلى بلاد التتار، فخرج خربندا ملك التتار وتلقاهم وترجل لهم وترجلوا له، وبالغ في إكرامهم، وسار بهم إلى مخيمه وأجلسهم معه على التخت، وضرب لكل منهم خركاه ورتب لهم الرواتب السنية ثم استدعاهم بعد يومين واختلى بقراسنقر فحسن له قراسنقر عبور الشام وضمن له تسليم البلاد بغير قتال. ثم اختلى بالأفرم فحن له أيضاً أخذ الشام، إلا أنه خيله من قوة السلطان وكثرة عساكره. ثم إن خربندا أقطع قراسنقر مراغة وأقطع الأفرم همذان، واستمروا هناك إلى ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وفي محرم سنة ست عشرة وسبعمائة ورد الخبر على السلطان بموت خربندا ملك التتار و جلوس ولده بوسعيد في الملك بعده.

ثم أفرج الملك الناصر عن الأمير بكتمر الحسامي الحاجب وخلع عليه يوم الخميس ثالث عشر شوال من السنة المذكورة بنيابة صفد، وأنعم عليه بمائتي ألف درهم. ثم نقل السلطان في السنة أيضاً الأمير كراي المنصوري وسنقر الكمالي الحاجب من سجن الكرك إلى البرج بقلعة الجبل فسجنا بها.

ثم بدا له زيارة القدس الشريف، ونزل السلطان بعد أيام في يوم الخميس رابع جمادى الأولى من سنة سبع عشرة وسبعمائة، وسار ومعه خمسون أميراً، وكريم الدين الكبير ناظر الخواص وفخر الدين ناظر الجيش، وعلاء الدين علي بن أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب السر، بعدما فرق في كل واحد فرساً مسرجاً وهجيناً، وبعضهم ثلاث هجن، وكتب إلى الأمير تنكز نائب، الشام أن يلقاه بالإقامات لزيارة القدس، فتوجه إلى القدس وزاره، ثم توجه إلى الكرك ودخله وأفرج عن جماعة، ثم عاد إلى الديار المصرية فدخلها في رابع عشر جمادى الآخرة، فكانت غيبته عن مصر أربعين يوماً.

ثم بعد مجيء السلطان وصل إلى القاهرة الأمير علاء الدين مغلطاي الجمالي، والأمير بهادر آص، والأمير بيبرس الدوادار، وهؤلاء الذين أفرج عنهم من حبس

الكرك، وخلع السلطان عليهم وأنعم على بهادر بإمرة في دمشق، ولزم بيبرس داره، ثم أنعم عليه بإمرة وتقدمة ألف على عادته أولاً.

وعين السلطان للإقامة بديار مصر الأمير أرغون الناصري النائب ومعه الأمير أيتمش المحمدي وغيره. ثم قدم الملك المؤيد صاحب حماة إلى القاهرة ليتوجه في ركاب السلطان إلى الحجاز. وسافر المحمل على العادة في ثامن عشر شوالي مع الأمير سيف الدين طرجي أمير مجلس. وركب السلطان من قلعة الجبل في أول ذي القعدة، وسار من بركة الحجاج في سادس ذي القعدة وصحبته المؤيد صاحب حماة والأمراء وقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي وغالب أرباب الدولة. وسار حتى وصل مكة المشرفة بتواضع زائد بحيث إن السلطان قال للأمير جنكلي بن البابا: لا زلت أعظم نفسي إلى أن رأيت الكعبة المشرفة، وذكرت بوس الناس الأرض لي، فدخلت في قلبي مهابة عظيمة ما زالت عني حتى سجدت لله تعالى. وكان السلطان لما دخل مكة حسن له قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة أن يطوف بالبيت راكباً كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم فقال له الملك الناصر: ومن أنا حتى أتشبه بالنبي والله لاطفت إلا كما يطوف الناس. ومنع الحجاب من منع الناس أن يطوفوا معه، وصاروا يزاحمونه وهو يزاحمهم كواحد منهم في مدة طوافه،، في تقبيله الحجر الأسود.

قلت: وهذه حجة الملك الناصر الثانية. ولما كان الملك الناصر بمكة بلغه أن جماعة من المغل ممن حج في هذه السنة قد اختفى خوفاً منه، فأحضرهم السلطان وأنعم عليهم وبالغ في إكرامهم. وغسل السلطان الكعبة بيده، وصار يأخذ أزر إحرام الحجاج ويغسلها لهم في داخل البيت بنفسه، ثم يدفعها لهم، وكثر الدعاء له. وأبطل سائر المكوس من الحرمين الشريفين، وعوض أميري مكة والمدينة عنها إقطاعات بمصر والشام، وأحسن إلى أهل الحرمين، وأكثر من الصدقات.

وفي هذه السنة مهد السلطان ماكان في عقبة أيلة من الصخور، ووسع طريقها، حتى أمكن سلوكها بغير مشقة، وأنفق على ذلك جملاً مستكثرة.

ثم عاد السلطان بعد أن قضى مناسكه إلى جهة الديار المصرية في يوم السبت ثاني عشر المحرم سنة عشرين وسبعمائة بعد أن خرج الأمراء إلى لقائه ببركة الحجاج، وركب السلطان بعد انقضاء السماط في موكب عظيم، وقد خرج الناس لرؤيته وسار حتى طلع القلعة، فكان يوماً مشهوداً، وزينت القاهرة ومصر زينة عظيمة لقدومه، وكثرت التهاني وأرباب الملاهي من الطبول والزمور.

وجلس السلطان على تخت الملك وخلع على الأمراء وألبس كريم الدين الكبير

أطلسين، ولم يتفق ذلك لمتعمم قبله. ثم خلع السلطان على الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة وأركبه بشعار السلطنة من المدرسة المنصورية ببين القصرين، وحمل وراءه الأمير قجليس السلاح دار السلاح، وحمل الأمير ألجاي الدوادار الدواة، وركب معه الأمير بيبرس الأحمدي أمير جاندار والأمير طيبرس، وسار بالغاشية والعصائب وسائر دست السلطنة، وهم بالخلع معه، إلى أن طلع إلى القلعة، فكان عدة تشاريف من سار معه مائة وثلاثين تشريفاً: فيها ثلاثة عشر أطلس، والبقية كنجي وعمل الدار وطرد وحش، وقبل الأرض وجلس على ميمنة السلطان ولقبه السلطان بالملك المؤيد، وسافر من يومه بعد ما جهزه السلطان بسائر ما يحتاج إليه. ثم أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء المحبوسين، وعدتهم أزيد من عشرة نفر. ثم ندب السلطان الأمير بيبرس الأحمدي الحاجب وطائفة من الأجناد إلى مكة ليقيم بها بدل الأمير آق سنقر شاد العمائر خوفاً من هجوم الشريف حميضة على مكة.

وفي شعبان زوج الملك الناصر ابنته للأمير أبي بكر بن أرغون النائب الناصري، وتولى العقد قاضي القضاة شمس الدين محمد بن الحريري الحنفي على أربعة آلاف دينار.

ثم قدم الملك المؤيد صاحب حماة على السلطان بالديار المصرية وتوجه في خدمة الملك الناصر إلى قوص بالوجه القبلي للصيد. وعاد السلطان من قوص إلى جهة القاهرة في أول محرم سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة الموافق لرابع عشر طوبة، ونزل بالجيزة، وخلع على الملك المؤيد خلعة السفر. ثم استدعى السلطان الحريم السلطاني إلى بر الجيزة، فطرد سائر الناس من الطرقات، وغلقت الحوانيت، ونزلت خوند طغاي زوجة السلطان وأم ولده آنوك، والأمير أيدغمش الأمير آخور كبير ماش يقود عنان فرسها بيده وحولها سائر الخدام مشاة منذ ركبت من القلعة إلى أن وصلت إلى النيل فعدت في الحراقة. ثم استدعى السلطان الأمير بكتمر الساقي وغيره من الأمراء الخاصكية وحريمهم وأقام السلطان بالجيزة أياماً إلى أن عاد إلى القلعة في خامس عشره، وقد توعك كريم الدين الكبير.

ثم قدم الحاج في سادس وعشرين المحرم.

ثم عوفي كريم الدين فخلع السلطان عليه خلعة أطلس بطرز زركش وكلفتاة زركش وحياصة ذهب فاستعظم الناس ذلك، وبالغ السلطان في الإنعام على الأمراء الحكماء. ثم بعد أيام قبض السلطان على كريم الدين المذكور في يوم الخميس رابع عشر شهر ربيع الآخر، وهو كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله بن السديد ناظر الخواص ووكيل السلطان وعظيم دولته، وأحيط بداره وصودر فوجد له شيء كثير جداً ولازال

في المصادرة إلى أن أفرج عنه في يوم الأربعاء رابع وعشرين جمادى الآخرة، وألزمه السلطان بإقامته بتربته بالقرافة. ثم إن السلطان أخرجه إلى الشوبك ثم نقله إلى القدس ثم طلب إلى مصر وجهز إلى أسوان، وبعد قليل أصبح مشنوقاً بعمامته يعني أنه شنق نفسه، وليس الأمر كذلك، وقيل إنه لما أحس بقتله صلى ركعتين وقال: هاتوا عشنا سعداء ومتنا شهداء، وكان الناس يقولون: ما عمل أحد مع أحد ما عمله الملك الناصر مع كريم الدين: أعطاه الدنيا والآخرة، ومعنى هذا أنه كان حكمه في الدولة، ثم قتله، والمقتول ظلماً في الجنة. وأصل كريم الدين هذا كان من كتبة النصارى ثم أسلم كهلاً في أيام بيبرس الجاشنكير، وكان كاتبه، وكان الجاشنكير لا يصرف على الملك الناصر إلا بقلم كريم الدين، وكان الناصر إذ ذاك تحت حجر الجاشنكير، ولما قتل بيبرس الجاشنكير اختفى كريم الدين هذا مدة ثم طلع مع الأمير طغاي الكبير فأوقفه طغاي ثم دخل إلى السلطان وهو يضحك، وقال له: إن حضر كريم الدين أيش تعطيني؟ ففرح السلطان وقال: أعندك هو؟ أحضره، فخرج وأحضره وقال له: مهما قال لك قل له: السمع والطاعة، ودعني أدبر أمرك، فلما مثل بين يدي السلطان قال له بعد أن استشاط غضباً: اخرج واحمل ألف ألف دينار، فقال: نعم، وأراد الخروج، فقال له السلطان: لا، كثير، احمل خمسمائة ألف ديناراً فقال له كما قال أولاً ولازال السلطان ينقصه من نفسه إلى أن ألزمه بمائة ألف دينار، فلما خرج على أن يحمل ذلك، قال له طغاي المذكور: " لا تصقع ذقنك وتحضر الجميع الآن، ولكن هات منها عشرة آلاف دينار ففعل ذلك، ودخل بها إلى السلطان وصار يأتيه بالنفحة من ثلاثة آلاف دينار إلى ما دونها، ولما بقي عليه بعضها أخذ طغاي والقاضي فخر الدين ناظر الجيش في إصلاح أمره، ولازال بالسلطان حتى أنعم عليه بما بقي، واستخدمه ناظر الخاص، وهو أول من باشر هذه الوظيفة بتجمل ولم تكن تعرف أولاً ثم تقدم عند السلطان حتى صار أعز الناس عليه، وحج مع خوند طغاي زوجة السلطان بتجمل زائد، ذكرناه في ترجمته في المنهل الصافي وكان يخدم كل أحد من الأمراء الكبار المشايخ والخاصكية وأرباب الوظائف والجمدارية الصغار وكل أحد حتى الأوجاقية وكان يركب في خدمته سبعون مملوكاً بكنابيش عمل الدار وطرز ذهب، والأمراء تركب في خدمته، ومن جملة ما ناله من السعادة والوجاهة عند الملك الناصر أنه مرة طلبه السلطان إلى الدور، فدخل عليه وبقيت خازندارة خوند طغاي تروح إليه وتجيء مرات فيما تطلبه خوند طغاي من كريم الدين هذا، وطال الأمر، فقال السلطان له، : يا قاضي أيش حاجة لهذا التطويل، بنتك ما تختبيء منك ادخل إليها أبصر ما تريده افعله لها، فقام كريم الدين دخل إليها، وقال لها السلطان: أبوك هنا أبصري له ما يأكل، فأخرجت له طعاماً، وقام السلطان إلى كرمة

في الدار وقطع منها عنباً وأحضره بيده وهو ينفخه من الغبار، وقال: يا قاضي كل من عنب دارنا. وهذا شيء لم يقع لأحد غيره مثله مع الملك الناصر وأشياء كثيرة من ذلك. وكان حسن الإسلام كريم النفس، قيل إنه كان في كل قليل يحاسب صيرفيه فيجد في الوصولات وصولات زور. ثم بعد حين وقع بالمزور فقال له: ما حملك على هذا، فقال: الحاجة، فأطلقه، وقال له: كلما احتجت إلى شيء اكتب به خطك على عادتك على هذا الصيرفي، ولكن ارفق، فإن علينا كلفاً كثيرة. وكان إذا قال: نعم، كانت نعم، وإذا قال: لا، فهي لا. ولما قبض السلطان عليه خلع على الأمير آقوش نائب الكرك باستقراره في نظر البيمارستان المنصوري عوضاً عن كريم الدين المذكور. فوجد آقوش حاصله أربعمائة ألف درهم.

وفيها أفرج السلطان عن الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية بشفاعة الأمير جنكلي بن البابا. وفي يوم الاثنين سابع عشر، جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة رسم السلطان بردم الجب الذي كان بقلعة الجبل لما بلغ السلطان أنه شنيع المنظر شديد الظلمة كره الرائحة وأنه يمر بالمحابيس فيه شدائد عظيمة، فردم وعمر فوقه طباق للمماليك السلطانية. وكان هذا الجب عمل في سنة إحدى وثمانين وستمائة في أيام الملك المنصور قلاوون. ثم في السنة المذكورة رسم السلطان للحاجب أن ينادي بألا يباع مملوك تركي لكاتب ولا عامي، ومن كان عنده مملوك فليبعه، ومن عثر عليه بعد ذلك أن عنده مملوكاً، فلا يلوم إلا نفسه. وفيها عرض السلطان مماليك الطباق وقطع منهم مائة وخمسين، وأخرجهم من يومهم ففرقوا بقلاع الشام.

وفيها قتل الأمير تنكز نائب الشام الكلاب ببلاد الشام فتجاوز عدتها خمسة آلاف كلب.

ثم في عشرين المحرم المذكور وصل إلى القاهرة الملك المؤيد إسماعيل صاحب حماة، فبالغ السلطان أيضاً في إكرامه ورفع منزلته وخلع عليه.

ثم سافر السلطان في تاسع صفر إلى بلاد الصعيد للصيد على عادته، ومعه المؤيد صاحب حماة، ثم عاد بعد أيام قليلة لتوعك بدنه من رمد طلع فيه، وأقام بالأهرام بالجيزة أياماً، ثم عاد وسافر إلى الصعيد حتى وصل إلى، ثم عاد إلى مصر في خامس شهر ربيع الآخر، وسافر في ثامنه المؤيد صاحب حماة إلى محل ولايته بعد أن غاب مع السلطان هذه الأيام الكثيرة.

ثم نزل السلطان من القلعة في خامس عشرين ربيع الآخر المذكور، وتوجه إلى نواحي قليوب يريد الصيد، فبينما هو في الصيد تقنطر عن فرسه فانكسرت يده وغشي عليه ساعة وهو ملقى على الأرض، ثم أفاق وقد نزل إليه الأميران: أيدغمش أمير أخور وقماري أمير شكار وأركباه فأقبل الأمراء بأجمعهم إلى خدمته، وعاد إلى

قلعة الجبل في عشية الأحد ثامن وعشرينه، فجمع الأطباء والمجبرين لمداواته فتقدم رجل من المجبرين يعرف بابن بن بوسقة وتكلم بجفاء وعامية طباع، وقال له: تريد تفيق سريعاً؟ اسمع مني، فقال له السلطان: قل ماعندك، فقال: لاتخل يداويك غيري بمفردي وإلا فسدت حال يدك مثلما سلمت رجلك لابن السيسي فأفسدها، وأنا ما أخلي شهراً يمضي حتى تركب وتلعب بيدك الأكرة، فسكت السلطان عن جوابه، وسلم إليه يده فتولى علاجه بمفرده، وبطلت الخدمة مئة سبعة وثلاثين يوماً. وعوفي السلطان فزينت له القاهرة في يوم الأحد رابع جمادى الآخرة من السنة المذكورة، وتفاخر الناس في الزينة بحيث أنه لم يعهد زينة مثلها، وأقامت سبعة أيام، هذا والأفراح عمالة بالقلعة وسائر بيوت الأمراء مدة الأسبوع، فإن كل أمير متزوج إما بإحدى جواري السلطان أو بناته، وأكثرهم أيضاً مماليكه، وكذلك البشائر والكوسات تضرب، وأنعم السلطان على الأمراء وخلع عليهم. ثم خرج السلطان إلى القصر الأبلق، وفرق عدة مثالات على الأيتام وعمل سماطاً جليلاً وخلع على جميع أرباب الوظائف. وأنعم على المجبر بعشرة آلاف درهم، ورسم له أن يدور على جميع الأمراء فلم يتأخر أحد من الأمراء عن إفاضة الخلع عليه، وإعطائه المال فحصل له ما يجل وصفه. وتوجه الأمير آقبغا عبد الواحد إلى البلاد الشامية مبشراً بعافية السلطان.

وفي هذه السنة أيضاً ابتدأ علاء الدين مغلطاي الجمالي، أحد المماليك السلطانية في عمارة جامع بين السورين من القاهرة، وسمي جامع التوبة لكثرة ما كان هناك من الفساد وأقام به الخطبة.

ثم عاد السلطان الملك الناصر على ما كان عليه من أول سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة من التوجه إلى الصيد على عادته، وقدم عليه موت الأمير أرغون الدوادار نائب حلب كان وهو بالصيد، فخلع على الأمير ألطنبغا الصالحي بنيابة حلب عوضه.

وفي أول محرم سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة قدم مبشر الحاج، وأخبر بسلامة الحاج وأن الأمير مغلطاي الجمالي الأستادار على خطة، فعين السلطان عوضه في الأستادارية الأمير أقبغا عبد الواحد. ومات مغلطاي في العقبة، وصبر وحمل إلى أن دفن بمدرسته قريباً من درب ملوخيا بالقاهرة بالقرب من رحبة باب العيد. ولبس آقبغا عبد الواحد الأستادارية في يوم الثلاثاء سادس وعشرين المحرم. ثم بعد أيام خلع عليه السلطان بتقدمة المماليك السلطانية مضافاً على الأستادارية، من أجل أن السلطان وجد بعض المماليك قد نزل من القلعة إلى القاهرة وسكر، فضرب السلطان كثيراً من الطواشية وطرد كثيراً منهم، وأنكر على الطواشي مقدم المماليك وصرفه عن التقدمة بآقبغا هذا، فضبط آقبغا المذكور طباق المماليك بالقلعة وضرب عدة منهم ضرباً

مبرحاً أشرف منهم جماعة على الموت، فلم يجسر بعد ذلك أحد أن يتجاوز طبقته إلى غيرها.

وفي يوم الاثنين ثالث وعشرين صفر جمع السلطان الأمراء والقضاة والخليفة ليعهد بالسلطنة لابنه آنوك ويركب ولده آنوك بشعار السلطنة، ثم انثنى عزمه عن ذلك في المجلس، وأمر أن يلبس آنوك شعار الأمراء ولا يطلق عليه اسم السلطنة، فركب وعليه خلعة أطلس أحمر بطرز زركش وشربوش مكلل مزركش، وخرج من باب القرافة والأمراء في خدمته حتى مر من سوق الخيل تحت القلعة ونزل عن فرسه وباس الأرض، وطلع من باب الإسطبل إلى باب السر وصعد منه إلى القلعة، ونثرت عليه الدنانير والدراهم. وخلع السلطان على الأمير ألماس الحاجب والأمير بيبرس الأحمدي، وكان السلطان أفرج عن بيبرس المذكور قبل ذلك بمدة من السجن، وخلع على الأمير أيدغمش أمير آخور الجميع خلع أطلس، وخلع السلطان على جميع أرباب الوظائف ومد لهم سماط عظيم وعملت الأفراح الجليلة. وعظم المهم لعقد آنوك المذكور على بنت بكتمر الساقي، فعقد العقد بالقصر على صداق مبلغه من الذهب اثنا عشر ألف دينار، المقبوض منه عشرة آلاف دينار وأنعم السلطان على ولده آنوك المذكور بإقطاع الأمير مغلطاي المتوفى بالعقبة.

ثم استهم السلطان إلى سفر الحجاز الشريف ولما قرب السلطان من عقبة أيلة بلغه آتفاق الأمير بكتمر الساقي على الفتك به مع عدة من المماليك السلطانية، فتمارض السلطان وعزم على الرجوع إلى مصر، ووافقه الأمراء على ذلك إلا بكتمر الساقي، فإنه أشار بإتمام السفر وشنع عوده قبل الحج. فعند ذلك عزم السلطان على السفر، وسير ابنه آنوك وأمه خوند طغاي إلى الكرك صحبة الأمير ملكتمر السرجواني نائب الكرك، فإنه كان قدم إلى العقبة ومعه ابنا السلطان الملك الناصر: أبو بكر وأحمد اللذان كان والدهما الناصر أرسلهما إلى الكرك قبل تاريخه بسنين ليسكنا بها. ثم مضى السلطان إلى سفره وهو محترز غاية التحرز، بحيث إنه ينتقل في الليل عدة مرار من مكان إلى مكان، ويخفي موضع مبيته من غير أن يظهر أحداً على مافي نفسه مما بلغه عن بكتمر الساقي، إلى أن وصل إلى ينبع. فتلقاه الأشراف من أهل المدينة، وقدم عليه الشريف أسد الدين رميثة من مكة ومعه قواده وحريمه فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وساروا معه إلى أن نزل على خليص فر منه نحو ثلاثين مملوكاً إلى جهة العراق فلم يتكلم السلطان. وسار حتى قدم مكة ودخلها فأنعم على الأمراء، وأنفق في جميع من معه من الأجناد والمماليك ذهباً كثيراً، وأفاض على أهل مكة بالصدقات والإنعام.

فلما قضى النسك عاد يريد مصر، وعرج إلى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم

بالمدينة، فسار حتى وصلها فلما دخلها هبت بها ريح شديدة في الليل ألقت الخيم كلها وتزايد اضطراب الناس، واشتدت ظلمة الجو فكان أمراً مهولاً، فلما كان النهار سكن الريح، فظفر أمير المدينة بمن فر من المماليك السلطانية فخلع السلطان عليه، وأنعم عليه بجميع ماكان مع المماليك من مال وغيره، وبعث بالمماليك إلى الكرك، فكان ذلك آخر العهد بهم.

ثم وصل إلى القاهرة مبشر الحاج في ثامن المحرم سنة ثلاث وثلاثين تلك المظفري الجمدار وأخبر بسلامة السلطان، فدقت البشائر، وخلع عليه خلع كثيرة، واطمأن الناس بعد ما كان بينهم أراجيف.

ثم وصل السلطان إلى الديار المصرية في يوم السبت ثامن عشر المحرم بعد ما خرج معظم الناس إلى لقائه، ومد شرف الدين النشو شقاق الحرير والزربفت من بين العروستين إلى باب الإسطبل، فلما توسط بين الناس صاحت العوام: هو إياه؟ ما هو إياه؟ يا لله اكشف لنا لثامك، وأرنا وجهك وكان قد تلثم، فعند ذلك حسر اللثام عن وجهه فصاحوا بأجمعهم: الحمد لله على السلامة، ثم بالغوا في إظهار الفرح به والدعاء له وأمعنوا في ذلك، فسر السلطان بهذا الأمر، ودخل القلعة ودقت البشائر وعملت الأفراح ثلاثة أيام. وهذه حجة السلطان الملك الناصر الثالثة، وهي التي يضرب بها المثل. وجلس السلطان على كرسي الملك وخلع على الأمراء قاطبة. وكان بلغ السلطان أن ألماس الحاجب كان اتفق مع بكتمر الساقي على الفتك بالسلطان.

ثم جلس السلطان بدار العدل فوجد به رقعة تتضمن الوقيعة في النشو وكثرة ظلمه وتسلط أقاربه على الناس وكثرة أموالهم وتعشق صهره ولي الدولة لشاب تركي. وكان قبل ذلك قد ذكر الأمير قوصون للسلطان أن عميراً الذي كان شغف به الأمير ألماس قد ولع به أقارب النشو وأنفقوا عليه الأموال الكثيرة، فلم يقبل السلطان فيه قول الأمراء لمعرفته لكراهتهم له، فلما قرئت عليه القصة قال: أنا أعرف من كتبها، واستدعى النشو ودفعها إليه، وأعاد له مارماه به الأمير قوصون، فحلف النشو على براءتهم من هذا الشاب، وإنما هذا ومثله مما يفعله حواشي الأمير قوصون، وقصد قوصون تغير خاطر السلطان علي وبكى وانصرف. فطلب السلطان قوصون وأنكر عليه إصغاءه لحواشيه في حق النشو، فحلف قوصون أن النشو يكذب في حلفه، ولئن قبض السلطان على الشاب وعوقب ليصدقن السلطان فيمن يعاشره من أقارب النشو فغضب السلطان وطلب أمير مسعود الحاجب وأمره بطلب الشاب وضربه بالمقارع حتى يعترف بجميع من يصحبه وكتابة أسمائهم، وألزمه ألا يكتم عنه شيئاً فطلبه مسعود، وأحضر المعاصير فأملى عليه الشاب عدة كثيرة من الأعيان، منهم ولي

الدولة فخشي مسعود على الناس من الفضيحة، وقال للسلطان: هذا الكذاب ماترك أحداً في المدينة حتى اعترف عليه، وأنا أعتقد أنه يكذب عليهم، وكان السلطان حشيم النفس يكره الفحش، فقال لمسعود: يا بدر الدين، من ذكر من الدواوين؟. فقال: " والله يا خوند ما خلى أحداً من خوفه حتى ذكره، فرسم السلطان بإخراج عمير المذكور ووالده إلى غزة، ورسم لنائبها أن يقطعهما خبزاً بها. وكان ذلك أول انحطاط قدر النشو عند السلطان.

ثم اتفق بعد ذلك أن طيبغا القاسمي الناصري، وكان يسكن بجوار النشو وله مملوك جميل الصورة، فاعتشر به ولي الدولة وغيره من إخوة النشو، فترصد أستاذه طيبغا، حتى هجم يوماً عليهم وهو معهم فأخذه منهم وخرج. وبلغ النشو ذلك، فبادر بالشكوى إلى السلطان بأن طيبغا القاسمي يتعشق مملوكه ويتلف عليه ماله، وأنه هجم وهو سكران على بيتي وحريمي، وقد شهر سيفه، وبالغ في السب. وكان السلطان يمقت على السكر، فأمر في الحال بإخراج طيبغا ومملوكه إلى الشام. وكان السلطان مشغولاً في هذه الأيام بعمارة قناطر شبين القصر على بحر أبي المنجا فأنشئت تسع قناطر.

ثم بدا للسلطان أن ينقل الخليفة من مناظر الكبش إلى قلعة الجبل، فنقل في ثالث وعشرين ذي القعدة من سنة ست وثلاثين والخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان. وسكن الخليفة بالقلعة حيث كان أبوه الحاكم نازلاً ببرج السباع بعياله، ورسم على الباب جاندار بالنوبة. وسكن ابن عمه إبراهيم في برج بجواره بعياله، ورسم عليه جاندار آخر ومنعا عن الاجتماع بالناس، كل ذلك لأمر قيل.

ثم إن السلطان في سابع عشر محرم سنة سبع وثلاثين وسبعمائة عقد عقد ابنه أبي بكر على ابنة الأمير سيف الدين طقزدمر الحموي الناصري أمير مجلس بدار الأمير قوصون.

ثم قدم الأمير تنكز نائب الشام ثاني شهر رجب من سبع وثلاثين المذكورة على السلطان وهو بسرياقوس، فخلع عليه، وسافر في ثاني عشرينه إلى محل ولايته.

ثم في هذه السنة زاد ظلم النشو على التجار، ورمى على التجار الخشب بأضعاف ثمنه، فكثرت الشكوى منه إلى أن توصل بعض التجار لزوجة السلطان خوند طغاي أم آنوك، وقال لها: رمى علي النشو خشباً يساوي ألفي درهم بألفي دينار،، فعرفت أم آنوك السلطان بذلك، فأمر السلطان بطلب التاجر وقد اشتد غضبه على النشو.

وبلغ النشو الخبر، ففي الحال أرسل النشو رجلاً إلى التاجر وسأله في قرض مبلغ من المال، فعرفه التاجر أمر الخشب وما هو فيه من الغرامة، فقال له الرجل: أرني

الخشب فإني محتاج إليه،، فلما رآه قال: هذا غرضي واشتراه منه بفائدة ألف درهم إلى شهر، وفرح التاجر بخلاصه من الخشب، وأشهد عليه بذلك. وأخذ الرجل الخشب وأتى بالمعاقدة إلى النشو، فأخذها النشو وطلع إلى السلطان من فوره، وقال للسلطان: يا مولانا السلطان، نزلت أخذ الخشب من التاجر فوجدته قد باعه بفائدة ألف درهم، فلم يصدقه السلطان، وعوق النشو وقد امتلأ عليه غضباً فطلب السلطان التاجر وسأله عما رماه عليه النشو من الخشب، فاغتر التاجر بأم آنوك وأخذ يقول: ظلمني النشو وأعطاني خشباً بألفي دينار يساوي ألفي درهم، فقال له السلطان: وأين الخشب؟، فقال: بعته بالدين، فقال النشو: قل الصحيح، فهذه معاقدتك معه، فلم يجد التاجر بداً من الاعتراف، فحنق عليه السلطان وقال له: ويلك تقيم علينا القالة، وأنت تبيع بضاعتنا بفائدة "، وسلمه إلى النشو وأمره بضربه، وأخذ الألفي دينار منه مع مثلها. وعظم عنده النشو وتحقق حق مايقوله، وأن الذي يحمل الناس على التكلم فيه الحسد. ثم عبر السلطان إلى الحريم وسبهن وعرفهن بما جرى من كذب التاجر وصدق النشو، وقال: مسكين النشو، ما وجدت أحداً يحبه.

ثم أفرج السلطان عن الأمير طرنطاي المحمدي بعد ما أقام في السجن سبعاً وعشرين سنة وأخرج إلى الشام.

ثم في يوم الاثنين ثاني عشر رمضان ركب النشو على عادته في السحر إلى الخدمة فاعترضه في طريقه عبد المؤمن بن عبد الوهاب السلامي المعزول عن ولاية قوص، فضربه بالسيف فأخطأ رأس النشو، وسقطت عمامته عن رأسه، وقد جرح كتفه وسقط على الأرض. ونجا الفارس بنفسه، وفي ظنه أن رأس النشو قد طاح عن بدنه لعظم ضربه. وبلغ السلطان ذلك، فغضب ولم يحضر السماط. وبعث إلى النشو بعدة من الجمدارية والجرايحية فقطبت ذراعه بست إبر وجبينه باثنتي عشرة إبرة، وألزم السلطان والي القاهرة ومصر بإحضار غريم النشو. وأغلظ السلطان على الأمراء بالكلام ومازال يشتد ويحتد حتى عادت القصاد بسلامة النشو فسكن ما به، ثم بعث النشو مع أخيه رزق الله إلى السلطان يعلمه بأن هذا من فعل الكتاب بموافقة لؤلؤ شاد الدواوين، فطلب السلطان الوالي وأمره بمعاقبة الكتاب الذين هم في المصادرة مع لؤلؤحتى يعترفوا بغريم النشو، وكان السلطان قد قبض على لؤلؤ وكتابه وصادره قبل تاريخه بموافقة النشو، فنزل الوالي وعاقب لؤلؤاً وضربه ضرباً مبرحاً، وعاقب المعلم أبا شاكر وقرموطاً عقاباً شديداً، فلم يعترفوا بشيء. وعوفي النشو، وطلع إلى القلعة، وخلع السلطان عليه، ونزل من القلعة بعد أن رتب السلطان المقدم إبراهيم بن أبي بكر بن شداد صابر أن يمشي في ركابه ومعه عشرة من رجاله في ذهابه وإيابه. ثم قبض النشو بعد ذلك على تاج الدين بن الأزرق وصادره حتى

باع أملاكه، وكان من جملة أملاكه ملك بشاطىء النيل، فاشتراه منه الأمير عز الدين أيدمر الخطيري، وكان بجانبه ساقية، فهدم الخطيري الدار والساقية وعمرهما جامعاً بخط بولاق على شاطىء النيل.

وأما أمر النشو فإنه لم يزل على الظلم والعسف في الرعية والأقدار تساعده إلى أن قبض عليه السلطان الملك الناصر في يوم الاثنين ثاني صفر سنة أربعين وسبعمائة، وعلى أخيه شرف الدين رزق الله، وعلى أخيه، المخلص وعلى مقدم الخاص ورفيقه. وسبب ذلك أنه زاد في الظلم حتى قل الجالب إلى مصر، وذهب أكثر أموال التجار لطرح الأصناف عليهم بأغلى الأثمان، وطلب السلطان الزيادة، فخاف النشو العجز، فرجع عن ظلم العام إلى الخاص، ورتب مع أصحابه ذلك. وكانت عادته في كل ليلة أن يجمع إخوته وصهره ومن يثق به للنظر فيما يحدثه من المظالم، فيقترح كل منهم ما يقترحه من المظالم ثم يتفرقون. فرتبوا في ليلة من الليالي أوراقاً تشتمل على فصول يتحصل منها ألف ألف دينار عيناً وقرأها على السلطان: منها التقاوي السلطانية المخلدة بالنواحي من الدولة الظاهرية بيبرس والمنصورية قلاوون في إقطاعات الأمراء والأجناد، وجملتها مائة ألف إردب وستون ألف إردب سوى ما في بلاد السلطان من التقاوي، ومنها الرزق الأحباسية الموقوفة على المساجد والجوامع والزوايا وغير ذلك، وهي مائة ألف فدان وثلاثون ألف فدان. وقرر النشو مع السلطان أن يأخذ التقاوي المذكورة، وأن يلزم كل متولي إقليم باستخراجها وحملها، وأن يقيم شاداً يختاره لكشف الرزق الأحباسية، فما كان منها على موضع عامر بذكر الله، يعطيه نصف ما يحصل ويأخذ من مزارعيه في النصف الآخر عن كل فدان مائة درهم.

قال: ويلزم المزارع بخراج ثلاث سنين، وما كان من الرزق على موضع خراب، أو على أهل الأرياف من الفقهاء والخطباء ونحوهم أخذوا، واستخرج من مزارعيه خراج ثلاث سنين. ومما أحدثه أيضاً أرض جزيرة الروضة تجاه مدينة مصر، فإنها بيد أولاد الملوك، فيستأجرها منهم الدواوين وينشؤون بها سواقي الأقصاب وغيرها. ومنها ما باعه أولاد الملوك بأبخس الأثمان. وقرر النشو، مع السلطان أخذ أراضي الروضة للخاص. ومنها أرباب الرواتب السلطانية، فإن أكثرهم عبيد الدواوين، ونساؤهم وغلمانهم يكتبونها باسم زيد وعمرو، وذكر النشو للسلطان، أشياء كثيرة من هذه المقولة إلى أن تعرض للأمير آقبغا عبد الواحد ولأمواله وحواصله، وحسن للسلطان القبض عليه، وشرع في عمل ماقاله. وكان السلطان أرسل قرمجي إلى تنكز لكشف أخبار النشو بالبلاد الشامية، فعاد بمكاتبات تنكز بالحط عليه، وذكر قبح سيرته وظلمه وعسفه. وكان النشو قد حصل له قولنج انقطع منه أياماً. ثم طلع إلى القلعة

وأثر المرض في وجهه، وقرر مع السلطان إيقاع الحوطة على آقبغا عبد الواحد من الغد، وكان ذلك في أول يوم من صفر. وتقرر الحال على أنه يجلس النشو على باب الخزانة، فإذا خرج الأمير بشتك من الخدمة جلس معه، ثم يتوجهان إلى بيت آقبغا ويقبضان عليه. فلما عاد النشو إلى داره عبر الحمام ليلة الاثنين ومعه شمس الدين محمد بن الأكفاني، وقد قال له بن الأكفاني بأن عليه في هذا الشهر قطعاً عظيماً فأمر النشو بعض عبيده السودان أن يحلق رأسه ويجرحه بحيث يسيل الدم على جسده ليكون ذلك حظه من القطع، ففعل به ذلك، وتباشروا بما دفع الله عنه من السوء. ثم خرج النشو من الحمام، وكان الأمير يلبغا اليحياوي أحد خواص السلطان ومماليكه قد توعك جسده توعكاً صعباً، فقلق السلطان عليه وأقام عنده لكثرة شغفه به، فقال له يلبغا فيما قال: ياخوند، قد عظم إحسانك لي ووجب نصحك علي، والمصلحة القبض على النشو، وإلا دخل عليك الدخيل، فإنه ما عندك أحد من مماليكك إلا وهو يترقب غفلة منك، وقد عرفتك ونصحتك قبل أن أموت، وبكى. وبكى السلطان لبكائه، وقام السلطان وهو لا يعقل لكثرة ما داخله من الوهم لثقته بمحبة يلبغا له، وطلب بشتك في الحال وعرفه أن الناس قد كرهوا هذا النشو، وأنه عزم على الإيقاع به، فخاف بشتك أن يكون ذلك امتحاناً من السلطان، ثم وجد عزمه قوياً في القبض عليه، فاقتضى الحال إحضار الأمير قوصون أيضاً، فحضر وقوي عزم السلطان على ذاك، وما زالا به حتى قرر معهما أخذه والقبض عليه.

وأصبح النشو وفي ذهنه أن القطع الذي تخوف منه قد زال عنه بما دبره ابن الأكفاني من إسالة دمه. ثم علق عليه عدة من العقود والطلسمات والحروز، وركب إلى القلعة وجلس بين يدي السلطان على عادته، وأخذ معه في الكلام على القبض على آقبغا عبد الواحد، فأمره السلطان أن يجلس على باب خزانة القصر حتى يخرج إليه الأمير بشتك، ثم يمضيا لإيقاع الحوطة على موجود آقبغا عبد الواحد، ثم نهض النشو وتوجه إلى باب الخزانة، وجلس عليها ينتظر مواعدة بشتك. فعندما قام النشو طلب السلطان المقدم بن صابر، وأسر إليه أن يقف بجماعته على باب القلعة وعلى باب القرافة، ولا يدعوا أحداً من حواشي النشو وجماعته وأقاربه وإخوته أن ينزلوا، ويقبضوا عليهم الجميع. وأمر السلطان بشتك وبرسبغا الحاجب أن يمضيا إلى النشو ويقبضا عليه وعلى أقاربه. فخرج بشتك وجلس بباب الخزانة، وطلب النشو من داخلها، فظن النشو أنه جاء لميعاده مع السلطان حتى يحتاطا على موجود آقبغا، فساعة ما وقع بصره عليه أمر مماليكه بأخذه فأخذوه إلى بيته بالقلعة، وبعث إلى بيت الأمير ملكتمر الحجازي فقبض على أخيه رزق الله، ثم أخذ أخاه المخلص وسائر أقاربه. وطار الخبر في القاهرة ومصر، فخرج الناس كلهم كأنهم جراد منتشر.

وركب الأمير آقبغا عبد الواحد والأمير طيبغا المجدي والأمير بيغرا والأمير برسبغا لإيقاع الحوطة على بيوت النشو وأقاربه وحواشيه، ومعهم عدوه جمال الكفاة كاتب الأمير بشتك وشهود الخزانة. وأخذ السلطان يقول للأمراء: كم تقولون النشو ينهب مال الناس الساعة ننظر المال الذي عنده وكان السلطان يظن أنه يؤديه الأمانة، وأنه لا مال له. فندم الأمراء على تحسينهم مسك النشو خوفاً من ألا يظهر له مال، لاسيما قوصون وبشتك من أجل أنهما كانا بالغا في الحط عليه، فكثر قلقهما ولم يأكلا طعاماً نهارهما، وبعثا في الكشف على الخبر. فلما أوقع الأمراء الحوطة على دور الممسوكين بلغهم أن حريم النشو في بستان في جزيرة الفيل، فساروا إليه وهجموا عليه فوجدوا ستين جارية وأم النشو وامرأته وإخوته وولديه وسائر أهله، وعندهم مائتا قنطار عنب وقند كثير ومعاصر وهم في عصر العنب. فختموا على الدور والحواصل، ولم يتهيأ لهم نقل شيء منها. هذا وقد غلقت الأسواق بمصر والقاهرة، واجتمع الناس بالرميلة تحت القلعة ومعهم النساء والأطفال وقد أشعلوا الشموع ورفعوا على رؤوسهم المصاحف ونشروا الأعلام وهم يصيحون استبشاراً وفرحاً بقبض النشو، والأمراء تشير إليهم أن يكثروا مما هم فيه، واستمروا ليلة الثلاثاء على ذلك، فلما أصبحوا وقع الصوت من داخل القلعة بأن رزق الله أخا النشو قد قتل نفسه، وهو أنه لما قبض عليه قوصون وكل به أمير شكاره، فسجنه ببعض الخزائن، فلما طلع الفجر قام الأمير شكار إلى صلاة الصبح فقام رزق الله وأخذ من حياصته سكيناً ووضعها في نحره حتى نفذت منه وقطعت ورائده، فلم يشعر أمير شكار إلا وهو يشخر وقد تلف، فصاح أمير شكار، حتى بلغ صياحه، قوصون، فانزعج لذلك وضرب أمير شكاره ضرباً مبرحاً إلى أن علم السلطان الخبر، فلم يكترث به.

وفي يوم الاثنين المذكور أفرج السلطان عن الصاحب شمس الدين موسى ابن التاج إسحاق وأخيه، ونزلا من القلعة إلى الجامع الجديد الناصري، بمصر. وكان شمس الدين هذا قد وشى به النشو حتى قبض عليه السلطان، وأجرى عليه العقوبة أشهراً إلى أن أشيع موته غير مرة، وقد ذكرنا أمر عقوبة شمس الدين هذا وما وقع له في ترجمته في تاريخنا المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، فإن في سيرته عجائب فلينظر هناك.

ثم في يوم الثلاثاء نودي بالقاهرة ومصر: بيعوا واشتروا واحمدوا الله تعالى على خلاصكم من النشو. ثم أخرج رزق الله أخو النشو ميتاً في تابوت امرأة

حتى دفن في مقابر النصارى خوفاً عليه من العامة أن تحرقه. ثم دخل الأمير بشتك على السلطان واستعفى من تسليم النشو خشية مما جرى على أخيه، فأمر السلطان أن يهدده على إخراج المال، ثم يسلمه لابن صابر فأوقفه بشتك وأهانه، فالتزم إن أفرج عنه جمع للسلطان من أقاربه خزانة مال ثم تسلمه ابن صابر فأخذه ليمضي به إلى قاعة الصاحب، فتكاثرت العامة لرجمه حتى طردهم نقيب الجيش، وأخرجه والجنزير في عنقه حتى أدخله قاعة الصاحب، والعامة تحمل عليه حملة بعد حملة والنقباء تطردهم.

وفي يوم الخميس خامسه، زينت القاهرة ومصر بسبب قبض النشو زينة هائلة دامت سبعة أيام، وعملت أفراح كثيرة. وعملت العامة فيه عدة أزجال وبلاليق، وأظهروا من الفرح واللهو والخيال ما يجل وصفه، ووجدت مآكل كثيرة في حواصل النشو، منها: نحو مائتي مطر مملوءة، ملوحة وثمانين مطر جبن وأحمال كثيرة من سواقة الشام، ووجد له أربعمائة بذلة قماش جديدة وثمانون بذلة قماش مستعمل. ووجد له ستون بغلطاق نسائي مزركش ومناديل زركش عدة كثيرة. ووجد له صناديق كثيرة فيها قماش سكندري مما عمل برسم الحرة جهة ملك المغرب قد اختلسه النشو، وكثير من قماش الأمراء الذين ماتوا والذين قبض عليهم. ووجد له مملوك تركي قد خصاه هو واثنين معه ماتا، وخصى أيضاً أربعة عبيد فماتوا فطلب السلطان الذي خصاهم وضربه بالمقارع وجرس. وتتبعت أصحابة وضرب منهم جماعة. ثم وجد بعد ذلك بمدة لإخوة النشو ذخائر نفيسة، منها لصهره ولي الدولة صندوق فيه مائة وسبعون فص بلخش. وست وثلاثون مرسلة مكللة بالجوهر. وإحدى عشرة عنبرينة مكللة بلؤلؤ كبار. وعشرون طراز زركش، وغير ذلك ما بين لؤلؤ منظوم وزمرد وكوافي زركش، قوموا بأربعة وعشرين ألف دينار. وضرب المخلص أخو النشو ومفلح عبده بالمقارع، فأظهر المخلص الإسلام.

وأما أصل النشو هذا أنه كان هو ووالده وإخوته يخدمون الأمير بكتمر الحاجب، فلما انفصلوا من عنده أقاموا بطالين مدة. ثم خدم النشو هذا عند الأمير أيدغمش أمير آخور فأقام بخدمته إلى أن جمع السلطان في بعض الأيام كتاب الأمراء لأمر ما، فرآه السلطان وهو واقف من وراء الجماعة وهو شاب طويل نصراني حلو الوجه، فاستدعاه وقال له: ايش اسمك؟ قال: النشو، فقال: " أنا أجعلك نشوي ورتبه مستوفياً في الجيزة. وأقبلت سعادته فيما ندبه إليه وملا عينه، ثم نقله إلى استيفاء الدولة فباشر ذلك مدة حتى

استسلمه الأمير بكتمر الساقي وسلم إليه ديوان سيدي آنوك، ثم نقله بعد ذلك إلى نظر الخاص بعد موت القاضي فخر الدين ناظر الجيش، فإن شمس الدين موسى بن التاج ولي الجيش، والنشو هذا ولي عوضه الخاص. انتهى.

ثم في هذه السنة تغير خاطر السلطان على مملوكه الأمير تنكز نائب الشام، وبلغ تنكز تغير خاطر السلطان عليه، فجهز أمواله ليحملها إلى قلعة جعبر ويخرج هو إليها بعد ذلك بحجة أنه يتصيد. فقدم إليه الأمير طاجار الدوادار قبل ذلك في يوم الأحد رابع عشر ذي الحجة وعتبه وبلغه عن السلطان ما حمله من الرسالة، فتغير الأمير تنكز وبدأت الوحشة بينه وبين السلطان، وعاد طاجار إلى السلطان في يوم الجمعة تاسع عشر من ذي الحجة فأغرى السلطان على تنكز وقال: إنه عزم على الخروج من دمشق. فطلب السلطان بعد الصلاة الأمير بشتك والأمير بيبرس الأحمدي والأمير جنكلي بن البابا والأمير أرقطاي والأمير طقزدمر في آخرين، وعرفهم أن تنكز قد خرج عن الطاعة، وأنه يبعث إليه تجريدة مع الأمير جنكلي والأمير بشتك والأمير أرقطاي والأمير أرنبغا أمير جاندار والأمير قماري أمير شكار والأمير قماري أخو بكتمر الساقي والأمير برسبغا الحاجب، ومع هذه الأمراء السبعة ثلاثون أمير طبلخاناه، وعشرون أمير عشرة، وخمسون نفراً من مقدمي الحلقة وأربعمائة من المماليك السلطانية، وجلس السلطان، وعرضهم. ثم جمع السلطان في يوم السبت عشرين ذي الحجة الأمراء جميعهم وحلف المجردين والمقيمين له ولولده الأمير أبي بكر من بعده، وطلبت الأجناد من النواحي للحلف، فكانت بالقاهرة حركات عظيمة. وحمل السلطان لكل مقدم ألف مبلغ ألف دينار، ولكل أمير، طبلخاناه أربعمائة دينار، ولكل مقدم حلقة ألف درهم، ولكل مملوك خمسمائة درهم وفرساً، وقرقلاً وخوذة. فاتفق قدوم الأمير موسى بن مهنا، فقرر معه السلطان القبض على الأمير تنكز، وكتب إلى العربان بأخذ الطرقات من كل جهة على تنكز. ثم بعث السلطان بهادر حلاوة من طائفة الأوجاقية على البريد إلى غزة وصفد وإلى دمشق بملطفات كثيرة. ثم أخرج موسى بن مهنا لتجهيز العربان وإقامته على حمص، واهتم السلطان بأمر تنكز اهتماماً زائداً جداً.

قلت: على قدر الصعود يكون الهبوط، ما لتلك الإحسان والعظمة، المحبة الزائدة لتنكز قبل تاريخه إلا هذه الهمة العظيمة في أخذه والقبض عليه، ولكن هذا شأن الدنيا مع المغرمين بها.

ثم إن الملك الناصر كثر قلقه من أمر تنكز وتنغص عيشه. وخرج العسكر

المعين من القاهرة لقتال تنكز في يوم الثلاثاء ثالث عشرين ذي الحجة من سنة أربعين وسبعمائة. وكان حلاوة الأوجاقي قدم على الأمير ألطنبغا الصالحي نائب غزة بملطف. وفيه أنه استقر في نيابة الشام عوضاً عن تنكز، وأن العسكر واصل إليه ليسيروا به إلى دمشق.

قلت: وألطنبغا نائب غزة هو عدو تنكز الذي كان تنكز سعى في أمره حتى عزله السلطان من نيابة حلب وولاه نيابة غزة قبل تاريخه.

ثم سار حلاوة الأوجاقي إلى صفد وإلى الشام وأوصل الملطفات إلى أمراء دمشق. ثم وصلت كتب ألطنبغا الصالحي إلى أمراء دمشق بولايته نيابة الشام. ثم ركب الأمير طشتمر الساقي المعروف بحمص أخضر نائب صفد إلى دمشق في ثمانين فارساً، واجتمع بالأمير قطلوبغا الفخري وسنجر البشمقدار وبيبرس السلاح دار. واتفق ركوب الأمير تنكز في ذلك اليوم إلى قصره فوق ميدان الحصى في خواصه للنزهة، وبينما هو في ذلك إذ بلغه قدوم الخيل من صفد، فعاد إلى دار السعادة وألبس مماليكه السلاح، فأحاط به في الوقت أمراء دمشق، ووقع الصوت بوصول نائب صفد، فخرج عسكر دمشق إلى لقائه، وقد نزل بمسجد القدم. فأمر نائب صفد جماعة من المماليك الأمراء أن يعودوا إلى تنكز ويخرجوه إليه، فدخل عليه جماعة منهم تمر الساقي والأمير طرنطاي البشمقدار وبيبرس السلاح دار وعرفوه مرسوم السلطان فأذعن لقلة أهبته للركوب، فإن نائب صفد طرقه على حين غفلة باتفاق أمراء دمشق، ولم يجتمع على تنكز إلا عدة يسيرة من مماليكه، فلذلك سلم نفسه. فأخذوه وأركبوه إكديشاً وساروا به إلى نائب صفد، وهو واقف بالعسكر على ميدان الحصى، فقبض عليه وعلى مملوكيه: جنغاي وطغاي وسجنا بقلعة دمشق. وأنزل تنكز عن فرسه على ثوب سرج، وقيده وأخذه الأمير بيبرس السلاح دار وتوجه به إلى الكسوة، فحصل لتنكز إسهال ورعدة خيف عليه الموت، فأقام بالكسوة يوماً وليلة ثم مضى به بيبرس إلى القاهرة ونزل طشتمر حمص أخضر نائب صفد بالمدرسة النجيبية. وتقدم بهادر حلاوة عندما قبض على تنكز ليبشر السلطان بمسك تنكز، فوصل إلى بلبيس ليلاً والعسكر نازل بها وعرف الأمير بشتك.

ثم سار حتى دخل القاهرة، وأعلم السلطان الخبر فسر سروراً زائداً، وكتب بعود العسكر من بلبيس إلى القاهرة ما خلا بشتك وأرقطاي وبرسبغا الحاجب، فإنهم يتوجهون إلى دمشق للحوطة على مال تنكز، وأن يقيم الأمير بيغرا أمير جاندار والأمير قماري أمير شكار بالصالحية إلى أن يقدم عليهما

الأمير تنكز. وعاد جميع العسكر إلى الديار المصرية. وسار بشتك ورفيقاه إلى غزة فركب معهم الأمير ألطنبغا الصالحي إلى نحو دمشق فلقوا الأمير تنكز على حسبان فسلموا عليه وأكرموه. وكان بشتك لما سافر من القاهرة صحبة العسكر كان في ذلك اليوم فراغ بناء قصره الذي بناه بين القصرين فلم يدخله برجله، واشتغل بما هو فيه من أمر السفر، فشرع السلطان في غيبته في تحسين القصر المذكور. وكان سبب عمارة بشتك لهذا القصر أن الأمير قوصون لما أخذ قصر بيسري وجدده أحب الأمير بشتك أن يعمل له قصراً تجاه قصر بيسري بين القصرين، فدل على دار الأمير بكتاش الفخري أمير سلاح، وكانت أحد قصور الخلفاء الفاطميين التي اشتراها من ذريتهم، وأنشأ بها الفخري دوراً وإسطبلات، وأبقى ما كان بها من المساجد فشاور بشتك السلطان على أخذها فرسم له بذلك، فأخذها من أولاد بكتاش وأرضاهم وأنعم عليهم. وأنعم السلطان عليه بأرض كانت داخلها برسم الفراشخاناه السلطانية. ثم أخذ بشتك دار أقطوان الساقي بجوارها، وهدم الجميع وأنشأه قصراً مطلاً على الطريق، وارتفاعه أربعون ذراعاً وأساسه أربعون ذراعاً، وأجرى إليه الماء ينزل إلى شاذروان إلى بركة به. وأخرب في عمله أحد عشر مسجداً وأربعة معابد أدخلها فيه، فلم يحدد منها سوى مسجد رفعه وعمله معلقاً على الشارع.

ثم ابتدأ توعك السلطان ومرض مرض موته، فلما كان يوم الأربعاء سادس ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة قوي عليه الإسهال، ومنع الأمراء من الدخول عليه، فكانوا إذا طلعوا إلى الخدمة خرج إليهم السلام مع أمير جاندار عن السلطان فانصرفوا، وقد كثر الكلام. ثم في يوم الجمعة ثامنه خف عن السلطان الإسهال، فجلس للخدمة، وطلع الأمراء إلى الخدمة ووجه السلطان متغير، فلما انقضت الخدمة نودي بزينة القاهرة ومصر، وجمعت أصحاب الملاهي بالقلعة، وجمع الخبز الذي بالأسواق، وعمل ألف قميص، وتصدق بذلك كله مع جملة من المال. وقام الأمراء بعمل الولائم والأفراح سروراً بعافية السلطان، وعمل الأمير منكتمر الحجازي نفطاً كثيراً بسوق الخيل تحت القلعة والسلطان ينظره، واجتمع الناس، لرؤيته من كل جهة. وقدمت عربان الشرقية بخيولها وقبابها المحمولة على الجمال ولعبوا بالرماح تحت القلم، وخرجت الركابة والكلابزية وطائفة الحجارين والعتالين إلى سوق الخيل للعب واللهو، وداروا على بيوت الأمراء وأخذوا الخلع منهم، وكذلك الطبلكية فحصل لهم شيء كثير جداً، بحيث جاء نصيب مهتار

الطبلخاناه ثمانين ألف درهم ولما كان ليلة العيد وهي ليلة الأحد عاشر ذي الحجة، وأصبح نهار الأحد اجتمع الأمراء بالقلعة، وجلسوا ينتظرون السلطان حتى يخرج لصلاة العيد، وقد أجمع رأي السلطان على عدم صلاة العيد لعود الإسهال عليه، فإنه كان انتكس في الليلة المذكورة، فما زال به الأمير قوصون والأمير بشتك حتى ركب ونزل إلى الميدان. وأمر قاضي القضاة عز الدين عبد العزير، بن جماعة أن يوجز في خطبته، فعندما صلى السلطان، وجلس لسماع الخطبة تحرك باطنه، فقام وركب وطلع إلى القصر وأقام يومه به. وبينا هو في ذلك قدم الخبر من حلب بصحة صلح الشيخ حسن صاحب العراق مع أولاد صاحب الروم، فانزعج السلطان لذلك انزعاجاً شديداً واضطرب مزاجه، فحصل له إسهال دموي، وأصبح يوم الاثنين وقد منع الناس من الاجتماع به. فأشاع الأمير قوصون والأمير بشتك أن السلطان قد أعفى أجناد الحلقة من التجريد إلى تبريز، ونودي بذلك وفرح الناس بذلك فرحاً زائداً، إلا أنه انتشر بين الناس أن السلطان قد انتكس، فساءهم ذلك.

ثم أخذ الأمراء في إنزال حرمهم وأموالهم من القلعة حيث سكنهم إلى القاهرة، فآرتجت القاهرة ومادت بأهلها. واستعد الأمراء لا سيما قوصون وبشتك، فإن كلاً منهما احترز من الآخر وجمع عليه أصحابه. وأكثروا من شراء الأزيار والدنان وملؤوها ماء، وأخرجوا القرب والروايا والأحواض وحملوا إليهم البقسماط والرقاق والدقيق والقمح والشعير خوفاً من وقوع الفتنة ومحاصرة القلعة. فكان يوماً مهولاً، ركب فيه الأوجاقية وهجموا الطواحين لأخذ الدقيق، ونهبوا الحوانيت التي تحت القلعة والتي بالصليبة.

هذا وقد تنكر ما بين قوصون وبشتك، واختلفا حتى كادت الفتنة تقوم بينهما، وبلغ ذلك السلطان فازداد مرضاً على مرضه، وكثر تأوهه وتقلبه من جنب إلى جنب، وتهوس بذكر قوصون وبشتك نهاره. ثم استدعى بهما فتناقشا بين يديه في الكلام فأغمي عليه، وقاما من عنده على ما هما عليه. فاجتمع يوم الاثنين ثامن عشره الأمير جنكلي والأمير آل ملك والأمير سنجر الجاولي وبيبرس الأحمدي، وهم أكابر أمراء المشورة فيما يدبرونه، حتى اجتمعوا على أن يبعث كل منهم مملوكه إلى قوصون وبشتك ليأخذا لهم الإذن في الدخول على السلطان، فأخذا لهم الإذن، فدخلوا وجلسوا عند السلطان. فقال الجاولي وآل ملك للسلطان كلاماً حاصله أن يعهد بالملك إلى أحد أولاده فأجاب إلى ذلك وطلب ولده أبا بكر وطلب قوصون وبشتك وأصلح بينهما،

ثم جعل ابنه أبا بكر سلطاناً بعده، وأوصاه بالأمراء، وأوصى الأمراء به، وعهد إليهم ألا يخرجوا ابنه أحمد من الكرك، وحذرهم من إقامته سلطاناً. وجعل قوصون وبشتك وصييه، وإليهما تدبير أمر ابنه أبي بكر وحلفهما. ثم حلف الأمراء والخاصكية وأكد على ولده في الوصية بالأمراء، وأفرج عن الأمراء المسجونين بالشام، وهم: طيبغا حاجي والجيبغا العادلي وصاروجا، ثم قام الأمراء عن السلطان. فبات السلطان ليلة الثلاثاء وقد تخلت عنه قوته، وأخذ في النزع يوم الأربعاء، فاشتد عليه كرب الموت، حتى فارق الدنيا في أول ليلة الخميس حادي وعشرين ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، وله من العمر سبع وخمسون سنة وأحد عشر شهراً وخمسة أيام، فإن مولده كان في الساعة السابعة من يوم السبت سادس عشر المحرم سنة أربع وثمانين وستمائة. وأمه أشلون بنت سكتاي بن قرا لاجين بن جفتاي التتاري. وكان قدوم سكتاي مع أخيه قرمجي من بلاد التتار إلى مصر في سنة خمس وسبعين وستمائة. ثم حمل السلطان الملك الناصر مئتا في محفة من القلعة بعد أن رسم بغلق الأسواق، ونزلوا به من وراء السور إلى باب النصر، ومعه من أكابر الأمراء بشتك وملكتمر الحجازي وأيدغمش أمير آخور، ودخلوا به من باب النصر إلى المدرسة المنصورية بين القصرين، فغسل وحنط وكفن من البيمارستان المنصوري، وقد اجتمع الفقهاء والقراء والأعيان، ودام القراء على قبره أياماً.

ثم بعد ذلك ركب السلطان إلى ميدان القبق ظاهر القاهرة فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر، وهو أماكن الترب الآن، وأرسل الخيل للسبق، وعدتها دائماً في كل سنة ماينيف على مائة وخمسين فرساً. وكان مهنا بعث للسلطان حجرة شهباء للسباق، على أنها إن سبقت كانت للسلطان، وإن سبقت ردت إليه، بشرط ألا يركبها للسباق إلا بدويها الذي قادها إلى مصر. فلما ركب السلطان والأمراء على العادة ووقفوا ومعهم أولاد مهنا بالميدان، وأرسلت الخيول من بركة الحاج كما جرت به العادة، وركب البدوي حجرة مهنا الشهباء عرياً بغير سرج، ولبس قميصاً ولاطئة فوق رأسه. وأقبلت الخيول يتبع بعضها بعضاً والشهباء قدام الجميع، وبعدها على القرب منها حصان الأمير أيدغمش أمير اخور يعرف بهلال، فلما وقف البدوي بالشهباء بين يدي السلطان، صاح بصوت ملأ الخافقين: " السعادة لك اليوم يامهنا، لاشقيت "، وألقى بنفسه إلى الأرض من شدة التعب، فقدمها مهنا للسلطان، فكان هذا دأب الملك الناصر في كل سنة من هذا الشأن وغيره.

وكـان الملـك الناصـر أيضـاً شـغوفاً بالصـيد، فلـم يـدع أرضـاً تعـرف بالصـيد إلا وأقـام بهـا صـيادين مقيمـين بالبريـة أوان الصـيد. وجلـب طيـور الجـوارح مـن الصـقورة والشـواهين والسـناقر والبـزاة، حتـى كثـرت السـناقر فـي أيامـه. وصـار كـل أميـر عنـده منهـا عشـرة سـناقر وأقـل و كثـر. وجعـل لـه، البازداريـة وحـراس الطيـر، ومـا هـو موجـود بعضـه الآن، وأقطعهـم الإقطاعـات الجليلـة، وأجـرى لهـم الرواتـب مـن اللحـم والعليـق والكسـاوي وغيـر ذلـك. ولـم يكـن ذلـك قبلـه لملـك، فتـرك بعـد موتـه مائـة وعشـرين سـنقراً، ولـم يعهـد بمثـل هـذا لملـك قبلـه، بـل كـان لوالـده الملـك المنصـور قـلاوون سـنقر واحـد، وكـان المنصـور إذا ركـب فـي المركـب للصـيد كـان بـازداره أيضـاً راكبـاً والسـنقر علـى يـده. وتـرك الملـك الناصـر مـن الصـقورة والشـواهين ونحوهـا مـا لاينحصـر كثـرة. وتـرك ثمـانين جوقـة كـلاب بكلابزنتهـا، وكـان أخلـى لهـا موضـعاً بالجبـل. وعنـي أيضـاً بجمـع الأغنـام وأقـام لهـا خولـة. وكـان يبعـث فـي كـل سـنة الأميـر آقبغـا عبـد الواحـد فـي عـدة مـن المماليـك لكشـفها، فيكشـف المراحـات مـن قـوص إلـى الجيـزة، ويأخـذ منهـا مـا يختـاره مـن الأغنـام، وجـرده مـرة إلـى عيـذاب والنوبـة لجلـب الأغنـام. ثـم عمـل لهـا حوشـاً بقلعـة الجبـل، وقـد ذكرنـا ذلـك فـي وقتـه، وأقـام لهـا خولـة نصارى من الأسرى.

وعني أيضاً بالإوز وأقام لها عدة من الخدام، وجعل لها جانباً بحوش الغنم.

ولمـا مـات تـرك ثلاثـين ألـف رأس مـن الغـنم سـوى أتباعهـا. فاقتـدى بـه الأمـراء وصــارت لهــم الأغنــام العظيمــة فــي غالــب أرض مصــر. وكــان كثيــر العنايــة بأربــاب وظائفــه وحواشــيه مــن أمــراء اخوريــة والأوجاقيــة وغلمــان الإســطبل والبــازداردة والفراشـين والخولــة والطبــاخين. فكــان إذا جــاء أوان تفرقــة الخيــول علـى الأمـراء بعـث إلـى الأميـر بمـا جـرت بـه عادتـه ممـا رتبـه لـه فـي كـل سـنة مـع أميـر آخـور وأوجـاقي وسـايس وركبـدار، ويترقـب عـودهم حتـى يعـرف مـا أنعـم بـه ذلـك الأميـر علـيهم، فـإن شـح الأميـر فـي عطايـاتهم تنكـر عليـه وبكتـه بـين الأمـراء ووبخـه، وكـان قـرر أن يكـون الأميـر آخـور بيـنهم بقسـمين ومـن عـداه بقسـم واحـد. وكـان أيضـاً إذا بعـث لأميـر بطيـر مـع أميـر شـكار أو واحـد مـن البازداريـة يحتـاج الأميـر أن يلبسـه خلعـة كاملـة بحياصـة ذهـب وكلفتـاه زركـش، فيعـود بهـا ويقبـل الأرض بـين يديـه فيسـتدنيه ويفـتش خلعتـه. وكانـت عادتـه أن يبعـث فـي يـوم النحـر أغنـام الضـحايا مـع الأبقـار والنـوق إلـى الأمـراء، فبعـث مـــرة مـــع بعـــض خولـــة النصـــارى إلـــى الأميـــر يلبغـــا حـارس طيـره ثلاثـة كبـاش فأعطـاه عشـرة دراهـم فلوسـاً وعـاد إلـى السـلطان،

فقال له: " وأين خلعتك ". فطرح الفلوس بين يديه وعرفه بقدرها، فغضب وأمر بعض الخدام أن يسير بالخولي إلى عنده ويوبخه ويأمره أن يلبسه خلعة طرد وحش.

وكانت حرمته ومهابته وافرة قد تجاوزت الحد، حتى إن الأمراء كانوا إذا وقفوا بالخدمة لا يجسر أحد منهم أن يتحدث مع رفيقه، ولا يلتفت نحوه خوفاً من مراقبة السلطان لهم. وكان لا يجسر أحد أن يجتمع مع خشداشه في نزهة ولا غيرها.

وكان، رحمه الله، على غاية من الحشمة والرياسة وسياسة الأمور، فلم يضبط عليه أحد أنه أطلق لسانه بكلام فاحش في شدة غضبه ولا في انبساطه، مع عظيم ملكه وطول مدته في السلطنة وكثرة حواشيه وخدمه. وكان يدعو الأمراء والأعيان وأرباب الوظائف بأحسن أسمائهم وأجل ألقابهم، وكان إذا غضب على أحد لا يظهر له ذلك. وكان مع هذه الشهامة وحب التجمل مقتصداً في ملبسه، يلبس كثيراً البعلبكي والنصافي المتوسط، ويعمل حياصته فضة نحو مائة درهم بغير ذهب ولا جوهر، ويركب بسرج مسقط بفضة التي زنتها دون المائة درهم وعباءة فرسه إما تدمري أوشامي، ليس فيها حرير.

وكان مفرط الذكاء، يعرف جميع مماليك أبيه وأولادهم بأسمائهم، ويعرف بهم الأمراء خشداشيتهم فيتعجبون الأمراء من ذلك، وكذلك مماليكه لا يغيب عنه اسم واحد منهم، ولا وظيفته عنده، ولامبلغ جامكيته، هذا مع كثرتهم. وكان أيضاً يعرف غلمانه حاشيته على كثرة عددهم، ولا يفوته معرفة أحد من الكتاب، فكان إذا أراد أن يولي أحداً مكاناً أو يرتبه في وظيفة استدعى جميع الكتاب بين يديه واختار منهم واحداً أو أكثر من واحد من غير أن يراجع فيهم، ثم يقيمه فيما يريد من الوظائف. وكان إذا تغير على أحد من أمرائه أو كتابه أسر ذلك في نفسه، وتروى في ذلك مدة طويلة وهو ينتظر له ذنباً يأخذه به، كما وقع له في أمر كريم الدين الكبير وأرغون النائب وغيرهم، وهو يتأنى ولا يعجل، حتى لا ينسب إلى ظلم، فإنه كان يعظم عليه أن يذكر عنه أنه ظالم أو جائر، أو وقع في أيامه خراب أوخلل، ويحرص على حسن القالة فيه.

وكان يستبد بأمور مملكته وينفرد بالأحكام، حتى إنه أبطل نيابة السلطنة من ديار مصر ليستقل هو بأعباء الدولة وحده. وكان يكره أن يقتدي بمن تقدمه من الملوك، فمن أنشأه من الملوك كائناً من كان، ولايدخلهم المشورة حتى ولا بكتمر الساقي ولا

قوصون ولا بشتك وغيرهم، بل كان لا يقتدي إلا بالقدماء من الأمراء.

وكان يكره شرب الخمر ويعاقب عليه ويبعد من يشربه من الأمراء عنه. وكان في الجود والكرم والإفضال غاية لاتدرك خارجة عن الحد، وهب في يوم واحد ما يزيد على مائة ألف دينار ذهباً، وأعطى في يوم واحد لأربعة من مماليكه، وهم الأمير ألطنبغا المارداني ويلبغا اليحياوي وملكتمر الحجازي وقوصون، مائتي ألف دينار، ولم يزل مستمر العطاء لخاصكيته ومماليكه ما بين عشرة آلاف دينار وأكثر منها وأقل، ونحوها من الجوهر واللآلىء. وبذل في أثمان الخيل والمماليك ما لم يسمع بمثله. وجمع من المال والجوهر والأحجار ما لم يجمعه ملك من ملوك الدولة التركية قبله مع فرط كرمه.

قلت: كل ذلك لحسن تدبيره وعظم معرفته فإنه كان يدري مواطن استجناء المال فيستجنيه منها، ويعرف كيف يصرفه في محله وأغراضه فيصرفه. ولم يشهر عنه أنه ولي قاض في أيامه برشوة، ولا محتسب ولا وال، بل كان هو يبذل لهم الأموال ويحرضهم على عمل الحق، وتعظيم الشرع الشريف، وهذا بخلاف من جاء بعده فإن غالب ملوك مصر ممن ملك مصر بعده يقتدي بشخص من أرباب وظائفه، فيصير ذلك الرجل هو السلطان حقيقة والسلطان من بعض من يتصرف بأوامره، وكل ذلك لقصر الإدراك وعدم المعرفة، فلذلك يتركون الأموال الجليلة والأسباب التي يحصل منها الألوف المؤلفة، ويلتفتون إلى هذا النزر اليسير القبيح الشنيع الذي لا يرتضيه من له أدنى همة ومروءة، وهو الأخذ من قضاة الشرع عند ولايتهم المناصب وولاة الحسبة والشرطة، وذلك كله وإن تكرر في السنة فهو شيء قليل جداً، يتعوض من أدنى الجهات التي لا يؤبه إليها من أعمال مصر، فلو وقع ذلك لكان أحسن في حق الرعية وأبرأ لذمة السلطان والمسلمين من ولاية قضاة الشرع بالرشوة، وما يقع بسبب ذلك في الأنكحة والعقود والأحكام وما أشبه ذلك. انتهى.

* * *

سلطنة المنصور أبي بكر ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على مصر

هو السلطان الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ابن السلطان الملك الناصر أبي المعالي محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. جلس على تخت الملك بالإيوان من قلعة الجبل بعهد من أبيه إليه صبيحة توفي والده، وهو يوم الخميس حادي عشرين ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعمائة، ولقبه الأمراء الأكابر بالملك المنصور على لقب جده. والمنصور هذا هو الثالث عشر من ملوك الترك بديار مصر، والأول من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. واتفق الأمراء على إقامة الأمير سيف الدين طقزدمر الحموي، حمو الملك المنصور هذا، في نيابة السلطنة بديار مصر كونه من أكابر الأمراء، وأيضاً صهر السلطان، ويكون الأمير قوصون الناصري مدبر المملكة، ورأس المشورة، ويشاركه في الرأي الأمير بشتك الناصري.

ثم في يوم الأحد ثامن المحرم قبض على الأمير بشتك الناصري؛ وذلك أنه طلب أن يستقر في نيابة الشام، ودخل على الأمير قوصون وسأله في ذلك وأعلمه أن السلطان كان قبل موته وعلى بها وألح في سؤاله، وقوصون يدافعه ويحتج عليه بأنه قد كتب إلى الأمير ألطنبغا الصالحي نائب دمشق تقليداً بأستمراره في نيابة دمشق على عادته ولا يليق عزله سريعاً، فقام عنه بشتك وهو غير راض؛ فإنه كان قد توهم من قوصون وخشي منه على نفسه وطلب الخروج من ديار مصر لما كان بينهما قديما من المنافرة، ولأن قوصون صار الآن متحكماً في الدولة. فلما خرج بشتك من عند قوصون وهو غير راض سعى بخاصكية السلطان وحمل إليهم مالاً كثيراً في السر، وبعث إلى الأمراء الكبار وطلب منهم المساعدة؛ فما زالوا بالسلطان حتى أنعم عليه بنيابة الشام، وطلب الأمير قوصون وأعلمه بذلك فلم يوافقه، وقرر مع السلطان أنه يحدث الأمراء في ذلك ويعدهم بأنه يولي بشتك إذا قدم الأمير قطلوبغا الفخري من تحليف نائب الشام وبنسخة اليمين. فلما دخل الأمراء عرفهم السلطان طلب بشتك بنيابة الشام، فأخذوا في الثناء عليه والشكر منه؛ فاستدعاه وطيب خاطره ووعده بها عند قدوم الفخري، ورسم له بأن يتجهز للسمرة فظن بشتك أن ذلك صحيح، وقام مع الأمراء من الخدمة، وأخذ في عرض خيوله، وبعث لكل من أكابر الأمراء المقدمين ما بين ثلاثة أرؤس إلى رأسين بالقماش المذهب الماخر، وبعث معها أيضاً الهجن؛ ثم بعث إلى الأمراء الخاصكية مثل ملكتمر الحجازي وألطنبغا المارداني شيئاً كثيراً من الذهب والجوهر واللؤلؤ والتحف. وفرق عدة من

الجواري في الأمراء بحيث إنه لم يبق أحد من الأمراء إلا وأرسل إليه. ثم فرق على مماليكه وأجناده، وأخرج ثمانين جارية بعد ما شورهن بالأقمشة والزراكش وزوجهن. وفرق من شونته على الأمراء اثني عشر ألف إردب غلة. وزاد بشتك في العطاء حتى وقع الإنكار عليه، واتهمه السلطان والأمير قوصون بأنه يريد الوثوب على السلطان، وعملوا هذا من فعله حجة للقبض عليه. وكان ما خص الأمير قوصون من تفرقة بشتك في هذه النوبة حجرين من حجارة معاصير القصب بما فيهما من القنود والسكر والأعسال والأبقار والغلال والآلات، وخمسمائة فدان من القصب مزروعة في أراض ملك له، وغير ذلك، فأدهش الأمراء كثرة عطائه، وآستغنى منه جماعة من مماليكه وحواشيه.

ولما كثرت القالة فيه بأنه يريد إفساد الدولة خلا به بعض خواصه وعرفه ذلك، وأشار عليه بإمساك يده عن العطاء، فقال: " هم إذا قبضوا علي أخذوا مالي وأنا أحق بتفرقته منهم، وإذا سلمت فالمال كثير ". هذا وقد قام قوصون في أمر بشتك المذكور قياماً حتى وافقه السلطان على القبض عليه عند قدوم قطلوبغا الفخري. فأشاع قوصون أن بشتك يريد القبض على الفخري إذا حضر، فبلغ ذلك بعض خواص قطلوبغا، فبعث إليه من تلقاه وعرفه بما وقع من تجهيز بشتك وأنه على عزم من أن يلقاك في طريقك ويقتلك، فكن على حذر؛ فأخذ قطلوبغا من الصالحية يحترز على نفسه حتى نزل سرياقوس. واتفق من الأمر العجيب أن بشتك خرج إلى حوشه بالريدانية خارج القاهرة ليعرض هجنه وجماله، فطار الخبر إلى قطلوبغا أن بشتك قد خرج إلى الريدانية في انتظارك، فآستعد قطلوبغا ولبس السلاح من تحت ثيابه، وسار حتى تلقاه عدة كثيرة من مماليكه وحواشيه وهو على أهبة الخروج للحرب، وخرج قطلوبغا عن الطريق وسلك من تحت الجبل لينجو من بشتك وقد قوي عنده صحة ما بلغه؛ وكان عند بشتك علم من قدومه؛ فلما قرب قطلوبغا من الموضع الذي فيه بشتك لاحت له غبرة خيل، فحدس بشتك أنه قطلوبغا الفخري، قد قدم، فبعث إليه أحد مماليكه يبلغه سلامه وأنه يقف حتى يأتيه فيجتمع به. فلما بلغ الفخري ذلك زاد خوفه من بشتك، فقال له: " سلم على الأمير وقل له: لا يمكن آجتماعه بي قبل أن أقف قدام السلطان. ثم بعد ذلك اجتمع به وبغيره " فمضى مملوك بشتك وفي ظن قطلوبغا أنه إذا بلغه مملوكه الجواب ركب إليه، فأمر قطلوبغا مماليكه بأن يسيروا قليلاً قليلاً، وساق هو بمفرده مشواراً واحداً إلى القلعة. ودخل إلى السلطان وبلغه طاعة

النواب وفرحهم بأيامه. ثم أخذ يعرف السلطان والأمير قوصون وسائر الأمراء بما اتفق له مع بشتك، وأنه كان يريد معارضته في طريقه وقتله؛ فأعلمه السلطان وقوصون بما اتفقا عليه من القبض على بشتك.

فلما كان عصر اليوم المذكور، ودخل الأمراء إلى الخدمة على العادة بالقصر وفيهم الأمير بشتك، وأكلوا السماط، تقدم الأمير قطلوبغا الفخري والأمير طقزدمر الناصري الساقي، إلى بشتك وأخذا سيفه وكتفاه. وقبض معه على أخيه أيوان وعلى طولوتمر ومملوكين من المماليك السلطانية كانا يلوذان ببشتك؛ وقيدوا جميعاً، وسمروا إلى الإسكندرية في الليل صحبة الأمير أسندمر العمري. وقبض على جميع مماليكه، ووقعت الحوطة على موجوده ودوره، وتتبعت غلمانه وحواشيه. وأنعم السلطان من إقطاع بشتك على الأمير قوصون بخصوص الشرق زيادة على ما بيده، وأخذ السلطان المطرية ومنية ابن خصيب وشبرا، وفرق بقية الإقطاع على ملكتمر الحجازي وغيره من الأمراء. فلما أصبحوا يوم الإثنين تاسع المحرم حملت حواصل بشتك، وهي من الذهب العين مائتا ألف دينار مصرية، ومن اللؤلؤ والجواهر والحوائص الذهب والكلفتاه الزركش شيء كثير جداً؛ هذا بعد أن فرق غالب موجوده حسب ما تقدم ذكره على الأمراء والمماليك. ثم أخرج السلطان الأمير أحمد شاد الشربخاناه منفياً إلى طرابلس لميله مع بشتك.

وفي يوم الأربعاء تاسع صفر قبض السلطان على المقدم إبراهيم بن صابر وسلمه لمحمد بن شمس الدين المقدم وأحيط بأمواله؛ فوجد له نحو سبعين حجرة في الجشار، ومائة وعشرين بقرة في الزرايب، ومائتي كبش، وجوقتين كلاب سلوقية، وعدة طيور جوارح مع البازدارية. ووجد له من الغلال وغيرها شيء كثير.

ثم قدم الخبر على السلطان من الأمير طشتمر حمص أخضر الساقي نائب حلب بخروج ابن دلغادر عن الطاعة وموافقته لإرتنا متملك الروم على المسير لأخذ حلب، وأنه قد جمع بأبلستين جمعاً كثيراً وسأل طشتمر أن ينجده السلطان بعسكر من مصر، فتشوش السلطان لذلك وعوق الجواب.

وفي ذلك اليوم عقد السلطان نكاحه على جاريتين من المولدات اللاتي في بيت السلطان، وكتب القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر صداقهما، فخلع عليه السلطان وأعطاه عشرة آلاف درهم. ورسم السلطان لجمال الكفاة ناظر الخاص أن يجهزهما بمائة ألف دينار، فشرع جمال الكفاة في عمل الجهاز. وبينما هو في ذلك ركب الأمير قوصون على السلطان بجماعة من الأمراء في يوم السبت تاسع عشر صفر وخلعوه من الملك في يوم الأحد عشرينه، وأخرج هو وإخوته إلى قوص

صحبة الأمير بهادر بن جركتمر.

وكان سبب خلع الملك المنصور هذا: أن المنصور كان قرب الأمير يلبغا اليحياوي وشغف به شغفاً كثيراً، ونادم الأمير ملكتمر الحجازي واختص به وبالأمير طاجار الدوادار وبالأمير قطليجا الحموي وجماعة من الخاصكية؛ وعكف على اللهو وشرب الخمر وسماع الملاهي. فشق ذلك على الأمير قوصون وغيره لأنه لم يعهد من ملك قبله شرب خمر فيما روي؛ فحملوا الأمير طقزدمر النائب على محادثته في ذلك وكفه عنه، فزاده لومه إغراء، وأفحش في التجاهر باللهو، حتى تكلم به كل أحد من الأمراء والأجناد والعامة. فصار في الليل يطلب الغلمان ويبعثهم لإحضار المغاني، فغلب عليه السكر في بعض الليالي، فصاح من الشباك على الأمير أيدغمش أمير آخور: هات لي قطقط فقال أيدغمش: " يا خوند، ما عندي فرس بهذا الاسم " فتكلم بذلك السلاخورية والركابية وتداولته الألسنة.

قلت: وأظن قطقط كانت امرأة مغنية. والله أعلم.

وكان الملك المنصور سلطاناً كريماً شاباً حمل إليه مال بشتك ومال آقبغا عبد الواحد ومال برسبغا فوهب ذلك جميعه إلى الخاصكية الأمراء من مماليك والده مثل ملكتمر الحجازي وألطنبغا المارداني ويلبغا اليحياوي وطاجار الدوادار، وهؤلاء كانوا عظماء أمراء الألوف من الخاصكية وأعيان مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصهاره، وأحبهم وأحبوه، فالتهى بهم عن قوصون وقوي بهم بأسه؛ فخاف قوصون عاقبة أمره وتقرب خشداشيته إليه فدبر عليه وعليهم حتى تم له ذلك. وكانت الناس تباشرت بيمن سلطنته؛ فإنه لما تسلطن آنتظمت الأمور على أحسن ما يكون، ولم يقع بين الناس خلاف، ولا وقع سيف حتى خالف قوصون، فرموه بأمور وقبائح ودواهي، وادعوا أنه كان ينزل هو والمذكورون من مماليك أبيه إلى بحر النيل ويركب معهم في المراكب وأشياء من ذلك، الله أعلم بصحتها. ولم يكن مسك بشتك بخاطره ولا عن أمره إلا مراعاة لخاطر قوصون لما كان بينهما من أيام أستاذهما الملك الناصر محمد من المنافرة. وكان الملك المنصور شاباً حلو الوجه، فيه سمرة وهيف قوام، وكان تقدير عمره ما حول العشرين سنة، وكان أفحل الإخوة وأشجعهم. زوجه أبوه بنت الأمير سيف الدين طقزدمر الحموي.

* * *

سلطنة الأشرف علاء الدين كجك على مصر

هو السلطان الملك الأشرف علاء الدين كجك ابن السلطان الملك الناصر، ناصر الدين أبي المعالي محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي. جلس على تخت الملك باتفاق الأمراء بعد خلع أخيه أبي بكر ابن الملك الناصر محمد في يوم الإثنين حادي وعشرين صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة؛ وركب بشعار السلطنة ولقب بالملك الأشرف ولم يكمل له من العمر خمس سنين، وقيل كان عمره دون سبع سنين. وأمه أم ولد تسمى أردو تركية الجنس. وهو السلطان الرابع عشر من ملوك الترك بديار مصر، والثاني من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاوون.

ولما تم أمره في السلطنة جلس الأمراء وآشتوروا فيمن يقيموه في نيابة السلطنة فرشح الأمير أيدغمش أمير آخور، فامتنع أيدغمش من ذلك، فوقع الاتفاق على الأمير قوصون الناصري، فأجاب وشرط على الأمراء أن يقيم على حاله في الأشرفية من القلعة ولا يخرج منها إلى دار النيابة خارج باب القلة من القلعة، فأجابوه الأمراء إلى ذلك، فآستقر من يومه في النيابة، وتصرف في أمور المملكة، والسلطان آلة في السلطنة.

ثم اتفقت الأمراء على إخراج الأمير ألطنبغا المارداني من الحبس فأخرج من يومه. وفي ليلة الأربعاء ثالث وعشرين صفر أخرج الأمير قطلوبغا الحموي وطاجار الدوادار وملكتمر الحجازي والشهابي شاد العمائر من حبس خزانة شمائل بالقاهرة، وحملوا إلى ثغر الإسكندرية فسجنوا بها.

وتوجه الأمير بلك الجمدار على البريد إلى حلب لتحليف النائب طشتمر الساقي المعروف بحمص أخضر والأمراء. وتوجه الأمير بيغرا إلى دمشق بمثل ذلك إلى نائبها الأمير ألطنبغا الصالحي، وتوجه الأمير جركتمر بن بهادر إلى طرابلس وحماة لتحليف نوابها والأمراء، وكتب إلى الأعمال بإعفاء الجند من المغارم.

ثم ركب الأمير قوصون في يوم الخميس رابع وعشرينه في دست النيابة، وترجل له الأمراء ومشوا في خدمته، وأخذ وأعطى وأنفق على الأمراء لكل أمير مائة ومقدم ألف: ألف دينار، ولكل أمير طبلخاناه خمسمائة دينار؛ ولكل أمير عشرة: مائتي دينار، ولكل مقدم حلقة خمسين ديناراً، ولكل جندي خمسة عشر ديناراً.

ولما كان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الأول من سنة آثنتين وأربعين

وسبعمائة أنعم قوصون على أحد وعشرين مملوكاً من المماليك السلطانية بإمريات: منهم ستة طبلخاناه والبقية عشرات.

وفي يوم الخميس ثاني وعشرينه جلس السلطان الملك الأشرف كجك على تخت الملك وخلع على جميع الأمراء وأرباب الدولة بدار العدل، وقبل الأمراء الأرض بين يديه ثم تقدموا إليه على قدر مراتبهم وقبلوا يده، فكان عدة الخلع في هذا اليوم ألما ومائتي خلعة.

ثم في تاسع وعشرينه ورد كتاب الشهابي أحمد ابن الملك الناصر محمد من الكرك بأنه لا يحضر إلى القاهرة حتى يأتيه أكابر الأمراء إلى الكرك ويحلفهم، ثم يحضر إخوته من بلاد الصعيد إلى قلعة الكرك، ويحضر بعد ذلك، وينتصب سلطاناً. فأجيب بأنه لم يطلب إلا لشكوى النائب منه، وجهزت له هدية سنية، وأنه يحضر حتى تعمل المصلحة. فلم يكن بعد أيام إلا وحضر الأمير ملكتمر السرجواني نائب الكرك إلى القاهرة في يوم الخميس رابع عشر ربيع الآخر، وأخبر الأمير قوصون وغيره بامتناع الشهابي أحمد من الحضور، وأنه أقام على الخلاف؛ فآجتمع الأمراء بالقصر في يوم الجمعة خامس عشره للمشورة في أمر أحمد المذكور، حتى تقرر الأمر على تجريد العساكر لأخذه.

ثم في يوم السبت سادس عشره ابتدأت الفتنة بين الأمير قوصون وبين المماليك السلطانية؛ وذلك أن قوصون أرسل يطلب من مقدم المماليك مملوكاً من طبقة الزمرذية جميل الصورة، فمنعه خشداشيته أن يخرج من عندهم، فتلطف بهم المقدم حتى أخذه ومضى به إلى قوصون فبات عنده. ثم طلب قوصون من الغد نحو أربعة مماليك أخر أو خمسة، منهم شيخون وصرغتمش وأيتمش عبد الغني، فامتنع خشداشيتهم من ذلك، وقام منهم نحو المائة مملوك، وقالوا: " نحن مماليك السلطان، ما نحن مماليك قوصون "؛ وأخرجوا الطواشي المقدم من عندهم على أقبح وجه. فمضى المقدم إلى قوصون وعرفه الحال، فأخرج إليهم قوصون الأمير برسبغا الحاجب وشاورشي دواداره في عدة من مماليكه ليأتوه بهم، فإذا بالمماليك قد تعصبوا مع كبارهم وخرجوا على حمية يريدون الأمير بيبرس الأحمدي، فإذا به راكب. فمضوا إلى بيت الأمير جنكلي بن البابا فلقوه في طريقهم؛ فقالوا له: نحن مماليك السلطان مشترى ماله، فكيف نترك ابن أستاذنا ونخدم غيره، من هو مملوك مثلنا فينال غرضه منا ويفضحنا بين الناس؟ وجهروا له بالكلام الفاحش فتلطف بهم جنكلي فلم يرجعوا عما هم عليه، فحنق منهم، وقال: أنتم

الظالمون بالأمس. ولما خرجتم قلت لكم أنا وطقزدمر نائب السلطنة: ارجعوا إلى خدمة ابن أستاذكم قلتم: ما لنا ابن أستاذ غير قوصون، والآن تشكون منه! فاعتذروا له ومضوا به، وقد حضر الأحمدي فآجتمعوا به، وتوجهوا إلى منكلي بغا الفخري فإذا قد وافاه برسبغا من عند قوصون، فأرادوا أن يوقعوا به فكفهم الفخري عنه. هذا وقوصون قد بلغه خبرهم، فأراد أن يخرج ويجمع الأمراء، فما زال به من عنده حتى سكن إلى بكرة النهار، فكانت تلك الليلة ليلة مهولة.

ثم طلب الأمير قوصون جنكلي والأحمدي والفخري وبقية الأمراء إليه، وأغراهم بالمماليك السلطانية وخوفهم عاقبة أمرهم من استخفافهم بالأمراء؛ فبعثوا بالأمير مسعود الحاجب إليهم ليحضرهم، فإذا جمعهم قد كثف وكثر، فلم يلتفتوا إليه فعاد. فخرج إليهم ألطنبغا المارداني وقطلوبغا الفخري وهما أكبر الأمراء الخاصكية من خشداشييهم، وما زالا بهم حتى أخذا من وقع عليه الطلب، ودخلا بهم إلى قوصون، فقبلوا يده فقام لهم وقبل رأسهم وطيب خواطرهم ووعدهم بكل خير وانصرفوا، وفي ذهن قوصون أنه قد حصل الصلح، وذلك في يوم السبت. فلما كان ليلة الإثنين وقت الغروب تحالف المماليك الناصرية على قتل قوصون وبعثوا إلى من بالقاهرة منهم؛ فبات قوصون - وقد بلغه ذلك - على حذر. وركب يوم الإثنين ثامن عشر ربيع الآخر الموكب مع الأمراء تحت القلعة، وطلب أيدغمش أمير آخور، وأخذ قوصون يلوم الأمراء في إقامته في نيابة السلطنة، وهم يترضوه ويعدوه بالقيام معه؛ فأدركه الأمير بيبرس الأحمدي وأعلمه بأن المماليك السلطانية قد آتفقوا على قتله، فمضى بهم أعني الأمراء إلى جهة قبة النصر

فارتجت القلعة وقفلت أبوابها، ولبست المماليك السلطانية السلاح بالقلعة وكسروا الزردخاناه السلطانية. هذا وقد آمتلأت الرميلة بالعامة، وصاحوا: يا ناصرية! نحن معكم، فأجابوهم من القلعة، فأشاروا لهم بالتوجه إلى بيت قوصون فتوجهوا نحوه وكسروا بابه وهجموا عليه، وكسروا من كان يرمي عليهم من أعلى البيت. وبلغ ذلك قوصون، فعاد بمن كان معه من الأمراء، وأوقعوا بالعامة حتى وصلوا إلى سور القلعة فرماهم المماليك من أعلى القلعة بالنشاب وأحموا العامة. فقتل في المعركة الأمير محمود صهر الأمير جنكلي بن البابا بسهم نشاب من القلعة، وقتل معه آخر. ووصلوا حاشية قوصون إلى إسطبل قوصون، وقد بدأ النهب فيه، فقتلوا من العامة جماعة كثيرة وقبضوا على جماعة. فلم تطق المماليك السلطانية مقاومة الأمراء

فكفوا عن القتال وفتحوا باب القلعة لهم. فطلع إليهم الأمير برسبغا الحاجب أنزل ثمانية من أعيان المماليك السلطانية إلى قوصون، وقد وقف قوصون بجانب زاوية تقي الدين رجب تحت القلعة. فوسط قوصون منهم واحداً آسمه صربغا، فإنه الذي فتح خزائن السلاح وألبس المماليك، وأمر به قوصون فعلق على باب زويلة. وأراد أن يوسط البقية فشفع فيهم الأمراء، فحبسوا بخزانة شمائل مقيدين. ثم رسم قوصون بتسمير عدة من العوام فسمر منهم تسعة على باب زويلة. ثم أمر بالركوب على العامة وقبضهم ففروا حتى إنهم لم يقدروا منهم على حرفوش واحد. ثم طلع قوصون إلى القلعة قريب العصر، ومد للأمراء سماطاً فأكلوا. وبقيت الأطلاب والأجناد واقفة تحت القلعة إلى آخر النهار، فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة؛ وكان جملة من قتل فيه من الفئتين ثمانية وخمسين رجلاً وآنصرف الناس.

ثم في ليلة الثلاثاء طلع الأمير برسبغا الحاجب إلى طباق المماليك بالقلعة ومعه عدة من المماليك وقبضوا على مائة مملوك منهم، وعملوا في الحديد، وحبسوا بخزانة شمائل، فمنهم من قتل، ومنهم من نفي من مصر. ثم في يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر سمر قوصون تسعة من العوام. ثم في يوم الأربعاء عشرينه سمر قوصون أيضاً ثلاثة من الطواشية في عدة من الحرافيش على باب زويلة. وسبب ذلك أن قوصون لما نزل من القلعة ومضى إلى قبة النصر وقابلته المماليك السلطانية أخذت الطواشية في الصياح على نسائه وأفحشوا في سبهن؛ واستمر الطواشية في التسمير حتى مات أحدهم وشفع في الاثنين.

ثم عرض قوصون مماليك الأطباق، وأنعم على مائتين منهم بإقطاعات كبيرة، وعين جماعة منهم بإمريات. ثم أكثر قوصون من الإحسان إليهم.

وبينما قوصون في ذلك قدم عليه كتب نائب الشام وأمراء الشام وفيها كتب أحمد ابن السلطان الملك الناصر لهم مختومة لم تفك؛ ففتحها قوصون فإذا فيها لنائب الشام أنه كاتب لنائب حلب الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر وغيره، وأنهم آتفقوا معه؛ وأكثر من الشكوى من قوصون. فأوقف قوصون الأمراء عليها، وما زال بهم حتى وافقوه على تجريد العسكر إلى الكرك.

وفي هذه الأيام ظهرت المماليك التي كانت الفتنة بسببهم عند خشداشييهم، فسلم صرغتمش إلى الأمير ألطنبغا المارداني، وسلم أيتمش إلى الأمير آخور، وسلم شيخون إلى الأمير أرنبغا السلاح دار، وهؤلاء الأمراء الثلاثة

ناصرية.

ثم أشيع بالقاهرة أن أحمد ابن الملك الناصر قد تحرك من الكرك في طلب المجيء إلى الديار المصرية، فكثر الاضطراب ووقع الشروع في تجهيز العساكر صحبة الأمير قطلوبغا الفخري، واستحلفه قوصون، وبعث إليه بعشرة آلاف دينار، وعين معه أيضاً الأمير قماري أخا بكتمر الساقي ومعهما أربعة وعشرون أميراً، ما بين طبلخانات وعشرات، وأنفق على الجميع. ثم بعث قوصون إلى قطلوبغا الفخري بخمسة آلاف دينار أخرى عند سفره، وركب لوداعه صحبة الأمراء، حتى نزل الريدانية في يوم الثلاثاء خامس وعشرين ربيع الآخر، وكل ذلك في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة. هذا والأمراء لم يكن منهم أحد راضياً بسفر هذه التجريدة، بل أشار الأمير الحاج آل ملك والأمير جنكلي بن البابا على قوصون بأنه لا يحرك ساكناً لم يقبل قوصون. وكانا أشارا عليه بأنه يكتب إلى أحمد بن الناصر يعتبه على مكاتبته لنائب الشام وغيره، فكتب إليه بذلك؛ فأجاب بأن طوغان أسمعه كلاماً فاحشاً وأغلظ عليه في القول، فحمله الحنق على مكاتبة نائب الشام، وأن قوصون والده بعد والده ونحو ذلك. فلم يقتنع قوصون ذلك، وجهز العساكر لأخذه.

وبعد خروج العساكر ركب الأمير قوصون في يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى إلى سرياقوس وصحبته الأمراء على عادتهم " توجه السلطان ثم عاد ". وبعد مدة يسيرة ظهر للأمير قوصون مخالفة الأمير طشتمر الساقي نائب حلب المعروف بحمص أخضر. وسبب مخالفته أنه شق عليه إخراج أولاد أستاذه الملك الناصر إلى الصعيد، وأيضاً تجهيز العساكر لقتال أحمد ابن الملك الناصر بالكرك؛ وكان قد بعث إليه أيضاً أحمد ابن الملك الناصر يشكو من قوصون، وأنه يريد القبض عليه يطلب منه النصرة عليه؛ فكتب طشتمر إلى أمراء الديار المصرية وإلى قوصون بالعتب، فقبض على قاصده بقطيا وسجن. وكتب قوصون إلى الأمير ألطنبغا الصالحي نائب الشام بأن الأمير طشتمر حمص أخضر نائب حلب شرع يتكلم في إقامة الفتنة وأنه لا يصغي إلى قوله، وبعث إليه بأشياء كثيرة من الهدايا والتحف، فأجاب ألطنبغا نائب الشام بالسمع والطاعة والشكر والثناء.

ولما تم لقوصون ذلك وقع بينه وبين الأمير أيدغمش أمير آخور، وكادت الفتنة تقوم بينهما، وأغلظ أيدغمش لقوصون في الكلام. وسببه أن بعض مماليك أمير علي بن أيدغمش وشى إليه بأن قوصون قرر مع برسبغا

الحاجب أن يبيت بالقاهرة ويركب في عدة من مماليك قوصون ويكبس على أيدغمش؛ فأخذ أيدغمش في الاحتراز، وآمتنع من طلوع القلعة أياماً بحجة أنه متوعك. وكان ذلك بعد أن تصالحا بعد تفاوضهما بمدة يسيرة؛ وصار أيدغمش إذا سير قوصون النائب بالرميلة في أيام المواكب يغلق أيدغمش باب الإسطبل السلطاني، ويوقف طائفة من الأوجاقية عليه، فاشتهر الخبر بين الناس وكثرت القالة. وبلغ قوصون تغير خاطر أيدغمش عليه، فحلف للأمراء أنه ما يعرف لتغيره سبباً. فما زالت الأمراء بأيدغمش حتى طلع القلعة، وعرف قوصون بحضرة الأمراء ما بلغه، فحلف قوصون على المصحف أن هذا لم يقع منه، ولا عنده منه خبر، وتصالحا. وبعث إليه أيدغمش بعد نزوله إلى الإسطبل الناقل إليه فرده قوصون إليه ولم يعاقبه.

وأما ألطنبغا الصالحي نائب الشام فإنه قدم إلى حلب، وكتب إلى قوصون يعلمه بتسحب طشتمر نائب حلب إلى جهة الروم، وأنه استولى على مدينة حلب. فقدم كتابه على قوصون في يوم الأربعاء ثاني شهر رجب. ثم في يوم الإثنين سابع رجب فرق الأمير قوصون إقطاعات الأمراء المجردين مع قطلوبغا الفخري الخارجين عن طاعة قوصون، وعدتهم اثنان وثلاثون أميراً، منهم أمراء طبلخانات ستة عشر، وأمراء عشرات ستة عشر، وأميران مقدمان: الفخري وقماري.

ثم كتب قوصون إلى ألطنبغا نائب الشام على يد أطلمش الكريمي بأن يسير من حلب إلى قتال الفخري بدمشق، فتوجه أطلمش الكريمي على البريد من البرية لانقطاع الطريق حتى وصل إلى حلب، وعرف ألطنبغا الخبر، فخرج ألطنبغا بمن معه من العساكر وسار حتى قدم حمص، وقد خرج الفخري من دمشق ونزل على خان لاجين وأمسك المضيق، وأقام الجبلية والعشير على الجبلين، ووقف هو بالعسكر في وسط الطريق.

وأما ألطنبغا فإنه حلف ومن معه من العساكر وسار من حمص يريد الفخري حتى قرب منه، وعدد الجمعين نحو ثلاثة عشر ألف فارس، فتمهل ألطنبغا كراهية لسفك الدماء، وأرسل إلى الفخري رسلاً ودام على ذلك ثلاثة أيام فلم يتم بينهما أمر. وبعث قطلوبغا الفخري إلى جماعة من أصحاب ألطنبغا يعدهم ويستميلهم حتى وافقوه. فلما تعبت الرسل بينهم وملت العسكر من شدة البرد، بعث ألطنبغا في الليل جماعة من أصحابه ليهجموا على الفخري من ورائه، ويلقاهم هو من قدامه؛ وركب من الغد، فمال كل أمير بمن معه من أصحابه إلى جهة الفخري، وصاروا من جملته، فلم يبق معه سوى أرقطاي

نائب طرابلس وأسنبغا بن بكتمر البوبكري وأيدمر المرقبي من أمراء دمشق، فانهزموا على طريق صفد إلى جهة غزة، والقوم في أثرهم، بعد أن كانت بينهم وقعة هائلة انهزم فيها ألطنبغا نائب الشام.

ثم آلتفت الفخري إلى جهة دمشق، وترك السير خلف ألطنبغا حتى دخل دمشق مؤيداً منصوراً. وكتب في الحال مع البريد إلى الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر نائب حلب يعرفه بنصرته ويدعوه إلى الحضور من بلاد الروم، وأنه في انتظاره بدمشق. ثم حلف الفخري ومن معه للملك الناصر أحمد، وأمر الخطباء فدعوا له على منابر دمشق وضرب السكة باسمه.

وأما ألطنبغا الصالحي نائب دمشق فإنه وصل إلى غزة بمن معه فتلقاهم الأمير برسبغا الحاجب ورفقته؛ وكتب ألطنبغا إلى قوصون بما وقع، فلما بلغ قوصون الخبر قامت قيامته وقبض على إخوة أحمد شاد الشرابخاناه وعلى قرطاي أستادار الفخري. ثم قدم على قوصون كتاب الفخري يعتبه على إخراج أولاد أستاذه إلى قوص وقتل الملك المنصور أبي بكر، وأن الاتفاق وقع على سلطنة الملك الناصر أحمد، ويشير عليه بأن يختار بلداً يقيم بها حتى يسأل له السلطان الملك الناصر أحمد في تقليده نيابتها. فقام قوصون وقعد لما سمع ذلك، وجمع الأمراء فوقع الاتفاق على تجهيز التقادم للأمراء بغزة. فجهز قوصون لكل من ألطنبغا نائب الشام وأرقطاي نائب طرابلس ثلاثين بذلة قماش وثلاثين قباء مسنجبة بطرازات زركش ومائتي خف ومائتي كلفتاه وكسوة لجميع مماليكهما وغلمانهما وحواشيهما. وجهز لكل من الأمراء الذين معهما ثلاث بذلات وأقبية بسنجاب وكسوة لمماليكهم وحواشيهم. وأخذ قوصون في الإنعام على المماليك السلطانية، وأخرج ثلاثمائة ألف دينار من الذخيرة لتجهيز أمره، حتى يخرج بالعساكر إلى الشام. وأخرج أربعمائة قرقل وعدة زرديات وخوذ وغيرها، وأنعم على جماعة من المماليك السلطانية بإمريات، وغير إقطاعات جماعة منهم. ثم كتب قوصون إلى الأمراء بمسيرهم من غزة إلى جهة القاهرة، وهيأ لهم الإقامات والخيول، وبعث إليهم بالحلاوات والفواكه وسائر ما يليق بهم.

وبينما قوصون في ذلك إذ ركب الأمراء عليه في ليلة الثلاثاء تاسع وعشرين رجب وقت العشاء الآخرة. وسبب ركوبهم عليه تنكر قلوب الأكابر عليه لأمور بدت منه، منها: قتل الأمير بشتك الناصري بغير ذنب، وهو أعز خشداشيته، ولم يكفه ذلك حتى قتل الملك المنصور أبا بكر وهو ابن أستاذه، وكان يكفيه الخلع من الملك. ومنها قوة الوحشة بينه وبين الأمير أيدغمش

الناصري أمير آخور، وهو أكبر خشداشيته؛ فأخذ أيدغمش يدبر عليه، وغير خواطر جماعة كثيرة عليه. ثم كان من انتصار قطلوبغا الفخري على ألطنبغا الصالحي نائب الشام ما كان فكتب قطلوبغا إلى أيدغمش سراً بأنه سلطن أحمد، وحرضه على الركوب إلى الكرك بمن قدر على استمالته. وكان قوصون قد آحتفل لقدوم ألطنبغا نائب الشام ومن معه احتفالاً زائداً، وفتح ذخيرة السلطان، وأكثر من النفقات والإنعامات حتى بلغت إنعاماته على الأمراء والخاصكية ستمائة ألف دينار. فشاع بأنه يريد أن يتسلطن، فخاف أيدغمش وغيره من تحكمه في السلطنة، وحرض الأمراء الخاصكية حتى وافقه الأمير علاء الدين ألطنبغا المارداني والأمير يلبغا اليحياوي في عدة من المماليك السلطانية، وجمع كثير من أكابر الأمراء، منهم: الأمير الحاج آل ملك والأمير بدر الدين جنكلي بن البابا واتفقوا الجميع أنهم يسيروا جميعا إلى الكرك عند قدوم ألطنبغا نائب الشام وخروجهم إلى لقائه.

فلما كان يوم الإثنين ركب الأمير قوصون في الموكب تحت القلعة على العادة وطلب الأمير تلجك ابن أخته وأخرجه إلى لقاء الأمير ألطنبغا الصالحي نائب الشام - وقد ورد الخبر بنزوله على بلبيس - ليأتي به سريعاً. فوافاه ومن معه إلى بلبيس، فسأله في القدوم إلى القاهرة بسرعة، فلم يوافقه على السرعة وقصد أن يكون حضوره في يوم الخميس أول شعبان. وبات ألطنبغا ليلة الثلاثاء على بلبيس؛ وركب من الغد ونزل سرياقوس، فبلغه ركوب الأمراء على قوصون، وأنه محصور بالقلعة، فركب بمن معه إلى بركة الحاج، وإذا بطلب قوصون وسنجقه قد وافوه في نحو مائة مملوك، وأعلموه أن في نصف الليل ركبت الأمراء وآحتاطت بإسطبل قوصون، ثم حصروه في قلعة الجبل، فخرجوا هم على حمية حتى وصلوا إليهم؛ هذا ما كان من أمر ألطنبغا نائب الشام.

وأما أمر قوصون فإنه لما بعث تلجك ليأتيه بالأمير ألطنبغا نائب الشام سريعاً، تحقق أيدغمش وأصحابه أن قوصون فهم عنهم ما دبروه، فتواعد الأمير أيدغمش مع من وافقه على أن يركبوا في الليل إلى الكرك. فجهز كل منهم حاله، حتى كان ثلث الليل فتح الأمراء باب السور من قلعة الجبل ونزلوا إلى الأمير أيدغمش بالإسطبل السلطاني. ثم مضى كل واحد إلى إسطبله، فلم ينتصف الليل إلا وعامة الأمراء بأطلابهم في سوق الخيل تحت القلعة، وهم: الأمير ألطنبغا المارداني ويلبغا اليحياوي وبهادر الدمرداشي والحاج آل ملك والجاولي وقماري الحسني أمير شكار وأرنبغا وآق سنقر السلاري. وبعثوا إلى إسطبلات الأمراء مثل جنكلي بن البابا وبيبرس

الأحمدي وطرغاي وقياتمر والوزير ولبست مماليكهم وأخرجت أطلابهم. ثم خرج إليهم الأمير أيدغمش بمماليكه ومن عنده من الأوجاقية، ووقفوا جميعا ينتظرون نزول قوصون إليهم، فأحس قوصون بهم وقد آنتبه، فطلب الأمراء المقيمين بالقلعة، فأتاه منهم آثنا عشر أميراً، منهم جنكلي ابن البابا وقياتمر والوزير. ولبست مماليك قوصون التي كانت عنده بالقلعة وسألته أن ينزل ويدرك إسطبله ويجتمع بمن فيه من مماليكه، وكانوا سبعمائة مملوك، وكان قوصون يغتر بهم ويقول: " إيش أبالي بالأمراء وغيرهم! عندي سبعمائة مملوك ألقى بهم كل من في الأرض " فلم يوافقهم قوصون على النزول لما سبق في القدم.

وأقام قوصون بالقلعة إلى أن طلع النهار؛ فلما لم يظهر له حركة طمع أيدغمش فيه، وأمر الأوجاقية أن تطلع إلى الطبلخاناه السلطانية وأخرج لهم الكوسات، فدقوا حربياً. ثم نادى أيدغمش: " معاشر أجناد الحلقة ومماليك السلطان والأجناد و البطالين يحضروا، ومن ليس له فرس وليس له سلاح يحضر ويأخذ له الفرس والسلاح ويركب معنا، ويقاتل قوصون " فأتاه جماعة كثيرة من أجناد الحلقة والمماليك ما بين لابس سلاح وراكب وبين ماش وعلى حمار. وأقبلت العامة كالجراد المنتشر لما في نفوسهم من قوصون، فنادى لهم أيدغمش: " يا كسابة، عليكم بإسطبل قوصون، انهبوه " فأحاطوا به، ومماليك قوصون من أعلاه ترميهم بالنشاب حتى أتلفوا منهم عدة كثيرة؛ فركب مماليك يلبغا اليحياوي من أعلى بيت يلبغا - والبيت المذكور هو الآن موضع مدرسة السلطان حسن - وكان بيت يلبغا يشرف على بيت قوصون، فلما طلعوا مماليك يلبغا اليحياوي تسلطوا على مماليك قوصون ورموا عليهم بالنشاب مساعدة للعوام، وجرحوا منهم جماعة كثيرة وحالوا بينهم وبين العامة. فهجمت العامة عند ذلك إسطبل قوصون ونهبوا زردخاناته وحواصله وأمواله وكسروا باب قصره بالفؤوس بعد مكابدة شديدة، وطلعوا إلى القصر ونهبوا ما فيه، وقوصون ينظر ذلك من شباك القلعة ويقول: " يا مسلمين ما تحفظون هذا المال! إما أن يكون لي أو يكون للسلطان " فقال أيدغمش:!هذا شكرانه للناس، والذي عندك فوق من الجوهر والتحف يكفي السلطان ". وصار قوصون كلما هم للركوب بمماليكه كسروا عليه الخاصكية وقالوا له: " يا خوند غداً نركب ونقتل هؤلاء " وصاروا يهونوا عليه أمر أيدغمش وأصحابه لباطن كان لهم مع أيدغمش، حتى كان من أمره ما كان.

ولما هجمت العامة بيت قوصون خرجوا مماليكه منه على حمية وشقوا القاهرة،

وتوجهوا إلى عند الأمير ألطنبغا الصالحي نائب الشام، فبعث أيدغمش في أثرهم إلى ألطنبغا نائب الشام ومن معه بالسلام عليهم، وأن يمنعوا مماليك قوصون من الاختلاط بهم، فإن الأمير يلبغا اليحياوي والأمير آق سنقر قادمان في جمع كبير لأخذ مماليك قوصون وحواشيه. فأمر ألطنبغا نائب الشام مماليك قوصون وتلجك وبرسبغا الحاجب أن يكونوا على حدة؛ ولبسوا الجميع، وأخذ الأمير برسبغا مماليك قوصون وجماعته إلى جهة الجبل، فلقيهم الأمير يلبغا اليحياوي بمن معه على بعد، وكان ذلك بعدما أمسك قوصون، فسار خلفهم إلى قرب إطفيح. وقيل في أمر مماليك قوصون غير ذلك على ما سنذكره بعد القبض على قوصون.

وأما قوصون فإنه بقي واقفا بشاك القلعة والعامة تنهب في بيته؛ فلم يمض إلا ساعات من النهار حتى نهب جميع ما في إسطبله، وقوصون يضرب يداً على يد ويقول: " يا أمراء! هذا تصرف جندا! ينهب هذا المال جميعه " وكان أيدغمش قصد بذلك أن يقطع قلب قوصون. ثم بعث قوصون إلى أيدغمش يقول: " إن هذا المال عظيم وينفع المسلمين والسلطان، فكيف تفعل هذا وتنادي بنهبه؟ " فرد جوابه: " نحن قصدنا أنت، ولو راح هذا المال وأضعافه " هذا كله والقلعة مغلقة الأبواب، وجماعة قوصون يرمون من الأشرفية بالنشاب إلى أن قرب العصر، والعامة تجمع نشابهم وتعطيه لمن هو من جهة أيدغمش. فلما رأى قوصون أمره في إدبار سلم نفسه؛ ودخل عليه الأمير بلك الجمدار وملكتمر السرجواني يأمراه أن يقيم في موضع حتى يحضر ابن أستاذه من الكرك فيتصرف فيه كما يختار، فلم يجد بداً من الإذعان. وأخذ يوصي الأمير جنكلي بن البابا وأمير مسعود حاجب الحجاب على أولاده؛ فأخذ وقيد، ومضوا به إلى البرج الذي كان بشتك فيه، ورسم عليه جماعة من الأمراء. وكان الذي تولى مسكه وحبسه جنكلي بن البابا وأمير مسعود الحاجب وأرنبغا أمير جاندار.

وأما الأمير ألطنبغا الصالحي نائب الشام ومن معه فإن برسبغا وتلجك والقوصونية لما فارقوا ألطنبغا المذكور سار ألطنبغا وأرقطاي والأمراء يريدون القاهرة، وأشار ألطنبغا نائب الشام على أرقطاي نائب طرابلس أن يرد برسبغا وتلجك والقوصونية ويقاتل بهم أيدغمش: فإنه ينضم إليه جميع حواشي قوصون، ويأخذوا أيدغمش، ويخرجوا قوصون، ويقيموه كبيراً لهم، أو يخرجوه إلى حيث يختار، ويقيموا سلطاناً أو ينتظروا أحمد؛ فلم يوافقه أرقطاي على ذلك لعفته عن سفك الدماء. فلما أعيا ألطنبغا أمره سارا نحو القاهرة حتى وافيا أيدغمش وهو واقف تحت القلعة بأصحابه؛ فأقبل أيدغمش عليهما وعانقهما وأمرهما أن يطلعا إلى القلعة فطلعا. ثم أرسل أيدغمش الأمير قازان والأمير آق سنقر خلف برسبغا وتلجك ومن معهما. وجلس أيدغمش مع ثقاته من الأمراء وقرر معهم تسفير قوصون في الليل إلى الإسكندرية،

والقبض على ألطنبغا الصالحي نائب الشام وعلى أرقطاي نائب طرابلس ومن يلوذ بهما من الغد - فكان كذلك وقبض عليهم - وتسفير الأمير بيبرس الأحمدي والأمير جنكلي بن البابا لإحضار السلطان الملك الناصر أحمد من الكرك. ثم أخرج الأمير قوصون من سجنه بقلعة الجبل في ليلة الخميس مع مائة فارس حتى أوصلوه إلى النيل، وركب البحر ومضى به إلى الإسكندرية فسجن بها على ما سيأتي ذكره.

* * *

سلطنة الملك الناصر أحمد

السلطان الملك الناصر شهاب الدين أحمد ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون. تسلطن بعد خلع أخيه الأشرف كجك؛ وكان بويع بالسلطنة قبل خلع كجك أيضاً وهو بقلعة الكرك حسب ما ذكرناه في واقعة قطلوبغا الفخري مع ألطنبغا الصالحي نائب الشام. وأم الملك الناصر هذا كان آسمها بياض، كانت تجيد الغناء، وكانت من عتقاء الأمير بهادر آص رأس نوبة، وكانت تعرف بقومة، وكان للناس بها اجتماعات في مجالس أنسهم. فلما بلغ السلطان الملك الناصر خبرها طلبها، وآختص بها، وحظيت عنده، فولدت أحمد هذا على فراشه. ثم تزوجها بعد ذلك الأمير ملكتمر السرجواني في حياة الملك الناصر محمد. انتهى.

قلت: والملك الناصر أحمد هذا هو الخامس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. والآن نذكر ما وقع بالديار المصرية بعد خلع الأشرف كجك إلى حين دخول الملك الناصر هذا إليها من الكرك. ولما قبض أيدغمش على قوصون وخلع الملك الأشرف كجك من السلطنة، حسب ما تقدم ذكره، بعث بالأمير جنكلي بن البابا والأمير بيبرس الأحمدي والأمير قماري أمير شكار إلى الملك الناصر أحمد بالكرك وعلى يدهم كتب الأمراء يخبرونه بما وقع ويستدعونه إلى تخت ملكه. ثم جلس الأمير سيف الدين أيدغمش والأمير ألطنبغا المارداني والأمير بهادر الدمرداشي والأمير يلبغا اليحياوي وآستدعواي بيان ذلك في وقته. الإسكندرية فسجن بها على ما سيأتي ذكره.

وفي يوم الجمعة ثاني شعبان دعى على منابر مصر والقاهرة للسلطان الملك الناصر أحمد. وفي يوم الإثنين خامسه تجمعت العامة بسوق الخيل، ومعهم رايات صفر، وتصايحوا بالأمير أيدغمش: " زودنا لنروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجيء صحبته، فكتب لهم مرسوماً بالإقامة والرواتب في كل منزلة، وتوجهوا مسافرين من الغد. وفي يوم الأربعاء سابع شعبان وصل الأمراء من سجن الإسكندرية الذين كان سجنهم قوصون حتى أفرج عنهم أيدغمش، وهم الأمير ملكتمر الحجازي وقطليجا الحموي وأربعة وخمسون نفراً من المماليك الناصرية. وكان قوصون لما دخل إلى الإسكندرية مقيداً وافوه هؤلاء بعد أن أطلقوا فسلموا عليه سلام شامت فبكى قوصون واعتذر لهم بما صدر منه في حقهم. وعندما قدموا إلى ساحل مصر ركب الأمراء إلى لقائهم، وخرجت الناس لرؤيتهم فكان لقدومهم يوم مشهود، حتى طلعوا إلى القلعة فتلقت خوند الحجارية بنت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون زوجها ملكتمر

الحجازي بخدامها وجواريها، ومغانيها تضرب بالدفوف والشبابات فرحاً به. ومعها أختها زوجة بشتك تساعدها بالفرح وهي شامتة بقوصون لكونه قتل زوجها بشتك الناصري قبل تاريخه هذا. وأختها بنت الملك الناصر الأخرى زوجة قوصون بجانبها في عويل وبكاء وصياح ولطم على قوصون. وقد آفترق جواري الملك الناصر وأولاده فرقتين، فرقة مع الحجازية وفرقة مع القوصونية؛ والعجب أن هذا الفرح والعزاء كان قبل ذلك بالعكس، فكان العزاء إذ ذاك في بيت الحجازي، والفرح في بيت قوصون، والآن العزاء في بيت قوصون والفرح في بيت الحجازي، وزوجة بشتك، وإن كان فرط في زوجها الفرط، فهي تساعد أختها الحجازية شماتة بقوصون، فحالها كقول من قال:

وما من حبه أحنو عليه ::: ولكن بغض قوم آخرين

فآنظر إلى هذا الدهر وتقلباته بأسرع وقت من حال إلى حال، فنعوذ بالله من زوال النعم.

ثم قدم بعد ذلك كتب الأمراء المتوجهين إلى الكرك لإحضار الملك الناصر، بأنهم لما قربوا من الكرك بعث كل منهم مملوكه يعرف السلطان الملك الناصر بحضورهم إلى الكرك، فبعث إليهم الملك الناصر رجلا نصرانياً من نصارى الكرك يقول: " يا أمراء، السلطان يقول لكم: إن كان معكم كتب فهاتوها، أو مشافهة فقولوها " فدفعت الكتب إلى النصراني، فمضى بها ثم عاد من آخر النهار بكتاب مختوم وقال عن السلطان: " سلم على الأمراء وعرفهم أن يقيموا بغزة حتى يرد عليهم ما يعتمدوه ". وحضر مملوك من قبله يأمر الأمير قماري بالإقامة على ناحية صافيثا، ثم بعث إلى الأمراء بخاتم وكتاب يتضمن إقامتهم على غزة والاعتذار عن لقائهم فعاد جنكلي والأحمدي إلى غزة، وتوجه قماري إلى ناحية صافيثا. فلما وقف الأمير أيدغمش على ذلك كتب من فوره إلى الأمير قطلوبغا الفخري يسأله أن يصحب السلطان الملك الناصر في قدومه إلى مصر ليجلس على تخت ملكه. ثم كتب أيدغمش للأمراء بغزة بالإقامة بها في آنتظار السلطان، وعرفهم بمكاتبة الفخري. وأخذ أيدغمش في تجهيز أمور السلطنة، وأشاع قدوم السلطان خوفاً من إشاعة ما عامل الناصر أحمد به الأمراء فيفسد عليه ما دبره. فلما قدم البريد بكتاب أيدغمش إلى دمشق وافى قدوم كتاب السلطان أيضاً من الكرك يتضمن القبض على طرنطاي البجمقدار والأمير طينال، وحمل مالهم إلى الكرك. وكان قطلوبغا الفخري قد ولى طينال نيابة طرابلس، وطرنطاي نيابة حمص، فآعتذر الفخري بأن طينال في شغل بحركة الفرنج، وأشار عليه بألا يحرك ساكناً في هذا الوقت، وسأله سرعة حضور السلطان ليسير بالعساكر في ركابه إلى مصر، وأكثر الفخري من مصادرة الناس بدمشق.

ثم قدم الأمير طشتمر الساقي، المعروف بحمص أخضر نائب حلب كان، من بلاد الروم إلى الشام فتلقاه الفخري وأنزله في مكان يليق به؛ وكان في كتاب الناصر أنه لا يخرج من الكرك حتى يحضر الأمير طشتمر من بلاد الروم، فكتب الفخري بحضوره إلى الناصر وأنه يسرع في مجيئه إلى دمشق. وأخذ الفخري أيضاً في تجهيز ما يحتاج السلطان إليه، وفي ظنه أن السلطان يسير إليه بدمشق فيركب في خدمته بالعساكر إلى مصر؛ فلم يشعر الفخري إلا وكتاب السلطان قد ورد عليه مع بعض الكركيين يتضمن أنه يركب من دمشق ليجتمع مع السلطان على غزة، فشق ذلك عليه، وسار من دمشق بعساكرها وبمن آستخدمه حتى قدم غزة في عدة كبيرة، فتلقاه الأمير جنكلي والأحمدي وقماري أمير شكار.

وأما أمر الديار المصرية فإن الأميرين يلبغا اليحياوي وملكتمر الحجازي تفاوضا في الكلام حتى بلغا إلى المخاصمة، وصار لكل منهما طائفة، ولبسوا آلة الحرب. فتجمعت الغوغاء تحت القلعة لنهب بيوت من عساه ينكسر من الأمراء، فلم يزل الأمير أيدغمش بالأمراء حتى انكفوا عن القتال، وبعث إلى العامة عدة من الأوجاقية، فقبضوا على جماعة منهم وأودعهم بالسجن.

ثم في يوم الخميس سابع شهر رمضان قدم أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون من قوص إلى القاهرة، وعدتهم ستة، فركب الأمراء إلى لقائهم وهرعت العامة إليهم. فخرجوا من الحراقة وركبوا الخيول إلى القرافة حتى جاؤوا تربة جركتمر، فصاحت العامة: " هذه تربة الذي قتل أستاذنا الملك المنصور " وهجموها وأخذوا ما فيها وأخربوها حتى صارت كوم تراب. فلما وصل أولاد السلطان تحت القلعة وافاهم الأمير جمال الدين يوسف والي القاهرة كان، فنزل وقبل ركبة رمضان ابن الملك الناصر، فرفسه برجله وسبه وقال له: أتنسى ونحن في الحراقة عند توجهنا إلى قوص، وقد طلبنا مأكلاً من الجيزة، فقلت خذوهم وروحوا إلى لعنة الله ما عندنا شيء! فصاحت بهم العامة: بالله مكنا من نهبه، هذا قوصوني! فأشار بيده أن انهبوا بيته، فتسارعوا في الحال إلى بيته المجاور لجامع الظاهر بالحسينية، حتى صاروا منه إلى باب الفتوح، فقامت إخوته ومن يلوذ به في دفع العامة بالسلاح، وبعث الأمير أيدغمش أيضاً لجماعة ليردوهم عن النهب، وخرج إليهم نجم الدين والي القاهرة؛ وقد تقاتل القوم حتى كفهم عن القتال، فكان يوماً مهولاً، قتل فيه من العامة عشرة رجال، وجرح خلق كثير، ولم ينتهب شيء.

فلما كان يوم الإثنين عاشره لبس السلطان شعار السلطنة وجلس على تخت الملك. وحضر الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد، وقضاة مصر الأربعة، وقضاة دمشق الأربعة، وجميع الأمراء والمقدمين. وبايعه الخليفة بالسلطنة، وقبلوا الأرض

بين يديه على العادة. ثم قام السلطان على قدميه، فتقدم الأمراء وباسوا يده واحداً بعد واحد على قدر مراتبهم. وجاء الخليفة بعدهم وقضاة القضاة ما عدا القاضي حسام الدين الغوري الحنفي: فإنه لما طلع مع القضاة وجلسوا بجامع القلعة حتى يؤذن لهم على العادة جمع عليه بعض صبيان المطبخ جمعاً من الأوباش لحقد كان في نفسه منه عندما تحاكم هو وزوجته عنده قبل ذلك، فأهانه القاضي المذكور؛ فلما وجد الطباخ الفرصة هجم عليه بأوباشه، ومد يده إلى الغوري من بين القضاة، وأقاموه وحرقوا عمامته في حلقه، وقطعوا ثيابه وهم يصيحون: يا قوصوني! ثم ضربوه بالنعال ضرباً مبرحاً، وقالوا له: يا كافر يا فاسق! فآرتجت القلعة، وأقبل علم دار حتى خلصه منهم وهو يستغيث: يا مسلمين! كيف يجري هذا على قاض من قضاة المسلمين؟. فأخذ المماليك جماعة من تلك الأوباش، وجروهم إلى الأمير أيدغمش فضربهم، وبعث طائفة من الأوجاقية ساروا بالغوري إلى منزله، ولم يحضر الموكب. وثارت العامة على بيته بالمدرسة الصالحية ونهبوه، فكان يوماً شنيعاً.

ولما توجه الفخري وأيدغمش وغيرهما من الديار المصرية وبقي الأمير طشتمر الساقي حمص أخضر نائب السلطنة بالقاهرة قبض عليه السلطان بعد خروج الفخري بخمسة أيام، وذلك في يوم السبت العشرين من ذي القعدة.

وسبب القبض على طشتمر أنه بقي يعارض السلطان بحيث إنه كان يرد مراسيمه ويتعاظم على الأمراء والأجناد تعاظماً زائداً؛ وكان إذا شفع عنده أحد من الأمراء في شفاعة لا يقبلها؛ وكان لا يقف لأمير إذا دخل عليه، وإذا أتته قصة عليها علامة السلطان بإقطاع أو غيره أخذ ذلك وطرد من هي بآسمه، وأخرق به. وقرر طشتمر مع السلطان أنه لا يمضي من المراسيم إلا ما يختاره، ورسم للحاجب بألا يقدم أحد قصة للسلطان إلا أن يكون حاضراً، فلم يتجاسر أحد أن يقدم قصة للسلطان في غيبته. وأخذ إقطاع الأمير بيبرس الأحمدي وتقدمته لولده، فكرهته الناس. وصارت أرباب الدولة وأصحاب الأشغال كلها في بابه، وتقربوا إليه بالهدايا والتحف. وانفرد بتدبير الملك، وحط على الكركيين و قصد منعهم من الدخول على السلطان، فلم يتهيأ له ذلك. وكان ناصر الدين المعروف بفار السقوف قد توصل إلى الكركيين حتى استقر إمام السلطان يصلى به الخمس وصار كذلك ناظر المشهد النفيسي عوضاً عن تقي الدين علي ابن القسطلاني خطيب جامع عمرو وجامع القلعة؛ وخلع عليه السلطان بغير علم طشتمر النائب، فبعث إليه طشتمر عدة نقباء ونزع الخلعة من عليه وسلمه إلى المقدم إبراهيم بن صابر، وأمر بضربه وإلزامه بحمل مائة ألف درهم فضربه ابن صابر ضرباً مبرحاً واستخرج منه أربعين ألف درهم. ثم أفرج عنه بشفاعة أيدغمش والفخري فيه، بعدما أشهد عليه أنه لا يطلع القلعة. ثم أخذ قصير

معين من مباشري قوصون وأحاط بما فيه من القنود والأعسال والسكر وغير ذلك. فعظم ما فعله على السلطان وعلى الأمراء، فإنه خرج عن الحد، إلى أن قرر السلطان مع مقدم المماليك عنبر السحرتي والأمير آق سنقر السلاري في القبض على طشتمر وعلى قطلوبغا الفخري، وأن يستدعي مماليك بشتك وقوصون وينزلهم بالأطباق من القلعة ويعطيهم إقطاعات بالحلقة ليصيروا من جملة مماليك السلطان خوفاً من حركة طشتمر النائب.

ثم رتب السلطان عنده مماليك بداخل القصر للقبض على طشتمر أيضاً. وكان مما جدد طشتمر في نيابته أن منع الأمراء أن تدخل مماليكها إلى القصر، وبسط من باب القصر بساطاً إلى داخله كما كان في الأيام الناصرية، فصار الأمير لا يدخل إلى القصر إلا بمفرده، فكان ما دبره عليه. ثم دخل هو أيضاً بمفرده ومعه ولداه إلى القصر، وجلس على السماط على العادة؛ فعندما رفع السماط قبض كشلي السلاح دار أحد المماليك السلطانية، وكان معروفا بالقوة، على كتفيه من خلف ظهره قبضاً عنيفاً، ثم بدر إليه جماعة من المماليك وأخذوا سيفه وقيدوه وقيموا ولديه ونزل أمير مسعود الحاجب في عدة من المماليك السلطانية فأوقع الحوطة على بيته وأخذ مماليكه فسجنهم. ثم خرج في الحال ساعة القبض على طشتمر الأمير ألطنبغا المارداني والأمير أرنبغا أمير سلاح ومعهما من أمراء الطبلخاناه والعشرات نحو خمسة عشر أميراً ومعهم أيضاً من المماليك السلطانية وغيرهم ألف فارس، وتوجهوا ليقبضوا على الأمير قطلوبغا الفخري. وكتب السلطان، للأمير آق سنقر الناصري نائب غزة بالركوب معهم بعسكره وجميع من عنده ومن هو في معاملته. وكان الفخري قد ركب من الصالحية، فبلغه مسك طشتمر ومسير العسكر إليه من هجان بعث به إليه بعض ثقاته، فساق إلى قطيا وأكل بها شيئاً، ثم رحل مسرعاً حتى دخل العريش فإذا آق سنقر بعسكره في انتظاره على الزعقة، وكان ذلك وقت الغروب، فوقف كل منهما تجاه صاحبه حتى أظلم الليل، فسار الفخري بمن معه وهم ستون فارساً على البرية. فلما أصبح آق سنقر علم أن الفخري فاته، ومال أصحابه على أثقال الفخري فنهبوها وعادوا إلى غزة. واستمر الفخري سائراً ليلته، ومن الغد حتى آنتصف النهار وهو سائق، فلم يتأخر معه إلا سبعة فرسان، ومبلغ أربعة آلاف وخمسمائة دينار، وقد وصل يبنى وعليها الأمير أيدغمش وهو نازل؛ فترامى عليه الفخري وعرفه بما جرى، وأنه قطع خمسة عشر بريداً في مسير يوم واحد. فطيب أيدغمش خاطره، وأنزله في خيمة وقام له بما يليق به. فلما جنه الليل أمر به فقيد وهو نائم، وكتب بذلك إلى السلطان مع بكا الخضري. وكان السلطان لما بلغه هروب الفخري تنكر على الأمراء وآتهمهم بالمخامرة عليه، وهم في يوم الإثنين أن يمسكهم، فتأخر عن الخدمة

الجاولي في يوم الإثنين المذكور، وهو تاسع وعشرين ذي القعدة وتأخر معه جماعة كبيرة. فلما كان وقت الظهر بعث لكل أمير طائر إوز مشوي وسأل عنهم؛ ثم بعث إليهم آخر النهار أن يطلعوا من الغد. فجاء بكا الخضري عشية يوم الثلاثاء مستهل ذي الحجة، ومعه البشارة بالقبض على سيف الدين قطلوبغا الفخري، فسر السلطان بذلك، وكتب بحمله إلى الكرك. فلما طلع الأمراء إلى الخدمة في يوم الثلاثاء ترضاهم السلطان وبشرهم بمسك الفخري، ثم أخبرهم أنه عزم على التوجه إلى الكرك. وتجهز السلطان وأخذ الأموال صحبته، وأخرج الأمير طشتمر حمص أخضر مقيداً في محارة في ليلة الأربعاء ومعه جماعة من المماليك السلطانية موكلون به.

ثم تقدم السلطان إلى الخليفة، بعدما ولاه نظر المشهد النفيسي عوضاً عن ابن القسطلاني، أن يسافر معه إلى الكرك. ورسم لجمال الكفاة ناظر الجيش والخاص وللقاضي علاء الدين علي بن فضل الله العمري كاتب السر أن يتوجها معه إلى الكرك. ثم ركب السلطان ومعه الأمراء من قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثانيه بعدما أمر ثمانية من المماليك السلطانية وخلع عليهم على باب الخزانة، وخلع على الأمير شمس الدين آق سنقر السلاري وقرره نائب الغيبة، وخلع على شمس الدين محمد بن عدلان باستقراره قاضي العسكر، وخلع على زين الدين عمر بن كمال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر البسطامي واستقر به قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية عوضاً عن حسام الدين الغوري. فلما سار السلطان حتى قرب قبة النصر خارج القاهرة وقف حتى قبل الأمراء يده على مراتبهم ورجعوا عنه، فنزل في الحال عن فرسه، ولبس ثياب العربان وهي كاملة مفرجة وعمامة بلثامين، وساير الكركيين في طريقه، وترك الأمراء الذين معه وهم قماري وملكتمر الحجازي وأبو بكر وعمر ابنا أرغون النائب مع المماليك السلطانية والطلب. وتوجه على البرية إلى الكرك وليس معه إلا الكركيون ومملوكان، وهم في أثره، فقاسوا مشقة عظيمة من العطش وغيره حتى وصلوا ظاهر الكرك، وقد سبقهم السلطان إليها، وقدمها في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة. وكتب السلطان، للأمراء بالديار المصرية يعرفهم بذلك وسلم عليهم، فقدم كتابه القاهرة في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة.

ولما دخل الملك الناصر أحمد إلى الكرك لم يمكن أحداً من العسكر أن يدخل المدينة سوى علاء الدين علي بن فضل الله، كاتب السر وجمال الكفاة ناظر الجيش والخاصي فقط. ورسم أن يسير الأمير المقدم عنبر السحرتي بالمماليك السلطانية إلى قرية الخليل عليه السلام، وأن يسير قماري وعمر ابن النائب أرغون والخليفة إلى القدس الشريف. ثم رسم السلطان لمقدم المماليك عنبر السحرتي أن ينتقل بالمماليك السلطانية من الخليل إلى غزة لغلاء الأسعار بالخليل. وفي أثناء ذلك وصل أمير علي

بن أيدغمش بالفخري مقيداً إلى غزة وبها العساكر، فبعث السلطان إليه من تسلم منه الفخري وأعاد ابن أيدغمش إلى أبيه ولم يجتمع به. فسجن السلطان قطلوبغا الفخري وطشتمر حمص أخضر بقلعة الكرك بعدما نكل بالفخري وأهين من العامة إهانة زائدة. ثم كتب السلطان لآق سنقر السلاري نائب الغيبة بإرسال حريم الفخري إلى الكرك، وكانوا قد ساروا من القاهرة بعد مسير الفخري بيوم، فجهزهن إليه؛ فأخذ أهل الكرك جميع ما معهن حتى ثيابهن، وبالغوا في الفحش بهن والإساءة. ثم كتب السلطان لآق سنقر السلاري نائب الغيبة بالديار المصرية أن يوقع الحوطة على موجود طشتمر حمص أخضر وقطلوبغا الفخري، ويحمل ذلك إليه بالكرك. وكان شأن الملك الناصر أحمد أنه إذا رسم بشيء جاء كاتب كركي لكاتب السر وعرفه عن السلطان بما يريد، فيكتب كاتب السر ذلك ويناوله للكاتب الكركي حتى يأخذ عليه علامة السلطان، ويبعثه حيث يرسم به؛ هذا ما كان من أمر الملك الناصر.

أما العسكر المتوجه من القاهرة إلى غزة فإن ابن أيدغمش لما قدم عليهم بمدينة غزة ومعه الفخري أراد الأمير علاء الدين ألطنبغا المارداني أن يؤخره عنده بغزة حتى يراجع فيه السلطان فلم يوافقه ابن أيدغمش، وتوجه به إلى الكرك، فرحل ألطنبغا المارداني وبقية العساكر عند ذلك إلى جهة الديار المصرية، فقدموها يوم السبت سادس عشرين ذي الحجة. وآنعكف السلطان على اللهو وآحتجب عن الناس إلا الكركيين. ثم بلغه تغير خواطر الأمراء فأخذ في تحصين قلعة الكرك ومدينتها وأشحنها بالغلال والأقوات والأسلحة.

ثم قدم كتاب السلطان للأمراء يطيب خواطرهم ويعرفهم أن مصر والشام والكرك له، وأنه حيثما شاء أقام، ورسم أن تجهز له الأغنام من بلاد الصعيد. فتنكرت قلوب الأمراء، ونفرت خواطرهم وتكفلوا فيما بينهم في خلعه، حتى اتفق الأمراء على خلعه من السلطنة، وإقامة أخيه إسماعيل ابن الملك الناصر محمد، فخلع في يوم الأربعاء حادي وعشرين المحرم من سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فكانت مدة ولايته ثلاثة أشهر وثلاثة عشر يوماً، منها مدة إقامته بمدينة الكرك - ومراسيمه نافذة بمصر - أحد وخمسين يوماً. وإقامته بمصر شهران إلا أيام.

وكان الملك الناصر أحمد هذا قد أخرجه أبوه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصرية إلى الكرك وهو صغير، لعله لم يبلغ العشر سنين، فربي بالكرك وأحب أهلها وصارت له وطناً؛ وكان نائب الكرك إذ ذاك ملكتمر السرجواني زوج أمه. ثم أرسل إليه أبوه أخويه: إبراهيم وأبا بكر المنصور، فأقاموا الجميع بالكرك إلى أن طلبهم والدهم، وأعاد الناصر هذا إلى الكرك ثم طلبه ثانياً وزوجه ببنت الأمير طايربغا من أقارب الملك الناصر، ثم أعاده إلى الكرك.

وكان الناصر هذا أحسن إخوته وجهاً وشكلاً، وكان صاحب لحية كبيرة وشعر غزير؛ وكان ضخماً شجاعاً صاحب بأس وقوة مفرطة، وعنده شهامة مع ظلم وجبروت؛ وهو أسوأ أولاد الملك الناصر سيرة مع خفة وطيش.

* * *

سلطنة الملك الصالح إسماعيل

على مصر السلطان الملك الصالح عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون؛ وهو السلطان السادس عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع من بني محمد بن قلاوون. جلس على تخت الملك في يوم الخميس ثاني وعشرين المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة بعد خلع أخيه الملك الناصر أحمد باتفاق الأمراء على ذلك لما بلغهم عن حسن سيرته؛ فإنه قيل للأمراء، لما أخرج قوصون أولاد الملك الناصر إلى قوص: كان إسماعيل هذا يصوم يومي الإثنين والخميس، ويشغل أوقاته بالصلاة وقراءة القرآن، مع العفة والصيانة عما يرمى به الشباب من اللهو واللعب. فلما بلغهم ذلك آتفقوا على إقامته في الملك، وسلطنوه وحلفوا له الأمراء والعساكر، وحلف لهم أيضاً السلطان الملك الصالح إسماعيل المذكور ألا يؤذي أحداً وألا يقبض على أمير بغير ذنب. فتم أمره، ولقب بالملك الصالح، ودقت البشائر، ونودي بزينة القاهرة ومصر.

وقدم الخبر من شطي أمير العرب بأن الملك الناصر أحمد قرر مع بعض الكركيين أنه يدخل إلى مصر ويقتل السلطان، فتشوش الأمراء لذلك، ووقع الاتفاق على تجريد العساكر لقتال الملك الناصر وأخذه من الكرك. وفي يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر توجهت التجريدة إلى الكرك صحبة الأمير بيغرا، وهذه أول التجاريد إلى الكرك لقتال الملك الناصر أحمد. وفي عقيب ذلك حدث للسلطان رعاف مستمر فاتهمت أمه أم السلطان الأشرف كجك خوند أردو بأنها سحرته، وهجمت عليها، وأوقعت الحوطة على موجودها، وضربت عدة من جواريها ليعترفن عليها، فلم يكن غير قليل حتى عوفي السلطان، ورسم بزينة القاهرة؛ وحملت أم السلطان إلى المشهد النفيسي قنديل ذهب، زنته رطلان وسبع أواق ونصف أوقية.

ثم قدم الخبر على يد إياز الساقي بموت الأمير أيدغمش نائب الشام فجأة، فوقع الاختيار على استقرار الأمير طقزدمر الحموي نائب حلب مكانه في نيابة الشام، وأستقر الأمير ألطنبغا المارداني عوضاً عن طقزدمر في نيابة حلب؛ وآستقر الأمير يلبغا اليحياوي في نيابة حماة عوضاً عن المارداني.

ثم أنعم السلطان على أرغون العلائي بإقطاع الأمير قماري بعد موته وكتب السلطان لنائب صفد وغزة بالنجدة للأمير بيغرا لحصار الملك الناصر بالكرك.

ثم قدم الخبر من أمير العرب شطي بن عبية، إنه ركب مع العسكر على مدينة الكرك وقاتلوا أهل الكرك وهزموهم إلى القلعة، وأن الملك الناصر أذعن وسأل أن يمهل حتى يكتب إلى السلطان ليرسل من يتسلم منه قلعة الكرك، فرجعوا عنه؛ فلم يكن غير

قليل حتى استعد الملك الناصر وقاتلهم.

وفي يوم الإثنين سادس عشره وصل قاصد الأمير بيغرا المتوجه إلى الكرك بمن معه من العساكر بعد ما حاربوا الملك الناصر أحمد بالكرك وقاتلوه قتالاً شديداً، وجرح منهم جماعة وقلت أزوادهم. فكتب السلطان بإحضارهم إلى الديار المصرية. وفيه خلع السلطان على طرنطاي البشمقدار بنيابة غزة عوضاً عن الأمير علم الدين سنجر الجاولي، وكتب بقدوم الجاولي إلى مصر. وفي يوم الثلاثاء رابع عشرينه وسط السلطان تكا الخضري بسوق الخيل تحت القلعة ووسط معه مملوكين من المماليك السلطانية. وفي هذا الشهر وقف السلطان الملك الصالح صاحب الترجمة ثلثي ناحية سنديس من القليوبية على ستة عشر خادماً لخدمة الضريح الشريف النبوي عليه الصلاة والسلام، فتمت عدة خدام الضريح الشريف النبوي بذلك أربعين خادماً.

قلت لله دره فيما فعل! وعلى هذا تحسد الملوك لا على غيره.

ثم اتفق الأمراء مع السلطان على إخراج تجريدة ثانية لقتال الملك الناصر بالكرك. فلما كان عاشر شعبان خرج الأمير بيبرس الأحمدي والأمير كوكاي في ألفي فارس تجريدة للكرك. وكتب السلطان أيضاً بخروج تجريدة من الشام مضافاً إلى من خرج من الأمراء والعساكر من الديار المصرية؛ وتوجه الجميع، ونصبت المناجيق على الكرك وجدوا في حصارها.

وأما الملك الصالح فإنه بعد خروج التجريدة خلع على جمال الكفاة، بعدما عزل وصودر، بآستقراره مشير الدولة بسؤال وزير بغداد نجم الدين محمود في ذلك بعد أن أعيد إلى الوزارة، ونزلا معاً بتشاريفهما.

وخرج الأمير بلك على البريد إلى المجردين إلى الكرك فأدركهم على السعيدية، وطيب خواطرهم وأعلمهم بالقبض على الأمراء، وعاد سريعا؛ فقدم قلعة الجبل طلوع الشمس من يوم الخميس حادي عشره، وبعد وصوله قبض السلطان على طيبغا الدوادار الصغير. وكان سبب قبض السلطان على هؤلاء الأمراء أن الأمير آق سنقر كان في نيابته لا يرد قاصداً ولا قصة ترفع إليه؛ فقصده الناس من الأقطار وسألوه الرزق والأراضي التي أنهوا أنها لم تكن بيد أحد، وكذلك نيابة القلاع والأعمال والرواتب وإقطاعات الحلقة، فلم يرد أحداً سأله شيئاً من ذلك، سواء أكان ما أنهاه صحيحاً أم باطلاً، فإذا قيل له: هذا الذي سأله يحتاج أن يكشف عنه تغير وجهه وقال: " ليش تقطع رزق الناس؟ "؛ وكان إذا كتب الإقطاع لأحد فحضر صاحبه من سفره أو تعافى من مرضه وسأله في إعادة إقطاعه قال له: " هذا أخذ إقطاعك ونحن نعوضك ". ففسدت الأحوال لا سيما البلاد الشامية، فكتب النواب بذلك للسلطان،

فكلمه السلطان فلم يرجع وقال: كل من طلب مني شيئاً أعطيته، وما أرد قلمي عن أحد، بحيث إنه كان تقدم إليه القصة وهو يأكل فيترك أكله، ويكتب عليها من غير أن يعلم ما فيها؛ فأغلظ له بسبب ذلك الأمير شمس الدين آق سنقر الناصري أمير آخور؛ واتفق مع ذلك أنه وشي به أنه مباطن مع الملك الناصر أحمد، وأن كتبه تصل إليه، فقرر أرغون العلائي مسكه مع السلطان، فأمسك هو وحاشيته، هذا ما كان من أمره.

وفي يوم السبت خامس وعشرين صفر قدم الأمير بيبرس الأحمدي والأمير كوكاي بمن معهما من المجردين إلى الكرك، فركب الأمراء إلى لقائهم؛ وآستمر الأمير أصلم على حصار الكرك، وهي التجريدة الثانية للكرك. وعرفوا الأمراء السلطان أنه لا بد من خروج تجريدة ثالثة سريعاً تقوية لأصلم لئلا يتنفس الناصر وحتى يدوم الحصار عليه. فعين السلطان جماعة من أعيان الأمراء وتجهزوا وخرجوا في يوم الإثنين رابع شهر ربيع الآخر، وهم الأمير جنكلي بن البابا والأمير آق سنقر الناصري الأمير آخور ملكتمر السرجواني والأمير عمر بن أرغون النائب في أربعة آلاف فارس تقوية لأصلم، وهذه التجريدة الثالثة إلى الكرك. وتوجه صحبتهم عدة حجارين ونجارين ونقابين ونفطية، وخرج السلطان أيضاً في يوم سفرهم إلى سرياقوس على العادة كالمودع لهم.

وفي هذه الأيام آشتد نائب السلطنة الحاج آل ملك على والي القاهرة ومصر في بيع الخمور وغيره من المحرمات، وعاقب جماعة كثيرة على ذلك؛ وكان هذا دأب النائب من يوم أخرب خزانة البنود في العام الماضي وأراق خمورها وبناها مسجداً، وحكرها للناس فعمروها دوراً. وكان الذي يفعل في خزانة البنود من المعاصي والفسق يستحى من ذكره، فعف الناس في أيام نيابة آل ملك المذكور عن كثير من المعاصي خوفاً منه. وآستمر على ما هو عليه من تتبع الفواحش والخواطىء وغير ذلك حتى إنه نادى: من أحضر سكراناً واحداً معه جرة خمر خلع عليه فقعد العامة لشربة الخمر بكل طريق؛ وأتوه مرة بجندي قد سكر فضربه وقطع خبزه وخلع على من قبض عليه. ووقع له أمور مع بيعة الخمر يطول الشرح في ذ كرها.

وكان يجلس في شباك النيابة طول النهار لا يمل من الحكم ولا يسأم، وتروح أصحاب الوظائف ولا يبقي عنده إلا النقباء البطالة حتى لا يفوته أحد، وصار له مهابة عظيمة وحرمة كفت الناس عن أشياء كثيرة حتى أعيان الأمراء.

وفي يوم الثلاثاء سابع عشر جمادى الأولى قدم الأمير أصلم و أبو بكر بن أرغون النائب وأرنبغا من تجريدة الكرك بغير إذن، وآعتذروا بضعف أبدانهم وكثرة الجراحات في أصحابهم وقلة الزاد عندهم؛ فقبل السلطان عذرهم، ورسم بسفر طقتمر

الصلاحي وتمر الموساوي في عشرين مقدماً من الحلقة وألفي فارس نجدة لمن بقي من الأمراء على حصار الكرك، فساروا في سلخه. وهذه التجريدة الرابعة بل الخامسة؛ فإنه تكرر رواح الأمراء في تلك التجريدة مرتين.

ثم بعد مدة رسم السلطان بتجهيز الأمير علم الدين سنجر الجاولي والأمير أرقطاي والأمير قماري الأستادار وعشرين أمير طبلخاناه وثلاثين مقدم حلقة، فساروا يوم الثلاثاء خامس عشر شوال في ألفي فارس إلى الكرك، وهي التجريدة السادسة؛ وتوجه معهم أيضاً عدة حجارين ونقابين ونفطية وغير ذلك.

ثم رسم السلطان بإحضار المجردين إلى الكرك وعين عوضهم تجريدة أخرى إلى الكرك، وهي التجريدة السابعة، فيها الأمير بيبرس الأحمدي والأمير كوكاي وعشرون أمير طبلخاناه وستة عشر أمير عشرة؛ وكتب بخروج عسكر أيضاً من دمشق ومعهم المنجنيق والزحافات. وحمل إلى الأحمدي مبلغ ألفي دينار، وكذلك لكوكاي، ولكل أمير طبلخاناه خمسمائة دينار، ولكل أمير عشرة مائتي دينار؛ وأرسل أيضاً مع الأحمدي أربعة آلاف دينار لمن عساه ينزل إليه من قلعة الكرك طائعاً، وجهز معه تشاريف كثيرة، وعينت لهم الإقامات؛ وكان الوقت شتاء، فقاسوا من الأمطار مشقات كثيرة، وأقاموا نحو شهرين، وخرج معهم ستة آلاف رأس من البقر ونحو مائتي رأس جاموس ونحو ألفي راجل؛ فآستعد لهم الملك الناصر، وجمع الرجال وأنفق فيهم مالاً كثيراً، وفرق فيهم الأسلحة المرصدة بقلعة الكرك. وركب المنجنيق الذي بها، ووقع بينهم القتال والحصار إلى ما سيأتي ذكره.

هذا وقد استهم السلطان في أول سنة خمس وأربعين وسبعمائة بتجريدة ثامنة إلى الكرك، وعين فيها الأمير منكلي بغا الفخري والأمير قماري والأمير طشتمر طلليه؛ ولم يجد السلطان في بيت المال ما ينفقه عليهم، فأخذ مالاً من تجار العجم ومن بنت الأمير بكتمر الساقي على سبيل القرض وأنفق فيهم. وخرج المجردون في يوم الثلاثاء حادي عشر المحرم سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وهؤلاء نجدة لمن توجه قبلهم خوفاً أن يمل من كان توجه من القتال، فيجد الناصر فرجاً بعودهم عنه. وقطعت الميرة عن الملك الناصر، ونفدت أمواله من كثرة نفقاته، فوقع الطمع فيه. وأخذ بالغ - وكان أجل ثقاته - في العمل عليه، وكاتب الأمراء ووعدهم بأنه يسلم إليهم الكرك، وسأل الأمان. فكتب إليه من السلطان أمان وقدم إلى القاهرة ومعه مسعود وابن أبي الليث، وهما أعيان مشايخ الكرك؛ فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وكتب لهم مناشير بجميع ما طلبوه من الإقطاعات والأراضي؛ وكان من جملة ما طلبه بالغ وحده نحو أربعمائة وخمسين ألف درهم في السنة، وكذلك أصحابه. ثم أعيدوا إلى الكرك بعدما حلفوا ثم ركب العسكر للحرب، وخرج الكركيون فلم يكن

غير ساعة حتى آنهزموا منهم إلى داخل المدينـة، فدخل العسكر أفواجاً واستوطنوها، وجدوا في قتال أهل القلعة عدة أيام، والناس تنزل إليهم منها شيئاً بعد شيء حتى لم يبق عند الملك الناصر أحمد بقلعة الكرك سوى عشرة أنفس، فأقام يرمي بهم على العسكر وهو يجد في القتال ويرمي بنفسه، وكان قوي الرمي شجاعاً، إلى أن جرح في ثلاثة مواضع. وتمكنت النقابة من البرج وعلقوه وأضرموا النار تحته، حتى وقع. وكان الأمير سنجر الجاولي قد بالغ أشد مبالغة في الحصار وبذل فيه مالاً كثيراً.

ثم هجم العسكر على القلعة في يوم الإثنين ثاني عشرين صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة فوجدوا الناصر قد خرج من موضع وعليه زردية، وقد تنكب قوسه وشهر سيفه. فوقفوا وسلموا عليه، فرد عليهم وهو متجهم، وفي وجهه جرح وكتفه أيضاً يسيل دماً. فتقدم إليه الأمير أرقطاي والأمير قماري في آخرين، وأخذوه ومضوا به إلى دهليز الموضع الذي كان به وأجلسوه، وطيبوا قلبه وهو ساكت لا يجيبهم، فقيدوه ووكلوا به جماعة، ورتبوا له طعاماً، فأقام يومه وليلته. ومن باكر الغد يقدم إليه الطعام فلا يتناول منه شيئاً إلى أن سألوه أن يأكل، فأبى أن يأكل حتى يأتوه بشاب يقال له عثمان، كان يهواه، فأتوه به فأكل عند ذلك. وخرج الأمير ابن بيبغا حارس طير بالبشارة إلى السلطان الملك الصالح، وعلى يده كتب الأمراء، فقدم قلعة الجبل في يوم السبت ثامن عشرين صفر، فدقت البشائر سبعة أيام.

وأخرج السلطان منجك اليوسفي الناصري السلاح دار ليلاً من القاهرة على البخت لقتل الملك الناصر أحمد من غير مشاورة الأمراء في ذلك؛ فوصل إلى الكرك وأدخل على الملك الناصر من أخرج الشاب من عنده، ثم خنقه في ليلة رابع شهر ربيع الأول، وقطع رأسه، وسار من ليلته ولم يعلم الأمراء ولا العسكر بشيء من ذلك، حتى أصبحوا وقد قطع منجك مسافة بعيدة. وقدم منجك بعد ثلاثة أيام قلعة الجبل ليلاً، وقدم الرأس بين يدي السلطان - وكان ضخماً مهولاً، له شعر طويل - فآقشعر السلطان عند رؤيته وبات مرجوفاً وطلب الأمير قبلاي الحاجب، ورسم له أن يتوجه لحفظ الكرك إلى أن يأتيه نائب لها. وكتب السلطان بعود الأمراء والعساكر المجردين إلى الكرك، فكانت مدة حصار الملك الناصر بالكرك سنتين وشهراً وثلاثة أيام. ثم قدم الأمراء المجردون إلى الكرك فخلع السلطان على الجميع وشكرهم وأكثر من الثناء عليهم. ثم خلع على الأمير ملكتمر السرجواني باستقراره في نيابة الكرك على ما كان عليه قديماً، وجهز معه عدة صناع لعمارة ما تهدم من قلعة الكرك وإعادة البرج على ما كان عليه. ورسم بأن يخرج مائة مملوك معه من مماليك قوصون وبشتك الذين كان الملك الناصر قد أسكنهم بالقلعة، ورتب لهم الرواتب، و أن يخرج منهم مائتان إلى دمشق وحماة وحمص وطرابلس وصفد وحلب. فأخرجوا جميعاً في

يوم واحد، ونساؤهم وأولادهم في بكاء وعويل؛ وسخروا لهم خيول الطواحين ليركبوا عليها.

ثم وقعت الوحشة بين الأمير أرغون العلائي والأمير ملكتمر الحجازي وبين الحاج آل ملك نائب السلطنة، وصار الحجازي والعلائي معاً على آل ملك النائب. ووقع بين آل ملك والحجازي أمور يطول شرحها؛ وكان الحجازي مولعاً بالخمر وآل الملك ينهى عن شربها، فكان كلما ظفر بأحد من حواشي الحجازي مثل به فتقوم قيامة الحجازي لذلك؛ وتفاوضا غير مرة بسبب هذا في مجلس السلطان، وأرغون العلائي يميل مع الحجازي لما في نفسه من آل ملك، وداما على ذلك مدة.

وأما السلطان فإنه بعد مدة نزل إلى سرياقوس بتجمل زائد على العادة في كل سنة. ثم عاد إلى القلعة بعد أيام، فورد عليه قصاد صاحب الروم وقصاد صاحب الغرب.

ومات السلطان الملك الصالح إسماعيل في ليلة الخميس رابع شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، وقد بلغ من العمر نحو عشرين سنة، فكتم موته. وقام شعبان إلى أمه ومنع من إشاعة موت أخيه، وخرج إلى أصحابه وقرر معهم أمره. فخرج طشتمر ورسلان بصل إلى منكلي بغا ليستعطفوا الأمير أرقطاي والأمير أصلم. وكان النائب والأمراء علموا من العصر أن السلطان في النزع، اتفقوا على النزول من القلعة إلى بيوتهم بالقاهرة. فدخل الجماعة على أرقطاي ليستميلوه لشعبان فوعدهم بذلك. ثم دخلوا على أصلم فأجابهم، وعادوا إلى شعبان، وقد ظنوا أن أمرهم تم. فلما أصبحوا نهار الخميس خرج الأمير أرغون العلائي والأمير ملكتمر الحجازي وتمر الموساوي وطشتمر طلليه ومنكلي بغا الفخري وأسندمر وجلسوا بباب القلة، فأتاهم الأمير أرقطاي والأمير أصلم والوزير نجم الدين محمود والأمير قماري الأستادار وطلبوا النائب فلم يحضر إليهم؛ فمضوا كلهم إلى عنده، وآستدعوا الأمير جنكلي بن البابا، وآشتوروا فيمن يولوه السلطنة؛ فأشار جنكلي أن يرسل إلى المماليك السلطانية ويسألهم من يختاروه " فإن من أختاروه رضيناه سلطانا "، فعاد جوابهم مع الحاجب أنهم رضوا بشعبان سلطاناً؛ فقاموا جميعاً ومعهم النائب إلى داخل باب القلة. وكان شعبان تخيل من دخولهم عليه وجمع المماليك وقال: " من دخل علي وجلس على الكرسي قتلته بسيفي هذا! وأنا أجلس على الكرسي حتى أبصر من يقيمني عنه ". فسير أرغون العلائي إليه، وبشره وطيب خاطره، ودخل الأمراء إليه وسلطنوه ولقب بالملك الكامل سيف الدين شعبان حسب ما يأتي ذكره في أول ترجمته. ولنرجع إلى بقية ترجمة الملك الصالح إسماعيل.

وكان الملك الصالح سلطاناً ساكناً عاقلاً قليل الشر كثير الخير، هيناً ليناً بشوشاً؛ وكان

شكلاً حسناً حلو الوجه أبيض بصفرة وعلى خده شامة. ولم يكن في أولاد الملك الناصر خير منه. رتب دروساً بمدرسة جده المنصور قلاوون، وجدد جماعة من الخدام بالحرم النبوي، حسب ما ذكرناه في وقته. وله مآثر كثيرة بمكة، واسمه مكتوب على رباط السدرة بحرم مكة. ولم يزل مثابراً على فعل الخير حتى توفي. ولما مات رثاه الشيخ صلاح الدين الصفدي بقوله:

مضى الصالح المرجو للبأس والندى ::: ومن لم يزل يلقى المنى بالمنائح

فيا ملك مصر كيف حالك بعده ::: إذا نحن أثنينا عليك بصالح

وكان الملك الصالح محبباً للرعية على مشقة كانت في أيامه من كثرة التجاريد إلى قتال أخيه الملك الناصر أحمد بالكرك، وكانت السبل مخيفة. وشغف مع ذلك بالجواري السود، وأفرط في محبة " اتفاق " العوادة وفي العطاء لها؛ وقرب أرباب الملاهي، وأعرض عن تدبير الملك بإقباله على النساء والمطربين، حتى كان إذا ركب إلى سرحة سرياقوس أو سرحة الأهرام ركبت أمه في مائتي امرأة الأكاديش، بثياب الأطلس الملون، وعلى رؤوسهن الطراطير الجلد البرغالي المرصعة بالجوهر واللآلىء، وبين أيديهن الخدام الطواشية، من القلعة إلى السرحة. ثم تركب حظاياه الخيول العربية ويتسابقن؛ ويركبن تارة بالكامليات الحرير ويلعبن بالكرة؛ وكانت لهن في المواسم والأعياد وأوقات النزهة أمور من هذا النموذج. وآستولى الخدام والطواشية في أيامه على أحوال الدولة، وعظم أمرهم بتحكم كبيرهم عنبر السحرتي لالاة السلطان؛ وآقتنى عنبر السحرتي البزاة والسناقر، وصار يركب إلى المطعم، ويتصيد بثياب الحرير المزركشة؛ وآتخذ له كفاً للصيد مرصعاً بالجوهر. وعمل له خاصكية وخداماً ومماليك تركب في خدمته، حتى ثقل أمره على أكابر أمراء الدولة، فإنه أكثر من شراء الأملاك والتجارة في البضائع، كل ذلك لكونه لالاة السلطان. وأفرد له ميداناً يلعب فيه بالكرة؛ وتصدى لقضاء الأشغال وقصده الناس فصارت الإقطاعات والرزق والوظائف لا تقضى إلا بالخدام والنساء.

* * *

سلطنة الملك الكامل شعبان

السلطان الملك الكامل سيف الدين شعبان ابن السلطان الملك الناصر ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي. والكامل هذا هو السابع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلس على تخت الملك بعد موت أخيه وشقيقه الملك الصالح إسماعيل في يوم الخميس الرابع من شهر ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة، ولقب بالملك الكامل.

وكان سبب سلطنة الملك الكامل هذا أنه لما اشتد مرض أخيه الملك الصالح إسماعيل دخل عليه زوج أمه ومدبر مملكته الأمير أرغون العلائي في عدة من الأمراء ليعهد الملك الصالح إسماعيل بالملك لأحد من إخوته - وكان أرغون العلائي المذكور غرضه عند شعبان كونه أيضاً ربيبه ابن زوجته - فعارضه في شعبان الأمير آل ملك نائب السلطنة، حسب ما ذكرنا طرفاً من ذلك في مرض الملك الصالح المذكور. ثم وقع ما ذكرناه إلى أن اتفق المماليك والأمراء على توليته، وحضروا إلى باب القلة واستدعوا شعبان المذكور، وألبسوه أبهة السلطنة وأركبوه بشعار الملك ومشت الأمراء بخدمته، والجاوشية تصيح بين يديه على العامة، حتى قرب من الإيوان لعب الفرس تحته وجفل من صياح الناس، فنزل عنه ومشى خطوات بسرعة إلى أن طلع إلى الإيوان، فتفاءل الناس بنزوله عن فرسه أنه لا يقيم في السلطنة إلا يسيراً. ولما طلع إلى الإيوان وجلس على الكرسي وباسوا الأمراء له الأرض وأحضروا المصحف ليحلفوا له، فحلف هو أولاً أنه لا يؤذيهم، ثم حلفوا له بعد ذلك على العادة. ودقت البشائر بسلطنته بمصر والقاهرة، وخطب له من الغد على منابر مصر والقاهرة، وكتب بسلطنته إلى الأقطار.

ثم بدا للسلطان أن يخطب بنت بكتمر الساقي فآمتنعت أمها من إجابته وآحتجت عليه بأن ابنتها تحته، ولا يجمع بين أختين، وأنه بتقدير أن يفارق أختها، فإنه أيضاً قد شغف باتفاق العوادة جارية أخيه الملك الصالح شغفاً زائداً؛ ثم قالت: " ومع ذلك فقد ضعف حال المخطوبة من شدة الحزن؛ فإنه أول من أعرس عليها آنوك ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان لها ذلك المهم العظيم، ومات آنوك عنها وهي بكر؛ فتزوجها من بعده أخوه الملك المنصور أبو بكر، فقتل؛ فتزوجها بعد الملك المنصور أخوه السلطان الملك الصالح إسماعيل ومات عنها أيضاً؛ فحصل لها حزن شديد من كونه تغير عليها عدة أزواج في هذه المدة اليسيرة " فلم يلتفت الملك الكامل إلى كلامها وطلق أختها، وأخرج جميع قماشها من عنده في ليلته، ثم عقد عليها

ودخل بها.

ثم قدم على السلطان الخبر بموت أخيه الملك الأشرف كجك ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون عن آثنتي عشرة سنة. واتهم السلطان أنه بعث من سرياقوس من قتله في مضجعه على يد أربعة خدام طواشية، فعظم ذلك على الناس قاطبة.

ثم عاد السلطان من سرياقوس إلى القلعة بعد ما تهتكت المماليك السلطانية من شرب الخمور والإعلان بالفواحش، وركبوا في الليل وقطعوا الطريق على المسافرين، واغتصبوا حريم الناس.

ثم أخذ السلطان الملك الكامل في تجديد المظالم والمصادرات.

فلما كان يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة خرج طلب أرقطاي مقدم العساكر المجردين إلى الشام حتى وصل إلى باب زويلة، ووقف هو مع الأمراء في الموكب تحت القلعة، وإذا بالناس قد اضطربوا، ونزل الحجازي سائقاً يريد اسطبله وتبعه الأمير أرغون شاه أيضاً إلى جهة إسطبله، وسبب ذلك أن السلطان الملك الكامل جلس بالإيوان على العادة، وقد بيت مع ثقاته القبض على الحجازي وأرغون شاه إذا دخلا، وكانا جالسين ينتظران الإذن على العادة. فخرج طغيتمر الدوادار في الإذن لهما فأشار لهما بعينه أن آذهبا. وكانا قد بلغهما أن السلطان قد تنكر عليهما، فقاما من فورهما ونزلا إلى اسطبلهما، ولبسا بمماليكهما وحواشيهما، وركبا وتوجها إلى قبة النصر. وبعث الحجازي يستدعي آق سنقر من سرياقوس، فما تضحى النهار حتى آجتمعت أطلاب الأمراء بقبة النصر فطلب السلطان عند ذلك أرغون العلائي وآستشاره فيما يعمل، فأشار عليه بأن يركب بنفسه إليهم؛ فركب السلطان بمماليكه وخاصكيته ومعه زوج أمه الأمير أرغون العلائي المذكور وتمر الموساوي وعدة أخر من الأمراء، والقلوب متغيرة. ودقت الكوسات حربياً، ودارت النقباء على أجناد الحلقة والمماليك ليركبوا فركب بعضهم وتخاذل بعضهم؛ وسار السلطان في جمع كبير من العامة وهو يسألهم الدعاء، فأسمعوه ما لا يليق، ودعوا عليه. وسار في نحو ألف فارس لا غير حتى قابل ملكتمر الحجازي وأصحابه من الأمراء والمماليك؛ فعند المواجهة آنسل عن السلطان أصحابه، وبقي في أربعمائة فارس. فبرز له آق سنقر، وساق حتى قارب السلطان، وتحدث معه وأشار عليه بأن ينخلع من السلطنة، فأجابه إلى ذلك وبكى. فتركه آق سنقر وعاد إلى الأمراء وعرفهم بأنه أجاب أن يخلع نفسه؛ فلم يرض أرغون شاه، وبدر ومعه الأمير قرابغا والأمير صمغار والأمير بزلار والأمير غرلو في أصحابهم حتى وصلوا إلى السلطان؛ وسيروا إلى أرغون العلائي ليأتيهم ليأخذوه إلى عند الأمراء؛ فلم يوافق العلائي على ذلك، فهجموا عليه ومزقوا

من كان معه من مماليكه وأصحابه. ثم ضرب واحد منهم أرغون العلائي بدبوس حتى أرماه عن فرسه إلى الأرض، فضربه الأمير بيبغا أروس بسيف قطع خده، فانهزم عند ذلك عسكر السلطان، وفر الملك الكامل شعبان إلى القلعة وآختفى عند أمه زوجة الأمير أرغون العلائي. فسار الأمراء إلى القلعة في جمع هائل وأخرجوا أمير حاجي وأمير حسين من سجنهما، وقبلوا يد أمير حاجي وخاطبوه بالسلطنة. ثم طلبوا الملك الكامل شعبان من عند أمه فلم يجدوه، فحرضوا في طلبه حتى وجدوه مختفياً بين الأزيار، وقد آتسخت ثيابه من وسخ الأزيار؛ فأخرجوه بهيئته إلى الرحبة ثم أدخلوه إلى الدهيشة فقيدوه وسجنوه حيث كان أخواه مسجونين، ووكل به قرابغا القاسمي والأمير صمغار.

ومن غريب الاتفاق أنه كان عمل طعاماً لأخويه أمير حاجي وحسين حتى يكون غداءهما في السجن، وعمل سماط السلطان على العادة. فوقعت الضجة، وقد مد السماط، فركب السلطان من غير أكل؛ فلما آنهزم وقبض عليه، وأقيم بدله أخوه أمير حاجي مد السماط بعينه له فأكل منه؛ وأدخل بطعامه وطعام أخيه أمير حسين إلى الملك الكامل فأكله في السجن. وآستمر الملك الكامل المذكور في السجن إلى يوم الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة، قتل وقت الظهر ودفن عند أخيه يوسف ليلة الخميس. فكانت مدة سلطنته على مصر سنة واحدة وثمانية وخمسين يوماً؛ وقال الصفدي: سنة وسبعة عشر يوماً.

وكان من أشر الملوك ظلماً وعسفاً وفسقاً. وفي أيامه - مع قصر مدته - خربت بلاد كثيرة لشغفه باللهو وعكوفه على معاقرة الخمور، وسماع الأغاني وبيع الإقطاعات بالبذل، وكذلك الولايات، حتى إن الإقطاع كان يخرج عن صاحبه وهو حي بمال لآخر، فإذا وقف من خرج إقطاعه قيل له: نعوض عليك قد أخرجناه لفلان الفلاني. وكان مع هذا كله سفاكاً للدماء، ولو طالت يده لأتلف خلائق كثيرة، وكان سيئ التدبير، يمكن النساء والطواشية من التصرف في المملكة والتهتك في النزه والصيد ولعب الكرة بالهيئات الجميلة وركوب الخيول المسومة، مع عدم الاحتشام من غير حجاب من الأمير آخورية والغلمان، ويعجبه ذلك من تهتكهن على الرجال؛ فشغف لذلك جماعة كثيرة من الجند بحرمه بما يفعلن من ركوب الخيول وغيرها. وكان حريمه إذا نزلن إلى نزهة بلغت الجرة الخمر إلى ثلاثين درهماً، وهذا كله مع شرهه وشره حواشيه ونسائه إلى ما في أيدي الناس من البساتين والرزق والدواليب ونحوها؛ فأخذت أمه معصرة وزير بغداد ومنظرته على بركة الفيل، وأشياء غير ذلك. وحدث في أيامه أخذ خراج الرزق، وزيادة القانون، ونقص الأجاير؛ وأعيدت في أيامه ضمان أرباب الملاعيب وعدة مكوس. وكان يحب لعب الحمام، فلما تسلطن

تغالى في ذلك وقرب من يكون من أرباب هذا الشأن. ومع هذا الظلم والطمع لم يوجد له من المال سوى مبلغ ثمانين ألف دينار وخمسمائة ألف درهم؛ إلا أنه كان مهاباً شجاعاً سيوساً متفقداً لأحوال مملكته، لا يشغله لهوه عن الجلوس في المواكب والحكم بين الناس.

* * *

سلطنة الملك المظفر حاجي

السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي المعروف بأمير حاج ابن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وهو السلطان الثامن عشر من ملوك الترك بالديار المصرية والسادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون. جلس على سرير الملك بعد خلع أخيه الملك الكامل شعبان والقبض عليه في يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة. وكان سجنه أخوه الملك الكامل شعبان كما تقدم ذكره. فلما آنهزم الملك الكامل من الأمراء بقبة النصر ساق في أربعة مماليك إلى باب السر من القلعة، فوجده مغلقاً والمماليك بأعلاه، فتلطف بهم حتى فتحوه له، ودخل إلى القلعة لقتل أخويه حاجي هذا ومعه حسين، لأنهما كانا حبسا معاً؛ فلم يفتح له الخدام الباب، فمضى إلى أمه فاختفى عندها. وصعد الأمراء في أثره إلى القلعة بعد أن قبضوا على الأمير أرغون العلائي وعلى الطواشي جوهر السحرتي اللالا وأسندمر الكاملي وقطلوبغا الكركي وجماعة أخر؛ ودخل بزلار وصمغار راكبين إلى باب الستارة وطلبا أمير حاج المذكور، فأدخلهما الخدام إلى الدهيشة حتى أخرجوه وأخاه من سجنهما، وخاطبا أمير حاج في الوقت بالملك المظفر. ثم دخل إليه الأمير أرغون شاه، وقبل له الأرض وقال له: " بسم الله، اخرج أنت سلطاننا " وسار به وبأخيه حسين إلى الرحبة وأجلسوه على باب الستارة.

ثم طلب شعبان حتى وجد بين الأزيار، وحبسوه حيث كان أخواه. وطلبوا الخليفة والقضاة، وخلعوا على حاجي الخلعة الخليفتي؛ وركب من باب الستارة بأبهة السلطنة وشعار الملك إلى الإيوان، وجلس على تخت الملك. وحمل المماليك أخاه أمير حسين على أكتافهم إلى الإيوان. ولقب بالملك المظفر؛ وقبل الأمراء الأرض بين يديه، وحلف لهم أولاً، أنه لا يؤذي أحداً منهم؛ ثم حلفوا له على طاعته. وركب الأمير بيغرا البريد وخرج إلى الشام ليبشر الأمير يلبغا اليحياوي نائب الشام ويحلفه ويحلف أيضاً أمراء الشام للملك المظفر.

قلت: وهذا ثالث سلطان من أولاد ابن قلاوون تزوج بهذه الجارية السوداء، وحظيت عنده، فهذا من الغرائب. على أنها كانت سوداء حالكة لا مولدة؛ فإن كان من أجل ضربها بالعود وغنائها فيمكن من تكون أعلى منها رتبة في ذلك وتكون بارعة الجمال بالنسبة إلى هذه. فسبحان المسخر.

وانهمك أيضاً الملك المظفر في اللذات، وشغف باتفاق حتى شغلته عن غيرها وملكت قلبه، وأفرط في حبها. فشق ذلك على الأمراء والمماليك وأكثروا من الكلام، حتى بلغ السلطان، وعزم على مسك جماعة منهم؛ فما زال به النائب حتى رجع عن ذلك.

وفي هذا الشهر شكا الناس للسلطان من بعد الماء عن بر مصر والقاهرة، حتى غلت روايا الماء. فرسم السلطان بنزول المهندسين لكشف ذلك، فكتب - تقدير ما يصرف على الجسر مبلغ مائة وعشرين ألف درهم، جبيت من أرباب الأملاك المطلة على النيل، حساباً عن كل ذراع خمسة عشر درهماً، فبلغ قياسها سبعة آلاف ذراع وستمائة ذراع. وقام باستخراج ذلك وقياسه محتسب القاهرة ضياء الدين يوسف ابن أبي بكر محمد الشهير بابن خطيب بيت الآبار.

وفي هذه الأيام توقفت أحوال الدولة من كثرة رواتب الخدام والعجائز والجواري، وأخذهم الرزق بأرض بهتيم من الضواحي وبأراضي الجيزة وغيرها، بحيث إنه أخذ مقبل الرومي، عشرة آلاف فدان.

ثم ورد الخبر باختلال مراكز البريد بطريق الشام، فأخذ من كل أمير مقدم ألف أربعة أفراس، ومن كل طبلخاناه فرسان، ومن كل أمير عشرة فرس واحد، وكشف عن البلاد المرصدة للبريد فوجد ثلاث بلاد منها وقف الملك الصالح إسماعيل، وقف بعضها وأخرج باقيها إقطاعات. فأخرج السلطان عن عيسى بن حسن الهجان بلداً تعمل في كل سنة عشرين ألف درهم، وثلاثة آلاف إردب غلة، وجعلها مرصدة لمراكز البريد.

وفي يوم الأحد خامس وعشرين جمادى الأولى المذكور أخرج السلطان الوزير نجم الدين محموداً والأمير بيدمر البدري نائب حلب كان، والأمير طغيتمر النجمي الدوادار إلى الشام، وسببه أن الأمير شجاع الدين غرلو لما كان شاد الدواوين قبل تاريخه حقد على الوزير نجم الدين المذكور وعلى طغيتمر الدوادار، فحسن للسلطان أخذ أموالهما. فقال السلطان للنائب أرقطاي عنهما وعن بيدمر أنهم كانوا يكاتبون يلبغا، فأشار عليه النائب بإبعادهم، وأن يكون الوزير نجم الدين نائب غزة وبيدمر نائب حمص وطغيتمر نائب طرابلس؛ فأخرجهم السلطان على البريد، فلم يعجب غرلو ذلك، وأكثر عند السلطان من الوقيعة في الأمير أرقطاي النائب حتى غير السلطان عليه وما زال به حتى بعث السلطان بأرغون الإسماعيلي إلى نائب

غزة بقتلهم. فدخل أرغون معهم إلى غزة بعد العصر وعرف النائب ما جاء بسببه، فقبض عليهم نائب غزة وقتلهم في ليلته. وعاد أرغون وعرف السلطان الخبر، فتغير قلب الأمراء ونفر خواطرهم في الباطن من السلطان وميله إلى غرلو.

وتمكن غرلو من السلطان، وأخذ أموال من قتل، وتزايد أمره وآشتدت وطأته، وكثر إنعام السلطان عليه حتى إنه لم يكن يوم إلا وينعم عليه فيه بشيء. ثم أخذ غرلو في العمل على علم الدين عبد الله بن زنبور ناظر الخاص، وعلى القاضي علاء الدين علي بن فضل الله العمري كاتب السر، وصار يحسن للسلطان القبض عليهما وأخذ أموالهما؛ فتلطف النائب بالسلطان في أمرهما حتى كف عنهما. فلم يبق بعد ذلك أحد من أهل الدولة حتى خاف من غرلو وصار يصانعه بالمال حتى يسترضيه. ثم حسن غرلو للسلطان قتل الأمراء المحبوسين بالإسكندرية فتوجه الطواشي مقبل الرومي بقتلهم، فقتل الأمير أرغون العلائي وقرابغا القاسمي وتمر الموساوي وصمغار وأيتمش عبد الغني، وأفرج عن أولاد قماري وأولاد أيدغمش وأخرجوا إلى الشام.

ثم في يوم الخميس خامس عشره قبض السلطان الملك المظفر هذا على أعظم أمرائه ومدبر مملكته الأمير شجاع الدين غرلو وقتله، وسبب ذلك أمور: منها شدة كراهية الأمراء له لسوء سيرته، فإنه كان يخلو بالسلطان، ويشير عليه بما يشتهيه، فما كان السلطان يخالفه في شيء؛ وكان عمله أمير سلاح فخرج عن الحد في التعاظم، وجسر السلطان على قتل الأمراء، وقام في حق النائب أرقطاي يريد القبض عليه وقتله، واستمال المماليك الناصرية والصالحية والمظفرية بكمالهم، وأخذ يقرر مع السلطان، أن يفوض إليه أمور المملكة بأسرها ليقوم عنه بتدبيرها، ويتوفر السلطان على لذاته.

ثم لم يكفه ذلك، حتى أخذ يغري السلطان بألجيبغا وطنيرق، وكانا أخص الناس بالسلطان، ولا زال يمعن في ذلك حتى تغير السلطان عليهما، وبلغ ذلك ألجيبغا، وتناقلته المماليك، فتعصبوا عليه وأرسلوا إلى الأمراء الكبار حتى حدثوا السلطان في أمره، وخوفوه عاقبته. فلم يعبأ السلطان بقولهم، فتنكروا بأجمعهم على السلطان بسبب غرلو إلى أن بلغه ذلك عنهم من بعض ثقاته، فآستشار النائب في أمر غرلو المذكور، فلم يشر عليه في أمره بشيء، وقال للسلطان: " لعل الرجل قد كثرت حساده على تقريب السلطان له، والمصلحة التثبت في أمره ". وكان أرقطاي النائب عاقلاً سيوساً، يخشى من

معارضته غرض السلطان فيه. فاجتهد ألجيبغا وعدة من الخاصكية في التدبير على غرلو وتخويف السلطان منه ومن سوء عاقبته، حتى أثر قولهم في نفس السلطان. وأقاموا الأمير أحمد شاد الشرابخاناه، وكان مزاحاً، للوقيعة فيه؛ فأخذ أحمد شاد الشرابخاناه في خلوته مع السلطان يذكر كراهية الأمراء لغرلو وموافقة المماليك له، وأنه يريد أن يدبر المملكة ويكون نائب السلطنة ليتوثب بذلك على المملكة ويصير سلطاناً، ويخرج له قوله هذا في صورة السخرية والضحك.

وصار أحمد المذكور يبالغ في ذلك على عدة فنون من الهزل، إلى أن قال السلطان: " أنا الساعة أخرجه وأعمله أمير آخور "؛ فمضى أحمد شاد الشربخاناه إلى النائب وعرفه بما وقع في السر، وأنه جسر السلطان على الوقيعة في غرلو. فبعث السلطان وراء النائب أرقطاي وآستشاره في أمر غرلو ثانياً فأثنى عليه النائب وشكره؛ فعرف السلطان كثرة وقيعة الخاصكية فيه، وأنه قصد أن يعمله أمير آخور، فقال النائب: " غرلو رجل شجاع جسور لا يليق أن يعمل أمير آخور ". فكأنه أيقظ السلطان من رقدته بحسن عبارة وألطف إشارة، فأخذ السلطان في الكلام معه بعد ذلك فيما يوليه! فأشار عليه النائب بتوليته نيابة غزة، فقبل السلطان ذلك، وقام عنه النائب. فأصبح السلطان بكرة يوم الجمعة، وبعث الأمير طنيرق إلى النائب أن يخرج غرلو إلى نيابة غزة. فلم يكن غير قليل حتى طلع غرلو على عادته إلى القلعة وجلس على باب القلعة، فبعث النائب يطلبه، فقال: " ما لي عند النائب شغل وما لأحد معي حديث غير أستاذي ". فأرسل النائب يعرف السلطان جواب غرلو فأمر السلطان مغلطاي أمير شكار وجماعة من الأمراء أن يعرفوا غرلو عن السلطان أن يتوجه إلى غزة، وإن امتنع يمسكوه؛ فلما صار غرلو بداخل القصر لم يحدثوه بشيء، وقبضوا عليه وقيدوه وسلموه لألجيبغا فأدخله إلى بيته بالأشرفية. فلما خرج السلطان لصلاة الجمعة على العادة قتلوا غرلو وهو في الصلاة. وأخذ السلطان بعد عوده من الصلاة يسأل عنه، فنقلوا عنه أنه قال: " أنا ما أروح مكانا " وأراد سل سيفه وضرب الأمراء به، فتكاثروا عليه، فما سلم نفسه حتى قتل. فعز قتله على السلطان، وحقد عليهم لأجل قتله، ولم يظهر لهم ذلك. ورسم بإيقاع الحوطة على حواصله. وكان لموته يوم مشهود.

ثم في سابع عشر شعبان توفي الخليفة أبو الربيع سليمان، وبويع بالخلافة ابنه أبو بكر ولقب بالمعتصم بالله أبي الفتح.

وقدم ابن الحراني من دمشق بمال يلبغا اليحياوي فتسلمه الخدام. وأنعم السلطان من ليلته على حظيته " كيدا " من المال بعشرين ألف دينار، سوى الجواهر واللآلئ، ونثر الذهب على الخدام والجواري، فاختطفوه وهو يضحك. وفرق على لعاب الحمام والفراشين والعبيد الذهب واللؤلؤ، وهو يحذفه عليهم وهم يترامون عليه ويأخذوه بحيث إنه لم يدع من مال يلبغا سوى القماش؛ فكان جملة التي فرقها ثلاثين ألف دينار وثلاثمائة ألف درهم، وجواهر وحلياً ولؤلؤاً وزركشاً ومصاغاً، قيمته زيادة على ثمانين ألف دينار.

فعظم ذلك على الأمراء، وأخذ ألجيبغا وطنيرق يعرفان السلطان ما ينكره عليه الأمراء من لعب الحمام وتقريب الأوباش، وخوفاه فساد الأمر، فغضب وأمر آقجبا شاد العمائر بخراب حضير الحمام، ثم أحضر الحمام وذبحهم واحداً بعد واحد بيده وقال لألجيبغا وطنيرق: " والله لأذبحنكم كلكم كما ذبحت هذا الحمام " وتركهم وقام. وفرق جماعة من خشداشية ألجيبغا وطنيرق في البلاد الشامية، وآستمر على إعراضه عن الجميع؛ ثم قال لحظاياه وعنده معهن الشيخ علي بن الكسيح: " والله ما بقي يهنأ لي عيش وهذان الكذابان بالحياة يعني بذلك عن ألجيبغا وطنيرق فقد أفسدا علي جميع ما كان لي فيه سرور، واتفقا علي، ولا بد لي من ذبحهما " فنقل ذلك ابن الكسيح لألجيبغا، فإن ألجيبغا هو الذي أوصله إلى السلطان، وقال: " مع ذلك خذ لنفسك، فوالله لا يرجع عنك وعن طنيرق " فطلب ألجيبغا طنيرق وعرفه ذلك، فأخذا في التدبير عليه في الباطن وأخذ في التدبير عليهما.

وخرج الأمير بيبغا أرس للصيد بالعباسة، فإنه كان صديقاً لألجيبغا، وتنمر السلطان على طنيرق وآشتد عليه وبالغ في تهديده. فبعث طنيرق وألجيبغا إلى الأمير طشتمر طلليه، وما زالا به حتى وافقهما. ودارا على الأمراء، وما منهم إلا من نفرت نفسه من السلطان الملك المظفر، وتوقع به أنه يفتك به، فصاروا معهما يداً واحدة لما في نفوسهم. ثم كلموا النائب في موافقتهم وأعلموه أنه يريد القبض عليه، وكان عنده أيضاً حس من ذلك، وأكثروا من تشجيعه، حتى وافقهم وأجابهم. وتواعدوا جميعاً في يوم الخميس تاسع شهر رمضان على الركوب على السلطان في يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان.

فبعث السلطان في يوم السبت يطلب بيبغا أرس من العباسة، وقد قرر مع الطواشي عنبر مقدم المماليك أن يعرف المماليك السلاح دارية أن يقفوا خلفه، فإذا دخل بيبغا أرس، وقبل الأرض، ضربوه بالسيوف وقطعوه قطعاً.

فعلم بذلك ألجيبغا، وبعث إليه يعلمه بما دبره السلطان عليه من قتله، ويعرفه بما وقع آتفاق الأمراء عليه، وأنه يوافيهم بكرة يوم الأحد على قبة النصر. فآستعدوا ليلتهم، ونزل ألجيبغا من القلعة، وتلاه بقية الأمراء، حتى كان آخرهم ركوباً الأمير أرقطاي نائب السلطنة. وتوافوا بأجمعهم عند مطعم الطير، وإذا ببيبغا أرس قد وصل إليهم، فعبوا أطلابهم ومماليكهم ميمنة وميسرة، وبعثوا في طلب بقية الأمراء، فما ارتفع النهار حتى وقفوا بأجمعهم ملبسين عند قبة النصر. وبلغ السلطان ذلك، فأمر بضرب الكوسات فدقت؛ وبعث الأوجاقية في طلب الأمراء فجاءه طنجرق وشيخون وأرغون الكاملي وطاز ونحوهم من الأمراء الخاصكية. ثم بعث المقدمين في طلب أجناد الحلقة فحضروا.

ثم أرسل السلطان يعتب النائب أرقطاي على ركوبه، فرد جوابه بأن مملوكك الذي ربيته ركب عليك يعني عن ألجيبغا وأعلمنا فساد نيتك لنا؛ وقد قتلت مماليك أبيك وأخذت أموالهم، وهتكت حريمهم بغير موجب، وعزمت على الفتك بمن بقي. وأنت أول من حلف أنك لا تخون الأمراء ولا تخرب بيت أحد، فرد السلطان الرسول إليه يستخبره عما يريده الأمراء من السلطان حتى يفعله لهم، فعاد جوابهم أنه لا بد أن يسلطنوا غيره، فقال: " ما أموت إلا على ظهر فرسي "، فقبضوا على رسوله وهموا بالزحف عليه، فمنعهم النائب أرقطاي من ذلك حتى يكون القتال أولاً من السلطان. فبادر السلطان بالركوب إليهم، وأقام أرغون الكاملي وشيخون في الميمنة، ثم أقام عدة أمراء أخر في الميسرة، وسار بمماليكه حتى وصل إلى قريب قبة النصر؛ فكان أول من تركه ومضى إلى القوم الأمير طاز ثم الأمير أرغون الكاملي ثم الأمير ملكتمر السعدي ثم الأمير شيخون وانضافوا الجميع إلى النائب أرقطاي والأمراء، وتلاهم بقيتهم حتى جاء الأمير طنرق والأمير لاجين أمير جاندار صهر السلطان آخرهم. وبقي السلطان في نحو عشرين فارساً، فبرز له الأمير بيبغا أرس والأمير ألجيبغا فولى السلطان فرسه وآنهزم عنهم، فتبعوه وأدركوه وأحاطوا به؛ فتقدم إليه بيبغا أرس فضربه السلطان بالطبر، فأخذ بيبغا الضربة بترسه. ثم حمل عليه بالرمح، وتكاثروا عليه حتى قلعوه من سرجه، وضربه طنيرق بالسيف فجرح وجهه وأصابعه. ثم ساروا به على فرس غير فرسه محتفظين به إلى تربة آق سنقر الرومي تحت الجبل وذبحوه من ساعته قبيل عصر يوم الأحد ثاني عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربة أمه. ولما أنزلوه وأرادوا

ذبحه قال لهم: " بالله لا تستعجلوا علي، خلوني ساعة " فقالوا: كيف استعجلت أنت على قتل الناس! لو صبرت عليهم صبرنا عليك فذبحوه.

وقيل: إنهم لما أنزلوه عن فرسه كتفوه وأحضروه بين يدي النائب أرقطاي ليقتله، فلما رآه النائب نزل عن فرسه وترجل ورمى عليه قباءه وقال: " أعوذ بالله، هذا سلطان ابن سلطان ما أقتله "! فأخذوه ومضوا إلى الموضع الذي ذبحوه فيه.

ثم صعد الأمراء القلعة من يومهم، ونادوا في القاهرة بالأمان والاطمئنان؛ وباتوا بالقلعة ليلة الإثنين، وقد اتفقوا على مكاتبة نائب الشام الأمير أرغون شاه بما وقع، وأن يأخذوا رأيه فيمن يقيموه سلطاناً. فأصبحوا وقد آجتمع المماليك على إقامة حسين ابن الملك الناصر محمد عوضاً عن أخيه المظفر في السلطنة، ووقعت بين حسين وبينهم مراسلات. فقام المماليك في أمره، فقبضوا الأمراء على عدة منهم ووكلوا الأمير طاز بباب حسين، حتى لا يجتمع به أحد من جهة المماليك، وأغلقوا باب القلعة، واستمروا بآلة الحرب يومهم وليلة الثلاثاء. وقصد المماليك إقامة الفتنة، فخاف الأمراء تأخير السلطنة حتى يستشيروا نائب الشام أن يقع من المماليك ما لا يدرك فارطه، فوقع آتفاقهم عند ذلك على حسن فسلطنوه فتم أمره.

وكانت مدة سلطنة الملك المظفر هذا على مصر سنة واحدة وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان المظفر أهوج سريع الحركة، عديم المداراة، سيئ التدبير، يؤثر صحبة الأوباش على أرباب الفضائل والأعيان. وكان فيه ظلم وجبروت وسفك للدماء. قتل في مدة سلطنته مع قصرها خلائق كثيرة من الأمراء وغيرهم.

وكان مسرفاً على نفسه، يحب لعب الحمام وغيره، ويحسن فنوناً كثيرة من الملاعيب، كالرمح والكرة والصراع والثقاف وضرب السيف، مع شجاعة وإقدام من غير تثبت في أموره.

قلت: وبالجملة هو أسوأ سيرة من جميع إخوته ممن تسلطن قبله من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون، على أن الجميع غير نجباء وحالهم كقول القائل: " عجيب نجيب من نجيب "؛ اللهم إن كان السلطان حسن الآتي ذكره، فهو لا بأس به. انتهى.

* * *

سلطنة الناصر حسن الأولى

السلطان الملك الناصر بدر الدين، وقيل ناصر الدين، أبو المعالي حسن - واللقب الثاني أصح، لأنه أخذ كنية أبيه، ولقبه وشهرته - ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. وأمه أم ولد ماتت عنه وهو صغير، فتولى تربيته خوند أردو، وكان أولاً يدعى قماري، واستمر بالدور السلطانية إلى أن كان من أمر أخيه الملك المظفر خاجي ما كان. وطلبت المماليك أخاه حسيناً للسلطنة، فقام الأمراء بسلطنة حسن هذا، وأجلسوه على تخت الملك بالإيوان في يوم الثلاثاء، رابع عشر شهر رمضان سنة ثماني وأربعين وسبعمائة؛ وركب بشعار السلطنة وأبهة الملك. ولما جلس على تخت الملك لقبوه بالملك الناصر سيف الدين قماري، فقال السلطان حسن للنائب أرقطاي: " يا أبت ما آسمي قماري، إنما اسمي حسن "؛ فاستلطفه الناس لصغر سنه ولذكائه، فقال له النائب: " يا خوند - والله - إن هذا آسم حسن، على خيرة الله تعالى ". فصاحت الجاووشية في الحال بآسمه وشهرته وتم أمره؛ وحلف له الأمراء على العادة، وعمره يوم سلطنته إحدى عشرة سنة. وهو السلطان التاسع عشر من ملوك الترك بالديار المصرية، والسابع من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ثم تراسل المماليك الجراكسة مع الأمير حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون على أن يقيموه سلطاناً فقبض على أربعين منهم، وأخرجوا على الهجن مفرقين إلى البلاد الشامية. ثم قبض على ستة منهم، وضربوا تجاه الإيوان من القلعة ضرباً مبرحاً، وقيدوا وحبسوا بخزانة شمائل.

ثم عملت الخدمة بالإيوان، واتفقوا على أن الأمراء إذا انفضوا من خدمة الإيوان، دخل أمراء المشورة والتدبير إلى القصر دون غيرهم من بقية الأمراء، ونفذوا الأمور على اختيارهم من غير أن يشاركهم أحد من الأمراء في ذلك. فكانوا إذا حضروا الخدمة بالإيوان خرج الأمير منكلي بغا الفخري والأمير بيغرا والأمير بيبغا ططر والأمير طيبغا المجدي والأمير أرلان وسائر الأمراء، فيمضوا على حالهم، إلا أمراء المشورة وهم: الأمير بيبغا أرس النائب، والأمير شيخون العمري رأس نوبة النوب، والأمير طاز، والأمير الوزير منجك اليوسفي السلاح دار، والأمير ألجيبغا المظفري، والأمير طنيرق، فإنهم يدخلون القصر، وينفذون أحوال المملكة بين يدي السلطان بمقتضى علمهم وحسب اختيارهم.

وكانت هذه السنة أعني سنة تسع وأربعين وسبعمائة كثيرة الوباء والفساد بمصر والشام، من كثرة قطع الطريق، وولاية الأمير منجك جميع أعمال المملكة بالمال، وآنفراده وأخيه بيبغا أرس بتدبير المملكة.

ومع هذا كان فيها أيضاً الوباء لم يقع مثله في سالف الأعصار، فإنه كان ابتدأ بأرض مصر آخر أيام التخضير في فصل الخريف في أثناء سنة ثمان وأربعين. فما أهل المحرم سنة تسع وأربعين حتى اشتهر وآشتد بديار مصر في شعبان ورمضان وشوال، وارتفع في نصف ذي القعدة. فكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف نفس " إلى عشرين ألف نفس " في كل يوم. وعملت الناس التوابيت والدكك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحفرت الحفائر وألقيت فيها الموتى؛ فكانت الحفيرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر. وكان الموت بالطاعون، يبصق الإنسان لحماً ثم يصيح ويموت؛ ومع هذا عم الغلاء الدنيا جميعها. ولم يكن هذا الوباء كما عهد في إقليم دون إقليم، بل عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً جميع أجناس بني آدم وغيرهم، حتى حيتان البحر وطير السماء ووحش البر.

ثم اتصل الوباء ببلاد الشرق جميعها: بلاد أزبك وبلاد إسطنبول وقيصرية الروم؛ ثم دخل أنطاكية حتى أفنى من بها. وخرج جماعة من بلاد أنطاكية فارين من الموت فماتوا بأجمعهم في طريقهم؛ ثم عم الوباء، جبال ابن قرمان وقيصرية، ففني أهلها ودوابهم ومواشيهم. فرحلت الأكراد خوفاً من الموت، فلم يجدوا أرضاً إلا وفيها الموت، فعادوا إلى أرضهم وماتوا جميعاً. ثم وقع ذلك ببلاد سيس فمات لصاحبها تكفور في يوم واحد بموضع مائة وثمانون نفساً وخلت سيس. ثم وقع في بلاد الخطا مطر عظيم لم يعهد مثله في غير أوانه، فماتت دوابهم ومواشيهم عقيب ذلك المطر حتى فنيت. ثم مات الناس والوحوش والطيور حتى خلت بلاد الخطا؛ وهلك ستة عشر ملكاً في مدة ثلاث أشهر. وأفني أهل الصين حتى لم يبق منهم إلا القليل، وكذلك بالهند.

وكان ابتداؤه بالقاهرة ومصر في النساء والأطفال ثم بالباعة حتى كثر عدد الأموات؛ فركب السلطان إلى سرياقوس، وأقام بها من أول شهر رجب إلى العشرين منه، وقصد العود إلى القلعة فأشير عليه بالإقامة في سرياقوس وصوم رمضان بها. ثم قدم كتاب نائب حلب بأن بعض أكابر الصلحاء رأى النبي في نومه، فشكا إليه ما نزل بالناس من الوباء، فأمره صلى الله عليه

وسلم بالتوبة، والدعاء بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم سكن هيبة صدمة قهرمان الحروب بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبث بأذيال لطفك، ونعتصم بك عن إنزال قهرك، يا ذا القوة والعظمة الشاملة، والقدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام. وأنه كتب بها عدة نسخ بعث بها إلى حماة وطرابلس ودمشق.

وفي شعبان تزايد الوباء بديار مصر، وعظم في شهر رمضان، وقد دخل فصل الشتاء؛ فرسم بالاجتماع في الجوامع للدعاء. وفي يوم الجمعة سادس شهر رمضان، نودي أن يجتمع الناس بالصناجق الخليفتية والمصاحف عند قبة النصر خارج القاهرة، فآجتمع الناس بعامة جوامع مصر والقاهرة، وخرج المصريون إلى مصلى خولان بالقرافة، واستمر قراءة البخاري بالجامع الأزهر وغيره عدة أيام، والناس يدعون إلى الله تعالى ويقنتون في صلواتهم. ثم خرجوا إلى قبة النصر وفيهم الأمير شيخون والوزير منجك اليوسفي والأمراء بملابسهم الفاخرة من الذهب وغيره، في يوم الأحد ثامن شهر رمضان.

ومات في ذلك اليوم الرجل الصالح سيدي عبد الله المنوفي، تغمده الله برحمته، وأعاد علينا من بركاته، فصلى عليه ذلك الجمع العظيم، وعاد الأمراء إلى سرياقوس وأنفق الجمع. واشتد الوباء بعد ذلك حتى عجز الناس عن حصر الموتى.

فلما انقضى شهر رمضان حضر السلطان من سرياقوس. وحدث في الناس في شوال نفث الدم، فكان الإنسان يحس في نفسه بحرارة ويجد غثياناً فيبصق دماً ويموت عقيبه، ويتبعه أهل داره واحداً بعد واحد حتى يفنوا جميعاً بعد ليلة أو ليلتين؛ فلم يبق أحد إلا وغلب على ظنه أنه يموت بهذا الداء. وآستعد الناس جميعاً وأكثروا من الصدقات، وتحاللوا وأقبلوا على العبادة. ولم يحتج أحد في هذا الوباء إلى أشربة ولا أدوية ولا أطباء لسرعة الموت. فما انتصف شوال إلا والطرقات والأسواق قد امتلأت بالأموات، فانتدب جماعة لمواراتهم وانقطع جماعة للصلاة عليهم. وخرج الأمر عن الحد، ووقع العجز عن العدد، وهلك أكثر أجناد الحلقة، وخلت الطباق بالقلعة من المماليك السلطانية لموتهم.

فما أهل ذو القعدة إلا والقاهرة خالية مقفرة، لا يوجد بشوارعها مار، بحيث إنه يمر الإنسان من باب زويلة إلى باب النصر فلا يرى من يزاحمه،

لاشتغال الناس بالموتى. وعلت الأتربة على الطرقات، وتنكرت وجوه الناس، وامتلأت الأماكن بالصياح؛ فلا تجد بيتاً إلا وفيه صيحة، ولا تمر بشارع إلا وترى فيه عدة أموات. وصلي في يوم الجمعة بعد الصلاة على الأموات بالجامع الحاكمي، فصفت التوابيت اثنين اثنين من باب مقصورة الخطابة إلى باب الجامع، ووقف الإمام على العتبة والناس خلفه خارج الجامع. وخلت أزقة كثيرة وحارات عديدة من الناس، وصار بحارة برجوان اثنتان وأربعون داراً خالية. وبقيت الأزقة والحروب المتعددة خالية، وصارت أمتعة أهلها لا تجد من يأخذها، وإذا ورث إنسان شيئاً انتقل في يوم واحد عنه، لرابع وخامس.

وحصرت عدة من صلي عليه بالمصليات التي خارج باب النصر وباب زويلة وباب المحروق وتحت القلعة، ومصلى قتال السبع تجاه باب جامع قوصون، في يومين، فبلغت ثلاث عشرة ألفاً وثمانمائة، سوى من مات في الأسواق والأحكار، وخارج باب البحر وعلى الدكاكين وفي الحسينية وجامع ابن طولون، ومن يتأخر دفنه في البيوت.

وقام الأمير شيخون العمري والأمير مغلطاي أمير آخور بتغسيل الأموات وتكفينهم ودفنهم وبطل الأذان من عدة مواضع، وبقي في المواضع المشهورة يؤذن واحد. وبطلت أكثر طبلخاناة الأمراء، وصار في طبلخانة الأمير شيخون ثلاثة نفر بعد خمسة عشر نفراً. وغلقت أكثر المساجد والزوايا. وقيل إنه ما ولد لأحد في هذا الوباء إلا ومات الولد بعد يوم أو يومين ولحقته أمه.

ثم شمل في آخر السنة الوباء بلاد الصعيد بأسرها؛ ولم يدخل الوباء ثغر أسوان، ولم يمت به سوى أحد عشر إنساناً. ووجدت طيور كثيرة ميتة في الزروع ما بين غربان وحدأة وغيرها من سائر أصناف الطيور. فكانت إذا نتفت وجد فيها أثر الكبة.

وتواترت الأخبار من الغور وبيسان وغير ذلك أنهم كانوا يجدون الأسود والذئاب وحمر الوحش، وغيرها من الوحوش ميتة وفيها أثر الكبة.

وكان ابتدأ الوباء أول أيام التخضير، فما جاء أوان الحصاد حتى فنوا الفلاحون ولم يبق منهم إلا القليل؛ فخرج الأجناد بغلمانهم للحصاد ونادوا: من يحصد يأخذ نصف ما حصد. فلم يجدوا واحدا، وغرسوا غلالهم على خيولهم وفزوها بأيديهم، وعجزوا عن غالب الزرع فتركوه. وكان الإقطاع

الواحد يصير من واحد إلى واحد حتى إلى السابع والثامن، فأخذ إقطاعات الأجناد أرباب الصنائع من الخياطين والأساكفة، وركبوا الخيول ولبسوا الكلفتاه والقباء. وكثير من الناس لم يتناول في هذه السنة من إقطاعه شيئاً. فلما جاء النيل ووقع أوان التخضير، تعذر وجود الرجال فلم يخضر إلا نصف الأراضي، ولم يوجد أحد ليشتري القرط الأخضر ولا من يربط عليه خيوله. وترك ألف وخمسمائة فدان براسيم بناحية ناي وطنان، وآنكسرت البلاد التي بالضواحي وخربت. وخلت بلاد الصعيد مع آتساع أرضها، بحيث كانت مكلفة مساحة أرض أسيوط تشتمل على ستة آلاف نفر يؤخذ منها الخراج، فصارت في سنة الوباء هذه تشتمل على مائة وستة عشر نفراً. ومع ذلك كان الرخاء موجوداً وآنحط سعر القماش حتى بيع بخمس ثمنه وأقل، ولم يوجد من يشتريه. وصارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال، فيباع الحمل منها بأرخص ثمن. وانحط قدر الذهب والفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهماً، بعد ما كان بعشرين. وعدمت جميع الصناع، فلم يوجد سقاء ولا بابا ولا غلام. وبلغت جامكية الغلام ثمانين درهماً، عنها خمس دنانير وثلث دينار، فنودي بالقاهرة: من كانت له صنعة فليرجع إلى صنعته، وضرب جماعة منهم. وبلغ ثمن راوية الماء ثمانية دراهم لقلة الرجال والجمال؛ وبلغت أجرة طحن الإردب القمح ديناراً.

ويقال: إن هذا الوباء أقام يحور على أهل الأرض مدة خمس عشرة سنة.

قلت: ورأيت أنا من رأى هذا الوباء، فكانوا يسمونه الفصل الكبير، ويسمونه أيضاً بسنة الفناء، ويتحاكون عنه أضعاف ما حكيناه، يطول الشرح في ذكره.

ثم في يوم الأربعاء ثاني عشر المحرم المذكور، ورد الخبر بقتل الأمير سيف الدين أرغون شاه نائب الشام.

ثم كتب السلطان بآستقرار الأمير أرقطاي نائب حلب في نيابة الشام عوضاً عن أرغون شاه المذكور. واستقر الأمير قطليجا الحموي نائب حماة في نيابة حلب عوضاً عن أرقطاي. واستقر أمير مسعود بن خطير في نيابة طرابلس عوضاً عن ألجيبغا المظفري المقدم ذكره. ثم قدم إلى مصر طلب أرغون شاه ومماليكه وأمواله وموجود ألجيبغا أيضاً، فتصرف الوزير منجك في الجميع.

وبعد مدة يسيرة ورد الخبر أيضاً بموت الأمير أرقطاي نائب دمشق، فكتب

بآستقرار قطليجا الحموي نائب حلب في نيابة دمشق، وتوجه الأمير تلكتمر المحمدي بتقليده بنيابة الشام؛ وسار حتى وصل إليه فوجده قد أخرج طلبه إلى جهة دمشق وهو ملازم الفراش، فمات قطليجا أيضاً بعد أسبوع. ولما وصل الخبر إلى مصر بموت قطليجا، أراد النائب بيبغا أرس والوزير منجك إخراج طاز لنيابة الشام، والأمير مغلطاي أمير آخور إلى نيابة حلب، فلم يوافقاهما على ذلك، وكادت الفتنة أن تقع. فخلع على الأمير أيتمش الناصري بنيابة الشام، واستقر بعد مدة الأمير أرغون الكاملي في نيابة حلب.

وخلع على طشبغا الدوادار على عادته دواداراً، وتصالح هو والقاضي علاء الدين ابن فضل الله كاتب السر - فإنه كان نفي بسببه حسب ما تقدم ذكره - وأرسل كل منهما إلى صاحبه هدية.

وكان السلطان لما أمسك منجك، كتب إلى الأمير طاز وإلى الأمير بزلار على يد قردم، وأخبرهما بما وقع، وأنهما يحترسان على النائب بيبغا أرس، وقد نزل سطح العقبة. فلما قرأ بيبغا الكتاب وجم وقال: " كلنا مماليك السلطان "، وخلع عليه، وكتب أنه ماض لقضاء الحج.

ثم قدم الخبر على السلطان بأن الأمير أحمد الساقي نائب صفد، خرج عن طاعة السلطان. وسببه أنه لما قبض على منجك، خرج الأمير قماري الحموي وعلى يدي ملطفات لأمراء صفد بالقبض عليه، فبلغه ذلك من هجان جهزه له أخوه. فندب الأمير أحمد، طائفة من مماليكه لتلقي قماري، وطلب نائب قلعة صفد وديوانه، وأمره أن يقرأ عليه كم له بالقلعة من الغلة، فأمر لمماليكه منها بشيء فرقه عليهم إعانة لهم على ما حصل من المحل في البلاد، وبعثهم ليأخذوا ذلك، فعندما طلعوا القلعة شهروا سيوفهم وملكوها من نائب قلعة صفد، وقبضوا على عدة من الأمراء. وطلع الأمير أحمد، بحريمه إلى القلعة وحصنها، وأخذ مماليكه قماري وأتوا به، فأخذ ما معه من الملطفات وحبسه. فلما بلغ السلطان ذلك كتب إلى نائب غزة ونائب الشام بتجريد العسكر إليه. هذا والأراجيف كثيرة بأن طاز تحالف هو وبيبغا أرس بعقبة أيلة؛فخرج الأمير فياض والأمير عيسى بن حسن أمير العائذ، فتفرقا على عقبة أيلة بسبب بيبغا أرس. وكتب لعرب شطي وبني عقبة وبني مهدي، بالقيام مع الأمير فضل، وكتب لنائب غزة بإرسال السوقة إلى العقبة.

وأما الديار المصرية، فإنه في يوم الجمعة خامس المحرم من سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، قدم الأمير أرغون الكاملي نائب حلب إلى الديار المصرية بغير إذن، فخلع

عليه وأنزل بالقلعة؛ وسبب حضوره أنه أشيع عنه بحلب القبض عليه، ثم أشيع في مصر أنه خامر، فكره تمكن موسى حاجب حلب منه، لما كان بينهما من العداوة، ورأى وقوع المكروه به في غير حلب أخص عليه؛ فلما قدم مصر فرح السلطان به، لما كان عنده من إشاعة عصيانه.

ثم قدم الخبر على السلطان، بأن طيلان تسلم بيبغا أرس من الأمير طاز، وتوجه به إلى الكرك من بدر، فسر السلطان أيضاً بذلك.

ثم في يوم السبت عشرين المحرم قدم الأمير طاز بمن معه من الحجاز، وصحبته الملك المجاهد، والشريف طفيل أمير المدينة، فخرج الأمير مغلطاي إلى لقائه إلى البركة، ومعه الأمراء، ومد له سماطاً جليلاً، وقبض على من كان معه من الأمراء من أصحاب بيبغا أرس وقيدهم وهم: الأمير فاضل أخو بيبغا أرس، وناصر الدين محمد بن بكتمر الحاجب.

ثم أحضر الأمير أحمد الساقي نائب صفد مقيداً إلى بين يدي السلطان، فأرسل إلى سجن الإسكندرية.

ثم في يوم الخميس ثاني صفر، ركب الملك المجاهد في الموكب بسوق الخيل تحت القلعة، وطلع مع النائب بيبغا ططر إلى القلعة، ودخل إلى الخدمة السلطانية بالإيوان مع الأمراء والنائب. وكان موكباً عظيماً، ركب فيه جماعة من أجناد الحلقة مع مقدميهم وخلع على المقدمين وطلعوا إلى القلعة. وآستمر المجاهد يركب في الخدم مع النائب بسوق الخيل، ويطلع إلى القلعة ويحضر الخدمة.

ثم خلع السلطان على الأمير صرغتمش، وآستقر رأس نوبة على ما كان عليه أولاً، بعناية الأمير طاز والأمير مغلطاي.

وفي يوم السبت ثامن عشر من صفر برز المجاهد صاحب اليمن بثقله من القاهرة إلى الريدانية متوجهاً إلى بلاده، وصحبته الأمير قشتمر شاد الدواوين. وكتب للشريف عجلان أمير مكة بتجهيزه إلى بلاده، وكتب لبني شعبة وغيرهم من العربان بالقيام في خدمته، وخلع عليه. وقرر المجاهد على نفسه مالا يحمله في كل سنة. وأسر السلطان إلى قشتمر أنه إن رأى منه ما يريبه يمنعه من السفر، ويطالع السلطان في أمره. فرحل المجاهد من الريدانية في يوم الخميس ثالث وعشرينه، ومعه عدة مماليك آشتراها وكثير من الخيل والجمال.

ثم في أوائل جمادى الآخرة توعك السلطان ولزم الفراش أياماً؛ فبلغ طاز ومنكلي بغا ومغلطاي أنه أراد بإظهار توعكه القبض عليهم إذا دخلوا عليه، وأنه قد اتفق مع قشتمر وألطنبغا الزامر وملكتمر الماريدنى وتنكز بغا على

ذلك، وأنه ينعم عليهم بإقطاعاتهم وإمرياتهم. فواعدوا الأمراء أصحابهم، واتفقوا مع الأمير بيبغا ططر النائب والأمير طيبغا المجدي والأمير رسلان بصل، وركبوا يوم الأحد سابع وعشرين جمادى الآخرة بأطلابهم، ووقفوا عند قبة النصر خارج القاهرة. فخرج السلطان إلى القصر، وبعث يسألهم عن سبب ركوبهم، فقالوا: " أنت اتفقت مع مماليكك على مسكنا، ولا بد من إرسالهم إلينا " فبعث تنكزبغا وقشتمر وألطنبغا الزامر وملكتمر؛ فعندما وصلوا إليهم قيموهم وبعثوهم إلى خزانة شمائل، فسجنوا بها. فشق ذلك على السلطان، وبكى وقال: " قد نزلت عن السلطنة " وسير إليهم النمجاة، فسلموها للأمير طيبغا المجدي. وقام السلطان حسن إلى حريمه، فبعثوا الأمراء الأمير صرغتمش ومعه الأمير قطلوبغا الذهبي، ومعهم جماعة ليأخذوه ويحبسوه؛ فطلعوا إلى القلعة راكبين إلى باب القصر الأبلق، ودخلوا إلى الملك الناصر حسن، وأخذوه من بين حرمه، فصرخ النساء صراخاً عظيماً، وصاحت الست حدق على صرغتمش صياحاً منكراً، وقالت له: " هذا جزاؤه منك "! وسبته سباً فاحشاً. فلم يلتفت صرغتمش إلى كلامها، وأخرجه وقد غطى وجهه إلى الرحبة، فلما رآه الخدام والمماليك تباكوا عليه بكاء كثيراً. وطلع به صرغتمش، إلى رواق فوق الإيوان، ووكل به من يحفظه، وعاد إلى الأمراء. فاتفق الأمراء على خلعه من السلطنة، وسلطنة أخيه الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون، وتسلطن حسب ما يأتي ذكره.

ولما تسلطن الملك الصالح صالح، نقل أخاه الملك الناصر حسناً هذا إلى حيث كان هو ساكناً، ورتب في خدمته جماعة، وأجرى عليه من الرواتب ما يكفيه. ثم طلب الملك الصالح أخاه حسناً، ووعده أيضاً بزيادة على إقطاعه، وزاد راتبه. وزالت دولة الملك الناصر حسن.

فكانت مدة سلطنته هذه الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً، منها مدة الحجر عليه ثلاث سنين، ومدة استبداده بالأمر نحو تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً.

* * *

سلطنة الملك الصالح

صالح ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون هو العشرون من ملوك الترك بديار مصر، والثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وأمه خوند قطلو ملك بنت الأمير تنكز الناصري نائب الشام. تسلطن بعد خلع أخيه الملك الناصر حسن في يوم الإثنين ثامن وعشرين جمادى الآخرة سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، باتفاق الأمراء على ذلك.

وأمره أن الأمراء لما حملت لهم نمجاة الملك، وأخبروا بأن الناصر حسناً خلع نفسه، وهم وقوف بقية النصر خارج القاهرة، توجهوا إلى بيوتهم، وباتوا تلك الليلة وهي ليلة الإثنين بإسطبلاتهم، وأصبحوا بكرة يوم الإثنين طلعوا إلى القلعة، واجتمعوا بالرحبة داخل باب النحاس، وطلبوا الخليفة والقضاة وسائر الأمراء وأرباب الدولة، واستدعوا بالصالح هذا من الدور السلطانية؛ فأخرج لهم، فقاموا له وأجلسوه وبايعوه بالسلطنة، وألبسوه شعار الملك وأبهة السلطنة، وأركبوه فرس النوبة، من داخل باب الستارة، ورفعت الغاشية بين يديه ومشت الأمراء والأعيان بين يديه، والأمير طاز والأمير منكلي بغا آخذان بشكيمة فرسه، وسار على ذلك حتى نزل وجلس على تخت الملك بالقصر. وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وحلفوا له وحلفوه، على العادة، ولقبوه بالملك الصالح، ونودي بسلطنته بمصر والقاهرة، ودقت الكوسات، وزينت القاهرة وسائر بيوت الأمراء. وقبل سلطنته كان النيل نقص عند ما كسر عليه، فرد نقصه ونودي عليه بزيادة ثلاث أصابع من سبع عشرة ذراعاً، فتباشر الناس بسلطنته.

ثم توجه الأمير بزلار أمير سلاح إلى الشام، ومعه التشاريف والبشارة بولاية السلطان الملك الصالح، وتحليف العساكر الشامية له على العادة. ثم طلب الأمير طاز والأمير مغلطاي مفاتيح الذخيرة ليعتبرا ما فيها فوجدا شيئاً يسيراً. ثم رسم للصاحب علم الدين عبد الله بن زنبور بتجهيز تشاريف الأمراء وأرباب الوظائف على العادة، فجهزها في أسرع وقت. ووقف الأمير طاز وسأل السلطان والأمراء الإفراج عن الأمير شيخون العمري، فرسم بذلك؛ وكتب كل من مغلطاي وطاز كتاباً، وبعث مغلطاي أخاه قطليجا رأس نوبة، وبعث طاز الأمير طقطاي صهره، وجهزت له الحراقة لإحضاره من الإسكندرية في يوم الثلاثاء تاسع وعشرين جمادى الآخرة من سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة المذكورة. وكان ذلك بغير اختيار الأمير مغلطاي؛ إلا أن الأمير طاز دخل عليه وألح عليه في ذلك، حتى وافقه على مجيئه، بعد أن قال له: أخشى على نفسي من مجيء شيخون إلى مصر، فحلف له طاز أيماناً مغلظة أنه معه

على كل ما يريد، ولا يصيبه من شيخون ما يكره، وأن شيخون إذا حضر لا يعارضه في شيء من أمر المملكة، " وإني ضامن له في هذا "؛ وما زال به حتى أذعن، وكتب له مع أخيه. فشق ذلك على الأمير منكلي بغا الفخري، وعتب مغلطاي على موافقة طاز، وعرفه أن بحضور شيخون إلى مصر يزول عنهم ما هم فيه، فتقرر في ذهن مغلطاي ذلك، وندم على ما كان منه، إلى أن كان يوم الخميس أول شهر رجب، وركب الأمراء في الموكب على العادة، أخذ منكلي بغا يعرف النائب والأمراء بإنكار ما دار بينه وبين مغلطاي، وحذرهم من حضور شيخون إلى أن وافقوه، وطلعوا إلى القلعة ودخلوا إلى الخدمة. فآبتدأ النائب بحضور شيخون وقال: " إنه رجل كبير ويحتاج إلى إقطاع كبير وكلف كثيرة ". فتكلم مغلطاي ومنكلي بغا والأمراء، وطاز ساكت قد آختبط لتغير مغلطاي ورجوعه على ما وافقه عليه. وأخذ طاز يتلطف بهم، فصمم مغلطاي على ما هو عليه وقال: " مالي وجه أنظر به شيخون، وقد أخذت منصبه ووظيفته وسكنت في بيته "؛ فوافقه النائب، وقال لناظر الجيش: اكتب له مثالاً بنيابة حماة، فكتب ناظر الجيش ذلك في الوقت، وتوجه به أيدمر الدوادار في الحال في حراقة، وعين لسفر شيخون عشرون هجيناً ليركبها ويسير عليها إلى حماة.

وآنفضوا وفي نفس طاز ما لا يعبر عنه من القهر؛ ونزل واتفق هو والأمير صرغتمش وملكتمر وجماعة، واتفقوا جميعاً، وبعثوا إلى مغلطاي بأن " منكلي بغا رجل فتني، وما دام بيننا لا نتفق أبدا " فلم يصغ مغلطاي إلى قولهم، واحتج بأنه إن وافقهم لا يأمن على نفسه. فدخل عليه طاز ليلاً بالأشرفية من قلعة الجبل، حيث هي مسكن مغلطاي، وخادعه حتى أجابه إلى إخراج منكلي بغا، وتحالفا على ذلك؛ فما هو إلا أن خرج عنه طاز، أخذ دوادار مغلطاي يقبح على مغلطاي ما صدر منه، ويهول عليه الأمر، بأنه متى أبعد منكلي بغا وحضر شيخون أخذ لا محالة، فمال إليه.

وأما شيخون، لما ورد عليه الرسول بإطلاقه أولاً، فإنه خرج من الإسكندرية وهو ضعيف، وركب الحراقة، وفرح أهل الإسكندرية لخلاصه. وسافر، فوافاه كتاب الأمير صرغتمش بأنه إذا أتاك أيدمر بنيابة حماة، لا ترجع وأقبل إلى القاهرة فأنا وطاز معك؛ فلما قرأ شيخون الكتاب تغير وجهه، وعلم أنه قد حدث في أمره شيء. فلم يكن غير ساعة، حتى لاحت له حراقة أيدمر، فمر شيخون وهو مقلع، وأيدمر منحدر إلى أن تجاوزه، وأيدمر يصيح ويشير بمنديله إليه فلا يلتفتون إليه. فأمر أيدمر بأن تجهز مركبه بالقلع، وترجع خلف شيخون؛ فما تجهز قلع مركب أيدمر حتى قطع شيخون بلاداً كثيرة، وصارت حراقته تسير وأيدمر في أثرهم، فلم يدركوه إلا بكرة يوم السبت. فعندما طلع إليه أيدمر وعرفه ما رسم به، من عوده إلى حماة، وقرأ المرسوم الذي على يد أيدمر برجوعه إلى نيابة حماة، وإذا بالخيل على البر يتبع

بعضها بعضاً، والمراكب قد ملأت وجه الماء تبادر لبشارته وإعلامه بما وقع من الركوب ومسك مغلطاي ومنكلي بغا، فسر شيخون بذلك سروراً عظيماً، وسار إلى أن أرسى بساحل بولاق في يوم الأحد رابع شهر رجب، بعد أن مشت له الناس إلى منية الشيرج؛ فلما رأوه صاحوا ودعوا له وتلقته المراكب، وخرج الناس إلى الفرجة عليه، حتى بلغ كراء المركب إلى مائة درهم؛ وما وصلت الحراقة إلا وحولها فوق ألف مركب. وركبت الأمراء إلى لقائه، وزينت الصليبة، وأشعلت الشموع، وخرجت مشايخ الصوفية بصوفيتهم إلى لقائه؛ فسار شيخون، في موكب لم ير مثله لأمير قبله. وسار حتى طلع القلعة وقبل الأرض بين يدي السلطان الملك الصالح، فأقبل عليه السلطان وخلع عليه تشريفاً جليلاً، وقلع عنه ثياب السجن، وهي ملوطة طرح محرر. ثم نزل إلى منزله والتهاني تتلقاه.

وفي عاشر جمادى الآخرة خلع السلطان على الأمير شيخون العمري، واستقر رأس نوبة كبيراً عوضاً عن صرغتمش لأمر اقتضى ذلك. وعند لبس شيخون الخلعة قدم عليه الخبر بولادة بعض سراريه ولداً ذكراً، فسر به سروراً زائداً، فإنه لم يكن له ولد ذكر.

وفي يوم الأربعاء عاشر شهر رجب قدم كتاب الأمير أرغون الكاملي نائب الشام يتضمن أنه قبض على قاصد الأمير منجك الوزير، بكتابه إلى أخيه بيبغا أرس نائب حلب، يحسن له الحركة والعصيان. وأرسل الكتاب، وإذا فيه أنه أتفق مع سائر الأمراء، وما بقي إلا أن يركب ويتحرك. فآقتضى الرأي التأني حتى يحضر الأمراء والنائب إلى الخدمة من الغد ويقرأ الكتاب عليهم ليدبروا الأمر على ما يقع عليه الاتفاق. فلما طلع الجماعة من الغد إلى الخدمة لم يحضر منجك، فطلب فلم يوجد، وذكر حواشيه أنهم من عشاء الآخرة لم يعرفوا خبره. فركب الأمير صرغتمش في عدة من الأمراء وكبس بيوت جماعته فلم يقع له على خبر؛ وتفقدوا مماليكه ففقد منهم آثنان؛ فنودي عليه في القاهرة، وهدد من أخفاه؛ وأخرج عيسى بن حسن الهجان في جماعة من عرب العائذ على النجب لأخذ الطرقات عليه، وكتب إلى العربان ونواب الشام وولاة الأعمال على أجنحة الطيور بتحصيله، فلم يقدروا عليه، وكبست بيوت كثيرة.

ثم في يوم الأربعاء رابع وعشرين شهر رجب قدم الخبر بعصيان الأمير أحمد الساقي نائب حماة وبعصيان الأمير بكلمش نائب طرابلس.

وفي يوم السبت سابع وعشرينه، كتب بإحضار الأمير بيبغا أرس نائب حلب إلى الديار المصرية، وكتب ملطفات لأمراء حلب تتضمن أنه: إن آمتنع من الحضور فهو

معزول؛ ورسم لحامل الكتاب أن يعلم بيبغا أرس بذلك مشافهة بحضرة أمراء حلب.

فقدم البريد من الشام بموافقة ابن دلغادر لبيبغا أرس، وأنه تسلطن بحلب، وتلقب بالملك العادل، وأنه يريد مصر لأخذ غرمائه، وهم طاز وشيخون وصرغتمش وبزلار وأرغون الكاملي نائب الشام. فلما بلغ ذلك السلطان والأمراء، رسم للنائب بيبغا ططر حارس الطير، بعرض أجناد الحلقة، وتعيين مضافيهم من عبرة أربعمائة دينار الإقطاع فما فوقها ليسافروا.

ثم ركب السلطان الملك الصالح من قلعة الجبل في يوم الإثنين سابع شعبان في بقية الأمراء والخاصكية ونزل إلى الريدانية خارج القاهرة وخلع على الأمير قبلاي باستقراره نائب الغيبة ورتب أمير علي الماريدني أن يقيم بالقلعة ومعه الأمير كشلي السلاح دار ليقيما داخل باب القلة، ويكون على باب القلعة الأمير أرنان والأمير قطلوبغا الذهبي؛ ورتب الأمير مجد الدين موسى الهذباني مع والي مصر لحفظ مصر. ثم استقل السلطان بالمسير من الريدانية في يوم الثلاثاء بعد الظهر.

وقدم البريد بأن الأمير مغلطاي الدوادار خرج من دمشق يريد مصر، وأن الأمير أرغون الكاملي نائب الشام لما بلغه خروج بيبغا أرس بمن اجتمع معه من العساكر، عزم على لقائه؛ فبلغه مخامرة أكثر أمراء دمشق، فاحترس على نفسه، وصار يجلس بالميدان وهو لابس آلة الحرب. ثم اقتضى رأي الأمير مسعود بن خطير أن النائب لا يلقى القوم، وأنه ينادي بالعرض للنفقة في منزلة الكسوة، ويركب إليها، فإذا خرج العسكر إليه بمنزلة الكسوة، منعهم من عبورهم إلى دمشق، وسار بهم إلى الرملة في انتظار قدوم السلطان، وأنه استصوب ذلك وفعله، وأنه مقيم بعسكر دمشق على الرملة، وأن الأمير ألطنبغا برناق نائب صفد سار إلى بيبغا أرس، وأن بيبغا أرس سار من حلب إلى حماة واجتمع مع نائبها أحمد الساقي وبكلمش نائب طرابلس، وسار بهم إلى حمص؛ وعند نزوله على حمص وصل إليه مملوكا الأمير أرقطاي بكتاب السلطان ليحضر، فقبض عليهما وقيدهما وسار يريد دمشق، فبلغه مسير السلطان واشتهر ذلك في عسكره، وأنه عزل عن نيابة حلب، فانحلت عزائم كثير ممن معه من المقاتلة، وأخذ بيبغا أرس في الاحتفاظ بهم والتحرز منهم إلى أن قدم دمشق يوم الخميس خامس وعشرين شهر رجب، فإذا أبواب المدينة مغلقة والقلعة محصنة. فبعث بيبغا أرس، إلى الأمير إياجي نائب قلعتها يأمره بالإفراج عن قردم وأن يفتح أبواب المدينة؛ ففتح أبواب المدينة ولم يفرج عن قردم. فركب الأمير أحمد الساقي نائب حماة وبكلمش نائب طرابلس من الغد ليغيرا على الضياع، فوافى بعض

عسكر بيبغا أرس نجاباً يخبر بمسك منجك ومسير السلطان من خارج القاهرة. وعاد أحمد وبكلمش في يوم الإثنين رابع عشر شعبان وقد نزل طاز بمن معه المزيرب؛ فارتج عسكر بيبغا أرس، وتواعد قراجا بن دلغادر وحيار بن مهنا على الرحيل، فما غربت الشمس إلا وقد خرجا بأثقالهما وأصحابهما وسارا. فخرج بيبغا أرس في أثرهما فلم يحركهما؛ وعاد بكرة يوم الثلاثاء، فلم يستقر قراره حتى دقت البشائر بقلعة دمشق بأن الأمير طاز والأمير أرغون الكاملي نائب دمشق وافيا دمشق وأن الأميرشيخون والسلطان ساقة؛فبهت بيبغا أرس وتفرق عنه من كان معه، فركب عائداً إلى حلب في تاسع عشر شعبان؛فكانت إقامته بدمشق أربعة وعشرين يوماً أفسد أصحابه بدمشق فيها مفاسد وقبائح من النهب والسبي والحريق والغارات على الضياع من حلب إلى دمشق، وفعلوا كما فعل التتار أصحاب قازان وغيره. فبعث السلطان الأمير أسندمر العلائي إلى القاهرة بالبشارة فقدمها يوم الجمعة خامس وعشرين شعبان، ودقت البشائر لذلك وزينت القاهرة.

وأما السلطان الملك الصالح فإنه التقى مع الأمير أرغون شاه الكاملي نائب الشام على بدعرش من عمل غزة، وقد تأخر معه الأمير طاز بمن معه فدخلوا غزة، وخلع السلطان على أرغون المذكور باستمراره في نيابة دمشق، وأنعم عليه بأربعمائة ألف درهم، وأنعم على أمير مسعود بن خطير بألف دينار، وعلى كل أمراء دمشق كل واحد قدر رتبته، فكان جملة ما أنفق السلطان فيهم ستمائة ألف درهم.

وتقدم الأمير شيخون والأمير طاز والأمير أرغون نائب الشام إلى دمشق، وتأخر الأمير صرغتمش صحبة السلطان ليدبر العسكر. ثم تبعهم السلطان إلى دمشق فدخلها في يوم الخميس مستهل شهر رمضان، وخرج الناس إلى لقائه، وزينت مدينة دمشق، فكان لدخوله يوم مشهود. ونزل السلطان بقلعة دمشق، ثم ركب منها في الغد يوم الجمعة ثانيه إلى الجامع الأموي في موكب جليل حتى صلى به الجمعة. وكان الأمراء قد مضوا في طلب بيبغا أرس.

وأما بيبغا أرس فانه قدم إلى حلب في تاسع وعشرين شعبان، وقد حفرت خنادق تجاه أبواب حلب وغلقت. وامتنعت القلعة عليه ورمته بالحجارة والمجانيق، وتبعهم الرجال من فوق الأسوار بالرمي عليه، وصاحوا عليه؛ فبات تلك الليلة بمن معه وركب في يوم الخميس مستهل شهر رمضان للزحف على مدينة حلب، وإذا بصياح عظيم، والبشائر تحق في القلعة؛ وهم

يصيحون يا منافقون، العسكر وصل. فالتفت بمن معه، فإذا صناجق على جبل جوشن، فانهزموا عند ذلك بأجمعهم إلى نحو البرية. ولم يكن ما رأوه على جبل جوشن عسكر السلطان، ولكنه جماعة من جند حلب وعسكر طرابلس كانوا مختفين من عسكر بيبغا أرس عند خروجه من دمشق، فساروا في أعقابه يريدون الكبسة على بيبغا أرس وتعبوا على جبل جوشن، فعندما رآهم بيبغا لم يشك أنهم عسكر السلطان فانهزم. وكان أهل بانقوسا قد وافقوهم وتقدموا عنهم، فمسكوا المضايق على بيبغا، وأدركهم العسكر المذكور من خلفهم، فتمزق عساكر بيبغا أرس، وقد آنعقد عليهم الغبار حتى لم يمكن أحد أن ينظر رفيقه فأخذهم العرب وأهل حلب قبضاً باليد، ونهبوا الخزائن والأثقال، وسلبوهم ما عليهم من آلة الحرب وغيره. ونجا بيبغا أرس بنفسه بعد أن امتلأت الأيدي بنهب ما كان معه، وهو شيء يجل عن الوصف. وتتبع أهل حلب أمراءه ومماليكه وأخرجوهم من عدة مواضع، فظفروا بكثير منهم، فيهم أخوه الأمير فاضل، والأمير ألطنبغا العلائي شاد الشراب خاناه، وألطنبغا برناق نائب صفد، وملكتمر السعيدي، وشادي أخو نائب حماة، وطيبغا حلاوة الأوجاقي، وابن أيدغدي الزراق، ومهدي شاد الدواوين بحلب، وأسنباي قريب ابن دلغادر، وبهادر الجاموس، وقليج أرسلان أستادار بيبغا أرس، ومائة مملوك من مماليك الأمراء، فقيدوا الجميع وسجنوا. وتوجه مع الأمير بيبغا أرس أحمد الساقي نائب حماة وبكلمش نائب طرابلس وطشتمر القاسمي نائب الرحبة وآقبغا البالسي وطيدمر وجماعة أخر، تبلغ عدتهم نحو مائة وستة عشر نفراً.

ثم دخل الأمراء حلب وأخذوا أموال بيبغا أرس؛ وكتبوا إلى قراجا بن دلغادر بالعفو عن أمير أحمد نائب حماة والقبض على بيبغا أرس ومن معه؛ فأجاب بأنه ينتظر في القبض عليه مرسوم السلطان، وقد نزل بيبغا أرس عنده. وسأل إرسال أمان لبيبغا أرس وأنه مستمر على إمرته، فجهز له ذلك فآمتنع من تسليمه؛ فطلب الأمراء رمضان من أمراء التركمان، وخلع عليه بإمرة قراجا بن دلغادر وإقطاعه. وعاد الأمراء من حلب، واستقر بها الأمير أرغون الكاملي نائب الشام؛ وعاد الجميع إلى دمشق ومعهم الأمراء المقبوض عليهم في يوم الجمعة سلخ شهر رمضان. وصفوا العيد بدمشق مع السلطان الملك الصالح صالح. وأقاموا إلى يوم الإثنين ثالث شوال، فجلس السلطان بطارمة قلعة دمشق وأخرج الأمراء المسجونون في الحديد ونودي عليهم: أهذا جزاء من يخامر على السلطان ويخون الأيمان. ووسطوهم واحداً بعد واحد، وقد تقدم ذكر أسمائهم عند القبض عليهم؛ فوسط الجميع، ما خلا ملكتمر

السعيدي فإنه أعيد إلى السجن. وخلع السلطان على أيتمش الناصري واستقر في نيابة طرابلس عوضاً عن بكلمش السلاح دار. وخلع على طنيرق بنيابة حماة عوضاً عن أحمد الساقي، وعلى الأمير شهاب الدين أحمد بن صبيح بنيابة صفد عوضاً عن ألطنبغا برناق.

ثم صلى السلطان صلاة الجمعة بالجامع الأموي وهو سابع شوال، وخرج من دمشق يريد الديار المصرية بأمرائه وعساكره، فكانت مدة إقامته بدمشق سبعة وثلاثين يوماً. وسار حتى وصل القاهرة في يوم الثلاثاء خامس وعشرين شوال من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، ومشى بفرسه على الشقق الحرير التي فرشت له بعد أن خرج الناس إلى لقائه والتفرج عليه، فكان لدخوله القاهرة أمر عظيم لم يتفق ذلك لأحد من إخوته. وعندما طلع إلى القلعة تلقته أمه وجواريه ونثروا على رأسه الذهب والفضة، بعد أن فرشت له طريقه أيضاً بالشقاق الأطلس الملونة، والتهاني تزفه؛ ولم يبق بيت من بيوت الأمراء إلا وفيه الأفراح والتهاني.

وأما أمر الديار المصرية فإنه لما كان يوم الإثنين ثامن وعشرين ذي الحجة قدم البريد من حلب بأخذ أحمد الساقي نائب حماة، وبكلمش نائب طرابلس، من عند ابن دلغادر وسجنا بقلعة حلب، فأمر السلطان إلى نائب حلب بخلعه.

وفي هذه الأيام توفي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بعد أن عهد لأخيه أبي بكر، فطلب أبو بكر وخلع عليه خلعة الخلافة بحضرة السلطان والأمير شيخون، ولقب بالمعتضد بالله أبي بكر. يأتي ذكره في الوفيات على عادة هذا الكتاب. وقد ذكرناه في المنهل الصافي بأوسع مما يأتي ذكره فيه، وأيضاً في مختصرنا المنعوت: " بمورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة ". وأما أمر بيبغا أرس فإنه لما أرسل قراجا بن دلغادر أحمد الساقي نائب حماة وبكلمش نائب طرابلس إلى حلب في القيود واعتقلا بقلعة حلب حسب ما ذكرناه، فكان ذلك آخر العهد بهما. ثم أرسل قراجا المذكور بيبغا أرس بعد أيام في محرم سنة أربع وخمسين وسبعمائة فاعتقل بقلعة حلب، وكان ذلك آخر العهد به. أيضاً. رحمه الله. وقيل: إنه ما حضر إلى حلب إلا رؤوسهم. والله أعلم.

ثم رسم السلطان الملك الصالح صالح أن يقر أهل الذمة على ما أقرهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عليه من ترك تشبههم بالمسلمين في أمر من الأمور، وترك ركوب الخيل وحمل السلاح، ورفع أصواتهم على أصوات المسلمين وأشباه ذلك.

ثم رسم بنفي الأمير منجك اليوسفي الوزير كان إلى صفد بطالاً.

ثم استهلت سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكان فيها الواقعة والفتنة بين حاشية طاز وبين صرغتمش. والسبب لهذه الحركة أن الأمير صرغتمش كان يخاف من طاز ويغض منه، وكذلك كان طاز يغض من صرغتمش؛ وكان طاز يدخل على شيخون مراراً عديدة بمسك صرغتمش، وكان شيخون يكره الفتن والفساد، وقصده الصلاح للأمور بكل ما يمكن، فكان شيخون يعده ويصبره. وكان صرغتمش أيضاً يخاف شر طاز ويقول لشيخون: هذا ما يريد إلا هلاكي، فكان شيخون يطمئنه على نفسه ويعده بكل خير. وكان أخوه طاز وحواشيه تحرضه على صرغتمش وعلى إثارة الفتنة. وقوي أمر طاز وإخوته وخرج عن الحد، وهم الأمير جنتمر وكلتاي وصهره طقطاي، فهؤلاء الذين كانوا يحركون طاز على قيام الفتنة، ومسك صرغتمش ليستبد طاز بالأمر وحده، ويكونوا هم عظماء الدولة، وشيخون يعلم بذلك ويسكنهم ويرجعهم عن قصدهم، وطاز يستحي من شيخون. وطال الأمر إلى أن اتفق طاز مع إخوته المذكورين وغيرهم من مماليكه وأصحابه أنه يخرج هو إلى الصيد؛ فإذا غاب عن المدينة، يركب هؤلاء على صرغتمش ومن يلوذ به ويمسكونه في غيبته، فيكون بغيبة طاز له عذر عند شيخون من حيائه منه؛ فلما خرج طاز إلى الصيد بالبحيرة بإذن الأمير شيخون له، وما عند شيخون علم من هذا الاتفاق، رتب حاشية طاز وإخوته ومن يلوذ به أمرهم، واجتمعوا ولبسوا السلاح وركبوا على صرغتمش؛ فلما سمع شيخون بذلك أمر مماليكه أن يركبوا بالسلاح، وكانوا مقدار سبعمائة مملوك، فركبوا. وركب الأمير صرغتمش ومن يلوذ به. ووقع الحرب بينهم وبين إخوة طاز، وتقاتلا فانكسر إخوة طاز وقبض عليهم، وعلى أكابر مماليك طاز وحواشيه، فهربت البقية؛ فدخل صرغتمش هو ومن بقي من أكابر الأمراء إلى شيخون وقالوا: " لا بد من خلع الملك الصالح صالح وإعادة الملك الناصر حسن إلى السلطنة " لكون الصالح كان يميل إلى طاز، فاعتذر شيخون بأعذار غير مقبولة، وأراد إبقاء الصالح، فلم يوافقوه؛ وما زالوا به حتى أذعن، واتفقوا على خلعه فخلع، وأعيد الملك الناصر حسب ما يأتي ذكره في ترجمته.

وكان خلع الملك الصالح صالح في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً. وحبس بالقلعة في بعض دورها إلى أن توفي بها في ذي الحجة سنة إحدى وستين وسبعمائة، وله نحو سبع وعشرين سنة. ودفن بتربة عمه الملك الصالح علي بن قلاوون الخاتونية، بالقرب من المشهد النفيسي خارج القاهرة. وكان - رحمه الله - ملكاً جليلاً مليح الشكل عاقلاً، لم تشكر سيرته ولم تذم، لأنه لم يكن له في سلطنته إلا مجرد الاسم فقط، لغلبة شيخون وطاز وصرغتمش على الأمر، لأنهم كانوا هم حل

المملكة وعقدها وإليهم أمورها لا لغيرهم.

وأما أمر طاز فإنه يأتي - إن شاء الله تعالى - في أول سلطنة الملك الناصر حسن، بعد ذكر حوادث سني الملك الصالح هذا، كما هي عادة هذا الكتاب. انتهى والله سبحانه أعلم.

* * *

سلطنة الناصر حسن الثانية

قد تقدم ذكره في سلطنته الأولى من هذا الكتاب، وذكرنا أيضاً سبب خلعه من السلطنة بأخيه الملك الصالح صالح، ثم ذكرنا في ترجمة أخيه الصالح سبب خلع الصالح وإعادة الناصر هذا فلا حاجة لذكر ذلك ثانياً. والمقصود هنا الآن ذكر عود الملك الناصر حسن إلى ملكه فنقول:

ولما قبض على أصحاب الأمير طاز، اتفق صرغتمش مع الأمير شيخون على خلع الملك الصالح من السلطنة وسلطنة الملك الناصر حسن ثانياً، وأبرموا ذلك حتى تم لهم. فقاموا ودخلوا إلى القلعة، وأرسلوا طلبوا الملك الصالح؛ فلما توجه إليهم أخذ من الطريق وحبس في بيت من قلعة الجبل. وأرسلوا أشهدوا عليه بأنه خلع نفسه من السلطنة؛ ثم طلبوا الملك الناصر حسناً من محبسه بالقلعة، وكلموه في عوده، وأشرطوا عليه شروطاً قبلها. فأخذوه إلى موضع بالقلعة، فيه الخليفة والقضاة، وبايعوه ثانياً بالسلطنة، ولبسوه تشريف السلطنة وأبهة الملك؛ وركب فرس النوبة ومشت الأمراء بين يديه إلى الإيوان، فنزل وجلس على تخت الملك، وقبلوا الأمراء الأرض بين يديه على العادة؛ وكان ذلك في يوم الإثنين ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

وأصبح الملك الناصر حسن في بكرة يوم الثلاثاء وهو سلطان مصر بلا منازع. وصفا له الوقت، وأخذ وأعطى، وقرب من اختار وأبعد من أبعد، وخلع على الأمير ألجاي اليوسفي واستقر به حاجب الحجاب عوضاً عن طشتمر القاسمي. وخلع على جماعة أخر بعدة وظائف. ثم أخذ في ترقية مماليكه والإنعام عليهم، وأعيان مماليكه: يلبغا العمري وطيبغا الطويل، وجماعة من أولاد الأمراء.

وكان يميل لإنشاء أولاد الناس وترقيهم إلى الرتب السنية، لا لحبه لهم، بل كان يقول: هؤلاء مأمونو العاقبة، وهم في طي علمي، وحيث وجهتهم إليه توجهوا، ومتى أحببت عزلهم أمكنني ذلك بسهولة، وفيهم أيضاً رفق بالرعية ومعرفة بالأحكام حتى إنه كان في أيامه منهم عدة كثيرة، منهم أمراء مقدمون، يأتي ذكر أسمائهم في آخر ترجمته، إن شاء الله تعالى.

ثم في هذه السنة وقع الوباء بالديار المصرية، إلى أوائل سنة آثنتين وستين وسبعمائة. ومات في هذا الوباء جماعة كثيرة من الأعيان وغيرهم، وأكثرهم كان لا يتجاوز مرضه أربعة أيام إلى خمسة، ومن جاوز ذلك يطول مرضه؛

وهذا الوباء يقال له: الوباء الوسطي أعني بين وباءين.

وفي هذه الأيام عظم يلبغا العمري في الدولة حتى صار هو المشار إليه، وثقلت وطأته على أستاذه الملك الناصر حسن، مع تمكن الملك الناصر في ملكه. وكان يلبغا العمري وطيبغا الطويل وتمان تمر هم أعظم أمرائه وخاصكيته من مماليكه.

فلما أن استهلت سنة آثنتين وستين وسبعمائة بلغ الملك الناصر أن يلبغا ينكر عليه من كونه يعطي إلى النساء الإقطاعات الهائلة، وكونه يختص بالطواشية ويحكمهم في المملكة وأشياء غير ذلك. وصارت الخاصكية ينقلون للسلطان عن يلبغا أموراً قبيحة في حقه في مثل هذا المعنى وأشباهه؛ فتكلم الملك الناصر حسن مع خواصه بما معناه: إنه قبض على أكابر أمرائه من مماليك أبيه، حتى استبد بالأمر من غير منازع، وأنشأ مماليكه مثل يلبغا المذكور وغيره، حتى يسلم من معارض، فصار يلبغا يعترض عليه فيما يفعله، فعظم عليه ذلك وندم على ترقيه، وأخذ يترقب وقتاً يمسك يلبغا فيه.

واتفق بعد ذلك أن السلطان حسناً خرج إلى الصيد ببر الجيزة بالقرب من الهرمين، وخرجت معه غالب أمرائه يلبغا وغيره على العادة. فلما كان يوم الثلاثاء تاسع جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين المذكورة، أراد السلطان القبض على يلبغا لما بلغه عن يلبغا أنه يريد الركوب عليه هناك؛ فصبر السلطان حسن حتى دخل الليل، فركب ببعض خاصكيته من غير استعداد ولا اكتراث بيلبغا، وسار يريد يكبس على يلبغا بمخيمه، فنم بعض خاصكية السلطان بذلك إلى يلبغا. فاستعد يلبغا بمماليكه وحاشيته لقتاله، وطلب خشداشيته وواعدهم بالإمريات والإقطاعات، وخوفهم عاقبة أستاذهم الملك الناصر حسن المذكور، حتى وافقه كثير منهم. كل ذلك والملك الناصر في غفلة استخفافاً بمملوكه يلبغا المذكور، حتى قارب السلطان خيمة يلبغا، خرج إليه يلبغا بمن معه وقاتله، فلم يثبت السلطان لقلة من كان معه من مماليكه؛ وانكسر وهرب، وعدى النيل، وطلع إلى قلعة الجبل في الليل - في ليلة الأربعاء التاسع من جمادى الأولى من سنة اثنتين وستين المذكورة - وتبعه يلبغا ومن معه يريد القلعة، فاعترضه ابن المحسني أحد أمراء الألوف بمماليكه، ومعه الأمير قشتمر المنصوري، وواقعا يلبغا ببولاق وقعة هائلة، انكسر فيها يلبغا مرتين، وابن المحسني يتقدم عليه. كل ذلك وابن المحسني ليس له علم من السلطان أين ذهب، بل بلغه أنه توجه إلى جهة القلعة؛ فأخذ ابن المحسني، في قتال يلبغا وتعويقه عن المسير إلى جهة القلعة. واشتد

القتال بين يلبغا وابن المحسني حتى أردف يلبغا الأمير ألجاي اليوسفي حاجب الحجاب وغيره، فانكسر عند ذلك ابن المحسني وقشتمر، وقيل: إن يلبغا لما رأى شدة ابن المحسني في القتال دس عليه من رجعه عن قتاله وأوعده بأوعاد كثيرة، منها أنه لا يغير عليه ما هو فيه في شيء من الأشياء خوفاً من طلوع النهار قبل أن يدرك القلعة، وأخذ السلطان الملك الناصر حسن، لأن الناصر كان طلع إلى قلعة الجبل في الليل، ولم يشعر به أحد من أمرائه ومماليكه وخواصه، وصاروا في حيرة من عدم معرفتهم أين توجه السلطان، حتى يكونوا معه على قتال يلبغا. وعلم يلبغا أنه متى تعوق في قتال ابن المحسني إلى أن يطلع النهار، أتت العساكر الملك الناصر من كل فج، وذهبت روحه؛ فلما ولى ابن المحسني عنه، آنتهز يلبغا الفرصة بمن معه، وحرك فرسه، وصحبته من وافقه، إلى جهة القلعة، حتى وصل إليها في الليل. والله أعلم.

وأما أمر السلطان حسن، فإنه لما آنكسر من مملوكه يلبغا، وتوجه إلى قلعة الجبل حتى وصل إليها في الليل، ألبس مماليكه المقيمين بالقلعة، فلم يجد لهم خيلاً لأن الخيول كانت في الربيع. وبينما هو في ذلك طرقه يلبغا قبل أن يطلع النهار وتجتمع العساكر عليه، فلم يجد الملك الناصر قوة للقائه، فلبس هو وأيدمر الدواداري زي الأعراب ليتوجها إلى الشام، ونزلا من القلعة وقت التسبيح؛ فلقيهما بعض المماليك فأنكروا عليهما وأمسكوهما في الحال، وأحضروهما إلى بيت الأمير شرف الدين موسى بن الأزكشي أستادار العالية، فحملهما في الوقت إلى يلبغا حال طلوع يلبغا إلى القلعة، فقتلهما يلبغا في الحال قبل طلوع الشمس.

وكان عمر السلطان حسن يوم قتل نيفاً على ثلاثين سنة تخميناً؛ وكانت مدة ملكه في سلطنته هذه الثانية ست سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام. وكان قتله وذهاب ملكه على يد أقرب الناس إليه من مماليكه وخواصه، وهم: يلبغا العمري وطيبغا الطويل وتمان تمر وغيرهم، وهم من مشترواته، اشتراهم، ورباهم، وخولهم في النعم، ورقاهم إلى أعلى المراتب، خوفاً من أكابر الأمراء من مماليك أبيه؛ فكان ذهاب روحه على أيديهم، وكانوا عليه أشد من تلك الأمراء. فإن أولئك لما خلعوه من السلطنة بأخيه الملك الصالح، حبسوه بالدور من القلعة مكرماً مبجلاً، وأجروا عليه الرواتب السنية، إلى أن أعادوه إلى ملكه ثانياً، وهم مثل شيخون وصرغتمش وقبلاي النائب وغيرهم؛ فصار يتذكر ما قاساه منهم في خلعه من السلطنة وتحكمهم عليه، فأخذ في

التدبير عليهم حتى قبض على جماعة كثيرة منهم وأبادهم. ثم رأى أنه ينشىء مماليكه ليكونوا له حزباً وعضداً؛ فكانوا بعكس ما أمله منهم، ووثبوا عليه، وكبيرهم يلبغا المقدم ذكره. وعندما قبضوا عليه لم يمهلوه ساعة واحدة؛ وعندما وقع نظرهم عليه قتلوه من غير مشاورة بعضهم لبعض، موافاة لحقوق تربيته لهم وإحسانه إليهم؛ فكان بين فعل مماليك أبيه به وبين فعل مماليكه له فرق كبير. ولله در القائل: " معاداة العاقل، ولا مصاحبة الجاهل ".

قلت: لا جرم أن الله تعالى عز وجل عامل يلبغا المذكور من مماليكه بجنس ما فعله مع أستاذه، ووثبوا عليه وقتلوه أشر قتله، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وكان السلطان حسن محباً للرعية، وفيه لين جانب. حمدت سائر خصاله، لم يعب عليه في ملكه سوى ترقيه لمماليكه في أسرع وقت، فإنه كان كريماً باراً بإخوته وأهله، يميل إلى فعل الخير والصدقات؛ وله مآثر بمكة المشرفة، واسمه مكتوب في الجانب الشرقي من الحرم، وعمل في زمنه باب الكعبة الذي هو بابها الآن، وكسا الكعبة الكسوة التي هي إلى الآن في باطن البيت العتيق. وكان كثير البر لأهل مكة والمدينة، إلى أن كانت الواقعة لعسكره بمكة في أواخر سنة إحدى وستين وسبعمائة التي كان مقدم عسكرها الأمير قندس وابن قراسنقر وحصل لهم الكسرة والنهب والقتل من أهل مكة وإخراجهما من مكة على أقبح وجه. غضب السلطان بعد ذلك على أهل مكة، وأمر بتجهيز عسكر كبير إلى الحجاز للانتقام من أهل مكة، وعزم على أنه ينزعها من أيدي الأشراف إلى الأبد. وكاد يتم له ذلك بسهولة وسرعة، وبينما هو في ذلك وقع بينه وبين مملوكه يلبغا وكان من أمره ما كان.

وكان السلطان حسن يميل إلى تقدمة أولاد الناس إلى المناصب والولايات، حتى إنه كان غالب نواب القلاع بالبلاد الشامية في زمانه أولاد ناس، ولهذا لم يخرج عليه منذ سلطنته بالبلاد الشامية خارجي. وكان في أيامه من أولاد الناس ثمانية من مقدمي الألوف بالديار المصرية.

* * *

سلطنة المنصور محمد السلطان الملك المنصور

أبو المعالي، ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك المظفر حاجي ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون المنصوري، الحادي والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. جلس على تخت الملك صبيحة قبض على عمه الملك الناصر حسن، وهو يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة، وكان عمره يومئذ نحوا من أربع عشرة سنة، بعد أن اجتمع الخليفة المعتضد بالله والقضاة والأعيان. ثم فوض عليه خلعة السلطنة، وهو التشريف الخليفتي، في يوم الخميس عاشر الشهر المذكور، ولقبوه الملك المنصور، وحلفت له الأمراء على العادة. وركب من باب الستارة من قلعة الجبل إلى الإيوان وعمره ست عشرة سنة. قاله العيني. والأصح ما قلناه.

ولما بلغ خبر قتل الملك الناصر حسن إلى الشأم عظم ذلك على بيدمر نائب الشأم وخرج عن الطاعة في شعبان سنة اثنتين وستين وسبعمائة وعصى معه أسندمر الزيني، ومنجك اليوسفي، وحصنوا قلعة دمشق. فلما بلغ ذلك يلبغا العمري استشار الأمراء في أمرهم، فاتفقوا على خروج السلطان إلى البلاد الشامية. وتجهز يلبغا، وجهز السلطان الملك المنصور إلى السفر، وأنفق في الأمراء والعساكر. وخرج السلطان ويلبغا بالعساكر المصرية إلى الريدانية في أواخر شعبان.

ثم رحل الأمير يلبغا جاليش العسكر في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان. ورحل السلطان الملك المنصور في يوم الثلاثاء، الثاني منه، ببقية العساكر وساروا حتى وصلوا دمشق في السابع والعشرين من شهر رمضان المذكور، فتحصن الأمراء المذكورون بمن معهم في قلعة دمشق، فلم يقاتلهم يلبغا، وسير إليهم في الصلح. وترددت الرسل إليهم، وكان الرسل قضاة الشام، حتى حلف لهم يلبغا أنه لا يؤذيهم وأمنهم، فنزلوا حينئذ إليه، فحال وقع بصره عليهم أمر بهم، فقبضوا وقيدوا، وحملهم إلى الإسكندرية إلى الاعتقال بها. وخلع يلبغا على أمير علي المارديني بنيابة دمشق على عادته أولاً - وهذه ولاية أمير علي الثالثة على دمشق - وتولى الأمير قطلوبغا الأحمدي رأس نوبة نيابة حلب عوضاً عن الأمير شهاب الدين أحمد بن القشتمري.

وأقام السلطان ويلبغا مدة أيام، ومهد يلبغا أمور البلاد الشامية حتى استوثق له الأمر. ثم عاد إلى جهة الديار المصرية وصحبته الملك المنصور والعساكر حتى وصل إليها في ذي القعدة من سنة اثنتين وستين وسبعمائة.

وصار الأمر جميعه ليلبغا. وأخذ يلبغا في عزل من اختار عزله وتولية من اختاره، فأخلع على الطواشي سابق الدين مثقال الآنوكي زمام الدار، واستقر في تقدمة

المماليك السلطانية عوضاً عن الطواشي شرف الدين مخلص الموفقي.

ثم تزوج الأمير الكبير يلبغا بطولوبيه زوجة أستاذه الملك الناصر حسن. وفي هذه السنة بويع المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بالخلافة بعد وفاة أبيه المعتضد بالله أبي بكر بعهد من أبيه في يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة.

ثم أشيع في هذه السنة عن السلطان الملك المنصور محمد أمور شنعة نفرت قلوب الأمراء منه. واتفقوا على خلعه من السلطنة، فخلع في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة. وتسلطن بعده ابن عمه الملك الأشرف شعبان بن حسين. وحسين المذكور لم يتسلطن، غير أنه كان لقب بالأمجد من غير سلطنة. وأخذوا الملك المنصور محمداً وحبسوه داخل الدور السلطانية بقلعة الجبل. وكانت مدة سلطنته سنتين وثلاثة أشهر وستة أيام، وليس له فيها من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط. والأتابك يلبغا هو المتصرف في سائر أمور المملكة.

واستمر الملك المنصور محبوساً بالحور السلطانية من القلعة إلى أن مات بها في ليلة السبت تاسع المحرم من سنة إحدى وثمانمائة. وزوج الملك الظاهر برقوق الوالد بابنته خوند فاطمة في حياة والدها الملك المنصور المذكور، واستولدها الوالد عدة أولاد، وماتت تحته في سنة أربع وثمانمائة. ولما مات الملك المنصور صلى عليه الملك الظاهر برقوق بالحوش السلطاني من القلعة، ودفن بتربة جدته أم أبيه بالروضة خارج باب المحروق بالقرب من الصحراء. وكان محباً للهو والطرب راضياً بما هو فيه من العيش الطيب. وكان له مغان عدة، جوقة كاملة زيادة على عشر جوار يعرفن بمغاني المنصور، استخدمهن الوالد بعد موته. وكانت العادة تلك الأيام أن كل سلطان أو ملك يكون له خوقة من المغاني عنده في داره. ولم يخلف الملك المنصور مالاً له صورة، وخلف عدة أولاد ذكورًا وإناثًا. رأيت أنا جماعة منهم. انتهى والله أعلم.

* * *

سلطنة الملك الأشرف شعبان بن حسين

السلطان الملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين شعبان ابن الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. تسلطن باتفاق الأمير يلبغا العمري وطيبغا الطويل مع الأمراء على سلطنته بعد خلع ابن عمه الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجي. وهو السلطان الثاني والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

ولما أتفق الأمراء على سلطنته أحضر الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد والقضاة الأربعة، وأفيض عليه الخلعة الخليفتية السوداء بالسلطنة، وجلس على تخت الملك وعمره عشر سنين في يوم الثلاثاء خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة من غير هرج في المملكة ولا اضطراب في الرعية، بل في أقل من قليل، وقع خلع المنصور وسلطنة الأشرف هذا وانتهى أمرهما. ونزل الخليفة إلى داره وعليه التشريف، ولم يعرف الناس ما وقع إلا بحق البشائر والمناداة باسمه، وزينت القاهرة وتم أمره على أحسن الأحوال.

هذا، وقد ثقل على يلبغا وطأة خشداشه طيبغا الطويل، فأراد أن يستبد بالأمر وحده، وأخذ يلبغا يدبر عليه في الباطن. ولقد حكى لي بعض من رآهما قال: كانا ينزلان من الخدمة السلطانية معاً، فتقول العامة: يا طويل! حسك من هذا القصير! فكان طيبغا يلتفت إلى يلبغا ويقول له وهو يضحك: ما يقولون هؤلاء! فيقول يلبغا: هذا شأن العامة يثيرون الفتن. انتهى.

واستمر يلبغا على ذلك أن خرج طيبغا الطويل إلى الصيد بالعباسة، فأرسل إليه يلبغا جماعة من مقدمي الألوف وهم: أرغون الإسعردي الدوادار، والأمير آروس المحمودي الأستادار، وأرغون الأزقي، وطيبغا العلائي حاجب الحجاب، ومعهم تشريف له بنيابة دمشق. فساروا حتى قدموا على طيبغا الطويل، وأخبروه بما وقع، فلما سمع طيبغا ذلك غضب، وأبى قبول الخلعة، وخامر. واتفق معه أرغون الإسعردي الموادار، وآروس المحمودي. وهرب طيبغا العلائي وأرغون الأزقي ولحقا بالأتابك يلبغا وأعلماه بالخبر، فركب يلبغا في الحال، ومعه السلطان الملك الأشرف شعبان، بالعساكر في صبيحة اليوم المذكور. وقد ساق طيبغا الطويل من العباسية حتى نزل بقبة النصر خارج القاهرة ليأتيه من له عنده غرض، فوافاه يلبغا في حال وصوله بالعساكر، وقاتله، فاقتتلا ساعة، وانكسر طيبغا الطويل بمن معه، وأمسك هو وأصحابه من الأمراء وهم: أرغون الإسعردي، وآروس المحمودي، وكوندك أخو طيبغا الطويل، وجركتمر السيفي منجك، وأرغون من عبد الله، وجمق

الشيخوني، وكليم. أخو طيبغا الطويل وتلك أخو بيبغا الصالحي، وآقبغا العمري البالسي، وجرجي بن كوندك، وأرزمك من مصطفى، وطشتمر العلائي، وأرسلوا الجمع إلى سجن الإسكندرية. وأخذ يلبغا إقطاع ولدي طيبغا الطويل، وهما علي وحمزة، وكانا أميري طبلخاناه.

ثم بعد ذلك في يوم عيد الفطر رسم السلطان بالإفراج عمن بقي في الإسكندرية من أصحاب طيبغا الطويل، فأفرج عنهم، وحضروا، فأخرجوا إلى الشام متفرقين بطالين. وصفا الوقت ليلبغا العمري، وصار هو المتكلم في الأمور من غير مشارك، والسلطان الملك الأشرف شعبان معه آلة في السلطنة. وأنعم يلبغا بإقطاعات أصحاب طيبغا الطويل على جماعة من أصحابه، فأنعم على الأمير أرغون بن بلبك الأزقي بتقدمة ألف عوضاً عن قطلوبغا المنصوري، وأنعم على طيبغا العلائي السيفي بزلار بتقدمة ألف عوضاً عن ملكتمر الماريديني بحكم وفاته، وأنعم على أينبك البدري أمير آخور يلبغا العمري بإمرة طبلخاناه واستقر أستادار أستاذه يلبغا.

ثم استقر الأمير إشقتمر الماريديني المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه في نيابة طرابلس، عوضاً عن قشتمر المنصوري وطلب قشتمر المذكور إلى مصر.

ثم سار السلطان والأتابك يلبغا بالعساكر من بر الجيزة يريدون البحيرة حتى نزلوا في ليلة الأربعاء سادس شهر ربيع الآخر من ستة ثمان وستين وسبعمائة بالطرانة وباتوا بها، وكانت مماليك يلبغا قد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه في العذاب لهم على أدنى جرم، حتى إنه كان إذا غضب على مملوك ربما قطع لسانه. فاتفق جماعة من مماليك يلبغا تلك الليلة على قتله من غير أن يعلموا الملك الأشرف هذا بشيء من ذلك، وركبوا عليه نصف الليل، ورؤوسهم من الأمراء: آقبغا الأحمدي الجلب، وأسندمر الناصري، وقجماس الطازي، وتغري برمش العلائي، وآقبغا جاركس أمير سلاح، وقرابغا الصرغتمشي، في جماعة من أعيان اليلبغاوية. ولبسوا آلة الحرب وكبسوا في الليل على يلبغا بخيمته بغتة وأرادوا قتله، فأحس بهم قبل وصولهم إليه، فركب فرس النوبة بخواصه من مماليكه، وهرب تحت الليل، وعدى النيل إلى القاهرة، ومنع سائر المراكب أن يعدوا بأحد. واجتمع عنده من الأمراء طيبغا حاجب الحجاب، وأينبك البدري أمير آخور، وجماعة الأمراء المقيمين بالقاهرة. وأما مماليك يلبغا فإنهم لما علموا بأن أستاذهم نجا بنفسه وهرب، اشتد تخوفهم من أنه إذا ظفر بهم بعد ذلك لا يبقي منهم أحداً. فاجتمع الجميع بمن انضاف إليهم من الأمراء وغيرهم وجاؤوا إلى الملك الأشرف شعبان - تغمده الله برحمته - وهو بمخيمه أيضاً بمنزله بالطرانة وكلموه في موافقتهم على قتال يلبغا فامتنع قليلاً ثم أجاب لما في نفسه من الحزازة من حجر يلبغا عليه، وعدم تصرفه في المملكة.

وركب السلطان بمماليك يلبغا وخاصكيته، فأخذوه وعادوا به إلى جهة القاهرة، وقد اجتمع عليه خلائق من مماليك يلبغا وعساكر مصر، وساروا حتى وصلوا إلى ساحل النيل ببولاق التكروري تجاه بولاق والجزيرة الوسطى. فأقام الملك الأشرف ببولاق التكروري يوم الأربعاء ويوم الخميس ويوم الجمعة فلم يجدوا مراكب يعدون فيها.

وأما يلبغا فإنه لما علم أن الملك الأشرف طاوع مماليكه وقربهم، أنزل من قلعة الجبل سيدي آنوك ابن الملك الأمجد حسين أخي الملك الأشرف شعبان وسلطنه ولقبه بالملك المنصور، وذلك بمخيمه بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية، تجاه بولاق التكروري حيث الملك الأشرف نازل بمماليك يلبغا بالبر الشرقي والأشرف بالبر الغربي، فسمته العوام سلطان الجزيرة.

ثم في يوم الجمعة حضر عند الأتابك يلبغا الأمير طغيتمر النظامي والأمير أرغون ططر، فإنهما كانا يتصيدان بالعباسة وانضافا بمن معهما إلى يلبغا فقوي أمره بهما. وعدى إليه أيضا جماعة من عند الملك الأشرف، وهم: الأمير قرابغا البدري، والأمير يعقوب شاه، والأمير بيبغا العلائي الدوادار، والأمير خليل بن قوصون، وجماعة من مماليك يلبغا الذين أمرهم مثل: آقبغا الجوهري، وكمشبغا الحموي، ويلبغا شقير، في آخرين.

واستمر الأتابك يلبغا وآنوك بجزيرة الوسطى، والملك الأشرف ومماليك يلبغا ببولاق التكروري، إلى أن حضر إلى الأشرف شخص يعرف بمحمد ابن بنت لبطة رئيس شواني السلطان وجهز للسلطان من الغربان التي عمرها برسم الغزاة نحو ثلاثين غراباً برجالها وكسر بروقها، وجعلها مثل الفلاة لأجل التعدية. فنزل فيها جماعة من الأمراء ومن مماليك يلبغا ليعدوا فيها إلى الجزيرة فرمى عليهم يلبغا بمكاحل النفط، وصار هؤلاء يرمون على يلبغا بالسهام فيردونهم على أعقابهم. وأخذ يلبغا ومن معه يرمون أيضاً النفط والنشاب، والأشرفية لا يلتفتون إلى ذلك، بل يزيدون في سب يلبغا ولعنه وقتاله. وأقاموا على ذلك إلى عصر يوم السبت، وقد قوي أمر الملك الأشرف وضعف أمر يلبغا.

ثم اتفق رأي عساكر الملك الأشرف على تعدية الملك الأشرف من الوراق، فعدى وقت العصر من الوراق إلى جزيرة الفيل وتتابعته عساكره. فلما صاروا الجميع في بر القاهرة، وبلغ ذلك يلبغا، هرب الأمراء الذين كانوا مع يلبغا بأجمعهم وجاؤوا إلى الملك الأشرف وقبلو الأرض بين يديه. فلما رأى يلبغا ذلك رجع إلى جهة القاهرة، ووقف بسوق الخيل من تحت قلعة الجبل، ولم يبق معه غير طيبغا حاجب الحجاب الذي كان أولاً أستاداره. فوقف يلبغا ساعة ورأى أمره في إدبار، فنزل عن فرسه

بسوق الخيل تجاه باب الميدان، وصلى العصر، وحل سيفه وأعطاه للأمير طيبغا الحاجب. ثم نزل وقصد بيته بالكبش فرجمته العوام من رأس سويقة منعم إلى أن وصل حيث اتجه.

وسار الملك الأشرف شعبان بعساكره، حتى طلع إلى قلعة الجبل في آخر نهار السبت المذكور. وأرسل جماعة من الأمراء إلى يلبغا، فأخذوه من بيته ومعه طيبغا الحاجب، وطلعوا به إلى القلعة بعد المغرب، فسجن بها إلى بعد عشاء الآخرة من اليوم المذكور. فلما أذن للعشاء جاء جماعة من مماليك يلبغا مع بعض الأمراء، وأخذوا يلبغا من سجنه وأنزلوه من القلعة. فلما صار بحدرة القلعة أحضروا له فرساً ليركبه، فلما أراد الركوب ضربه مملوك من مماليكه يسمى قراتمر فأرمى رأسه، ثم نزلوا عليه بالسيوف حتى هبروه تهبيراً، وأخذوا رأسه وجعلوها في مشعل النار إلى أن انقطع الدم، فلما رآه بعضهم أنكره وقال: أخفيتموه وهذه رأس غيره فرفعوه من المشعل، ومسحوه ليعرفوه أنه رأس يلبغا بسلعة كانت خلف أذنه، فعند ذلك تحقق كل أحد بقتله، وأخذوا جثته فغيبوها بين العروستين. فجاء الأمير طشتمر الدوادار فأخذ الرأس منهم في الليل، واستقصى على الجثة حتى أخذها، وحط الرأس على الجثة، وغسلها وكفنها وصلى عليه في الليل، ودفنه بتربته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من تربة خوند طغاى أم آنوك زوجة الناصر محمد بن قلاوون.

ولما أصبح نهار الأحد عاشر شهر ربيع الأخر، وهو صبيحة ليلة قتل فيها يلبغا العمري الخاصكي المقدم ذكره، وطلع جميع الأمراء إلى القلعة، واستقر الأمير طغيتمر النظامي هو المتحدث في حل المملكة وعقدها، ومعه آقبغا جلب الأحمدي وأسندمر الناصري وقجماس الطازي، وقبضوا من الأمراء على تمربغا البدري ويعقوب شاه وبيبغا العلائي الدوادار، وقيدوا وأرسلوا عشية النهار إلى الإسكندرية. ورسم للأمير خليل بن قوصون أن يلزم بيته بطالاً.

ومن هذا الوقت أخذ أسندمر الناصري في التعاظم وانضمام الناس عليه. فاتفق جماعة من الأمراء العزية مع طغيتمر النظامي وآقبغا جلب على قبض أسندمر، ودبروا عليه. إلى أن كانت ليلة الأحد سابع شهر شوال من سنة ثمان وستين المذكورة، ركبوا نصف الليل. وضربوا الكوسات، وأنزلوا الملك الأشرف إلى الإسطبل السلطاني، وقصدوا مسك أسندمر الناصري وبعض مماليك يلبغا العمري الأشرار. وبلغ ذلك أسندمر، فمكث في بيته إلى طلوع الشمس. ثم ركب من بيته بالكبش، فإنه كان سكن فيه بعد قتل يلبغا، وتوجه بمن معه إلى قبة النصر ومنها إلى القرافة إلى باب الدرفيل من وراء القلعة، فلم يفطن به الأمراء إلا وهو تحت الطبلخاناه السلطانية من القلعة، وكبس عليهم من الصوة فهرب أكثر الأمراء، وكان

غالبهم قد استخدم عنده جماعة من مماليك يلبغا. فلما رأى مماليك يلبغا أسندمر ومن معه من خشداشيتهم توجهوا إليهم وتركوا أمراءهم. ثم خرج إلى أسندمر آقبغا جلب، وطردوا الحاجب ابن اخي آل ملك، فقوي أسندمر بهم على الأمراء وصدمهم صدمة هائلة كسرهم فيها كسرة شنيعة، وهربوا الجميع إلا ألجاي اليوسفي وأرغون ططر فإنهما ثبتا وقاتلا أسندمر، وليس معهما غير سبعين فارساً. فقاتلوا أسندمر وجماعته إلى قريب الظهر، فلم يرجع إليهما أحد من أصحابهما، فانكسرا، وانتصر أسندمر الناصري عليهم، وطلع إلى القلعة، وقبل الأرض بين يدي الملك الأشرف شعبان، فأخلع عليه الأشرف باستقراره أتابكا ومدبر المماليك كما كان يلبغا العمري الخاصكي.

ثم قبض أسندمر على جماعة من الأمراء وقيدهم وأرسلوا إلى ثغر الإسكندرية فحبسوا بها وهم: ألجاي اليوسفي، وطغيتمر النظامي وأيدمر الشامي، وآقبغا جلب، وقطلوبغا جركس، وأقطاي، وأرغون ططر، وقجماس الطازي، وجميع هؤلاء مقدمو ألوف. ثم قبض على جماعة من الأمراء الطبلخمانات وهم: طاجار من عوض، ويلبغا شقير، وقرابغا شاد الأحواش، وقرابغا الأحمدي، وقطلوبغا الشعباني، وأيدمر الخطائي، وتمراز الطازي، وآسن الناصري، وقراتمر المحمدي.

ثم أصبح أسندمر في يوم حادي عشر شوال أنعم على جماعة من الأمراء واستقروا مقدمي ألوف بالديار المصرية وأصحاب وظائف، فأخلع على أزدمر العزي واستقر أمير مائة ومقدم ألف وأمير سلاح، واستقر جركتمر السيفي منجك أمير مائة ومقدم ألف وأمير مجلس، واستقر ألطنبغا اليلبغاوي رأس نوبة النوب من إمرة عشرة دفعة واحدة، واستقر قطلقتمر العلائي أمير جاندار، واستقر سلطان شاه أمير مائة ومقدم ألف وحاجباً ثانياً. واستقر بيرم العزي دواداراً بتقدمة ألف، وكان جندياً قبل ذلك، فأنعم عليه بإقطاع طغيتمر النظامي ووظيفته وجميع موجوده ومماليكه وحواصله. وأنعم على خليل ابن قوصون بتقدمة ألف، وعلى قبق العزي بتقدمة ألف، وعلى أرغون القشتمري بتقدمة ألف، وعلى محمد بن طيطق العلائي بتقدمة ألف.

واستمر الأتابك أسندمر على ما هو عليه إلى يوم الجمعة سادس صفر اتفقت عليه مماليك يلبغا الأجلاب، وركبوا معهم الأمراء وقت صلاة الجمعة، ودخلوا على أسندمر الناصري وسألوه أن يمسك جماعة من الأمراء، فمسك أزدمر العزي أمير سلاح وجركتمر المنجكي أمير مجلس وبيرم العزي الدوادار الكبير وبيبغا القوصوني والأمير آخور كبك الصرغتمشي الجوكندار. واستمرت المماليك لابسين السلاح، وأصبحوا يوم السبت ومسكوا خليل بن قوصون ثم أطلقوه، وانكسرت الفتنة إلى عشية النهار وهي ليلة الأحد وقالوا لأسندمر: نريد عزل الملك الأشرف، وكان

أسندمر مقهوراً معهم.

وبلغ الخبر الملك الأشرف، فأرسل في الحال إلى خليل بن قوصون فحضر، وركب الملك الأشرف وركب ابن قوصون ومماليك الأشرف الجميع مع أستاذهم، وكانوا نحو المائتين لا غير، وكان الذين اجتمعوا من مماليك يلبغا فوق الألف وخمسمائة. وركب مع الملك الأشرف جماعة من الأمراء الكبار مثل أسنبغا ابن الأبو بكري وقشتمر المنصوري في آخرين، وضربت الكوسات، واجتمع على السلطان خلق كثير من العوام.

ولما بلغ أسندمر الناصري ركوب الملك الأشرف، أخذ جماعة من مماليك يلبغا، وطلع من خلف القلعة كما فعل أولاً في واقعة آقبغا الجلب، وتقدمت مماليك يلبغا وصدموا المماليك الأشرفية وتقاتلوا. وبينما هم في ذلك جاء أسندمر بمن معه من تحت الطبلخاناه كما فعل تلك المرة، فعلم به الأشرفية والأمراء، فمالوا عليه فكسروه أقبح كسرة وقرب أسندمر، ثم أمسك وتمزقت المماليك اليلبغاوية. فلما جيء للأشرف بأسندمر وحضر بين يديه شفعت فيه الأمراء الكبار، فأطلقه السلطان ورسم له أن يكون أتابكاً على عادته. ورسم له بالنزول إلى بيته بالكبش، ورسم للأمير خليل بن قوصون أن يكون شريكه في الأتابكية. فنزل أسندمر إلى بيته ليلة الاثنين، وأرسل السلطان معه الأمير خليل بن قوصون صفة الترسيم، وهو شريكه في وظيفة الأتابكية، ليحضره في بكرة نهار الاثنين. فلما نزلا إلى الكبش، تحالفا وخامرا ثانياً على السلطان. واجتمع عند أسندمر وخليل بن قوصون في تلك الليلة جماعة كبيرة من مماليك يلبغا، وصاروا مع أسندمر كما كانوا أولاً. وأصبحا يوم الاثنين وركبا إلى سوق الخيل. فركب السلطان بمن معه من الأمراء والمماليك الأشرفية وغيرهم، فالتقوا معهم وقاتلوهم وكسروهم، وقتلوا جماعة كبيرة من مماليك يلبغا. وهرب أسندمر وابن قوصون واشتغل مماليك السلطان والعوام بمسك مماليك يلبغا، يمسكونهم ويحضرونهم عرايا مكشفي الرؤوس. وتوجه فرقة من السلطانية إلى أسندمر وابن قوصون فقبضوا عليهما وعلى ألطنبغا اليلبغاوي وجماعة أخر من الأمراء اليلبغاوية، فقيدوا وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية.

ثم جلس الملك الأشرف شعبان في الإيوان وبين يديه أكابر الأمراء، ورسم بتسمير جماعة من مماليك يلبغا نحو المائة وتوسيطهم، ونفى جماعة منهم إلى الشام وأخذ مال أسندمر وأنفق على مماليكه لكل واحد مائة دينار، ولكل واحد من غير مماليكه خمسون ديناراً. ورسم للأمير يلبغا المنصوري

باستقراره أتابك العساكر هو والأمير ملكتمر الخازندار، وأنعم على كل منهما بتقدمة ألف. وأنعم على تلكتمر بن بركة بتقدمة ألف عوضاً عن خليل بن قوصون، وكان ذلك في سادس عشر صفر.

ثم أصبح السلطان من الغد في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر قبض على يلبغا المنصوري المذكور ورفيقه تلكتمر المحمدي لأنهما أرادا الإفراج عن مماليك يلبغا العمري، وقصد يلبغا المنصوري أن يسكن بالكبش، فمسكهما الملك الأشرف وأرسلهما إلى الإسكندرية. ثم أرسل السلطان بطلب الأمير منكلي بغا الشمسي نائب حلب إلى الديار المصرية، فحضرها بعد مدة وأخلع عليه السلطان خلعة النيابة بديار مصر، فأبى أن يكون نائباً، فأنعم عليه بتقدمة ألف وجعله أتابك العساكر، وتولى نيابة حلب عوضه طيبغا الطويل، وكان أخرجه من سجن الإسكندرية قبل ذلك.

ثم ندب السلطان الأمير يلبغا الناصري للسفر إلى دمشق لإحضار نائبها الأمير منجك اليوسفي، فسار من وقته إلى أن وصل إلى دمشق، وأحضر الأمير منجك المذكور. ووصل منجك إلى الديار المصرية وصحبته أولاده ومملوكه جركتمر وصهره آزوس المحمودي بعد أن احتفل أهل الدولة لملاقاته وخرجت إليه الأمراء إلى بين الحوضين خارج قبة النصر. وطلع إلى القلعة من باب السر، وسائر الأمراء والخاصكية مشاة بين يديه في ركابه، مثل أيدمر الدوادار ومن دونه بإشارة السلطان. فلما دخل منجك على السلطان وقبل الأرض، أقبل عليه السلطان إقبالاً كلياً وخلع عليه باستقراره نائب السلطنة بالديار المصرية خاصكيا عوضاً عن آقتمر عبد الغني المنتقل إلى نيابة طرابلس، وفوض إليه السلطان النظر في الأحباس والأوقاف والنظر في الوزارة - فإنه كان وليها بعد موت أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدم ذكره - والنظر على ناظر الخاص، وقرئ تقليده بالإيوان، وأن السلطان أقامه مقام نفسه في كل شيء، وفوض إليه سائر أمور المملكة، وأنه يخرج الإقطاعات التي عبرتها سبعمائة دينار إلى ما دونها، وأنه يعزل من شاء من أرباب الدولة، وأنه يخرج الطبلخانات والعشرات بسائر المماليك الشامية، ورسم للوزير أن يجلس قدامه في الدركاه مع الموقعين.

ثم بدأ الغلاء بالديار المصرية في هذه السنة وتزايد سعر القمح إلى أن أبيع بتسعين درهماً الإردب، وزاد النيل بعد أن نقص في شهر هاتور، وهذا أيضاً من الغرائب. وهذه السنة تسمى سنة الشراقي كما سنبينه في حوادث السنين من سلطنة الملك الأشرف هذا.

ثـم مـرض الأميـر منجـك اليوسـفي النائـب فنـزل السـلطان لعيادتـه، ففـرش منجـك تحـت رجلـي فرسـه الشـقق الحريـر، وقـدم لـه عشـرة مماليـك وعشـرة بقـج وعـدة خيـول، فقبلهـا السـلطان ثـم أنعـم بهـا عليـه. وكـان ذلـك فـي يـوم الثلاثـاء سـابع عشرين ذي الحجة. ومات منجك بعد يومين.

ثـم ورد الخبـر علـى السـلطان بـأن القـان حسـين ابـن الشـيخ أويـس ابـن الشـيخ حسن بن حسين بن آقبغا بن أيلكان، تولى مملكة تبريز وبغداد بعد وفاة أبيه.

وفـي هـذه السـنة فتحـت سـيس - وهـي كرسـي الأرمـن - علـى يـد الأميـر اشـقتمر المـارديني نائـب حلـب، بعـد أن نازلهـا مـدة ثلاثـة شـهور حتـى فتحهـا وانقرضـت منهـا دولـة الأرمـن - ولله الحمـد - فـدقت البشـائر لـذلك وفـرح الملـك الأشـرف فرحاً عظيماً بهذا الفتح العظيم.

وفـي هـذه السـنة - أيضـاً وهـي سـنة سـت وسـبعين المـذكورة - وقـع الفنـاء بالـديار المصـرية مـن نصـف جمـادى الآخـرة وتزايـد فـي شـعبان، ثـم فـي شـهر رمضـان حتـى صـار يمـوت فـي كـل يـوم مـن الحشـرية نحـو خمسـمائة نفـس ومـن الطرحـى نحـو الألـف. وأبيـع كـل فـروج بخمسـة وأربعـين درهمـاً، وكـل سـفرجلة بخمسـين درهمـاً، وكـل رمانـة بعشـرة دراهـم، والعشـرة دراهـم يـوم ذاك كانـت أزيـد مـن نصـف دينـار وكـل رمانـة حلـوة بستة عشـر درهمـاً، وكـل بطيخـة صـيفية بسـبعين درهماً.

ولمـا تـوفي منجـك شـغرت نيابـة السـلطنة بـديار مصـر إلـى العشـرين مـن شـهر ربيع الأول واستقر فيها الأمير آقتمر الصاحبي الحنبلي.

وفـي سـنة ثمـان وسـبعين عـزل السـلطان الملـك الأشـرف آقتمـر الصـاحبي الحنبلـي عـن نيابـة السـلطنة بالـديار المصـرية واسـتقر بـه أتابـك العسـاكر، وعـزل الأميـر آقتمـر عبـد الغنـي عـن نيابـة صـفد واسـتقر بـه أميـر مائـة ومقـدم ألـف بالقاهرة.

ثـم فـي العشـرين مـن شـهر ربيـع الآخـر غرقـت الحسـينية خـارج القـاهرة وخـرب فيهـا أزيـد مـن ألـف بيـت. وكـان سـبب هـذا الغـرق أن أحمـد بـن قايمـاز أسـتادار محمـد ابـن آقبغـا آص اسـتأجر مكانـاً خـارج القـاهرة بـالقرب مـن آخـر الحسـينية وجعلـه بركـة ليجتمـع فيـه السـمك وفـتح لـه مجـرى مـن الخلـيج، فتزايـد المـاء وغفلـوا عنـه، فطفـح علـى الحسـينية فغرقهـا. فقبض السـلطان بعـد ذلـك بمـدة علـى محمـد بـن اقبغـا آص وصـادره وعزلـه عـن الأسـتادارية، هـذا والسـلطان فـي تأهب سفر الحجاز.

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سفر السلطان إخوته وأولاد أعمامه إلى الكرك صحبة الأمير سودون الفخري الشيخوني ليقيم عندهم بالكرك مدة غيبة السلطان في الحجاز. كل ذلك والسلطان متضعف، وحركة الحجاز عمالة، وحواشيه.

فلما كان يوم السبت ثالث ذي القعدة أتفق طشتمر اللفاف، وقرطاي الطازي، وأسندمر الصرغتمشي، وأينبك البحري، وجماعة من المماليك السلطانية، وجماعة من مماليك الأسياد أولاد السلطان الملك الأشرف، وجماعة من مماليك الأمراء المسافرين صحبة السلطان الملك الأشرف، ولبسوا السلاح، واتفق معهم من بالأطباق من المماليك السلطانية، وهجموا الجميع القلعة، وقصدوا باب الستارة فغلق سابق الدين مثقال الزمام باب الساعات، ووقف داخل الباب ومعه الأمير جلبان اللالا - لالا أولاد السلطان - وآقبغا جركس اللالا أيضاً. فدقت المماليك الباب وقالوا: أعطونا سيدي أمير علي فقال لهم اللالا: من هو كبيركم حتى نسلم لهم سيدي علياً وأبى أن يسلمهم سيدي علياً. وكثر الكلام بينهم ومثقال الزمام يصمم على منع أمير علي فقالوا له: السلطان الملك الأشرف مات، ونريد أن نسلطن ولده أمير علي، فلم يلتفت مثقال إلى كلامهم. فلما علموا المماليك ذلك، طلعوا جميعاً وكسروا شباك الزمام المطل على باب الساعات، ودخلوا منه ونهبوا بيت الزمام وقماشه. ثم نزلوا إلى رحبة باب الستارة ومسكوا مثقالاً الزمام وجلبان اللالا وفتحوا الباب. فدخلت بقيتهم وقالوا: أخرجوا أمير علي، حتى نسلطنه، فإن أباه توفي إلى رحمة الله تعالى فدخل الزمام على رغم أنفه، وأخرج لهم أمير علي، فأقعد في باب الستارة. ثم أحضر الأمير أيدمر الشمسي فبوسوه الأرض لأمير علي. ثم أركبوا أمير علي على بعض خيولهم وتوجهوا به إلى الإيوان الكبير. وأرسلوا خلف الأمراء الذين بالقاهرة، فركبوا إلى سوق الخيل وأبوا أن يطلعوا إلى القلعة، فأنزلوا أمير علي إلى الإسطبل السلطاني حتى رأوه الأمراء، فلما رأوه طلعوا وقبلوا له الأرض وحلفوا له. غير أن الأمير طشتمر الصالحي وبلاط السيفي ألجاي الكبير وحطط رأس نوبة النوب لم يوافقوا ولا طلعوا فنزلوا إليهم المماليك ومسكوهم وحبسوهم بالقصر، وعقدوا لأمير علي بالسلطنة ولقبوه بالملك المنصور على ما يأتي ذكره في محله، ونسوق الواقعة على جليتها.

ثم نادوا بالديار المصرية بالأمان والبيع والشراء، بعد أن أخذوا خطوط سائر الأمراء المقيمين بمصر. فأقاموا ذلك النهار وأصبحوا يوم الأحد رابع ذي

القعدة من سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وهم لابسون آلة الحرب، واقفون بسوق الخيل، يتكلمون في إتمام أمرهم. وبينما هم في ذلك جاءهم الخير أن شخصاً يسمى قازان اليرقشي كان مسافراً صحبة السلطان الملك الأشرف إلى الحجاز الشريف وجدوه متنكراً، فمسكوه وأتوا به إلى الأمراء فسألوه عن خبر قدومه وعن أخبار السلطان، فأبى أن يخبرهم بشيء، وأنكر أنه لم يتوجه إلى الحجاز. فأوهموه بالتوسيط فأقر وأعلمهم الخبر بقدوم السلطان الملك الأشرف شعبان وكسرته من مماليكه بالعقبة فقالوا له: وما سبب هزيمة السلطان من عقبة أيلا؟ قال: لما نزل السلطان الملك الأشرف بمن معه من أمرائه وعساكره إلى العقبة، وأقام بها يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء سلخ شوال، فطلب المماليك السلطانية العليق، فقيل لهم: اصبروا إلى منزلة الأزلم، فغضبوا وامتنعوا من أكل السماط عصر يوم الأربعاء واتفقوا على الركوب. فلما كانت ليلة الخميس المذكورة ركبوا على السلطان ورؤوسهم الأمير طشتمر العلائي ومبارك الطازي وصراي تمر المحمدي وقطلقتمر العلائي الطويل وسائر مماليك الأسياد وأكثر المماليك السلطانية. فلما بلغ السلطان أمرهم ركب بأمرائه وخاصكيته وتواقعوا فانكسر السلطان وهرب هو ومن كان معه من الأمراء وهم: صرغتمش الأشرفي وأرغون شاه الأشرفي وبيبغا الأشرفي وبشتك الأشرفي وأرغون كتك ويلبغا الناصري. وصار السلطان بهؤلاء إلى بركة عجرود، فنزل بها، وهو مقيم بها. فقالوا له: كذبت قل لنا حقيقة أمره، فامتنع وحلف. فأرادوا توسيطه حقيقة، فقال: أطلقوني أنا أدلكم عليهم. فأطلقوه، فأخذهم وتوجه بهم إلى قبة النصر خارج القاهرة إلى محل كان الأشرف نزل فيه بجماعته، فوجدوا بالمكان أرغون شاه وصرغتمش وبيبغا وبشتك وأرغون كتك. وكان الذي توجه مع قازان اليرقشي من القوم أسندمر الصرغتمشي وطولو الصرغتمشي ومعهما جماعة كبيرة من المماليك الذين ثاروا بالقاهرة. فقبضوا على الأمراء المذكورين وسألوهم عن الملك الأشرف، فقالوا: فارقنا وتوجه هو ويلبغا الناصري إلى القاهرة ليختفي بها فقتلوا الأمراء المذكورين في الحال، وحزوا رؤوسهم، وأتوا بها إلى سوق الخيل، ففرح بذلك بقية الأمراء الذين هم أصل الفتنة وعلموا أن الأشرف قد زال ملكه.

وأما الملك الأشرف فإنه لما وصل إلى قبة النصر توجه منها نحو القاهرة ومعه يلبغا الناصري، واختفى عند أستادار يلبغا الناصري، فلم يأمن على نفسه، فتوجه تلك الليلة من عند أستادار يلبغا الناصري إلى بيت آمنة زوجة المشتولي فاختفى عندها. فقلق

عند ذلك الأمراء الذين أثاروا الفتنة وخافوا عاقبة ظهور الأشرف، وهم: قرطاي الطازي وطشتمر اللفاف وأسندمر الصرغتمشي وقطلوبغا البدري وألطنبغا السلطاني وبلاط الصغير ودمراش اليوسفي وأينبك البدري ويلبغا النظامي وطولو الصرغتمشي - وهؤلاء الأمراء، وأما الأجناد فكثير - فاشتد قلقهم. وبينما هم في ذلك في آخر نهار الأحد يوم قتلوا الأمراء المذكورين بقبة النصر، وقبل أن يمضي النهار، جاءت امرأة إلى الأمراء وذكرت لهم أن السلطان مختف عند آمنة زوجة المشتولي في الجودرية فقام ألطنبغا من فوره ومعه جماعة وكبسوا بيت آمنة المذكورة، فهرب السلطان واختفى في بادهنج البيت فطلعوا فوجدوه في البادهنج وعليه قماش النساء. فمسكوه وألبسوه عدة الحرب، وأحضروه إلى قلعة الجبل، فتسلمه الأمير أينبك البدري وخلا به. وأخذ يقرره على الذخائر، فأخبره الملك الأشرف بها وقيل: إن أينبك المذكور ضربه تحت رجليه عدة عصي. ثم أصبحوا في يوم الاثنين خنقوه، وتولى خنقه جاركس شاد عمائر ألجاي اليوسفي، فأعطى جاركس المذكور إمرة عشرة واستقر شاد عمائر السلطان.

ثم بعد خنق الملك الأشرف لم يدفنوه، بل أخذوه ووضعوه في قفة وخيطوا عليها ورموه في بئر. فأقام بها أياماً إلى أن ظهرت رائحته، فاطلع عليه بعض خدامه من الطواشية، ثم أخرجوه ودفنوه عند كيمان السيدة نفيسة، وذلك الخادم يتبعهم من بعد حتى عرف المكان. فلما دخل الليل أخذ جماعة من إخوته وخدمه ونقلوه في تلك الليلة من موضع دفنوه المماليك ودفنوه بتربة والدته خوند بركة بمدرستها التي بخط التبانة في قبة وحده، بعد أن غسلوه وكفنوه وصلوا عليه.

وكان السلطان الملك الأشرف - رحمه الله تعالى - من أجل الملوك سماحة وشهامة وتجملاً وسؤدداً.

قال قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني - رحمه الله - في تاريخه: كان ملكاً جليلاً لم ير مثله في الحلم. كان هيناً ليناً محباً لأهل الخير والعلماء والفقراء، مقتدياً بالأمور الشرعية، واقفاً عندها، محسناً لإخوته وأقاربه وبني أعمامه أنعم عليهم وأعطاهم الإمريات والإقطاعات، وهذا لم يعهد من ملك قبله في ملوك الترك ولا غيرهم. ولم يكن فيه ما يعاب، سوى كونه كان محباً لجمع المال. وكان كريماً يفرق في كل سنة على الأمراء أقبية بطرز زركش، والخيول المسومة بالكنابيش الزركش والسلاسل الذهب والسروج الذهب، وكذلك على جميع أرباب الوظائف، وهذا لم يفعله ملك قبله. انتهى كلام العيني باختصار - رحمه الله تعالى.

وكانت مدة سلطنة الملك الأشرف أربع عشرة سنة وشهرين وعشرين يوماً.

ومات وعمره أربع وعشرون سنة. وقد تقدم مولده في أول ترجمته. ورثاه الشعراء بعد موته بعدة قصائد، وحزن الناس عليه حزناً عظيماً وكثر تأسفهم عليه. وعمل عزاؤه بالقاهرة عدة أيام.

* * *

سلطنة الملك المنصور علي

السلطان الملك المنصور علاء الدين علي ابن السلطان الملك الأشرف زين الذين شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي، وهو السلطان الثالث والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية. تسلطن في حياة والده حسب ما تقدم ذكره وذلك أن الأمير قرطاي وطشتمر اللفاف وأينبك البدري، لما ثاروا بمن معهم بالديار المصرية، وطلعوا إلى القلعة وأخذوا أمير علي هذا من الدور السلطانية وسلطنوه في حياة والده، أرادوا بذلك انضمام الناس عليهم - فإنهم كانوا أشاعوا موت الملك الأشرف شعبان في العقبة - حتى تم لهم ما أرادوه، وسلطنوا أمير علي هذا من غير حضور الخليفة والقضاة، فإنهم كانوا صحبة السلطان الملك الأشرف بالعقبة. فلما زالت دولة الملك الأشرف، وقبض عليه، وقتل، ثم حضر الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد من العقبة، وكان القضاة بالقدس الشريف توجهوا إليه من العقبة بعد واقعة الملك الأشرف وهروبه إلى مصر.

فلما كان يوم الخميس ثامن شهر ذي القعد سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وذلك بعد قتل الملك الأشرف شعبان بثلاثة أيام، اجتمع الأمراء القائمون بهذا الأمر بالقلعة، واستدعوا الخليفة ومن كان بمصر من القضاة ونواب من هو غائب من القضاة بالقدس، وحضر الأمير آقتمر الصاحبي نائب السلطنة بالديار المصرية، وقعدوا الجميع بباب الآدر الشريفة من قلعة الجبل، وجددوا البيعة بالسلطنة للملك المنصور علي هذا بعد وفاة أبيه الملك الأشرف. وقبل له البيعة آقتمر الصاحبي المذكور، ولبسوه السواد، خلعة السلطنة، وكانت فرجية حرير بنفسجي بطرز ذهب، وبدائرها تركيبة زركش بحاشية حرير أزرق خطائي وشاش أسود خليفتي، وقبعاً أسود بعذبة خليفتياً زركش. وركب بأبهة السلطنة وشعار الملك من باب الستارة، والأمراء مشاة بين يديه، إلى أن وصل إلى الإيوان وجلس على تخت الملك في يوم الخميس المذكور. وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وحلفوا له على العادة، وأخلع على الخليفة وعلى الأمراء وعلى من له عادة بلبس الخلع، ومد السماط. وكان عمر السلطان الملك المنصور يرم تسلطن نحو سبع سنين تخميناً.

وصار الأمر في المملكة لأينبك البدري وحده من غير منازع. وأخذ أينبك في المملكة وأعطى، وحكم بما اختاره وأراده. فمن ذلك أنه في رابع شهر ربيع الأول رسم بنفي الخليفة المتوكل على الله تعالى إلى مدينة قوص، فخرج المتوكل على الله، ثم شفع فيه فعاد إلى بيته. ومن الغد طلب أينبك نجم الدين زكريا بن إبراهيم ابن الخلفية الحاكم

بأمر الله وخلع عليه واستقر به في الخلافة عوضاً عن المتوكل على الله من غير مبايعة ولا خلع المتوكل من الخلافة نفسه، ولقب زكرياء المذكور بالمعتصم بالله. ثم في العشرين من شهر ربيع الأول المذكور تكلم الأمراء مع أينبك فيما فعله مع الخليفة، ورغبوه في إعادته، فطلبه وأخلع عليه على عادته بالخلافة، وعزل زكرياء. ومن الناس من لم يثبت خلافة زكريا المذكور، فإنه لم يخلع المتوكل نفسه من الخلافة حتى يبايع زكريا المذكور.

ثم بدا لأينبك أن يسكن جماعة من مماليكه بمدرسة السلطان حسن وبمدرسة الملك الأشرف شعبان، ويجعل في كل مدرسة مائة مملوك. ثم أعطى أينبك لولديه تقدمتي ألف، وهما الأمير أحمد وأبو بكر. ثم نفى أرغون العثماني إلى الشام بطالاً. وخلع على فقبل الدوادار الطواشي الرومي واستقر زماماً بالآدر الشريفة عوضاً عن مثقال الجمالي. ثم خلع على بهادر الجمالي الأستادار واستقر في نظر البيمارستان المنصوري.

وبينما أينبك في أمره ونهيه، ورد عليه الخبر بعصيان نواب الشام. ففي الحال علق أينبك جاليش السفر في تاسع عشر شهر ربيع الأول المذكور، ورسم للعساكر بالتجهيز إلى سفر الشام. وأسرع بالنفقة على العساكر وتجهز في أسرع وقت. وخرج الجاليش من القاهرة إلى الريدانية في سادس عشرين شهر ربيع الأول المذكور، وهم خمسة من أمراء الألوف أولهم: قطلوخجا الأمير آخور الكبير أخو أينبك الأتابك، وأحمد ولده، ويلبغا الناصري، والأمير بلاط السيفي ألجاي، وتمر باي الحسني. ومن الطبلخانات: بوري الأحمدي، وآقبغا آص الشيخوني في آخرين، ومائة مملوك من المماليك السلطانية، ومائة مملوك من مماليك الأتابك أينبك.

وفي تاسع وعشرين شهر ربيع الأول المذكور من سنة تسع وسبعين وسبعمائة خرج طلب السلطان الملك المنصور، وطلب الأتابك أينبك البدري، وأطلاب بقية العساكر من الأمراء وغيرهم إلى الريدانية فأقاموا بالريدانية إلى يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر. ثم استقلوا بالمسير قاصدين البلاد الشامية، وساروا حتى وصلوا بلبيس، ثم رجعوا على أعقابهم بالعساكر إلى جهة الديار المصرية.

وخبر ذلك أن قطلوخجا أخا أينبك مقدم الجاليش بلغه أن الجماعة الذين معه مخامرون، وأنهم أرادوا أن يكبسوا عليه. فاستقص الخبر حتى تحققه، فركب من وقته وساعته وهرب في الحال، وهو في ثلاثة أنفس، عائداً إلى أخيه أينبك فاجتمع به وعرفه الخبر. ففي الحال أخذ أينبك السلطان ورجع به إلى نحو القاهرة حتى وصلها في يوم الاثنين ثالث شهر ربيع الآخر، وطلع به إلى قلعة الجبل، وأنزل الأتابك أينبك

السلطان الملك المنصور إلى الإسطبل السلطاني، وجاءه بعض أمراء من أصحابه.

ثم أخذ أينبك في إصلاح أمره. وبينما هو في فلك بلغه أن الأمير قطلقتمر العلائي الطويل والأمير ألطنبغا السلطاني، وكانا رجعا معه من بلبيس، ركبا بجماعتهما في نصف الليل، ومعهما عدة من الأمراء وسائر المماليك السلطانية، وخرج الجميع إلى قبة النصر موافقة لمن كان من الأمراء بالجاليش المقدم ذكره. فجهز أينبك الأمير قطلوخجا في مائتي مملوك لقتال هؤلاء، فخرج بهم قطلوخجا إلى قبة النصر، فتلقاه القوم وحملوا عليه، فاكسر ومسك فلما بلغ أينبك ذلك، جهز الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل، وأرسلهم إلى قبة النصر وهم: آقتمر من عبد الغني نائب السلطنة، وأيدمر الشمسي، وبهادر الجمالي الأستادار، ومبارك الطازي. هذا وقد ضعف أمر أينبك المذكور وخارت قواه، فإنه بلغه أن جميع العساكر اتفقت على مخالفته، حتى إنه لم يعلم من هو القائم بهذا الأمر لكثرة من خرج عليه. فلما رأى أمره في إدبار، ركب فرسه ونزل من الإسطبل السلطاني من غير قتال، وهرب إلى ناحية كيمان مصر. فتبعه أيدمر الخطائي وجماعة من العسكر فلم يقف له أحد على أثر. كل هذا وإلى الآن لم يجتمع مع بالجاليش مع من هو بقبة النصر من الأمراء، غير أن الفتنة قائمة على ساق، والغوغاء ثائرة، والسعد قد زال عنه من غير تدبير ولا عمل. واختفى أينبك بتلك الجهة، ثم وجدوا فرسه وقباءه ولبسه.

ولما استولت الأمراء على القلعة - على ما سنحكيه، إن شاء الله تعالى، بعد أن نذكر قتلة أينبك المذكور - ألزموا والي القاهرة ومصر بإحضاره، فنودي عليه بالقاهرة ومصر، وهدد من أخفاه بأنواع النكال، فخاف كل أحد على نفسه من تقريبه. فلم يجد أينبك بداً من طلب الأمان من الأمير يلبغا الناصري الآتي ذكره، فأمنه بعد مدة، فطلع أينبك إليه. فحال وقع بصر القوم عليه، قبضوه، وأرسلوه مقيداً إلى سجن الإسكندرية، وكان ذلك آخر العهد به، كما سيأتي ذكره بعد استيلاء الأمراء على القلعة. قلت: وكما تدين تدان. وما من ظالم إلا سيبلى بظالم.

وأما الأمراء فإنهم لما بلغهم هروب أينبك من قلعة الجبل ركبوا الجميع من قبة النصر وطلعوا إلى الإسطبل السلطاني من القلعة، وصار المتحدث فيهم قطلقتمر العلائي الطويل، وضرب رنكه على إسطبل شيخون بالرميلة تجاه باب السلسلة، وأقام ذلك اليوم متحدثاً فأشار عليه من عنده من أصحابه أن يسلطن سلطاناً كبيراً يرجع الناس إلى أمره ونهيه، فلم يفعله وقال: حتى يأتي إخواننا يعني الأمراء الذين كانوا بالجاليش مع قطلوبغا، وهم الذين ذكرناهم فيما تقدم عند خروج الجاليش ومعهم من الأمراء الطبلخانات والعشرات جماعة، منهم: برقوق العثماني اليلبغاوي، وبركة الجوباني اليلبغاوي. وكان أينبك قد أنعم على كل واحد منهما بإمرة طبلخاناه، بعد

واقعة قرطاي، دفعة واحدة من الجندية، قبل خروج السفر بأيام قليلة. وهذا أول ظهور برقوق وبركة في الدول.

ثم في يوم الأحد تاسع شهر ربيع الآخر، لما تزايد الفحص على أينبك، حضر أينبك بنفسه إلى عند الأمير بلاط، فطلع به بلاط إلى يلبغا الناصري بعد أن أخذ له منه الأمان حسب ما تقدم ذكره.

ولم تطل أيام يلبغا الناصري في التحدث، وظهر منه لين جنب. فاتفق برقوق وبركة - وهما حينذاك من أمراء الطبلخانات، لهما فيها دون الشهرين - مع جماعة أخر وركبوا في سادس عشر شهر ربيع الآخر المذكور، وركبت معهم خشداشيتهم من المماليك اليلبغاوية، ومسكوا دمرداش اليوسفي، وتمرباي الحسني، وآقبغا آص الشيخوني، وقطلوبغا الشعباني، ودمرداش التمان تمري المعلم، وأسندمر العثماني، وأسنبغا تلكي، وقيدوا وأرسلوا إلى سجن الإسكندرية فسجنوا بها.

ثم في يوم الاثنين ثالث عشر ذي الحجة استقر برقوق العثماني أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن طشتمر العلائي المقدم ذكره. واستقر بركة الجوباني رأس نوبة كبيراً أطابكاً - وهذه الوظيفة الآن مفقودة في زماننا - وسكن بركة في بيت قوصون تجاه باب السلسلة. واستقر الأمير أيتمش البجاسي أمير آخور كبيراً بتقدمة ألف عوضاً عن برقوق. واستقر برقوق بسكنه بالإسطبل السلطاني. وصار هؤلاء الثلاثة هم نظام الملك، وإليهم العقد والحل، وبرقوق كبيرهم الذي يرجع إليه، والمعول على الاثنين: برقوق وبركة، حتى لهجت الناس بقولهم: برقوق وبركة، نصبا على الدنيا شبكة.

ثم بعد يومين مسك الأمير يلبغا الناصري أمير سلاح، وأرسل إلى سجن الإسكندرية ومعه الأمير كشلي أحد أمراء الطبلخانات. ثم أخرج يلبغا الناصري بعد مدة إلى نيابة طرابلس، ويلبغا الناصري هذا هو صاحب الوقعة مع برقوق الآتي ذكرها في سلطنته، إن شاء الله تعالى.

ثم في العشرين من ذي الحجة خلع على الأمير إينال اليوسفي واستقر أمير سلاح عوضاً عن يلبغا الناصري.

وفي مستهل شعبان استقر قطلقتمر العلائي نائب ثغر الإسكندرية عوضاً عن خليل ابن عرام. ثم نفي بيبغا الطويل العلائي أحد أمراء الطبلخانات إلى الشام بطالاً. ثم نقل الأمير منكلي بغا الأحمدي البلدي من نيابة طرابلس عوضاً عن أرغون الإسعردي ونقل أرغون الإسعردي إلى نيابة حماة عوضه لأمر اقتضى ذلك. ونقل الأمير آقبغا الجوهري حاجب حجاب طرابلس إلى نيابة غزة عوضاً عن مبارك العلائي. ونقل

مبارك العلائي عوضه في حجوبية طرابلس. ثم أخلع على الأمير صلاح الدين خليل بن عرام المعزول عن نيابة إسكندرية باستقراره وزيراً بالديار المصرية عوضاً عن القاضي كريم الدين بن الرويهب. وقبض على ابن الرويهب وصودر.

وفي شوال توجه بلاط أمير سلاح إلى مرابط خيله بالجيزة ليتنزه هناك فأرسل إليه خلعة بنيابة طرابلس، فأجاب وخرج من القاهرة، فرسم له بأن يتوجه إلى القدس بطالاً، واستقر عوضه يلبغا الناصري أمير سلاح.

وأخلع على إينال اليوسفي اليلبغاوي واستقر رأس نوبة ثانياً بتقدمة ألف، عوضاً عن يلبغا الناصري المذكور. وأخلع على القاضي بدر الدين محمد ابن القاضي بهاء الدين أبي البقاء السبكي الشافعي قاضي قضاة الديار المصرية عوضاً عن قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة بحكم توجهه إلى القدس بحسب سؤاله على ذلك.

ولما صار الأمر للأتابك طشتمر العلائي الدوادار أخذ في تنفيذ الأمور على القواعد، فعظم ذلك على برقوق واتفق مع بركة الجوباني خجداشه ومع جماعة أخر على الركوب على طشتمر. فلما كان ليلة تاسع ذي الحجة من سنة تسع وسبعين المذكورة ركب برقوق العثماني وخجداشه بركة الجوباني بمن وافقهما من الأمراء وغيرهم، وأنزلوا السلطان الملك المنصور بكرة النهار، وهو يوم عرفة، ودقت الكوسات. وقصد برقوق مسك طشتمر الأتابك، فركبت مماليك طشتمر وخرجوا إليهم، وتقاتلوا معهم قتالاً عظيماً، حتى تكاثر جمع برقوق وبركة وقوي أمرهم، فحينئذ انكسرت مماليك طشتمر. وأرسل طشتمر يطلب الأمان، فأرسل السلطان إليه منديل الأمان، فطلع إلى القلعة فمسك في الحال هو والأمير أطلمش الأرغوني الدوادار، وأمير حاج بن مغلطاي، ودوادار الأمير طشتمر المذكور، وأرسل الجميع إلى سجن الإسكندرية فاعتقلوا بها.

وفي هذه الأيام اتفق جماعة على قتل الأتابك برقوق العثماني، ففطن بهم، فمسك منهم جماعة منهم طشبغا الخاصكي وآقبغا بشمقدار ألجاي وآقبغا أمير آخور الجاي في آخرين تقدير أربعين نفساً، فنفى برقوق بعضهم وحبس البعض. ثم أمسك برقوق ألطنبغا شادي وجماعة من مماليك ألجاي اليوسفي، ثم أمسك بعد ذلك بمدة سبعة عشر أميراً وقيدهم وأرسلهم إلى الإسكندرية.

وفي يوم الأربعاء سابع صفر من سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة كان ابتداء الفتنة بين الأتابك برقوق وبين خجداشه بركة الجوباني. وهو أن بركة أرسل

يقول إلى برقوق في اليوم المذكور: إن أيتمش البجاسي لابس آلة الحرب هو ومماليكه بإسطبله فأرسل برقوق إلى أيتمش في الحال فلم يجد الأمر صحيحاً. ثم طلع أيتمش إلى برقوق وأقام عنده. وترددت الرسل بين برقوق وبركة، والذي كان الرسول بينهما العلامة أكمل الذين محمد الحنفي شيخ الشيوخ بالشيخونية - أراد بذلك إخماد الفتنة - والشيخ أمين الدين الحلواني. ولا زالا بهما حتى أوقعا الصلح بينهما، ورضي بركة على أيتمش البجاسي وخلع عليه قباء نخ عند نزوله إليه بأمر برقوق صحبة الشيخين المذكورين.

ثم فسد ما بينهما أيضا بعد اثني عشر يوماً في ليلة الجمعة تاسع عشر صفر، وبات تلك الليلة كل أمير من أمراء مصر ملبساً مماليكه في إسطبله. وسببه أن بركة أراد أن يمسك جماعة من الأمراء ممن هو من ألزام برقوق، فأصبح نهار الجمعة والأمراء لابسون السلاح. ولما وقع ذلك، طلب برقوق القضاة إلى القلعة ليرشد السلطان الملك المنصور، وقاد لهم: نرشد السلطان فيتكلم في أمور مملكته، وأنكف أنا وغيري من التكلم. وأنا مملوك من حملة مماليك السلطان فتكلم القضاة بينه وبين الأمير بركة وترددوا في الرسلية غير مرة إلى أن أذعن كل منهما إلى الصلح وتحالفا على ذلك واصطلحا. وأصبحت الأمراء من الغد ركبوا إلى الميدان ولعبوا بالكرة، وخلع بركة على أيتمش ثانياً. واستقر الصلح، وخلع برقوق على القضاة الأربعة، والتزم بركة أنه لا يتحدث في شيء من أمور المملكة البتة.

واستمر الأمراء على ذلك إلى يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأول ركبت الأمراء وسيروا بناحية قبة النصر. ورجعوا وطلع برقوق إلى الإسطبل السلطاني، حيث سكنه، وذهب بركة إلى بيته. وكان برقوق قد ولد له ولد ذكر، وعمل سماطاً للناس. وطلع إليه الأمير صراي الرجبي الطويل، وكان من إخوه بركة، وقال لبرقوق: إن بركة وحاشيته قد اتفقوا على قتلك: إذا دخلت يوم الجمعة إلى الصلاة هجموا عليك وقتلوك فبقي برقوق متفكراً في ذلك متحيراً، لا يشك فيما أخبره صراي لصحبته مع بركة. وبينما برقوق في ذلك إذ طلع إليه الأمير قرادمرداش الأحمدي اليلبغاوي أمير مجلس، وطبج المحمدي، واقتمر العثماني الدوادار الكبير - وهم من أعيان أصحاب بركة - وهنؤوه بالولد وأكلوا السماط. فلما فرغوا طلب برقوق الأمير جركس الخليلي ويونس الدوادار وأمرهما بمسك هؤلاء الثلاثة ومن معهم، فمسكوا في الحال. ثم أمر برقوق حواشيه بلبس السلاح فلبسوا. ونزل بزلار الناصري من وقته غارة إلى مدرسة السلطان حسن مع مماليكه، وطلع إليها

وأغلق بابها، وصعد إلى سطحها ومآذنها ورمى بالنشاب على بركة في إسطبله الملاصق للمدرسة المذكورة، وهو بيت قوصون تجاه باب السلسلة. فلما رأى بركة ذلك أمر مماليكه وأصحابه بلبس السلاح، فلبسوا. وناس برقوق في الحال للعادة تنهب بيت بركة، فتجمعوا في الحال وأحرقوا بابه. ولم يتمكن بركة من قتالهم من عظم الرمي عليه من أعلى سطوح المدرسة، فخرج من بابه الذي بالشارع الأعظم المتصل إلى صليبة ابن طولون، وخرج معه سائر أصحابه ومماليكه، وترك ماله بالبيت ودخل من باب زويلة، وأخذ والي القاهرة معه إلى باب الفتوح، ففتحه له: فإنه كان أغلق عند قيام الفتنة مع جملة أبواب القاهرة. وسار بركة بمن معه من الأمراء والمماليك إلى قبة النصر، خارج القاهرة، فأقام بها ذلك اليوم في مخيمه، ثم أخرج طائفة من عساكره إلى جهة القلعة، فتوجهوا يريدون القلعة، فندب برقوق لقتالهم جماعة في أصحابه، فنزلوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، قتل فيه من كل طائفة جماعة. ثم رجعت كل طائفة إلى أميرها وباتوا تلك الليلة.

فلما أصبح نهار الثلاثاء ثامن شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، ندب برقوق لقتال بركة الأمير علان الشعباني وأيتمش البجاسي وقرط الكاشف في جماعة كبيرة من الأمراء والمماليك، وتوجهوا إلى قبة النصر، فبرز لهم من أصحاب بركة الأمير يلبغا الناصري أمير سلاح بجماعة كبيرة، والتقوا وتصادموا صدمة هائلة انكسر فيها يلبغا الناصري بمن معه وانهزم إلى جهة قبة النصر. فلما رأى الأمير بركة انهزام عسكره ركب بنفسه وصدمهم صدمة صادقة، وكان من الشجعان، كسرهم فيها أقبح كسرة، وتتبعهم إلى داخل الترب، ثم عاد إلى مخيمه. وطلع أصحاب برقوق إلى باب السلسلة في حالة غير مرضية وباتوا تلك الليلة.

فلما أصبح نهار الأربعاء تاسع شهر ربيع الأول المذكور، أنزل برقوق السلطان الملك المنصور إلى عنده بالإسطبل السلطاني، ونادى للمماليك السلطانية بالحضور، فحضروا. فأخرج جماعة كبيرة من الأمراء ومعهم المماليك السلطانية وندبهم لقتال بركة. ودقت الكوسات بقلعة الجبل حربية. هذا وقد جهز بركة أيضاً جماعة كبيرة أيضاً من أصحابه، لملتقى من ندبه برقوق لقتاله. وسار كل من الفريقين إلى الآخر حتى تواجها على بعد، فلم يتقدم أحد من العسكرين إلى غريمه. فلما كان بعد الظهر بعث الأمير بركة أمير آخوره سيف الدين طغاي يقول لبرقوق: ما هذا العمل هكذا كان الاتفاق بيننا، فقال برقوق: هكذا وقع. قل لأستاذك يتوجه نائباً في أي بلد شاء. فرجع

أمير آخور بركة إليه بهذا القول، فلم يوافق بركة على خروجه من مصر أصلاً. فلما أيس منه أمير آخوره قال له إن كان ولا بد فهذا الوقت وقت القيلولة، والناس مقيلة، فهذا وقتك فركب بركة بأصحابه ومماليكه من وقته وساقوا فرقتين: فرقة من الطريق المعتادة، وفرقة من طريق الجبل. وكان بركة في الفرقة التي بطريق الجبل، وبلغ برقوقاً ذلك فأرسل الأمراء والمماليك في الوقت لملتقاه. فلما أقبل بركة هرب أكثر عساكر برقوق ولم يثبت إلا الأمير علان الشعباني في نحو مائة مملوك، والتقى مع بركة. وكان يلبغا الناصري بمن معه من أصحاب بركة توجه من الطريق المعتادة، فالتقاه أيتمش البجاسي بجماعة وكسره، وضربه بالطبر، وأخذ جاليشه وطبلخاناته، ورجع مكسوراً بعد أن وقع بينهم وقعة هائلة جرح فيها من الطائفتين خلائق.

وأما بركة فإنه لما التقى مع علان صدمه علان صدمة تقنطر فيها عن فرسه، وركب غيره. فلما تقنطر انهزم عنه أصحابه، فصار في قلة، فثبت ساعة جيدة ثم انكسر وانهزم إلى جهة قبة النصر، وأقام به إلى نصف الليل، فلم يجسر أحد من البرقوقية على التوجه إليه وأخذه.

فلما كانت نصف ليلة الخميس المذكورة رأى بركة أصحابه في قلة، وقد خل عنه أكثر مماليكه وحواشيه، وهرب من قبة النصر هو والأمير آقبغا صيوان إلى جامع المقسي خارج القاهرة فغمز عليه في مكانه فمسك هو وآقبغا المذكور من هناك وطلع بهما إلى برقوق. وتتبع برقوق أصحاب بركة ومماليكه فمسك منه جماعة كبيرة حسب ما يأتي ذكره مع من مسك مع بركة من الأمراء. وبقيت القاهرة ثلاثة أيام مغلقة والناس في وجل بسبب الفتنة، فنادى برقوق عند ذلك بالأمان والاطمئنان.

ولما كان عشية ليلة الخميس المذكورة أخذ برقوق خجداشه بركة وقيده وأرسله إلى سجن الإسكندرية فحبس به صحبة الأمير قردم الحسني ومعه جماعة في القيود من أصحابه الأمراء وهم: الأمير قرادمرداش الأحمدي أمير مجلس المقبوض عليه قبل واقعة بركة، وآقتمر العثماني الدوادار، وأمير آخر.

وأما أمر بركة فإنه لما كان شهر رجب من هذه السنة ورد الخبر من الأمير صلاح الدين خليل بن عرام نائب الإسكندرية بموت الأمير زين الدين بركة الجوباني اليلبغاوي المقدم ذكره بسجن الإسكندرية، فلما بلغ الأتابك برقوقاً ذلك عظم عليه في الظاهر - والله سبحانه وتعالى متولي السرائر - وبعث

بالأمير يونس النوروزي الدوادار بالإسكندرية لكشف خبر الأمير بركة وكيف كانت وفاته، فتوجه يونس إلى الإسكندرية، ثم عاد إلى مصر ومعه ابن عرام المذكور نائب الإسكندرية، وأخبر برقوقاً بأن الأمر صحيح، وأنه كشف عن موته وأخرجه من قبره فوجد به ضربات: إحداها في رأسه، وأنه مدفون بثيابه من غير كفن، وأن يونس أخرجه وغسله وكفنه ودفنه وصلى عليه خارج باب رشيد وبنى عليه تربة، وأن الأمير صلاح الدين خليل بن عرام هو الذي قتله. فحبس برقوق ابن عرام بخزانة شمائل. ثم عصره وسأله عن فصوص خلاها بركة عنده، فأنكرها وأنكر أنه ما رآها.

وأما برقوق فإنه استمر على حاله كما كان قبل مسك بركة وقتله، وإليه حل المملكة وعقدها، ولم يجسر على السلطنة. وبينما هو في ذلك مرض السلطان الملك المنصور علي ولزم الفراش، حتى مات بين الظهر والعصر من يوم الأحد ثالث وعشرين صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة، ودفن من ليلته بعد عشاء الآخرة في تربة جدته لأبيه خوند بركة بالقبة التي بمدرستها بالتبانة. وكان الذي تولى تجهيزه وتغسيله ودفنه الأمير قطلوبغا الكوكائي. وكانت مدة سلطنته على ديار مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. ومات وعمره اثنتا عشرة سنة. ولم يكن في سلطنته سوى مجرد الاسم فقط. وإنما كان أمر المملكة في أيام سلطنته إلى قرطاي أولاً ثم إلى برقوق آخراً، وهو كالآلة معهم لصغر سنه ولغلبتهم على الملك. وتسلطن من بعده أخوه أمير حاج ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين، ولم يقدر برقوق - مع ما كان عليه من العظمة - أن يتسلطن. وكان الملك المنصور علي مليح الشكل حسن الوجه، حشيماً، كثير الأدب، واسع النفس، كريماً. رحمه الله تعالى.

* * *

سلطنة الملك الصالح حاجي الأولى

السلطان الملك الصالح صلاح الدين أمير حاج ابن السلطان الملك الأشرف شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسن ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون. وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية.

تسلطن بعد وفاة أخيه الملك المنصور علاء الدين علي في يوم الاثنين رابع وعشرين صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة.

وخبر سلطنته أنه لما مات أخوه الملك المنصور علي تكلم الناس بسلطنة الأتابك برقوق العثماني، وأشيع ذلك، فعظمت هذه المقالة على أكابر أمراء الدولة وقالوا: لا نرضى أن يتسلطن علينا مملوك يلبغا وأشياء من هذا النمط. وبلغ برقوقاً ذلك، فخاف ألا يتم له ذلك. فجمع برقوق الأمراء والقضاة والخليفة في اليوم المذكور بباب الستارة بقلعة الجبل وتكلم معهم في سلطنة بعض أولاد الأشرف شعبان، فقالوا له: هذا هو المصلحة وطلبوهم من الدور السلطانية. وحضر أمير حاج هذا من جملة الإخوة، فوجدوا بعضهم ضعيفاً بالجدري، والبعض صغيراً، فوقع الاختيار على سلطنة أمير حاج هذا، لأنه كان أكبرهم. فبايعه الخليفة، وحلف له الأمراء وباسوا يده، ثم قبلوا له الأرض. ولقب بالملك الصالح، وهو الذي غير لقبه في سلطنته الثانية بالملك المنصور، ولا نعرف سلطاناً تغير لقبه غيره، وذلك بعد أن خلع برقوق وحبس بالكرك، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى مفصلاً في وقته - انتهى.

ولما تم أمر الملك الصالح هذا ألبسوه خلعة السلطنة، وركب من باب الستارة بأبهة الملك، وبرقوق والأمراء مشاة بين يديه، إلى أن نزل إلى الإيوان بقلعة الجبل، وجلس على كرسي الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه. ثم مد السماط وأكلت الأمراء. ثم قام السلطان الملك الصالح ودخل القصر، وخلع على الخليفة المتوكل على الله خلعة جميلة. ونودي بالقاهرة ومصر بالأمان والدعاء للملك الصالح حاجي. وخلع السلطان على الأتابك برقوق واستقر على عادته أتابك العساكر ومدبر الممالك لصغر سن السلطان، وكان سن السلطان يوم تسلطن نحو تسع سنين تخميناً.

وخلع الملك الصالح من السلطنة، فكانت مدة سلطنته على الديار المصرية سنة واحدة وسبعة أشهر تنقص أربعة أيام، على أنه لم يكن له في السلطنة من الأمر والنهي لا كثير ولا قليل. واستمر الملك الصالح عند أهله بقلعة الجبل إلى أن أعيد للسلطنة ثانياً، بعد خلع الملك الظاهر برقوق من السلطنة وحبسه بالكرك في واقعة يلبغا الناصري ومنطاش، كما سيأتي ذكر ذلك مفصلاً.

* * *

سلطنة الملك الظاهر برقوق الأولى

السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين برقوق بن آنص العثماني اليلبغاوي الجاركسي القائم بدولة الجراكسة بالديار المصرية. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية والثاني من الجراكسة، إن كان الملك المظفر بيبرس الجشنكير جاركسياً، وإن كان بيبرس تركي الجنس فبرقوق هذا هو الأول من ملوك الجراكسة، وهو الأصح وبه نقول.

جلس على تخت الملك في وقت الظهر من يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة الموافق له آخر يوم هاتور من الشهور القبطية وسادس تشرين الثاني بعد أن اجتمع الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد والقضاة وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني وخطب الخليفة المتوكل على الله خطبة بليغة. ثم بايعه على السلطنة وقلده أمور المملكة، ثم بايعه من بعده القضاة والأمراء.

ثم أفيض على برقوق خلعة السلطنة، وهي سوداء خليفتية على العادة. وأشار السراج البلقيني أن يكون لقبه الملك الظاهر فإنه وقت الظهيرة والظهور، وقد ظهر هذا الأمر بعد أن كان خافياً، فتلقب بالملك الظاهر.

قلت: ولنذكر أمر الملك الظاهر هذا من أول ابتداء أمره فنقول: أصله من بلاد الجاركس وجنسه كسا، ثم أخذ من بلاده وأبيع بمدينة قرم، فاشتراه خواجا عثمان بن مسافر المقدم ذكره وجلبه إلى مصر فاشتراه منه الأتابك يلبغا العمري الخاصكي الناصري في حدود سنة أربع وستين وسبعمائة وقبلها بيسير وأعتقه وجعله من جملة مماليكه. واستمر بخدمته إلى أن ثارت مماليك يلبغا عليه وقتل في سنة ثمان وستين وسبعمائة، فلم أدر هل كان برقوق ممن هو مع أستاذه يلبغا أم كان عليه. ولما قتل يلبغا وتمزقت مماليكه وحبس أكثرهم حبس برقوق هذا مع من حبس مدة طويلة هو ورفيقه بركة الجوباني ومعهم أيضاً جاركس الخليلي وهو دونهم في الرتبة. ثم أفرج عنه وخدم عند الأمير منجك اليوسفي نائب الشام سنين إلى أن طلب الملك الأشرف مماليك يلبغا إلى الديار المصرية حضر برقوق هذا من جملتهم وصار بخدمة الأسياد أولاد الملك الأشرف جندياً. ولم يزل على ذلك حتى ثار مع من ثار من مماليك يلبغا على الملك الأشرف شعبان في نوبة قرطاي وأينبك وغيرهما في سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وقتل الأشرف.

ثم لما وقع بين أينبك وقرطاي، وانتصر أينبك على قرطاي، أنعم أينبك عليه بإمرة طبلخاناة دفعة واحدة من الجندية، فدام على ذلك نحو الشهر. وخرج أيضاً مع من خرج على أينبك من اليلبغاوية فأخذ إمرة مائة وتقدمة ألف، وكذلك وقع لرفيقه بركة.

ثم صار بعد أيام قليلة أمير آخور كبيراً، ودام على ذلك دون السنة. واتفق مع الأمير بركة على مسك طشتمر الدوادار، ومسكاه بعد أمور حكيناها في ترجمة الملك المنصور علي، وتقاسما المملكة، وصار برقوق أتابك العساكر، وبركة رأس نوبة الأمراء أطابكا، فدام على ذلك من سنة تسع وسبعين إلى سنة اثنتين وثمانين. ووقع بينه وبين خشداشه بركة، وقبض عليه بعد أمور وحروب، وصفا له الوقت إلى أن تسلطن. وقد تقدم ذكر ذلك كله، غير أننا ذكرناه هنا ثانياً على سبيل الاختصار لينتظم سياق الكلام مع سياقه. انتهى.

ثم ورد الخبر على السلطان من الأمير يلبغا الناصري نائب حلب بأن الأمير ألطنبغا السلطاني نائب أبلستين عصي وطلع إلى قلعة دارندة المضافة إليه، أمسك بعض أمرائها وأطلع إلى دارندة ذخائره، فركب العسكر الذين هم بالمدينة عليه وأمسكوا مماليكه وحاصروه فطلب الأمان منهم. ثم فر من القلعة إلى أبلستين ثانياً فكتب إليه الناصري نائب حلب يهدده فلم يرجع إليه وفر هارباً إلى بلاد التتار وقال: لا أكون في دولة حاكمها جاركسي.

ثم في محرم سنة ثمان وثمانين وسبعمائة قبض الملك الظاهر على جماعة من المماليك السلطانية وضربهم بالمقارع لكلام بلغه عنهم أنهم اتفقوا على الفتك به. ثم قبض سريعاً على الأمير تمربغا الحاجب، وكان اتفق مع هؤلاء المذكورين، وسفره ومعه عشرة من المماليك المذكورين: أركب كل مملوكين على جمل، ظهر أحدهما إلى ظهر الأخر، وأفرد تمربغا المذكور على جمل وحده، ثم وسطوا الجميع، فكان هذا اليوم من أشنع الأيام، وكثر الكلام بسببهم في حق الملك الظاهر إلى الغاية.

وفي يوم الاثنين خامس عشرين شوال استدعى السلطان زكريا ابن الخليفة المعتصم بالله أبي إسحاق إبراهيم - وإبراهيم المذكور لم يل الخلافة - ابن المستمسك بالله أبي عبد الله محمد - وكذلك المستمسك لم يل الخلافة - ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد العباسي وأعلمه السلطان أنه يريد أن ينصبه في الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق بالله عمر.

ثم استدعى السلطان القضاة والأمراء والأعيان، فلما اجتمعوا أظهر زكرياء المذكور عهد عمه المعتضد له بالخلافة، فخلع السلطان عليه خلعة غير خلعة الخلافة ونزل إلى داره. فلما كان يوم الخميس ثامن وعشرينه طلع الخليفة زكرياء المذكور إلى القلعة وأحضر أعيان الأمراء والقضاة والشيخ سراج الدين عمر البلقيني، فبدأ البلقيني بالكلام مع السلطان في مبايعة زكرياء على الخلافة فبايعه السلطان أولاً، ثم بايعه من حضر على مراتبهم، ونعت بالمستعصم بالله، وخلع عليه خلعة الخلافة على العادة،

ونزل إلى داره وبين يديه القضاة وأعيان الدولة. ثم طلع زكرياء المذكور في يوم الاثنين ثاني ذي القعدة وخلع عليه السلطان ثانياً بنظر المشهد النفيسي على عادة من كان قبله من الخلفاء، ولم تكن هذه العادة قديماً، بل حدثت في هذه السنين.

وفي آخر جمادى الآخرة من السنة وهي سنة تسع وثمانين ورد الخبر على السلطان بأن تيمورلنك صاحب بلاد العجم كبس الأمير قرا محمد صاحب مدينة تبريز وكسره، ففر منه قرا محمد في نحو مائتي فارس وتوجه بهم إلى جهة ملطية ونزل هناك ونزل تيمورلنك على آمد. فاستدعى السلطان القضاة والفقهاء والأمراء وتحدث معهم في أخذ الأوقاف من البلاد بسبب ضعف عسكر مصر، فكثر الكلام في ذلك وآل الأمر إلى أنه يأخذ متحصل الأوقاف لسنة وصمم الملك الظاهر على إخراج الجميع للجند، ثم رجع عن ذلك ورسم بتجهيز أربعة أمراء من أمراء الألوف بالديار المصرية وهم: الأمير ألطنبغا المعلم أمير سلاح، والأمير قردم الحسني رأس نوبة النوب، والأمير يونس النوزوزي الدوادار الكبير، والأمير سودون باق، وسبعة أمراء أخر من أمراء الطبلخانات، وعين معهم من أجناد الحلقة ثلاثمائة فارس. فتجهز الجميع وخرجوا من القاهرة في أول شهر رجب، وساروا إلى حلب ونائبها يوم ذاك سودون المظفري، وقد وصل الخبر بأن قرا محمداً واقع ابن تيمورلنك وكسره ورجع إلى بلاده.

ثم ورد الخبر على السلطان الظاهر بأن العسكر المجرد من الديار المصرية عاد إلى حلب، وكان توجه نحو ديار بكر صحبة نواب البلاد الشامية وعاد، وكان الأمير ألطنبغا الجوباني نائب الشام مقدم العساكر، وخرج بثقل عظيم وزدخاناه هائلة، جددها بدمشق حتى إنه رسم لفضلاء دمشق أن ينظموا له ما ينقش على أسنة الرماح.

وبعد خروج ملكتمر فشا الطاعون بالقاهرة ونواحيها في شهر ربيع الأول من سنة تسعين وسبعمائة، واشتغل الناس بمرضاهم وأمواتهم عن غيره.

ثم أخلع السلطان على الأمير أيدكار العمري اليلبغاوي، الحاجب الثاني وأحد مقدمي الألوف، باستقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية، عوضاً عن قطلوبغا الكوكائي بعد شغورها عنه أربع سنين، وأضيف إليه نظر خانقاة شيخون واستقر الأمير زين الدين أبو بكر بن سنقر عوضه حاجباً ثانياً، حاجب ميسرة بتقدمة ألف.

ثم في حادي وعشرين جمادى الأولى من السنة قدم صراي تمر دوادار الأمير يونس النوروزي الدوادار، ومملوك نائب حلب الأمير يلبغا الناصري يخبران بأن العسكر توجه إلى سيواس وقاتلوا عسكرها، وقد أستنجد أهل سيواس بالتتر، فأتاهم من التتر نحو الستين ألفاً فحاربهم العسكر المصري والحلبي يوماً كاملاً حتى هزموهم

وحصروا سيواس بعدما قتل كثير من الفريقين وجرح معظمهم، وأن الأقوات عندهم عزيزة. فجهز السلطان للعسكر المذكور خمسين ألف دينار مصرية وشكرهم. وسار بالذهب ملكتمر الدوادار ثانياً بعد قدومه مصر بأيام قليلة.

وكان خروج ملكتمر في هذه المرة الثانية بالذهب في سابع وعشرين جمادى الآخرة، هذا ما أخبره صراي تمر دوادار ثاني يونس الدوادار.

وأما ما وقع من بعده هناك فإن العسكر تحرك إلى الرحيل عن سيواس لطول مكثهم، وعندما ساروا هجم عليهم التتر من خلفهم، فاحترز الأمير يلبغا الناصري نائب حلب إلى جهة حتى صار خلفهم، ثم طوقهم بمن معه ووضع السيف فيهم، فقتل منهم خلائق كثيرة وأسر منهم نحو الألف وأخذ منهم نحو عشرة آلاف فرس وعاد العسكر سالماً إلى حلب، فقدم هذا الخبر الثاني أيضاً على يد بعض مماليك الأمير يونس الدوادار، فسر السلطان بذلك ودقت البشائر بالديار المصرية. ورسم السلطان بعود العسكر المصري إلى نحو الديار المصرية، فعادوا إليها في ثالث شعبان من سنة تسعين وسبعمائة، فكانت غيبتهم عن القاهرة سنة وعدة أيام. ولما وصلوا وطلعوا إلى القلعة أخلع عليهم السلطان الخلع الهائلة وشكرهم ونزلوا إلى دورهم، وكثرت التهاني لمجيئهم.

وحج في هذه السنة أيضاً الأمير جاركس الخليلي الأمير آخور الكبير أمير حاج الأول. وكان أمير حاج المحمل الأمير آقبغا المارديني، وخرج الحج من مصر في عاشر شوال.

وفي أثناء ذلك قدم الخبر بعصيان الأمير ألطنبغا الجوباني نائب الشام وأنه ضرب الأمير طرنطاي حاجب حجاب دمشق، واستكثر من استخدام المماليك.

وشاع ذلك بالقاهرة وكثرت القالة بين الناس بهذا الخبر. فلما بلغ الأمير ألطنبغا الجوباني ذلك أرسل استأذن السلطان في الحضور إلى الديار المصرية، فأذن له السلطان في ذلك، وفي ظن كل أحد أنه لم يحضر فعندما جاءه الإذن ركب البريد من دمشق في خواصه وسار حتى نزل سرياقوس خارج القاهرة في ليلة الخميس سابع وعشرين شوال من سنة تسعين المذكورة وبلغ السلطان ذلك فأرسل إليه الأمير فارساً الصرغتمشي أمير جاندار، فقبض عليه من سرياقوس وقيده وسيره إلى سجن الإسكندرية صحبة الأمير ألجيبغا الجمالي الدوادار.

ثم رسم السلطان بأن طرنطاي حاجب حجاب دمشق يستقر في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير ألطنبغا الجوبانجي المذكور، وحمل إليه التشريف والتقليد الأمير سودون الطرنطائي، فعظم مسك الأمير ألطنبغا الجوباني على الناس كونه ظهر للسلطان

براءته مما نقله عنه أعداؤه وكونه من أكابر اليلبغاوية، ولم يسعهم إلا السكات لفوات الأمر.

ثم كتب السلطان كتاباً لأمراء طرابلس وأرسله على يد بعض خواصه بالقبض على الأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي نائب طرابلس، فقدم سيفه في عاشر ذي القعدة، فتأكد تشويش الناس بمسك كمشبغا أيضاً، فإنه أكبر مماليك يلبغا العمري، وممن صار في أيام أستاذه يلبغا أمير طبلخاناه وتوجه الأمير شيخ الصفوي بتقليد الأمير أسندمر المحمدي حاجب حجاب طرابلس بنيابة طرابلس عوضاً عن كمشبغا الحموي المقدم ذكره.

ثم نفى السلطان الملك الظاهر الأمير كمشبغا الخاصكي الأشرفي، أحد أمراء الطبلخانات ورأس نوبة، إلى طرابلس، فسار من دمياط، لأنه كان في اليزك المذكور.

ثم قدم البريد بعشرين سيفاً من سيوف الأمراء الذين قبض عليهم من أمراء البلاد الشامية. ثم كتب السلطان بالقبض على الأمراء البطالين ببلاد الشام جميعاً ثم أعيد سودون العثماني إلى نيابة حماة بحكم خروج كشلي منها إلى نيابة ملطية، عوضاً عن منطاش، وكان كشلي ولي نيابة حماة قبل تاريخه بمدة يسيرة عوضاً عن ابن المهمندار.

ثم في ثاني ذي القعدة قدمت رسل قرا محمد وأخبروا أنه أخذ مدينة تبريز، وضرب بها السكة باسم السلطان الملك الظاهر برقوق، ودعا له على منابرها وسير دنانير ودراهم، عليها اسم السلطان، وسأل أن يكون نائباً بها عن السلطان، فأجيب بالشكر والثناء. هذا والخواطر قد نفرت من الملك الظاهر لكثرة قبضه على الأمراء من غير موجب وتخوف كل أحد منه على نفسه حتى خواصه، وكثر تخيل الأمراء منه. وبينما هم في ذلك أشيع بالديار المصرية بعصيان الأمير يلبغا الناصري نائب حلب، وكثر هذا الخبر في محرم سنة إحدى وتسعين وسبعمائة. وسبب ذلك أنه وقع بين الأمير يلبغا الناصري وبين سودون المظفري أتابك حلب المعزول عن نيابة حلب قبل تاريخه، وكاتب كل منهما في الآخر، فاحتار السلطان بينهما وقد قوي تخوفه من الناصري.

ولما شاع ذلك جمع السلطان الأمراء والخاصكية في يوم الأحد خامس صفر بالميدان من تحت القلعة وشرب معهم القمز، وقرر لشربه معهم يومي الأحد والأربعاء، يروم بذلك أخذ خواطرهم.

ثم في رابع وعشرينه قدم البريد من دمشق بأن الأمير قرابغا فرج الله والأمير بزلار

العمري الناصري والأمير دمرداش اليوسفي والأمير كمشبغا الخاصكي الأشرفي وآقبغا قبجق اجتمع معهم عدة كثيرة من المماليك المنفيين بطرابلس ووثبوا على نائبها الأمير أسندمر المحمدي وقبضوا عليه، وقتلوا من أمراء طرابلس الأمير صلاح الدين خليل بن سنجر وابنه، وقبضوا على جماعة كبيرة من أمراء طرابلس، ثم دخل الجميع في طاعة الناصري، وكاتبوه بذلك وملكوا مدينة طرابلس.

وفي يوم وصول هذا الخبر على السلطان عرض السلطان المماليك السلطانية، وعين منهم أربعمائة وثلاثين مملوكاً من المماليك السلطانية للسفر، وعين خمسة من أمراء الألوف بديار مصر وهم: الأمير الكبير أيتمش البجاسي، والأمير جاركس الخليلي الأمير آخور الكبير، والأمير شهاب الدين أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير يونس النوروزي الدوادار الكبير، والأمير أيدكار حاجب الحجاب. وعين من أمراء الطبلخاناه سبعة وهم: فارس الصرغتمشي، وبكلمش العلائي رأس نوبة، وجاركس المحمدي، وشاهين الصرغتمشي، وآقبغا الصغير السلطاني، وإينال الجاركسي أمير آخور، وقديد القلمطاوي. وعين من أمراء العشرات جماعة كبيرة. ثم أرسل السلطان للأمير أيتمش برسم النفقة مائتي ألف درهم فضة وعشرة آلاف دينار ذهباً مصرياً. ثم أرسل إلى كل من أمراء الألوف ممن عين للسفر مائة ألف درهم وخمسة آلاف دينار، ما خلا أيدكار حاجب الحجاب فإنه حمل إليه مبلغ ستين ألف درهم وألفاً وأربعمائة دينار.

ثم في سادس وعشرين صفر المذكور قدم الخبر من الشام بأن مماليك الأمير سودون العثماني نائب حماة اتفقوا على قتله، ففر منهم إلى دمشق، وأن الأمير بيرم العزي حاجب حجاب حماة سلم حماة إلى الأمير يلبغا الناصري ودخل تحت طاعته فعظم هذا الخبر أيضاً على السلطان حتى كاد يهلك، وعرض المماليك ثانياً، وعين منهم أربعة وسبعين نفراً لتتمة خمسمائة مملوك. قلت: ولهذا تعرف هذه الواقعة بوقعة الخمسمائة، وبوقعة شقحب، وبوقعة الناصري ومنطاش، انتهى.

وفي يوم الجمعة سابع وعشرين صفر رسم السلطان للأمير بجاس نائب قلعة الجبل أن يتوجه إلى الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد بالقلعة وينقله من داره إلى البرج من القلعة ويضيق عليه ويمنع الناس من الدخول إليه، ففعل بجاس ذلك، فبات الخليفة ليلته بالبرج، ثم أعيد من الغد إلى مكانه بالقلعة، بعد أن كلم السلطان الأمراء في ذلك.

ثم تواترت الأخبار على السلطان بدخول سائر الأمراء بالبلاد الشامية والمماليك الأشرفية واليلبغاوية في طاعة الناصري، وكذلك الأمير سولي بن دلغادر أمير

التركمان، ونعير أمير العربان وغيرهما من التركمان والأعراب، دخل الجميع في طاعة الناصري على محاربة السلطان الملك الظاهر، وأن الناصري أقام أعلاماً خليفتيه، وأخذ جميع القلاع بالبلاد الشامية، واستولى عليها ما خلا قلعة الشام وبعلبك والكرك. فقلق السلطان لذلك، وكثر الاضطراب بالقاهرة، وكثر كلام الناس في هذا الأمر، حتى تجاوز الحد واختلفت الأقاويل، كل ذلك وإلى الآن لم تخرج التجريدة من مصر فلما بلغ السلطان هذه الأخبار رسم بخروج التجريدة، فخرجت الأمراء المذكورون قبل تاريخه في يوم السبت رابع عشر ربيع الأول من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة إلى الريدانية بتجمل زائد واحتفال عظيم بالأطلاب من الخيول المزينة بسروج الذهب والكنابيش والسلاح الهائل، لا سيما الأمير أيتمش والأمير أحمد بن يلبغا فإنهما أمعنا في ذلك. وكان للناس مدة طويلة لم يتجرد السلطان إلى البلاد الشامية ولا عسكره، سوى سفر الأمراء في السنة الماضية إلى سيواس، وكانوا بالنسبة إلى هذه التجريدة كلا شيء، وتتابعتهم المماليك شيئاً بعد شيء، حتى سافر الجميع من الريدانية في يوم الاثنين سادس عشر شهر ربيع الأول المذكور.

ثم في يوم الثلاثاء أول ربيع الآخر قدم البريد بأن الأمير كمشبغا المنجكي نائب بعلبك دخل تحت طاعة يلبغا الناصري. وكذلك في خامسه قدم البريد بأن ثلاثة عشر أميراً من أمراء دمشق وساروا إلى حلب ودخلوا في طاعة الناصري.

وأما العسكر الذي خرج من مصر فإنه لما وصل إلى غزة أحش الأمير جاركس الخليلي بمخامرة نائبها الأمير آقبغا الصفوي فقبض عليه وبعثه إلى الكرك، وأقر في نيابة غزة الأمير حسام الدين بن باكيش.

ثم في عشرين شهر ربيع الآخر قدم على السلطان رسول قرا محمد التركماني ورسول الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين يخبران بقدومهما إلى خابور ويستأذنان في محاربة الناصري، فأجيبا بالشكر والثناء، وأذن لهما في ذلك.

وأما العسكر فإنه سار من غزة حتى دخل دمشق في يوم الاثنين سابع شهر ربيع الآخر المذكور. ودخلوا دمشق بعد أن تلقاهم نائبها الأمير حسام الدين طرنطاي، ودخلوا دمشق قبل وصول الناصري بعساكره إليها بمدة. وأقبل المماليك السلطانية على الفساد بدمشق، واشتغلوا باللهو وأبادوا أهل دمشق شراً، حتى سئمتهم أهل الشام وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيهم وفي مرسلهم.

وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر بنزول يلبغا الناصري بعساكره على خان لاجين خارج دمشق في يوم السبت تاسع عشر شهر ربيع الآخر، فعند ذلك تهيأ الأمراء المصريون والشاميون إلى قتالهم، وخرجوا من دمشق في يوم الاثنين حادي عشرينه

إلى برزة والتقوا بالناصري على خان لاجين، وتصافقوا ثم اقتتلوا قتالاً شديداً ثبت فيه كل من الفريقين ثباتاً لم يسمع بمثله، ثم تكاثر العسكر المصري وصدقوا الحملة على الناصري ومن معه فهزموهم وغيروه عن موقفه.

ثم تراجع عسكر الناصري وحمل بهم، والتقى العسكر السلطاني ثانياً واصطدما صدمة هائلة ثبت فيها أيضاً الطائفتان وتقاتلا قتالاً شديداً، قتل فيها جماعة من الطائفتين، حتى انكسر الناصري ثانياً. ثم تراجع عسكره وعاد إليهم والتقاهم ثالث مرة، فعندما تنازلوا في المرة الثالثة والتحم القتال، أقلب الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس رمحه ولحق بعساكر الناصري بمن معه من مماليكه وحواشيه، ثم تبعه الأمير أيدكار العمري حاجب الحجاب أيضاً بطلبه ومماليكه، ثم الأمير فارس الصرغتمشي ثم الأمير شاهين أمير آخور بمن معهم وعادوا قاتلوا العسكر المصري، فعند ذلك ضعف أمر العساكر المصرية وتقهقروا وانهزموا أقبح هزيمة فلما ولوا الأدبار في أوائل الهزيمة، هجم مملوك من عسكر الناصري يقال له يلبغا الزيني الأعور وضرب الأمير جاركس الخليلي الأمير آخور بالسيف فقتله وأخذ سلبه وترك رمته عارية، إلى أن كفنته امرأة بعد أيام ودفنته.

ثم مدت التركمان والعرب أيديهم ينهبون من انهزم من العسكر المصري ويقتلون ويأسرون من ظفروا به. وساق الأمير الكبير أيتمش البجاسي حتى لحق بدمشق وتحصن بقلعتها. وتمزق العسكر المصري وذهب كأنه لم يكن، ودخل الناصري من يومه إلى دمشق بعساكره، ونزل بالقصر من الميدان، وتسلم القلعة بغير قتال. وأوقع الحوطة على سائر أما للعسكر وأنزل بالأمير الكبير أيتمش وقيده هو والأمير طرنطاي نائب الشام وسجنهما بقلعة دمشق، وتتبع بقية الأمراء والمماليك حتى قبض من يومه أيضاً على الأمير بكلمش العلائي في عدة من أعيان المماليك الظاهرية، فاعتقلهم أيضا بقلعة دمشق. ثم مدت التركمان والأجناد أيديهم في النهب، فما عفوا ولا كفوا وتمادوا على هذا عدة أيام.

ثم أمر السلطان بحفر خندق القلعة وتوعير طريق باب القلعة المعروف بباب القرافة وباب الحرس وباب الدرفيل.

ثم أمر السلطان بسد خوخة الأمير أيدغمش خارج بابي زويلة، فسدت حتى صار لا يدخل منها راكب. ثم أمر السلطان فنودي بالقاهرة بإبطال مكس النشا والجلود.

وفي يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة خطب للخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد، فإنه أعيد إلى الخلافة من يوم خلع عليه السلطان خلعة الرضا، ثم قرئ تقليده في ثاني عشره بالمشهد النفيسي وحضره

القضاة ونائب السلطنة. ولما انقضى مجلس قراءة التقليد توجهوا الجميع إلى رباط الآثار النبوية وقرؤوا به صحيح البخاري، ودعوا الله تعالى للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر وإخماد الفتنة بين الفريقين.

ثم أخذ السلطان ينقل إلى قلعة الجبل المناجيق والمكاحل والعدد، وأمر السلطان لسكان قلعة الجبل من الناس بادخار القوت بها لشهرين.

ثم رسم السلطان للمعلم أحمد بن الطولوني بجمع الحجارين لسد فم وادي السحرة بجوار الجبل الأحمر، وأن يبنى حائط من جوار باب الدرفيل إلى الجبل.

ثم نودي بالقاهرة بأن من له فرس من أجناد الحلقة يركب للحرب ويخرج مع العسكر، فكثر الهرج، وتزايد قلق الناس وخوفهم، وصارت الشوارع كلها ملآنة بالخيول الملبسة. هذا وإلى الآن لم يعرف السلطان ما الناصري فيه. وطلبت آلات الحرب من الخوذ والقرقلات والسيوف والأرماح بكل ثمن غال.

ثم رسم السلطان للأمير حسام الدين حسين ابن علي بن الكوراني والي القاهرة بسد باب المحروق أحد أبواب القاهرة، فكلمه الوالي في عدم سده، فنهره وأمره بسده وسد الباب الجديد أيضاً أحد أبواب القاهرة، ففعل. ثم سد باب الدرفيل المعروف قديماً بباب سارية، ويعرف في يومنا هذا بباب المدرج.

ثم أمر السلطان بسد جميع الخوخ، فسد عدة خوخ، وركب عند قناطر السباع ثلاثة دروب: أحدها من جهة مصر والآخر من جهة قبو الكرماني والآخر بالقرب من الميدان. ثم بنى بالقاهرة عدة دروب أخر وحفر خنادق كثيرة.

هذا والموت بالطاعون عمال بالديار المصرية، في كل يوم يموت عدة كبيرة.

وأما الأمير يلبغا الناصري نائب حلب وصاحبه منطاش نائب ملطية بمن معهما، فإن الناصري لما استقر بدمشق وملكها بعد الوقعة، نادى في جميع بلاد الشام وقلاعها بألا يتأخر أحد عن الحضور إلى دمشق من النواب والأمراء والأجناد، ومن تأخر - سوى من عين لحفظ البلاد - قطع خبزه وسلبت نعمته. فاجتمع الناس بأسرهم في دمشق من سائر البلاد، وأنفق الناصري فيهم، وتجهز وتهيأ للخروج من دمشق. وبرز منها بعساكره وأمرائه من الأمراء والأكراد والتركمان والعربان - وكان اجتمع إليه خلائق كثيرة جداً - في يوم السبت حادي عشر جمادى الأولى من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة المقدم ذكرها، بعد أن أقر في نيابة دمشق الأمير جنتمر المعروف بأخي طاز. وسار الناصري بمن معه من العساكر يريد الديار المصرية، وهو يظن أنه يلقى العساكر المصرية بالقرب من الشام. واستمر في سيره على هينة إلى أن وصل إلى غزة، فتلقاه نائبها حسام الدين بن باكيش بالتقادم والإقامات، فسأله

الناصري عن أخبار عسكر مصر، فقال: لم يرد خبر بخروج عسكر من مصر، وقد أرسلت جماعة كبيرة غير مرة لكشف هذا الخبر، ولم يكن مني تهاود في ذلك، فلم يبلغني عن الديار المصرية إلا أن برقوقا في تخوف كبير، وقد استعد للحصار، فلم يلتفت الناصري إلى كلامه، غير أنه صار متعجباً على عدم خروج العساكر المصرية لقتاله. ثم قال في نفسه: لعله يريد قتالنا في فم الرمل بمدينة قطيا، ليكون عسكره في راحة من جواز الرمل. وأقام الناصري بغزة يومه.

ثم سار الناصري من الغد يريد ديار مصر، وأرسل أمامه جماعة كبيرة من أمرائه ومماليكه كشافة. واستمر في السير إلى أن نزل مدينة قطيا. وجاء الخبر بنزول الناصري بعساكره على قطيا فلم يتحرك السلطان بحركة.

وفي ليلة وصول الخبر فر من أمراء مصر جماعة كبيرة إلى الناصري، وهي ليلة الثلاثاء ثامن وعشرين جمادى الأولى المذكورة، وهم: الأمير طغيتمر الجركتمري، وأرسلان اللفاف، وأرنبغا العثماني في عدة كبيرة من المماليك، ولحقوا بالناصري ودخلوا تحت طاعته، بعدما صرفوا في طريقهم الأمير عز الدين أيحفر أبا درقة كاشف الوجه البحري وقد سار من عند الملك الظاهر لكشف الأخبار، فضربوه وأخذوا جميع ما كان معه وساقوه معهم إلى الناصري فلما وصلوا إلى الناصري حرضوه على سرعة الحركة وعرفوه ما الظاهر فيه من الخوف والجبن عن ملاقاته، فقوي بذلك قلب الناصري، وهو إلى الآن يأخذ في أمر الملك الظاهر ويعطي.

ثم نصب السلطان السناجق السلطانية على أبراج القلعة، ودقت الكوسات الحربية، فاجتمعت العساكر جميعها، وعليهم آلة الحرب والسلاح. ثم ركب السلطان والخليفة المتوكل على الله معه من قلعة الجبل بعد العصر، وسار السلطان بمن معه حتى وقفا خلف دار الضيافة، وقد اجتمع حول السلطان من العامة خلائق لا تحصى كثرة، فوقف هناك ساعة، ثم عاد وطلع إلى الإسطبل السلطاني، وجلس فيه من غير أن يلقى حرباً، وصعد الخليفة إلى منزله بقلعة الجبل، وقد نزلت الذلة على الدولة الظاهرية، وظهر من خوف السلطان وبكائه ما أبكى الناس شفقة له ورحمة عليه.

فلما غربت الشمس صعد السلطان إلى القلعة، وبات بالقصر السلطاني ومعه عامة مماليكه وخاصكيته وهم عدة كبيرة إلى الغاية.

ثم في يوم السبت ثالث جمادى الآخرة نزل الناصري بعساكره بركة الجب ظاهر القاهرة، ومعه من أكابر الأمراء الأمير تمربغا الأفضلي الأشرفي المدعو منطاش، والأمير بزلار العمري الناصري حسن، والأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي نائب طرابلس كان، والأمير أحمد بن يلبغا العمري أمير مجلس، والأمير أيدكار حاجب

الحجاب، وجماعة أخر من أمراء الشام ومصر وغيرها.

ثم تقدمت عساكر الناصري إلى المرج وإلى مسجد التبن، فعند ذلك غلقت أبواب القاهرة كلها إلا باب زويلة، وأغلقت جميع الدروب والخوخ، وسد باب القرافة، وانتشرت الزعر في أقطار المدينة تأخذ ما ظفرت به ممن يستضعفونه.

ثم ركب السلطان ثانياً من القلعة ومعه الخليفة المتوكل على الله، ونزل إلى دار الضيافة، فقدم عليه الخبر بأن طليعة الناصري وصلت إلى الخراب طرف الحسينية فلقيتهم كشافة السلطان فكسرتهم.

ثم بعد العصر من اليوم المذكور قدم جماعة من عسكر الناصري عليهم الطواشي طقطاي الرومي الطشتمري، والأمير بزلار العمري الناصري وكان من الشجعان، والأمير ألطنبغا الأشربي، في نحو الألف وخمسمائة مقاتل يريدون القلعة، فبرز لهم الأمير بطا الطولوتمري الظاهري الخاصكي والأمير شكر باي العثماني الظاهري وسودون شقراق والوالد في نحو عشرين مملوكاً من الخاصكية الظاهرية، وتلاقوا مع العسكر المذكور: صدموهم صدمة واحدة كسروهم فيها وهزموهم إلى قبة النصر، ولم يقتل منهم غير سودون شقراق، فإنه أمسك وأتي به إلى الناصري فوسطه. ولم يقتل الناصري في هذه الوقعة أحداً غيره، لا قبله ولا بعده، أعني صبراً، غير أن جماعة كبيرة قتلوا في المعركة. وورد الخبر بنصرتهم على الملك الظاهر، فلم يغتر بذلك، وعلم أن أمره قد زال، فأخذ في تدبير أمره مع خواصه، فأشار عليه من عنده أن يستأمن من الناصري فعند ذلك أرسل الملك الظاهر الأمير أبا بكر بن سنقر الحاجب والأمير بيدمر المنجكي شاد القصر بالنمجاة إلى الأمير يلبغا الناصري أن يأخذا له أماناً على نفسه ويترققا له فسارا من وقتهما إلى قبة النصر، ودخلا على الناصري وهو بمخيمه، واجتمعا به في خلوة، فأمنة على نفسه، وأخذ منهما منجاة الملك وقال: الملك الظاهر أخونا وخشداشنا، ولكنه يختفي بمكان إلى أن تخمد الفتنة، فإن الآن كل واحد له رأي وكلام، حتى ندبر له أمراً يكون فيه نجاته فعادا بهذا الجواب إلى الملك الظاهر برقوق. وأقام السلطان بعد ذلك في مكانه مع خواصه إلى أن صلى عشاء الآخرة، وقام الخليفة المتوكل على الله إلى منزله بالقلعة على العادة في كل ليلة. وبقي الملك الظاهر في قليل من أصحابه، وأذن لسودون النائب في التوجه إلى حال سبيله والنظر في مصلحة نفسه، فودعه وقام ونزل من وقته. ثم فرق الملك الظاهر بقية أصحابه، فمضى كل واحد إلى حال سبيله.

ثم استتر الملك الظاهر وغير صفته، حتى نزل من الإسطبل إلى حيث شاء ماشياً على قدميه، فلم يعرف له أحد خبراً. وانفض ذلك الجمع كله في أسرع ما يكون، وسكن في الحال دق الكوسات ورمي مدافع النفط، ووقع النهب في حواصل الإسطبل

حتى أخذوا سائر ما كان فيه من السروج واللجم وغيرها والعبي، ونهبوا أيضاً ما كان بالميدان من الغنم والضأن، وكان عدتها نحو الألفي رأس، ونهبت طباق المماليك بالقلعة. وطار الخبر في الوقت إلى الناصري، فلم يتحرك من مكانه، ودام بمخيمه. وأرسل جماعة من الأمراء من أصحابه، فسار من عسكره عدة كبيرة واحتاطوا بالقلعة.

وأصبح الأمير يلبغا الناصري بمكانه، وهو يوم الاثنين خامس جمادى الآخرة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، وندب الأمير منطاش في جماعة كبيرة إلى القلعة فسار منطاش إلى قلعة الجبل في جموعه، وطلع إلى الإسطبل السلطاني، فنزل إليه الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد وسار مع منطاش إلى الناصري بقية النصر، حتى نزل بمخيمه، فقام الناصري إليه وتلقاه وأجلسه بجانبه وو انسه بالحديث.

هذا وقد انضمت العامة والزعر والتركمان من أصحاب الناصري، وتفرقوا على بيوت الأمراء وحواصلهم، فنهبوا ما وجموا حتى أخربوا الدور وأخذوا أبوابها وخشبها، وهجموا منازل الناس خارج القاهرة ونهبوها، واستمروا على ذلك، وقد صارت مصر غوغاء وأهلها رعية بلا راع، حتى أرسل الناصري الأمير ناصر الدين محمد بن الحسام، وقد ولاه ولاية القاهرة، فسار ابن الحسام إلى القاهرة فوجد باب النصر مغلوقاً، فدخل بفرسه راكباً من جامع الحاكم إلى القاهرة وفتح باب النصر وباب الفتوح. وعند فتح الأبواب طرق جماعة كبيرة من عسكر الناصري القاهرة ونهبوا منها جانباً كبيراً، فقاتلهم الناس وقتلوا منهم أربعة نفر. ومر بالناس في هذه الأيام شدائد وأهوال. وبلغ الناصري الخبر فبعث أبا بكر بن سنقر الحاجب وتنكزبغا رأس نوبة إلى حفظ القاهرة فدخلاها.

ثم نودي بها من قبل الناصري بالأمان ومنع النهب، فنزل تنكزبغا المذكور عند الجملون وسط القاهرة، ونزل سيدي أبو بكر بن سنقر عند باب زويلة، وسكن الحال، وهدأ ما بالناس، وأمنوا على أموالهم.

ثم استدعى الأمير الكبير يلبغا الناصري الأمراء واستشارهم فيمن ينصبه في سلطنة مصر، فكثر الكلام بينهم، وكان غرض غالب الأمراء سلطنة الناصري ما خلا منطاش وجماعة من الأشرفية، حتى استقر الرأي على إقامة الملك الصالح أمير حاج ابن الملك الأشرف شعبان في السلطنة ثانياً، بعد أن أعيا الأمراء أمر الناصري في عدم قبوله السلطنة وهو يقول: المصلحة سلطنة الملك الصالح أمير حاج، فإن الملك الظاهر برقوقاً خلعه من غير موجب فطلعوا في الحال من الإسطبل إلى القلعة، واستدعوا الملك الصالح وسلطنوه، وغيروا لقبه بالملك المنصور.

وأما الملك الظاهر برقوق فإنه دام في اختفائه إلى أن قبض عليه بعد أيام على ما سنحكيه في سلطنة الملك الصالح مفصلاً إلى أن يسجن بالكرك ويعود إلى ملكه ثانياً.

قلت: وزالت دولة الملك الظاهر برقوق كأن لم تكن - فسبحان من لا يزول ملكه - بعد أن حكم مصر أميراً كبيراً وسلطاناً إحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة وعشرين يوماً.

* * *

سلطنة المنصور حاجي الثانية

السلطان الملك الصالح ثم المنصور حاجي ابن السلطان الملك الأشرف شعبان ابن الأمير الملك الأمجد حسين ابن السلطان الملك الناصر محمد ابن السلطان الملك المنصور قلاوون.

وكان سبب عوده للملك أنه لما وقع ما حكيناه من خروج الأمير يلبغا الناصري وتمربغا الأفضلي المدعو منطاش بمن معهما على الملك الظاهر برقوق، ووقع ما حكيناه من الحروب بينهم، إلى أن ضعف أمر الملك الظاهر، واختفى، وترك ملك مصر، واستولى الأمير الكبير يلبغا الناصري على قلعة الجبل، وكلمه أصحابه على أنه يتسلطن، فلم يفعل، وأشار بعود الملك الصالح هذا وقال: إن الملك الظاهر برقوقا خلعه بغير سبب، وطلب أكابر الأمراء من أصحابه مثل الأمير منطاش المقدم ذكره والأمير بزلار العمري الناصري والأمير قرادمرداش الأحمدي وغيرهم، وكلمهم في عود الملك الصالح إلى السلطنة ثانياً. فأجاب الجميع وطلعوا من الإسطبل السلطاني إلى الحوش من قلعة الجبل، وجلس الأتابك يلبغا الناصري به، وطلب الملك الصالح هذا من عند أهله وقد حضر الخليفة والقضاة وبايعوه بالسلطنة، وألبسوه خلعتها. وركب من الحوش بأبهة الملك وشعار السلطنة إلى الإيوان بقلعة الجبل، والأمراء المذكورون مشاة بين يديه. وأجلسوه على تخت الملك وغيروا لقبه بالملك المنصور، ولم نعلم بسلطان تغير لقبه قبله ولا بعده، فإنه كان لقبه أولاً الصالح وصار الآن في سلطنته الثانية المنصور.

ثم أخذ الناصري يتتبع أثر الملك الظاهر برقوق حتى سأل المهتار نعمان عنه، فأخبره أنه نزل ومعه أبو يزيد، وأنه لما تبعه رده الملك الظاهر فعند ذلك أمر الناصري حسين بن الكوراني بإحضار أبي يزيد المذكور، فشدد في طلبه، وهجم بيوتاً كثيرة، فلم يقف له على خبر، فقبض على جماعة من أصحاب أبي يزيد وغلمانه وقررهم فلم يجد عندهم علماً به ومازال يفحص على ذلك حتى دله بعض الناس على مملوك أبي يزيد، فقبض عليه وقبض ابن الكوراني على امرأة المملوك وعاقبها فدلته على موضع أبي يزيد وعلى الملك الظاهر، وأنهما في بيت رجل خياط بجوار بيت أبي يزيد فمضى ابن الكوراني إلى البيت، وبعث إلى الناصري يعلمه، فأرسل إليه الأمراء.

ثم في ليلة الخميس ثاني وعشرين جمادى الآخرة رسم الناصري بسفر الملك الظاهر برقوق إلى الكرك، فأخرج من قاعة الفضة في ثلث الليل من باب القرافة، أحد أبواب القلعة، ومعه الأمير ألطنبغا الجوياني، فأركبوه هجيناً ومعه من مماليكه أربعة مماليك

صغار على هجن، وهم قطلوبغا الكركي وبيغان الكركي وآقباي الكركي وسودون الكركي، والجميع صاروا في سلطنة الملك الظاهر الثانية بعد خروجه من الكرك أمراء، وسافر معه أيضاً مهتاره نعمان وسار به الجوباني إلى قبة النصر خارج القاهرة، وأسلمه إلى الأمير سيف الدين محمد بن عيسى العائدي، فتوجه به إلى الكرك من على عجرود حتى وصل به إلى الكرك، وسلمه إلى نائبها الأمير حسام الدين الكجكني وعاد بالجواب، فأنزل الكجكني الملك الظاهر بقاعة النحاس من قلعة الكرك، وكانت ابنة الأتابك يلبغا العمري الخاصكي أستاذ الملك الظاهر برقوق زوجة مأمور المعزول عن نيابة الكرك هناك، فقامت للملك الظاهر برقوق بكل ما يحتاج، كونه مملوك أبيها يلبغا، مع أن الناصري أيضاً مملوك أبيها، غير أنها حبب إليها خدمة الملك الظاهر، ومدت له سماطاً يليق به، واستمرت على ذلك أياماً كثيرة، وفعلت معه أفعالاً، كان اعتادها أيام سلطنته.

ثم إن الكجكني أيضاً اعتنى بخدمته، لما كان أوصاه الناصري به قبل خروجه من مصر، ومن جملة ما كان أوصاه الناصري وقرره معه أنه متى حصل له أمر من منطاش أو غيره فليفرج عن الملك الظاهر برقوق من حبس الكرك فاعتمد الكجكني على ذلك، وصار يدخل إليه في كل يوم، ويتلطف به، ويعده أنه يتوجه معه إلى التركمان، فإنه له فيهم معارف، وحصن قلعة الكرك، وصار لا يبرح من عنده نهاره كله، ويأكل معه طرفي النهار سماطه ولا زال على ذلك حتى أنس به الملك الظاهر وركن له حسب ما يأتي ذكره.

ثم في سادس وعشرينه خلع السلطان الملك المنصور على الأمير يلبغا الناصري باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية وأن يكون مدبر المملكة، وعلى الأمير ألطنبغا الجوباني باستقراره رأس نوبة الأمراء وظيفة بركة الجوباني، وعلى الأمير قرادمرداش الأحمدي وأستقر أمير سلاح، وعلى الأمير أحمد بن يلبغا واستقر أمير مجلس على عادته أولاً، وعلى الأمير تمرباي الحسني واستقر حاجب الحجاب، وخلع على القضاة الثلاثة باستمرارهم، وهم: القاضي شمس الدين محمد الطرابلسي والقاضي جمال الدين عبد الرحمن بن خير المالكي والقاضي ناصر الدين نصر الله الحنبلي، ولم يخلع على قاضي القضاة ناصر الدين ابن بنت ميلق الشافعي، لتوعكه ثم خلع على القاضي صدر الدين المناوي مفتي دار العدل، وعلى القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر، الجميع باستمرارهم.

وفي هذا اليوم سافر نواب البلاد الشامية، وسافر معهم كثير من التركمان وأجناد الشام وأمرائها، وفيه نودي أيضاً بألا يتأخر أحد من مماليك الملك الظاهر برقوق إلا من يكون بخدمة السلطان ممن عين، ومن تأخر بعد ذلك شنق، ثم نودي على

التركمان والشاميين والغرباء بخروجهم من الديار المصرية إلى بلادهم.

وفيه خلع السلطان الملك المنصور على شخص وعمله خياط السلطان، فطلبه الناصري وأخذ منه الخلعة، وضربه ضرباً مبرحاً، وأسلمه لشاد الدواوين، ثم أفرج عنه بشفاعة الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، فشق ذلك على الملك المنصور، وقال: إذا لم ينفذ مرسومي في خياط فما هذه السلطنة. ثم سكت على مضض.

* * *

الفتنة بين الأمير الكبير يلبغا والأمير تمربغا الأفضلي المدعو منطاش

ولما كان سادس عشر شعبان أشيع في القاهرة بتنكر منطاش على الناصري وانقطع منطاش عن الخدمة، وأظهر أنه مريض، ففطن الناصري بأنه يريد أن يعمل مكيدة، فلم ينزل لعيادته وبعث إليه الأمير ألطنبغا الجوباني رأس نوبة كبيراً في يوم الاثنين سادس عشر شعبان المذكور ليعوده في مرضه، فدخل عليه، وسلم عليه، وقضى حق العيادة وهم بالقيام، فقبض عليه منطاش وعلى عشرين من مماليكه، وضرب قرقماس دوادار الجوباني ضرباً مبرحاً، مات منه بعد أيام.

ثم ركب منطاش حال مسكه للجوباني في أصحابه إلى باب السلسلة، وأخذ جميع الخيول التي كانت واقفة على باب السلسلة. وأراد اقتحام الباب ليأخذ الناصري على حين غفلة، فلم يتمكن من ذلك وأغلق الباب، ورمى عليه مماليك الناصري من أعلى السور بالنشاب والحجارة، فعاد إلى بيته ومعه الخيول، وكانت داره دار منجك اليوسفي التي اشتراها تمربغا الظاهري الدوادار وجددها بالقرب من مدرسة السلطان حسن، ونهب منطاش في عوده بيت الأمير آقبغا الجوهري الأستدار وأخذ خيوله وقماشه.

ثم رسم منطاش في الوقت لمماليكه وأصحابه بالطلوع إلى مدرسة السلطان حسن، فطلعوا إليها وملكوها، وكان الذي طلع إليها الأمير تنكزبغا رأس نوبة والأمير أزدمر الجو كندار دوادار الملك الظاهر برقوق في عدة من المماليك وحمل إليها منطاش النشاب والحجارة، ورموا على من كان بالرميلة من أصحاب الناصري من أعلى المئذنتين ومن حول القبة، فعند ذلك أمر الناصري مماليكه وأصحابه بلبس السلاح، وهو يتعجب من أمر منطاش كيف يقع منه ذلك وهو في غاية من قلة المماليك وأصحابه. وبلغ الأمراء ذلك، فطلع كل واحد بمماليكه وطلبه إلى الناصري.

وأما منطاش فإنه أيضاً تلاحقت به المماليك الأشرفية خشداشيته والمماليك الظاهرية، فعظم بهم أمره، وقوي جأشه. فأما مجيء الظاهرية إليه فرجاء لخلاص أستاذهم

الملك الظاهر برقوق، وأما الأشرفية فهم خشداشيته، لأن منطاش كان أشرفياً ويلبغا الناصري يلبغاوياً خشداشاً لبرقوق. وانضمت اليلبغاوية على الناصري، وهم يوم ذاك أكابر الأمراء وغالب العسكر المصري وتجمعت المماليك على منطاش حتى صار في نحو خمسمائة فارس معه، بعدما كان في سبعين فارساً في أول ركوبه، ثم أتاه من العامة عالم كبير، فترامى الفريقان واقتتلا.

ونزل الأمير حسام الدين حسين بن الكوراني والي القاهرة والأمير مأمور حاجب الحجاب من عند الناصري، ونودي في الناس بنهب مماليك منطاش، والقبض على من قدروا عليه منهم، وإحضاره إلى الناصري، فخرج عليهما طائفة من المنطاشية فضربوهما وهزموهما، فعادوا إلى الناصري وسار الوالي إلى القاهرة، وأغلق أبوابها. واشتد الحرب، وخرج منطاش في أصحابه، وتقرب من العامة، ولاطفهم وأعطاهم الذهب، فتعصبوا له وتزاحموا على التقاط النشاب الذي يرمى به من أصحاب الناصري على منطاش وأتوه به وبالغوا في الخدمة لمنطاش، حتى خرجوا عن الحد، فكان الواحد منهم يثب في الهواء حتى يخطف السهم قبل أن يأخذه غيره، ويأتي به منطاش، وطائفة منهم تنقل الحجارة إلى أعلى المدرسة الحسنية واستمروا على ذلك إلى الليل، فبات منطاش ليلة الثلاثاء سابع عشر شعبان على باب مدرسة السلطان حسن المذكورة والرمي يأتيه من القلعة من أعوان الناصري.

هذا والمماليك الظاهرية تأتيه من كل فج، وهو يعدهم ويمنيهم، حتى أصبح يوم الثلاثاء وقد زادت أصحابه على ألف فارس كل ذلك والناصري لا يكترث بأمر منطاش، ولا يصلح أمره وإنما يقبل على التراخي استخفافاً بمنطاش، وحواشيه يحرضونه على سرعة قتال منطاش ويحذرونه التهاون في أمره. ثم أتى منطاش طوائف من مماليك الأمراء والبطالة وغيرهم شيئاً بعد شيء، فحسن حاله بهم، واشتد بأسه، وعظمت شوكته بالنسبة لما كان فيه أولاً، لا بالنسبة لحواشي الناصري ومماليكه، فعند ذلك ندب الناصري الأمير بجمان والأمير قرابغا الأبو بكري في طائفة كبيرة ومعهم المعلم شهاب الدين أحمد بن الطولوني المهندس وجماعة كبيرة من الحجارين والنقابين لينقبوا بيت منطاش من ظهره حتى يدخلوا منه إلى منطاش ويقاتلوه من خلفه والناصري من أمامه ففطن منطاش بهم، فأرسل إليهم في الحال عدة من جماعته قاتلوهم حتى هزموهم، وأخذوا قرابغا وأتوا به إلى منطاش فرتب الناصري عدة رماة على الطبلخاناه السلطانية، وعلى المدرسة الأشرفية التي هدمها الملك الناصر فرج، وجعل الملك المؤيد مكانها بيمارستاناً في الصوة، فرموا على منطاش بالمدافع والنشاب، فقتل عدة من العوام، وجرح كثير من المنطاشية. هذا وقد انزعج الناصري وقام بنفسه وهيأ أصحابه لقتال منطاش، وندب من أصحابه من

أكابر الأمراء جماعة لقتاله، وهم الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير جمق ابن الأتابك أيتمش البجاسي في جمع كبير من المماليك، فنزلوا وطردوا العامة من الرميلة، فحملت العامة من أصحاب منطاش عليهم حملة واحدة هزموهم فيها أقبح هزيمة.

ثم عاد أحمد بن يلبغا المذكور غير مرة، واستمر القتال بينهما إلى آخر النهار، والرمي والقتال عمال من القلعة على المدرسة الحسنية ومن المدرسة على القلعة. وبينما هم في ذلك خرج من عسكر الناصري الأمير آقبغا المارديني بطلبه وصار إلى منطاش، فتسلل الأمراء عند ذلك واحدا بعد واحد، وكل من يأتي منطاش من الأمراء يوكل به واحد يحفظه، ويبعث به إلى داره، ويأخذ مماليكه فيقاتل الناصري بهم.

فلما رأى حسين بن الكوراني الوالي جانب الناصري قد اتضع، خاف على نفسه من منطاش واختفى، فطلب منطاش ناصر الدين محمد بن ليلى نائب حسين ابن الكوراني وولاه ولاية القاهرة، وألزمه بتحصيل النشاب، فنزد في الحال إلى القاهرة، وحمل إليه كثيراً من النشاب.

ثم أمره منطاش فنادى بالقاهرة بالأمان والاطمئنان وإبطال المكس والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر.

هذا وقد أخذ أمر الناصري في إدبار، وتوجه جماعة كبيرة من أصحابه إلى منطاش فلما رأى الناصري عسكره في قلة، وقد نفر عنه غالب أصحابه، بعث بالخليفة المتوكل على الله إلى منطاش يسأله في الصلح وإخماد الفتنة فنزل الخليفة إليه وكلمه في ذلك، فقال له منطاش: أنا في طاعة السلطان، وهو أستاذي وابن أستاذي، والأمراء إخوتي، وما غريمي إلا الناصري، لأنه حلف لي وأنا بسيواس ثم بحلب ودمشق أيضاً بأننا نكون شيئاً واحداً، وأن السلطان يحكم في مملكته بما شاء، فلما حصل لنا النصر وصار هو أتابك العساكر، استبد بالأمر، ومنع السلطان من التحكم، وحجر عليه، وقرب خشداشيته اليلبغاوية، وأبعدني أنا وخشداشيتي الأشرفية ثم ما كفاه ذلك حتى بعثني لقتال الفلاحين. وكان الناصري أرسله من جملة الأمراء إلى جهة الشرقية لقتال العربان، لما عظم فساد فلاحيها.

ثم قال منطاش: ولم يعطني الناصري شيئاً من المال سوى مائة ألف درهم، وأخذ لنفسه أحسن الإقطاعات وأعطاني أضعفها، والإقطاع الذي قرره لي يعمل في السنة ستمائة ألف درهم، والله ما أرجع عنه حتى أقتله أو يقتلني، ويتسلطن ويستبد بالأمر وحلى من غير شريك. فأخذ الخليفة يلاطفه فلم يرجع له وقام الخليفة من عنده وهو مصمم على مقالته، وطلع إلى الناصري وأعاد عليه الجواب.

فعند ذلك ركب الناصري بسائر مماليكه وأصحابه، ونزل بجمع كبير لقتال منطاش، وصف عساكره تجاه باب السلسلة وبرز إليه منطاش أيضاً بأصحابه، وتصادما واقتتلا قتالاً شديداً، وثبت كل من الطائفتين ثباتاً عظيماً فخرج من عسكر الناصري الأمير عبد الرحمن ابن الأتابك منكلي بغا الشمسي صهر الملك الظاهر برقوق بمماليكه، والأمير صلاح الدين محمد بن تنكر نائب الشام، وكان أيضاً من خواص الملك الظاهر برقوق، وسار صلاح الدين المذكور إلى منطاش ومعه خمسة أحمال نشاب وثمانون حمل مأكل وعشرة آلاف درهم. وانكسر الناصري وأصحابه، وطلع إلى باب السلسلة، فمراجع أمره وانضم عليه من بقي من خشداشيته اليلبغاوية، وندب لقتال منطاش الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس ثانياً، والأمير قرادمرداش الأحمدي أمير سلاح، والأمير ألطنبغا المعلم، والأمر مأمور القلمطاوي حاجب الحجاب، والجميع يلبغاوية ونزلوا في جمع موفور من العسكر، وصدموا منطاش صدمة هائلة، وأحمى أظهرهم من في القلعة بالرمي على منطاش وأصحابه، فأخذ أصحاب منطاش عند ذلك في الرمي من أعلى المدرسة بالنشاب والنفط، والتحم القتال، من فوق ومن أسفل، فانكسر عسكر الناصري ثانياً، وانهزموا إلى باب السلسلة.

هذا والعامة لأخذ النشاب من على الأرض وتأتي به منطاش، وهو يتقرب منهم ويترفق لهم، ويقول لهم: أنا واحد منكم وأنتم إخواننا وأصحابنا وأشياء كثيرة من هذه المقولة هذا وهم يبذلون نفوسهم في خدمته، ويتلاقطون النشاب من الرميلة، مع شدة رمي الناصري عليهم من القلعة.

ثم ظفر منطاش بحاصل للأمير جركس الخليلي الأمير آخور وفيه سلاح كثير ومال، وبحاصل آخر لبكلمش العلائي، فأخذ منطاش منهما شيئاً كثيراً، فقوي به، فإنه كان أمره قد ضعف من قلة السلاح لا من قلة المقاتلة، لأن غالب من أتاه بغير سلاح.

ثم ندب الناصري لقتاله الأمير مأموراً حاجب الحجاب والأمير جمق بن أيتمش والأمير قراكسك في عدة كبيرة من اليلبغاوية، وقد لاح لهم زوال دولة اليلبغاوية بحبس الملك الظاهر برقوق، ثم بكسرة الناصري من منطاش إن تم ذلك، فنزلوا إلى منطاش وقد بذلوا أرواحهم، فبرز لهم العامة أمام المنطاشية، وأكثروا من رميهم بالحجارة في وجوههم ووجوه خيولهم حتى كسروهم، وعادوا إلى باب السلسلة. كل ذلك والرمي من القلعة بالنشاب والنفوط والمدافع متواصل على المنطاشية، وعلى من بأعلى المدرسة الحسنية، حتى أصاب حجر من حجارة المدفع القبة الحسنية فخرقها، وقتل مملوكاً من المنطاشية فلما رأى منطاش شدة الرمي عليه من القلعة، أرسل أحضر المعلم ناصر الدين محمد بن الطرابلسي - وكان أستاذاً في الرمي

بمدافع النفط - فلما حضر عنده جرده من ثيابه ليوسطه من تأخره عنه، فاعتذر إليه بأعذار مقبولة ومضى ناصر الدين في طائفة من الفرسان، وأحضر آلات النفط، وطلع على المدرسة ورمى على الإسطبل السلطاني، حيث هو سكن الناصري، حتى أحرق جانباً من خيمة الناصري وفرق جمعهم. وقام الناصري والسلطان الملك المنصور من مجلسهما ومضيا إلى موضع آخر امتنعا فيه ولم يمض النهار حتى بلغت عدة فرسان منطاش نحو الألفي مقاتل.

وبات الفريقان في تلك الليلة لا يبطلان الرمي حتى أصبحا يوم الأربعاء وقد جاء كثير من مماليك الأمراء إلى منطاش ثم خرج من عسكر الناصري الأمير تمرباي الحسني حاجب الحجاب، والأمير قردم الحسني رأس نوبة النوب في جماعة كبيرة من الأمراء، وصاروا إلى منطاش من جملة عسكره، وغالب هؤلاء الأمراء من اليلبغاوية.

ثم ندب الناصري لقتال منطاش الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير قرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح، وعين منهم جماعة كبيرة، فنزلوا وصدموا المنطاشية صدمة هائلة انكسروا فيها غير مرة، وابن يلبغا يعود بهم، إلى أن ضعف أمره، وانهزم وطلع إلى باب السلسلة، هذا والقوم يتسللون من الناصري إلى منطاش، والعامة تمسك من وجدوه من الترك ويقولون له: ناصري أم منطاشي، فإن قال: ناصري أنزلوه من على فرسه وأخذوا جميع ما عليه وأتوا به إلى منطاش.

ثم تكاثرت العامة على بيت الأمير أيدكار حتى أخذوه بعد قتال كبير وأتوا به إلى منطاش، فأكرمه منطاش وبينما هو في ذلك جاءه الأمير ألطنبغا المعلم بطلبه ومماليكه، وكان من أجل خشداشية الناصري وأصحابه، وصار من جملة المنطاشية، فسر به منطاش.

ثم عين له ولأيدكار موضعاً يقفان فيه ويقاتلان الناصري منه. وبينما منطاش في ذلك أرسل إليه الأمير قرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح يسأله في الحضور إليه طائعاً فلم يأذن له، ثم أتاه الأمير بلوط الصرغتمشي بعد ما قاتله عدة مرار، وكان من أعظم أصحاب الناصري.

ثم حضر إلى منطاش جمق بن أيتمش واعتذر إليه، فقبل عذره وعظم أمر منطاش، وضعف أمر الناصري، واخل أمره، وصار في باب السلسلة بعدد يسير من مماليكه وأصحابه وندم الناصري على خلع الملك الظاهر برقوق وحبسه لما علم أن الأمر خرج من اليلبغاوية وصار في الأشرفية حيث لا ينفعه الندم.

فلما أذن العصر قام الناصري هو وقرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح وأحمد ابن يلبغا أمير مجلس وآقبغا الجوهري الأستادار والآبغا العثماني الدوادار والأمير قراكسك في عدة من المماليك، وصعد إلى قلعة الجبل ونزل من باب القرافة وعندما قام الناصري من باب السلسلة وطلع القلعة ونزل من باب القرافة، أعلم أهل القلعة منطاش، فركب في الحال بمن معه، وطلع إلى الإسطبل السلطاني وملكه، ووقع النهب فيه، فأخذوا من الخيل والقماش شيئاً كثيراً. وتفرق الزعر والعامة إلى بيوت المنهزمين، فنهبوا وأخذوا ما قدروا عليه، ومنعهم الناس من عدة مواضع، وبات منطاش بالإسطبل.

وأصبح من الغد، وهو يوم الخميس تاسع عشر شعبان، وطلع إلى السلطان الملك المنصور حاجي، وأعلمه بأنه في طاعته، وأنه هو أحق بخدمته لكونه من جملة المماليك الذين لأبيه الأشرف شعبان، وأنه يمتثل مرسومه فيما يأمره به، وأنه يريد بما فعله عمارة بيت الملك الأشرف - رحمه الله - فسر المنصور بذلك هو وجماعة الأشرفية، فإنهم كانوا في غاية ما يكون من الضيق مع اليلبغاوية من مدة سنين.

ثم تقدم الأمير منطاش إلى رؤوس النوب بجمع المماليك وإنزالهم بالأطباق من قلعة الجبل على العادة ثم قام من عند السلطان ونزل إلى الإسطبل بباب السلسلة وكان ندب جماعة للفحص على الناصري ورفقته، ففي حال نزوله أحضر إليه الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير مأمور القلمطاوي، فأمر بحبسهما بقاعة الفضة من القلعة، وحبس معهما أيضاً الأمير بجمان المحمدي وكتب منطاش بإحضار الأمير سودون الفخري الشيخوني النائب من ثغر الإسكندرية ثم قدم عليه الخبر بأن الأمراء الذين توجهوا في أثر الناصري أدركوه بسرياقوس وقبضوا عليه وبعد ساعة أحضر الأمير يلبغا الناصري بين يديه، فأمر به، فقيد وحبس أيضاً بقاعة الفضة، ثم حمل هو والجوباني في آخرين إلى سجن الإسكندرية فحبسوهم وأخذ الأمير منطاش يتتبع أصحاب الناصري وحواشيه من الأمراء والمماليك.

فلما كان يوم عشرين شعبان قبض على الأمير قرا دمرداش الأحمدي أمير سلاح، فأمر به منطاش، فقيد وحبس. ثم قبض منطاش على جماعة كبيرة من الأمراء، وهم: الأمير ألطنبغا المعلم، والأمير كشلي القلمطاوي، وآقبغا الجوهري، وألطنبغا الأشرفي، وآقبغا العثماني، وفارس الصرغتمشي، وكمشبغا، وشيخ اليوسفي، وعبدوق العلائي، وقيد الجميع وبعث بهم إلى ثغر الإسكندرية، فحبسوا بها.

ولم يتم سروره، وقدم عليه الخبر بما هو أدهى وأمر، وهو خروج الملك الظاهر برقوق من سجن الكرك، وأنه استولى على مدينتها ووافقه نائبها الأمير حسام الدين

حسن الكجكني، وقام بخدمته، وأنه قد حضر إلى الملك الظاهر برقوق ابن خاطر أمير بني عقبة من عرب الكرك ودخل في طاعته، وقدم هذا الخبر من ابن بأكيش نائب غزة. فلما سمع منطاش ذلك كاد يهلك، واضطربت الديار المصرية، وكثرت القالة بين الناس، واختلفت الأقاويل، وتشغب الزعر.

وأما الملك الظاهر برقوق فإنه لما أنزله عوام الكرك من قلعتها إلى المدينة وقاموا في خدمته، وأتته العربان، وصار في طائفة كبيرة، ووافقه أيضاً أكابر أهل الكرك، قويت شوكته بهم، وعزم على الخروج من الكرك، وبرز أثقاله إلى ظاهر الكرك فاجتمع عند ذلك أعيان الكرك عند القاضي عماد الدين أحمد بن عيسى المقيري قاضي الكرك وكلموه في القيام على الملك الظاهر برقوق مراعاة للملك المنصور حاجي، وللأمير منطاش، واتفقوا على قبضه وإعلام أهل مصر بذلك، وأنهم يعتذرون لمنطاش أنه لم يخرج من حبسه بالكرك إلا باجتماع السفهاء من أهل الكرك، ليكون ذلك عذراً لهم عند السلطان وبعثوا ناصر الدين محمداً أخا القاضي عماد الدين المذكور، فأغلق باب المدينة، وبقي الملك الظاهر برقوق داخل المدينة، وحيل بينه وبين أثقاله ومعظم أصحابه.

فلما قام الملك الظاهر برقوق ليركب فرسه بلغه ذلك وكان القاضي علاء الدين علي كاتب سر الكرك، وهو أخو القاضي عماد الدين، يكتب للملك الظاهر في مدة خروجه من حبس الكرك، وبالغ في خدمته، وانضم عليه، فلما رأى ما نزل بالملك الظاهر، وبلغه اتفاق أهل المدينة مع أخيه القاضي عماد الدين على القبض على الملك الظاهر برقوق، أعلم الملك الظاهر بذلك، وقوى قلبه، وحرضه على السير إلى باب المدينة فركب معه برقوق، وسار حتى وصل إلى الباب، فوجده مغلقاً وأخوه ناصر الدين قائم عند الباب، كما أمره أخوه عماد الدين قاضي الكرك، فما زال علاء الدين بأخيه ناصر الدين المذكور حتى فتح له الباب، وخرج بالملك الظاهر منه ولحق ببقية أصحابه ومماليكه الذين كانوا حضروا إليه من البلاد الشامية فأقام الملك الظاهر بالثنية خارج الكرك يوماً واحداً، وسار من الغد في يوم ثاني وعشرين شوال إلى نحو دمشق، ونائبها يوم ذاك جنتمر أخو طاز، وقد وصل إليه الأمير الطنبغا الحلبي من مصر نائبا بحلب عوضاً عن الأمير كمشبغا الحموي، فاستعدوا لقتال الملك الظاهر، ومعهما أيضاً حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة بعساكرها.

ثم أقبل الملك الظاهر برقوق بمن معه، فالتقوا على شقحب قريباً من دمشق، واقتتلوا قتالاً شديداً، كسروا فيه الملك الظاهر غير مرة، وهو يعود إليهم ويقاتلهم إلى أن

كسرهم، وانهزموا إلى دمشق، وقتل منهم ما يزيد على الألف - قاله المقريزي - فيهم خمسة عشر أميراً وقتل من أصحاب الملك الظاهر ستون نفساً، ومن أمرائه سبعة نفر، فهي أعظم وقعة كانت للملك الظاهر برقوق في عمره.

وركب الملك الظاهر أقفية الشاميين إلى دمشق، فامتنع جنتمر بقلعة دمشق وتوجه من أمراء دمشق ستة وثلاثون أميراً، ونحو ثلاثمائة وخمسين فارساً، وقد أثخنوا بالجراحات، ومعهم نائب صفد، وقصدوا الديار المصرية.

فلم يمض غير يوم واحد حتى عاد ابن باكيش نائب غزة بجماعة كبيرة من العربان والعشير لقتال الملك الظاهر وبلغ الملك الظاهر ذلك فأرسل الوالد وقلمطاي لكشف الخبر، فعادا إليه بسرعة بحضور ابن باكيش، فركب الملك الظاهر في الحال وخرج إليه والتقى معه وقاتله حتى كسره، وأخذ جميع ما كان معه من الأثقال والخيول والسلاح، فتقوى الملك الظاهر بذلك وأتاه عدة كبيرة من مماليكه الذين كانوا بالبلاد الشامية في خدمة أمراء الشام، ثم دخل في طاعته الأمير جبريل حاجب حجاب دمشق، وأمير على ابن أسندمر الزيني، وجقمق الصفوي، ومقبل الرومي، وصاروا من جملة عسكره فعند ذلك ركب الملك الظاهر إلى دمشق، وحصرها وأحرق القبيبات وأخربها، فهلك في الحريق خلق كبير. وأخذ أهل دمشق في قتال الملك الظاهر برقوق، وأفحشوا في أمره بالسب والتوبيخ، وهو لا يفتر عن قتالهم، وبينما هو في ذلك أتاه المدد من الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب، ومن جملة المدد ثمانون مملوكاً من المماليك الظاهرية البرقوقية فلما بلغ جنتمر مجيئهم أخرج إليهم من دمشق خمسمائة فارس ليحولوا بينهم وبين الملك الظاهر فقاتلتهم المماليك الظاهرية وكسرتهم، وأخذوا جميع ما كان معهم، وأتوا بهم إلى أستاذهم الملك الظاهر، ففرح بهم غاية الفرح.

قال الوالد: فعند ذلك قوي أمرنا واستفحل. واستمروا على حصار دمشق، وبينما هم في ذلك، وإذا بنعير قد أقبل في عربانه يريد قتال الملك الظاهر برقوق، فخرج الملك الظاهر وقاتله فكسره، واستولى على جميع ما كان معه. فقوي الملك الظاهر بما صار إليه من هذه الوقائع من الخيل والسلاح، وصار له برك كبير بعد مما كان معه خيمة صغيرة لا غير، وكانت مماليكه في أخصاص، وكل منهم هو الذي يخدم فرسه بنفسه، والآن فقد صاروا بالخيم والسلاح والغلمان هذا ومماليك الملك الظاهر يتداول مجيئهم إليه شيئاً بعد شيء ممن كان نفاهم الناصري ومنطاش إلى البلاد الشامية.

ووصل الخبر بهذه الوقائع كلها إلى منطاش في خامس عشر ذي القعدة،

فقامت قيامة منطاش لما سمع هذه الأخبار. وأخذ منطاش في تجهيز الملك المنصور حاجي للسفر لبلاد الشام لقتال الملك الظاهر برقوق، وأمر الوزير موفق الدين بتجهيز ما يحتاج إليه السلطان، فلم يجد في الخزانة ما يجهز به السلطان، واعتذر بأن المال انتهب وتفرق في هذه الوقائع، فقبل عذره. وسأل منطاش قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي، وكان ولاه قضاء القضاة قبل تاريخه بمدة يسيرة بعد عزل ناصر الدين ابن بنت الميلق، وقال له: أقرضني مال الأيتام، وكانت إذ ذاك أموالاً كثيرة، فامتنع المناوي من ذلك، ووعظه، فلم يؤثر فيه الوعظ، وختم على جميع مال الأيتام. ثم رسم منطاش لحاجب الحجاب ولناصر الدين محمد بن قرطاي نقيب الجيش بتفرقة النقباء على أجناد الحلقة، وحثهم على التجهيز للسفر وبينما هم في ذلك قدم عليه الخبر بكسرة ابن باكيش نائب غزة ثانياً من الملك الظاهر برقوق، وأخذ الملك الظاهر ما كان معه، فاشتد عند ذلك الاضطراب وكثر الإرجاف ووقع الاهتمام بالسفر، وأزعج أجناد الحلقة. واستدعى منطاش الخليفة المتوكل على الله والقضاة، والشيخ سراج الدين عمر البلقيني، وأعيان الفقهاء، ورتبوا صورة فتيا في أمر الملك الظاهر برقوق، وانفضوا من غير شيء.

وفي هذا اليوم استدعى منطاش الخليفة المتوكل على الله والقضاة والعلماء بسبب الفتيا في الملك الظاهر برقوق وقي قتاله، فكتب ناصر الدين الصالحي موقع الحكم فتيا في الملك الظاهر برقوق تتضمن السؤال عن رجل خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً في الشهر الحرام والبلد الحرام وهو محرم، يعني عن أحمد بن عجلان صاحب مكة، واستحل أخذ أموال الناس وقتل الأنفس، وأشياء غير ذلك ثم جعل الفتيا عشر نسخ، فكتب جماعة من الأعيان والقضاة.

ثم رسم منطاش بفتح سجن قديم بقلعة الجبل كان قد ارتدم وسجن فيه عدة من المماليك الظاهرية المقبوض عليهم قبل تاريخه.

ثم وجد منطاش ذخيرة بالقاهرة للأمير جركس الخليلي في بيت جمال الدين أستاداره، فيها خمسمائة ألف درهم، ونحو خمسين ألف دينار، فأخذها منطاش، ثم أخذ أيضاً من مال ابن جركس الخليلي نحو ثلاثمائة ألف دينار مصرية.

وفي يوم الاثنين سابع عشر ذي الحجة من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة نزل السلطان الملك المنصور حاجي من قلعة الجبل ومعه الأمير الكبير منطاش وتوجها بالعساكر إلى الريدانية خارج القاهرة بتجمل عظيم إلى الغاية.

فلما نزلا بالمخيم استدعى منطاش قاضي القضاة صدر الدين محمد المناوي الشافعي

إلى الريدانية وألزمه بالسفر معه إلى الشام، فامتنع من ذلك وسأل الأعفاء فأعفي. وخلع على قاضي القضاة بدر الدين محمد بن أبي البقاء باستقراره عوضه في قضاء ديار مصر على أن يعطي مال الأيتام ويعطي من ماله مائة ألف درهم أخرى فضة، وخلع عليه، ودخل القاهرة من باب النصر بالتشريف. قلت: هذا هو الكريم الذي تكرم بماله ودينه.

ثم سار السلطان وسائر العساكر إلى غزة في ثامن المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة وعليهم آلة الحرب والسلاح.

وأما السلطان الملك المنصور ومنطاش فإن الأخبار أتتهما بأن الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب لم يزل يبعث يمد الملك الظاهر من حلب بالعساكر والأزواد والآلات والخيول وغير ذلك، حتى صار لبرقوق برك عظيم، ثم خرج من بعد ذلك من حلب بعساكرها وقدم على الملك الظاهر لنصرته، فعظم أمر الملك الظاهر به إلى الغاية، وكثرت عساكره، وجاءته التركمان والعربان والعشير من كل فج فلما بلغ ذلك منطاش جد في السير هو والسلطان والعساكر إلى نحو الملك الظاهر برقوق.

وبلغ الملك الظاهر مجيء الملك المنصور ومنطاش لقتاله، فترك حصار دمشق وأقبل نحوهم بعساكره ومماليكه حتى نزل على شقحب، ونزل العسكر المصري على قرية المليحة، وهي عن شقحب بنحو البريد، وأقاموا بها يومهم وبعثوا كشافتهم، فوجدوا الملك الظاهر برقوقاً على شقحب، فتقدم منطاش بالسلطان والعساكر إلى نحوه، بعد أن صف منطاش عساكر السلطان ميمنة وميسرة، وقلباً وجناحين، وجعل للميمنة رديفاً، وكذلك للميسرة، هذا بعد أن رتب الملك الظاهر برقوق أيضاً عساكره، غير أنه لم يتصرف في التعبية كتصرف منطاش لقلة جنده.

ووقف منطاش في الميمنة على ميسرة الظاهر برقوق، والتقى الفريقان في يوم الأحد رابع عشر للمحرم في سنة اثنتين وتسعين وتصادما، واقتتل الفريقان قتالاً عظيماً لم يقع مثله في سالف الأعصار. وحمل منطاش من الميمنة على ميسرة الظاهر، وحمل أصحاب ميمنة الظاهر على ميسرة الملك المنصور، وبذل كل من الفريقين جهده، وثبتت كل طائفة للأخرى، فكانت بينهما حروب شديدة انهزم فيها ميمنة الملك الظاهر وميسرته، وتبعهم منطاش بمن معه، وثبت الملك الظاهر في القلب، وقد انقطع عنه خبر أصحابه، وأيقن بالهلاك وبينما هو في ذلك لاح له طلائع السلطان الملك المنصور، وقد انكشف الغبار عنه، فحمل الملك الظاهر بمن بقي معه على الملك المنصور، فأخذه وأخذ الخليفة المتوكل على الله والقضاة والخزائن،

ومالت الطائفة التي ثبتت معه على أثقال المصريين، فأخذوها على آخرها، وكانت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة.

ووقع الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر في قبضة منطاش ولم يتعوق منطاش واستمر في أثر المنهزمين وهو يظن أن الملك الظاهر أمامه إلى أن وصل إلى دمشق وبها نائبها الأمير جنتمر أخو طاز فقال له منطاش: قد كسرنا الظاهر برقوقاً، وفي الغد يقدم السلطان الملك المنصور، فاخرج إلى لقائه، فمشى ذلك على جنتمر. وأحتار منطاش فيما يفعل في الباطن، ولم يعرف ما حصل بعده للملك المنصور، ومع هذا كله في نفسه أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر.

وأما أمر السلطان الملك الظاهر برقوق وأصحابه فإن الأمير كمشبغا نائب حلب كان على ميمنة الملك الظاهر برقوق، فلما أنهزم من منطاش تم في هزيمته إلى حلب وتبعه خلائق من عساكر حلب وغيرها، وفي ظن كمشبغا أن الملك الظاهر قد انكسر وتبعه في الهزيمة الأمير حسام الدين حسن الكجكني، نائب الكرك، ومعه أيضاً عدة كبيرة من عساكر حلب والكرك، فسار بهم إلى الكرك، كما سار كمشبغا إلى حلب، فلم يصل كل واحد من كمشبغا والكجكني حتى قاسى شدائد ومحناً. هذا مع أنهم قطعوا رجاءهم من نصرة الملك الظاهر برقوق، غير أن كل واحد ينظر في مصلحة نفسه فيما يأتي.

وأما الملك الظاهر فإنه لم يتأخر عند إلا نحو من ثلاثين نفراً، أعني من المماليك الظاهرية الذين كانوا معه عند أخذه الملك المنصور. وأما من بقي من التركمان والغوغاء فأزيد من مائتي نفر.

ولما قصد الملك الظاهر السلطان الملك المنصور حاجياً والخليفة والقضاة وأخذهم وملك العصائب السلطانية، وقف تحت العصائب، فلما رآه المنصور ارتاع، فسكن الملك الظاهر روعه، وآنسه بالكلام، وسلم على الخليفة والقضاة، وبش في وجوههم وتلطف بهم، فإنه لما رآه الخليفة كاد يهلك من هيبته، وكذلك القضاة، فما زال بهم حتى طمأن خواطرهم.

واستمر الملك الظاهر واقفاً تحت العصائب السلطانية، والملك المنصور والخليفة بجانبه وتلاحق به أصحابه شيئاً بعد شيء، وتداول مجيئهم إليه، وجاءه جمع كبير من العساكر المصرية طوعاً وكرهاً: فإنه صار الرجل منهم، بعد فراغ المعركة، يقصد العصائب السلطانية، فيجد الملك الظاهر

تحتها، فلا يجد بداً من النزول إليه وتقبيل الأرض له، فإن خافه الملك الظاهر قبض عليه، وإلا تركه من جملة عسكره.

واستمر الملك الظاهر برقوق يومه وليلته على ظهر فرسه بسلاحه، وحوله مماليكه وخواصه.

واستمر كل من الطائفتين تبذل نفسها لنصرة سلطانها إلى أن أرسل الله سبحانه وتعالى في آخر النهار ريحاً ومطراً في وجه منطاش ومن معه، فكانت من أكبر الأسباب في هزيمته وخذلانه. ولم تغرب الشمس حتى قتل من الفريقين خلائق لا يحصيها إلا الله تعالى: من الجند والتركمان والعربان والعامة. وولى منطاش هو وأصحابه منهزماً إلى دمشق، على أقبح وجه.

ثم تهيأ الملك الظاهر للعود إلى الديار المصرية، ورحل من شقحب، فأتاه عند رحيله منطاش بعسكر الشام ووقف على بعد، فاستعد الملك الظاهر للقائه فلم يتقدم منطاش.

ثم ولى منطاش إلى ناحية دمشق، فأراد الملك الظاهر أن يتبعه، فمنعه من ذلك أعيان دولته وقالوا له: أنت سلطان مصر أم سلطان الشام امض إلى مصر واجلس على تخت الملك، فتصير الشام وغيرها في قبضتك. فصوب الملك الظاهر هذا الرأي، وسار من وقته بمن معه من الملك المنصور والخليفة والقضاة إلى جهة الديار المصرية.

وأذهب الله تعالى الدولة المنطاشية من مصر في نحو ثلاثة أيام كأنها لم تكن وركب الأمير سودون الشيخوني النائب وعبر إلى القاهرة، والمنادي ينادي بين يديه بالأمان والدعاء للملك الظاهر برقوق. وأرسل إلى خطباء الجوامع فدعوا له في خطبة الجمعة. وأطلق بطا زكرياء المخلوع عن الخلافة والشيخ شمس الدين صور الركراكي المالكي وسائر من كان بالقلعة من المسجونين. وصار بطا يتتبع المنطاشية ويقبض عليهم كما كان منطاش يتتبع الظاهرية ويقبض عليهم.

وفي حادي عشر صفر قدم البريد بنزول السلطان الملك الظاهر إلى منزلة الصالحية، فخرج الناس أفواجاً إلى لقائه، ونودي بزينة القاهرة ومصر، فتفاخر الناس في الزينة، ونزل السلطان بعساكره إلى العكرشة في ثالث عشر صفر.

وأما أمر منطاش وما وقع له بعد ذلك، وبقية سياق أمر الملك الظاهر برقوق، ودخوله إلى القاهرة، وطلوعه إلى قلعة الجبل، وجلوسه على تخت

الملك، يأتي ذكر ذلك كله مفضلاً في ذكر سلطنته الثانية من هذا الكتاب، بعد أن نذكر من توفي من سنة إحدى وتسعين وسبعمائة التي حكم في غالبها على مصر الملك المنصور حاجي، ثم نعود إلى ذكر الملك الظاهر وسلطنته الثانية - إن شاء الله تعالى -. وأما الملك المنصور حاجي فإنه عاد إلى ديار مصر صحبة الملك الظاهر برقوق محتفظاً به وهو في غاية ما يكون من الإكرام، وطلع إلى القلعة وسكن بها بالحوش السلطاني على عادة أولاد الأسياد، ودام عند أهله وعياله إلى أن مات بها في ليلة الأربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة، ودفن بتربة جدته لأبيه خوند بركة بخط التبانة بالقرب من باب الوزير خارج القاهرة، بعد أن تسلطن مرتين. وكان لقب في أول سلطنته بالملك الصالح وفي الثانية بالملك المنصور، ولا نعلم سلطاناً غير لقبه غيره. ومات الملك المنصور هذا عن بضع وأربعين سنة، وقد تعطلت حركته وبطلت يداه ورجلاه مدة سنين قبل موته. وكان ما حصل له من الاسترخاء من جهة جواريه على ما قيل: إنهن أطعمنه شيئاً بطلت حركته منه، وذلك لسوء خلقه وظلمه.

حدثني غير واحد من حواشي الملك الظاهر برقوق ممن كان يباشر أمر الملك المنصور المذكور قال: كان إذا ضرب أحداً من جواريه يتجاوز ضربه لهن الخمسمائة عصاة، فكان الملك الظاهر لما يسمع صياحهن يرسل يشفع فيهن، فلا يمكنه المخالفة فيطلق المضروبة، وعنده في نفسه منها كمين، كونه ما اشتفى فيها. وكان له جوقة مغان كاملة من الجواري، كما كانت عادة الملوك والأمراء تلك الأيام، نحو خمس عشرة واحدة، يعرفن من بعده بمغاني المنصور وكن خدمن عند الوالد بعد موته فلما صار الملك الظاهر برقوق يشفع في الجواري لما يسمع صياحهن، بقي المنصور إذا ضرب واحدة من جواريه يأمر مغانيه أن يزفوا بالدفوف وتزعق المواصيل، فتصيح الجارية المضروبة فلا يسمعها الملك الظاهر ولا غيره، ففطن بذلك حريم الملك الظاهر وأعلموه الخبر، وقلن له: إذا سمع زف المغاني في غير وقت المغنى، فيعلم أن السلطان يضرب جواريه وخدمه فعلم الظاهر ذلك، فصار كلما سمع المغاني تزف، أرسل إليه في الحال بالشفاعة وله من ذلك أشياء كثيرة. وكان الملك الظاهر - قبل أن يتكسح - يرسل خلفه في مجلس أنسه وينادمه في غالب الأوقات، وتكرر ذلك منه سنين. وكان إذا غلب عليه السكر تسفه على الملك الظاهر، ويخاطبه باسمه من غير تحشم، فيبتسم الملك الظاهر ويقول لحواشي الملك المنصور: خذوا سيدي أمير حاج وردوه

إلى بيته، فيقوم على حاله، وهو مستمر في السب واللعن، فيعظم ذلك على حواشي الملك الظاهر، ويكلمون الملك الظاهر في عدم الاجتماع به، فلا يلتفت إلى كلامهم، فيصبح المنصور يعتذر للسلطان فيما وقع منه في أمسه فلما تكرر منه ذلك غير مرة، تركه وصار لا يجتمع به إلا في الأعياد والمواسم، فلما بطلت حركته انقطع عنه بالكلية.

* * *

سلطنة الظاهر برقوق الثانية

تقدم ذكر الملك الظاهر برقوق وأصله وخبر قدومه من بلاد الجراكس إلى الديار المصرية وما وقع له بها إلى أن ملكها وتسلطن، كل ذلك في ترجمته الأولى من هذا الكتاب. وذكرنا أيضاً ما وقع له من يوم خلع نفسه وسجن بالكرك إلى أن خرج من الحبس وقاتل منطاشاً وانتصر عليه وعاد إلى الديار المصرية بعد أن أعيد إلى السلطنة بمنزلة شقحب، وأشهد على الملك المنصور بخلع نفسه، ثم سار حتى نزل بالصالحية، كل ذلك في ترجمة السلطان الملك المنصور حاجي مفصلاً؛ فمن أراد شيئاً من ذلك فلينظره في محله ومن يومئذ نذكر رحيله من منزلة الصالحية إلى نحو الديار المصرية فنقول: ولما نزل الملك الظاهر برقوق على منزلة الصالحية في يوم عاشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أقام بها نهاره، وأعيان الدولة تأتيه فوجاً بعد فوج، مثل أكابر الأمراء الذين كانوا بالحبوس وأعيان العلماء ومباشري الدولة وغيرهم.

ثم رحل من الغد بعساكره وصحبته الخليفة والملك المنصور حاجي والقضاة، وسار بهم يريد الديار المصرية إلى أن نزل بالريدانية خارج القاهرة في بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر صفر؛ فخرج الأعيان من العلماء والأمراء إلى لقائه: فخرجت الأشراف مع السيد الشريف علي، نقيب الأشراف، وخرجت طوائف الفقراء بأعلامها وأذكارها، ومشايخ الخوانق بصوفيتها، وخرجت العساكر المصرية بلبوسها الحربية - لأن العسكر المصري كان من يوم خروج بطا وأصحابه من السجن وملكوا الديار المصرية عليهم آلة الحرب - وخرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل، ومعهم الشموع المشعولة. وخرج من الناس ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وعندهم من الفرح والسرور ما لا يوصف، وهم يصيحون بالدعاء له حتى لقوه وخاطبوه.

فشرع الملك الظاهر يكلم الناس ويدنيهم ويرجع رؤوس النوب عن منعهم من السلام عليه، وكلما دعا له شخص منهم رحب به. هذا وقد فرشت له الشقق حرير خارج الترب إلى باب السلسلة فلما وصل الملك الظاهر إلى الشقق المفروشة له، تنحى بفرسه عنها وقدم الملك المنصور حاجي، حتى مشى بفرسه عليها، ومشى الملك الظاهر برقوق بجانبه خارجاً عن الشقق، فصار الموكب كأنه للملك المنصور لا للظاهر؛ فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً، ورفعوا أصواتهم له الدعاء والابتهال لتواضعه في حال غلبته وقهره له، وكون المنصور معه كالأمير، صارت القبة والطير على رأس الملك المنصور أيضاً، والخليفة أمامهما، وقضاة القضاة بين يدي الخليفة. وتناهبت العامة الشقق الحرير بعد دوس فرس السلطان عليها، من غير أن

يمنعهم أحد، وكذلك لما نثر عليه الذهب والفضة تناهبته العامة. وكانت عادة ذلك كله للجمدارية، فقصد الظاهر بذلك زيادة التحبب للعامة، كونهم أظهروا المحبة له في غيبته، وقاموا مع المماليك، وصاروا مع مماليكه. وصار الملك الظاهر يعظم الملك المنصور في مشيه وخطابه، ويعامله كما يعامل الأمير سلطانه، إلى أن أدخله داره بالقلعة.

وكان من خبر قطلوبغا الصفوي أن منطاشاً جهزه على تجريدة من دمشق لمحاصرة مدينة صفد، فلما قارب قطلوبغا صفد، دخل هو وجميع من معه في طاعة السلطان.

ثم قدم قطلوبغا المذكور بمن معه في ثالث عشر جمادى المذكورة، وكان لقدومه يوم مشهود. وعند دخوله إلى القاهرة قدم البريد في إثره بأن منطاشاً لما بلغه مخامرة الصفوي بمن معه، قبض على الأمير جنتمر أخي طاز نائب الشام، وهو أعظم أصحابه، وعلى ولده وعلى أستاداره ألطنبغا وعلى الأمير أحمد بن خوجي وعلى الأمير أحمد بن قجق وعلى كمشبغا المنجكي نائب بعلبك وعلى القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر القرشي الشافعي قاضي دمشق وعلى عدة من الأمراء والأعيان؛ هذا ومجيء المنطاشية يتداول إلى مصر شيئاً بعد شيء.

وفي تاسع وعشرينه استقر الأمير محمود بن علي الأستادار أستاداراً على عادته عوضاً عن الأمير قرقماس الطشتمري بعد وفاته.

هذا والقتال عمال بالبلاد الشامية في كل قليل بين عسكر منطاش وعساكر السلطان.

ثم قدم البريد بأن منطاشاً أخذ بعلبك بعدما حاصرها محمد بن بيدمر نحو أربعة أشهر وأنه وسط ابن الحنش وأربعة نفر معه.

وفي سابع عشر جمادى الآخرة قدم البريد بأن منطاشاً لما بلغه قدوم العساكر لقتاله برز من دمشق وأقام بقبة يلبغا أياماً، ثم رحل نصف ليلة الأحد ثالث عشر جمادى الآخرة بخواصه، وهم نحو ستمائة فارس، ومعه نحو سبعين حملاً ما بين ذهب وفضة، وتوجه نحو قارا والنبك بعد أن قتل جماعة من المماليك الظاهرية وقتل الأمير ناصر الدين محمد بن المهمندار نائب حماة كان، وأن الأمير الكبير أيتمش خرج من سجنه بقلعة دمشق، وأفرج عمن كان محبوساً بها، وملك القلعة وأرسل إلى النواب يعلمهم بذلك، فلما سمع النواب ذلك ساروا إلى دمشق وملكوها من غير قتال، فسر السلطان بذلك سروراً عظيماً، ودقت البشائر، ونودي بالقاهرة ومصر بالزينة.

وفي سابع وعشرينه حضر الأمراء المقبوض عليهم من المنطاشية بدمشق.

وبينما السلطان في ذلك وصل إليه الخبر من الشام بأن منطاشاً ونعير بن حيار جمعوا جمعاً كبيراً من المماليك الأشرفية والتركمان والعربان وقصدوا النواب، والأمير يلبغا

الناصري مقدم العساكر فلما بلغ الناصري ذلك خرج بالعساكر هو والأمير ألطنبغا الجوباني نائب الشام وغيره من دمشق ونزل بسلمية، وخلفوا الأمير الكبير أيتمش البجاسي بدمشق لحفظها؛ فثار على أيتمش المذكور بدمشق بعد خروج العسكر منها جماعة من المماليك البيدمرية والطازية والجنتمرية في طوائف من العادة يريمون أخذ مدينة دمشق من أيتمش، فأرسل أيتمش بطاقة من قلعة دمشق إلى سلمية، يعلم الأمراء والنواب بذلك. فحالما سمع الناصري الخبر ركب ليلاً في طائفة من عسكره وقدم دمشق ومعه الأمير ألابغا العثماني حاجب حجاب دمشق، وقاتل المذكورين قتالاً شديداً، قتل بينهما خلائق كثيرة من العامة والأتراك، حتى انتصر الناصري وقبض على جماعة منهم ووسطهم تحت قلعة دمشق، وقبض أيضاً على جماعة كثيرة فقطع أيديهم وهم نحو سبعمائة رجل - قاله الشيخ تقي الدين المقريزي - سامحه الله - وحبس جماعة النجوم الزاهرة في ملوك مصر

ثم عاد الناصري إلى سلمية بعد أن مهد أمر الشام واجتمع مع أصحابه النواب، فذكروا له أن منطاشاً فرق أصحابه ثلاث فرق، فأشار عليهم الناصري بأنه أيضاً يفرق أصحابه وعساكره، فتفرقوا هم أيضاً ثلاث فرق: الناصري فرقة، والجوباني فرقة، وقرادمرداش نائب طرابلس فرقة.

فأما الناصري، فإنه تولى قتال نعير بن حيار، فحاربه وكسره أقبح كسرة، وقتل جمعاً كبيراً من عربانه - على أن نعيراً كان من أصحاب الناصري قبل ذلك، وممن خرج على منطاش غضباً للناصري - وركب الناصري قفا زهير إلى منازله.

وأما الأمير قرادمرداش الأحمدي نائب طرابلس فانتحب لقتال منطاش، فإنه كان من بينهما عداوة قديمة، فتواقعا وتقاتلا قتالاً شديداً، برز فيه كل من منطاش وقرادمرداش صاحبه، وضرب كل منهما الآخر بسيفه، فجاءت ضربة منطاش في يد قرادمرداش، فقلعت عدة أصابع من أصابعه، وجاءت ضربة قرادمرداش في كتف منطاش فحلته. هذا والجوباني في القلب واقف بعساكره، فخامرت جماعة من الأشرفية من خجداشية منطاش وجاءت إليه، وصارت من عساكره. وكان حضر إلى الجوباني قبل ذلك جماعة أخر من المماليك الأشرفية، فأحسن إليهم ألطنبغا الجوباني وقربهم وجعلهم من خواص عسكره، فاتفقوا مع بعض مماليك الجوباني على قتل الجوباني؛ فلما كان وقت الوقعة، وقد التحم القتال بين الناصري وزهير وبين قرادمرداش ومنطاش، وثبوا عليه من خلفه وقتلوه بالسيوف، ثم قبضوا على الأمير مأمور القلمطاوي نائب حماة ووسطوه، ثم قتلوا الأمير آقبغا الجوهري، والثلاثة من عظماء المماليك اليلبغاوية خجداشية الملك الظاهر برقوق وأكابر أمرائه، ثم قتلوا عدة أمراء أخر من اليلبغاوية، وكانت هذه الوقعة من أعظم الملاحم، قتل فيها من الفريقين عالم لا

يحصى كثرة وانتهبت العربان والتركمان والعشير ما كان مع العسكرين وقدم البريد بذلك على السلطان، فشق عليه قتل الأمراء إلى الغاية وأخبر البريد أيضاً أن منطاش لما انكسر من قرادمرداش وهو مجروح أشيع موته، فأقام الأشرفية عوضه عليهم خجداشهم الأمير ألطنبغا الأشرفي؛ فلما حضر منطاش من الغضب من فلك وأراد قتل ألطنبغا الأشرفي فلم تمكنه الأشرفية من ذلك.

وأما يلبغا الناصري فإنه لما رجع من محاربة نعير ووجد الأمير ألطنبغا الجوباني قد قتل، جمع العساكر وعاد إلى دمشق وأقام به يومين حتى أصلح أمره ثم خرج من دمشق بجميع العساكر وأغار على آل علي، فوسط منهم جماعة كبيرة نحو مائتي نفس ونهب بيوتهم وكثيراً من جمالهم، وعاد إلى دمشق وكتب للسلطان أيضاً بذلك. فكتب السلطان للناصري الجواب بالشكر والثناء والتأسف على الأمير ألطنبغا الجوباني وغيره، وأرسل إليه الأمير أبا يزيد بن مراد بالتقليد والتشريف بنيابة الشام عوضاً عن ألطنبغا الجوباني ومبلغ عشرين ألف دينار برسم النفقة في العساكر.

ثم في سادس محرم سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ورد الخبر من دمشق بأن الأمير يلبغا الناصري تنافس هو والأمير الكبير أيتمش البجاسي فأضمر الناصري الخروج عن الطاعة ولبس السلاح وألبس حاشيته ونادى بدمشق: " من كان من جهة منطاش فليحضر"، فصار إليه نحو ألف ومائتي فارس من المنطاشية، فقبض على الجميع وسجنهم ثم قلع السلاح وكتب بذلك إلى السلطان يعرفه، فأجابه السلطان بالشكر والثناء.

ثم قدم الأمير كمشبغا الحموي نائب حلب إلى القاهرة في سابع صفر، بعد أن خرج الأمير سودون النائب مع أعيان الأمراء والحجاب إلى لقائه، وطلع إلى القلعة، وقبل الأرض، فقام له السلطان واعتنقه وأجلسه في الميمنة فوق الأمير الكبير إينال اليوسفي، ونزل إلى دار أعدت له، وبعث له السلطان ثلاثة أرؤس من الخيل بقماش ذهب. وحضر مع كمشبغا أيضاً الأمير. حسام الدين حسن الكجكني نائب الكرك، وكان قد انهزم مع كمشبغا نائب حلب من يوم وقعة شقحب، فرحب السلطان به أيضاً وأكرمه وأرسل إليه فرساً بقماش مذهب؛ وقدم معهما أيضاً عدة أمراء أخر.

ثم قدم البريد في أثناء ذلك بأن العساكر الشامية وصلت إلى مدينة عينتاب ففر منطاش إلى جهة مرعش وفر من عنده جماعة كبيرة ودخلوا تحت طاعة لسلطان.

ثم أحضر السلطان الأمير حسام الدين حسن بن باكيش نائب غزة من السجن ضربه بالمقارع، وأحضر أيضاً اقبغا المارديني نائب الوجه القبلي وضربه على أكتافه، وأمر والي القاهرة بتخليص حقوق الناس منه، واستقر عوضه في كشف الوجه القبلي

الأمير يلبغا الأحمدي المجنون أحد المماليك الظاهرية.

ثم خرج البريد من مصر بإحضار الأمير أيتمش البجاسي من دمشق - وكان بها من يوم قبض عليه الناصري في واقعة الناصري ومنطاش مع الملك الظاهر برقوق وحبس بقلعة إلى أن أطلق بعد خروج منطاش من دمشق واستمر بدمشق لمصالح الملك الظاهر حتى طلب في هذا التاريخ - وخرج بطلبه الأمير قنق باي الأحمدي رأس نوبة، فقدم في يوم الاثنين رابع جمادى الأولى على البريد، فتلقاه الأمير سودون النائب والحجاب. وقدم مع أيتمش المذكور عدة أمراء، منهم: آلابغا العثماني حاجب حجاب دمشق، والأمير أيتمش المذكور، والأمير جنتمر أخو طاز نائب دمشق كان، وأمير ملك ابن أخت جنتمر، ودمرداش اليوسفي، وألطنبغا الحلبي، وكثير من المماليك السلطانية، وجماعة أخر، والجميع في الحديد على ما يأتي ذكرهم، ما خلا المماليك الظاهرية. وطلع الأمير أيتمش إلى السلطان وقبل الأرض، فأكرمه السلطان وأجلسه في الميسرة تحت الأمير سودون النائب، وكانت منزلته في الميمنة، فإنه كان أتابك العساكر بالديار المصرية قبل توجهه إلى قتال الناصري، لكنه لما حضر الآن كان بطالاً وكان الأتابك يومئذ الأمير إينال اليوسفي اليلبغاوي، على أنه يجلس تحت الأمير الكبير كمشبغا الحموي نائب حلب كان، فلو جلس الأمير أيتمش الآن في الميمنة لجلس ثالثاً، فإنه لا يمكنه الجلوس فوق إينال كونه متولياً أتابك العساكر وأيتمش الآن منفصل، فرسم له السلطان أن يجلس في الميسرة، ولم يجسر أن يأمره بالجلوس فوقه لكبر سنه وقدمته، فجلس تحته.

قلت: وهذا شأن الدنيا، الرفع والخفض. لقتال منطاش. أخر.

وأما السلطان الملك الظاهر برقوق فإنه أقام بدمشق إلى ثاني شوال وخرج منه يريد مدينة حلب؛ فسار بعساكره حتى وصلها في ثاني عشرين شوال، بعد أن أقام بمدينة حمص وحماة أياماً كثيرة وأعاد السلطان القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله إلى كتابة السر لضعف القاضي علاء الدين الكركي. وعندما دخل السلطان إلى حلب ورد عليه الخبر أن سالماً الدوكاري قبض على الأمير منطاش وأن صاحب ماردين قبض أيضاً على جماعة من المنطاشية، فسر السلطان بذلك وبعث بالأمير قرا الأحمدي نائب حلب في عساكر حلب لإحضار منطاش من عند سالم الدوكاري؛ فسار قرادمرداش حتى وصل إلى سالم الدوكاري وأقام عنده أربعة أيام يطالبه بتسليم منطاش وهو يماطله، فحنق منه قرادمرداش وركب بمن معه من العساكر ونهب بيوته وقتل عدة من أصحابه؛ وفر سالم بمنطاش إلى سنجار، وامتنع بها. وفي عقب ذلك وصل الأمير يلبغا الناصري نائب الشام إلى بيوت سالم الدوكاري، فأنكر على قرادمرداش ما وقع منه في حق سالم، وأغلظ له في القول، وهم أن يضربه بالسيف،

فدخل بعض الأمراء بينهما حتى سكن ما به، وكادت الفتنة أن تقوم بينهما ويعود الأمر على ما كان عليه أولاً.

ثم عزل الملك الظاهر الأمير قرادمرداش عن نيابة حلب، وأنعم عليه بتقدمة ألف بالديار المصرية، عوضاً عن الأمير بطا الطولوتمري الظاهري الدوادار الكبير بحكم انتقال بطا إلى نيابة الشام عوضاً عن الأمير الكبير يلبغا الناصري المقدم ذكره وخلع السلطان على بطا المذكور، وعلى جلبان الكمشبغاوي الظاهري رأس نوبة النوب المعروف بقراسقل باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن قرادمرداش الأحمدي في يوم واحد، وهما أول من ترقى من مماليك الملك الظاهر إلى الرتب وولي الأعمال الجليلة.

ثم قدم البريد من دمشق بأن خمسة من المماليك أتوا إلى نائب قلعة دمشق مشاة، وشهروا سيوفهم وهاجموا القلعة وملكوها وأغلقوا بابها، وأخرجوا من بها من المنطاشية والناصرية وهم نحو مائة رجل، وقتلوا نائب القلعة ومن معه، وأن حاجب حجاب دمشق ركب بعسكر دمشق وقاتلهم ثلاثة أيام حتى أخذ القلعة منهم، وقبض على الجميع إلا خمسة منهم فروا، فوسط الحاجب الجميع.

ثم في أول ذي القعدة خرج السلطان من دمشق يريد البلاد الحلبية وسار حتى دخلها في العشر الأوسط من ذي القعدة.

وبعد دخوله حلب بأيام قليلة، عزل نائبها الأمير جلبان من كمشبغا الظاهري المعروف بقراسقل، وخلع على الوالد باستقراره عوضه في نيابة حلب، وأنعم على الأمير جلبان المذكور بإقطاع الوالد وإمرته، وهي إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ولم يستقر به في وظيفته؛ وكانت وظيفة الوالد قبل نيابة حلب رأس نوبة النوب.

ثم في سادس وعشرينه قدمت رسل الملك الظاهر مجد الدين عيسى صاحب ماردين على السلطان تخبر بأن تيمورلنك أخذ مدينة تبريز وأرسل يستدعيه إلى عنده، فاعتذر لمشاورة سلطان مصر، فلم يقبل منه تيمور ذلك وقال له: " ليس لصاحب مصر بملكك حكم " وأرسل إليه خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير. وقدم مع القاصد أيضاً رسول صاحب بسطام، يذكر بأن تيمور قتل شاه منصور متملك شيراز وبعث برأسه إلى بغداد، وبعث بالخلع والسكة إلى السلطان أحمد بن أويس صاحب العراق، فلبس السلطان أحمد الخلعة وطاف بها في شوارع بغداد وضرب باسمه السكة. وكان ذلك خديعة من تيمور، حتى ملك منه بغداد في يوم السبت حادي وعشرين شوال من سنة خمس وتسعين المذكورة.

وكان سبب أخذ تيمور بغداد أن ابن أويس المذكور كان أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم رعيته وانهمك في الفجور والفساد.

ولما وقع من السلطان أحمد ذلك كاتب أهل بغداد تيمور بعد استيلائه على مدينة تبريز يحثونه على المسير إلى بغداد، فتوجه إليها بعساكرها حتى بلغ الدربند وهو من بغداد مسيرة يومين، فبعث إليه أحمد بن أويس بالشيخ نور الدين الخراساني يسأله في الكف عنهم، وأن ابن أويس نائبه ويجهز له ما اختار من الأموال، فأكرمه تيمور وقال له: " أنا أترك بغداد لأجلك " ورحل يريد السلطانية، فبعث نور الدين كتبه بالبشارة إلى بغداد.

ثم قدم في إثرها فاطمأن أهلها. وكان تيمور قد سار يريد بغداد من طريق أخرى، فلم يشعر أحمد بن أويس، وقد اطمأن، إلا وتيمور نزل غربي بغداد قبل أن يصل الشيخ نور الدين، فدهش عند ذلك ابن أويس وأمر بقطع الجسر ورحل من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر من ليلته، وهي ليلة السبت المذكورة، وترك بغداد، فدخلها تيمورلنك، وأرسل ابنه في إثر ابن أويس فأدركه بالحفة، ونهب ماله وسبى حريمه وأسر وقتل كثيراً من أصحابه، فنجا السلطان أحمد بن أويس بنفسه في طائفة وهم عراة، فقصد حلب، وتلاحق به من بقي من أصحابه.

ثم بعد ذلك قدم البريد على السلطان الملك الظاهر برقوق بأن ابن أويس المذكور نزل بالرحبة في نحو ثلاثمائة فارس. وقدم كتاب ابن أويس وكتاب نعير، فأجيب أحسن جواب وكتب بإكرامه والقيام بما يليق به، فلما وصل كتاب السلطان إلى نعير توجه إليه، وعندما عاين ابن أويس نزل عن فرسه وقبل الأرض بين يديه وسار به إلى بيوته وأضافه.

ثم سيره إلى حلب، فقدمها ومعه أحمد بن شكر ونحو الألفي فارس، فأنزله الأمير جلبان قراسقل نائب حلب بالميدان وقام له بما يليق به، وكتب مع البريد إلى السلطان بذلك، وعلى يد القادم أيضاً كتاب السلطان أحمد بن أويس يستأذن في القدوم إلى مصر، فجمع السلطان الأمراء للمشورة في أمر ابن أويس، فاتفقوا على إحضاره وأن يخرج إلى مجيئه الأمير عز الدين أزدمر ومعه نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة وألف دينار برسم النفقة على ابن أويس في طريقه إلى مصر. وتوجه أزدمر المذكور في سادس عشرينه، وسار أزدمر إلى حلب، وأحضر السلطان أحمد ابن أويس المذكور إلى نحو الديار المصرية، فلما قرب ابن أويس من ديار مصر أخرج السلطان عدة من الأمراء إلى لقائه.

فلما كان يوم الثلاثاء سابع عشرين شهر ربيع الأول من سنة ست وتسعين وسبعمائة،

نزل السلطان الملك الظاهر من قلعة الجبل بأمرائه وعساكره إلى لقاء أحمد بن أويس، وجلس بمسطبة مطعم الطير من الريدانية خارج القاهرة إلى أن، قرب السلطان أحمد بن أويس ووقع بصره على المسطبة التي جلس عليها السلطان، فنزل عن فرسه ومشى عدة خطوات، فتوجه إليه الأمير بتخاص حاجب الحجاب بالديار المصرية ومن بعده الأمراء للسلام على ابن أويس، فتقدم بتخاص المذكور وسلم عليه ووقف بإزائه وصار كلما تقدم إليه أمير ليسلم عليه يعرفه بتخاص باسمه ووظيفته وهم يقبلون يده واحداً بعد واحد، حتى أقبل الأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس فقال له الأمير بتخاص: هذا أمير مجلس وابن أستاذ السلطان، فعانقه ابن أويس ولم يدعه يقبل يده.

ثم جاء بعده الأمير بكلمش العلائي أمير سلاح فعانقه أيضاً، ثم من بعده الأمير أيتمش البجاسي رأس نوبة الأمراء وأطابك فعانقه، ثم من بعده الأمير سودون الفخري الشيخوني نائب السلطنة فعانقه، ثم الأمير الكبير كمشبغا الحموي أتابك العساكر فعانقه، وانقضى سلام الأمراء فقام عند ذلك السلطان ونزل من على المسطبة ومشى نحو العشرين خطوة، فلما رأى ابن أويس مشي السلطان له هرول حتى التقيا، فأومأ أحمد ابن أويس ليقبل يد السلطان فمنعه السلطان من ذلك وعانقه. ثم بكيا ساعة، ثم مشيا إلى نحو المسطبة، والسلطان يطيب خاطره ويعده بكل جميل وبالعود إلى ملكه، ويده في يده، حتى طلعا على المسطبة وجلسا معاً على البساط من غير أن يقعد السلطان على مرتبته، وتحادثا طويلاً ثم طلب السلطان له خلعة، فقدم قباء حرير بنفسجي بفرو قاقم بطرز زركش هائلة، فألبسه الخلعة المذكورة وقدم له فرساً من خاص مراكيب السلطان بسرج ذهب وكنبوش زركش وسلسلة ذهب، فركبه ابن أويس من حيث يركب السلطان، ثم ركب السلطان بعده وسارا يتحادثان، والأمراء والعساكر سائرة على منازلهم ميمنة وميسرة، حتى قربا من القلعة. هذا والناس قد خرجت إلى قريب الريدانية وامتلأت الصحراء منهم للفرجة على موكب السلطان، حتى أدهش كثرتهم السلطان أحمد بن أويس، فكان هذا اليوم من الأيام المشهودة. ولما وصلا إلى قريب القلعة، وأخذت العساكر تترجل عن خيولهم على العادة، صار ابن أويس مواكباً للسلطان حتى بلغا تحت الطبلخاناه من قلعة الجبل، فأومأ إليه السلطان بالتوجه إلى المنزل الذي أعد له على بركة الفيل، وقد جددت عمارته وزخرفت بالفرش والآلات والأواني، فسلم ابن أويس على السلطان، وسار إليه، وجميع الأمراء في خدمته، وطلع السلطان إلى القلعة. فلما دخل ابن

أويس إلى المنزل المذكور ومعه الأمراء، مد الأمير جمال الدين محمود الأستادار بين يديه سماطاً جليلاً إلى الغاية في الحسن والكثرة، فأكل السلطان أحمد وأكل الأمراء معه، ثم انصرفوا إلى منازلهم. وفي اليوم جهز السلطان إليه مائتي ألف درهم فضة، ومائتي قطعة قماش سكندري، وثلاثة أفراس بقماش ذهب، وعشرين مملوكاً وعشرين جارية؛ فلما كان الليل قدم حريم ابن أويس وثقله.

ثم في يوم الخميس عمل السلطان الخدمة بدار العدل المعروفة بالإيوان وطلع القان أحمد بن أويس المذكور، وعبر من باب الجسر الذي يقال له باب السر، وجلس تجاه الإيوان حتى خرج إليه رأس نوبة ومضى به إلى القصر، فأخذه السلطان، وخرج به إلى الإيوان، وأقعده رأس الميمنة فوق الأمير كمشبغا الحموي أتابك العساكر. فلما قام القضاة ومد السماط، قام الأمراء على العادة، فقام ابن أويس أيضاً معهم ووقف، فأشار إليه السلطان بالجلوس فجلس، حتى فرغ الموكب. ولما انقضت خدمة الإيوان دخل مع السلطان إلى القصر، وحضر خدمة القصر أيضاً، ثم خرج الأمراء بين يديه، حتى ركب وقدامه جاويشه ونقيب جيشه، فسار الأمراء في خدمته إلى منزله.

ثم علق السلطان جاليش السفر إلى البلاد الشامية على الطبلخاناه، فشرع الأمراء والمماليك وغيرهما في تجهيز أحوالهم إلى السفر صحبة السلطان ثم في حادي وعشرين شهر ربيع الأول المذكور، ركب السلطان من القلعة ومعه السلطان أحمد بن أويس إلى مدينة مصر وعدى النيل إلى بر الجيزة، ونزل بالخيام ليتصيد، فأقام هناك ثلاثة أيام وعاد وقد أذهل ابن أويس ما رأى من تجفل المملكة وعظمتها من ندماء السلطان ومغانيه وترتيبه في مجلس موكبه وأنسه. ثم في سلخه قدم البريد من حلب بتوجه الأمير ألطنبغا الأشرفي نائب الرها كان، وهو يوم ذلك أتابك حلب، والأمير دقماق المحمدي نائب ملطية بعسكريهما وموافقتهما لطلائع تيمورلنك وهزيمتهما له، بعد أن قتلا من اللنكية خلقاً كثيراً، وأسرا أيضاً جماعة كبيرة، وعاد إلى حلب بمائة رأس من التمرية.

وفي يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر ابتدأ السلطان بنفقة المماليك، لكل مملوك مبلغ ألفي درهم، وعدتهم خمسة آلاف مملوك، فبلغت النفقة في المماليك خاصة عشرة آلاف درهم فضة، سوى نفقة الأمراء وسوى ما حمل في الخزائن وسوى ما تكلفه للقان أحمد بن أويس فيما مضى، وفيما يأتي ذكره.

وبينما السلطان في ذلك قدم عليه كتاب تيمور يتضمن الإرداع والتخويف.

ثم في سادس شهر ربيع الأخر المذكور عرض السلطان أجناد الحلقة الذين عينوا

للسفر، وعين منهم أربعمائة فارس للسفر صحبة السلطان وترك الباقي بالديار المصرية.

ثم في سابعه خرجت مدورة السلطان من القاهرة ونصبت بالريدانية خارج القاهرة.

ثم في يوم الأربعاء تاسعه عقد السلطان عقده على الخاتون تندي بنت حسين بن أويس، وكانت قدمت مع عمها السلطان أحمد بن أويس، ومبلغ الصداق ثلاثة آلاف دينار، وكان صرف الدينار إذ ذاك ستة وعشرين درهماً ونصف درهم، وبنى عليها ليلة الخميس عاشره وهو يوم سفره إلى الشام.

وأصبح من الغد في يوم الخميس المذكور نزل السلطان من قلعة الجبل إلى الإسطبل السلطاني، ثم خرج من باب السلسلة إلى الرميلة، وقد وقف القان أحمد بن أويس وجميع الأمراء وسائر العسكر ملبسين آلة الحرب ومعهم أطلابهم فسار السلطان وعليه قرقل بلا أكمام وعلى رأسه كلفتة وتحته فرس بعرقية من صوف سميك إلى باب القرافة والعساكر قد ملأت الرميلة، فرتب هو بنفسه أطلاب الأمراء، ومر في صفوفها ذهاباً وإياباً غير مرة، حتى رتبها أحسن ترتيب، وصاحبها ينظر، وأخذ يخالف في تعبئة الأطلاب، كل تعبئة بخلاف الذي يتقدمها، حفظت أنا غالبها عن الأستاذ الأتابك آقبغا التمرازي عن أستاذه تمراز الناصري النائب، ولولا الإطالة والخروج عن المقصود لرسمتها هنا بالنقط. انتهى.

فلما فرغ السلطان الملك الظاهر برقوق من تعبئة أطلاب أمرائه، أخذ في ترتيب طلب نفسه، وجعله أمام أطلاب الأمراء كالجاليش لكثرة من كان به، وعبأه قلباً وجناح يمين وجناح شمال ورديفاً وكميناً، وأمر الكوسات والطبول فدقت حربياً.

ثم ترك جميع الأطلاب ومضى في خواصه إلى قبة الإمام الشافعي رضي الله عنه وزاره وتصدق على الفقراء بمال كثير خارج عن الحد. ثم سار إلى المشهد النفيسي وزاره وتصدق به أيضاً، وفي طول طريقه بجملة مستكثرة، ثم عاد إلى الرميلة. وأشار إلى طلب السلطان فسار إلى نحو الريدانية في أعظم قوة وأبهج زي وأفخر هيئة وأحسن ملبس، جر فيه من خواص الخيل مائتا جنيب ملبسة آلة الحرب التي عظمت من الآلات المذهبة والمفضضة والمزركشة على اختلاف أنواعها وصفاتها التي تحير العقول عند رؤيتها.

ثم أشار لأطلاب الأمراء فسارت أيضاً بأعظم هيئة، وقد تفاخر الأمراء أيضاً في أطلابهم، وخرج كل طلب أحسن من الآخر، حتى حاذوا القلعة، فوقفوا يميناً وشمالاً حتى سار السلطان في موكبه في غاية العظمة والأبهة، وإلى جانبه القان أحمد بن أويس على فرس بقماش ذهب، وبجانب ابن أويس

الأمير الكبير كمشبغا الحموي، ثم الأمراء ميمنة وميسرة، كل واحد في رتبته، حتى انقضى ممر السلطان وأمامه العساكر وخلفه ثم سارت أطلاب الأمراء تريد الريدانية شيئاً بعد شيء، وسار السلطان حتى نزل بمخيمه بالريدانية وأقام بها أياماً.

وأما السلطان فإنه دخل دمشق في عشرين جمادى الأولى وأقام بها إلى أن أخرج عسكراً إلى البلاد الحلبية في سابع عشر شهر رجب، وعليهم الأمير الكبير كمشبغا الحموي والأمير بكلمش أمير سلاح والأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس وبيبرس ابن أخت السلطان الملك الظاهر برقوق، ونائب صفد ونائب غزة، كل ذلك والسلطان مقيم بدمشق في انتظار قدوم تيمورلنك.

ثم أمر السلطان للقان غياث الدين أحمد بن أويس بالتوجه إلى محل مملكته ببغداد، فخرج من دمشق في يوم الاثنين أول شعبان من سنة ست وتسعين المذكورة، بعد ما قام له السلطان بجميع ما يحتاج إليه؛ وعند وداعه خلع عليه الملك الظاهر خلعة أطلسين متمراً وقلده بسيف مسقط بذهب، وكتب له تقليداً بسلطنة بغداد، وناوله إياه، فأراد أحمد بن أويس أن يقبل الأرض فلم يمكنه السلطان من ذلك، إجلالاً له وتعظيماً في حقه، وقام له وعانقه وودعه، ثم افترقا وكان ما أنعم به السلطان الملك الظاهر على القان غياث الدين أحمد بن أويس عند سفره خاصة من النقد خمسمائة ألف درهم، سوى الخيل والجمال والسلاح والمماليك والقماش السكندري وغير ذلك. واستمر ابن أويس بمخيمه خارج دمشق إلى يوم ثالث عشر شعبان، فسافر إلى جهة بغداد، بعد أن أظهر الملك الظاهر من علو همته ومكارمه وإنعامه لابن أويس المذكور ما أدهشه.

وخرج السلطان، من حلب بعساكره في سابع محرم سنة سبع وتسعين وسبعمائة يريد دمشق، فوصلها ولم يقم بها إلا أياماً قليلة لطول إقامته بها في ذهابه وخرج منها بعساكره في سابع عشر المحرم المذكور، يريد الديار المصرية، بعد أن خلع على الأمير بتخاص السودوني حاجب حجاب الديار المصرية باستقراره في نيابة الكرك، عوضاً عن الأمير شهاب الدين أحمد ابن الشيخ علي، ونقل الشهابي المذكور إلى حجوبية دمشق الكبرى، عوضاً عن الأمير تمربغا المنجكي بحكم قدوم تمربغا المنجكي إلى مصر صحبة السلطان.

وسار السلطان إلى أن وصل مدينة قطيا، فأمسك مملوكه الأمير جلبان الكمشبغاوي قراسقل المعزول عن نيابة حلب وبعثه من قطيا في البحر إلى ثغر دمياط.

وسار السلطان من قطيا حتى وصل إلى ديار مصر في ثامن عشر صفر؛ وطلع إلى

القلعة من يومه، بعد أن احتفل الناس لطلوعه، وزينت القاهرة أياماً، غير أن الغلاء كان حصل قبل قدوم السلطان، فتزايد بعد حضوره لكثرة العساكر.

ومن يومئذ صفا الوقت للملك الظاهر، وصارت مماليكه نواب البلاد الشامية من أبواب الروم إلى مصر وأخذ السلطان يكثر من الركوب والتوجه إلى الصيد، وعمل له الأمير تمربغا المنجكي شراباً من زبيب، يسمى التمربغاوي، وأقبل السلطان على الشرب منه مع الأمراء، ولم يكن يعرف منه السكر قبل ذلك.

وفي هذه الأيام عظم الغلاء وفقد الخبز من الدكاكين.

وفي سابع عشرة قدم الوالد تقدمته إلى السلطان، وكانت نيفاً وعشرين مملوكاً وخمسة طواشية بيض من أجمل الناس - من جملتهم خشقدم اليشبكي مقدم المماليك السلطانية في دولة الملك الأشرف برسباي: أنعم به الملك الظاهر على فارس الحاجب، ثم ملكه يشبك الشعباني بعده وأعتقه - وثلاثين ألف دينار مصرية، ومائة وخمسة وعشرين فرساً، وعدة جمال بخاتي تزيد على الثمانين، وأحمالاً من البقج، فيها من أنواع الفرو والشقق الحرير وأثواب الصوف والمخمل زيادة على مائة بقجة؛ فابتهج السلطان بذلك وقبله، وخلع على أصحاب وظائف الوالد، ونزلوا في غاية الجبر.

حكى لي بعض أعيان الظاهرية، قال: لما رأى الملك الظاهر تقدمة والدك تعجب غاية العجب من حسن سيرته وقلة ظلمه بحلب، ومع هذا كيف قام بهذه التقدمة الهائلة مع كثرة مماليكه وخدمه.

وكان سبب عزل الوالد - رحمه الله - عن نيابة حلب، شكوى الأمير تنم الحسني نائب الشام منه للملك الظاهر، ورماه بالعصيان والخروج عن الطاعة. وخبر ذلك أن الوالد وتنم لما توجها في السنة الماضية إلى سيواس وغيرها بأمر الملك الظاهر، وتلاقى الوالد مع تنم بظاهر حلب، وعادا جميعاً إلى حلب، وكل منهما سنجقه منتصب على رأسه، فعظم ذلك على تنم، كون العادة إذا حضر نائب الشام يصير هو رأس العساكر وينزل نائب حلب سنجقه؛ فلما سارا وكل منهما سنجقه على رأسه، تكلم سلحدارية تنم مع سلحدارية الوالد في نزول السنجق، فلم يفعل حامل السنجق، فخرجا من القول إلى الفعل، وتقاتل الفريقان بالدبابيس بسبب ذلك، وكادت الفتنة تقع بينهما، والوالد يتجاهل عما هم فيه، حتى التفت تنم ونهى مماليكه عن القتال، وسار كل واحد وسنجقه على رأسه، حتى نزلا بمخيمهما، فاستشهد تنم أمراء دمشق بما وقع من الوالد ومماليكه، وكتب للسلطان بذلك فلم يشك السلطان في عصيانه، وكتب بعزله وطلبه إلى القاهرة. وأما الوالد لما نزل بمخيمه

كلمه بعض أعيان مماليكه فيما وقع، فقال الوالد: " أنا خرجت من مصر جندياً حتى أنزل سنجقي! " أشار بذلك أنه ولي نيابة حلب وهو رأس نوبة النوب، وأن تنم ولي أتابكة دمشق، وهو أمير عشرة بمصر قبل ولايته نيابة دمشق، ثم نقل من أتابكية دمشق إلى نيابتها - يعني بذلك أن تنم لم تسبق له رياسة بمصر قبل ولايته نيابة دمشق فلما بلغ تنم ذلك قامت قيامته. انتهى.

* * *

وقعة علي باي مع السلطان الملك الظاهر برقوق

لما كان يوم السبت تاسع عشر ذي القعدة من سنة ثمانمائة أوفى النيل، وقدم أيضاً البريد بقتل سولي بن دلغادر أمير التركمان، فركب السلطان بعد صلاة الظهر يريد المقياس ليخفقه ويفتح خليج السد على العادة، ومعه جميع الأمراء إلا الأمير علياً باي الخازندار، فإنه كان انقطع بداره أياماً وتمارض، وفي باطن أمره أنه قصد الفتك بالسلطان؛ فإنه علم أنه إذا نزل لفتح الخليج يدخل إليه ويعوده كما جرت به عادته مع الأمراء فدبر علي باي على السلطان، وأخلى إسطبله من الخيل وداره من حريمه، وأعد قوماً آختارهم من مماليكه. فتهيؤوا لذلك، فرآهم شخص كان يسكن بأعلى الكبش من المماليك اليلبغاوية يسمى سودون الأعور، فركب إلى الملك الظاهر في أثناء طريقه بعد تخليق المقياس وفتح خليج السد، وأسر إليه أنه شاهد من سكنه مماليك علي باي، وقد لبسوا آلة الحرب ووقفوا عند بوائك الخيل من إسطبله، وستروا البوائك بالأنخاخ ليخفى أمرهم، فقال السلطان: " اكتم ما معك "، فلم يبد السلطان ذلك إلا لأكابر أمرائه.

ثم أمر السلطان الأمير أرسطاي رأس نوبة أن يتوجه إلى دار علي باي ويعلمه أن السلطان يدخل إليه لعيادته، فتوجه أرسطاي عادة وأعلم علياً باي بذلك. فلما بلغ علياً باي أن السلطان يعوده اطمأن وظن أن حيلته تمت. ووقف أرسطاي على باب علي باي ينتظر قدوم السلطان. وعندما بعث السلطان أرسطاي إلى علي باي أمر الجاويشية بالسكوت فسكتوا عن الصياح أمام السلطان.

ثم أبعد السلطان العصائب السلطانية عنه وأيضاً السنجق الذي يحمل على رأس السلطان، وتقدم عنهم حتى صار بينه وبين العصائب مدى بعيد من خلفه. وسار السلطان كآحاد الأمراء وسار حتى وافى الكبش، وهو تجاه دار علي باي، والناس قد اجتمعوا للفرجة على موكب السلطان، فصاحت امرأة من أعلى الكبش على السلطان: لا تدخل، فإنهم قد لبسوا لقتالك، فحرك

السلطان فرسه وأسرع في المشي ومعه الأمراء ومن ورائه المماليك الخاصكية يريد القلعة. وكان باب علي باي مردود الدرفتين، وضبته مطرقة ليمنع الناس من الدخول إليه، حتى يأتي السلطان؛ فلما مر السلطان ولم يعلم به من ندبه علي باي لرؤية السلطان وإعلامه به، حتى جاوزهم السلطان بما دبره السلطان من المكيدة بتأخير العصائب السلطانية والسنجق والجاويشية وتقدمه عنهم.

ثم بلغ علياً باي أن السلطان فاته، فركب وبادر أحد أصحابه يريد فتح الضبة فأغلقها، وإلى أن يحضر مفتاح الضبة ويفتحونها فاتهم السلطان، وصار بينه وبينهم سد عظيم من الجمدارية والغلمان وغيرهم. فخرج علي باي ومن معه من أصحابه لابسين السلاح، وعدتهم نحو الأربعين فارساً، يريدون السلطان، وقد ساق السلطان ومعه الأمراء، حتى دخل باب السلسلة وامتنع به. فوقف علي باي من معه تجاه باب السلسلة، فنزل إليه في الحال طائفة من المماليك السلطانية لقتاله، فقاتلهم، وثبت لهم ساعة حتى جرح من الفريقين جماعة وقتل من المماليك السلطانية بيسق المصارع.

ثم انهزم علي باي وتفرق عنه أصحابه، وقد ارتجت مصر والقاهرة، وركب يلبغا المجنون الأستادار ومعه مماليك لابسين يريد القلعة. وأرجف بقتل السلطان، واشتد خوف الرعية، وتشعب الذعر.

ثم لبست المماليك السلطانية السلاح، وأتى السلطان من كان غائباً عنه من الأمراء والخاصكية وتحلقوه.

فعندما طلع يلبغا الأحمدي المجنون الاستادار إلى السلطان وثب عليه الخاصكية، واتهموه بموافقة علي باي لكونه جاء هو ومماليكه في أسرع وقت بآلة الحرب؛ فأخذه اللكم من الخاصكية من كل جهة، ونزعوا ما عليه من السلاح، وألقوه إلى الأرض ليذبحوه، لولا أن السلطان منعهم من ذلك. فلما كفوا عن ذبحه سجنوه بالزردخاناه السلطانية مقيداً.

ثم قبض على نكباي شاد شرا بخاناه علي باي، وقطع قطعاً بالسيوف، فإنه أصل هذه الفتنة.

وسبب ركوب علي باي على السلطان وخبره أن نكباي هذا كان تعرض لجارية من جواري الأمير آقباي الطرنطائي، وصار بينهما مشاكلة، فبلغ ذلك آقباي، فمسك نكباي المذكور وضربه ضرباً مبرحاً، ثم أطلقه. فحنق علي باي من ذلك، وشكا آقباي للسلطان، فلم يلتفت السلطان إليه، وأعرض

عنـه - وكـان فـي زعمـه أن السـلطان يغضـب علـى آقبـاي بسـبب مملوكـه - فغضب علي باي من ذلك، ودبر هذه الحيلة الباردة، فكان في تدبيره تدميره.

وبات السلطان تلك الليلة بالإسطبل السلطاني، ونهبت العامة بيت علي باي، حتى إنهم لم يبقوا به شيئاً.

وأما علي باي فإنه لما رأى أمره تلاشى ذهب واختفى في مستوقد حمام، فقبض عليه وحمل إلى السلطان، فقيده وسجنه بقاعة الفضة من القلعة.

فلما أصبح النهار وهو نهار الأحد والعشرين من ذي القعدة نزع العسكر السلاح وتفرقوا. وطلع السلطان إلى القلعة من الإسطبل، وأخذ علي باي وعصره، فلم يقر على أحد. وأحضر يلبغا المجنون، فحلف علي باي أنه لم يوافقه ولا علم بشيء من خبره، وحلف يلبغا أنه لم يعلم بما وقع، وأنه كان مع الوزير بمصر. فلما أشيع بركوب علي باي لحق يلبغا المجنون، بداره، ولبس السلاح ليقاتل علياً باي، فأفرج عنه السلطان وخلع عليه باستمراره على الأستادارية، ونزل إلى داره، فلم يجد بها شيئاً، وجميع ما كان فيها نهبته العامة، حتى سلبت جواريه، وفرت امرأته خوند بنت الملك الأشرف شعبان ابن حسين، وأخذوا حتى رخام بيته وأبوابه، وتشعثت داره وصارت خراباً؛ والدار هي التي على بركة الناصري بيت سونجبغا الناصري الآن.

ثم قدم البريد على السلطان من حلب بأن أولاد ابن بزدغان من التركمان والأمير عثمان بن طرعلي المدعو قرايلك تقاتلوا مع القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس، فقتل برهان الدين في المعركة وقام من بعده ابنه.

ثم في يوم الاثنين حادي عشرين ذي القعدة جلس السلطان بدار العدل، وعصر علياً باي المذكور فلم يقر على أحد.

وبينما السلطان في ذلك إذا بهجة عظيمة قامت في الناس، فلبس العسكر ووقفوا تحت القلعة، وقد غلقت أبواب القلعة. وأشيع أن يلبغا المجنون، والأمير آقبغا الطولوتمري المعروف باللكاش أمير مجلس خامرا على السلطان، ولم يكن الأمر كذلك. وبلغ اللكاش ذلك، فركب من وقته فطلع إلى القلعة.

وأما يلبغا المجنون فإنه كان في بيت الأمير فرج، فركب فرج المذكور ليعلم السلطان بأنه كان في داره بالقاهرة حتى يبرأ مما رمي به. وطلع في الحال جميع الأمراء، فأمر السلطان بقلع السلاح ونزول كل أحد إلى داره، وسكن الأمر، ونودي بالأمان والاطمئنان.

ثم في ليلة الثلاثاء عذب علي باي أيضاً بين يدي السلطان عذاباً شديداً،

كسرت فيه رجلاه وركبتاه وخسف صدره، فلم يقر على أحد. ثم أخذ إلى خارج وخنق. فتنكرت الأمراء وكثر خوفهم من السلطان، خشية أن يكون علي باي ذكر أحداً منهم من حرارة العقوبة. ومن يومئذ فسد أمر السلطان مع مماليكه الجراكسة. ودخل السلطان إلى زوجته خوند الكبرى أرد وكانت تركية الجنس، وكانت تحذره عن اقتناء المماليك الجراكسة وتقول له: " اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس: تتر وجاركس وروم وتركمان، تستريح أنت وذريتك "، فقال لها: " الذي كنت أشرت به علي هو الصواب، ولكن هذا كان مقدراً، ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم ".

وفي يوم الثلاثاء خامس شوال من سنة إحدى وثمانمائة، فيه كان ابتداء مرض السلطان الملك الظاهر برقوق. وسببه أنه ركب للعب الكرة بالميدان، فلما فرغ منه قدم عليه عسل نحل ورد من كختا، فأكل منه ومن لحم بلشون مشوي. ثم دخل إلى مجلس أنسه وشرب مع ندمائه، فاستحال ذلك خلطا رديئاً لزم منه الفراش من ليلته. ثم أصبح وعليه حمى شديدة الحرارة. ثم تنوع مرضه، وأخذ في الزيادة من اليوم الثالث وليلة الرابع، وهو البحران الأول، فأنذر - عن السابع إنذاراً رديئاً لشدة الحمى وضعف القوة، حتى أيس منه. وأرجف بموته في يوم السبت تاسعه، واستمر أمره في الزيادة إلى يوم الأربعاء ثالث عشره، فقوي الإرجاف بموته، وغلقت الأسواق، فركب الوالي ونادى بالأمان.

فلما أصبح يوم الخميس استدعى السلطان الخليفة المتوكل على الله وقضاة القضاة وسائر الأمراء وجميع أرباب الدولة، فحضر الجميع في مجلس السلطان، فحدثهم السلطان في العهد لأولاده. وابتدأ الخليفة بالحلف للأمير فرج ابن السلطان، وأنه هو السلطان بعد وفاة أبيه. ثم حلف القضاة والأمراء وجميع أرباب الدولة، وتولى تحليفهم كاتب السر فتح الله، فلما تم الحلف للأمير فرج، حلفوا أن يكون القائم بعد فرج أخوه عبد العزيز، وبعد عبد العزيز أخوهما إبراهيم.

ثم كتبت وصية السلطان، فأوصى لزوجاته وسراريه وخدامه بمائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار، وأن يعفر له تربة بالصحراء خارج باب النصر تجاه تربة الأمير يونس الدوادار بثمانين ألف دينار، ويشترى بما فضل عن عمارة التربة المذكورة عقار ليوقف عليها، وأن يدفن السلطان الملك الظاهر برقوق بها في لحد تحت أرجل الفقراء: وهم الشيخ علاء الدين السيرامي الحنفي، والشيخ أمين الدين الخلواتي الحنفي، والمعتقد عبد الله الجبرتي، والمعتقد طلحة، والشيخ المعتقد أبو بكر البجائي، والمجذوب أحمد الزهوري. وقرر أن يكون الأمير الكبير أيتمش هو القائم

بعده بتدبير ابنه فرج، وأن يكون وصياً على تركته ومعه تغري بردي من بشبغا أمير السلاح، أعني عن الوالد، والأمير بيبرس الدوادار ابن أخت السلطان بعدهما، ثم الأمير قطلوبغا الكركي أحد أمراء العشرات، ثم الأمير يلبغا السالمي أحد أمراء العشرات أيضاً، ثم سعد الدين إبراهيم بن غراب، وجعل الخليفة ناظراً على الجميع.

ثم انفض المجلس، ونظر الأمراء بأسرهم في خدمة الأمير الكبير أيتمش البجاسي إلى منزله، فوعد الناس أنه يبطل المظالم وأخذ البراطيل على المناصب والولايات.

وأكثر السلطان في مرضه من الصدقات، فبلغ ما تصدق به في هذا المرض أربع عشرة ألف دينار وتسعمائة دينار وتسعة وتسعين ديناراً. وأخذ في النزع من بعد الظهر إلى أن مات السلطان الملك الظاهر برقوق من ليلته بعد نصف الليل، وهي ليلة الجمعة خامس عشر شوال، وقد تجاوز ستين سنة من العمر، بعد أن حكم على الديار المصرية والممالك الشامية أميراً كبيراً مدبراً وسلطاناً إحدى وعشرين سنة وسبعة وخمسين يوماً، منها تحكمه بديار مصر، بعد مسك الأمير الكبير طشتمر العلائي الدوادار أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام، وكان يسمى إذ ذاك بالأمير الكبير نظام الملك، ومنذ تسلطن سلطنته الأولى في يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة إلى أن خلع واختفى في واقعة الناصري ومنطاش في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً. وتسلطن عوضه الملك المنصور حاجي ابن الملك الأشرف شعبان بن حسين، ودام مخلوعاً محبوساً، ثم خارجاً بالبلاد الشامية، ثمانية أشهر وستة عشر يوماً. وأعيد إلى السلطنة ثانياً. فمن يوم أعيد إلى سلطنته ثانية إلى أن مات في ليلة الجمعة المذكورة تسع سنين وثمانية أشهر. وتسلطن من بعده ابنه الملك الناصر فرج وجلس على تخت الملك حسبما يأتي ذكره في سلطنته.

قلت: وهو أول من ولي السلطنة من الجراكسة بالديار المصرية بعد الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، على خلاف في بيبرس، وهو القائم بدولة الجراكسة، وقد تقدم ذكر ذلك كله في أول ترجمته.

وخلف من الأولاد ثلاثة ذكور: الملك الناصر فرجاً؛ وأمه أم ولد رومية تسمى شيرين، وهي بنت عم الوالد، وقيل أخته، وماتت في سلطنة ابنها الملك الناصر فرج، وعبد العزيز؛ وأمه أم ولد أيضاً تركية الجنس، تسمى قنق باي، ماتت في سنة خمس وثلاثين وثمانمائة، وإبراهيم؛ وأمه خوند بركة، ماتت في أواخر دولة الملك الأشرف

برسباي.

وخلف أيضاً ثلاث بنات: خوند سارة: وأمها أم ولد، تزوجها الأمير نوروز الحافظي، ثم مقبل الرومي، وماتت في سنة ست عشر وثمانمائة بطريق دمشق، وخوند بيرم: وأمها خوند هاجر بنت منكلي بغا الشمسي، تزوجها إينال باي بن قجماس، وماتت بالطاعون في سنة تسع عشرة وثمانمائة، وخوند زينب: وأمها أم ولد، تزوجها الملك المؤيد شيخ، ثم من بعده الأتابك قجق، وماتت في حدود سنة ثلاثين وثمانمائة.

وخلف في الخزانة وغيرها من الذهب العين ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار، ومن الغلال والقنود والأعسال والسكر والثياب وأنواع الفرو ما قيمته أيضاً ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار.

* * *

سلطنة الناصر فرج بن برقوق الأولى

السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ابن السلطان الملك الظاهر أبي سعيد برقوق ابن الأمير آنص، الجاركسي الأصل، المصري المولد والمنشأ، سلطان الديار المصرية، والبلاد الشامية، والأقطار الحجازية؛ وهو السلطان السادس والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثاني من الجراكسة، وأمه أم ولد رومية تسمى شيرين، ماتت في سلطنته. مولده في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة، قبل خلع أبيه الملك الظاهر برقوق من السلطنة، وحبسه بالكرك، فأراد أن يسميه " بلغاك " يعني " تخبيط " باللغة التركية، فسمي " فرجاً " جلس على تخت الملك بقلعة الجبل صبيحة موت أبيه يوم الجمعة النصف من شوال سنة إحدى وثمانمائة بعهد من أبيه إليه حسب ما تقدم ذكره، في أواخر ترجمة أبيه، وحسب ما نذكره أيضاً.

ولما تم أمر الملك الناصر فرج في الملك، بعد أن دفن والده، وصار الأتابك أيتمش مدبر ملكه، أراد أيتمش أن يطلع إلى باب السلسلة ويسكن بالإسطبل السلطاني، فمنعه من ذلك الأمير سودون الأمير آخور الكبير، قريب الملك الظاهر، ورد ما بعثه الأمير الكبير أيتمش من القماش، فاستدعي سودون إلى حضرة السلطان فامتنع. فأمسك أيتمش عن الكلام في ذلك، وتكلم فيما يعي نفعه. فأمر فكتب إلى سائر الأقطار بالعزاء في الملك الظاهر برقوق، والهناء بسلطنة ولده الملك الناصر فرج. وكتب تقليد الشريف حسن بن عجلان بإمرة مكة، وكان بالقاهرة. وكتب إلى مكة وبها الأمير بيسق الشيخي والي المدينة النبوية، وتوجه بذلك بعض الخاصكية. وكتب إلى الأمير نعير بن حيار بإمرة آل فضل على عادته. وعزل الأمير شمس الدين محمد بن عنقاء بن مهنا، وعرف بموت الملك الظاهر، وبسلطنة الملك الناصر فرج، وحمل إليه التشريف والتقليد على يد الأمير أسنبغا الدوادار. وعين الأمير سودون الطيار الأمير آخور بالكتب والخلع إلى نائب الشام الأمير تنم الحسني. وعين يلبغا الناصري رأس نوبة إلى الأمير آقبغا الجمالي نائب حلب وعين الأمير تغري بردي قرا إلى الأمير يونس بلطا نائب طرابلس. وعين الأمير يشبك إلى الأمير ألطنبغا العثماني نائب صفد. وعين الأمير شاهين كتك إلى الأمير سودون الظريف نائب الكرك، وعلى يد كل من هؤلاء كتاب يتضمن العزاء والهناء، وأن يحلف كل نائب أمراء بلده للملك الناصر فرج على العادة. وقرر الأمير الكبير أيتمش مع أرباب الدولة إبقاء الأمور على ما هي عليه.

ثم قدم الخبر في ثامن عشر ذي الحجة، بأن ابن عثمان أخذ الأبلستين وملطية، وعزم على المسير إلى البلاد الشامية. فعمل الأمراء مشورة في أمره، واتفق الحال على

المسير إلى قتاله، وتفرقوا. فأنكر المماليك السلطانية ذلك، وقالوا: هذه حيلة علينا حتى نخرج من القاهرة، وعينوا سودون الطيار الأمير آخور لكشف هذا الخبر. وحضر البريد من دمشق بأن علاء الدين بن الطبلاوي ترك لبس الأمراء، وتزيا بزي الفقراء، وامتنع من الحضور إلى مصر، وكان طلب إليها، وأن تنم نائب الشام قال: هذا رجل فقير قد قنع بالفقر، اتركوه.

ثم في هذه الأيام تزايد الاختلاف بين أكابر الأمراء وبين الأمراء الخاصكية، واشتدت الوحشة بين الطائفتين. واتفق سودون طاز، وسودون من زاده، وجركس القاسمي المصارع، وآقباي من حسين شاه، وبشباي وغيرهم، وانضموا على الأمير يشبك الشعباني الخازندار، وصاروا في عصبة قوية وشوكة شديدة، وآستمالوا جماعة كبيرة من خجداشيتهم الظاهرية، الذين بالأطباق من القلعة. وتأكدت الفتنة، وشرعت كل من الطائفتين تدبر على الأخرى. فأخذ الأمراء - الخاصكية يتخوفون من تنم نائب الشام، فأرسلوا بتفويض أمور البلاد الشامية إليه. فلما وصل ذلك إلى تنم على يد مملوكه سونجبغا، في ثالث عشر المحرم، وقرىء المرسوم الشريف الذي على يده بدار السعادة، وفيه أنه يعزل من شاء، ويولي من شاء، ويطلق من شاء من المسجونين، فأرسل أطلق الأمير جلبان الكمشبغاوى الظاهري المعروف بقراسقل، المعزول عن نيابة حلب ثم عن أتابكية دمشق، من سجن قلعة دمشق في ليلة الجمعة رابع عشرين المحرم. وأطلق أيضاً الأمير أزدمر أخا إينال اليوسفي، ومحمد بن إينال اليوسفي، من سجن طرابلس وأحضرهما إلى دمشق. ثم بعث إلى نواب البلاد الشامية يدعوهم إلى طاعته، وإلى القيام معه، فأجابه الأمير آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب، والأمير يونس بلطا نائب طرابلس، والأمير ألطنبغا العثماني الظاهري نائب صفد، وآمتنع من إجابته الأمير دمرداش المحمدي الظاهري نائب حماة.

ثم بعث تنم إلى طرابلس بتجهيز شيني في البحر إلى ثغر دمياط، ليحمل فيه الأمير نوروز الحافظي وغيره من الأمراء الذين بثغر دمياط. فبادر ناصر الدين محمد بن بهادر المؤمني، فتسلم برج الأمير أيتمش بطرابلس، وركب البحر إلى دمياط، وقدم إلى القاهرة، وأعلم القوم بما قصده تنم؛ فكتب على يده عدة ملطفات إلى الأمير قرمش حاجب حجاب طرابلس وإلي عدة من أمراء طرابلس وإلى القضاة والأعيان بأن قرمش يركب على يونس بلطا نائب طرابلس ويقتله، ويلي نيابة طرابلس عوضه، فاتفق أن يونس المذكور قبض على قرمش الحاجب وقتله قبل وصول ابن بهادر إلى طرابلس.

ثم إن تنم استدعى الأمير علاء الدين علي بن الطبلاوي المقدم ذكره في ترجمة الملك الظاهر برقوق لما صودر وحبس بخزانة شمائل ثم نفي وخلع عليه، وأقامه متحدثاً

في أمور الدولة كما كان في ديار مصر. فأخذ ابن الطبلاوي هذا في الإفحاش في أمر الشاميين، وطرح عليهم السكر الواصل من الغور، بحيث إنه طرح ذلك على الناس، وحتى على الفقهاء ونقباء القضاة، فتنكرت القلوب عليه.

وقدم الخبر بهذا كله إلى الديار المصرية، فتحقق عند ذلك أعيان الدولة عصيان تنم، وصرح الأمراء الخاصكية بأن الأمير الكبير أيتمش والوالد وجماعة من أكابر الأمراء بالديار المصرية قد وافقوا تنم على ذلك، وكاتبوه بالخروج؛ ولم يكن لذلك صحة. فأخذ الأمراء الخاصكية، وكبيرهم يشبك الشعباني الخازندار، في التدبير على أيتمش ورفقته، واتفقوا على أمر يكون فيه زوال أيتمش وأصحابه، وعلموا السلطان الملك الناصر فرجاً بقول يقوله إلى أيتمش.

فلما كان يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة، وجميع الأمراء بالخدمة السلطانية، ابتدأ السلطان الملك الناصر بالكلام مع الأمير الكبير أيتمش، وقال له: " يا عم، أنا قد أدركت وبلغت الحلم، وأريد أن أترشد "، فقال له أيتمش: " السمع والطاعة "، واتفق مع الأمراء الخاصكية على ترشيد السلطان، وصوب ذلك جميع الأمراء، إلا الوالد وفارس الحاجب، وخالفا الجميع. فأخذ الأتابك أيتمش يحسن ذلك للوالد ولفارس، حتى أذعنا على رغمها لترشيد السلطان، وأنهم يمتثلون بعد ترشيده سائر ما يرسم به. وطلب في الحال الخليفة والقضاة والسراج البلقيني ومفتي دار العدل فحضروا. وقام سعد الدين إبراهيم بن غراب ناظر الجيش والخاص، وادعى على الأمير الكبير أيتمش بأن السلطان قد بلغ رشده. وشهد عدة من الأمراء الخاصكية بذلك، ولم يكن لذلك صحة، فحكم القضاة بعد إقامة البينة برشد السلطان وخلع السلطان، على الخليفة وقضاة القضاة وعلى الأمير الكبير أيتمش، وانفض الموكب.

ونزل الأمير الكبير إلى داره التي كان يسكن بها بالقرب من باب الوزير ومعه جميع الأمراء. فلما سار أيتمش حتى صار تحت الطبلخاناه السلطانية، وطلب أن يسلم على الأمراء، والتفت برأس فرسه، وقد وقف له جميع الأمراء لرد سلامه، وقبل أن يسلم عليهم، قال له الوالد: " إلى أين يتوجه الأمير الكبير من هنا؟ " قال الأمير أيتمش: " إلى بيتي! أو ما علمت بما وقع عليه الاتفاق من ترشيد السلطان، وأنه يستبد بالأمور، وأنزل أنا من باب السلسلة إلى داري " فقال الوالد: " نعم، وقع ذلك، غير أنه بنزولك لا تسكن الفتنة! إطلع إلى باب السلسلة، وامكث به اليوم، وخذ في نقل قماشك شيئاً بعد شيء إلى آخر الليل حتى نبرم أمراً نفعله في هذه الليلة؛ فإذا أصبحت فانزل إلى دارك ". فقال أيتمش: "يا والدي! ليس ذلك مصلحة، ويقيم من له غرض في إثارة الفتنة الحجة علينا ". فألح عليه الوالد حتى سمع كلامه كل أحد، وأيتمش لا يذعن

إليه، وأبى إلا النزول إلى داره، ثم سلم عليهم، والتفت برأس فرسه، فقال الوالد: " أخربت بيتك وبيوتنا بسوء تدبيرك "، وعاد الوالد إلى جهة داره بخط الصليبة عند حمام الفارقاني، ومعه سائر الأمراء، فكلمهم في الطريق وقال: " هؤلاء الأجلاب لا بد لهم معنا من رأس، فإن كان ولابد يكون ذلك في الإسطبل السلطاني معنا " وندب الأمراء إلى أن يتوجهوا إلى أيتمش في ذلك، فقالوا: " قد فات الأمر، ونزل إلى داره " ثم توجه كل واحد إلى منزله. وفي الحال دقت البشائر لترشيد السلطان، وزينت القاهرة، وافترق العسكر فرقتين: فرقة مع الأمير الكبير أيتمش البجاسي، وهم جميع أكابر الأمراء والمماليك القرانيص، وفرقة مع الأمير يشبك الشعباني الخازندار، وهم الأمراء الخاصكية ومماليك الأطباق. وقويت شوكة الأمير يشبك بعجز أيتمش وعدم أهليته في القيام بتدبير الأمور من يوم مات الملك الظاهر برقوق. وآستمر ذلك إلى ليلة عاشر شهر ربيع الأول المذكور، وقد ندم الأمير الكبير أيتمش على نزوله من باب السلسلة، حيث لا ينفعه الندم، ولم يجد بداً من الركوب، واتفق مع الأمراء على الركوب.

الواقعة بين الأتابك أيتمش وبين يشبك وغيره:

ولما كان ليلة الاثنين عاشر شهر ربيع الأول، اتفق الأمراء الأكابر مع الأمير الكبير أيتمش، ولبسوا الجميع آلة الحرب، واجتمعوا على الأتابك أيتمش بداره بخط باب الوزير، بعد نزول أيتمش من باب السلسلة بثلاثة أيام. وأخذ بعض رفقته من أكابر الأمراء يلومه على نزوله من الإسطبل السلطاني، وعلى عدم ميله لكلام الأمير تغري بردي أعني الوالد في النزول، فقال: " هكذا قدر ". وكان سبب ركوب أيتمش بعد نزوله من الإسطبل أنه لما وقع ترشيد السلطان، واتفقوا معه على أن ينزل إلى داره، ظن أيتمش أن بنزوله تسكن الفتنة، وتطمئن الخواطر، ويصير هو على عادته رأس مشورة، ولا يعمل شيء إلا بعد مشاورته، فتمشي الأحوال بذلك على أحسن وجه. ولم يدر أن القصد كان بنزوله من باب السلسلة حتى يضعف أمره، وتصير القلعة بأسرها في أيدي الجماعة، ويستبدوا بالأمر من غير مشارك، ثم يقبضوا على واحد بعد واحد حتى يصفو لهم الوقت. وفطن الوالد لذلك فعرف أيتمش بالمقصود وقال له: " إنه لا بد لهؤلاء الجماعة من إثارة فتنة. فإن كان ولابد فيكون ذلك ونحن ملاك باب السلسلة " وهي شطر القلعة؛ فأبى إلا ما أراد الله تعالى، ونزل إلى داره وأقام يومه، ثم أصبح وقد تحقق ما قاله الوالد وغيره، وعلم أنه متى ظفروا به والأمراء رفقته قبضوا عليهم؛ فلم يجد بداً من الركوب، وركب إلى الوالد في ظهر نهاره وترضاه، حتى وافقه. فعند ذلك وافقه الجميع، واتفق رأيهم على الركوب في ليلة الاثنين المذكورة؛ فركبوا بعد صلاة العشاء الأخيرة، وهم جماعة كثيرة من أمراء الألوف

والطبلخانات والعشرات والمماليك السلطانية القرانيص.

وأما أهل القلعة فإن الأمير يشبك الشعباني الخازندار لما سمع بذلك ركب إلى القلعة هو وبيبرس الدوادر وطلعا إلى السلطان، وقد اجتمع غالب الأمراء والخاصكية من الظاهرية عند السلطان. وطلب يشبك في الحال مماليك الأطباق، وأمرهم بلبس السلاح، ولبس هو وجميع الأمراء، وحرضهم على قتال أيتمش ورفقته، وخوفهم عاقبة الأمر، وقال لهم: " هؤلاء، وإن كانوا خشداشيتنا، فقد صاروا الآن أجانب، وتركوا خبز الملك الظاهر برقوق، وخرجوا على ولده، وأرادوا يسلطنون أيتمش، ونحن نقاتل مع ابن أستاذنا حتى نموت " فأجابه جميع المماليك الجلبان، وظنوا أن مقالته حقيقية. وفي الحال دقت الكوسات الحربية بالقلعة، ولبس سائر الأمراء الذين بالقلعة، وهم: بيبرس الدوادار ابن أخت الملك الظاهر برقوق، ويشبك الشعباني الخازندار المقدم ذكره، وسودون المارداني رأس نوبة النوب، وسودون من علي بك طاز، وإينال باي بن قجماس، ويلبغا الناصري، وبكتمر الركني، ودقماق المحمدي المعزول عن نيابة ملطية، وشيخ المحمودي أعني المؤيد، وآقبغا الطرنطائي، والجميع مقدمو ألوف، وجماعة أخر من الطبلخانات والعشرات. وأما المماليك السلطانية فمعظمهم.

ونزل السلطان الملك الناصر فرج من القصر إلى الإسطبل السلطاني؛ ووقع القتال بين الطائفتين من وقت عشاء الآخرة إلى باكر النهار، ومعظم قتال أهل القلعة مع الذين كانوا برأس سويقة منعم، وتصالحوا غير مرة. وبينما القتال يشتد أمر الأتابك أيتمش البجاسي فنودي: " من قبض مملوكاً جركسياً وأحضره إلى الأمير الكبير أيتمش فله كيت وكيت ". فلما سمعت الجراكسة الذين كانوا من حزب أيتمش ذلك حنقوا منه، وتوجه أكثرهم إلى السلطان. على أن أيتمش كان من أعظم الجراكسة، غير أن زوال النعم شيء آخر؛ فعند ذلك كثر جمع السلطانية وقوي أمرهم، وحملوا على الوالد ومن معه، وهو برأس سويقة منعم، فكسروه، فمر بمن معه من الأمراء ومماليكه حتى اجتاز بداره، وهي دار طاز بالشارع الأعظم تجاه حمام الفارقاني، والقوم في أثره، فحمى ظهره مماليكه الجلبان الذين بالأطباق بالرمي على السلطانية، حتى تركوه وعادوا، ومر الوالد حتى لحق بالأمير أيتمش بالصوة.

وأما السلطانية فإنهم لما كسروا الوالد، وكان الأهم، عادوا لقتال فارس الحاجب، وكان فارس من الفرسان المعدودة الأقشية، فثبت لهم فارس المذكور ثباتاً عظيماً، لولا ما كادوه من أخذ مدرسة السلطان حسن، والرمي عليه من أعلاها إلى أن هزموه أيضاً؛ وانحاز بطائفته إلى أيتمش بالصوة، فكرر أيتمش المناداة على المماليك الجراكسة - خذلان من الله -، فذهب من كان بقي عنده منهم وعند ذلك صدمته

السلطانية صدمة هائلة كسروه فيها، وانهزم من بقي معه من الأمراء المذكورين والمماليك وقت الظهر من يوم الاثنين عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة، ومروا قاصدين إلى جهة الشام حتى نزلوا بسرياقوس، فأخذوا من الخيول السلطانية التي كانت بها من جيادها نحو المائة فرس، ثم ساروا إلى نحو البلاد الشامية.

وندب السلطان خلف أيتمش ورفقته من المنهزمين جماعة من أمراء الألوف وغيرهم فالذي كان منهم من أمراء الألوف: بكتمر الركني المعروف ببكتمر باطيا، ويلبغا الناصري، وآقبغا الطرنطائي، ومن أمراء الطبلخانات: أسنبغا الدوادار، وبشباي من باكي، وصوماي الحسني في جماعة كثيرة من أمراء العشرات والمماليك السلطانية، وهم نحو خمسمائة مملوك، فلم يقفوا لهم على خبر، وعادوا من قريب.

وامتدت الأيدي إلى بيوت الأمراء المنهزمين بالنهب، فنهبوا جميع ما كان فيها، حتى نهبت الزعر مدرسة أيتمش، وأخفوا جميع ما كان فيها، حتى حفروا قبر ولده الذي كان بها، وأحرقوا الربع المجاور لها من خارج باب الوزير، ونهبوا جامع آق سنقر المجاور لدار أيتمش، واستهانوا حرمة المصاحف بها، ثم نهبوا مدرسة السلطان حسن، وانتهبوا بيوتاً كثيرة من بيوت المنهزمين، فكان الذي أخذ من بيت الوالد فقط من الخيل والقماش والسلاح وغير ذلك ما تزيد قيمته على عشرين ألف دينار.

ثم كسرت الزعر حبس الديلم وحبس الرحبة، وأخرجوا من كان بهما من أرباب الجرائم وصارت القاهرة في ذلك اليوم غوغاء، من غلب على شيء صار له وقتل في هذه الواقعة من الطائفتين جماعة كبيرة من المماليك وغيرهم؛ فكان الذي قتل من الأمراء: قجماس المحمدي شاد السلاح خاناه، وقرابغا الأسنبغاوي، وينتمر المحمدي واختفى بالقاهرة ممن كان مع الأتابك أيتمش: مقبل الرومي الطويل أمير جاندار وكمشبغا الخضري وجماعة أخر يأتي ذكرهم وتوجه بقية أصحابه الجميع صحبته إلى دمشق، وقصد أيتمش الأمير تنم الحسني نائب الشام.

وأما تنم نائب الشام فإنه لما عظم أمره بدمشق وتم له ما قصده، وجه الأمير آقبغا الطولوتمري اللكاش في عدة من الأمراء والعساكر إلى غزة، فساروا من دمشق في أول شهر ربيع الأول المذكور. ثم ندب جماعة أخر من كبار الأمراء إلى البلاد الحلبية، وخرجوا من دمشق في ثالث شهر ربيع الأول، وعليهم الأمير جلبان الكمشبغاوي الظاهري، المعروف بقراسقل، المعزول عن نيابة حلب قديماً، ومعه الأمير أحمد بن الشيخ على نائب صفد كان، والأمير بي خجاه المعروف بطيفور نائب غزة كان، وهو يومئذ حاجب دمشق، والأمير يلبغا الإشقتمري، والأمير صرق

الظاهري، وساروا إلى حلب لتمهيد أمورها. ثم قبض الأمير تنم على الأمير بتخاص وعيسى التركماني وحبسهما بالبرج من قلعة دمشق ثم خرج تنم فيمن بقي معه من عساكره في سادسه يريد حلب، وجعل الأمير أزدمر أخا إينال اليوسفي نائب الغيبة بدمشق، وسار حتى قدم حمص وآستولى عليها، وولى عليها من يثق به من أصحابه، ثم توجه إلى حماة، فوافاه الأمير يونس بلطا نائب طرابلس ومعه عساكر طرابلس، ونزلوا على مدينة حماة، فامتنع نائبها الأمير دمرداش المحمدي بها، وقاتل تنم قتالاً شديداً، وقتل من أصحاب تنم نحو الأربعة أنفس، ولم يقدر عليه تنم.

وبينما تنم في ذلك ورد عليه الخبر بقيام أهل طرابلس على من بها من أصحابه. وخبر ذلك أنه لما قرب محمد بن بهادر المؤمني من طرابلس، بعث ما كان معه من الملطفات من الديار المصرية لأهل طرابلس، فوصلت إليهم قبل قدومه، ثم وصل هو بمن معه في البحر، فظنه نائب غيبة يونس بلطا، من الفرنج، فخرج إليه في نحو ثلاثمائة فارس من أجناد طرابلس، فتبين له أنه من المسلمين، فطلبه نائب الغيبة بمن معه فلم يأته، وقاتلهم على ساحل البحر، فانهزم إلى برج أيتمش، وكان تحت حكم ابن المؤمني المذكور. وأصبح الذين أتتهم الملطفات من مصر، ونادوا في العامة بجهاد نائب الغيبة، وخطب خطيب البلد بذلك؛ فشرعت العامة في قتال نائب الغيبة حتى هزموه ونهبوا ما كان معه. وتوجه إلى حماة، فأرسل تنم الأمير الأمير صرق على عسكر كبير لقتال أهل طرابلس، فتوجه صرق إليهم، وقاتلهم قتالاً شديداً مدة تسعة أيام.

وبينما تنم في ذلك ورد عليه الخبر بواقعة الأمير أيتمش مع المصريين، وأنه نزل بمن معه في دار النيابة بغزة، وأنه سار بمن معه يريد دمشق، فسر تنم بذلك وأذن لنائب غيبته بدمشق وهو الأمير أزدمر بدخول أيتمش ومن معه إلى دمشق وبالقيام في خدمتهم حتى يحضر إليهم. ثم لما بلغه عجز صرق عن أهل طرابلس، جهز إليها نائبها الأمير يونس بلطا في طائفة كبيرة من العساكر، فسار إليها يونس ودخلها بعد أن هزم ابن المؤمني، وركب البحر ومعه القاضي شرف الدين مسعود قاضي القضاة الشافعية بطرابلس، يريدان القاهرة بمن معهما ونهب يونس أموال الناس كافة بطرابلس، وفعل في طرابلس وأهلها ما لا تفعله الكفرة، وقتل نحو العشرين رجلاً من أعيان طرابلس وقضاتها وعلمائها منهم: الشيخ العالم المفتي جمال الدين بن النابلسي الشافعي، والخطيب شرف الدين محمود، والقاضي المحدث شهاب الدين أحمد الأذرعي المالكي، وقاضي القضاة شهاب الدين الحنفي، والقاضي موفق الدين الحنبلي، وقتل من عامة طرابلس ما يقارب الألف، وصادر الناس مصادرات كثيرة، وأخذ أموالهم وسبى حريمهم، فكانت هذه الكائنة من أقبح الحوادث، وكالت في

الخامس عشر من شهر ربيع الأول المذكور.

وأما أمر الديار المصرية فإنه لما كان بعد الواقعة من الغد خلع السلطان علي الأمير قرابغا مغرق الظاهري باستقراره في ولاية القاهرة عوضاً عن عيسى فلان بحكم عصيانه مع أيتمش، فمات من الغد من جرح كان أصابه في الواقعة، واستقر في ولاية القاهرة عوضه بلبان أحد المماليك الظاهرية، فنزل بلبان المذكور بالخلعة إلى القاهرة، فمر من باب زويلة يريد باب الفتوح، وعبر راكباً من باب الجامع الحاكمي وهو ينادي بالأمان، وإذا بالأمير شهاب الدين أحمد بن عمر بن الزين قد جاء من جهة باب النصر، وهو أيضاً ينادي بين يديه بآستقراره في ولاية القاهرة، فتحيرت المقدمون والجبلية بينهما، وبينما هم في ذلك، وقد التقى بمبان مع ابن الزين، فقال بلبان: أنا ولاني فلان، وقال ابن الزين: أنا ولاني فلان، وإذا بالطواشي شاهين الحسني قدم ومعه خلعة ابن الزين بولايته القاهرة، فبطل أمر بلبان. وتصرف ابن الزين في أمور الولاية، ونادى بالكف عن النهب، وهمد من ظفر به من النهابة. ثم في سادس عشره عرض السلطان المماليك السلطانية، ففقد منهم مائة وثلاثون نفراً قد انهزموا مع الأتابك أيتمش.

وأما الأمير تنم فإنه لما جاءه خبر أيتمش ترك حصار حماة وعاد إلى دمشق؛ ثم خرج إلى لقاء أيتمش وأصحابه في خامس شهر ربيع الأخر إلى ظاهر دمشق. فلما عاينهم ترجل عن فرسه وسلم عليهم وبالغ في إكرامهم، وعاد بهم إلى دمشق وقدم إليهم تقادم جليلة، لا سيما الوالد، فإن تنم قام بخدمته زيادة عن الجميع، حتى يزول ما كان عنده حسب ما تقدم ذكره: وسببه أنه كان وغر خاطر أستاذه الملك الظاهر برقوق عليه حتى عزله عن نيابة حلب، فأخذ تنم يعتذر إليه، ويتلطف به حتى زال ما كان عنده من الكمائن القديمة، وصار من أعظم أصحابه، وحلفه على موافقته وحلف له، ووعده بأمور كثيرة يستحيا من ذكرها.

ثم كتب الوالد إلى الأمير دمرداش المحمدي نائب حماة بالدخول في طاعة تنم حسب ما يأتي ذكره.

ثم قدم على الأمير تنم كتاب الملك الناصر فرج يأمره بمسك الأتابك أيتمش وبمسك الوالد ومن قدم معهما، فأخذ تنم الكتاب وأتى به إلى أيتمش ورفقته، وقرأه عليهم بالقصر الأبلق من الميدان، فضحك الوالد وقال له: امتثل مرسوم السلطان، وافعل ما أمرك به فتبسم تنم وقال له: " بالله عليك زول ما عندك وطيب قلبك "، وقام وعانقه ثم تكلم تنم مع الأمراء فيما يفعله في أمر دمرداش نائب حماة، فأشار الوالد بأنه يتوجه إليه صحبة الأمير الكبير أيتمش، ثم يتوجهان أيضاً إلى نائب حلب يدعوانه إلى

طاعة تنم وموافقته، فقال: " هذا الذي كان في خاطري؛ فإن دمرداش لا يسمع لأحد غيرك "، وخرجا بعد أيام إلى جهة حماة، فأجاب دمرداش بالسمع والطاعة، ودخل تحت طاعة تنم ووعد بالقيام بنصرته؛ ثم عاد الوالد وأيتمش إلى دمشق، فسر تنم بذلك غاية السرور.

ثم قدم دمرداش بعد ذلك بأيام إلى دمشق، فخلع عليه تنم باستمراره على نيابة حماة، وأنعم عليه بأشياء كثيرة وتوجه إلى حماة. ثم أخذ الجميع في التأهب إلى قتال المصريين.

وأما ما وقع بالديار المصرية من الولايات والعزل، فإنه لما كان العشر الأخير من شهر ربيع الآخر، خلع السلطان على الأمير بيبرس الدوادار باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأمير أيتمش البجاسي، وأنعم عليه بإقطاعه إلا النحريرية ومنية بدران وطوخ الجبل، فغضب بيبرس بسبب ذلك، فلم يلتفت إلى غضبه، وأنعم بإقطاع الوالد ووظيفته على نوروز الحافظي، وأنعم على تمراز الناصري بإقطاع أرغون شاه أمير مجلس، وأنعم على سودون أمير آخور بإقطاع يعقوب شاه الحاجب، وأنعم بإقطاع بيبرس على بكتمر الركني، وبإقطاع بكتمر على دقماق المحمدي نائب ملطية كان، وبإقطاع دقماق على جركس القاسمي المصارع، واستقر أمير طبلخاناه وأنعم على كل من كزل الناصري، وقماري الاسنبغاوي، وشاهين من شيخ الإسلام، وشيخ السليماني، وبشباي من باكي، وتمربغا الظاهري، وجكم من عوض، وصوماي، وتمر الساقي، وإينال حطب، وقاني باي العلائي، وسودون المأموري، وألطنبغا الخليلي، ومجترك القاسمي، وكزل المحمدي، وبيغان الإينالي بإمرة عشرين وأنعم على كل من أزبك الرمضاني وأسندمر العمري وقرقماس السيفي ومنكلي بغا الصلاحي وآقبغا الجرجوي وطيبغا الطولوتمري وقاني باي من باشاه ودمرداش الأحمدي وآقباي السلطاني وأرغون شاه الصلاحي ويونس العلائي وجمق ونكباي الأزدمري وقاني بك الحسامي وبايزير من بابا وآقبغا المحمدي وسودون الشمسي وسودون البجاسي وتمراز من باكي وسودون النوروزي وأسنبغا المسافري وقطلوبغا الحسني وقطلقتمر المحمدي وسودون الحمصي وسودون القاسمي وأرزمك وأسنباي بإمرة عشرة، وحلفوا الجميع على طاعة السلطان، والسفر معه لقتال تنم.

هذا وقد تجهزت العساكر المصرية للسفر صحبة السلطان لقتال تنم وتهيأ الجميع.

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر رجب نزل السلطان الملك الناصر من القلعة إلى الريدانية خارج القاهرة وأصبح من الغد خلع على الأمير الكبير بيبرس باستقراره في

نظر البيمارستان المنصوري، وبنيابة الغيبة بالديار المصرية، وخلع على الأمير نوروز الحافظي رأس نوبة الأمراء باستقراره في نظر الخانقاه الشيخونية ثم أصبح من الغد سادس الشهر خلع السلطان على الأمير نوروز المذكور بتقدمة العساكر، ثم أنفق السلطان على جماعة من المماليك السلطانية بنحو خمسة وعشرين ألف دينار إنعاماً.

وفي اليوم المذكور رحل جاليش السلطان من الريدانية، وفيه من الأمراء نوروز الحافظي مقدم العساكر، وبكتمر الركني المعروف بباطيا أمير سلاح، وتمراز الناصري أمير مجلس، ويلبغا الناصري، وسودون الدوادار المعروف بسيدي سودون، وشيخ المحمودي هو المؤيد، ودقماق المحمدي الحاجب الثاني، والجميع مقدمو ألوف.

ثم رحل السلطان بعدهم في يوم الجمعة ثامنه ببقية العساكر وعدة ما سار أولاً وثانياً سبعة آلاف فارس وهذا سوى من أقام بالقاهرة، وهم أيضاً عدة كبيرة من الأمراء والمماليك. فأما الأمراء فكان بالقاهرة الأتابك بيبرس، وآقباي حاجب الحجاب، وأقام بقلعة الجبل الأمير إينال باي بن قجماس أحد مقدمي الألوف، وإينال حطب رأس نوبة، وأقام بالإسطبل السلطاني سودون من زادة، وبهادر فطيس، وبيسق الشيخي أمير أخور ثاني، وأقام عند هؤلاء جماعة كبيرة من المماليك السلطانية.

وأما أمراء الديار المصرية فإنه لما سافر السلطان إلى جهة تنم بعساكره في ثامن الشهر، قدم الخبر في صبيحته على الأمير بيبرس، وهو يوم السبت، من البحيرة، بأن الأمير سودون المأموري الحاجب أخذ الأمراء من ثغر دمياط، وسار بهم نحو الإسكندرية، فلما وصل بهم إلى ديروط لقيه الشيخ المعتقد عبد الرحمن بن نفيس الديروطي وأضافه؛ فعندما قعد الأمير سودون المأموري هو والأمراء للأكل قام يلبغا المجنون ووثب هو ورفقته من الأمراء على سودون المأموري، وقبضوا عليه وعلى مماليكه وقيدوهم بقيودهم، وبينما هم في ذلك قدمت حراقة من القاهرة فيها الأمير كمشبغا الحضري وإياس الكمشبغاوي وجقمق البجمقدار، وأمير آخر، والأربعة في القيود، فدخلت الحراقة بهم إلى شاطئ ديروط ليقضوا حاجة لهم، فأحاط بهم يلبغا المجنون، وخلص منهم الأربعة المقيدين، وأخذهم إلى أصحابه. ثم كتب يلبغا إلى نائب البحيرة بالحضور إليه، وأخذ خيول الطواحين، وركب هو ورفقته من الأمراء وسار بهم إلى مدينة دمنهور، وطرقها بغتة، وقبض على متوليها، وأتته العربان من كل فج حتى صار في عدد كبير.

وأما العسكر السلطاني المصري فإنهم لما دخلوا إلى غزة بلغهم أن تنم إلى الآن لم

يصل إلى الرملة بعساكره، وإنما الذي قاتلهم هو جاليش عسكره، فكثر عند ذلك تخوفهم منه، وداخلهم الرعب، وعملوا بسبب ذلك مشورة، فاتفق الرأي أن يتكلموا معه في الصلح، وأرسلوا إليه من غزة قاضي القضاة صدر الدين المناوي الشافعي، ومعه المعلم نصر الدين محمد الرماح أمير آخور، وطغاي تمر مقدم البريدية، فخرجوا الجميع من غزة في يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب، وكتب لتنم صحبتهم أمان من السلطان، وأنه باق على كفالته بدمشق إن أراد ذلك، وإلا فيكون أتابك العساكر بمصر، وإليه تدبير ملك ابن أستاذه الملك الناصر فرج، لا يشاركه في ذلك أحد.

وركب تنم بعساكره من مدينة الرملة يريد جهة غزة، وركب السلطان بعساكره من غزة يريد الرملة، إلى أن أشرف على الجيتين قريب الظهر، فعاين تنم وقد عبأ عساكره، وهم نحو الخمسة آلاف فارس، ونحو ستة آلاف راجل، وصف الأطلاب، فعبى أيضاً الأمراء عسكر السلطان ميمنة وميسرة، وقلباً في قلب في قلب، ولكل جملة رديف؛ وكان ذلك تعبئة ناصر الدين المعلم، أخذت أنا هذه التعبئة عن الأتابك آقبغا التمرازي عنه، انتهى.

ثم تقدم العسكران وتصادما فلم يكن إلا أسرع وقت، وكانت الكسرة على تنم وانهزم غالب عسكره من غير قتال، خذلاناً من الله تعالى، لأنه تقنطر عن فرسه في أوائل الحرب، فانكسرت عساكره لتقنطره في الحال ولوقوعه في الأسر، وقبض عليه وعلى جماعة كبيرة من أعيان أصحابه من أكابر الأمراء والنواب. ولقد سألت جماعة من أعيان مماليك تنم ممن كان في الوقعة المذكورة عن سبب تقنطره، فإنه لم يطعنه أحد من العسكر السلطاني، فقالوا: " كان في فرسه الذي ركبه شؤم: إما شعر رسل أو تحجيل - منتهى الوهم مني - قالوا: فكلمناه في ذلك ونهيناه عن ركوبه، فأبى إلا ركوبه، وقال: ما خبأته إلا لهذا اليوم. فحال ما علا ظهره وحركه لينظر حال عسكره، ووغل في القوم، تقنطر به؛ وقد كرت عساكره إلى نحوه، ولم يلحقه أحد من مماليكه، فظفر به ولما قبض على تنم قبض معه بعد هزيمة عسكره على الأمير آقبغا الجمالي نائب حلب، ويونس بلطا نائب طرابلس، وأحمد بن الشيخ علي نائب صفد كان، وجلبان قراسقل نائب حلب كان، وفارس حاجب الحجاب، وبيغوت وبيرم رأس نوبة أيتمش، وشادي خجا، ومن الطبلخانات والعشرات من أمراء مصر والشام ما ينيف على مائة أمير؛ وفر الأتابك أيتمش والوالد، وأحمد بن يلبغا أمير مجلس كان، وأرغون شاه أمير مجلس، ويعقوب شاه، وآقبغا اللكاش، وبي خجا طيفور نائب غزة كان، وجماعة أخر في نحو ثلاثة آلاف مملوك، وتوجهوا إلى دمشق.

ولما قبض على تنم أنزل في خيمة وقيد؛ ثم شكا العطش وطلب ماء ليشربه، فقام

الأمير قطلوبغا الحسني الكركي، وهو يوم ذلك أحد أمراء الطبلخانات وشاد الشراب خاناه السلطانية، وتناول الكوز وأخذ شثنة على عادة الملوك، ثم سقاه لتنم. وكان لما أمسك ادعى مملوك من الظاهرية أنه قنطر تنم عن فرسه، وطلب إمرة عشرة، فلما بلغ ذلك تنم قال: " اطلبوه إلى عندي " فأحضروه، فنظر إليه طويلاً ثم قال له: " أنت تستأهل إمرة عشرة وغيرها بدون ذلك، إلا أن الكذب قبيح هذا قرقلي إلى الآن علي أين المكان الذي طعنتني فيه برمحك. أنا ما رماني إلا الله تعالى، ثم فرسي الأشقر ".

وعندما أمسك تنم كتبت البشائر إلى الديار المصرية والبلاد الشامية بذلك، ودقت البشائر وسار أيتمش ورفقته إلى نحو دمشق حتى وصلوها، فأراد الوالد ويعقوب شاه وجماعة أن يتوجهوا إلى بلاد التركمان، حتى يأتيهم أمان من السلطان، وأشاروا على أيتمش بذلك، فأمتنع أيتمش من ذلك، وأبى إلا دخول دمشق؛ فحال دخولهم إليها، وهم في أشد ما يكون من التعب، وقد كفت خيولهم، ثار عليهم أمراء دمشق، وقبضوا على أيتمش والوالد، وآقبغا اللكاش وأحمد بن يلبغا النابلسي، وحبسوا بدار السعادة. وفر من بقي ثم أمسك بعد يومين أرغون شاه ويعقوب شاه وتتبع أمراء دمشق بقية أصحاب تنم من كل مكان حتى قبضوا على جماعة كبيرة منهم.

وأما يلبغا المجنون فإنه لما خرج إليه العسكر من مصر مع آقباي الحاجب، سار آقباي إلى العباسية فلم يقف ليلبغا المجنون على خبر، فقيل له إنه سار إلى قطيا، فنزل آقباي بالعساكر على الصالحية فلم يروا له أثراً، فعادوا إلى القاهرة من غير حرب وسار ابن سنقر وبيسق نحو بلاد السباخ فلم يجدا أحداً، فعادا إلى غيتا في يوم الجمعة وأقاما بها، فلم يشعرا إلا ويلبغا المجنون قد طرقهما وقبض عليهما، وأخذ خطهما بجملة من المال، فارتخت القاهرة لذلك ثم سار يلبغا بعد أيام، حتى نزل البئر البيضاء، فبعث له بيبرس أماناً، فقبض على من حضر من عند بيبرس وطوقه بالحديد، فاستعد الناس تلك الليلة بالقاهرة لقتاله، وباتوا على أهبة اللقاء وركب الأمراء بأسرهم من الغد إلى قبة النصر خارج القاهرة، وصفوا عسكرهم من الغد. وبعد ساعة أقبل يلبغا المجنون بجموعه، فواقعهم عند بساتين المطرية، ومعه نحو ثلاثمائة فارس، فيهم واحد من مماليك الوالد يسمى كزل بغا، وصدمهم بمن معه، وقصد القلب، وكان فيه سودون من زادة، وإينال حطب، ونحو ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية، فأطبق عليه الأمير بيبرس من الميمنة، ومعه يلبغا السالمي الأستادار، وساعدهما إينال باي بن قجماس بمن معه من الميسرة، فتقنطر سودون من زادة، وخرق يلبغا المجنون القلب في عشرين فارساً، وسار إلى جهة الجبل الأحمر، وانكسر سائر من كان معه من الأمراء وغيرهم، فتبعهم العسكر وفي ظنهم أن يلبغا المجنون فيهم، فأدركوا الأمير تمربغا المنجكي بالزيات، وقبضوا عليه وأخذ طلب

يلبغا المجنون من عند خليج الزعفران فوجدوا فيه ابن سنقر وبيسق الشيخي أمير آخور اللذين كان قبض عليهما يلبغا المجنون بالبئر البيضاء، فأطلقوهما، وعاد العسكر إلى تحت قلعة الجبل وسار يلبغا المجنون في عشرين فارساً مع ذيل الجبل إلى تجاه دار الضيافة؛ فلما رأى كثرة من اجتمع من العامة خاف منهم أن يرجموه، فقال لهم: " أنتم ترجموني بالحجارة وأنا أرجمكم بالذهب "، فدعوا له وتركوه. فسار من خلف القلعة ومضى إلى جهة الصعيد من غير أن يعرف الأمراء، وتوجه في نحو المائة فارس، وأخذ خيل والي الفيوم، وانضم عليه جماعة من العربان.

وأما السلطان الملك الناصر فإنه لما كسر تنم وقبض عليه وعلى جماعة من أصحابه وقيدهم، أرسل في الحال سعد الدين إبراهيم بن غراب إلى الشام لتحصيل الإقامات ثم ندب السلطان الأمير جكم من عوض رأس نوبة للتوجه إلى دمشق لتقييد الأمير أيتمش ورفقته وإيداعهم بسجن قلعة دمشق ثم خلع السلطان على الأمير سودون الدوادار المعروف بسيدي سودون باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير تنم الحسني. وسار جكم وفعل ما أمر به، ثم دخل بعده سودون نائب الشام إليها في ليلة الاثنين ثاني شعبان ومعه الأمير تنم نائب الشام وعشرة أمراء في القيود، فحبس الجميع بقلعة دمشق. ثم دخل السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه إلى دمشق من الغد في يوم الاثنين ثاني شعبان المذكور، فكان لدخوله يوم مشهود وأوقع ابن غراب الحوطة على حواشي تنم، وعلى الأمير علاء الدين ابن الطبلاوي.

ثم قدم على السلطان مملوك الأمير يلبغا المجنون من بلاد الصعيد بكتاب يلبغا المجنون يسأل في نيابة الوجه القبلي، فرسم السلطان أن يخرج إليه تجريدة من الأمراء وهم: الأمير نوروز الحافظي وهو مقدم العسكر المذكور، وبكتمر أمير سلاح، وآقباي الحاجب، وتمراز أمير مجلس، ويلبغا الناصري، وإينال باي بن قجماس، وأسنبغا الدوادار، وتتمة ثمانية عشر أميراً؛ وخرجوا من القاهرة في ثالث عشر شوال، ومعهم نحو خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية.

وفي صبيحة يوم خروج العسكر، ورد الخبر على السلطان بأن الأمير محمد بن عمر ابن عبد العزيز الهواري حارب يلبغا المجنون، وأنه قبض على أمير علي دواداره، وعلى نائب الوجه البحري، وعلى الأمير إياس الكمشبغاوي الخاصكي، وعلى جماعة من أصحابه، وأن يلبغا المجنون فر بعد أن انهزم ونزل إلى البحر بفرسه فغرق، وأنه أخرج من النيل ميتاً، فوجدوه قد أكل السمك لحم وجهه، فسر السلطان والأمراء بذلك، وخرج البريد في الوقت بعود الأمراء المجردين إلى القاهرة.

ثم في ثاني ذي القعدة ورد الخبر على السلطان من حلب بواقعة الأمير دمرداش

المحمدي نائب حلب مع السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد والعراق. وخبره أن القان غياث الدين أحمد بن أويس المذكور لما ملك بغداد بعد حضوره إلى الديار المصرية حسب ما تقدم ذكره في ترجمة الملك الظاهر برقوق الثانية، فأخذ السلطان أحمد المذكور يسير مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة، فركبوا عليه وقاتلوه، وكاتبوا صاحب شيراز في القدوم عليهم لأخذ بغداد. وخرج ابن أويس منهزماً إلى الأمير قرايوسف يستنجده، فركب معه قرايوسف وسار إلى بغداد، فخرج إليهما أهل بغداد، وقاتلوهما وكسروهما بعد حروب طويلة فانهزما إلى شاطىء الفرات، وبعثا يسألان الأمير دمرداش نائب حلب في نزولهما ببلاد الشام؛ ففي الحال استدعى دمرداش دقماق نائب حماة بعساكره إلى حلب فقدم عليه، وخرجا معاً في عسكر كبير وكبسا ابن أويس وقرايوسف، وهما في نحو سبعة آلاف فارس، فاقتتلا قتالاً شديداً في يوم الجمعة رابع وعشرين شوال، قتل فيه الأمير جانبك اليحيائي أتابك حلب، وأسر دقماق المحمدي نائب حماة، وانهزم دمرداش المحمدي نائب حلب، وفر فيمن بقي من عسكره إلى حلب، ثم لحقه دقماق بعد أن فدى نفسه بمائة ألف درهم وحضر الوقعة الأمير سودون من زادة المتوجه بالبشارة إلى البلاد الشامية بسلامة السلطان، وقدم مع ذلك كتب ابن أويس وقرايوسف على السلطان تتضمن: " إنا لم نجئ محاربين، وإنما جئنا مستجيرين مستنجيدين بسلطان مصر، على عوائد فضل أبيه الملك الظاهر - رحمه الله - فحاربنا هؤلاء بغتة، فدافعنا عن أنفسنا وإلا كنا هلكنا، فلم يلتفت أهل الدولة إلى كتبهما، وكتبوا إلى نائب الشام بمسيره بعساكر الشام وقتال بن أويس وقرايوسف والقبض عليهما وإرسالهما إلى مصر.

هذا وخوند شيرين والدة الملك الناصر فرج مستمرة السعي في الإفراج عن الوالد من سجنه بقلعة دمشق، إلى أن أجاب الأمراء إلى ذلك، وكتب بالإفراج عنه وعن الأمير آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب في يوم عرفة من محبسهما بقلعة دمشق، وحملا إلى القدس بطالين بها.

وبينما القوم في انتظار ما يرد عليهم من أمر السلطان أحمد بن أويس وقرايوسف، قدم عليهم الخبر من حلب بنزول تيمورلنك على مدينة سيواس وأنه حارب سليمان بن أبي يزيد بن عثمان، فانهزم سليمان المذكور إلى أبيه بمدينة برصا، ومعه قرايوسف، وأخذ تيمور سيواس وقتل من أهلها مقتلة عظيمة.

ثم وصلت بعد قليل رسل ابن عثمان إلى الديار المصرية وكتابه يتضمن اجتماع الكلمة، وأن يكون مع السلطان عوناً على قتال هذا الطاغية تيمورلنك، ليستريح الإسلام والمسلمون منه، وأخذ يتخضع ويلح في كتابه على اجتماع الكلمة، فلم يلتفت أحد إلى كلامه، وقال أمراء مصر يوم ذاك: " الآن صار صاحبنا وعندما مات

أستاذنا الملك الظاهر برقوق مشى على بلادنا، وأخذ ملطية من عملنا، فليس هو لنا بصاحب، يقاتل هو عن بلاده، ونحن نقاتل عن بلادنا ورعيتنا " وكتب له عن السلطان بمعنى هذا اللفظ. وكان ما قاله أبو يزيد بن عثمان من أكبر المصالح، فإنه حدثني فيما بعد الأمير أسنباي الظاهري الزردكاش، وكان أسره تيمور وحظي عنده وجعله زردكاشه، قال: قال لي تيمورلنك ما معناه: أنه لقي في عمره عساكر كثيرة وحاربها، لم ينظر فيها مثل عسكرين: عسكر مصر وعسكر ابن عثمان المذكور. غير أن عسكر مصر كان عسكراً عظيماً ليس له من يقوم بتدبيره لصغر سن الملك الناصر فرج، وعدم معرفة من كان حوله من الأمراء بالحروب، وعسكر ابن عثمان المذكور، غير أنه كان أبو يزيد صاحب رأي وتدبير وإقدام، لكنه لم يكن من العساكر من يقوم بنصرته.

ثم في خامس وعشرين المحرم من سنة ثلاث وثمانمائة ورد البريد على السلطان من حلب بأخذ تيمور ملطية، ثم وصل من الغد البريد أيضاً بوصول أوائل عسكر تيمورلنك إلى مدينة عينتاب، وفي الكتاب: أدركوا المسلمين وإلا هلكوا. فاستدعى السلطان بعد يومين الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وأعلموا أن تيمورلنك وصلت مقدمته إلى مرعش وعينتاب وكان القصد بهذا الجمع أخذ مال التجار إعانة على النفقة في العساكر، فقال القضاة: " أنتم أصحاب الأمر والنهي، وليس لكم فيه معارض وإن كان القصد الفتوى في ذلك فلا يجوز أخذ مال أحد يخاف على العساكر من الدعاء " فقيل لهم: نأخذ نصف الأوقاف من البلاد، نقطعها للأجناد البطالين، فإن الأجناد قلت لكثرة الأوقاف، فقال القضاة: وما قدر ذلك؛ ومتى اعتمدتم على البطالين في الحرب خيف أن يؤخذ الإسلام. وطال الكلام في ذلك حتى استقر الرأي على إرسال الأمير أسنبغا الدوادار لكشف الأخبار، وتجهيز عساكر الشام إلى جهة تيمورلنك. وسار أسنبغا في خامس صفر من سنة ثلاث المذكورة على البريد، ووقع التخذيل والتقاعد لاختلاف الكلمة وكثرة الآراء.

هذا وأهل البلاد الشامية في أمر لا يعلمه إلا الله تعالى، مما داخلهم من الرعب والخوف وقصد كل واحد أن يرحل من بلده، فمنعه من ذلك حاكم بلده، ووعده بحضور العساكر المصرية والدفع عنهم.

ثم بعد أيام قدم البريد بكتاب نائب حلب الأمير دمرداش المحمدي، وصحبته أيضاً كتاب أسنبغا الدوادار بأن تيمور نزل على قلعة بهسنا، بعد ما ملك مدينتها، وأنه مستمر على حصارها، وقد وصلت عساكره إلى عينتاب ووصل هذا الخبر إلى مصر في يوم رابع وعشرين صفر المذكور، فوقع الشروع عند ذلك في حركة سفر السلطان ثم علق جاليش السفر في يوم ثالث شهر ربيع الأول.

ثم اجتمع الأمراء والنواب على قتال تيمور، وتهيأ كل منهم للقائه بعد أن يئسوا من مجيء السلطان وعساكره، لعلمهم بعدم رأي مدبري مملكة مصر من الأمراء، ولصغر سن السلطان، وقد فات الأمر، وهم في قلة إلى الغاية بالنسبة إلى عساكر تيمور وجنوده وجموعه؛ وكان الأليق خروج السلطان من مصر بعساكره ووصوله إلى حلب قبل رحيل تيمور من سيواس، كما فعل الملك الظاهر برقوق - رحمه الله - فيما تقدم ذكره.

وبينما النواب في إصلاح شأنهم للقتال، نزل تيمور بعساكره على قرية حيلان، خارج حلب في يوم الخميس تاسع شهر ربيع الأول وأحاط بمدينة حلب وأصبح من الغد في يوم الجمعة، زحف على مدينة حلب وأحاط بسورها، فكانت بين أهل حلب وبينه في هذين اليومين حروب كثيرة، ومناوشات بالنشاب والنفوط والمكاحل. وركب أهل حلب أسوار المدينة وقاتلوه أشد قتال فلما أشرقت الشمس يوم السبت حادي عشره خرج نواب الشام بجميع عساكرها وعامة أهل حلب إلى ظاهر مدينة حلب، وعبؤوا الأطلاب والعساكر لقتال تيمور، ووقف سيدي سودون نائب دمشق بمماليكه، وعساكر دمشق في الميمنة، ووقف دمرداش نائب حلب بمماليكه، وعساكر حلب في الميسرة، ووقف بقية النواب في القلب، وقدموا أمامهم أهل حلب المشاة، فكانت هذه التعبية من أيشم التعابي، هذا مع ادعاء دمرداش بالمعرفة لتعبية العساكر. وحال وقوف الجميع في منازلهم، زحف تيمور بجيوش قد سدت الفضاء، وصدم عساكر حلب صدمة هائلة؛ فالتقاه النواب وثبتوا لصدمته أولاً، ثم انكسرت الميسرة، وثبت سودون نائب الشام في الميمنة، وأردفه شيخ نائب طرابلس وقاتلاه قتالاً عظيماً وبرز الأمير عز الدين أزدمر أخو الأتابك إينال اليوسفي وولده يشبك بن أزدمر في عدة من الفرسان، وقد بذلوا نفوسهم في سبيل الله، وقاتلوا قتالاً شديداً، وأبلوا بلاء عظيماً، وظهر عن أزدمر وولده يشبك من الشجاعة والإقدام ما لعله يذكر إلى يوم القيامة. ولم يزل أزدمر يقتحم القوم يكر فيهم إلى أن قتل وفقد خبره، فإنه لم يقتل إلا وهو في قلب العدو، وسقط ولده يشبك بين القتلى وقد أثخنت جراحاته، وصار في رأسه فقط زيادة على ثلاثين ضربة بالسيف وغيره، سوى ما في بدنه. ثم أخذ يشبك، وحمل إلى بين يدي تيمور، فلما رأى تيمور ما به من الجراح تعجب من إقدامه وثباته غاية العجب، وأمر بمداواته، فيما قيل ولم تمض غير ساعة حتى ولت العساكر الشامية منهزمة يريدون مدينة حلب، وركب أصحاب تيمور أقفيتهم، فهلك تحت حوافر الخيل من البشر ومن أهل حلب وغيرها من المشاة ما لا يدخل تحت حصر، فإن أهل حلب خرجوا منها لقتال تيمور، حتى النساء والصبيان، وازدحم الناس مع ذلك في دخولهم إلى أبواب المدينة، وداس بعضهم بعضاً، حتى صارت الرمم طول قامة، والناس

تمشي من فوقها. وقصد نواب المماليك الشامية قلعة حلب وطلعوا إليها، فدخلها معهم خلائق من الحلبيين وكانوا قبل ذلك قد نقلوا إليها سائر أموال الناس بحلب.

هذا وقد اقتحم عساكر تيمور مدينة حلب في الحال، وأشعلوا فيها النيران وأخذوا في الأسر والنهب والقتل، فهرب سائر نساء البلد والأطفال إلى جامع حلب وبقية المساجد، فمال أصحاب تيمور عليهن، وربطوهن بالحبال أسرى ثم وضعوا السيف في الأطفال، فقتلوهم بأسرهم وشرعوا في تلك الأفعال القبيحة على عادتهم، وصارت الأبكار تفتض من غير تستر، والمخدرات يفسق فيهن من غير احتشام، بل يأخذ التتري الواحدة ويعلوها في المسجد والجامع بحضرة الجم الغفير من أصحابه ومن أهل حلب، فيراها أبوها وأخوها وزوجها وولدها ولا يقدر أن يدفع عنها لقلة مقدرته، ولشغله بنفسه بما هو فيه من العقوبة والعذاب، ثم ينزل عنها الواحد فيقوم لها آخر وهي مكشوفة العورة.

ثم بذلوا السيف في عامة حلب وأجنادها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى، وجافت حلب، واستمر هذا من ضحوة نهار السبت إلى أثناء يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأول. هذا والقلعة في أشد ما يكون من الحصار والقتال، وقد نقبها عسكر تيمور من عدة أماكن، وردم خندقها ولم يبق إلا أن تؤخذ.

فتشاور النواب والأعيان الذين بالقلعة، فأجمعوا على طلب الأمان؛ فأرسلوا لتيمور بذلك، فطلب تيمور نزول بعض النواب إليه فنزل إليه دمرداش نائب حلب، فخلع عليه، ودفع إليه أماناً وخلعاً إلى النواب، وأرسل معه عدة وافرة من أصحابه إلى قلعة حلب، فطلعوا إليها وأخرجوا النواب منها بمن معهم من الأمراء والأعيان، وجعلوا كل اثنين في قيد، وأحضروا الجميع إلى تيمور وأوقفوا بين يديه فنظر إليهم طويلاً وهم وقوف بين يديه ورئيسهم سودون نائب الشام. ثم أخذ يقرعهم ويوبخهم ويلوم سودون نائب الشام في قتله لرسوله، ويكثر له من الوعيد. ثم دفع كل واحد منهم إلى من يحتفظ به.

ثم سيقت إليه نساء حلب سبايا وأحضرت إليه الأموال والجواهر والآلات الفاخرة، ففرقها على أمرائه وأخصائه. واستمر النهب والسبي والقتل بحلب في كل يوم، مع قطع الأشجار وهدم البيوت وإحراق المساجد وجافت حلب وظواهرها من القتلى، بحيث صارت الأرض منهم فراشاً، لا يجد الشخص مكاناً يمشي عليه إلا وتحت رجليه رمة قتيل. وعمل تيمور من رؤوس المسلمين منابر عدة مرتفعة من الأرض نحو عشرة أذرع في دور عشرين ذراعاً، حسب ما فيها من رؤوس بني آدم فكان زيادة على عشرين ألف رأس، ولما بنيت جعلت الوجوه بارزة يراها من يمر بها.

ثم رحل تيمور من حلب بعد أن أقام بها شهراً، وتركها خاوية على عروشها، خالية من سكانها وأنيسها، قد خربت وتعطلت من الأذان والصلوات، وأصبحت خراباً يباباً مظلمة بالحريق موحشة قفراً، لا يأويها إلا البوم والرخم. وسار تيمور قاصداً جهة دمشق، فمر بمدينة حماة، وكان أخذها ابنه ميران شاه.

وكان من خبرها: أن ميران شاه بن تيمور نزل عليها بكرة يوم الثلاثاء رابع عشر شهر ربيع الأول المذكور، وأحاط بها بعساكره، بعد أن نهب خارج مدينة حماة، وسبى النساء والأطفال، وأسر الرجال، واستمرت أيدي أصحابه يفعلون في النساء والأبكار تلك الأفعال القبيحة، وخربوا جميع ما هو خارج عن سور المدينة. هذا وقد استعد أهل حماة للقتال، وركب الناس سور المدينة، وامتنعوا من تسليم المدينة، وباتوا على ذلك فلما أصبحوا خادعهم ابن تيمور، ففتحوا له باباً من أبواب المدينة، ودخل ابن تيمور المذكور مدينة حماة ونادى بالأمان؛ فقدم الناس عليه، وقدموا له أنواع المطاعم، فقبلها منهم، وعزم أن يقيم رجلاً من أصحابه عليها، فقيل له: إن الأعيان قد خرجوا منها، فخرج إلى مخيمه وبات به.

ثم رحل يوم الخميس عنها ووعد الناس بخير؛ ومع ذلك فإن قلعة حماة لم يتسلمها، بل كانت امتنعت عليه.

فلما كان ليلة الجمعة نزل أهل القلعة وقتلوا من أصحاب ابن تيمور رجلين كان أقرهما بالمدينة، فلما بلغ ذلك ابن تيمور رجع إليها وآقتحم البلد، وأشعل النار بها، وأخذ أصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون حتى صارت كمدينة حلب غير أنه كان رفق بأهل حلب، فإنه كان سأل قضاة حلب لما صاروا في أسره عن قتاله، ومن الشهيد. فأجاب محب الدين محمد بن محمد بن الشحنة الحنفي بأن قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا، فقال: **{من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو الشهيد}**، فأعجبه ذلك، وحادثهم، فطلبوا منه أن يعفو عن أهل حلب، ولا يقتل أحداً؛ فأمنهم جميعاً وحلف لهم، فحصل بذلك بعض رفق بالنسبة إلى غيرهم.

وأما أهل دمشق، فإنه لما قدم عليهم الخبر بأخذ حلب، نودي في الناس بالرحيل من ظاهرها إلى داخل المدينة، والاستعداد لقتال العدو المخذول، فأخذوا في ذلك؛ فقدم عليهم المنهزمون من حماة، فعظم خوف أهلها، وهموا بالجلاء، فمنعوا من ذلك، ونودي: من سافر نهب، فعاد إليها من كان خرج منها وحصنت دمشق، ونصبت المجانيق على قلعة دمشق، ونصبت المكاحل على أسوار المدينة، واستعدوا للقتال استعداداً جيداً إلى الغاية.

ثم وصلت رسل تيمور إلى نائب الغيبة بدمشق ليتسلموا منه دمشق، فهم نائب الغيبة

بالفرار، فرده العامة رداً قبيحا وصاح الناس وأجمعوا على الرحيل عنها، واستغاث النساء والصبيان، وخرجت النساء حاسرات لا يعرفن أين يذهبن، حتى نادى نائب الغيبة بالاستعداد. وقدم الخبر في أثناء ذلك بمجيء السلطان إلى البلاد الشامية، ففتر عزم الناس عن الخروج من دمشق ما لم يحضر السلطان.

وأما أمراء الديار المصرية فإنه لما كان ثامن عشر ضهر ربيع الأول، وهو بعد أخذ تيمور لمدينة حلب بسبعة أيام، فرقت الجماكي على المماليك السلطانية بسبب السفر.

ثم في عشرينه نودي على أجناد الحلقة بالقاهرة أن يكونوا في يوم الأربعاء ثاني عشرينه في بيت الأمير يشبك الشعباني الدوادار للعرض عليه.

ثم في خامس وعشرينه ورد عليهم الخبر بأخذ تيمور مدينة حلب، وأنه يحاصر قلعتها، فكذبوا ذلك؛ وأمسك المخبر وحبس حتى يعاقب بعد ذلك على افترائه ووقع الشروع في النفقة، فأخذ كل مملوك ثلاثة آلاف وأربعمائة درهم.

ثم خرج الأمير سودون من زادة والأمير إينال حطب على الهجن في ليلة الأربعاء تاسع وعشرينه لكشف هذا الخبر.

ثم ركب الشيخ سراج الدين عمر البلقيني وقضاة القضاة والأمير آقباي الحاجب، ونودي بين أيديهم: الجهاد في سبيل الله تعالى لعدوكم الأكبر تيمورلنك، فإنه أخذ البلاد ووصل إلى حلب، وقتل الأطفال على صدور الأمهات، وأخرب الدور والجوامع والمساجد، وجعلها إسطبلات للمواشي؛ وإنه قاصدكم، يخرب بلادكم، ويقتل رجالكم؛ فاضطربت القاهرة لذلك، واشتد جزع الناس، وكثر بكاؤهم وصراخهم، وانطلقت الألسنة بالوقيعة في أعيان الدولة.

وأهل شهر ربيع الآخر، فلما كان ثالثه قدم الأمير أسنبغا الدوادار وأخبر بأخذ تيمور مدينة حلب وقلعتها بآتفاق دمرداش، وحكى ما نزل بأهل حلب من البلاء، وأنه قال لنائب الغيبة بدمشق يخفي بين الناس وبين الخروج من دمشق، فإن الأمر صعب، أو أن النائب لم يمكن أحداً من السير. فخرج السلطان الملك الناصر من يومه من القاهرة ونزل بالريدانية بأمرائه وعساكره أو الخليفة، والقضاة، وتعين الأمير تمراز الناصري أمير مجلس في نيابة الغيبة بالديار المصرية وأقام بمصر من الأمراء الأمير جكم من عوض في عدة أخر، وأقام الأمير تمراز يعرض أجناد الحلقة، وفي تحصيل ألف فرس وألف جمل، وإرسال ذلك مع من يقع عليه الاختيار من أجناد الحلقة للسفر.

ثم خرج الجاليش في بكرة يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر، وفيه من أكابر الأمراء مقدمي الألوف: الأتابك بيبرس، والأمير نوروز الحافظي رأس نوبة الأمراء،

والأمير بكتمر الركني أمير سلاح، وآقباي حاجب الحجاب، ويلبغا الناصري، وإينال باي بن قجماس، وعدة أخر من أمراء الطبلخانات والعشرات.

ثم رحل السلطان ببقية الأمراء والعساكر من الريدانية يريد جهة الشام لقتال تيمورلنك، وسار حتى نزل بغزة في يوم عشرين من الشهر، واستدعى بالوالد وآقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب كان من القدس، وأخلع على الوالد باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن سودون قريب الملك الظاهر برقوق بحكم أسره مع تيمور، وهذه ولاية الوالد على دمشق الأولى.

وأما الوالد فإنه قال للسلطان وللأمراء: عندي رأي أقوله، وفيه مصلحة للمسلمين وللسلطان، فقيل له: وما هو؟ فقال: الرأي أن السلطان لا يتحرك هو ولا عساكره من مدينة غزة، وأنا أتوجه إلى دمشق وأحرض أهلها على القتال، وأحصنها - وهي بلدة عظيمة لم تتكب من قديم الزمان، وبها ما يكفي أهلها من المؤونة سنين، وقد داخل أهلها أيضاً من الخوف ما لا مزيد عليه، فهم يقاتلون قتال الموت، وتيمور لا يقدر على أخذها مني بسرعة، وهو في عسكر كبير إلى الغاية لا يطيق المكث بهم بمكان واحد مدة طويلة، فإما أنه يدع دمشق ويتوجه نحو السلطان إلى غزة، فيتوغل في البلاد ويصير بين عسكرين، وأظنه لا يفعل ذلك، وإما أنه يعود إلى جهة بلاده كالمنهزم من عدم معرفة عساكره بالبلاد الشامية، وقلة ما في طريقه من الميرة لخراب البلاد، فيركب السلطان بعساكره المصرية والشامية أفقية التمرية إلى الفرات، فيظفر منهم بالغرض وزيادة؛ فاستصوب ذلك جميع الناس - حتى تيمور عندما بلغه ذلك بعد أخذه دمشق - وما بقي إلا أن يرسم بذلك، تكلم بعض جهال الأمراء مع بعض في السر ممن عنده كمين من الوالد من واقعة أيتمش وتنم، وقال: أتقتلون رفقته وتسلمونه الشام! والله ما قصده إلا أن يتوجه إلى دمشق، ويتفق مع تيمور ويعود يقاتلنا، حتى يأخذ منا ثأر رفقته. وكان نوروز الحافظي بإزاء الوالد، فلما سمع ذلك استحيا أن يبديه للوالد، فأشار إليه بالسكات والكف عن ذلك. وانفض المجلس، وخرج الوالد من الخدمة وأصلح شأنه، وتوجه إلى دمشق، فوجد الأمير دمرداش نائب حلب قد هرب من تيمور وقدم إلى دمشق، وقد جفل أهل دمشق لما بلغهم قرب تيمور إلى دمشق، فأخذ الوالد في إصلاح أهل دمشق، فوجد أهلها في غاية الاستعداد، وعزمهم قتال تيمور إلى أن يفنوا جميعاً، فتأسف عند ذلك على عدم قبول السلطان لرأيه، ولم يسعه إلا السكات.

ثم رحل جاليش السلطان من غزة في رابع عشرين شهر ربيع الآخر، ثم رحل السلطان ببقية عسكره من غزة في سادس عشرينه، وسار الجميع حتى وافوا دمشق.

وكان دخول السلطان دمشق في يوم الخميس سادس جمادى الأولى؛ وكان لدخوله يوم مهول من كثرة صراخ الناس وبكائهم والابتهال إلى الله بنصرته. وطلع السلطان إلى قلعة دمشق وأقام بها إلى يوم السبت ثامنه، فنزل من قلعة دمشق وخرج بعساكره إلى مخيمه عند قبة يلبغا ظاهر دمشق، وتهيأ للقاء تيمور هو بعساكره، وقد قصرت المماليك الظاهرية أرماحهم حتى يتمكنوا من طعن التمرية أولاً بأول لازدرائهم عساكر تيمور.

فلما كان وقت الظهر من اليوم المذكور وصل جاليش تيمور من جهة جبل الثلج في نحو الألف فارس، فبرز إليهم مائة فارس من عسكر السلطان وصدموهم صدمة واحدة، بددوا شملهم وكسروهم أقبح كسرة، وقتلوا منهم جماعة كبيرة وعادوا.

ثم حضر إلى طاعة السلطان جماعة من التمرية وأخبروا بنزول تيمور على البقاع العزيزي " فلتكونوا على حذر، فإن تيمور كثير الحيل والمكر " فاحترز القوم منه غاية الاحتراز.

ثم قدم على السلطان خمسة أمراء من أمراء طرابلس بكتاب أسندمر نائب الغيبة بطرابلس يتضمن أن الأمير أحمد بن رمضان أمير التركمان هو وابن صاحب الباز وأولاد شهري آتفقوا وساروا إلى حلب وأخذوها من التمرية، وقتلوا من أصحاب تيمور زيادة على ثلاثة آلاف فارس، وأن تيمور بعث عسكراً إلى طرابلس، فثار بهم أهل القرى وقتلوهم عن آخرهم بالحجارة لدخولهم بين جبلين، وأنه قد حضر من عسكر تيمور خمسة نفر، وأخبروا بأن نصف عسكر تيمور على نية المسير إلى طاعة السلطان - وكان ذلك من مكايد تيمور - ثم قال: وإن صاحب قبرص وصاحب الماغوصة وغيرهم وردت كتبهم بآنتظار الإذن لهم في تجهيز المراكب في البحر لقتال تيمور معاونة للسلطان، فلم يلتفت أحد لهذا الكتاب، وداموا على ما هم فيه من اختلاف الكلمة.

ثم في يوم السبت نزل تيمور بعساكره على قطنا، فملأت عساكره الأرض كثرة وركب طائفة منهم لكشف الخبر، فوجدوا السلطان والأمراء قد تهيؤوا للقتال. وصفت العساكر السلطانية، فبرز إليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة، وثبت كل من العسكرين ساعة، فكانت بينهم وقعة آنكسر فيها ميسرة السلطان، وآنهزم العسكر الغزاوي وغيرهم إلى ناحية حوران، وجرح جماعة. وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة ليأخذ فيها دمشق، فدفعته ميمنة السلطان بأسنان الرماح حتى أعادوه إلى موقفه.

ونزل كل من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور إلى السلطان في طلب الصلح

وإرسال أطلمش أحد أصحابه إليه، وأنه هو أيضاً يبعث من عنده من الأمراء المقبوض عليهم في وقعة حلب فأشار الوالد ودمرداش وقطلوبغا الكركي في قبول ذلك لما يعرفوا من اختلاف كلمتهم، لا لضعف عسكرهم، فلم يقبلوا وأبوا إلا القتال.

ثم أرسل تيمور رسولاً آخر في طلب الصلح، وكرر القول ثانياً، وظهر للأمراء ولجميع العساكر صحة مقالته، وأن ذلك على حقيقته، فأبى الأمراء ذلك، هذا والقتال مستمر بين الفريقين في كل يوم.

فلما كان ثاني عشر جمادى الآخرة آختفى من أمراء مصر والمماليك السلطانية جماعة، منهم الأمير سودون الطيار، وقاني باي العلائي رأس نوبة، وجمق، ومن الخاصكية يشبك العثماني وقمش الحافظي وبرسبغا الدوادار وطرباي في جماعة أخر، فوقع الاختلاف عند ذلك بين الأمراء، وعادوا إلى ما كانوا عليه من التشاحن في الوظائف والإقطاعات والتحكم في الدولة، وتركوا أمر تيمور كأنه لم يكن، وأخذوا في الكلام فيما بينهم بسبب من اختفى من الأمراء وغيرهم.

هذا وتيمور في غاية الاجتهاد في أخذ دمشق وفي عمل الحيلة في ذلك. ثم أعلم بما الأمراء فيه، فقوي أمره واجتهاده، بعد أن كان عزم على الرحيل، واستعد لذلك.

ثم أشيع بدمشق أن الأمراء الذين اختفوا توجهوا جميعاً إلى مصر ليسلطنوا الشيخ لاجين الجركسي أحد الأجناد البرانية، فعظم ذلك على مدبري المملكة لعدم رأيهم، وكان ذلك عندهم أهم من أمر تيمور، واتفقوا فيما بينهم على أخذ السلطان الملك الناصر جريدة، وعوده إلى الديار المصرية في الليل، ولم يعلموا بذلك إلا جماعة يسيرة ولم يكن أمر لاجين يستحق ذلك، بل كان تمراز نائب الغيبة بمصر يكفي السلطان أمرهم، " ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً " فلما كان آخر ليلة الجمعة حادي وعشرين جمادى الأولى ركب الأمراء وأخذوا السلطان الملك الناصر فرج على حين غفلة، وساروا به من غير أن يعلم العسكر به من على عقبة عمر يريدون الديار المصرية، وتركوا العساكر والرعية من المسلمين غنماً بلا راع وجدوا في السير ليلاً ونهاراً حتى وصلوا إلى مدينة صفد، فاستدعوا نائبها الأمير تمربغا المنجكي وأخذوه معهم، وتلاحق بهم كثير من أرباب الدولة وأمرائها، وسار الجميع حتى أدركوا الأمراء الذين ساروا إلى مصر - عليهم من الله ما يستحقوه - بمدينة غزة؛ فكلموهم فيما فعلوه، فاعتذروا بعذر غير مقبول في الدنيا والآخرة؛ فندم عند ذلك الأمراء على الخروج من دمشق حيث لا ينفع الندم، وقد تركوا دمشق أكلة لتيمور، وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها.

وأما بقية أمراء مصر وأعيانها من القضاة وغيرهم لما علموا بخروج السلطان من

دمشق خرجوا في الحال في إثره طوائف طوائف يريدون اللحاق بالسلطان، فأخذ غالبهم العشير، وسلبوهم، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً.

أخبرني غير واحد من أعيان المماليك الظاهرية قالوا: لما بلغنا خروج السلطان ركبنا في الحال، غير أننا لم يعوقنا عن اللحاق به إلا كثرة السلاح الملقى على الأرض بالطريق مما رمتها المماليك السلطانية ليخص ذلك عن خيولهم، فمن كان فرسه ناهضاً خرج، وإلا لحقه أصحاب تيمور وأسروه؛ فمن أسروه قاضي القضاة صدر الدين المناوي، ومات في الأسر حسبما يأتي ذكره في الوفيات. وتتابع دخول المنقطعين من المماليك السلطانية وغيرهم إلى القاهرة في أسوأ حال من المشي والعري والجوع، فرسم السلطان لكل من المماليك السلطانية ألف درهم وجامكية شهرين.

وأما الأمراء فإنهم أيضاً دخلوا إلى مصر وليس مع كل أمير سوى مملوك أو مملوكين، وقد تركوا أموالهم وخيولهم وأطلابهم وسائر ما معهم بدمشق، فإنهم خرجوا من دمشق بغتة بغير مواعدة لما بلغهم توجه السلطان من دمشق، وأخذ كل واحد ينجو بنفسه.

وأما العساكر الذين خلفوا بدمشق من أهل دمشق وغيرها، فإنه كان آجتمع بها خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين وأهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور.

ولما أصبحوا يوم الجمعة، وقد فقدوا السلطان والأمراء والنائب، غلقوا أبواب دمشق، وركبوا أسوار البلد، ونادوا بالجهاد، فتهيأ أهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره، فقاتله الدمشقيون من أعلى السور أشد قتال، وردوهم عن السور والخندق، وأسروا منهم جماعة ممن كان آقتحم باب دمشق، وأخذوا من خيولهم عدة كبيرة، وقتلوا منهم نحو الألف، وأدخلوا رؤوسهم إلى المدينة، وصار أمرهم في زيادة فأعيا تيمور أمرهم، وعلم أن الأمر يطول عليه، فأخذ في مخادعتهم، وعمل الحيلة في أخذ دمشق منهم.

وبينما أهل دمشق في أشد ما يكون من القتال والاجتهاد في تحصين بلدهم، قدم عليهم رجلان من أصحاب تيمور من تحت السور وصاحا من بعد: الأمير يريد الصلح، فابعثوا رجلاً عاقلاً حتى يحدثه الأمير في ذلك.

ولما سمع أهل دمشق كلام أصحاب تيمور في الصلح وقع آختيارهم في إرسال قاضي القضاة تقي الدين إبراهيم بن مفلح الحنبلي، فأرخي من سور دمشق إلى الأرض، وتوجه إلى تيمور وآجتمع به وعاد إلى دمشق وقد خدعه تيمور بتنميق كلامه، وتلطف معه في القول، وترفق له في الكلام، وقال له: هذه بلدة الأنبياء

والصحابة وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري؛ وقد كان الغرض في مجيئي إلى هنا، ولم يبق لي الآن غرض إلا العود، ولكن لا بد من أخذ عادتي من التقدمة من الطقزات. وكانت هذه عادته إذا أخذ مدينة صلحاً يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكول والمشروب والدواب والملابس والتحف تسعة؛ يسمون ذلك طقزات؛ والطقز باللغة التركية: تسعة، وهذه عادة ملوك التتار إلى يومنا هذا.

فلما صار ابن مفلح بدمشق شرع يخذل الناس عن القتال ويثني على تيمور ودينه وحسن اعتقاده ثناء عظيماً، ويكف أهل دمشق عن قتاله فمال معه طائفة من الناس، وخالفه طائفة أخرى وأبوا إلا قتاله، وباتوا ليلة السبت على ذلك وأصبحوا نهار السبت وقد غلب رأي ابن مفلح على من خالفه، وعزم على إتمام الصلح، ونادى في الناس: إنه من خالف ذلك قتل وهدر دمه؛ فكف الناس عن القتال. وفي الحال قدم رسول تيمور إلى مدينة دمشق في طلب الطقزات المذكورة، فبادر ابن مفلح، وآستدعى من القضاة والفقهاء والأعيان والتجار حمل ذلك كل أحد بحسب حاله؛ فشرعوا في ذلك حتى كمل، وساروا به إلى باب النصر ليخرجوا به إلى تيمور، فمنعهم نائب قلعة دمشق من ذلك، وهددهم بحريق المدينة عليهم إن فعلوا ذلك، فلم يلتفتوا إلى قوله، وقالوا له: " أنت احكم على قلعتك، ونحن نحكم على بلدنا "، وتركوا باب النصر وتوجهوا، وأخرجوا الطقزات المذكورة من السور، وتدلى ابن مفلح من السور أيضاً ومعه كثير من أعيان دمشق وغيرهم وساروا إلى مخيم تيمور، وباتوا به ليلة الأحد وعادوا بكرة الأحد، وقد استقر تيمور بجماعة منهم في عدة وظائف ما بين قضاة القضاة، والوزير، ومستخرج الأموال، ونحو ذلك، معهم فرمان من تيمور لهم، وهو ورقة فيها تسعة أسطر يتضمن أمان أهل دمشق على أنفسهم وأهليهم خاصة؛ فقرىء الفرمان المذكور على منبر جامع بني أمية بدمشق وفتح من أبواب دمشق باب الصغير فقط، وقدم أميرمن أمراء تيمور، جلس فيه ليحفظ البلد ممن يعبر إليها من عساكر تيمور فمشى ذلك على الشاميين وفرحوا به، وأكثر ابن مفلح ومن كان توجه معه من أعيان دمشق الثناء على تيمور، وبث محاسنه وفضائله، ودعا العامة لطاعته وموالاته، وحثهم بأسرهم على جمع المال الذي تقرر لتيمور عليهم، وهو ألف ألف دينار، وفرض ذلك على الناس كلهم، فقاموا به من غير مشقة لكثرة أموالهم. فلما كمل المال حمله ابن مفلح إلى تيمور ووضعه بين يديه فلما عاينه غضب غضباً شديداً، ولم يرض به، وأمر ابن مفلح ومن معه أن يخرجوا عنه، فأخرجوا من وجهه ووكل بهم جماعة حتى التزموا بحمل ألف تومان - والتومان

عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب إلا أن سعر الذهب عندهم يختلف وعلى كل حال فيكون جملة ذلك عشرة آلاف ألف دينار - فالتزموا بها وعادوا إلى البلد، وفرضوها ثانياً على الناس كلها عن أجرة أملاكهم ثلاثة أشهر وألزموا كل إنسان من ذكر وأنثى حر وعبد بعشرة دراهم وألزم مباشر كل وقف بحمل مال له جرم، فنزل بالناس بآستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم وعوقب كثير منهم بالضرب، فغلت الأسعار، وعز وجود الأقوات، وبلغ المد القمح - وهو أربعة أقداح - إلى أربعين درهماً فضة، وتعطلت صلاة الجمعة من دمشق فلم تقم بها جمعة إلا مرتين حتى دعي بها على منابر دمشق للسلطان محمود ولولي عهده ابن الأمير تيمورلنك وكان السلطان محمود مع تيمور آلة، كون عادتهم لا يتسلطن عليهم إلا من يكون من ذرية الملوك. انتهى.

ثم قدم شاه ملك أحد أمراء تيمور إلى مدينة دمشق على أنه نائبها من قبل تيمور.

ثم بعد جمعتين منعوا من إقامة الجمعة بدمشق لكثرة غلبة أصحاب تيمور بدمشق كل ذلك ونائب القلعة ممتنع بقلعة دمشق، وأعوان تيمور تحاصره أشد حصار، حتى سلمها بعد تسعة وعشرين يوماً وقد رمي عليها بمدافع ومكاحل لا تدخل تحت حصر. يكفيك أن التمرية من عظم ما أعياهم أمر قلعة دمشق بنوا تجاه القلعة قلعة من خشب؛ فعند فراغهم من بنائها وأرادوا طلوعها ليقاتلوا من أعلاها من هو بالقلعة، رمى أهل قلعة دمشق نفطاً فأحرقوها عن آخرها، فأنشأوا قلعة ثانية أعظم من الأولى وطلعوا عليها وقاتلوا أهل القلعة.

هذا وليس بالقلعة المذكورة من المقاتلة إلا نفر قليل دون الأربعين نفراً، وطال عليهم الأمر، ويئسوا من النجمة، وطلبوا الأمان، وسلموها بالأمان.

قلت: لا شلت يدهم! هؤلاء هم الرجال الشجعان. رحمهم الله تعالى.

ولما تكامل حصول المال الذي هو ألف تومان، أخذه ابن مفلح وحمله إلى تيمور؛ فقال تيمور لابن مفلح وأصحابه: " هذا المال بحسابنا إنما هو ثلاثة آلاف ألف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف ألف دينار، وظهر لي أنكم عجزتم ".

وكان تيمور لما اتفق أولاً مع ابن مفلح على ألف ألف دينار يكون ذلك على أهل دمشق خاصة، والذي تركته العساكر المصرية من السلاح والأموال يكون لتيمور فخرج إليه ابن مفلح بأموال أهل مصر جميعها فلما صارت كلها إليه وعلم أنه آستولى على أموال المصريين ألزمهم بإخراج أموال الذين فروا من دمشق، فسارعوا أيضاً إلى حمل ذلك كله، وتدافعوا عنده حتى خلص المال جميعه فلما كمل ذلك ألزمهم أن يخرجوا إليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها، فتتبعوا ذلك

وأخرجوه له حتى لم يبق بها من السلاح شيء فلما فرغ ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته، وألزمهم أن يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها، فكتبوا فلك ودفعوه إليه، ففرقه على أمرائه، وقسم البلد بينهم، فساروا إليها بمماليكهم وحواشيهم ونزل كل أمير في قسمه، وطلب من فيه، وطالبهم بالأموال، فحينئذ حل بأهل دمشق من البلاء مالا يوصف وأجرى عليهم أنواع العذاب من الضرب والعصر والإحراق بالنار، والتعليق منكوساً، وغم الأنف بخرقة فيها تراب ناعم، كلما تنفس دخل في أنفه حتى تكاد نفسه تزهق؛ فكان الرجل إذا أشرف على الهلاك يخلى عنه حتى يستريح، ثم تعاد عليه العقوبة أنواعاً، فكان المعاقب يحسد رفيقه الذي هلك تحت العقوبة على الموت، ويقول: ليتني أموت وأستريح مما أنا فيه، ومع هذا تؤخذ نساؤه وبناته وأولاده الذكور، وتقسم جميعهم على أصحاب ذلك الأمير، فيشاهد الرجل المعذب امرأته أو بنته وهي توطأ، وولده وهو يلاط به، فيصرخ هو من ألم العذاب، والبنت والولد يصرخان من إزالة البكارة واللواط، وكل ذلك من غير تستر في النهار بحضرة الملأ من الناس. ورأى أهل دمشق أنواعاً من العذاب لم يسمع بمثلها؛ منها أنهم كانوا يأخذون الرجل فتشد رأسه بحبل ويلوونه حتى يغوص في رأسه ومنهم من كان يضع الحبل بكتفي الرجل ويلويه بعصاه حتى تنخلع الكتفان ومنهم من كان يربط إبهام يدي المعذب من وراء ظهره ثم يلقيه على ظهره ويفر في منخريه الرماد مسحوقاً، فيقر على ما عنده شيئاً بعد شيء، حتى إذا فرغ ما عنده لا يصدقه صاحبه على ذلك، فلا يزال يكرر عليه العذاب حتى يموت، ويعاقب ميتاً مخافة أن يتماوت. ومنهم من كان يعلق المعذب بإبهام يديه في سقف الدار ويشعل النار تحته، ويطول تعليقه، فربما يسقط فيها، فيسحب من النار ويلقوه على الأرض حتى يفيق، ثم يعلقه ثانياً.

واستمر هذا البلاء والعذاب بأهل دمشق تسعة عشر يوماً، آخرها يوم الثلاثاء ثامن وعشرين شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة، فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى.

فلما علمت أمراء تيمور أنه لم يبق بالمدينة شيء خرجوا إلى تيمور، فسألهم:هل بقي لكم تعلق في دمشق؟ فقالوا: لا؛فأنعم عند ذلك بمدينة دمشق أتباع الأمراء، فدخلوها يوم الأربعاء آخر رجب، ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة، فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الحور وغيرها، وسبوا نساء دمشق بأجمعهن، وساقوا الأولاد والرجال، وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال.

ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد، وكان يوم عاصف الريح، فعم الحريق

جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد أن يرتفع إلى السحاب، وعملت النار في البلد ثلاثة أيام بلياليها آخرها يوم الجمعة.

وكان تيمور - لعنه الله - سار من دمشق في يوم السبت ثالث شهر شعبان بعد ما أقام على دمشق ثمانين يوماً، وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق، وزالت أبوابه وتفطر رخامه، ولم يبق غير جدره قائمة. وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت أطلالاً بالية ورسوماً خالية، ولم يبق بها دابة تدب، إلا أطفال يتجاوز عددهم آلاف، فيهم من مات، وفيهم من سيموت من الجوع.

وأما السلطان الملك الناصر فرج فإنه أقام بغزة ثلاثة أيام، وتوجه إلى الديار المصرية بعد ما قدم بين يديه آقبغا الفقيه أحد الدوادارية فقدم آقبغا، إلى القاهرة في يوم الاثنين ثاني جمادى الآخرة، وأعلم الأمير تمراز نائب الغيبة بوصول السلطان إلى غزة، فارتخت القاهرة، وكادت عقول الناس تزهق، وظن كل أحد أن السلطان قد انكسر من تيمور، وأن تيمور في أثره وأخذ كل أحد يبيع ما عنده ويستعد للهروب من مصر، وغلا أثمان ذوات الأربع حتى جاوز المثل أمثالاً.

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة المذكور قدم السلطان إلى قلعة الجبل ومعه الخليفة وأمراء الدولة ونواب البلاد الشامية، ونحو ألف مملوك من المماليك السلطانية، وقيل نحو الخمسمائة.

ثم جبى من سائر أملاك القاهرة ومصر وظواهرهما أجرة شهر، حتى إنه كان يقوم على الإنسان داره التي يسكنها، ويؤخذ منه أجرتها، وأخذ من الرزق، وهي الأراضي التي يأخذ مغلها قوم على سبيل البر والصدقة، عن كل فدان عشرة دراهم، وكان يوم ذاك أجرة الفدان من ثلاثين درهماً إلى ما دونها. قلت: أخذ نصف خراجها بدورة دارها وأخذ من الفدان القصب أو القلقاس أو النيلة من القنطار مائة درهم، وهي نحو أربعة دنانير، وجبى من البساتين عن كل فدان مائة درهم.

ثم استدعى أمناء الحكم والتجار وطلب منهم المال على سبيل القرض، وصار يكبس الفنادق والحواصل في الليل، فمن وجده حاضراً فتح مخزنه وأخذ نصف ما يجده فيه من النقد، وهي الذهب والفضة والفلوس، وإذا لم يجد صاحب المال أخذ جميع ما يجده من النقود وهي الذهب والفضة والفلوس، وأخذ جميع ما وجد من حواصل الأوقاف ومع ذلك فإن الصيرفي يأخذ عن كل مائة درهم تستخرج مما تقدم ذكره، ثلاثة دراهم، ويأخذ الرسول الذي يحضر المطلوب ستة دراهم، وإن كان نقيباً أخذ عشرة دراهم - قاله الشيخ تقي الدين المقريزي رحمه الله - قال: فاشتد ما بالناس،

وكثر دعاء الناس على السالمي.

ثم في خامس شعبان برز الأمراء المعينون للسفر لقتال تيمور بمن عين معهم من المماليك السلطانية وأجناد الحلقة إلى ظاهر القاهرة، وهم الذين كانوا بالقاهرة في غيبة السلطان بدمشق، وتقدم الجميع الأمير تمراز الناصري الظاهري أمير مجلس، والأمير آقباي من حسن شاه الظاهري حاجب الحجاب، ومن أمراء الطبلخانات: الأمير جرباش الشيخي، والأمير تمان تمر والأمير صوماي الحسني، وامتنع الأمير جكم من السفر.

وفي اليوم قدم الأمير شيخ المحمودي نائب طرابلس فاراً من أسر تيمور إلى الديار المصرية، وأخبر برحيل تيمور إلى بلاده، فرسم السلطان بإبطال السفر، ورجع كل أمير إلى داره من خارج القاهرة.

ثم في الغد قدم دقماق المحمدي نائب حماة فاراً أيضاً من تيمور.

ثم استدعى السلطان الأمراء بقلعة الجبل، وقال لهم: " قد كتبنا مناشير جماعة من الخاصكية بأمريات ببلاد الشام من أول شهر رمضان، فلم لا يسافرون؟ " وكل ذلك بتعليم يشبك الدوادار. فقال الأمير نوروز الحافظي: " ما في هذا مصلحة! إذا أرسل السلطان هؤلاء من يبقى عنده من مماليك أبيه الأعيان؟ " ووافق نوروزاً سودون المارداني. فقال السلطان: " من رد مرسومي فهو عدوي "، فسكت الأمراء. وأمر السلطان بالمناشير أن تبعث إلى أربابها. فلما نزلت إليهم امتنعوا من السفر، ومنهم من رد منشوره، فغضب السلطان. وأصبح الجماعة يوم الأحد، وقد اتفقوا مع لأمراء وساروا للأمير نوروز الحافظي وتحدثوا معه في عدم سفرهم، فاعتذر إليهم، وبعثهم لسودون المارداني رأس نوبة النوب فحدثوه في ذلك، وما زالوا به حتى ركب للأمير يشبك الشعباني الدوادار وحدثه في ألا يسافروا، فأغلظ يشبك في رد الجواب عليه، وهددهم بالتوسيط إن امتنعوا من السفر.

ثم أمره أن يطلع إلى السلطان ويسأله في ذلك، فطلع سودون المارداني إلى السلطان، وسأله في إعفائهم من السفر، وأعلمه أنه قد آتفق منهم نحو الألف تحت القلعة، وهم مجتمعون، فبعث السلطان إليهم بعض الخاصكية يقول لهم: " نحن ما خليناكم بلا رزق، بل عملناكم أمراء ". فما هو إلا أن نزل إليهم وكلمهم في ذلك، ثاروا عليه وسبوه ثم ضربوه حتى كاد يهلك. وبينما هم في ضربه، وإذا بالأمير قطلوبغا الحسني الكركي والأمير آقباي الكركي الخازندار نزلا من القلعة، فمال عليهم المماليك يضربونهم بالدبابيس إلى أن سقط قطفوبغا الكركي، وتكاثر عليه مماليكه وحملوه إلى بيته، ونجا آقباي الكركي الخازندار والتجأ إلى بيت الأمير يشبك الدوادار. وماجت

البلد وغلقت الأسواق، فنودي بعد العصر من اليوم المذكور بطلوع الأمراء والمماليك السلطانية في الغد إلى القلعة، ومن لم يطلع حل ماله ودمه للسلطان.

ثم قبض على سودون الفقيه، أحد دعاة الشيخ لاجين، وأخرج إلى الإسكندرية فسجن بها.

ثم قبض على جركس القاسمي المصارع من عند سودون الجلب، وقيده وبعث الثلاثة إلى الإسكندرية، والثلاثة أمراء ألوف من أصحاب يشبك. وسافروا إلى الإسكندرية في ليلة السبت رابع عشر شوال المذكور من سنة ثلاث وثمانمائة، وكتب جكم بإحضار سودون الفقيه من الإسكندرية - وسودون الفقيه هذا حمو الملك الظاهر ططر، وجد الملك الصالح محمد بن ططر الآتي ذكرهما. وطلب جكم الأمير يشبك الشعباني الدوادار فلم يقدر عليه إلى ليلة الاثنين سادس عشره، دل عليه أنه في تربة بالقرافة، فنزل إليه جكم؛ فلما أحيط بيشبك، وهو في التربة المذكورة، ألقى نفسه من مكان مرتفع، فشج جبينه، وقبض عليه الأمير جكم، وأحضره إلى بيت الأمير نوروز الحافظي، فقيد وسير من ليلته إلى الإسكندرية فسجن بها.

ثم ابتدأت الفتنة بين الأمراء، وطال الأمر، وانقطع جكم ونوروز عن الخدمة السلطانية أياماً كثيرة. ودخل شهر رمضان وانقضى، ولم يحضروا الهناء بالعيد، ولا صلوا صلاة العيد مع السلطان.

واستهل شوال فقويت فيه القالة بين الأمراء، وأرجف بوقوع الحرب غير مرة.

فلما كان يوم الجمعة ثاني شوال ركب الأمراء للحرب بالسلاح، ونزل الملك الناصر إلى الإسطبل السلطاني عند سودون طاز الأمير آخور، وركب الأمير نوروز وجكم وخصمهما سودون طاز، ووقع الحرب بينهم من بكرة النهار إلى العصر. فلما كان آخر النهار بعث السلطان بالخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة إلى الأمير نوروز في طلب الصلح فلم يجد نوروز بداً من الصلح وترك القتال، وخلع عنه آلة الحرب، فكف الأمير جكم أيضاً عن القتال. وكان ذلك مكيدة من سودون طاز، فإنه خاف أن يغلب ويسلمه السلطان إلى أخصامه، فتمت مكيدته بعد ما كاد أن يؤخذ، لقوة نوروز وجكم بمن معهما من الأمراء والخاصكية. وسكنت الفتنة، وبات الناس في أمن وسكون.

فلما كان يوم السبت ركب الخليفة والقضاة، وحلفوا الأمراء بالسمع ولطاعة للسلطان، فطلع الأمير نوروز إلى الخدمة في يوم الاثنين خامس شوال، وخلع عليه السلطان، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنبوش زركش.

ثم طلع الأمير جكم في ثامنه وهو خائف، ولم يطلع قاني باي ولا قرقماس؛ وطلبا فلم

يوجدا. فجهز إليهما خلعتان، على أن يكون قاني باي نائباً بحماة، وقرقماس حاجباً بدمشق. ونزل بغير خلعة، فكاد أن يهلك لكونه لم يخلع عليه. وعندما جلس بداره نزل إليه جرباش الشيخي رأس نوبة، وبشباي الحاجب الثاني ملفق. ثم ركب من ليلته بمن معه من الأمراء والمماليك، وأعيانهم: قمش الخاصكي الخازندار، ويشبك الساقي - وهو الذي صار أتابكاً في دولة الأشرف برسباي - ويشبك العثماني، وألطنبغا جاموس، وجانيباي الطيبي، وبرسبغا الدوادار، وطرباي الدوادار، وساروا الجميع إلى بركة الحبش خارج القاهرة، ولحق بهم في الحال قاني باي، وقرقماس الرماح، وأرغز، وقبجق، ونحو الخمسمائة مملوك من المماليك السلطانية، وغيرهم، وأقاموا جميعاً ببركة الحبش إلى ليلة السبت عاشر شوال، فأتاهم الأمير نوروز، وسودون من زادة رأس نوبة، وتمربغا المشطوب، في نحو الألفين من المماليك السلطانية وغيرهم، وأقاموا جميعاً ببركة الحبش إلى ليلة الأربعاء رابع عشر شوال، وأمرهم في زيادة وقوة، بمن يأتيهم أولاً بأول من الأمراء والمماليك السلطانية.

وفي الليلة المذكورة، دبر سودون طاز أمره وطلع إلى السلطان، وأنزله إلى الإسطبل السلطاني وبات به.

فلما أصبح بكرة يوم الأربعاء المذكور، ركب السلطان فيمن معه من الأمراء والخاصكية ونزل من القلعة، وسار نحو بركة الحبش من باب القرافة، بعد ما نادى في أمسه بالعرض. واجتمع إليه جميع عساكره، وقد صف سودون طاز عساكر السلطان، فلما قارب بركة الحبش، ركب نوروز وجكم بمن معهما أيضاً من الأمراء وأسر الأمير تمربغا المشطوب، وسودون من زاده، وعلي بن إينال، وأرغز، وهرب نوروز وجكم في عدة كثيرة من الأمراء والمماليك يريدون بلاد الصعيد، وعاد السلطان ومعه الأمراء وسودون طاز مظفراً منصوراً. وقيد سودون طاز الأمراء المأسورين، وبعثهم إلى الإسكندرية في ليلة السبت سابع عشره. وسار نوروز وجكم إلى أن وصلا إلى منيه القائد، ثم عادوا إلى طموه ونزلوا على ناحية منبابة، من بر الجيزة تجاه بولاق. وطلب الأمير يشبك الشعباني الدوادار من سجن الإسكندرية، فقدم يوم الاثنين تاسع عشره إلى قلعة الجبل، ومعه خلائق ممن خرج إلى لقائه، فقبل الأرض ونزل إلى داره، كل ذلك والأمراء بالجيزة.

فلما كان ليلة الثلاثاء عشرين شوال ركب الأمير نوروز نصف الليل وعدى النيل، وحضر إلى بيت الأمير الكبير بيبرس. وكان بيبرس، قد تحدث هو وإينال باي من قجماس مع السلطان في أمر نوروز حتى أمنه ووعده بنيابة دمشق، وكان ذلك أيضاً من مكر سودون طاز، فمشى ذلك على نوروز وحضر. فاختل عند ذلك أمر جكم، وتفرق منه من كان معه، وصار فريداً، فكتب إلى الأمير بيبرس الأتابك يستأذنه في

الحضور، فبعث إليه الأمير أزبك الأشقر رأس نوبة، والأمير بشباي الحاجب، وقدما به ليلة الأربعاء حادي وعشرين شوال إلى باب السلسلة من الإسطبل السلطاني، فتسلمه عدوه الأمير سودون طاز. وأصبح وقد حضر الأمير يشبك وسائر الأمراء للسلام عليه. فلما كانت ليلة الخميس ثاني وعشرينه، قيد وحمل إلى الإسكندرية، فسجن بها في البرج الذي كان سجن يشبك الدوادار فيه، وسكن يشبك مكانه وعلى إقطاعه بعدما حبس بالإسكندرية نحواً من سنة، واستقر دواداراً على عادته عوضاً عن جكم المذكور، على ما سيأتي ذكره.

وأما ما وقع بمصر فإنه لما حبس جكم من عوض بالإسكندرية، خلع على نوروز الحافظي في بيت بيبرس في يوم الأربعاء بنيابة دمشق، وتوجه إلى داره.

فلما كان من الغد في يوم الخميس قبض عليه وحمل إلى باب السلسلة فقيد به وحمل من ليلته، وهي ليلة الجمعة ثالث وعشرين شوال، إلى الإسكندرية، فسجن بها. وغضب لذلك الأميران بيبرس الأتابك، وإينال باي بن قجماس، وتركا طلوع الخدمة السلطانية أياماً. ثم أرضيا وطلعا إلى الخدمة. وراحت على نوروز. واختفى الأمير قاني باي العلائي وقرقماس الرماح، فلم يعرف خبرهما.

وأما أمر سودون طاز، فإنه أقام بداره إلى ليلة الاثنين ثالث عشر صفر من سنة خمس وثمانمائة المذكورة، فخرج من القاهرة بمماليكه وحواشيه إلى المرج والزيات بالقرب من خانقاه سرياقوس ليقيم هناك حتى يأتيه من وافقه ويركب على أخصامه ويقهرهم ويعود إلى وظيفته.

وكان من خبر سودون طاز أنه لما وقع بينه وبين يشبك أولاً، وصار من حزب نوروز وجكم، وقبضوا على يشبك وأصحابه من الأمراء وسجنوا بثغر الإسكندرية حسبما تقدم ذكره، صار تحكم مصر له، ويشاركه في ذلك نوروز وجكم فثقلا عليه. وأراد أن يستبد بالأمر والنهي وحده، فدبر في إخراجهما حتى تم له ذلك، ظناً منه أنه ينفرد بالأمر بعدهما. فانتدب إليه يشبك الشعباني الدوادار وأصحابه لما كان في نفوسهم منه قديماً بعد مجيئهم من حبس الإسكندرية، لأنه كان انحصر لخروجهم من الحبس.

وكان الملك الناصر يميل إلى يشبك وقطلوبغا الكركي، لأن كل واحد منهما كان لالته.

وكان الأمير آقباي طاز الكركي الخازندار يعادي سودون طاز قديماً ويقول طاز واحد يكفي بمصر، فأنا طاز وهو طاز ما تحملنا مصر. واتفقوا الجميع عليه، وظاهرهم السلطان في الباطن، فتلاشى أمر سودون طاز لذلك. وما زالوا في التدبير عليه حتى نزل من الإسطبل السلطاني، خوفاً على نفسه من كثرة جموع يشبك

الدوادار، وجرأة آقباي الخازندار الكركي؛ فعندما نزل ظن أن السلطان يقوم بناصره، فلم يلتفت السلطان إليه، وأقام هذه المدة من جملة الأمراء، فشق عليه عدم تحكمه في الدولة، وكفه عن الأمر والنهي، وكان اعتاد ذلك، فخرج لتأتيه المماليك السلطانية وغيرهم، فإنه كان له عليهم أياد وإحسان زائد عن الوصف - ليحارب بهم يشبك وطائفته، ويخرجهم من الديار المصرية أو يقبض عليهم كما فعل أولاً ويستبد بعدهم بالأمر، فجاء حساب الدهر غير حسابه، ولم يخرج إليه أحد غير أصحابه الذين خرجوا معه. وأخلع السلطان على الأمير إينال باي من قجماس بآستقراره عوضه أمير اخوراً كبيراً في يوم الاثنين عشرين صفر، وبعث السلطان إلى سودون طاز بالأمير قطلوبغا الكركي يأمره بالعود على إقطاعه وإمرته من غير إقامة فتنة، وإن أراد البلاد الشامية فله ما يختاره من النيابات بها، فآمتنع من ذلك وقال: لا بد من إخراج آقباي طاز الكركي الخازندار أولاً إلى بلاد الشام، فلم يوافق السلطان على إخراج آقباي، وبعث إليه ثانياً بالأمير بشباي الحاجب الثاني فلم يوافق، فبعث إليه مرة ثالثة فلم يرض، وأبى إلا ما قاله أولاً من إخراج آقباي. فلما يئس السلطان منه ركب بالعساكر من قلعة الجبل، ونزل جميع عساكره بالسلاح وآلة الحرب في يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأول، فلم يثبت سودون طاز، ورحل بمن معه وهم نحو الخمسمائة من المماليك السلطانية ومماليكه، وقد ظهر الأمير قاني باي العلائي ولحق به من نحو عشرة أيام، وصار من حزبه، فتبعه السلطان بعساكره وهو يظن أنه توجه إلى بلبيس.

وكان سودون عندما وصل إلى سرياقوس نزل من الخليج ومضى إلى جهة القاهرة وعبر من باب البحر بالمقس، وتوجه إلى الميدان. وهجم قاني باي العلائي في عدة كبيرة على الرميلة تحت القلعة ليأخذ باب السلسلة، فلم يقدر على ذلك. ومر السلطان الملك الناصر وهو سائق على طريق بلبيس، وتفرقت عنه - العساكر وتاهوا في عدة طرق.

وبينما السلطان في ذلك بلغه أن سودون طاز توجه إلى نحو القاهرة وهو يحاصر قلعة الجبل، فرجع بأمرائه مسرعاً يريد القلعة حتى وصل إليها بعد العصر، وقد بلغ منه ومن عساكره التعب مبلغاً عظيماً. ونزل السلطان بالمقعد المطل على الرميلة من الإسطبل بباب السلسلة، وندب الأمراء والمماليك لقتال سودون طاز، فقاتلوه في الأزقة طعناً بالرماح ساعة فلم يثبت، وانهزم بمن معه، وقد جرح من الفريقين جماعة كثيرة، وحال الليل بينهم. وتفرق أصحاب سودون طاز عنه، وتوجه كل واحد إلى داره، وبات السلطان ومن معه على تخوف. وأصبح من الغد فلم يظهر لسودون طاز ولا قاني باي خبر، ودام ذلك إلى الليل. فلم يشعر الأمير يشبك وهو جالس بداره بعد

عشاء الآخرة إلا وسودون طاز دخل عليه في ثلاثة أنفس، وترامى عليه، فقبله وبالغ في إكرامه وأنزله عنده. وأصبح يوم الجمعة كتب سودون طاز وصيته وأقام بدار يشبك إلى ليلة الأحد عاشره، فأنزل في حراقة وتوجه إلى ثغر دمياط بطالاً بغير قيد، ورتب له بها ما يكفيه، بعد أن أنعم عليه الأمير يشبك بألف دينار مكافأه له على ما كان سعى في أمره حتى أخرجه من حبس الإسكندرية وعوده إلى وظيفته وإبقائه في قيد الحياة، فإن جكم الدوادار كان أراد قتله عند ما ظفر به، وحبسه بالإسكندرية لولا سودون طاز هذا.

وأما قاني باي العلائي فإنه اختفى ثانياً فلم يعرف له خبر، وسكنت الفتنة.

فلما كان خامس وعشرين شهر ربيع الأول قدم الأمير سودون الحمزاوي نائب صفد إلى القاهرة باستدعاء من السلطان صحبة الطواشي عبد اللطيف اللالا بسعي الأمير آقباي طاز الكرير الخازندار في ذلك لصداقة كانت بينهما. وخلع السلطان على الأمير شيخ السليماني شاد الشراب خاناه، واستقر في نيابة صفد عوضاً عن سودون الحمزاوي، وأنعم السلطان على سودون الحمزاوي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالقاهرة.

وفي هذه الأيام ورد الخبر أن سودون طاز خرج من ثغر دمياط يوم الخميس رابع وعشرين جمادى الآخرة في طائفة، وأنه اجتمع عليه جماعة كبيرة من العربان والمماليك، فندب السلطان لقتاله الوالد والأمير تمراز الناصري أمير مجلس وسودون الحمزاوي في عدة أمراء أخر. وخرجوا من القاهرة، فبلغهم أنه عند الأمير علم الدين سليمان بن بقر بالشرقية جاءه ليساعده على غرضه، فعندما أتاه أرسل ابن بقر إلى الأمراء يعلمهم بأن سودون طاز عنده، فطرقه الأمراء وقبضوا عليه وأحضروه إلى القلعة في يوم الأربعاء سلخ جمادى الآخرة.

ثم أصبح السلطان في يوم الخميس أول شهر رجب، سفر خمسة من المماليك السلطانية ممن كان مع الأمير سودون طاز، أحدهم سودون الجلب الآتي ذكره في عدة أماكن، ثم جانبك القرماني حاجب حجاب زماننا هذا، فاجتمع المماليك السلطانية لإقامة الفتنة بسببهم. وتكلم الأمراء مع السلطان في ذلك، فخلى عنهم، وقيدوا وسجنوا بخزانة شمائل، ونفي سودون الجلب إلى قبرس بلاد الفرنج من الإسكندرية.

ثم في ثالث شهر رجب حمل سودون طاز مقيداً إلى الإسكندرية، وسجن بها عند غريمه الأمير جكم من عوض الدوادار.

ثم حول جكم بعد مدة إلى قلعة المرقب عند غريمه سودون طاز.

وأما قاني باي العلائي فإنه اختفى ثانياً فلم يعرف له خبر، وسكنت الفتنة.

فلما كان خامس وعشرين شهر ربيع الأول قدم الأمير سودون الحمزاوي نائب صفد

إلى القاهرة باستدعاء من السلطان صحبة الطواشي عبد اللطيف اللالا بسعي الأمير آقباي طاز الكرير الخازندار في ذلك لصداقة كانت بينهما. وخلع السلطان على الأمير شيخ السليماني شاد الشراب خاناه، واستقر في نيابة صفد عوضاً عن سودون الحمزاوي، وأنعم السلطان على سودون الحمزاوي بإمرة مائة وتقدمة ألف بالقاهرة.

وفي هذا الشهر ورد الخبر من دمشق أنه أقيمت الجمعة بالجامع الأموي وهو خراب، وكان بطل منه صلاة الجمعة من بعد كائنة تيمور، وأن الأمير شيخا المحمودي نائب دمشق سكن بدار السعادة بعد أن عمرت، وكانت حرقت أيضاً في نوبة تيمور، وأن سعر الذهب زاد عن الحد، فأجيب بأن الذهب قد زاد سعره بمصر أيضاً، حتى صار سعر المثقال الهرجة بخمسة وستين درهماً، والدينار المشخص بستين درهماً.

ثم حول جكم بعد مدة إلى قلعة المرقب عند غريمه سودون طاز.

ثم في آخر جمادى الآخرة رسم بالقبض على السلطان أحمد بن أويس، وقرايوسف بدمشق، فقبض عليهما الأمير شيخ وسجنهما.

ثم في يوم الاثنين ثامن عشر شهر رجب قدم إلى القاهرة سيف الأمير آقبغا الجمالي الأطروش نائب حلب بعد موته، فرسم السلطان بانتقال الأمير دمرداش المحمدي نائب طرابلس إلى نيابة حلب، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير سودون المحمدي المعروف بتلي.

وفي أثناء ذلك ورد الخبر بأن الأمير دقماق نزل على حلب ومعه جماعة من التركمان، فيهم الأمير علي بك بن دلغادر، وفر منه أمراء حلب، فملك دقماق حلب. ورسم السلطان بانتقال الأمير شيخ السليماني المسرطن نائب صفد إلى نيابة طرابلس، وحمل إليه التقليد والتشريف الأمير آقبردي، ورسم باستقرار الأمير بكتمر جلق أحد أمراء دمشق في نيابة صفد عوضاً عن شيخ السليماني المسرطن. وخرج الأمير إينال المأمور بقتل الأمراء المسجونين بالبلاد الشامية، وقبل وصول إينال المذكور أفرج الأمير دمرداش نائب طرابلس عن الأمير جكم وعن سودون طاز، وكانا ببعض حصون طرابلس وسار بهما إلى حلب؛ وهذا أول أمر جكم وظهوره بالبلاد الشامية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ثم في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار الثاني، وعلى الأمير جانم من حسن شاه، وعلى الأمير سودون المحمدي تلي، وحملوا إلى سجن الإسكندرية، واستقر الأمير قرقماس أحد أمراء الطبلخانات دواداراً ثانياً عوضاً عن بيبرس المذكور.

وأما خبر جكم مع دمرداش وكيف ملك منه حلب، وقد قدمنا ذكر ذلك مجملاً من غير

تفصيل، فإن جكم لما أطلقه دمرداش وأخذه صحبته إلى حلب، وقاتل معه التركمان، ووقع لهما أمور حاصلها أن جكم تخوف من دمرداش وفر منه إلى جهة التركمان، وانضم عليه سودون الجلب بعد مجيئه من بلاد الإفرنج، والأمير جمق نائب الكرك كان، وغيره من المخامرين. ثم وافقه ابن صاحب الباز أمير التركمان بتركمانه، فعاد جكم وقاتل دمرداش، ووقع بينهما أمور وحروب إلى أن ملك جكم طرابلس. وأرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام والأمير يشبك ورفقته يستميلونه ليقدم عليهم دمشق ويوافقهم على قتال المصريين، فأجابهم إلى ذلك، وخرج من طرابلس كأنه يريد التوجه إلى دمشق.

فلما وصل حماة أخذ نائبها الأمير علان بمن انضم عليه وتوجه بهم إلى دمرداش وقاتله حتى هزمه وأخذ منه مدينة حلب. وفر دمرداش بجماعة من أمراء حلب إلى بلاد التركمان.

ولما ملك جكم حلب أنعم بموجود دمرداش على علان نائب حماة، وأقره على نيابة حماة على عادته، فصار مع جكم حلب وطرابلس وحماة. وأخذ يسير مع الرعية أحسن سيرة، فأحبه الناس وجرى على ألسنتهم: " جكم حكم، وما ظلم ". واستمر جكم بحلب إلى أن أرسل إليه الأمير شيخ نائب الشام الأمير سودون الحمزاوي، والأمير سودون الظريف، فتوجها إلى جكم على أنه بطرابلس. ثم أرسل الأمير شيخ الأمير شرف الدين موسى الهيدباني حاجب دمشق إلى حلب رسولاً إلى دمرداش يستدعيه إلى موافقته هو ومن عنده من الأمراء. وكان قد ورد كتاب دمرداش على شيخ ويشبك أنه معهما، ومتى دعواه حضر إليهما. فهذا ما كان من أمر جكم، وبقية خبر قدومه يأتي إن شاء الله تعالى فيما بعد.

ثم إن الأمير شيخاً نائب الشام عين جماعة من الأمراء ليتوجهوا لأخذ صفد، فخرج الأمير تمراز الناصري أمير سلاح، والأمير جاركس القاسمي المصارع، والأمير سودون الظريف بعد عوده من طرابلس، وساروا بعساكرهم لأخذ صفد من بكتمر جلق، بحيلة أنهم يسيرون إلى جشار الأمير بكتمر جلق كأنهم يأخذوه، فإذا أقبل إليهم بكتمر ليدفعهم عن جشاره، قاطعوا عليه وأخفوا مدينة صفد منه، فتيقظ بكتمر لذلك وترك لهم الجشار، فساقوه من غير أن يتحرك بكتمر من المدينة، وعادوا إلى دمشق وأخبروا الأمراء بذلك. فاستعد شيخ لأخذ صفد، وعمل ثلاثين مدفعاً وعدة مكاحل ومنجنيقين، وجمع الحجارين والنقابين وآلات الحصار. وخرج من دمشق يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان ومعه جمع كبير من عسكر مصر والشام من جملتهم قرايوسف بجماعته، وجماعة السلطان أحمد بن أويس متملك بغداد،، وجماعة من التركمان الجشارية، وأحمد بن بشارة بعشرانة وعيسى بن الكابولي بعشرانه. ونادى شيخ

بدمشق قبل خروجه منها: " من أراد النهب والكسب فعليه بمصر " فاجتمع عليه خلائق، وسار معه مائه جمل تحمل مكاحل ومدافع وآلات الحصار. وولي الأمير ألطنبغا العثماني نيابة صفد كما كان أولاً، وسار شيخ بمن معه من العساكر حتى وافى مدينة صفد، فأرسل شيخ بالأمير علان إلى بكتمر جلق يكلمه في تسليم مدينة صفد، فلم يذعن إليه بكتمر وأبى إلا قتاله، وقال: " ما له عندي إلا السيف "؛ فحينئذ ركب شيخ ويشبك بمن معهما وأحاطا بقلعة صفد، وحصراها من جميع جهاتها، وقد حصنها بكتمر وشحنها بالرجال، وقام يقاتل شيخاً أتم قتال. فاستمر الحرب بينهم أياماً كثيرة جرح فيها من أصحاب شيخ نحو ثلاثمائة رجل، وقتل أزيد من خمسين نفساً.

وبينما هم في قتال صفد إذ ورد عليهم الخبر بقدوم جكم إلى دمشق، ففرحوا بذلك، ولم يمكنهم العود إلى دمشق إلا عن فيصل من أمر صفد.

وكان خروج جكم من حلب في حادي عشر شهر رمضان، وسار حتى قدم دمشق، وقد حضر إليه شاهين دوادار الأمير شيخ يستدعيه، فإن شيخاً كان أرسله إليه قبل خروجه إلى صفد بعد عود سودون الحمزاوي وسودون الظريف من طرابلس. وقبل خروج جكم من حلب سلم قلعتها إلى الأمير شرف الدين موسى بن يلدق، وعمل حجاباً وأرباب وظائف، وعزم على أنه يتسلطن ويتلقب بالملك العادل. ثم بدا له تأخير ذلك، وقدم دمشق لمرافقة شيخ ويشبك ومن معهما. ووصل إلى دمشق ومعه الأمير قاني باي وتغري بردي القجقاري وجماعة كبيرة، فخرج من بدمشق من أمراء مصر والشام جميعهم إلى لقائه، وأنزل بالميدان، فسلم جكم على الأمراء سلام السلاطين على الأمراء، وأخذ يترفع عليهم ترفعاً زائداً أوجب تنكرهم عليه في الباطن، إلا أن الضرورة قادتهم إلى الانقياد إليه، فأكرموه على رغمهم، وأنزلوه وكلموه في القيام معهم، فأجاب. وأمرهم أن يكتبوا ليشبك وشيخ بقدومه إلى دمشق، فكتبوا إلى يشبك وشيخ بذلك. وأخذ جكم في إظهار شعار السلطنة مع خدمه وأصحابه، فشق على الأمراء ذلك، وما زالوا به بالملاطفة حتى ترك ذلك إلى وقته. وأقام معهم بدمشق إلى ليلة الأحد سابع عشرين شهر رمضان من سنة سبع وثمانمائة المذكورة، فخرج من دمشق وتوجه مخفاً إلى طرابلس ليجمع عساكر طرابلس، وترك ثقله بدمشق. وورد عليه الخبر أن دمرداش لما فر منه ركب البحر وتوجه إلى دمياط.

ثم قدم إلى مصر في رابع عشرين شهر رمضان المذكور فهدأ سر جكم بذلك عن أمر حلب.

وأما يشبك وشيخ بمن معهما من الأمراء والعساكر لما طال عليهم القتال على مدينة

صفد، وعجزوا عن أخذها، تكلموا في الصلح مع بكتمر حتى تم لهم ذلك. واصطلحوا وتحالفوا، ونزل إليهم بكتمر جلق في يوم الاثنين حادي عشرين شهر رمضان، بعد أن كانت مدة القتال بينهم على صفد اثنين وعشرين يوماً.

وعاد شيخ إلى دمشق وهو مجروح، ويشبك الشعباني وهو مجروح أيضاً، وجاركس المصارع وهو مجروح. وأما عساكرهم فغالبهم أثخنته الجراح. فعندما أقاموا بدمشق قدم عليهم الأمير جكم من طرابلس، بعد أن أرسلوا يستحثونه على سرعة المجيء إليهم غير مرة، فخرجوا لتلقيه، وسلموا عليه، وعادوا به إلى دمشق وهما في غاية الحنق من جكم؛ وهو أنه لما وافاهما جكم ترجل إليه الأمير يشبك عن فرسه إلى الأرض، وسلم عليه، فلم يعبأ به جكم، ولا التفت إليه، لأنه كان غريمه فيما تقدم ذكره، فشق ذلك على الأمير شيخ، ولام يشبك على ترجله.

ثم عتب شيخ جكم على ما وقع منه في عدم إنصاف يشبك. ثم نزل جكم بالميدان، وجلس في صدر المجلس، وجلس يشبك عن يمينه، وشيخ عن يساره، فكاد شيخ ويشبك أن يهلكا في الباطن، ولم يسعهما إلا الإذعان لتمام أمرهما.

ثم أمرهم جكم ألا يفعلوا شيئاً إلا بمشاورته، فاتفقوا على منع الدعاء للسلطان الملك الناصري بمنابر دمشق، فوقع ذلك، وذكر الخطباء اسم الخليفة في الخطبة فقط.

وكان الأمير شيخ قبل قدوم جكم إلى دمشق أفرج عن السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد من سجن دمشق، وأنعم عليه بمائة ألف درهم فضة وثلاثمائة فرس. وأنعم أيضاً على قرايوسف بمائة ألف درهم وثلاثمائة فرس، وأخرج عدة كبيرة من أمراء مصر إلى جهة غزة بعد أن حمل إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة، وهم: الأمير تمراز الناصري، وابنه الأمير سودون بقجة، وسودون الحمزاوي، ويلبغا الناصري، وإينال حطب، وجاركس المصارع، بعد أن حمل شيخ أيضاً إلى كل منهم مائة ألف درهم فضة. ولم يتأخر بدمشق من أعيان الأمراء إلا الأمير يشبك الدوادار والأمير شيخ نائب الشام، وأقاما في انتظار الأمير جكم حتى قدم عليهما جكم حسبما تقدم ذكره. وبعد قدوم جكم أجمعوا على المسير إلى جهة مصر، وبرزوا بالخيام إلى قبة يلبغا في يوم رابع عشر ذي القعدة.

ثم خرج الأمير شيخ والأمير يشبك وقرايوسف من دمشق في يوم عشرين ذي القعدة وساروا إلى الخربة فافترقوا منها. فتوجه يشبك وقرايوسف إلى صفد لقتال نائبها بكتمر جلق ثانياً، فإنه بلغهم أنه مستمر على طاعة السلطان. وتوجه شيخ إلى قلعة الصبيبة وبها ذخائره وحريمه.

فلما بلغ بكتمر جلق مجيء العسكر لقتاله استعد هو أيضاً لقتالهم، وقد قوي قلبه، فإنه

بلغه أن علان نائب حماة دخل في طاعة السلطان وخالف الأمراء، وكذلك شيخ السليماني المسرطن نائب طرابلس، فإنه دخل في طاعة السلطان، واستولى على طرابلس واستفحل أمره، وأن الأمير شيخاً السليماني نائب طرابلس بعد أخذ طرابلس قدم عليه البريد بنيابة قاني باي على طرابلس، فخرج منها شيخ السليماني إلى حماة، فأشار عليه علان نائب حماة أنه لا يسلم طرابلس لقاني باي حتى يراجع السلطان ويعلمه بما يترتب على عزله من الفساد، فعاد شيخ إلى طرابلس. فبهذه الأخبار ثبت بكتمر جلق على طاعة السلطان وقتال الأمراء.

ولما قارب يشبك وقرايوسف صفد أخرج بكتمر كشافته بين يديه، ونزل جسر يعقوب، فالتقى كشافته بأصحاب يشبك وقرايوسف، فاقتتلوا قتالاً شديداً ظهر فيه كشافة صفد، وأخذوا من الشاميين عشرة أفراس، فعاد يشبك وقرايوسف إلى طبرية، ونزلوا بها حتى قدم عليهم الأمير شيخ نائب الشام.

ثم ساروا جميعا إلى غزة، وقد تقدمهم الأمير جكم ونزل على الرملة. وأما أمراء الديار المصرية فإن السلطان الملك الناصر لما تحقق اتفاق الأمير شيخ المحمودي نائب الشام مع يشبك ورفقته، وبلغه أخبارهم مفصلاً، استشار الأمراء في أمرهم، فأجمعوا على خروج السلطان لقتالهم. فتجهز السلطان، وعلق جاليش السفر في ثاني ذي القعدة بالطبلخاناه السلطانية على العادة.

ثم ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه وعساكره في يوم السبت ثامن ذي الحجة من سنة سبع وثمانمائة، وسار حتى نزل بالريدانية خارج القاهرة، وبات بها، وقد أقام من الأمراء بباب السلسلة بكتمر الركني رأس نوبة الأمراء وجماعة بالقاهرة.

وبينما السلطان بالريدانية ورد عليه الخبر بنزول الأمراء بالصالحية في يوم التروية، وأخذوا ما كان بها من الإقامات السلطانية، فرحل السلطان من الريدانية في يوم الأحد تاسعه، ونزل العكرشة، ثم سار منها ليلاً، وأصبح ببلبيس وضحى بها، وأقام عليها يومي الاثنين والثلاثاء. ورحل من مدينة بلبيس بكرة نهار الأربعاء ونزل على منزلة السعيدية، فأتاه كتب الأمراء الثلاثة، وهم: جكم، وشيخ ويشبك بأن سبب حركتهم ما جرى بين الأمير يشبك وبين إينال باي بن قجماس وطلبوا منه أن يخرج إينال باي المذكور ودمرداش المحمدي نائب حلب من مصر وأن يعطي لكل من يشبك وجكم وشيخ ومن معهم بمصر والشام ما يليق بهم النيابات والإقطاعات لتخمد هذه الفتنة باستمرارهم على الطاعة، وتحقن الدماء ويعمر بذلك ملك السلطان، وإن لم يكن ذلك تلفت أرواح كثيرة، وخربت بيوت عديدة.

وكانوا أرادوا هذه المكاتبة من الشام، ولكن خشوا أن يظن بهم العجز، فإنه ما منهم

إلا من جعل الموت نصب عينيه، فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، ولم يأمر بكتابة جواب لهم. وكان ذلك مكيدة من الأمراء حتى كبسوا على السلطان في ليلة الخميس وهم في نحو ثلاثة آلاف فارس وأربعمائة تركماني من أصحاب قرايوسف. وبينما السلطان على منزلة السعيدية ورد الخبر على الوالد من بعض أصحابه ممن هو صحبة الأمراء، أن الأمراء اتفقوا على تبييت السلطان والكبس عليه في هذه الليلة؛ فأعلم الوالد السلطان، وحرضه على الركوب بعساكره من وقته، فمال إليه السلطان. فأخذ الأمير بيغوت وغيره يستبعد ذلك؛ ولا زالوا بالسلطان حتى فتر عزمه عن الركوب، فعاد الوالد إلى وطاقه، وأمر جميع مماليكه بالركوب بآلة الحرب.

وبينما هو في ذلك إذ ثارت غبرة عظيمة وهجة في الناس. وقبل أن يسأل السلطان عن الخبر طرقه الأمراء على حين غفلة، فركب السلطان في الليل بمن معه، واقتتل الفريقان قتالاً شديداً من بعد عشاء الآخرة إلى بعد نصف الليل، جرح فيه جماعة كثيرة من الطائفتين، وقتل الأمير صرق الظاهري صبراً بين يدي الأمير شيخ المحمودي نائب الشام، لأن السلطان كان ولاه عوضه نائب الشام، وانهزم السلطان وركب وساق عائداً على الهجن إلى جهة الديار المصرية، ومعه سودون الطيار وسودون الأشقر، وساقوا إلى أن وصلوا إلى القلعة. وتفرقت العساكر السلطانية، وانهزموا، وتركوا أثقالهم وخيامهم، وسائر أموالهم غنمها الشاميون. ووقع في قبضة الأمراء من المصريين الخليفة والقضاة، والأمير شاهين الأفرم، والأمير خير بك نائب غزة، ونحو ثلاثمائة مملوك من المماليك السلطانية وغيرهم.

وقدم المنهزمون من السلطانية إلى القاهرة في يوم الخميس ثالث عشر ذي الحجة. ولم يحضر السلطان ولا الأمراء الكبار. فكثر الإرجاف وماج الناس، وانتهبت عدة حوانيت، حتى قدم السلطان قريب العصر ومعه الأمراء، وقد قاسى من العطش والتعب ما لا يوصف. فسر الناس بقدومه، وطلع إليه الأمراء والعساكر وباتوا تلك الليلة. وأصبح السلطان يتهيأ للقاء الأمراء، وقبض على يلبغا السالمي وسلمه لجمال الدين البيري الأستادار، فعاقبه وصادره. وشرع أمر السلطان كل يوم في زيادة لعدم قدوم العسكر الشامي إلى القاهرة.

فلما كان آخر نهار الأحد نزلت الأمراء بالريدانية خارج القاهرة.

ثم أصبحوا في بكرة نهار الاثنين ركبوا وزحفوا على القاهرة، فأغلقت أبواب المدينة وتعطلت الأسواق عن المعايش. ومشوا حتى وصلوا قريباً من دار الضيافة بالقرب من قلعة الجبل، فقاتلهم المماليك السلطانية من بكرة نهار الاثنين المذكور إلى بعد الظهر. فلما أذن الظهر أقبل جماعة كثيرة من الأمراء إلى جهة السلطان طائعين:

منهم الأمير يلبغا الناصري، وآسنباي أمير ميسرة الشام المعروف بالتركماني، وسودون اليوسفي، وإينال حطب، وجمق، فلما وقع ذلك اختل أمر الأمراء، وعزم جماعة منهم على العود إلى البلاد الشامية فحمل ما خف من أثقاله وعاد وفعل ذلك جماعة كبيرة بعد أن أفرج شيخ عن الخليفة والقضاة وغيرهم. فتسلل عند ذلك الأمير يشبك الشعباني الدوادار، والأمير تمراز الناصري أمير سلاح، والأمير جاركس القاسمي المصارع، والأمير قطلوبغا الكركي في جماعة أخر، واختفوا بالقاهرة وظواهرها.

فلما وقع ذلك ولى الأمير جكم والأمير شيخ والأمير طولو وقرايوسف في طائفة يسيرة، وقصدوا البلاد الشامية، فلم يتبعهم أحد من عسكر السلطان.

ثم نادى السلطان بالأمان لكل أحد، فطلع إليه جماعة، فقبض عليهم وقيدهم وبعث بهم إلى سجن الإسكندرية، وخمدت الفتنة. وأجلت هذه الواقعة عن إتلاف مال كثير من العسكرين، ذهب فيها من الخيل والبغال والجمال والسلاح والثياب ما لا يدخل تحت حصر من غير فائدة.

ثم أخذ الملك الناصر في تمهيد أمور دولته وإصلاح الدولة والمفرد.

ثم قدم رسل الأمير شيخ نائب الشام إلى السلطان بديار مصر، وهم شهاب الدين أحمد بن حجي أحد خلفاء الحكم بدمشق، والشريف ناصر الدين محمد بن علي نقيب الأشراف، والشيخ المعتقد محمد بن قديدار، والأمير يلبغا المنجكي، ومعهم كتبه تتضمن الترقق والاعتذار عما وقع منه، وتسأل استقراره على عادته في نيابة دمشق. فلم يلتفت السلطان إلى قوله، ومنع رسله من الاجتماع بأحد.

ثم في رابع وعشرين المحرم سار الأمير نوروز الحافظي إلى نيابة دمشق، وخرج الأمراء لوداعه، ونزل بالريدانية ومعه مسفره الأمير برد بك الخازندار.

فلما كان يوم السبت نزل السلطان من القلعة إلى باب السلسلة، وآجتمع عنده بعض الأمراء لإصلاح الأمر، فلم يفد ذلك، وباتوا على ما هم عليه، وأصبحوا يوم الأحد خامس وعشرينه وقد كثروا وطلبوا من السلطان الوالد وأرغون من بشبغا. وكان الوالد قد ظهر من يوم أخرج دمرداش إلى نيابة غزة، فلم يستجرئ أحد يتكلم في خروجه من القاهرة، واستمر على إمرته، فأبى الملك الناصر أن يرسله إليهم، فقال الوالد: " هذا أمر يطول، ولا بد من النزول "، فنزل إليهم ومعه أرغون، وكلم الأمراء في سبب طلبهم إياه، وخشن للأتابك بيبرس في القول، فإنه كان مسفر الوالد لما ولي نيابة حلب في أيام الملك الظاهر برقوق، فلم يتكلم بيبرس ولا غيره بكلمة واحدة، وسكت الجميع. فلما طال المجلس قال الوالد: " ما تتكلمون! " فعند ذلك تكلم

شخص من الخاصكية الظاهرية يقال له قرمش الأعور - وهو الذي قطع رأسه في دولة الملك الأشرف برسباي من أجل جاني بك الصوفي حسبما يأتي ذكره - وقال قرمش: " يا خوند، المقصود أنك تخرج من الديار المصرية حتى تسكن هذه الفتنة، ثم تعود بعد أيام، أو يعطيك السلطان ما تختار من البلاد ". فقال الوالد: " بسم الله حتى أشاور السلطان ثم أسافر " وخرج فلم يجرؤ أحد أن يقبضه ولا يرسم عليه، وعاد إلى بيته ولم يطلع إلى السلطان.

وكان سكنه بالبيت الذي بباب الرميلة تجاه مصلاة المؤمني، وأقام به يومه. وتجهز وخرج في الليل في نحو مائة مملوك من خواصه، فلم يقف له أحد على خبر، وسار من البرية إلى القدس الشريف في دون الخمسة أيام، ولم يجتز بقطيا خوفاً من تسليط العربان عليه.

وكان لما خرج من بيت بيبرس أرسل إليه السلطان يعلمه أنه أيضاً يريد يختفي ويترك السلطنة، فلهذا جد الوالد في السير لئلا يخرج القوم في أثره ويقبضون عليه.

فلما كان وقت الظهر من يوم خروج الوالد من مصر وهو يوم الأحد خامس وعشرين شهر ربيع الأول فقد السلطان الملك الناصر فرج بن برقوق من قلعة الجبل ولم يعرف له خبر.

وسبب تركه السلطنة أنه كان في يوم النوروز جلس السلطان مع جماعة من الأمراء والخاصكية من مماليك أبيه، وشرب معهم حتى سكر، ثم ألقى بنفسه إلى فسقية هناك، فألقى الجماعة أنفسهم معه، وقد غلب على السلطان السكر، وصار يسبح معهم في الماء ويمازحهم، وترك الوقار، فجاء من خلفه الأمير أزبك الإبراهيمي المعروف بخاص خرجي، وقيل غيره، وأزبك الأشهر، وأغمه في الماء مراراً وهو يمرق من تحته كأنه يمازحه حتى قبض عليه وغرقه في الماء حتى كادت نفسه تزهق، ففطن به بعض مماليك أبيه من الأروام ممن كان معهم أيضاً في الفسقية، وخلصه منه، وأفحش في سب أزبك المذكور، وأراد قتله، فمنعه السلطان من ذلك، وقال: " كان يلعب معي " وأسرها في نفسه.

ثم طلع السلطان من الفسقية، وذهب كل واحد إلى حال سبيله. فذكر السلطان بعد ذلك للوالد ما وقع له مع أزبك المذكور، وأمره أن يكتم ذلك لوقته، فأخذ الوالد يزول عنه ويهونه عليه.

ثم عرف السلطان جماعة من أكابر أمراء الجراكسة بذلك، فلم يلتفتوا لقوله وقالوا: لم يرد بذلك إلا مباسطة السلطان، فعند ذلك تحقق السلطان أنهم يريدون قتله، وكان ذلك بعد خروج الأمراء من السجن وظهور يشبك ورفقته، وقد كثروا وعظم جمعهم، فلم

يجد الملك الناصر بداً من أن يفوز بنفسه ويترك لهم ملك مصر.

ولما أراد النزول من القلعة ليختفي بالقاهرة قام ومعه بكتمر مملوك القاضي سعد الدين بن غراب، ويوسف بن قطلوبك صهر ابن غراب، ونزلوا من باب السر الذي يلي القرافة، وساروا على بركة الحبش، ونزلوا منها في مركب، وتركوا الخيل، وتغيبوا نهارهم كله في البحر حتى دخل الليل، فساروا بالمركب إلى بيت سعد الدين بن غراب، وهو فيما بين الخليج وبركة الفيل بالقرب من قنطرة طقزدمر، فلم يجدوه في داره، فمروا على أقدامهم حتى باتوا في بيت بالقاهرة لبعض معارف بكتمر.

ثم بعثوا لابن غراب بمجيء السلطان إلى عنده، فهيأ له سعد الدين مكاناً من داره، وأنزله فيه من غير أن يعلم أحد به.

وأما الأمراء، فإنه لما بلغهم ذهاب السلطان الملك الناصر في يوم الأحد خامس وعشرين شهر ربيع الأول من سنة ثمان وثمانمائة، بادروا بالطلوع إلى القلعة، وهم طائفتان: الطائفة التي كانت خالفت السلطان الملك الناصر، وركبوا عليه وقاتلوه أياماً، ثم توجهوا إلى الشام وعادوا إلى الديار المصرية وصحبتهم جكم وشيخ وقرايوسف وواقعوه بالسعيدية، وكسروه، ثم اختفوا، ورأسهم يشبك الشعباني الدوادار بمن كان معه من الأمراء، وقد مر ذكرهم في عدة مواضع. والطائفة الأخرى كبيرهم بيبرس الأتابك، وسودون المارداني الدوادار الكبير، وإينال باي وغيرهم.

فلما طلع الجميع إلى القلعة، منعهم الأمير سودون تلي المحمدي الأمير آخور الكبير من الطلوع إلى القلعة، فصاروا يتضرعون إليه من نصف النهار إلى بعد غروب الشمس، حتى مكنهم من العبور من باب السلسلة، فطلعوا ومعهم الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة، وتكلموا فيمن ينصبوه سلطاناً، حتى اتفقوا على سلطنة الأمير عبد العزيز بن الملك الظاهر برقوق، فإنه ولي عهد أخيه في السلطنة حسبما قرره والده الملك الظاهر برقوق قبل وفاته. فطلبوه من الدور السلطانية، فمنعته أمه خوند قنق باي أولاً، ثم دفعته لهم فأحضروه، وتم أمره، وتسلطن حسبما نذكره في محله من ترجمته. وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة وسنه نحو سبع عشرة سنة تخميناً، فكانت مدة تحكم الملك الناصر على مصر من يوم مات أبو الملك الظاهر برقوق إلى يوم خلع ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوماً، والله أعلم.

* * *

سلطنة المنصور عبد العزيز
السلطان الملك المنصور عز الدين عبد العزيز
ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد برقوق
ابن الأمير أنص العثماني

سلطان الديار المصرية وهو السلطان السابع والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والثالث من الجراكسة تسلطن بعهد من أبيه له بعد أخيه الملك الناصر فرج، وباتفاق الأمراء من أعيان مماليك أبيه، بعد ما اختفى أخوه الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق، بعد عشاء الآخرة من ليلة الاثنين سادس وعشرين شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، وقد ناهز الاحتلام، بعد أن حضر الخليفة والقضاة والأعيان من الأمراء وطلب عبد العزيز من الدور السلطانية إلى الإسطبل السلطاني، وبويع بالسلطنة، وفوض عليه الخلعة الخليفتية، وركب فرس النوبة في الفوانيس والشموع، والأمراء مشاة بين يديه حتى طلع إلى القصر وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، ولقب بالملك المنصور أبي العز عبد العزيز ودقت البشائر على العادة.

وقام بتدبير مملكة الملك المنصور، القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب، وهو يوم ذاك كاتب سر مصر، وصار الملك المنصور تحت كنف أمه، ليس له من السلطنة سوى مجرد الاسم فقط، وهي كثيرة التخوف عليه من أخيه الملك الناصر فرج وكانت امتنعت عن سلطنته، وحجبته عن الأمراء حين طلبوه للسلطنة، حتى أخذ منها بحيلة، دبروها عليها واستقر الأمير بيبرس الصغير لالا السلطان الملك المنصور.

وأخذ من هذا اليوم أمر يشبك الشعباني الدوادار كان ورفقته يضعف، وأمر الأتابك بيبرس ورفقته يقوى، حتى صار يشبك والأمراء يطلعون إلى بيبرس ويأكلون على سماطه، وإذا كان لهم حاجة سألوا بيبرس فيها، ولم يعهدوا قبل ذلك لبيبرس في الدولة كلاماً فعز ذلك على يشبك وحاشيته إلى الغاية، وندموا على ما وقع منهم في حق الملك الناصر فرج، وتساعوا في عوده، ولم يعرفوا للناصر خبراً. كل ذلك وسعد الدين ابن غراب لا يعرف أحداً بأمر الملك الناصر فرج، لكنه يدبر في إخراجه، وعوده إلى ملكه من حيث لا يعلم بذلك أحد وأخذ يدبر أيضاً على قبض إينال باي بن قجماس في الباطن، فلم يتم له ذلك، لكثرة حاشيته وعصبته، واضطراب الدولة، وعدم

اجتماع الكلمة في واحد بعينه.

فلما كان يوم الجمعة رابع جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة المذكورة، سعى المماليك بعضهم إلى بعض، وكثر هرجهم، وعادت خيول كثيرة من الربيع، وصاروا يركبون جمعاً كبيراً ويتسارون بالكلام. وبلغ ذلك بيبرس ورفقته، فأمرهم بيبرس وإينال باي بن قجماس بالفحص عن أخبارهم فخرج جماعة كبيرة منهم وداخلوا المماليك المذكورة في كلام الناصر، فلم يقفوا له على خبر، وعفي عليهم جميع أحوال الملك الناصر غير أنهم علموا أن الملك الناصر يريد الظهور والعود إلى الملك، فاضطرب أمرهم، وحرضوا بعضهم بعضاً على قتاله إن خرج وتهيأوا لذلك، وحصنوا القلعة، وطلبوا جماعة كبيرة من المماليك السلطانية، ووعدوهم بالأمريات والإقطاعات والوظائف، وحذروهم من عود الملك الناصر إلى الملك، أنه لا يبقي على أحد منهم، وتواصوا على القيام مع الملك المنصور عبد العزيز وإتمام أمره، كل ذلك وأحوالهم مفلولة، لعدم أهلية بيبرس بتنفيذ الأمور، ومعرفة الحروب، والقيام بأعباء الملك، لانهماكه في اللذات، لانعكافه على اللهو والطرب عمره كله، لا يميل لغير ذلك ومنذ مات خاله الملك الظاهر برقوق لم يدخل بنفسه في أمر غير هذا المعنى المذكور.

واستمر الأمر على ذلك، وباتوا ليلة السبت المذكورة، والحال على ما هو عليه، إلى أن كان نصف الليل، فخرج الملك الناصر فرج بن برقوق من بيت القاضي سعد الدين إبراهيم بن غراب، كاتب السر، في جماعة كبيرة، من غير تستر، بل في موكب عظيم سلطاني، ومضى بعساكره إلى بيت الأمير سودون الحمزاوي ونزل به، وأرسل استدعى الأمراء والمماليك السلطانية وتسامعت به الناس، فأتوه من كل فج بالسلاح وآلة الحرب ثم لبس الملك الناصر سلاحه ركب في أمرائه وعساكره، وقصد قلعة الجبل، وقد استعد بيبرس وإينال وغيرهما من الأمراء الذين بالقلعة لقتاله، وحصنوا القلعة. فلما حضر إليها الملك الناصر في بعساكره ناوشوه بالقتال، ورموا عليه، وتقاتل الفريقان قتالاً ليس بذاك فلما رأى الملك الناصر أمر أهل القلعة مفلولاً، توجه إلى نحو باب القلعة، وكان به الأمير صوماي الحسني الظاهري رأس نوبة قد وكل بباب المدرج. فعندما رأى صوماي الملك الناصر فتح له باب القلعة، فطلع منه الملك الناصر بأمرائه، وملك القلعة، وجلس بالقصر السلطاني. هذا وبيبرس وإينال باي يقاتلان أمراء السلطان من باب السلسلة من الإسطبل السلطاني.

فبينما هم في ذلك، وإذا بالرمي عليهم من القصر، فالتفتوا وإذا بالناصر جالس بالقصر السلطاني، فلم يثبت بيبرس عند ذلك ساعة واحدة، وانهزم من وقته، ونزل بمن معه فارا إلى خارج القاهرة. فأرسل السلطان في أثره الأمير سودون الطيار أمير مجلس في جماعة، فأدركه خارج القاهرة، فلم يدفع عن نفسه، فقبض عليه سودون الطيار، وأتى به إلى الملك الناصر، فقيد في الحال، وأرسل إلى الإسكندرية، فسجن بها واختفى إينال باي، وسودون المارداني.

وطلب السلطان الملك الناصر فرج أخاه السلطان الملك المنصور عبد العزيز، وطيب خاطره، وأرسله إلى أمه بالدور السلطانية.

وتم أمر الملك الناصر، وأعيد إلى ملكه بعد أن خلع من الملك هذه المدة وزال ملك الملك المنصور كأنه لم يكن فكانت مدة سلطنة الملك المنصور عبد العزيز المذكور على مصر شهرين وعشرة أيام، ليس له فيها إلا مجرد الاسم لا غير، وأقام المنصور، عند أمه بالدور السلطانية من قلعة الجبل إلى أن أخرجه أخوه الملك الناصر فرج إلى ثغر الإسكندرية، ومعه أخوه إبراهيم ابن الملك الظاهر برقوق، صحبة الأمير قطلوبغا الحسني الكركي، والأمير إينال حطب العلائي، في حادي وعشرين صفر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة فأقام الملك المنصور عبد العزيز المذكور وأخوه إبراهيم بالإسكندرية مدة يسيرة، ومرضا معاً، فمات الملك المنصور هذا في ليلة الاثنين سابع شهر ربيع الآخر من سنة تسع وثمانمائة المذكورة بعد أن لزم الفراش واحداً وعشرين يوماً، ومات أخوه إبراهيم بعده في ليلته، فاتهم الملك الناصر أنه أمر باغتيالهما بالسم قبل سفره إلى الشام حسبما يأتي ذكره.

قلت: لا يبعد ذلك من وجوه عديدة ليس لإبدائها محل - والله أعلم.

* * *

سلطنة الناصر فرج الثانية

ولما كان صبيحة يوم السبت خامس جمادى الآخرة، طلع الملك الناصر فرج إلى قلعة الجبل وملكها، وقبض على الأتابك بيبرس، ثم على من يأتي ذكره ثم طلب الخليفة والقضاة فحضروا وجددت له بيعة السلطنة ثانياً، وثبت خلع الملك المنصور عبد العزيز، وتسلطن وعاد إلى ملك مصر وخلع على الخليفة والقضاة، وتم أمره، وانفض الموكب، ونزل الجميع إلى دورهم، وسكن أمر الناس.

ثم بلغ السلطان أن جكم من عوض نائب حلب قد عظم أمره، وأنه قد بدا منه أمور تدل على المخالفة، فكتب السلطان بعزله عن نيابة حلب وطرابلس، وولاية الأمير دمرداش نيابة حلب عوضه، وتولية الأمير علان اليحياوي أجلق، نيابة طرابلس عوضه، وتولية الأمير عمر الهيدباني نيابة حماة، وتوجه بتقاليدهم ألطنبغا شقل مملوك الأمير شيخ المحمودي نائب الشام، ولم يرسل السلطان إليهم أحداً من أمراء مصر لضعف حالهم وعدم موجودهم وقبل أن يصل إليهم الخبر بذلك اقتتل الأمير شيخ مع الأمير جكم بأرض الرستن فيما بين حماة وحمص في خامس من ذي الحجة قتالاً عظيماً، قتل فيه الأمير علان اليحياوي جلق، والأمير طولو من علي باشاه نائب صفد، وجماعة كبيرة في الواقعة. وأما علان وطولو فإنه قبض عليهما فقدما بين يدي الأمير جكم، فأمر بضرب رقابهما، فضربت أعناقهما بين يديه، وضرب عنق طواشي كان في خدمة الأمير شيخ معهما.

وانهزم الأمير شيخ المحمودي نائب الشام ومعه الأمير دمرداش نائب حلب إلى دمشق، فلم يقدر شيخ على الإقامة بدمشق خوفاً من نوروز الحافظي، وخرج من دمشق ومضى إلى الرملة يريد القدوم إلى القاهرة ودخل نوروز إلى دمشق، وملك المدينة من جهة جكم بعساكره في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي الحجة المذكورة ثم دخل جكم دمشق بعده في يوم الخميس سلخ ذي الحجة وناس جكم في دمشق بالأمان، وأنه لا يشوش أحد على أحد وكان جكم قد شنق رجلاً من عسكره بحلب، كونه رعى فرسه زرعاً، وشنق آخر على شيء وقع منه في حق بعض الرعية، ثم لما قدم دمشق شنق بها أيضاً جندياً بعد المناداة على شيء من ذلك، فخافته عساكره وانكفوا عن مظالم الناس، وعن شرب الخمر، حتى لهجت الناس بقولهم: جكم حكم وما ظلم،. وعظم أمر جكم بالبلاد الشامية إلى الغاية.

ولما بلغ خبر هذه الواقعة المصريين خارت قواهم وتخوفوا من جكم وخرج البريد من يومه يطلب الأمير تغري بردي أعني الوالد من برية القدس، فحضر إلى القاهرة، وجلس رأس الميسرة، بعد أن بنى السلطان على ابنته كريمة مؤلف هذا الكتاب.

ثم جهز السلطان تشريفاً للأمير شيخ في حادي عشر المحرم من سنة تسع وثمانمائة بنيابة الشام على عادته، وأمده بمال وسلاح، وقبل خروج القاصد إليه قدم الخبر بوصول شيخ المذكور إلى مدينة بلبيس، فخرج إليه المطبخ السلطاني وتلقته الأمراء.

وأما جكم، فإنه أقام بدمشق مدة وقرر أمورها، وجعل على نيابتها الأمير نوروزاً الحافظي، وكان الأمير سودون تلي المحمدي الأمير آخور كان في سجن الأمير شيخ، ففر منه ولحق بالأمير نوروز الحافظي.

وأقام السلطان بالريدانية إلى يوم ثاني عشر شهر ربيع الأول، فرحل منها بعساكره إلى جهة الشام، بعد أن خلع على الأمير تمراز الناصري نائب السلطنة الشريفة بالديار المصرية باستقراره أيضاً في نيابة الغيبة بالقاهرة، وأنزل السلطان بقلعة الجبل جماعة أخرى من الأمراء ممن يثق بهم، وكذلك بالقاهرة.

قال المقريزي - رحمه الله: ولم يحمد رحيل السلطان الملك الناصر من الريدانية في يوم الجمعة، فقد نقل عن الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - أنه قال: " ما سافر أحد يوم الجمعة إلا رأى ما يكره ".

وسار السلطان بعساكره حتى دخل دمشق في يوم الإثنين سابع شهر ربيع الآخر من السنة بتجمل عظيم، ونزل بدار السعادة بعد أن زينت له دمشق فأقام بدمشق إلى يوم سابع عشره، فرحل من دمشق بعساكره يريد حلب، وسار حتى دخل حلب في يوم سادس عشرينه، وقد فر منها جكم وعدى الفرات خوفاً من الملك الناصر فرج، ومعه الأمير نوروز الحافظي وتمربغا المشطوب، في جماعة أخر. فنزل السلطان بالقلعة من حلب، وبعث بجماعة في طلب جكم ورفقته، فتوجهوا في أثره، ثم عادوا بعد أيام بغير طائل.

وأما السلطان الملك الناصر، فإنه سار من القدس حتى دخل إلى القاهرة في حادي عشر شهر رجب بغير طائل، وقد تلف له ولعساكره مال كبير وزينت القاهرة لقدومه، وخرج أعيان المصريين لتلقيه. ثم بعد قدومه بسبعة أيام وصل دمرداش نائب حلب، وسودون من زادة نائب غزة إلى القاهرة، واستمر سودون الحمزاوي وشيخ نائب الشام بصفد وأخذ سودون، الحمزاوي يسعى في الصلح بين شيخ ونوروز، ولازال في ذلك حتى أجاب نوروز، وكتب في هذا المعنى إلى جكم. فبينما هم في ذلك خرج سودون الحمزاوي يوماً من صفد ليسير في برها فقام شيخ وركب واستولى على قلعة صفد، وأخذ جميع مال الحمزاوي وبلغ ذلك الحمزاوي فهرب ونجا بنفسه في قليل من أصحابه، وتوجه إلى دمشق فرحب به نوروز، غير أن نوروزاً كان مشغولاً بعمارة قلعة دمشق، فلم ينهض بالخروج معه لقتال شيخ.

ثم قدم الخبر على الملك الناصر بأن الأمير جكم من عوض نائب حلب تسلطن بقلعة حلب في يوم حادي عشر شوال من سنة تسع وثمانمائة المذكورة، وتلقب بالملك العادل أبي الفتح عبد الله جكم، وخطب باسمه من الفرات إلى غزة، عدا صفد، فإن بها الأمير شيخاً المحمدي، وقد استولى عليها من الحمزاوي حسبما تقدم ذكره، وأنه لم يخطب باسم جكم، وأنه مستمر على طاعة السلطان، وأن الأمير نوروزاً نائب الشام باس الأرض لجكم، وخلع على جلق بنيابة صفد بأمر الملك العادل جكم. ثم قدم بعد ذلك عدة كتب من أمراء الشام على السلطان يرغبون السلطان في الخروج إلى البلاد الشامية. ثم قدمت. عدة كتب من جكم إلى عربان مصر وفلاحيها بمنعهم من دفع إلى السلطان أمرائه وأجناده، وتحذيرهم من ذلك حتى يقدم جكم إلى مصر. ثم ورد البلاد الشامية أنه في ثامن عشر شوال وصل إلى دمشق قاصد الملك العادل جكم، وعلى يده مرسوم جكم بأن الأمير سودون الحمزاوي يكون دواداراً بالديار المصرية على عادته، وأن الأمير إينال باي بن قجماس يكون أمير آخور كبيراً على عادته، وأن الأمير يشبك ابن أزدمر يكون رأس نوبة النوب على عادته، وأن الأمير نوروزاً مستمر على نيابة دمشق، وجيء له بالخلعة فلبسها نوروز، وقبل الأرض، ودقت البشائر لذلك - بدمشق - أياماً، وزينت المدينة.

فلما بلغ السلطان ذلك أراد الخروج إلى البلاد الشامية، فكلمه أمراؤه في تأخير السفر حتى يخف الطاعون من الديار المصرية فإنه كان فشا بها وكثر فلم يلتفت السلطان لذلك. وشرع في أول ذي الحجة في الاهتمام إلى سفر الشام هو وعساكره. ثم في خامس وعشرين ذي الحجة المذكورة علق السلطان جاليش السفر، وصرفت النفقة للمماليك السلطانية في تاسع وعشرينه، لكل مملوك ثلاثون مثقالاً وألف درهم فلوساً، فتجمع المماليك تحت الطلبلخاناه السلطانية وامتنعوا من أخذها، فكلمهم بعض الأمراء على لسان السلطان في ذلك، فرضوا. وبينما السلطان في ذلك ورد عليه الخبر بقتل الأمير جكم بآمد، من ديار بكر بن وائل، في سابع عشر ذي القعدة من سنة تسع وثمانمائة المذكورة.

وأما أمر الأمير شيخ المحمودي نائب الشام - كان - فإنه في ذي القعدة أيضاً ركب من صفد يريد الأمراء الذين من جهة نوروز وجكم - وقد وصلوا من دمشق إلى غزة - وهم: إينال باي بن قجماس، وسودون الحمزاوي، ويشبك ابن أزدمر، ويونس الحافظي نائب حماة - كان - وسودون قرناص في آخرين. فسار شيخ بمن معه وطرقهم بغزة على حين غفلة في يوم الخميس رابع ذي الحجة، فركبوا وقاتلوه قتالاً شديداً، قتل فيه إينال باي بن قجماس، ويونس الحافظي، وسودون قرناص. وقبض شيخ على سودون الحمزاوي، بعد ما قلعت عينه، وهرب يَشْبُك بن أزدَمُر إلى دمشق.

وقبضَ شيخٌ على عدة مماليك منَ السّلطانية، فوسط منهم تسعة، وغرق أحدَ عشر، وأفرجَ عنْ مماليك ولم يتعرض لهم بسوء، وبعث بطائفةٍ أخرى من المماليك السّلطانية إلى الملك الناصر فرج، ثم عاد شيخ إلى صَفَد.

ثم ورد الخبر بأن الأمير نَوْروزاً نائب الشام عاد إلى طاعةِ السّلطان بعد قتل جكم وأن تَمُرْبُغَا المشطوبَ تغلب على حَلَب، وقاتلته التراكمين حتى ملك قلعة حلب بعد أمور، وأنه أخذ ما كان لجكَم بحَلَب واستخدم مماليك جَكَم، فعظُم أمره لذلك فأمر السلطانُ بتجهيز أموره للسفر إلى البلاد الشامية، وتجهزت فلما كان يومُ الاثنين سادس المحرم من سنة عشرة وثمانمائة فرّقَ السلطان الجمالَ على المماليك السلطانية، برسْم السفَر إلى الشام صُحبة السلطان ثم في يوم الجمعة عاشِر المحرم قَدِم إلى القاهِرة حاجبُ الأمير نُعَيْر برأس الأميرجكم، ورأس ابن شهْري، فخلع السلطانُ عليه، وطيفَ بالرأسين على رمحين ونوديَ عليهما بالقاهرة، ثم عُلّقا على باب زُويلة، ودُقت البشائر، وزُينتَ لذلك.

ثم رحل السلطانُ مِنَ الريْدَانية في يوم ثاني صفر مِنْ سنةِ عشَرة وثمانمائة، يريد البلادَ الشَامية.

وأما البلاد الشامية - فإن نَوْروزاً الحافظي خرج منْ دمشق في أول محرم مِنْ هذه السنةِ لقتال شيخ فضعف شيخ عن مقاومته، ولم يخرُج مِن صَفَد. وأرسَل شيخ يستحث السلطانَ على سُرعة المجيء إلى البلاد الشامية. فعاد نَوْرُوز إلى دمشق بعد أن حاصر شيخاً أياماً، وأرسل إلى السلطان يطلب أماناً، وأنه يمتثِل ما يرسمُ به السلطان، وأنه يوافقُ شيخاً، ويرضَى بما يوليه السلطانُ مِنَ البلاد.

ثم أرسل نَوْرُوز إلى شيخ بأنْ يكاتبَ السلطان بأن يكونَ نائبَ حَلَب، ويكون شيخٌ نائب الشام على عادته، فلم يَلْتفت شيخ إلى كلامه، وانتهَز شيخ الفرصة، وقد قويَ أمرُه، بعد ما كان خائفاً من نَوْروصز، لقدوم السلطان الملك الناصر إلى البلاد الشاميّة، وسارَ بمماليكه وحواشيه حتى نزل بالقرب مِنْ دمشق. ففر في تلك الليلةِ مِنْ نَوْروز إلى شيخ جماعة مِنَ الأمراء، منهم: قِمْشُ، وجُمَق. ثم تحول نَوْرُوز من المِزة إلى قبئة يَلْبُغا، فوصل إليه قاصدُ الأمير شيخ بأنّ السلطان أرسَل إليه تشريفاً بنيابة دمشق، وأنه طلب مِن السلْطان لنوْرُوز نيابة حَلَب، فأبى السَلطانُ ذلك، وأن عسكر السلْطان وصل إلى مدينة غزة. فتحول عند ذلك نَوْرُوز إلى بَرْزة، ودخلت مماليك الأمير شيخ إلى الشام مِنْ غير قتال.

وأما السلطانُ الملك الناصر فإنه لما رحل مِن الريدَانيّة بعد أنْ عمل الأميرَ تمراز نائب السلطنة نائب غيبته بديار مصر، وأنزله بباب السلسلة، وأنزل الأمير آقباي

بقلعة الجبل، وسكن سودُونَ الطيار أمير سِلاح بالرمَيْلة تجاه باب السلسلة. وسارَ السلطان حتى وصل إلى غزة في ثاني عشر صفر، فورد عليه الخبر بفرار نَوْرُوز، فلم يلتفت إلى ذلك، وسار حتى دخَل إلى دمشق في يوم ثاني وعشرين صفر، بعدما خرجَ الأمير شيخ إلى لقائه، وقبل الأرض بين يديه، وسار معه حتى دخل دمشق في خدمته منْ جُملة الأمرَاء. ونزَل السلطان بدار السعادة منْ دمشق وصلى الجمعة بجامع بني أمية. ثم قبض على قضاةِ دِمشقَ ووزيرها، وكاتب سرها، وأهانهم السلطانُ وألزمهم بحمل مال كبير.

ثم في يوم الأحد خامس وعشرين صفر، أمسك السلطان الأمير شيخاً المحمودي نائب دمشق، والأمير الكبير يشبك الشعباني الأتابكي، واعتقلهما بقلعة دمشق وكان الأمير جركس القاسمي المصارع الأمير آخور قد تأخر في هذا اليوم عن الخدمة السلطانية بداره، فلما بلغه الخبر فر من وقته، فلم يدرك. وهرب جماعة كبيرة من الشيخية واليشبكية.

ثم في سادس وعشرين صفر خلع السلطان على الأمير بيغوت باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن شيخ المحمودي، بحكم حبسه بقلعة دمشق، وخلع على الأمير فارس دوادار تنم باستقراره حاجب حجاب دمشق، وخلع على الأمير عمر الهيدباني بنيابة حماة، وعلى صدر الدين علي بن الأدمي باستقراره قاضي قضاة الحنفية بدمشق.

ثم في تاسع ربيع الأول، أرسل السلطان، إلى الديار المصرية بالقبض على الأمير تمراز الناصر في نائب السلطنة بالديار المصرية، ثم نائب الغيبة، فأذعن تمراز وسلم نفسه، فمسك وقيد وحبس بالبرج من قلعة الجبل، وسكن سودون الطيار عوضه بباب السلسلة من الإسطبل السلطاني.

ثم ركب السلطان الملك الناصر في يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر من دار سعادة دمشق، وتوجه إلى الربوة فتنزه بها ثم عاد إلى دار السعادة. ثم أصبح لعب الكرة بالميدان، وقدم عليه الأمير بكتمر جلق بالأمراء الذين قبض عليهم الأمير نوروز، وهم المقدم ذكرهم، فرسم السلطان بحبسهم. ثم في اليوم المذكور خرج حريم السلطان من دمشق إلى جهة الديار المصرية.

ثم خرج السلطان من دمشق في يوم السبت سابع شهر ربيع الآخر يريد الديار المصرية ومعه الأمراء المقبوض عليهم، وفيهم: الأمير سودون الحمزاوي وقد أحضر من سجن صفد، والأمير آقبردي رأس نوبة أحد أمراء الطبلخانات، وسودون الشمسي أمير عشرة، وسودون البجاسي أمير عشرة. وسار السلطان إلى مصر،

وجعل بكتمر جلق نائب الغيبة بدمشق حتى يحضر إليها نائبها الأمير نوروز. بكتمر جلق المذكور قد خلع عليه السلطان باستقراره في نيابة طرابلس قبل تاريخه. وأصبح شيخ، لما بلغه خروج السلطان من دمشق، فطرق دمشق ومعه يشبك وجركس، وأخذها من بكتمر، وملكها بعد أن فر بكتمر منها. وقبض شيخ على جماعة من أمراء دمشق، وولى وعزل، وأخذ خيول الناس، وصادر جماعة.

ثم سار السلطان الملك الناصر مجداً حتى دخل إلى الديار المصرية ضحى نهار الثلاثاء، رابع وعشرين شهر ربيع الآخر، وبين يديه ثمانية عشر أميراً في الحديد، ورمة الأمير إينال باي بن قجماس، وقد حملها الملك الناصر من غزة لأنه كان خصيصاً عند الملك الناصر، وقتل بغرة في واقعة شيخ بغير اختيار السلطان. وطلع السلطان إلى قلعة الجبل، وحبس الأمراء المذكورين بالبرج من قلعة الجبل إلى أن كان يوم سادس عشرينه، فاستدعى السلطان القضاة إلى بين يديه، وأثبت عندهم إراقة دم الأمير سودون الحمزاوي لقتله إنساناً ظلماً، فحكموا بقتله، فقتل، وقتل معه تمربغا دواداره، والأمير آقبردي، وجمق، وأسنباي التركماني، وأسنباي أمير آخور. وتأخر الأمير إينال المنقار، وسودون الشمسي، وجقمق العلائي، وجماعة أخر، وسودون البجاسي في البرج من قلعة الجبل.

ثم ورد على السلطان كتاب الأمير شيخ يسأل السلطان الملك الناصر الرضى عنه، وعن جماعته، فلم يقبل السلطان ذلك. فلم تزل مكاتبات شيخ ترد على السلطان في ذلك حتى رضي عنه. وكتب له بنيابة الشام على عادته، وحمل إليه التقليد الأمير ألطنبغا بشلاق صحبة مملوك شيخ ألطنبغا شقل، وقاضي القضاة نجم الدين عمر بن حجي الشافعي، وقاضي القضاة صدر الدين بن الآدمي الحنفي، وقد تولى كل منهما قاضياً بدمشق على مذهبه. وكانا هما وألطنبغا شقل قدموا في إصلاح أمر شيخ مع أستاذه الملك الناصر فرج.

ثم قدم الخبر على السلطان من شيخ بأن التركمان الذين كانوا قبضوا على نوروز أطلقوه، وأن تمربغا المشطوب هرب من الأمير شيخ، وأن نوروزاً توجه بعد خلاصه من يد التركمان إلى قلعة الروم، وأنه خرج من دمشق جماعة كبيرة من عند شيخ إلى نوروز، فركب شيخ في أثرهم فلم يحركهم، فعاد إلى دمشق وقبض على الأمير يشبك العثماني. ثم بعد مدة يسيرة بلغ الأمير شيخاً أنه قيل للسلطان عنه إنه عاص. فطلب الأمير شيخ القضاة وأعيان أهل دمشق، وكتب محضراً بأنه باق على طاعة السلطان الملك الناصر، وبعث به مع القاضي نجم الدين عمر بن حجي. وقدم ابن حجي بالمحضر، ومع المحضر المذكور كتاب الأمير شيخ يستعطف خاطر السلطان عليه، ويعتذر عن تأخره بإرسال من طلبه السلطان من الأمراء النوروزية. وكان السلطان

قد بعث إليه قبل ذلك يشبك الموساوي بطلب جماعة من الأمراء، فلم يرسلهم شيخ إليه، فلم يقبل السلطان عذره، واشتد غضبه، وأظهر الاهتمام بالسفر إلى الشام. ثم كتب السلطان، الجواب بتجهيز أمراء عينهم، وواعدهم على مدة ستة وعشرين يوماً، ومتى مضت هذه المدة ولم يجهزهم الشيخ، سار السلطان لقتاله، وبعث السلطان بذلك على يد قاصد شيخ نجم الدين بن حجي، فعاد ابن حجي إلى الأمير شيخ وأدى الرسالة، فأخذ شيخ في تجهيز الأمراء الذين طلبهم السلطان، وامتثل مرسومه بالسمع والطاعة.

بينما هو في ذلك، بلغه أن تغرى برمش كاشف الرملة فر منها لقدوم كاشف ونائب القدس من قبل السلطان، وأن السلطان قد عزم على المسير إلى الشام، وأخرج الروايا والقرب على الجمال ومعهم الطبول، نحو مائتي جمل إلى البركة. فعند ذلك رجع شيخ عن إرسال الأمراء، وعول على مصالحة نوروز، وبعث إليه الأمير جانم ليصلح بينهما، وجهز له شيخ ستة آلاف دينار، فمال نوروز لمصالحته. فلما بلغ دمرداش نائب حلب الخبر اهتم لقتال نوروز، وجمع طوائف التركمان والعربان، وسار إليه بكتمر جلق نائب طرابلس، وحضر إليه أيضاً نائب أنطاكية. وبعث دمراش ابن أخيه تغري بردي المعروف بسيدي الصغير - وهو يومئذ أتابك حلب - إلى مرج دابق ومعه جماعة كبيرة من التركمان. ثم أتاه بكتمر جلق، فرحلا من حلب بعساكرهما وقصدا نوروزاً، وقد نزل نوروز بمجموعه على عين تاب. فتقدم إليه تغري بردي سيدي الصغير بالتركمان الكبكية جاليش عمه دمرداش، فرحل نوروز إلى مرعش، وتحاربت كشافته لأكشافة دمرداش محاربة قوية، أسر فيها عدة من النوروزية، وانهزم نوروز، واستولى عسكر دمرداش على عين تاب، وعاد دمرداش إلى حلب، وكتب بذلك السلطان، فسر السلطان بذلك، وكتب الجواب: إني واصل عقيب ذلك إلى البلاد الشامية وعظم اهتمام السلطان وعساكره للسفر، إلى أن خرج جاليشه من الأمراء الريدانية، في يوم الأربعاء سابع المحرم من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، وهم الوالد - وهو يومئذ أتابك العساكر بالديار المصرية - وآقباي الطرنطائي رأس نوبة الأمراء، وطوخ أمير مجلس، وطوغان الحسني، وإينال المنقار، وكمشبغا الفيسي المعزول عن الأمير آخورية، ويشبك الموساوي الأفقم، وعدة أمراء أخر من الطبلخانات والعشرات، ونزل الجميع بالريدانية.

ثم سار الملك الناصر إلى أن وصل إلى غزة، وعزل عنها الأمير ألطنبغا العثماني وولاه نيابة صفد، وخلع على الأمير إينال الصصلاني الأمير آخور الثاني باستقراره عوضه في نيابة غزة. وكان الأمير شيخ قد أرسل قبل ذلك الأمير سودون المحمدي ودواداره شاهين إلى غزة، فلما وصل جاليش السلطان إليها انهزما من الرملة إلى

شيخ، وأخبراه بنزول السلطان على غزة. وكان استعد شيخ في هذه المرة لقتال السلطان، فلما تحقق قدومه، خارت طباعه، وتحول في الوقت إلى داريا فقدم عليه الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش فاراً من صفد، وشجع الأمير شيخاً على ملاقاة السلطان وقتاله، وعرفه أن غالب عساكره قد تغير خاطرهم على السلطان، فلم يلتفت شيخ لذلك، وأبى إلا الهروب، ثم قدم عليه الأمير جانم نائب حماة بعسكره، وعرفه قدوم نوروز عليه، وهو مع ذلك في تجهيز الرحيل من دمشق.

وسار السلطان من غزة حتى نزل اللجون في يوم السبت أول صفر من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة، فكثر الكلام في وطاق السلطان بتنكر قلوب المماليك الظاهرية على السلطان، وتحدثوا في بعضهم بإثارة فتنة، لتقديمه مماليكه الجلب عليهم، وكثرة عطاياه لهم. فلما أصبح السلطان رحل من اللجون ونزل بيسان وأقام بها نهاره إلى أن غربت الشمس، فماج العسكر، وهدت الخيم، واشتد اضطراب الناس. وكثر قلق السلطان طول ليلته إلى أن أصبح وجد الأمير تمراز الناصري النائب، وإنيه وزوج بنته سودون بقجة، والأمير إينال المنقار، والأمير قرا يشبك، والأمير سودون الحمصي، وعدةً كبيرة من المماليك السلطانية قد فروا إلى الأمير شيخ. وكان سبب فرارهم في هذه الليلة أن آقبغا الدوادار اليشبكي عرف السلطان بأن هؤلاء الجماعة يريدن إثارة فتنة، فطلب السلطان كاتب سره فتح الله، وجمال الدين الأستادار، وعرفهما ما بلغه عن الجماعة، فدار الأمر بينهم على أن السلطان في وقت المغرب يرسل خلفهم ويقبض عليهم. وخرجوا على ذلك من عند السلطان، فغدر جمال الدين الأستادار وأرسل - بعد خروجه من عند السلطان - عرف الأمراء بالأمر. وكان تمراز قدم من مصر في محفة، لرمد كان اعتراه، فأعلمهم جمال الدين بالخبر. وبعث إليهم بمال كبير لهم وللأمير شيخ نائب الشام، فأخذوا حذرهم، وركبوا قبل أن يرسل السلطان خلفهم، ولحقوا بالأمير شيخ. ولما خرجوا من الوطاق وساروا لم يكن حينئذ عند السلطان أحد من أكابر الأمراء، لتوجههم في الجاليش أمام السلطان فبعث السلطان خلف فتح الله وجمال الدين الأستادار، ولا علم للسلطان بما فعله جمال الدين المذكور، وكلمهما فيما يفعل، واستشارهما، فأشار عليه فتح الله بالثبات، وأشار عليه جمال الدين بالركوب ليلاً وعوده إلى مصر - يريد بذلك إفساد حاله - فمال السلطان إلى كلام فتح الله، وأقام بوطاقه، فلما طلع الفجر ركب وسار بعساكره نحو دمشق، فقدم عليه الخبر برحيل شيخ من دمشق إلى بصرى، فنزل السلطان على الكسوة، ففر في تلك الليلة الأمير علان وجماعة من

المماليك لشيخ. فركب السلطان بكرة يوم الخميس سادس صفر، ودخل دمشق، ونزل بدار السعادة. ثم قبض على شهاب الدين أحمد الحسباني وسلمه إلى الأمير ألطنبغا شقل، من أجل أنه أفتى بقتاله، وطلب ابن التباني فإذا هو سار مع شيخ. وكتب السلطان بالإفراج عن الأمير أرغز، وسودون الظريف، وسلمان، من قلعة الصبيبة وخلع على الأمير زين الدين عمر الهيدباني باستقراره حاجب حجاب دمشق، وعلى ألطنبغا شقل حاجباً ثانياً، وخلع على الأمير بردبك باستقراره في نيابة حماة عوضاً عن جانم. ثم كتب السلطان للأمير نوروز تقليداً بنيابة حلب عوضاً عن الأمير دمرداش المحمدي.

ولما بلغ الملك الناصر فرار شيخ وأصحابه، تأوه لذلك وقال لكاتب سره فتح الله ولجمال الدين الأستادار: ألم أقل لكما إن شيخاً فظيع، ليس له قلب، ولو كان معه مائة ألف مقاتل لا يقدر أن يقابلني بهم، لرعب سكن في قلبه مني؟. ثم أقام السلطان على بصرى إلى بكرة يوم السبت، فقدم عليه وهو ببصرى الأمير برسباي الدقماقي الساقي - أعني الملك الأشرف - والأمير سكب اليوسفي، فأكرمهما السلطان ووعدهما بكل خير، ثم ركب وسار - وهو ثمل - حتى نزل بقرية عيون تجاه صرخد، فتناوش العسكران بالقتال، فقتل من جماعة شيخ فارسان، وجرح جماعة من السلطانية، ثم فر جماعة أخر من السلطان إلى الأمير شيخ. وبات السلطان وأصبح في وقت الفجر نادى أن لا يهد أحد خيمته، ولا يحمل جمل، وأن يركب العسكر خيولهم، ويجر كل فارس جنيبه مع غلامه من غير أن يأخذوا أثقالهم. فركبوا، وسار بهم على هذه الحالة حتى طرق شيخاً وأصحابه على حين غفلة، بعد أن كان سار هو بنفسه أمام عسكره مسرعاً، وأمراؤه يخذلونه من انقطاع عساكره عنه، ويقولون له: بمن تلقى شيخاً، وقد عظم جمعه وتخلفت عساكر السلطان منقطعة؟، والملك الناصر لا يلتفت إلى قولهم ويقول: لو بقي معي عشرة مماليك لقيت بهم شيخاً ومن معه أنا، أعرفهم حق المعرفة.

ودام على سيره حتى طرق شيخاً على حين غفلة، وقد عبأ شيخ عساكره، فأوقف المصريين ناحية - أعني الذين فروا إليه من الملك الناصر - وجعل عليهم الأمير تمراز النائب، ووقف هو في ثقاته وخواصه، وهم نحو خمسمائة نفر، فتقدم السلطان وصدم بعساكره الأمير تمراز بمن معه - وكانوا جمعاً كبيراً - فانكسروا من أول وهلة. ثم مال على الأمير شيخ وأصحابه، وقد تقهقر شيخ وأصحابه إلى جهة القلعة، فكان بينهم معركة صدراً من النهار، وهو يتأخر إلى المدينة، وأصحابه تتسلل منه، وصار القتال بجدران مدينة صرخد. ولازال شيخ يتأخر بمن معه، والملك الناصر

يتقدم بمن معه، حتى ملك وطاق شيخ وانتهب جميع ما كان فيه من خيل وقماش وغيرها. ثم هرب شيخ إلى داخل جدران المدينة. واستولى السلطان على جامع صرخد، وأصعد أصحابه فرموا من أعلى المنارة بمكاحل النفط والمدافع والأسهم الخطائية على شيخ، وشيخ يلوم أصحابه ويوبخهم على ما أشاروا عليه من قتال الملك الناصر. ثم حمل السلطان عليه حملة منكرة بنفسه، فلم يثبت شيخ وانهزم والتجأ في نحو العشرين من أصحابه إلى قلعة صرخد، وكانت خلف ظهره وقد أسند عليها، فتسارع إليه عدة من أصحابه، وتمزق باقيهم وطلع شيخ إلى قلعة صرخد في أسوإ حال، وأحاط السلطان على المدينة، ونزل حول القلعة، وأتاه الأمراء فقبلوا الأرض بين يديه، وهنؤوه بالظفر والنصر. وامتدت أيدي السلطانية إلى مدينة صرخد، فما تركوا بها لأهلها جليلاً ولا حقيراً. وانطلقت ألسنة أهل صرخد بالوقيعة في شيخ وأصحابه، وأكثروا له التوبيخ بكلام معناه أنه إذا لم يكن له قوة ما باله يقاتل من لم يطق دفعه وقتاله.

وسار الأمير تمراز، وسودون بقجة، وسودون الجلب، وسودون المحمدي، وتمربغا المشطوب، وعلان في عدة كبيرة إلى دمشق، فقدموها يوم الاثنين تاسعه، فقاتلتهم العامة ودفعوهم عنها، وأسمعوهم من المكروه أضعاف ما سمعه شيخ بصرخد، فولوا يريدون جهة الكرك، وهم في أحقر ما يكون من الأحوال. وساروا عن دمشق بعد ما قتل منهم جماعة، وجرح جماعة، وتأخر كثير منهم بظواهر دمشق، ومضى منهم جماعة إلى حماة، والجميع في أنحس حال، وأخذ منهم جماعة كثيرة بدمشق وغيرها.

ولما دخلت الأمراء على السلطان الملك الناصر للتهنئة حسبما ذكرناه التفت السلطان للوالد، وكان يسميه أطا: أعني أب، وقال له: يا أطا، أنا ما قلت لك أنا أعرف شيخاً إذا كان معي عشرة مماليك قاتلته بهم. ثم تكلم في حق شيخ بما لا يليق ذكره، فقال له الوالد: يا مولانا السلطان، هذا كله بسعد مولانا السلطان، وعظم مهابته. وأما شيخ فإنه إذا كان من حزب السلطان وشمله نظر مولانا السلطان من ذا يضاهيه في الفروسية؟ غير أنه، للرعب الذي في قلبه من حرمة مولانا السلطان وغضبه عليه يقع في مثل هذا أو أكثر.

ولما نزل السلطان الملك الناصر على قلعة صرخد، أصر النواب أن يتوجه كل واحد منهم إلى محل كفالته، فسار الجميع إلا الأمير دمرداش المحمدي، فإنه أرسل ابن أخيه تغري بردي المدعو سيدي الصغير إلى حلب، ليكون نائباً عنه بها، وأقام هو عند السلطان على صرخد، وكذلك الأمير بكتمر جلق نائب الشام، فإنه أيضاً أقام عند السلطان. وأخذ السلطان في حصار قلعة صرخد، وعزم على أنه لا يبرح عن قتالها حتى يأخذها.

ثم قدم الخبر على السلطان أن تركمان الطاعة قاتلوا نوروزاً وكسروه كسرة قبيحة، فدقت البشائر بصرخد لذلك. ثم أمر السلطان دمرداش المحمدي بالتوجه إلى محل كفالته بحلب. هذا ونواب الغيبة بدمشق في أمر كبير من مصادرات الشيخية، وقبضوا على جماعة كبيرة من حواشيه، منهم: علم الدين داود، وصلاح الدين أخوه ابنا الكويز - قبض عليهما من بيت نصراني بدمشق، فأهينا - وقبض أيضاً على شهاب الدين أحمد الصفدي موقع الأمير شيخ، وتوجه الطواشي فيروز الخازندار فتسلمهم من دمشق. هذا والملك الناصر مستمر على حصار قلعة صرخد، وأحرق جسر القلعة، فامتنع شيخ بمن معه داخلها. فأنزل السلطان الأمراء حول القلعة، وألزم كل أمير أن يقاتل من جهته، والسلطان في لهوه وطربه لا يركب إلى جهة القلعة إلا ثملاً. ثم طلب السلطان مكاحل النفط، والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق، ونصبها حول القلعة - وكان فيها ما يرمي بحجر زنته ستون رطلاً دمشقياً. وتمادى الحصار ليلاً ونهاراً، حتى قدم المنجنيق من دمشق على مائتي جمل، فلما تكامل نصبه ولم يبق إلا أن يرمى بحجره، وزنة حجره تسعون رطلاً بالدمشقي. فلما رأى شيخ ذلك خاف خوفاً عظيماً، وتحقق أنه متى ظفر به الملك الناصر على هذه الصورة لا يبقيه، فترامى على الوالد، وعلى بقية الأمراء، وألقى إليهم الأوراق في السهام. وأخذ شيخ لا يقطع كتبه عن الوالد في كل يوم وساعة، وهو يقول له في الكتب: صن دماء المسلمين واجعلنا عتقاءك، وما لك فينا جميلة، فإننا إنياتك، وخشداشيتك، ولم يكن في القوم من له علي أنا خاصة شفقة وإحسان غيرك وأنت أتابك العساكر وحمو السلطان، وأعظم مماليك أبيه، فأنت عنده في مقام برقوق، وكلمتك لا ترد عنده، وشفاعتك مقبولة وأشياء كثيرة من هذا الكلام وأشباهه. وكان الوالد يميل إلى الأمير شيخ لما كان لشيخ عليه من الخدم بالقصر السلطاني أيام أستاذهما الملك الظاهر برقوق من تلبيسه القماش، والقيام في خدمه. ثم كاتب شيخ أيضاً الأمير جمال الدين الأستادار، وفتح الله كاتب السر، وكان جمال الدين قد انحط قدره عند الملك الناصر في الباطن، واتفق السلطان مع الوالد على مسكه بدمشق، فمنعه الوالد من ذلك، ووعده أنه يكفيه أمره ويمسكه بالقرب من القاهرة، حتى لا يفر أحد من أقاربه وحواشيه.

ثم أصبحوا يوم الأحد، ركب الوالد وكاتب السر وجماعة من الأمراء، وطلعوا إلى قلعة صرخد، وجلسوا على عادتهم، وخرج شيخ وجلس على باب القلعة. وأحلف فتح الله من بقي مع شيخ من الأمراء للسلطان، وهم جانم من حسن شاه نائب حماة، وقرقماس ابن أخي دمرداش - وقد فارق عمه دمرداش، وصار من حزب شيخ - وتمراز الأعور. وأفرج شيخ عن تجار دمشق، الذين كان قبض عليهم لما خرج عن

الطاعة وصادرهم. ثم بعث شيخ بتقدمة إلى السلطان فيها عدة مماليك.

وتقرر الحال على أن شيخاً المذكور يكون نائب طرابلس، وأن يلبس التشريف السلطاني إذا رحل السلطان. ثم قام الوالد ومن معه وسلم على شيخ، وعاد إلى السلطان.

فرحل السلطان من وقته، وسار حتى نزل زرع وبات بها. ثم سار حتى قدم دمشق يوم الثلاثاء أول شهر ربيع الآخر، بعد أن جد في السير، فنزل بدار السعادة على عادته.

وأما شيخ فإنه نزل من قلعة صرخد بعد رحيل السلطان، ولبس التشريف السلطاني بنيابة طرابلس، وقبل الأرض على العادة، ثم قبل يد الوالد غير مرة. ثم جهز شيخ ولده إبراهيم صحبة الوالد إلى السلطان الملك الناصر. ورحل الوالد، ورحل معه سائر من تخلف عنده من الأمراء، منهم: بكتمر جلق نائب الشام - وهو أعدى عدو للأمير شيخ - وساروا حتى وصلوا الجميع دمشق في سابع شهر ربيع الآخر المذكور. وأحضر الوالد إبراهيم ابن الأمير شيخ إلى السلطان، فأكرمه السلطان وخلع عليه، وأعاده إلى أبيه، ومعه خيول، وجمال، وثياب، ومال كبير.

ثم خلع السلطان على الشريف جماز بن هبة الله بإمرة المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - وشرط عليه إعادة ما أخذه من الحاصل بالمدينة.

ثم في رابع عشر شهر ربيع الآخر المذكور، خرج قضاة مصر الذين كانوا في صحبة الملك الناصر من دمشق عائدين إلى الديار المصرية، وهم وكثير من الأثقال، ونزلوا بداريا خارج دمشق. ثم طلبت القضاة من يومهم فعادوا إلى مدينة دمشق، لعقد قران، ابنة السلطان على الأمير بكتمر جلق نائب الشام.

ثم ركب السلطان من غيتا وسار حتى نزل بالخانقاه، ثم سار حتى طلع إلى قلعة الجبل في يوم السبت حادى عشر جمادى الأولى المذكور، بعد أن زينت له القاهرة ومصر، وخرج الناس لتلقيه، فكان لدخوله يوم عظيم، وحمل الوالد على رأسه القبة والطير. ولما استقر السلطان بقلعة الجبل - وقد حبس بها جمال الدين - ثم رسم السلطان للوالد أن يتسلم جمال الدين ويعاقبه، فقال الوالد: يا مولانا السلطان جمال الدين كلب لا يتسلمه إلا كلب مثله، فقال تاج الدين عبد الرزاق بن الهيصم: يا خوند! أنا ذلك الكلب، فسلمه السلطان له.

ثم قدم الخبر بأخذ شيخ دمشق، وفرار بكتمر جلق إلى صفد. وأرسل الأمير شيخ محضراً يتضمن أنه كان يريد التوجه إلى طرابلس، فلما وصل شقحب قصده بكتمر جلق وقاتله، فركب ودفع عن نفسه، وشهد له في المحضر جماعة كبيرة من أهل

دمشق وغيرها. وكان الأمر كما قاله شيخ - حسبما ذكرناه قبل تاريخه وسكت الوالد، واحتار في نفسه بين بكتمر وشيخ، فإنه كان يميل إلى كل منهما.

ثم قدم في أثناء ذلك الأمير بكتمر جلق إلى القاهرة في سابع عشرين جمادى الأولى، بعد دخول السلطان إلى القاهرة بنحو ستة عشر يوماً، وقدم صحبة بكتمر المذكور الأمير بردبك نائب حماة، والأمير نكباي حاجب دمشق، والأمير ألطنبغا العثماني، والأمير يشبك الموساوي الأفقم نائب غزة، فخرج السلطان إلى لقائهم، ودخل بهم من باب النصر، وشق القاهرة وخرج من باب زويلة، ونزل بدار الأمير طوخ - أمير مجلس - يعوده في مرضه، ثم طلع إلى القلعة. ولم يعتب السلطان على الوالد في أمر شيخ، ولا فاتحه الوالد في أمره، حتى قال الوالد لبعض مماليكه: كأن السلطان عذر الأمير شيخاً فيما وقع منه - والله أعلم.

ثم ورد الخبر على السلطان من البلاد الشامية، من دمرداش نائب حلب، بأن الأمير نوروزاً الحافظي قدم إلى حلب، ومعه يشبك بن أزدمر وغيره، وأن الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب تلقاه وأكرمه وحلفه للسلطان، ثم كتب يعلم السلطان بذلك ويسأله أن يعيده إلى نيابة دمشق وأن يولي ابن أزدمر نيابة طرابلس وأن يولي ابن أخيه تغري بردي، المعروف بسيدي الصغير نيابة حماة فأجاب السلطان إلى ذلك، وأرسل الأمير مقبلاً الرومي في البحر إلى نوروز المذكور وعلى يده التقليد والتشريف بنيابة الشام. فوصل إليه مقبل الرومي المذكور في رابع شعبان، فلبس نوروز التشريف، وقبل الأرض، وجدد اليمين للسلطان بالطاعة على كل حال، وعدم المخالفة. ولما بلغ شيخاً ذلك فر منه جماعة من الأمراء وأتوا إلى الأمير نوروز، منهم: تمربغا العلائي المشطوب، وجانم من حسن شاه نائب حماة، وسودون الجلب، وجانبك القرمي، وبردبك حاجب حلب. فلما وقع ذلك أرسل الأمير شيخ إلى السلطان الملك الناصر إمام مسجد، الصخرة بالقدس وجندياً آخر بكتابه، فقدما إلى القاهرة في ثاني جمادى الآخرة المذكور وعلى يدهما أيضاً محضر مكتوب، فغضب السلطان غضباً عظيماً، ووسط الجندي، وضرب إمام الصخرة ضرباً مبرحاً وسجنه بخزانة شمائل.

ثم من الغد أنزل جمال الدين وابنه أحمد على قفصي حمال إلى بيت تاج الدين بن الهيصم. ثم قبض السلطان على الأمير بلاط أحد مقدمي الألوف، وعلى الأمير كزل العجمي حاجب الحجاب، وقيدهما وأرسلهما إلى سجن الإسكندرية.

ثم ورد الخبر بأن الأمير شيخاً توجه لقتال نوروز بحماة، فتوجه وحصره بها، وأن الأمير يشبك الموساوي نائب غزة كان بينه وبين سودون المحمدي وعلان واقعة قتل فيها جماعة، وفر يشبك الموساوي إلى جهة الديار المصرية، وأن علان جرح في

وجهه فحمل إلى الرملة فمات بها.

ولما طال حصار شيخ لنوروز على حماة، خرج دمرداش نائب حلب وقدم إلى حماة - نجدة لنوروز - ومعه عساكر حلب. فلما بلغ شيخاً قدوم دمرداش، بادر بأن ركب وترك وطاقه وأثقاله وتوجه إلى ناحية العربان، فركب دمرداش بكرة يوم الأحد، وأخذ وطاق شيخ واستولى عليه، فعاد شيخ وتقاتلا بمن معهما قتالاً شديداً قتل فيه جماعة كبيرة، منهم: بايزيد - من إخوة نوروز الحافظي - وأسر عدة كبيرة من أصحاب دمرداش، منهم: الأمير محمد بن قطبكي كبير التركمان الأوشرية، وفارس أمير آخور دمرداش، واستولى الأمير شيخ على طبلخاناة الأمير دمرداش، وكسر أعلامه، ثم ركب شيخ وسار يريد حمص.

ثم إن الأمير شيخاً بعد مدة أرسل يخادع السلطان بكتاب يسترضيه ويقول فيه: إنه باق على طاعة السلطان، وحكى ما وقع له مع الأمير بكتمر جلق نائب الشام، ثم ما وقع له مع الأمير نوروز، ثم مع الأمير دمرداش، وأن كل ذلك ليس بإرادته ولا عن قصده، غير أنه يدافع عن نفسه خوفاً من الهلاك، وأنه تاب وأناب ورجع إلى طاعة السلطان. وأرسل أيضاً للوالد بكتاب مثل ذلك، فلم يتكلم الوالد في حقه بكلمة. ثم أخذ شيخ يقول عن نوروز أشياء ويغري السلطان به، من ذلك أنه يقول: إن نوروزاً يريد الملك لنفسه، وهو حريص على ذلك من أيام السلطان السعيد الشهيد الملك الظاهر برقوق، وأنه لا يطيع أبداً، وأنه هو لا يريد إلا الانتماء إلى السلطان فقط، ورغبتة في عمل مصالح العباد والبلاد. ثم كرر السؤال في العفو والصفح عنه في هذه المرة، فلم يمش ذلك على الملك الناصر ولم يلتفت إلى كتابه.

وأما الأمير شيخ، فإنه كمل في هذا الشهر - وهو ذو الحجة من سنة اثنتي عشرة وثمانمائة - سبعة أشهر وهو يقاتل نوروزاً ودمرداش، ويحاصرهما بحماة، ووقع بينهم في هذه المدة المذكورة حروب وخطوب يطول شرحها، وقتل بينهم خلائق لا تحصى. واشتد الأمر على نوروز وأصحابه بحماة، وقلت عندهم الأزواد وقاسوا شدائد حتى وقع الصلح بينه وبين الأمير شيخ، وذلك عندما سمعوا بخروج الملك الناصر فرج إلى البلاد الشامية، وخاف نوروز إن ظفر به الملك الناصر لا يبقيه، فاحتاج إلى الصلح. وحلف كل من نوروز وشيخ لصاحبه، واتفقا على أن نوروزاً يمسك دمرداش نائب حلب، وأن شيخاً يمسك ابن أخيه قرقماس - المدعو سيدي الكبير - ففطن دمرداش بذلك، وأرسل أعلم ابن أخيه قرقماس المذكور مع بعض الأعوان، وهرب دمرداش من نوروز إلى العجل ابن نعير، وفر ابن أخيه قرقماس من عند شيخ إلى أنطاكية. والعجب أن قرقماس المذكور كان قد صار من حزب شيخ، وترك عمه دمرداش وخالفه وصار يقاتل نوروزاً وعمه هذه المدة الطويلة،

وعمه دمرداش يرسل إليه في الكف عن قتالهم يدعوه إلى طاعة نوروز ويوبخه بالكلام وهو لا يلتفت، ولا يبرح عن الأمير شيخ. حتى بلغه من عمه أن شيخاً يريد القبض عليه، فعند ذلك تركه وهرب. ثم إن - الأمير نوروزاً قصد حلب وأخذها واستولى عليها. وهرب مقبل الرومي، الذي كان حمل للأمير نوروز التقليد بنيابة الشام، ولحق بالسلطان على غزة.

وأما السلطان الملك الناصر، فإنه أخذ في التجهيز إلى السفر نحو البلاد الشامية، وعظم الاهتمام في أول محرم سنة ثلاث عشرة وثمانمائة.

ثم ركب السلطان بأمرائه وخواصه وعاد إلى مخيمه بالريدانية، وأقام به إلى أن رحل منه في يوم السبت تاسع شهر ربيع الأول المذكور، يريد البلاد الشامية.

وأما الأمير شيخ، فإنه لما بلغه خروج السلطان من الديار المصرية، لم يثبت، وداخله الخوف. وخرج من دمشق في يوم الثلاثاء سادس وعشرين شهر ربيع الأول المذكور بعساكره ومماليكه، وتبعه الأمير جانم نائب حماة. فدخل بكتمر جلق إلى الشام من الغد في يوم سابع وعشرينه - على حين غفلة - حتى يطرق شيخاً، نفاته شيخ بيوم واحد، لكنه أدرك أعقابه وأخذ منهم جماعة، ونهب بعض أثقال شيخ. ثم دخل السلطان الملك الناصر إلى دمشق بعد عشاء الآخرة من ليلة الخميس ثامن وعشرينه، وقد ركب من بحيرة طبرية في عصر يوم الأربعاء على جرائد الخيل ليكبس شيخاً، ففاته بيسير. وكان شيخ قد أتاه الخبر وهو جالس بدار السعادة من دمشق، فركب من وقته وترك أصحابه، ونجا بنفسه بقماش جلوسه، فما وصل إلى سطح المزة إلا وبكتمر جلق داخل دمشق ومر شيخ على وجهه منفرداً عن أصحابه، ومماليكه وحواشيه في أثره، والجميع في أسوإ ما يكون من الأحوال.

ولما دخل السلطان إلى دمشق، أصبح نادى بدمشق بالأمان والاطمئنان لأهل الشام، وألا ينزل أحد من العسكر في بيت أحد من الشاميين، ولا يشوش أحد منهم على أحد في بيع ولا شراء، ونودي أن الأمير نوزوزاً الحافظي هو نائب الشام

ثم في ثاني ربيع الآخرة قدم الأمير شاهين الزردكاش نائب صفد على السلطان بدمشق ثم في ثالثه خلع السلطان على الأمير يشبك الموساوي الأفقم باستقراره في نيابة طرابلس، واستقر أبو بكر بن اليغموري في نيابة بعلبك وأخوه شعبان في نيابة القدس. ثم في سادس شهر ربيع الآخر المذكور، خرج أطلاب السلطان والأمراء من دمشق إلى برزة، وصلى السلطان الجمعة بجامع بني أمية، ثم ركب وتوجه بأمرائه وعساكره جميعاً إلى أن نزل بمخيمه ببرزة وخلع السلطان على شاهين الزردكاش نائب صفد باستقراره نائب الغيبة بدمشق، وسكن شاهين بدار السعادة. وتأخر بدمشق

من أمراء السلطان الأمير قاني باي المحمدي، لضعف كان اعتراه، وتخلف بدمشق أيضاً القضاة الأربعة، والوزير سعد الدين بن البشيري وناظر الخاص مجد الدين بن الهيصم. وسار السلطان بعساكره إلى جهة حلب حتى وصلها، في قصد شيخ ونوروز بمن معهما من الأمراء، ثم كتب السلطان لنوروز وشيخ يخيرهما، إما الخروج من مملكته، أو الوقوف لمحاربته، أو الرجوع إلى طاعته: يريد - بذلك - الملك الناصر الشفقة على الرعية من أهل البلاد الشامية، لكثرة ما صار يحصل لهم من الغرامة والمصادرة، وخراب بلادهم من كثرة النهابة من جهة العصاة. ثم أخبرهما الملك الناصر أنه عزم على الإقامة بالبلاد الشامية السنتين والثلاثة حتى ينال غرضه، فأجابه الأمير شيخ بأنه ليس بخارج عن طاعته، ويعتذر عن حضوره بما خامر قلبه من شدة الخوف والهيبة عندما قبض عليه السلطان مع الأتابك يشبك الشعباني في سنة عشر وثمانمائة، وأنه قد حلف لا يحارب السلطان ما عاش، من. يوم حلفه الأمير الكبير تغري بردي - أعني الوالد - في نوبة صرخد، وكرر الإعتذار عن محاربته لبكتمر جلق، حتى قال: وإن كان السلطان ما يسمح له بنيابة الشام على عادته، فينعم عليه بنيابة أبلستين، وعلى الأمير نوروز بنيابة ملطية، وعلى يشبك ابن أزدمر بنيابة عين تاب، وعلى غيرهم من الأمراء ببقية القلاع، فإنهم أحق من التركمان المفسدين في الأرض - وكان ما ذكروه على حقيقته - فلم يرض السلطان بذلك، وصمم على الإقامة ببلاد الشام، وكتب يستدعي التركمان وغيرهم، كل ذلك والسلطان بأبلستين. وبيناهم في ذلك فارق الأمير سودون الجلب شيخاً ونوروزاً، وتوجه إلى الكرك واستولى عليها بحيلة تحيلها.

ثم عاد السلطان إلى حلب في أول جمادى الآخرة، ولم يلق حرباً، فقدم عليه بها قرقماس ابن أخي دمرداش - المدعو سيدي الكبير - والأمير جانم من حسن شاه نائب حماة - كان - فأكرمهما السلطان، وأنعم على قرقماس بنيابة صفد، وعلى جانم بنيابة طرابلس، واستقر الأمير جركس والد تنم حاجب حجاب دمشق، ثم خلع على الأمير بكتمر جلق باستقراره في نيابة الشام ثانياً، وأنعم بإقطاعه على الأمير دمرداش المحمدي نائب حلب، ثم بعد مدة غير السلطان قرقماس - سيدي الكبير - من نيابة صفد إلى نيابة حلب، عوضاً عن عمه أمير دمرداش المحمدي، وأخلع على أخيه تغري بردي - المدعو سيدي الصغير - باستقراره في نيابة صفد.

وبينما السلطان في ذلك بحلب، ورد عليه الخبر بأن شيخاً ونوروزاً وصلا عين تاب، وسارا على البرية إلى جهة الشام، فركب السلطان مسرعاً من حلب على حين غفلة في ثالث وعشرين شهر رجب ببعض عساكره، وسار حتى دخل دمشق في أربعة أيام، ثم قدم في أثره الوالد بغالب العساكر، ثم الأمير بكتمر جلق نائب الشام، ثم بقية

الأمراء والعساكر.

ثم في ثالث شعبان قدم الأمير تمراز الناصري نائب السلطنة - كان - إلى دمشق في خمسين فارساً، داخلاً في طاعة السلطان بعدما فارق شيخاً ونوروزاً، فركب السلطان وتلقاه وبالغ في إكرامه. قلت: وتمراز هذا هو الذي كان فر من السلطان في ليلة بيسان ومعه عدة أمراء - وقد تقدم ذكر ذلك في وقته.

وأما شيخ ونوزوز، فإنهما لما سار السلطان عن أبلستين خرجا من قيسارية بمن معهم، وجاؤوا إلى أبلستين فمنعهم أبناء دلغادر وقاتلوهم، فانكسروا منهم وفروا إلى عين تاب، فلما قربوا من تل باشر تمزقوا، وأخذت كل طائفة جهة من الجهات، فلحق بحلب ودمشق منهم عدة وافرة، واختفى منهم جماعة. ومر شيخ ونوروز بحواشيهما على البرية إلى تدمر فامتاروا منها، ومضوا مسرعين إلى صرخد وتوجهوا إلى البلقاء ودخلوا بيت المقدس، ثم توجهوا إلى غزة بعد أن مات من أصحابهم الأمير تمربغا المشطوب نائب حلب - كان - والأمير إينال المنقار، كلاهما بالطاعون بمدينة حسبان ثم قدم عليهم سودون الجلب من الكرك، فتتبعوا ما بغزة من الخيول فأخذوها، وأقاموا بها حتى أخرج السلطان إليهم بكتمر جلق على عسكر كبير، فسار إلى زرع، ثم كتب للسلطان يطلب نجدة، فأخرج إليه السلطان من دمشق بعسكر هائل من الأمراء والمماليك السلطانية، ورأس الأمراء الأمير تمراز الناصري خر، - الذي قدم على السلطان طائعاً بدمشق - ويشبك الموساوي الأفقم، وألطنبغا العثماني، وأسنبغا الزردكاش وسودون الظريف نائب الكرك - كان - والأمير طوغان الحسني رأس نوبة النوب، فخرجوا من دمشق مجدين في السير إلى قاقون - وبها الأمير بكتمر جلق - فساروا جميعاً إلى غزة، فقدموها في عصر يوم الثلاثاء من ثالث شهر رمضان، وقد رحل شيخ ونوروز بمن معهما بكرة النهار عندما قدم عليهم سودون بقجة وشاهين الدوادار من الرملة، وأخبراهم بقدوم عسكر السلطان إليهم، فنهبوا غزة وأخذوا منها خيولاً كثيرةً وغلالاً، فتبعهم الأمير خير بك نائب غزة إلى الزعقة، وسارت كشافته في أثرهم إلى العريش، ثم عادوا إلى غزة.

فلما وصل بكتمر جلق بمن معه من الأمراء إلى غزة، وبلغه توجه شيخ ونوروز إلى جهة مصر، أرسل بكتمر الأمير شاهين الزردكاش والأمير أسنبغا الزردكاش على البرية إلى مصر ليخبرا من بقلعة الجبل بقدوم شيخ ونوروز إلى مصر، فسارا وسبقا شيخاً ونوروزاً، وعرفا الأمير أرغون الأمير آخور وغيره ممن هو من الأمراء بمصر، ورد جواب أرغون على بكتمر بأنه حضن قلعة الجبل، والأسطبل السلطاني، ومدرسة السلطان حسن، ومدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين - التي كانت تجاه الطبلخاناه عند الصوة - وأنه هو ومن معه قد استعدوا للقاء شيخ ونوروز.

فلما كانت ليلة الاثنين، كسرت خوخة أيدغمش، ودخلت طائفة من الشاميين إلى القاهرة، ومعهم طوائف من العامة، ففتحوا باب زويلة - وكان والي القاهرة حسام الدين الأحول، وقد اجتهد في تحصين المدينة - ثم كسروا باب خزانة شمائل، وأخرجوا من كان بها، وكسروا سجن الديلم أيضاً، وسجن رحبة باب العيد، وانتشروا في حارات القاهرة، ونهبوا بيت كمشبغا الجمالي، وتتبعوا الخيول والبغال من الإسطبلات التي للناس، وغيرها، وأخذوا منها شيئاً كثيراً.

وبينما كافور الزمام في مدافعتهم لاحت طلائع العسكر السلطاني لمن كان شيخ أوقفه من أصحابه يرقبهم بالمآذن بقلعة الجبل، وقد ارتفع العجاج، واقبلوا سائقين سوقاً عظيماً جهدهم. فلما بلغ شيخاً وأصحابه ذلك لم يثبتوا ساعة واحدةً، وركبوا من فورهم ووقفوا قريباً من باب السلسلة، فدهمهم العسكر السلطاني فولوا هاربين نحو باب القرافة، والعسكر في أثرهم، فكبا بالأمير شيخ فرسه عند سوق الخيم بالقرب من باب القرافة، فتقنطر من عليه، فلم يستطع النهوض ثانياً، لعظم روعه وسرعة حركته، فأركبه بعض أمراء آخوريته - يقال إنه الأمير جلبان الأمير آخور، الذي كان ولي نيابة الشام في دولة الملك الظاهر جقمق إلى أن مات في دولة الملك الأشرف إينال في سنة ثمان وخمسين وثمانمائة - وركب شيخ ولحق بأصحابه، فمروا على وجوههم على جرائد الخيل، وتركوا ما أخذوه من القاهرة، وأيضاً ما كان معهم، وساروا على أقبح وجه بعد أن قبض عسكر السلطان على جماعة من أصحاب شيخ، مثل الأمير قرا يشبك - قرب - نوروز - وبردبك رأس نوبة نوروز - لأن نوروزاً ثبت قليلاً بالرميلة بعد فرار الأمير شيخ - وعلى برسباي الطقطائي أمير جاندار، وثمانية وعشرين فارساً، وجرح جماعة كبيرة، منهم السيفي يشبك الساقي الظاهر - الذي ولي في الدولة الأشرفية برسباي، الأتابكية - ومن هذا الجرح صار أعرج بعد أن أشرف على الموت.

ودخل الأمير بكتمر جلق بعساكره، وأرسل الأمير سودون الحمصي فاعتقل جميع من أمسك من الشاميين، وأخذ يتتبع من بقي من الشامية بالقاهرة. ثم نادى في الوقت بالأمان. ثم أخذت عساكره يقتلون في الشاميين، ويأسرون وينهبون إلى طموه وألزم بكتمر جلق والي القاهرة بمسك الزعر الذين قاموا مع الشاميين، فأبادهم الوالي، وقطع أيدي جماعة كبيرة، وحبس جماعة أخر بعد ضربهم بالمقارع. وأخذ الأمير بكتمر جلق في تمهيد أحوال الديار المصرية. وقدم عليه الخبر في ليلة الأربعاء حادي عشر من شهر رمضان المذكور بأن شيخاً نزل إطفيح، وأن شعبان بن محمد بن عيسى العائذي توجه بهم إلى نحو الطور، فنودي بالقاهرة ومصر بتحصيل من اختفى من الشاميين بها. ثم قدم الخبر بوصولهم إلى السويس، وأنهم أخذوا علفاً كان

هناك للتجار، وزاداً وجمالاً، وسار بهم شعبان بن عيسى في درب الحاج إلى نخل، فأخذوا عدة جمال للعربان، وأن شعبان المذكور أمدهم بالشعير والزاد، وأنهم افترقوا فرقتين، فرقة رأسها الأمير نوروز الحافظي ويشبك بن أزدمر وسودون بقجة، وفرقة رأسها الأمير شيخ المحمودي وسودون تلي المحمدي وسودون قراصقل، وكل فرقة منهما معها طائفة كبيرة من الأمراء والمماليك، وأنهم لما وصلوا إلى الشوبك دفعهم أهلها عنها، فساروا إلى جهة الكرك وبها سودون الجلب، فتضرعوا له حتى نزل إليهم من قلعة الكرك، وتلقاهم وادخلهم مدينة الكرك، وأنهم استقروا بالكرك.

وأما الأمير بكتمر جلق بمن معه من الأمراء والعساكر السلطانية، فإنهم أقاموا إلقاهرة نحو ستة أيام حتى تحققوا توجه القوم إلى جهة البلاد الشامية، فخرجوا من القاهرة في يوم سادس عشر من رمضان يريدون البلاد الشامية إلى الملك الناصر وهو بدمشق، وتأخر بالقاهرة من الأمراء من أصحاب بكتمر جلق: طوغان الحسني رأس نوبة النوب - وقد استقر قبل تاريخه دواداراً كبيراً بعد موت الأمير قراجا بطريق دمشق، في ذهاب الملك الناصر إلى الشام - ويشبك الموساوي الأفقم، وشاهين الزردكاش، وأسنبغا الزردكاش. وسار بكتمر جلق بمن بقي حتى وصل دمشق.

وأما السلطان الملك الناصر، فإنه كان في هذه الأيام بدمشق، وبلغه ما وقع بالديار المصرية مفصلاً، لكن نقل إليه أن بكتمر جلق وطوغان الحسني قصرا في أخذ شيخ ونوروز، ولو قصدا أخذهما لأمكنهم ذلك، فأسرها الملك الناصر في نفسه. قلت: ولا يبعد ذلك، لما حكى لي غير واحد - ممن حضر هذه الواقعة - من ضعف شيخ ونوروز، وتقاعد الأمراء عن المسير في أثرهم. ولما بلغ الملك الناصر ذلك لم يسعه إلا السكات، وعدم معاتبة الأمراء على ذلك.

ثم إن السلطان أمسك الأمير جانبك القرمي بدمشق في يوم الاثنين أول شوال، وضربه ضرباً مبرحاً، وسجنه بقلعة دمشق. ثم أمر السلطان الأمير قرقماس ابن أخي دمرداش - المعروف بسيدي الكبير - بالمضي إلى محل كفالته بحلب، فسار من دمشق عائداً إلى حلب. واستمر السلطان بدمشق إلى يوم سابع عشر ذي القعدة، وخرج منها إلى قبة يلبغا، ورحل من الغد بأمرائه وعساكره يريد الكرك بعد ما تحقق نزول الأمراء بالكرك. وخلع على بكتمر جلق بنيابة الشام على عادته، وعاد بكتمر إلى دمشق.

وأما شيخ ونوروز وجماعتهما، فإنهم أقاموا بالكرك أياماً، واطمأنوا بها، ثم أخذوا في تحصينها. فلما كان بعض الأيام نزل الأمير شيخ ومعه الأمير سودون بقجة، وقاني باي المحمدي في طائفة يسيرة من قلعة الكرك إلى حمام الكرك، فدخل جميع هؤلاء

الحمام. وبلغ ذلك الأمير شهاب الدين أحمد حاجب الكرك، فبادر بأصحابه ومعه جمع كبير من أهل البلد، واقتحموا الحمام المذكور ليقتلوا بها الأمير شيخاً وأصحابه، فسبقهم بعض المماليك وأعلم الأمير شيخاً، فخرج من وقته من الحمام ولبس ثيابه ووقف في مسلخ الحمام عند الباب، ومعه أصحابه الذين كانوا معه في الحمام، فطرقهم القوم بالسلاح، فدافع كل واحد منهم عن نفسه، وقاتلوا قتال الموت، حتى أدركهم الأمير نوروز بجماعته، فقاتلوهم حتى هزموهم بعد ما قتل الأمير سودون بقجة، وأصاب الأمير شيخاً سهم غار في بدنه، فنزف منه دم كثير حتى أشرف على الموت، وحمل إلى قلعة الكرك فأقام ثلاثة أيام لا يعقل، ثم أفاق. ومن هذه الرجفة حصل له مرض المفاصل الذي تكسح منه بعد سلطنته، هكذا ذكر المؤيد لبعض أصحابه.

وأما الأمير نوروز لما بلغه قتل سودون بقجة وهو يعارك القوم جد في قتالهم حتى كسرهم، وقتل منهم مقتلة عظيمة، ثم عاد إلى الكرك وقد جرح من أصحابه جماعة. وبلغ هذا الخبر السلطان الملك الناصر فسر بقتل سودون بقجة سروراً عظيماً، لكثرة ما كان أحسن إليه ورقاه حتى ولاة نيابة طرابلس، فتركه وتوجه إلى الأمير شيخ ونوروز من غير أمر أوجب تسحبه، بل لأجل خاطر أغاته وحميه الأمير تمراز النائب. ثم وقع بين الأمراء وبين سودون الجلب بالكرك، فنزل سودون الجلب من الكرك وتركها لهم، ومضى حتى عدى الفرات.

وأما السلطان الملك الناصر، فإنه سار من مدينة دمشق حتى نزل على مدينة الكرك في يوم الجمعة رابع وعشرين ذي القعدة، وأحاط بها ونصب عليها الآلات، وجد في قتالها، وحصرها وبها شيخ ونوروز وأصحابهما، واشتد الحصار عليهم بالكرك. وأخذ الملك الناصر يلازم قتالهم حتى أشرفوا على الهلاك والتسليم. ثم أخذ شيخ ونوروز والأمراء يكاتبون الوالد ويتضرعون إليه، وهو يتبرم من أمرهم والكلام في حقهم، ويوبخهم بما فعله الأمير شيخ مع بكتمر جلق بعد حلفه في واقعة صرخد، فأخذ شيخ يعتذر ويحلف بالأيمان المغلظة أن بكتمر جلق كان الباغي عليه والبادئ بالشر، وأنه هو دفع عن نفسه لا غير، وأنه ما قصده في الدنيا سوى طاعة السلطان، وأنت الأمير الكبير، وأكبر خشداشيتنا، إن لم تتكلم بيننا في الصلح وإلا فمن يتكلم؟ ثم كاتبوا أيضاً جماعة من الأمراء في طلب العفو والصلح. ولازالوا حتى تكلم الوالد مع السلطان في أمرهم، فأبى السلطان إلا قتالهم وأخذهم، والوالد يمعن في ذلك حتى ابترم الصلح غير مرة والسلطان يرجع عن ذلك.

ثم ترددت الرسل بينهم وبين السلطان أياماً حتى انعقد الصلح، على أن يكون الوالد نائب الشام، وأن يكون الأمير شيخ نائب حلب، وأن يكون الأمير نوزوز نائب

طرابلس، وكان ذلك بإرادة شيخ ونوروز، فإنهما قالا: لا نرضى أن يكون بكتمر جلق أعلى منا رتبة بأن يكون نائب الشام، ونحن أقدم منه عند السلطان، فإن كان ولا بد، فيكون الأمير الكبير تغري بردي في نيابة الشام، ونكون نحن تحت أوامره، ونسير في المهمات السلطانية تحت سنجقه، وأما بكتمر ودمرداش فلا. وإن فعل السلطان ذلك لا يقع منا بعدها مخالفة أبداً

ولما بلغ الأمراء والعساكر هذا القول أعجبهم غاية الاعجاب، وقد ضجر القوم من الحصار، وملوا من القتال، فلا زالوا بالسلطان حتى أذعن ومال إلى تولية الوالد نيابة الشام، وكلم الوالد في ذلك، فأبى وامتنع غاية الامتناع. وكان السلطان قد شرط على الأمراء شروطاً كثيرة فقبلوها، على أن يكون الوالد نائب دمشق. وأخذ الملك الناصر يكلم الوالد في ذلك والوالد مصمم على عدم القبول، وأرمى سيفه غير مرة بحصرة السلطان، وأراد التوجه إلى القدس بطالاً.

وصار الوالد كلما امتنع من الاستقرار وحنق يكف عنه السلطان، فإذا رضي كلمه. ثم سلط عليه الأمراء فكلموه من كل جهة حتى قبل. ثم قام إليه السلطان واعتنقه، وطلب الخلعة فجيء بها في الحال، وألبسها للوالد باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن بكتمر جلق. واستقر الأمير شيخ في نيابة حلب عوضاً عن قرقماس سيدي الكبير، والأمير نوروز في نيابة طرابلس عوضاً عن جانم من حسن شاه. واستقر جانم المذكور أمير مجلس بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية. واستقر تغري بردي سيدي الصغير في نيابة حماة على عادته. ورسم للأمير سودون من عبد الرحمن نائب صفد أن ينتقل من نيابة صفد إلى تقدمة ألف بالديار المصرية، وأن يكون الأمير يشبك بن أزدمر أتابك دمشق عند الوالد، فإنه كان من ألزامه، وعقد عقده بعد ذلك على إحدى بناته - ولها من العمر نحو ثلاث سنين - ويكون قاني باي المحمدي أميراً بحلب عند الأمير شيخ. ثم شرط السلطان على شيخ ونوروز ألا يخرجا إقطاعاً، ولا إمرةً، ولا وظيفة لأحد في الناس إلا بمرسوم السلطان، وأن يسلما قلعة الكرك إلى السلطان، ويسلم شيخ قلعة صهيون وصرخد أيضاً، فرضوا بذلك جميعه، وحلفوا على طاعة السلطان. وخلع السلطان عليهم خلعاً جليلة، ومد لهم سماطاً أكلوا منه.

ثم رحل السلطان من الكرك بعساكره يريد القدس، فوصله وأقام به خمسة أيام، ثم خرج منه وسار يريد القاهرة.

ثم قدم الخبر على السلطان بأن شيخاً ونوروزاً لم يمضيا حكم المناشير السلطانية، وأنهما أخرجا إقطاعات حلب وطرابلس لجماعتهما، وأن الأمير شيخاً سير يشبك العثماني لمحاصرة قلعة البيرة وقلعة الروم، وأن عزمهما العود لما كانا عليه من

الخروج عن الطاعة.

فعلم السلطان عند ذلك أن الذي يحرك هؤلاء على الخروج عن الطاعة والعصيان إنما هم المماليك الظاهرية برقوق، الذين هم في خدمة السلطان، ووافقه على ذلك أكابر أمرائه، وحسنوا له القبض عليهم، وكان الوالد ينهاه عن مسكهم، ويحذره من الوقوع في ذلك. فلما استقر الوالد في نيابة دمشق خلا له الجو، وفعل ما حدثته نفسه مما كان فيه ذهاب روحه، فقبض الملك الناصر على جماعة كبيرة منهم، وحبسهم بالبرج من القلعة، ثم قتلهم بعد شهر، وكانوا جمعاً كبيراً.

وفي هذا الشهر تأكد عند السلطان خروج شيخ ونوروز عن طاعته، وبلغه أن نوروزاً قتل آق سنقر الحاجب، فتحقق السلطان عصيان المذكورين.

ثم ذبح السلطان في ليلة ثالث شوال أزيد من مائة نفس من المماليك السلطانية الظاهرية المحبوسين بالبرج، ثم ألقوا من سور القلعة إلى الأرض، ورموا في جب مما يلي القرافة، واستمر الذبح فيهم.

ثم قدم كتاب الأمير نوروز الحافظي على السلطان على يد فقيه يقال له سعد الدين، ومملوك آخر، ومعهما محضر شهد فيه ثلاثة وثلاثون رجلاً من أهل طرابلس - ما بين قاض وفقيه وتاجر - بأنه لم يظهر منه بطرابلس منذ قدم إليها إلا الإحسان للرعية، والتمسك بطاعة السلطان، وامتثال مراسيمه، وأن أهل طرابلس كانوا قد خرجوا منها في أيام جانم لما نزل بهم من الضرر والظلم، فعادوا إليها أيام نوروز المذكور، وأنه كلما ورد عليه مثال سلطاني يتكرر منه تقبيل الأرض، وأنه حلف - بحضرة من وضع خطه - بالأيمان المغلظة الجامعة لمعاني الحلف أنه مقيم على طاعة السلطان، متمسك بالعهد واليمين، فلم يغتر السلطان بالمحضر ولا التفت إليه، لما ثبت عنده من عصيانهما قلت: ولهذه الأيمان الحانثة ذهب الجميع على السيف في أسرع مدة، حتى إنني لا أعلم أن أحداً من هؤلاء الأمراء مات على فراشه، بل غالبهم تفانوا قتلاً على أنواع مختلفة لتجرئهم على الله تعالى. وكان يمكنهم الخروج على الملك الناصر المذكور لسوء سيرته فيهم ثم يعودون إلى طاعته من غير أن يتعرضوا للأيمان والعهود، والتلاعب بذلك في كل قليل، وصار ذلك دأباً لهم إلى أن سلط الله بعضهم على بعض، فذهبوا كأنهم لم يكونوا - مع قوتهم، وشدة بأسهم، وفرط شجاعتهم - وملك بعدهم من لم يكن في رتبتهم ولا يدانيهم في معنى من المعاني، ودانت له البلاد، وأطاعته العباد، وصفا له الوقت من غير معاند ولا مدافع.{وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ } [الطلاق: ٢ - ٣] ثم إن السلطان الملك الناصر بعد حضور هذا المحضر أخذ في الاهتمام للسفر.

ثم ركب السلطان في يوم الثلاثاء ثامن ذي الحجة ونزل من قلعة الجبل ببقية أمرائه وعساكره - والجميع عليهم آلة السلاح - بزي لم ير أحسن منه، بطلب هائل جر فيه ثلاثمائة جنيب من خواص الخيل بالسروج الذهب التي بعضها مرصع بالفصوص المجوهرة المثمنه، ومياثرها المخمل المطرز بالزركش، وعلى أكفالها العبي الحرير المثمنة، وفيها العبي المزركشة بالذهب، وفيها بالكنابيش الزركش، والكنابيش المثلثة بالزركش والريش واللؤلؤ، وكلها باللجم المسقطة بالذهب والفضة، والبذلات المينة والبذلات الذهب الثقيلة، ومن وراء الجنائب المذكورة ثلاثة الآف فرس ساقها جشاراً، ثم عدد كبير من العجل التي تجرها الأبقار وعليها الآت الحصار، من مكاحل النفط الكبار ومدافع النفط المهولة، والمناجيق العظيمة ونحو ذلك. ثم خرجت خرانة السلاح - أعني الزردخاناه - على أكثر من ألف جمل تحمل القرقلات، والخوذ، والزرديات، والجواشن، والنشاب، والرماح، والسيوف وغير ذلك.

وأما السلطان الملك الناصر فإنه قبل المسير حذر عسكره من الرحيل قبل النفير، فبلغه وهو بالريدانية أن طائفة رحلت، فركب بنفسه وقبض على واحد ووسطه، ونصب مشنقة، فما وصل إلى غزة حتى قتل عدةً من الغلمان، من أجل الرحيل قبل النفير، فتشاءم الناس بهذه السفرة.

ثم سار حتى نزل مدينة غزة، فوسط بها تسعة عشر نفراً من المماليك الظاهرية، وهو لا يعقل من شدة السكر. وعقيب ذلك بلغه أن الأمراء الذين بالجاليش توجهوا بأجمعهم إلى شيخ ونوروز. وكان من خبرهم أنهم لما وصلوا إلى دمشق، دخلوا إلى الوالد، وقد ثقل في الضعف، وسلموا عليه، وأخبره بكتمر جلق وطوغان.

ثم خرج السلطان الملك الناصر من دمشق بعساكره في يوم الاثنين سادس المحرم، ونزل برزة. ثم رحل منها يريد محاربة الأمراء، ونزل حسيا بالقرب من حمص، فبلغه رحيل القوم من قارا إلى جهة بعلبك، فترك أثقاله بحسيا وساق أثرهم إلى بعلبك، فوجدهم قد توجهوا إلى البقاع، فقصدهم، فمضوا نحو الصبيبة، فتبعهم حتى نزلوا باللجون، فساق خلفهم وهو سكران لا يعقل، فما وصل إلى اللجون حتى تقطعت عساكره عنه من شدة السوق، ولم يبق معه غير من ثبت على سوقه، وهم أقل ممن تأخر.

وكان قد وصل وقت العصر من يوم الاثنين ثالث عشر المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فوجد الأمراء قد نزلوا باللجون وأراحوا، وفي ظنهم أنه يتمهل ليلته ويلقاهم من الغد، فإذا جنهم الليل ساروا بأجمعهم من وادي عارة إلى جهة الرملة، وسلكوا البرية عائدين إلى حلب، وليس في عزمهم أن يقاتلوه أبداً، لا سيما الأمير

شيخ فإنه لا يريد ملاقاته بوجه من الوجوه. فحال وصول الملك الناصر إلى اللجون أشار عليه الأتابك دمرداش المحمدي أن يريح خيله وعساكره تلك الليلة، ويقاتلهم من الغد، فأجابه السلطان بأنهم يفرون الليلة، فقال له دمرداش المذكور: إلى أين يقوا يتوجهوا يا مولانا السلطان بعد وقوع العين في العين؟ يا مولانا السلطان مماليكك في جهد وتعب من السوق، والخيول كلت، والعساكر منقطعة، فلم يلتفت إلى كلامه، وحرك فرسه ودق بزخمته على طبله، وسار نحو القوم، وحمل عليهم بنفسه من فوره حال وصوله، فارتضمت طائفة من مماليكه في وحل كان هناك.

ثم قبل اللقاء خرج الأمير قجق أحد أمراء الألوف بطلبه من مماليكه وعسكره، وذهب إلى الأمراء، وتداول ذلك من المماليك الظاهرية واحداً بعد واحد، والملك الناصر لا يلتفت إليهم، ويشجع من بقي معه حتى التقاهم وصدمهم صدمة هائلة، قتل فيها من عسكره الأمير مقبل الرومي أحد أمراء الألوف، الذي زوجه الملك الناصر بأخته - زوجة الأمير نوروز - ثم قتل أحد خواصه من الأمراء وهو الأمير ألطنبغا شقل. وتقهقر عسكره مع قلتهم، فانهزم السلطان عند ذلك، بعد أن قاتل بنفسه، وساق يريد دمشق - وكان الرأي توجهه إلى مصر - وتبعه سودون الجلب، وقرقماس ابن أخي دمرداش، ففاتهما الملك الناصر ومضى إلى دمشق. وأحاط القوم بالخليفة المستعين بالله، وفتح الدين فتح الله كاتب السر، وناظر الجيش بدر الدين حسن بن نصر الله، وناظر الخاص ابن أبي شاكر، واستولوا على جميع أثقال الملك الناصر وأمرائه.

وامتدت أيدي أصحاب الأمراء إلى النهب والأسر في أصحاب الملك الناصر، وما غربت الشمس حتى انتصر الأمراء وقوي أمرهم. وأذن المغرب، فتقدم إمام الأمير شيخ، شهاب الدين أحمد بن حسن بن الأذرعي وصلى بهم المغرب، وقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة:{ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [الأنفال: ٢٦].

فوقعت هذه الآية الموقع الحسن، كونهم كانوا في خوف وجزع، وصاروا إلى الأمن والتحكم. وباتوا تلك الليلة بمخيماتهم، وهي ليلة الثلاثاء. وأصبح الأمراء وليس فيهم من يرجع إليه، بل كل واحد منهم يقول: أنا رئيس القوم وكبيرهم، فنادى شيخ بأنه الأمير الكبير، ورسم بما شاء، ونادى نوروز أيضاً بأنه الأمير الكبير، ورسم بما أراد، ونادى سودون المحمدي بأنه الأمير الكبير، وقد استولى على الإسطبل السلطاني بما فيه لنفسه، ونادى بكتمر جلق بأنه الأمير الكبير.

قلت: وأما الملك الناصر، فإنه لما انكسر سار نحو دمشق حتى دخلها ليلة الأربعاء في ثلاثة نفر، ونزل بالقلعة وسأل عن الوالد فقيل له محتضر.

ومات الوالد في يوم الخميس سادس عشر المحرم، ودفن من يومه بتربة الأمير تنم الحسني نائب الشام، خارج دمشق بميدان الحصى.

وأما الملك الناصر فإنه أصبح يوم الأربعاء استدعى القضاة والأعيان ووعدهم بكل خير، وحثهم على نصرته والقيام معه، فانقادوا له، فأخذ في تدبير أموره، وتلاحقت به عساكره شيئاً بعد شيء.

ثم قدم عليه الأتابك دمرداش، فأصبح خلع عليه في عصر يوم الخميس سادس عشر المحرم بولايته نيابة دمشق - بعد موت الوالد - رحمه الله.

وأخذ السلطان في الاستعداد، وأخرج الأموال، ثم استولى على جميع ما للوالد من خيل وجمال وقماش وزردخاناه ومال، من كونه وصياً، وأيضاً وكيل زوجته، فكان من جملة ما أخذه نحو الألف فرس ما بين مراكيب وجشار، واستخدم جميع مماليك الوالد المشتروات ومماليك الخدمة، وكانوا أيضاً نحو الألف مملوك، وخلع على طوغان دوادار الوالد باستقراره على تقدمة ألف بدمشق على عادته، وعلى أرغون شاه شاد شراب خاناته باستقراره على إمرة طبلخاناه وكذلك رأس نوية، فكلموه فيما أخذ للوالد من الخيول والقماش، فوعدهم برد ما أخذ وأضعافه.

ثم أحضر السلطان الأموال وصبها. بين يديه، فأشار عليه دمرداش بالخروج إلى حلب فلم يوافقه، وأبى إلا الإقامة في دمشق، فأشار عليه ثانياً بالعود إلى الديار المصرية فلم يرض، وأقام بدمشق، وكان رأي دمرداش فيه غاية الجودة، فإن جميع أمراء التركمان كانت مع الملك الناصر مثل قرايلك، وابن قرمان، وبني دلغادر وغيرهم، فحبب إليه الإقامة بدمشق لأمر سبق في القدم. ولما أخرج السلطان الأموال أتاه الناس من كل فج من التركمان والعربان والعشير وغيرهم، فكتب أسماءهم وأنفق عليهم وقواهم بالسلاح، وأنزل كل طائفة منهم بموضع يحفظه فكان عدة من استخدمه من المشاة زيادةً على ألف رجل. وحصن القلعة، بالمناجيق والمدافع الكبار، وجعل بين كل شرفتين من شرفات سور المدينة جنوية، ومن ورائها الرماة بالسهام الخلنج، والأسهم الخطائية، ونصب على كل برج من أبراج السور شيطانياً يرمى به الحجارة.

وأتقن تحصين القلعة بحيث إنه لم يبق سبيل للتوصل إليها بوجه من الوجوه.

ثم خلع على نكباي الحاجب بنيابة حماة. ثم ركب قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، ومعه بقية قضاة مصر ودمشق، وجماعة من أرباب الدولة، ونودي بين أيديهم عن لسان السلطان أنه قد أبطل المكوس، وأزال المظالم فادعوا

له، فعظم ميل الشاميين إليه، وتعصبوا له، وصار غالبهم من حزبه، وغنوا عن لسانه:

أنا سلطان ابن سلطان وأنت يا شيخ أمير

وأكثروا من الدعاء له والوقيعة في شيخ ونوروز، ووعدوه القتال معه حتى الممات.

واستمر ذلك إلى بكرة يوم السبت ثامن عشر المحرم، فنزل الأمراء على قبة يلبغا خارج دمشق، فندب السلطان عسكراً فتوجهوا إلى القبيبات، فبرز لهم سودون المحمدي، وسودون الجلب، واقتتلوا حتى تقهقر السلطانية منهم مرتين، ثم انصرف الفريقان.

واشتد الأمر على أهل دمشق، واقتتلوا قتالاً شديداً، وترامو بالسهام والنفوط، فاحترق عدة حوانيت بدمشق. وكثرت الجراحات في أصحاب الأمراء من الشاميين، وأنكاهم السلطانية بالرمي من أعلى السور، وعظم الأمر، وكلوا من القتال.

ثم إن الأمير شيخاً أرسل إلى شهاب الدين الحسباني، والباعوني، وقاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفي قاضي قضاة الديار المصرية - وكان قد انقطع بالشلبية لمرض به - فأحضر شيخ الثلاثة وأنزلهم عنده. ثم لحق ناصر الدين بن البارزي، وصدر الدين الأدمي الحنفي قاضي قضاة دمشق بالأمير شيخ.

ولما بلغ الملك الناصر توجه ابن العديم إلى شيخ أرسل خلف محب الذين بن الشحنة قاضي حلب وولاه قضاء الحنفية بالديار المصرية عوضه.

وفي يوم السبت خامس وعشرين المحرم، خلع الخليفة المستعين بالله الملك الناصر فرج من السلطنة، واتفق الأمراء على إقامة الخليفة المستعين بالله المذكور في السلطنة لتستقيم بسلطنته الأحوال، وتنفذ الكلمة، وتجتمع الناس على سلطان. وثبت خلع الملك الناصر على القضاة، وأجمعوا على إقامة الخليفة سلطاناً، فامتنع الخليفة من ذلك غاية الامتناع، وخاف ألا يتم له ذلك فيهلك، وصمم على الامتناع، وخاف من الملك الناصر خوفاً شديداً. فلما عجز عنه الأمراء دبروا عليه حيلة، وطلبوا الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازي - وهو أخو الخليفة المستعين بالله لأمه - وندبوه بأن يركب ومعه ورقة تتضمن مثالب الملك الناصر ومعايبه، وأن الخليفة قد خلعه من الملك وعزله من السلطنة، ولا يحل لأحد معاونته ولا مساعدته.

فلما بلغ الخليفة ذلك لام أخاه ناصر الدين بن مبارك شاه المذكور على ذلك، وأيس الخليفة عند ذلك من انصلاح الملك الناصر له، فأذعن لهم حينئذ بأن يتسلطن، فبايعوه بأجمعهم، وحلفوا له بالأيمان المغلظة والعهود على الوفاء له وعلى القيام بنصرته ولزوم طاعته.

وتم أمره على ما يأتي ذكره في أوائل ترجمته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وأما الملك الناصر، فإنه لما تسلطن الخليفة، وخلع هو من الملك، نفر الناس عنه، وصاروا حزبين: حزباً يرى أن مخالفة الخليفة كفر، والناصر قد عزل من الملك، فمن قاتل معه فقد عصي الله ورسوله، وحزباً يرى أن القتال مع الملك الناصر واجب، وأنه باق على سلطنته، ومن قاتله إنما هو باغ عليه وخارج عن طاعته.

ومن حينئذ أخذ أمر الملك الناصر في إدبار، إلى أن قتل في ليلة السبت سادس عشر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة بالبرج من قلعة دمشق بعدما حوصر أياماً، كما سيأتي ذكره مفصلاً في ترجمة المستعين بالله، إلى أن حبس بقلعة دمشق.

وخبره: أنه لما حبس بقلعة دمشق - بعد أمور يأتي ذكرها في سلطنة المستعين وأقام محبوساً بالبرج إلى ليلة السبت سادس عشر صفر المذكور - دخل عليه ثلاثة نفر هم، : الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازي أخو الخليفة المستعين بالله لأمه، وآخر من ثقات شيخ، وآخر من أصحاب نوروز، ومعهم رجلان من المشاعلية، فعندما رآهم الملك الناصر فرج قام إليهم فزعاً، وعرف فيما جاؤوا، ودافع عن نفسه، وضرب أحد الرجلين بالمدورة صرعه. ثم قام الرجل هو ورفيقه ومشوا عليه وبأيديهم السكاكين، ولا زالوا يضربونه بالسكاكين المذكورة وهو يعاركهم بيديه، وليس عنده ما يدفع عن نفسه به، حتى صرعاه، بعد ما أثخنا جراحه في خمسة مواضع من بدنه. وتقدم إليه بعض صبيان المشاعلية فخنقه وقام عنه، فتحرك الملك الناصر، فعاد إليه وخنقه ثانياً حتى قوي عنده أنه مات، فتحرك، فعاد إليه ثالثاً وخنقه، وفرى أوداجه بخنجر كان معه، وسلبه ما عليه من الثياب، ثم سحب برجليه حتى ألقي على مزبلة مرتفعة من الأرض تحت السماء، وهو عاري البدن، يستر عورته وبعض فخذيه سراويله، وعيناه مفتوحتان، والناس تمر به ما بين أمير وفقير ومملوك وحر قد صرف الله قلوبهم عن

دفنه ومواراته. وبقيت الغلمان والعبيد والأوباش تعبث بلحيته وبدنه.

واستمر على المزبلة المذكورة طول نهار السبت المذكور. فلما كان الليل من ليلة الأحد حمله بعض أهل دمشق وغسله وكفنه، ودفنه بمقبرة باب الفراديس احتساباً لله تعالى، بموضع يعرف بمرج الدحداح، ولم تكن جنازته مشهودة، ولا عرف من تولى غسله ومواراته.

قلت: وما وقع للملك الناصر من قتله وإلقائه على المزبلة مما يدل على قلة مروءة القوم، وعدم حفظهم ومراعاتهم لسوابق نعمه عليهم، ولحقوق تربية والده الملك الظاهر برقوق عليهم. ونفرض أنه أساء لهم وأراد قتلهم، وكان مجازاته عن ذلك بالقتل، وهو غاية المجازاة، فكان الأليق بعد قتله إخفاء أمره ومواراته، كما فعل غيرهم بمن تقدم من الملوك، فإنه قد حصل مقصودهم بقتله وزيادة. حتى إن الذي - والعياذ بالله تعالى - يقع في الكفر تضرب عنقه ثم يؤخذ ويدفن، وأيضاً فمراعاة السلطنة وناموس الملك مطلوب من كل واحد، والملوك لهم غيرة على الملوك، ولو كان بينهم العداوة والخصومة. وقد رأيت في تاريخ الإسلام في ترجمة الخليفة محمد المهدي بن الرشيد هارون العباسي أنه سأل بعض جلسائه عن أحوال الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي، فقال له بعض من حضر: وما السؤال عنه يا أمير المؤمنين؟! كان رجلا فاسقاً زنديقاً. فلما سمع الخليفة المهدي كلامه نهره وقال له: صه، خلافة الله أجل أن جعلها في زنديق، وأقامه من مجلسه.

وكان الوليد كما قال الرجل، غير أن المهدي غار على منصب الخلافة، فقال ذلك مع علمه بحال الوليد. فلعمري أين فعل هؤلاء من قول المهدي؟! مع أن خلفاء بني العباس كانوا أشد بغضاً لخلفاء بني أمية من بغض هؤلاء للملك الناصر، غير أن العقول تتفاوت وتتفاضل، والأفعال تدل على شيم الفاعل - انتهى.

ومات الملك الناصر وله من العمر أربع وعشرون سنة وثمانية أشهر وأيام، فكانت مدة ملكه من يوم مات أبوه الملك الظاهر برقوق إلى أن خلع لأخيه الملك المنصور عبد العزيز - حسبما تقدم ذكره - ست سنين وخمسة أشهر وأحد عشر يوماً، وخلع من السلطنة بأخيه المذكور سبعين يوماً، ومن يوم أعيد إلى السلطنة بعد خلع أخيه المذكور في يوم السبت خامس جمادى الآخرة من سنة ثمان وثمانمائة إلى يوم خلعه المستعين بالله من السلطنة في

يوم السبت خامس وعشرين المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ست سنين وعشرة أشهر سواء.

فجميع مدة سلطنته الأولى والثانية - سوى أيام خلعه - ثلاث عشرة سنة: وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً.

وكان الملك الناصر من أشجع الملوك وأفرسها وأكرمها، وأكثرها احتمالاً، وأصبرها على العصاة من أمرائه.

قلت: ولنذكر هنا من مقالة الشيخ تقي الدين المقريزي في حقه من المساوىء نبذةً برمتها، وللناظر فيها التأمل قال:

وكان الناصر أشأم ملوك الإسلام، فإنه خرب بسوء تدبيره جميع أراضي مصر وبلاد الشام من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، وطرق الطاغية تيمور بلاد الشام في سنة ثلاث وثمانمائة، وخرب حلب وحماة وبعلبك ودمشق، حتى صارت دمشق كوماً ليس بها دار. وقتل من أهل الشام ما لا يحصى عدده.. وطرق ديار مصر الغلاء من سنة ست وثمانمائة، فبذل أمراء دولته جهدهم في ارتفاع الأسعار، بخزنهم الغلال وبيعهم لها بالسعر الكثير. ثم زيادة أطيان أراضي مصر حتى عظمت كلفة ما تخرجه الأرض. وأفسدوا مع ذلك النقود بإبطال السكة الإسلامية من الذهب، والمعاملة بالدنانير المشخصة التي هي ضرب النصارى. ورفعوا سعر الذهب حتى بلغ إلى مائتين وأربعين درهماً، كل مثقال، بعد ما كان بعشرين درهماً، ومكسوا كل شيء. وأهمل عمل الجسور بأراضي مصر، وألزم الناس أن يقوموا عنها بالأموال التي تجبى منهم. وأكثر وزراؤه من رمي البضائع على التجار ونحوهم بأغلى الأثمان، وكل ذلك من سعد الدين ابن غراب، وجمال الدين يوسف الأستادار وغيرهما، فكانا يأخذان الحق والباطل ويأتيان له به لئلا يعزلهم من وظائفهم. ثم ماتوا، فتم هو على ذلك يطلب المال من المباشرين فيسدون بالظلم، فخربت البلاد لذلك، وفشا أخذ أموال الناس. هذا مع تواتر الفتن واستمرارها بالشام ومصر، وتكرار سفره إلى البلاد الشامية، فما من سفرة سافر إليها إلا وينفق فيها أموالاً عظيمة، زيادةً على ألف ألف دينار، يجبيها من دماء أهل مصر ومهجهم. ثم يتقدم إلى الشام فيخرب الديار ويستأصل الأموال ويدمر القرى. ثم يعود وقد تأكدت أسباب الفتنة، وعادت أعظم ما كانت، فخربت الإسكندرية، وبلاد البحيرة، وأكثر الشرقية، ومعظم الغربية، والجيزية، وتدمرت بلاد الفيوم، وعم الخراب بلاد الصعيد، بحيث

بطل منها زيادة على أربعين خطبة كانت تقام في يوم الجمعة، ودثر ثغر أسوان، وكان من أعظم ثغور المسلمين، وخرب من القاهرة وأملاكها وظواهرها زيادة عن نصفها. ومات من أهل مصر في الغلاء والوباء نحو ثلثي الناس. وقتل في الفتن بمصر مدة أيامه خلائق لا تدخل تحت حصر، مع مجاهرته بالفسوق، من شرب الخمر، وإتيان الفواحش، والتجرؤ العظيم على الله جلت قدرته.

وخلف الملك الناصر عشرة أولاد - فيما أظن - ثلاثة ذكور وسبع إناث. فالذكور: فرج، ومحمد، وخليل، والإناث: ستيته التي زوجها لبكتمر جلق، وعائشة، وآسية، وزينب، وشقراء، وهاجر، ورحب، والجميع أمهاتهم أم أولاد مولدات، ما عدا عائشة وشقراء - والله أعلم.

* * *

سلطنة الخليفة المستعين بالله العباس

السلطان أمير المؤمنين المستعين بالله أبو الفضل العباس ابن الخليفة المتوكل على الله أبي عبد الله محمد ابن الخليفة المعتصم بالله أبي بكر ابن الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ابن الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن الحسين - وهؤلاء غير خلفاء - ابن الخليفة الراشد بالله منصور ابن الخليفة المسترشد بالله الفضل ابن الخليفة المستظهر بالله أحمد ابن الخليفة المقتدي بالله عبد الله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد ابن الخليفة القائم بأمر الله عبد الله ابن الخليفة القادر بالله أحمد ابن الخليفة المقتفي بالله إبراهيم ابن الخليفة المقتدر بالله جعفر ابن الخليفة المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق طلحة ابن الخليفة المتوكل على الله جعفر ابن الخليفة المعتصم بالله محمد ابن الخليفة الرشيد بالله هارون ابن الخليفة المهدي بالله محمد ابن الخليفة أبي جعفر عبد الله المنصور ابن الإمام محمد ابن الإمام علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، العباسي الهاشمي المصري، الخليفة، ثم سلطان الديار المصرية.

ولي الخلافة بعد موت أبيه في يوم الإثنين مستهل شعبان سنة ثمان وثمانمائة، وذلك بعد وفاة أبيه المتوكل بأربعة أيام. واستمر في الخلافة إلى أن تجرد صحبة الملك الناصر فرج إلى البلاد الشامية في أواخر سنة أربع عشرة وثمانمائة. ووقع المصاف بين الملك الناصر المذكور وبين الأمراء: الأمير شيخ المحمودي، والأمير نوروز الحافظي بمن معهم، وانكسر الناصر وانحاز إلى دمشق. واستولى الأمراء على الخليفة هذا، واستفحل أمرهم، وقدموا إلى دمشق وحصروا الناصر بها، بعد أمور ذكرناها مفصلة في أواخر ترجمة الملك الناصر المذكور.

ثم اتفق الأمراء على إقامة الخليفة هذا في السلطنة، عوضاً عن الملك الناصر فرج المذكور، لتجتمع الكلمة في رجل واحد، ويجدوا بذلك سبيلاً لقتال الملك الناصر وانفلال الناس عنه. وأرسلوا إليه فتح الله كاتب السر، فكلمه في ذلك وهو على ظاهر دمشق، والملك الناصر داخلها، فأبى الخليفة المذكور أن يقبل ذلك، وصمم على عدم القبول. فألح عليه فتح الله في ذلك وتلطف به، فلم يزدد إلا تمنعاً، كل ذلك خوفاً من الملك الناصر. فلما رأى فتح الله شدة تمنعه، وعدم موافقته، رجع إلى الأمراء وأعلمهم بذلك وقال لهم: ألا يمكن قبوله أبداً مما رأيت من تمنعه، فاعملوا عليه حيلة حتى يقبل.

فدبروا عليه حيلة من أنهم أرسلوا خلف أخيه لأمه الأمير ناصر الدين محمد بن مبارك شاه الطازي، وأعطوه ورقة تتضمن القدح في الملك الناصر، وفي تعداد أفعاله ومساوئه، وندبوا ناصر الدين المذكور بعد أن أو عدوه بإمرة طبلخاناه، ودوادارية السلطان، حتى ركب فرساً من غير علم الخليفة، ونودي أمامه: إن الخليفة قد خلع السلطان الملك الناصر من السلطنة، ولا يحل لأحد متابعته ولا القيام بنصرته، وقرئت الورقة على الناس.

وبلغ الخليفة المستعين بالله ذلك، فقامت قيامته، وعظم عليه ذلك إلى الغاية، وتحقق عند ذلك أن الملك الناصر إذا ظفر به لا يبقيه. ودخل عليه فتح الله بعد ذلك ثانياً وكلمه في السلطنة، فقبل على شروط عديدة شرطها على الأمراء، فقبلوا جميع الشروط. وفرح الأمراء بذلك وبايعوه بأجمعهم، وقبلوا يده، وحلفوا له على، الطاعة والوفاء بالأيمان المغلظة التي لا يمكن التورية فيها.

ثم نصبوا له كرسياً خارج باب الدار تجاه جامع كريم الدين، وجلس فوقه وعليه خلعة سوداء خليفتية، أخذوها من الجامع المذكور من ثياب الخطيب، ووقفوا بين يديه على مراتبهم، الجميع ما عدا الأمير نوروز الحافظي، فإنه لم يقدر على الحضور لاشتغاله بحفظ الجهة التي هو فيها لحصار الملك الناصر فرج، غير أنه يعلم بالخبر، وعنده من السرور لذلك ما لا مزيد عليه.

واجتمع الأمراء والمماليك، وحلفوا بأجمعهم يميناً مغلظاً لأمير المؤمنين بأنهم يلزمون طاعته، ويأتمرون بأمره، وأنهم رضوا بأنه الحاكم عليهم، وأنه يستبد بالأمور من غير مراجعة أحد، وأنهم لا يسلطنون أحداً غيره طول حياته.

ثم قبل الجميع الأرض بين يديه، وصار الجميع طوعاً لأمير المؤمنين المستعين بالله، فمشى بذلك حالهم على قتال الملك الناصر. ولولا الخليفة ما انتظم لهم أمر، لعظم ميل التركمان والعامة للملك الناصر.

ثم توجه فتح الله للأمير نوروز بدار الطعم - حيث هو نازل - فحلفه على ذلك، وقبل الأرض لأمير المؤمنين، وأظهر من الفرح والسرور ما لا مزيد عليه باستبداد الخليفة بالأمر، وقال: حينئذ استقام لنا، الأمر. وسأل نوروز فتح الله المذكور أن يقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين نيابة عنه، وسأله في أن ينفرد بالتدبير ولا يشاركه فيه الأمير شيخ، ولا هو ولا غيره، يريد

بذلك كف الأمير شيخ عن التحكم.

هذا والقتال عمال في كل يوم، وقراءة المحضر الذي أثبتوه على الملك الناصر على الشاميين، وفيه قوادح في الدين توجب إراقة دمه، وشهد في المحضر نحو خمسمائة نفس، وثبت ذلك على قاضي القضاة ناصر الدين بن العديم الحنفي، وحكم بإراقة دمه.

ثم بلغ شيخاً أن الملك الناصر عزم على إحراق ناحية قصر حجاج حتى يصير فضاءً ثم يركب بنفسه ويواقع القوم هناك بمن يأتيه من التركمان وبمن عنده. فبادر شيخ وركب بعد صلاة الجمعة بأمير المؤمنين ومعه العساكر، وسار من طريق القبيبات ونزل بأرض الثابتية. وقاتل الملك الناصر في ذلك اليوم أشد قتال إلى أن مضى من الليل جانب. وكثر من الشاميين الرمي بالنفط عليهم، فاحترق سوق خان السلطان وما حوله.

وكان الأتابك دمرداش المحمدي نازلاً عند باب الميدان تجاه القلعة، فلما بلغه ذلك ركب وتوجه إلى الملك الناصر وهو جالس تحت القبة فوق باب النصر، وسأله أن يندب معه طائفة كبيرة من المماليك السلطانية، ليتوجه بهم إلى قتال شيخ، فإنه قد وصل إلى طرف القنوات، وسهل أخذه على السلطان، فنادى الملك الناصر لمن هناك من المماليك وغيرهم بالتوجه مع دمرداش، فلم يجبه منهم أحد.

ثم كرر السلطان عليهم الأمر غير مرة حتى أجابه بعضهم جواباً فيه جفاء وخشونة ألفاظ، معناه أنهم ملوا من طول القتال، وضجروا من شدة الحصار.

وبينما هم في ذلك، إذ اختبط العسكر السلطاني وكثر الصراخ فيهم بأن الأمير نوروزاً قد كبسهم، فسارعوا بأجمعهم وعبروا من باب النصر إلى داخل مدينة دمشق، وتفرقوا في خرائبها بحيث إنه لم يبق بين يدي السلطان أحد، فولى دمرداش عائداً إلى موضعه، وقد ملك شيخ وأصحابه الميدان والإسطبل.

فبعث دمرداش إلى السلطان مع بعض ثقاته بأن الأمر قد فات، وأن أمر العدو قوي، وأمر السلطان أخذ في إدبار، والرأي أن يلحق السلطان بحلب ما دام في الأمر نفس.

فلما سمع الملك الناصر ذلك قام من مجلسه وترك الشمعة تقد حتى لا يقع الطمع فيه بأنه ولى، ويوهم الناس أنه ثابت مقيم على القتال. ثم دخل إلى حرمه وجهز ماله، وأطال في تعبئة ماله وقماشه، فلم يخرج حتى مضى

أكثر الليل، والأتابك دمرداش واقف ينتظره. فلما رأى دمرداش أن الملك الناصر لا يوافقه على الخروج إلى حلب، خرج هو بخواصه ونجا بنفسه، وسار إلى حلب وترك السلطان.

ثم خامر الأمير سنقر الرومي على الملك الناصر، وأتى أمير المؤمنين وبطل طبول السلطان والرماة.

ثم خرج الملك الناصر من حرمه بماله، وأمر غلمانه فحملت الأموال على البغال ليسير بهم إلى حلب، فعارضه الأمير أرغون من بشبغا الأمير آخور الكبير وغيره، ورغبوه في الإقامة بدمشق، وقالوا له: الجماعة مماليك أبيك لا يوصلون إليك سوءاً أبداً. ولا زالوا به حتى طلع الفجر، فعند ذلك ركب الملك الناصر بهم، ودار على سور المدينة فلم يجد أحداً ممن كان أعده للرمي، فعاد ووقف على فرسه ساعة، ثم طلع إلى القلعة والتجأ بها بمن معه - وقد أشحنها - وترك مدينة دمشق. وبلغ أمير المؤمنين والأمراء ذلك، فركب شيخ بمن معه إلى باب النصر، وركب نوروز بمن معه إلى نحو باب توما، ونصب شيخ السلالم حتى طلع بعض أصحابه، ونزل إلى مدينة دمشق وفتح باب النصر، وأحرق باب الجابية. ودخل شيخ من باب النصر، وأخذ مدينة دمشق، ونزل بدار السعادة، وذلك في يوم السبت تاسع صفر، بعد ما قاتل الملك الناصر نحو العشرين يوماً، قتل فيها من الطائفتين خلائق لا تحصى، ووقع النهب في أموال السلطان وعساكره، وامتدت أيدي الشيخية وغيرهم إلى النهب، فما عفوا ولا كفوا.

وترددت الرسل بينهم غير مرة بغير طائل. وأمر الملك الناصر أصحابه بالرمي عليهم، فعاد الرمي من أعلى القلعة بالمدافع والسهام. وركب الأمراء واحتاطوا بالقلعة، فأرسل الملك الناصر يسأل بالكف عنه، فضايقوا القلعة خشية أن يفر السلطان منها إلى جهة حلب. ومشت الرسل أيضاً بينهم ثانياً. وأضر الملك الناصر التضييق والغلبة إلى أن أذعن إلى الصلح، وحلفوا له ألا يوصلوا إليه مكروهاً، ويؤمنوه على نفسه، وأن يستمر الخليفة سلطاناً. وقيل غير ذلك وهو أنه ينزل إليهم، ويتشاور الأمراء فيمن يكون سلطاناً، فإن طلبه المماليك فهو سلطان على حاله، وإن لم يطلبوه فيكون الخليفة، ويكون هو مخلوعاً يسكن بعض الثغور محتفظاً به.

ومحصول الحكاية أنه نزل إليهم في ليلة الإثنين حادي عشر صفر، ومعه أولاده يحملهم ويحملون معه، وهو ماش من باب القلعة إلى الإسطبل والناس

تنظره. وكان الأمير شيخ نازلاً بالإسطبل المذكور، فعندما عاينه شيخ قام إليه وتلقاه وقبل الأرض بين يديه، وأجلسه بصدر المجلس، وجلس بالبعد عنه وسكن روعه، ثم تركه بعد ساعة وانصرف عنه، فأقام الملك الناصر بمكانه إلى يوم الثلاثاء ثاني صفر.

واختلف القوم في ذلك، فقوي أمر نوروز وبكتمر بالخليفة المستعين بالله، فإنه كان أيضاً اجتهد هو وفتح الله كاتب السر في قتله، وحملا القضاة والفقهاء على الكتابة بإراقة دمه بعد أن توقفوا عن ذلك، حتى تجرد قاضي القضاة ناصر الدين محمد بن العديم الحنفي لذلك، وكافح من خالفه من الفقهاء بعدم قتله بقوة الخليفة ونوروز وبكتمر وفتح الله، ثم أشهد على نفسه أنه حكم بقتله شرعاً، فأمضي قوله وقتل الناصر.

وكان قصد شيخ إبقاعه، يخوف به نوروزاً إن حصل مخالفة، وأيضاً وقف على يمينه وخاف سوء عاقبة الأيمان والعهود، وأيضاً لما سبق لوالده عليه من الحقوق السالفة، وقال: هو - يعني الملك الناصر - قد ظفر بنا وأبقانا غير مرة، ونحن مماليكه، فكيف نحن نظفر به مرة واحدةً نقتله فيها، ويشاع ذلك عند ملوك الأقطار، فيقبح ذلك علينا إلى الغاية! قلت: ولذلك ملكه الله على المسلمين، وحكمة فيمن خالفه في ذلك حتى أفناهم على السيف في أسرع وقت وأقل مدة " وما ربك بظلام للعبيد " - انتهى.

وبعد أن قتل الملك الناصر، مشت الأحوال، وأمن الناس، ونودي فيهم بالأمان. واتفق الحال على أن الأمير شيخاً ونوروزاً يسيران إلى مصر صحبة أمير المؤمنين المستعين بالله، ويكونان في خدمته، وأن يكون الأمير شيخ أميراً كبيراً أتابك العساكر بالديار المصرية، ويكون نوزوز أتابك رأس نوبة الأمراء، ويكون إقطاعهم بالسوية، وأن يسكن شيخ باب السلسلة، ويسكن نوروز بيت قوصون تجاه باب السلسلة بالرميلة.

وكتب نوروز إلى القاهرة بتجديد عمارة البيت المذكور، وأن يضرب عليه رنك نوروز.

فاستشار نوروز أصحابه في ذلك فقالوا له بأجمعهم: الرأي والمصلحة توجهك إلى الديار المصرية، ولو كنت من جملة مقدمي الألوف بها، لا سيما تكون أتابك العساكر ومالك زمام مصر، فقال لهم: إن أقام شيخ بالبلاد الشامية - مع سعة تحكمه في البلاد - يصير له شوكة عظيمة ويتعبني فيما بعد، ولو كان في مصر خير ما تركها هو وأراد نيابة الشام، والمصلحة

توجهه إلى مصر، وأكون أنا حاكم البلاد الشامية من العريش إلى الفرات، فراجعوه في ذلك فأبى إلا ما أراد.

وانفض الموكب وقد نال الأمير شيخ غرضه، وانفرد بتدبير المملكة وحده من غير شريك. وكان ظن الأمير نوروز أن شيخاً لا يستقيم له أمر مع بكتمر جلق، ويلبغا الناصري نائب الغيبة بمصر، وطوغان الحسني الدوادار، وسيدي الكبير قرقماس، وأن الذي يبقى معه من الأمراء بالبلاد الشامية جميعهم في طاعته، مثل يشبك بن أزدمر، وطوخ، وقمش وغيرهم، فجاء حساب الدهر بخلاف ما ظن.

ثم فوض أمير المؤمنين إلى الأمير نوروز كفالة الشام جميعه: دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، وغزة، وجعل له أن يعين الأمريات والإقطاعات لمن يريده ويختاره، وأن يولي نواب القلاع الشامية والسواحل وغيرها لمن أراد من غير مراجعة في ذلك، غير أنه يطالع الخليفة بمن يستقر به في شيء من ذلك ليجهز إليه تشريفاً.

ثم كتب الخليفة إلى من في البلاد الشامية وغيرها من التركمان والعربان والعشير، وجعل افتتاح الكتب: من عبد الله وولده، الإمام المستعين بالله، وخليفة رب العالمين، وابن عم سيد المرسلين، المفترض طاعته على الخلق أجمعين، أعز الله ببقائه الدين ثم كتب الخليفة إلى الديار المصرية بإطلاق الأمراء المسجونين بالإسكندرية، وأن الأمير أسنبغا الزردكاش يسلم قلعة الجبل إلى الأمير يلبغا الناصري، ففعل أسنبغا الزردكاش ذلك. وقدم الأمراء من سجن الإسكندرية إلى القاهرة وهم: إينال الصصلاني، وسودون الأسندمري الأمير آخور الثاني، وكمشبغا الفيسي، وجانبك الصوفي، وتاج الدين عبد الرزاق بن الهيصم الأستادار.

ثم تهيأ أمير المؤمنين وخرج معه الأمير شيخ وجميع العساكر من دمشق، في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول، نحو الديار المصرية.

ثم خرج بعدهم نوروز في سادس عشره إلى حلب ليمهد أمورها.

ثم رسم الأمير نوزوز أن يضرب بدمشق دراهم نصفها فضة ونصفها نحاس، فضربت وتعامل الناس بها.

وسار أمير المؤمنين بعساكره حتى دخل إلى الديار المصرية في يوم الثلاثاء ثاني شهر ربيع الآخر، وطلع إلى القلعة بعدما شق القاهرة، وخرج من باب زويلة إلى الصليبية إلى القلعة، وقد زينت القاهرة أحسن زينة. فنزل الخليفة

بالقصر من قلعة الجبل على عادة السلاطين، ونزل الأمير شيخ بباب السلسلة من الإسطبل السلطاني. ولم يخلع الخليفة على أحد على جاري العوائد. وكان الأمير شيخ يظن أن الخليفة يتوجه إلى داره بالقرب من المشهد النفيسي على عادتة أولاً، فلما طلع إلى القلعة، تحقق الأمير شيخ منه أنه يريد أن يسير على طريق السلاطين ويترك طريق الخلفاء، فأخذ شيخ يكيده بأشياء، منها أنه صار يبطل المواكب السلطانية ويعمل الموكب عنده، ويعتذر عن ذلك بأن القوم عقيب سفر وتعب ليس لهم طاقة على لزوم المواكب الآن إلى أن يجدوا في نفوسهم قوةً ونشاطاً. وصار تردداد جميع أرباب الدولة إلى باب الأمير شيخ، فاتضع أمر الخليفة.

ثم في ثامن شهر ربيع الآخر، عمل الأمير شيخ الموكب عند الخليفة بالقصر السلطاني على العادة، وحضر شيخ هو وسائر الأمراء الموكب. وخلع الخليفة على الأمير شيخ باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية - وكانت شاغرةً منذ قبض على الملك الناصر وفر الأتابك دمرداش المحمدي إلى حلب. ثم فوض الخليفة إلى شيخ جميع الأمور، وأنه يولي ويعزل من غير مراجعة، وأشهد عليه بذلك بعد أن توقف الخليفة عن ذلك أياماً حتى أذعن على رغمه.

وأما الأمير نوروز الحافظي، فإنه استولى على حلب، وهرب منها الأمير دمرداش المحمدي، وخلع على يشبك بن أزدمر بنيابتها، وخلع على الأمير طوخ بنيابة طرابلس، وفرق الإقطاعات والإمريات على أصحابه ومماليكه كيف يختار من غير معاند، غير أنه ندم على قعاده بالبلاد الشامية غاية الندم في الباطن لا سيما لما بلغه من أمر شيخ وعظمته بمصر ما بلغه.

ثم في يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى، قرىء تقليد الأمير الكبير شيخ نظام الملك بأن الخليفة فوض إليه ما وراء سرير الخلافة، فعند ذلك جلس الأتابك شيخ بالحراقة من الإسطبل السلطاني، وبين يديه القضاة وأرباب الدولة من أعيان الأمراء والمباشرين وغيرهم، وقرأ كاتب السر عليه القصص كما يقرؤها بين يدي السلطان. وتلاشى أمر الخليفة حتى صار كعادته أيام خلافته، غير أنه في الترسيم محجوب عما يريده.

ثم في يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة، مات الأمير بكتمر جلق من مرض تمادى به نحو الشهرين، أصله من عقرب لسعته وهو قادم صحبة الخليفة والعساكر إلى الديار المصرية بالرمل، فاشتد ألمه منها وأخذته الحمى، ثم

خرج من سيئ إلى سيئ إلى أن مات. فنزل الأتابك شيخ راكباً وجميع الأمراء الخاصكية مشاة حتى صلى عليه بمصلاة المؤمني من تحت القلعة، وعاد إلى باب السلسلة من غير أن يشهد دفنه، وهو في غاية السرور، وقد صفا له الوقت بمرت بكتمر المذكور، فإنه كان عليه أشد من نوروز. وصرح شيخ بعد موته بما كان يستكتمه من الوثوب على الأمراء، وخلا له الجو. ولما بلغ نوروزاً موته كاد أن يهلك، وعلم بما سيكون من أمر شيخ.

ثم استقر القاضي ناصر الدين بن البارزي موقع الأتابك شيخ بقراءة القصص على مخدومه الأتابك شيخ، فانحط بذلك قدر فتح الدين فتح الله كاتب السر، وصار في وظيفته كالمعزول عنها، وقل ترداد الناس إليه، وكثر تردادهم إلى باب القاضي ناصر الدين بن البارزي لقضاء حوائجهم.

ولما عظم أمر الأتابك شيخ بعد موت بكتمر، ورأى أن الجو قد خلا له ثم مانع من سلطنته، طلب الأمراء وكلمهم في ذلك، فأجاب الجميع بالسمع والطاعة - طوعاً وكرهاً - واتفقوا على سلطنته.

وأقام الخليفة بقلعة الجبل محتفظاً به على عادته أولاً خليفة إلى ما يأتي ذكره. فكانت مدة سلطنته من يوم جلس سلطاناً خارج دمشق إلى يوم خلعه يوم الاثنين أول شعبان، سبعة أشهر وخمسة أيام. وأقام المستعين بقلعة الجبل إلى أن خلع من الخلافة أيضاً بأخيه المعتضد داود بغير رضاه، كما وقع في خلعه من السلطنة، وكان ذلك في ذي الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة. ودام مخلوعاً بقلعة الجبل في دار بالقلعة مدة، ثم نقل إلى برج بالقلعة إلى يوم عيد النحر من سنة تسع عشرة وثمانمائة، فأنزل من القلعة نهاراً إلى ساحل النيل على فرس، وصحبته أولاد الملك الناصر فرج وهم: فرج، ومحمد، وخليل، وتوجه معهم الأمير كزل الأرغون شاوي إلى الإسكندرية. فدام الخليفة المستعين هذا مسجوناً بإسكندرية إلى أن نقله الملك الأشرف برسباي إلى قاعة بثغر الإسكندرية، فدام بها إلى أن توفي بالطاعون في يوم الأربعاء لعشرين بقين من جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، ولم يبلغ الأربعين سنة من العمر. ومات وهو في زعمه أنه مستمر على الخلافة، وأنه لم يخلع بطريق شرعي، وعهد بالخلافة لولده يحيى. فلما مات المعتضد داود في يوم الأحد رابع شهر الأول من سنة خمس وأربعين وثمانمائة، تكلم يحيى المذكور في الخلافة، وسعى سعياً عظيماً، فلم يتم له ذلك، والله أعلم، والحمد لله على كل حال.

سلطنة الملك المؤيد شيخ المحمودي

السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله المحمودي الظاهري، وهو السلطان الثامن والعشرون من ملوك الترك بالديار المصرية، والرابع من الجراكسة وأولادهم.

أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق، اشتراه من أستاذه الخواجا محمود شاه البرزي في سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة، وبرقوق يوم ذاك أتابك العساكر بالديار المصرية قبل سلطنته بنحو السنتين، وكان عمر شيخ المذكور يوم اشتراه الملك الظاهر نحو اثنتي عشرة سنة تخميناً. وجعله برقوق من جملة مماليكه، ثم أعتقه بعد سلطنته، ورقاه إلى أن جعله خاصكياً ثم ساقياً في سلطنته الثانية. وغضب عليه الملك الظاهر برقوق غير مرة، وضربه ضرباً مبرحاً، لانهماكه في السكر، وعزره وهو لا يرجع عما هو فيه. كل ذلك وهو في رتبته وخصوصيته عند أستاذه، إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر بإمرة عشرة، ثم نقله إلى طبلخاناه، ثم خلع عليه باستقراره أمير حاج المحمل في سنة إحدى وثمانمائة، فسار بالحج، وعاد، وقد مات أستاذه الملك الظاهر برقوق، فأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية عوضاً عن الأمير بجاس النوروزي بحكم لزوم بجاس داره لكبر سنه. ثم استقر بعد وقعة تنم الحسني في سنة اثنتين وثمانمائة في نيابة طرابلس عوضاً عن يونس بلطا بحكم القبض عليه، فدام على نيابة طرابلس إلى أن أسر في واقعة تيمور مع من أسر من النواب. ثم أطلق وعاد إلى الديار المصرية، وأقام بها مدةً، ثم أعيد إلى نيابة طرابلس ثانياً، ثم نقل بعد مدة إلى نيابة دمشق. ثم وقعت تلك الفتن وثارت الحروب بين الأمراء الظاهرية، ثم بينهم وبين ابن أستاذهم الملك الناصر فرج، وقد مر ذكر ذلك كله مستوفياً في ترجمة الملك الناصر وليس لذكره ههنا ثانياً محل. ولازال شيخ المذكور يدبر والأقدار تساعده إلى أن استولى على الملك بعد القبض على الملك الناصر فرج وقتله.

وتم أمره إلى يوم الاثنين ثامن شعبان جلس السلطان الملك المؤيد بدار العدل، وعمل الموكب على العادة. وخلع على الأمير يلبغا الناصري أمير مجلس باستقراره أتابك العساكر بديار مصر عوضاً عن الملك المؤيد شيخ المذكور.

ثم في سابع عشر شهر رمضان المذكور أرسل الملك المؤيد الشيخ شرف الدين بن التباني الحنفي رسولاً إلى الأمير نوروز ليترضاه، ويكلمه في الطاعة له وعدم المخالفة، وسافر ابن التباني إلى جهة الشام.

وبينما الملك المؤيد في الاستعداد لقتال نوروز ثار عليه مرض المفاصل حتى لزم

الفراش منه عدة أيام وتعطل فيها عن المواكب السلطانية.

ثم خرج نوروز من حلب في تاسع عشر صفر عائداً إلى نحو دمشق، ومعه الأمير يشبك بن أزدمر، فقدم دمشق في سادس عشرين صفر المذكور. وبعد خروج نوروز من حلب قصدها الأمير دمرداش المقدم ذكره حتى نزل على بانقوسا في يوم سادس وعشرين صفر أيضاً، فخرج إليه طوخ بمن معه من أصحاب نوروز وقاتلوه قتالاً شديداً إلى ليلة ثامن وعشرين صفر فقدم عليه الخبر بأن الأمير عجل بن نعير قد أقبل لمحاربته نصرةً للأمير نوروز، فلم يثبت دمرداش لعجزه عن مقاومته، ورحل بمن معه من ليلته إلى العمق، ثم سار إلى أعزاز فأقام بها.

فلما كان عاشر شهر ربيع الأول بعث طوخ نائب حلب عسكراً إلى سرمين وبها آق بلاط دوادار دمرداش المذكور فكبسوه، فثار عليهم هو وشاهين الأيدكاري ومن معهما من التراكمين وقاتلوهم وأسروا منهم جماعة كثيرة وبعثوا بهم إلى الأمير دمرداش، فسجن دمرداش أعيانهم في قلعة بغراص وجاع أناني أكثرهم، وأطلقهم عراة، وقتل بعضهم.

فلما بلغ طوخ الخبر ركب من حلب ومعه الأمير قمش نائب طرابلس، وسار إلى تل باشر، وقد نزل عليه العجل بن نعير، فسأله طوخ أن يسير معهما لحرب دمرداش، فأنعم بذلك ثم تأخر عنهما قليلا، فبلغهما أنه اتفق مع دمرداش على مسكهما، فاستعدا له وترقباه حتى ركب إليهما في نفر قليل ونزل عندهما ودعاهما إلى ضيافته وألح عليهما في ذلك، فثارا به ومعهم جماعة من أصحابهما فقتلوه بسيوفهم في رابع وعشرين شهر ربيع الأول، ودخلا من فورهما عائدين إلى حلب. وكتبا بالخبر إلى نوروز وطلبا منه نجدةً، فإن حسين بن نعير قد جمع العرب ونزل على دمرداش فسار به دمرداش إلى حلب وحصرها. وصعد طوخ وقمش إلى قلعة حلب واشتد القتال بينهم إلى أن انهزم دمرداش وعاد إلى جهة العمق. وشاور دمرداش، أصحابه فيما يفعل، وتحير في أمره بين أن ينتمي إلى نوزوز ويصير معه على رأيه - وكان قد بعث إليه بألف دينار ودعاه إليه - وبين أن يقدم على السلطان الملك المؤيد شيخ، فأشار عليه جل أصحابه بالانتماء إلى نوروز إلا آق بلاط دواداره فإنه أشار عليه بالقدوم على السلطان، فسأله دمرداش عن ابن أخيه قرقماس وعن تغري بردي فقال: قرقماس في صفد وتغري بردي في غزة، وكان ذلك بدسيسة دسها الملك المؤيد لآق بلاط المذكور، فمال عند ذلك دمرداش إلى كلامه، وركب البحر حتى خرج من الطينة وقدم إلى القاهرة في أول شهر رمضان، فأكرمه السلطان وخلع عليه.

ولما قدم دمرداش إلى القاهرة وجد قرقماس بها وتغري بردي بالصالحية، فندم على

قدومه وقال لابن أخيه قرقماس: ما هذه العملة؟ أنت تقول إنك بصفد فألقاك بمصر، فقال قرقماس: ومن أي شيء تخاف يا عم؟ هذا يمكنه القبض علينا ومثل نوروز يخاصمه!! إذا أمسكنا بمن يلقي نوروز ويقاتله؟ والله ما أظنك إلا قد كبرت ولم يبق فيك بقية إلا لتعبئة العساكر لا غير، فقال له دمرداش: سوف تنظر. واستمر دمرداش وقرقماس بالقاهرة إلى يوم سابع شهر رمضان المذكور عين السلطان جماعة من الأمراء لكبس عربان الشرقية، وهم: سودون القاضي، وقجقار القردمي، وآقبردي المنقار المؤيدي رأس نوبة، ويشبك المؤيدي شاد الشراب خاناه، وأسر إليهم السلطان في الباطن بالتوجه إلى تغري بردي المدعو سيدي الصغير ابن أخي دمرداش، والقبض عليه، وحمله مقيداً إلى القاهرة، وكان تغري بردي المذكور نازلاً بالصالحية، فساروا في ليلة السبت ثامنه. وأصبح السلطان في آخر يوم السبت المذكور استدعى الأمراء للفطر عنده، ومد لهم سماطاً عظيماً، فأكلوا معه وتبسطوا. فلما رفع السماط قام السلطان من مجلسه إلى داخل، وأمر بالقبض على دمرداش المحمدي وعلى ابن أخيه قرقماس وقيدهما وبعثهما من ليلته إلى الإسكندرية فسجنا بها. وبعد يوم حضر الأمراء ومعهم تغري بردي سيدي الصغير مقيداً - وكان الملك يكرهه، فإنه لم يزل في أيام عصيانه مبايناً له - فحبسه بالبرج بقلعة الجبل، ثم سجد المؤيد شكراً لله الذي ظفره بهؤلاء الثلاثة الذين كان الملك الناصر فرج، عجز عنهم، ثم قال: الآن بقيت سلطاناً.

وبقي تغري بردي المذكور مسجوناً بالبرج إلى أن قتل ذبحاً في ليلة عيد الفطر، وقطعت رأسه وعلقت على الميدان.

وكان سير الملك المؤيد على هينته حتى يبلغ نوروز خبره ويطلع إليه فيلقاه في الفلا، فلما تأخر نوروز عن الطلوع اطمأن الملك المؤيد لذلك وقوي بأسه. غير أن نوروز حصن مدينة دمشق وقلعتها وتهيأ لقتاله، فأقام السلطان بقية يلبغا أياماً، ثم رحل منها ونزل بطرف القبيبات. وكان السلطان في طول طريقه إلى دمشق يطلب موقعي أكابر أمرائه خفية ويأمرهم أن يكتبوا على لسان مخاديمهم إلى نوروز أننا بأجمعنا معك، وغرضنا كله عندك، ويكثر واحدهم، من الوقيعة في الملك المؤيد، ثم يقول في الكتاب: وإنك لا تخرج من دمشق، وأقم مكانك، فإننا جميعاً نفر من المؤيد ونأتيك، ثم يضع من نفسه ويرفع أمر نوروز ويعد محاسنه ويذكر مساويء نفسه، فمشى ذلك على نوروز وانخدع له، مع ما كان حسن له أيضاً بعض أصحابه في عدم الخروج والقتال، أرادوا بذلك ضجر الملك المؤيد وعوده إلى الديار المصرية بغير طائل حتى يستفحل أمرهم بعوده، فكان مراد الله غير ما أرادوا.

ثم أرسل السلطان الملك المؤيد قاضي القضاة مجد الدين سالم الحنبلي إلى الأمير

نوروز في طلب الصلح، فامتنع نوروز من ذلك وأبى إلا الحرب والقتال، وكان ذلك أيضاً خديعة من الملك المؤيد. وعندما نزل الملك المؤيد بطرف القبيبات خرج إليه عساكر نوروز، فندب إليهم السلطان جماعة كبيرة من عسكره، فخرجوا إليهم وقاتلوهم قتالاً شديداً، فانكسر عسكر نوروز وعاد إلى دمشق. فركب نوروز في الحال وطلع إلى قلعة دمشق وامتنع بها. فركب الملك المؤيد في سادس عشرينه ونزل بالميدان يحاصر قلعة دمشق.

ولما قيل للمؤيد إن نوروز طلع إلى قلعة دمشق لم يحمل الناقل له على الصدق، وأرسل من يثق به، فعاد عليه الخبر بطلوعه إليها. فعند ذلك تعجب غاية العجب، فسأله بعض خواصه عن ذلك فقال: ماكنت أظن أن نوروز يطلع القلعة وينحصر فيها أبداً، لما سمعته منه لما دخل الملك الناصر إلى قلعة دمشق، وهو أنه لما بلغنا أن الناصر دخل إلى قلعة دمشق قال نوروز: ظفرنا به وعزة الله! فقلت: وكيف ذلك؟ فقال: الشخص لا يدخل القلعة ويمتنع بها إلا إذا كان خلفه نجدة، أو أخصامه لا يمكنهم محاصرته إلا مدةً يسيرة ثم يرحلون عنه، وهذا ليس له نجدة، ونحن لو أقمنا على حصاره سنين لا نذهب إلا به فهو مأخوذ لا محالة. فبقي هذا الكلام في ذهني، وتحققت أنه متى حصل له خلل توجه إلى بلاد التركمان. ويتعبني أمره لعلمي به أنه لا يدخل إلى القلعة - بعد ما سمعت منه ذلك - أبداً فأنساه الله ما قاله في حق الناصر، وحسن بباله الامتناع بالقلعة حتى طلعها، فلهذا تعجبت.

ثم عادت رسل نوروز إليه بصورة الحلف، فقرأه عليه بعض من عنده من الفقهاء من تلك المقولة، وعرفه أن هذا اليمين ما بعده شيء، فاطمأن لذلك. ونزل من قلعة دمشق بمن معه من الأمراء والأعيان في يوم حادي وعشرين ربيع الآخر بعد ما قاتل الملك المؤيد نحواً من خمسة وعشرين يوماً أو أزيد، ومشى حتى دخل على الملك المؤيد. فلما رآه الملك المؤيد قام له، فعند ذلك قبل نوروز الأرض، وأراد أن يقبل يده فمنعه الملك المؤيد من ذلك. وقعد الأمير نوروز بإزائه، وتحته أصحابه من الأمراء، وهم: الأمير يشبك بن أزدمر، وطوخ، وقمش، وبرسبغا، وإينال الرجبي وغيرهم، والمجلس مشحون بالأمراء والقضاة والعساكر السلطانية. فقال القضاة: والله هذا يوم مبارك بالصلح وبحقن الدماء بين المسلمين، فقال القاضي ناصر الدين بن البارزي كاتب السر: نهار مبارك لو تم ذلك، فقال الملك المؤيد: ولم لا يتم وقد حلفنا له وحلف لنا؟ فقال القاضي ناصر الدين للقضاة: يا قضاة، هل صح يمين السلطان؟ فقال قاضي القضاة جلال الدين البلقيني: لا والله لم يصادف غرض المحلف. فعند ذلك أمر الملك المؤيد بالقبض على الأمير نوروز ورفقته، فقبض في الحال على الجميع، وقيدوا وسجنوا بمكان من الإسطبل إلى أن قتل الأمير نوروز من ليلته، وحملت رأسه إلى

الديار المصرية على يد الأمير جرباش، فوصلت القاهرة في يوم الخميس مستهل جمادى الأولى، وعلقت على باب زويلة، ودقت البشائر، وزينت القاهرة لذلك.

فلما كان في سادس جمادى الآخرة ركب الأمير بيبغا المظفري أتابك دمشق، وناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك، وجلبان الأمير آخور المقدم ذكره وأرغون شاه، ويشبك الأيتمشي في جماعة أخر من أمراء دمشق يسيرون بسوق خيل دمشق، فبلغهم أن يلبغا كماج كاشف القبلية حضر في عسكر إلى قريب داريا، وأن خلفه من جماعته طائفة كبيرة، وأن قاني باي خرج إليه وتحالفا على العصيان، ثم عاد قاني باي إلى بيت غرس الدين المذكور. فاستعد مذكورون ولبسوا آلة الحرب، ونادوا لأجناد دمشق وأمرائها بالحضور، وزحفوا إلى نحو - قاني باي. فخرج إليهم قاني باي بمماليكه وبمن انضم معه من أصاغر الأمراء وقاتلهم من بكرة النهار إلى العصر حتى هزمهم، ومروا على وجوههم إلى جهة صفد. ودخل قاني باي وملك مدينة دمشق، ونزل بدار العدل من باب جابية، ورمى على القلعة بالمدافع، وأحرق جملون دار السعادة، فرماه أيضاً من القلعة بالمناجيق والمدافع، فانتقل إلى خان السلطان وبات بمخيمه وهو يحاصر القلعة. ثم أتاه النواب المقدم ذكرهم، فنزل تنبك البجاسي نائب حماة على باب الفرج، ونزل طرباي نائب غزة على باب آخر، ونزل على باب جديد تنبك دوادار قاني باي، وداموا على ذلك مدة، وهم يستعدون. وقد ترك قاني باي، أمر القلعة إلى أن بلغه وصول العسكر وسار هو والأمراء من دمشق.

وكان الأمير ألطنبغا العثماني بمن معه من أمراء دمشق والعشير والعربان نائب صفد قد توجه من بلاد المرج إلى جرود، فجد العسكر في السير حتى وافوا الأمير قاني باي قد رحل من برزة، فنزلوا هم على برزة، وتقدم منهم طائفة فأخذوا من ساقته أغناماً وغيرها، وتقاتلوا مع أطراف قاني باي، فجرح الأمير أحمد بن تنم صهر الملك المؤيد في يده بنشابة أصابته، وجرح معه جماعة أخر، ثم عادوا إلى ألطنبغا العثماني. وسار قاني باي حتى نزل بسلمية في سلخه، ثم رحل إلى حماة، ثم رحل منها واجتمع بالأمير إينال الصصلاني نائب حلب، واتفقوا جميعاً على التوجه إلى جهة العمق لما بلغهم قدوم السلطان الملك المؤيد لقتالهم. وسيروا أثقالهم، فنادى نائب قلعة حلب بالنفير العام، فأتاه جل أهل حلب، ونزل هو بمن عنده من العسكر الحلبي وقاتل إينال وعساكره فلم يثبتوا، وخرج قاني باي وإينال إلى خان طومان، وتخطف العامة بعض أثقالهم، وأقاموا هناك إلى أن قاتلوا الملك المؤيد حسبما يأتي ذكره.

ثم في يوم ثاني عشر شهر رجب المذكور قدم الأمير ناصر الدين محمد بن إبراهيم بن منجك من دمشق فاراً من قاني باي نائب الشام، فارتجت القاهرة بسفر السلطان

إلى البلاد الشامية، وعظم الاهتمام للسفر.

ثم في رابع عشره أمسك السلطان الأمير جانبك الصوفي أمير سلاح وقيده وسجنه بالبرج بقلعة الجبل. ثم رسم السلطان للأمراء بالتأهب للسفر، وأخذ في عرض المماليك السلطانية وتعيين من يختاره للسفر، فعين من المماليك السلطانية مقدار النصف منهم، فإنه أراد السفر مخفاً لأن الوقت كان فصل الشتاء والديار المصرية مغلية الأسعار إلى الغاية.

أما سودون من عبد الرحمن نائب طرابلس، وتنبك البجاسي نائب حماة، طرباي نائب غزة، وجانبك الحمزاوي نائب قلعة الروم، والأمير موسى الكركري أتابك طرابلس وغيرهم فقد، ساروا على حمية إلى جهة الشرق قاصدين قرا يوسف صاحب بغداد وتبريز.

ثم ركب الملك المؤيد ودخل إلى حلب في يوم الخميس رابع عشر شهر رجب وظفر بقاني باي في اليوم الثالث من الوقعة، فقيده ثم طلبهم الجميع، فلما مثلوا بين يدي السلطان قال لهم السلطان: قد وقع ما وقع! فالآن أصدقوني: من كان اتفق معكم من الأمراء؟ فشرع قاني باي يعد جماعة، فنهره إينال الصصلاني وقال: يكذب يا مولانا السلطان! أنا أكبر أصحابه فلم يذكر لي واحداً من هؤلاء في مدة هذه الأيام وكان يمكنه أنه يكذب علي وعلى غيري بأن له جماعة من المصريين ليقوي بذلك قلوب أصحابه، فلم يذكر لنا شيئاً من ذلك، فكل ما قاله في حق الأمراء زور وبهتان. ثم التفت إينال إلى قاني باي وقال له: بتنميق كذبك تريد تخلص من سيف هذا! هيهات! ليس هذا ممن يعفو عن الذنب. ثم تكلم إينال المذكور بكلام طويل مع السلطان معناه أننا خرجنا عليك نريد قتلك، فافعل الآن ما بدا لك. فعند ذلك أمر بهم الملك المؤيد، فردوا إلى أماكنهم وقتلوا - من يومهم - الأربعة: قاني باي، وإينال، وتمان تمر أرق، وجرباش كباشه، وحملت رؤوسهم إلى الديار المصرية على يد الأمير يشبك شاد الشرابخاناه، فرفعوا على الرماح ونودي عليهم بالقاهرة: هذا جزاء من خامر على السلطان، وأطاع الشيطان، وعصى الرحمن. ثم علقوا على باب زويلة أيامًا، ثم حملوا إلى الإسكندرية فطيف بهم أيضاً هناك، ثم أعيدت الرؤوس إلى القاهرة وسلمت إلى أهاليها.

هذا والغلاء يتزايد بالقاهرة وضواحيها، والسلطان مجتهد في إصلاح الأمر لا يفتر عن ذلك، وأرسل الطواشي مرجان الهندي الخازندار إلى الوجه القبلي بمال كثير ليشتري منه القمح ويرسله إلى القاهرة توسعة على الناس. ثم أخذ السلطان في النظر في أحوال الرعية بنفسه وماله، حتى إنه لم يدع لمحتسب القاهرة في ذلك أمراً، فمشى

الحال بذلك، ورد رمق الناس - سامحه الله تعالى وأسكنه الجنة.

ثم فشا الطاعون في هذا الشهر بالقاهرة. ووقع الاهتمام في عمارة الجامع المؤيدي بالقرب من باب زويلة، وكان قبل ذلك عمله على التراخي.

ثم في سابع جمادى الآخرة من سنة تسع عشرة المقدم ذكرها أمر السلطان أن الخطباء إذا أرادوا الدعاء للسلطان على المنبر في يوم الجمعة أن، ينزلوا درجة ثم يدعوا للسلطان حتى لا يكون ذكر السلطان في الموضع الذي يذكر فيه اسم الله عز وجل واسم نبيه صلى الله عليه وسلم، تواضعاً لله تعالى، ففعل الخطباء ذلك، وحسن هذا ببال الناس إلى الغاية، وعدت هذه الفعلة من حسناته رحمه الله.

وتجهز السلطان للسفر، وأمر أمراءه وعساكره بالتجهيز. فلما كان خامس عشر المحرم جلس السلطان لتفرقة النفقات، فحمل إلى كل من أمراء الألوف ألفي دينار، وأعطى لكل مملوك من المماليك السلطانية ثمانية وأربعين ديناراً صرفها يوم ذاك عشرة الآف درهم.

وبينما السلطان يتهيأ للسفر قدم عليه الخبر في ثالث عشرين المحرم بوصول الأمير آقباي المؤيدي نائب حلب إلى قطيا في ثماني هجن فكثرت الأقوال في مجيئه على هذه الهيئة. ورسم السلطان بتلقيه، فسار إليه الأمراء وأرباب الدولة إلى خانقاه سرياقوس، وجهز له السلطان فرساً بسرج ذهب وكنبوش زركش، وكاملية مخمل بفرو سمور بمقلب سمور. وقدم آقباي المذكور من الغد في يوم السبت رابع وعشرين المحرم، فلامه السلطان ووبخه وعنفة على حضوره إلى القاهرة في هذه المدة اليسيرة على هذا الوجه من غير أمر يستحق ذلك، فإنه سار من حلب إلى مصر في أقل من عشرة أيام فاعتذر آقباي أن ما أحوجه لذلك ما أشيع عنه في عزم الخروج عن الطاعة، ثم استغفر مما وقع منه، فخلع عليه السلطان باستقراره في نيابة دمشق عوضاً عن الأمير ألطنبغا العثماني. ورسم السلطان للأمير آقبغا التمرازي أمير آخور ثاني بالتوجه إلى الشام ليقبض على ألطنبغا العثماني ويودعه بسجن قلعة دمشق، والحوطة على موجوده. ثم خلع السلطان على الأمير قجقار القردامي أمير سلاح باستقراره في نيابة حلب عوضاً عن آقباي المذكور، وأنعم السلطان بإقطاع قجقار على.

ثم سار السلطان أمام طلبه في يوم السبت حادي وعشرين شهر ربيع الأول عند انشقاق الفجر، ومر بطلبه من ظاهر حلب ومعه جميع الأمراء بأطلابهم حتى نزل بالمسطبة الظاهرية في المخيم. ومر من داخل مدينة حلب نائب الشام، ونائب طرابلس، ونائب حماة، ونائب صفد، ونائب غزة، وعدة كبيرة من التركمان والعربان

حتى خرجوا من الباب الآخر، فهال الناس هذه الرؤية الغريبة، من كثرة العساكر التي قدمت حلب من ظاهرها وباطنها، وأقام السلطان بمخيمه بالمسطبة أياماً ينتظر عود القصاد الذين وجههم للأطراف.

ثم في يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر ربيع الأول جلس السلطان بالميدان وعمل به الموكب السلطاني، وحضره نواب البلاد الشامية والعساكر المصرية، فجلس عن يمين السلطان الأتابك ألطنبغا القرمشي، وتحته آقباي المؤيدي نائب الشام، ثم بيبغا المظفري أمير مجلس، ثم يشبك المؤيدي نائب طرابلس، ثم جماعة كل واحد في رتبته، وجلس عن يسار السلطان ولده المقام الصارمي إبراهيم، ثم قجقار القردمي نائب حلب، ثم تنبك العلائي ميق الأمير آخور الكبير، ثم جارقطلو نائب حماة، ثم برد بك قصقا رأس نوبة النوب، ثم الأمير ططر، ثم جماعة أخر كل واحد في منزلته.

ثم تقرر الحال على أن قجقار القردمي نائب حلب يتوجه بمن معه إلى مدينة طرسوس، ويسير السلطان على مدينة مرعش إلى أبلستين، ويتوجه رسول ابن قرمان بجوابه ويعود إلى السلطان في مستهل جمادى الأولى بتسليم طرسوس، فإن لم يحضر مشى السلطان على بلاده، فسار الرسول صحبة نائب حلب إلى طرسوس. وسار السلطان إلى أبلستين، فنزل بالنهر الأبيض في حادي عشره، فقدم عليه كتاب قجقار القردمي نائب حلب بأنه لما نزل بغراس قدم عليه خليفة الأرمن وأكابر الأرمن وعلى يدهم مفاتيح قلعة سيس، وأنه جهزهم إلى السلطان. فلما مثلوا بين يدي السلطان خلع عليهم وأعادهم إلى القلعة بعد أن ولى نيابة سيس للشيخ أحمد أحد أمراء العشرات بحلب. ثم رحل السلطان حتى نزل بمنزلة كونيك، فقدم عليه بها كتاب آقباي نائب الشام بأن حسين بن كبك أحرق ملطية، وأخذ أهلها وفر منها في سابع عشر شهر ربيع الأول، وأنه نزل بملطية وشاهد ما بها من الحريق، وأنه لم يتأخر بها إلا الضعيف العاجز، وأن فلاحي بلادها نزحوا بأجمعهم عنها، وأن ابن كبك نزل عند مدينة دوركي، فندبه السلطان أن يسير خلفه حيث سار. ثم أمر السلطان ولده المقام الصارمي إبراهيم ليتوجه إلى أبلستين ومعه الأمير جقمق الأرغون شاوي الدوادار، وجماعة من الأمراء لكبس الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادرة فساروا مجدين، فصابحوا أبلستين وقد فر منها ابن دلغادر، وأجلى البلاد من سكانها، فجدوا في السير خلفه ليلاً ونهاراً حتى نزلوا بمكان يقال له كل دلي في يوم خامس عشرة وأوقعوا بمن فيه من التركمان، وأخذوا بيوتهم وأحرقوها. ثم مضوا إلى خان السلطان. فأوقعوا أيضاً بمن كان هناك وأحرقوا بيوتهم وأخذوا من مواشيهم شيئاً كثيراً. ثم ساروا إلى مكان يقال له صاروس ففعلوا بهم كذلك، وباتوا هناك. ثم توجهوا يوم سادس عشره فأدركوا ناصر الدين بك بن دلغادر وهو سائر بأثقاله وحريمه، فتتبعوه

وأخذوا أثقاله وجميع ما كان معه، ونجا ابن دلغادر بنفسه على جرائد الخيل، ووقع في قبضتهم عدة من أصحابه، ثم عادوا إلى السلطان بالغنائم، ومن جملتها مائة جمل بختي وخمسمائة جمل نفر، ومائة فرس، هذا سوى ما نهب وأخذه العسكر من الأقمشة الحرير، والأواني الفضية ما بين بلور وفضيات وبسط وفرش، وأشياء كثيرة لا تدخل تحت حصر، فسر السلطان بذلك وصار السلطان يتنقل في مراعي الجستين حتى قدم عليه آقباس نائب الشام بعد أن سار في أثر حسين بن كبك إلى أن بلغه أنه دخل إلى بلاد الروم، وبعد أن قرر أمر ملطية بعود أهلها إليها، وبعد أن جهز الأمير جارقطلو نائب حماة، ومعه نائب البيرة، ونائب قلعة الروم، ونائب عين تاب في عدة من الأمراء إلى كختا وكركر، فنازلوا القلعتين، وقد أحرق نائب كختا أسواقها وتحصن بقلعتها، فبعث السلطان إليهم نجدةً فيها ألف ومائتا ماش. ثم قدم كتاب ناصر الدين بك بن دلغادر على السلطان يسأل العفو عنه على أن يسلم قلعة درندة فأجيب إلى ذلك.

وأما قجقار القردمي نائب حلب فإنه لما توجه إلى طرسوس قدم بين يديه إليها الأمير شاهين الأيدكاري متوليها من قبل السلطان، فوجد ابن قرمان قد بعث نجمة إلى نائبه بها، وهو الأمير مقبل. فلما بلغ مقبلاً المذكور مجيء العساكر السلطانية إليه امتنع بقلعتها، فنزل شاهين الأيدكاري وقجقار القردمي عليها. وكتب قجقار إلى السلطان بذلك، فأجابهم السلطان بالاهتمام في حصارها، وحرضهم على ذلك، فلا زالوا على حصارها حتى أخذوها بالأمان في يوم الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول، وسجنوا مقبلاً وأصحابه.

ثم ركب السلطان ليرى درندة، وسار إليها على جرائد الخيل حتى نزل عليها وبات بظاهرها فامتنعت عليه. وأصبح فرتب الأمير آقباي نائب الشام في إقامته عليها، وأردفه بآلات الحصار والصناع من الزردخاناه السلطانية. وعاد السلطان إلى مخيمه، فوصل إليه في تلك الليلة مفاتيح قلعة خندروس من مضافات درندة. ثم ركب السلطان من الغد وبات على سطح العقبة المطلة على درندة. فلما أصبح ركب بعساكره وعليهم السلاح، ونزل بمخيمه على قلعة درندة وهي في شدة من قوة الحصار. فلما رأى من بها أن السلطان نزل عليهم طلبوا الأمان، فأمنهم، ونزلوا بكرة يوم الجمعة، وفيهم داود ابن الأمير محمد بن قرمان، فألبسه السلطان تشريفاً، وأركبه فرساً بقماش ذهب، وخلع على جماعته. واستولى السلطان على القلعة، وخلع على الأمير ألطنبغا الجكمي أحد رؤوس النوب باستقراره في نيابة درندة، وأنعم عليه بأربعة آلاف دينار غير السلاح. وخلع على الأمير منكلي بغا الأرغون شاوي أحد أمراء الطبلخانات بالديار المصرية بنيابة ملطية ودوركي، وأنعم عليه بخمسة الآف

دينار. ثم طلع السلطان إلى قلعة درندة وأحاط بها علماً. ثم ارتحل عنها بعد أن مهد البلاد التي استولى عليها، وعمل مصالحها، وسار حتى نزل على النهر من غربي أبلستين بنحو مرحلة، فأقام هناك أربعة أيام ليمكن كل من ولي نيابة على عمله ورجوع أهل بلده إليه. ثم رحل ونزل على أبلستين يريد التوجه إلى بهسنا وكختا وكركر، وأعاد من هناك حمزة بن علي بك بن دلغادر إلى أبيه، وجهز له راية حمراء من الكمخا الإسكندراني، ونفقة وطبلخاناه.

ثم رحل السلطان حتى نزل على كختا وحصر قلعتها، وقد نزح أهل كختا ومعامليها عنها، فنصب المدافع للرمي على القلعة ورمى عليها. وبينما هو في ذلك ورد الخبر على السلطان بقرب قرا يوسف قاصداً قرايلك، فبادر قرايلك وجهز ابنه حمزة صحبة نائبه شمس الدين أميرزه بهدية من خيل وشعير وسأل الاعتناء به، فأكرم السلطان ولده ونائبه. وقدم أيضاً قاصد طر علي نائب الرها، وقاصد الأمير محمد بن دولة شاه صاحب أكل من ديار بكر ومعه مفاتيح قلعتها، فقبلها السلطان، ثم أعادها إليه ومعها تشريف له بنيابتها.

ولما اشتد الحصار على قلعة كختا وفرغ النقابون من النقب ولم يبق إلا إلقاء النار فيها، طلب قرقماس نائبها شمس الدين أميرزه نائب قرايلك فبعثه السلطان إليه، وتردد المذكور بينه وبين السلطان غير مرة إلى أن بعث قرقماس ولده رهناً على أنه بعد رحيل السلطان عنه ينزل ويسلمها لمن يأمره السلطان بتسليمها. ورحل السلطان إلى جهة كركر، وترك الأمير جقمق الدوادار على كختا، وسارت أثقال السلطان إلى عين تاب، فنازل السلطان كركر، ونصب عليها منجنيقاً يرمي بحجر زنته ما بين الستين والسبعين رطلاً بالدمشقي، وكان ذلك في يوم الجمعة تاسع وعشرين من جمادى الآخرة.

فلما كان أول شهر رجب قدم الخبر على السلطان من الأمير جقمق بنزول قرقماس من قلعة كختا ومعه حريمه وتسلمها نواب السلطان، وأنه توجه معه قرقماس المذكور إلى حلب. ثم قدم الخبر على السلطان من الأمير منكلي بغا نائب ملطية بأن طائفة من عسكر قرا يوسف نزلوا تحت قلعة منشار، ونهبوا بيوت الأكراد، وعدى الفرات منهم نحو ثلاثمائة فارس، وأنه ركب عليهم وقاتلهم وقتل منهم نحو العشرين وغرق في الفرات نحو ذلك، وأسر اثني عشر نفراً، فكتب له السلطان بالشكر والثناء. ثم خلع السلطان على الأمير شاهين حاجب صفد باستقراره في نيابة كركر، وعلى الأمير كزل بغا أحد أمراء حماة بنيابة كختا، فمضى كزل بغا المذكور إليها من يومه.

ورحل السلطان من الغد وهو يوم الثلاثاء رابع شهر رجب، وقد عاوده ألم

رجله الذي يعتريه في بعض الأحيان، فركب المحفة عجزاً عن ركوب الفرس، وعاد إلى جهة البلاد الحلبية، إلى أن وصل إلى بلد يقال له كيلك، فنزل في الفرات في زوارق وصحبته جماعة، وسار إلى أن وصل قلعة الروم في عشية يوم الخميس سادسه، وبات بها. ونزل من الغد بعدما رتب أحوال القلعة، وأنعم على نائبها بخمسمائة دينار، فقدم عليه في يوم الجمعة سابعه الخبر بأن الأمير قجقار القردمي نائب حلب يخبر بهزيمة قرايلك من قرا يوسف وأن الذين معه من العسكر المقيم على كركر خافوا من قرا يوسف وعزموا على الرحيل. وبينما كتاب قجقار يقرأ قدم كتاب آقباي نائب الشام بأن الأمير قجقار نائب حلب رحل عن كركر بمن معه من غير أن يعلمه، وأنه عزم على محاصرتها، فكتب إليه السلطان بأن يستمر على حصارها.

ثم سار السلطان من الغد إلى الخليل - عليه السلام - فزاره وتصدق فيه أيضاً بجملة. وخرج منه وسار يريد غزة، فلقيه أستاداره فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج في قرية السكرية، وقبل الأرض بين يديه، وناوله قائمة فيها ما أعده له من الخيول والأموال وغيرها، فسر السلطان بذلك على ما سنذكره فيما بعد.

وسار السلطان، حتى نزل مدينة غزة في يوم الاثنين ثامن وعشرين شهر رمضان، وأقام بها إلى أن خرج منها في آخر يوم السبت أول شوال بعدما صلى صلاة العيد على المصطبة المستجدة ظاهر غزة، وصلى به وخطب شيخ الإسلام قاضي القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقيني.

ثم في خامس شهر رمضان المذكور نودي في أجناد الحلقة بالعرض على السلطان فعرضوا عليه في يوم الجمعة سادسه، وابتدأ بعرض من هو في خدمة الأمراء، فخيرهم بين الاستمرار في جملة جناد الحلقة وترك خدمة الأمراء أو الإقامة في خدمه الأمراء وترك أخبار الحلقة، فاختار بعضهم خدمة الأمراء وترك خبزه الذي بالحلقة، واختار بعضهم ضد ذلك، فأخرج السلطان إقطاع من اختار خدمة الأمراء، وصرف من خدمة الأمراء من أراد الإقامة على إقطاعه بالحلقة، وشكا إليه بعضهم قلة متحصل إقطاعه فزاده، وعد هذا من جودة تدبير الملك المؤيد وسيره على القاعدة القديمة، فإن العادة كانت في هذه الدولة التركية أن يكون عسكر مصر على ثلاثة أقسام:

قسم يقال لهم أجناد الحلقة، وموضوعهم أن يكونوا في خدمة السلطان، ولكل منهم إقطاع في أعمال مصر، وكل ألف منهم مضافة إلى أمير مائة ومقدم

ألف، ولهذا المعنى سمي الأمير بمصر أمير مائة، أعني صاحب مائة مملوك في خدمته ومقدم ألف من هؤلاء أجناد الحلقة. ويضاف أيضاً لكل مقدم ألف أمير طبلخاناه وأمير عشرين وأمير عشرة ومقدم الحلقة. فإذا عين السلطان أميراً إلى جهة من الجهات نزل ذلك الأمير في الوقت وتهيأ بعد أن أعلم مضافيه، فيخرج الجميع في الحال - انتهى.

وكان نظير هؤلاء أيام الخلفاء أهل العطاء وأهل الديوان.

والقسم الثاني يقال لهم: مماليك السلطان، ولهم جوامك ورواتب مقررة على ديوان السلطان في كل شهر وكسوة في السنة.

والقسم الثالث يقال لهم: مماليك الأمراء يخدمون الأمراء. وكل من هؤلاء لا يدخل مع آخر فيما هو فيه، فلذلك كانت عدة عساكر مصر أضعاف ما هي الآن، وهؤلاء غير الأمراء. ثم تغير ذلك كله في أيام الملك الظاهر برقوق لما وثب على الملك، فصارت الأمراء يشترون إقطاعات الحلقة أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم أو طواشيتهم، ثم لا يكفيهم ذلك حتى ينزلوهم أيضاً في بيت السلطان بجامكية، فيصير الواحد من مماليك الأمراء جندي حلقة ومملوك سلطان وفي خدمة أمير، فيصير رزق ثلاثة أنفس إلى رجل واحد، فكثر متحصل قوم وقل متحصل آخرين، فضعف عسكر مصر لذلك. فعلى هذا الحساب يكون العسكر الآن بثلث ما كان أولا، هذا غير ما خرج من الإقطاعات في وجه الرزق والأملاك وغير ذلك، وهو شيء كثير جداً يخرج عن الحد. فمن تأمل ما ذكرناه علم ما كان عدة عسكر مصر أولاً، وما عدته الآن. هذا مع ما خرب من النواحي من كثرة المغارم والظلم المترادف، وقلة نظر الحكام في أحوال البلاد، ولولا ذلك لكان عسكر مصر لا يقاومه عدو ولا يدانيه عسكر - انتهى.

ولما بلغ السلطان رجوع قرا يوسف إلى بلاده فرح بذلك وسكت عن السفر إلى البلاد الشامية. وبينما السلطان في ذلك قدم عليه الخبر أن ابن قرمان مشى على طرسوس وحارب أهلها فقتل من الفريقين خلق كثير، ودام القتال بينهم إلى أن رحل عنها في سابع شعبان من ألم اشتد بباطنه.

ثم بدأ الطاعون بالديار المصرية.

ثم قدم على السلطان الخبر في ثاني وعشرين شهر ربيع الآخر برحيل المقام الصارمي إبراهيم من مدينة حلب بعساكره والعساكر الشامية وأنه دخل إلى مدينة قيسارية، فحضر إليه أكابر البلد من القضاه والمشايخ والصوفية فتلقوه

فألبسهم الخلع، وطلع قلعتها يوم الجمعة، وخطب في جوامعها للسلطان، وضربت السكة باسمه، وأن شيخ جلبي نائب قيسارية تسحب منها قبل وصول العساكر إليها، وأن ابن السلطان خلع على محمد بك بن قرمان وأقره في نيابه السلطنة قيسارية. فدقت البشائر بقلعة الجبل لذلك، وفرح السلطان بأخذ قيسارية فرحاً عظيماً، فإن هذا شيء لم يتفق لملك من ملوك الترك بالديار المصرية سوى الملك الظاهر بيبرس، ثم انتقض الصلح بينه وبين أهلها حسبما ذكرناه في ترجمته من هذا الكتاب - انتهى.

ولما استهل جمادى الأولى تناقص فيه الطاعون حتى كان الذي ورد اسمه في أوله من الأموات سبعة وسبعين نفراً.

وفي يوم الأحد ثاني جمادى الأولى المذكور ولد للسلطان الملك المؤيد ولده الملك المظفر أحمد من زوجته خوند سعادات بنت الأمير درغتمش.

ثم في سابع جمادى الأولى استدعى السلطان بطرك النصاري، وقد اجتمع القضاة ومشايخ العلم عند السلطان، فأوقف البطرك على قدميه ووبخ وقرع، وأنكر عليه السلطان ما بالمسلمين من الذل في بلاد الحبشة تحت حكم الحطي متملكها، وهدد بالقتل، فانتدب له الشيخ صدر الدين أحمد بن العجمي محتسب القاهرة فأسمعه المكروه من أجل تهاون النصارى فيما أمروا به في ملبسهم وهيئاتهم، وطال كلام العلماء مع السلطان في ذلك إلى أن استقر الحال بأن لا يباشر أحد منهم في ديوان السلطان ولا عند أحد من الأمراء، ولا يخرج أحد منهم عما ألزموا به من الصغار. ثم طلب السلطان الأكرم فضائل النصراني كاتب الوزير - وكان قد سجن من أيام - فضربه السلطان بالمقارع وشهره بالقاهرة عرياناً بين يدي المحتسب وهو ينادي عليه: هذا جزاء من يباشر من النصارى في ديوان السلطان، ثم سجن أيضاً بعد إشهاره. وصمم السلطان في ذلك حتى انكف النصارى عن المباشرة في سائر دواوين الديار المصرية، ولزموا بيوتهم، وصغروا عمائمهم وضيقوا أكمامهم، والتزم اليهود مثل ذلك، وامتنعوا جميعهم من ركوب الحمير، بحيث أن العامة صارت إذا رأوا نصرانياً على حمار ضربوه وأخذوا حماره وما عليه، فصاروا لا يركبون الحمار إلا بخارج القاهرة. وبذل النصارى جهدهم في السعي إلى عودهم إلى المباشرة وأوعدوا بمال كبير، وساعدتهم كتاب الأقباط، فلم يلتفت السلطان إلى قولهم، وأبى إلا ما رسم به من المنع.

قلت: ولعل الله أن يسامح الملك المؤيد بهذه الفعلة عن جميع ذنوبه، فإنها من

أعظم الأمور في نصرة الإسلام، ومباشرة هؤلاء النصارى في دواوين الديار المصرية من أعظم المساوئ التي يؤول منها تعظيم دين النصرانية، لأن غالب الناس من المسلمين تحتاج إلى التردد إلى أبواب أرباب الدولة لقضاء حوائجهم، فمهما كان لهم من الحوائج المتعلقة بديوان ذلك الرئيس فقد احتاجوا إلى التواضع والترفق إلى من بيده أمر الديوان المذكور، نصرانياً كان أو يهودياً أو سامرياً، وقد قيل في الأمثال: " صاحب الحاجة أعمى لا يريد إلا قضاءها ". فمنهم من يقوم بين يدي ذلك النصراني على قدميه والنصراني جالس ساعات كثيرة حتى يقضي حاجته، بعد أن يدعو له ويتأدب معه تأدباً لا يفعله مع مشايخ العلم، ومنهم من يقبل كتفه ويمشي في ركابه إلى بيته إلى أن تقضى حاجته. وأما فلاحو القرى فإنه ربما النصراني المباشر يضرب الرجل منهم ويهينه ويجعله في الزنجير، ويزعم بذلك خلاص مال أستاذه، وليس الأمر كذلك، وإنما يقصد التحكم في المسلمين لا غير، فهذا هو الذي يقع للأسير من المسلمين في بلاد الفرنج بعينه لا زيادة على ذلك غير أنه يملك رقه.

ثم في عشرين شعبان تزايد ألم السلطان ولم يحمل إلى القصر السلطاني، ولزم الفراش، واشتد به المرض. وخلع على التاج ابن سيفة باستقراره أمير حاج المحمل.

ثم نصل السلطان من مرضه قليلاً فركب في يوم سابع عشرين شعبان من القلعة ونزل للفرجة على سباق الخيل. فسار بعساكره سحراً ووقف بهم تحت قبة النصر وقد أعد للسباق أربعين فرساً فأطلق أعنتها من بركة الحاج فأجرب منها حتى أتته ضحى النهار، فحصل له برؤيتها النشاط. ورجع من موقفه إلى تربة الملك الظاهر برقوق، ووقف قريباً منها دون الساعة، ثم بعث المماليك والجنائب والشطفة إلى القلعة، وتوجه إلى خليج الزعفران، فنزل بخاصته وأقام به إلى آخر النهار، وركب إلى القلعة.

وأصبح يوم السبت أول شوال فصلى صلاة العيد بالقصر لعجزه عن المضي إلى الجامع، لشدة ألم رجله وامتناعه من النهوض على قدميه.

فلما كان يوم الأربعاء رابع وعشرين الشهر المذكور نادى السلطان بإبطال مكس الفاكهة البلدية والمجلوبة، وهو في كل سنة نحو ستة الأف دينار سوى ما يأخذه الكتبة والأعوان، فبطل ونقش ذلك على باب الجامع المؤيدي.

ثم في يوم الخميس ثاني جمادى الأولى ابتدأ بالمقام الصارمي إبراهيم ابن السلطان الملك المؤيد مرض موته، ولزم الفراش بالقلعة إلى يوم الثلاثاء رابع عشره، فركب

من القلعة في محفة لعجزه عن ركوب الفرس ونزل إلى بيت القاضي زين الدين عبد الباسط ابن خليل ناظر الخزانة ببولاق، وأقام به، ثم ركب من الغد في النيل وعدى إلى الخروبية ببر، الجيزة، وأقام بها وقد تزايد مرضه.

ثم في يوم الأربعاء ثالث عشره حمل المقام الصارمي إبراهيم من الحجازية إلى القلعة على الأكتاف لعجزه عن ركوب المحفة، فمات ليلة الجمعة خامس عشره فارتجت القاهرة لموته. فجهز من الغد وصلي عليه ودفن بالجامع المؤيدي، وشهد السلطان الصلاة عليه ودفنه، مع عدم نهضته للقيام من شدة مرضه وللوجد الذي حصل له على ولده. وأقام السلطان بالجامع المؤيدي إلى أن صلى به الجمعة. وخطب القاضي ناصر الدين بن البارزي على العادة، وخطب خطبة بليغة من إنشائه، وشبك في الخطبة الحديث الذي ذكره النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم: **{إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع وإنا لمحزنون على فراقك يا إبراهيم.. إلخ}**. فلما ذكر ذلك ابن البارزي على المنبر بكى السلطان وبكى الناس لبكائه فكانت ساعة عظيمة. ثم ركب السلطان بعد الصلاة من الجامع المؤيدي وعاد إلى القلعة، وأقام القراء يقرؤون القرآن على قبره سبع ليال.

وفي هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة، وغلا سعر الغلال، ونودي بالقاهرة بالصيام ثلاثة أيام، ثم بالخروج إلى الصحراء للاستسقاء، فصام أكثر الناس وصام السلطان، فنودي بزيادة إصبع عما نقصه. ثم في غده نودي على النيل بزيادة اثني عشر إصبعاً بعدما رد النقص، وهو قريب سبعة وعشرين إصبعاً، فتباشر الناس باستجابة دعائهم.

ثم قدم الخبر على السلطان بنزول قرا يوسف على بغداد وقد عصاه ولده شاه محمد بها، فحاصروه ثلاثة أيام حتى خرج إليه، فأمسكه أبوه قرا يوسف واستصفى أمواله، وولى عوضه على بغداد ابنه أميرزه أصبهان، ثم عاد قرا يوسف إلى مدينة تبريز لحركة شاه رخ بن تيمورلنك عليه.

فلما كان يوم الاثنين عشرين شوال أشيع بالقاهرة موت السلطان، فاضطرب الناس. ثم أفاق السلطان فسكنوا، فطلع أمير حاج المحمل الأمير تمرباي المشد وقبل الأرض وخرج بالمحمل إلى بركة الحاج من يومه. وسافر الحاج وهو على تخوف من النهب بسبب الإشاعات بموت السلطان.

ثم في يوم الاثنين المذكور طلب السلطان الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء والأعيان وعهد إلى ولده الأمير أحمد بالسلطنة من بعده، وعمره سنة واحدة

ونحو خمسة أشهر وخمسة عشر يوماً، فإن مولده في جمادى الأولى من السنة الخالية، وجعل الأمير الكبير ألطنبغا القرمشي القائم بتدبير ملكه إلى أن يبلغ الحلم، وأن يقوم بتدبير الدولة مدة غيبة الأتابك ألطنبغا القرمشي إلى أن يحضر الأمراء الثلاثة وهم: قجقار القردمي أمير سلاح، وتنبك العلائي ميق المعزول عن نيابة الشام، والأمير ططر أمير مجلس. وحلف السلطان الأمراء على العادة، وأخذ عليهم الأيمان والعهود بالقيام في طاعة ولده وطاعة مدبر مملكته، ثم حلف المماليك من الغد. ثم أفاق السلطان وحضرت الأمراء الخدمة على العادة.

هذا وقد اشتد الأمر بالسلطان الملك المؤيد من الآلام والأرجاف تتواتر بموته، والناس في هرج إلى أن توفي قبيل الظهر من يوم الاثنين تاسع المحرم من سنة أربع المقدم ذكرها، فارتج الناس لموته ساعة ثم سكنوا. وطلع الأمراء القلعة وطلبوا الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة والأعيان لإقامة الأمير أحمد بن السلطان في السلطنة، فخلع عليه فتسلطن، وتم أمره حسبما سنذكره في محله من هذا الكتاب في حينه إن شاء الله تعالى.

ثم أخذوا في تجهيز السلطان الملك المؤيد وتغسيله وتكفينه.

وكان المؤيد عالي الهمة، كثير الحركات والأسفار، جيد التدبير، حسن السياسة، يباشر الأحكام بنفسه، مع معرفة تامة وحذق وفطنة وجودة حدس في أموره، عظيم السطوة على مماليكه وأمرائه، هيناً مع جلسائه وندمائه، طروباً يميل إلى سماع الشعر والأصوات الطيبة، على أنه كان يحسن أيضاً أداء الموسيقى ويقوله في مجالس أنسه. وكان يميل إلى الدقة الأدبية ويفهمها بسرعة: قيل. نظر مرةً إلى اسمه وهو مكتوب على بعض الحيطان، وقد كتب الدهان الشين من اسم شيخ بجرة واحدة، فلما نظر المؤيد قال: مسكين شيخ بلا سنينات، وله أشياء كثيرة من ذلك وكان يشارك الفقهاء في أبحاثهم ويتصور أقوالهم ويطرح عليهم المسائل المشكلة، هذا مع ميله لأرباب الكمالات من كل علم وفن، وتعجبه المداعبة اللطيفة.

قال الشيخ تقي الدين المقريزي: وأخذ في جهاز المؤيد وصلي عليه خارج باب القلعة، وحمل إلى الجامع المؤيدي فدفن بالقبة قبيل العصر، ولم يشهد دفنه كثير أحد من الأمراء والمماليك لتأخرهم بالقلعة. واتفق في أمر المؤيد موعظة فيها أعظم عبرة، وهو أنه لما غسل لم توجد له منشفة ينشف فيها، فنشف بمنديل بعض من حضر غسله، ولا وجد له مئزر تستر به عورته

حتى أخذ له مئزر صوف صعيدي من فوق رأس بعض جواريه فستر به، ولا وجد له طاسة يصب بها عليه الماء وهو يغسل مع كثرة ما خلفه من الأموال، ومات وقد أناف على الخمسين. وكانت مدة ملكه ثماني سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام. وكان شجاعاً مقداماً، يحب أهل العلم ويجالسهم، ويجل الشرع النبوي ويذعن له، ولا ينكر على طلب من إذا تحاكم إليه أن يمضي من بين يديه إلى قضاة الشرع، بل يعجبه ذلك، وينكر على أمرائه معارضة القضاة في أحكامهم. وكان غير مائل إلى شيء من البدع. وله قيام في الليل إلى التجهد أحياناً. إلا أنه كان بخيلاً مسيكاً يشح حتى بالأكل، لجوجاً غضوباً نكداً حسوداً معياناً، يتظاهر بأنواع المنكرات، فحاشاً سباباً، شديد المهابة، حافظاً لأصحابه غير مفرط فيهم ولا مطيع لهم. وهو أكبر أسباب خراب مصر والشام، لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن أيام نيابته بطرابلس ودمشق، ثم ما أفسده في أيام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط أتباعه على الناس يسومونهم الذلة، ويأخذون ما قدروا عليه بغير وازع من عقل ولا ناه من دين، - انتهى كلام المقريزي برمته بعد تخبيط عظيم.

قلت: وكان يمكنني الرد عليه في جميع ما قاله بحق، غير أنني لست مندوباً إلى ذلك، فلهذا أضربت عن تسويد الورق وتضييع الزمان. والذي أعرفه أنا من حاله أنه كان سلطاناً جليلاً مهاباً شجاعاً مقداماً عاقلاً نقاداً. حدثني الأمير أرنبغا اليوسفي الناصري - رحمه الله - قال: كان المؤيد ينظر إلى الرجل وينقده بعينيه فيعرف من حاله ما يكتفي به عن السؤال عنه، ثم يعطيه من الرزق والاقطاعات ما يليق بشأنه كما يصف الطبيب الحاذق إلى المريض من الدواء، فإن كان الرجل أعجبه رقاه في أقل مدة إلى أعلى المراتب، وإن كان غير ذلك شح عليه حتى بالاقطاع الذي يعمل عشرة آلاف درهم في السنة - انتهى كلام أرنبغا.

قلت: هذا هو المطلوب من الملوك وإلا يضيع الصالح بالطالح.

وكان المؤيد عالي الهمة، كثير الحركات والأسفار، جيد التدبير، حسن السياسة، يباشر الأحكام بنفسه، مع معرفة تامة وحذق وفطنة وجودة حدس في أموره، عظيم السطوة على مماليكه وأمرائه، هيناً مع جلسائه وندمائه، طروباً يميل إلى سماع الشعر والأصوات الطيبة، على أنه كان يحسن أيضاً أداء الموسيقى ويقوله في مجالس أنسه. وكان يميل إلى الدقة الأدبية ويفهمها بسرعة: قيل. نظر مرةً إلى اسمه وهو مكتوب على بعض الحيطان، وقد

كتب الدهان الشين من اسم شيخ بجرة واحدة، فلما نظر المؤيد قال: مسكين شيخ بلا سنينات، وله أشياء كثيرة من ذلك وكان يشارك الفقهاء في أبحاثهم ويتصور أقوالهم ويطرح عليهم المسائل المشكلة، هذا مع ميله لأرباب الكمالات من كل علم وفن، وتعجبه المداعبة اللطيفة.

* * *

سلطنة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ

السلطان الملك المظفر أبو السعادات أحمد ابن السلطان الملك المؤيد أبي النضر شيخ المحمودي الظاهري الجاركسي الجنس. تسلطن يوم مات أبوه الملك المؤيد شيخ، على مضي خمس درج من نصف نهار الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة، وعمره يوم بويع بالملك وجلس على سرير السلطنة سنة واحدة وثمانية أشهر وسبعة أيام. وهو السلطان التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم، والخامس من الجراكسة، وأمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصري، أحد أمراء دمشق، وهي إلى الآن في قيد الحياة.

ولما مات أبوه السلطان الملك المؤيد طلب الملك المظفر هذا من الحريم بالدور السلطانية، فأخرج إليهم، فبايعوه بالسلطنة بعهد من أبيه إليه بالملك قبل تاريخه، وألبسوه خلعة السلطنة، وركب فرس النوبة بأبهة السلطنة وشعار الملك من باب الستارة بقلعة الجبل، ومشت الأمراء بين يديه وهو يبكي من صغر سنه، مما أذهله من عظم الغوغاء، وقوة الحركة. وصار من حوله من الأمراء وغيرهم يشغله بالكلام، ويتلطف به، ويسكن روعه، ويناوله من التحف ما يشغله به عن البكاء، حتى وصل إلى القصر السلطاني من القلعة، فأنزل من على فرسه، وحمل حتى أجلس على سرير الملك وهو يبكي. وقبل الأمراء الأرض بين يديه بسرعة، ولقبوه بالملك المظفر بحضرة الخليفة المعتضد بالله أبي الفتح داود، والقضاة الأربعة، ونودي في الحال بالقاهرة ومصر باسمه وسلطنته.

وقبل أن يدفن الملك المؤيد أبرم الأمير ططر أمير مجلس أمره مع الأمراء، وقبض على الأمير قجقار القردمي أمير سلاح، وأمسكه بمعاونة أكابر المماليك المؤيدية، وأيضاً بمعاونة خشداشيته من المماليك الظاهرية برقوق، فارتجت القاهرة وماجت الناس ساعة، وتخوفوا من وقوع فتنة، فلم يقع شيء وذلك لعدم حاشية قجقار القردمي، فإنه أحد مماليك الأمراء ليس له شوكة ولا خشداشين. وسكن الأمر، ونبل ططر في أعين الناس من يومئذ، وتفتحت العيون إليه.

هذا وقد استقر سكن الأمير ططر بطبقة الأشرفية من قلعة الجبل، فجلس ططر بطبقة الأشرفية، بعد أن فرشت له، ووقف الأمراء ومباشرو الدولة والأعيان بين يديه، فأخذ وأعطى، ونفذ الأمور على أحسن وجه، وأجمل

صورة، فهابته الناس، وعلموا أنه سيكون من أمره ما يكون من أول جلوسه في هذا اليوم. ثم رسم بكتابة الخبر بموت الملك المؤيد، وسلطنة ولده الملك المظفر إلى الأقطار، وأوعد المماليك السلطانية بالنفقة فيهم على العادة، فكثر الدعاء له، والفرح بتكلمه في السلطنة.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر المحرم رسم الأمير ططر نظام الملك بالقبض على الأمير جلبان رأس نوبة. سيدي إبراهيم بن المؤيد، وعلى الأمير شاهين الفارسي، وهما من مقدمي الألوف بالديار المصرية، فمسكا وقيدا وحبسا. ثم طلب الأمير ططر القضاة ودخل معهم إلى الخزانة السلطانية، وختم بحضورهم على خزانة المال بعد أن أخرج منها أربعمائة ألف دينار برسم نفقة المماليك السلطانية، ثم نزل القضاة.

فلما كان الليل اضطرب الناس، ووقعت هجة بالقاهرة، ولم يدر أحد ما الخبر حتى طلع الفجر فأسفرت القضية على أن الأمير مقبلاً الحسامي الدوادار لكبير ركب بمماليكه وعليهم السلاح في الليل، وخرج من القاهرة ومعه السيفي يلخجا من مامش الساقي الناصري، وسار إلى جهة الشام خوفاً من القبض عليه.

فلما كان الغد من يوم الخميس، اجتمع الأمراء عند الأمير ططر بالقلعة وعرفوه أمر مقبل المذكور، وسألوه أن يرسل أحداً منهم في أثره فلم يلتفت إلى ذلك. وأخذ فيما هو فيه من أمر نفقة المماليك السلطانية، ونفق فيهم لكل واحد منهم مائة دينار مصرية، فشكر المماليك له ذلك. ثم أمر فنودي بالقاهرة بإبطال المغارم التي جددت على الجراريف في عمل الجسور بأعمال مصر، فوقع ذلك من الناس الموقع الحسن.

ثم قَدِمَ الخبرُ من الشام بأن الأمير جَقْمَق الأرْغُون شَاوي نائب الشام امتنع من الدخول في طاعة الأمير ططر، وأنه أخذ قلعة دمَشق واسْتَوْلى عليها، وعلى ما فيها من الأموال والسلاح وغير ذلك، وكان بها نحو المائة ألف دينار، فاضطرب أهلُ الدَوْلة إلا الأمير ططر فإنه لم يَتَحَرَّك لذلك. وطلع إليه حمفوه الأمير سُودون الفقيه الظاهري، وكان له عنده مكانة عظيمة، فجاراه سُودون في أمر جَقْمَق، فقال له ططر: يا أبي الأهم ألطُنْبُغَا القَرْمَشِي الظاهري، وأما جَقْمَق فإنه رَجلٌ غريب مملوك، أمير ليس له من يقوم بنُصْرَتِه، ولا من يعينه على ما يرومه، غير أنه يلعب في ذهاب مهجته، فقال له سودون الفقيه: وإن يكن فافعل الأحْوَط وأشار عليه بما يفعله.

ثم في يوم الأربعاء أول شهر ربيع الأول قدم الخبر على الأمير ططر على يد بعض الشاميين ومعه كتاب الأمير الكبير ألطنبغا القرمشي من حلب، وهو يتضمن: أنه لما قتل الأمير يشبك نائب حلب ولى عوضه الأمير ألطنبغا من عبد الواحد الصغير رأس نوبة النوب، فإنه عندما ورد عليه الخبر بموت السلطان الملك المؤيد شيخ بعدما عهد بالسلطنة من بعده لابنه الملك المظفر أحمد، وأن يكون القائم بتدبير الدولة ألطنبغا القرمشي، وأنه قد أقيم في السلطنة الملك المظفر كما عهد الملك المؤيد، أخذ هو ومن معه من الأمراء في الرحيل من حلب إلى جهة الديار المصرية كما رسم له به. وكان من أمر يشبك ما كان فاشتغل بذلك عن المسير. ثم ورد عليه الخبر باستقرار نواب الممالك الشامية على عوائدهم، وتحليفهم للسلطان الملك المظفر أحمد، وللأمير الكبير ططر، فحمل الأمر في ذلك على أنه غلط من الكاتب، وسأل أن يفصح له عن ذلك، وأبرق وأرعد. ولم يعلم بأن الأمر انقضى وفاته ما أراد. وقد انتهز الأمير ططر الفرصة

ثم أمر الأمير ططر بكتابة جوابه، فأجيب بكلام متحصله: أنه لما عهد الملك المؤيد شيخ لابنه بالملك، وأقيم في السلطنة، طلب الأمراء والخاصكية والمماليك السلطانية أن يكون المتحدث في أمور الدولة الأمير ططر، ورغبوا إليه في ذلك، ففوض إليه الخليفة جميع أمور المملكة بأسرها، فليحضر الأمير بمن معه إلى الديار المصرية ليكونوا على إمرياتهم وإقطاعاتهم على عادتهم، ثم أنكر عليه استقرار ألطنبغا الصغير في نيابة حلب من غير استئذانه.

ثم أخذ الأمير ططر - بعد المناداة - في تجهيز أمره وأمر السلطان الى السفر.

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر ربيع الآخر ركب الأمير ططر نظام الملك من قلعة الجبل، ومعه الأمراء والخاصكية والمماليك السلطانية، وسار إلى جهة قبة النصر، ثم عاد ودخل القاهرة من باب النصر، وخرج من باب زويلة إلى أن طلع إلى القلعة في موكب سلطاني لم يفقد فيه إلا الجاوشية والعصابة السلطانية وهذا أول موكب ركبه الأمير ططر من يوم تحكمه في الديار المصرية، وهو من يوم موت الملك المؤيد شيخ.

ثم في سادسه نودي فى المماليك السلطانية بالطلوع إلى القلعة لأخذ نفقة سفر في يوم الخميس. فلما كان يوم الخميس المذكور جلس الأمير ططر نظام الملك بقلعة الجبل، وأنفق في المماليك السلطانية نفقة السفر، لكل واحد مائة دينار إفرنتية. ثم في تاسعه أنفق على الأمراء والمماليك أيضاً، فحمل للأمير

الكبيــر تنبــك ميــق خمســة آلاف دينــار، ولمــن عــداه أربعــة آلاف دينــار وثلاثــة آلاف دينار.

ثـم ركـب الأميـر ططـر ومعـه السـلطان والعسـاكر إلـى نحـو دمشـق حتـى دخلهـا مـن غيـر ممـانع بكـرة الأحـد خـامس عشـر جمـادى الأولـى المـذكورة، بعـد أن تلقـاه الأميـر الكبيـر ألطنبغـا القرمشـي ومعـه الأميـر ألطنبغـا المرقبـي حاجـب الحجـاب بالـديار المصـرية، والأميـر جربـاش الكريمـي المعـروف بقاشـق أحـد مقـدمي الألـوف بـديار مصـر، والأميـر سـودون اللكاشـي أحـد مقـدمي الألـوف أيضاً، والأمير آق بلاط الدمرداش أحد مقدمي الألوف أيضاً.

ولما دخل القرمشي على السلطان الملك المظفر أحمد، نـزل وقبل الأرض لـه بمن معه، وسلم على الأمير ططر، ثم ركب وسار في خدمة السلطان، فتأدب معه الأمير ططر نظام الملك بأن يسير في ميمنة السلطان الملك المظفر، فامتنع من ذلك، وألح عليه فأبى إلا سيره في ميسرة السلطان، كل ذلك بعد أن خلع السلطان علي القرمشي، وسار السلطان إلى أن طلع إلى قلعة دمشق ومعه الأمير ططر.

وأمـا الأميـر ططـر فإنـه أقـام بحلـب هـو والسـلطان والعسـاكر إلـى يـوم الاثنـين حـادي عشـر شـعبان، فبـرز فيـه مـن مدينـة حلـب يريـد مدينـة دمشـق، بعـد أن مهد أمــور الــبلاد الحلبيــة، وخلــع علــى مملوكــه - ورأس نوبــة - الأميــر بــاك، باسـتقراره فـي نيابـة قلعـة حلـب وكـان الأميـر بـاك مـن أخصـاء الأميـر ططـر وأعيان مماليكه.

وسار الأمير ططر إلى أن دخل دمشق هو والسلطان الملك المظفر أحمد في يوم السبت ثالث وعشرين شعبان، فارتجت دمشق لدخوله، وعبر دمشق وجميع الأمراء بين يديه، والسلطان معه كالآلة على عادته، وطلع إلى قلعة دمشق، وشكر الأمير تنبك ميق على قبضه على جقمق، ثم أمر بجقمق فعوقب على المال، ثم قتل بقلعة دمشق.

وصــار ططــر يتــردد فــي القــبض علــى المؤيديــة، إلــى أن كــان يــوم الخمــيس ثــامن وعشـرين شـعبان مـن سـنة أربـع وعشـرين المـذكورة، وحضـر الأمـراء الخدمـة علـى العـادة، وقـرئ الجـيش، وفرغـت العلامـة، وقبـل أن يحضـر السـماط مـدت الأمــراء الظاهريــة أيــديهم فقبضــوا علــى الأمــراء المؤيديــة فــي الحــال، الــذين حضـروا الخدمـة والـذين تـأخروا عـن الخدمـة، فكـان ممـن قـبض عليـه مـنهم سـبعة مـن مقـدمي الألـوف مـن مشـتروات الملـك المؤيـد، وممـن أنشـأه، وهـم: الأميـر إينـال الجكمـي أميـر سـلاح. أصـله مـن مماليـك جكـم مـن عـوض نائـب

حلب، إلا أن المؤيد هو الذي أنشأه ورقاه.

ولما كان يوم تاسع وعشرين شعبان من سنة أربع وعشرين وثمانمائة خيم السلطان الملك المظفر أحمد بن المؤيد بالسلطان الملك الظاهر ططر، وأدخل المظفر إلى أمه خوند سعادات، وكان ططر قد تزوجها حسبما ذكرناه، فمن يوم خلع ابنها المظفر لم يدخل إليها ططر، ثم طلقها بعد ذلك.

وكان مدة سلطنة الملك المظفر من يوم جلوسه على تخت الملك، وهو يوم موت أبيه الملك المؤيد شيخ، إلى أن خلع في هذا اليوم، سبعة أشهر وعشرين يوماً. وعاد المظفر صحبة الملك الظاهر ططر إلى الديار المصرية، وأقام بقلعة الجبل مدة، ثم أخرج هو وأخوه إبراهيم ابن الملك المؤيد إلى سجن الإسكندرية، فسجنا بها إلى أن مات الملك المظفر أحمد هذا في الثغر المذكور بالطاعون في ليلة الخميس آخر جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، في سلطنة الملك الأشرف برسباي، ومات أخوه إبراهيم بعده بمدة يسيرة بالطاعون أيضاً، ودفنا بالإسكندرية، ثم نقلا إلى القاهرة ودفنا بالقبة من الجامع المؤيدي داخل باب زويلة. ولم يكن للملك المظفر أمر في السلطنة لتشكر أفعاله أو تذم لعدم تحكمه في الدولة، وأيضاً لصغر سنه، فإنه مات بعد خلعه بسنين وهو لم يبلغ الحلم. وأما أخوه إبراهيم فإنه كان أصغر منه، وكانت أمه أم ولد جركسية تسمى قطلباي، تزوجها الأمير إينال الجكمي بعد موت الملك المؤيد وماتت عنده. انتهى والله أعلم.

* * *

سلطنة الملك الظاهر ططر

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو الفتح ططر. تسلطن بعد خلع السلطان الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ في يوم الجمعة تاسع وعشرين شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة، بقلعة دمشق، وكان الموافق لهذا اليوم يوم نوروز القبط بمصر ولبس خلعة السلطنة من قصر قلعة دمشق، وركب بشعار السلطنة وأبهة الملك، ولقب بالملك الظاهر ططر، وذلك بعد أن ثبت خلع الملك المظفر. وحضر الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة بقلعة دمشق، وبايعوه بالسلطنة بحضرة الملأ من الأمراء والخاصكية، بعد أن سألهم الخليفة في قيامه في السلطنة، فقالوا الجميع: نحن راضون بالأمير القبير ططر. وتم أمره في السلطنة، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وحملت القبة والطير على رأسه، وخطب له على منابر دمشق من يومه. والملك الظاهر هذا هو السلطان الثلاثون من ملوك الترك بالديار المصرية، والسادس من الجراكسة وأولادهم.

واستمر الملك الظاهر ططر بقلعة دمشق، وعمل الخدمة السلطانية بها في يوم الاثنين ثالث شهر رمضان، وخلع على الخليفة والقضاة باستمرارهم، وعلى أعيان الأمراء على عادتهم. ثم خلع على الأمير طرباي الظاهري، نائب غزة كان، في دولة الملك المؤيد، بعد قدومه من عند قرا يوسف باستقراره حاجب الحجاب بالديار المصرية عوضاً عن إينال الآرغزي المقدم ذكره، وعلى الأمير برسباي الدقماقي نائب طرابلس كان، وكان بطالاً بدمشق، باستقراره دواداراً كبيراً، عوضاً عن الأمير علي باي المؤيدي بحكم القبض عليه. وأنعم الأمير يشبك الجكمي الدوادار الثاني كان، وهو أيضاً ممن قدم من بلاد الشرق، بآستقراره أمير آخور كبيراً، عوضاً عن تغري بردي المؤيدي المنتقل إلى نيابة حلب. ثم خلع بعد ذلك على الأمير بيبغا المظفري الظاهري أمير مجلس باستقراره أمير سلاح، عوضاً عن الأمير إينال الجكمي بحكم القبض عليه. وأنعم، على الأمير قجق العيساوي الظاهري، حاجب الحجاب كان في الدولة المؤيدية، باستقراره أمير مجلس، عوضاً عن بيبغا المظفري. وخلع على الأمير قصروه من تمراز الظاهري باستقراره رأس نوبة النوب، عوضاً عن يشبك أنالي المؤيدي بحكم القبض عليه أيضاً ثم أنعم على جماعة كبيرة بتقادم ألوف بالديار المصرية، مثل الأمير أزبك المحمدي الظاهري إني برسبغا الدوادار، ومثل الأمير تغري بردي المحمودي الناصري، ومثل الأمير قرمش الأعور الظاهري، وغيرهم.

وأما أخبار الديار المصرية في غيبته، فإنه لما سافر الأمير ططر بالسلطان الملك المظفر وعساكره من الريدانية استقل بالحكم بين الناس الأمير جقمق العلائي إلى أن حضر الأمير قاني باي الحمزاوي من بلاد الصعيد في يوم السبت حادي عشرين جمادى الأولى، وحكم في نيابة الغيبة، وأرسل إلى الأمير جقمق بالكف عن الحكم بين الناس وخاشنه في الكلام، فانكفت يد الأمير جقمق أخي جاركس المصارع عن الحكم، وكانت سيرته جيدة في أحكامه.

ثم قدم الخبر على الأمير قاني باي الحمزاوي بدخول السلطان الملك المظفر إلى دمشق وقبضه على القرمشي وغيره، فدقت البشائر لذلك بالقاهرة ثلاثة أيام وزينت عشرة أيام.

وأما السلطان الملك الظاهر ططر فإنه سار بعساكره إلى جهة الديار المصرية إلى أن نزل بمنزلة الصالحية في يوم الاثنين أول شوال، فخرج الناس إلى لقائه، وقد تزايد سرور الناس بقدومه. ثم ركب من الصالحية وسار إلى أن طلع إلى قلعة الجبل في يوم الخميس رابع شوال، وحملت القبة والطير على رأسه. حملها الأمير جاني بك، الصوفي أتابك العساكر. ولما طلع إلى القلعة أنزل الملك الظاهر ططر، الملك المظفر أحمد، وأمه بالقاعة المعلقة من دور القلعة.

واستهل ذو الحجة يوم الخميس والسلطان في زيادة ألم من مرضه ونموه، والأقوال مختلفة في أمره، والإرجاف بمرضه يقوى.

فلما كان يوم الجمعة ثاني ذي الحجة استدعى السلطان الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة إلى القلعة، وقد اجتمع بها غالب المماليك السلطانية فلما اجتمعوا عند السلطان كلم الخليفة والأمراء في إقامة ابنه في السلطنة بعده فأجابوه إلى ذلك، فعهد إلى ابنه محمد بالملك، وأن يكون الأمير جاني بك الصوفي هو القائم بأمره ومدبر مملكته، وأن يكون الأمير برسباي الدقماقي لالا الملطان والمتكفل بتربيته، وحلف الأمراء على ذلك كما حلفوا لابن الملك المؤيد شيخ.

وثقل السلطان في الضعف، وأخذ من أواخر يوم السبت ثالثه في بوادر النزع، إلى أن توفي ضحوة نهار الأحد رابع ذي الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فاضطرب الناس ساعة، ثم سكنوا عندما تسلطن ولده الملك الصالح محمد حسبما يأتي ذكرة. ثم أخذ الأمراء في تجهيز الملك الظاهر ططر، فغسل وكفن وصلي عليه، وأخرج من باب السلسلة، وليس معه إلا نحو عشرين رجلاً لشغل الناس بسلطنة ولده. وساروا به حتى دفن

بالقرافة من يومه بجوار الإمام الليث بن سعد رضي الله عنه. ومات وهو في مبادئ الكهولية. وكانت مدة تحكمه منذ مات الملك المؤيد شيخ إلى أن مات أحد عشر شهراً تنقص خمسة أيام، منها مدة سلطنته أربعة وتسعون يوماً، وباقي ذلك أيام أتابكيته.

كان ططر ملكاً عظيماً جليلاً عالي كريماً، عالي الهمة، جيد الحدس، حسن التدبير، سيوساً. توثب على الأمور مع من كان أكبر منه قدراً وسناً، ومع عظم شوكة المماليك المؤيدية شيخ، وقوة بأسهم، مع فقر كان به وإملاق. فلا زال يحسن سياسته، ويدبر أموره، ويخادع أعداءه إلى أن استفحل أمره، وثبت قدمه، وأقلب دولة بدولة غيرها في أيسر مدة وأهون طريقة. كان تارة يملق هذا، وتارة يغدق على هذا، وتارة يقرب هذا ويظهره على أسراره الخفية، كل ذلك وهو في إصلاح شأنه في الباطن مع من لا يقربه في الظاهرة فكان حاله مع من يخافه كالطبيب الحاذق الذي يلاطف عدة مرضى قد اختلف داؤهم، فينظر كل واحد ممن يخشى شره، فإن كان شهماً رقاه إلى المراتب العلية وأوعده بأضعاف ذلك، وإن كان طماعاً أبذل إليه الأموال وأشبعه، حتى إنه دفع لبعض المماليك المؤيدية الأجناد في دفعات متفرقة في مدة يسيرة نحو عشرة آلاف دينار، وإن كان شهماً رغبته الأمر والنهي ولاه أعظم الوظائف، كما فعل بالأمير علي باي المؤيدي والأمير تغري بردي المؤيدي المعروف بأخي قصروه ولى كلا منهما أجل وظيفة بديار مصر، فأقر علي باي في الدوادارية الكبرى دفعة واحدة من إمرة عشرة، وأقر تغري بردي في الأمير آخورية الكبرى دفعة واحدة، ومع هذا لم يتجن عليهما أبداً بل صار معهما فيما أراداه، يعطي من أحبا ويمنع من أبغضا، حتى إن تغري بردي المذكور وسط الأمير راشد بن أحمد ابن بقر خارج باب النصر ظلماً لما كان في نفسه منه، فلم يسأله ططر عن ذنبه كل ذلك لكثرة دهائه وعظيم احتماله، ولم يكن فعله هذا مع علي باي وتغري بردي فقط، بل مع غالب أشرار المؤيدية. هذا وهو يقرب خشداشيته الظاهرية برقوق، واحداً بعد واحد، يقصد بذلك تقوية أمره في الباطن، فأطلق مثل جانبك الصوفي، ومثل بيبغا المظفري، ومثل قجق العيساوي. كل ذلك وهو مستمر في بذل الأموال والإقطاعات لمن تقدم ذكرهم، حتى إنه كلمه بعض أصحابه سراً بعد عوده من دمشق فيما أتلفه من الأموال، فقال: يا فلان أتظن أن الذي فرقته راح من حاصلي؟ جميعه في قبضتي أسترجعه في أيسر مدة إلا ما أعطيته للفقهاء والصلحاء فمن يكن فيه طيش وخفة لا يطيق هذا

الصبر ولو تلفت روحه.

وكان مقداماً جريئاً على الأمور بعدما يحسب عواقبها، شهماً يحب التجمل، كانت مماليكه أيام إمرته مع فاقته أجل من جميع مماليك رفقته من الأمراء، فيهم الناصرية والجمكية والنوروزية وغيرهم.

ولما حصل له ما أراد وصفا له الوقت ووثب على ملك مصر، أقام له شوكة وحاشية من خشداشيته ومماليكه في هذه الأيام القليلة، لم ينهض بمثلها من جاء قبله ولا بعده أن ينشىء مثلها في طول مملكته وهو أنه أعطى لصهره البدري حسن بن سودون الفقيه إمرة طبلخاناه، ثم نقله إلى تقدمة ألف بالديار المصرية، ولم يكن قبلها من جملة مماليك السلطان ولا من أولاد الملوك، فإن والده سودون الفقيه مات بعد سنة ثلاثين جندياً، وكذا فعل مع فارس داواداره أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف ونيابة الإسكندرية، ومع جماعة أخر قد تقدم ذكرهم، فهذا مما يدل على قوة جنانه وإقدامه وشجاعته، فإنه أنشأ هذا كله في مدة سلطنته، وهي ثلاثة أشهر وأربعة أيام.

وأنا أقول: إن مدة سلطنته كانت ثمانية عشر يوماً، وهي مدة إقامته بمصر، وباقي ذلك مضى في سفره ومرض موته. وكان يحب مجالسة العلماء والفقهاء وأرباب الفضائل من كل فن، وله اطلاع جيد ونظر في فروع مذهبه، ويسأل في مجالسه الأسئلة المفحمة المشكلة، مع الإنصاف والتواضع ولين الجانب مع جلسائه وأعوانه وخدمه. وكان يحب إنشاد الشعر بين يديه لا سيما الشعر الذي باللغة التركية، فإنه كان حافظاً له ولنظامه، ويميل إلى الصوت الحسن، ولسماع الوتر، مع عفته عن سائر المنكرات، قديماً وحديثاً، من المشارب. وأما الفروج فإنه كان يرمى بمحبة الشباب على ما قيل. والله أعلم بحاله.

* * *

سلطنة الملك الصالح محمد ابن ططر

السلطان الملك الصالح ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي الفتح ططر بن عبد الله الظاهري. تسلطن بعد موت أبيه، بعهد منه إليه، في يوم الأحد رابع ذي الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة. وهو أنه لما مات أبوه حضر الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود والقضاة والأمراء وجلسوا بباب الستارة من القلعة، وطلبوا محمداً هذا من الدور السلطانية، فحضر إليهم، فلما رآه الخليفة قام له وأجلسه بجانبه، وبايعه بالسلطنة. ثم ألبسوه خلعة السلطنة الجبة السوداء الخليفية من مجلسه بباب الستارة، وركب فرس النوبة بشعار الملك وأبهة السلطنة، وسار إلى القصر السلطاني، والأمراء وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه، حتى دخل إلى القصر السلطاني بقلعة الجبل، وجلس على تخت الملك، وقبل الأمراء الأرض بين يديه على العادة، وخلع على الخليفة وعلى الأمير الكبير جاني بك الصوفي، كونه حمل القبة والطير على رأسه، ولقب بالملك الصالح. وفي الحال دقت البشائر، ونودي بالقاهرة ومصر بسلطنته، وسنه يوم تسلطن نحو العشر سنين تخميناً. وأمه خوند بنت سودون الفقيه الظاهري، وهي إلى الآن في قيد الحياة، وهي من الصالحات الخيرات، لم تتزوج بعد الملك الظاهر ططر.

والملك الصالح محمد، هذا هو السلطان الحادي والثلاثون من ملوك الترك، والسابع من الجراكسة وأولادهم.

وركب الأمير سودون من عبد الرحمن والأمير قرمش الأعور، وهو من أصحاب جاني بك الصوفي، وشخص آخر وأظنه بيبغا المظفري، ودخلوا على جاني بك الصوفي بالحراقة من باب السلسلة، ومروا، في دخولهم على يشبك الأمير آخور وهو في أمره ونهيه بباب السلسلة، فقام إليهم فلم يسلم عليه سودون من عبد الرحمن، وسلم عليه قرمش والآخر. وعندما دخلوا على الأتابك جاني بك الصوفي وسلموا عليه وجلسوا كان متكلم القوم سودون من عبد الرحمن، فبدأ بأن قال: أنا والأمراء نسلم عليك، ونقول لك أنت كبيرنا ورأسنا وأغاتنا، ونحن راضون بك فيما تفعل وتريد، غير أن هذا الصبي يشبك مملوك خشداشنا جكم ليس هو منا، وقد وقع عنه قلة أدب في حقنا ببلاد الشرق عند قرا يوسف، ثم هو الآن أمير آخور كبير منزلته أكبر من منازلنا، ونحن لا نرضى بذلك. ثم إننا لا نريد من الأمير الكبير مسكه ولا حبسه لكونه انتمى إليه، غير أننا نريد إبعاده عنا فيوليه الأمير الكبير بعض الأعمال بالبلاد الشامية، ثم نكون بعد ذلك جميعاً تحت طاعة الأمير الكبير، ونقول قد عاش الملك الظاهر ططر ونحن في خدمته، لأننا قد مللنا من الشتات والغربة والحروب، فيطمئن

كل أحد على نفسه وماله ووطنه فلما سمع جاني بك الصوفي كلام سودون من عبد الرحمن وفهمه، حنق منه واشتد غضبه، وأغلظ في الجواب بكلام متحصله: رجل ملك ركن إلي وانضم علي كيف يمكنني إبعاده لأجل خواطركم؟. ثم أخذ في الحط على خشداشيته الظاهرية برقوق، ومجيئهم لإثارة الفتن والشرور، فسكت عند ذلك سودون. وأخذ قرمش يراجعه في ذلك ويحذره المخالفة غير مرة، مدلاً عليه كونه من حواشيه، وهو لا يلتفت إلى كلامه. فلما أعياه أمره سكت، فأراد الآخر أن يتكلم فأشار عليه سودون من عبد الرحمن بالسكات، فأمسك عن الكلام. فتكلم سودون عند ذلك بباطن بأن قال: يا خوند نحن ما قلنا هذا الكلام إلا نظن أن الأمير الكبير ليس له ميل إليه، فلما تحققنا أنه من ألزام الأمير الكبير وأخصائه فنسكت عن ذلك ونأخذ في إصلاح الأمر بينه وبين الأمراء لتكون الكلمة واحدة، بحيث إننا نصير في خدمته كما نكون في خدمة الأمير الكبير فانخدع جاني بك لكلامه وظنه على جليته، وقال: نعم، أما هذا فيكون.

وقاموا عنه، ورجع قرمش إلى حال سبيله، وعاد سودون من عبد الرحمن إلى رفقته الأمراء، وذكر لهم الحكاية برمتها، وعظم عليهم الأمر إلى أن قال لهم: تيقنوا جميعكم بأنكم تكونون في خدمة يشبك الجكمي إن أطعتم جاني بك الصوفي، فإن يشبك عنده مقام روحه، وربما إن تم له الأمر يعهد بالملك إليه من بعده. فلما سمع الأمراء ذلك قامت قيامتهم، ومالوا بأجمعهم إلى الأمير برسباي الدقماقي الدوادار الكبير والأمير طرباي حاجب الحجاب، وقالوا: هذا تركنا ونحن خشداشيته لأجل يشبك، فما عساه يفعل معنا إن صار الأمر إليه، لا والله لا نطيعه ولو ذهبت أرواحنا. وأخذ الجميع في التدبير عليه في الباطن.

ولما أصبح يوم الأربعاء ثامن ذي الحجة أشيع أن الأمير الكبير جاني بك الصوفي متوعك، فتكلم الناس في الحال بأنها مكيدة حتى ينزل إليه الأمير برسباي فيقبض عليه، فلم ينزل إليه برسباي، وتمادى الحال إلى يوم الجمعة عاشره وهو يوم عيد النحر.

فلما أصبح نهار الجمعة انتظر الأمير برسباي طلوع الأمير الكبير لصلاة العيد، فلم يحضر ولم يطلع، فتقدم الأمير برسباي وأخرج السلطان من الحريم وتوجه به إلى الجامع، ومعه سائر الأمراء والمماليك، فصلى بهم قاضي القضاة الشافعي صلاة العيد، وخطب على العادة. ثم مضى الأميران برسباي وطرباي بالسلطان إلى باب الستارة، فنحر السلطان هناك ضحاياه من الغنم، وذبح الأمير برسباي ما هناك من البقر نيابة عن السلطان. ثم انفض الموكب، ونزل الأمير طرباي إلى بيته هو وجميع الأمراء وذبحوا ضحاياهم، وتوجه الأمير برسباي إلى طبقة الأشرفية. وبينما هو

ينحر ضحاياه بلغه أن الأمير الكبير جاني بك الصوفي لبس السلاح وألبس مماليكه، ولبس معه جماعة كبيرة من المؤيدية، وغيرهم، فاضطرب الناس، وأغلق باب القلعة، ودقت الكؤوسات حربياً.

وكان من خبر جاني بك الصوفي أنه لما تمارض لم يأت إليه أحد ممن كان أراد مسكه، فأجمع رأيه حينئذ على الركوب، وجمع له الأمير يشبك جماعة من إنياته من المماليك المؤيدية ومن أصحابهم.

حدثني السيفي جاني بك من سيدي بك البجمقدار المؤيدي، وهو أعظم إنيات يشبك الجكمي المذكور، قال: لبسنا ودخلنا على الأتابك جاني بك الصوفي وعنده الأمير يشبك أمير آخور وكلمناه في أنه يقوم يصلي العيد، ثم يلبس السلاح بعد الصلاة، فقال: صلاة العيد ما هي فرض علينا. نتركها ونركب الآن قبل أن يبدؤونا بالقتال. قال: قلت في نفسي: بعيد أن ينجح أمر هذا.، قلت: وقد وافق رأي جاني بك البجمقدار في هذا القول قول من قال: صل واركب ما تنكب على أنه كان غتيماً لا يعرف ما قلته، فوقع لجاني بك الصوفي أنه لم يصل وركب فنكب.

ولما بلغ الأمير برسباي ركوب جاني بك الصوفي لبس الأمير برسباي وحاشيته آلة الحرب، وتوجه إلى القصر السلطاني. وترامت الطائفتان بالنشاب ساعة، فلم يكن غير قليل حتى خرج الأمير طرباي من داره في عسكر كبير من الأمراء، وعليهم السلاح، ووقفوا تجاه باب السلسلة، فلم يجدوا بباب السلسلة ما يهولهم من كثرة العساكر. فأوقف الأمير طرباي بقية الأمراء، وسار هو والأمير قجق أمير مجلس، وطلعوا إلى باب السلسلة إلى الأمير الكبير جاني بك الصوفي، على أن طرباي في طاعته، ودخلا عليه وهو لابس، وعنده الأمير يشبك الأمير آخور. فأخذ طرباي يلومه على تأخره عن صلاة العيد مع السلطان، وما فعله من لبس السلاح، وأنه يقاتل من، فإن الجميع في طاعة السلطان وطاعة الأمير الكبير. فشكا الأمير الكبير جاني بك من الأمير برسباي الدقماقي من عدم تأدبه معه في أمور المملكة، وأنه لا يمكن اجتماعنا أبداً في بلد واحد. فقال له طرباي: السمع والطاعة. كلم الأمراء في ذلك فإنهم في طاعتك. فقال: وأين الأمراء؟ فقال: ها هم وقوف تجاه باب السلسلة، انزل أنت والأمير يشبك إلى بيت الأمير بيبغا المظفري أمير السلاح، واجلس به، واطلب الأمراء إلى عندك وكلمهم فيما تختار. فأخذ يشبك يقول له: كيف تنزل من باب السلسلة إلى بيت من ليس هو معنا، فنهره الأمير طرباي فانقمع. ولا زال يخادع الأمير جاني بك الصوفي حتى انخدع له وقام معه هو والأمير يشبك المذكور، وركبا ونزلا من باب السلسلة، وسارا إلى بيت الأمير بيبغا المظفري، وهو تجاه مصلاة المؤمني المعرف ببيت الأمير نوروز، وبه الآن جكم خال الملك العزيز، فمشى وقد

تحاوطه القوم. قلت: ما يفعل الأعداء في جاهل ما يفعل الجاهل في نفسه.

فلما وصل الأمير جاني بك الصوفي إلى باب الدار المذكورة ودخله بفرسه، صاح الأمير أزبك المحمدي الظاهري: هذا غريم السلطان قد دخل إلى عندكم احترصوا عليه. وقبل أن يتكامل دخولهم أغلق الباب على جاني بك الصوفي ومن معه. فعند ذلك زاغ بصر جاني بك الصوفي، وشرع يترقق لهم، ويقول: المروءة، افعلوا معنا ما أنتم أهله. ودخلوا إلى الدار المذكورة، وإذا بالأمير بيبغا المظفري عليه قميص أبيض ورأسه مكشوف، وقد أخرج يده اليمنى من طوق قميصه، وهو جالس على دكة صغيرة عند بوائك الخيل، وبين يديه منقل نار عليه أسياخ من الفحم تشوى، وبكل فيها بوزاً، وعلى ركبته قوس تتري وعدة سهام. فعندما رأى الأمراء قام إليهم على هيئته، وقبل أن يصلوا إلى عنده ركس الأمير أزدمر شايا ثاني رأس نوبة، وأخذ خوذة الأمير يشبك الأمير آخور من على رأسه، فدمعت عينا يشبك. فشق ذلك على الأمير بيبغا وأخذ قوسه بيده، واستوفى عليه بفردة نشاب ليقتله، فهرب أزدمر ودخل إلى بوائك الخيل، بعد أن أوسعه بيبغا المذكور من السب والتوبيخ، وهو يقول: الملك إذا نكب تروح حرمته، ولو مات حرمته باقية، حتى سكن غضبه. وأنزل جاني بك الصوفي ويشبك الأمير آخور، فتقدم الأمراء وقيدوهما في الحال وأخذا أسيرين إلى القلعة. وملك الأمير برسباي باب السلسلة من غير قتال ولا مانع، فإن الأمير الكبير جاني بك الصوفي تركه ونزل من غير أمر أوجب نزوله، على أنه لما ركب وأراد النزول مع طرباي قال له بعض مماليكه أو حواشيه: يا خوند، هذا باب السلسلة الذي تروح عليه الأرواح، أين تنزل وتخليه؟ فقال له: لمصلحة نراها "، فقال له: فاتتك المصلحة بنزولك، والله لا تعود إليه أبداً فلم يلتفت إليه جاني بك وتمادى في غيه لقلة سعادته، ولأمر سبق، ولمقاساة نالته بعد هروبه من سجن الإسكندرية ونالت أيضاً خلائق بسبب هروبه من سجن الإسكندرية على ما يأتي ذكر ذلك في ترجمة الملك الأشرف برسباي، إن شاء الله تعالى.

ولما ملك الأمير برسباي والأمير طرباي باب السلسلة في الحال، نودي بالقاهرة بنفقة المماليك السلطانية. فلما سمع المماليك هذه المناداة سكنوا بإذن الله، وذهب كل واحد إلى داره. وفتحت الأسواق، وشرع الناس في بيعهم وشرائهم، بعدما كان في ظن الناس أن الفتنة تطول بين هؤلاء أياماً كثيرة، لأن كل واحد منهم مالك جهة من جهات القلعة، ومع كل طائفة خلائق لا تحصى، فجاء الأمر بخلاف ما كان في ظنهم، ويأبى الله إلا ما أراد.

واستبد من يومئذ الأمير برسباي بالأمر، وبتدبير المملكة مع مشاركة الأمير طرباي له في ذلك.

ثم فوض الخليفة المعتضد بالله للأمير برسباي الدقماقي نظام الملك أمور الدولة بأسرها، ليقوم بتدبير ذلك عن السلطان الصالح محمد إلى أن يبلغ رشده، وحكم بصحة ذلك قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التفهني الحنفي، ومع هذا كله تقرر الحال على أن يكون تدبير الدولة وسائر أمور المملكة بين الأمير برسباي وبين الأمير طرباي، وأن يسكن الأمير برسباي بطبقة الأشرفية على عادته، ويسكن الأمير طرباي الأتابك بداره تجاه باب السلسلة، وهو بيت قوصون، وأن طرباي يحضر الخدمة عند الأمير برسباي بالأشرفية. وانفض الموكب، وخرج جميع الأمراء وسائر أرباب الدولة من الخدمة السلطانية بالقصر مشاة في خدمة الأمير برسباي نظام الملك حتى دخل الأشرفية التي صارت سكنه من يوم مات الملك الظاهر ططر، وعملت بها الخدمة ثانياً بين يديه. وصرف برسباي أمور الدولة على حسب اختياره ومقتضى رأيه، واستمر على هذا، فعند ذلك كثر تردد الناس إلى بابه لقضاء حوائجهم، وعظم وضخم.

وفي هذا الشهر ابتدأت الوحشة بين الأمير برسباي الدقماقي نظام الملك وبين الأمير الكبير طرباي أتابك العساكر، وتنكر الحال بينهما في الباطن. وسببه أن الأمير طرباي شق عليه استبداد الأمير برسباي الدقماقي بأمور المملكة وحده، وتردد الناس إلى بابه، وخاف إن دام ذلك ربما يصير من أمر برسباي ما أشاعه الناس. وكان طرباي يقول في نفسه: إنه هو الذي مهد الديار المصرية، ودبر على قبض جاني بك الصوفي حتى كان من أمره ما كان، ولولاه لم يقدر برسباي على جاني بك الصوفي ولا غيره. وكان الاتفاق بينهما أن يكون أمر المملكة بينهما نصفين بالسوية، لا يختص أحدهما عن الآخر بأمر من الأمور. وكان الأمير طرباي في الأصل من يوم مات الملك الظاهر ططر متميزاً على برسباي، ويرى أنه هو الأكبر والأعظم في النفوس، وأنه هو الذي أقام برسباي في هذه، المنزلة من كونه استمال المماليك السلطانية إليه، ونفرهم عن الأمير الكبير جاني بك الصوفي حتى تم له ذلك، وأنه هو الذي خدع جاني بك الصوفي حتى أنزله من باب السلسلة، وقام مع الأمير برسباي إلى أن رضيه الناس بأن يكون مدبر المملكة، كل ذلك ليكون برسباي تحت أوامره، ولا يفعل شيئاً إلا بمشاورته. فلما رأى طرباي أن الأمر بخلاف ما أمله، ندم على ما كان من أمره في حق جاني بك الصوفي حيث لا ينفعه الندم، وتكلم مع حواشيه فيما يفعله مع الأمير برسباي، وكان له شوكة كبيرة من خشداشيته المماليك الظاهرية برقوق وغيرهم، فأشاروا عليه أن ينقطع عن طلوع الخدمة أياماً لينظروا فيما يفعلونه. وكان طرباي مطاعاً في خشداشيته ولهم فيه محبة زائدة، وتعصب عظيم له على برسباي، فاغتر طرباي بكلامهم، وعدى بمماليكه إلى بر الجيزة حيث هو مربط

خيوله على الربيع كالمتنزه، وأقام به بقية صفر.

وأما الأمير برسباي لما علم أن الأمير طرباي توغر خاطره منه، وعلم أنه لا يتم له أمر مع وجوده، أخذ يدبر عليه فيما يفعله معه حتى يمكنه القبض عليه، ثم يفعل ما بدا له. هذا وقد انضم عليه جماعة كبيرة من أمراء الألوف، أعظمهم الأمير سودون من عبد الرحمن الدوادار الكبير، والأمير قصروه من تمراز رأس نوبة النوب، والأمير يشبك الساقي الأعرج، وكان أعظمهم دهاء ومعرفة، وله دربة بالأمور، والأمير تغري بردي المحمودي الناصري وغيرهم. وباقي الأمراء هم أيضاً في خدمة الأمير برسباي في الظاهر، غير أنهم في الباطن جميعهم مع طرباي، ولكنهم حيثما ما أمكنهم الكلام مع برسباي أو طرباي قالوا له: أنت خشداشنا وأغاتنا، لأن كليهما من مماليك برقوق. بهذا المقتضى صار الأمير برسباي لايعرف من هو معه من خشداشيته الظاهرية، ولا من هو عليه غير من ذكرنا من الأمراء، فإنهم باينوا طرباي، وانضموا على برسباي ظاهراً وباطناً.

فلما علم برسباي أن هؤلاء الأمراء معه حقيقة قوي قلبه بهم، وألقى مقاليد أمر طرباي في رقبة الأمير يشبك الساقي الأعرج أن ينزل إليه، ويعمل جهده في طلوعه إلى الخدمة السلطانية. ثم سلط أيضاً جماعة أخر على الأمير طرباي يحسنون له الحضور من الربيع. هذا مع ما يقوي جأشه الأمير تغري بردي يجبن عن ذلك حتى استهل شهر ربيع الأول.

فلما كان يوم الثلاثاء ثانيه قدم الأمير الكبير طرباي من الربيع، ونزل بداره تجاه باب السلسلة. وتردد إليه الأمير يشبك الساقي الأعرج، وحسن له الطلوع بأن قال له: إن كل خشداشيته من الظاهرية برقوق معه، وأنهم لا يؤثرون عليه أحداً، وأنه بطلوعه يستفحل أمره، وبعدم طلوعه ربما يجبن ويضمحل أمره، فإن الناس مع القائم، أو إذا حضرت أنت تلاشى أمر برسباي، وهون كليه أمر برسباي. ولا زال به حتى انخدع له وأذعن بالطلوع.

فلما أصبح يوم الأربعاء ثالثه أمسك الأمير برسباي الأمير سودون الحموي أحد أمراء الطبلخانات، والأمير قانصوه النوروزي أحد أمراء الطبلخانات أيضاً، وكانا من جملة أصحاب طرباي، فعظم ذلك على طرباي، وقامت قيامة أصحابه وحذروه عن الطلوع في غده، فإنه كان قرر مع الأمير يشبك الأعرج الطلوع إلى الخدمة في يوم الخميس رابعه. فلما وقع مسك هؤلاء نهاه أصحابه عن الطلوع، فأبى إلا الطلوع ليتكلم مع الأمير برسباي بسبب مسكه لهؤلاء ويطلقهما منه. فألحوا عليه في عدم الطلوع، وأكثروا من ذلك، وهو لا يصغي إلى قولهم، وفي ظنه أن الأمير برسباي

لاينهض بأمر يفعله في حقه، وأيضاً لا يقابله بسوء لماله عليه من الأيادي قديماً وحديثاً.

فلما أصبح نهار الخميس رابع شهر ربيع الأول ركب الأمير الكبير طرباي من داره ومعه جماعة كبيرة من حواشيه، وطلع إلى القلعة، وكان لقلة سعده غالب من هو معه من خشداشيته رؤوس نوب، ليس في أوساطهم سيوف. فما هو إلا أن دخل إلى الخدمة، واستقر به الجلوس في منزلته، وقرىء الجيش على السلطان، وانتهت العلامة، وأحضر السماط، وقام الجميع على أقدامهم، ابتدأ الأمير الكبير برسباي الدقماقي نظام الملك بأن قال: الحال ضائع والكلمة متفرقة، وأحوال الناس متوقفة لعدم اجتماع الناس على كبير يرجع إليه فيما يرسم به، ولا بد للناس من كبير يرجع إليه في أمور الرعية فأجابه في الحال، قبل أن يتكلم طرباي، الأمير قصروه رأس نوبة النوب، وقال: أنت كبيرنا ومع وجودك من يكون خلافك؟ افعل ما شئت. فقال الأمير برسباي عند ذلك: اقبضوا على هذا وعنى الأمير الكبير طرباي. فلما سمع طرباي ذلك جذب سيفه ليدفع عن نفسه، وأراد القيام، فسبقه الأمير برسباي نظام الملك، وضربه بالسيف ضربة جاءت في يده كادت تبينها، وهي على ظاهر كله حيث كان قابضاً بها على سيفه، ثم بادره الأمير قصروه وأعاقه عن تمام القيام، وتقدم إليه الأمير تغري بردي المحمودي وقبض عليه من خلفه كالمعانق له، وحمل من وقته إلى أعلى القصر، وقيد في الحال، وقد تضمخ بدمه. ووقعت الهجة بالقصر، وتسللت السيوف من حواشي طرباي بعد أن فات الأمر، وقد خطف الأمير برسباي الترس الفولاذ من يد السلطان الملك الصالح محمد وتترس به، وأعطى ظهره إلى الشباك، وسيفه مسلول بيده، فلم يجسر أحد على التقدم إليه لكثرة حاشيته، ولقوة شوكته. ثم سكتت الهجة في الحال، ورد كل واحد من أصحاب طرباي سيفه إلى غمده عندما رأوا أن الأمر فاتهم، وقالوا: نحن من أصحاب برسباي فعرف برسباي الجميع ولم يؤاخذ أحداً منهم بعد ذلك. وتكسر بعض صيني مما كان فيه الطعام للسماط السلطاني لضيق المكان، فإن الحركة المذكورة كانت بالقصر الصغير الوسطاني حيث فيه الشرابخاناه. وطلب الأمير برسباي في الحال المزين وأرسله إلى طرباي فخاط جراحه بعدما قيده ثم أصبح من الغد حمله إلى الاسكندرية فسجن بها، إلى أن أطلقه في أيام سلطنته، حسبما نذكره في محله في ترجمة الملك الأشرف برسباي إن شاء الله تعالى.

وخلا الجو للأمير برسباي بمسك الأمير طرباي هذا.

ولما تم أمر الأمير برسباي فيما أراد من القبض على الأمير طرباي والاستبداد بالأمر، أخرج الأمير سودون الحموي منفياً إلى ثغر دمياط. ثم أخذ في إبرام أمره

ليترقى إلى أعلى المراتب، فلم يلق في طريقه من يمنعه من ذلك، وساعده في ذلك موت الأمير حسن بن سودون الفقيه خال الملك الصالح محمد هذا في يوم الجمعة ثالث عشر صفر، فإنه كان أحد مقدمي الألوف وخال السلطان الملك الصالح وسكناه بقلعة الجبل، وكان جميع حواشي الملك الظاهر ططر يميلون إليه، فكفي الأمير برسباي همه أيضاً بموته. فلما رأى برسباي أنه ما ثم عنده مانع يمنعه من بلوغ غرضه بالديار المصرية، خشي عاقبة الأمير تنبك ميق نائب الشام، وقال: إلا بد من حضوره ومشورته فيما نريد نفعله، فندب لإحضاره الأمير ناصر الدين محمداً ابن الأمير إبراهيم ابن الأمير منجك اليوسفي، فحضر، وخرج المذكور مسرعاً من الديار المصرية إلى دمشق لإحضار الأمير تنبك المذكور. وأخذ الأمير برسباي فيما هو فيه من عمل مصالح الناس وتنفيذ الأمور، فرسم بإحضار الأمير أيتمش الخضري من القدس.

ولما خلع الملك الصالح من السلطنة أدخل إلى أمه خوند بنت سودون الفقيه ببعض الدور السلطانية، ودام بها سنين عديدة من غير ترسيم ولا حرج، حتى إنه بعد سنين صار يركب وينزل صحبة الناصري محمد ابن السلطان الملك الأشرف برسباي إلى القاهرة من غير أن يحتفظ به أحد، وحضر معه مرة مأتم والدته خوند زوجة الملك الأشرف بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريين، وجلسا في الملأ بصدر المدرسة، فتعجب الناس من ذلك غاية العجب، كون الملك الصالح المذكور كان سلطاناً ثم خلع من الملك وبعد مدة يسيرة صار يركب وينزل إلى القاهرة. ودام الملك الصالح محمد بقلعة الجبل سنين حتى بلغ الحلم، وزوجه الملك الأشرف برسباي بابنة الأتابك يشبك الساقي الأعرج، ودامت معه حتى مات عنها في الطاعون بقلعة الجبل في ليلة الخميس ثان وعشرين جمادى الآخرة من سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة، وهو في حدود العشرين سنة من العمر تخميناً. وكان أهوج وعنده بعض بله وسذاجة، مع خفة وسرعة حركة، وسلامة باطن، وعدم تجمل في ملبسه. ولم يكن عنده شيء من الكبر والترفع، ولم يتأسف س الملك أبداً. وكان غالب حواشي الملك الأشرف برسباي يسمونه في وجهه سيدي محمد، ويصيحون له بذلك. ومما ينسب إليه من السذاجة أنه ركب مرة فرساً ثم طلبه ثانياً فقال: هاتوا فرسي الأبيض فنهره بعض حواشيه وقال له: لم لا تقول فرسي البوز؟ ثم أتي بعد ذلك بمشروب من السكر فقال: ما أشرب إلا في سلطانيتي البوز، فنهره ذلك الرجل بعينه وقال له:، لم لا تقول سلطانيتي البيضاء؟ فقال: والله تحيرت بينكم، تارة تقولون: لا تقل أبيض وقل بوز، وتارة تقولون بالعكس، كيف يكون عملي معكم؟ وله أشياء من ذلك كثيرة، على أنه كان يحفظ القرآن، ويعرف بلسان الجاركسي، ولبلوهيته حلاوة وطلاوة مع خفة روح، انتهى

والله تعالى أعلم.

* * *

سلطنة الملك الأشرف برسباي

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري سلطان الديار المصرية. جلس على تخت الملك يوم خلع الملك الصالح محمد ابن الملك الظاهر ططر في يوم الأربعاء ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة، بعد أن حضر الخليفة والقضاة وجميع الأمراء والأمير تنبك ميق نائب الشام. وبويع بالسلطنة، ولبس الخلعة الخليفتية السوداء وركب من طبقة الأشرفية بقلعة الجبل والأمراء مشاة بين يديه إلى أن نزل على باب القصر، ودخل وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وخلع على الخليفة المعتضد بالله داود، وعلى من له عادة بالخلع في مثل هذا اليوم. وتم أمره، ونودي باسمه وسلطنته بالقاهرة ومصر، من غير أن يأمر للمماليك السلطانية بنفقة كما هي عادة الملوك، وهذا كان من أوائل سعد ناله فإننا لم نعلم أحداً من الملوك التركية تسلطن ولم ينفق إلا برسباي هذا. انتهى.

قلت: والأشرف هذا هو السلطان الثاني والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثامن من الجراكسة وأولادهم. وأصل الملك الأشرف هذا جاركسي الجنس، وجلب من البلاد فاشتراه الأمير دقماق المحمدي الظاهري نائب ملطية، وأقام عنده مدة، ثم قدمه إلى الملك الظاهر برقوق في عدة مماليك أخر، ولتقدمته سبب، وهو أن الأمير تنبك اليحياوي الأمير آخور الكبير بلغه أن الأمير دقماق آشترى أخاه من بعض التجار، وكان أخوه يسمى طيبرس، فوقف الأمير تيبك إلى الملك الظاهر برقوق وطلب منه أن يرسل يطلب أخاه من دقماق، فرسم السلطان بذلك، وكتب لدقماق مرسوماً شريفاً بإحضار طيبرس المذكور. وقبل أن يخرج القاصد إلى دقماق وقف الأمير علي باي الظاهري الخازندار، صاحب الوقعة أيضاً، إلى السلطان وذكر له أن أخته أيضاً عند الأمير دقماق، فكتب السلطان بإحضارها أيضاً. وسار البريدي من مصر إلى دقماق بذلك، فامتثل دقماق المرسوم الشريف، وأراد إرسال طيبرس المذكور، فقال لي دواداره: ما تريد تفعل؟ فقال: أرسل المملوك الذي طلبه أستاذي إليه، فقال دوداره: لا يمكن إرساله وحده، جهز معه عدة مماليك وتقدمة هائلة، وابعث بالمطلوب في ضمنها، فأعجب دقماق ذلك، وجهز نحو ثمانية عشر مملوكاً صحبة طيبرس المذكور من جملتهم برسباي هذا وتمراز القرمشي أمير سلاح، وأشياء أخر من أنواع الفرو والقماش والخيل والجمال، ثم اعتذر دقماق عن إرسال الجارية أنها

حامل منه، والجارية هي الست أردباي أم ولد دقماق، وزوجة الأمير تمراز القرمشي أمير سلاح في دولة الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة، وتوفيت هي أيضاً بعده بأيام، وكلاهما بالطاعون. فسار البريدي بالمماليك والتقدمة من ملطية إلى الديار المصرية، فوصلها بعد موت الأمير تنبك اليحياوي المذكور، وقد استقر عوضه في الأمير آخورية الأمير نوروز الحافظي، فقبل الملك الظاهر برقوق، التقدمة وفرق المماليك على الأطباق، فوقع برسباي هذا بطبقة الزمامية إنياً للأمير جاركس القاسمي المصارع، وتمراز القرمشي إنياً ليلبغا الناصري، فدام برسباي بالطبقة مدة يسيرة وأعتقه السلطان، وأخرج له خيلاً في عدة كبيرة من المماليك السلطانية.

واستمر الملك الأشرف من جملة المماليك السلطانية إلى أن صار خاصكياً، ثم صار ساقياً في سلطنة الملك المنصور عبد العزيز ابن الملك الظاهر برقوق ثم خرج مع الأمير إينال باي بن قجماس من الديار المصرية، مبايناً للملك الناصر فرج، إلى البلاد الشامية ثم انضم مع الأميرين شيخ ونوروز وتقلب معهما في أيام تلك الفتن، ولا زال معهما إلى أن قتل الملك الناصر فرج، وقدم إلى القاهرة صحبة الأمير الكبير شيخ المحمودي، فأنعم عليه الأمير شيخ المذكور بإمرة عشرة، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بعد سلطنته، فدام على ذلك سنين إلى أن نقله إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، ثم ولاه كشف التراب بالغربية من أعمال القاهرة، إلى أن طلبه الملك المؤيد شيخ وولاه نيابة طرابلس بعد عزل الأمير بردبك قصقا الخليلي عنها، وذلك في يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وثمانمائة. ولما ولي نيابة طرابلس كان في خدمته جماعة من مماليك الوالد رحمه الله من جملتهم شخص يسمى سودون، فطلبه أن يتوجه معه إلى طرابلس، فقال سودون: أنا ما أخلي جامع طولون وأتوجه إلى طرابلس فتوجه معه خشداشاه أزدمر وجرباش. فلما تسلطن الأشرف، بعد أمور نذكرها، جعل أزدمر المذكور ساقياً، وندم سودون على مفارقته. انتهى.

وتوجه برسباي المذكور إلى نيابة طرابلس، ومعه سودون الأسندمري، وقد استقر أتابك طرابلس. وأقام بطرابلس مدة إلى أن واقع التركمان الإينالية والبياضية والأوشرية على صافيتا من عمل طرابلس، وكانوا حضروا إلى الناحية المذكورة جافلين من قرا يوسف، وأفسدوا بالبلاد، فنهاهم الأمير برسباي المذكور فلم ينتهوا، فركب عليهم وقاتلهم في يوم الثلاثاء سادس وعشرين شعبان من سنة إحدى وعشرين المذكورة، فقتل بينهم خلق كبير، منهم: الأمير سودون الأسندمري أتابك طرابلس، وانهزم باقيهم عراة، فغضب الملك المؤيد، ورسم بعزله عن نيابة طرابلس واعتقاله

بقلعة المرقب، وولى سودون القاضي نيابة طرابلس عوضه. فدام برسباي، في سجن المرقب مدة إلى أن كتب الملك المؤيد بالإفراج عنه في العشرين من المحرم سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، كل ذلك بسعي الأمير ططر في أمره، فاستمر بدمشق إلى أن مات الملك المؤيد. وخرج جقمق عن طاعة ططر، وقبض على برسباي المذكور، وسجنه بقلعة دمشق إلى أن أطلقه الأتابك ألطنبغا القرمشي. وخرج إلى ملاقاة الأمير ططر لما قدم دمشق، وانضم عليه إلى أن خلع عليه ططر باستقراره دواداراً كبيراً بعد الأمير على باي المؤيدي، فلم تطل أيامه في الدوادارية. ومات ططر بعد أن جعله لالا لولده الملك الصالح محمد، وجعل جاني بك الصوفي الآتابك مدبر مملكة ولده الصالح المذكور، ووقع ما حكيناه في ترجمة الملك الصالح من واقعته مع جاني بك الصوفي، ثم مع طرباي، ثم من خلعه الملك الصالح وسلطنته.

ولما تم أمر الملك الأشرف برسباي هذا في السلطنة، وأصبح يوم الخميس تاسع شهر ربيع الآخر خلع على الأمير بيبغا المظفري أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضاً عن الأمير طرباي، وكانت شاغرة من يوم أمسك طرباي، وخلع على الأمير قجق العيساوي أمير مجلس باستقراره أمير سلاح عوضاً عن بيبغا المظفري، وخلع على الأمير آقبغا التمرازي باستقراره أمير مجلس عوضاً عن الأمير قجق.

وأول ما بدأ به الأشرف في سلطنته أنه منع الناس كافة من تقبيل الأرض بين يديه، فامتنعوا من ذلك. وكانت هذه العادة، أعني عن تقبيل الأرض، جرت بالديار المصرية من أيام المعز معد أول خلفاء بني عبيد بمصر المقدم ذكره في هذا الكتاب، وبقيت إلى يوم تاريخه، وكان لا يعفي أحداً عن تقبيل الأرض، والكل يقبل الأرض: الوزير والأمير والمملوك وصاحب القلم ورسل ملوك الأقطار، إلا قضاة الشرع وأهل العلم وأشراف الحجاز، حتى لو ورد مرسوم السلطان على ملك من نواب السلطان قام على قدميه وخر إلى الأرض وقبلها قبل أن يقرأ المرسوم، فأبطل الملك الأشرف ذلك وجعل بدله تقبيل اليد. فمشى ذلك أياماً ثم بطل، وعاد تقبيل الأرض لكن بطريق أحسن من الأولى فإن الأولى كان الشخص يخر إلى الأرض حتى يقبلها كالساجد، والآن صار الرجل ينحني كالراكع ويضع أطراف أصابع يده على الأرض كالمقبل، ثم يقوم ولا يقبل الأرض بفمه أبداً بل ولا يصل بوجهه إلى قريب الأرض، فهذا على كل حال أحسن مما كان أولاً بلا مدافعة، فعد ذلك من حسنات الملك الأشرف برسباي.

واستمر السلطان ولم يكن عنده ما يشوش عليه في جميع أشيائه إلى أن كان يوم

الجمعة سابع شعبان ورد الخبر على السلطان بأن الأمير الكبير جاني بك الصوفي فر من الإسكندرية من البرج الذي كان مسجوناً به، وخرج من الثغر المذكور ولم يفطن به أحد. فلما سمع السلطان هذا الخبر كادت نفسه أن تزهق، وقامت قيامته، ومن يومئذ حل بالناس من البلاء والعقوبات والهجم على البيوت ماسنذكره في طول سلطنته. وتنغص عيش الأشرف من يوم بلغه الخبر، واستوحش من جماعة كبيرة من أمرائه، وأمسكهم ونفى منهم آخرين، حسبما نذكر ذلك كله في وقته.

ثم في يوم الخميس أول ذي القعدة قدم إلى القاهرة جماعة من إخوة السلطان وأقاربه من بلاد الجاركس بعد أن خرج الأمراء إلى لقائهم، وكبير القوم يشبك أخو السلطان الملك الأشرف.

ثم في هذا الشهر أيضاً وقع الشروع في عمل عدة مراكب لغزو بلاد الفرنج، واستمر العمل فيهم كل يوم إلى أن نزل السلطان في يوم الثلاثاء حادي عشر صفر من سنة ثمان وعشرين المذكورة وكشف عمل المراكب المذكورة، ثم عاد من على جزيرة الفيل إلى جهة مناظر الخمس وجوه المعروفة بالتاج التي كان الملك المؤيد جددها، فأقام بها ساعة هينة، وعاد من على الخندق من جهة خليج الزعفران إلى أن طلع إلى القلعة. هذا كله والسلطان لا يفتر عن الفحص على أخبار جاني بك الصوفي ولا يكذب في أمره خبر مخبر.

وفي هذا الشهر أخذ السلطان في تجهيز الغزاة، وعين جماعة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء، وألزم كل أمير أيضاً أن يجهز عشرة مماليك من مماليكه، ونجز عمل الطرائد والأغربة.

ثم في ثالث عشرة أنفق السلطان في ستمائة رجل من الغزاة مبلغ عشرين ديناراً لكل واحد منهم، وجهز الأمراء أيضاً ثلاثمائة رجل، ثم نودي: من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النفقة. وقام السلطان في الجهاد أتم قيام، وقد شرح الله صدره له.

ثم في عشرينه سارت خيول الأمراء والأعيان من المجاهدين في البر إلى طرابلس، وعدتها نحو ثلاثمائة فرس، لتحمل من طرابلس صحبة غزاتها في البحر لحيث هو القصد.

ثم ساروا ليلة الأربعاء يريدون الملاحة، وتركوا في البر أربعمائة من الرجالة يسيرون بالقرب منهم إلى أن وصلوا إليها ونهبوها وأسروا وأحرقوا يضاً. ثم ركبوا البحر جميعاً وأصبحوا باكر النهار فوافاهم الفرنج في عشرة أغربة وقرقورة كبيرة، فلم يثبتوا للمسلمين وانهزموا من غير حرب، واستمر المسلمون بساحل الملاحة وقد أرست مراكبهم عليها.

وبينما هم فيما هم فيه كرت أغربة الفرنج راجعة إليهم، وكان قصد الفرنج بعودهم أن يخرج المسلمون إليهم فيقاتلوهم في وسط البحر. فلما أرست المسلمون على ساحل

الملاحة، كرت الفرنج عليهم فبرزت إليهم المسلمون وقاتلوهم قتالاً شديداً إلى أن هزمهم الله تعالى، وعادوا بالخزي، وبات المسلمون ليلة الجمعة خامس وعشرين شهر رمضان. فلما كان بكرة نهار الجمعة أقبل عسكر قبرس وعليهم أخو الملك، ومشى على المسلمين، فقاتله مقدار نصف العسكر الإسلامي أشد قتال حتى كسروهم، وانهزم أخو الملك بمن كان معه من العساكر بعد أن كان المسلمون أشرفوا على الهلاك، ولله الحمد والمنة، وقتل المسلمون من الفرنج مقتلة عظيمة. ثم أمر الأمير جرباش بإخراج الخيول إلى البر، فأخرجوا الخيول من المراكب إلى البر في ليلة السبت، وتجهزوا للمسير ليغيروا على نواحي قبرس من الغد.

فلما كان بكرة يوم السبت المذكور ركبوا وساروا إلى المغارات حتى وافوها، فأخذوا يقتلون ويأسرون ويحرقون وينهبون القرى حتى ضاقت مراكبها عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم، وألقى كثير منهم ما أخذه إلى الأرض. فعند ذلك كتب الأمير جرباش مقدم العساكر المجاهدة كتاباً إلى الأمير قصروه من تمراز نائب طرابلس بهذا الفتح العظيم والنصر المبين صحبة قاصد بعثه الأمير قصروه مع المجاهدين ليأتيه بأخبارهم. فعندما وصل الخبر للأمير قصروه كتب في الحال إلى السلطان بذلك، وفي طي كتابه كتاب الأمير جرباش المذكور، وهو الكتاب الذي قرىء بالأشرفية بالقاهرة، ثم بجامع عمرو بن العاص. ثم إن الأمير جرباش لما رأى أن الأمر أخذ حده، وأن السلامة غنيمة، ثم ظهر له بعض تخوف عسكره، فإنه بلغهم أن صاحب قبرس قد جمع عساكر كثيرة واستعد لقتال المسلمين، فشاور من كان معه من الأمراء والأعيان، فأجمع رأي الجميع على العود إلى جهة الديار المصرية مخافة من ضجر العسكر الإسلامي إن طال القتال بينهم وبين أهل قبرس إذا صاروا في مقابله. فعند ذلك أجمع رأي الأمير جرباش المذكور أن يعود بالعساكر الإسلامية على أجمل وجه، فحل القلاع بعد أن تهيأ للسفر، وسار عائداً حتى أرسى على الطينة قريباً من قطيا وثغر دمياط، ثم توجهوا إلى الديار المصرية. ولما بلغ الناس ذلك، وتحقق كل أحد ما حصل للمسلمين من النصر والظفر، عاد سرورهم لأن السلطان كان لما بلغه عودهم نادى في الناس: من أراد الجهاد فليحضر لأخذ النفقة، فكثر قلق الناس لذلك، وظنوا كل ظن حتى علموا من أمرهم ما حكيناه.

هذا ما كان من أمر الغزاة. وأما السلطان فإنه أفرج في يوم الاثنين ثالث عشر شوال عن الأمير الكبير بيبغا المظفري من سجن الإسكندرية ونقله إلى ثغر دمياط، وأنعم عليه بفرس بقماش ذهب ليركبه بدمياط إلى حيث يشاء.

ثم أخذ السلطان ينتظر الغزاة إلى أن قدموا عليه يوم السبت خامس وعشرين شوال المقدم ذكره، ومعهم ألف وستون أسيراً ممن أسروا في هذه الغزوة. وباتوا تلك الليلة

بساحل بولاق، وصعدوا في بكرة يوم الأحد سادس وعشرينه إلى القلعة، وبين أيديهم الأسرى والغنائم، وهي على مائة وسبعين حمالاً وأربعين بغلاً وعشرة جمال، ما بين جوخ، وصوف، وصناديق، وحديد، وآلات حربية، وأوان، وسار الجميم من شارع القاهرة، وقد جلس الناس بالحوانيت والبيوت والأسطحة والشوارع بحيث إن الشخص كان لا يكاد أن يمر إلى طريقه إلا بعد مشقة كبيرة، وربما لا يستطيع السير ويرجع إلى حيث أتى. وبالجملة فإنه كان يوماً مشهوداً لم يعهد مثله في الدولة التركية. ولما طلع ذلك كله إلى القلعة وعرض على السلطان رسم السلطان ببيع الأسرى وتقويم الأصناف، فقومت الأصناف.

* * *

غزوة قبرس على حدتها

ولما كان يوم الاثنين ثالث وعشرين شهر رمضان ورد الخبر على السلطان بأخذ مدينة قبرس وأسر ملكها جينوس بن جاك، فدقت البشائر بالقلعة لهذا الفتح ثلاثة أيام. وكان من خبر ذلك أن الغزاة لما ساروا من الثغور المذكورة إلى جهة قبرس وصلوا إلى مدينة اللمسون مجتمعين ومتفرقين، فبلغهم من أهل اللمسون أن متملك قبرس جاءه نجدة كبيرة من ملوك الفرنج، وأنه استعد لقتالهم كما تقدم ذكره. ولما وصلوا إلى اللمسون نازلوا قلعتها وقاتلوا من بها حتى أخذوها عنوة في يوم الأربعاء سادس وعشرين شعبان، ونهبوها وسبوا أهلها، وقتلوا جماعة كبيرة ممن كان بها من الفرنج، ثم هدموها عن آخرها، وساروا منها في يوم الأحد أول شهر رمضان من سنة تسع وعشرين المقدم ذكرها بعد أن أقاموا عليها نحو ستة أيام، وساروا فرقتين: فرقة في البر وعليهم الأمير تغري بردي المحمودي والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش أحد مقدمي الألوف ومن انضاف إليهم من أمراء الطبلخانات والعشرات والعساكر المصرية والشامية من الخيالة والرجالة، وفرقة في البحر ومقدمهم الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير قرامراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف بمن انضاف إليهم من العساكر المصرية والشامية. وكان سبب مسير هؤلاء في البحر مخافة أن يطرق الفرنج المراكب من البحر ويأخذوها ويصير المسلمون ببلادهم يقاتلونهم على هيئتهم، وكان ذلك من أكبر المصالح. ثم سار الذين في البر متفرقين حتى صاروا بين اللمسون والملاحة، وهم من غير تعبئة لقتال بل على صفة السفار، غير أن على بعضهم السلاح، وأكثرهم بلا سلاح لشدة الحر، وصار كل واحد من القوم يطلب قداماً من غير أن يتربص أحدهم لآخر، وفي ظنهم أن صاحب قبرس لا يلقاهم إلا خارج قبرس. وتأخر الأمراء ساقة العسكر، كما هي عادة مقدمي العساكر،

والناس تجد في السير إلى أن يقاربوا قبرس ثم يقفوا هناك يريدون خيلهم إلى أن تكتمل العساكر وتتهيأ الأطلاب للقتال ثم يسيرون جملة واحدة بعد التعبئة والمصافقة.

وبينما هم في السير إذا هم بمتملك قبرس بجيوشه وعساكره ومن انضاف إليه من ملوك الفرنج وغيرها وقد ملأت الفضاء وكان الذين وافاهم صاحب قبرس من المسلمين الذين سبقوا طائفة قليلة جداً وأكثرهم خيالة من أعيان المماليك السلطانية. فعندما وقع العين على العين، لم يتمالك المسلمون أن يصبروا لمن خلفهم حتى يصيروا جملة واحدة، بل انتهزوا الفرصة وتعرضوا للشهادة، وقال بعضهم لبعض: هذه الغنيمة. ثم حركوا خيولهم وقصدوا القوم بقلب صادق، وقد احتسبوا نفوسهم في سبيل الله، وحملوا على الفرنج حملة عظيمة، وصاحوا: الله أكبر، وقاتلوهم أشد قتال، وأردفهم بعض جماعة وتخلف عنهم أخر، منهم رجل من أكابر الخاصكية أقام يستظل تحت شجرة كانت هناك. وتقاتل المسلمون مع الفرنج قتالاً شديداً، قتل فيه السيفي تغري بردي المؤيدي الخازندار، وكان من محاسن الدنيا، لم تر عيني أكمل منه في أبناء جنسه، والسيفي قطلوبغا المؤيدي البهلوان، وكان رأساً في الصراع، ومن مقولة تغري بردي المقدم ذكره في الشجاعة والفروسية، والسيفي إينال طاز البهلوان، والسيفي نانق اليشبكي، وهؤلاء الأربعة من الأعيان والأبطال المعدودة، عوض الله شبابهم الجنة بمنه وكرمه، ثم قتل من المسلمين جماعة أخر، وهم مع قلتهم ويسير عددهم في ثبات إلى أن نصر الله الإسلام، ووقع على الكفرة الخذلان وانكسروا، وأسر متملك قبرس مع كثرة جموعه وعظم عساكره التي لا تحصر، وقلة عسكر المسلمين، حتى إن الذي كان حضر أوائل الوقعة أقل من سبعين نفساً قبل أن يصل إليهم الأمير إينال العلائي الناصري أحد أمراء الطبلخانات ورأسه، نوبة ثالث، وهو الملك الأشرف إينال، والأمير تغري برمش، ثم تتابع القوم طائفة بعد طائفة، كل ذلك بعد أن انكسرت الفرنج وأسر صاحب قبرس، وقتل من قتل من المسلمين. ولما ترادفت عساكر الإسلام ركبوا أقفية الفرنج ووضعوا في السيف، وأكثروا من القتل والأسر، وانهزم من بقي من الفرنج إلى مدينة قبر الأفقسية. ثم وجد المسلمون مع الفرنج طائفة من التركمان. المسلمين قد أمد الفرنج بهم علي بك بن قرمان، عليه من الله ما يستحقه، فقتل المسلمون كثيراً منهم.

واجتمع عساكر البر والبحر من المسلمين في الملاحة يوم الاثنين ثاني شهر رمضان، وتسلم الأمير تغري بردي المحمودي صاحب قبرس، كل ذلك والمسلمون يقتلون ويأسرون وينبهون حتى امتلأت أيديهم وتغلبوا عن حمل الغنائم.

وأما القتلى من الفرنج فلا تحصر ويستحى من ذكرها كثرة. حدثني بعض مماليك الوالد ممن باشر الواقعة من أولها إلى آخرها، وجماعة كبيرة من الأصحاب الثقات

قالوا: كان موضع الواقعة أزيد من الفي قتيل من قتلى الفرنج، هذا الموضع الذي كان فيه القتال، وأما الذي قتل من الفرنج بالضياع والأماكن وبطريق قبرس فلا حد له ولا حساب، فإنه استمر القتل فيهم أياماً. واستمروا الملاحة إلى يوم الخميس خامس شهر رمضان، فساروا منها يريدون الأفقسية مدينة قبرس.

ولما ساروا وافاهم الخبر، بعد أن تقدم منهم جماعة كبيرة من المطوعة والمماليك السلطانية إلى مدينة قبرس، بأن أربعة عشر مركباً من مراكب الفرنج مشحونة بالسلاح والمقاتلة أتت المراكب لقتال المسلمين، منها سبعة أغربة وسبعة مربعة القلاع، فلاقاهم الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير قرامرادخجا الشعباني، والأمير طوغان السيفي تغري بردي أحد مقدمي دمشق والأمير جاني بك رأس نوبة السيفي يلبغا الناصري المعروف بالثور وبمن انضاف إليهم من المطوعة وغيرهم، وهؤلاء الأمراء الذين كانوا مقدمي العساكر في البحر بالمراكب، واقتتلوا مع الفرنج المذكورين أشد قتال حتى هزموهم وأخذوا منهم مركباً مربعاً من مراكب الفرنج، بعد أن قتلوا منهم عدة كبيرة تقارب ما ذكرنا ممن قتل بمكان الوقعة الأولى، وولت الفرنج الأدبار.

واستمر الذي توجه من الغزاة إلى الأفقسية من المماليك السلطانية وغيرهم يقتلون في طريقهم ويأسرون إلى أن وصلوا إلى المدينة ودخلوا قصر الملك ونهبوه.

ثم عادوا ولم يحرقوا بمدينة قبرس إلا مواضع يسيرة، ولم يدخل المدينة أحد من أعيان العسكر، وغالب الذي دخلها من المماليك السلطانية والمطوعة، وكان دخولهم وإقامتهم بها وعودهم منها في يومين وليلة واحدة.

ثم أقام جميع الغزاة بالملاحة وأراحوا بها أبدانهم سبعة أيام، وهم يقيمون فيها شعائر الإسلام من الأذان والصلاة والتسبيح، ولله الحمد على هذه المنة بهذا الفتح العظيم الذي لم يقع مثله في الإسلام من يوم غزاهم معاوية بن أبي سفيان، رضي الله عنه، في سنة نيف وعشرين من الهجرة.

ثم ركبت الغزاة المراكب عائدين إلى جهة الديار المصرية، ومعهم الأسرى والغنائم، ومن جملتها متملك قبرس، في يوم الخميس ثاني عشر رمضان، بعد أن بعث أهل الماغوصة يطلبون الأمان. هذا ما كان من أمرهم. انتهى.

وجزيرة قبرس تسمى باللغة الرومية: شبرا، والبحر يحيط بها مائتي ميل، والميل أربعة آلاف ذراع، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع ست شعيرات مضموم بعضها إلى بعض، والفرسخ بهذا الميل ثلاثة أميال، والبريد بهذا الفرسخ أربعة فراسخ. وجزيرة قبرس من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة، وسلطانها يقال له أراد

شبرا: أي سلطان الجزيرة، وقبرس مدينة بالجزيرة تسمى الأفقسية.

ومسيرة جزيرة قبرس سبعة أيام. وبالجزيرة المذكورة اثنا عشر ألف قرية كباراً وصغاراً، وبمدنها وقراها من الكنائس والديارات والقلالي والصوامع كثير. وبها البساتين المشتملة على الفواكه المختلفة، وبها الرياحين العطرة كالخزام والياسمين والورد والسوسن والنرجس والريحان والنسرين والأقحوان وشقائق النعمان وغير ذلك. وبمدن الجزيرة المذكورة الأسواق والخانات والحمامات والمباني العظيمة. انتهى.

وأما أمر السلطان الملك الأشرف برسباي، فإنه لما بلغه خبر أخذ قبرس في يوم الاثنين ثالث وعشرين رمضان حسبما تقدم ذكره كاد أن يطير فرحاً. ولقد رأيته وهو يبكي من شدة الفرح، وبكى الناس لبكائه، وصار يكثر من الحمد والشكر لله. ودقت البشائر بقلعة الجبل وبسائر مدن الإسلام لما بلغهم ذلك، وارتخت القاهرة وماجت الناس من كثرة السرور الذي هجم عليهم، وقرىء الكتاب الوارد بهذا النصر على الناس بالمدرسة الأشرفية بخط العنبريين بالقاهرة حتى سمعه كل من قصد سماعه وحضر. وقالت الشعراء في هذا الفتح عدة قصائد، من ذلك القصيدة العظيمة التي نظمها الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الخراط أحد أعيان موقعي الدست بالديار المصرية، وأنشدها بين يدي السلطان بحضرة أرباب الدولة، والقصيدة ثلاثة وسبعون بيتاً، أولها: الكامل

بشراك يا ملك المليك الأشرفي	:::	بفتوح قبرس بالحسام المشرفي
فتح بشهر الصوم تم له فيا	:::	لك أشرف في أشرف في أشرف
فتح تفتحت السموات العلى	:::	من أجله بالنصر واللطف الخفي
والله حف جنوده بملائك	:::	عاداهما التأييد وهو بها حفي

ومنها:

الأشرف السلطان أشرف مالك	:::	لولاه أنفس ملكه لم تشرف
هو مكتف بالله أحلم قادر	:::	راض لآثار النبوة مقتفي
حامي حمى الحرمين بيت الله وال	:::	قبر الشريف لزائر ومطوف

وكلها على هذا النسق. انتهى.

قلت: وكل ذلك والنصارى تكذب هذا الخبر وتستغربه من أسر متملك قبرس وهزيمته على هذا الوجه، لأن أمر هذا النصر في غاية من العجب من وجوه عديدة: أولها: قلة من قاتل الفرنج من المسلمين، فإنهم كانوا في غاية من القلة، بحيث إن

العقل لا يقبل ذلك إلا بعد وقوعه في هذه المرة.

وثانيها: أنه لم تتعب عساكر الإسلام ولا وقع مصاف.

وثالثها: أنه كان يمكن هزيمة صاحب قبرس من المسلمين بعد أيام كثيرة من وجوه عديدة يطول الشرح في ذكرها لا تخفى على من له ذوق.

ورابعها: أنه كان يمكن هزيمة الفرنج ولا يمكن مسك الملك وأسره أيضاً من وجوه عديدة.

وخامسها: أن غالب العسكر إذا حصل لهم هزيمة يتحابون ويرجعون غير مرة على من هزمهم، لا سيما كثرة عساكر الفرنج وقلة من حضر الوقعة من عساكر المسلمين في هذه المرة، فكان على هذا يمكنهم الكر على المسلمين بعد هزيمتهم غير مرة.

وسادسها: أن الوقعة والقتال والهزيمة والقبض على الملك وتشتت شمل الفرنج والاستيلاء على ممالكهم كل ذلك في أقل من نصف يوم، فهذا أعجب من العجب.

وما أرى إلا أن الله سبحانه وتعالى أعز الإسلام وأهله، وخذل الكفر وأهله بهذا النصر العظيم الذي لم يسمع بمثله في سالف الأعصار، ولا فرح بمثله ملك من ملوك الترك. ولقد صار للملك الأشرف برسباي بهذا الفتح ميزة على جميع ملوك الترك إلى يوم القيامه. اللهم لا مانع لما أعطيت.

ولما بلغ الملك، عود الغزاة المذكورين إلى جهة الديار المصرية، رسم فنودي بالقاهرة ومصر بالزينة، ثم ندب السلطان جماعة كبيرة عن المماليك السلطانية بالتوجه إلى الثغور لحفظ مراكب الغزاة بعد خروجهم منها خوفاً من أن يطرقهم طارق من الفرنج مما يأتي صاحب قبرس من نجدات الفرنج، وكان هذا من أكبر المصالح. ثم رسم السلطان لهم أن يأخذوا جميع المراكب من ثغر دمياط ويأتوا بها إلى ثغر الإسكندرية لتحفظ بها، وسبب ذلك أن الغزلة المذكورين كان منهم من وصل إلى ثغر الإسكندرية، ومنهم من وصل الى ثغر دمياط، ومنهم من وصل إلى الطينة، لكثرة المراكب ولاختلاف الأرياح.

وبينما السلطان في انتظار المجاهدين قدم عليه السيد الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة منها، وقد استدير بعد موت أبيه، فأكرمه السلطان وخلع عليه بإمرة مكة على أنه يقوم بما تأخر على أبيه من الذهب، وهو مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، فإن أباه الشريف حسن بن عجلان كان قد حمل من الثلاثين ألف دينار، التي التزم بها قبل موته خمسة آلاف دينار. ثم التزم بركات أيضاً بحمل عشرة آلاف دينار في كل سنة، وأن لا يتعرض السلطان لما يؤخذ من بندر جدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند وغيره، وأن يكون ذلك جميعه لبركات المذكور. انتهى.

ولما كان يوم عيد الفطر ابتدأ دخول الغزاة إلى ساحل بولاق أرسالاً كما خرجوا منها. ووافق في هذه الأيام وفاء النيل ستة عشر ذراعاً، فتضاعف مسرات الناس من كل جهة. واستمر دخولهم في كل يوم إلى ساحل بولاق إلى أن تكامل في يوم الأحد سابع شوال، ونزلوا بالميدان الكبير بالقرب من موردة الجبس. وأصبحوا من الغد في يوم الاثنين ثامن شوال، وهو يوم فطر السلطان فإنه كان يصوم الستة أيام من شوال، طلعوا إلى القلعة على كيفية ما يذكر، وهم جميع الأمراء والأعيان من المجاهدين والأسرى، والغنائم بين أيديهم، ومتملك قبرس الملك جينوس بن جاك أمامهم وهو منكس الأعلام، وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى، حتى أتت أهل القرى والبلدان من الأرياف للفرجة. وركبت الأمراء من الميدان ومعهم غالب الغزاة، وساروا من أرض اللوق حتى خرجوا من المقس ودخلوا من باب القنطرة، وشقوا القاهرة إلى باب زويلة، وتوجهوا من الصليبية من تحت الخانقاه الشيخونية من سويقة منعم إلى الرميلة، والخلق في طول هذه المواضع تزدحم بحيث إن الرجل لا يسمع كلام رفيقه من كثرة زغاريد النساء، التي صفت على حوانيت القاهرة بالشوارع من غير أن يندبهم أحد لذلك، والإعلان بالتكبير والتهليل، ومن عظم التهاني. هذا مع تخليق الزعفران والزينة المخترعة بسائر شوارع القاهرة حتى في الأزقة. وفي الجملة كان هذا اليوم من الأيام التي لم نرها قبلها ولا سمعنا بمثلها. وساروا على هذه الصفة إلى أن طلعوا إلى القلعة من باب المدرج، وهم مع ذلك في ترتيب في مشيهم يذهب العقل وهو أنهم قدموا أولاً الفرسان من الغزاة أمام الجميع، ومن خلف الفرسان طوائف الرجالة من المطوعة وعشران البلاد الشامية وعربان البلاد وزعر القاهرة، ومن خلف هؤلاء الجميع الغنائم محمولة على رؤوس الحمالين، وعلى ظهور الجمال والخيول والبغال والحمير، والتي كانت على الرؤوس فيها تاج الملك وأعلامه منكسة وخيله تقاد من وراء الغنائم، ثم من بعدهم الأسرى من رجال الفرنج، ثم من بعدهم السبي من النساء والصغار، وهم أزيد من ألف أسير تقريباً سوى ما ذهب في البلاد والقرى مع المطوعة وغيرهم من غير إذن مقدم العساكر، وهو أيضاً يقارب ما ذكر، ومن وراء الأسرى جينوس ملك قبرس وهو راكب على بغل بقيد حديد، وأركب معه اثنان من خواصه، وعن يمينه الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، وأمامه قرا مراد خجا الشعباني أحد مقدمي الألوف أيضاً، وعن يسار، الأمير تغري بردي المحمودي رأس نوبة النوب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش المحمودي رأس نوبة ترب، وأمامه الأمير حسين المدعو تغري برمش أحد مقدمي الآلوف أيضاً، وأمامهم أمراء الطبلخانات والعشرات على مراتبهم، وأمراء البلاد الشامية. وساروا على هذه الصفة حتى طلعوا إلى القلعة، فأنزل جينوس عن البغل وكشف رأسه عند باب

المدرج، وقد احتاطه الحجاب وأمراء جاندار، وقد صفت العساكر الإسلامية من باب المدرج إلى داخل الحوش السلطاني.

فلما دخل جينوس من باب المدرج قبل الأرض، ثم قام ومشى ومعه الأمراء من الغزاة والحجاب ورؤوس النوب وهو يرسف في قيوده على مهل لكثرة الزحام.

هذا وقد جلس الملك الأشرف بالمقعد الذي على باب البحرة المقابل لباب الحوش السلطاني في موكب عظيم من الأمراء والخاصكية، وعنده الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة، وهو جالس فوق الأمراء، ورسل خوند كار مراد بن عثمان متملك بلاد الروم، ورسل صاحب تويس من بلاد المغرب، ورسول الأمير عذرا أمير العرب بالبلاد الشامية وقد طال جلوس الجميع عند السلطان إلى قريب الظهر، والسلطان يرسل إلى الغزاة رسولاً بعد رسول باستعجالهم حتى اجتازوا بتلك الأماكن المذكورة، فإنها مسافة طويلة، وأيضاً لا يقدرون على سرعة المشي من كثرة ازدحام الناس بالطرقات. ثم ساروا من باب المدرج إلى أن دخلوا باب الحوش، فلما رأى متملك قبرس السلطان وهو جالس على المقعد المذكور في موكبه، وأمره من معه بتقبيل الأرض، غشي عليه وسقط إلى الأرض. ثم أفاق وقبل الأرض، وقام على قدميه عند باب الحوش تجاه السلطان على بعد. وسارت الغنائم بين يدي السلطان حتى عرضت عليه بتمامها وكمالها، ثم الأسرى بأجمعهم حتى انتهى ذلك كله، فتقدمت الأمراء الغزاة وقبلوا الأرض على مراتبهم إلى أن كان آخرهم الأمير إينال الجكمي مقدم العساكر.

ثم أمر السلطان بإحضار متملك قبرس، فتقدم ومشى وهو بقيوده، ورأسه مكشوفة، وبعد أن مشى خطوات أمر فقبل الأرض، ثم قام، ثم قبل الأرض ثانياً بعد خطوات، وأخذ يعفر وجهه في التراب، ثم قام فلم يتمالك نفسه، وقد أذهله ما رأى من هيبة الملك وعز الإسلام، فسقط ثانياً مغشياً عليه. ثم أفاق من غشوته وقبل الأرض، وأوقف ساعة بالقرب من السلطان بحيث إنه يتحقق شكله. هذا والجاويشية تصيح، والشبابة السلطانية تزعق، والأزان يضرب على آلته، ورؤوس النوب والحجاب تهول الناس بالعصي من كثرة العساكر، والناس بالحوش المذكور، هذا مع ما الناس فيه من التهليل والتكبير بزقاقات القلعة، وأطباق المماليك السلطانية وغيرها.

ثم أمر السلطان بجينوس المذكور أن، يتوجه إلى مكان بالحوش السلطاني، فمروا به في الحال إلى المكان المذكور.

ثم طلب السلطان مقدمي عساكر الغزاة من أمراء مصر والشام والخاصكية المقدم كل واحد منهم على مركب، وكانوا كثيراً جداً، لأن عدة مراكب الغزاة المصريين

والشاميين زادت على مائة قطعة، وقيل مائتان، وقيل أكثر أو أقل ما بين أغربة، وقراقير، وزوارق وغير ذلك. فأول من بدأ بهم السلطان وخلع عليهم أمراء الألوف بمصر والشام، وخلع على كل واحد منهم أطلسين متمراً، وقيد له فرساً بقماش ذهب، وهم الأمير إينال الجكمي أمير مجلس، والأمير تغري بردي المحمودي الناصري رأس نوبة النوب، والأمير قرامرادخجا الشعباني الظاهري برقوق أمير جاندار، والأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش البهسني التركماني أحد مقدمي الألوف، والأمير طوغان السيفي تغري بردي أحد مقدمي الألوف بدمشق، ثم أمراء الطبلخانات والعشرات من أمراء مصر والشام على كل واحد فوقاني كمخا أحمر وأخضر وبنفسجي بطرز زركش على قدر مراتبهم، وكذلك كل مقدم مركب من الخاصكية والأجناد وغيرهم، فكان هذا اليوم يوماً عظيماً جليلاً لم يقع مثله في سالف الأعصار، أعز الله تعالى فيه دين الإسلام وأيده وخذل فيه الكفر وبدده.

ثم انفض الموكب ونزل كل واحد إلى داره. وقد كثرت التهاني بحارات القاهرة وظواهرها لقدوم المجاهدين حتى إن الرجل كان لا يجتاز بدرب ولا حارة إلا وجد فيها التخليق بالزعفران والتهاني. ثم أمر السلطان بهدم الزينة فهدمت، وكان لها مدة طويلة.

ثم أصبح السلطان من الغد وهو يوم الثلاثاء تاسع شوال جمع التجار لبيع الغنائم من القماش والأواني والأسرى.

ثم أرسل السلطان يطلب من متملك قبرس المال، فقال: مالي إلا روحي، وهي بيدكم، وأنا رجل أسير لا أملك الدرهم الفرد، من أين تصل يدي إلى مال أعطيه لكم؟. وتكرر الكلام معه بسبب ذلك وهو يجيب بمعنى ما أجاب به أولاً، حتى طلبه السلطان بالحوش، وكان به أسارى الفرنج، فلما حضر بين يدي السلطان وقبل الأرض وأوقف، وشاهده الأسرى من الفرنج في تلك الحالة صرخوا بأجمعهم صرخة واحدة، وحثوا التراب على رؤوسهم، والسلطان ينظر إليهم من مجلسه بالمقعد الذي كان جلس به من أمسه. وسبب صراخ الأسرى وعظيم بكائهم أنه كان فيهم من لا يصدق أن ملكهم قد أسر لكثرتهم وتفرقهم في المراكب، والاحتفاظ بهم، وعدم اجتماع بعضهم على بعض، فكان إذا قيل لبعضهم: إن ملككم معنا أسير، يضحك، ثم يقول: أين هو؟ فإذا قيل له: بهذه المركب، ويشار إلى مركب الأمير تغري بردي المحمودي يهزأ بذلك ويبتسم. فلما عاينوه تحققوا أسره وهالهم ذلك، وقيل: إن بعض سبي الفرنج سألت من رجل من المسلمين، لما كسروا الصليب الكبير الذي يعرف به جبل الصليب ببلادهم، وكان هذا الصليب معظماً عندهم إلى الغاية، وقالت: نحن إذا حلف منا رجل أو امرأة على هذا الصليب باطلاً أوذي في الوقت، وأنتم قد كسرتموه

وأحرقتموه ولم يصبكم بأس ما سبب ذلك؟ فقال لها الرجل: أنتم أطعتم الشيطان فصار يغويكم ويستخف بعقولكم، ونحن قد هدانا الله للإسلام وأنزل علينا القرآن فلا سبيل له علينا، فعندما كسرناه بعد أن ذكرنا اسم الله تعالى عليه فر منه الشيطان وذهب إلى لعنة الله، فقالت المرأة: هو ما قلته، وأسلمت هي وجماعة معها. انتهى.

ولما أوقف جينوس المذكور بالحوش بين يدي السلطان، وأوقف معه جماعة من قناصلة الفرنج ممن كان بمصر وأعمالها، وتكلم الترجمان معه فيما يفدي به نفسه من المال وإلا يقتله السلطان، صمم هو على مقالته الأولى، فالتزم القناصلة عنه بالمال لفدائه من غير تعيين قدر بعينه، ولكنهم أجابوا السلطان بالسمع والطاعة فيما طلبه، وعادوا بجينوس إلى مكانه من الحوش والترسيم عليه، وكان الذي رسم عليه السيفي أركماس المؤيدي الخاصكي المعروف بأركماس فرعون. وأقام جينوس بمكانه إلى يوم الأربعاء، فرسم له السلطان ببدلتين من قماشه، وأمر له بعشرين رطل لحم في كل يوم، وستة أطيار دجاج، وخمسمائة درهم فلوساً برسم حوائج الطعام، وفسح له في الاجتماع بمن يختاره من الفرنج وغيرهم، وأدخل إليه جماعة من حواشيه لخدمته. كل ذلك والسلطان مصمم على طلب خمسمائة ألف دينار منه يفدي بها نفسه وإلا يقتله، والرسل تتردد بينهم من التراجمين والقناصلة إلى أن تقرر الصلح بعد أيام على أنه يحمل مائتي ألف دينار يقوم منها بمائة ألف دينار عاجلة، وإذا عاد إلى بلاده أرسل بالمائة ألف دينار الأخرى، وضمنه جماعة في ذلك، وأنه يقوم في كل سنة بعشرين ألف دينار جزية. واشترط جينوس مع السلطان أن يكف عنه طائفة البنادقة وطائفة الكيتلان من الفرنج، فضمن له السلطان ذلك، وانعقد الصلح، ثم أطلقه من السجن بعد أيام كما سنذكره في يومه.

هذا ما كان من أمر صاحب قبرس وغزوه. انتهى.

ثم أخذ السلطان في الفحص على جاني بك الصوفي على عادته.

وأهل شهر ربيع الأول، ففي ليلة الجمعة رابعه عمل السلطان المولد النبوي بالحوش من قلعة الجبل.

ثم في يوم السبت حادي وعشرينه أفرج السلطان عن جينوس متملك قبرس من سجنه بقلعة الجبل، وخلع عليه، وأركبه فرساً بسرج ذهب وكنبوش زركش، ونزل إلى القاهرة في موكب، وأقام بدار أعدت له، وقد استقر أركماس المؤيدي المعروف بفرعون مسفره، وصار يركب من منزله المذكور ويمر بشوارع القاهرة ويزور كنائس النصارى ومعابدهم، ويتوجه إلى حيث اختار من غير حجر عليه، بعد أن أجرى السلطان عليه من الرواتب ما يقوم به وبمن في خدمته. هذا والخدم تأتيه من

النصارى والكتاب والقناصلة. وحضرت أنا معه في مجلس فرأيت له فوقاً ومعرفة، عرفت منه بالحدس، كونه لا يعرف باللغة العربية.

ثم في يوم الثلاثاء عاشر جمادى الآخرة المذكورة أمسك السلطان الأمير تغري بردي المحمودي رأس نوبة النوب، بعد فراغه من لعب الكرة بالحوش السلطاني، فقبض على تغري بردي المذكور وهو بقماش لعب الكرة، وقيد وأخرج من يومه إلى سجن الإسكندرية، ولم يعلم أحد ذنبه عند السلطان حتى ولا تغري بردي المذكور، فإني سألته فيما بعد فقال: لا أعلم على ماذا أمسكت.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن في خامس شعبان هذا ورد إلى ميناء الإسكندرية خمسة أغربة فيها مقاتلة الفرنج مشحونة بالسلاح، وباتوا بها، وقد استعد لهم المسلمون. فلما أصبح النهار واقعوهم، وقد أدركهم الزيني عبد القادر بن أبي الفرج الأستادار، وكان مسافراً بتروجة، ومعه غالب عرب البحيرة نجدة للمسلمين. فلما كثر جمع المسلمين انهزم الفرنج وردوا من حيث أتوا في يوم الأحد حادي عشرة، ولم يقتل من المسلمين سوى فارس واحد من جماعة ابن أبي الفرج.

قلت قوله تعالى:{ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا } [الأحزاب: ٢٥].

ثم في يوم الأحد رابع وعشرين المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة قدم إلى القاهرة رسول ملك الشرق شاه رخ بن تيمورلنك بكتابه يطلب فيه شرح البخاري للحافظ شهاب الدين أحمد بن حجر، وتاريخ الشيخ تقي الدين المقريزي المسمى بالسلوك لدول الملوك، ويعرض أيضاً في كتابه بأنه يريد أن يكسو الكعبة، ويجري العيش بمكة، فلم يلتفت السلطان إلى كتابه ولا إلى رسوله، وكتب له بالمنع في كل ما طلبه.

وفي هذا الشهر وقع الطاعون بإقليم البحيرة والغربية بحيث إنه أحصي من مات من أهل المحلة زيادة على خمسة آلاف إنسان. وكان الطاعون أيضاً قد وقع بغزة والقدس وصفد ودمشق من شعبان في السنة الخالية، واستمر إلى هذا الوقت، وعد ذلك من النوادر لأن الوقت كان شتاء، ولم يعهد وقوع الطاعون في فصل الربيع. ويعلل الحكماء ذلك بأنه سيلان الأخلاط في فصل الربيع وجمودها في الشتاء، فوقع في هذه السنة بخلاف ذلك. وكان قدم الخبر بوقوع الطاعون بمدينة برصا من بلاد الروم، وأنه زاد عدة من يموت بها في يوم على ألف وخمسمائة إنسان. ثم بدأ الطاعون بالديار المصرية في أوائل ربيع الأخر.

قلت: وهذا الطاعون هو الفناء العظيم الذي حصل بالديار المصرية وأعمالها في سنة ثلاث وثلاثين المذكورة.

ثم في يوم الخميس أول جمادى الأولى نودي بالقاهرة بصيام ثلاثة أيام وأن يتوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، وأن يخرجوا من المظالم، ثم إنهم يخرجون في يوم الأحد رابع جمادى الأولى المذكور إلى الصحراء. فلما كان يوم الأحد رابعه خرج قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني في جمع موفور إلى الصحراء خارج القاهرة، وجلس بجانب تربة الملك الظاهر برقوق، ووعظ الناس، فكثر ضجيج الناس وبكاؤهم في دعائهم وتضرعهم، ثم انفضوا. فتزايدت عدة الأموات في هذا اليوم عما كانت في أمسه.

ثم في ثامن جمادى الأول هذا قدم كتاب إسكندر بن قرا يوسف صاحب تبريز أنه قدم إلى بلاده، وقصده أن يمشي بعد انقضاء الشتاء لمحاربة قرايلك، فلم يلتفت السلطان إلى كتابه لشغله بموت مماليكه وغيرهم بالطاعون.

ثم ورد كتاب قرايلك أيضاً على السلطان يسأل فيه العفو عن ولده هابيل وإطلاقه، فلم يسمح له السلطان بذلك.

ثم ورد الخبر على السلطان بحركة قرايلك على البلاد الحلبية، وأن شاخ رخ بن تيمورلنك قد شتى بقراباغ، فأخذ السلطان في تجهيز عسكر للسفر. هذا وقد أشيع بالقاهرة بأن الأمير جاني بك الصوفي مات بالطاعون ودفن ولم يعرف به أحد، فلم تطب نفس السلطان لهذا الخبر، واستمر على ما هو عليه من القلق بسببه.

ثم في يوم الاثنين أول ذي القعدة استدعى السلطان القضاة الأربعة جميع نوابهم في الحكم بالقاهرة ومصر إلى القلعة لتعرض نوابهم على السلطان، وقد ساءت القالة فيهم عند السلطان، فدخل القضاة الأربعة إلى مجلس السلطان، وعوق نوابهم عن العبور إلى السلطان، فلما جلسوا خاشنهم السلطان في اللفظ بسبب كثرة نوابهم، وانفض المجلس على أن يقتصر الشافعي على خمسة عشر نائباً بمصر والقاهرة، والحنفي على عشرة نواب، والمالكي على سبعة، والحنبلي على خمسة، ونزلوا على ذلك. فلم يزل عبد الباسط وغيره بالسلطان حتى زادهم شيئاً بعد شيء إلى أن عادت عدتهم إلى ما كانت عليه، والسلطان لا يعلم بذلك.

ثم في يوم الأحد ثامن وعشرين ذي القعدة أيضاً ورد الخبر على السلطان بموت جينوس بن جاك متملك قبرس، فعين السلطان شخصاً من الأعيان ومعه ستون مملوكاً للتوجه إلى قبرس، فخرجوا في يوم الجمعة خامس عشرين ذي الحجة من سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ومعهم خلعة لجوان بن جينوس باستقراره في مملكة جزيرة قبرس عوضاً عن والده جينوس نيابة عن السلطان، ومطالبته بما تأخر على أبيه وهو أربعة وعشرون ألف دينار وبما التزم في كل سنة وهو خمسة آلاف دينار،

وساروا على ذلك إلى ما يأتي ذكره.

وانسلخت هذه السنة بيوم الأربعاء الموافق لرابع أيام النسيء، وهي سنة تحويل تحول الخراج فيها من أجل أنه لم يقع فيها نوروز، فحولت سنة ست إلى سنة سبع وثلاثين.

ثم في سابع صفر قدمت الرسل المتوجهة إلى قبرس. وكان من خبرهم أنهم لما توجهوا إلى دمياط ركبوا منها البحر المالح في شينيين، وساروا حتى وصلوا إلى الملاحة في يوم السبت عاشر المحرم من سنة ست وثلاثين المذكورة. فلما وصلوا إلى الملاحة سار أعيانهم في البر إلى الأفقسية وهي مدينة قبرس ودار ملكها. وبلغ متملك قبرس مجيئهم، فخرج إلى لقائهم وزير الملك في أكابر أهل قبرس، فأنزلوهم هناك وباتوا ليلتهم بالمكان المذكور. وأصبحوا من الغد، وهو يوم الاثنين ثاني عشر المحرم عبروا المدينة ودخلوا على الملك جوان بن جينوس بن جاك في قصره، فإذا هو قائم على قدميه، فسلموا عليه وبلغوه الرسالة، وأوصلوه كتاب السلطان كل ذلك وهو قائم على قدميه فأذعن بالسمع والطاعة وقال: أنا مملوك السلطان ونائبه وقد كنت على عزم أن أرسل التقدمة فبلغني قدومكم فأمسكت عن ذلك، فكلموه أن يحلف على طاعة السلطان، فأجابهم إلى ذلك، واستدعى القسيسين وحلف على الوفاء وعلى الاستمرار على الطاعة والقيام بما يجب عليه من ذلك. فعند ذلك أفيض عليه التشريف السلطاني المجهز له على يد كبير القوم، فلبسه وقد أظهر السرور والبشر بذلك. ثم خرجت الرسل من عنده، فداروا بالمدينة وهم ينادى بين أيديهم باستقرار الملك جوان في نيابة السلطنة بمدينة الأفقسية وسائر ممالكها، وأن لأهل قبرس الأمان والاطمئنان، ومروهم بطاعته وطاعة السلطان إلى أن داروا البلد. ثم أنزلوهم في بيت قد أعد لهم، وأجري عليهم من الرواتب مايليق بهم من كل ما عندهم.

ثم حمل إليهم فيما بعد سبعمائة ثوب صوف قيمتها عشرة آلاف دينار، وذلك مما تأخر على أبيه، ثم أظهر خصم أربعة آلاف دينار أخرى، ووعد بحمل العشرة آلاف دينار الباقية بعد سنة. ثم بعث إليهم أيضاً بأربعين ثوباً صوفاً برسم الهدية للسلطان، ثم أرسل لكل من الرسل شيئاً بحسب مقامه وعلى قدره. ثم أخذ في تجهيزهم وتسفيرهم حتى كان سفرهم من قبرس بعد عشرة أيام من قدومهم إلى اللمسون، فأقاموا بها إلى أن تهيأوا وركبوا البحر وساروا فيه ستة أيام ووصلوا إلى ثغر دمياط. ثم خرجوا من مراكبهم وركبوا المراكب في بحر النيل إلى أن قدموا القاهرة، وطلعوا إلى السلطان وعرفوه ما وقع لهم مفصلاً وما معهم من الصوف وغيره، فقبل السلطان ذلك. وقرأ السلطان كتاب متملك قبرص فإذا هو يتضمن السمع والطاعة، وأنه نائب السلطان فيما تحت يده من البلاد والمملكة، وأنه في طي علمه ومن جملة مماليكه، فسر السلطان بذلك غاية السرور، فإنه كان أشيع بمصر أنه لما ملك بعد أبيه

خرج عن طاعة السلطان، ومنع الجزية، فوقع خلاف ذلك. انتهى.

ثم في تاسع وعشرين شهر ربيع الأول قدم إلى القاهرة كتاب القان شاه رخ بن تيمورلنك صاحب ممالك العجم وجغتاي على يد بعض تجار العجم يتضمن أنه يريد كسوة الكعبة، وأرعد فيه وأبرق، ولم يخاطب السلطان فيه إلا بالأمير برسباي. وقد تكررت مكاتبته للسلطان بسبب كسوة الكعبة غير مرة، وهو لا يلتفت إليه ولا يسمح له بذلك، بل يكتب له بأجوبة خشنة مشحونة بالتوبيخ والوعيد والبهدلة، حتى إنه كلما ورد منه كتاب وأجابه السلطان بتلك الأجوبة الخشنة لا يشك الناس أن شاه رخ يرد إلى البلاد الشامية عقيب ذلك، فلم يظهر له خبر ولا نظر له أثر. وقد استخف الملك الأشرف بشأنه، حتى إنه صار إذا أتاه قاصده لا يلتفت إليه ولا إلى ما في يده، من الكتب بالكلية. ويأتي إن شاء الله تعالى ذكر ما فعله، ببعض قصاده من الضرب والبهدلة في محله من هذا الكتاب.

قلت: لا أعرف للملك الأشرف في سلطنته حركة بعد افتتاحه لقبرس أحسن من ثباته مع شاه رخ المذكور في أمر الكسوة، وعدم اكتراثه به، فإنه أقام بفعلته هذه حرمة للديار المصرية ولحكامها إلى يوم القيامة. انتهى.

ثم في يوم الجمعة خامس عشر جمادى الآخرة أنفق السلطان في المماليك المجردين إلى مكة، وهم خمسون مملوكاً، لكل واحد منهم مبلغ ثلاثين ديناراً، وتجهزوا للسفر إلى مكة صحبة الأمير أسنبغا الطياري فلما كان يوم الإثنين ثامن عشر جمادى الآخرة المذكورة برز فيه الأمير أسنبغا الطياري بمن معه من المماليك، السلطانية والحجاج.

واستمر السلطان في انتظار قدوم رسل قرايلك بالصلح في كل يوم وساعة، وهو يترجى أنه إذا بلغه صحة سفر السلطان إلى قتاله يرسل قضاعه في السؤال بالصلح، وأرباب دولته تشير عليه بالتربص والتأني في أمر السفر مخافة من وقوعهم في الكلف الكثيرة، فأشاروا عليه بأن ينفق في الأمراء أولاً، فربما يأتي رسول قرايلك في السؤال ويبرم الصلح، فيكون استعادة المال منهم أهون من استعادته من المماليك السلطانية. فحسن ذلك ببال السلطان، وهو كما قيل في الأمثال إن كلمة الشح مطاعة، وأنفق في الأمراء، وعوق نفقة المماليك إلى أن كان يوم سلخ جمادى الآخرة. فلما يئس من قرايلك أخذ في نفقة المماليك السلطانية في سلخ الشهر المذكور، فأنفق على عدة كبيره من المماليك السلطانية لا يحضرني عدتهم.

سفر السلطان الأشرف برسباي إلى آمد:

لما كان يوم الخميس تاسع عشر شهر رجب من سنة ست وثلاثين وثمانمائة، الموافق

لأول فصل الربيع، وانتقال الشمس إلى برج الحمل، ركب السلطان الملك الأشرف برسباي من قلعة الجبل ببقية أمرائه ومماليكه، وعبى أطلابه، وتوجه في الساعة الثالثة من النهار المذكور إلى مخيمه بالريدانية، خارج القاهرة، تجاه مسجد التبن، فسار في موكب جليل إلى الغاية، وقد خرج الناس لرؤيته، إلى أن وصل إلى مخيمه، وصحبته من الأمراء المقدمين: الأمير جقمق العلائي أمير آخور، والأمير أركماس الظاهري الدوادار، والأمير تمراز القرمشي رأس النوب، والأمير يشبك السودوني المعروف بالمشد، والأمير جانم ابن أخي الملك الأشرف، والأمير جاني بك الحمزاوي، فهؤلاء من مقدمي الألوف، وسافر معه جماعة كثيرة من أمراء الطبلخاناه، مثل الأمير قراخجا الشعباني الظاهري برقوق، ثاني رأس نوبة، والأمير قراسنقر من عبد الرحمن الظاهري برقوق، والأمير قراجا الأشرفي شاد الشرابخاناه، والأمير تمرباي التمربغاوي الحوادار الثاني، والأمير شيخ الركني الأمير آخور الثاني، والأمير خجا سودون السيفي بلاط الأعرج، أحد رؤوس النوب، والأمير تغري بردي البكلمشي المؤذي، أحد رؤوس النوب، فهؤلاء الذين يحضرني الآن أسماؤهم.

وسافر معه عدة كبيرة من الأمراء العشرات، وخلع على الأمير حسين بن أحمد المدعو تغري برمش، باستقراره في نيابة الغيبة، ورسم له بسكنى باب، ألمجسلة والحكم بين الناس. ورسم باستقرار الأمير آقبغا التمرازي، أمير مجلس، بإقامته بالقاهرة، وبسكنه بقصر بكتمر عند الكبش، والأمير برد بك الإسماعيلي قصقا الحاجب الثاني. وعين أيضاً عدة من أمراء العشرات والحجاب بالإقامة بالقاهرة. واستقر بالقلعة المقام الجمالي يوسف ابن السلطان الملك الأشرف، وهو أعظم مقدمي الألوف، والأمير خشقدم الظاهري الزمام الرومي، والأمير تنبك البردبكي نائب قلعة الجبل، والأمير إينال الظاهري أحد رؤوس النوب المعروف بأبزى.

وسار السلطان الملك الأشرف من حماة إلى أن وصل إلى حلب في يوم الثلاثاء، خامس شهر رمضان، ودخلها على هيئة دخوله إلى دمشق بأبهة السلطنة، وحمل القبة والطير على رأسه الأمير قوروه من تمراز نائب حلب، وشق السلطان مدينة حلب في موكب عظيم، إلى أن خرج منها على هيئته، ونزل بمخيمه بظاهر حلب برأس العين، ونزل منه جميع عساكره بخيلهم، ولم ينزل أحد منهم بمدينة حب، فأقام السلطان بمكانه المذكور خمسة عشر يوماً، يركب فيها، ويدخل إلى حلب ويطلع على قلعتها.

وكانت إقامة السلطان بحلب هذه المدة، ليرد عليه بها قصاد الأمير عثمان بن طرعلي، المدعو قرايلك، في طلب الصلح، فلم يرد عليه أحد ممن يعتمد السلطان

على كلامه، فعند ذلك تهيأ السلطان للخروج إلى جهة آمد.

وسار من حلب في يوم الاثنين، حادي عشرين شهر رمضان، مخففاً من الأثقال والخيام الهائلة، ونزل القضاة بمدينة حلب، وصحب الخليفة أمير المؤمنين المعتضد داود، وهو في ترسيم الأمير قراسنقر العبد رحماني، أحد أمراء الطبلخاناه، كما هي العادة في مشي بعض الأمراء مع الخلفاء في الأسفار، كالترسيم عليه، وهذا أيضاً من القواعد القديمة.

ثم أصبح السلطان يوم عيد الفطر، وقد اشتغل بالمسير إلى جهة آمد، وإلى الآن لم يعرف لقرايلك خبر، والأقوال فيه مختلفة، فمن الناس من يقول إنه، تهيأ ويريد قتال العساكر السلطانية، ومن الناس من يقول إنه دخل إلى آمد وحصنها، ومن الناس من يقول إنه ترك بمدينة آمد ابنه بعد أن حصنها، وتوجه إلى قلعة أرقنين، وأرقنين على يسار المتوجه إلى آمد. وسار السلطان بعساكره من الرها وعليهم الأسلحة وآلة الحرب، إلى أن نزل إلى آمد في يوم الخميس ثامن شوال، وقبل نزول السلطان عليها صف عساكره عدة صفوف، ووراءهم الثقل والخدم، حتى ملؤوا الفضاء طولاً وعرضاً. ومشى السلطان هو والخليفة، ومباشرو الدولة حولهما بغير سلاح، يوهم أن المباشرين المذكورين هم قضاة الشرع، لكون لبسهم على هيئة لبس الفقهاء، وليس بينهم وبين القضاة فرق، بل كان فيهم مثل القاضي كمال الدين بن البارزي كاتب السر، وهو أفضل من قضاة كثيرة، وسار السلطان بهم أمام عسكره.

وقد هال أهل آمد ما رأوه من كثرة العساكر وتلك الهيئة المزعجة التي قل أن يجتمع في عساكر الإسلام مثلها، من ترادف العساكر بعضها على بعض، حتى ضاق عليهم اتساع تلك البراري، وخلف العساكر المذكورة الأطلاب الهائلة، والكوسات تدق، والبوقات تزعق، وقد تجاوز عدد أطلاب الأمراء، لكثرة ما اجتمع على السلطان من العساكر المصرية والنواب بالبلاد الشامية وأمراء التركمان والعربان، فكانت عدة الأطلاب التي بها الطبول والزمور تزيد على مائة طلب، ما بين أمراء مصر المقدمين وبعض الطبلخانات ونائب دمشق وأمرائها، وهم عدة كثيرة، ونائب حلب وأمرائها وطرابلس وأمرائها، وكذلك حماة وصفد وغزة ونواب القلاع وأمراء التركمان الذين تضرب على بابهم الطبول، فدقت عند قدوم السلطان جميع طبول هؤلاء وزعقت الزمور يداً واحدة، فانطبق الفضاء طبلاً وزمراً حربية، هذا مع كثرة البراشم والأجراس المعلقة على خيول الحرب الملبسة بالعدد الكاملة وقلاقل الجمال.

ثم مال السلطان بفرسه إلى جهة بالقرب من مدينة آمد، ونزل به في مخيمه، وأمر الناس بالنزول في منازلهم، وأمرهم بعدم قتال أهل آمد، على أن أوباش القوم تراموا

بالسهام قليلا، فتوجه كل واحد إلى مخيمه، ونزل الجميع بالقرب من آمد، كالحلقة عليها، غير أنهم على بعد منها، بحيث إنه لا يلحقهم الرمي من السور، وأحدقت العساكر بالمدينة من جهتها الغربية، وكان الموضع الذي نزلنا به هو أقرب الأماكن للمدينة المذكورة.

ونزل السلطان بمخيمه وقد ثبت عنده رحيل قرايلك من آمد، وأنه ترك أحد أولاده بها، فأقام بمخيمه إلى صبيحة يوم السبت عاشر شوال، فركب وزحف بعساكره على مدينة آمد بعد أن كلمهم السلطان في تسليمها قبل ذلك، وترددت الرسل بينه وبينهم، فأبى من بها من الإذعان لطاعة السلطان وتسليم المدينة إلا بإذن قرايلك.

ولما زحف السلطان على المدينة اقتحمت عساكر السلطان خندق آمد، وقاتلوا من بها قتالاً شديداً، حتى أشرف القوم على الظفر وأخذ المدينة، وردم غالب خندق مدينة آمد بالحجارة والأخشاب.

وبينما الناس في أشد ما هم فيه من القتال، أخذ السلطان في مقت المماليك وتوبيخهم، وصار كلما جرح واحد من عساكره وأتي له به يزدريه ويهزأ به، وينسب القوم للتراخي في القتال.

ثم لبس هو سلاحه بالكامل، وأراد أن يقتحم المدينة بنفسه حتى أعاقه عن ذلك أعيان أمرائه، وهو راكب على فرسه، وعليه السلاح الكامل من الخوف، إلى الركب، واقف على فرسه بمخيمه حيث يجلس، والناس وقوف وركبان بين يديه، تعده بالنصر والظفر في اليوم المذكور، وإن لم يكن في هذا اليوم فيكون في الغد، وتذكر له أن القلاع لا تؤخذ في يوم ولا يومين، وهو يتكلم بكلام معناه أن عساكره تتهاون في قتال أهل آمدة فلا زالت الأمراء به، حتى خلع عن رأسه خوذته ولبس تخفيفة على العادة، واستمر القرقل عليه، إلى أن ترضاه الأمراء، وخلع قرقله، فحمي الحر، واشتدت القائلة، وسئمت الناس من القتال، هذا مع ما بلغهم من غضب السلطان، بعد أن لم يبقوا ممكناً في القتال، وقد أثخنت جراحات الأمراء والمماليك من عظم القتال.

كل ذلك والسلطان ساخط عليهم بغير حق، فعند ذلك فتر عزم القوم عن القتال من يومئذ، وما أرى هذا الذي وقع إلا خذلاناً من الله تعالى لأمر سبق، وإلا فالعساكر الذين اجتمعوا على آمد كان يمكنهم أخذ عدة مدن، مثل آمد وغيرها.

ولما انقضى القتال، وتوجه كل واحد إلى مخيمه، وهو غير راض في الباطن، وجد أهل آمد راحة كبيرة بعودة القوم عنهم، وبلعوا ريقهم، وأخذوا في تقوية أبراج المدينة وسورها، بعد أن كان أمرهم قد تلاشى، مما دهمهم من شدة قتال من لا قبل لهم بقتاله. ونزل السلطان بمخيمه، وندب الأمراء والعساكر للزحف، على هيئة ركوبهم

يوم السبت، في يوم الثلاثاء، وهو أيضاً في حال غضبه، فابتدأ الأمير قوروه نائب حلب، والأمير مقبل نائب صفد، والأمير جقمق العلائي الأمير آخور، في الكلام مع السلطان في تسكين غضبه، وقالوا: يا مولانا السلطان، القلاع كما في علم السلطان، ما تؤخذ في يوم واحد، ولا في شهر، وثم من القلاع ما حاوره تيمورلنك، مع كثرة عساكره، عشر سنين. يا مولانا السلطان، الحصون ما تبنى إلا للمنع، ولولا ذاك ما بنى أحد حصناً. وقد اجتهد مماليك السلطان وأمراؤه في القتال، وجرح الغالب منهم، وكان ممن خرح من الأعيان: الأمير تغري بردي المحمودي، رأس نوبة النوب، وهو كان يوم ذاك أتابك العساكع بدمشق، والأمير سودون ميق، أحد مقدمي الألوف بديار مصر، والأمير تنبك من سيدي بك الناصري المعروف بالبهلوان، أحد امراء العشرات ورأس نوبة، وأما من المماليك والخاصكية فكثير. فكان آخر كلام السلطان للأمراء: إن العساكر تركب صحبة الأمراء في يوم الثلاثاء، وتزحف على المدينة، ويكون الذي يركب مع الأمراء للزحف، المماليك القرانيص، وأنا ومماليكي الأجلاب نكون خلفهم، أراد بذلك عدم معرفة مماليكه بطرق الحرب، فحمل الناس كلامه على أنه يفعل ذلك شفقة على مماليكه، وأنه يريد هلاك من سواهم.

ومن هذا اليوم أخذ السلطان في أسباب الرحيل عن آمد، غير أنه صار، يترقب حركة يرحل بها لتكون لرحيله مندوحة. ثم ندب السلطان جماعة كبيرة من التركمان والحربان من عسكره لسع قتلة الملك الأشرف صاحب الحصن. وكان منذ نزل السلطان على آمد وأتباع العسكر السلطاني من التركمان والعربان تعيث وتنهب في قرى آمد وغيرها ويأتون بما يأخذونه للعساكر المذكورة، وصارت الغلمان تخرج من الوطاق إلى جهات آمد وتحصد الزروع وتأتي بها الأجناد، حتى صار أمام خيمة كل جندي جرن كبير من الزرع، وهو الذي قام بعلوفه خيول العسكر في طول مدة الإقامة على آمد، ولولا ذلك لكان لهم شأن آخر.

ولما ندب السلطان الجماعة المذكورة لتتبع قتلة الملك الأشرف وغيره، خرجوا إلى جهة من الجهات فوافوا جماعة كبيرة من أمراء قرايلك وقاتلوهم حتى هزموهم، وأسروا منهم جماعة كبيرة من أمراء قرايلك وفرسانه وأتوا بهم إلى السلطان، وهم نيف على عشرين نفساً، فأمر السلطان بقيدهم فقيدوا.

ثم توجهوا ثانياً فوافقوا جماعة أخر، فقاتلوهم أيضاً وأسروا منهم نحو الثلاثين، ومن جملتهم قرا محمد أحد أعيان أمراء قرايلك، فأحضر السلطان قرا محمد وهدده بالتوسيط إن لم يسلم له آمد، فأخذوا قرا محمد المذكور ومروا إلى تحت سور المدينة، فكلمهم قرا محمد المذكور في تسليم المدينة، فلم يلتفتوا إليه، فأخذوه وعادوا. وأصبح السلطان فوسط منهم تحت سور آمد عشرين رجلاً، من جملتهم قرا محمد

المذكور.

واتفق في توسيط هؤلاء غريبة، وهو أن بعضهم حمل للتوسيط فاضطرب من أيدي حملته فوقع منهم إلى الأرض، فقام بسرعة وهرب إلى أن ألقى بنفسه إلى الخندق، بعد أن تبعه جماعة، فلم يقدروا على تحصيله، ثم خرج من الخندق، وقد أرخي إليه من سور آمد حبل، وتشبث به إلى قريب الشرفة، فانقطع الحبل فوقع إلى الأرض، ثم جر ثانياً إلى أعلى المدينة ونجا، وقيل إنه مات بعد ثلاثة أيام من طلوعه، والله أعلم.

وفي الحال أخذ السلطان في أسباب الرحيل، ورحل في ليلة الخميس ثالث عشر ذي القعدة في النصف الثاني من الليل من غير ترتيب ولا تطليب، ولا تعبية، ورحلت العساكر من آمد كالمنهزمين لا يلوي أحد على أحد، بل صار كل واحد يسير على رأيه. وعند رحيل القوم أطلق الغلمان النيران في الزروع المحصودة برسم عليق خيول الأجناد، فإنه كان كل جندي من الأجناد صار أمام خيمته جرن كبير مما يحصده غلامه ويأتيه به من زروع آمد، فلما انطلق النار في هذه الأجران، انطبق الوطاق بالدخان إلى الجو، حتى صار الرجل لا ينظر إلى الرجل الذي بجانبه.

ورحل الناس على هذه الهيئة مسرعين، مخافة أن يسير السلطان ويتركهم غنيمة لأهل آمد. وبالله لو نزلوا في ذلك الوقت لأمسكوا من اختاروا مسكه، قبضاً باليد، ولو أرادوا النهب لغنموا وسعدوا إلى الأبد، لأن السلطان سار قبل رحيل نصف عسكره. وسار القوم من آمد إلى جهات متفرقة، إلى أن طلع النهار، وقد تمزقت العساكر في طرقات متعددة، لا تعرف طائفة خبر طائفة أخرى، لبعد ما بينهم من المسافة. فتوجه أتابك العساكر سودون من عبد الرحمن، وهو مريض ملازم ركوب المحفة، من طريق ماردين السالكة إلى مدينة الرها، ومعه طائفة كبيرة ممن تبعه من العسكر السلطاني، وتوجهت طائفة أخرى من العسكر من الطريق التي سلكناها في الذهاب إلى آمد من جهة قلعة أرقنين التي بها قرايلك، وتبعهم خلائق وعدة أطلاب، فافترق الأمراء من مماليكهم وأطلابهم، وتشتت شملهم. وسار السلطان من الطريق الوسطى من على الجبل المعروف قراضاغ، وهذا الطريق أقرب الطرق كالمفازة، غير أنه عسر المسلك إلى الغاية من الطلوع والنزول وضيق الطرقات. وكنت أنا معه بهذا الطريق المذكور، وأكل السبع رجلاً من غلماننا، ووقع ذلك لجماعة أخر، واصطادت الناس السباع من الأوكار، وسرنا حتى نزلنا عن الجبل إلى فضاء غربي الجبل المذكور، ومسافة الموضع الذي نزل السلطان به عن أرقنين التي بها قرايلك مقدار نصف بريد تخميناً.

وعند نزول السلطان بالمنزلة المذكورة، علم بمن فقده من عساكره، وتأمل من معه

منهم، فإذا هم على النصف من عسكره، وأيضا فيهم الذي تاه عن جماله، ومنهم من لا يعرف طلبه أين ذهب، وهو الأمير قرقماس الشعباني حاجب الحجاب، نزل بالمنزلة المذكورة وليس معه غير أصحابه وطائفة نحو خمسة أنفس وهجان وغلام، فنصب السيبة واستظل تحتها من الشمس، وقد سار طلبه بجميع مماليكه ورختة من جهة لا يعرف متى تعود إليه، ومثله فكثيرمن الأجناد والأمراء.

فلما رأى الملك الأشرف نفسه في قلة من عساكره، ولم يبق معه إلا شرذمة قليلة، ولم يعلم أين ذهب الباقون، شق عليه ذلك وتخوف من كبس قرايلك في الليل، ولم يجد بداً من المبيت في المكان المذكور، لتمزق عساكره. فلما دخل الليل، ندب السلطان الأمير جقمق العلائي الأمير آخور الكبير ومعه جماعة لحفظ العسكر في الليل، فركب الأمير جقمق بمماليكه ومن انضاف إليه وضرب اليزك على العسكر، وقام بحفظه أحسن قيام إلى الصباح.

ولما نزل السلطان بالبيرة أقام بها إلى أن عدت عساكره الجسر الذي نصب على بحر الفرات إلى البر الغربي، ثم عدى السلطان إلى البر الغربي المذكور وأقام به يومه، ورحل من آخر النهار المذكور بعساكره، حتى وصل إلى حلب في خامس عشر ذي القعدة، ونزل بظاهرها بالمنزلة التي نزل بها في ذهابه إلى آمد، ونزل حوله جميع عساكره، بعد أن أجهدهم التعب، وماتت خيولهم، وتلفت أموالهم من غير فائدة ولا قيام حرمة.

وأقام السلطان بحلب نحو العشرة أيام، وأمر النواب بالبلاد الشامية بالمسير إلى محل كفالتهم،

وأقام السلطان بغزة ثلاثة أيام، ثم رحل منها يريد القاهرة، حتى وصلها في يوم الأحد العشرين من محرم سنة سبع وثلاثين وثمانمائة، ودخل في موكب جليل من باب النور بأبهة الملك وشعار السلطنة، وعلى رأسه القبة والطير، تولى حملها الأمير الكبير سودون من عبد الرحمن وهو مريض، وقد ساعده، جماعة من حواشيه في حملها. وشق السلطان القاهرة وقد زينت لقدومه أحسن زينة، وسار حتى نزل بمدرسته التي أنشأها بخط العنبريين من القاهرة، وصلى بها ركعتين، ثم ركب منها وسار حتى خرج من باب زويلة، وطلع إلى القلعة بعد أن خرج المقام الجمالي يوسف ولده إلى ملاقاته بالخانقاه، وعاد معه. وكان لقدومه يوم مشهود، وسر الناس بسلامته، وعاد السلطان إلى مصر بعد أن أتلف في هذه السفره نحو الخمسمائة ألف دينار من النقد، وتلف له من السلاح والمتاع والخيل والجمال والبغال مثل ذلك، وأنفق الأمراء بمصر والشام والعساكر المصرية والشامية مثل ذلك، وتلف لأهل آمد

وما حولها من الغلال والزراعات والمواشي شيء كثير إلى الغاية، وقتل أيضاً خلائق، ومع هذا كله كانت سفرة كثيرة الضرر قليلة النفع.

وقدم الخبر في هذا الشهر من مكة المشرفة بأن الوباء قد اشتد بها وبأوديتها حتى بلغ عدة من يموت بمكة، في اليوم، خمسين نفساً، ما بين رجل وامرأة. وفي شهر رمضان المذكور تحرك عزم السلطان على السفر إلى جهة آمد، لقتال قرايلك، وكتب إلى بلاد الشام بتعبئة الإقامات من الشعير وغيره على العادة. وكان سبب حركة السلطان لذلك، لما ورد عليه الخبر في يوم ثامن عشره، أن الأمير إينار العلائي نائب الرها، كان بينه وبين أعوان قرايلك وقعة هائلة. وسببه أن بعض عساكر حلب أو عساكر الرها خرج يسير فرسه، فلما كان بين بساتين الرها، صادف طائفة من التركمان، فقاتلهم وهزمهم، وبلغ ذلك الأمير إينال، فخرج مسرعاً من مدينة الرها، نجدة لمن تقدم ذكره، فخرجت عليه ثلاثة كمائن من القرايلكية، فقاتلهم، فكانت بينهم وقعة هائلة، قتل فيها من الفريقين عدة.

فلما بلغ السلطان ذلك، شق عليه، وعزم على السفر، ثم كتب السلطان إلى سائر البلاد الشامية بخروج نواب الممالك للحاق الأمير قرقماس نائب حلب بالرها ثم بطل ذلك، وكتب بمنعهم من المسير، حتى يصح عندهم نزول قرايلك على الرها بعساكره وجموعه، فإذا صح لهم ذلك، ساروا لقتاله.

ثم في يوم الاثنين خامس عشر المذكور، ثارت مماليك السلطان الجلبان سكان الطباق بقلعة الجبل، وطلبوا القبض على مباشري الدولة، بسبب تأخر جوامكهم، ففر المباشرون منهم، ونزلوا إلى بيوتهم، فنزل في أثرهم جمع كبير. منهم، ومضوا إلى بيت عبد الباسط ناظر الجيش ونهبوه، وأخذوا ما قدروا عليه. ثم خجوا وقصدوا بيت الوزير أمين الدين بن الهيصم، وبيت الأستادار كريم الدين ابن كاتب المناخ، ونهبوهما أيضاً، ولم يقدروا على قبض أحد من هؤلاء الثلاثة لفرارهم منهم، وغلقت الأسواق وخاف كل أحد على بيته.

هذا وقد صمم المماليك على الفتك بعبد الباسط. والعجب أن السلطان يغضب لعبد الباسط بل انحرف عليه، وأمر بنفيه إلى الإسكندرية لكسر الشر، ولم يقع منه في حق مماليكه المذكورين أمر من الأمور، إما لمحبته فيهم، أو لبغضه في عبد الباسط. ولزم عبد الباسط داره، وتردد الناس للسلام عليه، والسلطان مصمم على سفره إلى ثغر الإسكندرية.

وفي هذا اليوم خرج قاصد شاه رخ، الشريف تاج الدين، من الديار المصرية إلى جهة مرسله، وصحبته الأمير أقطوه الموساوي، وعلى يده هدية من السلطان إلى شاه رخ

المذكور، وكتاب جواب كتابه يتضمن منعه من كسوة الكعبة، بأن العادة قد جرت قديماً وحديثاً أن لا يكسو الكعبة إلا ملوك مصر، والعادة اعتبرت في الشرع في مواضع، وأن للكسوة أوقافاً تقوم بعملها، لا يحتاج، إلى مساعدة في ذلك، وإن أراد الملك وفاء نذره، فليبع الكسوة ويتصدق بثمنها في فقراء مكة، فهو أكثر ثواباً، حيث يتعدى نفع ذلك إلى جماعة كبيرة، وأشياء من هذه المقولة.

ثم في يوم الثلاثاء رابع شوال قدم على السلطان كتاب القان شاه رخ ملك الشرق، يتضمن الوعيد، وأنه عازم على زيارة القدس الشريف، وأرعد في كتابه وأبرق، وأنكر على السلطان أخذ الرشوة من القضاة، وأخذ المكوس من التجار ببندر جدة، وتعاطيه نوع المتجر، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ولا استوعب الكتاب لآخره، بل طلب التاج ابن سيفة وخلع عليه بإعادته إلى ولاية القاهرة، عوضاً عن علاء الدين علي بن الطبلاوي بحكم عزله ولزومه داره، بعدما غرم جملة مستكثرة، فكان حاله كقول القائل: الرمل

ركب الأهوال في زورته ::: ثم ماسلم حتى ودعا

ومن يومئذ اشتغل فكر السلطان الملك الأشرف بأمر جانبك الصوفي، وتحقق أمره بعدما كان يظنه، وأخذ في عزل جماعة من النواب ممن يخشى شرهم، وتخوف من قرقماس تخوفاً عظيماً في الباطن، لئلا يميل إلى جانبك الصوفي. فأول ما بدأ به السلطان أن عزل الأمير قانصوه النوروزي عن نيابة طرسوس، ونقله إلى حجوبية الحجاب بحلب عوضاً عن الأمير طوغان السيفي تغري بردي أحد مماليك الوالد، ونقل طوغان المذكور إلى إمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، واستقر الأمير جمال الدين يوسف ابن قلدر في نيابة طرسوس عوضاً عن قانصوه.

ثم في صفر من سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، ورد الخبر على السلطان أن شاه رخ بن تيمورلنك أرسل إلى السلطان مراد بك ابن عثمان، متملك الروم، وإلى الأمير صارم الدين إبراهيم بن قرمان المقدم ذكره، وإلى قرايلك وأولاده، وإلى ناصر الدين بك بن دلغادر، بخلع، على أنهم نوابه في ممالكهم، فلبس الجميع خلعه، فشق ذلك على السلطان من كون ابن عثمان لبس خلعته، حتى قيل له إنه فعل ذلك في مجلس أنسه استهزاء به. قلت: لبس الخلعة والفشارما إليه.

ثم في يوم الاثنين ثاني شهر ربيع الأول من سنة تسع وثلاثين المذكورة، وكان من خبر جانبك الصوفي والقبض عليه، وهو خلاف ما نقل عنه قبل ذلك لاختلاف الأقوال في أمره، فخبره من هذا الوجه: أنه لما فر من الإسكندرية، دخل القاهرة بعد أمور، ودام بها سنين مختفياً في حاراتها

وظواهرها، إلى أن خرج منها متنكراً وسار إلى البلاد الشامية، ثم إلى بلاد الروم، فظهر بتوقات في شوال من السنة الماضية، أعني سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة، فقام متوليها الأمير أركج باشا بمعاونته وأنعم عليه، وكتب إلى ناصر الدين محمد بن دلغادر نائب أبلستين، وإلى أسلماس بن كبك، وإلى محمد بن قطبكي، وإلى قرايلك ونحوهم من أمراء التركمان بالقيام معه والاستعداد لنصرته. فانضم إلى جانبك الصوفي عند ذلك جماعة كبيرة، فتهيأ وخرج بهم من توقات، فوافاه الأمير قرمش الأعور أحد مقدمي الألوف بالديار المصرية المقدم ذكره في واقعة جانبك الصوفي لما قبض عليه بالقاهرة. وكان من خبر قرمش المذكور، أن الملك الأشرف أمسكه بعد أن قبض على الأمير جانبك الصوفي بمدة يسيرة، وحبسه بثغر الإسكندرية، ثم أطلقه وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بدمشق، فلما خرج الأمير تنبك البجاسي عن طاعة الملك الأشرف وافقه قرمش هذا وبقي من حزبه، إلى أن انكسر البجاسي وقبض عليه، فاختفى قرمش المذكور ولم يظهر له خبر إلى هذا اليوم، فكأنه كان مختفياً بتلك البلاد، فلما ظهر أمر جانبك الصوفي توجه إليه، انتهى.

وسار الأمير جانبك الصوفي بمن انضم عليه، ومعه الأمير قرمش، من توقات إلى الأمير محمد بن ترايلك صاحب قلعة جمركشك فأكرمهم محمد المذكور وقواهم، فشنوا منها الغارات على مدينة دوركي وضايقوا أهلها ونهبوا نواحيها، فاتفق ورود كتاب شاه رخ ملك الشرق على قرايلك يأمره بالمسير بأولاده وعساكره لقتال إسكندر بن قرا يوسف سريعاً عاجلاً، فكتب قرايلك إلى ولده محمد بالقدوم عليه لذلك، فترك محمد جانبك الصوفي ومن معه على دوركي وتوجه إلى أبيه.

فسار جانبك إلى أسلماس وابن قطبكي، واجتمعوا ونزلوا على ملطية وحصروها، وكادهم سليمان بن ناصر الدين بك ابن دلغادر، وكتب إلى جانبك أنه معه: فكتب إليه أنه يقدم عليه، وكان تقدم بينهما مكاتبات حسبما تقدم ذكره ومواعدات بمجيء جانبك إلى أبلستين، فلم يقع ذلك، وأرسل جانبك إليه بالقدوم عليه مع الأمير قرمش الأعور، فأكرمه سليمان، وركب وسار مع الأمير قرمش في وخمسين فرساً إلى جهة جانبك الصوفي، حتى قدم عليه. فتلقاه جانبك وعانقه وعادا بمن معهما على حصار ملطية، فأظهر سليمان من النصاحة ما أوجب ركون جانبك إليه. فأخذ سليمان في الحيلة على جانبك المذكور بكل ما تصل قدرته إليه، ولازال به حتى خرج جانبك معه في عدة من أصحابه ليستريحا بمكان للنزهة فيه، ورتبا قرمش وبقية

العسكر على حصار ملطية، فلما نزل سليمان وجانبك للنزهة ورأى أن حيلته تمت، وثب جماعة سليمان على جانبك الصوفي وقيدوه وأركبوه على أكديش وسار به ليلته ومن الغد حتى وصل إلى بيوته بأبلستين وحبسه عنده، فلم يفطن قرمش وأصحابه بمسك جانبك، حتى جاوز جانبك بلاداً سعيدة. ولما قبض سليمان على جانبك الصوفي أرسل يعرف السلطان بذلك ويطلب من يأتيه من قبل السلطان ويتسلمه، انتهى.

وأما السلطان لما بلغه خبر القبض على جانبك الصوفي، لم يحمل ذلك على الصدق، وأخذ فيما هو فيه. فورد عليه في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر سيف الأمير قصروه نائب الشأم، على يد الأمير علي بن إينال باي بن قجماس، فعين السلطان الأمير إينال الجكمي نائب حلب إلى نيابة دمشق عوضاً عن قصروه، ورسم لتغري برمش الأمير آخور الكبير بنيابة حلب عوضاً عن إينال الجكمي، غير أنه لم يخلع على تغري برمش المذكور إلا بعد أيام حسبما يأتي ذكره.

وبينما السلطان في ذلك ورد عليه كتاب أصبهان بن قرا يوسف صاحب بغداد، يشتمل على التودد وأنه هو وأخاه إسكندر يقاتلان شاه رخ، وتاريخه قبل قدوم أحمد جوكي بن شاه رخ وبابا حاجي بعساكر شاه رخ، وقبل موت قرايلك.

ثم في أواخر ذي القعدة قدم الخبر على السلطان أن شاه رخ بن تيمورلنك رحل عن حاضرة، مملكة أذربيجان، وهي تبريز، بعد أن استناب عليها جهان شاه بن قرا يوسف عوضاً عن أخيه إسكندر، وزوج جهان شاه المذكور أيضاً بنساء اسكندر المذكور بحكم الشرع، لكون إسكندر كان في عصمته أزيد من ثمانين امرأة.

ونزل شاه رخ في أواخر ذي القعدة على مدينة السلطانية، وعزم على أنه لا يرحل عنها إلى ممالكه حتى يبلغ غرضه من إسكندر بن قرا يوسف. فلم يلتفت السلطان إلى ذلك، وأخذ فيما هو فيه من أمر جانبك الصوفي، غير أنه صار في تخوف من أن يردف شاه رخ جانبك الصوفي بعسكر، إذا تم أمره من إسكندر.

وأما العسكر المجرد من مصر وغيرها فإنه لما توجه إلى حلب، سار منها نائبها تغري برمش البهسني بعساكر حلب، وصحبته الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حماه بعساكر حماه، ونزل على عينتاب، وقد نزل جانبك الصوفي، مرغش، فتوجهوا إليه من الدربند أمام العسكر المصري، ونزلوا على بزرجق يعني: سويقة باللغة العربية، ثم عدوا الجسر، وقصدوا ناصر الدين بك دلغادر نائب أبلستين من طريق دربند كينوك، فلم يقدروا على سلوكه لكثرة الثلوج فمضوا إلى دربند آخر من عمل بهسنا، وساروا منه بعد

مشقة يريدون أبلستين وساروا حتى طرقها تغري برمش المذكور بمن معه في يوم الثلاثاء تاسع شهر رمضان، فلم يدرك ناصرالدين بن دلغادر بها، فأمر تغري برمش بنهب أبلستين وإحراقها فنهبت وأحرقت بأجمعها، ثم أمر العسكر بنهب جميع قراها وإحراقها فنهبوها وأخذوا منها شيئاً كثيراً. ثم عاد نائب حلب بمن معه والأغنام تساق بين يديه بعد أن امتلأت أيدي العساكر من النهب، وترك أبلستين خراباً قاعاً صفصفاً، وعاد إلى حلب بعد غيبته عنها خمسين يوماً، كل ذلك وأمراء مصر بحلب.

ثم بلغ تغري برمش بعد قدومه إلى حلب أن ناصرالدين بن دلغادر نزل بالقرب من كينوك فجهز إليه أخاه حسناً حاجب حجاب حلب، وحسن هو الأسن، ومعه مائة وخمسون فارساً إلى عينتاب تقوية للأمير خجا سودون، وقد نزل بها بعد أن انفرد عن العسكر المصري من يوم خرج من الديار المصرية، فتوجه حسن المذكور بمن معه إلى خجا سودون وأقام عنده. فلما كان يوم رابع وعشرين ذي الحجة من سنة تسع وثلاثين المذكورة، وصل إليهم الأمير جانبك الصوفي، ومعه الأمير، قرمش الأعور، والأمير كمشبغا المعروف بأمير عشرة أحد أمراء حلب، وكان توجه من حلب وانضم على جانبك الصوفي قبل تاريخه بمدة طويلة، ومعه أيضاً أولاد ناصر الدين بك ابن دلغادر، الجميع ما عدا سليمان، فنزلوا على مرج دلوك، ثم ركبوا وساروا منه إلى قتال خجا سودون بعينتاب، فركب خجا سودون أيضاً بمماليكه وبمن معه من التركمان والعربان وقاتلهم آخر النهار، وباتوا ليلتهم. وأصبحوا يوم الثلاثاء خامس وعشرين ذي الحجة تقدم حسن حاجب الحجاب بمن معه من التركمان والعربان أمام خجا سودون، فتقدم إليهم جانبك الصوفي بمن معه، وهم نحو الألفي فارس، فقاتلته العساكر المذكورة وقد تفرقوا فرقتين: فرقة عليها خجا سودون وحسن حاجب الحجاب المقدم ذكره، وفرقة عليها الأمير تمرباي اليوسفي المؤيدي دوادار السلطان بحلب، وتركمان الطاعة في كل فرقة منهما.

وتصادم الفريقان فكانت بينهم وقعة هائلة انكسر فيها جانبك الصوفي، وأمسك الأمير قرمش الأعور، والأمير كمشبغا أمير عشرة، وهما كانا جناحي مملكته، وثمانية عشر فارساً من أصحاب جانبك الصوفي، وانهزم جانبك في أناس وتبعهم العساكر فلم يقدروا عليهم فعادوا، فأخذ خجا سودون قرمش وكمشبغا بمن معهما، وقيد الجميع وسيرهم إلى حلب، وكتب بذلك إلى السلطان. فقدم الخبر على السلطان في صفر من سنة أربعين وثمانمائة، ومع

المخبر رأس الأمير قرمش الأعور ورأس الأمير كمشبغا أمير عشرة، وأنه وسط من قبض معهما بحلب، فشهر الرأسان بالقاهرة، ثم ألقيا في سراب الأقذار بأمر السلطان، ولم يدفنا. ودقت البشائر لذلك أياماً، وفرح السلطان بذلك، وأرسل إلى نائب حلب وإلى خجا سودون بالشكر والثناء. ومن يوم ذاك، أخذ أمر جانبك الصوفي في إدبار، بعد ما كان اجتمع عليه ملوك وخلائق، لقلة سعده.

وقدم الخبر على السلطان بموت جانبك الصوفي، واختلفت الأقاويل في أمره إلى أن كان يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى من سنة إحدى وأربعين المذكورة، قدم مملوك، تغري برمش نائب حلب إلى القاهرة برأس الأمير جانبك الصوفي، فدقت البشائر لذلك وسر السلطان غاية السرور بموته ولهجت الناس أن السلطان تم سعده، وقد قيل: المتقارب

إذا تم أمـــر بـــدا نقصـــه ::: تـــوق زوالاً إذا قيـــل تم

فأمر السلطان بالرأس فطيف بها على رمح بشوارع القاهرة، والمشاعلي ينادي عليها: هذا جزاء من يخالف على الملوك ويخرج عن الطاعة، ثم ألقيت في قناة سراب.

ثم في يوم الجمعة ثامن جمادى الآخرة ورد الخبر على السلطان بأن إسكندر بن قرا يوسف، نزل قريباً من مدينة تبريز، فبرز إليه أخوه جهان شاه بن قرا يوسف المقيم بها من قبل شاه رخ بن تيمورلنك، فكانت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها إسكندر إلى قلعة ألنجا من عمر تبريز، فنازلها جهان شاه إلى أن حصره بها أياماً، وأن الأمير حمزة بن قرايلك متملك ماردين وأرزن أخرج أخاه علي بك من مدينة آمد وملكها منه. فقلق السلطان من هذين الخبرين، وعزم على أن يسافر بنفسه إلى البلاد الشامية، وكتب بتجهيز الإقامات بالشام، ثم أبطل ذلك بعد أيام. ورسم في يوم السبت سابع شهر رجب بخروج تجريدة من الأمراء إلى البلاد الشامية، وعين ثمانية نفر من الأمراء مقدمي الألوف: وهم قرقماس أمير سلاح، وآقبغا التمرازي أمير مجلس، وأركماس الظاهري الدوادار الكبير، وتمراز القرمشي رأس نوبة النوب، ويشبك السودوني حاجب الحجاب، وجانم الأشرفي الأمير آخور الكبير، وخجا سودون وقراجا الأشرفي.

واستهل شعبان يوم الاثنين والسلطان مريض، فأخرج فيه مالاً وفرقه على الفقراء والمساكين. فلما كان يوم الثلاثاء تاسعه تعافى السلطان وخلع على الأطباء لعافيته،

وركب من الغد ونزل من القلعة إلى القرافة وتصدق على أهل القرافتين وعاد وهو غير صحيح البدن.

ثم قدم الخبر على السلطان بأن محمد بن قرايلك توجه إلى أخيه حمزة بك المقدم ذكره، باستدعائه، وقد حقد عليه حمزة قتله للأمير جانبك الصوفي. فإن حمزة لما بلغه نزول جانبك الصوفي على أخويه محمد ومحمود وكتب في الحال إلى أخيه محمد هذا بأن يبعث بالأمير جانبك الصوفي إليه مكرماً مبجلاً، أراد حمزة أن يأخذ جانبك إلى عنده ليخوف به الملك الأشرف، فمال محمد إلى ما وعد به تغري برمش نائب حلب وقتل جانبك الصوفي وبعث برأسه إليه، فأسرها حمزة في نفسه، وما زال يعد أخاه المذكور ويمنيه إلى أن قدم عليه، وفي ظن محمد أن أخاه حمزة يوليه بعض بلاده، فما هو إلا أن صار في قبضته قتله في الحال.

قلت: هذا شأن الباغي، الجزاء من جنس عمله، وذلك أنه مثل ما فعل بجانبك الصوفي فعل به، انتهى.

ثم في يوم الثلاثاء أول شهر رمضان ظهر الطاعون بالقاهرة وظواهرها، وأول ما بدأ في الأطفال والإماء والعبيد والمماليك. وكان الطاعون أيضاً قد عم البلاد الشامية بأسرها.

فلما كان يوم الأربعاء سابع شوال انتكس السلطان ولزم الفراش. كل ذلك ودولات خجا محتسب القاهرة يتتبع النسوة ويردعهن بالعذاب والنكال، حتى إنه ظفر مرة بامرأة وأراد أن يضربها فذهب عقلها من الخوف وتلفت وحملت إلى بيتها مجنونة، وتم بها ذلك أشهراً وامرأة أخرى أرادت أن تخرج خلف جنازة ولدها فمنعت من ذلك فأرمت بنفسها من أعلى الدار فماتت.

هذا ومرض السلطان في زيادة ونمو، وكلما ترجح قليلاً خلع على الأطباء ودقت البشائر، إلى أن عجز عن القيام في العشر الثاني من شوال.

هذا وقد كثر الموت بالمماليك السلطانية ثم بالدور السلطانية، ومات عدة من أولاد السلطان والحريم والجواري.

واستمر السلطان ومرضه يتزايد، فلما كان يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة، جمع السلطان الخليفة والقضاة الأربعة والأمراء وأعيان الدولة، وعهد بالسلطنة إلى ولده المقام الجمالي يوسف، وكتب العهد القاضي شرف الدين أبو بكر نائب كاتب السر، لمرض كاتب السر القاضي صلاح الدين بن نصر الله بالطاعون. وجلس السلطان بالمقعد الذي أنشأه على باب الدهيشة المطل على الحوش السلطاني، وقد أخرج إليه محمولاً من شدة مرضه وضعف قوته،

ووقف بين يديه الأمير خشقدم اليشبكي مقدم المماليك السلطانية بالحوش، ومعه غالب المماليك السلطانية الجلبان والقرانيص، وجلس بجانب السلطان الخليفة المعتضد بالله أبو الفتح داود، والقضاة والأمير الكبير جقمق العلائي، ومن تأخر عن التجريدة من الأمراء بالديار المصرية.

فلما كان يوم الأربعاء عاشر ذي الحجة، وهو يوم عيد النحر، خرج المقام الجمالي يوسف ولي العهد الشريف وصلى صلاة العيد بجامع القلعة، وصلى معه الأمير الكبير جقمق العلائي وغالب أمراء الدولة، ومشوا في خدمته بعد انقضاء الصلاة والخطبة، حتى جلس على باب الستارة، وخلع على الأمير الكبير جقمق وعلى من له عادة بلبس الخلع في يوم عيد النحر، ثم نزلوا إلى دورهم، وقام المقام الجمالي ونحر ضحاياه بالحوش السلطاني. هذا وقد حصل للسلطان نوب كثيرة من الصرع حتى خارت قواه ولم يبق إلا أوقات يقضيها، واستمر على ذلك والإرجاف يتواتر بموته في كل وقت، إلى أن مات قبيل عصر يوم السبت ثالث عشر ذي الحجة من سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، وسنه يوم مات بضع وستون سنة تخميناً، فارتجت القلعة لموته ساعة ثم سكنوا. وفي الحال حضر الخليفة والقضاة الأربعة والأمير الكبير جقمق العلائي وسائر أمراء الدولة، وسلطنوا المقام الجمالي يوسف ولقبوه بالملك العزيز يوسف، حسبما يأتي ذكره في محله. ثم أخذ الأمراء في تجهيز السلطان، فجهز وغسل وكفن بحضرة الأمير إينال الأحمدي الفقيه الظاهري برقوق أحد أمراء العشرات بوصية السلطان له، وهو الذي أخرج عليه كلفة تجهيزه وخرجته من مال كان الأشرف دفعه إليه في حياته، وأوصاه أن يحضر غسله وتكفينه ودفنه.

ولما انتهى أمر تجهيز الملك الأشرف حمل من الدور السلطانية إلى أن صلي عليه بباب القلعه من قلعة الجبل، وتقدم للصلاة عليه قاضي القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر، لكون الخليفة كان خلع عليه خلعة أطلسين التي خلعها عليه ملك العزيز. ثم حمل من المصلى على أعناق الخاصكية والأمراء الأصاغر، إلى أن دفن بتربته التي أنشأها بالصحراء خارج القاهرة، وحضرت أنا الصلاة عليه ودفنه، وكانت جنازته مشهودة بخلاف جنائز الملوك، ولم يقع في يوم موته اضطراب ولا حركة ولا فتنة، ونزل إلى قبره قبيل المغرب. وكان مدة سلطنته بمصر سبع عشرة سنة تنقص أربعة وتسعين يوماً، وتسلطن بعده ابنه الملك العزيز يوسف المقدم ذكره بعهد منه إليه.

وخلف الملك الأشرف من الأولاد العزيز يوسف وابناً آخر رضيعاً أو حملاً، وهما في قيد الحياة الى يومنا هذا. فأما العزيز فمسجون بثغر الإسكندرية، وأما الأخر فاسمه أحمد، عند عمه زوج أمه الأمير قرقماس الأشرفي رأس نوبة، وهو الذي تولى تربيته، ومن أجل المقام الشهابي أحمد هذا كانت الفتنة بين المماليك الأشرفية والمماليك الظاهرية في الباطن، لما أراد الظاهرية إخراجه إلى الإسكندرية. وأما من مات من أولاد الملك الأشرف فكثير، وخلف من الأموال. التحف والخيول والجمال والسلاح شيئاً كثيراً إلى الغاية. وكان سلطاناً جليلاً سيوساً مدبراً عاقلاً متجملاً في مماليكه وخيوله. وكانت صفته أشقر طويلاً نحيفاً رشيقا منور الشيبة بهي الشكل، غير سباب ولا فحاش في لفظه، حسن الخلق، لين الجانب، حريصاً على إقامة ناموس الملك، يميل إلى الخير، يحب سماع تلاوة القرآن العزيز حتى إنه رتب عدة أجواق تقرأ عنده في ليالي المواكب بالقصر السلطاني دواماً. وكان يكرم أرباب الصلاح ويجل مقامهم، وكان يكثر من الصوم في الصيف والشتاء فإنه كان يصوم في الغالب يوم الثالث عشر من الشهر والرابع عشر والخامس عشر، يديم على ذلك. وكان يصوم أيضاً أول يوم في الشهر وآخر يوم فيه، مع المواظبة على صيام يومي الاثنين والخميس في الجمعة، حتى إنه كان يتوجه في أيام صومه إلى الصيد ويجلس على السماط وهو صائم ويطعم الأمراء والخاصكية بيده، ثم يغسل يديه بعد رفع السماط كأنه واكل القوم. وكان لا يتعاطى المسكرات ولا يحب من يفعل ذلك من مماليكه وحواشيه، وكان يحب الاستكثار من المماليك حتى إنه زادت عدة مماليكه المشتروات على ألفي مملوك، لولا ما أفناهم طاعون سنة ثلاث وثلاثين ثم طاعون سنة إحدى وأربعين هذا، فمات فيها من مماليكه خلائق. وكان يميل إلى جنس الجراكسة على غيرهم في الباطن، ويظهر ذلك منه في بعض الأحيان، وكان لا يحب أن يشهر عنه ذلك لئلا تنفر الخواطر منه، فإن ذلك مما يعاب به على الملوك، وكان مماليكه أشبه الناس بمماليك الملك الظاهر برقوق في كثرتهم، وأيضاً في تحصيل فنون الفروسية، ولو لم يكن من مماليكه إلا الأمير إينال الأبو بكري الخازندار ثم المشد لكفاه فخراً، لما اشتمل عليه من المحاسن، ولم يكن في دورنا من يدانيه فكيف يشابهه؟ انتهى.

وإلى الآن مماليكه هم معظم عسكر الإسلام. وكانت أيامه في غاية الأمن والرخاء من قلة الفتن وسفر التجاريد، هذا مع طول مدته في السلطنة. وعمر

فـي أيامـه غالـب قـرى مصـر قبليهـا وبحريهـا ممـا كـان خـرب فـي دولـة الملـك الناصـر فـرج، ثـم فـي دولـة الملـك المؤيـد شـيخ لكثـرة الفتن فـي أيامهمـا، وتـرادف الشـرور والأسـفار إلـى الـبلاد الشـامية وغيرهـا فـي كـل سـنة. ومـع هـذا كلـه كـان الملـك الأشـرف منغص العـيش مـن جهـة الأميـر جانبـك الصـوفي مـن يـوم فـر مـن سـجنه بثغـر الإسـكندرية فـي سـابع شـعبان سـنة سـت وعشـرين وثمانمائـة، إلـى أن مات جانبك قبل موته في سنة أربعين وثمانمائة حسبما تقدم ذكره.

وكــان الأشــرف يتصــدى للأحكــام بنفســه، ويقتــدي فــي غالــب أمــوره بطريــق الملـك المؤيـد شـيخ، غيـر أنـه كـان يعيـب علـى المؤيـد سـفه لسـانه، إلا الملـك الأشـرف فإنـه كـان لا يسـفه علـى أحـد مـن مماليكـه ولا خدمـه جملـة كافيـة، فكـان أعظـم مـا شـتم بـه أحـداً أن يقـول لـه: حمـار وكـان ذلـك فـي الغالـب يكـون مزحـاً. ولقـد داومـت خدمتـه مـن أوائـل سـلطنته إلـى أن مـات، مـا سـمعته أفحـش فـي سـب واحـد بعينـه كـائن مـن كـان. وفـي الجملـة كانـت محاسـنه أكثـر مـن مسـاوئه. وأمـا مـا ذكـره عنـه الشـيخ تقـي الـدين المقريـزي فـي تاريخـه مـن المسـاوئ، فـلا أقـول إنه مغرض في ذلك بل أقول بقول القائل: الطويل

ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلــها ::: كفى المرء فخــراً أن تعــد معايبــه

وكـان الأليـق الإضـراب عـن تلـك المقالـة الشـنعة فـي حقـه مـن وجـوه عديـدة، غيـر أن الشـيخ تقـي الـدين كـان ينكـر عليـه أمـوراً، منهـا انقيـاده إلـى مباشـري دولتـه فـي مظـالم العبـاد، ومنهـا شـدة حرصـه علـى المـال وشـرهه فـي جمعـه. وأنـا أقـول فـي حـق الملـك الأشـرف مـا قلتـه فـي حـق الملـك الظـاهر برقـوق فيمـا تقـدم، فهـو بخيـل بالنسـبة لمـن تقدمـه مـن الملـوك، وكـريم بالنسـبة لمـن جـاء بعـده إلـى يومنـا هـذا، وما أظرف قول من قال: الكامل

مـــا إن وصـــلت إلى زمـــان آخـــر ::: إلا بكيـــت علـــى الزمـــان الأول

* * *

سلطنة العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباي الدقماقي على مصر

السلطان الملك العزيز جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبي نصر برسباي الدقماقي الظاهري الجاركسي، التاسع من ملوك الجراكسة وأولادهم، والثالث والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية. تسلطن بعد موت أبيه بعهد منه إليه، في آخر يوم السبت ثالث عشر في الحجة قبل غروب الشمس بنحو ساعة، ولبس خلعة السلطنة من باب الستارة بقلعة الجبل، وقد تكامل حضور الخليفة والقضاة والأمراء وأعيان الدولة، وبايعه الخليفة المعتضد بالله داود وفوض عليه خلعة السلطنة السواد الخليفتي، وركب من باب الستارة وجميع الأمراء مشاة بين يديه، حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل، ودخل إليه وجلس على سرير الملك وعمره يومئذ أربع عشرة سنة وسبعة أشهر. وقبل الأمراء الأرض بين يديه على العادة ونودي بسلطنته بالقاهرة ومصر. ثم أخذ الأمراء في تجهيز والده فجهز وغسل وكفن وصلي عليه، ودفن بالصحراء حسبما ذكرناه في ترجمته. ولقبوه بالملك العزيز، وتم أمره في الملك ودقت الكوسات بالقلعة.

ثم قدم كتاب نائب حلب يتضمن رحيل العساكر من حلب إلى دمشق في سادس وعشرين المحرم، وأنه قدم إلى حلب بعدهم في ثامن عشرينه، وأنه كان تخوف من الأمراء المصريين أن يقبضوا عليه فلهذا تخلف عنهم، وأنه في طاعة السلطان وتحت أوامره، فلم يجب بشيء لشغل أهل الدولة بما هم فيه من تنافر قلوب بعضهم من بعض. وقد وقع أيضاً بين المماليك الأشرفية وبين خجداشهم وأعظمهم الأمير إينال الأبو بكري الدوادار الثاني.

فلما كان يوم الاثنين ثاني عشره تجمع المماليك الأشرفية بالقلعة يريدون قتل الأمير إينال الأبو بكري المقدم ذكره، ففر منهم بحماية بعضهم له، ونزل إلى داره. فوقفوا خارج القصر وسألوا الأمير جقمق بأن يكون هو المستبد في الأمر والنهي والتحكم في الدولة، وأن ترفع يد إينال وغيره من الحكم في المملكة، فأجاب إلى ذلك ووعدهم بكل خير، ونزل. وقد اتسع للأتابك جقمق - بهذا الكلام - الميدان، ووجد لدخوله في المملكة باباً كبيراً؛ فإنه كان عظم جمعه قبل ذلك لكنه كان تخشى كثرة المماليك الأشرفية، فلما وقع الآن بينهم المباينة خف عنه أمرهم قليلاً وقوي أمره، كل ذلك ولم يظهر منه الميل للوثوب على الملك العزيز بالكلية، غير أنه يوافق القوم في الإنكار على فعل المماليك الأشرفية وكثرة شرورهم لا غير. ولما كان صباح النهار

المذكور، وهو يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر، وقف جماعة من الأشرفية تحت القلعة بغير سلاح، ووقع بينهم وبين خجداشيتهم الذين هم من طبقة الأشرفية من إنيات إينال وإخوته وقعة هائلة بالدبابيس، ثم انفضوا وعادوا من الغد في يوم الأربعاء إلى مكانهم بسوق الخيل.

فلما وقع ذلك تحقق المماليك القرانيص وقوع الخلف بين المماليك الأشرفية، فقاموا عند ذلك وتجمعوا عند الأمير الكبير، ومعهم الأمير إينال المذكور بإنياته وخجداشيته من المماليك الأشرفية وهم جمع كبير أيضاً، وتكلموا مع الأمير الكبير بالقيام في نصرة إينال المذكور - وليس ذلك مرادهم وإنما قصدهم غير ذلك، لكنهم لم يجدوا مندوحة لغرضهم أحسن من هذه الحركة - وأظهروا الميل الكلي إلى نصرة إينال، وصاروا له أصدقاء وهم في الحقيقة أعدى العدى. فمال الأتابك جقمق إلى نصرة إينال لكوامن كانت عنده من القوم، وقد صار بهذه القضية في عسكر هائل وجمع كبير من المماليك الظاهرية برقوق وهم خجداشيته، والمماليك الناصرية فرج والمماليك المؤيدية شيخ والسيفية وعالم كبير من المماليك الأشرفية أصحاب إينال.

وبقي العسكر قسمين: قسم مع الأمير الكبير جقمق، وهم من ذكرنا ومعظم الأمراء من مقدمي الألوف، وغالب أمراء الطبلخانات والعشرات، ما خلا جماعة من أمراء الأشرفية، وقسم آخر بالقلعة عند السلطان الملك العزيز، وهم أكثر المماليك الأشرفية، وعندهم الخليفة والخزائن والزردخانة، إلا أنهم جهال بمكائد الأخصام ووقائع الحروب، لم تمر بهم التجارب ولا مارسوا الوقائع، وأعظم من هذا أنهم لم يقربوا أحداً من الأكابر وأرباب المعرفة، فضلوا وأضلوا وذهبوا وأذهبوا وأضعفوا بسوء تدبيرهم قواهم، وتركوا الملك باختلاف آرائهم لمن عداهم، على ما سيأتي بيان ذلك كله في محله.

هذا، وكل من الطائفتين يدعي طاعة الملك العزيز، غير أن الخصم هو إينال، وقد التجأ إلى الأمير الكبير جقمق نظام الملك فقبله الأمير الكبير بمن معه، وقام في الظاهر بنصرة إينال أتم قيام، وفي الحقيقة إنما هو قام بنصرة نفسه، وقد ظهر ذلك لكل أحد حتى لإينال، غير أنه صار يستبعد ذلك لعظم خديعة جقمق له، وأيضاً لأنه أحوجه الدهر أن يكون من حزبه.

ولما وقع ذلك استفحل أمر الأتابك، وتكاثف جمعه، ومعظم من قام في هذه القضية معه المماليك المؤيدية، وقد أظهروا ما كان في ضمائرهم من الأحقاد القديمة في الدولة الأشرفية، وأخذوا في الكلام مع الأتابك وتقوية جانبه على الوثوب بالمماليك الأشرفية الذين بقلعة الجبل، وهو يتثاقل عن ذلك حتى يتحقق من أمرهم ما يثق به،

وصار يعتذر لهم بأعذار كثيرة: منها قلة المال والسلاح، وأن الذين بقلعة الجبل أقوياء بالقلعة والمال والسلطان والسلاح. فقالوا: هو ما قلت، غير أن هؤلاء جهلة لا يدرون الوقائع ولا مقاومة الحروب ولا أمر العواقب، ونحن أعرف بذلك منهم، وجمعنا يقاتل معك من غير أن تبذل لهم الأموال.

ولا زالوا به حتى أذعن لهم، بعد أن بلغه عن بعضهم أنه يقول عنه: " الأمير الكبير دقن المرأة "، وأشياء غير ذلك، كونه لا يوافقهم على الركوب، وأنهم يقولون: " إن كان الأمير الكبير ما يوافقنا أقمنا لنا أستاذاً غيره ".

ولما وافقهم الأمير الكبير على الركوب، أشاروا عليه بعدم الطلوع إلى الخدمة السلطانية من الغد في موكب يوم الخميس خامس عشر صفر، فقبل منهم ذلك. وأصبح يوم الخميس المذكور وقد كثر جمعه، وتحول من داره التي تجاه الكبش على بركة الفيل إلى بيت نوروز الحافظي تجاه مصلاة المؤمني، وقد اجتمع عليه خلائق من المماليك من سائر الطوائف وعليهم السلاح الكامل وآلة الحرب. وقبل أن يركب الأمير الكبير جقمق عند وضع رجله في الركاب قال: " هذا دقن المرأة بيركب حتى نبصر إيش تفعل الرجال الفحوله " فصاحوا بأجمعهم: لا نقاتل بين يديك إلى أن نفنى أو ينصرك الله على من يعاديك ".

ثم سار بجموعه حتى وافى البيت المذكور فوقف على باب الدار، وقد اجتمع عليه جمع من المماليك والزعر والعامة، فوعدهم الأمير الكبير بالنفقة والإحسان إليهم. كل ذلك ولم يقع إلى الآن قتال. فلما تحقق المماليك الأشرفية ركوب الأمير الكبير، ورأوهم من أعلى قلعة الجبل، أخرجوا السلطان من الدور إلى القصر المطل على الرميلة واجتمعوا عليه بالقصر وغيره، وقد لبسوا السلاح أيضاً.

وكان كبراء الأشرفية الذين بالقلعة عند الملك العزيز، من أمراء الأشرفية وغيرهم جماعة: منهم الأمير يخشباي الأشرفي الأمير آخور الثاني، وعلي باي شاد الشراب خاناه وتنبك النوروزي المعروف بالجقمقي نائب قلعة الجبل، وخشكلدي من سيدي بك الناصري رأس نوبة، وكزل السودوني المعلم رأس نوبة، وجكم الخازندار خال الملك العزيز، وجماعة أخر ممن تأخر في أمسه من المماليك الأشرفية، ومعظم الخاصكية الأشرفية، أصحاب الوظائف وغيرهم، ما خلا من نزل منهم مع الأمير إينال الأبو بكري. واستعدوا لقتال الأمير الكبير ومن معه، وباتوا تلك الليلة، بعد أن تناوشوا في بعض الأحيان بالرمي بالنشاب، ولم يقع قتال في مقابلة. وأصبحوا يوم الجمعة سادس عشر صفر على ما باتوا عليه. واستمر كل طائفة من الفريقين على تعبيتهم إلى بعد صلاة العصر، فزحف أصحاب الأمير الكبير إلى باب القرافة،

وهدموا جانباً من سور ميدان القلعة وغيره، ودخلوا إلى الميدان، فنزل إليهم طائفة من السلطانية ركباناً ومشاة وقاتلوهم مواجهة، حتى هزموهم وأخرجوهم من الميدان. وتراموا بالنشاب ساعة فحال بينهم الليل، وبات كل طائفة منهم على حذر. وتوجهت الأشرفية الذين بالقلعة، وفتحوا باب الزردخانة السلطانية، وأخذوا من السلاح الذي بها ما أرادوا، ونصبوا مكاحل النفط على سور القلعة، وأخذوا في أهبة القتال.

حتى أصبحوا يوم السبت سابع عشر صفر، وقد استفحل أمر السلطانية من عصر أمسه، فتجمعت الجقمقية وابتدؤوا بقتال السلطانية، فوقع بين الطائفتين قتال بالنشاب والنفوط، فهلك من العامة خلائق ممن كان من حزب الأمير جقمق؛ كل ذلك وأمر السلطانية يقوى إلى بعيد الظهر، فلاح عليهم الخذلان من غير أمر يوجب ذلك، ومشت القضاة بين السلطان والأمير الكبير جقمق غير مرة في الصلح والكف عن القتال وحقن دماء المسلمين، وإخماد الفتنة.

هذا وقد ترجح جهة الأمير الكبير جقمق، وطمعت عساكره في السلطانية، فقال الأمير الكبير: " أصطلح بشرط أن يرسل السلطان إلي بأربعة نفر، وهم: جكم خال الملك العزيز الخازندار، وتنم الساقي، وأزبك البواب، ويشبك الفقيه الأشرفي الدوادار "؛ فأذعن السلطان ومن عنده لذلك بعد كلام كثير، فنزل الأربعة من القلعة، بعد صلاة العصر من يوم السبت المذكور، مع من كان تردد في الصلح، وساروا حتى دخلوا بيت الأمير الكبير، فحال وقع بصره عليهم قبض عليهم واحتفظوا بهم.

وركب الأمير الكبير فرسه وساروا معه أعيان أصحابه إلى أن صار في وسط الرميلة تجاه باب السلسلة، فنزل عن فرسه بعد أن فرش له ثوب سرج جوخ، وقبل الأرض بين يدي السلطان الملك العزيز لكونه أرسل إليه أخصامه، ثم ركب في أصحابه وعاد إلى بيته بالكبش ومعه المقبوض عليهم، إلى أن نزل بداره في موكب جليل إلى الغاية.

وأخذ أمر الأمير الكبير جقمق من هذا اليوم في زيادة وقوة، وأمر الملك العزيز ومماليك أبيه الأشرفية في نقص ووهن وإدبار.

وأصبح بكرة يوم الأحد ثامن عشر صفر أرسل الأمير الكبير إلى السلطان في طلب جماعة أخر من المماليك الأشرفية، فنزل إليه الأمير يخشباي الأمير آخور الثاني، والأمير علي باي شاد الشراب خاناه، وهما من عظماء القوم والمشار إليهما من القلعة الأشرفية، وقبلا يد الأمير الكبير جقمق، فأكرمهما الأمير الكبير ووعدهما كل خير. ثم أمر في الحال بطلب الأمير الطواشي خشقدم اليشبكي مقدم المماليك السلطانية فحضر إليه وقبل يده، فأمره الأمير الكبير أن يتقدم بنزول جميع من في

الأطباق من المماليك الأشرفية وهدده إن لم يفعل ذلك، فاستبعد الناس وقوع ذلك لكثرة المماليك الأشرفية وشدة بأسهم.

فحالما طلع خشقدم وأمرهم بالنزول أجابه الجميع بالسمع والطاعة. ونزل صبيان طبقة بعد طبقة إلى بيت الأمير الكبير، وقد حضر عنده قضاة القضاة الأربعة وأهل الدولة وأعيانها، وحلفوا الأمير الكبير على طاعة السلطان، ثم حلفوا المماليك الأشرفية على طاعة الأمير الكبير، وحكم قاضي القضاة سعد الدين بن الديري الحنفي بسفك دم من خالف هذا اليمين..

وعند انقضاء الحلف، أمر الأمير الكبير بنزول جميع المماليك الأشرفية من أطباقهم بالقلعة إلى إسطبلاتهم، ما خلا المماليك الصغار، فاعتذروا عن قلة مساكنهم بالقاهرة، فلم يقبل الأمير الكبير أعذارهم وشدد عليهم، والناس تظن غير ذلك، فخرجوا. وفي الحال أخذوا في تحويل متاعهم ونزلوا من الأطباق، بعد أن ظن كل أحد منهم أنه لا بد له من إثارة فتنة وشر كبير تسفك فيه دماء كثيرة قبل نزولهم، فلم يقع شيء من ذلك، ونزلوا من غير قتال ولا إكراه؛ وخلت الطباق منهم في أسرع وقت خذلاناً من الله تعالى، وتركوا السلطان والخزائن والسلاح والقلعة، ونزلوا من غير أمر يوجب النزول، وهم نحو الألف وخمسمائة نفر، هذا خلاف من كان انضم عليهم من الناصرية والمؤيدية والسيفية. ولله در القائل: السريع

ما يفعل الأعداء في جاهل ::: ما يفعل الجاهل في نفسه

وتعجب الناس من نزولهم، حتى الأمير الكبير جقمق. وصار يتحدث بذلك أوقاتاً في سلطنته؛ فإنه كان أولاً تخوف منهم أن يقبضوا عليه عند طلوعه إلى القلعة غير مرة، ولهج الناس بذلك كثيراً، وبلغ الأتابك أنهم يريدون أن يقبضوا عليه وعلى عبد الباسط وعلى الصاحب جمال الدين ناظر الخاص، فقال: وإيش يمنعهم من ذلك. وانقطع عن الخدمة السلطانية أياماً، حتى كلمه أصحابه في الطلوع وشجعوه وقالوا له: نحن نطلع في خدمتك ولا يصيبك مكروه حتى تذهب أرواحنا. كل ذلك قبل أن يقع الشر بين الأمير إينال وخجداشيته؛ فهذا كله ذكرناه لتعرف به شدة بأس المماليك الأشرفية وكثرة عددهم.

فلما تكامل نزول المماليك الأشرفية من الأطباق إلى حال سبيلهم، كان هذا أول مبدأ زوال ملك السلطان الملك العزيز يوسف. ومن يومئذ أخذ الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي في الندم بما وقع منه من الانفراد عن خجداشيته والانضمام على الأتابك جقمق، حتى إنه صار يبكي في خلواته ويقول: " ليتني كنت حبست بثغر الإسكندرية، ودام تحكم ابن أستاذي وخجداشيتي. وما عسى خجداشيتي كانوا يفعلون بي؟ ". وندم

حيث لا ينفع الندم. وربما بلغ الأمير الكبير عنه ذلك فأخذ يحلف له أنه لا يريد الوثوب على السلطنة، ولا خلع الملك العزيز، وأنه لا يريد إلا يكون نظام ملكه ومدبر ممالكه، وأشياء غير ذلك.

ثم في يوم الخميس ثاني وعشرين صفر طلع الأمير الكبير جقمق إلى الخدمة السلطانية ومعه سائر الأمراء وأرباب الدولة، ومنع المماليك الأشرفية من الدخول إلى قصر في وقت الخدمة، إلا من له نوبة عند السلطان من أصحاب الوظائف، وكان الأتابك جقمق شرط عليهم ذلك عند تحليفهم.

وحضر الأمير الكبير الخدمة، وخلع عليه السلطان تشريفاً عظيماً باستمراره على حاله. ونزل من وقته إلى باب السلسلة، وسكن الحراقة من الإسطبل السلطاني بعد، نقل إليها قماشه ورخته في أمسه، وبعد أن أمر الأمير يخشباي الأمير أخور الثاني بالنزول من الإسطبل إلى بيته قبل تاريخه. فنزل يخشباي إلى داره، وكانت دار قطلوبغا الكركي التي تجاه دار منجك اليوسفي بالقرب من الجامع الحسيني، وجلس وأغلق عليه باب الدار، ومنع الناس من التردد إليه، وصار كالمرسم عليه؛ وهذا أيضاً من أعجب العجب، كون الشخص يكون على إقطاعه ووظيفته ويصير على هذه المثابة.

وسكن الأمير الكبير بالسلسلة وتصرف في أمور المملكة من غير مشارك، واستبد بتدبير أحوال السلطنة من ولاية الوظائف والإنعام بالإقطاعات والإمريات على من يريد ويختار، فصار الملك العزيز ليس له من السلطنة إلا مجرد الاسم فقط. فعظم ذلك على المماليك الأشرفية، وأنكروا سكنى الأمير الكبير بباب السلسلة، واتفقوا ووقفوا في جمع كبير بالرميلة وأكثروا من الكلام في ذلك، ثم انفضوا من غير طائل وفي أملهم أن الأمراء إذا قدموا من سفرهم أنكروا على الأمير الكبير ما فعله وقاموا بنصرة الملك العزيز، وانتظروا ذلك.

وأخذ الأتابك جقمق في تحصين باب السلسلة والقلعة وأشحنهما بالسلاح والرجال، وصارت الأعيان من كل طائفة تبيت عنده بباب السلسلة في كل ليلة، والأمراء والأعيان تتردد إلى خدمته. وتركت الخدمة السلطانية، واحتج الأمير الكبير بتركها أنه بلغه أن المماليك الأشرفية اتفقوا على قتله إذا طلع إلى الخدمة السلطانية، وجعل ذلك عذراً له عن عدم حضور الخدمة. وصار هو المخدوم والمشار إليه، وتردد مباشرو الدولة إلى بابه وسائر الناس، وتلاشى أمر السلطان الملك العزيز إلى الغاية. ولهج الناس بسلطنة الأتابك جقمق، وشاع ذلك بين الناس. وصار الأتابك كلما بلغه فلك أنكره وأسكت القائل بذلك ولسان حاله ينشد: الكامل

لا تـنطقن بحـادث فلربمـا ::: نطـق اللسـان بحـادث فيكـون

هذا والأتابك جقمق متخوف في الباطن من الأمراء المجردين، لكونهم جمعاً كبيراً وفيهم جماعة من حواشي الملك الأشرف ومماليكه، مثل أركماس الظاهري الدوادار الكبير، وتمراز القرمشي رأس نوبة النوب، وجانم الأشرفي الأمير آخور الكبير، وقراجا الأشرفي، وخجا سودون السيفي بلاط الأعرج، وفيهم أيضاً من تحدثه نفسه بالوثوب على الأمر وهو الأمير قرقماس الشعباني الناصري أمير سلاح المعروف بأهرام ضاغ، فلهذا صار الأتابك جقمق يقدم رجلاً ويؤخر أخرى.

ثم قدم الخبر بخروج الأمراء من مدينة غزة إلى جهة الديار المصرية، وأن خجا سودون البلاطي أحد مقدمي الألوف تأخر عنهم على عادته في كل سفرة، فندب الأتابك السيفي دمرداش الحسني الظاهري برقوق الخاصكي بالتوجه إلى غزة، وعلى يده مرسوم شريف بتوجه خجا سودون إلى القدس بطالاً، فمضى دمرداش المذكور وفعل ما ندب إليه.

فلما كان يوم الأربعاء خامس شهر ربيع الأول وصل الأمراء إلى الديار المصرية، وطلعوا الجميع إلى الأتابك جقمق، ما خلا الأمير يشبك السودوني حاجب الحجاب، فإنه قدم القاهرة في الليل مريضاً في محفة إلى داره. ولم ينزل الأتابك إلى تلقي الأمراء المذكورين؛ وكان أرسل إليهم يخوفهم من المماليك الأشرفية، وذكر لهم أنهم يريدون الركوب عليهم يوم دخولهم، فدخلوا الجميع بأطلابهم. ولما طلعوا إلى جقمق قام لهم واعتنقهم وأكرمهم غاية الإكرام.

ثم أصبحوا يوم الخميس سادس شهر ربيع الأول حضروا الجميع إلى عند الأتابك جقمق بباب السلسلة، وجلس الأتابك في الصدر وكل من الأمراء على يمينه وشماله، إلا قرقماس أمير سلاح فإنه زاحم الأتابك جقمق في مجلسه وجلس معه على فراشه، والأمير جقمق يجذبه إلى عنده ويخدعه بأنه لا يفعل شيئاً إلا بمشورته، وأنه قوي أمره بقدومه، وأنه شيخ كبير عاجز عن الحركة واقتحام الأهوال، إلا إن كان بقوة قرقماس المذكور. كل ذلك وهما جلوس على المرتبة، فانخدع قرقماس وطابت نفسه بما سمعه من الأتابك جقمق، أنه ربما إن تحرك بعد ذلك بحركة تمت له لضعف جقمق عن مقاومته.

وأول ما بدأ برفيقه الأمير جانم الأشرفي الأمير آخور الكبير، ثم أشار لواحد بعد واحد إلى أن قبضوا على جماعة كبيرة من الأمراء والخاصكية، وهم: الأمير جانم المقدم ذكره، ويخشباي الأمير آخور الثاني، وعلي باي شاد الشراب خاناه، وتنبك السيفي نوروز الخضري المعروف بالجقمقي نائب قلعة الجبل، وخشقدم الطواشي

الرومي اليشبكي مقدم المماليك، ونائبه الطواشي فيروز الركني الرومي أيضاً، وخشكلدي من سيدي بك الناصري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وجكم خال الملك العزيز، وجرباش الأشرفي أحد أمراء العشرات المعروف بمشد سيدي وجانبك قلق سيز الساقي أحد أمراء العشرات؛ ومن الخاصكية: تنم الساقي، وأزبك البواب، ويشبك الفقيه - وكل من هؤلاء الثلاثة أحد الأربعة المقدم ذكرهم - وتنبك الفيسي المؤيدي رأس نوبة الجمدارية، وأرغون شاه الساقي، وبيرم خجا أمير مشوي، ودمرداش الأشرفي والي القاهرة، وبايزير خال الملك العزيز، وقيدوا الجميع.

ثم انفض الموكب وقد تزايد عظمة الأمير الكبير جقمق، وهابته النفوس بما فعله قرقماس بين يديه من القبض على الأمراء المذكورين. وفهم الناس أنه فعل ذلك خدمة للأمير الكبير، وكان غرض قرقماس غير ذلك، فإنه رام نفع نفسه فنفع غيره، فكان حاله كقول من قال: " مع الخواطىء سهم صائب " وكقولهم: " رب رمية من غير رام ".

ونزل الأمراء إلى دورهم، وقد استخف الناس عقل قرقماس وخفته وطيشه في سرعة ما فعله، كل ذلك لاقتحامه على حب الرئاسة. ونزل قرقماس إلى دار وفي زعمه أن جميع من هو بخدمة الأمير الكبير ينقلبون عن الأمير الكبير إليه، ويترددون إلى بابه لأنه هو كان الحاكم في هذا اليوم، ولم يدر أن القلوب نفر منه لتحققهم ما يظنوه من كبره وجبروته وبطشه، وقد اعتادوا بلين الأمير الكبير وبأخذه لخواطرهم في هذه المدة، وتمسكه عن قبض من كان لهم غرض؛ قبضه، وقد صاروا له كالمماليك والخدم لطول ترددادهم إليه في باب السلسلة وغيرها، وقد انتهى أمره وحصل لهم ما كان في أملهم، وأيضاً أنهم لما رأوا قرقماس فعل ما فعل لم يشكوا في أمره أنه من جملة من يقوم بنصرة الأتابك وأنه كواحد منهم، فلم يطرق أحد منهم بابه ولم يدخل إليه في ذلك اليوم إلا من يلوذ به من حواشه ومماليكه.

وسافر تمرباي نائب الإسكندرية من الغد في يوم الجمعة. وأصبح في يوم السبت ثامن شهر ربيع الأول انزل من باب السلسلة من تقدم ذكره من الأمر الخاصكية الممسوكين على البغال بالقيود إلى سجن الإسكندرية، وقد اجتمع لرؤيتهم خلائق لا تحصى وهم قسمان: قسم باق عليهم، وقسم شامت لتقاعدهم عن القتال في خدمة ابن أستاذهم الملك العزيز يوسف، وأيضاً لما كان يقع منهم في أيام أستاذهم من التكبر والجبروت.

ثم أرسل الأمير الكبير في اليوم المذكور إلى الأمراء القادمين من التجريدة بمال كبير له صورة، لا سيما ما حمله إلى قرقماس فإنه كان جملة مستكثرة.

ثم أصبح يوم الخميس ثالث عشر شهر ربيع الأول عملت الخدمة السلطانية وحضرها الأمير الكبير جقمق والأمير قرقماس أمير سلاح المذكور، وعامة الأمراء أرباب الدولة على العادة.

وكانت الخدمة السلطانية قد تركت من مدة أيام، فأجراهم السلطان الملك لعزيز على عادته من السكات وعدم الكلام، وانفض الموكب.

ثم طلع الأمير قرقماس من الغد في يوم الجمعة وحضر الصلاة مع السلطان بالمقصورة من جامع القلعة، ولم يطلع الأتابك جقمق. ونزل قرقماس ولم يتكلم مع السلطان كلمة واحدة.

ثم في يوم السبت عملت الخدمة أيضاً بالقصر على العادة، وحضر الأمير الكبير.

ثم في يوم الاثنين عملت الخدمة أيضاً.

كل ذلك بتدبير قرقماس؛ وهو أنه لما علم أن الأمير الكبير جقمق تم أمره ولم يبق له منازع يعيقه عن السلطنة، أخذ في عمل الخدمة حتى يجد نفساً من الملك العزيز أو من أحد من حواشيه، حتى تصير له مندوحة لمطاولة الأتابك على السلطنة، لأنه ندم على ما تفوه به ولم يجد لنفسه قوة حتى يرجع عن قوله، لقوة شوكة الأتابك وكثرة أعوانه ممن اجتمع عليه من الطوائف، لا سيما الطائفة المؤيدية، فإنهم صاروا عصباً له وغيرية على قرقماس، لما كان بين قرقماس وبين الأمير دولات المحمودي المؤيدي من العداوة قديماً، لسبب السكات عنه أليق، ودولات هو يومذاك عين المؤيدية ورئيسهم، غير أن جميع طائفة الناصرية كانت مع قرقماس في الباطن لكونه خجداشهم، ولكن هم أيضاً ممن كان انضم على الأتابك وصار لهم به إلمام كبير، فلم يظهروا الميل لقرقماس قي الظاهر مخافة أن لا يتم أمره وينحط قدرهم عند الأتابك؛ فصاروا يلاحظونه بالقلب والخاطر لا بالفعل والقيام معه، والأتابك جقمق يعرف جميع ذلك، غير أنه يتجاهل عليهم تجاهل العارف، لقضاء حاجته - انتهى.

ولما عملت الخدمة في هذه الأيام ولم يحصل لقرقماس غرضه، عاد إلى رأيه الأول من الكلام في سلطنة الأتابك جقمق. وألح عليه حتى أجابه صريحاً. وكان في هذه الأيام كلها كلما طلع الأمراء إلى الخدمة السلطانية، ينزل الجميع من القصر بعد انقضاء الخدمة إلى الأمير جقمق ويأكلون السماط عنده.

فلما كان آخر خدمة عملت عند الملك العزيز يوسف في يوم الاثنين سابع عشر شهر ربيع الأول، نزل قرقماس من عند السلطان مع جملة الأمراء، واجتمع بالأمير الكبير وألح عليه بأنه يتسلطن في اليوم المذكور، فلم يوافقه جقمق على ذلك وواعده على يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول.

ووافقه جميع الأمراء على خلع الملك العزيز وسلطنته، إلا آقبغا التمرازي فإنه أشار عليه أن يؤخر ذلك ويتجرد إلى البلاد الشامية ويمهدها، كما فعل الملك الظاهر ططر، ثم يتسلطن، مخافة من عصيان النواب بالبلاد الشامية عليه عقيب سلطنته، قبل أن يرسخ قدمه؛ فرد قوله قرقماس، وأشار بسلطنته في يوم الأربعاء، ووافقه على ذلك جماعة المؤيدية، فتم الأمر على ما قاله قرقماس.

وكان الحزم ما قاله آقبغا التمرازي؛ وبيانه أنه لولا أن سعد الملك الظاهر جقمق حرك قرقماس للركوب في غير وقته، لكان قرقماس انتصر عليه لكثرة من كان انضم عليه من المماليك الأشرفية وغيرهم؛ وأيضاً لولا استعجال إينال الجكمي في صدمته العساكر المصرية، لكان تم أمره لعظم ميل الناس إليه.

وأما تغري برمش نائب حلب فكان مسكه على غير القياس؛ فإنه كان تركمانياً ووافقه جماعة كبيرة من التركمان، مع قوته وكثرة ماله، فكان يمكنه أن يتعب الملك الظاهر جقمق بتلك البلاد طول عمره، فلهذا أشار آقبغا التمرازي بسفره قبل سلطنته. وقد حسب البعيد ونظر في العواقب، فلم يسمع الملك الظاهر له وتسلطن، وقاسى بعد ذلك شدائد وأهوالاً، أشرف منها غير مرة على زوال ملكه، لولا مساعدة المقادير وخدمة السعد، لما سبق له في القدم.

ولما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة خلع الملك العزيز يوسف من الملك، وتسلطن الأمير الكبير جقمق العلائي، وتلقب بالملك الظاهر، حسبما يأتي ذكره في أوائل سلطنته. وكانت مدة سلطنة الملك العزيز على مصر أربعة وتسعين يوماً. وزال بخلعه الدولة الأشرفية، وتمزقت مماليك أبيه وتشتتت في البلاد سنين، وحبس أعيانهم.

ولم يكن للملك العزيز في السلطنة إلا مجرد الاسم فقط، ولم تطل أيامه ولا تحكم في الأمور لتشكر أفعاله أو تذم، وإنما كان آلة في الملك والمتصرف غيره، لصغر سنه وعدم أهلية مماليك أبيه.

ولما خلع الملك العزيز، أدخل إلى الدور السلطانية واحتفظ به وسكن بقاعة البربرية أشهراً، حتى تسحب منها ونزل إلى القاهرة واختفى أياماً كثيرة، حتى ظفر به وحبس بالقلعة أياماً قليلة، ثم نقل إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتي ذكر ذلك كله مفصلاً في ترجمة الملك الظاهر جقمق إن شاء الله تعالى.

واستمر الملك العزيز بسجن الإسكندرية على أجمل حال وأحسن طريقة من طلب العلم وفعل الخير إلى يومنا هذا؛ أحسن الله عاقبته بمحمد وآله. وهو ثاني سلطان لقب بالملك العزيز من ملوك مصر، والأول: العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والثاني: العزيز هذا. وهو أيضاً ثاني من سمي يوسف من ملوك مصر، فالأول السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، والثاني هذا، والله تعالى أعظم.

* * *

سلطنة الظاهر أبي سعيد جقمق

السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري الجركسي، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والعاشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي، باتفاق الأمراء وأعيان المملكة على سلطنته.

ولما تم أمره استدعي الخليفة المعتضد بالله داؤد والقضاة الأربعة والأمير قرقماس أمير سلاح وسائر الأمراء وجميع أعيان الدولة إلى الحراقة بباب السلسلة من الإسطبل السلطاني، وجلس كل واحد في مجلسه. فافتتح الأمير قرقماس بالكلام مع الخليفة والقضاة بأن قال: " السلطان صغير، والأحوال ضائعة لعدم اجتماع الكلمة في واحد بعينه. ولابد من سلطان ينظر في مصالح المسلمين وينفرد بالكلمة، ولم يكن يصلح لهذا الأمر سوى الأمير الكبير جقمق هذا ". فقال جقمق: " هذا لا يتم إلا برضا الأمراء والجماعة ". فصاح الجميع: " نحن راضون بالأمير الكبير ". فعند ذلك مد الخليفة يده وبايعه بالسلطنة؛ ثم بايعه القضاة والأمراء على العادة.

ثم قام من فوره إلى مبيت الحراقة، ولبس الخلعة الخليفتية السوداء، وتقلد بالسيف، وخرج ركب فرسا أعد له بأبهة السلطنة وشعار الملك، وحملت على رأسه القبة والطير، حملها الأمير قرقماس أمير سلاح، والأمراء مشاة بين يديه، وسار إلى أن طلع إلى القصر السلطاني بقلعة الجبل، وجلس على تخت الملك، وقبل الأمراء الأرض بين يديه على العادة.

وكان جلوسه على تخت الملك في يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة، على مضي سبع عشرة درجة من النهار المذكور، والطالع برج الميزان بعشر درجات وخمس وعشرين دقيقة، وكانت الشمس في السادس والعشرين من السنبلة، والقمر في العاشر من الجوزاء، وزحل في الثاني والعشرين من الحمل، والمشتري في السابع عشر من القوس، والمريخ في الخامس من الميزان، والزهرة في الحادي عشر من الأسد، وعطارد في الرابع عشر من السنبلة، والرأس في الثاني من الميزان.

* * *

أصل الملك الظاهر جقمق

وقدومه إلى مصر ونسبته بالعلائي ثم بالظاهري فنقول: كان جاركسي الجنس، وأخذ من بلاده صغيراً فاشتراه خواجا كزلك وكزلك بفتح الكاف وسكون الزاي وفتح اللام وكسرها وسكون الكاف الثانية. وجلبه خواجا كزلك المذكور إلى الديار المصرية فابتاعه منه الأتابك إينال اليوسفي، وقيل ولده أمير علي بن إينال المذكور وهو الأصح، ورباه عنده، وأرسله مع والدته إلى الحج. ثم عاد جقمق إلى القاهرة في خدمة والدة أمير علي المذكور، وكانت والدة أمير علي متزوجة بشخص من الأجناد من أمير آخورية السلطان يسمى نغتاي. ونغتاي بفتح النون والغين المعجمة، وبعدهما تاء مفتوحة وألف وياء ساكنة.

ولما قدم جقمق إلى القاهرة أقام بها مدة يسيرة، وتعارف مع أخيه جاركس القاسمي المصارع، وكان جاركس يوم ذاك من أعيان خاصكية أستاذه الملك الظاهر برقوق، فكلم جاركس الملك الظاهر برقوقاً في أخذ جقمق هذا من أستاذه أمير علي بن إينال، فطلبه الملك الظاهر منه في سرحة سرياقوس، وأخذه وأعطاه لأخيه جاركس، إنياً بطبقة الزمام من قلعة الجبل. وقد اختلفت الأقوال في أمر عتقه: فمن الناس من قال إن أمير علي كان أعتقه قبل أن يطلبه الملك الظاهر منه، فلما طلبه الملك الظاهر سكت أمير علي عن عتقه لتنال جقمق السعادة بأن يكون من جملة مشتروات الملك الظاهر، وكان كذلك. وهذا القول هو الأقوى والمتواتر بين الناس ولما يأتي بيانه.

ومن الناس من قال إنه كان في الرق، وقدمه أمير علي إلى الملك الظاهر لما طلبه منه، ولو كان حراً يوم ذاك لاعتذر بعتقه. وهذا أيضاً مقبول، غير أن الذي يقوي القول الأول يحتج بأن الملك الظاهر جقمق هذا لما كان أمير طبلخاناه وخازنداراً في الدولة المؤيدية شيخ، أخذ الشهابي أحمد بن أمير علي بن إينال اليوسفي وهو صغير، ووقف به إلى السلطان الملك المؤيد، وسأل السلطان فيه ليكون من جملة المماليك السلطانية، فسأل المؤيد عن أحمد المذكور فقال جقمق: " يا خوند، هذا ابن استاذي أمير علي "، فقال المؤيد: " ومن أين يكون هذا ابن استاذك؟ الملك الظاهر أعتقك بحضرتنا الجميع، وأخرج لك خيلاً على العادة ". فقال جقمق: " نعم هو كما قال السلطان، غير أن أمير علي كان أعتقني قبل ذلك، وسكت عن عتقي لما طلبني الملك الظاهر منه ". فغضب الملك المؤيد من ذلك ووبخه، كونه أنكر عتاقة الملك الظاهر له واعترف بعتاقة أمير علي، ولم ينزل لذلك أحمد المذكور في جملة المماليك السلطانية، فأخذه جقمق عنده وتولى تربيته.

* * *

ما وقع له من ابتداء أمره إلى أن تسلطن

فنقول: واستمر جقمق هذا عند أخيه بطبقة الزمام مدة يسيرة، وأعتقه الملك الظاهر برقوق، وأخرج له خيلاً وقماشاً على العادة بمفرده؛ وهو أن بعض المماليك السلطانية من طبقة الزمام المذكورة توفي، فقام جاركس في مساعدة أخيه جقمق هذا حتى أخذ له جامكيته وخيله. وأعتقه الملك الظاهر، ثم جعله بعد قليل خاصكياً، كل ذلك بسفارة أخيه جاركس المذكور. واستمر جقمق خاصكياً إلى مات الظاهر برقوق، وصار ساقياً في سلطنة الملك الناصر فرج، ثم تأمر عشرة، إلى أن خرج أخوه جاركس عن طاعة الملك الناصر فرج فأمسك السلطان جقمق هذا، وحبسه بواسطة عصيان أخيه، فدام في السجن إلى أن شفع فيه الوالد وجمال الدين يوسف الأستادار وأطلق من السجن. ثم قتل جاركس فانكف جقمق هذا عن الدولة بتلطف، إلى أن قتل الملك الناصر، وملك شيخ المحمودي الديار المصرية، فأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم نقله بعد سلطنته بمدة إلى إمرة طبلخاناه، جعله خازنداراً كبيراً بعد انتقال الأمير يونس الركني إلى نيابة غزة. ثم نقل إلى إمرة مائة وتقدمة ألف في دولة المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ. ثم صار حاجب الحجاب بعد الأمير طرباي، في أواخر الدولة الصالحية محمد أو في أوائل الدولة الأشرفية برسباي. ثم نقل إلى الأمير آخورية الكبرى عوضاً عن الأمير قصروه من تمراز، بحكم انتقال قصروه إلى نيابة طرابلس في أوائل صفر من سنة ست وعشرين وثمانمائة، وتولى الحجوبية من بعده الأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق. ثم نقل من الأمير آخورية إلى إمرة سلاح بعد إينال الجكمي، واستقر عوضه في الأمير آخورية الأمير حسين بن أحمد البهسني التركماني المدعو تغري برمش. ودام على ذلك سنين إلى أن نقل إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية. عوضاً عن إينال الجكمي أيضاً بحكم انتقال الجكمي إلى نيابة حلب، بعد عزل قرقماس الشعباني وقدومه على إقطاع إينال الجكمي مقدم ألف بالقاهرة. فاستمر أتابكاً إلى أن مات الملك الأشرف برسباي في ذي الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة، بعد أن أوصى جقمق على ولده وجعله مدبر مملكته، إلى أن صار من أمره ما رقاه إلى السلطنة. وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً، غير أننا أعدناه هنا لينتظم سياق الكلام مع سياقه - انتهى.

ثم كانت مبادئ وقعة قرقماس مع الملك الظاهر جقمق. وخبره أنه لما كان يوم الثلاثاء المذكور، ثار جماعة كبيرة من المماليك القرانيص، ممن كان قام مع الملك الظاهر جقمق على المماليك الأشرفية، وطلبوا زيادة جوامكهم ورواتب لحمهم، ووقفوا تحت القلعة، فأرسل إليهم السلطان يعدهم بعمل المصلحة، فلم يرضوا بذلك. وأصبحوا من الغد في يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر على مواقفهم. وركب

السلطان ولعب الكرة بالحوش السلطاني مع الأتابك قرقماس الشعباني وغيره من الأمراء إلى أن انتهى لعبهم، فأسر بعض من تأمر من المماليك المؤيدية إلى السلطان بأن الأتابك قرقماس يريد الركوب على السلطان، فنهره السلطان واستبعد وقوع ذلك من قرقماس، لا سيما في هذا اليوم.

هذا وقد كثر جمع المماليك السلطانية من الأشرفية وغيرهم، ووقفوا تحت القلعة كما كانوا في أمسه، ثم وقفوا عند باب المدرج أحد أبواب القلعة، وصاروا كلما نزل أمير من الخدمة السلطانية اجتمعوا به وكلموه في عمل مصالحهم. ووقع لهم ذلك مع جماعة كبيرة من الأمراء، إلى أن نزل الأتابك قرقماس فأحاطوا به وحدثوه في ذلك، وأغلظوا في حق السلطان، فوعدهم قرقماس بأنه يتحدث بسببهم مع السلطان، وبش لهم وألان معهم في الكلام، فطمعوا فيه وأبوا أن يمكنوه من الرجوع إلى السلطان، وكلموه في الركوب على السلطان وهم يوافقوه على ذلك، فأخذ يمتنع تمنعاً ليس بذاك.

وظهر من كلامه في القرائن أنه يريد كثرة من يكون معه، وأن ذلك لا يكون في هذا اليوم. فلما فهموا منه ذلك تحركت كوامن المماليك الأشرفية من الملك الظاهر جقمق، وانتهزوا الفرصة وقصدوا الركوب ووقوع الحرب في الحال، بجهل وعدم دربة بالوقائع والحروب، وأخذوه ومضوا وهم في خدمته إلى بيته، وكار سكنه بملكه بالقرب من المدابغ خارج باب زويلة. وتلاحق بهم جماعة كثيرة من أعيان المماليك السلطانية وبعض الأمراء وعليهم السلاح، وراودوه على الركوب فلم يعجبه ذلك، وقال لهم ما معناه أن له أصحاباً وخجداشية كثيرة وجماعة من أكابر الأمراء لهم معه ميل وغرض، " فاصبروا إلى باكر النهار من الغد لنتشاور معهم في أمرنا هذا وفيما نفعله "، فامتنعوا من ذلك وأظهروا له إن لم يركب في هذا اليوم لم يوافقوه بعد ذلك.

وكان جمعهم قد كثر إلى الغاية، ولكن غالبهم المماليك الأشرفية. وكان الذي قال له ذلك الأمير مغلباي الجقمقي أستادار الصحبة على لسان بعض أصحابه، وقيل: إن قرقماس أراد بهذا الكلام توقفهم حتى يتفرقوا عنه ثم يصعد هو إلى القلعة ويعلم السلطان بذلك. وعندي أن الصحيح أنه لم يرد بقوله هذا إلا تحكيم أمره حتى يأتوه من الغد بجموعهم، ويأخذوه غصباً كما فعل القوم بالملك الظاهر جقمق، ويجتمع عليه حواشيه وأصحابه - وأنا أعرف بحاله من غيري. فأبو عليه وألحوا في ركوبه في الوقت، وخوفوه تفرق من اجتمع عليه في هذا اليوم؛ وكانوا خلائق كثيرة إلى الغاية. فنظر عند ذلك في أمره، فلم يجد بداً من موافقتهم وركوبه معهم في هذا اليوم لما في نفسه من الوثوب على السلطنة والاستبداد بالأمر؛ وكان فيه طيش وخفة في صفة عقل ورزانة، لا يفهم منه ذلك إلا من له ذوق ومعرفة بنقد الرجال. وخاف قرقماس

إن لم يركب في هذا اليوم وأراد الركوب بعد ذلك، لا يوافقه أحد من هؤلاء، فينحل بذلك برمه ويطول عليه الأمر، لعظم ما كان داخله الحسد للملك الظاهر جقمق، ولله در القائل: " الحاسد ظالم في صفة مظلوم مبتلى غير مرحوم ". وأحسن من هذا قول القائل، وهو لسان حال الملك الظاهر جقمق: الطويل

وكل أداريه على حسب حاله ::: سوى حاسدي فهي التي لا أنالها

وكيف يداري المرء حاسد نعمة ::: إذا كان لا يرضيه إلا زوالها

فعند ذلك قام ولبس آلة الحرب هو ومماليكه، وركب من وقته قريب الظهر من يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر المذكور، وخرج من بيته بعساكر عظيمة، ومعه أمراء العشرات: الأمير أزبك السيفي قاني باي نائب الشام المعروف بأزبك جحا، والأمير جانم الأشرفي المعروف برأس نوبة سيدي، وكلاهما أمير عشرة. وقد وافقه غيرهما مثل الأمير قراجا الأشرفي أحد مقدمي الألوف، والأمير مغلباي الجقمقي أستادار الصحبة، ووعداه أنهما يوافياه بمماليكهما بالرملة.

وخرج الأمير قرقماس من بيته بمجموعه فوافيته خارج باب زويلة من غير ميعاد، وسرت معه، وصحبته عساكر كثيرة من الأشرفية وغيرهم، وأنا بجانبه. فتأملت في أمره فلم يعجبني حاله، لاضطراب عساكره ولعدم من يرأسهم من أعيان الأمراء ممن مرت بهم التجارب، وأيضاً لكثرة قلقه في مسيره وعدم ثباته في كلامه. وظهر لي منه أيضاً أنه لم يعجبه ما هو فيه من اختلاف كلمة من هو معه من المماليك السلطانية وآرائهم المفلوكة وكثرة هرجهم، ثم صار يقول في مسيره: " الله ينصر الحق "، فيقول آخر: " الله ينصر الملك العزيز يوسف "، ويقول آخر: " الله ينصر الأمير قرقماس "، ومنهم من قال: " الله ينصر السلطان "، ولم أدر أي سلطان قصد؛ كل ذلك في تلك المسافة القريبة من بيته إلى الرملة.

ثم كشف قرقماس رأسه وصاح: " الله ينصر الحق " غير مرة، فتعجبت أنا من دعائه، لأي حق يريد؛ فلما أن كشف رأسه تفاءل الناس بخذلانه، وظهر لي منه أيضاً أنه كان يتخوف من المماليك الأشرفية، لما بلغني بعد ذلك أنه بلغه في اليوم المذكور أنهم إذا انتصروا على الملك الظاهر جقمق وملكوا القلعة ضربوا رقبة قرقماس، فنفر خاطره من ذلك. وكأنه بلغه ذلك بعد ركوبه وشروعه فيما هو فيه، فبقي لا يمكنه إلا الإتمام، لأن الشروع ملزم؛ والمقصود أنه سار إلى أن وصل قريباً من جامع السلطان حسن، فوافاه الأمير قراجا بطلبه ومماليكه وعليهم السلاح، والأمير مغلباي الجقمقي، وسارا معه من تحت مدرسة السلطان حسن إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة، وكان يسكنه يوم ذاك الأمير أركماس الظاهري الدوادار الكبير، وقد أغلقه مماليك

أركماس المذكور، فقصد قرقماس المذكور عبور البيت المذكور فوجده مغلقاً. ثم دخله بعد أمور، فإذا بأركماس الظاهري قد خرج من باب سر البيت المذكور، ومضى إلى حال سبيله محمولاً لعجزه عن الحركة لوجع كان يعتريه برجليه، وأيضاً لم يكن من هذا القبيل.

وملك قرقماس البيت ودخله، وأخذ فيما يفعله مع عساكر السلطان من القتال وغيره، فلم ينتظم له أمر ولا رتب له طلب من كثرة الغوغاء والهرج، حتى إن باب السلسلة كان مفتوحاً منذ قدم قرقماس إلى الرملة وأخذ بيت أركماس الظاهري، والأمير تمراز القرمشي الأمير آخور الكبير لم يلتفت إلى غلقه ولا تحرك من مجلسه ولا ألبس أحداً من مماليكه السلاح، ومن عظم تراخيه في ذلك نسبوه للممالأة مع قرقماس - ولا يبعد ذلك. ومع هذا كله لم يلتفت أحد من أصحاب قرقماس إلى أخذ باب السلسلة، ولا سار أحد إلى جهته جملة كافية، لعظم اضطرابهم وقلة سعدهم. كل ذلك والسلطان الملك الظاهر إلى الآن بالقلعة في أناس قليلة من خواصه، وهو لا يصدق ما قيل له في حق قرقماس، إلى أن حضر قرقماس إلى الرملة وملك بيت قوصون؛ فعند ذلك ركب السلطان، من الحوش السلطاني ونزل في أمرائه الصغار وخاصكيته إلى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة، وقد صحب معه فرساً عليه قماش ذهب يوهم به أنه لأجل قرقماس إذا طلع إليه طائعاً، وأن قرقماس أرسل يقول له إنه يريد أن يفر من المماليك الأشرفية ويطلع إلى القلعة، مسك بهذه الحركة جماعة كبيرة عن التوجه إلى قرقماس من خجداشيته وأصحابه. كان هذا الذي فعله الملك الظاهر من أكبر المصالح، فإن كان على حقيقته فقد نفع، وإن كان حيلة من الملك الظاهر جقمق فكانت في غاية الحسن ومن أجود الحيل.

ولما جلس الملك الظاهر بالمقعد من الإسطبل السلطاني المطل على الرميلة، نزلت جماعة من خاصكيته مشاة وعليهم السلاح وناوشوا القرقماسية بالقتال قليلاً. ثم مر السلطان فنودي: " من كان من حزب السلطان فليتوجه إلى بيت الأمير آقبغا لتمرازي أمير سلاح "، وكان سكن آقبغا المذكور بقصر بكتمر الساقي بالقرب من الكبش تجاه مدرسة سنجر الجاولي ". فلما سمع الأمراء والمماليك المناداة ذهبوا إلى بيت الأمير آقبغا التمرازي، فاجتمع عنده خلائق وجماعة كبيرة من الأمراء. فممن اجتمع عنده من مقدمي الألوف: الأمير قراخجا الحسني رأس نوبة النوب، وحاجب الحجاب تغري بردي البكلمشي المؤذي، ومن الطبلخاناه وغيرهم: الأمير أسنبغا الطياري وعدة كبيرة.

ثم أرسل آقبغا التمرازي رأس نوبته لكشف خبر قرقماس ومن وافقه من الأمراء، فتوجه المذكور وعاد إليه بالخبر أنه ليس معه من الأمراء إلا قراجا وأزبك جحا

ومغلباي الجقمقي وجانم الأشرفي. فقال آقبغا: " إذن فلا شيء ". وركب فرسه وركب الأمراء معه بمن انضم عليهم من المماليك السلطانية، وساروا إلى أن وصلوا إلى صليبة أحمد بن طولون عند الخانقاه الشيخونية، ووقفوا هناك وتشاوروا في مرورهم إلى باب السلسلة، وقد ملأت عساكر قرقماس الرميلة؛ فمن الناس من قال: " نتوجه من على المشهد النفيسي إلى باب القرافة ثم نطلع إلى القلعة "، ومنهم من قال غير ذلك. وبينا هم في ذلك، ورد عليهم الخبر أن الأمير قراجا ومغلباي الجقمقي خرجا من عسكر قرقماس ولحقا بالسلطان؛ فعند ذلك قوي عزم الأمراء على الطلوع إلى القلعة من سويقة منعم، فساروا بمن معهم إلى أن صاروا بآخر سويقة منعم فحركوا خيولهم يداً واحدة، إلى أن وصلوا إلى القلعة، بعد أن كبا بآقبغا التمرازي فرسه، ثم قام به ولم يفارق السرج. وطلعوا الجميع إلى القلعة، وقبلوا الأرض بين يدي السلطان، فأكرمهم السلطان غاية الإكرام وندبهم لقتال قرقماس. فنزلوا من وقتهم بأطلابهم ومماليكهم، وقد انضم معهم جميع أمراء الألوف ومخيرها. وصف آقبغا عساكره والأطلاب الذين معه؛ وقبل أن يعبي عساكر السلطان صدمته القرقماسية من غير تعبية ولا مصافقة، لأن قرقماس لما وقف تجاه باب السلسلة لم يقدر على تعبية عساكره لكثرة المماليك وقلة من معه من الأمراء، ووقف هو بينهم في الوسط، ولم يكن لمعسكره قلب ولا ميمنة ولا ميسرة، وذلك لقلة معرفة أصحابه بممارسة الحروب وتعبية العساكر. وكان ذلك من أكبر الأسباب في هزيمة قرقماس، فإنه تعب في موقفه ذلك اليوم غاية التعب، فصار تارة يكر في الميمنة وتارة في الميسرة وتارة يقاتل بنفسه حتى أثخن جراحه، وتارة يعود إلى سنجقه. ولم يقع ذلك لعساكر السلطان، فإن غالبهم كانوا أمراء ألوف وطبلخانات وعشرات؛ فأما مقدمو الألوف فوقفت أطلابهم تحت القلعة تجاه قرقماس، كل طلب على حدته، فصاروا كالتعبية.

وبرزت الأمراء والخاصكية لقتال قرقماس، طائفة بعد أخرى، هذا مع معرفتهم بمكائد الحروب وأحوال الوقائع، وآقبغا التمرازي في اجتهاد يعبي العساكر السلطانية ميمنة وميسرة وقلباً وجناحين. وكان قصده تعبية المجنح فلم يمهله القرقماسية، وبادروه بالقتال والنزال من غير إذن قرقماس، فتصادم الفريقان غير مرة، والهزيمة فيها على السلطانية، وتداول ذلك بينهم مراراً كثيرة، واشتد القتال وفشت الجراحات في الطائفتين، وقتل الأمير جكم النوروزي أحد أمراء العشرات بوسط الرملة، وهو من حزب السلطان. كل ذلك ومنادي قرقماس ينادي في الناس: " من يأتي قرقماس من المماليك السلطانية فله مائتا دينار، ومن يأتيه من الزعر فله عشرون دينار "، فكثر جمعه من الزعر والعامة. فأخذ الملك الظاهر جقمق ينثر الذهب على الزعر فمالوا إليه بأجمعهم، وقال لسان حالهم: " درة معجلة ولا درة مؤجلة ".

ثم أمر السلطان بمناد فنادى من أعلى سور القلعة: " من كان في طاعة السلطان فليحضر وله الأمان كائن من كان وله كذا وكذا "، وأوعد بأشياء كثيرة. كل ذلك والقتال في أشد ما يكون. ولم يكن غير ساعة جيدة إلا وأخذ عسكر قرقماس في تقهقر، وتوجهت الناس إلى السلطان شيئاً بعد شيء. وكان جماعة من أصحابنا من الناصرية وقفوا عند الصوة من تحت الطبلخاناه السلطانية حتى يروا ما يكون من أمر خشداشهم الأتابك قرقماس، وهواهم وميلهم إليه، فإنه قيل في الأعصار الخالية: " لا أفلح من هجيت قبيلته "؛ فلما رأوا أمر قرقماس في إدبار، وأخذ أصحابه في التفرق عنه، انحازوا بأجمعهم إلى جهة باب السلسلة، وأظهر كل واحد منهم أنه كان ممن قاتل قرقماس. ولم يخف ذلك على الملك الظاهر، لكنه لم يسعه يوم ذاك إلا السكات، وبالله لقد رأيت الأمير آقبغا التركماني الناصري وهو يحق بزخمته على طلبه، ويندب الناس لأخذ قرقماس بعد أن أشرف على الهزيمة، وعبرته قد خنقته حتى إنه لا يستطيع الكلام من ذلك.

ولما كان بين الظهر والعصر أخذ قرقماس في إدبار، واضمحلت عساكره وذهبت أصحابه، وجرح هو في وجهه ويده، وكل وتعب، وانفلت عنه جموعه، وصار الرجل من أصحابه يغير لبسه ثم يطلع في الحال إلى القلعة حتى ينظره السلطان، هذا والرمي عليه من أعلى القلعة مترادف بالسهام والنفوط.

وكان أصحاب قرقماس في أول حضوره إلى الرميلة اقتحموا باب مدرسة السلطان حسن فلم يقدروا على فتحه، فأحرقوه ودخلوا المدرسة وصعدوا على سطحها وأرموا على السلطان بالنشاب والكفيات، إلى أن أبادوا القلعيين، ومع هذا كله وأمر قرقماس في إدبار.

وقبل أن تقع الهزيمة على عساكر قرقماس من الذين ثبتوا معه، فر العاجل، فانهزم عند ذلك عسكره بعد أن ثبتوا بعد ذهابه ساعة، ثم انقلبوا الأدبار. فما أذن العصر إلا وقد تمت الهزيمة بعد أن جرح خلائق من الطائفتين. فكان ممن جرح من أعيان السلطانية: الأمير آقبغا التمرازي أمير سلاح، والأمير بردي المؤذي حاجب الحجاب برمح أخرق شدقه، لزم منه الفراش مدة وأشرف على الموت، والأمير أسنبغا الطياري أيضاً من طعنة رمح أصابه في ضلعه، وجماعة كثيرة من الخاصكية والمماليك يطول الشرح في تسميتهم.

وعندما انهزمت عساكر قرقماس أخذوا سنجقه وطلعوا به إلى السلطان قرقماس فلم يعرف أين ذهب؛ فتوهم السلطان أنه توجه إلى جهة الشام، فندب آقبغا التمرازي في جماعة إلى جهة الخانقاه، فسار إلى أن قارب المرج والزيات، فلم يجد في طريقه أثر

أحد من العساكر، فعلم أن قرقماس اختفى بالقاهرة، فعاد.

وأما السلطان فإنه لما تحقق هزيمة قرقماس، قام من مجلسه بمقعد الإسطبل وطلع إلى القلعة مؤيداً منصوراً كأول يوم تسلطن، فإنه كان في بحران كبير من قرقماس وشدة بأسه وعظم شوكته وجلالته في النفوس. وقد كان الملك الظاهر يتحقق أن قرقماس لا بد له من الركوب عليه، لحبه للرئاسة وتشعب رأسه بالسلطنة ولا يمكنه القبض عليه لاضطراب أمره كما هي أوائل الدول؛ فكان السلطان يريد مطاولته من يوم إلى يوم، إلى أن يتمكن منه بأمر من الأمور، فعجل الله له أمره بعد شدة هالته عقبها فرج وأمن.

ثم أمر السلطان بالفحص عن قرقماس، ونودي عليه بشوارع القاهرة، وهدد من أخفاه، فظفر به من الغد في يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر. وكان من خبره أنه لما انهزم سار وحده إلى جهة الرصد، وقيل معه واحد من حواشيه، فأقام به نهاره، ثم عاد من ليلته - وهي ليلة الخميس - إلى جهة الجزيرة، ثم مضى منها إلى بستانه بالقرب من موردة الجبس وقد ضاقت عليه الدنيا بأسرها، وكاد يهلك من الجوع والعطش. فلما رأى ما حل به، بعث إلى الزيني عبد الباسط يعرفه بمكانه، ويأخذ له أماناً من السلطان. فركب عبد الباسط في الحال وطلع إلى السلطان في بكرة يوم الجمعة المذكور، وعرفه بأمر قرقماس، فندب السلطان ولده المقام الناصري محمداً للنزول إليه، فركب وسار في خدمته عبد الباسط حتى أتوا إلى موضع كان فيه قرقماس.

هذا ما حكاه المقام الناصري. ولما أن وصل قرقماس إلى القلعة، وبلغ السلطان وصوله، جلس على عادته. فحال ما مثل بين يديه خر على وجهه يقبل الأرض. ثم قام ومشى قليلاً، ثم خر وقبل الأرض ثانياً. هذا ووجهه كلون الزعفران من الصغار وشدة الخوف. فلما قرب من السلطان أراد أن يقبل رجله، فمنعوه أرباب الوظائف من ذلك. ثم أخذ يتضرع، فلم يطل السلطان وقوفه ووعده بخير على هينته. ثم أمر به، فأخذ وأدخل إلى مكان بالحوش، فقيد في الحال، وهو يشكو الجوع، وذكر أنه من يوم الوقعة ما استطعتم بطعام، فأتي له بطعام فأكله، وقد زال عنه تلك الأبهة والحشمة من عظم ما داخله من الخوف والذل، ولهجت العامة تقول في الطرقات: " الفقر والإفلاس ولا ذلتك يا قرقماس ".

ولما أمسك قرقماس المذكور تم سرور السلطان، وهدأ سره، وأخذ في مسك جماعة من أعيان الأشرفية، فأمسك في يوم واحد أزيد من ستين خاصكياً من أعيان المماليك الأشرفية، وحبس الجميع بالبرج من قلعة الجبل.

قتل قرقماس الشعباني الناصري المقدم ذكره

ولما كان يوم الخميس ثامن شهر رجب، جمع السلطان القضاة بالقصر، بعد الخدمة السلطانية، وادعى القاضي علاء الدين علي بن أقبرس، أحد نواب الحكم لشافعية، عند القاضي المالكي شمس الدين البساطي، على الأمير قرقماس المذكور بأنه خرج عن الطاعة وحارب الله ورسوله، وأن بقاءه بالسجن مفسدة وإثارة فتنة، وأن في قتله مصلحة، وشهد بخروجه عن الطاعة ومحاربته جماعة من أكابر الأمراء، فحكم البساطي بموجب ذلك، فقيل له: " ما موجبه؟ " فقال: " القتل "، انفض المجلس. فندب السلطان طوغان السيفي آقبردي المنقار أحد الخاصكية لقتله، فسافر طوغان إلى الإسكندرية، ودفع لنائبها ما على يده من المحضر المكتتب على قرقماس، وحكم القاضي المالكي بقتله، فأخرجه النائب من السجن، فقرىء عليه حكم القاضي، وسئل عن الحكم المذكور، فأعذر.

ثم في يوم الأربعاء حادي عشر شهر رمضان المذكور، ورد على السلطان كتاب الأمير قاني باي الحمزاوي، نائب حماة، يتضمن ورود الأمير بردبك العجمي الجكمي، حاجب الحجاب بحلب، عليه وصحبته من أمراء حلب أميران، بعد هزيمتهم من الأمير تغري برمش نائب حلب، بعد خروجه عن طاعة السلطان وعصيانه. وكان أشيع خبر عصيانه إشاعات، فلما ورد هذا الخبر، تحقق كل أحد صحة ما أشيع.

وكان من خبر عصيانه أن تغري برمش المذكور كان له من يوم مات الملك الأشرف برسباي، أخذ في أسباب الخروج، واحترز على نفسه في عوده صحبة العساكر إلى حلب غاية الاحتراز، حتى إنه لم يدخل حلب إلا بعد خروج العساكر المصرية منها بعد أيام. ولما دخل حلب شرع في تدبير أمره والنظر في ما يفعله لنفسه. ولم يكن له غرض في طلب الملك لمعرفته أن القوم لا يرضونه لذلك؛ غير أنه يعلم أنهم لا يدعونه في نيابة حلب إن أمكنهم ذلك، لكونه تركمانياً، غير الجنس. وتحقق هذا، فأخذ في عمل مصلحة نفسه، واستدعى أمراء التركمان للقيام معه، فأجابه جماعة كبيرة، وانضم عليه خلائق.

وكان تغري برمش من رجال الدهر، عارفاً بتدبير أموره، جيد التصرف، وعنده عقل ومكر وحدس صائب، وتدبير جيد، وهمة عالية، على أنه كان لا يعرف المسألة الواحدة في دين الله، مع جمودة في مجالسته وخشونة ألفاظ تظهر منه كما هي عادة أوباش التركمان، وجميع جهده ومعرفته كانت في أمور دنياه لا غير، مع جبن وبخل، إلا في مستحقه.

فلما استفحل أمره بمن وافقه من أمراء التركمان في الباطن، وبكثرة مماليكه وخدمه، مع ما كان حصله من الأموال، وبلغه مع ذلك أن الملطفات السلطانية وردت على أمراء حلب في القبض عليه، رأى أنه يظهر ما استكتمه من الخروج عن الطاعة، ويملك حلب وأعمالها طول عمره، لما دبره أنه إذا غلب عليها وكثرت عساكره بها، يحصنها ويقيم بها، فإن جاءه عسكر هو قبيله، قاتله، وإن كانت الأخرى، انهزم أمامه بعد تحصين قلعتها، وتوجه إلى جهة بلاد التركمان، إلى أن يعود عنها من أتاها من العساكر، ولم يبق بها إلا من استنيب بها، وقدمها تغري برمش وملكها منه، كما كان يفعله شيخ ونوروز مع الملك الناصر فرج بن برقوق، مع أن تغري برمش هذا كان أرسخ منهما قدماً بتلك البلاد، لكونه كان تركمانياً، وله أموال جمة، وأكثر دهاء ومكراً، وإن كان شيخ ونوروز أعظم في النفوس وأشجع، فليس هذا محل شجاعة وعظمة، وإنما هو محل تشويش وتنكيد. وتأييد ما قلته أن الملك الظاهر جقمق قلق لعصيان تغري برمش هذا أكثر من عصيان الأمير إينال الجكمي نائب الشام الآتي ذكره. وأرسل الملك الظاهر خلفي وكلمني في المحضر المكتتب في حق تغري برمش هذا قديماً، من قتله لبعض مماليك الوالد، لما كان تغري برمش المذكور بخدمة الوالد، على ما سيأتي بيانه في ذكر وفيات هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وكلمني الملك الظاهر في أمر تغري برمش بسبب المحضر وغيره، فلحظت منه ما ذكرته من تخوفه من طول أمر تغري برمش المذكور معه - انتهى.

وكان أول ما بدأ به تغري برمش أنه أخذ يستميل الأمير حطط نائب قلعة حلب، فلم يتم له ذلك. فأخذ يدبر على أخذ القلعة بالحيل، فأحس حطط وكلم أمراء حلب بسببه، واتفقوا على قتاله، وبادروه وركبوا عليه بعد أمور وقعت يطول شرحها. ورمى عليه حطط من أعلى قلعة حلب، وركب الأمير بردبك العجمي الجكمي حاجب حلب، والأمير قطج من تمراز أتابك حلب، وجماعة أمراء حلب وعساكرها، وواقعوه، فصدمهم بمماليكه صدمة بدد شملهم فيها، وانهزموا وتشتتوا. فتوجه قطج إلى جهة البيرة فيما أظن، وتوجه بردبك العجمي ومعه أيضاً جماعة إلى حماة، وكانت الوقعة في ليلة الجمعة ثامن وعشرين شعبان، ودخل بردبك حماة في آخر يوم السبت سلخ شعبان. هذا ما كان من أمر تغري برمش، ويأتي بيان أمر هذه الوقعة في كتاب تغري برمش المذكور إلى السلطان فيما بعد.

وأما ما كان من أمر السلطان، فإنه لما بلغه خبر عصيانه، طلب الأمراء وعمل معهم مشورة بسببه؛ فوقع الاتفاق بعزله عن نيابة حلب، وتولية غيره، ثم ينتظر السلطان

بعد ذلك ما يرد عليه من الأخبار من البلاد الشامية، لما كان أشيع بالقاهرة أن الأمير إينال الجكمي هو الذي أشار لتغري برمش المذكور بالخروج عن الطاعة، وأنه موافقه في الباطن، فلذلك لم يعين السلطان أحداً من العساكر المصرية، ولا نواب البلاد الشامية، لقتال تغري برمش.

فلما كان يوم الخميس ثاني عشر شهر رمضان المذكور، كتب السلطان بنقل الأمير جلبان أمير آخور نائب طرابلس، إلى نيابة حلب، عوضاً عن تغري برمش المذكور، وأن يستقر الأمير قاني باي الحمزاوي نائب حماة المقدم ذكره في نيابة طرابلس عوضاً عن جلبان، وأن يستقر بردبك العجمي الجكمي حاجب حجاب حلب، المقدم ذكره في نيابة حماة، عوضاً عن قاني باي الحمزاوي.

فلما كان يوم الاثنين تاسعه، ركب الأمير إينال الجكمي الموكب على العادة، ودخل إلى دار السعادة، وجميع أمراء دمشق وسائر المباشرين بين يديه، وقد اطمأن كل أحد بأن ملك الأمراء مستمر على الطاعة. فما هو إلا أن استقر في مجلسه أشار بالقبض على أعيان أمراء دمشق، فأغلق الباب وقبض على جميع الأمراء والمباشرين، وكان القائم في قبض الأمراء الأمير قاني باي الأبوبكري الناصري أتابك دمشق، وقانصوه النوروزي أحد مقدمي دمشق. والمقبوض عليهم أجلهم: الأمير برسباي الحاجب وعدة كبيرة أخر يأتي ذكرهم. قال: وإن علي باي العجمي وجانبك المحمودي المتوجهين بتقليد نائب حلب وطرابلس وصلا إلى غزة وأقاما بها.

فلما سمع السلطان هذا الخبر، اضطرب وتشوش غاية التشويش، لأنه كان عليه أدهى وأمر. وجمع الأمراء واستشارهم في أمر إينال وتغري برمش فأشاروا الجميع بسفره. وتذكر السلطان قول آقبغا التمرازي لما أشار عليه قبل سلطنته أن يتوجه إلى البلاد الشامية ثم يتسلطن، فلم تفده التذكرة الآن. وانفض الموكب على أن السلطان يسافر لقتال المذكورين.

ثم في يوم الأربعاء، ورد الخبر على السلطان أن الأمير قطج أتابك حلب وصل أيضاً إلى حماة، وأن تغري برمش أخذ مدينة عين تاب وقلعتها، وأن عدة من قبض عليه الأمير إينال الجكمي من أمراء دمشق تسعة عشر أميراً، وأنه قبض أيضاً على جمال الدين يوسف بن الصفي الكركي ناظر جيش دمشق، وعلى القاضي بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سر دمشق، وأن علي باي وجانبك المحمودي توجها من غزة إلى الأمير إينال الناصري العلائي نائب صفد.

ثم في يوم الخميس عشرينه، ورد على السلطان كتاب الأمير تغري برمش نائب حلب مؤرخاً بثاني شهر رمضان، يتضمن أنه في يوم الثالث والعشرين من شعبان لبس

الأمير حطط نائب القلعة ومن معه بالقلعة السلاح، وقاموا على سور القلعة ونصبوا المكاحل وغيرها، وأمروا من تحت القلعة من أرباب المعايش وسكان الحوانيت بالنقلة من هناك، وأنه لما رأى ذلك، بعث يسأل حطط عن سبب هذا فلم يجبه. إلى أن كان ليلة التاسع والعشرين منه ركب الأمير قطج أتابك العساكر والأمير بردبك الحاجب في عدة أمراء لابسين السلاح ووقفوا تحت القلعة، فبعث إليهم جماعة من عسكره، فكانت بين الفريقين وقعة هائلة انهزم فيها قطج، وأنه باق على طاعة السلطان، وأنه بعث يسأل حطط ثانياً عن سبب هذه الحركة، فأجاب بأن الأمير بردبك الحاجب ورد عليه مرسوم السلطان بالركوب عليك وأخذك. وجهز تغري برمش أيضاً محضراً ثانياً على قضاة حلب بمعنى ما ذكره، وأنه باق على طاعة السلطان، وأنه لم يتعرض إلى القلعة، فلم يعول السلطان على كتابه ولا على ما ذكره لما سبق عنده من خروجه عن الطاعة - انتهى ما تضمنه كتاب تغري برمش.

ثم ورد على السلطان كتاب الأمير فارس نائب قلعة دمشق، بأن الأمير إينال الجكمي أمر فنودي بدمشق بالأمان والاطمئنان والدعاء للسلطان الملك العزيز يوسف، وأن القاضي تقي الدين بن قاضي شهبة، قاضي قضاة دمشق، دعا للملك العزيز على منبر جامع بني أمية في يوم الجمعة، وأن الخطبة بقلعة دمشق باقية باسم السلطان الملك الظاهر جقمق؛ كل ذلك والسلطان قد اتفق رأيه على إخراج تجريدة إلى البلاد الشامية.

ثم ورد الخبر على السلطان بأن الأمير إينال العلائي الناصري نائب صفد خرج منها، وسار حتى نزل بالرملة في سابع عشر شهر رمضان، بعدما أرسل إليه إينال الجكمي يدعوه لموافقته، وأعلمه أيضاً أنه ما قام في هذا الأمر إلا وقد وافقه نواب المماليك، وأركان الدولة وعظماء أمراء مصر، فلم يلتفت إينال العلائي لكلامه، ثم خشي أن يكبس بصفد، فخرج منها بعد أن جعل حريمه بقلعة صفد، وسار حتى نزل الرملة؛ فسر السلطان بذلك وكتب إليه بالثناء والشكر ثم في يوم الخميس سابع وعشرين شهر رمضان المذكور أنفق السلطان في العسكر المجرد إلى الشام - وعدتهم ما بين خاصكي ومملوك: ستمائة واثنان وخمسون نفراً - كل واحد ثمانين ديناراً.

ثم قدم الخبر بأن الأمير جلبان، المستقر في نيابة حلب، وصل إلى الرملة في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر رمضان فاراً من تغري برمش نائب حلب. وكان من خبر تغري برمش نائب حلب أنه لما قوي أمره وبلغه عصيان إينال الجكمي أيضاً، عظم أمره واستدعى التركمان إلى حلب، فقدم عليه منهم جماعة كبيرة إلى الغاية؛ ثم عمل مكحلة عظيمة من نحاس، ليرمي بها على قلعة حلب. وأخذ مع هذا كله يستميل

جماعة من أهل قلعة حلب فمالوا له في الباطن، وواعدوه على تسليم القلعة له، وهو مع ذلك مستمر في حصار القلعة المذكورة، والنقب في جدر القلعة عمال، والقتال بينه وبينهم في كل يوم يزداد، إلى أن بلغ الأمير حطط نائب قلعة حلب عمن وافق تغري برمش المذكور من أهل القلعة، فقبض على الجميع، وأخذ بعضهم وجعله في المنجنيق ورمى به على تغري برمش، ثم قتل جماعة منهم وجعل رؤوسهم على سور قلعة حلب. فلم يكترث تغري برمش بذلك واستمر على ما هو عليه من حصار القلعة حتى أشرف على أخذها، فخوفه بعض أصحابه من وثوب أهل مدينة حلب عليه وأشاروا عليه بأن ينادي لهم بالأمان، فأمر بذلك.

وكان بلغ أهل حلب أن تغري برمش يريد أن يأمر التركمان بنهب حلب، فلما نودي بالأمان تحققوا ما كان قيل من نهب حلب، وألقى الله في نفوسهم أن يركبوا عليه ويقاتلوه قبل أن يأمر بنهبهم. فثارت العامة وأهل حلب بأجمعهم بقسيهم وسلاحهم على حين غفلة، وساروا يداً واحدة واحتاطوا بدار السعادة وبه النائب تغري برمش وقد تقدم أن تغري برمش المذكور كان جباناً غير ثابت في الحروب، ضعيف القلب عند ملاقاة العدو، وليس فيه سوى جودة التدبير وحسن السياسة بحسب الحال. وبالنسبة لأمثاله من الجهلة فعندما بلغه وثوب أهل حلب عليه لم يثبت، وذهب فاراً يريد الخروج من المدينة، وسار حتى وقف خارج السور في نحو الأربعين فارساً تخميناً، وقد نهبت العامة جميع ما كان له بدار السعادة من الخيول والأموال والسلاح، وامتدت أيديهم إلى مماليك تغري برمش وأتباعه يقتلونهم وينهبونهم.

وكان له المماليك الكثيرة المتجملة في لبسهم وسلاحهم، غير أنهم كانوا على مذهب أستاذهم في الجبن والخور وعدم الثبات في القتال، ولم يظهر لأحد منهم نتيجة في هذا اليوم ولا في يوم مصافقته للعسكر المصري، بل هرب غالبهم وجاء إلى العساكر المصرية قبل وقوع القتال، وتركوا أستاذهم في مثل ذلك اليوم مع عظم إحسانه لهم، وتخولهم في النعم. وكانت هذه الوقعة في يوم الثلاثاء عاشر شهر رمضان، بعدما كان تغري برمش حاصر القلعة ثلاثة عشر يوماً. وتلاحق عدة من أصحاب تغري برمش ومماليكه به، ولم يجد له قوة للعود إلى حلب لقتال أهلها، فسار بمن معه يريد طرابلس، وانضم إليه الأمير طرعلي بن صقل سيز التركماني بأصحابه. فلما قارب طرابلس لم يثبت الأمير جلبان، وانهزم من طرابلس في العاجل إلى نحو الرملة حتى قدمها، وانضم على من كان بالرملة من النواب وغيرهم. وكان جلبان أيضاً من مقولة تغري برمش في القتال، غير أن أمره كان في ستر لأمور لا تخفى على أحد. فدقت البشائر لذلك، وسر السلطان بهذا الخبر، وتعجب الناس من نكبة تغري برمش المذكور، مع قوة أمره وكثرة جموعه.

ولما وصل جلبان إلى الرملة واجتمع بالأمير إينال العلائي نائب صفد، والأمير طوخ مازي نائب غزة، والأمير طوغان العثماني نائب القدس، اتفقوا على مكاتبة السلطان، فكتبوا له يستدعونه للسير بنفسه، بعد تجهيز العساكر بين يديه سريعاً. وكان قدم بهذا الخبر صرغتمش السيفي تغري بردي أحد مماليك الوالد، وهو يوم ذاك دوادار الأمير جلبان، فخلع عليه السلطان في يوم الأحد تاسع وعشرينه باستقراره دوادار السلطان بحلب، عوضاً عن سودون النوروزي بحكم انتقاله إلى حجوبية حلب، بعد بردبك العجمي المنتقل إلى نيابة حماة.

* * *

فرار الملك العزيز

ثم أصبح من الغد في يوم الاثنين سلخه عملت الخدمة بالقصر على العادة؛ وبينما هو في ذلك بلغه من الأمير قراخجا الحسني رأس نوبة النوب فرار الملك العزيز يوسف من محبسه بدور قلعة الجبل - أعني سكنه، فإنه كان سكن بقاعة البربرية من الحريم السلطاني - فاستبعد السلطان ذلك، وندب بعض خواصه أن يتوجه إلى الأمير فيروز الزمام ويسأله عن صحة هذا الخبر. فمضى المذكور لفيروز وسأله عن لسان السلطان، فأنكر فيروز ذلك، ودخل من وقته فلم يجد العزيز في مكانه، ووجد نقباً بقاعة البربرية يتوصل منه إلى المطبخ السلطاني، فعاد القاصد بصحة الخبر على السلطان. فلما تحقق السلطان ذهاب الملك العزيز كادت روحه أن تزهق، وعظم عليه الخبر، ونسي ما كان فيه من أمر إينال الجكمي وتغري برمش. وعرف السلطان الأمراء وأكابر الدولة بذلك، فما منهم إلا من ظهر عليه الخوف والفزع. وماجت المملكة، وكثر الكلام، واختلفت الأقاويل في أمر الملك العزيز وفراره، وفي أين توجه.

وكان من خبر العزيز - على اختلاف النقول - أن الملك العزيز لما حبس بقاعة البربرية من الدور السلطانية، أقر الملك الظاهر عنده دادته سر النديم الحبشية ومعها عدة جوار أخر سراري الملك العزيز، ومرضعته أيضاً، ورسم لمرضعته أنها تخرج إلى حيث شاءت، وجعل القائم في خدمة الملك العزيز لقضاء حوائجه طواشياً هندياً من عتقاء أمه خوند جلبان يسمى صندلاً، وسنه دون العشرين سنة. فصار صندل المذكور يتقاضى حوائج العزيز، ويقبض له ما رتب له من النفقة من أوقاف أبيه، فاحتوى صندل على جميعأمور الملك العزيز، وعرف جميع أحواله. وكان عند الطواشي يقظة ومعرفة، وبقي كلما بلغه عن الملك العزيز شيء يبلغه له. فأشيع بالقاهرة أن السلطان يريد يرسل الملك العزيز إلى سجن الإسكندرية، ثم أشيع أنه

يريد أن يكحله؛ فبلغه صندل المذكور جميع ذلك، فخاف العزيز خوفاً عظيماً. ثم بلغه أن بعض علماء العصر أفتى بقتل العزيز صيانة دماء المسلمين، من كونه مخلوعاً عن الملك وله شوكة، والملك الظاهر متول ولم يكن له شوكة، فإن أبقي على العزيز ربما تثور شوكته ويقاتل السلطان، فيقع بذلك الفساد وتسفك دماء كثيرة من المسلمين.

فلما بلغ العزيز ذلك - على ما قيل - حار في أمره، فحسن له صندل المذكور الفرار، فاستبعد العزيز وقوع ذلك، ثم وافقه. وكان للملك العزيز طباخ يسمى إبراهيم من أيام والده، فداخله صندل في الكلام بفرار العزيز، فأجابه إبراهيم المذكور أنه ينهض بذلك، ويقدر على خروجه من القلعة بحيلة يدبرها. ثم أمر إبراهيم الطباخ صندلاً أن ينقب من داخل القلعة نقباً يصل إلى المطبخ المذكور، وأن إبراهيم ينقب من خارج المطبخ مقابله. فأمر العزيز جواريه بالنقب من داخل القلعة مساعدة للطباخ، حتى تهيأ ذلك. وتم هذا، وصندل يتحدث مع جماعة من المماليك الأشرفية في مساعدة الملك العزيز إذا خرج ونزل من القلعة، فمال إلى ذلك جماعة: منهم طوغان الزردكاش، وأزدمر مشد الملك العزيز أيام أبيه، في آخرين من المماليك الأشرفية، وبذلوا لصندل الطاعة في ذلك، ورغبوه في نزول الملك العزيز إليهم، واستحثوه على ذلك.

وتكلم طوغان الزردكاش مع جماعة أخر من الأشرفية، فمال الجميع إلى نزوله إليهم، مع عدم الاتفاق مع أكابر الأشرفية، ولا تشاوروا في ذلك، بل صاروا يحرضون صندلاً على نزوله، ولم يعينوا له مكاناً يجلس فيه إلى أن يفعلوا له ما هو قصدهم، فلم يعرف صندل العزيز ذلك، بل صار يمليه بخلاف الواقع، إلى أن انتهى النقب المذكور.

فلما كان الإفطار من ليلة الاثنين سلخ شهر رمضان من سنة اثنتين وأربعين، والناس في شغل بالصلاة والفطر، أخرج الطباخ الملك العزيز من النقب عرياناً مكشوف الرأس، فألبسه الطباخ من ثيابه ثوباً مملوءاً بسواد القدور والأوساخ، وحمله قدراً فيه طعام، وقيل صحناً فيه منفوع الطباخين من الطعام، يوهم الطباخ بذلك أنه صبيه، ثم جعل على يده خافقية فيها طعام، وغير وجه الملك العزيز ويديه بالزفر وسواد القدور.

وخرجا جميعاً من غير هرج ولا اضطراب ولا خوف حتى وصلا إلى باب القلعة، فوافاهم الأمراء والخاصكية وقد خرجوا بعد إفطارهم من عند السلطان. فلما رأى إبراهيم الطباخ الأمراء والخاصكية خاف أن يفطن به أحد، لجمال وجهه وحسن سمته ولما عليه من الرونق، فضربه ضربة بيده وسبه، يريد بذلك أنه صبيه،

ويستحثه على سرعة الحركة والمشي، ليرد الوهم عنه بذلك. فأسرع الملك العزيز في المشي، وسارا حتى نزلا من قلعة الجبل، فإذا صندل وطوغان الزردكاش وأزدمر مشد العزيز في آخرين واقفين في انتظاره. فحال ما رأوه قبلوا يده وأخذوه إلى دار بعضهم، فأنكر العزيز ذلك منهم، ونهر صندلاً الطواشي، وقال: " ما على هذا أنزلت "؛ وكان في ظن العزيز أنه ساعة ما ينزل إليهم، يأخذوه ويركبون به إلى جهة قبة النصر أو غيرها بمجموعهم، ويقاتلون السلطان الملك الظاهر، حتى يملكوا منه القلعة، على ما كان صندل يقول له مثل ذلك.

وأراد العزيز العود إلى مكانه بالقلعة فلم يمكنه ذلك. وقام طوغان في منعه ووعده بقيام جميع خشداشيته من الأشرفية بنصرته، وأنهم اتفقوا على ذلك، وأنهم إلى الآن لم يصدقوا بنزول الملك العزيز، فإذا علموا ذلك اجتمع الكل في القيام بنصرة الملك العزيز، فإن لم يفعلوا ذلك أخذه هو وسار به إلى بلاد الصعيد، عند الأمير يشبك السودوني أمير سلاح المجرد قبل تاريخه لقتال عرب الصعيد؛ وكان صحبة يشبك جماعة كبيرة من المماليك الأشرفية نحو سبعمائة مملوك، مع ميل يشبك إلى الأشرفية في الباطن، لكونه كان ممن أنشأه الملك الأشرف برسباي ثم افترقوا، واختفى الملك العزيز ومعه صندل وأزدمر وإبراهيم الطباخ في مكان ليلته، ثم تنقل في عدة أماكن أخر. وأخذ طوغان في الكلام مع خجداشيته الأشرفية في القيام بنصرة ابن أستاذهم الملك العزيز، فاعتلوا بأن غالبهم قد توجه إلى بلاد الصعيد ولم يجيبوا له دعوة. فلما علم منهم ذلك ركب هجناً وسار إلى بلاد الصعيد لإعلام الأمير يشبك والمماليك الأشرفية بنزول الملك العزيز إليه. ودخل جماعة كبيرة منهم إلى الأمير إينال الأبوبكري الأشرفي، وكلموه في القيام بنصرة ابن أستاذه، فخاف العواقب ولم يوافقهم، وتسحب من داره على بغل ثم نزل ماشياً واختفى.

وفيه ورد الخبر على السلطان بأن إينال الجكمي برز بمخيمه من مدينة دمشق إلى ظاهرها. فلما كان يوم الخميس ثالث شوال المذكور، عزم هو على الخروج من المدينة بنفسه إلى مخيمه ليسير بمن معه إلى نحو الديار المصرية. فبينما هو في ذلك ركب عليه الأمير قاني باي الأبوبكري الناصري البهلوان أتابك دمشق، وكان ممن وافق الجكمي على العصيان وحسن له ذلك ثم تركه ومال إلى جهة السلطان، وركب معه الأمير برسباي الناصري حاجب الحجاب بدمشق وجميع أمراء دمشق وعساكرها، ولم يبق مع إينال من أعيان أمراء دمشق إلا جماعة يسيرة، مثل الأمير قنصوه النوروزي أحد مقدمي الألوف بدمشق، والأمير تنم العلائي المؤيدي الدوادار، أحد أمراء الطبلخانات بدمشق، والأمير بيرم صوفي أحد الطبلخاناة بدمشق أيضاً، والأمير مسروق أخو الملك الظاهر ططر، وجماعة أخر يسيرة جداً، أعيانهم من

ذكرناه.

فلما بلغ إينال الجكمي ركوب هؤلاء عليه، مال عليهم وقاتلهم، فلم يثبتوا له وانهزموا أقبح هزيمة. ثم تراجعوا فحمل عليهم فانكسروا وتمزقوا شذر مذر. وطلع قاني باي البهلوان إلى قلعة دمشق في جماعة كبيرة من الأمراء، وتوجه غيرهم إلى عدة أماكن. وكان سبب مخالفة قاني باي وغيره لإينال الجكمي بعد موافقتهم له، أن السلطان أرسل ملطفات إلى قاني باي المذكور وغيره من أمراء دمشق يستميلهم إليه، ووعدهم بأشياء كثيرة، فلما سمعوا ذلك مالوا إليه وتركوا ما كان بينهم وبين إينال الجكمي من العهود والمواثيق، ولم يستعبوا ذلك لكون أن هذا الغدر صار عادة لمن تقدمهم..

ولما كتب السلطان الملطفات المذكورة، أرسلها إلى الأمير خشكلدي السيفي يشبك ابن أزدمر، وهو يوم ذاك نائب قلعة صفد، فبعث بها خشكلدي، المذكور على يد نصراني إلى بهاء الدين محمد بن حجي كاتب سر دمشق، ففرقها بهاء الدين على أربابها. فحال ما وقفوا عليها مالوا بأجمعهم إلا من ذكرناه ممن ثبت مع إينال، وقالوا: نحن وافقناه، فلا نبرح عنه إلى الممات أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وكان أكثر من وعد من أمراء دمشق الأمير سودون أخو مامش المؤيدي، والأمير تنم العلائي المؤيدي من خجداشيهما المؤيدية، فلم يلتفتوا إلى كتبهم واستقبحوا الغدر والخيانة، فلله درهما.

وأنا أقول: أما طاعة السلطان فهي واجبة على كل أحد، والعصيان ومخالفة السلطان لا يجوز ولا يستحسن. لكن أيضاً يقبح بالرجل أن يدخل إلى ملك ويحسن له العصيان والثوران، ولا يزال به حتى يقع في ذلك، بعد أن يعطيه العهود والمواثيق على موافقته والقيام بنصرته، ثم يتركه بعد تورطه ودخوله في ذلك، لأجل النزر اليسير من حطام أو لتناوله ولاية من الولايات؛ وعندي أن هذا لا يقع إلا من نذل ساقط الهمة والمروءة لا نخوة له، والأنفس الكريمة تأبى ذلك ولو مسهم الضر، والرجل الفحل هو الثابت على قوله، والمقر على طاعة سلطانه حفظاً لدينه ودنياه، فإن لم يكن ذلك وأطاع شيطانه وركب هواه، فليتم على ما قصده من ركوب الأهوال واقتحام الخطوب وهجوم الحروب، فإما وإما؛ وما أحسن قول عنترة في ذلك حيث يقول: الوافر

أروم من المعالي منتهاها ::: ولا أرضى بمنزلة دنيه

فإما أن أشال على العوالي ::: وإما أن توسدني المنيه

فلما وصل هذا الخبر إلى السلطان، سر بذلك ودقت البشائر بالديار المصرية. ثم ورد

الخبر على السلطان من بلاد الصعيد أن الأمير يشبك أمير سلاح انتهى بمن معه من العساكر السلطانية في طلب عرب هوارة إلى مدينة إسنا، فلم يقع بهم، وأنه رجع بالعساكر إلى مدينة هو، فقدم عليه بها من المشايخ الصلحاء جماعة ومعهم طائفة من مشايخ هوارة، راغبين في دخول الطاعة للسلطان وحلفوا على ذلك، وأنه قدم عليهم بعد ذلك في يوم الأحد سادس شوال طوغان الأشرفي الزردكاش، أحد الدوادارية الصغار، ودعا العسكر إلى طاعة الملك العزيز والقيام بنصرته، وذكر لهم أنه خرج من محبسه بقلعة الجبل ونزل إلى القاهرة، واجتمع عليه جماعة من مماليك أبيه، وأنه رآه بعينه ووعده بالوثوب معه هو وخجداشيته الأشرفية، وأنه أمره أن يختفي فاختفى حتى ينتظم أمره بعود مماليك أبيه من بلاد الصعيد. ثم حرضهم طوغان على ذلك فمال منهم طائفة وتخوفت طائفة. واضطرب العسكر قليلاً إلى أن اجتمع الجميع على طاعة السلطان بعد أمور صدرت، وحلفوا أنهم مقيمون على الطاعة. فدقت البشائر لذلك، وخلع على الواصل بهذا الخبر، وأجيب الأمير يشبك بالشكر، وبحمل طوغان المذكور في الحديد.

وكان علم السلطان قبل ذلك بتوجه طوغان المذكور إلى بلاد الصعيد، وكتب إلى الأمير يشبك وإلى حكام الصعيد بحمله في الحديد. ثم ورد الخبر بعد ذلك من الأمير يشبك بأنه نازل على مدينة سيوط، وأن يونس الخاصكي ورد عليه بمرسوم شريف يتضمن القبض على طوغان المذكور، وأن المماليك الأشرفية لم يمكنوه من ذلك، فكثر قلق السلطان والدولة لورود هذا الخبر وخشوا وقوع فتنة، ظناً من المماليك الأشرفية أنهم من هذا القبيل؛ ورسم السلطان في هذا اليوم بخروج الأمير أركماس - المعزول عن الدوادارية قبل تاريخه - إلى ثغر دمياط بطالاً.

ثم أخذ السلطان وحواشيه في الفحص عن الملك العزيز، وكبست عدة أماكن وقبض على جماعة من المماليك الأشرفية. وتزايد تحريض السلطان في طلب العزيز، وقاسى الناس بسبب ذلك شدائد. وكثرت الأراجيف بخروج الأمير يشبك أمير سلاح ومن معه من المماليك الأشرفية عن طاعة السلطان، وأنهم عادوا يريدون القاهرة، فمنعت المراكب من التعدية في النيل بكثير من الناس المتهمة بالخروج على السلطان، هذا مع عظم التفتيش على العزيز، والكبس على البيوت والبساتين والترب. وغلقت بعض أبواب القاهرة نهاراً، وأخذ أهل الدولة في الاستعداد للحرب. هذا مع ما بالبلاد الشامية من الفتنة العظيمة من خروج نائب الشام ونائب حلب. وصار السلطان في هذه الأيام في أشد ما يكون من القلق والتخوف؛ وتكلم الناس بزوال ملكه.

وكان من خبر طوغان أنه لما نزل الملك العزيز من قلعة الجبل واجتمع به ووعده بالقيام معه، توجه إلى الأمير إينال الأبوبكري الأشرفي فلم يحصل منه على طائل.

فمضى هو وجماعة إلى خجداشيتهم الأشرفية ووعدهم بالوثوب على الملك الظاهر والقيام بنصرة ابن أستاذهم، فأجاب منهم طائفة كبيرة، غير أنهم اعتذروا بغياب أعيانهم ببلاد الصعيد في التجريدة صحبة الأمير يشبك، وأنهم في قلة لأن معظمهم بالصعيد، وطلبوا منه أن يرسل يعلم خجداشيتهم بذلك، فلم يجد لأحد منهم قوة للتوجه، فقام هو بذلك بعد أن تحقق منهم الوثوب، وخرج من القاهرة على الهجن.
وبلغ السلطان خبره، فكتب بالقبض عليه في الطريق فلم يدركه أحد. وسار حتى وصل إلى خجداشيته واجتمع بهم حسبما تقدم ذكره. غير أنه أراد قضاء حاجته، فأملى لخجداشيته أخباراً في حق العزيز غير صحيحة يريد بذلك تمييز أمره، فمالوا إلى كلامه. فورد عليهم بعد ذلك الأخبار من المسافرين وغيرهم بهروب إينال واختفاء الملك العزيز، على غير ما قاله له طوغان، وأن الفحص على الملك العزيز في كل يوم مستمر، فعند ذلك اختلفت كلمتهم على القيام بأمر العزيز، وعلموا أن غالب كلام طوغان غير صحيح.

هذا والأمير يشبك يستميلهم إلى طاعة السلطان، ويخوفهم عاقبة مخالف السلطان، حتى أفضى به وبهم أن جمع عليه الكاشف بالوجه القبلي وعدة كبيرة من عربان الطاعة وهم بمحاربتهم، فلم يكن لهم طاقة بمحاربته مع ما تبين لهم من فساد أمرهم واختلاف كلام طوغان، فأسلموه بعد أن كانوا انقلبوا جميعهم للخروج معه وهو أن طوغان لما جد في مسيره حتى وصل إليهم، أعلمهم بأن الملك العزيز خرج من سجنه ونزل من القلعة، واجتمع عليه خلائق من الأشرفية وغيرهم، وأنه محاصر للملك الظاهر جقمق بقلعة الجبل، فهيج هذا الكلام خواطرهم وتحركت كوامنهم وأجمعوا على القيام بنصرة ابن أستاذهم، ومال إليهم كل أحد حتى الأمير يشبك في الباطن.

وكادت الفتنة تقوم، ويظهر كل أحد الميل للملك العزيز، فترادفت كف السلطان والقصاد بغير ما قاله طوغان، فتوقفوا عما كانوا عزموا عليه. ولا زال أمر الملك العزيز يتضح لهم، حتى أسفرت القضية على أنه مختف، وأن إينال تسحب فعند ذلك رجع كل أحد عما كان في ضميره وأظهر طاعة السلطان، وأسلموا طوغان فقيد وحمل إلى القاهرة.

ولما طلع طوغان إلى القلعة حبس بها وأجري عليه أنواع العقوبة والعذاب المتلف، وكسروا غالب أعضائه بالمعاصير، وعوقب معه ثلاثة نفر من الخاصكية فلم يقر أحد منهم على غير ما قاله طوغان، أن العزيز لما نزل من القلعة و إبراهيم الطباخ، وقف بمكان بالمصنع بالقرب من قلعة الجبل، واجتمع عدة من المماليك الأشرفية - وسماهم، فكان غالبهم ممن لا يعرف - فأجمع رأيهم بأن يسيروا إلى الشام بالعزيز،

ثم انصرفوا عن هذا الرأي عجزاً، وتوجه طوغان ليأتي بالمماليك الأشرفية من بلاد الصعيد. فلما تحقق السلطان ذلك، كف عن عقوبة طوغان بعد أن تلف، وأخرجه في يوم الثلاثاء ثاني عشرين شوال محمولاً، لعجزه عن الحركة من شدة العقوبة، ومعه خير بك الأشرفي وقد عوقب أيضاً، وحملا إلى الرميلة عند باب الميدان، من تحت القلعة ووسط طوغان هناك، وأعيد خير بك من داخل القلعة ثم وسط بعد أيام.

وكان أمر طوغان هذا من أعجب العجب؛ فإنه كان في دولة أستاذه الأشرف زردكاشاً، فلما مات الأشرف، خالف خجداشيته وانتمى إلى الملك الظاهر جقمق قبل سلطنته مع الأمير إينال الأشرفي، وصار خصيصاً عند الملك الظاهر، وولاه دواداراً وصار مقرباً عنده. ثم استحال عن السلطان ودبر عليه، وأخرج الملك العزيز، وقام في أمره من غير موافقة أحد من أعيان خجداشيته ولا مشاورة أحد من أرباب العقول. ولم يكن هو من هذا القبيل من سائر الوجوه، فكان من فعله وتدبيره ما ساقه إلى حتفه وتدبيره. وكان طوغان المذكور طوالاً غير لائق في طوله، وعنده طيش وخفة، مع جهل وعدم تثبت في أموره. ولم يكن من أعيان الأشرفية، ولا ممن يلتفت إليه في الدولة - انتهى.

خبر للملك عبد العزيز في فراره وكان من خبر الملك العزيز أنه لما اشتد الطلب عليه ضاقت عليه الأرض، وكان له من يوم فر من القلعة وهو ينتقل من مكان إلى مكان، لا سيما لما كثر الفحص عنه تخوف غاية الخوف، حتى ألجأه ذلك إلى الانفراد مع أزدمر لا غير، ليخف بذلك أمرهما على من أخفاهما، ومع هذا تغلبا أين يذهبان. واحتاج الملك العزيز أن أرسل إلى خاله الأمير بيبرس الأشرفي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، بأنه يريد المجيء إليه في اللياق ويختفي عنده، على ما قيل، فواعده بيرس على أن يأتيه ليلاً.

ثم خاف بيبرس عاقبة أمره، فإنه كان الملك الظاهر جقمق اختص به، وأمره دون إخوته وأكرمه غاية الإكرام. ورأى بيبرس أنه لا يحسن به أن يقبض عليه ويطلع به إلى السلطان، فأعلم جاره يلباي الإينالي المؤيدي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة بمجيء الملك العزيز إليه في الليلة المذكورة، وأعلمه أيضاً أنه يمر من موضع كذا وكذا. فخرج يلباي في الليل متنكراً، ومعه اثنان من خجداشيته المؤيدية، وترصد للعزيز بخط زقاق حلب بعد عشاء الآخرة؛ وبينما هم في ذلك إذ مر بهم العزيز ومعه أزدمر مشده، وهما في هيئة مغربيين، فوثب يلباي بأزدمر ليقبض عليه فامتنع منه ودفع عن نفسه، فضربه يلباي أدمى وجهه وأعانه عليه رفقته، حتى قبض عليه وعلى الملك العزيز، وكان على الملك العزيز جبة صوف من لبس المغاربة. وطلعوا بهما في الحال إلى باب السلسلة ثم إلى السلطان، والملك العزيز حاف بغير نعل في

رجليه، وقد أخذه بعض المؤيدية بأطواقه يسحبه على ما قيل، فإني لم أحضر المجلس تلك الساعة. فلما مثل العزيز بين يدي السلطان أوقف ساعة، ثم أمر به السلطان فأخذ إلى مكان في القلعة وسجن به إلى أن أصبح. وطلع الأمراء وأرباب الدولة إلى الخدمة على العادة، ودقت البشائر لقبض الملك العزيز، وسر السلطان بذلك سروراً عظيماً، وخف عنه الأمر كثيراً بالنسبة إلى ما كان فيه.

ثم أخذ السلطان الملك العزيز إلى زوجته خوند البارزية بقاعة العواميد، وأسلمها العزيز وأمرها أن تجعله في المخدع المعد لمبيت السلطان بالقاعة المذكورة، وأن تتولى أمر أكله وشربه وحاجاته بنفسها. فأقام العزيز على ذلك مدة إلى أن نقله السلطان في ليلة الأربعاء ثامن ذي القعدة إلى مكان بالحوش وضيق عليه، ومنع من جميع خدمه، ثم سيره إلى سجن الإسكندرية، حسبما يأتي ذكره. وأمر السلطان بأزدمر فسجن بالبرج من قلعة الجبل، مع جماعة من خجداشيته الأشرفية، ووجد مع الملك العزيز من الذهب ثمانمائة دينار، أعطى السلطان منها إلى يلباي خمسمائة دينار، وإلى رفيقيه مائة دينار، ثم فرق الباقي من ذلك على من حضر. ثم أنعم السلطان على يلباي المذكور بقرية سرياقوس زيادة على ما بيده، وصار من جملة أمراء الطبلخانات. وهدأ سر السلطان من جهة الملك العزيز، والتفت إلى أخبار إينال الجكمي، وتغري برمش.

ثم في يوم الثلاثاء تاسع وعشرينه، ظهر الأمير إينال الأبو بكري الأشرفي من اختفائه. وكان من خبره أنه من يوم تسحب الملك العزيز خاف القبض عليه، فاختفى إلى أن ظهر الملك العزيز فخف عنه ما داخله من الوهم بسبب الملك العزيز، وقد علم أن السلطان ظهر له أنه لم يجتمع مع الملك العزيز ولا قام بنصرته، وأن اختفاءه كان نوعاً من مهابة السلطان. فلما كان ليلة الثلاثاء المذكورة توجه إلى الأمير جرباش الكريمي المعروف بقاشق أمير مجلس، وترامى عليه واستجار به، وهو يظن أن في السويداء رجالاً، فأجاره وهو يظن أن السلطان يقبل شفاعته.

وكان معظم ظهور إينال المذكور لما بلغه من اختفائه عن السلطان من الثناء عليه وبسط عذره في اختفائه، وأنه باختفائه سكنت الفتنة، فغره هذا الكلام، وأيضاً أنه استند للأمير جرباش أمير مجلس وخجداش السلطان، فأخذه الأمير جرباش من الغد في يوم الثلاثاء المذكور وطلع إلى القلعة. وقد بلغ السلطان خبر إينال وظهوره ثم طلوعه مع جرباش، فحال ما وقع بصر السلطان على إينال أمر به فقبض عليه، وقيد وسجن بمكان بالقلعة حتى يحمل إلى الإسكندرية؛ هذا والأمير جرباش يكرر تقبيل يد السلطان ورجله في أن يشفعه فيه ويدعه بطالاً ببعض الثغور، فلم يلتفت السلطان إلى شفاعته ونزل جرباش إلى داره خجلاً مفضوحاً من حاشيته وأصحابه، ومن يومئذ

انحط قدره إلى أن مات. على أنه صاهر السلطان بعد ذلك وصار حماه، ومع هذا كله لم يكن له صولة في الدولة. وأخرج السلطان إينال من يومه إلى سجن الإسكندرية، وبها أعداؤه من خجداشيته، فكان شماتتهم به أعظم عليه من حبسه.

وأخذ السلطان بعد ذلك يتشوف إلى أخبار عسكره المجرد إلى قتال إينال الجكمي وغيره. فلما كان يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة ورد على السلطان كتاب الأمير آلابغا حاجب غزة يتضمن قتال عسكر السلطان مع إينال الجكمي نائب الشام، في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة، وانهزام إينال الجكمي، فأخذت الناس في هذا الخبر وأعطوا، غير أنه دقت البشائر وسر السلطان بذلك.

ثم أصبح من الغد في يوم الخميس ورد الخبر بمسك إينال الجكمي، فدقت البشائر أيضاً. غير أن السلطان في انتظار كتاب آقبغا التمرازي؛ فورد عليه كتابه في يوم الجمعة عاشر ذي القعدة، وذكر واقعة العسكر مع إينال الجكمي، وملخصها أن العساكر السلطانية المتوجهة من الديار المصرية والمتجمعة بالرملة من النواب والعساكر، ساروا جميعاً من الرملة أمام الأمير قراخجا الحسني ومن معه من الأمراء والمماليك السلطانية، كالجاليش، لكن بالقرب منهم، حتى نزلوا بمنزلة الخربة في يوم الأربعاء مستهل ذي القعدة وقد قدموا بين أيديهم كشافة على عادة العساكر، فعادت الكشافة وأخبروا بقرب إينال الجكمي منهم. فركبوا في الحال بعد أن عبوا أطلابهم، وهم ستة نواب: آقبغا التمرازي نائب الشام، وجلبان الذي استقر نائب حلب، وإينال العلائي نائب صفد - أعني الملك الأشرف - وطوخ مازي نائب غزة، وطوغان العثماني نائب القدس، وخليل بن شاهين وقد استقر نائب ملطية.

وساروا بمن اجتمع عليهم من العشير والعربان جاليشاً، حتى وصلوا إلى مضيق قرب الحرة، وإذا بجاليش إينال الجكمي فيه الأمير قانصوه النوروزي أحد مقدمي الألوف بدمشق، ونائب بعلبك، وكاشف حوران، ومحمد الأسود بن القاق شيخ العشير، ويرعلي الذكري أمير التركمان، وطرعلي بن سقل سيز التركماني، وكثير من العربان والعشير، والجميع دون الألف فارس. وصدموا النواب المذكورة فكانت بينهم وقعة كبيرة، انهزم فيها الأطلاب الستة بعد أن أردفهم إينال الجكمي بنفسه، وركب أقفية القوم، وكان من الشجعان المشهورة، إلى أن أوصلهم إلى السنجق السلطاني، وتحته الأمير قراخجا الحسني الأمير آخور، والأمير تمرباي رأس نوبة النوب بمن معهما من الأمراء والعساكر المصرية، والسنجق بيد الأمير سودون العجمي النوروزي أحد أمراء العشرات ورأس نوبة؛ وقد تخلت عن إينال أصحابه ومدوا أيديهم إلى النهب في أطلاب النواب لما انهزموا أمام العسكر الشامي.

وبقي إينال في أناس قليلة، فحط بهم على العسكر المصري، فثبتوا له وقاتلوه ساعة وقد تفرقت عنه أصحابه بسبب النهب فلم يجد مساعداً، فانهزم بعد أن قتل من الفريقين جماعة كبيرة جداً، ولم يقتل من الأعيان غير الأمير صرغتمش أحد مماليك الوالد، الذي كان دوادار الأمير جلبان، ثم استقر دوادار السلطان بحلب، وخرح خلق كثير. وقبض في الوقعة على الأمير تنم العلائي المؤيدي، وعلى الأمير بيرم صوفي التركماني، وعلى الأمير خير بك القوامي ومحمد بن قانصوه النوروزي وجماعة أخر. وحال بينهم الليل. فلما أصبح العسكر يوم الخميس ثاني في القعدة ورد الخبر عليهم من دمشق بالقبض على إينال الجكمي من قرية حرستا من عمل دمشق فدقت البشائر لذلك، وتفرقت أخصاء السلطان للأعيان بالبشارة، وزال ثلثا ما كان بالسلطان من أمر الملك العزيز وإينال، وبقي تغري برمش.

وكان من خبر مسك إينال الجكمي أنه لما انكسر من العسكر المصري، ساق في نفر يسير إلى أن وصل حرستا وقد تلفت خيوله لبعد المسافة، ونزل بها وقد جهده التعب والجوع، واختفى بها في مزرعة. وأرسل بعض خدمه ليأتيه بطعام، ففطن به رجل وعرف شيخ البلد، فأرسل شيخ البلد إلى نائب قلعة دمشق بالخبر. فخرج من دمشق في طلبه جانبك دوادار برسباي حاجب حجاب دمشق، ومعه جماعة أخر؛ وطرقوه بالقرية على حين غفلة، فقام ودفع عن نفسه بكل ما تصل قدرته إليه، فتكاثروا عليه وطعنه بعضهم في جنبه، ورماه آخر أصاب وجهه، ثم مسكوه وجيء به إلى دمشق على فرسه، وقد وقف الفرس من العي فلم يصل إلى قلعة دمشق إلا بعد العصر، والناس في جموع كثيرة لرؤيته ما بين باك وحزين، وسجن بقلعة دمشق مقيداً. وأصبح دخل آقبغا التمرازي إلى دمشق في باكر نهار الجمعة ثالث ذي القعدة، ومعه العساكر بسلاحهم ونزل بدار السعادة؛ ولم يبتهج أهل دمشق بقدومه لعظم ميلهم لإينال الجكمي، وإن كان آقبغا المذكور صهري فالواقع ما ذكرناه.

ومع هذا وقع يوم دخوله إلى دمشق حادثة غريبة، وهي أن بلبان شيخ كرك نوح، واسمه محمد وولده محمد أيضاً، قدما إلى دمشق بجموعهما من العشير نصرة لعساكر السلطان - وبلبان المذكور فلاح الأمير برسباي الحاجب - كأكابر المدركين، فلم يصل بلبان المذكور حتى انقضت الوقعة، فتأسف على ذلك لما كان بينه وبين إينال الجكمي من المباينة مراعاة لأستاذه برسباي المذكور، فعاد إلى دمشق في خدمة آقبغا التمرازي، إلى أن دخل التمرازي إلى دار السعادة وذهب كل أمير إلى حال سبيله.

فعاد بلبان المذكور فيمن عاد، حتى كان عند المصلى، والعامة قد ملأت الطرقات وهم في كآبة لفقد إينال الجكمي ولما وقع له، فصاح شخص من العامة بواحد من

العشير من أعوان بلبان يقول: " أبا بكر! أبا بكر! "، وتبعه غيره يكررون ذلك مراراً عديدة يريدون نكاية بلبان، فإنهم يرمون بالرفض. فلما كثر ذلك من العامة، ضرب بعض العشير واحداً من العامة، فعند ذلك تجمعوا عليه وأرموه عن فرسه ليقتلوه، فاجتمع أصحابه ليخلصوه من العامة، وقبل أن يخلصوه بادره العامة وذبحوه، وتناولوا الحجارة يرمون بها بلبان وأعوانه، وكانوا في كثرة نحو الخمسمائة نفر وأكثر، فتوغل بلبان بين أصحابه ولم يقدر أن يفوز بنفسه، فتكاثروا عليه وألقوه إلى الأرض عن فرسه وذبحوه، ثم أخذوا ابنه محمداً أيضاً وذبحوه، ووضعوا أيديهم في أصحاب بلبان إلى أن أسرفوا في القتل. ولم يكن لذلك سبب ولا دسيسة من أحد ولا أمر من السلطان، فوقع هذا الأمر ولم يقدر أحد على القيام بأخذ ثأره لاضطراب المملكة، وراحت على من راحت إلى يومنا هذا. قلت: لا جرم، إنما وقع له ببركة الشيخين، فقوصص بذلك في الدنيا، وله في الأخرى أعظم قصاص، نكالاً من الله على رفضه وقبح سريرته.

ثم في يوم الأحد ثاني عشر ذي القعدة، كتب بقتل إينال الجكمي بسجنه بقلعة دمشق، بعد تقريره على أمواله وذخائره، وبقتل جماعة من أصحابه ممن قبض عليه في الوقعة.

ثم قدم الخبر على السلطان، بأن العساكر توجهت من دمشق، في حادي عشر ذي القعدة إلى حلب، بعد أن عاد طوغان نائب القدس إلى القدس، وتأخر آقبغا التمرازي نائب الشام به. وكان الذي توجه من النواب إلى حلب صحبة العساكر المصرية: جلبان نائب حلب وقاني باي الحمزاوي نائب طرابلس، وهو إلى الآن بحماة، غير أنه تهيأ للاجتماع بالعساكر المصرية وعنده أيضاً الأمير بردبك العجمي الذي استقر في نيابة حماة، وقد قدمه إلى حلب؛ وسار من النواب أيضاً الأمير إينال العلائي الناصري نائب صفد، والأمير طوخ مازي نائب غزة.

ثم التقى الجمعان ثانياً في يوم الجمعة خامس عشرين شوال على باب النيرب واقتتلوا يوماً وليلة قتالاً شديداً، قتل فيه عدة كبيرة من الناس، وجرح نائب حماة، وطائفةمن أمراء حلب، ثم رجع كل فريق إلى موضعه. ورحل تغري برمش من موضعه في يوم الأحد سابع وعشرينه، ونزل بالميدان، والحرب مستمر، والعامة تبذل جهدها في قتاله، إلى أن كان يوم الخميس ثاني ذي القعدة أحضر تغري برمش آلات الحصار من مكاحل النفط والسلالم والجنويات إلى باب الفرج، ونصب صيوانه تجاه سور حلب، وجد في قتال الحلبيين.

هذا وأهل حلب يد واحدة على قتاله طول النهار مع ليلة الجمعة بطولها، وأهل حلب

يتضرعون ويدعون الله تعالى. فلما أصبح نهار الجمعة، رحل تغري برمش عن مكانه، وعاد إلى الميدان، بعد أن كانت القضاة وشيوخ العلم والصلاح وقفوا بالمصاحف والربعات على رؤوسهم، وهم ينادون من فوق الأسوار: " الغزاة معاشر الناس في العدو، فإنه من قتل منكم كان في الجنة، ومن قتل من العدو صار إلى النار "، في كلام كثير يحرضون بذلك العامة على القتال، ويقوون عزائمهم على الثبات، إلى أن رحل تغري برمش بمن معه من الميدان إلى الجهة الشمالية، في يوم الأحد خامس ذي القعدة، بعد ما رعت مواشيهم زروع الناس وبساتينهم وكرومهم، وقطعوها ونهبوا القرى التي حول المدينة، وأخربوا غالب العمارات التي كانت خارج سور حلب، وقطعوا القناة التي تدخل إلى مدينة حلب من ثلاثة أماكن. وكان أشد الناس في قتال تغري برمش أهل بانقوسا. هذا بعد أن ظفر تغري برمش بجماعة من الحلبيين في بعض قتاله، فقطع أيدي الجميع، وبالغ في الإضرار بالناس. وأنا أقول: لو كان لتغري برمش على أهل حلب دولة، لفعل فيهم أعظم من فعل تيمورلنك، لقلة دينه وجبروته ولحنقه من أهل حلب؛ وأنا أعرف بحاله من غيري لكونه طالت أيامه في خدمة الوالد سنين، ثم قتل أغاته من مماليك الوالد، وفر كما سنحكيه في وفاته من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ولما بلغ هذا الخبر الملك الظاهر، قلق قلقاً عظيماً لما وقع لرعيته من أهل حلب. فلم يكن إلا أياماً قليلة وقدم الخبر في يوم السبت خامس عشرين ذي القعدة بكسرة تغري برمش المذكور، فدقت البشائر لذلك، وعظم سرور السلطان، غير أنه تشوش لعدم مسكه وخاف عاقبة أمره. وكان من خبره أن العسكر المصري بمن معه من العسكر الشامي، لما ساروا من دمشق إلى جهة حلب، وافاهم الأمير قاني باي محمزاوي وغيره وصاروا جمعاً واحداً، فلقيهم تغري برمش المذكور بجموعه التي كانت معه قريباً من حماة، في يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة، وقد صف عساكره من التركمان وغيرهم، حتى ملؤوا الفضاء. فحال ما وقع بصر عسكره على العساكر السلطانية، أخذوا في الانهزام من غير مصافقة، بل بعض تناوش من صغائر الطائفتين، وولوا الأدبار ومدت العساكر السلطانية أيديها إلى عساكر تغري برمش، فغنموا منهم غنائم لا تحصى كثرة، منها نحو المائتي ألف رأس من الغنم، سوى ما تمزق، ونهب جميع وطاق تغري برمش وماله، وانهزم هو في جماعة يسيرة من خواصه إلى جهة التركمان الصوجية، على ما نذكره من قصته في ذي الحجة من هذه السنة.

ثم في يوم الاثنين سابع عشرين ذي القعدة، قدم النجاب برأس الأمير إينال الجكمي، وكان قتله بقلعة دمشق في ليلة الاثنين عشرين ذي القعدة، فشهرت الرأس على رمح،

ونودي عليه: " هذا جزاء من حارب الله ورسوله "، ثم علقت على باب زويلة. وقتل معه الأمير تنم العلائي المؤيدي، وكان تنم المذكور أدوباً حشماً وقوراً، وأما إينال الجكمي فيأتي التعريف بحاله في الوفيات على العادة.

وأما السلطان الملك الظاهر، فإنه لما بلغه القبض على تغري برمش، كاد أن يطير فرحاً، وعلم أنه الآن بقي في السلطنة بغير نكد ولا تشويش. ودقت البشائر لذلك ثلاثة أيام. وكتب بقتل تغري برمش بعد عقوبته ليقر على أمواله، فعوقب، فأقر على شيء من ماله، نحو الخمسين ألف دينار؛ ثم أنزل ونودي عليه إلى تحت قلعة حلب، وضربت عنقه. وقتل معه أيضاً طرعلي بن سقل سيز. وصفا الوقت للملك الظاهر، وخلا له الجو من غير منازع؛ والتفت الآن إلى من له عنده رأس قديمة يكافئه عليها من خير وشر.

وفي هذه الأيام وقع الاهتمام بتجهيز تجريدة في البحر لغزو الفرنج، وكتب السلطان عدة من المماليك السلطانية، وعليهم الأمير تغري برمش الزردكاش، والسيفي يونس الأمير آخور، وسافروا من ساحل بولاق في يوم الاثنين تاسع شهر ربيع الأول. وكان جملة ما انحدر من ساحل بولاق خمسة عشر غراباً فيها المماليك السلطانية والمطوعة. وسبب هذه التجريدة كثرة عيث الفرنج في البحر، وأخذها مراكب التجار، وهذه أول بعثة بعثها الملك الظاهر من الغزاة.

ثم في يوم السبت سادس عشرين شهر ربيع الآخر، قدم إلى القاهرة رسل القان معين الدين شاه رخ بن تيمورلنك، ملك الشرق، وقد زينت القاهرة لقدومهم، وخرج المقام الناصري محمد ابن السلطان إلى لقائهم، واجتمع الناس لرؤيتهم، فكان لدخولهم يوم مشهود لم يعهد بمثله لقدوم رسل في الدول المتقدمة؛ وأنزلوا بدار أعدت لهم، إلى يوم الاثنين ثامن وعشرينه، فتوجهوا من الدار المذكورة إلى القلعة، بعد أن شقوا القاهرة، وهي مزينة بأحسن زينة، والشموع وغيرها تشعل، وقد اجتمع عالم عظيم لرؤيتهم، وأوقفت العساكر من تحت القلعة إلى باب القصر في وقت الخدمة من باكر النهار المذكور. فلما مثل الرسل بين يدي السلطان، قرىء كتاب شاه رخ، فكان يتضمن السلام والتهنئة بجلوس السلطان على تخت الملك؛ ثم قدمت هديته وهي: مائة فص فيروز، وإحدى وثمانون قطعة من حرير، وعدة ثياب وفرو ومسك وثلاثون بختياً من الجمال وغير ذلك، مما يبلغ قيمته خمسة آلاف دينار. وأعيد الرسل إلى منازلهم، وأجري عليهم الرواتب الهائلة في كل يوم. ثم قلعت الزينة في يوم الثلاثاء سلخه. وكان الناس تفننوا في زينة القاهرة، ونصبوا بها القلاع، وفي ظنهم أنها تتمادى أياماً، فانقضى أمرها بسرعة.

ثم في يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ورد الخبر على السلطان بنصرة الغزاة المجردين إلى قتال الفرنج.

ثم في يوم الثلاثاء ثالث وعشرين شوال، أمسك السلطان الأمير جانبك المحمودي المؤيدي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، وحبسه بالبرج من قلعة الجبل. وكان السلطان قصد مسكه قبل ذلك، فخشي عاقبة خجداشيته، فلما زاد جانبك المذكور عن الحد في التكلم في الدولة ومداخلة السلطان في جميع أموره، بعدم دربة وقلة لباقة، مع حدة وطيش وخفة وسوء خلق، أمسكه في هذا اليوم، وقصد بذلك حركة ظهر من خجداشيته المؤيدية، فلم يتحرك ساكن، بل خاف أكثرهم، وحسن حاله مع السلطان، وانكف أكثرهم عن مداخلة السلطان؛ وأنعم السلطان بإمرته على خجداشه خير بك الأشقر المؤيدي أحد الدوادارية الصغار؛ ولم يكن خيربك المذكور ممن ترشح للإمرة. ومن يومئذ عظم أمر السلطان في ملكه، وهابته الناس، وانقطع عن مداخلته جماعة كبيرة، ثم حمل جانبك المذكور إلى سجن الإسكندرية فسجن به.

هذا والسلطان في اهتمام تجريدة لغزو رودس، وعين عدة كبيرة من المماليك السلطانية والأمراء، ومقدم الجميع اثنان من مقدمي الألوف: الأمير إينال العلائي الناصري، المعزول عن نيابة صفد، والأمير تمرباي رأس نوبة النوب. وسافروا الجميع من ساحل بولاق، في محرم سنة ست وأربعين، ومعهم عدة كبيرة من المطوعة، بأبهج زي من العلا والسلاح؛ وكان لسفرهم بساحل بولاق يوم مشهود، إلا أنهم عادوا في أثناء السفر، ولم ينالوا من رودس غرضاً، بعد أن أخربوا قشتيل حسبما يأتي ذكره في الغزوة الثالثة الكبرى.

ثم في يوم السبت المذكور، خرجت الغزاة من القاهرة، فنزلت في المراكب من ساحل بولاق؛ وقصدوا الإسكندرية ودمياط، ليركبوا من هناك البحر المالح، والجميع قصدهم غزو رودس. وكانوا جمعاً موفوراً، ما بين أمراء وخاصكية ومماليك سلطانية ومطوعة. وكان مقدم الجميع في هذه السنة أيضاً الأمير إينال العلائي الدوادار الكبير، كما كان في السنة الخالية. وكان معه من الأمراء الطبلخانات؛ الأمير يلخجا من مامش الساقي الناصري الرأس نوبة الثاني، ومن العشرات جماعة كبيرة، منهم: تغري برمش الزردكاش، وتغري برمش الفقيه نائب القلعة. وهو مستمر على وظيفته - ورسم السلطان للأمير يونس العلائي الناصري أحد أمراء العشرات أن يسكن بباب المدرج، إلى أن يعود تغري برمش المذكور من الجهاد - وسودون الإينالي المؤيدي قراقاس رأس نوبة، وتمربغا الظاهري جقمق، ونوكار الناصري، وتمراز النوروزي رأس نوبة المعروف بتعريص، ويشبك الفقيه المؤيدي؛ وفيها تأمر بعد عوده - بعد موت تمراز النوروزي من جرح أصابه - وجماعة أخر من أعيان

الخاصكية، كل منهم مقدم على غراب أو زورق، ومعه علة من المماليك السلطانية وغيرهم. وكانت المماليك السلطانية في هذه الغزوة تزيد عدتهم على ألف مملوك، هذا خارج عمن سافر من المطوعة. وأضاف إليهم السلطان أيضاً جماعة كبيرة من أمراء البلاد الشامية، كما فعل الملك الأشرف في غزوة قبرس المقدم ذكرها. ورسم لهم السلطان أن يتوجه الجميع إلى طرابلس، ليضاف إليهم العسكر الشامي، ويسير الجميع عسكراً واحداً، ففعلوا ذلك، وسافر الجميع من ثغر دمياط وثغر الإسكندرية، في يوم الخميس حادي عشر شهر ربيع الآخر؛ وكان لخروجهم من ساحل بولاق يوم عظيم، لم ير مثله إلا نادراً.

وساروا من ثغر الإسكندرية ودمياط إلى طرابلس، ثم من طرابلس إلى رودس، حتى نزلوا على برها بالقرب من مدينتها في الخيم، وقد استعد أهلها للقتال، فأخذوا في حصار المدينة، ونصبوا عليها المناجيق والمكاحل، وأرموا على أبراجها بالمكاحل والمدافع، واستمروا على قتال أهل رودس في كل يوم. هذا ومنهم فرقة كبيرة قد تفرقت في قرى رودس وبساتينها ينهبون ويسبون. واستمروا على ذلك أياماً، ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة، لشدة مقاتليها ولعظم عمارتها، وقد تأهبوا للقتال وحصنوا رودس بالآلات والسلاح والمقاتلة، وصار القتال مستمراً بينهم في كل يوم، وقتل من الطائفتين خلائق كثيرة. هذا وقد استقر الأمير يلخجا الناصري في المراكب، ومعه جماعة كبيرة من المماليك السلطانية وغيرهم، لحفظ المراكب من طارق يطرقهم من الفرنج في البحر، وكان في ذلك غاية المصلحة. وصار يلخجا مقدم العساكر في البحر، كما كان إينال مقدم العساكر في البر. وبينما يلخجا ورفقته ذات يوم، إذ هجم عليهم الفرنج في عدة كبيرة من المراكب، فبرز إليهم يلخجا ومن معه، وقاتلوهم قتالاً عظيماً، حتى نصر الله المسلمين، وانهزم الفرنج وغنم المسلمون منهم.

كل ذلك وقتال رودس مستمر في كل يوم، والعساكر في غاية ما يكون من الاجتهاد في قتال رودس، غير أن رودس لا يزداد أمرها إلا قوة، لعظم استعداد أهلها للقتال. ولما كان في بعض الأيام، وقع للمسلمين محنة عظيمة، قتل فيها جماعة كبيرة من أعيان الغزاة من الخاصكية وغيرهم؛ وهو أن جماعة من المسلمين الأعيان نزلوا في كنيسة تجاه رودس، وبينهم وبين العسكر الإسلامي رفقتهم مخاضة من البحر المالح، وبينهم أيضاً وبين مدينة رودس طريق سالكة. فاتفق أهل رودس على تبييت هؤلاء المسلمين الذين بالكنيسة المذكورة، إلى أن أمكنهم ذلك، فخرجوا إليهم على حين غفلة وطرقوهم بالسيوف والسلاح، وكان المسلمون في أمن من جهتهم، وغالبهم جالس بغير سلاح، وهم أيضاً في قلة والفرنج في كثرة. فلما هجموا على المسلمين، ووقعت العين في العين، قام المسلمون إلى سلاحهم، فمنهم من وصل إلى أخذ سلاحه، وقاتلهم

حتى قتل، ومنهم من قتل دون أخذ سلاحه، ومنهم من ألقى بنفسه إلى الماء ونجا، وهم القليل.

على أنه قتل من الفرنج جماعة كبيرة، قتلتهم فرسان المسلمين قبل أن يقتلوا لما عاينوا الهلاك، أثابهم الله الجنة.

ولما وقعت الهجة، قام كل واحد من المسلمين إلى نجدة هؤلاء المذكورين، فلم يصل إليهم أحد حتى فرغ القتال؛ إلا أن بعض أعيان الخاصكية مع رفقته لحق جماعة من الفرنج قبل دخولهم إلى رودس، ووضعوا فيهم السيف.

وقد استوعبنا واقعتهم بأطول من هذا، في غير هذا الكتاب.

وكان عدة من قتل في هذه الكائنة نيفاً على عشرين نفساً. ودام القتال بعد ذلك في كل يوم بين عساكر الإسلام وبين فرنج رودس أياماً كثيرة، ومدينة رودس لا تزداد إلا قوة. فعند ذلك أجمع المسلمون على العود، وركبوا مراكبهم، وعادوا إلى أن وصلوا إلى ثغر الإسكندرية ودمياط، ثم قدموا إلى القاهرة. فكانت غزوة العام الماضي، أعني غزوة قشتيل التي أخربوها وسبوا أهلها، أبهج من هذه الغزوة، فلله الأمر من قبل ومن بعد. وكان وصول الغزاة المذكورين إلى القاهرة في يوم الخميس ثاني عشر شهر رجب من سنة ثمان وأربعين المذكورة.

* * *

مبدأ نكبة أبي الخير النحاس

على سبيل الاختصار ولما كان يوم الأحد حادي عشر جمادى الأولى من سنة أربع وخمسين المذكورة، أحضر السلطان إلى بين يديه مماليك الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير مجلس، وعين منهم نحو العشرة، ورسم بحبسهم بسجن المقشرة، بسبب تجرئهم على أستاذهم المذكور، وشكواه عليهم. فلما أصبح من الغد في يوم الاثنين ثاني عشره، انفض الموكب السلطاني، ونزل الأمير تنم المذكور صحبة الأتابك إينال العلائي وغيره من الأمراء، فلما صاروا تجاه سويقة منعم، احتاطت بهم المماليك السلطانية الجلبان، وخشنوا لتنم في القول، بسبب شكواه على مماليكه، فأخذ الأتابك إينال في تسكينهم، وضمن لهم خلاص المماليك المذكورة من حبس المقشرة؛ فخلوا عنهم، ورجعوا غارة إلى زين الدين يحيى الأستادار، فوافوه بعد نزوله من الخدمة بالقرب من جامع المارداني، وتناولوه بالدبابيس؛ فمن شدة الضرب ألقى بنفسه عن فرسه، وهرب إلى أن أنجده الأمير أزبك الساقي، والأمير جانبك اليشبكي الوالي، وأركباه على فرسه، وتوجها به إلى داره.

* * *

ابتداء مرض موت السلطان

ولما كان يوم الجمعة رابع وعشرين ذي الحجة، حضر السلطان الملك الظاهر جقمق الصلاة بجامع القلعة على العادة، وهو متوعك. فلما انقضت الصلاة، وخرج من الجامع، غشي عليه، فأرجف في القاهرة بموته، وتكلم الناس بذلك. فأصبح من الغد في يوم السبت خامس عشرينه، وحضر الخدمة في الدهيشة من القلعة، وحضر جميع أكابر الأمراء والخاصكية بغير كلفتاة، وعلم السلطان على قصص كثيرة. ومن غريب الاتفاق ما وقع له، أنه لما خرج إلى الدهيشة، ورأى الناس وقوفاً، قال: " سبحان الحي الذي لا يموت! "، فحسن ذلك ببال الناس كثيراً، عفا الله عنه. ثم أصبح في يوم الأحد سادس وعشرين ذي الحجة، فركب من القلعة ونزل إلى بيت بنته زوجة الأمير أزبك من ططخ الساقي، أحد أمراء العشرات ورأس نوبة، غير أنه لم يطل الجلوس عندها وعاد إلى القلعة من وقته؛ وكان سكن أزبك المذكور يومئذ في الدار الذي خلف حمام بشتك، وهي الآن ملك شخص من أصاغر المماليك الأشرفية، لا أعرفه إلا في هذه الدولة.

ثم في يوم الاثنين سابع وعشرين ذي الحجة، عمل السلطان الموكب بالحوش لقصاد جهان شاه بن قرا يوسف، متملك تبريز وغيرها. وكان قدوم القصاد المذكورين لإعلام السلطان بأن جهان شاه المذكور كسر عساكر بابور بن باي سنقر بن شاه رخ بن تيمورلنك، وأنه استولى على عدة بلاد من ممالكه، وأن عساكر جغتاي ضعف أمرهم لوقوع الوباء في خيولهم ومواشيهم.

واستمر الملك الظاهر مريضاً ملازماً للفراش، وابنه الملك المنصور يأخذ ويعطي في مملكته، ويعزل ويولي، والملك الظاهر في شغل بمرضه، وما به من الألم في زيادة، إلى أن مات في قاعة الدهيشة الجوانية بين المغرب والعشاء من ليلة الثلاثاء ثالث صفر من سنة سبع وخمسين وثمانمائة المقدم ذكرها. وقرىء حوله القرآن العزيز، إلى أن أصبح، وجهز وغسل وكفن من غير عجلة ولا اضطراب، حتى انتهى أمره وحمل على نعشه، وأخرج به، وأمام نعشه ولده السلطان الملك المنصور عثمان ماشياً وجميع أعيان المملكة. وساروا أمام نعشه بسكون ووقار، إلى أن صلي عليه بمصلاة باب القلة من قلعة الجبل، وصلى عليه الخليفة القائم بأمر الله أبو البقاء حمزة، وخلفه السلطان والقضاة وجميع الأمراء والعساكر. ثم حمل بعد انقضاء الصلاة عليه وانزل من القلعة، حتى دفن بتربة أخيه الأمير جاركس القاسمي المصارع، التي جددها مملوكه قاني باي الجاركسي، بالقرب من دار الضيافة تجاه سور القلعة. ولم يشهد ولده الملك المنصور دفنه، وعاد إلى القلعة من المصلاة. وشهد

دفنه خلائق، وقعد الناس في الطرقات لمشاهدة مشهده، وكان مشهده عظيماً إلى الغاية، بخلاف جنائز الملوك السالفة، ولعل هذا لم يقع لملك قبله؛ كل ذلك لكونه سلطن ولده في حياته، ثم مات بعد ذلك بأيام، فلهذا كانت جنازته على هذه الصورة.

* * *

سلطنة المنصور عثمان بن جقمق

السلطان الملك المنصور أبو السعادات فخر الدين عثمان

ابن السلطان الملك الظاهر سيف الدين أبي سعيد جقمق العلائي الظاهري؛

وهو الخامس والثلاثون من ملوك مصر الاتراك، والحادي عشر من الجراكسة

تسلطن بعد أن خلع أبوه الملك الظاهر جقمق نفسه عن الملك، وحضر الخليفة القائم بأمر الله حمزة، والقضاة الأربعة، وجميع الأمراء، وأعيان الدولة بقاعة الدهيشة من قلعة الجبل، وبايعوه بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس الحادي والعشرين من محرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وكانت البيعة له بالسلطنة في الثانية من نهار الخميس بعد طلوع الشمس بخمس وعشرين درجة، ولبس الخلعة على العادة، وركب من الدهيشة وعليه السواد الخليفتي بشعار الملك وأبهة السلطنة على نحو ثلاثين درجة من طلوع الشمس.

وبات الملك المنصور وأمراؤه في ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الأول على تفرقة النفقة على المماليك السلطانية في غده، وقد انبرم أمر القوم، وتجهزوا لما عساه يكون. وأهل شهر ربيع الأول يوم الاثنين، وفيه كان ابتداء الوقعة بين السلطان الملك المنصور عثمان وبين الأتابك إينال العلائي حسبما نذكره هنا على سبيل الإختصار، وقد حررنا ذلك في تاريخنا " حوادث الدهور " باستيعاب. فلما كان وقت السحر من يوم الاثنين مستهل شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة ركب جماعة كبيرة من أعيان المماليك الأشرفية، ورافقهم جمع كبير من المؤيدية والسيفية وغيرهم من غير لبس سلاح، ووقفوا بالرميلة من تحت القلعة لمنع الأمراء من طلوع الخدمة. وكان بالصدف بات تلك الليلة جميع الأمراء في بيوتهم، لكون السلطان كان في أمسه لم يتوجه إلى القصر، وأمر بعمل الخدمة من الغد بالحوش السلطاني، ليبدأ بنفقة المماليك في اليوم المذكور. فلم يكن إلا ساعة يسيرة من وقوفهم، وقدم الأمراء جميعاً إلى الرميلة يريدون طلوع القلعة، فتكاثرت المماليك عليهم واحتاطوا بهم، وأخذوهم غصباً بأجمعهم، وعادوا بهم إلى بيت الأمير الكبير إينال العلائي، وهو من جملتهم، وكان سكنه بالدار التي على بركة النيل الملاصقة لقصر بكتمر الساقي تجاه الكبش. وأخذوا من جملة الأمراء الأمير قراجا الخازندار الظاهري، وقد صار من جملة أمراء مقدمي الألوف، وهو أحد أركان مملكة الملك المنصور عثمان، وأخذوا معه أيضاً من الظاهرية الوزير تغري بردي القلاوي الظاهري، وبرد بك البجمقدار الأمير آخور الثالث. وفات المماليك من أعيان الأمراء الأمير تنم من عبد الرزاق أمير سلاح، فإنه قد أحس بالأمر في أمسه، فلم يحسن بباله إلا موافقة السلطان، لأمر

يريده الله عز وجل، فركب سحراً، وقصد القلعة، ووافاه إلامي تمربغا الظاهري الدوادار الكبير في طريقه، فطلعا معاً إلى الملك المنصور. واجتمع المماليك ومعهم الأمراء في بيت الأمير الكبير، وقد كثر جمعهم، وتزايد عددهم وهم بغير سلاح، وصار جميع الأمراء معهم في صفة الترسيم، ولم يبق عند الملك المنصور من أعيان الأمراء غير الأمير تنم أمير سلاح، والأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير، والأمير تمربغا الدوادار الكبير الظاهري، والأمير جانبك الأستادار؛ وكان أيضاً من أمراء الظاهرية بالقلعة برد بك البجمقدار، فهؤلاء مقدمو الألوف، وإن كان تمربغا إقطاعه طبلخاناه، فمنزلته، وكذلك جانبك الظاهري. وكان عند الملك المنصور من الأمراء غير مماليك أبيه جماعة منهم يونس العلائي الناصري نائب قلعة الجبل، وكزل السودوني المعلم، ومغلباي الشهابي أحد أمراء العشرات، وقطي الدوكاري نائب البحيرة، وعبد الله كاشف الشرقية، ومن مماليك أبيه الأمير لاجين شاد الشراب خاناه، وأسنباي الجمالي الدوادار الثاني، وأزبك من ططخ الخازندار الكبير، وهو صهر الملك المنصور و زوج أخته، و سنقر العايق الأمير آخور الثاني، وسنقر أستادار الصحبة، وجماعة أخر تأمروا في الدولة المنصورية لا يعتد بهم، كونهم إلى الآن صفة الخاصكية؛ فهؤلاء هم الأمراء. وأما من كان عنده من مماليك أبيه الخاصكية والجمدارية وغيرهم فكثير جداً. على أنه كان بالقلعة جماعة كثيرة غير الظاهرية الجقمقية من الظاهرية البرقوقية والناصرية والمؤيدية والأشرفية والسيفية. وأما من كان مع المماليك من أعيان الأمراء ببيت الأمير الكبير من المقدمين؛ الأمير الكبير إينال، وتنبك أمير مجلس، وأسنبغا الطياري رأس نوبة النوب، وخشقدم المؤيدي حاجب الحجاب، وطوخ من تمراز الناصري، وجرباش المحمدي الناصري كرد، ويونس الإقبائي، وقرقماس الأشرفي الجلب.

وأما من أمراء الطبلخانات والعشرات فكثير ذكرناهم في غير هذا المحل، يطول الشرح في ذكرهم. ولما اجتمع القوم في بيت الأمير الكبير، وعظم جمعهم، أتاهم الأمراء والخاصكية والأعيان من كل فج، حتى بقوا في جمع موفور، فأعلنوا عند ذلك بالخروج عن طاعة الملك المنصور، والدخول في طاعة الأمير الكبير إينال، والأمير الكبير يمتنع من ذلك بلسانه، فلم يلتفتوا لتمنعه. وأخذوا في لبس السلاح، فلبسوا في الحال عن آخرهم. وطلبوا الخليفة القائم بأمر الله حمزة، فحضر قبل تمام لبسهم السلاح، واحتفظوا بالأمير قراجا الظاهري، وتغري بردي القلاوي، وبردبك البجمقدار، كونهم ظاهرية جقمقية. ولما حضر الخليفة أظهر الميل الكلي للأتابك إينال، وأظهر كوامن كانت عنده من الملك المنصور وحواشيه، منها: أن المنصور جلس يوم قرئ تقليده على الكرسي وجلس الخليفة مع القضاة أسفل، وأشياء من هذا،

وقام مع الأمراء في خلع المنصور أتم قيام. كل ذلك والمماليك في احتراز عظيم على جماعة من الأمراء، خوفاً من فرارهم إلى الملك المنصور، حتى على الأمير الكبير. ولما تكامل لبس المماليك والأمراء السلاح طلبوا من الأمير الكبير الركوبر، كونهم ظاهرية جقمقية. ولما حضر الخليفة أظهر الميل الكلي للأتابك إينال، وأظهر كوامن كانت عنده من الملك المنصور وحواشيه، منها: أن المنصور جلس يوم قرئ تقليده على الكرسي وجلس الخليفة مع القضاة أسفل، وأشياء من هذا، وقام مع الأمراء في خلع المنصور أتم قيام. كل ذلك والمماليك في احتراز عظيم على جماعة من الأمراء، خوفاً من فرارهم إلى الملك المنصور، حتى على الأمير الكبير. ولما تكامل لبس المماليك والأمراء السلاح طلبوا من الأمير الكبير الركوب معهم والتوجه إلى بيت قوصون تجاه باب السلسلة، فامتنع تمنعاً ليس بذاك، ثم أجابهم في الحال؛ وركب هو والأمراء وحولهم العساكر محدقة بهم إلى أن أوصلوهم إلى بيت قوصون المذكور، ودخلوه من باب سره الذي بالشارع الأعظم، ونزل الأمير الكبير بمن معه من الأمراء بالمقعد من الحوش، وجلس الخليفة بالقصر الفوقاني بالبيت المذكور، ورسم على قراجا وتغري بردي القلاوي وبردبك بالقصر أيضاً؛ كل ذلك والقوم في غير ثقة من الأمير الكبير وغيره من الأمراء، حتى كلم الأمير الكبير بعض أصحابه العقلاء بكلام معناه قول القائل: البسيط

إذا وترت إمرأً فاحذرعداوته ::: من يزرع الشوك لايحصد به عنبا

إن العدو وإن أبدى فسالمةً ::: إذا رأى منك يوماً فرصة وثبا

وأظن القائل له الأمير أرنبغا الناصري أحد أمراء الطبلخانات، فإنه كان أمثل القوم وأقواهم بأساً وأفرطهم شجاعة. وأما الملك المنصور لما بلغه ما وقع من القوم في بيت الأمير الكبير تحقق من عنده من الأمراء والأعيان ركوب الأمير الكبير وخروجه عن الطاعة، فأمروا في الحال يشبك القرمي والي القاهرة أن ينادي بطلوع المماليك السلطانية لأخذ النفقة، وأن النفقة لكل واحد مائة دينار؛ فنزل يشبك من القلعة والمنادي بين يديه ينادي بذلك، إلى أن وصل إلى الرميلة تجاه باب السلسلة، فأخذته الدبابيس من المماليك، فتمزقوا، وذهب القرمي إلى حال سبيله. ثم أمر الملك المنصور لأمرائه وحواشيه بلبس السلاح، فلبسوا بأجمعهم، ولبس هو أيضاً؛ كل ذلك وآراؤهم مفلوكة، وكلمتهم غير منضبطة. وصرت أنا أنظر إليهم من أسفل القلعة، فلم أجد عندهم انزعاجاً ولا هرجاً مع جمودة حركاتهم، ولم ينزل من القلعة أحد لحفظ المدرسة الحسنية، مع معرفتهم أنها مسلطة على القلعة غاية التسليط، هذا مع كثرتهم وقوة بأسهم بالقلعة والسلاح والرجال، وعندهم السلطان وشوكته إلى الآن قائمة فما شاء الله كان.

وأما الأمير الكبير فإنه حال ما استقر به الجلوس ندب دواداره وصهره بردبك، ومعه الأمير سونجبغا اليونسي رأس نوبة، ونوكار الناصري أحد أمراء العشرات وثاني حاجب إلى القلعة رسالة إلى الملك المنصور يطلب منه إخماد الفتنة بإرسال جماعة من أمرائه، وهم: تمربغا الدوادار الكبير، ولاجين شاد الشراب خاناه، وأسنباي الدوادار الثاني، فطلعوا إلى الملك المنصور وكلموه في ذلك، وعادوا إلى الأمير الكبير بأجوبة طويلة مضمونها أنه امتنع من تسليمهم، فأرسلهم الأمير الكبير ثانياً، وصحبتهم بردبك دواداره وصهره، فتوجهوا إلى القلعة، وطلعوا إلى المنصور ثاني مرة، و طلبوا منه ما ذكرناه، فامتنع، وعوق عنده سونجبغا ونوكار، وأرسل بردبك بالجواب. وابتدأ القوم في القتال من يوم الاثنين المذكور، واشتد الحرب، وجرح من الطائفتين جماعة. ثم خرج جماعة من أصحاب الأمير الكبير لأخذ مدرسة السلطان حسن فامتنع من بها من فتح أبوابها، فنقبوا حائطاً من جوارها مما يلي حدرة البقر، ودخلوا منه إلى المدرسة المذكورة، وعمروا سلالم سطحها، وطلعوا منه إلى مآذنها، ورموا منها بالمدافع على قلعة الجبل. وقوي أمر أصحاب الأمير الكبير بأخذ المدرسة المذكورة إلى الغاية، غير أن الأمير الكبير إلى الآن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في الخلاف على المنصور، ويحسب العواقب، وصار يظهر أنه مكره على ذلك، فلم يقبل المنصور منه ما أظهره، وتحقق كل أحد ما القصد بالركوب. ثم نزل الملك المنصور من القصر السلطاني بأمرائه وعسكره إلى الإسطبل السلطاني، وجلس بالمقعد المطل على الرميلة، ونزل من عساكره جماعة مشاة من باب السلسلة إلى الرميلة، لقلة وجود الخيل بالقلعة، فإنه كان أيام الربيع والخيول غالبها مربوطة على القرط بالبر الغربي من الجيزة، حتى إنه كان جميع ما بالقلعة من الخيول أقل من مائة فرس، ومنعوا من إحضار خيولهم التي بالربيع، و عز توصلهم إليها، وقاتلوا القوم وهم مشاة غير مرة. وصار أمر الأمير الكبير في نمو بمن يأتيه من المماليك السلطانية، وجميعهم فرسان غير مشاة، فإنه صار كل واحد منهم يرسل غلامه فيأتيه بفرسه من مربطه بالربيع بخلاف القلعيين، فإنهم ممنوعون من ذلك، من حجر أصحاب الأمير الكبير عليهم لهذا السبب وغيره. ولما رأى الملك المنصور أمر الأمير الكبير في زيادة، أراد النزول إليه بعساكره في الحال من أول وهلة، فمنعه قاني باي الجاركسي من ذلك بسوء تدبيره لأمر سبق، وكان في نزوله غاية المصلحة من وجوه عديدة. ومضى نهار الاثنين بعد قتال كبير وقع فيه، وبات الفريقان في ليلة الثلاثاء على أهبة القتال، وأصبحا يوم الثلاثاء على ما هم عليه من القتال والرمي بالمدافع والنفوط والسهام من الجهتين، والجراحات فاشية في الفريقين، إلا أن فيمن هو أسفل أكثر، غير أنه لا يؤثر فيهم لكثرتهم. ولم يكن وقت الزوال حتى

كثر عسكر الأمير الكبير إينال بمن يأتيه أرسالا من المماليك السلطانية، واستفحل أمره، لا سيما لما نزل الأمير جانبك الظاهري أستادار العالية إليه داخلاً في طاعته، ومعه خجداشه الأمير بردبك البجمقدار، أحد أمراء العشرات، ورأس نوبة، وسر الأمير الكبير بنزوله إلى الغاية. وكان لنزول جانبك المذكور من القلعة أسباب خفية. ثم في هذا اليوم لهج الخليفة أمير المؤمنين القائم بأمر الله حمزة بخلع الملك المنصور عثمان من الملك غير مرة في الملأ، فقوي بذلك قلب أصحاب الأمير الكبير وجدوا في القتال، وتفرقوا على جهات القلعة، وجدوا في حصارها، ومنعوا من يطلع إليها بالميرة وغيرها. وخف الترسيم عن جماعة من الأمراء من أصحاب الأمير الكبير ممن كانت المماليك تخاف من ذهابهم إلى الملك المنصور، وكانوا قبل ذلك يحتفظون بهم بطريق التحشم: وهو أن الأمير منهم كان إذا ركب للقتال أو غيره، دار حوله جماعة من المماليك الأشرفية وغيرهم، وساروا معه حيث سار كأنهم في خدمته حتى يعود إلى مكانه؛ فمن آخر يوم الثلاثاء هذا ومن صبيحة يوم الأربعاء تركوا ذلك لعلمهم أن جميع الأمراء والعساكر صاروا في طاعة الأمير الكبير. وشرع الجميع في القتال بمماليكهم وحواشيهم، وفي عمل التدبير في أخذ الملك المنصور وخلعه من السلطنة، وباتوا تلك الليلة على ما هم عليه. وأصبحوا يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الأول والقتال عمال، وأصحاب الملك المنصور تنسل منه إلى الأمير الكبير واحداً بعد واحد، ومن بقي منهم عند الملك المنصور لا يلتفت إلى من ذهب، بل هو على ما هو عليه من القتال لكثرة عددهم، وللقيام بنصرة ابن أستاذهم، فكان في يوم الأربعاء هذا وقعات بين الطائفتين بالمناوشات لا بالمقابلة، وباتوا على ذلك. فلما كان يوم الخميس رابع شهر ربيع الأول أرسل الملك المنصور إلى الأمير الكبير بالأمير سونجبغا، والأمير نوكار، والزيني عبد الرحمن بن الكويز، وشهاب الدين الإمام الإخميمي، ومعهم منديل الأمان للأمير الكبير ومن معه من الأمراء ليطلعوا إلى طاعة السلطان. وترددوا بين الملك المنصور والأتابك إينال غير مرة في عمل الصلح، وكثر الكلام بينهم إلى أن انفض المجلس على غير طائل، ولم ينبرم صلح، ومنع الأمير الكبير سونجبغا ونوكار من الطلوع إلى القلعة، وعاد الإخميمي بالجواب إلى السلطان. وفي الحال عاد القتال على ما كان عليه، فإنه كان بطل الرمي من القلعة ومن المدرسة لعمل الصلح، فلما انفض الأمر على غير صلح عاد كل أحد من الطائفتين إلى ما كان بصدده. وأعلن الخليفة في هذا اليوم أيضاً بين الملأ بخلع الملك المنصور من السلطنة، وسلطنة الأتابك إينال، والأتابك إينال يمتنع من ذلك في ذلك الوقت حتى ينظر ما يكون من أمر الملك المنصور ومحاصرته. ثم تكلم الخليفة في ذات اليوم أيضاً بين الناس بأعلى كلامه: " قد خلعت الملك المنصور من الملك ".

هذا وقد ضعف أمر الملك المنصور واستفحل أمر الأتابك إينال، غير أن الرمي من القلعة بالمدافع وغيرها مستمر، وهلك من ذلك جماعة كبيرة من عساكر الأمير الكبير ومن الأجناد والعامة والمتفرجين. وأصبح يوم الجمعة خامسه حضر المقر الجمالي ناظر الجيش والخاص وعظيم الدولة عند الأمير الكبير، فقام له الأمير الكبير واعتنقه وأجلسه بإزائه فوق الأمير خشقدم حاجب الحجاب. فعند قدومه تحقق كل أحد بزوال دولة المنصور و إقبال دولة الأتابك إينال. وتكلم المقر الصحابي مع الأتابك كلاماً كثيراً لا يشاركهما في ذلك أحد إلا في النادر، ثم رسم الأمير الكبير بطلب القاضي محب الدين بن الأشقر كاتب السر والقضاة الأربعة، فحضروا في الحال، وقد نزل الخليفة من القصر أيضاً، وجلس عند الأمير الكبير هو والقضاة وشاهدوا المدافع التي ترمي عليهم من القلعة، وكان أهل القلعة في يومي الأربعاء والخميس قد أمعنوا في الرمي من القلعة على الأمير الكبير وأصحابه حتى كان المدفع يصل إلى باب سر بيت قوصون الذي فيه الأمير الكبير، وربما عدى الباب ووقع بالشارع على المار إلى صليبة ابن طولون. ولما حضرت القضاة عند الأمير الكبير تكلموا مع الخليفة في خلع الملك المنصور عثمان بكلام طويل، ثم طلبوا بدر الدين ابن المصري الموقع فأملاه قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني الشافعي ألماظاً كتبها تتضمن القدح في الملك المنصور وخلعه من السلطنة، وكان ذلك في أوائل الساعة الثالثة من نهار الجمعة.

وخلع الملك المنصور في اليوم المذكور من الملك وحكم القضاة بذلك. وكانت مدة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه الملك الظاهر جقمق في يوم الخميس حادي وعشرين المحرم من سنة سبع وخمسين هذه إلى يوم الجمعة هذا شهراً واحداً وثلاثة عشر يوماً؛ ولا نعرف أن سلطاناً أقام هذه المدة اليسيرة في ملك مصر في الدولة التركية غيره. هذا مع كثرة عساكره ومماليك أبيه وحاشيته، وما أرى هذا إلا نوعاً من المجازاة انتهى.

ولما فرغ بدر الدين المصري من كتابة الورقة أمره قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني أن يقرأ ما في الورقة على من حضر المجلس من الأمراء وغيرهم، وقرئت عليهم إلى آخرها. ثم سأل قاضي القضاة من حضر المجلس عن سلطنة الأمير الكبير إينال عليهم، فصاحوا بأجمعهم: " نحن راضون بالأمير الكبير "، وكرر القاضي عليهم القول غير مرة وهم يردون الجواب كمقالتهم أولاً. وفرحوا بذلك، وسروا غاية السرور، وانفض المجلس على خلع الملك المنصور وسلطنة الأتابك إينال؛ غير أنه لم يلبس خلعة السلطنة، ولا ركب بشعار الملك: ترك ذلك لوقته. وصار الناس في خطابه من يومئذ على أقسام وألفاظ مختلفة، فمن الناس من صار يقول له: " يا خوند

" ومنهم من يقول: " أغاه "، ومنهم من يقول: " الأمير الكبير "، ومنهم من يقول: " السلطان " كل ذلك وهو على حالة جلوسه كأول يوم دخل إلى بيت قوصون المذكور، أعني من أول يوم الوقعة، ولم يتغير عليه شيء مما كان عليه، ولم يركب من المقعد المذكور من يوم قدم بيت قوصون غير مرة واحدة في يوم الثلاثاء، وعاد من وسط الحوش قبل أن يصل إلى باب البيت النافذ إلى الرميلة، رده أصحابه إجلالا لقدره، وإنما كان يجلس هو بالمقعد، والأمراء عن يمينه ويساره جلوساً ووقوفاً بين يديه، والمماليك والعساكر تخرج من بين يديه للقتال طائفة بعد أخرى باجتهاد وعمل جد في مدة هذه الأيام من غير أن يستحثهم أحد لذلك، وهذا شيء عظيم إلى الغاية: الخفيف

وإذا سخر الإله أناساً ::: لسعيد فإنهم سعداء

وكنت أنظر في تلك الأيام إلى وجه الأمير الكبير لأتحقق هل هو مسرور أم محزون، فلا أعرف هذا منه لثباته في سائر أحواله، وسكونه وعقله؛ فإنه كان ينفذ الأمور على أحسن وجه من غير اضطراب ولا هرج، بتأن وتؤدة، وكلما وقع من أصحابه ما يخالف ذلك يأخذ في تسكينهم وثباتهم على القتال من غير عجلة، ثم يقول لهم: " القلاع ما تؤخذ إلا بالصبر والثبات والتأني ". ثم إن الأمير الكبير أمر في اليوم المذكور بعمل منبر ليخطب عليه قاضي القضاة بالبيت المذكور لصلاة الجمعة، فصنع ذلك في الحال، وتهيأ القوم لصلاة الجمعة. فلما دخل وقت الصلاة خطب قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني وصلى بالأمير الكبير والخليفة وجميع العساكر بمقعد البيت المذكور، ثم انصرف القضاة بعد الصلاة إلى منازلهم. هذا والقتال مستمر أشد ما يكون بين الطائفتين، وقد تداول نزول الخاصكية والمماليك من عند الملك المنصور إلى الأتابك إينال، وهم مع ذلك كل يوم في زيادة في القتال لا يلتفتون إلى من يذهب من عندهم، ويقول بعضهم لبعض: " نحسبه أنه جرح ومات، وما علينا ممن يتوجه من عندنا، ونحن نقاتل إلى أن نموت "، والملك المنصور جالس بالقصر السلطاني، وعنده من أكابر الأمراء الأمير تنم أمير سلاح، والأمير قاني باي الجاركسي. هذا مع مبالغة أصحاب الأمير الكبير في القتال أيضاً، لا سيما من يوم حضر المقر الجمالي ناظر الجيوش والخاص، ثم حضر القضاة، وخلع الملك المنصور في يوم الجمعة، فمن يومئذ بذلوا نفوسهم لنصرة الأمير الكبير، وخوفاً من أن يصير للملك المنصورعليهم دولة، فسيكون فناؤهم على يديه، وأيضاً إنهم تحققوا سلطنة الأتابك إينال، فاشتاقت نفوسهم لما عساه ينالهم من الإقطاعات والوظائف وغير ذلك، فاقتحموا الاهوال لذلك من غير صبر ولا تأن: الوافر

وأعظم ما يكـــون الشـــوق يومـــاً ::: إذا دنـــت الخيـــام مـــن الخيـــام

هذا والجراحات فاشية في كل من الطائفتين، ويقتل أيضاً منهم في اليوم الواحد والاثنان وأكثر وأقل. ولما كان يوم الجمعة المذكور توعك فيه الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب، ومات من ليلته شبه الفجاءة من غير سابق مرض، وصلي عليه من الغد بالمقعد من بيت قوصون، وحمل ودفن بالصحراء، وكان من محاسن الدنيا. يأتي التعريف بحاله في الوفيات كما هي عادة هذا الكتاب. ثم أصبح يوم السبت سادس شهر ربيع الأول حضر المقر الجمالي الصاحبي ناظر الجيش والخاص عند الأمير الكبير، وصحبته غالب مباشري الدولة والقضاة، وكتبوا محضراً يتضمن ما وقع في أمسه من خلع الملك المنصور من السلطنة ومبايعة العساكر للأمير الكبير بالسلطنة؛ وكتب في المحضر جماعة كبيرة من أمراء الظاهرية وغيرهم، وفيه قوادح في الملك المنصور، ذكرناها في غير هذا المحل. وجد في هذا اليوم كل من العسكرين في القتال، ورتب الأمير الكبير جماعة من أعيان الأمراء على المواضع التي يتوصل منها إلى القلعة، وحرض الوالي وغيره على مسك من يطلع إلى القلعة من الغلمان والخدم بالمآكل وغيرها، ومسك بسبب ذلك جماعة وضرب آخرون. وفي هذا اليوم والذي قبله صارت أمراء الألوف تخاطب الأمير الكبير وهم وقوف، وصار لا يقوم لأحد منهم عند ذهابه وإيابه. وكان الأمير أسنبغا الطياري رأس نوبة النوب رحمه الله في يوم الجمعة الذي مرض فيه رمل على كتابة الأمير الكبير على المراسيم وغيرها؛ وناهيك بأسنبغا، فإنه كان يوم ذلك أمثل الأمراء وأجلهم. رأيته أنا وهو يرمل على علامته من غير أن يحتشم معه الأمير الكبير في ذلك ولا تجمل معه، بل صار كلما علم العلامة ورمى بها أخذها أسنبغا ورمل عليها كما كان يفعله مع السلطان، فإن العادة لا يرمل على السلطان إلا رأس نوبة النوب. هذا وقد تحقق أهل القلعة زوال ملك الملك المنصور، وهم على ما هم عليه من الشدة في القتال، والقيام بنصرة ابن أستاذهم، غير أنهم كما قيل في الأمثال: " سلاح حاضر وعقل غائب "، لكونهم شباباً لم تمر بهم التجارب، ولا لهم ممارسة بالحروب، ولا يعرفون نوعاً من أنواع الخديعة والمكر بأخصامهم، وأيضاً لم يكن عندهم من الأمراء وغيرهم ممن له خبرة بهذه الأنواع غير أمير واحد وجندي، وكل منهما غير مقبول الكلمة عندهم. فالأمير كزل المعلم، والجندي السيفي كمشبغا الظاهري برقوق المعلم، وأما من عداهما من الأمراء فحالهم معروف لا يحتاج إلى بيان؛ وأعظم من كان هناك من الأمراء الأمير تنم أمير سلاح، وقاني باي الجاركسي الأمير آخور؛ فأما تنم فإنه لم يأت بشيء، إما تقصيراً منه لمعنى من المعاني، أو لقلة دربته بالحروب والخطوب، وأما قاني باي فحاله معروف لا يحتاج للتعريف به. وأصبح الناس في

يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول والقتال مستمر بين الفريقين، وكل منهم في أشد ما يكون من القيام بنصرة صاحبهم إلى قريب الظهر، فنزل من القلعة جماعة كبيرة مشاة إلى عند سبيل المؤمني، فخرج إليهم جماعة كبيرة من عسكر الأمير الكبير، وتقاتلوا بالرماح والسيوف والإطبار، وافترقوا ثم التقوا غير مرة حتى أردف عسكر الأمير الكبير طوخ من تمراز الناصري من مكانه الذي كان مقيماً عند زاوية قاني باي الجاركسي بجماعته، ثم أردفهم جماعة أخر من عند الأمير الكبير، والتحم القتال بينهم وقتل جماعة من عكسر الأمير الكبير، منهم: طقتمر الناصري رأس نوبة الجمدارية تهبيراً لأنه كان هرب من عند الملك المنصور ونزل إلى الأمير الكبير في يومه، فلما ظفروا به قتلوه، لما كان في نفوسهم منه ثم ممجق اليشبكي الخاصكي أخذ سحباً إلى القلعة، فمات من جراحه وأيتمش المؤيدي الخاصكي، وقاني باي الأشرفي الخاصكي وغيرهم.

ودام القتال بينهم حتى ملك أصحاب الأمير الكبير سبيل المؤمني بعد أمور وحروب. ثم أطلقت أصحاب الأمير الكبير النار في البيوت التي بجوار الميدان برأي تمراز الأشرفي الزردكاش، فتعلقت النار فيهم حتى وصلت إلى سقف المسجد من سبيل المؤمني وأحرقته عن آخره؛ وكان بسطحه جماعة كبيرة من السلطانية فنزلوا عنده، فحينئذ وجد أصحاب الأمير الكبير طريقاً لهدم سور الميدان، فهدموا جانباً منه، ودخلوا منه إلى الميدان الذي تحت قلعة الجبل. هذا وقد انحاز السلطانية إلى باب السلسلة، فكان في هذا اليوم حرب بين الطائفتين لم يقع مثله في الستة أيام الماضية. فلما دخل القوم إلى الميدان ولت المنصورية الأدبار، وقام السلطان الملك المنصور عثمان من مجلسه بمقعد الإسطبل السلطاني، وطلع إلى القصر الأبلق من قلعة الجبل، ومعه جماعة كبيرة من مماليك أبيه وغيرهم من الأمراء والخاصكية، ودخل قاني باي الجاركسي إلى مبيت الحراقة من الإسطبل، ودام الأمير تنم بالمقعد مستعزاً بخجداشيته المؤيدية وغيرهم. وتمزقت عساكر المنصور في الوقت كأنها لم تكن، من غير أمر أوجب ذلك، وتركوا باب السلسلة وفروا منه قبل أن يطلع إليه واحد من أصحاب الأتابك إينال، ثم فعلوا ذلك أيضاً بقلعة الجبل وتركوها وأبوابها مفتحة، ولم يقاتلوا بها ساعة واحدة، وتمزقوا كل ممزق. وكان هذا بعكس ما كان منهم في السبعة أيام الماضية من شدة القتال وعظم الثبات وقوة البأس، إلى أن كان من أمرهم ما كان في هذا اليوم، وتركوا باب السلسلة والقلعة وانصرفوا في الحال على أقبح وجه. وكان يمكنهم أن يقاتلوا القوم بالميدان أياماً، فإن الميدان لا فرق بينه وبين الرميلة، وليس بينه وبين

باب السلسلة تعلق. وأيضاً ولو ملكت أصحاب الأمير الكبير باب السلسلة والإسطبل السلطاني كان يمكنهم القتال من القلعة أياماً، إذ ليس للقلعة تعلق بالإسطبل: وقد ملك المؤيد شيخ أيام إمرته الإسطبل من الأمير أرغون الأمير آخور نائب غيبة الملك الناصر فرج، ودام به أياماً، ولم يقدر على أخذ القلعة ولا توصل إليها بوجه من الوجوه، وكان مع الملك المؤيد أقوام هم هم، وأيضاً لم يكن بالقلعة يوم ذاك بعض من كان بها الآن؛ ووقع ذلك لخلائق من الملوك أنهم ملكوا باب السلسلة ولم يقدروا على أخذ القلعة. والمقصود من هذا الكلام أن ليس للقلعة علاقة بباب السلسلة إلا في الأمن والرخاء لا غير؛ كل ذلك لما تقدم ذكره أنه ليس عندهم من يدبرأمورهم، وإلا فكان يمكنهم أن يطلعوا إلى القلعة ويحصنوها ويقاتلوا بها أياماً حتى تعمل مصالحهم، وإذا سلموها يعطوها بالأمان والرضا، هذا إذا لم يكن لهم نهضة للهروب والخروج من الديار المصرية، والإختفاء في مكان من الامكنة من القاهرة، كما فعل غيرهم من الملوك السالفة. على أن أصحاب الأمير الكبير كان أخذ منهم التعب والجهد في هذا اليوم والذي قبله أمراً كبيراً، وكل أكثرهم من القتال، فلو امتنعت السلطانية بباب السلسلة يوماً أو يومين لطال أمرهم بعد ذلك، ووقع لهم أمور ليس في ذكرها الآن فائدة. وكان أمر المماليك الظاهرية في مبدأ الأمر عجيباً من شدة بأسهم أولاً، وفي تهاونهم آخراً؛ وقد قيل في الأمثال: " على قدر الصعود يكون الهبوط ". ولما بلغ الأمير الكبير إينال طلوع الملك المنصور من الإسطبل السلطاني إلى القصر الأبلق ندب في الحال الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد إلى الطلوع إلى باب السلسلة وتسليم الإسطبل السلطاني. ولم يتحرك الأمير الكبير من مكانه، ولا ظهر عليه فرح ولا كآبة، فهذا أيضاً مما تعجبت منه. وطلع الأمير جرباش إلى باب السلسلة بعد أن استولى أصحاب الأمير الكبير عليها. وكان من خبر أخذهم لباب السلسلة أن الأمير تنم من عبد الرزاق المؤيدي أمير سلاح لما قام الملك المنصور وطلع إلى القصر، وتشتت عساكره ثم دخل قاني باي الجاركسي مبيت الحراقة من الإسطبل، قام تنم المذكور ومشى إلى المقعد الذي كان يجلس به الملك المنصور في أيام الوقعة، وأشار إلى القوم بمنديل كان بيده كمن يطلب الأمان، ثم ركب في الحال وفي زعمه أن الجماعة تتلقاه بالرحب والقبول، لأياد كانت له، وصحبة عند الأمير الكبير قديماً وحديثاً، وأيضاً أن غالب من كان من أصحاب الأمير الكبير هو خجداشه أو صاحبه، فركب فرسه ونزل حتى

وقف عند باب السلسلة أسفل الحدرة. وفتحت خوخة باب السلسلة ودخل القوم، فحال ما وقع بصرهم عليه تناولته الألسن والأيدي بالسب والضرب، حتى أخذ وأنزل بغير تخفيفة على حالة غير مرضية، ولولا أن بعض خجداشيته المؤيدية حماه لكان أمره ربما وصل إلى التلاف. وكذلك وقع للأمير كزل المعلم. وأما عبد الله كاشف الشرقية فإنه أخذ ورأسه مكشوفة وشيبته قد تضمخت بالدماء السائلة على وجهه من الضرب بالدبابيس، والقوم تهجم عليه كرة بعد أخرى لهلاكه، لولا قائل كفهم عنه وهو يقول: " لا تقتلوه؛ يروح مال السلطان، دعوه حتى يأخذ السلطان أمواله "، ثم وقع ذلك بجماعة من الخاصكية يطول الشرح في ذكرهم من الإخذ والسلب مما عليهم والآخراق بهم.

وأما الأمير تنم فإنه لما أخذوه ودخلوا به إلى الأمير الكبير، وعلى رأسه قبع أخضر من غير تخفيفة، ومعه كزل المعلم، وعبد الله الكاشف، فأوقف بين يدي الأمير الكبير على بعد، فكان أول ما تكلم به تنم أن قال: " بيني وبين الأمير الكبير عهود " أو معنى ذلك، فقال الأمير الكبير: " أنت نقضت العهد " يعني بتركه وطلوعه إلى الملك المنصور. ثم أمر به وبرفقته فحبسوا بالقصر عند الأمير قراجا وغيره، ثم نقلوا بعد ساعة إلى ركبخاناه الإسطبل السلطاني، وأضيف إليهم قاني باي الجاركسي وغيره ممن يأتي ذكرهم عند توجههم إلى سجن الإسكندرية. ولما طلع الأمير جرباش إلى الإسطبل وملك باب السلسلة، قام الأمير الكبير عند ذلك من مقعد بيت الأمير قوصون، وركب فرسه، وخرج منه في موكب عظيم إلى الغاية، والخليفة عن يمينه، وتنبك البردكي أمير مجلس عن يساره، والعساكر بين يديه محدقة به، وقد وقفت الخلائق دهليزاً لرؤيته، حتى سار من بيت قوصون تجاه باب السلسلة إلى أن طلع إليها، وجلس بالحراقة من باب السلسلة؛ فحال جلوسه تفرقت العساكر في قبض أعيان الأمراء الظاهرية وغيرهم، فقبضوا منهم على جماعة كثيرة يأتي ذكرهم بعد ذلك. ثم أخذ قاني باي الجاركسي من مبيت الحراقة، وأنزل به عند رفقته المقبوض عليهم، وقيدوا الجميع بركبخاناة الإسطبل، ولم ينج أحد من أمراء الظاهرية غير أسنباي الجمالي الدوادار الثاني، فإنه فر من القلعة، واختفى على ما سيأتي ذكره. ثم أمر السلطان في الوقت بالإفراج عن الأمير قراجا الظاهري، وعن الأمير تغري بردي القلاوي، وعن الأمير بردبك الأمير آخور الثالث، ورسم لهم بلبس الكلفتاه من الغد، وحضور الخدمة السلطانية. ثم رسم الأمير الكبير في الحال بقلع

السلاح، وقلع هو قبل الناس ما كان عليه، وكان لبسه في تلك الأيام كلها قرقل مخمل أحمر بغير أكمام. وقلعت العساكر في الحال السلاح من عليهم، وسكنت الفتنة كأنها لم تكن، وبات الناس في أمن وسلامة. على أن القاهرة كانت في مدة هذه الأيام، والقتال عمال في كل يوم، في غاية الأمن، والحوانيت مفتحة، والناس في بيعهم وشرائهم، وأكثرهم جالس بالدكاكين للفرجة على من يمر عليهم من العساكر الملبسة، بل كان يتوجه منهم أيضاً جماعة كبيرة إلى الرميلة للفرجة على القتال كما كان يتوجه بعضهم للفرجة على المحمل وغيره. ولم تقفل أبواب القاهرة في هذه المدة، ولا شوشت الزعر على أحد، بل كان كل واحد يمضي إلى حال سبيله، والقتال عمال بين الطائفتين لا يصيب من العامة إلا من توغل منهم بين المقاتلة، فهذا أيضاً من الغرائب. على أننا لا نعلم وقعة كانت بمصر تطول هذه المدة، ولا حوصرت قلعة الجبل سبعة أيام إلا في هذه الواقعة. وأما وقعة يشبك الشعباني ورفقته مع الملك الناصر المقدم ذكرها ليس هي كهذه الوقعة، ومع هذا قفلت القاهرة في تلك الكائنة أياماً ونهبت الزعر عدة أماكن، فكانت هذه الوقعة بخلاف جميع الوقائع في هذا المعنى انتهى.

وبات الأمير الكبير إينال بمبيت الحراقة من الإسطبل السلطاني حتى أصبح وتسلطن منه، على ما يأتي ذكره مفصلاً في ترجمته عقيب هذه الترجدة. وزالت دولة الملك المنصور عثمان كأنها لم تكن، فسبحان من لا يزول ملكه. وكانت ممة سلطنة الملك المنصور من يوم تسلطن بعد خلع أبيه حسبما تقدم ذكره إلى يوم خلعه الخليفة يوم الجمعة خامس شهر ربيع الأول شهراً واحداً وثلاثة عشريوماً، وإلى يوم تسلطن الملك الأشرف إينال في صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول المذكور شهراً وستة عشر يوماً. ولا نعلم أحداً من ملوك مصر من الأتراك كانت مدته في الملك أقصر من مدة الملك المنصور هذا، مع عظم شوكته، وثبات قدمه في الملك. فما شاء الله كان، وما هذا إلا نوع من القصاص. وقد ورد في الإسرائيليات: يقول الله سبحانه وتعالى: " يا داود أنا الرب الودود، أعامل الأبناء بما فعلت الجدود ". وقد رأينا هذه المكافأة في واحد بعد واحد من يوم خلع الملك المنصور حاجي بالملك الظاهر برقوق من السلطنة إلى يومنا هذا، والجميع يشربون هذا الكأس جمن يد أتابكتهم، ويرد عليهم هذا الشراب بتدبير مماليك أبيهم؛ وقد تقدم ذكر هذا المعنى في مواطن كثيرة، والإضراب عن ذكر هذا أجمل.

ولما طلع الملك المنصور من الإسطبل إلى القصر ودعه مماليك أبيه وفارقوه، فلا قوة إلا بالله. وتوجه هو إلى الحريم السلطاني عند والدته، وأقام عندها إلى أن طلبه

منها الملك الأشرف إينال، فخرجت معه إلى قاعة البحرة بالحوش السلطاني من قلعة الجبل، فأقام الملك المنصور بالبحرة من يوم خلع هو ومن يخدمه مع والدته وأولاده والجميع في الترسيم إلى يوم الأحد ثامن وعشرين شهر ربيع الأول، فأخذ منها بجميع خدمه ووالدته وأولاده، وأنزلوا الجميع في حراقة إلى ثغر الإسكندرية. وكانت هيئة نزول الملك المنصور من القلعة أنه أركب على فرس بوزبقيد، من غير أن يركب أحد من الأوجاقية خلفه كما هي عادة الملوك من الأمراء، ومضوا به من باب القرافة في وقت القائلة، وقد خرجوا الناس للفرجة عليه بخارج القاهرة، وساروا به وحوله الخاصكية بالسيوف والرماح، وجماعة كبيرة من أعيان الأمراء، وقد ازدحم الناس بالكيمان للفرجة عليه، حتى اجتاز بقرافة مصر القديمة إلى أن وصل إلى نيل مصر، وأنزل في الحراقة، وسافر من وقته في بحر النيل إلى الإسكندرية، فسجن بها. وهذا أيضاً من الغرائب من أن ملك مصر يخلع ويتوجه مقيداً إلى الإسكندرية نهاراً، ولم يقع ذلك لغيره في السنين الخالية. وكان مسفره خيربك الأشقر المؤيدي الأمير آخور الثاني. واستمر الملك المنصور مسجوناً بثغر الإسكندرية وعنده والدته وجواريه وأولاده إلى ما يأتي ذكره أحسن الله عاقبته بمحمد وآله.

* * *

سلطنة الأشرف إينال العلائي

السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر إينال بن عبد الله العلائي الظاهري ثم الناصري. ملك الديار المصرية بعد انهزام الملك المنصور عثمان في يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة، وطلع إلى باب السلسلة وبات بمبيت الحراقة حسبما ذكرنا إلى أن تسلطن من الغد. وقد ذكرنا طلوعه وما وقع له في حرب الملك المنصور في ترجمته مفصلا، ويأتي ذكرسلطنته أيضاً في أول ترجمته كما هي عادة هذا الكتاب. والملك الأشرف هذا هو السلطان السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثاني عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بها. ولما كان صبيحة يوم الاثنين ثامن شهر ربيع الأول من سنة سبع وخمسين المذكورة طلع أعيان الدولة والعساكر إلى الإسطبل السلطاني بقماش الموكب، وانضموا الجميع بالحراقة من باب السلسلة، وقد حضر الخليفة والقضاة الأربعة وسائر أمراء الدولة، وبويع الأمير الكبير إينال بالسلطنة، ولقب بالملك الأشرف، ولبس خلعة السلطنة من مبيت الحراقة بالإسطبل السلطاني في أول ساعة من النهار المذكور، بعد طلوع الشمس بنحو ست درجات، في ساعة القمر، والطالع الحمل. وكان بويع بالسلطنة حسبما تقدم ذكره في بيت قوصون قبل أن يملك قلعة الجبل في يوم الأربعاء ثالثة، ثم في يوم الجمعة حسبما ذكرنا ذلك في وقته، ثم في يوم السبت سادسه، ثم في عصر أمسه بعد طلوعه إلى باب السلسلة، والعهدة في سلطنته من وقت لبسه الخلعة السوداء الخليفتية وركوبه بشعار الملك. ولما تم لبسه خلعة السلطنة من المبيت المذكور، خرج منه، ومشى حتى ركب فرس النوبة، بأبهة السلطنة وشعار الملك، وحمل ولده المقام الشهابي أحمد القبة والطير على رأسه حتى طلع إلى القصر السلطاني، والأمراء والعساكر مشاة بين يديه، ما خلا الخليفة. وسار على تلك الهيئة إلى أن وصل إلى باب القصر، فنزل عن فرسه، ودخل القصر الكبير، وجلس بإيوانه على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وخلع على الخليفة القائم بأمر الله فوقانياً كمخاً حريراً بوجهين أخضر وأبيض، بطرز يلبغاوي زركش، وقدم له فرساً بسرج ذهب، وكنبوش زركش. وتم جلوسه بالقصر السلطاني إلى يوم الجمعة على ما سنذكره بعد ذكر نسبه فنقول:

أصله جاركسي الجنس، أخذ من بلاده، فاشتراه خواجا علاء الدين علي، وقدم به إلى القاهرة، هو وأخيه طوخ، وطوخ كان الأكبر، وكان اسم إينال غير إينال، فاستقر إينال، فاشتراهما الملك الظاهر برقوق أعني إينال وطوخ من الخواجا علاء الدين المذكور في حدود سنة تسع وتسعين وسبعمائة تخميناً، فأعتق الظاهر أخاه طوخ المذكور، ودام إينال هذا كتابياً بطبقة الزمام، إلى أن ملكه الملك الناصر فرج بن

برقوق وأعتقه، وأخرج له خيلاً على العادة. واستمر من جملة المماليك السلطانية، إلى أن صار في آخر الدولة الناصرية خاصكياً، فدام على ذلك إلى أن أنعم عليه الأمير الكبير ططر في الدولة المظفرية بإمرة عشرة من أوائل سنة أربع وعشرين. ثم نقل إلى إمرة طبلخاناه في أوائل دولة الأشرف برسباي في سنة خمس وعشرين وثمانمائة. ثم صار بعد انتقال قاني باي الأبوبكري البهلوان إلى تقدمة ألف، ثاني رأس نوبة النوب. ثم نقل إلى نيابة غزة بعد عزل الأمير تمراز القرمشي وقدومه إلى الديار المصرية، وذلك في يوم الثلاثاء ثامن وعشرين شوال سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، فباشر نيابة غزة إلى أن سافر صحبة الملك الأشرف برسباي إلى آمد في سنة ست وثلاثين وثمانمائة. ولما عاد الأشرف من آمد ونزل بمدينة الرها وقد استولى عليها وهي خراب طلبه الملك الأشرف ليستقر في نيابة الرها فامتنع، ورمى بسيفه وأغلظ للأشرف في الكلام، فاستشاط الأشرف غضباً ولم يسعه إلا أن طلب مملوكه قراجا شاد الشراب خاناه، وخلع عليه بنيابة الرها، وقال: " أنا ما يمتثل أوامري إلا مماليكي ". وانفض الموكب، وذهب إينال هذا إلى مخيمه، فندم على ما وقع منه، وخوف عواقب ذلك، فأذعن. وطلبه السلطان في عصر النهار المذكور، وخلع عليه أطلسين متمراً، ووعده بأن يمده بالسلاح والعليق وغير ذلك، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية، زيادة على نيابة الرها، عوضاً عن جانبك الحمزاوي المستقر في نيابة غزة عوضه. وخرج إينال وهو متغير اللون رأيته لما سلمت عليه ودام في نيابة الرها، إلى أن عزله الأشرف عنها بالأمير شاد بك الجكمي ثاني رأس نوبة في يوم الثلاثاء سابع وعشرين شوال سنة سبع وثلاثين، واستقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة وتقدمة ألف، وهو الإقطاع الذي كان بيده زيادة على نيابة الرها. ودام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف في يوم الخميس عاشر رجب سنة أربعين وثمانمائة بنيابة صفد بعد عزل الأمير يونس الركني الأرغوني الأعور عنها. فاستمر في صفد إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق في سنة ثلاث وأربعين، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في صفر السنة المذكورة، وولى صفد عوضه قاني باي البهلوان أتابك دمشق. وكان قدوم إينال هذا إلى القاهرة في يوم السبت ثالث عشر صفر، فدام بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد موت تغري بردي البكلمشي المؤذي في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين، فباشر الدوادارية إلى أن نقله الظاهر إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابك يشبك السودوني المشد في سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فدام أتابكاً إلى أن مات الظاهر جقمق، وملك بعده ابنه المنصور عثمان، ووقع ما حكيناه من الفتنة بينه وبين

المنصور حتى خلع المنصور وتسلطن حسبما ذكرناه في أول هذه الترجمة انتهى ذكر نسبه. اد بك الجكمي ثاني رأس نوبة في يوم الثلاثاء سابع عشرين شوال سنة سبع وثلاثين، واستقدمه إلى القاهرة على إمرة مائة وتقدمة ألف، وهو الإقطاع الذي كان بيده زيادة على نيابة الرها. ودام بمصر إلى أن خلع عليه الأشرف في يوم الخميس عاشر رجب سنة أربعين وثمانمائة بنيابة صفد بعد عزل الأمير يونس الركني الأرغوني إلاعور عنها. فاستمر في صفد إلى أن طلبه الملك الظاهر جقمق في سنة ثلاث وأربعين، وأنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية في صفر السنة المذكورة، وولى صفد عوضه قاني باي البهلوان أتابك دمشق. وكان قدوم إينال هذا إلى القاهرة في يوم السبت ثالث عشر صفر، فدام بالقاهرة من جملة أمراء الألوف إلى أن نقله الملك الظاهر جقمق إلى الدوادارية الكبرى بعد موت تغري بردي البكلمشي المؤذي في يوم الخميس ثالث عشر جمادى الآخرة سنة ست وأربعين، فبلشر الدوادارية إلى أن نقله الظاهر إلى أتابكية العساكر بالديار المصرية دفعة واحدة بعد موت الأتابك يشبك السودوني المشد في سنة تسع وأربعين وثمانمائة، فدام أتابكاً إلى أن مات الظاهر جقمق، وملك بعده ابنه المنصور عثمان، ووقع ما حكيناه من الفتنة بينه وبين المنصور حتى خلع المنصور وتسلطن حسبما ذكرناه في أول هذه الترجمة انتهى ذكر نسبه.

واستهلت سنة ستين وثمانمائة. فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم نزلت المماليك الأجلاب من الأطباق، وقصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينهبوا ما فيه؛ وكأنه أحس بذلك وشال ما كان في بيته، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه ما يأخذونه، فمالوا على من هو ساكن بجوار بيت فرج المذكور فنهبوهم بحيث إنهم أخذوا غالب متاع الناس، ولا قوة إلا بالله. وفي يوم الأربعاء حادي وعشرين المحرم ورد الخبر على السلطان بموت الأمير آقبردي الساقي نائب ملطية بها، فرسم السلطان لجانبك الجكمي المعزول عن نيابة ملطية قبل ذلك بنيابة ملطية على عادته أولاً، ورسم بأن يستقر في نيابة طرسوس عوضاً عن جانبك الجكمي آقباي السيفي جار قطلو، وكان آقباي أيضاً ولي نيابة طرسوس قبل ذلك. وفي يوم الأربعاء ثالث عشر صفر من سنة ستين المذكورة أخرق المماليك الأجلاب بعظيم الدولة الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص بغير سبب أوجب ذلك، وشق ذلك على كل أحد، ولم تنتطح في ذلك شاتان.

وفي يوم السبت ثامن عشر جمادى الأولى من سنة ستين أيضاً وصل قاصد السلطان محمد بن مراد بك بن عثمان متملك بلاد الروم، وهو جمال الدين عبد الله القابوني، وطلع إلى السلطان في يوم الثلاثاء وعلى يده كتاب مرسله، يتضمن البشارة بفتح

قسطنطينية، والكتاب نظم ونثر، وقفت عليه وعلى جوابه من السلطان من إنشاء القاضي معين الدين عبد اللطيف ابن العجمي نائب كاتب السر، وأثبت الكتاب الوارد والجواب كليهما في تاريخنا " حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور " إذ هو محل ضبط هذه الأشياء. وفي يوم الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من السنة أمسك السلطان الأمير زين الدين الأستادار، ووضع في عنقه الجنزير، وحطه إلى الأرض ليضربه، ثم رفع من على الأرض بغير ضرب، وحبس عند الطواشي فيروز الزمام والخازندار، واستقر عوضه في الأستادارية سعد الدين فرج بن النحال الوزير، واستقر علي بن الأهناسي البردرار وزيراً عوضاً عن فرج المذكور. فلما سمعت المماليك الأجلاب بهذا العزل والولاية نزلوا من وقتهم غارة إلى بيت الأستادار لينهبوه، فمنعهم مماليك زين الدين، وقاتلوهم وأغلقوا الدروب. فلما عجزوا عن نهب بيت زين الدين نهبوا بيوت الناس من عند بيت زين الدين إلى قنطرة أمير حسين، فأخذوا ما لا يدخل تحت حصر كثرة. واستمروا في النهب من باكر النهار إلى قريب العصر، وفعلوا بالمسلمين أفعاإلا لا تفعلها الكفرة ولا الخوارج مبالغة، وهذا أعظم مما كان وقع منهم من نهب جوار بيت الوزير فرج، فكانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث الشنيعة التي لم نسمع بأقبح منها في سالف الأعصار. ومن ثم دخل في قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب أمر لا مزيد عليه، لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم، وأن السلطان لا يقوم بناصر من قهر منهم. ووقعت حادثة عجيبة مضحكة، وهي أنه لما عظم رجيف الناس والعامة من هذه المماليك الأجلاب اتفق أن جهاز بنت الناصري محمد بن الثلاج الأمير آخور خرج من بيت أبيها إلى بيت زوجها الأمير جانبك قرا الأشرفي، وحمل ذلك على رؤوس الحمالين والبغال كما هي عادة المصريين، وسارت الحمالون بالمتاع، فوقع من على رأس بعضهم قطعة نحاس، فجفل من ذلك فرس بعض الأجناد، فحنق الجندي من فرسه وضربه، ثم ساقه، فلم تشك العامة أن المماليك نزلوا إلى نهب حوانيت القاهرة، فأغلقت القاهرة في الحال، وماجت الناس، وتعطلت المعايش، وحصل على الرعية من الآنزعاج أمر كبير من غير موجب انتهى.

وفي هذه الأيام كان الفراغ من مدرسة السلطان التي هدمها وبناها بالصحراء، وقرىء بها ختمة شريفة، وحضرت الأعيان من الأمراء وغيرهم ما خلا السلطان. ثم في يوم الاثنين ثالث شهر رجب من سنة ستين المذكورة أفرج السلطان عن زين الدين يحيى الأستادار، ورسم له بأن ينزل إلى بيت الصاحب جمال الدين ليحمل ما تقرر عليه إلى الخزانة الشريفة وهو مبلغ عشرة إلاف دينار ثم ينفى بعد تغليقه المال إلى حيث يأمر به السلطان. ولما غلق ما ألزم به من المال، سافر من يوم الاثنين أول

شعبان إلى المدينة الشريفة من على طريق الطور. ثم سافر قاصد ابن عثمان إلى جهة مرسله في يوم الجمعة خامس شعبان، وتبعه قاصد السلطان إلى ابن عثمان المذكور، وهو السيفي قاني باي اليوسفي المهمندار. وفيه ورد الخبر على السلطان بأن السلطان إبراهيم بن قرمان صاحب لارندة وغيرها من بلاد الروم طرق معاملة السلطان، واستولى على مدينة طرسوس وأذنه وكولك، فغضب السلطان من ذلك، وأمر بخروج تجريدة من الديار المصرية لقتال ابن قرمان المذكور، وعين جماعة من الأمراء والمماليك، يأتي ذكرهم عند سفرهم من القاهرة. وفي يوم الأربعاء ثالث وعشرين شهر رمضان نودي بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرض المماليك الأجلاب إلى الناس والباعة والتجار، فكانت هذه المناداة كضرب رباب أو كطنين ذباب. واستمروا على ما هم عليه من أخذ أموال الناس والظلم والعنف حتى غلت الأسعار في سائر الأشياء من المأكول والملبوس والغلال والعلوفات، وصاروا يخرجون إلى ظواهر القاهرة، ويأخذون ما يجدون من الشعير والتبن والدريس بأبخس الأثمان، إن أعطوا ثمناً، وإن شاؤوا أخذوه بلا ثمن، وكل من وقع له ذلك معهم لم يعد ثانياً إلى بيع ذلك الصنف إلا أن يكون محتاجاً لبيعه، فعزت لذلك هذه الأصناف بحيث إنها صارت أقل وجوداً من أيام الغلاء، فصار هذا هو الغلاء بعينه، وزيادة على الغلاء عدم الشيء. ثم شرعوا في نهب حواصل البطيخ الصيفي وغيره. ثم تزايد أمرهم، وشرعوا يفعلون ذلك مع تجار القماش وغيره، فغلت جميع الاسعار مع كثرتها عند أربابها، فضر ذلك بحال الناس قاطبة، رئيسها وخسيسها، وهذا أول أمرهم، وما سيأتي فأهول. وفي يوم الاثنين تاسع عشر شوال خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من بركة الحاج، وهو الأمير قانم من صفر خجا أحد مقدمي الألوف، وسار إلى البركة دفعة واحدة، فكان عادة أمراء المحمل النزول بالمحمل إلى الريدانية، فبطل ذلك، وصاروا يتوجهون إلى البركة في مسير واحد، وأمير الركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير أحد الأجناد. وفي هذه الأيام كانت عافية الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص من مرض أشرف فيه على الموت، وطلع إلى القلعة، وخلع السلطان عليه ونزل إلى داره في يوم مشهود لم ير مثله إلا نادراً. وفي يوم الخميس سابع وعشرين ذي القعدة استقر الأمير سودون النوروزي السلاح دار أحد أمراء الطبلخانات في نيابة قلعة الجبل بعد موت قاني باي الأعمش الناصري، وأنعم السلطان بإقطاع قاني باي المذكور على ولده الصغير المقام الناصري محمد، والإقطاع إمرة عشرة.

وفي يوم الأحد ثامن عشر شهر ربيع الأول المذكور وصل إلى القاهرة سنقر الأشرفي الدوادار المعروف بقرق شبق، وكان توجه قبل تاريخه إلى البلاد الحلبية

لكشف أخبار ابن قرمان، وتجهيز العساكر الشامية والحلبية، فوقع له هناك أمور وحوادث ذكرناها فى غير هذا المحل، من قتل جماعة من تركمان ابن قرمان وغير ذلك. وكان سنقر المذكور من مساوىء الدهر، وعنده طيش وخفة مع ظلم وجبروت، وما سيأتي من أخباره عند عمارته لمراكب الغزاة فأعظم. ثم في يوم الأحد هذا نودي بالقاهرة من قبل السلطان بأن يكون سعر الدرهم

من الفضة الشامية المقدم ذكرها التي داخلها الغش ثمانية عشر درهماً نقرة، وما عداها من الفضة المؤيدية والأشرفيه والظاهرية تكون على حالها بأربعة وعشرين درهماً، فقامت قيامة العامة من ذلك خوفاً من الخساره، وأكثروا من الوقيعة بالسلطان وأرباب دولته، ولا سيما في الصاحب جمال الدين ناظر الجيش والخاص، فإنهم نسبوا هذا كله إليه رحمه الله. وكان السلطان خلع على ولده المقام الشهابي أحمد باستقراره أمير حاج المحمل، فلما نزل ابن السلطان وعليه الخلعة من القلعة إلى داره وهي قصر بكتمر الساقي تجاه الكبش وبين يديه جميع أعيان الدولة، استغاثت إليه العامة بلسان واحد، وقالوا: " نخسر بهذه المناداة ثلث أموالنا "، وسألوه في إبطال ذلك، فوعدهم بإبطاله، وأرسل إلى والده يسأله في إبطال ما نودي به، فأجابه السلطان، ونودي في الحال مناداة ثانية بإبطال ما نودي به. قلت: وهذه فعلة العامة الثانية من طلبهم عدم المناداة بإبطال هذه الفضة المغشوشة خوفاً من الخسارة، فاحتاجوا بعد ذلك إلى المناداة، وخسروا أكثر مما كانوا يخسرونه عندما غلت الأسعار بسبب هذه الفضة، ووصل صرف الدينار إلى أربعمائة درهم، كما نذكره إن شاء الله تعالى. وفي يوم السبت أول شهر ربيع الآخر نودي في المماليك السلطانية المعينين إلى تجريدة البلاد الشامية لقتال ابن قرمان قبل تاريخه بأن النفقة فيهم في يوم الخميس الآتي. فلما كان يوم الخميس سادس ربيع الآخر المذكور جلس السلطان بالحوش السلطاني، وشرع في تفرقة النفقة على المماليك المذكورين، لكل واحد منهم مائة دينار، وسعر الذهب يوم ذاك أربعمائة درهم الدينار، فوصل لكل واحد منهم أعني المماليك المعينين أربعون ألفاً؛ وهذا شيء لم نسمع بمثله، وأكثر ما فرق الملوك السالفة في معنى النفقة مائة دينار، وسعر الدينار في ذلك الوقت ما بين مائتين وعشرين درهماً الدينار إلى مائتين وثمانين الدينار، لا بهذا السعر الزائد، فشكر كل أحد السلطان على هذه الفعلة. وكان عدة من أخذ النفقة من المماليك المذكورين أربعمائة مملوك وثلاثة مماليك. ثم أرسل السلطان بالنفقة إلى الأمراء المجردين، فحمل إلى الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح وهو مقدم العسكر يوم ذاك بأربعة آلاف دينار، ثم أرسل لكل من أمراء الألوف لكل واحد بثلاثة إلاف دينار، وهم: قرقماس الأشرفي رأس نوبة النوب، وجانبك القرماني الظاهري حاجب

الحجاب، ويونس العلائي الناصري، ثم حمل لكل من أمراء الطبلخانات بخمسمائة دينار، ولكل أمير عشرة مائتي دينار. يأتي ذكر أسماء الجميع عند خروجهم من الديار المصرية إلى جهة ابن قرمان. ثم في يوم الخميس العشرين من شهر ربيع الآخر المذكور عزل السلطان علي بن إسكندر عن ولاية القاهرة، وأعاد خيربك القصروي لولاية القاهرة كما كان أولاً.

ثم في يوم الاثنين سادس شهر رمضان أخرقت المماليك الأجلاب بالأمير قانم التاجر المؤيدي أحد مقدمي الألوف، وهو نازل من الخدمة بغير قماش الموكب، وضربه بعضهم على رأسه وظهره، وجاؤوا بجموعهم إلى داره من الغد ليهجموا عليه، فمنعهم مماليكه من الدخول عليه، فوقع القتال بينهم، وجرح من الفريقين جماعة. فأخذ قانم المذكور يتلافى أمرهم بكل ما تصل القدرة إليه، فلم يفد ذلك، إلا أنه صار يركب وحده من غير مماليك، ويطلع الخدمة وينزل على تلك الهيئة، واستمر على ذلك نحو السنتين. ثم في هذه الأيام أيضاً تداول الحريق بالقاهرة وظواهرها، وضر ذلك كثيراً بحال الناس، وقد قوي عندهم أن ذلك من فعل القرمانية والمماليك الأجلاب: يعنون بالقرمانية والأجلاب أن القرمانية إذا فعلوا ذلك مرة ويقع الحريق، فتنهب المماليك الأقمشة وغيرها لما يطلدون الدور المحروقة للطفي، فلما حسن ببال المماليك ذلك صاروا يفعلون ذلك. قلت: ولا أستبعد أنا ذلك، لقلة دينهم وعظم جبروتهم، عليهم من الله ما يستحقونه من العذاب والنكال انتهى. ثم استهل شوال، أوله الجمعة، فوقع فيه خطبتان، وتشاءم الناس بذلك على الملك، فلم يقع إلا الخير والسلامة، وكذبت العادة. ثم في يوم الجمعة خامس عشره ورد الخبر على السلطان بموت جاك الفرنجي صاحب قبرس، وأنهم ملكوا عليهم ابنته مع وجود ولد ذكر، لأمر أجاز تقديم البنت على الصبي، على مقتضى شريعتهم، ووقع بسبب ذلك أمور وغزوات يأتي ذكرها في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وقد حررنا ذلك كله في " الحوادث ". وفي يوم الاثنين ثامن عشره خرج أمير حاج المحمل بالمحمل من القاهرة، وهو الأمير برسباي البجاسي حاجب الحجاب، وأمير الركب الأول الطواشي مرجان الحصكفي مقدم المماليك السلطانية. ثم في العشر الأخير من هذا الشهر ورد الخبر من الإسكندرية بموت الخليفة القائم بأمر الله حمزة بها، كما سيأتي ذكره في الوفيات إن شاء الله.

وفي يوم الأحد سابع عشر شهر رجب تعرض بعض المماليك الأجلاب للقاضي محب الدين ابن الشحنة كاتب السر، وهو طالع إلى الخدمة السلطانية، وضربه من

غير أمر يوجب ضربه أو الكلام معه. وفي يوم الثلاثاء تاسع عشره استقر الأمير ناصرالدين ابن محمد القساسي، المعروف بمخلع، دوادار السلطان بحلب. وفي يوم الخميس حادي وعشرين رجب أيضاً استقر البدري حسن بن أيوب في نيابة القدس بعد عزل منصور بن شهري. وفيه رسم السلطان بطلب أبي الخير النحاس من البلاد الشامية على يد ساع.

وفي يوم الأحد ثامن وعشرينه وصل إلى الديار المصرية جاكم الفرنجي ابن جوان صاحب جزيرة قبرس، بطلب من السلطان، ليلي عوضاً عن أبيه ملك قبرس؛ وكان أهل قبرس ملكوا عليهم أخته مع وجوده، كونه ابن زنا، أو غير ذلك، لأمر لا يجوز وليته في ملتهم. وفي هذا الشهر أخذ الطاعون في انحطاط من مدينة حلب، وانتشر فيما حولها من البلدان والقرى بعد أن مات منها نحو من مائتي ألف إنسان. ثم في يوم الخميس ثالث شوال ضربت المماليك الأجلاب أبا الخير النحاس، وأخذوا عمامته من على رأسه، فتزايد ما كان به من الضعف؛ فإنه كان مستضعفاً قبل ذلك بمدة. وأخذ أمره من يومئذ في انحطاط، ولزم الفراش، إلى أن مات حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ثم استهل جمادى الآخرة أولها يوم الثلاثاء وقد كثر الوباء بالديار المصرية، وانتشر بها وبظواهرها، هذا مع الغلاء المفرط في الأسعار وظلم المماليك الأجلاب، فصارت الناس بين ثلاثة أمور عظيمة: الطادون، والغلاء، والظلم، وهذا من النوادر وقوع الوباء والغلاء معاً في وقت واحد فوقع ذلك وزيد ظلم الأجلاب، ولله الأمر. وكان التعريف في هذا اليوم ثلاثمائة وستة عشر نفراً؛ وكان الذي حرروه في السبع عشرة مصلاة ألف إنسان وتسعمائة إنسان وعشرة. وأنكر ذلك غير واحد من الناس استقلالا، بل قال بعضهم وبالغ بأن عدة من يموت في اليوم بالقاهرة أكثر عن ثلاثة آلاف نفر، واعتل بقوله: إن الذين ندبوا لضبط المصلوات اشتغل كل منهم بنفسه وبمن عنده وبغلمانه. قلت: الصواب بل الأصح مقالة الثاني لما شاهدناه من كثرة الجنائز، وازدحام الناس بكل مصلاة والله أعلم.

وأما أمر الغلاء ففي هذا الشهر بيع فيه القمح كل إردب بستمائة درهم، والبطة من الدقيق العلامة بمائة وسبعين درهماً، والرطل الخبز بأربعة دراهم، وهو عزيز الوجود بالحوانيت في كثير من الأوقات، والشعير والفول كلاهما بأربعمائة درهم الإردب، وهما في قلة إلى الغاية والنهاية، والحمل التبن بأربعمائة درهم ولا بد له من حارس من الأجناد يحرسه من المماليك الأجلاب، هذا والموت فيهم بالجريف وصلوات الله على سيدنا عزرائيل وما سوى ذلك من المأكل فسعره متحسن، لا كسعر كالشعير والتبن والقمح والفول، كون هذه الأشياء يحتاج إليها الأجلاب،

فيأخذونها بأبخس الإثمان، فترك الناس بيع هذه الأصناف إلا المحتاج، فعز وجودها لذلك.

ووقع للأجلاب في هذا الوباء أمور عجيبة؛ فإنهم لما فرغوا من أخذ بضائع الناس ظهر منهم في أيام الوباء أخذ إقطاعات الأجناد، فصاروا إذا رأوا شخصاً على حانوت عطار أخذوه، وقالوا له: " لعل الضعيف يكون له إقطاع "، فإن كان له إقطاع عرفهم به، وإن لم يكن للضعيف إقطاع طال أمره معهم إلا أن يخلصه منهم أحد من الأعيان. ثم بدا لهم بعد ذلك أن كل من سمعوا له إقطاعاً من أولاد الناس أو الأجناد القرانيص أخذوا إقطاعه، فإن كان صحيحاً يرتجون مرضه، وإن كان ضعيفاً ينتظرون موته؛ فعلى هذا الحكم خرج إقطاع غالب الناس الحي والميت حتى إنهم فعلوا ذلك بعضهم مع بعض. فصار السلطان والناس في شغل شاغل، لأن الأجلاب صاروا يزدحمون عليه لأخذهم إقطاعات الناس، وعندما يتفرغ من المماليك الأجلاب يتظلم كل أحد إليه ممن خرج إقطاعه وهو في قيد الحياة، فلم يسعه إلا رده عليه؛ فصار الإقطاع يخرج اليوم ويرد إلى صاحبه في الغد، فصار يكتب في اليوم الواحد عدة مناشير ما بين إخراج ورد، واستمر الناس على ذلك من أول الفصل إلى آخره. وأغرب من هذا أن بعض الأجلاب اجتاز في عظم أيام الوباء بالصحراء، فحاذى جنازة امرأة على نعشها طرحة زركش، فاختطفها وساق فرسه فلم يوقف له على أثر. ووقع لبعض الأجلاب أيضاً أنه صدف في بعض الطرقات جنازة وهو سكران، فأمره المدير بالوقوف لتمر الجنازة عليه، فحنق منه، وأراد ضرب المدير، فهرب منه، فضرب الميت على رأسه، وقد شاهد ذلك جماعة كثيرة من الناس. وفيما حكيناه كفاية عن فعل هؤلاء الظلمة{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ } [هود: ١٨]. وفي يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة وصل إلى القاهرة تغري بردي الطياري الخاصكي المتوجه في الرسلية إلى جزيرة قبرس، وصحبته جماعة كثيرة، من ملوك الفرنج وأهل قبرس. والقادمون من الفرنج على قسمين: فرقة تسأل إبقاء ملك قبرس على الملكة المتولية، وفرقة تسأل عزلها وتولية أخيها جاكم الفرنجي الذي قدم إلى القاهرة قبل تاريخه، فلم يبت السلطان الأمر من ولاية ولا عزل في هذا اليوم، وأحال الأمر إلى ما سيأتي ذكره. وفي يوم الخميس ثالث جمادى الآخرة المذكورة عظم الطادون بالقاهرة وظواهرها، واختلفت كلمة الحساب، لاشتغال كل أحد بنفسه وبمن عنده؛ فمنهم من قال: يموت في

اليوم أربعة آلاف إنسان، ومنهم من قال: ثلاثة آلاف وخمسمائة، وقاس صاحب القول الثاني على عدة من صلي عليه في هذا اليوم المذكور بمصلاة باب النصر، وقال: إن كل مائة ميت بمصلاة باب النصر بثلاثمائة وستين ميتاً، وجاءت مصلاة المؤمني في هذا اليوم أربعمائة وسبعة عشر ميتاً؛ وهذا كله تقريباً لا تحريراً على الأوضاع. ثم في يوم الثلاثاء ثامن جمادى الآخرة عمل السلطان الموكب بالحوش السلطاني لأجل قصاد الفرنج، وحضرت الفرنج وقبلوا الأرض ونزلوا أيضاً على غير طائل. وفي يوم الجمعة حادي عشره كان فيه التعريف مائتين وثمانين، وجاءت مصلاة باب النصر على حدتها خمسمائة وسبعين. وفيه ضربت المماليك الأجلاب الوزير سعد الدين فرج بن النحال ضرباً مبرحاً، لكونه لم يزد راتب لحمهم. وفي يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة كان فيه التعريف نحو ثلاثمائة إنسان، منهم مماليك خمسة وسبدون: منهم خمسة وثلاثون من مماليك الأمراء وغيرهم، ومن بقي سلطانية. وأما الذي ضبط في هذا اليوم ممن صلي عليه من الأموات باثنتي عشرة مصلاة أربعة آلاف إنسان، وفي ذلك نظر؛ لأن مصلاة باب النصر وحدها جاءت في هذا اليوم خمسمائة وسبعين، ومصلاة البياطرة أربعمائة وسبعين، وجامع الأزهر ثلاثمائة وستة وتسعين، فمجموع هذه المصليات الثلاث من جملة سبع عشرة مصلاة أو أكثر ألف وأربعمائة وستة نفر، فعلى هذا كيف يكون جميع من مات في هذا اليوم أربعة إلاف؟! فهذا محال، وهذا خارج عن القرافتين والحسينية والصحراء وبولاق ومصر القديمة، إلا أن غالب من يموت صغار وعبيد وجوار. غير أن هذا الطادون كان أمره غريباً، وهو أن الذى يطعن فيه قل أن يسلم، حتى قال بعضهم: لعل إن من كل مائة مريض يسلم واحد، فأنكر ذلك غيره وقال: ولا كل ألف مبالغة. وفي يوم الأربعاء سادس عشره الموافق لرابع عشر برمودة ارتفع الوباء من بولاق، وكان الذي مات بها في اليوم ثلاثة نفر، وقيل سبعة، وقيل عشرة. هذا بعد أن كان يموت في اليوم ثلاثمائة وأربعمائة، ويقول المكثر خمسمائة فسبحانه وتعالى فاعلاً مختاراً يفعل في ملكه ما يشاء. وأخذ الطادون في هذه الأيام يخف من ظواهر القاهرة، مثل الحسينية وغيرها، وعظم في القاهرة وما حولها من جهة الصليبة والقلعة وقناطر السباع. وكان الذي مات من المماليك الأجلاب الإينالية في هذا الطادون إلى يوم الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة ستمائة مملوك وثلاثين مملوكاً. إلى لعنة الله وسقر، إلى حيث ألقت.. ومما وقع لي من أوائل هذا الفصل قولي على سبيل

المجاز: السريع

قد جاءنا الفصل على بغتة ::: مستجلباً حل مجد الطلب

من كثرة البغي وظلم بدا ::: يخصه الله بمن كان جلب

واستهل جمادى الأولى يوم الخميس. في ثالثه يوم السبت مرض السلطان الملك الأشرف إينال مرض الموت، ولزم الفراش. فلما كان يوم الاثنين خامسه وصل الأمير بردبك الدوادار الثاني، والأمير ناصرالدين نقيب الجيش من الطينة، وكانا توجها قبل تاريخه لينظرا مكان البرج الذي يريدون عمارته هناك. ثم في يوم الاثنين ثاني عشره أرجف بموت السلطان، ولم يصح ذلك، وأصبح الناس في هرج، وماجوا ووقف جماعة من العامة عند باب المدرج أحد أبواب القلعة فنزل إليهم الوالي وبدد شملهم. ثم نودي في الحال بالأمان والبيع والشراء، وأن أحداً لا يتكلم بما لا يعنيه، فسكن الأمر إلى يوم الأربعاء رابع عشره. فلما كان ضحوة يوم الأربعاء المذكور طلب الخليفة والقضاة الأربعة إلى القلعة، وطلعت الأمراء والأعيان، واجتمعوا الجميع بالدهيشة، فلم يشك أحد في موت السلطان، فلم يكن كذلك، بل كان الطلب لسلطنة المقام الشهابي أحمد قبل موته. فلما تكامل الجمع خلع السلطان نفسه من السلطنة بالمعنى، لأنه ما كان إذ ذاك يستطيع الكلام، بل كلمهم بما معناه أن الأمر يكون من بعده لولده، فعلموا من ذلك أنه يريد خلع نفسه وسلطنة ولده، ففعلوا ذلك كما سيأتي ذكره في محله، في أول ترجمة الملك المؤيد أحمد إن شاء الله تعالى. ومات الأشرف إينال في الغد حسبما نذكره. وكانت مدة تحكم الملك الأشرف إينال هذا من يوم تسلطن بعد خلع الملك المنصور عثمان إلى هذا اليوم، وهو يوم خلع نفسه من السلطنة ثماني سنين وشهرين وستة أيام. ومات في يوم الخميس خامس عشر جمادى الأولى بعد خلعه نفسه بيوم واحد بين الظهر والعصر، فجهز من وقته، وغسل وكفن، وصلي عليه بباب القلة من قلعة الجبل، ودفن من يومه بتربته التي عمرها بالصحراء، وقد ناهز الثمانين من العمر. وكان جاركسي الجنس، وقد تقدم الكلام على أصله، وجالبه إلى القاهرة، وكيفية ترقيه إلى أن تسلطن في أول ترجمته من هذا الكتاب. وكانت صفته - رحمه الله - أخضر اللون للسمرة أقرب، طوالا، غالب طوله من وسطه ونازل، قصير البشت، رقيق الوجه نحيف اليد، لحيته في حنكه، وهي شعرات بيض، ولهذا كان لا يعرف إلا بإينال الاجرود، وفي كلامه رخو، مع خنث كان في لهجته، ولهذا لما لبس السواد خلعة السلطنة كان فيها غير مقبول الشكل، لكونه أسمر

اللون، والخلعة سوداء، فلم تبتهج الناس برؤيته؛ ولذلك أسباب: السبب الأول، ما ذكرناه من صفته وسواد الخلعة، والسبب الثاني وهو الأغلب، لقرب عهد الناس من شكل الملك المنصور عثمان، الشكل الظريف البهي، والفرق واضح، لأن المنصور كان سنه دون العشرين سنة من غير لحية، وهو في غاية الحسن والجمال - أحسن الله دونه - والأشرف إينال هذا سنه فوق السبعين، وقد علمت صفته مما ذكرناه، فلا لوم على من لا يعجبه شكل الأشرف إينال ولا عتب. وكان له محاسن ومساوىء، والأول أكثر. فأما محاسنه، فكان ملكاً جليلا، عاقلاً رئيساً سيوساً، كثير الاحتمال، عديم السر، غير سباب ولا فحاش في حال غضبه ورضاه. وكان عارفاً بالأمور والوقائع والحروب، شجاعاً مقداماً، كثير التجارب للخطوب والقتال، عظيم التروي في أفعاله، ثابتاً في حركاته ومهماته، له معرفة تامة بملوك الأقطار في البلاد الداخلة في حكمه، وفي الخارجة عن حكمه أيضاً، عارفاً بجهات ممالكه شرقاً وغرباً، وفهماً بفنون الفروسية وأنواعها، لا يحب تحرك ساكن ولا إثارة فتنة، وعنده تؤدة في كلامه واحتمال زائد، يؤديه ذلك إلى عدم المروءة عند من لا يعرف طباعه. ومن محاسنه أنه منذ سلطنته ما قتل أحداً من الأمراء ولا من الأجناد الأعيان، على قاعدة من تقدمه من الملوك، إلا من وجب عليه القتل بالشرع أو بالسياسة، وأيضاً أنه كان قليلاً ما يحبس أحداً أو ينفيه، سوى من حبس في أوائل دولته من أعيان الأمراء كما هي عوائد أوائل الدولة. ثم بعد ذلك لم يتعرض لأحد بسوء، إلا انه نفى جماعة عندما ركبوا عليه ثانياً في حدود سنة ستين، وخلع الخليفة القائم بأمر الله حمزة بسبب موافقته لهم على قتاله، ثم حبسه بالإسكندرية، وهو معذور في ذلك، ولو كان غيره من الملوك لفعل أضعاف ذلك، بل وقتل منهم جماعة كثيرة. وبالجملة فكانت أيامه سكوناً وهدوءاً ورياقة وحضور بال، لولا ما شان سؤدده من مماليكه الأجلاب، وفسدت أحوال الديار المصرية بأفعالهم القبيحة، ولولا أن الله تعالى لطف بموته، لكان حصل الخلل بها، وربما خربت وتلاشى أمرها. هذا ما أوردناه من محاسنه، بحسب القوة والباعثة.

وأما مساوئه، فكان بخيلاً شحيحاً مسيكاً، يبخل ويشح حتى على نفسه. وكان عارياً من العلوم والفنون المتعلقة بالفضائل. كان أمياً لا يعرف القراءة والكتابة حتى كان لا يحسن العلامة على المناشير والمراسيم إلا برسم الموقع له بالنقط على المناشير، فيعيد هو على النقط بالقلم.

هذا مع طول مكثه في السعادة والرياسة والولايات الجليلة ثم السلطنة. ومع

هذا لم يهتد إلى معرفة الكتابة على المناشير ولا غيرها، فهذا دليل على بلادة ذهنه وجمود فكره. ولعله كان لا يحسن قراءة الفاتحة ولا غيرها من القرآن العزيز فيما أظن. وكانت صلاته للمكتوبات صلاة عجيبة، نقرات ينقر بها، لا يعبأ الله بها. وكان مع هذه الصلاة العجيبة لا يحب التملق، ولا إطالة الدعاء بعد الصلاة، بل ربما نهى الداعي عن تطويل الدعاء. ولم يكن بالعفيف عن الفروج، بل ربما اتهمه بعض الناس بحب الوجوه والملاح والصباح من الغلمان والله تعالى أعلم بحاله إلا أنه كان يعف عن تعاطي المنكرات المسكرات. وكان في الغالب: أموره وأحكامه مناقضة للشريعة، لا سيما لما أنشئت مماليكه الأجلاب؛ فإنهم قلبوا أحكام الشريعة ظهراً لبطن، وهو راض لهم بذلك، وكان يمكنه إرداعهم بكل ممكن، ومن قال غير ذلك فهو مردود عليه، وأحد أقوال الرد عليه قول من يقول: فكيف سطوة السلطنة مع عدم قوته لرد هؤلاء الشرذمة القليلة مع بغض العالم لهم، وضعفهم عن ملاقاة بعد العوام؟! فكيف أنت بهم وقد ندب لهم طائفة من طوائف المماليك؟! ومثل هذا القول فكثير. وأيضاً رضاه بما فعله سنقر قرق شبق الزردكاش عند عمارته لمراكب الغزاة، لأن سنقر فعل أفعالا لا يرتضيها من له حظ في الإسلام، وكان يمكنه رده عن ذلك بكل طريق، بل كان يخلع عليه في كل قليل، ويشكر أفعاله؛ فرضاه بفعل مماليكه الأجلاب، وبفعل سنقر هذا وأشباه ذلك هو أعظم ذنوبه. وما ساء منه الناس وأبغضته الخلائق وتمنوا زوال ملكه إلا هذا المعنى، ومعنى آخر وهو ليس بالقوي وهو ثقل وطأة ولده وزوجته ومملوكه بردبك الدوادار. قلت: والأصح عندي هو الذنب الأول. وأما هؤلاء فكان ثقلهم على مباشري الدولة أن على من يسعى عندهم في وظيفة من ولاية أو عزل، أو أمر من الأمور، فعلى هذا كان ضررهم خصوصاً لا عموماً، وأيضاً لا يشمل ضررهم إلا لمن جاء إلى بابهم أو قصدهم في حاجة دنيوية، فهو أحق بما يحل به، لأنه هو الساعي في إيذاء نفسه، والمثل يقول: " من قتلته يديه لا بكاء عليه ". نعم وكان من مساوئه مخافة السبل في أيامه بالقاهرة والأرياف، حتى تجاوز الحد، وعمرت الناس على بيوتهم الدروب لعظم خوفهم من دق المناسر وقطاع الطريق بالأرياف، مع أنه كان قاطعاً للمفسدين، غير أن الحمايات كانت كثيره فى أيامه، وهذا أكبر أسباب خراب الديار المصرية وقراها، ومن يوم تجددت هذه الحمايات فسدت أحوال الأرياف قبليها وبحريها؛ وهذا البلاء ما كثر وفشا فى الدولة إلا بعد الدولة المؤيدية شيخ، واستمرت هذه السنة القبيحة إلى يومنا هذا.

والعجب أنه ليس لها نفع على السلطان ولا على بلاده، وإنما هي ضرر محض على السلطان والناس قاطبة، والملك لا يلتفت إلى إزالتها، مع أنه لو منع ذلك لم يضر أحد من الناس، وانتفع الناس جميعاً بمنعها، وعمرت غالب البلاد، وتساوت الناس، وبالمساواة تعمر جميع الممالك، غير أن الفهم والعقل والتدبير منح إلاهية، فلا يفيد الكلام في ذلك، ولله در القائل: الوافر

لقد أسمعت لو ناديت حياً ::: ولكن لا حياة لمن تنادي

ونار لو نفخت بها أضاءت ::: ولكن أنت تنفخ في الرماد

* * *

سلطنة المؤيد أبي الفتح أحمد بن إينال

هو السلطان السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثالث عشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن في يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى من سنة خمس وستين وثمانمائة الموافق لأول برمهات. فلما كان ضحوة النهار المذكور نزل الزيني خشقدم الإحمدي الطواشي الساقي الظاهري بطلب القضاة الأربعة إلى القلعة، ونزل غيره إلى الخليفة المستنجد بالله يوسف، فبادر كل منهم بالطلوع إلى القلعة، حتى تكامل طلوع الجميع، وجلس الكل بقاعة دهليز الدهيشة من قلعة الجبل، وجلس الخليفة والمقام الأتابكي أحمد المذكور في صدر المجلس، وجلس كل من القضاة في مراتبهم، ودار الكلام بينهم في سلطنة الملك المؤيد هذا، لكون أن والده الملك الأشرف إينال ما كان عهد إليه قبل ذلك بالسلطنة. فتكلم القاضي كاتب السر محب الدين ابن الشحنة في أن تكون ولايته في السلطنة نيابة عن والده مدة حياته، ثم استقلا بعد وفاته، أو معناه، فلم يحسن ذلك ببال من حضر. وقام الجميع ودخلوا إلى قاعة الدهيشة، وبها الملك الأشرف إينال مستلق على خطة ليسمعوا كلامه بالعهد لولده أحمد هذا، فكلمه الأمير يونس الدوادار غير مرة في معنى العهد، وهو لا يستطيع الرد، وطال وقوف الجميع عنده وهو لا يتكلم، فخرجوا إلى ولده المؤيد هذا وهو جالس بدهليز الدهيشة عند الشباك وعرفوه الحال، ثم رجعوا إلى الملك الأشرف ثانياً، وكرروا عليه السؤال، وهو ساكت، إلى أن تكلم بعد حين، وقال باللغة التركية: " أغلم، أغلم "، يعني: " ابني، ابني "، فقال من حضر: " هذا إشارة بالعهد لولده، فإنه لا يستطيع من الكلام أكثر من هذا "، وخرجوا من وقتهم إلى الدهيشة. وانتدب كاتب السر لتحليف الأمراء، فحلف من حضر من الأمراء الإيمان المؤكدة، ولم ينهض أحد منهم أن يوري في يمينه ولا يدلس، لأنهم أجانب من معرفة ذلك، وأيضاً المحلف له فطن وكاتب سره رجل عالم؛ وكان من جملة اليمين: المشي إلى الحاج كذا كذا مرة، والطلاق والعتق وغير ذلك. فلما انقضى التحليف وتمت البيعة قام كل أحد من الأمراء والخاصكية والأعيان وبادر إلى لبس الكلفتاة والتتري الأبيض، كما هي العادة، وأحضرت خلعة السلطنة الخليفتية السوداء، ولفت له عمامة سوداء حرير. وقام المقام الشهابي المذكور ولبس الخلعة والعمامة على الفور، وركب من باب الدهيشة فرس النوبة بسرج ذهب وكنبوش زركش، ومشت الأمراء والأعيان بين يديه من باب الحوش، إلى أن اجتاز بباب الدور السلطانية فتلقته الجاووشية والزردكاش ومعه القبة والطير وأبهة السلطنة، فتناول الأمير خشقدم الناصري المؤيدي أمير سلاح القبة والطير بإذن السلطان وحملها على رأسه وهو ماش، وسار في موكب الملك بعظمة زائدة خارجة عن الحد، وصار جميع الأمراء والقضاة مشاة

بين يديه إلا الخليفة المستنجد بالله فإنه ركب فرساً من خيل السلطان، ومشى بها خطوات، ثم نزل عنها لقوتها عليها. ولازال السلطان على تلك الهيئة، حتى نزل على باب القصر السلطاني من قلعة الجبل، ودخل وجلس على سرير الملك، فلم تر العيون فيما رأت أحسن ولا أجمل منه في الخلعة السوداء، لأنه كان أبيض اللون، والخلعة سوداء، مع حسن سمته، وطول قامته، حتى إنه لعله لم يكن أحد فى العسكر يوم ذاك يدانيه في طول القامة.

وفيه أيضاً ورد الخبر بأن عرب لبيد العصاة نزلوا البحيرة، ونهبوا الأموال، وشنوا الغارات، فعين السلطان تجريدة من الأمراء، وأمرهم بالتجهيز والسفر إلى البحيرة.

* * *

نكبة الملك المؤيد أحمد ابن إينال وخلعه من الملك

لما كان آخر يوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستين المذكورة، رسم السلطان الملك المؤيد أحمد لنقيب الجيش الأمير ناصر الدين محمد بن أبي الفرج أن يدور على الأمراء مقدمي الألوف، ويعلمهم أن السلطان رسم بطلوعهم من الغد في يوم السبت إلى الحوش السلطاني من قلعة الجبل بغير قماش الموكب، ولم يعلمهم لأي معنى يكون طلوعهم واجتماعهم في هذا اليوم بالقلعة، وهو غير العادة، فدار دوادار نقيب الجيش على الأمراء وأعلمهم بما رسم به السلطان من طلوعهم إلى القلعة. وأخذ الأمراء من هذا الأمر أمر مريج، وخلا كل واحد بمن يثق به، وعرفه الخبر، وهو لا يشك أن السلطان يريد القبض عليه من الغد. وماجت الناس وكثر الكلام بسبب ذلك، وركبت الأعيان بعضها على بعض. وأما الأمراء فكل منهم تحقق أنه مقبوض عليه من الغد، ووجد لذلك من كان عنده كمين من الملك المؤيد أو يريد إثارة فتنة فرصة، وحرض بعضهم بعضاً، إلى أن ثارت المماليك الظاهرية في تلك الليلة، وداروا على رفقتهم وإخوانهم وعلى من له غرض في القيام على الملك المؤيد، وداموا على ذلك ليلتهم كلها. فلما كان صبح نهار السبت تفرقوا على أكابر الدولة والأمراء في بيت الأتابك خشقدم لعمل المصلحة، فداروا على الأمراء، وأمسكوا منهم جماعة كبيرة، وأحضروهم إلى بيت الأتابك خشقدم، على كره من خشقدم، وسارت فرقة في باكر النهار إلى بيت الأمير بردبك الأشرفي الدوادار الثاني الملاصق لمدرسة السلطان حسن، وأحضروه إلى بيت الأمير الكبير خشقدم، بعد أن أخرقوا به. هذا وقد اجتمعت طوائف المماليك، مثل الناصرية فرج، والمؤيدية شيخ، والأشرفية برسباي، والظاهرية جقمق، والسيفية، والجميع في بيت الأمير الكبير، ولم يطلع إلى القلعة في هذا اليوم أحد من الأمراء والأعيان إلا جماعة يسيرة جداً. فلما

تكامل جمعهم في بيت الأمير الكبير وأكثر الطوائف يوم ذاك الأشرفية والظاهرية، وكبير الأشرفية الأمير قرقماس أمير مجلس، ولا كلام له، بل الكلام لجانبك القجماسي الأشرفي المشد، ولجانبك من أمير الخازندار، والظاهرية كبيرهم جانبك نائب جدة، أحد مقدمي الألوف، وقد صارت خجداشيته يوم ذاك في طوع يده وتحت أوامره، لحسن سياسته وجودة تدبيره، فانضمت كلمة الظاهرية به، حتى صارت كلمة واحدة، وهم حس وهو المعنى، وهذا بخلاف الأشرفية، فإنهم وإن كانوا هم أيضاً متفقين فالاختلاف بين أكابرهم موجود بالنسبة إلى هؤلاء، وعدم اكتراثهم بهذا الأمر المهم، ولتطلعهم على مجيء خجداشهم الأمير جانم نائب الشام، ولو أن أمر المؤيد طرقهم على بغتة ما طاوعوا على الركوب في مثل هذا اليوم قبل مجيء خجداشهم فأخذ الأمير جانبك نائب جدة المذكور في تأليف الأشرفية على الظاهرية بحسن تدبير، حتى تم له ذلك، وصاروا على كلمة واحدة. ثم شرعوا في الكلام بحضرة الأمراء في الاجتماع بسببه، فتكلم بعض من حضر من الأمراء بأن قال: " أيش المقصود بهذا الجمع؟ " أو معنى هذا الكلام، فأجاب الجميع بلسان واحد: " نريد خلع الملك المؤيد أحمد من السلطنة، وسلطنة غيره ". وكان الباعث لهذه الفتنة ما قدمناه، وأيضاً الظاهرية، فإن الملك المؤيد لما تسلطن لم يحرك ساكناً ولم يتغير أحد مما كان عليه، فشق ذلك على الظاهرية، وقال كل منهم في نفسه: كأن الملك الأشرف إينال ما مات، فإن الغالب منهم كان أخذ ما بيده من الإقطاعات، وحبس ونفي في أول سلطنة الأشرف إينال، كما هي عادة أوائل الدول، وبقي منهم جماعة كثيرة بلا رزق ولا إمرة ولم يجدوا عندهم قوة ليخلعوا الملك المؤيد هذا ويسلطنوا غيره وحدهم، فكلموا الأشرفية في هذا المعنى غير مرة، وترفقوا لهم، فلم يقبلوا منهم ذلك، لنفرة كانت بين الطائفتين قديماً وحديثاً، وأيضاً فلسان حال الأشرفية يقول عندما سألوهم الظاهرية: نحن الآن في كفاية من الأرزاق والوظائف، فعلام نحرك ساكناً، ونخاطر بأنفسنا؟ فعجزوا فيهم الظاهرية، وقد ثقل عليهم الملك المؤيد، وكثر خوفهم منه، فإنه أول ما تسلطن أبرق وأرعد، فانخزى كل أحد، وحسبوا أن في السويداء رجالاً، ولهذا قلت فيما تقدم: لو فعل ما فعل لمشى له ذلك، لمعرفتي بحال القوم وشجاعتهم. وكان دخول المؤيد السلطنة بحرمة وافرة، لأن سنه كان نحو الثلاثين سنة يوم تسلطن، وكان ولي الأتابكية في أيام أبيه، وأخذ وأعطى، وسافر أمير حاج المحمل.

وحج قبل ذلك أيضاً وسافر البلاد، ومارس الأمور في حياة والده. وهذا كله بخلاف من تقدمه من سلاطين أولاد الملوك، فإن الغالب منهم حدث السن يريد له من يدبره، فإنه ما يعرف ما يراد منه، فيصير في حكم غيره من الأمراء فتتعلق الآمال بذلك الأمير، وتتردد الناس إليه، إلى أن يدبر في سلطنة نفسه، بخلاف المؤيد هذا، فإنه

ولي السلطنة وهو يقول في نفسه إنه يدبر مع مملكة مصر ممالك العجم زيادة على تدبير مصر. قلت: وكان كما زعم؛ فإنه تقدم أنه كان عارفاً عاقلاً مباشراً، حسن التدبير، عظيم التنفيذ شهماً، وكان هو المتصرف في الأمور أيام أبيه في غالب الولايات والعزل وأمور المملكة، فلما تسلطن ظن كل أحد أن لا سبيل في دخول المكيدة على مثل هذا، لمعرفة الناس بحذقه وفطنته. وكان مع هذه الأوصاف مليح الشكل، وعنده تؤدة في كلامه، وعقل وسكوت خارج عن الحد، يؤديه ذلك إلى التكبر، وهذا كان أعظم الأسباب لنفور خواطر الناس عنه؛ فإنه كان في أيام سلطنته لا يتكلم مع أحد حتى ولا أكابر الأمراء إلا نادراً، ولأمر من الأمور الضروريات، وفعل ذلك مع الكبير والصغير، وما كفى هذا حتى صار يبلغ الأمراء أنه في خلوته يسامر الأطراف الأوباش الذين يستحى من تسميتهم، فعظم ذلك على الناس؛ فلو كان علم الكلام مع الناس قاطبة لهان على من صعب سكاته عليه، من كون الرفيع يكون مبعداً والوضيع مقرباً، فهذا أمر عظيم لا تحمله النفوس إلا غصباً، فلما وقع ذلك وجد من عنده عقد فرصة، وأشاع عنه هذا المعنى وأمثاله، وبشع في العبارة وشنع، وقال هذا وغيره: إنه لا يلتفت إلى المماليك ويزدريهم، وهو مستعز بمماليك أبيه الأجلاب وأصهاره وحواشيه وخجداشية أبيه وبالمال الذي خلفه أبوه، ومنهم من قال أيضاً: إنما هو مستعز بحسن تدبيره، فإنه قد عبأ لكل سؤال جواباً، ولكل حرب ضرباً. وكان مع هذا قد قمع مباشري الدولة وأبادهم، وضيق عليهم، ودقق في حسابهم كما هو في الخاطر وزيادة، فما أحسن هذا لو كان دام واستمر!! فنفرت قلوب المباشرين أيضاً منه، وحق لهم ذلك، واستمرت هذه الحرمة من يوم تسلطن إلى مجيء يحيى بن جانم نائب الشام إلى القاهرة، ثم إلى أن عين التجريدة إلى البحيرة، فأخذ أمره في إدبار، لعدم مثابرته على سير طريقه الأول من سلطنته، فلو جسر لكسر، لكنه هاب فخاب، ولكل أجل كتاب ولنعد إلى ذكر ما كنا بصدده: فلما تكامل الجمع في بيت الأمير الكبير خشقدم الناصري المؤيدي، ومتكلم الأشرفية جانبك المشد، وجانبك الظريف الخازندار، ومن معهم من خجداشيتهم الأعيان، ومتكلم الظاهرية الأمير جانبك نائب جدة أحد مقدمي الألوف، وأعيان خجداشيته، مثل: الأمير أزبك من ططخ الظاهري، والأمير بردبك البجمقدار ثاني رأس نوبة جدة، وقد وافقه الأشرفية، وهم يظنون أن الجمع ما هو إلا لسلطنة الأمير جانم الشام، لأنهم كانوا اتفقوا على ذلك حسبما تقدم ذكره؛ وهو أن الظاهرية كانوا إذا شرعوا في الكلام مع الأشرفية في معنى الركوب، يقولون: " بشرط أن لا يكون السلطان منا ولا منكم "، وإنما يكون من غير الطائفتين، فيقع بذلك الخلف بينهم، ويتفرقون بغير طائل، إلى أن استرابت الظاهرية من الملك المؤيد أحمد هذا، وعظم تخوفهم منه، فوافقوهم على سلطنة جانم لما جاء

ولده يحيى كما تقدم ذكره. ثم وقع هذا الأمر بغتة، وعلم جانبك نائب جدة أن الأمر خرج عن جانم لغيابه، ولابد من سلطنة غيره لأن الأمير ما فيه مهلة، فلم يبد للأشرفية شيئاً من ذلك، وأخذ فيما هو بصدده إلى أن يتم الأمر لغير جانم، ثم يفعل له ما بدا له؛ وكذا وقع حسبما يأتي ذكره في مجيء جانم، وفي سلطنة الملك الظاهر خشقدم. هذا وقد جلس جميع الأمراء بمقعد الأمير الكبير خشقدم. فعندما تكامل جلوسهم قام الأمير جانبك نائب جدة إلى مكان بالبيت المذكور، ومعه الأمير جانبك الأشرفي المشد، والأمير جانبك الأشرفي الظريف الخازندار، والأمير أزبك من ططخ الظاهري، والأمير بردبك البجمقدار الظاهري، وجماعة أخر من أعيان الطائفتين، وتكلموا فيمن يولونه السلطنة وغرض جانبك نائب جدة في سلطنة الأتابك خشقدم، لا في سلطنة جانم نائب الشام، غير أنه لا يسعه الآن إظهار ما ضميره، خوفاً من نفرة الأشرفية وقال لهم ما معناه: " نحن قد كتبنا للأمير جانم بالحضور، وبايعناه بالسلطنة، وأنتم تعلمون ذلك عن يقين، وقد دهمنا هذا الأمر على حين غفلة، فما تكون الحيلة في ذلك، ولابد من قتال الملك المؤيد في يومنا، والسلطان ما يقاتل إلا بسلطان مثله، ومتى تهاونا في ذلك ذهبت أرواحنا ". فعلم كل أحد ممن حضر أن كلام جانبك نائب جدة صواب، وطاوعه كل من حضر على مقالته هذه، فلما وقع ذلك أجمع رأي الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء. ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان، فدار الكلام بينهم في هذا المعنى، إلى أن قال بعضهم: " سلطنوا الأمير جرباش المحمدي الناصري أمير سلاح "، فلم تحسن هذه المقالة ببال الأمير جانبك، ولم يقدر على منعه تصريحاً وقال: " جرباش أهل لذلك بلا مدافعة، غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره يعني بالأمير جانم تلويحاً لأنه رجل عظيم، ومن الجنس، وصهر خجداشنا بردبك البجمقدار، وصهر خجداشكم خير بك البهلوان الأشرفي وغيره، وقد قارب مجيء الأمير جانم من الشام، والأمر إليكم، ما شئتم افعلوا ". فكان هذا كله إبعاداً لجرباش المذكور، وأخذاً بخواطر الأشرفية، فمال كل أحد إلى كلامه، ثم قال جانبك: " الرأي عندي سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدي، فإنه من غير الجنس يعني كونه رومي الجنس وأيضاً إنه رجل غريب ليس له شوكة، ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك، وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب ". فأعجب الجميع هذا الكلام، وهم لا يعلمون مقصوده ولا غرضه؛ فإن جل قصد جانبك كان سلطنة خشقدم، فإنه مؤيدي، وخجداشيته جماعة يسيرة، وأيضاً يستريح من جانم نائب الشام وتحكم أعدائه الأشرفية فيه وفي خجداشيته الظاهرية، ويعلم أيضاً أنه متى تم سلطنة الأتابك خشقدم، وأقام أياماً، عسر خلعه، وبعدت السلطنة عن جانم وغيره، فدبر هذه المكيدة على الأشرفية، فمشت عليهم أولاً، إلى أن ملكوا

القلعة، وخلع الملك المؤيد بسرعة فتنبهوا لها. وكانت الأشرفية لما سمعوا كلام جانبك، وقالوا: " نعم نرضى بالأمير الكبير " كان في ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيد أياماً كثيرة، كما وقع في نوبة المنصور عثمان، ويأتيهم جانم وهم في أشد القتال، فلا يعدلون عنه لخشقدم، فيتم لهم ما قصدوه فاتفقت كل طائفة مع الأخرى في الظاهر، وباطن كل طائفة لواحد، فساعد الدهر الظاهرية، وانهزم الملك المؤيد في يوم واحد حسبما نذكره الآن.

فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفية والظاهرية إلى الأمراء وهم جلوس بمقعد الأمير الكبير خشقدم، والجميع جلوس بين يدي خشقدم، فافتتح الأمير جانبك نائب جدة الكلام وقال: " نحن يعني الظاهرية والأشرفية نريد رجلاً نسلطنه، يكون لا يميز طائفة على أخرى، بل تكون جميع الطوائف عنده سواء في الأخذ والعطاء، والولاية والعزل، وأن يطلق الأمراء المحبوسين من سائر الطوائف، ويرسم فى سلطنته بمجيء المنفيين من البلاد الشامية وغيرها إلى البلاد المصرية، ويطلق الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي، والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من برجي الإسكندرية، ويسكنا الإسكندرية في أي دار شاءا، ويأذن لهما في الركوب إلى الجامع وغيره بثغر الإسكندرية من غير تحفظ بهما ". وكان كلام الأمير جانبك لجميع الأمراء، لم يخص أحداً منهم بكلام دون غيره، فبادر الأتابك خشقدم بالكلام وقال: " نعم " ثم التفت جانبك إلى الجميع، وقال: " فمن يكون السلطان على هذا الحكم؟ " فبدأ سنقر قرق شبق الأشرفي الزردكاش، وقال ما معناه: " ما نرضى إلا بالأمير جانم نائب الشام، أنتم كتبتم له بالحضور، وأذعنتم بسلطنته، فكيف تسلطنوا غيره؟ فنهره الأمير خيربك من جديد الأشرفي لنفس كان بينهما قديماً، وقال:يلة في ذلك، ولابد من قتال الملك المؤيد في يومنا، والسلطان ما يقاتل إلا بسلطان مثله، ومتى تهاونا في ذلك ذهبت أرواحنا ". فعلم كل أحد ممن حضر أن كلام جانبك نائب جدة صواب، وطاوعه كل من حضر على مقالته هذه، فلما وقع ذلك أجمع رأي الجميع على سلطنة أحد من أعيان الأمراء. ثم تكلموا فيمن يكون هذا السلطان، فدار الكلام بينهم في هذا المعنى، إلى أن قال بعضهم: " سلطنوا الأمير جرباش المحمدي الناصري أمير سلاح "، فلم تحسن هذه المقالة ببال الأمير جانبك، ولم يقدر على منعه تصريحاً وقال: " جرباش أهل لذلك بلا مدافعة، غير أنه متى تسلطن لا يمكنكم صرفه من السلطنة بغيره يعني بالأمير جانم تلويحاً لأنه رجل عظيم، ومن الجنس، وصهر خجداشنا بردبك البجمقدار، وصهر خجداشكم خير بك البهلوان الأشرفي وغيره، وقد قارب مجيء الأمير جانم من الشام، والأمر إليكم، ما شئتم افعلوا ". فكان هذا كله إبعاداً لجرباش المذكور، وأخذاً بخواطر الأشرفية، فمال

كل أحد إلى كلامه، ثم قال جانبك: " الرأي عندي سلطنة الأمير الكبير خشقدم المؤيدي، فإنه من غير الجنس يعني كونه رومي الجنس وأيضاً إنه رجل غريب ليس له شوكة، ومتى أردتم خلعه أمكنكم ذلك، وحصل لكم ما تقصدونه من غير تعب ". فأعجب الجميع هذا الكلام، وهم لا يعلمون مقصوده ولا غرضه؛ فإن جل قصد جانبك كان سلطنة خشقدم، فإنه مؤيدي، وخجداشيته جماعة يسيرة، وأيضاً يستريح من جانم نائب الشام وتحكم أعدائه الأشرفية فيه وفي خجداشيته الظاهرية، ويعلم أيضاً أنه متى تم سلطنة الأتابك خشقدم، وأقام أياماً، عسر خلعه، وبعدت السلطنة عن جانم وغيره، فدبر هذه المكيدة على الأشرفية، فمشت عليهم أولاً، إلى أن ملكوا القلعة، وخلع الملك المؤيد بسرعة فتنبهوا لها.

وكانت الأشرفية لما سمعوا كلام جانبك، وقالوا: " نعم نرضى بالأمير الكبير " كان في ظنهم أن قتالهم يطول مع الملك المؤيد أياماً كثيرة، كما وقع في نوبة المنصور عثمان، ويأتيهم جانم وهم في أشد القتال، فلا يعدلون عنه لخشقدم، فيتم لهم ما قصدوه فاتفقت كل طائفة مع الأخرى في الظاهر، وباطن كل طائفة لواحد، فساعد الدهر الظاهرية، وانهزم الملك المؤيد في يوم واحد حسبما نذكره الآن. فلما وقع هذا الكلام جاءت الطائفتان الأشرفية والظاهرية إلى الأمراء وهم جلوس بمقعد الأمير الكبير خشقدم، والجميع جلوس بين يدي خشقدم، فافتتح الأمير جانبك نائب جدة الكلام وقال: " نحن يعني الظاهرية والأشرفية نريد رجلاً نسلطنه، يكون لا يميز طائفة على أخرى، بل تكون جميع الطوائف عنده سواء في الأخذ والعطاء، والولاية والعزل، وأن يطلق الأمراء المحبوسين من سائر الطوائف، ويرسم فى سلطنته بمجيء المنفيين من البلاد الشامية وغيرها إلى البلاد المصرية، ويطلق الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي، والملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق من برجي الإسكندرية، ويسكنا الإسكندرية في أي دار شاءا، ويأذن لهما في الركوب إلى الجامع وغيره بثغر الإسكندرية من غير تحفظ بهما ". وكان كلام الأمير جانبك لجميع الأمراء، لم يخص أحداً منهم بكلام دون غيره، فبادر الأتابك خشقدم بالكلام وقال: " نعم " ثم التفت جانبك إلى الجميع، وقال: " فمن يكون السلطان على هذا الحكم؟ " فبدأ سنقر قرق شبق الأشرفي الزردكاش، وقال ما معناه: " ما نرضى إلا بالأمير جانم نائب الشام، أنتم كتبتم له بالحضور، وأذعنتم بسلطنته، فكيف تسلطنوا غيره؟ فنهره الأمير خيربك من جديد الأشرفي لنفس كان بينهما قديماً، وقال: " لست بأهل الكلام في مثل هذا المجلس ". فعند ذلك قال الأمير قانم التاجر المؤيدي أحد مقدمي الألوف ما معناه: " يا جماعة إن كنتم كاتبتم الأمير جانم نائب الشام فلا تسلطنوا غيره إلى أن يحضر وسلطنوه، فإنه لا يسعكم من الله أن تسلطنوا غيره الآن

ثم تخلعوه عند حضور جانم، فهذا شيء لا يكون " فلم يسمعوا كلامه، وسمع في الغوغاء قول قائل لا يعرف: " سلطنوا الأمير جرباش! ". فامتنع جرباش من ذلك وقال ما معناه: " إن هذا شيء راجع إلى الأمير الكبير "، وقبل الأرض من وقته. فقام الأمير جانبك الأشرفي الظريف الخازندار وبادر بأن قال: " السلطان الأمير الكبير "، وقبل الأرض. ثم فعل ذلك جميع من حضر من الأمراء، ونودي بالحال بسلطنته بشوارع القاهرة، ثم شرعوا بعد ذلك في قتال الملك المؤيد أحمد هذا.

كل ذلك والملك المؤيد في القلعة في أناس قليلة من مماليكه ومماليك أبيه الأجلاب، ولم يكن عنده من الأمراء أحد غير مملوك والده قراجا الطويل الأعرج، أحد أمراء العشرات، وهو كلا شيء، والأمير آخور الكبير برسباي البجاسي، وليته لا كان عنده، خيربك القصروي نائب قلعة الجبل، وكان أضر عليه من كل أحد حسبما يأتي ذكر فعله.

كل ذلك والملك المؤيد لا يعلم حقيقة ما العزم فيه، غير أنه يعلم باجتماع المماليك والأمراء في بيت الأمير الكبير خشقدم، وأنهم في أمر مريج، غير أنه لا يعرف نص ما هم فيه. وصار الملك المؤيد يسأل عن أحوالهم، وينتظر مجيء أحد من مماليك أبيه إليه، فلم يطلع إليه أحد منهم، بل العجب أن غالبهم كان مع القوم عند الأمير الكبير مساعدة علي ابن أستاذهم، وليتهم كانوا من المقبولين، وإنما كانوا من المذبذبين لا غير. على أن الملك الظاهر خشقدم لما تسلطن أبادهم، وشوش عليهم بالمسك وإخراج أرزاقهم أكثر مما عمله مع الذين كانوا عند المؤيد فلا شلت يداه. وبقي الملك المؤيد كلما فحص عن أمر الفتنة لا يأتيه أحد بخبير شاف، بل صارت الأخبار عنده مضطربة، وآراؤه مفلوكة، وهو في عدم حركة، ويظهر عدم الاكتراث بأمر هذا الجمع، إلى أن تزايد الأمر، وخرج عن الحد، وصار اللعب جداً، فعند ذلك تأهب من كان عنده من المماليك، وقام الملك المؤيد من قاعة الدهيشة، ومضى إلى القصر السلطاني المطل على الرميلة، ثم نزل بمن معه إلى باب السلسلة، وقبل أن يصل إلى الإسطبل جاءه الخبر بأن القوم أخذوا باب السلسلة، وملكوا الإسطبل السلطاني، وأخذوا الأمير برسباي البجاسي الأمير آخور الكبير أسيراً إلى الأمير الكبير خشقدم وكان أخذ باب السلسلة مكيدة من برسباي المذكور. فلما سمعت الأجلاب أخذ باب السلسلة نزل طائفة منهم وصدموا من بها من عساكر الأتابك خشقدم صدمة هزموهم فيها، واستولوا على باب السلسلة ثانياً، وهو بلا أمير آخور.

وجلس السلطان الملك المؤيد بمقعد الإسطبل المطل على الرميلة، وكان عدم نزول المؤيد إلى الإسطبل بسرعة له أسباب، منها: أنه كان مطمئن الخاطر على باب السلسلة، لكون الأمير آخور برسباي ليس هو من غرض أحد من الطائفتين، وأيضاً

كونه صهره زوج بنت أخته من الأمير بردبك الدوادار الثاني، وقد صار بردبك من الممسوكين عند الأتابك خشقدم، وأيضاً أن والده إينال هو الذي رقاه وخوله في النعم، فلم يلتفت برسباي لشيء من ذلك، وأنشد قول من قال: الوافر

لعمـــرك و الأمـــور لهـــا دواع ::: لقد أبعـــدت يـــا عتـــب الفـــرارا

ومنها: أنه صار ينتظر من يأتيه من أصحابه وحواشيه وخجداشية أبيه و مماليكه، فلم يأته أحد منهم. فلما يئس منهم قام من الدهيشة بعد أن جاءه الخبر بأخذ باب السلسلة واسترجاعها بيد مماليك أبيه الأجلاب. ولما جلس بالمقعد و رأى القوم قد تكاثف جمعهم وكثر عددهم، وهو فيما هو فيه من قلة العساكر و المقاتلة، لم يكترث بذلك، وأخذ في الدفع عن نفسه بمن عنده. غير أن الكثرة غلبت الشجاعة، وما ثم شجاعة ولا دربة بمقاومة الحروب، وصار كذلك خذلاناً من الله تعالى: فإنه لم يطلع إليه في هذا اليوم واحد من مماليك أبيه القديمة ولا خجداشيته، وما كان عنده من الأمراء غير قراجا المقدم ذكره، ومن أعيان الخاصكية فارس البكتمري أحد الدوادارية الأجناد، ومقبل دواداره قديماً قبل سلطنته، وهؤلاء الثلاثه كلا شيء، ولولا ذكر أسماء من كان عنده علم خبر ما ذكرت مثل هؤلاء الأصاغر. وكان عنده مع هؤلاء أجلاب أبيه الذين بالأطباق، وهم عدة كبيرة نحو الألف أو دونها بيسير، أو أكثر منها بقليل، وهم الذين اشتراهم والده الأشرف بعد سلطنته من التجار، وأما الذين اشتراهم من تركة الظاهر جقمق و من مماليك ولده الملك المنصور عثمان وعدتهم تزيد على المائتين، وهم أعيان مماليك الأشراف إينال وأصحاب الوظائف والإقطاعات فقد استمالهم الأمير جانبك نائب جدة قبل ذلك، وقال لهم: " أنتم ظاهرية وشراء الأشرف لكم غير صحيح " فمالوا إلى كلامه وإحسانه وعطاياه الخارجة عن الحد في الكرم، وصاروا من حزب الظاهرية. وركبت الجميع معه في هذا اليوم، وقاتلوا ابن أستاذهم أشد قتال، وصاروا هم يوم ذلك أعيان العسكر بالشبيبة والإمكان والكثرة، هذا مع من كان الأتابك خشقدم من الناصرية والمؤيدية والظاهرية والسيفية. فلما رأى الملك المؤيد كثرة هذه العساكر وميل مماليك والده معهم تعجب غاية العجب، وعلم أن ذلك أمر رباني ليس فيه حيلة، وما هو إلا بذنب سلف دعوة مظلوم غفلوا عنها لم يغفل الله عنها، أو للمجازاة، لأن الجزاء من جنس العمل؛ وقد ركب أبوه الملك الأشرف إينال على الملك المنصور عثمان بعا أن تخول في نعم الظاهر جقمق، فإنه هو الذي رقاه وولاه الأتابكية، فغدر به وخلعه من الملك، وتسلطن مكانه، وحبسه إلى أن مات. وأغرب من هذا كله أن الملك المؤيد هذا كان له أيام والده جماعة كبيرة من أعيان الظاهرية والأشرفية والسيفية يصحبونه ويمشون في خدمته، ويتوجهون معه في الرمايات والأسفار، وإحسانه متصل إليهم من الآنعام والمساعدة في الأرزاق

والوظائف، فلم يطلع إليه واحد منهم، وأيضاً فاؤوا الجميع للأتابك خشقدم ومن معه قبل أن يستفحل أمر خشقدم ويضعف أمر المؤيد، فما ذاك إلا عدم موافاة لا غير. وأعجب من هذا أن أصحاب المؤيد ومماليك أبيه الذين تقدم ذكرهم ممن انضاف مع الأتابك خشقدم كانوا يوم الواقعة من الممقوتين لا من المتأهلين، وذل الإبعاد لائح عليهم، وكان يمكنهم تلافي الأمر والطلوع إلى الملك المؤيد ومساعدته، فلم يقع ذلك، فهذا هو السبب لقولي: إن هذا كله مجازاة لفعل والده السابق، وقد ورد في الإسرائيليات: " يقول الرب: يا داود، أنا الرب الودود، أعامل الأبناء بما فعل الجدود ".

ثم التحم القتال بين الطائفتين مناوشة لا مصافقة، غير أن كلا من الطائفتين مصر على قتال الطائفة الأخرى، والملك المؤيد في قلة عظيمة من المقاتلة ممن يعرف مواقع الحرب وليس معه إلا أجلاب، وهذا شيء لم يقع لأحد غيره من السلاطين أولاد السلاطين؛ فإن الناس لم تزل أغراضاً، ووقع ذلك للعزيز مع الملك الظاهر جقمق، فكان عند العزيز جماعة كثيرة من الأمراء والأعيان لا تدخل تحت حصر، وكذلك للمنصور عثمان مع الملك الأشرف إينال، وكان عنده خلائق من أعيان الأمراء، مثل الأمير تنم المؤيدي أمير سلاح، ومثل الأمير قاني باي الجاركسي الأمير آخور الكبير، وغيرهما من أعيان أمراء أبيه، ولا زالت الدنيا بالغرض، فقوم مع هذا، وقوم مع هذا. غير أن الملك المؤيد هذا لم يكن عنده أحد البتة، فانقلب الموضوع في شأنه؛ فإنه كان يمكن الذي وقع له يكون للعزيز والمنصور، فإنهما كانا حديثي سن، والذي وقع لهما أعني العزيز والمنصور كان يكون للمؤيد، لأنه كبير سن، وصاحب عقل وتدبير فسبحان الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. قلت: ولهذا لم تطل وقعة المؤيد هذا، فإنه علم بذلك زوال ملكه، وتركه برسباي البجاسي الأمير آخور، وخيربك القصروي نائب قلعة الجبل، ونزلا إلى الأتابك خشقدم؛ فإن العادة في الحروب إذا كان كل من الطائفتين يقابل الأخرى في القوة والكثرة يقع القتال بين الطائفتين، وكل من الطائفتين يترجى النصرة، إلى أن يؤول النصر لإحدى الطائفتين، وتذهب الأخرى، إلا هذه الوقعة لم يكن عند المؤيد إلا من ذكرناه. وأما عساكر الأتابك خشقدم فانتشرت على مفارق الطرق، فوقف الأمير جانبك الظاهري نائب جدة بجماعة كثيرة من خجداشيته ومماليكه برأس سويقة منعم، وتلقى قتال الملك المؤيد بنفسه وبحواشيه المذكورين، وعظم أمر الأمير الكبير خشقدم به حتى تجاوز الحد، واجتهد جانبك المذكور في حرب المؤيد حتى أباده. وكان الملك المؤيد أولاً يقرب جانبك هذا في ابتداء سلطنته تقريباً هيناً مع عدم التفات إليه ولا إلى غيره، لأنه كان يقول في نفسه: إن ابتداءه كانتهاء أبيه في العظمة، ولما تسلطن أخذ في الأمر

والنهي أولاً بغير حساب عواقب، استعزازاً بكثرة ماله وبحواشيه ومماليك أبيه، فسار في الناس بعدم استمالة خواطرهم، وسار على ذلك مدة أيام، وجعل جانبك هذا في أسوة من سلك معهم هذه الفعلة، فاستشارني جانبك في أن يداخله لعله يرقع عليه أمره، فإنه ما كان حمولاً للذل، وإنما كان طبعه أن يبذل المال الجزيل في القدر اليسير في قيام الحرمة، فأشرت عليه بالمداخلة، فداخله. وكنت أنا قبل ذلك داخلته أياماً، فإذا به جامد نفور بعيد الاستمالة إلا لمن ألفه، وحدثته بما رأيته منه قبل أن أشير عليه بصحبته، فقال ما معناه: إني أنا آخذ الشيء بعزة وتمهل، وهو يدور مع الدهر كيفما دار. ثم اجتمع بي بعد مدة أيام في يوم الجمعة بعد أن صلى معه الجمعة، وقلع ما عليه من قماش الموكب، ودخل إليه في الخلوة بقاعة الدهيشة، ثم خرج من عنده وهو غير منشرح الصدر، وقال لي: " القول ما قلته ". ثم شرعنا فيما نحن في ذكره مجلساً طويلاً، وقمناعلى غير رضاء من الملك المؤيد. ووقع في أثناء ذلك ما ذكرناه من أمر الوقعة والفتنة، ووقوف جانبك ومن معه برأس سويقة منعم، هذا مع ما كان بلغ المؤيد في هذا اليوم وفي أمسه أن القائم بهذا الأمر كله جانبك نائب جدة، وأنه هو أكبر الأسباب في زوال ملكه، وفي اجتماع الناس على الأتابك خشقدم. ثم رأى في هذا اليوم بعينه من قصر القلعة وقوف جانبك على تلك الهيئة، فعلم أن كل ما قيل عنه في أمسه ويومه صحيح، فأخذ عند ذلك يعتذر وكتب كتاباً للأمير جانبك بخطه يعده فيه بأمور، منها: أنه يجعله إن دخل في طاعته أتابك العساكر بالديار المصرية، وأنه لا يخرج عن أوامره، وأنه يكون هو صاحب عقده وحله، ويترقق له، وبسط الكلام في معنى ما ذكرناه أسطراً كثيرة، وهو يكرر السؤال فيه، ويحلف له فيما وعده به ورأيت أنا الكتاب بعيني، وفيه لحن كثير، كأنه كان ما مارس العربية، ولا له إلمام بالمكاتبات، على أنه كان حاذقاً فطناً، غير أن الفضيلة نوع آخر، كما كانت رتبة المقام الناصري محمد ابن الملك الظاهر جقمق رحمهما الله تعالى فلم يرث جانبك لما تضمن هذا الكتاب، ودام على ما هو عليه، ونهر قاصده الحامل لهذا الكتاب، وقال له: " إن عدت إلي مرة أخرى أرسلتك إلى الأمير الكبير ". واستمر على ما هو عليه من الاجتهاد في القتال، وصار أمر الملك المؤيد في إدبار، وعساكر الأتابك خشقدم في نمو وزيادة. هذا والمناوشة بالقتال مستمرة بين الطائفتين، وقد أفطر في هذا اليوم خلائق من شدة الحر، وتعاطي القتال من الطائفتين، وجرح جماعة كثيرة من الفريقين، فلم ينقض النهار حتى آل أمر الملك إلى زوال، وهو مع ذلك ينتظر من يجيء إليه لمساعدته، وهو بين عسى ولعل، وكاتب جماعة من أصحابه ممن كان عند الأتابك خشقدم، فلم يلتفت إليه أحد لتحقق الناس زوال ملكه. وبينما الناس في ذلك و إذا بخيربك القصروي نائب قلعة الجبل ترك باب المدرج،

ونزل إلى الأمير الكبير خشقدم، وصار من حزبه، فعلم كل أحد أنه قد ذهب أمر الملك المؤيد، ولو كان فيه بقية ما نزل نائب القلعة منها وانضاف إلى جهة الأمير الكبير. وبقي باب القلعة بغير ضابط، فأرسل الملك المؤيد في الحال بعض أصحابه وجلس مكان خيربك هذا، فلم يشكر أحد خيربك المذكور على فعلته هذه. كل ذلك وأمر المؤيد في انحطاط فاحش، وصارت العامة تسمعه المكروه من تحت القلعة، لا سيما لما دخل الليل، فإنه بات بالقصر في قلة من الناس إلى الغاية، لأن غالب من كان عنده تركه ونزل إلى تحت، وكانوا في الأصل جمعاً يسيراً، وبات من هو أسفل وقد استفحل أمرهم، وتأهبوا للقتال في غد، وهمتهم قد عظمت من كثرة عددهم، وتكاثف عساكرهم من كل طائفة، حتى من ليس له غرض عند أحد بعينه جاء إلى الأمير الكبير مخافة على رزقه ونفسه، لما علم من قوة شوكة الأمير الكبير وما يؤول أمره إليه. هذا مع حضور الخليفة والقضاة الأربعة عند الأمير الكبير وجميع عيان الدولة من المباشرين وأرباب الوظائف وغيرهم، والملك المؤيد في أناس قليلة جداً. ومضت ليلة الأحد المذكور، والملك المؤيد في أقبح حال. هذا وقد علم ترجي من كان عنده بالقلعة من نصرته، وتقاعد غالب من كان عنده عن القتال، وهم الأجلاب من مماليك أبيه لا غير. فلما أصبح نهار الأحد تاسع عشر شهر رمضان من سنة خمس وستين وثمانمائة ظهر ذلك عليهم، وبردت همتهم، وركضت ريح عزائمهم، وأخذ كل احد من أصحابه في مصلحة نفسه، إما بالإذعان للأمير الكبير خشقدم، أو بالتجهز للهرب والاختفاء. وظهر ذلك للملك المؤيد عياناً، فأراد أن يسلم نفسه، ثم أمسك عن ذلك من وقته. كل ذلك وأصحاب الأمير الكبير لا يعلمون بذلك، فقد أصبحوا في أفحل أمر، وأقوى شوكة، وأكثر عدد، وقد تهيؤوا في هذا اليوم للقتال ومحاصرة قلعة الجبل، زيادة على ما كانوا عليه في أمسه، وفي نفوسهم أن أمر القتال يطول بينهم أياماً. وبينا هم في ذلك ورد عليهم خبر الملك المؤيد مفصلاً، وحكي لهم انحلال برمه وانفلاك أمره، وما هو فيه من أنه أراد غير مرة تسليم نفسه، وزاد الحاكي وأمعن لغرض ما، فقوى بذلك قلوب من هو أسفل، وتشجع كل جبان، فطلب المبارزة كل مول، وتقدم كل من كان خاف هذا من هؤلاء، فكيف أنت بالشجاع المقدام؟!. فعند ذلك اجتمعوا على القتال، وزحفوا على القلعة بقلب رجل واحد، فقاتلهم عساكر الملك المؤيد قتالاً ليس بذاك ساعة هينة. فلما رأى الملك المؤيد أن ذلك لا يفيده إلا شدة وقسوة أمر عساكره ومقاتلته بالكف عن القتال، وقام من وقته وطلع القلعة بخواصه، وأمر أصحابه بالانصراف إلى حيث شاؤوا. ثم دخل هو إلى والدته خوند زينب بنت البدري حسن بن خاص بك، وترك باب السلسلة لمن يأخذه بالتسليم، وتمزقت عساكره في الحال كأنها لم تكن، وزال ملكه في أقل ما يكون، فسبحان من لا يزول

ملكه وبقاؤه الدائم الأبدي. فلما بلغ الأمير الكبير خشقدم الخبر قام من وقته بمن معه من أصحابه وعساكره، وطلع إلى باب السلسلة، واستولى على الاسطبل السلطاني، وملك قلعة الجبل أيضاً في الحال من غير مقاتل ولا مدافع، وأمر الأمير الكبير في الحال بقلع السلاح وآلة الحرب، وسكن الأمر، وخمدت الفتنة كأنها لم تكن. ثم أرسل الأتابك خشقدم في الحال جماعة من أصحابه قبضوا على الملك المؤيد أحمد هذا من الدور السلطانية، فأمسك من غير ممانعة، وسلم نفسه، وأخرج من الدور إلى البحرة من الحوش السلطاني، وحبس هناك بعد أن قئد واحتفظ به. وأمسك أخوه محمد أيضاً، وحبس معه بالبحرة، فخرجت والدتهما خوند زينب المقدم ذكرها معهما، وأقامت عندهما بالبحرة المذكورة، وقد علمت وعلم كل أحد أيضاً بأن الذي وقع لهم من زوال ملكهم في أسرع وقت إنما هو بدعوة مظلوم غفلوا عنها، لم يغفل الله عنها، ولله در القائل: الوافر

أرى الدنيا تقول بملء فيها ::: حذار حذار توبيخي وفتكي
و لا يغرركم مني ابتسام ::: فقولي مضحك، والفعل مبكي

قلت: " على قدر الصعود يكون الهبوط، وكما تدين تدان، وما ربك بظلام للعبيد، والجزاء من جنس العمل ". وكأن لسان حال إسكندرية قبل ذلك يقول: " كل ثان لا بد له من ثالث ". فالأول ممن كان فيها من السلاطين أولاد الملوك: الملك العزيز ابن الملك الأشرف برسباي، وقد خلعه الملك الظاهر جقمق، وتسلطن مكانه، ثم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق، خلعه الملك الأشرف إينال، وتسلطن عوضه، وهو الثاني، فاحتاجت الإسكندرية إلى ثالث، ليجازى كل على فعله، فكان المؤيد هذا، خلعه الملك الظاهر خشقدم، وتسلطن مكانه، واستولى على جميع حواصل الملك المؤيد وذخائره، فلم يجدوا فيها ما كان في ظنهم، فطلبوا منه المال، فذكر أنه أصرف جميع ما كان في خزانة والده في نفقة المماليك السلطانيه لما تسلطن، ولم يبق في الخزانة إلا دون المائة ألف دينار. ثم تتبعوا حواصله وحواشيه بعد ذلك، فأخذوا منهم زيادة على مائة ألف دينار، وبعض متاع، وصيني وقماش. واستمر الملك المؤيد محتفظاً به بالبحرة إلى ما سنذكره. وكانت مدة تحكمه من يوم تسلطن إلى يوم خلع من السلطنة بالملك الظاهر خشقدم أربعة أشهر وستة أيام بغير تحرير، وبتحرير الأوقات والساعات: وخمسة أيام. ولما نكب الملك المؤيد وخلع من السلطنة على هذا الوجه كثر أسف الناس عليه إلى الغاية والنهاية؛ فإنه كان سار في سلطنته سيرة حسنة جميلة، وقمع أهل الفساد وقطاع الطريق بجميع إقليم مصر، وأمنت السبل في أيامه أمناً زائداً، واطمأنت النفوس من تلك المخاوف التي كانت في أيام أبيه، وزالت أفعال الأجلاب بالكلية مما أردعهم في أوائل سلطنته بالآخراق

والوعيد وأبعدهم عنه. ثم سلك الطريق الجميلة في الرعية، فعظم حب الناس له، وانطلقت الألسن له بالدعاء والابتهال سراً وعلانية، وسر بسلطنته كل أحد من الناس، ومالت القلوب إليه، لولا تكبر كان فيه وعدم التفات إلى الأكابر، حسبما تقدم ذكره، وهذا كان أكبر الأسباب لتوغر خواطر الأمراء منه، وإلا فكان أهلاً للسلطنة بلا نزاع. فلو أنه سار مع الأمراء سيرة والده الأشرف من الملق، وأخذ الخواطر مع إرادة الله تعالى، لدامت أيامه مقدار المواهب الإلهية، لأنه كان ملكاً عارفاً سيوساً، فطنا عالي الهمة يقظاً، لولا ما شان سؤدده من التكبر، ومصاحبة الأحداث، ولله در القائل: الطويل

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلــها؟ ::: كفى المرء فخــراً أن تعــد معايبــه

ودام الملك المؤيد هذا بالبجرة من الحوش السلطاني بقلعة الجبل إلى يوم الثلاثاء حادي وعشرين شهر رمضان فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بتوجهه وتوجه أخيه محمد إلى سجن الإسكندرية. فأنزلا في باكر النهار المذكور، وأخرج الملك المؤيد هذا مقيداً، وحمل على فرس، ولم يركب خلفه أحد من الأوجاقية كما هي عادة من يحمل من أعيان الأمراء إلى سجن الإسكندرية فنزهوا مقامه عن ذلك؛ وأنا أقول: لعل أنه ما قصدوا بذلك إجلاله، فإنه ليس في القوم من هو أهل لهذه المعاني. وإنما الملك المنصور عثمان كان لما أنزل من القلعة إلى الإسكندرية على هذه الهيئة لم يركب خلفه أوجاقي، فظن القوم أن العادة لا يركب خلف السلطان أوجاقي، ففعلوا بالمؤيد كذلك. ولقد سمعت هذا المعنى من جماعة من أكابر الجهلة والمشهورين بالمعرفة، فلو قيل له: وأي سلطان أنزل من القلعة بعد خلعه من السلطنة إلى الإسكندرية على هذا الوجه؟ لما كان يسعه أن يقول رأيت ذلك في بلاد الجاركس انتهى.

وحمل أخوه محمد أيضاً على فرس آخر بغير قيد فيما أظن، ونزل أمامه، وبين يديهما مملوك أبيهما قراجا الأشرفي الطويل الأعرج على بغل بقيد، وخلفه أوجاقي على عادة الأمراء بسكين. وأنا أقول: عظم قراجا بهذا النزول مع هؤلاء الملوك في مثل هذا اليوم، والذي أراه أنا أنه كان يتوجه بين يدي هؤلاء ماشياً إلى أن يصل إلى البحر، وإلا فهذا إجلال لقدر هذا الوضيع، وإن كان فيه ما فيه من النكد، ففيه نوع من رفع مقامه. وسار الجميع والعساكر محتفظة بهم، وعلى أكثرهم السلاح وآلة الحرب، وجلست الناس بالحوانيت والطرقات والبيوت لرؤية الملك المؤيد هذا، كما هي عادة العوام وغيرهم من المصريين، وتوجهوا بهم من الصليبة إلى أن اجتازوا بالملك المؤيد وأخيه محمد على تلك الهيئة بدار أخته شقيقته زوجة الأمير يونس الدوادار الكبير، وهو في حياض الموت، لمرض طال به أشهراً تجاه الكبش. فلما وقع بصر

زوجة الأمير يونس على أخويها وهما في تلك الحالة العجيبة المهولة صاحت بأعلى صوتها هي ومن حولها من الجواري والنسوة، فقامت عيطة عظيمة من الصياح واللطم والرؤوس المكشوفة، فحصل للناس من ذلك أمر عظيم من بكاء وخزن وعبرة على ما أصاب هؤلاء من النكبة والهوان بعد الأمن والعز الذي لا مزيد عليه، وما أحسن قول من قال في هذا المعنى: البسيط

جـاد الزمـان بصـفو ثم كـدره ::: هذا بذاك، ولا عتب علـى الـزمن

ودام سيرهم على هذه الصفة إلى أن وصلوا بهم إلى البحر بخط بولاق بساحل النيل، فأنزل الملك المؤيد وأخوه ومعهما قراجا المذكور في مركب واحد، وسافروا من وقتهم على الفور إلى الإسكندرية، وقد كثر تأسف الناس عليهم إلى الغاية، ما خلا المماليك الظاهرية فإنهم فرحوا به لما كان فعل الملك الأشرف إينال بابن أستاذهم الملك المنصور كذلك، فجازوه بما فعلوه الآن مع ابنه الملك المؤيد هذا. قلت: هكذا فعل الدهر، يوم لك ويوم عليك. ودام الملك المؤيد ومن معه مسافراً في البحر إلى ثغر رشيد، فسافروا على البر إلى أن وصلوا إلى الإسكندرية، فسجنوا بها. واستمر الملك المؤيد مسجوناً بقيده إلى أن استهلت سنة ست وستين فرسم السلطان الملك الظاهر خشقدم بكسر قيده فكسر، وتوجهت والدته خوند زينب إليه وسكنت عنده بالثغر ومعها ابنتها زوجة الأمير يونس بعد موته. ثم مرض ولدها محمد في أثناء السنة أياماً كثيرة، ومات بالثغر، ودفن به في ذي الحجة. وقبل موته ماتت ابنته بنت أشهر، ولم يتهم أحد لموته، لأن مرضه كان غير مرض المتهومين. ولما وقع ذلك أرسلت والدته خوند زينب تستأذن السلطان في حمل رمة ولدها محمد المذكور من الإسكندرية إلى القاهرة لتدفنه عند أبيه الأشرف إينال، فأذن لها في ذلك، فحملته بعد أشهر، وجاءت به إلى القاهرة في شهر ربيع الأول من سنة سبع وستين وثمانمائة، ودفن محمد المذكور على أبيه في فسقية واحدة رحمهما الله تعالى والمسلمين. ولم تحضر والدته المذكورة مع رمة ولدها محمد، وإنما قامت عند ولدها الملك المؤيد أحمد بالإسكندرية، لمرض كان حصل للملك المؤيد أبطل بعض أعضائه، ثم عوفي بعد ذلك بمدة. وحضرت بعد ذلك إلى القاهرة بطلب من السلطان بسبب المال، وصادفت وفاة الأمير يونس المؤيدي الدوادار الكبير صهره زوج أخته بعد يوم، ثم تزوجها الأمير كسباي الخشقدمي الدوادار الثاني، فقبل دخولها ماتت معه. وكان عمره وقت سلطنته نيفاً وثلاثين سنة، فإن مولده وأبوه نائب بغزة. وكانت مدة سلطنة الملك المؤيد أحمد على مصر أربعة أشهر وأربعة أيام، مرت أيامه كالدقائق، لسرعتها وحسن أوقاتها، ودام في الإسكندرية، وقد كمل له بها الآن مدة عشر سنين سواء. ولما مات الظاهر خشقدم وتسلطن الملك الظاهر تمربغا الظاهري، ففي أول

يوم رسم بإطلاق الملك المؤيد أحمد من سجن الإسكندرية، ورسم له بأن يسكن في الإسكندرية في أي بيت شاء، وأنه يحضر صلاة الجمعة راكباً، وأرسل إليه خلعة وفرساً بقماش ذهب، فاستمر يركب. ولما تسلطن صهره الملك الأشرف قايتباي زاد في إكرامه، وبقي يسافر، وصاهره على ابنته الأمير يشبك من مهدي الظاهري الدوادار الكبير، ودام. وهذه السنة وهي سنة خمس وستين وثمانمائة هي التي اتفق فيها أن حكم فيها ثلاثة ملوك؛ حكم الملك الأشرف إينال من أولها إلى نصف جمادى الأولى، وحكم ولده الملك المؤيد هذا من نصف جمادى الأولى المذكورة إلى تاسع عشر شهر رمضان فقط، وحكم الملك الظاهر خشقدم من تاسع عشر شهر رضان فقط إلى آخرها. وسنذكر وفيات هذه السنة بتمامها في محلها في أول سنين سلطنة الملك الظاهر خشقدم حسبما اصطلحنا عليه في مصنفنا هذا إن شاء الله تعالى.

* * *

سلطنة الظاهر خشقدم على مصر

هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبد الله الناصري المؤيدي، وهو السلطان الثامن والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والأول من الأورام بعد أن تسلطن من الجراكسة وأولادهم ثلاثة عشر ملكاً، أعني أول دولة الظاهر برقوق وهو القائم بدولة الجراكسة ابتداء. وأما من سلف من ملوك الترك الجراكسة والأورام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى. والذي تحرر منهم من دولة الملك الظاهر برقرق إلى يومنا هذا، فأول الجراكسة برقوق، وأول الأورام خشقدم، هذا وبينهما إحدى وثمانون سنة لا تزيد ولا تنقص يوماً، لأن كلا منهما تسلطن في تاسع عشر شهر رمضان، فذاك أعني برقوقاً في سنة أربع وثمانين وسبعمائة، وخشقدم هذا فى سنة خمس وستين وثمانمائة، تسلطن يوم خلع الملك المؤيد أبو الفتح أحمد ابن السلطان الملك الأشرف إينال الأجرود، في يوم الأحد تاسع عشر شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة بعد الزوال، وهو يوم ملك القلعة من الملك المؤيد أحمد. فلما كان وقت الزوال طلب الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة والأعيان، وقد حضر جميع الأمراء في الإسطبل السلطاني بباب السلسلة بالحراقة، وبويع بالسلطنة. وكال قد بويع بها من بكرة يوم السبت ثامن عشر شهر رمضان قبل قتال الملك المؤيد أحمد حسبما تقدم ذكره في ترجمة الملك المؤيد أحمد، ولقب بالملك الظاهر، وكني بأبي سعيد. ولما تم له الأمر لبس خلعة السلطنة السواد من مبيت الحراقة وركب فرس النوبة، وطلع إلى القصر السلطاني بشعار الملك والأمراء والعساكر مشاة بين يديه، ما خلا الخليفة فإنه راكب معه، وقد حمل القبة والطير على رأسه الأمير جرباش المحمدي الناصري المعروف بكرد أمير سلاح. وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء والعساكر الأرض بين يديه، ودقت البشائر في الوقت، فازدحمت الناس لتهنئته وتقبيل يديه إلى أن انتهى كل أحد. ونودي في الحال بسلطنته في شوارع القاهرة

وفي يوم الأربعاء سادس شهر ربيع الأول وصل إلى القاهرة الأمير ازدمر الإبراهيمي وخجداشه قرقماس، وقد كان مسافراً مع الأمير تنم رصاص المحتسب إلى دمشق، وأخبر أزدمر المذكور أن الأمير جانم نائب الشام خرج منها بمماليكه وحشمه بعد دخول تنم رصاص إلى دمشق ومراسلته، ولم يقدر تنم على مسكه، بل ولا على قتاله؛ وكان خروج جانم من دمشق قبيل العصر من يوم الأحد سادس وعشرين صفر، ولم يكترث بأحد من الناس، وتوجهه إلى جهة حسن بك بن قرايلك. ثم في يوم الجمعة ثاني وعشرين ربيع الأول ركب السلطان من قلعة الجبر ببعض أمرائه وخاصته، ونزل إلى بيت الأمير تنم المستقر في نيابة الشام وسلم عليه؛ وهذا أول نزوله من قلعة الجبل من يوم تسلطن.

سنة سبع وستين وثمانمائة

وجميع نواب البلاد الشامية مقيمون بحلب مخافة هجوم جانم عليها، والسلطان ملازم الفراش. فلما كان أول المحرم دقت البشائر لعافية السلطان ثلاثة أيام. وفي يوم الخميس سادس المحرم خلع السلطان على الأطباء وعلى السقاة وعلى من له عادة. ثم في يوم الأربعاء تاسع عشره وصل أمير الركب الأول الناصري محمد ابن الأتابك جرباش، ودخل أمير حاج المحمل الأمير بردبك من الغد. ومن غريب الاتفاق أني سألت الناصري محمد ابن الأتابك جرباش: " متى بلغكم مرض السلطان؟ " فقال: " في المدينة الشريفة "، فحسبنا الأيام، فكان يوم سمعوا فيه خبر مرضه قبل أن يمرض بيوم أو يومين. وفي يوم الخميس حادي عشر صفر استقر علي بن الأهناسي في وظيفتي الوزر والخاص، ولبس في هذا اليوم وظيفة الخاص عوضاً عن القاضي شرف الدين موسى الأنصاري، والوزر عوضاً عن شرف الدين يحيى بن صنيعة.

وفي يوم الثلاثاء ثالث شهر ربيع الأول أشيع بمجيء الغزاة من قبرس إلى سواحل البلاد الشامية وغيرها بغير إذن السلطان، فغضب السلطان من ذلك غضباً شديداً، ولم يسعه إلا السكات.

ثم في يوم الجمعة سابع وعشرينه وصلت الغزاة من سواحل متعددة.

وفي يوم الجمعة ثالث وعشرينه وصل قاصد صاحب قبرس جاكم، وأخبر أنه أخذ مدينة الماغوصة وقلعتها من يد الفرنج، وأنه سلمها للأمير جانبك الأبلق المقيم بجزيرة قبرس بمن بقي معه من المماليك السلطانية، فأساء جانبك المذكور السيرة في أهل الماغوصة، ومد يده لأخذ الصبيان الحسان من آبائهم أعيان أهل الماغوصة فشق ذلك عليهم، وقالوا: " نحن سلمناكم البلد بالأمان، وقد حلفتم لنا أنكم لا تفعلوا معنا بعد أخذكم المدينة إلا كل خير، وأنتم مسلمون، فما هذا الحال؟ " فلم يلتفت جانبك الأبلق إلى كلامهم، واستمر على ما هو عليه، فأرسل أهل الماغوصة إلى جاكم عرفوه الخبر، فأرسل جاكم إلى جانبك ينهاه عن هذه الفعلة، فضرب جانبك القاصد المذكور، بعد أن أوسعه سباً، فأرسل إليه قاصداً آخر، فضربه جانبك بالنشاب، فركب حاكم إليه من الأفقسية مدينة قبرس، وجاء إليه وكلمه، فلم يلتفت إليه، وخشن عليه الكلام، فكلمه جاكم ثانياً، فضربه بشيء كان في يده، فسقط جاكم مغشياً عليه، فلما رأت الفرنج ذلك مدت أيديها إلى جانبك ومن معه من المسلمين بالسيوف، فقتل جانبك وقتل معه خمسة وعشرون مملوكاً من المماليك السلطانية؛ وهذا معنى ما حكاه يعقوب الفرنجي قاصد جاكم الذي حضر إلى القاهرة رسولاً من عند جاكم والله أعلم. هذا مع اختلاف الروايات في قتل جانبك ورفقته. واستولى جاكم على الماغوصة

على أنه نائب بها عن السلطان، وعلى كل حال صارت الماغوصة بيد جاكم صاحب قبرس. ثم عين السلطان سودون المنصوري الساقي لتوجه قبرس مع يعقوب المذكور، فسافر سودون المذكور، ووقع له أمور ذكرناها في موضعها من تاريخنا " الحوادث ".

* * *

سنة سبعين وثمانمائة

ففي أولها رسم السلطان الظاهر خشقدم بتحويل السنة الخراجية على العادة.

وفي هذه الأيام عين السلطان تجريدة إلى البلاد الحلبية نجدة لشاه بضع بن دلغادر نائب أبلستين، ليعينوه على قتال أخيه شاه سوار بن دلغادر، وفي التجريدة سبعة أمراء من أمراء الألوف، وهم: الأتابك قانم، وتمربغا أمير مجلس، ويلباي الأمير آخور الكبير، وقاني بك المحمودي المؤيدي، وبردبك هجين أمير جاندار، وقايتباي المحمودي الظاهري، وجماعة كبيرة أخر من أمراء الطبلخانات والعشرات يأتي ذكر أسمائهم عند سفرهم إن تم ذلك، ثم بطلت التجريدة بعد أيام. وفي يوم الثلاثاء أول شعبان استقر الكاتب شرف الدين بن كاتب غريب أستاداراً عوضاً عن الأمير زين الدين يحيى الأستادار.

* * *

سنة إحدى وسبعين وثمانمائة

بيوم الأربعاء ويوافقه عشرون مسرى. فيه أوفى النيل ستة عشر ذراعاً وثلاثة أصابع، وفتح الخليج، وخلق المقياس الأتابك قانم بإذن السلطان. وفي يوم الاثنين سادسه أعيد قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة إلى قضاء الحنفية بعد عزل قاضي القضاة برهان الدين إبراهيم بن الدبري.

* * *

سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة

بيوم الأحد ويوافقه تاسع مسرى. ففي يوم السبت سابعه الموافق لخامس عشر مسرى أوفى النيل ستة عشر ذراعاً وسبعة أصابع، ونزل السلطان الملك الظاهر خشقدم، وعدى النيل، وخلق المقياس، وعاد وفتح خليج السد على العادة. وفي يوم الخميس ثاني عشره ورد الخبر من نائب حلب يشبك البجاسي أن شاه سوار نائب أبلستين خرج عن طاعة السلطان، ويريد المشي على البلاد الحلبية، فرسم السلطان في الحال بخروج نائب طرابلس ونائب حماة إلى جهة البلاد الحلبية لمعاونة نائب حلب إن

حصل أمر. ثم عين السلطان تجريدة من مصر إلى جهات البلاد الحلبية إن ألجأت الضرورة إلى سفرهم، والذين عينهم في هذه التجريدة من أمراء الألوف: الأتابك يلباي، وأمير سلاح قرقماس، وأمير مجلس تمربغا، وقاني بك المحمودي، ومغلباي طاز المؤيدي، وذكر أنه تعين عدة كبيرة من أمراء الطبلخانات والعشرات، وألف مملوك من المماليك السلطانية. هذا والسلطان قد بدأ فيه التوعك من يوم عاشوراء، وهذا المرض الذي مات فيه. ثم لهج السلطان بعزل يشبك البجاسي نائب حلب وتولية الأمير مغلباي طاز المؤيدي المقدم ذكره عوضه في نيابة حلب. ثم في يوم الخميس تاسع عشره ورد الخبر بأن إقامة الحاج التي جهزت من القاهرة أخذت عن آخرها، أخذها مبارك شيخ بني عقبة بمن كان معه من العرب، وأنه قتل جماعة ممن كان مع الإقامة المذكورة، منهم جارقطلو السيفي دولات باي أحد أمراء آخورية السلطان، فعظم ذلك على السلطان، وزاد توعكه، وعلى الناس قاطبة، وضر أخذ إقامة الحاج غاية الضرر، وأشرف غالبهم على الموت. كل ذلك والسلطان متوعك بالإسهال، وهو لا ينقطع عن الخروج إلى الحوش، بل يتجلد غاية التجلد، حتى إنه عمل الموكب في هذا اليوم بالقصر لأجل خروج الأمير أزبك، وهذا آخر موكب عمله الملك الظاهر خشقدم بالقصر السلطاني. فلما كان يوم الخميس عاشر صفر أرجف بموته، وأشيع ذلك إشاعة خفيفة في ألسنة العوام. فلما كان يوم الجمعة حادي عشره خرج السلطان الملك الظاهر خشقدم إلى صلاة الجمعة من باب الحريم ماشياً على قدميه من غير مساعدة، وعليه قماش الموكب الفوقاني، والسيف والكلفتاة على العادة، وصلى الجمعة وسنتها قائماً على قدميه، هذا وقد أخذ منه المرض الحد المؤلم، وهو يستعمل التجلد وإظهار القوة، إلى أن فرغت الصلاة، وعاد إلى الحريم ماشياً أيضاً، ولكن القاضي الشافعي أسرع في الخطبة والصلاة إلى الغاية حسبما كان أشار إلى السلطان بذلك، بحيث إن الخطبة والصلاة كانت على نحو ثلاث درج رمل وبعض دقائق. فلما عاد السلطان من الصلاة إلى الحريم سقط مغشياً عليه لشدة ما ناله من التعب وعظم التجلد. وهذه أيضاً آخر جمعة صلاها، ولم يخرج بعدها من باب الحريم لا إلى صلاة ولا إلى غيرها، وصارت الخدمة بعد ذلك في الحريم بقاعة البيسرية. ثم أصبح السلطان في يوم السبت ثاني عشره رسم بالمناداة بشوارع القاهرة بأن أحداً لا يخرج بعد صلاة المغرب من بيته ولا يفتح سوقي دكانه، وهدد من خالف ذلك، فلم يلتفت أحد إلى هذه المناداة؛ وعلم أن المقصود من هذه المناداة عدم خروج المماليك في الليل، وتوجه بعضهم لبعض لإثارة فتنة.

وفي هذه الأيام ورد الخبر من دمشق بأن الأمير بردبك نائب الشام خرج من دمشق بعساكرها في آخر المحرم إلى جهة حلب لمعاونة نائب حلب على قتال شاه سوار. ثم

في يوم الاثنين رابع عشر صفر عمل السلطان الخدمة بقاعة البيسرية من الحريم السلطاني، لضعفه عن الخروج إلى قاعة الدهيشة، وحضرت الأمراء المقدمون وغيرهم الخدمة السلطانية بالبيسرية، ولكن بغير قماش، وعلم السلطان على عدة مناشير ومراسيم دون العشرين علامة، ولكن ظهر عليه المرض، لكنه يتجلد ويقوم لمن دخل إليه من القضاة والعلماء. فلما كان يوم الجمعة ثامن عشره لم يشهد فيه صلاة الجمعة وصلت الأمراء بجامع القلعة على العادة. وبعد أن فرغت الصلاة دخلوا عليه وسلموا عليه، واستوحشوا منه، وجلسوا عنده إلى أن أسقاهم مشروب السكر، وانصرفوا. ثم في آخر يوم الاثنين حادي وعشرينه وجد السلطان في نفسه نشاطاً، فقام وتمشى خطوات، فتباشر الناس بعافيته. كل هذا وهو مستمر في أول النهار وفي آخره يعلم على المناشير والمراسيم، لكن بحسب الحال، تارة كثيراً، وتارة قليلاً. فلما كان يوم الجمعة خامس وعشرينه لم يحضر السلطان فيه الصلاة أيضاً لثقله في المرض، ودخلوا إليه الأمراء بعد صلاة الجمعة، وجلسوا عنده، وفعل معهم كفعله في الجمعة الماضية. واستهل شهر ربيع الأول يوم الخميس والسلطان ملازم للفراش، والناس في أمر مريج من توقف الأحوال، لا سيما أرباب الحوائج الواردون من الأقطار. هذا وجميع نواب البلاد الشامية قد خرجوا من أعمالهم إلى البلاد الحلبية، لقتال شاه سوار بن دلغادر، ما خلا جكم نائب صفد، ونائب غزة قد خرج أيضاً إلى جهة العقبة لقتال مبارك شيخ عرب بني عقبة، فبهذا المقتضى خلا الجو للمفسدين وقطاع الطريق وغيرهم بالدرب الشامي والمصري؛ ومع هذا فالفتن لم تزل قائمة بأسفل مصر الشرقية والغربية، وأيضاً بأعلى مصر، الصعيد الأدنى والأعلى، وتزايد ذلك بطول مرض السلطان. وبينما الناس في ذلك ورد الخبر من يشبك من مهدي الظاهري الكاشف بالصعيد أن يونس بن عمر الهواري خرج عن طاعة السلطان، وقاتل يشبك المذكور، وقتل من عسكره عدة كبيرة، وانكسر يشبك منه بعد أن جرح في بدنه، ثم أنهى يشبك أنه يريد ولاية سليمان بن الهواري عوضاً عن ابن عمه يونس، وأنه يريد نجدة كبيرة من الديار المصرية. فرسم السلطان في الحال بولاية سليمان بن عمر، وتوجه إليه بالخلعة قجماس الظاهري، ورسم السلطان بتعيين تجريدة إلى بلاد الصعيد. فلما كان يوم السبت عين السلطان التجريدة المذكورة إلى بلاد الصعيد، وعليها الأمير قرقماس الجلب الأشرفي أمير سلاح، ويشبك من سلمان شاه الفقيه الدوادار الكبير، ومن أمراء العشرات خمسة نفر: قلمطاي الإسحاقي، وأرغون شاه أستادار الصحبة، ويشبك الإسحاقي، وأيدكي، ويشبك الأشقر، والخمسة أشرفية، وجماعة كبيرة من المماليك السلطانية أشرفية كبار وأشرفية صغار، ونزل الأمير نقيب الجيش إلى المعينين، وأمرهم على لسان السلطان بالسفر من يومهم إلى

الصعيد، فاعتذروا بعدم فراغ حوائجهم، لكون الوقت يوماً واحداً. فلما كان آخر هذا النهار أرجف بموت السلطان، فماجت الناس، وكثر الهرج بشوارع القاهرة، ولبس بعض المماليك آلة الحرب فاستمرت الحركة موجودة في الناس إلى قريب الصباح. وأصبح في يوم الأحد رابع الأول و السلطان في قيد الحياة، غير أنه انحط في المرض انحطاطاً يشعر العارف بموته، ونودي في الحال بالأمان والبيع والشراء، ودقت البشائر بعافية السلطان في باكر النهار وفي آخره أياماً كثيرة، وصار السلطان أمره إلى التلف وهم على ذلك. فلما كان عصر نهار الأحد المذكور نزل الأمير تنبك المعلم الأشرفي الرأس نوبة الثاني إلى الأمير قرقماس أمير سلاح على لسان السلطان وأمره بالخروج إلى السفر من وقته بعد أن ذكر له كلاماً حسناً من السلطان، فخرج قرقماس من وقته، وكذلك يشبك الفقيه الدوادار، وتبعهما من بقي ممن عين إلى السفر، ونزلوا إلى المراكب، ووقفوا بساحل النيل ينتظرون من عين معهم من المماليك السلطانية فلم يأتهم أحد. كل ذلك والسلطان صحيح الذهن والعقل، يفهم الكلام ويحسن الرد، وينفذ غالب الأمور، ويولي ويعزل، والناس لا تصدق ذلك، وأنا أشاهده بالعين. هذا والسلطان يستحث من ندب إلى الصعيد بالسفر في كل يوم. وأصبح السلطان في يوم الاثنين على حاله، وحضر عنده بعض أمراء، وعلم على دون عشرة مناشير ومراسيم، وهو في غاية من شدة المرض. فلما نجزت العلامة استلقى على قفاه، فرأيت وجهه كوجه الأموات. وانفض الناس وخرجوا. فلما كان بعد الظهر طلع إلى السلطان بعض أمراء الألوف والأعيان، وسلم عليه، فشكا إليه السلطان ما أشيع عنه من الموت، ثم قال: " أنا ما أموت حتى أموت خلائق، وأنا أعرف من أشاع هذا عني "، يعني بذلك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار. قلت: قد عرفت الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وأمرهما وما وقع في مرض السلطان من أوله إلى آخره في تاريخنا " الحوادث "، وليس ما نذكر هنا إلا علم خبر لا غير انتهى.

ثم طلع القاضي كاتب السر بعد ظهر يوم الأحد المذكور وأحضر آلة العلامة، فلم يطق السلطان أن يعلم شيئاً، وقيل: إنه علم على أربعة مناشير، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه لم يطق الجلوس إلا بشدة. هذا مع التجلد الذي لا مزيد عليه؛ وكان هذا دأبه من أول مرضه إلى أن مات التجلد وعدم إظهار العجز ولله دره ما كان أجلده. وبات السلطان في تلك الليلة على حاله، والناس في أمره على أقوال كثيرة. هذا وهو يستحث على سفر الأمراء المعينين إلى الصعيد، والقصاد منه ترد إليهم، وهم يعتذرون عن السفر بعدم حضور من عين معهم من المماليك السلطانية، فيأمر بالمناداة بسفرهم، فلم يخرج أحد. فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسه طلع الأمير

الكبير يلباي إلى السلطان ومعه خجداشه قاني بك المحمودي، وجانبك كوهية، والثلاثة أمراء ألوف مؤيدية. فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس، بل استمر على جنبه، لشدة مرضه، وشكا إليهم ما به، فتألموا لذلك ودعوا له. ثم أمر السلطان وهو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد. ثم خلع على يوسف بن فطيس أستادار السلطان بدمشق بمشيخة نابلس. وخرج الناس من عند السلطان، ولم يعلم شيئاً. وهذا أول يوم منع السلطان فيه العلامة من يوم مرض إلى هذا اليوم. وأصبح يوم الخميس ثامنه وقد اشتد به المرض، ويئس الناس منه، وكذلك يوم الجمعة، ولكن عقله واع، ولسانه طلق، وكلامه كلام الأصحاء. مرت الحركة موجودة في الناس إلى قريب الصباح. وأصبح في يوم الأحد رابع الأول و السلطان في قيد الحياة، غير أنه انحط في المرض انحطاطاً يشعر العارف بموته، ونودي في الحال بالأمان والبيع والشراء، ودقت البشائر بعافية السلطان في باكر النهار وفي آخره أياماً كثيرة، وصار السلطان أمره إلى التلف وهم على ذلك. فلما كان عصر نهار الأحد المذكور نزل الأمير تنبك المعلم الأشرفي الرأس نوبة الثاني إلى الأمير قرقماس أمير سلاح على لسان السلطان وأمره بالخروج إلى السفر من وقته بعد أن ذكر له كلاماً حسناً من السلطان، فخرج قرقماس من وقته، وكذلك يشبك الفقيه الدوادار، وتبعهما من بقي ممن عين إلى السفر، ونزلوا إلى المراكب، ووقفوا بساحل النيل ينتظرون من عين معهم من المماليك السلطانية فلم يأتهم أحد. كل ذلك والسلطان صحيح الذهن والعقل، يفهم الكلام ويحسن الرد، وينفذ غالب الأمور، ويولي ويعزل، والناس لا تصدق ذلك، وأنا اشاهده بالعين. هذا والسلطان يستحث من ندب إلى الصعيد بالسفر في كل يوم. وأصبح السلطان في يوم الاثنين على حاله، وحضر عنده بعض أمراء، وعلم على دون عشرة مناشير ومراسيم، وهو في غاية من شدة المرض. فلما نجزت العلامة استلقى على قفاه، فرأيت وجهه كوجه الأموات. وانفض الناس وخرجوا. فلما كان بعد الظهر طلع إلى السلطان بعض أمراء الألوف والأعيان، وسلم عليه، فشكا إليه السلطان ما أشيع عنه من الموت، ثم قال: " أنا ما أموت حتى أموت خلائق، وأنا أعرف من أشاع هذا عني "، يعني بذلك الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار. قلت: قد عرفت الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار وأمرهما وما وقع في مرض السلطان من أوله إلى آخره في تاريخنا " الحوادث "، وليس ما نذكر هنا إلا علم خبر لا غير انتهى.

ثم طلع القاضي كاتب السر بعد ظهر يوم الأحد المذكور وأحضر آلة العلامة، فلم يطق السلطان أن يعلم شيئاً، وقيل: إنه علم على أربعة مناشير، وقيل غير ذلك، وقيل إنه لم يطق الجلوس إلا بشدة. هذا مع التجلد الذي لا مزيد عليه؛ وكان هذا دأبه من

أول مرضه إلى أن مات التجلد وعدم إظهار العجز ولله دره ما كان أجلده. وبات السلطان في تلك الليلة على حاله، والناس في أمره على أقوال كثيرة. هذا وهو يستحث على سفر الأمراء المعينين إلى الصعيد، والقصاد منه ترد إليهم، وهم يعتذرون عن السفر بعدم حضور من عين معهم من المماليك السلطانية، فيأمر بالمناداة بسفرهم، فلم يخرج أحد. فلما كان صبيحة يوم الثلاثاء سادسه طلع الأمير الكبير يلباي إلى السلطان ومعه خجداشه قاني بك المحمودي، وجانبك كوهية، والثلاثة أمراء ألوف مؤيدية. فلما دخلوا على السلطان لم ينهض إليهم للجلوس، بل استمر على جنبه، لشدة مرضه، وشكا إليهم ما به، فتألموا لذلك ودعوا له. ثم أمر السلطان وهو على تلك الحالة أن ينادى بسفر العسكر إلى الصعيد. ثم خلع على يوسف بن فطيس أستادار السلطان بدمشق بمشيخة نابلس. وخرج الناس من عند السلطان، ولم يعلم شيئاً. وهذا أول يوم منع السلطان فيه العلامة من يوم مرض إلى هذا اليوم. وأصبح يوم الخميس ثامنه وقد اشتد به المرض، ويئس الناس منه، وكذلك يوم الجمعة، ولكن عقله واع، ولسانه طلق، وكلامه كلام الأصحاء.

وأصبح يوم السبت عاشر شهر ربيع الأول وهو في السياق. فلما كان ضحوة النهار المذكور حدثت أمور ذكرناها في تاريخنا " الحوادث ". واجتمع الأمراء الأكابر بمقعد الإسطبل السلطاني عند الأمير آخور الكبير، والأمير آخور المذكور حس بلا معنى، ليس له في المجلس إلا الحضور بالجثة، وجلس الأتابك يلباي في صدر المجلس وبإزائه الأمير تمربغا أمير مجلس، وهو متكلم القوم، ولم يحضر قرقماس أمير سلاح لإقامته بساحل النيل كما تقدم. وحضر جماعة من أمراء الألوف، وكبير الظاهرية الخشقدمية يوم ذاك خيربك الدوادار الثاني، وأخذوا في الكلام إلى أن وقع الاتفاق بينهم على سلطنة الأتابك يلباي، ورضي به عظيم الأمراء الظاهرية الكبار الأمير تمربغا أمير مجلس، وكبير الظاهرية الصغار الخشقدمية خيربك الدوادار، وجميع من حضر؛ وكان رضاء الظاهرية الكبار بسلطنة يلباي بخلاف الظن، وكذلك الظاهرية الصغار. ثم تكلم بعضهم بأن القوم يريدون من الأمير الكبير أن يحلف لهم بما يطمئن به قلوبهم وخواطرهم، فتناول المصحف الشريف بيده، وحلف لهم يميناً بما أرادوه، ثم حلف الأمير تمربغا أمير مجلس، وشرح اليمين وكيفيته معروفة، فإنه يمين لتمشية الحال. وأرادوا خيربك أن يحلف، فقال ما معناه: " نحن نخشاكم فحلفناكم، فنحن نحلف على ماذا؟ ". ثم انفض المجلس ونزل الأتابك يلباي إلى داره وبين يديه وجوه الأمراء. ولم يحضر الأمير قايتباي الظاهري معهم عند الاتفاق واكتفى عن الحضور بكبيرهم الأمير تمربغا الظاهري، كل ذلك قبل الظهر بيسير. فلم يكن بعد أذان الظهر إلا بنحو ساعة رمل لا غير ومات السلطان بقاعة البيسرية،

بعد أذان الظهر بدرجات. وفي حال وفاته طلعت جميع الأمراء إلى القلعة، وأخذوا في تجهيز السلطان الملك الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى، وغسلوه وكفنوه، وصلوا عليه بباب القلة من قلعة الجبل، كل ذلك قبل أن تبايع العساكر يلباي المذكور بالسلطنة كما سنذكره في سلطنة الأتابك يلباي. وهذا الذي وقع من تجهيز السلطان وإخراجه قبل أن يتسلطن سلطان بخلاف العادة؛ فإن العادة جرت أنه لا يجهز سلطان إلا بعد أن يتسلطن سلطان غيره، ثم يأخذون بعد ذلك في تجهيزه انتهى.

ولما صلي عليه بباب القلة، وحمل نعشه، وعلى نعشه مرقعة الفقراء، ساروا به إلى أن أنزلوه من باب المدرج، ولم يكن معه كثير خلق، بل جميع من كان معه أمام نعشه، وحوله وخلفه من الأمراء والخاصكية دون العشرين نفراً، والأكثر منهم أجناد؛ فإنه لم ينزل معه أحد من أمراء الألوف كما هي العادة، ولا أحد من المباشرين غير الأمير شرف الدين بن كاتب غريب الأستادار وجماعة من أمراء الطبلخانات والعشرات. وساروا به وقد ازدحمت الناس والعوام حول نعشه، إلى أن أوصلوه إلى تربته ومدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، ودفن بالقبة التي بالمدرسة المذكورة، وحضرت أنا دفنه رحمه الله تعالى. ولم تتأسف الناس عليه يوم موته ذاك التأسف العظيم، لكن تأسفوا عليه بعد ذلك تأسفاً عظيماً لما تسلطن بعده الأتابك يلباي، بل عظم فقده عند سلطنة يلباي على الناس قاطبة. ومات الملك الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى وسنه نحو خمس وستين سنة تخميناً، هكذا أملى علي من لفظه بعد سلطنته. وكان الملك الظاهر رحمه الله تعالى سلطاناً جليلاً عظيماً، عاقلاً مهاباً، عارفاً صبوراً، مدبراً سيوساً، حشماً متجملاً في ملبسه ومركبه وشأنه إلى الغاية، بحيث إنه كان لا يعجبه من البعلبكي الأبيض إلا ما تزيد قيمته على ثلاثين ديناراً، فما بالك بالصوف والسمور وغير ذلك. وكان يقتني من كل شيء أحسنه، وكان مع هذا التأنق لائقاً في شكله وملبسه ومركبه، نشأ على ذلك عمره كله، أعرفه جندياً إلى أن صار سلطاناً، وهو متجمل في ملبسه على ما حكيناه. وكان مليح الشكل للطول أقرب، أعني معتدل القامة، نحيف البدن، أبيض اللون، تعلوه صفرة ذهبية حسنة، كبير اللحية، تضرب إلى شقرة، قد شاب أكثرها، حسن فيها، وكان رشيق الحركات، خليقاً للملك، عارفاً بأنواع الملاعيب، كالرمح والكرة، وسوق المحمل، له عمر كبير في ذلك أيام شبوبيته، وله مشاركة في غير ذلك من أنواع الملاعيب جيدة. وكان له إلمام ببعض القراءات، ويبحث مع الفقهاء، وله فهم وفوق بحسب الحال. وكان كثير الأدب، ويجل العلماء ويقوم لغالبهم إن قدم أحد منهم عليه، مع حشمة كانت فيه وأدب في كلامه ولفظه.

وكان يتكلم باللغة العربية كلاماً يقارب الفصاحة على عجمة كانت في لسانه قليلة،

وذلك بالنسبة إلى أبناء جنسه. وكان يميل إلى جمع المال ويشره في ذلك من أي وجه كان جمعه، وله في ذلك أعذار كثيرة مقبولة وغير مقبولة. وعظم في أواخر عمره من سلطنته، وضخم وكبرت هيئته في قلوب عساكره ورعيته لبطن صار فيه، وإقدام على المهولات مع دربة ومعرفة فيما يفعله، فإن كان المسيء ممن يتلافى أمره زجره ولقنه حجته بدربة ولباقة، وإن كان ممن لا يخاف عاقبته قاصصه بما يردع به أمثاله، من الضرب المبرح والنفي، وعد ذلك من معايبه. يقول من قال: " القوة على الضعيف ضعف في القوة ". ومن ذلك أيضاً أنه كان في الغالب يقدم على ما يفعله من غير مشورة ولا تأن، ولهذا كانت أموره تنتقض في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان. ومما كان يعاب به عليه إمساكه، وتشويش المماليك الذين كان اشتراهم في سلطنته الأجلاب، مع أنه رحمه الله تعالى كان كثيراً ما ينهاهم عن أفعالهم القبيحة، ويردع بعضهم بالحبس والضرب والنفي وأنواع النكال، وهذا بخلاف من كان قبله من الملوك. وكان له عذر مقبول في إنشائه هذه المماليك الأجلاب، لا ينبغي لي ذكره، يعرفه الحاذق. ومن كل وجه فالمال محبوب على كل حال. وبالجملة إنه كانت محاسنه أضعاف مساوئه، وأيامه غرر أيام، لولا ما شان سؤدده وممالكه، ولله در القائل: الطويل لامه ولفظه. وكان يتكلم باللغة العربية كلاماً يقارب الفصاحة على عجمة كانت في لسانه قليلة، وذلك بالنسبة إلى أبناء جنسه. وكان يميل إلى جمع المال ويشره في ذلك من أي وجه كان جمعه، وله في ذلك أعذار كثيرة مقبولة وغير مقبولة. وعظم في أواخر عمره من سلطنته، وضخم وكبرت هيئته في قلوب عساكره ورعيته لبطن صار فيه، وإقدام على المهولات مع دربة ومعرفة فيما يفعله، فإن كان المسيء ممن يتلافى أمره زجره ولقنه حجته بدربة ولباقة، وإن كان ممن لا يخاف عاقبته قاصصه بما يردع به أمثاله، من الضرب المبرح والنفي، وعد ذلك من معايبه. يقول من قال: " القوة على الضعيف ضعف في القوة ". ومن ذلك أيضاً أنه كان في الغالب يقدم على ما يفعله من غير مشورة ولا تأن، ولهذا كانت أموره تنتقض في بعض الأحيان، بل في كثير من الأحيان. ومما كان يعاب به عليه إمساكه، وتشويش المماليك الذين كان اشتراهم في سلطنته الأجلاب، مع أنه رحمه الله تعالى كان كثيراً ما ينهاهم عن أفعالهم القبيحة، ويردع بعضهم بالحبس والضرب والنفي وأنواع النكال، وهذا بخلاف من كان قبله من الملوك. وكان له عذر مقبول في إنشائه هذه المماليك الأجلاب، لا ينبغي لي ذكره، يعرفه الحاذق. ومن كل وجه فالمال محبوب على كل حال. وبالجملة إنه كانت محاسنه أضعاف مساوئه، وأيامه غرر أيام، لولا ما شان سؤدده وممالكه، ولله در القائل: الطويل

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ::: كفى المرء فخراً أن تعد معايبه

وعلى كل وجه هو من عظماء الملوك وأجلائهم وأخفهم وطأة، مع شدة كانت فيه ولين، وتكبر واتضاع، وبخل وكرم، فمن أصابه شره يلجأ لله، ويجعل أجره على الله تعالى، ومن أمطره خيره ورفده فليترحم عليه، وأنا ممن هو بين النوعين، لم يطرقني شره ولا أمطرني خيره، غير أنه كان معظماً لي، وكلامي عنده مقبول، وحوائجي عنده مقضية، وما قلته فيه فهو على الإنصاف إن شاء الله تعالى وبعد كل شيء، فرحمه الله تعالى، وعفا عنه. وكانت مدة سلطنته على مصر ست سنين وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً بيوم سلطنته انتهى.

* * *

سلطنة الظاهر أبي نصر يلباي الإينالي المؤيدي

وهو السلطان التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم، والرابع عشر من الجراكسة وأولادهم. تسلطن في آخر نهار السبت عاشر شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، قبل الغروب بنحو ثلاث درج رمل. وسبب تأخيره إلى هذا الوقت أنه لما مات الملك الظاهر خشقدم بعد أذان ظهر يوم السبت المقدم ذكره طلع الأتابك يلباي المذكور وجميع الأمراء إلى القلعة، وقبل أن يتكلموا في ولاية سلطان أخذوا في تجهيز الملك الظاهر خشقدم والصلاة عليه، فغسلوه وأخرجوه وصلوا عليه عند باب القلة، ونزلوا به إلى حيث دفن بمدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر، وحضرت أنا دفنه، ولم يحضره من أعيان الأمراء إلا جماعة يسيرة حسبما تقدم ذكره في وفاته؛ وهذا كله بخلاف العادة، فإن العادة سلطنة سلطان، ثم يؤخذ في تجهيز السلطان الذي مات. ولما أنزل نعش الملك الظاهر خشقدم من القلعة شرعوا عند ذلك في سلطنة الأتابك يلباي، وكان قد انبرم أمره في ضحوة نهار السبت هذا مع الأمراء ومماليك الملك الظاهر خشقدم، وكبيرهم يوم ذاك خير بك الدوادار الثاني، وخشكلدي البيسقي أحد مقدمي الألوف. ولما أذعن مماليك الظاهر الأجلاب بسلطنة يلباي لم يختلف عليه يومئذ أحد، لأن الشوكة كانت للأجلاب، وهم أرادوه، والظاهرية الكبار تبع لهم، وأما المؤيدية فخجداشيته، فتم أمره. وكيفية سلطنته أنه لما عادوا من الصلاة على الملك الظاهر خشقدم جلسوا عند باب الستارة وقتاً هيناً، وإذا بالأمير خيربك خرج من باب الحريم ومعه جماعة من خجداشيته وأخذوا الأتابك يلباي وأدخلوه من باب الحريم، ومضوا به إلى القصر السلطاني، وخاطبوه بالسلطنة، فامتنع امتناعاً هيناً، فلم يلتفتوا إلى كلامه، وأرسلوا إلى الأمراء أحضروهم إلى القصر من خارج، فوجدوا القصر قد سقط بابه، فدخلوا من الإيوان إلى القصر، فتفاءل الناس زواله بسرعة، لغلق باب القصر. فدخلت الأمراء قبل أن يحضر الخليفة والقضاة، وطال جلوسهم عنده، وقبلت الأمراء الأرض قبل المبايعة وهم في هرج لإحضار الخليفة والقضاة إلى أن حضروا بعد مشقة كبيرة، لعسر طريق القصر، إذ المصير إليه من الإيوان السلطاني، وأيضاً حتى لبست الأمراء قماش الموكب وتكاملوا بعد أن فرغ النهار. وقد أخذوا في بيعته وسلطنته، ولبسوه خلعة السلطنة بالقصر، وجلس على تخت الملك من غير أن يركب فرساً بأبهة الملك على العادة، وقبلوا الأمراء الأرض بين يديه وتم أمره، فكان جلوسه على كرسي السلطنة قبل الغروب بثلاث درج حسبما تقدم ذكره. وخلع على الأمير تمربغا أمير مجلس بالأتابكية، ثم خلع على الخليفة، فدقت البشائر، ونودي بسلطنته، وتلقب بالملك الظاهر يلباي.

والآن نشرع في التعريف به قبل أن نأخذ فيما وقع له في سلطنته من الحوادث فنقول: أصله جاركسي الجنس، جلبه الأمير إينال ضضع من بلاد الجاركس إلى الديار المصرية في عدة مماليك، فاشتراه الملك المؤيد شيخ قبل سنة عشرين وثمانمائة، وأعتقه وجعله من جملة المماليك السلطانية، وأسكنه بالقلعة بطبقة الرفرف. ثم صار خاصكياً بعد موت أستاذه، ودام على ذلك إلى أن صار من أعيان الخاصكية. وأنعم الأشرف برسباي عليه بثلث قرية طحورية من الشرقية، ثم نقله الملك العزيز يوسف ابن السلطان الملك الأشرف برسباي إلى نصف بنها العسل بعد أيتمش المؤيدي. ثم صار ساقياً في أوائل دولة الملك الظاهر جقمق، فلم تطل أيامه في السقاية، وأمره عشرة وجعله من جملة رؤوس النوب، فدام على ذلك إلى أن تسحب الملك العزيز يوسف ابن الملك الأشرف برسباي من قلعة الجبل واختفى إلى أن ظفر به يلباي هذا في بعض الأماكن، وطلع به إلى الملك الظاهر جقمق، فأنعم عليه الملك الظاهر جقمق بقرية سرياقوس زيادة على ما بيده، وصار أمير طبلخاناه. ودام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور عثمان ابن السلطان الملك الظاهر جقمق، فقبض على يلباي هذا وعلى اثنين من خجداشيته: دولات باي الدوادار الكبير ويرشباي الأمير آخور الثاني، وذلك في سنة سبع وخمسين، وحبس بثغر الإسكندرية إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال من سجن الإسكندرية، وأطلق خجداشيته المذكورين، ووجهه إلى دمياط بطالاً ثم أحضره إلى القاهرة بعد أيام قليلة، فاستمر بطالاً مدة يسيرة.

ثم في يوم الخميس تاسع وعشرين شهر ربيع الأول لبس إينال الأشقر خلعة السفر. ثم في يوم السبت ثاني شهر ربيع الآخر ابتدأ السلطان بالنفقة على المماليك السلطانية لكل واحد مائة دينار، ففرقت هذه النفقة على أقبح وجه؛ وهو أن القوي يعطى، والغائب يقطع، والمسن يعطى نصف نفقة أو ربع نفقة، ومنع أولاد الناس والطواشية من الأخذ، وعاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر يلباي هذا الحادث، وكثر الدعاء عليه بسبب ذلك، وتفاءل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس، فكان كذلك. ومنع السلطان أيضاً أمراء الألوف وغيرهم من النفقة، ولم يعط إلا من كتب منهم إلى السفر لا غير، فبهذا المقتضى وأمثاله نفرت القلوب من الظاهر يلباي، وعظمت الوقيعة في حقه، وكثرت المقالة في بخله، وعدت مساوئه، ونسيت محاسنه إن كان له محاسن وصارت النفقة تفرق في كل يوم سبت وثلاثاء طبقة واحدة أو أقل من طبقة، حتى تطول الأيام في التفرقة. وبالجملة فكانت أيام الملك الظاهر يلباي نكدة، قليلة الخير، كثيرة الشر، وعظم الغلاء في أيامه، وتزايدت الأسعار، وهو مع ذلك لا يأتي بشيء، وجوده في الملك وعدمه سواء؛ فإنه كان سالبة كلية، لا يعرف القراءة ولا الهجاء، ولا يحسن العلامة على المناشير والمراسم إلا بالنقط، مع عسر في الكتابة.

وكان الناس قد أهمهم أمر الجلبان أيام أستاذهم الملك الظاهر خشقدم، فزادوا بسلطنة الملك الظاهر يلباي هذا هماً على همهم.

ولما كان عصر يوم الأربعاء رابع جمادى الأولى المقدم ذكره، وطلعت الأمراء الألوف إلى القلعة ليبيتوا بالقصر على العادة، امتنعت المؤيدية عن الطلوع بمن وافقهم ما خلا الأمير جانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أمير مجلس، وهو كبير الأشرفية الكبار يومئذ، فإنه طلع إلى القلعة ووافق الظاهرية الكبار والظاهرية الصغار الأجلاب. فلما تكامل طلوع من طلع من الأمراء في عصر يوم الأربعاء المذكور امتنع الأمير يشبك الفقيه المؤيدي الدوادار الكبير وخجداشيته.

ومالت زعر الديار المصرية إليهم. وبلغ من بالقلعة أمرهم، فخافوهم خوفا شديداً، ولبسوا هم أيضاً آلة الحرب، ونزلوا بالسلطان الملك الظاهر يلباي إلى مقعد الإسطبل السلطاني المطل على الرميلة، وشرعوا في قتال الأمير يشبك بمن معه في الأزقة والشوارع بالصليبية، وهم لا يعلمون حقيقة أمر يشبك، ولم يقع بين الأجلاب والظاهرية الاتفاق المذكور إلى الآن، فإن الاتفاق بما ذكرناه لم يقع بين الأجلاب والظاهرية بالقلعة إلا في آخر يوم الخميس، وكذلك الاحتراز على السلطان لم يقع إلا في آخر يوم الخميس. وأما أول نهار الخميس ما كانت القلعيون إلا كالحيارى، ولما وقع القتال بين أصحاب يشبك وبين القلعيين تقاعد يشبك عن القتال، ولم يركب بنفسه البتة، بل صار يترقب نزول السلطان إليه، هذا والقتال واقع بين الفريقين بشوارع الصليبية من أول النهار إلى آخره، وقتل بين الفريقين جماعة كثيرة. فلما رأى الناس تقاعد يشبك بنفسه عن القتال ظنوا أن ذلك عجز منه عن مقاومة القلعيين فنفر لذلك عنه خلائق، ووافق ذلك اتفاق الظاهرية الكبار مع الأجلاب بالقلعة. وأصبح يوم الجمعة سادس جمادى الأولى والقتال عمال بين الفريقين بشارع الصليبية من أول النهار إلى آخره. فلما مالت الأشرفية الكبار إلى القلعيين وفارقت يشبك خارت طباع الأشرفية الصغار ومالوا أيضاً للقلعيين، وكانت القلعيون استمالتهم أيضاً، فما أمسى الليل إلا ويشبك الدوادار بقي وحده مع خجداشيته المؤيدية لا غير. فلما رأى أمره آل إلى ذلك قام من وقته واختفى، وكذلك فعل غالب خجداشيته المؤيدية لا غير. وأما الملك الظاهر يلباي فإنه لما نزل إلى المقعد بالإسطبل السلطاني في باكر يوم الخميس، وشرع القتال بين القلعيين وبين يشبك وأصحابه، كان حينئذ إلى ذلك الوقت في عز السلطان، ولم يظهر إلى ذلك الوقت أن الذي فعله يشبك كان صادراً عنه وبتدبيره. فلما فهموا ذلك وأبرموا أمرهم مع الظاهرية الكبار حسبما ذكرناه في أول الكلام، أخذوا في مقته والازدراء به والتلويح له بما يكره، بل ربما صرح له ذلك بعضهم في الوجه. وطال هذا الأمر والحصر عليه يومي الخميس والجمعة وليس له

فيها إلا الجلوس على المدورة، والأتابك تمربغا جالس بين يديه وقد رشح للسلطنة عوضه، وهو يعرف هذا بالقرائن، لأن الذي بقي يطلع إلى القلعة من الطوائف طائعاً يبوس له الأرض ثم يقبل يد الأتابك تمربغا. هذا والأمير قايتباي المحمودي رأس نوبة النوب، والأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس بمن معهم من خجداشيتهم الظاهرية والأشرفية ركاب على خيولهم، لإرسال الأمداد لقتال يشبك الدوادار. فلما جاء الليل ليلة السبت أدخل يلباي إلى مبيت الحراقة، وبات به على هيئة عجيبة، إلى أن أصبح النهار وأخذوه وطلعوا به إلى القصر الأبلق، وحبسوه في المخبأة التي تحت الخرجة، بعد أن طلعوا به ماشياً على هيئة الخلع من السلطنة، وأخذوا الناس في سلطنة الملك الظاهر تمربغا، وزال ملك يلباي هذا كأنه لم يكن، فسبحان من لا يزول ملكه. وكانت مدة ملكه شهرين إلا أربعة أيام، ليس له فيها إلا مجرد الاسم فقط. ولم نعلم أحداً من أكابر ملوك الترك في السن، خاصة من مسه الرق، خلع من السلطنة في أقل من مدة يلباي هذا، وبعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، فإن مدة بيبرس أيضاً كانت سنة تنقص ثلاثة وعشرين يوماً، ثم الملك العادل كتبغا المنصوري كانت مدة سلطنته سنتين وسبعة عشر يوماً، وأما الملك الظاهر برقوق فإنه خلع بعد سلطنته بنحو سبع سنين، ثم أعيد. ومع هذه المدة اليسيرة كانت أيامه، أعني الملك الظاهر يلباي، أشر الأيام وأقبحها. في أيامه زادت الأجلاب في الفساد، وضيقت السبل، وعظم قطع الطرقات على المسافرين مصراً وشاماً. وما برحت الفتنة في أيامه قائمة في الأرياف قبليها وبحريها، وتوقفت أحوال الناس لا سيما الواردين من الأقطار، وزادت الأسعار في جميع المأكولات، وضاعت الحقوق، وظلم الناس بعضهم بعضاً، وصار في أيامه كل مفعول جائزاً، وما ذلك إلا لعدم معرفته، وسوء سيرته، وضعفه عن تدبير الأمور، وبت القضايا وتنفيذ أحوال الدولة، وقلة عقله، فإنه كان في القديم لا يعرف إلا بيلباي تلي، أي يلباي المجنون، فهذه كانت شهرته قديماً وحديثاً في أيام شبيبته، فما بالك به وقد شاخ وكبرسنه، وذهل عقله، وقل نظره وسمعه. وقد حكى الأمير برسباي قرا الخازندار الظاهري أنه، لما أخذه من مخبأة القصر الأبلق وتوجه به إلى البحرة ليحبس بها فاجتاز به من طريق الحريم السلطاني أنه عيي في الطريق وجلس ليستريح، ثم سأل الأمير برسباي المذكور: " إلى أين أروح؟ " فقال له: " إلى البحرة يا مولانا السلطان معزوزاً مكرماً "، فقال: " والله ما أنا سلطان! أنا أمير! وما كنت أفعل بالسلطنة، وقد كبر سني وذهل عقلي، وقل نظري وسمعي؟! بالله سلم على السلطان وقل له إني لست بسلطان، وسله أن يرسلني إلى ثغر دمياط أو موضع آخر غير حبس، فأكون فيه إلى أن أموت وأنا مأمون العاقبة، لأني ما عرفت أدبر المملكة وأنا مولى سلطاناً، فكيف يقع مني ما يكرهه السلطان؟! ". ثم بكى أولى وثانية. قال

برسباي: فشرعت أزيد في تعظيمه، وأسليه، وأعده بكل خير ". والمقصود من هذه الحكاية اعترافه بالعجز عن القيام بأمور المملكة. وبالجملة كانت سلطنته غلطة من غلطات الدهر. ودام الملك الظاهر يلباي بالبحرة إلى ليلة الثلاثاء عاشر جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة، فحمل إلى سجن الإسكندرية في بحر النيل، ومسفره الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري المستقر في نيابة الإسكندرية بعد عزل كسباي المؤيدي وتوجهه إلى دمياط بطالاً. فحبس الملك الظاهر يلباي ببعض أبراج الإسكندرية إلى أن توفي بحبسه من البرج بإسكندرية في ليلة الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة، وقد جاوز السبعين من العمر. وكان ملكاً ضخماً، سليم الباطن، مع قلة معرفته بأمور المملكة، بل بغالب الأمور، أمياً لا يحسن الكتابة ولا القراءة ولا الكلام العرفي إلا بمشقة. وكان في ابتداء أمره يعرف بيلباي تلي أي مجنون. وكان عديم التجمل في ملبسه ومركبه ومماليكه وسماطه، مشهوراً بالبخر والشح. نالته السعادة في ابتداء أمره إلى يوم تسلطن. تنقل في أوائل أمره من منزلة سنية إلى منزلة أخرى إلى يوم تسلطن، فلما تسلطن كان ذلك نهاية سعده. وأخذ أمره من يوم جلس على تخت الملك في إدبار، واعتراه الصمت والسكات، وعجز عن تنفيذ الأمور، وظهر عليه ذلك، بحيث إنه علمه منه كل أحد، وصارت أمور المملكة جميعها معذوقة بالأمير خيربك الدوادار، وصار هو في السلطنة حساً والمعنى خيربك، وكل أمر لا يبته خيربك المذكور فهو موقوف لا يقضى. وعلم منه ذلك كل أحد، ولهجت العوام عنه بقولهم: " أيش كنت أنا؟ قل له "، يعنون بذلك أنه إذا قدمت له مظلمة أو قصة بأمر من الأمور يقول لهم: " قولوا لخيربك " وأشياء من هذا النمط يطول شرحها، ذكرنا غالبها في تاريخنا " الحوادث " مفصلة، كل واقعة في وقتها. وبالجملة إنه كان رجلاً ساكناً غير أهل للسلطنة رحمه الله تعالى، وعفا عنه.

* * *

سلطنة الظاهر أبي سعيد تمربغا الظاهري

وهو السلطان الذي تكمل به عدة أربعين ملكاً من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والثاني من الأورام، إذا لم يكن الملك المعز أيبك التركماني من الروم، والملك المنصور لاجين المنصوري، فإن كانا من الأورام، فيكون الملك الظاهر تمربغا هذا الرابع منهم. وكان وقت سلطنته باكر نهار السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة الموافق لثامن كيهك بعد أن اتفق جميع أكابر الأمراء من سائر الطوائف على سلطنته. وقد جلس بصدر المقعد بالإسطبل السلطاني المعروف بالحراقة، وحضر الخليفة المستنجد بالله أبو المظفر يوسف، والقاضي الشافعي والقاضي الحنفي، وتخلف المالكي لتوعكه، والحنبلي لإبطائه، وحضر غالب أرباب الدولة والأعيان وبايعوه بالسلطنة. فقام من وقته ودخل مبيت الحراقة، ولبس خلعة السلطنة السواد الخليفتي. ثم خرج من المبيت المذكور وركب فرس النوبة من سلم الحراقة بأبهة الملك، وركب الخليفة أمامه، ومشت أكابر الأمراء بين يديه، وجميع العسكر، وحمل السنجق السلطاني على رأسه الأمير قايتباي المحمودي رأس نوبة النوب، ولم تحمل القبة والطير على رأسه؛ فإنهم لم يجدوها في الزردخاناه، وكانت أخذت فيما أخذ يوم الوقعة لما نقل طوخ الزردكاش ما في الزردخاناه، فجعلوا السنجق عوضاً عن القبة والطير. وسار الملك الظاهر تمربغا في موكب السلطنة إلى أن طلع من باب سر القصر السلطاني، وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه، وخلع على قايتباي رأس نوب النوب باستقراره أتابك العساكر عوضاً عن نفسه، ولقب بالملك الظاهر أبي سعيد تمربغا. وهذا ثالث سلطان لقب بالملك الظاهر واحداً بعد واحد لم يكن بينهم أحد، ولم يقع ذلك في دولة من الدول بسائر الأقطار. وأصل الملك الظاهر تمربغا هذا رومي الجنس من قبيلة أرنؤوط، وجلبه بعض التجار في صغره إلى البلاد الشامية في حدود سنة أربع وعشرين وثمانمائة، فاشتراه الأمير شاهين الزردكاش نائب طرابلس كان. ثم نقل إلى ملك غيره إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق وهو يوم ذاك الأمير آخور الكبير، فرباه الملك الظاهر وأدبه وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الخواص به. ودام على ذلك إلى أن تسلطن فقربه وأدناه، وجعله خاصكياً سلاحداراً مدة، ثم جعله خازنداراً. ثم أمره في أواخر سنة ست وأربعين وثمانمائة إمرة عشرة عوضاً عن آقبردي الأمير آخور الأشرفي. واستمر على ذلك مدة طويلة، وهو معدود يوم ذاك من خواص الملك، إلى أن نقله إلى الدوادارية الثانية عوضاً عن دولات باي المحمودي المؤيدي، بحكم انتقاله إلى تقدمة ألف، فباشر تمربغا هذا الدوادارية الثانية بحرمة وعظمة زائدة، ونالته السعادة، وعظم في الدولة، وشاع اسمه في الأقطار، وبعد صيته، وقصدته

أرباب الحوائج من البلاد والأقطار، وصار أمر المملكة معذوقاً به، والدوادار الكبير بالنسبة إليه في الحرمة ونفوذ الكلمة كآحاد الدوادارية الصغار الأجناد.

واستمر على ذلك إلى أن مات الملك الظاهر جقمق رحمه الله تعالى، وتسلطن بعده ولده الملك المنصور عثمان، فصار تمربغا عند ذلك هو مدبر المملكة وصاحب عقدها وحلها، والملك المنصور معه حس في الملك والمعنى هو، لا سيما لما أمسك الملك المنصور الأمير دولات باي الدوادار والأمير يلباي المؤيدي هذا الذي تسلطن، والأمير يرشباي المؤيدي الأمير آخور الثاني. واستقر تمربغا هذا دواداراً كبيراً عوضاً عن دولات باي المذكور وبقي ملك مصر وأموره معذوقاً به، والناس تحت أوامره، فلم تطل أيامه بعد ذلك، ووقعت الفتنة بين الملك المنصور عثمان وبين أتابكه الأشرف إينال، وهي الواقعة التي خلع فيها الملك المنصور عثمان وتسلطن من بعده الأشرف إينال. ودام القتال بين الطائفتين من يوم الاثنين إلى يوم الأحد، أعني سبعة أيام والقتال عمال بين الطائفتين، وكان القائم بحرب إينال بالقلعة هو الملك الظاهر تمربغا مع خجداشيته الظاهرية، والمعول عليه فيها، مع علمي بمن كان عند الملك المنصور غير تمربغا من أكابر الأمراء، مثل تنم من عبد الرزاق أمير سلاح، والأمير قاني باى الجاركسي الأمير آخور الكبير، ومع هذا كله كان أمر القتال وتحصين القلعة والقيام بقتال الأتابك إينال متعلقاً بالملك الظاهر تمربغا هذا. فلما تسلطن إينال وانتصر أمسك الملك الظاهر تمربغا هذا وسجنه بالإسكندرية أشهراً، ثم نقله إلى حبس الصبيبة بالبلاد الشامية، فحبس بالصبيبة أكثر من خمس سنين. وكانت مدة سجنه بالإسكندرية والصبيبة نحو ست ستين، إلى أن أطلقه الملك الأشرف إينال في أواخر سنة اثنتين وستين، وأمره أن يتوجه إلى دمشق ليتجهز بها، ويتوجه مع موسم الحاج الشامي إلى مكة ويقيم بها. فسار إلى مكة وجاور بها سنة ثلاث وستين، وكنت أنا أيضاً مجاوراً بمكة في تلك السنة، فتأكدت الصحبة بيني وبينه بها، ووقعت لنا محاضرات ومجالسات. ودام هو بمكة إلى أن تسلطن الملك الظاهر خشقدم في سنة خمس وستين وثمانمائة، فقدم القاهرة، فأجله الملك الظاهر، وزاد في تعظيمه وأجلسه فوق جماعة كثيرة من أمراء الألوف الأعيان. ثم أنعم عليه في يوم الاثنين سلخ ذي الحجة من سنة خمس وستين وثمانمائة المذكورة بإمرة مائة وتقدمة ألف عوضاً عن جانبك الأشرفي المشد بحكم القبض عليه، وخلع عليه في اليوم المذكور باستقراره رأس نوبة النوب، عوضاً عن بيبرس الأشرفي خال الملك العزيز يوسف، بحكم القبض عليه أيضاً، فدام على ذلك إلى أن أخرج الملك الظاهر خشقدم الأتابك جرباش إلى ثغر دمياط بطالاً، واستقر عوضه في الأتابكية الأمير قانم أمير مجلس، فنقل الملك الظاهر تمربغا إلى إمرة مجلس عوضاً عن قانم المذكور، وذلك في شهر

رمضان سنة تسع وستين وثمانمائة، فدام على إمرة مجلس إلى أن مات الملك الظاهر خشقدم في عاشر شهر ربيع الأول. وتسلطن الملك الظاهر يلباي، فصار الملك الظاهر تمربغا هذا أتابك العساكر عوضاً عن الملك الظاهر يلباي المذكور، فعند ذلك تحقق كل أحد أن الأمر يؤول إليه، فكان كذلك حسبما تقدم ذكره. ولنعد الآن إلى ما وعدنا بذكره من الحوادث: ولما كان يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى أنعم السلطان الملك الظاهر تمربغا على جماعة من الأمراء بعدة وظائف: فاستقر الأمير جانبك قلقسيز أمير مجلس أمير سلاح عوضاً عن قاني بك المحمودي المؤيدي بحكم القبض عليه. واستقر الشهابي أحمد بن العيني الأمير آخور الكبير أمير مجلس عوضاً عن جانبك قلقسيز. واستقر الأمير بردبك هجين الظاهري حاجب الحجاب أمير آخوراً كبيراً عوضا عن ابن العيني.

واستقر الأمير خير بك الظاهري الدوادار الثاني دواداراً كبيراً عوضاً عن يشبك الفقيه بحكم القبض عليه وإخراجه إلى القدس الشريف بطالاً. واستقر الأمير كسباي الظاهري أحد أمراء العشرات دواداراً ثانياً، عوضاً عن خيربك. واستقر الأمير خشكلدي البيسقي رأس نوبة النوب، عوضاً عن الأتابك قايتباي. واستقر الأمير قانصوه اليحياوي الظاهري أحد أمراء العشرات ورأس نوبة في نيابة الإسكندرية عوضاً عن كسباي المؤيدي السمين بحكم عزله وتوجهه إلى دمياط بطالاً، بعد أن أنعم الملك الظاهر على قانصوه المذكور بإمرة طبلخاناه عوضاً عن طوخ الزردكاش، بحكم توجهه إلى دمياط بطالاً. وفي ليلة الثلاثاء عاشره حمل الملك الظاهر يلباي في النيل إلى إسكندرية ليسجن بها، ومسفره قانصوه اليحياوي؛ وقد تقدم ذكر ذلك كله في ترجمة الظاهر يلباي. وفي يوم الثلاثاء عاشره فرقت نفقة المماليك السلطانية، وهي تمام تفرقة يلباي التي كان أنفق غالبها ولم يتم؛ ولم يفرق الملك الظاهر تمربغا نفقة على المماليك السلطانية لقلة الموجود بالخزانة الشريفة. ورسم الملك تمربغا في هذا اليوم بإعطاء أولاد الناس النفقة، الذين هم من جملة المماليك السلطانية، وكان الملك الظاهر يلباي منعهم، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك حتى خلع، وأحوجه الله إلى عشر من أعشارها. فلما أمر الملك الظاهر تمربغا بالنفقة عليهم كثر الدعاء له بذلك. فلم يسلم من واسطة سوء وكلمة الشح مطاعة فتغير بعد ذلك، فقرأ بعض أولاد الناس هذه الآية الشريفة:{ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١] بذل و خشوع وكسر خاطر، فلم يفلح بعدها. ولم يقع للظاهر تمربغا في سلطنته ما يعاب عليه إلا هذه القضية، فما شاء الله كان. قلت: " واعجباه من رجل يملك تخت ملك مصر، ثم تضعف همته من إعطاء مثل هذا

النزر اليسير الذي يعوضه الملك العارف المدبر من أي جهة شاء من الجهات الخفية عن العاري الضعيف التدبير، وتطلق عليه بعدم الإعطاء ألسنة الخاص والعام، وتكثر الشناعة والقالة في حقه بسبب ذلك، ولكن العقول تتفاوت ".

* * *

خلع السلطان الظاهر أبو سعيد تمربغا

ولما دخل الملك الظاهر تمربغا إلى الخرجة المقدم ذكرها وجلس بها سمع بالقصر بعض هرج بخارج القصر، فسأل عن الخبر، فقيل له ما معناه: " الأجلاب بينهم كلام ". فراب السلطان ذلك، فطلب خير بك الدوادار، فدخل عليه، فأخذ السلطان يتكلم معه وهو يتبرم من وجع رجليه على ما زعم. ولم يطل جلوسه عند السلطان، وخرج إلى خارج القصر. فعظم الهرج بالقصر، فأزعج السلطان ذلك، فقام وخرج إلى القصر، فلم يجلس به إلا يسيراً وأشار عليه بعض أصحابه بالدخول إلى الخرجة، فعاد إليها، وطلب الأمير خشكلدي البيسقي رأس نوبة النوب وسأله عن أمر هؤلاء، فذكر أنه لا يعرف ما هم فيه. وقام السلطان وصلى العشاء داخل الخرجة، وهذا بخلاف العادة، وصلى خشكلدي معه. ثم خرج وقد عظم الهرج، وضرب أصحاب خيربك الأمير طرباي المحتسب أحد أصحاب كشباي الدوادار ضرباً مبرحاً أشفى منه على الهلاك، ونالوا من كسباي أيضاً، وضربوه ضرباً ليس بذاك؛ كل ذلك لدفع كسباي وطرباي المكروه عن السلطان. وكان من الاتفاق الغريب أن الجراكسة أصحاب كسباي لم يطلع منهم في تلك الليلة إلا أناس قليلة وطلع من أصحاب خيربك جنس أبزة خلائق باتفاق من خيربك. فلما وقع ذلك تحقق الملك الظاهر تمربغا وقوع شيء، ولم يسعه إلا السكات.

وكان عند السلطان جماعة من خجداشيته الأمراء، والسلطان ومن عنده كالمأسورين في يد الأجلاب. ثم تفرقت الأجلاب إلى الأطباق بقلعة الجبل، ولبسوا آلة الحرب وعادوا إلى القصر بقوة زائدة وأمر كبير، وتوجه بعضهم لإحضار الخليفة، وتوجه بعضهم لنهب الحريم السطاني بداخل الدور. ثم أغلق باب الخرجة من قبل السلطان كأنه مخافة من هجوم بعض الأجلاب عليه. ثم وقعت أمور سمعناها بالزائد والناقص على قدر الروايات، فإننا لم نحضر شيئاً من ذلك، وآل الأمر إلى الدخول على السلطان وإخراج خجداشيته من عنده، ثم أرادوا إخراج من بقي عنده من السقاة، فمنعهم السلطان من ذلك قليلاً، ثم سكت، فأخرجوهم، وبقي السلطان في جماعة يسيرة من مماليكه وغيرهم. ثم بعد ساعة دخل على السلطان ثلاثة أنفار من الجلبان ملبسة وهم ملثمون، وأرادوا منه أن يقوم وينزل إلى المخبأة التي تحت الخرجة، فامتنع قليلاً، ثم قام معهم مخافة من الإخراق. وأخذوه وأنزلوه إلى المخبأة من غير إخراق ولا بهدلة، وأنزلوا فرشاً ومقعداً، ونزل معه بعض مماليكه وبعض الأجلاب أيضاً، وأغلقوا عليه الطابقة. وأخذوا النمجة والدرقة والفوطة ودفعوهم إلى خير بك، بعد أن أطلقوا عليه اسم السلطان، وباس له الأرض جماعة من أعيان الأمراء، وقيل: إنهم لقبوه بالملك العادل، كل ذلك بلا مبايعة ولا إجماع الكلمة على سلطنته، بل بفعل

هذه الأجلاب الأوباش، غير أن خيربك لما أخذ النمجة والدرقة حدثته نفسه بالسلطنة، وقام وأبعد في تدبير أمره وتحصين القلعة. وأما الملك الظاهر تمربغا لم يتم جلوسه بالمخبأة حتى أنزلوا عنده جماعة كبيرة من خجداشيته الأمراء واحداً بعد واحد حتى تكمل عدتهم ثمانية أو تسعة، وهم: الأمير تمر حاجب الحجاب، وبرقوق المشد، وبرسباي قرا الخازندار، وأزبك ناظر الخاص، وتغري بردي ططر نائب القلعة، وقاني باي الساقي، وقاني بك، وقجماس، واثنان آخران. وقعد عندهم جماعة من الأجلاب كما تقدم ذكره. وأما الأمير بردبك هجين الأمير آخور الكبير فإنه بلغه الخبر في أوائل الأمر فلم يكذب ما سمع، ونزل من الإسطبل السلطاني من وقته، وأرسل أعلم الأتابك قايتباي بما وقع. فركب الأتابك في الحال هو وأصحابه وخجداشيته، وقد انضم عليه الأشرفية الكبار والأشرفية الصغار بعد أمور وقعت، فحضر الأتابك قايتباي إلى بيت قوصون الذي سد بابه من تجاه القلعة. فلم يكد جلوس السلطان الملك الظاهر تمربغا بالمخبأة إلا وقد انتشر أصحاب قايتباي بالرملة، ورآهم السلطان الملك الظاهر تمربغا من شباك المخبأة المطل على الرملة في جمع كثير، وذلك قبل نصف الليل، لأن إنزال الملك الظاهر تمربغا إلى المخبأة كان بالتقريب قبل ثلث الليل الأخير، والخبر الذي ورد على الأمير بردبك هجين كان بعد عشاء الآخرة. وأما خيربك الدوادار الكبير فإنه لما أخذ النمجة والدرقة شرع في إصلاح أمره ليتم له ما أراد من ملك مصر، ونزل إلى الإسطبل السلطاني في جمع كبير من خجداشيته الأجلاب، ووقف بداخل باب السلسلة يترقب من يجيء إليه من الرملة. والذي بلغني من غير ثقة أن جماعة من الطوائف المشهورة كانوا وافقوه على أن يفعل ما فعل، وأنهم معه على السراء والضراء وفي كل ما يرومه. فلما طال وقوف خيربك ولم يطلع إليه أحد، علم أنهم خذلوه وغرروا به، فندم حيث لا ينفعه الندم، ولم يسعه إلا إتمام ما فعل. فعاد خيربك إلى القلعة بعد أن أمر الأجلاب أن يصعدوا على سور القلعة ويقاتلوا من بالرملة من أصحاب قايتباي، ففعلوا ذلك، وقاتلوا قتالاً جرح فيه جماعة من الفريقين، وقتل جماعة. وطلع خيربك إلى القصر، وقد علم أن أمره تلاشى وأدبرت سعادته. وبينما هو في ذلك فر عنه غالب أصحابه الكبار مثل خشكلدي ومغلباي وغيرهما، فعند ذلك لم يجد خيربك بداً من الإفراج عن الملك الظاهر تمربغا ومن معه من خجداشيته ومماليكه، فأخرجوهم ونزل خيربك على رجل الملك الظاهر تمربغا يقبلها، ويبكي ويسأله العفو عنه، وقد أبدى من التضرع أنواعاً كثيرة، فقبل السلطان عذره. هذا وقد جلس السلطان الملك الظاهر تمربغا موضع جلوس السلطان على عادته، وأخذ النمجة والدرقة، وقد انهزم غالب الأجلاب، ونزلوا من القلعة لا يلوي أحد منهم على أحد؛ كل ذلك والأتابك قايتباي

بمن معه من الأمراء بالرملة.

فلما تم جلوس الملك الظاهر تمربغا بالقصر على عادته، أمر من كان عنده من أكابر الأمراء بالنزول إلى الأتابك قايتباي لمساعدته؛ والذين أرسلهم هم: الأمير جانبك قلقسيز أمير سلاح، وسودون القصروي، وتنبك المعلم. فهؤلاء الثلاثة وأمثالهم كانوا عند خيربك في وقت مسك الملك الظاهر تمربغا وفي قبضته، وقد أظهروا لة الطاعة إما غصباً على ما زعموا، وإما رضى على ما زعم بعضهم. ثم أرسل السلطان بمن كان عنده ومحبوساً معه مثل الأمير تمر حاجب الحجاب وبرقوق شاد الشراب خاناه وغيرهما. وكان إنزال هؤلاء الأمراء إلى الأتابك قايتباي هفوة من الملك الظاهر تمربغا، فإنه لو لم يكن نزولهم ما كان ينبرم للأتابك قايتباي في غيبتهم أمر. كل ذلك والخلائق تطلع إلى الملك الظاهر تمربغا أفواجاً أفواجاً تهنئه بالنصر وبعوده إلى ملكه، والعساكر وقوف بين يديه. وطلع السيفي تنم الأجرود الظاهري الخاصكي إلى السلطان، فلما رأى خيربك الدوادار واقفاً بين يدي السلطان أراد قتله بالسيف، فمنعه الملك الظاهر من ذلك، ثم أمر بحبسه داخل خزانة الخرجة فحبس بها. ولما تم أمر الأتابك قايتباي من قتال الأجلاب وانتصر، طلع بمن باب السلسلة، وجلس بمقعد الإسطبل. وكان لهج بعضى الأمراء عند طلوع قايتباي إلى الإسطبل بأن قال: " الله ينصر الملك الناصر قايتباي "، وسمع بعض الناس ذلك. ولما جلس الأتابك قايتباي بمقعد الحراقة بتلك العظمة الزائدة كلمه بعض الأمراء في السلطنة، وحسنوا له ذلك، فأخذ يمتنع امتناعاً ليس بذاك، إلى أن قام بعضهم وقبل الأرض له، وفعل غيره كذلك، فامتنع بعد ذلك أيضاً، فقالوا: " ما بقي يفيد الامتناع، وقد قبلنا لك الأرض. فإما تذعن وإما نسلطن غيرك ". فأجاب عند ذلك. فقال بعض الظرفاء: " جلوسه بالمقعد والملك الظاهر تمربغا بالقصر كان ذلك إجابة منه، وإلا لو لم يكن له غرض في ذلك كان طلع إلى القصر عند السلطان دفعة واحدة ".

فلما تم أمر الأتابك قايتباي في السلطنة، طلع الأمير يشبك من مهدي الظاهري الكاشف بالوجه القبلي إلى الملك الظاهر تمربغا، وعرفه بسلطنة قايتناي، وأخذه ودخل به إلى خزانة الخرجة الصغيرة، وقد حبس بها خيربك قبل ذلك كما تقدم.

ولما استقر الملك الظاهر تمربغا بالخزانة المذكورة، كلمه يشبك من مهدي في أنه يتوجه إلى البحرة، أو هو أراد، فقبل أن يقوم من مجلسه تناول يشبك من يده النمجة والدرقة ودفعهما إلى تمراز الأشرفي، فأخذهما تمراز وتوجه إلى الأتابك قايتباي. وقام الملك الظاهر تمربغا وتوجه في الحال إلى البحرة مكرماً مبجلاً، وبين يديه يشبك من مهدي المذكور وغيره، وسار إلى البحرة من داخل الحريم السلطاني وجلس بالبحرة. وتم أمر قايتباي في السلطنة حسبما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

واستمر جلوس الملك الظاهر تمربغا بالبحرة وأصحابه وحواشيه تتردد إليه من غير مانع يمنعهم من ذلك، والملك الأشرف قايتباي يظهر تعظيمه وإكرامه بكل ما تصل قدرته إليه. فلما كان ليلة الأربعاء ثامن شهر رجب المذكور رسم السلطان الملك الأشرف بسفره إلى ثغر دمياط، برغبة الملك الظاهر تمربغا في ذلك. فلما كان بين العشاءين من ليلة الأربعاء خرج الملك الظاهر تمربغا من قاعة البحرة وفي خدمته الخدام وغيرهم، وسار من الحوش السلطاني إلى داخل الحريم، وعرف الملك الأشرف قايتباي وقت خروجه من البحرة، فقام من خرجة القصر مسرعًا في مشيه إلى أن وافى الملك الظاهر تفربغا بدهليز الدور السلطانية عند الشيخ البرديني، فبادره السلطان الملك الأشرف قايتباي بالسلام، فاعتنقه وأهوى إلى يده ليقبلها، فمنعه الملك الظاهر تمربغا من ذلك. ثم أخذ الأشرف في الاعتذار له مما وقع منه، والملك الظاهر يقبل منه عذره، ويظهر له الفرح التام بسلطنته، لأنه خجداشه، وآمن على نفسه في دولته. هذا والملك الأشرف مستمر على إكرامه وتعظيمه إلى غاية ما يكون، ثم تكلم معه سراً في خلوة، لأن السلطان كان حضر معه الأتابك جانبك قلقسيز، ويشبك من مهدي، وتمر حاجب الحجاب، وجماعة أخر من خواص الملكين وخجداشيتهما، وطال الوقوف بينهما ساعة جيدة، ثم تعانقا وتباكيا، وافترقا على أحسن وجه وأجمل حال. ثم نزل الملك الظاهر تمربغا وركب فرساً كعادته من خيله الجياد، بعد أن ودعه أيضاً الأمراء الذين كانوا جاؤوا مع الملك الأشرف. ولما قبل الأمير يشبك من مهدي يد الملك الظاهر تمربغا دفع له ألفي دينار، وقنطاري سكر مكرر، وغير ذلك. وسار الملك الظاهر تمربغا من القلعة إلى ساحل النيل وهو في غاية الحشمة في مسيره من غير أوجاقي يركب خلفه بالسكين، كما هي عادة الأمراء ولا غير ذلك؛ والذين ساروا معه غالبهم كالمودعين له. فلما وصل إلى المركب نزل إليها بعد أو ودعه من كان وصل معه إلى البحر من أعيان خجداشيته الأمراء، وسافر من وقته من غير أن يتوجه معه مسفر من الأمراء ولا غيرهم، بل سار هو بنفسه كما يسافر الشخص إلى جهة تعلقه، وهذا بعد أن رسم له الملك الأشرف بالركوب بثغر دمياط إلى حيث أراد من سائر الجهات براً وبحراً، وأشياء كثيرة من هذه المقولة حتى سير معه السلطان فرساً في المواكب. وسافر الملك الظاهر تمربغا حتى وصل إلى ثغر دمياط ونزلها، وسكن بأحسن دورها ومعه حشمه وخدمه وبعض حرمه.

* * *

سلطنة الأشرف قايتباي المحمودي

وهو السلطان الحادي والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، والخامس عشر من الجراكسة وأولادهم. وأمر سلطنته وكيفيتها أنه لما خلع الملك الظاهر تمربغا وتم أمر قايتباي هذا بالإسطبل السلطاني جلس بمبيت الحراقة من الإسطبل المذكور، وحضر الخليفة والقضاة، وبايعوا الأتابك قايتباي بالسلطنة ولبس خلعة السلطنة السواد الخليفي من مبيت الحراقة، وركب فرس النوبة بقماش ذهب بأبهة الملك، وحمل الأمير جانبك الإينالي الأشرفي المعروف بقلقسيز أمير سلاح السنجق على رأسه، وذلك لفقد القبة والطير من الزردخاناه السلطانية فى واقعة الملك الظاهر يلباي، وسار وجميع العسكر بين يديه إلى أن طلع من باب سر القصر، ودخل إلى القصر الكبير، وجلس على تخت الملك، وقبلت الأمراء الأرض بين يديه على العادة. وتم أمره، ونودي في الحال بسلطنته بشوارع القاهرة، وتلقب بالملك الأشرف، ودقت البشائر، وخلع على الخليفة على العادة، وعلى جانبك قلقسيز أمير سلاح باستقراره أتابك العساكر عوضاً عن نفسه. وكانت العادة أن الأمير الكبير يلبس ليوم خلعة حمل القبة والطير على رأس السلطان، ثم بعد ذلك يلبس خلعة الأتابكية فيما بعد، فالآن اقتصروا على خلعة واحدة، ووفر غيرها. ثم دخلت الناس لتهنئته بالسلطنة أرسالاً إلى أن انتهى ذلك. وكان وقت بيعته بالسلطنة قبل أذان الظهر من يوم الاثنين سادس رجب من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة بثماني عشرة درجة، والساعة للشمس، والطالع الثور والزهرة، وهو أيضاً يوم سادس أمشير لأن الشهر العربي والقبطي توافقا في هذا الشهر والشهر الخارج أيضاً. وفي هذه السنة حكم فيها أربعة سلاطين. وقبل أن نشرع في ذكر حوادثه وأموره نشرع في التعريف به فنقول:

أصل الملك الأشرف قايتباي هذا أنه جاركسي الجنس، جلب من بلاده إلى الديار المصرية في حدود سنة تسع وثلاثين وثمانمائة، فاشتراه الملك الأشرف برسباي، ولم يجر عليه عتقاً، وجعله بطبقة الطازية من أطباق قلعة الجبل إلى أن ملكه الملك الظاهر جقمق، وأعتقه وجعله خاصكياً، ثم دواداراً صغيراً. ثم امتحن بعد خلع ابن أستاذه الملك المنصور عثمان. ثم تراجع أمره عند الملك الأشرف إينال، وصار دواداراً صغيراً كما كان أولاً. ثم

أمره إينال، إمرة عشرة، فدام ذلك إلى أن أنعم عليه الملك الظاهر خشقدم بإمرة طبلخاناه، وجعله شاد الشراب خاناه بعد جانبك الأشرفي المشد، فدام في المشدية أياماً كثيرة. وتوجه إلى تقليد نائب حلب، ثم بعد عوده بمدة أنعم عليه بإمرة مائة وتقدمة ألف بالديار المصرية. فاستمر على ذلك إلى أن جعله الملك الظاهر يلباي رأس نوبة النوب بعد خروج الأمير أزبك الظاهري إلى نيابة الشام، وأنعم عليه بإقطاعه أيضاً. فلم تطل أيام قايتباي هذا فيما ذكرناه، ونقله الملك الظاهر تمربغا إلى الأتابكية عوضاً عن نفسه لما تسلطن، فلم تطل أيامه أيضاً في الأتابكية، وتسلطن حسبما ذكرناه. ولما استقر جلوسه بالقصر، وخلع عليه خلعة السلطنة أمر بحبس الأمير خير بك الدوادار بالركبخاناه، وكذلك الأمير أحمد العيني أمير مجلس، واختفى الأمير خشكلدي البيسقي رأس نوبة النوب، ثم ظهر فرسم بنفيه.

* * *

الفهرس